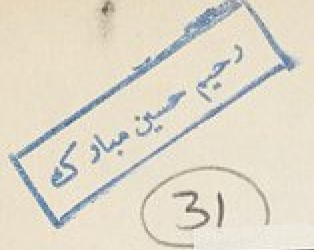



رحیم حسین مبارک


Princeton University Library
32101 048393837

M. Fayd al-Kashi

المحجة البيضاء

في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ١٠٩١ هـ

صححه وعلق عليه علي اكبر الغفاري

الناشر

الجزء السابع

دفتر انتشارات اسلامى

چاپخانه حيدرى

وابسته بجامعه مدرسين حوزه علميه قم

حمداً لك يا من جعل الحمد مفتاحاً لذكره و طريقاً من طرق الاعتراف بوحدانيّته ، و سبباً لمزيد فضله و إنعامه ، و محجّة بيضاء لطالبي فضله و إحسانه .

و صلاة على رسولك الأعظم ، والهادي إلى صراطك الأقوم ، و على آله أئمّة الهدى ، و مصابيح الدّجى .

كتاب التوبة

و هو الكتاب الأوّل من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

نحمد الله الّذي بتحميده يستفتح كلّ كتاب ، و بذكره يصدّر كلّ خطاب ، و بحمده يتنعّم أهل النّعيم في دار الثّواب ، و باسمه يتسلّى الأشقياء و إن أرخى دونهم الحجاب ، و ضرب بينهم و بين السّعداء بسور له باب ، باطنه فيه الرّحمة و ظاهره من قبله العذاب ، ونتوب إليه توبة من يؤمن أنّه ربّ الأرباب ، ومسبّب الأسباب ، ونرجوه رجاء من يعلم أنّه الملك الرّحيم الغفور التوّاب ، ونمزج رجاءنا بالخوف مزج من لا يرتاب ، إنّه مع كونه غافر الذّنب وقابل التّوب شديد العقاب ، ونصلّي على نبيّه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و على آله وصحبه الأكرمين ، صلاة تنقذنا من هول المطّلع يوم العرض والحساب ، وتمهّد لنا عند الله زلفى وحسن مآب .

اما بعد فانّ التوبة عن الذّنوب بالرّجوع إلى ستّار العيوب و علاّم الغيوب مبدء طريق السّالكين ورأس مال الفائزين ، أوّل إقدام المريدين ، و مفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين، ولأبينا آدم عليه السلام وعلى سائر النّبيّين، وماأجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلاغرو إن أذنب الآدميّ واجترم ، فهي شنشنة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه أباه فماظلم ، ولكنّ الأب إذا جبر بعد أن كسر وعمّر بعد أن هدم فليكن النزوع إليه في كلا طرفي النّفي والإثبات والوجود والعدم ، ولقد قلع آدم سنّ الندم ، وتندّم على ماسبق منه وتقدّم ، فمن اتّخذه قدوة في الذّنب دون التّوبة فقد زلّت به القدم ، بل التجرّد لمحض الخير دأب الملائكة المقرّبين ،

والتجرّد للشرّ دون التلافي سجيّة الشياطين ، والرّجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشرّ ضرورة الآدميّين ، فالمتجرّد للخير ملك مقرّب عند الملك الدّيان ، والمتجرّد للشرّ شيطان ، والمتلافي للشرّ بالرّجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان فقد ازدوجت في طينة الإنسان شائبتان و اصطحبت فيه سجيّتان ، و كلّ عبد مصحّح نسبه إمّا إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان على صحّة نسبه إلى آدم بملازمة حدّ الإنسان ، والمصرّ على الطّغيان مسجّل على نفسه بنسب الشّيطان فأمّا تصحيح النّسب بالتّجرّد لمحض الخير إلى الملائكة فخارجٌ عن حيّز الإمكان فإنّ الشرّ معجون مع الخير في طينة آدم عجناً محكماً لا يخلصه إلّا إحدى النارين : نار النّدم أو نار جهنم ، فاحراق النّار ضروريٌ في تلخيص جوهر الإنسان عن خبائث الشيطان و إليك الآن اختيار أهون الشرّين و المبادرة إلى أخفّ النّارين قبل أن يطوى بساط الاختيار و يساق إلى دار الاضطرار ، إمّا إلى الجنّة أو إلى النّار ، و إذا كانت التوبة موقعها من الدّين هذا الموقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات و لنشرح حقيقتها و شرطها و سببها وعلامتها و ثمرتها والآفات المانعة منها والأدوية الميسّرة لها ويتّضح ذلك بذكر أربعة أركان :

الرّكن الأول في نفس التوبة وبيان حدّها وحقيقتها و أنّها واجبة على الفور و على جميع الأشخاص و في جميع الأحوال ، و أنّها إذا صحّت كانت مقبولة .

الرّكن الثّاني فيما عنه التوبة و هو الذّنوب وبيان انقسامها إلى صغائر و كبائر ، وما يتعلّق بالعباد و ما يتعلّق بحقّ الله ، و بيان كيفيّة توزّع الدّرجات و الدركات على الحسنات والسيّئات ، وبيان الأسباب الّتي بها تعظم الصّغائر .

الرّكن الثّالث في بيان شروط التوبة في دوامها و كيفيّة تدارك ما مضى من المظالم ، و كيفيّة تكفير الذّنوب ، وبيان أقسام التائبين في دوام التوبة .

الرّكن الرابع في السبب الباعث على التوبة و كيفيّة العلاج في حلّ عقدة الإصرار من المذنبين ويتمّ المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله تعالى .

الرّكن الأوّل في نفس التوبة :

(بيان حقيقة التوبة و حدها)

إعلم أنّ التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أُمور مرتّبة : علم وحال وفعل ، فالعلم أوّل والحال ثان والفعل ثالث ، والأوّل موجب للثاني والثّاني موجبٌ للثالث إيجاباً اقتضاه اطّراد سنّة الله في الملك والملكوت ، أمّا العلم فهو معرفة عظم ضرر الذّنوب و كونها حجاباً بين العبد وبين كلّ محبوب فإذا عرف ذلك معرفة محقّقة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألّم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإنّ القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألّم ، فإن كان فواته بفعله تأسّف على الفعل المفوت فيسمّى تألّمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة اُخرى تسمّى إرادة و قصداً إلى فعل له تعلّق بالحال و بالماضي والاستقبال ، أمّا تعلّقه بالحال فبالترك للذّنب الّذي كان ملابساً له ، و أمّا بالاستقبال فبالعزم على ترك الذّنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر ، و أمّا بالماضي فبتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر ، فالعلم هو الأوّل و هو مطلع هذه الخيرات ، وأعني بهذا العلم الإيمان و اليقين ، فإنّ الايمان عبارة عن التصديق بأنّ الذّنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكّد هذا التّصديق وانتفاء الشكّ عنه و استيلائه على القلب ، فيثمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نار النّدم فيتألّم به القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنّه صار محجوباً عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس و قد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك فتشتعل نيران الحبّ في قلبه فتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلّق بالترك في الحال والاستقبال و التّلافي للماضي ثلاثة معان مرتّبة في الحصول يطلق اسم التوبة على مجموعها ، و كثيراً مّا يطلق اسم التوبة على معنى النّدم وحده ويجعل العلم كالسابق والمقدّمة و الترك كالثمرة والتابع المتأخّر ، وبهذا الاعتبار قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « النّدم توبة » (١) إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه و أثمره و عن عزم يتبعه و يتلوه

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٢ . والحاكم ج٤ ص٢٤٣ و صحح اسناده .

فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعني ثمرته ومثمره .

(بيان وجوب التوبة وفضلها)

اعلم أنّ وجوب التوبة ظاهر بالأخبار و الآيات [(١)] وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته و شرح الله بنور الإيمان صدره حتّى اقتدر على أن يسعى بنوره الّذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنياً عن قائد يقوده في كلّ خطوة ، فالسالك إمّا أعمى لايستغني عن القائد في كلّ خطوة ، و إمّا بصير يهدى إلى أوّل الطريق ثمّ يهتدي بنفسه ، و كذلك الناس في طريق الدّين ينقسمون هذا الانقسام ، فمن قاصر لايقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كلّ قدم نصّاً من كتاب الله أو سنّة رسوله ، وربّما يعوزه ذلك فيتحيّر ، فسير هذا و إن طال عمره و عظم جدّه مختصر و خطاه قاصرة ، ومن سعيد شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربّه يتنبّه بأدنى إشارة لسلوك طرق معوصة وقطع عقبات متعبة ، فيشرق في قلبه نور القرآن و نور الإيمان وهو لشدّة نور باطنه يجتزيء بأدنى بيان ، و كأنّه يكاد زيته يضيء ولولم تمسسه نار فاذا مسّته نار فهو نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ، فهذا لايحتاج إلى نصّ منقول في كلّ واقعة فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أوّلاً بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثمّ إلى الوجوب مامعناه ، ثمّ يجمع بين معنى الوجوب و التوبة ، فلا يشكّ في ثبوته لها و ذلك بأن يعلم بأنّ معنى الواجب ما هو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد و النجاة من هلاك الأبد ، فانّه لولا تعلّق السعادة و الشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لوصفه بكونه واجباً معنى ، و قول القائل صار واجباً بالإيجاب حديث محض ، فانّ ما لاغرض لنا عاجلاً و آجلاً في فعله و تركه فلامعنى لاشتغالنا به أوجبه علينا غيرنا أولم يوجبه ، فاذا عرف معنى الوجوب وأنّه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أنّه لاسعادة في دار البقاء إلّا

---

(١) راجع الدر المنثور ج ٥ ص ٤٤ ذيل قوله تعالى « توبوا الى الله جميعاً أيها المؤمنون » . وتفسير البرهان ج ٤ ص ٣٥٥ ذيل قوله تعالى « ياايها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً » و الكافي باب التوبة ج ٢ ص ٤٣١ .

في لقاء الله ، و أنّ كلّ محجوب عنه يشقى لامحالة محول بينه وبين ما يشتهيه ، محترق بنار الفراق و نارجهنم ، و علم أنّه لامبعد عن لقاء الله إلّا اتّباع الشهوات و الاُنس بهذا العالم الفاني و الإكباب على حبّ مالابدّ من فراقه قطعاً وعلم أنّه لامقرّب من لقاء الله إلّا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم و الإقبال بالكلّية على الله تعالى طلباً للاُنس به بدوام ذكره و للمحبّة له بمعرفة جلاله و جماله على قدر طاقته و علم أنّ الذّنوب الّتي هي إعراض عن الله تعالى و اتّباع لمحابّ الشياطين أعداء الله المبعدين عن حضرته سبب كونه محجوباً مبعداً عن الله فلا يشكّ في أنّ الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب و إنّما يتمّ الانصراف بالعلم و الندم و العزم ، فإنّه مالم يعلم أنّ الذّنوب أسباب للبعد عن المحبوب لم يتندّم ولم يتوجّع بسبب سلوكه في طريق البعد ومالم يتوجّع فلا يرجع و معنى الرّجوع الترك و العزم فلا يشكّ في أنّ المعاني الثلاثة ضروريّة في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة و أمّا من لم يترشّح لمثل هذا المقام المرتفع ذروته عن حدود أكثر الخلق ففي التقليد والاتّباع له مجالٌ رحب يتوصّل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين ، فقد قال الله تعالى : « و توبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون لعلّكم تفلحون » (١) و هذا أمر على العموم ، و قال تعالى « يا أيها الّذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربّكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم - الآية - » (٢) ومعنى النصوح الخالص لله ، خالياً عن الشوائب ، مأخوذاً من النصح ، و يدلّ على فضل التوبة قوله تعالى : « إنّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين » (٣). وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « التائب حبيب الله . و التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (٤)

---

(١) النور : ٣١ . (٢) التحريم : ٨ . (٣) البقرة : ٢٢٢ .

(٤) أخرج شطره الاول ابن أبى الدنيا فى التوبة و ابوالشيخ فى كتاب الثواب من حديث أنس بسند ضعيف هكذا « ان الله يحب الشاب التائب » كما فى المغنى و شطره الثانى بلفظه أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٠ ، والطبرانى فى الكبير بسند صحيح كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٠.

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دَوِّيَّة (١) مهلكة معه راحلته عليها طعامه و شرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتّى إذا اشتدَّ عليه الحرُّ و العطش أو ماشاء الله قال : أرجع إلى مكاني الّذي كنت فيه فأنام حتّى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده و شرابه ، فالله أشدُّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » (٢) . و في بعض الألفاظ قال من شدَّة فرحه إذا أراد شكر الله « أنا ربّك و أنت عبدي » (٣) .

و يروى أنّه لما تاب الله على آدم عليه السلام هنّئته الملائكة فهبط عليه جبرئيل وميكائيل فقالا : يا آدم قرَّت عينك بتوبة الله عزَّ وجلَّ عليك ، فقال آدم : يا جبرئيل فإن كان بعد هذه التّوبة سؤال فأين مقامي فأوحى الله إليه يا آدم ورَّثت ذرّيتك التعب والنصب و ورّثتهم التوبة فمن دعاني منهم لبّيته كتلبيتك ومن سألني المغفرة لم أبخل عليه لأنّي قريب مجيب ، يا آدم و أحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين و دعاؤهم مستجاب . والأخبار والآثار في ذلك لاتحصى .

أقول : و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه قال :« إنَّ الله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلَّ راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها فالله تعالى أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرَّجل براحلته حين وجدها » (٤) .

وعن الصادق عليه السلام « إنَّ الله يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب كما يفرح أحدكم بضالّته إذا وجدها » (٥) .

وعنه عليه السلام في قوله تعالى « توبوا إلى الله توبة نصوحاً » قال : « هو الذَّنب الّذي

---

(١) - بفتح الدال المهملة وتشديد الواو والياء جميعاً - منسوب الى الدو بتشديد الواو وهى البرية التى لانبات فيها . والداوية هنا على ابدال أحد الواوين ألفا كما قيل فى النسب الى طئ طائى . (قاله السنوسى)

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٢ من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) أخرجه أيضاً مسلم ج ٨ ص ٩٣ من حديث أنس .

(٤) و(٥) المصدر ج ٢ ص ٤٣٥ و٤٣٦ تحت رقم ٨ و١٣ .

لا يعود فيه أبداً . قيل : وأيّنا لم يعد ؟ قال : يا فلان إنّ الله يحبّ من عباده المفتّن التوّاب »[١] . و في رواية اُخرى « و من لايكون ذلك منه كان أفضل »[٢] .

وعنه عليه السلام قال : « إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبّه الله فستر عليه ، قيل : و كيف يستر عليه ؟ قال : ينسي ملكيه ماكانا يكتبان عليه و يوحي الله إلى جوارحه و إلى بقاع الأرض أن اكتمي عليه ذنوبه فيلقى الله تعالى حين يلقاه و ليس شيء يشهد عليه بشيء من الذّنوب »[٣] .

وعن الباقر عليه السلام « التائب من الذّنب كمن لا ذنب له ، والمقيم على الذّنب وهو يستغفر منه كالمستهزىء »[٤] .

و عن بعض أصحابنا رفعه قال : « إنّ الله أعطى التوّابين ثلاث خصال لوأعطي خصلة منها جميع أهل السّماوات و الأرض لنجوابها قوله تعالى « إنّ الله يحبّ التوّابين و يحبّ المتطهّرين »[٥] فمن أحبّه الله لم يعذّبه و قوله : « الّذين يحملون العرش و من حوله يسبّحون بحمد ربّهم و يستغفرون للّذين آمنوا - إلى قوله - ذلك هو الفوز العظيم »[٦] و قوله تعالى : « و الّذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولايقتلون النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ - إلى قوله - وكان الله غفوراً رحيماً »[٧] .

قال أبوحامد : و الاجماع منعقد من الاُمّة على وجوبها إذ معناه العلم بأنّ الذّنوب و المعاصي مهلكات و مبعدات من الله و هذا داخل في وجوب الايمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فمعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولاخلاف في وجوبها و من معانيها ترك المعاصي في الحال و العزم على تركها في الاستقبال و تدارك ماسبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لاشكّ في وجوبه . وأمّا التندّم على ماسبق والتحزّن عليه فواجب وهو روح التّوبة و به تمام التلافي فكيف لايكون واجباً بل هو نوع

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٣٢ تحت رقم ٤ . والمعنى التوبة من الذنب الذي لايعود .
(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٣٥ تحت رقم ٩ .
(٣) و (٤) المصدر ج ٢ ص ٤٣٦ تحت رقم ١٢ و ١٣ .
(٥) البقرة : ٢٢٢ . (٦) المؤمن ٧ الى ١٠ .
(٧) الفرقان : ٦٨ الى ٧٠ .

ألم يحصل لامحالة عقيب حقيقة المعرفة بمافات من العمروضاع في سخط الله ، فإن قلت : تألّم القلب أمرٌ ضروري لايدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب ؟ فاعلم أنّ سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه ، ولمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب ، لابمعنى أنّ العلم يخلقه العبد ويحدثه في نفسه فإنّ ذلك محالٌ بل العلم و الندم والفعل والإرادة و القدرة و القادر ، الكلّ من خلق الله و فعله « فالله خلقكم و ما تعملون » هذا هو الحقّ عند ذوي البصائر و ما سوى هذا ضلال ، فإن قلت : أفليس للعبد اختيار في الفعل و الترك ؟ قلنا : نعم و ذلك لايناقض قولنا إنّ الكلّ من خلق الله بل الاختيار أيضاً من خلق الله و العبد مضطرّ في الاختيار الّذي له فإنّ الله إذا خلق اليد الصحيحة و خلق الطعام اللّذيذ و خلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأنّ هذا الطعام مسكّن للشهوة وخلق الخواطر المتعارضة في أنّ هذا الطعام هل فيه مضرّة مع أنه يسكّن الشهوة و هل دون تناوله مانع يتعذّر معه تناوله أم لا ، ثمّ خلق العلم بأنّه لامانع ، فعنداجتماع هذه الأسباب تنجزم الإرادة الباعثة على التناول فانجزام الإرادة بعد تردّد الخواطر المتعارضة وبعدقوّة الشهوة للطعام يسمّى اختياراً و لابدّ من حصوله عند تمام أسبابه فإذا حصل انجزام الإرادة بخلق الله إيّاها تحرّكت اليدالصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذبعد تمام الإرادة و القدرة يكون حصول الفعل ضروريّاً فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزام الإرادة وهما أيضاًمن خلق الله و انجزام الإرادة يحصل بعدصدق الشهوة و العلم بعدم الموانع ، وهما أيضاً من خلق الله ولكن بعض هذه المخلوقات يترتّب على البعض ترتيباًجرت به سنّة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلاً ، فلايخلق الله حركةاليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمّى قدرة ومالم يخلق فيهاحياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ولايخلق الإرادة المجزومة مالم يخلق شهوة و ميلاً في النفس ، ولاينبعث هذا الميل انبعاثاً تامّاً مالم يخلق علماً بأنّه موافق للنفس إمّا في الحال و إمّا في المآل ولايخلق العلم أيضاً إلّا بأسباب اُخر ترجع إلى حركة و إرادة و علم فالعلم و الميل الطبيعي أبداً يستتبع

الارادة الجازمة والارادة و القدرة أبداً تستردف الحركة و هكذا الترتيب في كلّ فعل والكلّ من اختراعات الله ولكن بعض مخترعاته شرط لبعض فلذلك يجب تقدّم البعض و تأخّر البعض كما لاتخلق الارادة إلّا بعد العلم ولا يخلق العلم إلّا بعد الحياة ولا تخلق الحياة إلّا بعد الجسم ، و يكون خلق الجسم شرطاً لحدوث الحياة لا أنّ الحياة تتولّد من الجسم ، و يكون خلق الحياة شرطاً لخلق العلم لا أنّ العلم يتولّد من الحياة ولكن لايستعدّ المحلّ لقبول العلم إلّا إذاكان حيّاً و يكون خلق العلم شرطاً لجزم الارادة لا أنّ العلم يولد الارادة ، ولكن لايقبل الارادة إلّا جسم حيّ عالم ، ولايدخل في الوجود إلّا ممكن ، وللإمكان ترتيب لايقبل التّغيير لأنّ تغييره محالٌ فمهما وجد شرط الوصف استعدّ المحلّ به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزليّة عند حصول الاستعداد و لمّا كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث المرتبة وهي مرتّبة في قضاء الله الّذي هو واحد كلمح بالبصر ترتيباً كليّاً لا يتغيّر وظهورها بالتفصيل مقدّر بقدر لايتعدّاها وعنه العبارة بقوله تعالى : « إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر »(١) وعن القضاء الكلّي الازلي العبارة بقوله تعالى : « وما أمرنا إلّا واحدة كلمح بالبصر »(٢) وأمّا العباد فهم مسخّرون تحت مجاري القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمّى القدرة وبعد خلق ميل قوي جازم في نفسه يسمّى القصد ، و بعد خلق علم بما إليه ميله يسمّى الإدراك و المعرفة فاذا ظهرت من عالم الملكوت هذه الأُمور الأربعة على جسم عبد مسخّر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحجوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا : ياأيّها الرّجل قد تحرّكت و كتبت ورميت ونودي من وراء حجب الغيب وسرادقات الملكوت « وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى » وماقتلت إذ قتلت ولكن « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم » وعند هذا تتحيّر عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة فمن قائل أنّه جبر محض و من قائل أنّه اختراع صرف و من متوسّط

(١) القمر : ٥٠ . (٢) القمر : ٥١ .

قائل إلى أنّه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب و الملكوت لظهر لهم أنّ كلّ واحد صادق من وجه و أنّ القصور شامل لجميعهم فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الأمر ولم يحط علمه بجوانبه وتمام علمه ينال بإشراق النّور من كوّة نافذة إلى عالم الغيب وأنّه تعالى عالم الغيب والشهادة فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول وقد يطّلع على الشهادة من لم يدخل في حيّز الارتضاء ، ومن حرّك سلسلة الأسباب والمسبّبات وعلم كيفيّة تسلسلها و وجه ارتباط مناط سلسلتها بمسبّب الأسباب انكشف له سرّ القدر وعلم علماً يقينيّاً أن لاخالق إلّاالله ولامبدع سواه .

فإن قلت : قد قضيت على كلّ واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب بأنّه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصرٌ وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إيصال ذلك إلى الأفهام بمثال ؟ .

فاعلم أنّ جماعة من العميان سمعوا أنّه قد حمل إلى البلد حيوان عجيب يسمّى الفيل وما كانوا قد شاهدوا صورته ولا سمعوا اسمه فقالوا : لابدّ لنا من مشاهدته ومعرفته باللّمس الّذي نقدر عليه فطلبوه فلمّا وصلوا إليه لمسوه فوقع يد بعض العميان على رجله و وقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على اُذنه فقالوا قد عرفناه فلمّا انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلف أجوبتهم فقال الّذي لمس الرِّجل : إنّ الفيل ماهو إلّا مثل اُسطوانة خشنة الظاهر إلّا أنّه ألين منها ، وقال الّذي لمس الناب : ليس كما يقول بل هو صلب لالين فيه و أملس لاخشونة فيه ، و ليس في غلظ الأسطوانة أصلاً بل هو مثل عمود . وقال الّذي لمس الاُذن : لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال : ماهو مثل عمود ولا هو مثل اُسطوانة ، وإنّما هو مثل جلد غليظ عريض . فكلّ واحد من هؤلاء صدق من وجه إذ أخبر كلّ واحد عمّا أصابه من معرفة الفيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف الفيل ولكنّهم بجملتهم قصروا عن الإحاطة بكلّ صورة الفيل .

فاستبصر بهذا المثال و اعتبر به فإنّه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه ، وإن كان

هذا كلاماً يناطح [1]علوم المكاشفة ويحرّك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنّا بصدده وهو بيان أنّ التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة : العلم و الندم و الترك و أنّ الندم داخل في الوجوب لكونه واقعاً في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد و إرادته و قدرته المتخلّلة بينها وما هذا وصفه فاسم الوجوب يشمله .

✡(بيان ان وجوب التوبة على الفور)✡

أمّا وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الايمان و هو واجب على الفور و المتفصّي عن وجوبه هو الّذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل فإنّ هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات الّتي لاتتعلّق بعمل بل من علوم المعاملة ، و كلّ علم يراد ليكون باعثاً على عمل فلا يقع التفصّي عن عهدته مالم يصر باعثاً ، فالعلم بضرر الذّنوب إنّما اُريد ليكون باعثاً على تركها فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان ، وهو المراد بقوله عليه السلام « لا يزني الزّاني حين يزني و هو مؤمن » [2] وما أراد به نفي الايمان الّذي يرجع إلى علوم المكاشفة كالعلم بالله ووحدانيّته وصفاته و كتبه و رسله فإنّ ذلك لا ينافي الزّنى والمعاصي و إنّما أراد به نفي الايمان لكون الزنى مبعداً عن الله و موجباً للمقت كما إذا قال الطبيب : هذا سمّ فلاتتناوله فإذا تناوله يقال تناول وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنّه غير مؤمن بوجود الطبيب و كونه طبيباً وغير مصدّق به بل المراد أنّه غير مصدّق بقوله إنّه سمّ مهلك ، فإنّ العالم بالسمّ لا يتناوله أصلاً ، فالعاصي بالضرورة ناقص الايمان و ليس الايمان باباً واحداً بل هو نيّف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلّا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الانسان موجوداً واحداً بل هو نيّف وسبعون موجوداً أعلاها القلب والرّوح وأدناها إماطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصوص الشّارب مقلوم الأظفار نقيّ البشرة عن الخبث حتّى يتميّز عن البهائم المرسلة المتلوّثة بأرواثها المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها هذا مثال

---

(١) ناطحه أى دفعه .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة و رواه الترمذى ج ١٠ ص ٩١.

مطابق ، فالإيمان كالإنسان و فقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلّيّة كفقد الرّوح والّذي ليس له إلّا شهادة التوحيد والرّسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف مفقوء العينين فاقد لجميع أعضائه الظاهرة و الباطنة لا أصل الرّوح و كما أنّ من هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الرّوح الضعيفة المنفردة الّتي تخلف عنها الأعضاء الّتي تمدّها و تقوّيها ، فكذلك من ليس له إلّا أصل الإيمان وهو مقصّر في الأعمال قريب من أن تنقلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرّياح العاصفة المحرّكة للإيمان في مقدّمة قدوم ملك الموت ووروده ، فكلّ إيمان لم يثبت في النّفس أصله و لم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة إلّا ماسقي بماء الطاعات على توالي الأيّام والساعات حتّى رسخ وثبت . وقول العاصي للمطيع : إنّي مؤمن كما أنّك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر : أنا شجرة و أنت شجرة وماأحسن جواب شجرة الصّنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فعندذلك تنقلع أصولك و تتناثر أوراقك و ينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار ، وسوف ترى «إذا انجلى الغبار ✿ أفرس تحتك أم حمار » فهذا أمر يظهر عند الخاتمة و إنّما تقطّعت نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت و مقدّماته الهائلة الّتي لايثبت عليها إلّا الأقلّون فالعاصي إذا كان لايخاف الخلود في النّار بسبب معصيته كالصحيح المنهمك في الشهوات المضرّة إذا كان لايخاف الموت بسبب صحّته و أنّ الموت غالباً لايقع فجأة فيقال له : الصحيح يخاف المرض ثمّ إذا مرض خاف الموت ، فكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثمّ إذا ختم له بالسوء وجب الخلود في النار فالمعاصي للإيمان كالمأكولات المضرّة للأبدان فلاتزال تجتمع في الباطن فتغيّر مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد المزاج فيمرض دفعة ثمّ يموت دفعة ، فكذلك المعاصي فإن كان الخائف من الهلاك في هذه الدّنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم و ما يضرّه من المأكولات في كلّ حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك و إن كان متناول السمّ إذا ندم يجب عليه أن يتقيّأ أو يرجع

عن تناوله بإبطاله و إخراجه عن المعدة على سبيل الفور و المبادرة تلافياً لبدنه المشرف على هلاك لايفوت عليه إلاّ هذه الدّنيا الفانية ، فمتناول سموم الدّين و هي الذّنوب أولى بأن يجب عليه الرّجوع عنها بالتدارك الممكن مادام يبقى للتدارك مهلة و هو العمر فإنّ المخوف من هذا السمّ فوات الآخرة الباقية الّتي فيها النعيم المقيم والملك العظيم وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الّذي تتصرّم أضعاف أعمار الدنيا دون عشر عشير مدّتهما إذ ليس لمدّتها آخر البتّة ، فالبدار البدار إلى التوبة قبل أن تعمل سموم الذّنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه اختيار الأطبّاء ، ولاينفع بعده الاحتماء ، فلا ينجع بعد ذلك نصح الناصحين و وعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنّه من الهالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى : « إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون ۞ وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون ۞ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون »[١] ولا يغرّنك لفظ الايمان فتقول : المراد به الكافرون إذ بيّن لك أنّ الإيمان بضع وسبعون باباً وأنّ الزّاني لايزني حين يزني وهو مؤمن ، فالمحجوب عن الإيمان الّذي هو شعب و فروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الّذي هو أصل ، كما أنّ الشخص الفاقد لجميع الأطراف الّتي هي فروع سيساق إلى الموت المعدم للروح الّتي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولاوجود للفرع دون الأصل ولافرق بين الأصل والفرع إلّا في شيء واحد و هو أنّ وجود الفرع وبقاءه جميعاً يستدعي وجود الأصل ، و أمّا وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع ولكن بقاؤه يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع و وجود الفرع بالأصل ، فعلوم المكاشفة و علوم المعاملة متلازمة كتلازم الأصل والفرع فلايستغني أحدهما عن الآخر ، و إن كان أحدهما في رتبة الأصل و الآخر في رتبة التابع ، وعلوم المعاملة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خيرٌ من وجودها فإنّها لم تعمل عملها الّذي يراد له ثمّ قامت مؤيّدة للحجّة على صاحبها ، و لذلك يزاد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من

---

(١) سورة يس ٨ الى ١٠ .

الأخبار في كتاب العلم .

✲ (ان وجوب التوبة عام) ✲

✲ (فى الاشخاص و الاحوال فلاينفك عنه أحد البتة) ✲

إعلم أنّ ظاهر الكتاب قد دلّ على هذا إذ قال تعالى : « و توبوا إلى الله جميعاً »(١) فعمّم الخطاب ، ونورالبصيرة أيضاً يرشد إليه إذ معنى التّوبة الرّجوع عن الطريق المبعد عن الله تعالى المقرّب إلى الشيطان ولا يتصوّر ذلك إلّا من عاقل ولايكمل غريزة العقل إلّابعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة الّتي هي و سائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنّما يكون عندمقاربة الأربعين وأصله إنّما يتمّ عند مراهقةالبلوغ ومباديه تظهر بعد سبع سنين ، والشهوات جنود الشيطان و العقول جنود الملائكة ، وإذا اجتمعا قام القتال بينهما بالضرورة ، إذ لايثبت أحدهما للآخر فإنّهما ضدّان فالتطارد بينهما كالتطارد بين اللّيل والنهار و النور والظلمة ، ومهما غلب أحدهما أزعج الآخر بالضرورة ، وإذا كانت الشهوات تكمل في الصبا و الشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان و استولى على المكان و وقع للقلب به اُنس و ألف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة و غلب ذلك عليه و تعسّر عليه النزوع عنه ، ثمّ يلوح العقل الّذي هو حزب الله و جنده و منقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئاً فشيئاً على التدريج ، فإن لم يقوولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان و أنجز اللّعين موعوده حيث قال : « لأحتنكنّ ذريّته إلّا قليلاً »(٢) وإن قوي العقل و كمل كان أوّل شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات و ردّ الطبع على سبيل القهر و الغلبة إلى العبادات ولا معنى للتوبة إلّا هذا وهو الرّجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيره الشيطان(٣) إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدميّ إلّا وشهوته سابقة على عقله وغريزته الّتي هي عدّة للشيطان متقدّمة على غريزته الّتي هي عدّة الملائكة فكان الرّجوع عمّا سبق إليه على مساعدة الشهوات

---

(١) النور : ٣١ .	(٢) الاسراء : ٦٥ .

(٣) الخفير : المجار والحافظ والمحامى .

ضرورياً في حقّ كلّ إنسان فإذن كلّ من بلغ كافراً جاهلاً فعليه التوبة من كفره وجهله ، فإن بلغ مسلماً تبعاً لأبويه غافلاً عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة عن غفلته بتفهّم معنى الإسلام فإنّه لايغني عنه إسلام أبويه شيئاً مالم يسلم بنفسه ، فإن فهم ذلك فعليه الرّجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرّجوع إلى قالب حدود الله في المنع والاطلاق والانكفاف والاسترسال وهو من أشقّ أبواب التوبة وفيه هلك الأكثرون إذ عجزوا عنه ، وكلّ هذا رجوع وتوبة فدلّ أنّ التوبة فرض عين في حقّ كلّ شخص لا يتصوّر أن يستغني عنها أحدٌ من البشر كما لم يستغن عنها آدم ، فخلقة الولد لاتتّسع لما لم تتّسع له خلقة الوالد أصلاً .

وأمّا بيان وجوبها على الدّوام وفي كلّ حال فهو أنّ كلّ بشر لايخلو عن معصية بجوارحه فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلايخلو عن الهمّ بالذّنوب بالقلب ، فإن خلا عن الهمّ فلا يخلو عن وسواس الشيطان بايراد الخواطر المتفرقّة المذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره ، وكلّ ذلك نقص وله أسباب وترك أسبابه بتشاغل أضدادها رجوع عن طريق إلى ضدّه ، والمراد بالتوبة الرّجوع ولايتصوّر الخلوّ في حقّ الآدميّ عن هذا النقص وإنّما يتفاوتون في المقادير ، فأمّا الأصل فلابدّ منه ولهذا قال صلّى الله عليه وآله وسلّم « إنّه ليغان على قلبي [1] حتّى أستغفر الله تعالى في اليوم واللّيلة سبعين مرّة »[2] ولذلك أكرمه الله بأن قال : « ليغفر لك الله ماتقدّم من ذنبك وما تأخّر »[3] وإذا

---

(١) قال الجزرى : الغين : الغيم وغينت السماء تغان اذا اطبق عليها الغيم ، وقيل : الغين شجر ملتف . أراد مايغشاه من السهو الذى لايخلو منه البشر لان قلبه ابداً كان مشغولا بالله تعالى ، فان عرض له وقتاً ما عارض بشرى يشغله من امور الامة و الملة ومصالحهما عد ذلك ذنباً وتقصيراً فيفزع الى الاستغفار .

(٢) أخرجه مسلم ج٨ ص٧٢ من حديث الاغر المزنى الا أن فيه «فى اليوم مائة مرة » كذا عند ابى داود ، ولكن فى النهاية الاثيرية كما فى المتن .

(٣) الفتح : ٢ .

كان هذا حاله فكيف حال غيره .

أقول: قد بيّنّا في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات أنّ ذنب الأنبياء والأوصياء عليهم السلام ليس كذنوبنا بل إنّما هو ترك دوام الذكر والاشتغال بالمباحات وحرمانهم زيادة الأجر بسبب ذلك ، روى في الكافي بسند حسن عن عليّ بن رئاب قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن قول الله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » أرأيت ما أصاب عليّاً عليه السلام وأهل بيته من بعده أهو بما كسبت أيديهم وهم أهل بيت طهارة معصومون ؟ فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يتوب إلى الله ويستغفره في كلّ يوم وليلة مائة مرّة من غير ذنب إنّ الله يخصّ أولياءه بالمصائب ليأجرهم عليها من غير ذنب » (١) يعني كذنوبنا .

وبإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت له « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرّجيم ✿ إنّه ليس له سلطان على الّذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون » فقال : يا أبا محمّد تسلّطه والله من المؤمن على بدنه ولا يسلّط على دينه وقد سلّط على أيّوب فشوّه خلقه ولم يسلّط على دينه وقد يسلّط من المؤمنين على أبدانهم ولا يسلّط على دينهم » (٢)

قال أبوحامد : فإن قلت : لا يخفى أنّ ما يطرأ على القلب من الهمم والخواطر نقص وأنّ الكمال في الخلوّ عنه وأنّ القصور عن معرفة كنه جلال الله نقص ، وأنّه كلّما زادت المعرفة زاد الكمال وأنّ الانتقال إلى الكمال من أسباب النقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض ، وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كلّ حال والتوبة عن هذه الأُمور ليست واجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فما المراد بقولك التوبة واجبة في كلّ حال ؟ فاعلم أنّه قد سبق أنّ الإنسان لا يخلو في مبدء فطرته عن اتّباع الشهوات أصلاً وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدارك ما مضى وكلّ شهوة اتّبعها الإنسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما

---

(١) المصدر ج ٢ ص ٤٥٠ تحت رقم ٢ . والاية في سورة الشورى : ٢٩ .
(٢) المصدر ج ٨ (كتاب الروضة) ص ٢٨٨ والايات في سورة النحل ٩٨ و ٩٩ .

يرتفع عن نفس الإنسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة فإن تراكمت ظلمة الشهوات صارت ريناً كما يصير بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً كما قال تعالى: «كلاّ بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»[1] فإذا تراكم الرّين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم و طال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل التصقيل بعده وصار كالمطبوع من الخبث ولا يكفي في تدارك اتّباع الشهوات تركها في المستقبل بل لابدّ من محو تلك الأريان الّتي انطبعت في القلب كما لا يكفي في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس و البخارات المسوّدة لوجهها في المستقبل مالم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان، وكما ترتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي و الشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات و ترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم «أتبع السيّئة الحسنة تمحها»[2] فإذن لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيّئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضادّ آثارها آثار تلك السيّئات. هذا في قلب حصل أوّلاً صفاؤه و جلاؤه ثمّ أظلم بأسباب عارضة فأمّا التصقيل الأوّل ففيه يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصداء عن المرآة كشغله في عمل أصل المرآة، فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً و كلّ ذلك يرجع إلى التوبة، فأمّا قولك إنّ هذا لا يسمّى واجباً بل هو فضل وطلب كمال، فاعلم أنّ الواجب له معنيان أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع و يشترك فيه كافّة الخلق وهو القدر الّذي لو اشتغل كافّة الخلق به لم يخرب العالم ولو كلّف الناس كلّهم أن يتّقوا الله حقّ تقاته لتركوا المعائش و رفضوا الدّنيا بالكلّيّة ثمّ يؤدّي ذلك إلى بطلان التقوى بالكلّيّة فإنّه مهما فسدت المعائش لم يتفرّغ أحد للتقوى بل شغل الحياكة و الحراثة و الخبز يستغرق جميع العمر من كلّ واحد فيما يحتاج إليه فجميع هذه الدّرجات ليست واجبة بهذا الاعتبار. والواجب الثاني

---

(١) المطففين: ١٤.

(٢) رواه الترمذى بزياده فى اوله و زيادة فى آخره وقال حسن صحيح. وقد تقدم فى كتاب رياضة النفس.

هو الّذي لابدّ منه للوصول به إلى القرب المطلوب من ربّ العالمين و المقام المحمود بين الصدّيقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال: الطهارة واجبة في صلاة التطوّع أي لمن يريدها فإنّه لا يتوصّل إليها إلّا بها فأمّا من رضي بالنقصان و الحرمان عن فضل صلاة التطوّع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال: العين والاُذن واليد والرّجل شرط في وجود الانسان يعني أنّه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً ينتفع بإنسانيّته ويتوصّل بها إلى الدّرجات العلى في الدّنيا فأمّا من قنع بأصل الحياة و رضي بأن يكون كلحم على وضم[1] و كخرقة مطروحة فليس يشترط لمثل هذه الحياة عين و يد ورجل، فأصل الواجبات الدّاخلة في فتوى العامّة لايوصل إلّا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة و ماوراء أصل النجاة من السعادات الّتي بها يتهيّأ النجاة يجري مجرى الأعضاء و الآلات الّتي بها يتهيّأ الحياة وفيه سعي الأنبياء، و الأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل، و عليه كان حرصهم وحواليه كان تطوافهم، ولأجله كان رفضهم لملاذّ الدّنيا بالكلّيّة حتّى انتهى عيسى صلوات الله عليه إلى أن توسّد حجراً في منامه فجاء إليه الشيطان و قال: أما كنت تركت الدّنيا للآخرة؟ فقال: نعم وما الّذي حدث؟ فقال: توسّدك لهذا الحجر تنعّم بالدّنيا فلم لاتضع رأسك على الأرض فرمى عيسى بالحجر و وضع رأسه على الأرض وكان رميه الحجر توبة عن ذلك التنعّم، أفترى أنّ عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لايسمّى واجباً في فتاوى العامّة، فتأمّل أحوال هؤلاء الّذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله و إيّاك مرّة واحدة أن تغرّك الحياة الدّنيا و إيّاك ثمّ إيّاك ألف مرّة أن يغرّك بالله الغرور، فهذه أسرارٌ من استنشق مبادي روائحها علم أنّ لزوم التوبة النصوح لازم للعبد السالك في كلّ نفس من أنفاسه ولو عمّر عمر نوح و أنّ ذلك واجب على الفور من غير مهلة ولقد صدق من قال: لو لم يبك العاقل فيما بقي من عمره إلّا على فوت ما مضى منه في غير طاعة الله لكان خليقاً أن يحزنه ذلك إلى الممات فكيف من يستقبل مابقي من

(١) الوضم: خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم.

عمره بمثل مامضى من جهله . و إنّما قال هذا لأنّ العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة إذاضاعت منه بغير فائدة بكى عليهالامحالة وإن ضاعت منه وصارضياعها سبب هلاكه كان بكاؤه منه أشدّ ، و كلّ ساعة من العمر بل كلّ نفَس جوهرة نفيسة لاخلف لها ولابدل منها فانّها صالحةلان توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد وأيّ جوهر أنفس من هذا فاذا ضيّعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً و إن صرفتها إلى معصية فقدهلكت هلاكاًفاحشاً فان كنت لاتبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك و مصيبتك بجهلك أعظم من كلّ مصيبة لكنّ الجهل مصيبة لايعرف المصاب بها أنّه صاحب مصيبة فانّ نوم الغفلة يحول بينه و بين معرفته « و الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » فعند ذلك ينكشف لكلّ مفلس إفلاسه ، ولكلّ مصاب مصيبته ، و قد وقع اليأس عن التدارك . قال بعض العارفين : إنّ ملك الموت إذا ظهر للعبد أعلمه أنّه قد بقي من عمرك ساعة وأنّك لاتستأخرعنها طرفة عين فيبدو للعبد من الحزن والأسف و الحسرة مالوكانت له الدّنيا بحذافيرها لخرج منها على أن يضمّ إلى تلك الساعة ساعة اُخرى ليستعتب فيها و يتدارك تفريطه فلا يجد إليها سبيلاً وهو أوّل مايظهر من معاني قوله تعالى : « و حيل بينهم و بين ما يشتهون » (١) و إليه الاشارة بقوله تعالى : « من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول ربّ لولا أخّرتني إلى أجل قريب فأصدّق وأكن من الصالحين ۞ ولن يؤخّرالله نفساً إذاجاء أجلها » (٢) فقيل الأجل القريب الّذي يطلبه معناه أنّه يقول عند كشف الغطاء للعبد : ياملك الموت أخّرني يوماً أعتذر فيه إلى ربّي و أتوب و أتزوّد صالحاً لنفسي ، فيقول : فنيت الأيّام فلا يوم ، فيقول : أخّرني ساعة فيقول : فنيت الساعات فلاساعة ، فيغلق عليه باب التوبة فيغرغر بروحه ويتردّد أنفاسه في شراسيفه ويتجرّع غصّة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال فاذا زهقت نفسه فان كانت سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد و ذلك حسن الخاتمة ، و إن سبق له القضاء بالشقوة - و العياذ بالله - خرجت روحه على الشكّ

(١) سبأ : ٥٤ . (٢) المنافقين : ١١ و ١٢ .

والاضطراب و ذلك سوء الخاتمة و لمثل هذا قال سبحانه و تعالى : « و ليست التوبة للّذين يعملون السيّئات حتّى إذا حضر أحدهم الموت قال إنّي تبت الآن » بل التوبة كما قال تعالى : « إنّما التوبة على الله للّذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب »[1] و معناه عن قريب عهد بالخطيئة بأن يتندّم عليها و يمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرّين على القلب فلا يقبل المحو و لذلك قال ﷺ « أتبع السيّئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه : يابنيّ لاتؤخّر التوبة فإنّ الموت يأتي بغتة ، و من ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين أحدهما أن يتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتّى يصير ريناً و طبعاً فلا يقبل المحو ، والثاني أن يعاجله المرض أوالموت فلايجد مهلة للاشتغال بالمحو ولذلك ورد في الخبر « إنّ أكثر صياح أهل النّار من التسويف »[2] فماهلك من هلك إلّا بالتسويف فيكون تسويده للقلب نقداً وجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الأجل فيأتي الله بقلب غير سليم ولاينجو إلّا من أتي الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده و العمر أمانة الله عنده و كذا سائر أسباب الطاعة ، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر .

قال بعض العارفين : إنّ لله تعالى إلى عبده سرّين يسرّهما إليه على سبيل الإلهام أحدهما إذا خرج من بطن اُمّه يقول له : عبدي قد أخرجتك إلى الدّنيا طاهراً نظيفاً واستودعتك عمرك وائتمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الأمانة ، وانظر كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتّى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أوأضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب . و إليه الإشارة بقوله تعالى : « أوفوا بعهدي أوف بعهدكم »[3] و بقوله تعالى : « والّذينهم لأماناتهم وعهدهم راعون »[4] .

---

(١) النساء : ١٩ و ١٨ .
(٢) قال العراقي : لم أجد له أصلا .
(٣) البقرة : ٤٠ .
(٤) المؤمنون : ٨ .

﴿ بيان أن التوبة اذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لامحالة ﴾

إعلم أنّك إذا فهمت معنى القبول لم تشكّ في أنّ كلّ توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدّون من أنوار القرآن علموا أنّ كلّ قلب سليم مقبول عندالله ومتنعّم في الآخرة في جوار الله و مستعدّ لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله ، وعلموا أنّ القلب خلق سليماً في الأصل فكلّ مولود يولد على الفطرة و إنّما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذّنوب و ظلمتها و علموا أنّ نار الندم تحرق تلك الغبرة وأنّ نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيّئة و أنّه لاطاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كما لاطاقة لظلام اللّيل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصّابون ، فكما أنّ الثوب الوسخ لايقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب المظلم لايقبله الله تعالى لأن يكون في جواره و كما أنّ استعمال الثوب في الأعمال الخسيسة يوسّخ الثوب وغسله بالصابون والماء الحارّ ينظّفه لا محالة فاستعمال القلب في الشهوات يوسّخ القلب وغسله بماء الدّموع وحرقة الندم ينظّفه و يطهّره و يزكّيه ، و كلّ قلب زكيّ طاهر فهو مقبول كما أنّ كلّ ثوب نظيف فهو مقبول فإنّما عليك التزكية والتطهير فأمّا القبول فمبذول قد سبق به القضاء الأزلي الّذي لا مردّ له وهو المسمّى فلاحاً في قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون »[1] و قوله « قد أفلح من زكّاها »[2] و من لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى و أجلى من المشاهدة بالبصر أنّ القلب يتأثّر بالمعاصي و الطاعات تأثّراً متضادّاً يستعار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستعار للجهل و يستعار للآخر لفظ النّور كما يستعار للعلم ، وأنّ بين النّور والظلمة تضاداً ضرورياً لايتصوّر الجمع بينهما ، فكأنّه لم يعرف من الدّين إلّا قشوره ولم يعلق بقلبه إلّا أسماؤه و قلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدّين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه و من جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعني به قلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره و هو لايعرف نفسه فمن يتوهّم أنّ التوبة تصحّ و لا تقبل كمن يتوهّم أنّ الشمس تطلع و الظلام لايزول

---

(١) المؤمنون : ٢ (٢) الشمس : ١٠ .

والثوب يغسل بالصابون والوسخ لايزول. إلّا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في تجاويف الثوب وخلله ، فلايقوى الصابون على قلعه ، فمثال ذلك أن تتراكم الذنوب حتّى تصير طبعاً ورينا على القلب ، فمثل هذا القلب لايرجع ولايتوب نعم قديقول باللّسان تبت فيكون ذلك كقول القصّار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لاينظّف الثّوب أصلاً مالم يغيّر صفةالثوب باستعمال مايضادّ الوصف المتمكّن منه فهذاحال امتناع أصل التوبة و هو غيربعيد بل هوالغالب على كافّة الخلق المقبلين على الدّنيا المعرضين عنالله بالكلّيّة ، فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبةولكنّا نعضد جناحه بنقل الآيات والأخبار و الآثار فكلّ استبصار لا يشهد له الكتاب و السنّة لا يوثق به فقد قالالله تعالى : « و هو الّذي يقبل التوبة عن عباده »[١].

و قال : « غافرالذّنب وقابل التوب »[٢] إلى غيرذلك منالآيات .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لله أفرح بتوبة عبده .... الحديث » [٣] والفرح وراء القبول فهو دليل على القبول و زيادة .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ الله عزّ وجلّ يبسط يده بالتوبة لمسيىء اللّيل إلى النهار ولمسيىء النهار إلى اللّيل حتّى تطلع الشمس من مغربها »[٤] و بسط اليد كناية عن طلب التوبة ، و الطالب وراء القابل فربّ قابل ليس بطالب ولاطالب إلّا وهو قابل .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لو عملتم الخطايا حتّى تبلغ السّماء ثمّ ندمتم لتاب الله عليكم » [٥]

و قال عليه السلام أيضاً : « إنّ العبد ليذنب الذّنب فيدخل به الجنّة ، قيل : كيفذلك يا رسول الله ؟ قال : يكون نصب عينه تائباً منه فارّاً فما زال حتّى يدخل

---

(١) الشورى : ٢٤ . (٢) غافر : ٣ . (٣) تقدم أول هذا الكتاب .

(٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٠٠ من حديث أبى موسى بلفظ « يبسط يده بالليل ليتوب مسيىء النهار» وقال العراقى : وفى رواية للطبرانى «لمسيىء الليل أن يتوب بالنهار» .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٤٨ بلفظ « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم » وسنده حسن .

الجنّة »[١] .

و قال عليه السلام : « كفّارة الذّنب الندامة »[٢] .

و قال عليه السلام : « التائب من الذّنب كمن لاذنب له »[٣] .

و يروى « أنّ حبشياً قال : يا رسول الله إنّي كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة ؟ قال : نعم فقال : تبت فولّى ، ثمّ رجع فقال : يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها ، قال : نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها نفسه »[٤] .

و يروى « أنّ الله عزّ وجلّ لمّا لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال : و عزّتك لاخرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الرّوح فقال الله تعالى : وعزّتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة مادام فيه الرّوح »[٥] .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الحسنات يذهبن السيّئات كما يذهب الماء الوسخ »[٦] والأخبار في هذا ممّا لاتحصى .

أقول و من طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : يا محمّد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله إنّها ليست إلّا لأهل الإيمان قلت : فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب و عاد في التّوبة فقال : يا محمّد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه و يستغفر منه و يتوب ثمّ لايقبل الله توبته ؟ قلت : فإنّه فعل ذلك مراراً يذنب ثمّ يتوب و يستغفر ؟ فقال : كلّما عاد المؤمن بالاستغفار و التوبة عاد الله تعالى عليه بالمغفرة ، و إنّ الله غفور رحيم يقبل التوبة و يعفو عن

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد عن الحسن مرسلا كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرجه احمد و الطبرانى و البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٠ و قد تقدم .

(٤) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٥) أخرجه أبو يعلى والحاكم ج٤ ص ٢١٦ بلفظ آخر وصححه من حديث أبى سعيد .

(٦) قال العراقى : لم أجده بهذا اللفظ و هو صحيح المعنى وهو بمعنى « اتبع السيئة الحسنة تمحها » كما تقدم .

السيّئات ، فإيّاك أن تقنّط المؤمنين من رحمة الله » (١) .

و عن الصادق عليه السلام قال : « العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجّله الله سبع ساعات فإن استغفر الله لم يكتب عليه شيء ، و إن مضت السّاعات و لم يستغفر كتبت عليه سيّئة ، وإنّ المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتّى يستغفر ربّه فيغفر له ، وإنّ الكافر لينساه من ساعته » (٢) و في رواية اُخرى « وإنّما يذكّره ليغفر له » (٣) .

و عنه عليه السلام « ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول و هو نادم : « أستغفر الله الّذي لا إله إلّا هو الحيّ القيّوم بديع السّماوات و الأرض ذو الجلال والإكرام وأسأله أن يصلّي على محمّد و آل محمّد وأن يتوب عليّ » إلّا غفرها الله له ولا خير فيمن يقارف في كلّ يوم أكثر من أربعين كبيرة » (٤)

و عنه عليه السلام قال : « إنّ الرّجل ليذنب الذّنب فيدخله الله به الجنّة . قيل يدخله الله بالذّنب الجنّة؟ قال : نعم إنّه ليذنب فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه فيرحمه الله فيدخله الجنّة » (٥)

و عنه عليه السلام قال : « إنّه والله ما خرج عبد من ذنب إلّا بالإقرار » (٦)

و عنه عليه السلام « من أذنب ذنباً فعلم أنّ الله مطّلع عليه إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له ، غفر له وإن لم يستغفر » (٧) .

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثمّ قال : إنّ السّنة لكثير ، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته ، ثمّ قال : إنّ الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته ، ثمّ قال : إنّ الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته ، ثمّ قال : إنّ يوماً لكثير من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته » (٨)

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٣٤ تحت رقم ٦ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٣٧ تحت رقم ٣ .

(٣) و (٤) المصدر ج ٢ ص ٤٣٨ تحت رقم ٦ و ٧ .

(٥) و (٦) و (٧) المصدر ج ٢ ص ٦٢٦ و ٤٢٧ تحت رقم ٣ و ٤ و ٥ .

(٨) المصدر ج ٢ ص ٤٤٠ تحت رقم ٢ .

و عنه أو عن أبيه عليهما السلام قال : « إنّ آدم قال : يا ربّ سلّطت عليّ الشيطان و أجريته منّي مجرى الدّم فاجعل لي شيئاً ، فقال : يا آدم جعلت لك أنّ من همّ من ذريّتك بسيّئة لم تكتب عليه ، فإن عملها كتبت عليه سيّئة ، و من همّ منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة فإن هو عملها كتبت له عشراً ، قال : يا ربّ زدني قال جعلت لك أنّ من عمل منهم سيّئة ثمّ استغفر غفرت له ، قال : يا ربّ زدني قال : جعلت لهم التوبة أو بسطت لهم التوبة حتّى تبلغ النفس هذه قال : يا ربّ حسبي »(١).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « إذا بلغت النفس هذه - وأهوى بيده إلى حلقه - لم يكن للعالم توبة وكانت للجاهل توبة »(٢).

و عن معاوية بن وهب قال : « خرجنا إلى مكّة ومعنا شيخ متعبّد متألّه لا يعرف هذا الأمر يتمّ الصلاة في الطريق و معه ابن أخ له مسلم ، فمرض الشيخ فقلت لابن أخيه : لو عرضت هذا الأمر على عمّك لعلّ الله أن يخلّصه ، فقال كلّهم : دعوا الشيخ يموت على حاله فإنّه حسن الهيئة ، فلم يصبر ابن أخيه حتّى قال له : يا عمّ إنّ الناس ارتدّوا بعد رسول الله إلّا نفراً يسيراً ، وكان لعليّ بن أبي طالب عليه السلام من الطاعة ما كانت لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، وكان بعد رسول الله صلّى الله عليه وآله الحقّ والطاعة له ، قال : فتنفّس الشيخ وشهق وقال : أنا على هذا و خرجت نفسه ، فدخلنا على أبي عبدالله عليه السلام فعرض عليّ بن السريّ هذا الكلام عليه فقال : هو رجل من أهل الجنّة ، فقال له ابن السريّ : إنّه لم يعرف شيئاً من ذلك غير ساعته تلك ؟ قال : فتريدون منه ماذا ؟ قد دخل والله الجنّة »(٣).

قال أبو حامد : خلق الله الطاعة مكفّرة للمعصية ، و الحسنة ماحية للسيّئة كما خلق الماء مزيلاً للعطش وغسل الثوب بالصابون مزيلاً للوسخ .

قال : فإن قلت : فما من تائب إلّا و هو شاكّ في قبول توبته و الشارب للماء لا يشكّ في زوال عطشه فلم يشكّ فيه ؟.

---

(١) و (٢) و (٣) الكافي ج ٢ص ٤٤٠ تحت رقم ١ و ٣ و ٤ .

فأقول شكّه في القبول كشكّه في وجود شرائط الصحّة فإنّ للتوبة أركاناً و شروطاً دقيقة كما سيأتي وليس يتحقّق وجود جميع شروطها كالّذي يشكّ في دواء شربه للاسهال في أنّه هل يسهل ، وذلك لشكّه في حصول شروط الإسهال في الدّواء باعتبار الحال و الوقت و كيفيّة خلط الدّواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا و أمثاله موجبٌ للخوف بعد التوبة ، و موجب للشكّ في قبولها لا محالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله

(الركن الثاني)
(فيما عنه التوبة وهي الذنوب صغائرها و كبائرها)

فاعلم أنّ التوبة ترك الذّنب ولا يمكن ترك الشيء إلّا بعد معرفته وإذاكانت التوبةواجبة كان ما لايتوصّل إليها إلّابه واجباً ، فمعرفة الذّنوب إذاًواجب والذّنب عبارة عن كلّ ما هو مخالف لأمر الله في ترك أو فعل و تفصيل ذلك يستدعي شرح التكليفات من أوّلها إلى آخرها ، وليس ذلك من غرضنا ولكنّا نشير إلى مجامعها و روابط أقسامها

(بيان أقسام الذنوب بالاضافة الى صفات العبد)

إعلم أنّ للانسان أخلاقاً وأوصافاً كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب عجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مثارات الذّنوب في أربع صفات ، صفات ربوبيّة وصفات شيطانية وصفات بهيميّة وصفات سبعيّة ، و ذلك لأنّ طينة الإنسان عجنت من أخلاط مختلفة فاقتضى كلّ واحد من الأخلاط في المعجون منه أثراً من الآثار كما يقتضي السكّر والخلّ في السكنجبين والزعفران آثاراً مختلفة ، فأمّا ما يقتضيه النزوع إلى الصفات الربوبيّة فمثل الكبر والفخر والجبريّة وحبّ المدح والثناء و العزّ والغنى وحبّ دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافّة حتّى كأنّه يريد أن يقول : أنا ربّكم الأعلى ، و هذا يتشعّب منه جملة من كبائر الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدّوها ذنوباً وهي المهلكات العظيمة الّتي هي كالأُمّهات لأكثر المعاصي كما استقصيناه في ربع المهلكات ، الثانية هي الصفات الشيطانيّة الّتي منها يتشعّب الحسد و البغي و الحيلة والخداع والأمر

بالفساد و المنكر وفيه يدخل الغشّ والنفاق والدعوة إلى البدع و الضلالة ، الثالثة الصفة البهيميّة و منها يتشعّب الشره و الكلب و الحرص على قضاء شهوة البطن و الفرج ، و منه يتشعّب الزنى و اللّواط والسرقة و أكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات ، الرّابعة الصفة السبعيّة و منها يتشعّب الغضب و الحقد و التهجّم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ، ويتفرّع عنها جمل من الذّنوب و هذه الصفات لها تدريج في الفطرة فالصفة البهيميّة هي الّتي تغلب أوّلاً ثمّ تتلوها الصفة السبعيّة ثانياً ، ثمّ إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع و المكر و الحيلة و هي الصفة الشيطانيّة ، ثمّ بالآخرة تغلب الصفات الرّبوبيّة و هي الفخر و العزّ و العلوّ و طلب الكبرياء و قصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه امّهات الذّنوب و منابعها ، ثمّ تتفجّر الذّنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصّة كالكفر و البدعة والنفاق و إضمار السوء للناس وبعضها على العين و السمع و بعضها على اللّسان و بعضها على البطن و الفرج و بعضها على اليدين و الرّجلين و بعضها على جميع البدن و لاحاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنّه واضح .

قسمة ثانية إعلم أنّ الذّنوب تنقسم إلى ما بين العبد و بين الله و إلى مايتعلّق بالعبد خاصّة كتركه الصلاة و الصوم و الواجبات الخاصّة به ، و مايتعلّق بحقوق العباد كتركه الزكاة و قتله النفس و غصبه الأموال وشتمه الأعراض ، و كلّ متناول من حقّ الغير ، فإمّا نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه و تناول الدّين بالاغواء و الدّعاء إلى البدعة و التّرغيب في المعاصي و تهييج أسباب الجرأة على الله كما يفعله بعض الوعّاظ بتغليب جانب الرّجاء على جانب الخوف وما يتعلّق بالعباد فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر «الدواوين ثلاثة ديوان يغفر وديوان لايغفر ، وديوان لايترك . فالديوان الّذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله ، وأمّا الدّيوان الّذي لا يغفر فالشرك ، وأمّا الدّيوان الّذي لايترك فمظالم العباد »(١) أي لابدّ وأن يطالب بها حتّى يتفصّى عنها.

---

(١) اخرجه احمد و الحاكم من حديث عائشة بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي ، عن بعض أصحابنا رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال : « الذّنوب ثلاثة : فذنب مغفور ، وذنب غير مغفور ، و ذنب نرجو لصاحبه ونخاف عليه قيل : يا أمير المؤمنين فبيّنها لنا ، قال : نعم أمّا الذّنب المغفور فعبد عاقبه الله على ذنبه في الدّنيا ، فالله تعالى أحلم وأكرم من أن يعاقب عبده مرّتين . و أمّا الذّنب الّذي لا يغفره الله فظلم العباد بعضهم لبعض إنّ الله إذا برز لخلقه أقسم قسماً على نفسه فقال : و عزّتي و جلالي لا يجوزني ظلم ظالم ، و لو كفّ بكفّ ولو مسحة بكفّ ، ولو نطحة ما بين القرناء إلى الجمّاء[1] ، فيقتصّ للعباد بعضهم من بعض حتّى لا تبقى لأحد على أحد مظلمة ، ثمّ يبعثهم الله للحساب ، وأمّا الذّنب الثالث فذنب ستره الله على خلقه و رزقه التوبة منه فأصبح خائفاً من ذنبه راجياً لربّه فنحن له كما هو لنفسه ، نرجو له الرّحمة ونخاف عليه العقاب »[2].

و سئل أبو جعفر عليه السلام « عن رجل اُقيم عليه الحدّ في الرّجم أيعاقب عليه في الآخرة ؟ فقال : إنّ الله أكرم من ذلك »[3].

قسمة ثالثة إعلم أنّ الذّنوب تنقسم إلى صغائر و كبائر ، و قد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون : لا صغيرة بل كلّ مخالفة لله فهي كبيرة و هذا ضعيف إذ قال الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم »[4] وقال تعالى : « الّذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش إلّا اللّمم »[5].

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الصلوات الخمس و الجمعة إلى الجمعة تكفّر ما بينهنّ إن اجتنب الكبائر » و في لفظ آخر « كفّارات لما بينهنّ إلّا الكبائر »[6].

وقد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما رواه عبدالله بن عمرو بن العاص : « الكبائر الإشراك

---

(١) الجماء الشاة التي لاقرن لها .

(٢) و (٣) المصدر ، ج ٢ ص ٤٤٣ .

(٤) النساء : ٣١ .

(٥) النجم : ٣٣ و اللمم : صغار الذنوب كما في القاموس .

(٦) اخرجه الترمذی ج ٢ ص ١٤ من حديث ابي هريرة وحسنه .

بالله و عقوق الوالدين و قتل النفس واليمين الغموس »[١].

و اختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة فما فوق ذلك، وقال أبو طالب المكّي: الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار[٢] و جملة ما اجتمع من أقوال الصحابة أربع في القلب: وهو الشرك بالله تعالى، والإصرار على معصيته، والقنوط من رحمته، والأمن من مكره. وأربع في اللّسان: وهي شهادة الزّور، وقذف المحصن، واليمين الغموس - وهي الّتي يحقّ بها باطلاً أو يبطل بها حقّاً، وقيل: هي الّتي يقتطع بها مال امرىء مسلم باطلاً ولو سواك من أراك، وسمّيت غموساً لأنّها تغمس صاحبها في النار -. والسحر وهو كلّ كلام يغيّر الإنسان و سائر الأجسام عن موضوعات الخلقة. وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كلّ شراب، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الرّبا و هو يعلم. واثنتان في الفرج و هما الزنى واللّواط. واثنتان في اليدين وهو القتل و السرقة. و واحدة في الرّجلين و هو الفرار من الزّحف - الواحد من اثنين و العشرة من عشرين -، و واحدة في جميع الجسد و هي عقوق الوالدين، قال: وجملة عقوقهما أن يقسما عليه في حقّ فلا يبرّ قسمهما، وأن يسألاه حاجة فلا يعطيهما، و أن يسبّاه فيضربهما، و يجوعان فلا يطعمهما. هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه و النقصان منه فإنّه جعل أكل الرّبا و مال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الأموال، و لم يذكر في كبائر النفوس إلّا القتل. فأمّا فقؤ العينين و قطع اليدين و غير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب و أنواع العذاب فلم يتعرّض له، وضرب اليتيم وتعذيبه و قطع أطرافه لا شكّ في أنّه أكبر من أكل ماله، كيف؟ وفي الخبر « من الكبائر السبّتان بالسبّة. و من الكبائر استطالة الرّجل في عرض أخيه المسلم »[٣] و هذا زائد على قذف المحصن. و قال أبو سعيد الخدريّ و غيره

(١) اخرجه البخارى ج ٧ ص١٧١.

(٢) راجع مجمع الزوائد ج ١ ص١٠٣.

(٣) قال العراقى: عزاه ابو منصور الديلمى فى مسند الفردوس لاحمد وابى داود من حديث سعيد بن زيد والذى عندهما من حديثه «من اربى الربا استطالة فى عرض المسلم بغير حق».

من الصحابة : « إنّكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشعر ، كنّا نعدّها في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الكبائر »(١) .

و قالت طائفة : كلّ عمد كبيرة ، و كلّ ما نهى الله عنه فهو كبيرة .

أقول: من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله عزّ و جلّ : «إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم - الاية - قال : الكبائر الّتي أوجب الله عليها النار »(٢).

و عنه عليه السلام أنّه سئل عن الكبائر فقال : « هنّ في كتاب عليّ عليه السلام سبع : الكفر بالله ، و قتل النفس ، و عقوق الوالدين ، و أكل الرّبا بعد البيّنة ، و أكل مال اليتيم ظلماً ، والفرار من الزّحف ، والتعرّب بعدالهجرة ، قال الرّاوي قلت : و هذا أكبر المعاصي ؟ قال : نعم ، قلت : فأكل درهم من مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة ؟ قال : ترك الصلاة ، قلت : فما عددت ترك الصلاة في الكبائر ؟ فقال : أيّ شيء أوّل ماقلت لك ؟ قال : قلت : الكفر قال : فإنّ تارك الصلاة كافر» يعني من غير علّة (٣).

وعن أبي الحسن عليه السلام أنّه سئل عن الكبائر كم هي وماهي ؟ فكتب « الكبائر من اجتنب ماوعدالله عليه النار كفّر عنه سيّئاته إذاكان مؤمناً ، والسبع الموجبات:(٤) قتل النفس الحرام ، وعقوق الوالدين ، و أكل الرّبا ، و التعرّب بعد الهجرة ،

(١) رواه البزار في مسنده وفيه عباد بن راشد ، و ثقه ابن معين و غيره وضعفه ابو داود وغيره . و رواه احمد و رجاله رجال الصحيح كما مجمع الزوائد ج ١ ص ١٠٦ وج١٠ ص ١٩٠.　　(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٧٦ تحت رقم ١.

(٣) الخبر فى الكافى ج ٢ ص ٢٧٨ . وقوله «يعنى من غير علة» من كلام الكلينى او بعض الرواة و قال العلامة المجلسى : كونه من كلام الامام عليه السلام على سبيل الالتفات بعيد جداً .

(٤) عطف على « ما وعدالله » أى من اجتنب السبع الموجبات للنار كفرعنه سيئاته من باب عطف الخاص على العام لان الكبائر أكثر منها .

و قذف المحصنات ، و أكل مال اليتيم ، و الفرار من الزّحف »[١].

و في الصحيح عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال : « سمعت أبي يقول : سمعت أبي موسى بن جعفر يقول : دخل عمرو بن عبيد[٢] على أبي عبدالله عليه السلام : فلمّا سلّم و جلس تلاهذه الآية « الّذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش » ثمّ أمسك فقال له أبوعبدالله عليه السلام : ما أسكتك ؟ قال : أُحبّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله ، فقال : نعم ياعمرو أكبر الكبائر الإشراك بالله يقول الله : « ومن يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة »[٣]. وبعده الإياس من روح الله لأنّ الله يقول : « إنّه لاييأس من روح الله إلّاالقوم الكافرون »[٤] ثمّ الأمن لمكر الله إنّ الله يقول : « فلايأمن مكر الله إلّاالقوم الخاسرون»[٥]. و منها عقوق الوالدين لأنّ الله جعل العاقّ جبّاراً شقيّاً[٦]، و قتل النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحق لأنّ الله يقول : « فجزاؤه جهنّم خالداً فيها ـ إلى آخر الآية ـ »[٧] و قذف المحصنة لأنّ الله يقول : « لعنوا في الدّنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم »[٨] و أكل مال اليتيم لأنّ الله يقول : « إنّما يأكلون في بطونهم ناراً و سيصلون سعيراً »[٩] و الفرار من الزّحف لأنّ الله يقول : « و من يولّهم يومئذ دُبُرَه إلّا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأويه جهنّم و بئس المصير»[١٠]. و أكل الرّبا لأنّ الله يقول : « الّذين يأكلون الرّبا لا يقومون إلّا كما يقوم الّذي يتخبّطه الشيطان من المسّ »[١١] و السحر لأنّ الله يقول : « و

(١) الزحف : المشى ويطلق على الجيش الكبير تسمية بالمصدر و الخبر فى الكافى ج ٢ ص ٢٧٦ .

(٢) الظاهر انه عمرو بن عبيد المعتزلى المعروف والخبر فى الكافى ج٢ ص٢٨٥ .

(٣) فى المصاحف هكذا «انه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة» سورة المائدة:٧٢.

(٤) يوسف : ٨٧ . (٥) الاعراف : ٩٩ .

(٦) اشارة الى قوله تعالى «و براً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً» سورة مريم ٣٢ .

(٧) النساء : ٩٣ . (٨) النور : ٢٣ .

(٩) النساء : ١٠ . (١٠) الانفال : ١٦ .

(١١) البقرة : ٢٧٧ ، و« يتخبطه» اى يصرعه الشيطان من الجنون وقوله « من المس » متعلق بقوله «يتخبطه» و «من» للتبيين .

لقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق »[1] والزّنى ، لأنّ الله يقول : « ومن يفعل ذلك يلق أثاما ✿ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً »[2] و اليمين الغموس الفاجرة ، لأنّ الله يقول : « الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أُولئك لا خلاق لهم في الآخرة »[3] . و الغلول لأنّ الله يقول : « ومن يَغْلُل يأت بما غلّ يوم القيامة »[4] و منع الزكاة المفروضة لأنّ الله يقول : « فتكوى بهاجباههم وجنوبهم وظهورهم »[5] وشهادة الزور و كتمان الشهادة لأنّ الله يقول : « ومن يكتمها فإنّه آثمٌ قلبه »[6] وشرب الخمر لأنّ الله نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان . و ترك الصلاة متعمّداً أو شيئاً ممّا فرض الله لأنّ رسول الله ﷺ قال : « من ترك الصلاة متعمّداً فقد برىء من ذمّة الله و ذمّة رسوله » . و نقض العهد و قطيعة الرّحم لأنّ الله يقول : « اُولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدّار »[7] قال : فخرج عمرو وله صراخٌ من بكائه وهو يقول : هلك من قال برأيه ونازعكم في الفضل والعلم » .

قال أبو حامد : و كشف الغطاء عن هذا أنّ نظر الناظر في السّرقة أهي كبيرة أم لا لا يصحّ ما لم يفهم معنى الكبيرة والمراد بها ، فقول القائل : السرقة حرام أم لا ؟ لامطمع في معرفته إلّا بعد تقرير معنى الحرام أوّلاً ثمّ البحث عن وجوده في السرقة فالكبيرة من حيث اللّفظ مبهمٌ ليس له موضوعٌ خاصٌ في اللّغة و لا في الشرع وذلك

---

(١) البقرة : ١٠٢ ، أى الذى اشترى السحر بدل دين الله والخلاق النصيب .

(٢) الفرقان : ٦٩و٧٠ ، وقوله : « يلق أثاما » اى عقوبة وجزاء لما فعل ، وقوله : يخلد فيها مهاناً » اى يدوم فى العذاب مستخفاً .

(٣) آل عمران : ٧٧ .

(٤) آل عمران : ١٦١ ، والغلول الخيانة فى المغنم والسرقة من الغنيمة قبل القسمة .

(٥) التوبة : ٣٥ ، و كوى فلانا اى احرق جلده بحديدة .

(٦) البقرة : ٢٨٣ .

(٧) الرعد : ٢٦ . « سوء الدار » اى عذاب جهنم أو سوء عاقبة الدار فى مقابلة « عقبى الدار » .

لأنّ الكبير و الصغير من المضافات و ما من ذنب إلّا و هو كبير بالإضافة إلى ما دونه ، و صغير بالإضافة إلى ما فوقه ، فالمضاجعة مع الأجنبيّة كبيرة بالإضافة إلى النظرة ، صغيرة بالإضافة إلى الزّنى . و قطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه ، صغيرة بالإضافة إلى قتله ، نعم للإنسان أن يطلق على ما توعّد بالنار على فعله خاصّة اسم الكبيرة و نعني بوصفه بالكبيرة أنّ العقوبة بالنار عظيمة ، وله أن يطلق على ما أوجب الحدّ عليه مصيراً إلى أنّ ما عجّل عليه في الدّنيا عقوبة واجبة عظيم ، و له أن يطلق على ماورد في نصّ الكتاب النهي عنه فيقول : تخصيصه بالذكر في القرآن يدلّ على عظمه ، ثمّ يكون عظيماً و كبيرة لا محالة بالإضافة إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها ، فهذه الإطلاقات لا حرج فيها و ما نقل من ألفاظ الصحابة يتردّد بين هذه الجهات و لا يبعد تنزيلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من المهمّات أن تعلم معنى قول الله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم » وقول رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم «الصلوات الخمس كفّارات لما بينهنّ إلّا الكبائر » فإنّ هذا إثبات حكم الكبائر ، و الحقّ في ذلك أنّ الذّنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استعظامه إيّاها و إلى ما يعلم أنّها معدودة في الصغائر و إلى ما يشكّ فيه فلا يدرى حكمه فالطمع في معرفة حدّ حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن ، فإنّ ذلك لا يمكن إلّا بالسماع من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأن يقول : إنّي أردت بالكبائر عشراً أو خمساً ويفصّلها فان لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ « ثلاث من الكبائر » و في بعضها « سبع من الكبائر » ثمّ ورد « إنّ السبّتين بالسبّة الواحدة من الكبائر » و هو خارج عن السبع و الثلاث علم أنّه لم يقصد به العدد و الحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يعدّه الشرع ، و ربّما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أبهم ليلة القدر ليعظم جدّ الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلّي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق و أمّا أعيانها فنعرفها بالظنّ و التقريب و نعرف أيضاً أكبر الكبائر فأمّا أصغر الصغائر فلا سبيل إلى معرفته ، وبيانه أنّا نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً

أنّ مقصود الشرائع كلّها سياقة الخلق إلى جوار الله وسعادة لقائه ، وأنّه لا وصول لهم إلى ذلك إلّا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته ورسله و كتبه وإليه الاشارة بقوله تعالى : « و ما خلقت الجنّ و الإنس إلّا ليعبدون » (١) أي ليكونوا عبيداً لي ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربّه بالرّبوبيّة ، ونفسه بالعبودية ، فلابدّ و أن يعرف نفسه و ربّه فهذا هو المقصود الأصلي ببعثة الأنبياء ولكن لا يتمّ هذا إلّا في الحياة الدّنيا و هو المعنيّ بقوله عليه السلام : « الدّنيا مزرعة الآخرة » (٢) فصار حفظ الدّنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدّين لأنّه وسيلة إليه ، والمتعلّق من الدّنيا بالآخرة شيئان : النفوس والأموال فكلّ ما يسدّ باب معرفة الله فهو أكبر الكبائر ، ويليه ما يسدّ باب حياة النفوس ، و يلي ذلك ما يسدّ باب المعايش الّتي بها حياة النفوس ، فهذه ثلاث مراتب فحفظ المعرفة على القلوب و الحياة على الأبدان و الأموال على الأشخاص ضروريّ في مقصود الشرائع كلّها ، و هذه ثلاثة اُمور لا يتصوّر أن يختلف فيها الملل ، فلا يجوز أن يبعث الله تعالى نبيّاً يريد ببعثه إصلاح الخلق في دينهم ودنياهم ثمّ يأمرهم بما يمنعهم عن معرفته ومعرفة رسله أو يأمرهم باهلاك النفوس و إهلاك الأموال فحصل من هذا : أنّ الكبائر على ثلاث مراتب الاُولى ما يمنع من معرفة الله ومعرفة رسله و هو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر إذ الحجاب بين الله و بين العبد هو الجهل و الوسيلة المقرّبة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته و بعده بقدر جهله ويتلو الجهل الّذي يسمّى كفراً الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فانّ هذا أيضاً عين الجهل ، فمن عرف الله لم يتصوّر أن يكون آمناً ولا أن يكون آيساً ويتلو هذه الرّتبة البدع كلّها المتعلّقة بذات الله سبحانه وبصفاته وبأفعاله وشرايعه وبأوامره ونواهيه ، ومراتب ذلك لا تنحصر وهي تنقسم إلى ما يعلم أنّها داخلة تحت ذكر الكبائر المذكورة في القرآن و إلى ما يعلم أنّه لا يدخل و إلى ما يشكّ فيه ، وطلب دفع الشكّ في القسم المتوسّط

---

(١) الذاريات : ٥٦ .

(٢) قال العراقى : لم أجده بهذا اللفظ و أقول : أخرجه الديلمى فى مسند الفردوس بهذا اللفظ كما فى كنوز الحقايق للشيخ عبد الرؤوف المناوى باب الدال .

طمع في غير مطمع.

المرتبة الثانية النفوس إذ ببقائها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة بالله، فقتل النفس لا محالة من الكبائر و إن كان دون الكفر لأنّ ذلك يصدم عين المقصود و هذا يصدم وسيلة المقصود إذ حياة الدّنيا لا تراد إلّا للآخرة و التوصّل إليها بمعرفة الله تعالى و يتلو هذه الكبيرة قطع الأطراف و كلّ ما يفضي إلى الهلاك حتّى الضرب، وبعضها أكبر من بعض ويقع في هذه الرّتبة تحريم الزّنى و اللّواط لأنّه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالذكور في قضاء الشهوات انقطع النسل، ودفع الموجود قريبٌ من قطع الوجود، و أمّا الزّنى فإنّه لا يفوت أصل الوجود ولكن يشوّش الأنساب و يبطل التوارث و التناصر و جملة من الأمور الّتي لا ينتظم العيش إلّا بها بل كيف يتمّ النظام مع إباحة الزّنى ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفحل منها بإناث يختصّ بها عن سائر الفحول ولذلك لا يتصوّر أن يكون الزنى مباحاً في أصل شرع قصد به الإصلاح وينبغي أن يكون الزّنى في الرّتبة دون القتل لأنّه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولكنّه يفوت تمييز الأنساب ويحرّك من الأسباب ما يكاد يفضي إلى التقاتل و ينبغي أن يكون أشدّ من اللّواط لأنّ الشهوة داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه و يعظم أثر الضرر بكثرته.

المرتبة الثالثة الأموال فإنّها معائش الخلق فلا يجوز تسليط الناس على تناولها كيف شاؤوا حتّى بالاستيلاء و السرقة و غيرهما، بل ينبغي أن تحفظ لتبقى ببقائها النفوس إلّا أنّ الأموال إذا أُخذت أمكن استردادها و إن أكلت أمكن تغريمها، فليس يعظم الأمر فيها، نعم إذا جرى تناولها بطريق يعسر التدارك له فينبغي أن يكون ذلك من الكبائر و ذلك بأربعة طرق أحدها الخفية و هي السرقة فإنّه إذا لم يطّلع عليه غالباً فكيف يتدارك، والثاني أكل مال اليتيم و هذا أيضاً من الخفية و أعني به في حقّ الوليّ و القيّم فإنّه مؤتمنٌ فيه و ليس له خصم سوى اليتيم و هو صغيرٌ لا يعرفه فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف الغصب فإنّه ظاهر يعرف، و بخلاف الخيانة في الوديعة فإنّ المودع خصم فيه ينتصف لنفسه، و الثالث

تفويتها بشهادة الزّور، و الرّابع أخذ الوديعة و غيرها باليمين الغموس فإنّ هذه طريق لايمكن فيها التدارك ولا يجوز أن يختلف الشرائع في تحريمها أصلاً وبعضها أشدّ من بعض و كلّها دون الرّتبة الثانية المتعلّقة بالنفوس، وهذه الأربعة جديرة بأن تكون مرادة بالكبائر و إن لم يوجب الشرع الحدّ في بعضها ولكن كثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدّنيا و الدّين تأثيرها، و أمّا أكل الرّبا فليس فيه إلّا أكل مال الغير بالتراضي مع الاخلال بشرط وضعه الشّرع[١]، ولايبعد أن يختلف الشرائع في مثله، و إذا لم يجعل الغصب الّذي هو أكل مال الغير بغير رضاه و بغير رضى الشرع من الكبائر فأكل الرّبا أكل برضا المالك ولكن دون رضا الشرع و إن عظّم الشرع الرّبا بالزّجر عنه فقد عظّم أيضاً الظلم بالغصب وغيره وعظّم الخيانة، والمصير إلى أنّ أكل دانق بالخيانة أو الغصب من الكبائر فيه نظر و ذلك واقع في مظنّة الشكّ، و أكثر ميل الظنّ إلى أنّه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي أن يختصّ الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرائع فيه ليكون ضروريّاً في الدّين، فيبقى ممّا ذكره أبو طالب المكّيّ القذف و الشرب و السحر و الفرار من الزّحف و عقوق الوالدين، أمّا الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر و قد دلّ عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضاً لأنّ العقل محفوظ كما أنّ النفس محفوظة بل لا خير في النفس دون العقل فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر ولا شكّ في أنّه لو شرب ماء فيه قطرة من الخمر لم يكن ذلك

---

(١) فيه نظر لان الزنى كذلك أيضاً ولاريب أن الربا القرضى يزيد يوماً فيوماً فى عدد المحتاجين و يجتمع الثروة عند الاقلين وينجر الى تراكم الثروة عند افراد و يؤدى ذلك الى فناء طبقة المعسرين وفى ذلك فساد النظام الاجتماعى والهرج والمرج و فناء المدنيّة والانسانية. و لذلك قال الله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله » وليست فى الاسلام معصية حرمتها أعظم من الربا وعقوبتها أشد منه لان آكله فى حكم من حارب الله ورسوله. فعلى هذا هو من أكبر الكبائر. راجع فى تفصيل ذلك تفسير الميزان للعلامة الفذ السيد محمد حسين الطباطبائى ج ٢ ص ٢٥٤ الى ٢٥٧.

كبيرة و إنّما هو شرب ماء نجس و القطرة وحدها في محلّ الشكّ وإيجاب الشرع الحدّ به يدلّ على تعظيم أمره فيعدّ ذلك من الكبائر بالشرع وليس في القوّة البشريّة الوقوف على جميع أسرار الشرع ، فإن ثبت إجماع في أنّه كبيرة وجب الاتّباع و إلاّ فللتوقّف فيه مجال ، وأمّا القذف فليس فيه إلّا تناول الأعراض والأعراض دون الأموال في الرّتبة و لتناولها مراتب وأعظمها التناول بالقذف بالإضافة إلى فاحشة الزّنى وقد عظّم الشرع أمره ، و أظنّ ظنّاً غالباً أنّ الصحابة كانوا يعدّون كلّ ما يجب الحدّ به كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفّره الصلوات الخمس و هو الّذي نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث أنّه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرّده لا يدلّ على كبره و عظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأنّ العدل الواحد إذا رأى إنساناً يزني فله أن يشهد و يجلد المشهود عليه بمجرّد شهادته فإن لم تقبل شهادته فحدّه ليس ضروريّاً في مصالح الدّنيا و إن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فإذن هذا أيضاً يلتحق بالكبائر في حقّ من عرف حكم الشرع فأمّا من ظنّ أنّ له أن يشهد وحده أو ظنّ أنّه يساعده على الشهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقّه من الكبائر ، و أمّا السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلّا فعظمته بحسب الضرر الّذي يتولّد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره ، و أمّا الفرار من الزّحف و عقوق الوالدين فهذا أيضاً ينبغي أن يكون من حيث القياس في محلّ التوقّف و إذا قطع بأن سبّ الناس بكلّ شيء سوى الزّنى وضربهم و الظلم عليهم بغصب أموالهم و إخراجهم من مساكنهم و بلادهم و إجلائهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة و هو أكبر ما قيل فيه فالتوقّف في هذا أيضاً غير بعيد ولكنّ الحديث يدلّ على تسميته كبيرة فليلحق بالكبائر فإذن رجع حاصل الأمر إلى أنّا نعني بالكبيرة ما لا تكفّره الصلوات الخمس بحكم الشرع و ذلك ممّا انقسم إلى ما علم أنّه لا تكفّره قطعاً و إلى ما ينبغي أن تكفّره و إلى ما يتوقّف فيه و المتوقّف فيه بعضه مظنون للنفي و الإثبات و بعضه مشكوك فيه وهو شكّ لا يزيله إلّا نصّ كتاب أو سنّة و إذا لا مطمع فيها فطلب رفع الشكّ فيه محال .

فإن قلت : فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدّها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حدّه ، فاعلم أنّ كلّ ما لايتعلّق به حكم الدّنيا فيجوز أن يتطرّق إليه الإبهام لأنّ دار التكليف هي دار الدّنيا و الكبيرة على الخصوص لاحكم لها في الدّنيا من حيث إنّها كبيرة بل كلّ موجبات الحدود معلومة بأساميها كالسرقة و الزّنى وغيرهما و إنّما حكم الكبيرة أنّ الصلوات الخمس لا تكفّرها و هذا أمر يتعلّق بالآخرة و الابهام أليق به حتّى يكون الناس على وَجَلٍ و حذر فلا يتجرّؤن على الصغائر اعتماداً على الصلوات الخمس و كذلك اجتناب الكبائر يكفّر الصغائر بموجب قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم » ولكن اجتناب الكبيرة إنّما يكفّر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة و الإرادة كمن يتمكّن من امرأة و من مواقعتها فيكفّ نفسه عن الوقاع و يقتصر على نظر ولمس فإنّ مجاهدته نفسه في الكفّ عن الوقاع أشدّ تأثيراً في تنوير قلبه من إقدامه على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره ، فإن كان عنّيناً أولم يكن امتناعه إلّا بالضرورة للعجز أوكان قادراً ولكن امتنع لخوف أمر آخر فهذا لايصلح للتكفير أصلاً و كلّ من لايشتهي الخمر بطبعه و لو اُبيح له لما شربه فاجتنابه لا يكفّر عنه الصغائر الّتي هي من مقدّماته كسماع الملاهي و الأوتار نعم من يشتهي الخمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الخمر و يطلقها في السماع فمجاهدته النفس بالكفّ ربّما يمحو عن قلبه الظلمة الّتي ارتفعت إليه من معصية السماع و كلّ هذه أحكام اُخرويّة و يجوز أن يبقى بعضها في محلّ الشكّ و تكون من المتشابهات ولا يعرف تفصيلها إلّا بالنصّ و لم يرد النصّ بعد ولا حدّ جامع بل ورد بألفاظ مختلفة فقد روي أنّه عليه السلام قال : « الصلاة إلى الصلاة كفّارة و رمضان إلى رمضان كفّارة إلّا من ثلاث : الاشراك بالله وترك السنّة و نكث الصفقة قيل : و ما ترك السنّة ؟ قال : الخروج من الجماعة ، ونكث الصفقة أن يبايع رجلاً ثمّ يخرج عليه بالسيف يقاتله »[1] فهذا وأمثاله من الألفاظ لا تحيط بالعدد كلّه ولا تدلّ على

---

(١) أخرج الحاكم ج ٤ ص ٢٩٥ نحوه وقال صحيح الاسناد .

حدّ جامع فيبقى لامحالة مبهماً .

فإن قلت : الشهادة لا تقبل إلّا ممن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرطاً في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدّنيا ، فاعلم أنّا نختص ردّ الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع الملاهي و يلبس الدّيباج و يتختّم بخاتم الذّهب و يشرب من أواني الذّهب و الفضّة لا تقبل شهادته و لم يذهب أحدٌ إلى أنّ هذه الأمور من الكبائر بل كلّ الذّنوب يقدح في العدالة إلّا ما لا يخلو الإنسان عنه غالباً بضرورة مجاري العادات كالغيبة و التجسّس و سوء الظنّ و الكذب في بعض الأقوال و سماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف وأكل الشبهات و سبّ الولد والغلام وضربهما بحكم الغضب زائداً على حدّ المصلحة و إكرام السلاطين الظلمة و مصادقة الفجّار و التكاسل عن تعليم الأهل و الولد جميع ما يحتاجون إليه في أمر الدّين ، فهذه ذنوب لا يتصوّر أن ينفكّ الشاهد عن قليلها و كثيرها إلّا بأن يعتزل الناس ويتجرّد لأمر الآخرة و يجاهد نفسه مدّة بحيث يبقى على سجيّته مع المخالطة بعد ذلك و لو لم يقبل إلّا قول مثله لعزّ وجوده و بطلت الأحكام و الشهادات ، و ليس لبس الحرير وسماع الملاهي واللّعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والخلوة بالأجنبيّات و أمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة و ردّها لا إلى الكبيرة والصغيرة ، ثمّ آحاد هذه الصّغائر الّتي لا تردّ الشهادة بها لوواظب عليها لأثر في ردّ الشهادة كمن اتّخذ الغيبة و ثلب الناس عادة و كذلك مجالسة الفجّار و مصادقتهم و الصغيرة تكبر بالمواظبة .

أقول: و من طريق الخاصّة عن علقمة أنّه قال للصّادق عليه السلام: «يابن رسول الله أخبرني عمّن تقبل شهادته ومن لا تقبل ؟ فقال : يا علقمة كلّ من كان على فطرة الإسلام جازت شهادته ، قال : فقلت له : تقبل شهادة مقترف بالذّنوب ؟ فقال : ياعلقمة لو لم تقبل شهادة المقترفين للذّنوب لما قبلت إلّا شهادة الأنبياء و الأوصياء لأنّهم هم المعصومون دون سائر الخلق فمن لم تره بعينك يرتكب ذنباً أو لم يشهد عليه بذلك شاهدان فهو من أهل العدالة والستر و شهادته مقبولة و إن كان في نفسه مذنباً

و من اغتابه بما فيه فهو خارج عن ولاية الله داخل في ولاية الشّيطان »[١].

﴿ بيان كيفيّة توزّع الدّرجات والدّركات ﴾
﴿ في الآخرة على الحسنات والسيّئات في الدّنيا ﴾

إعلم أنّ الدّنيا من عالم الملك والشهادة و الآخرة من عالم الغيب والملكوت و أعني بالدّنيا حالتك قبل الموت و بالآخرة حالتك بعد الموت فدنياك و آخرتك صفاتك و أحوالك يسمّى القريب الدّاني منها دنيا و المتأخّرة آخرة و نحن الآن نتكلّم من الدّنيا في الآخرة فإنّا الآن نتكلّم في الدّنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة و هي عالم الملكوت ولا يتصوّر شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلّا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس ومايعقلها إلّا العالمون»[٢] و هذا لأنّ عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت و لذلك قال عليه السلام : « الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا »[٣] وما سيكون في اليقظة لا يتبيّن لك في النّوم إلّا بضرب الأمثال المحوجة إلى التعبير و كذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبيّن في نوم الدّنيا إلّا في كسوة الأمثال وأعني بكسوة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير ويكفيك منه إن كنت فطناً ثلاثة أمثلة فقد جاء رجل إلى ابن سيرين و قال : رأيت كأنّ في يدي خاتماً أختم به أفواه الرّجال و فروج النساء؟فقال : إنّك مؤذّن تؤذّن في رمضان قبل طلوع الفجر،فقال: صدقت . وجاءه آخر فقال: رأيت كأنّي أصبّ الزّيت في الزّيتون فقال : إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتّش عن حالها فإنّها اُمّك لأنّ الزّيتون أصل الزّيت فهو ردّ إلى الأصل فنظر فإذا جاريته كانت اُمّه وقدسبيت في صغره ، و قال له آخر : رأيت كأنّي أقلّد الدرّ في أعناق الخنازير؟فقال : إنّك تعلّم الحكمة غير أهلها.فكان كما قال ، فالتعبير من أوّله إلى آخره مثال يعرفك طريق ضرب الأمثال وإنّما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده

---

(١) رواه الصدوق - رحمه الله - في المجالس ص ٦٣ .

(٢) العنكبوت : ٤٣ .

(٣) قال العراقي : لم أجده مرفوعاً وانما يعزى الى علي بن أبي طالب عليه السلام .

صادقاً و إن نظر إلى صورته كان كاذباً فالمؤذّن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذباً فإنّه لم يختم به قطّ و إن نظر إلى معناه وجده صادقاً إذ قد صدر منه روح الختم و معناه و هو المنع الّذي يراد الختم له ، و ليس للأنبياء أن يتكلّموا مع الخلق إلّا بضرب الأمثال لأنّهم كلّفوا أن يكلّموا الناس على قدر عقولهم ، و قدر عقولهم أنّهم في النّوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلّا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا و عرفوا أنّ المثل صادق و لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن »[١] و هو من المثال الّذي لا يعقله إلّا العالمون فأمّا الجاهل فلا يجاوز حدّه ظاهر المثال لجهله بالتفسير الّذي يسمّى تأويلاً كما يسمّى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيراً فيثبت لله يداً وأصبعاً تعالى الله عن قوله . و كذلك في قوله عليه السلام : « إنّ الله خلق آدم على صورته »[٢] فإنّه لا يفهم من الصورة إلّا اللّون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك تعالى الله عن قوله علوّاً كبيراً و من ههنا زلّ من زلّ في الصفات الإلهيّة حتّى في الكلام و جعلوه صوتاً و حرفاً إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول ، و كذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذّب بها الملحد لجمود نظره على ظاهر المثال و يناقضه عند قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح»[٣] فيثور الملحد الأحمق ويكذّب به و يستدلّ على كذب الأنبياء و يقول : ياسبحان الله الموت عرَض والكبشُ جسمٌ فكيف ينقلب العرَض جسماً وهل هذا إلّا محال؟! ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحمقى

---

(١) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٣٢١ بنحوه و قد تقدم .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٩ في حديث . وروى الصدوق ـ رحمه الله ـ في العيون والتوحيد باسناده عن الحسين بن خالد قال قلت للرضا عليه السلام : «يا ابن رسول الله ان الناس يروون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال . « ان الله خلق آدم على صورته » فقال : قاتلهم الله لقد حذفوا أول الحديث ، ان رسول الله صلى الله عليه وآله مر برجلين يتسابان فسمع أحدهما يقول لصاحبه : قبح الله وجهك و وجه من يشبهك ، فقال : يا عبدالله لاتقل هذا لاخيك فان الله تعالى خلق آدم على صورته » .

(٣) أخرجه البخاري و مسلم ج ٨ ص ١٥٢ من حديث أبي سعيد .

عن معرفة أسرار الله تعالى فقال : « و ما يعقلها إلّا العالمون » و لا يدري المسكين أنّ من قال : رأيت في منامي أنّه قد جيء بكبش و قيل : هذا هو الوباء الّذي في البلد وذبح ، فقال المعبّر : صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدلّ على أنّ الوباء ينقطع ولا يعود قطّ لأنّ المذبوح وقع اليأس منه ، فاذن المعبّر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقته إلى أنّ الملك الموكّل بالرّؤيا و هو الّذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللّوح المحفوظ عرفه بما في اللّوح المحفوظ بمثال ضربه له لأنّ النائم إنّما يحتمل المثال فكان مثاله صادقاً وكان معناه صحيحاً فالرّسل أيضاً إنّما يكلّمون الناس في الدّنيا و هي بالإضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون المعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفاً بعباده و تيسيراً لإدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب المثل فقوله : «يؤتى بالموت في صورة كبش أملح » مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت و قد جبلت القلوب عن التأثّر بالأمثلة و ثبوت المعاني فيها بواسطتها ولذلك عبّر القرآن بقوله : « كن فيكون » عن نهاية القدرة و عبّر صلّى الله عليه وآله وسلّم بقوله : « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن » عن سرعة التقليب و قد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ، فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أنّ تعريف توزّع الدّرجات والدّركات على الحسنات والسيّئات لا يمكن إلّا بضرب الأمثال فليفهم من المثل الّذي نضربه معناه لا صورته فنقول :

الناس في الآخرة ينقسمون أصنافاً و تتفاوت درجاتهم و دركاتهم في السعادة و الشقاوة تفاوتاً لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتت في سعادة الدّنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة الدّنيا في هذا المعنى أصلاً البتّة ، فانّ مدبّر الملك والملكوت واحد لا شريك له فسنّته الصّادرة عن إرادته الأزليّة مطّردة لا تبديل لها إلّا أنّا إن عجزنا عن إحصاء آحاد الدّرجات فلا نعجز عن الأجناس فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين و معذّبين و ناجين و فائزين ، و مثاله في الدّنيا أن يستولي ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم الهالكون و يعذّب بعضهم

مدّة ولا يقتلهم فهم المعذّبون و يخلّي بعضهم فهم الناجون و يخلع على بعضهم فهم الفائزون فإن كان الملك عادلاً لم يقسّمهم كذلك إلّا باستحقاق فلا يقتل إلّا جاحداً لاستحقاق الملك، معانداً له في أصل الدّولة ولا يعذّب إلّا من قصّر في خدمته مع الاعتراف بملكه و علوّ درجته ولا يخلّي إلّا معترفاً له برتبة الملك لكنّه لم يقصّر ليعذّب ولم يخدم ليخلع عليه ولا يخلع إلّا على من أبلى عمره في الخدمة و النصرة ثمّ ينبغي أن يكون خلع الفائزين متفاوتة الدّرجات بحسب درجات خدمتهم وإهلاك الهالكين إمّا تخفيفاً بجزّ الرّقبة أو تنكيلاً بالمثلة بحسب درجات معاندتهم وتعذيب المعذّبين في الخفّة والشدّة و طول المدّة وقصرها واتّحاد أنواعها و اختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كلّ رتبة من هذه الرّتب إلى درجات لا تنحصر ولا تحصى فكذلك فافهم أنّ الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك و من معذّب مدّة ومن ناج يحلّ في دار السلام ومن فائز، والفائزون ينقسمون إلى من يحلّون في جنّات عدن أو جنّات المأوى أو جنّات الفردوس، والمعذّبون ينقسمون إلى من يعذّب قليلاً و إلى من يعذّب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة و ذلك آخر من يخرج من النّار(١) كما ورد في الخبر، و كذلك الهالكون الآيسون عن رحمة الله تتفاوت دركاتهم، و هذه الدّرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفيّة توزّعها عليها.

أمّا الرّتبة الاُولى و هي الهلاك و نعني بالهالكين الآيسين من رحمة الله إذ الّذي قتله الملك في المثال الّذي ضربناه أيس من رضا الملك وإكرامه فلا تغفل عن معاني المثال و هذه الدّرجة لا تكون إلّا للجاحدين والمعرضين المتجرّدين للدّنيا المكذّبين بالله و برسله و بكتبه فإنّ السعادة الاُخرويّة في القرب من الله و النظر إلى وجهه الكريم و ذلك لا ينال أصلاً إلّا بالمعرفة الّتي يعبّر عنها بالإيمان و التصديق، و الجاحدون هم المنكرون، والمكذّبون هم الآيسون من رحمة الله أبد الآباد، و هم الّذين يكذّبون بربّ العالمين و بأنبيائه المرسلين وهم عن ربّهم يومئذ محجوبون لا محالة و كلّ محجوب عن محبوبه فمحول بينه و بين ما يشتهيه فهو لا محالة يكون محترقاً مع نار جهنّم بنار الفراق ولذلك قال العارفون : ليس خوفنا

(١) أخرجه الترمذى الحكيم فى النوادر.

من نار جهنّم ولا رجاؤنا للحور العين وإنّما مطلبنا اللّقاء و مهربنا من الحجاب فقط" و قالوا : من يعبدالله بعوض فهو لئيم ، إذ يعبده لطلب جنّته أو لخوف ناره بل العارف يعبده لذاته فلا يطلب إلّا ذاته فقط، فأمّا الحور و الفواكه فقد لا يشتهيها و أمّا النار فقد لا يتّقيها إذ نار الفراق إذا استولت ربّما غلبت النّار المحرقة للأجسام فإنّ نار الفراق نار الله الموقدة الّتي تطّلع على الأفئدة و نار جهنّم لا شغل لها إلّا مع الأجسام و ألم الأجسام يستحقر مع ألم الفؤاد و لذلك قيل :

ففي فؤاد المحبّ نار جوى ✡ أحرّ نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدّنيا فقد رئي من غلب عليه الوجد فعدا على النار و على اُصول القصب الجارحة للقدم و لا يحسّ به لفرط غلبة ما في جوفه ، ويرى الغضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصيبه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأنّ الغضب نار في القلب ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الغضب قطعة من النّار »(١) واحتراق الفؤاد أشدّ من احتراق الأجساد و الأشدّ يبطل الإحساس بالأضعف كما تراه . فليس الهلاك من النار والسيف إلّا من حيث إنّه يفرّق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف المتمكّن في الأجسام ، فالّذي يفرّق بين القلب وبين محبوبه المرتبط به برابطة تأليف أشدّ إحكاماً من تأليف الأجسام فهو أشدّ إيلاماً إن كنت من أرباب البصائر و أرباب القلوب و لا يبعد أن لا يدرك مَن لا قلب له شدّة هذا الألم و يستحقره بالإضافة إلى ألم الجسم ، فالصبيّ لو خير بين ألم الحرمان عن الكرة والصولجان و بين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحسّ بألم الحرمان عن رتبة السّلطان أصلاً و لم يعد ذلك ألماً ، و قال : العدو في الميدان مع الصّولجان أحبّ إليّ من سرير ألف سلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء و بين فعل جميل يقهر به الأعداء و يفرح به الأصدقاء لآثر الهريسة والحلواء و هذا كلّه لفقد المعنى الّذي بوجوده يصير الجاه محبوباً و وجود المعنى الّذي بوجوده يصير الطعام

(١) تقدم في كتاب الغضب .

لذيذاً و ذلك لمن استرقته صفات البهائم والسباع ولم تظهر فيه الصفات الملكيّة الّتي لا يناسبها ولا يلذّها إلّا القرب من ربّ العالمين ، ولا يؤلمها إلّا البعد و الحجاب ، و كما لايكون الذّوق إلّا في اللّسان و السمع إلّا في الآذان فلا تكون هذه الصفة إلّا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحسّ كمن لا سمع له و لا بصر ليس له لذّة الألحان و حسن الصور و الألوان و ليس لكلّ إنسان قلبٌ و لو كان لما صحّ قوله تعالى : « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب » (١) فجعل من لم يتذكّر بالقرآن مفلساً من القلب ، و لست أعني بالقلب هذا اللّحم الّذي تكتنفه عظام الصدر ، بل أعني به السرّ الّذي هو من عالم الأمر و هذا اللّحم الّذي هو من عالم الخلق عرشه و الصدر كرسيّه و ساير الأعضاء عالمه و مملكته و لله الخلق و الأمر جميعاً و لكن ذلك السرّ هو الّذي قال الله تعالى فيه : « قل الرّوح من أمر ربّي » و هو الملك والأمير لأنّ بين عالم الأمر و بين عالم الخلق ترتيباً ، و عالم الأمر أمير على عالم الخلق و هي اللّطيفة الّتي إذا صلحت صلح لها سائر الجسد ، من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربّه ، وعند ذلك يشمّ العبد مبادي روائح المعنى المطويّ تحت قوله صلّى الله عليه وآله : « إنّ الله خلق آدم على صورته » و ينظر بعين الرّحمة على الجامدين على ظاهر لفظه وإلى المتعسّفين في طرق تأويله وإن كانت رحمته للجامد على اللّفظ أكثر من رحمته للمتعسّف في التأويل لأنّ الرّحمة على قدر المصيبة و مصيبة اُولئك أكثر و إن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم ، وهي حكمته يخصّ بها من يريد « و من يؤت الحكمة فقد اُوتي خيراً كثيراً » ولنعد إلى الغرض فقد أرخينا الطول و طوّلنا النفس في أمر هو أعلى من علوم المعاملة الّتي نقصدها في هذا الكتاب فقد ظهر أنّ رتبة الهلاك ليست إلّا للجهّال المكذّبين و شهادة ذلك من كتاب الله تعالى و سنّة رسوله لا تدخل تحت الحصر فلذلك لم نورده .

الرّتبة الثانية : رتبة المعذّبين و هذه رتبة من تحلّى بأصل الإيمان ولكن

---

(١) سورة ق : ٣٧ .

قصّر في الوفاء بمقتضاه فإنّ رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يعبد إلّا الله ، ومن اتّبع هواه فقد اتّخذ إلهه هواه فهو موحّد بلسانه لا بالحقيقة ، بل معنى قولك : «لا إله إلّا الله» معنى قوله تعالى : «قل الله ثمّ ذرهم»[1] وهو أن تذر بالكلّية غير الله ومعنى قوله «الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا»[2] ولمّا كان الصراط المستقيم الّذي لا يكمل التوحيد إلّا بالاستقامة عليه أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة فلا ينفكّ بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير ، إذ لا يخلو عن اتّباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي لا محالة نقصاناً في درجة القرب ومع كلّ نقصان ناران نار الفراق لذلك الكمال الفائت بالنقصان ، ونار جهنّم كما وصفها القرآن فيكون كلّ مائل عن الصراط المستقيم معذّباً مرّتين من وجهين ولكن شدّة ذلك العذاب وخفّته وتفاوته بحسب طول المدّة إنّما يكون بسبب أمرين أحدهما قوّة الإيمان وضعفه ، والثاني كثرة اتّباع الهوى وقلّته وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى : «وإن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً ٭ ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً»[3] ولذلك قال الخائفون من السلف : إنّما خوفنا لأنّا تيقّنّا أنّا على النار واردون وشككنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنّه ينادي يا حنّان يا منّان .[4] قال الحسن : يا ليتني كنت ذلك الرجل. واعلم أنّ في الأخبار ما يدلّ على أنّ آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأنّ الاختلاف في المدّة بين اللّحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى يجوز بعضهم على النار كبرق خاطف ولا يكون له فيها لبث ، وبين اللّحظة وبين سبعة

---

(١) الانعام : ٩١ . (٢) فصلت : ٣٠ .

(٣) مريم : ٧١ و ٧٢ .

(٤) قال العراقى : أخرجه أحمد و أبويعلى من رواية أبى ظلال القسملى عن أنس و أبوظلال ضعيف واسمه هلال بن ميمون .

آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم و الاُسبوع والشهر و سائر المدد وأنّ الاختلاف بالشدّة لا نهاية لأعلاه و أدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كما أنّ الملك قد يعذّب بعض المقصّرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثمّ يعفو ، و قد يضرب بالسياط ، و قد يعذّب بأنواع اُخر من العذاب ، و يتطرّق إلى العذاب اختلاف ثالث غير المدّة و الشدّة و هو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذّب بمصادرة المال فقط كمن يعذّب بأخذ المال و بقتل الولد و استباحة الحريم وتعذيب الأقارب والضرب و قطع اللّسان و اليد و الأنف و الاُذن و غيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دلّ عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوّة الإيمان و ضعفه و كثرة الطاعات و قلّتها و كثرة السيّئات و قلّتها . أمّا شدّة العذاب فبشدّة قبح السيّئات ، و كبرها ، وأمّا كثرته فبكثرتها ، وأمّا اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيّئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان ، و هو المعنيُّ بقوله تعالى : « و ما ربّك بظلاّم للعبيد » (١) و بقوله : « اليوم تجزى كلّ نفس بما كسبت » (٢) و بقوله : « و أن ليس للإنسان إلّا ما سعى » (٣) و بقوله : « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ✡ و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » (٤) إلى غير ذلك ممّا ورد في الكتاب و السنّة من كون الثواب و العقاب جزاء على الأعمال و كلّ ذلك بعدل لا ظلم فيه ، و جانب العفو و الرّحمة أرجح إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبيّنا صلى الله عليه وآله « سبقت رحمتي غضبي » (٥) و قال تعالى : « و إن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً » (٦) فإذن هذه الاُمور الكلّيّة من ارتباط الدّرجات و الدّركات بالحسنات و السيّئات معلومة بقواطع الشرع و نور المعرفة ، فأمّا التفصيل فلا يعرف إلّا ظنّاً و مستنده ظواهر الأخبار و نوع حدس يستمدّ من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار فنقول : كلّ من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع

---

(١) فصلت : ٤٦ . (٢) غافر : ١٧ .
(٣) النجم : ٣٩ . (٤) الزلزلة : ٧ و ٨ .
(٥) أخرجه البخارى ج ٩ ص ١٦٦ و مسلم ج ٨ ص ٩٥ من حديث أبى هريرة .
(٦) النساء : ٤٠ .

الفرائض أعني الأركان الخمسة ولم يكن منه إلاّ صغائر متفرّقة لم يصرّ عليها فيشبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب فقط فإنّه إذا حوسب رجّحت حسناته على سيّئاته إذ ورد في الأخبار «أنّ الصلوات الخمس و الجمعة و صوم رمضان كفّارة لما بينهنّ»[1] و كذلك اجتناب الكبائر بحكم نصّ القرآن مكفّر للصغائر وأقلّ درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يكن يدفع الحساب و كلّ من هذا حاله فقد ثقلت موازينه فينبغي أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان و بعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية، نعم التحاقه بأصحاب اليمين أو بالمقرّبين ونزوله في جنّات عدن أو في الفردوس الأعلى، فذلك يتبع أصناف الإيمان لأنّ الإيمان إيمانان إيمان تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يسمعون و يستمرّون عليه، و إيمان كشفي يحصل بانشراح الصدر بنور الله حتّى ينكشف فيه الوجود كلّه على ما هو عليه فيتّضح أنّ الكلّ إلى الله مرجعه و مصيره إذ ليس في الوجود إلاّ الله و صفاته وأفعاله فهذا الصنف هم المقرّبون النازلون في الفردوس الأعلى، و هم على غاية القرب من الملإ الأعلى، وهم أيضاً على أصناف فمنهم السابقون و منهم من دونهم، و تفاوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى و درجات العارفين في المعرفة لا تنحصر إذ الاحاطة بكنه جلال الله غير ممكن، و بحر المعرفة ليس له ساحلٌ و عمقٌ، و إنّما يغوص فيه الغوّاصون بقدر قواهم و بقدر ما سبق لهم من الله في الأزل، فالطريق إلى الله لا نهاية لمنازله، فالسالكون سبيل الله لا نهاية للدرجاتهم، و أمّا المؤمن إيماناً تقليدياً فهو من أصحاب اليمين و درجته دون درجة المقرّبين و هم أيضاً على درجات فالأعلى من درجات أصحاب اليمين يقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرّبين، هذا حال من اجتنب كلّ الكبائر و أدّى الفرائض كلّها أعنى الأركان الخمسة الّتي هي النطق بكلمة الشهادة باللّسان و الصلاة والزكاة والصوم والحجّ وأمّا من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الإسلام فإن تاب توبة نصوحاً قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأنّ التائب من الذّنب كمن لا ذنب له، والثوب المغسول كالّذي

---

(١) تقدم في الباب آنفا.

لم يتوسّخ أصلاً ، و إن مات قبل التوبة فهذا أمره مخطر عندالموت ، إذ ربّما يكون موته على الإصرار سبباً لتزلزل إيمانه فيختمله بسوء الخاتمة لاسيّما إذاكان إيمانه تقليدياً فإنّ التقليد وإن كان جزماً فهو قابل للانحلال بأدنى شكّ وخيال ، والعارف البصير أبعد من أن يخاف عليه سوء الخاتمة و كلاهما إن ماتا على الإيمان يعذّبان - إلّا أن يعفوالله - عذاباً يزيدعلى عذاب المناقشة في الحساب ، وتكون كثرة العذاب من حيث المدّة بحسب كثرة مدّة الإصرار ، ومن حيث الشدّة بحسب قبح الكبائر ، و من حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيّئات ، وعند انقضاء مدّة العقاب ينزل البله المقلّدون في درجات أصحاب اليمين و العارفون المستبصرون في أعلى علّيّين ، ففي الخبر «آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدّنيا كلّها عشرة أضعاف » (١) و لا تظننّ أنّ المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أوعشرة بعشرين. فإنّ هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملاً وأعطاه عشرة أمثاله ، و كان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاه مائة دينار فإن لم يفهم من المثل إلّا المثل في الوزن و الثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفّة الميزان و الجمل في الكفّة الاُخرى عشر عشيره بل هو موازنة معاني الأجسام و أرواحها دون أشخاصها و هيا كلها فإنّ الجمل لا يقصد لثقله و طوله و عرضه و مساحته بل لماليّته فروحه الماليّة و جسمه اللّحم و الدّم و مائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحانيّة لا بالموازنة الجسمانيّة ، وهذا صادقٌ عندمن يعرف روح الماليّة من الذّهب والفضّة بل لوأعطاه جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار و قال : أعطيته عشرة أمثاله كان صادقاً ولكن لا يدرك صدقه إلّا الجوهريّ فإنّ روح الجوهريّة لا تدرك بمجرّد البصر بل بفطنة اخرى وراء البصر فلذلك يكذّب به الصبيّ بل القروي و البدويّ و يقول : ما هذه الجوهرة إلّا حجر وزنه مثقال و وزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله إنّي أعطيت عشرة أمثاله و الكاذب بالتحقيق هو الصبيّ ولكن لاسبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلّا بأن ينتظر

---

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١١٩ .

به البلوغ و الكمال و أن يحصل في قلبه النور الّذي به يدرك أرواح الجواهر وسائر الأموال فعند ذلك ينكشف له الصدق و العارف عاجز عن تفهيم المقلّد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الموازنة إذ يقول: «الجنّة في السماوات»[(١)] كما ورد في الأخبار و السماوات من الدّنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدّنيا في الدّنيا، و هذا كمايعجز البالغ عن تفهيم الصبيّ تلك الموازنة و كذلك تفهيم البدويّ و كما أنّ الجوهريّ مرحوم إذا بلي بالبدويّ و القرويّ في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلي بالبليد الأبله في تفهيم هذه الموازنة و لذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ارحموا ثلاثة: عالماً بين الجهّال، وغنيّ قوم افتقر وعزيز قوم ذلّ»[(٢)]، والأنبياء مرحومون بين الاُمّة بهذا السبب و مقاساتهم لقصور عقول الأمّة فتنة لهم و امتحان وابتلاء من الله وبلاء موكّل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو المعنيّ بقوله عليه السلام «البلاء موكّل بالأنبياء ثمّ الأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل»[(٣)] فلا تظننّ أنّ البلاء بلاء أيّوب عليه السلام و هو الّذي ينزل بالبدن فإنّ بلاء نوح عليه السلام أيضاً من البلاء العظيم إذ بلي بجماعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلّا فراراً، و لذلك لما تأذّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بكلام بعض الناس قال: «رحم الله أخي موسى لقد اُوذي بأكثر من هذا فصبر»[(٤)] فإذن كما لا يخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاحدين فلايخلو الأولياء والعلماء عن الابتلاء بالجاهلين، ولذلك قلّ ما ينفكّ الأولياء عن ضروب من الإيذاء وأنواع البلايا بالإخراج من البلاد و السعاية بهم إلى السلاطين و الشهادة عليهم بالكفر و الخروج عن الدّين و واجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون المعتاض عن الجمل الكبير جوهرة صغيرة عند الجاهلين من

(١) روى البخاري ج ٩ ص ١٥٣ في حديث هكذا «اذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فانه أوسط الجنة و أعلى الجنة و فوقه عرش الرحمن و منه تفجر أنهار الجنة». ويفهم منه أن الجنة دون العرش و كون العرش فوق السماوات ظاهر الاخبار.

(٢) أخرجه ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس.

(٣) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٤٣ من حديث سعد بن أبي وقاص و صححه.

(٤) أخرجه البخاري ج ٧ ص ١١٩ وأحمد من حديث ابن مسعود بسند صحيح.

المبذّرين المضيّعين.

فإذا عرفت هذه الدقائق فآمن بقوله عليه السلام: « إنّه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدّنيا عشر مرّات » و اجتهد أن لا تعجز عن درك النكتة الدّقيقة الّتي ذكرنا وإيّاك أن تقصر بتصديقك على ما يدركه البصر و الحواسّ فقط فتكون حماراً برجلين لأنّ الحمار يشاركك في الحواس الخمس وإنّما أنت مفارق للحمار بسرّ الهي عرض على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنه و أشفقن منه فإدراك ما يخرج عن عالم الحواسّ الخمس لا يصادف إلّا في عالم ذلك السرّ الّذي فارقت به الحمار و سائر البهائم، فمن ذهل عن ذلك و أبطله و أهمله و قنع بدرجة البهائم، و لم يجاوز المحسوسات فهو الّذي أهلك نفسه بتعطيلها و نسيها بالاعراض عنها و الله يقول: « و لا تكونوا كالّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم »(١) و كلّ من لم يعرف إلّا المدرك بالحواسّ فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواسّ الخمس و كلّ من نسي الله أنساه الله لا محالة نفسه و نزل إلى رتبة البهائم و ترك الترقّي إلى اُفق الملإ الأعلى، و خان في الأمانة الّتي أودعها الله و أنعم بها عليه كافراً لنعمته و متعرّضاً لنقمته، إلّا أنّه أسوء حالاً من البهيمة، فإنّ البهيمة تتخلّص بالموت و أمّا هذا فعنده أمانة سترجع لا محالة إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة و مصيرها، و تلك الأمانة كالشمس الزّاهرة و إنّما هبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه، و ستطلع هذه الشمس عند خراب القالب من مغربها و تعود إلى بارئها و خالقها إمّا مظلمة منكسفة و إمّا زاهرة مشرقة، و الزاهرة المشرقة غير محجوبة عن الحضرة الرّبوبيّة و المظلمة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع و المصير للكلّ إليه إلّا أنّها ناكسة رأسها عن جهة أعلى علّيّين إلى جهة أسفل سافلين، و لذلك قال تعالى: « و لو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربّهم »(٢) فبيّن أنّهم عند ربّهم إلّا أنّهم منكوسون منحوسون قد انقلبت وجوههم إلى أقفيتهم و انتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل و ذلك

---

(١) الحشر: ١٩. (٢) السجدة: ١٢.

حكم الله تعالى فيمن حرمه توفيقه و لم يهده طريقه ، فنعوذ بالله من الضلال و النزول في منازل الجهّال .

فهذا حكم انقسام من يخرج من النار و يعطى مثل عشرة أمثال الدّنيا أو أكثر و لا يخرج من النار إلّا موحّد ، و لست أعني بالتوحيد أن يقول بلسانه : « لا إله إلّا الله » فإنّ اللّسان من عالم الملك و الشهادة فلا ينفع إلّا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته و أيدي الغانمين عن ماله و مدّة بقاء الرّقبة و المال مدّة الحياة فحيث لاتبقى رقبة ولا مال لاينفع القول باللّسان ، و إنّما ينفع الصدق في التوحيد و كمال التوحيد أن لايرى الأمور كلّها إلّا من الله وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه إذ لا يرى الوسائط و إنّما يرى مسبّب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكّل ، و هذا التوحيد متفاوت ، فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال ، و منهم من له مثقال ، و منهم من له مقدار خردلة و ذرّة ، فمن في قلبه مثقال دينار فهو أوّل مخرج من النار ، و في الخبر يقال : « أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان »(١) « و آخر من يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرّة من إيمان »(٢) و ما بين المثقال و الذرّة على تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرّة ، والموازنة بالمثقال والذرّة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين النقود ، وأكثر ما يدخل الموحّدين النار مظالم العباد ، فديوان العباد هو الدّيوان الّذي لا يترك و أمّا بقيّة السيّئات فيتسارع العفو و التكفير إليها ففي الأثر أنّ العبد ليوقف بين يدي الله عزّ و جلّ وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنّة ، فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا وأخذ مال هذا و ضرب هذا فينقص من حسناته حتّى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة : يا ربّنا قد فنيت حسناته و بقي طالبون كثير فيقال : ألقوا من سيّئاتهم على سيّئاته وصكّوا له صكّاً إلى النار ، و كما يهلك هو بسيّئة غيره بطريق القصاص فكذلك ينجو المظلوم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه

(١) و (٢) أخرجهما ابن ماجه تحت رقم ٥٩ و ٦٠ باختلاف في اللفظ .

عوضاً عمّا ظلمه به ، و قد حكي عن ابن الجلاء، أنّ بعض إخوانه اغتابه ثمّ أرسل إليه يستحلّه فقال : لا أفعل، ليس في صحيفتي حسنةأفضل منها فكيف أمحوها . وقال هو و غيره : ذنوب إخواني من حسناتي أُريدأن اُزيّن بها صحيفتي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف العباد في المعاد في درجات السعادة و الشقاوة و كلّ ذلك حكم بظاهر الأسباب يضاهي حكم الطبيب على مريض بأنّه يموت لامحالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأنّ عارضته خفيفه وعلاجه هيّن فإنّ ذلك ظنّ يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تتوق إلى المشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب و قد يساق إلى ذي العارض الخفيف أجله من حيث لايطّلع عليه و ذلك من أسرار الله تعالى الخفيّة في أرواح الأحياء و غموض الأسباب الّتي رتّبها مسبّب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوّة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة و الفوز في الآخرة لهما أسباب خفيّة ليس في قوّة البشر الاطّلاع عليها يعبّر عن ذلك السبب الخفيّ المفضي إلى النجاة بالعفو و الرّضا و عمّا يفضي إلى الهلاك بالغضب والانتقام و وراء ذلك سرّ المشيّة الأزليّة الّتي لا يطّلع الخلق عليها ، فلذلك يجب علينا أن نجوّز العفو عن العاصي وإن كثرت سيّئاته الظاهرة و الغضب على المطيع و إن كثرت طاعاته الظاهرة فإنّ الاعتماد على التقوى و التقوى في القلب و هو أغمض من أن يطّلع عليه صاحبه فكيف غيره ، ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنّه لا عفو عن عبد إلّا بسبب خفيّ فيه يقتضي العفو و لا غضب إلّا بسبب باطن يقتضي البعد عن الله و لولا ذلك لم يكن العفو والغضب جزاء على الأعمال و الأوصاف ولو لم يكن جزاء لم يكن عدلاً و لو لم يكن عدلاً لم يصحّ قوله تعالى : « و ما ربّك بظلّام للعبيد » (١) ولا قوله : « إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة » (٢) و كلّ ذلك صحيح فليس للإنسان إلّا ما سعى و سعيه هو الّذي يرى ، و كلّ نفس بما كسبت رهينة ، و لمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم ، ولمّا غيّروا مابأنفسهم غيّر الله ما بهم تحقيقاً لقوله تعالى : « إنّ الله لايغيّر مابقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم» (٣) وهذا كلّه قدانكشف

(١) فصلت : ٤٦ . (٢) النساء : ٤٠ . (٣) الرعد : ١١ .

لأرباب القلوب انكشافاً أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الغلط فيه إذ قديرى البعيد قريباً و الكبير صغيراً ، و مشاهدة القلب لا يمكن الغلط فيها و إنّما الشأن في انفتاح بصيرة القلب و إلاّ فما يرى بها بعد الانفتاح فلا يتصوّر فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى : « ما كذب الفؤاد مارأى » (١).

الرتبة الثالثة رتبة الناجين وأعني بالنجاة السلامة فقطّ دون السعادة والفوز ، و هم قوم لم يخدموا فيخلع عليهم ولم يقصروا فيعذّبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين و الصبيان من الكفّار و المعتوهين و الّذين لم تبلغهم الدّعوة في أطراف البلاد و عاشوا على البله و عدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جحود و لاطاعة ولا معصية ، فلا وسيلة تقرّبهم و لا جناية تبعدهم فما هم من أهل الجنّة ولاهم من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين ، وحلول طائفة من الخلق فيه معلوم يقيناً من الآيات و الأخبار و من أنوار الاعتبار ، فأمّا الحكم على العين كالحكم مثلاً بأنّ الصبيان منهم فهذا مظنونٌ وليس بمستيقن و الاطّلاع عليه تحقيقاً في عالم النبوّة و لا يبعد أن يرتقى إليه رتبة الأولياء و العلماء ، و الأخبار في حقّ الصبيان أيضاً متعارضة حتّى قالت عائشة (٢) لما مات بعض الصبيان : عصفورمن عصافير الجنّة ، فأنكر رسول الله عليه السلام ذلك وقال : « مايدريك » . فإذن الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام .

أقول: روي في الكافي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن الأطفال فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » (٣).

و أنّ الصادق عليه السلام سئل عمّن مات في الفترة وعمّن لم يدرك الحنث والمعتوه فقال : « يحتجّ الله عليهم يرفع لهم ناراً فيقول لهم : ادخلوها فمن دخلها كانت عليه برداً وسلاماً ، ومن أبى قال : ها أنتم قد أمرتكم فعصيتموني» (٤).

و في رواية اُخرى « فمن سبق له في علم الله عزّ وجلّ أن يكون سعيداً ألقى

---

(١) النجم : ١١ .
(٢) رواه مسلم ج ٨ ص ٥٤ .
(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٤٨ .
(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٤٩ .

نفسه فيها فكانت عليه برداً و سلاماً ، و من سبق له في علم الله أن يكون شقياً امتنع فلم يلق نفسه في النار فيأمر الله به إلى النار »(١) لتركه ما أمر الله و امتناعه من الدّخول فيها .

الرتبة الرابعة رتبة الفائزين وهم العارفون دون المقلّدين و هم المقرّبون السابقون ، فإنّ المقلّد و إن كان له فوزٌ على الجملة بمقام في الجنّة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم المقرّبون وما يلقى هؤلاء يجاوز حدّ البيان والقدر الممكن ذكره ما فصّله القرآن فليس بعد بيان الله بيانٌ ، والّذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الّذي أجمله قوله تعالى : «فلا تعلم نفسٌ ما اُخفي لهم من قرّة أعين»(٢) ، و قوله : «أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا اُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(٣) و العارفون مطلبهم تلك الحالة الّتي لا يتصوّر أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم ، فأمّا الحور و القصور والفواكه واللّبن والعسل و الخمر والحليّ والأساور فإنّهم لا يحرصون عليها و لو اُعطوها لم يقنعوا بها و لا يطلبون إلّا لذّة النظر إلى وجه الله الكريم فهو غاية السعادات و نهاية اللّذّات و لذلك قيل لرابعة العدويّة : كيف رغبتك في الجنّة ؟ فقالت : الجار ثمّ الدّار ، فهؤلاء قومٌ شغلهم حبُّ ربّ الدّار عن الدّار و زينتها ، بل عن كلّ شيء سواه حتّى عن أنفسهم ، و مثالهم مثال العاشق المستهتر بمعشوقه ، المستغرق همّه بالنظر إلى وجهه و الفكر فيه فإنّه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحسّ بما يصيبه في بدنه ، و يعبّر عن هذه الحالة بأنّه فنى عن نفسه ومعناه أنّه صار مستغرقاً بغيره ، و صارت همومه همّاً واحداً و هو محبوبه ولم يبق فيه متّسع لغير محبوبه حتّى يلتفت إليه لا نفسه ولا غير نفسه ، و هذه الحالة هي الّتي توصل في الآخرة إلى قرّة عين لا يتصوّر أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصوّر أن تخطر صورة الألوان و الألحان على قلب الأكمه و الأصم إلى أن يرفع الحجاب عن سمعه و بصره فعند ذلك يدرك حالة

---

(١) الكافي ج٣ ص ٢٤٨ نقلا بالمعنى .

(٢) السجدة : ١٧ . (٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٢٨

يعلم قطعاً أنّه لم يتصوّر أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدُّنيا حجابٌ على التحقيق وبرفعه ينكشف الغطاء، فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة «وأنّ الدّار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» فهذا القدر كاف في بيان توزّع الدّرجات على الحسنات و السيّئات .

﴿ بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب ﴾

إعلم أنّ الصغيرة تكبر بأسباب منها الإصرار والمواظبة ولذلك قيل : لاصغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصوّر ذلك كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ، و مثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثّر فيه وذلك القدر من الماء لو صبّ عليه دفعة واحدة لم يؤثّر ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «خير الأعمال أدومها وإن قلّ»(١) والأشياء تستبان بأضدادها فإذا كان النافع من العمل هو الدّائم و إن قلّ فالكثير المنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيّئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلّا أنّ الكبيرة قلّ ما يتصوّر الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر فقلّ ما يزني الزّاني بغتة من غير مراودة و مقدّمات وقلّ ما يقتل بغتة من غير مشاحنة سابقة و معاداة ، فكلّ كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة و لو يتصوّر كبيرة وحدها بغتة ولم يتّفق إليها عود ربّما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره .

أقول: روى في الكافي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : «لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار» (٢).

و عنه عليه السلام قال : «لا والله لايقبل شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه» (٣)

و عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : «ولم يصرّوا على مافعلوا وهم يعلمون» (٤)

(١) متفق عليه في الصحيحين من حديث عائشة كما تقدم بلفظ «أحب الاعمال».
(٢) و(٣) المصدر ج ٢ ص ٢٨٨ تحت رقم ١ و٣.
(٤) آل عمران : ١٣٥ .

قال: الإصرار أن يذنب الذّنب فلا يستغفر ولا يحدّث نفسه بتوبة فذلك الإصرار»[١].

و منها[٢] أن يستصغر الذّنب فإنّ العبد كلّ ما استعظمه من نفسه صغر عند الله وكلّ ما استصغره كبر عند الله لأنّ استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه و كراهيته له و ذلك النفور يمنع من شدّة تأثّره به و استصغاره يصدر عن الإلف به و ذلك يوجب شدّة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمحذور تسويده بالسيّئات و لذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في الغفلة فإنّ القلب لا يتأثّر بما يجري في الغفلة و قد جاء في الخبر «المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه، يخاف أن يقع عليه و المنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره»[٣] و قال بعضهم: الذّنب الّذي لا يغفر قول العبد: ليت كلّ شيء عملته مثل هذا. و إنّما يعظم الذّنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله، فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة و قد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: لا تنظر إلى قلّة الهديّة و انظر إلى عظم مهديها، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة و انظر إلى كبرياء من واجهته بها.

أقول: روى في الكافي عن زيد الشحّام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: «اتّقوا المحقّرات من الذّنوب فإنّها لا تغفر، قلت: و ما المحقّرات؟ قال: الرّجل يذنب الذّنب فيقول: طوبى لي لو لم يكن غير ذلك»[٤].

و عن الكاظم عليه السلام قال: «لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلّوا قليل الذّنوب فإنّ قليل الذّنوب يجتمع حتّى يكون كثيراً. و خافوا الله في السرّ حتّى تعطوا من أنفسكم النصف»[٥].

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٨٨ تحت رقم ٢.

(٢) من كلام الغزالي.

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٨٢ من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبدالله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه و آله والآخر عن نفسه فذكر هذا أولا، و «لله أفرح بتوبة العبد» ثانياً، ولم يبين المرفوع من الموقوف، وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه مرفوعاً و موقوفاً كما في المغني.

(٤) و (٥) المصدر ج ٢ ص ٢٨٧ تحت رقم ١ و ٢.

و عن الصادق عليه السلام « إنّ الله يحبّ العبد أن يطلب إليه في الجرم العظيم و يبغض العبد أنّ يستخفّ بالجرم اليسير»[١].

و منها[٢] السّرور بالصغيرة و الفرح والتبجّح بها واعتداد التمكّن من ذلك نعمة و الغفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلّما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة و عظم أثرها في تسويد قلبه حتّى أنّ من المذنبين من يتمدّح بذنبه ويتبجّح به لشدّة فرحه بمقارفته إيّاه كما تقول : أما رأيتني كيف مزّقت عرضه و يقول المناظر في مناظرته : أما رأيتني كيف فضحته و كيف ذكرت مساويه حتّى أخجلته و كيف استخففت به و كيف لبّست عليه ويقول المعامل في التجارة: أما رأيت كيف روّجت عليه الزّايف و كيف خدعته و كيف غبنته في ماله و كيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإنّ الذّنوب مهلكات و إذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحمل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسّف بسبب غلبة العدوّ عليه و بسبب بعده من الله تعالى فالمريض الّذي يفرح بأن ينكسر إناؤه الّذي فيه دواؤه حتّى يتخلّص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه .

و منها أن يتهاون بستر الله عليه و حلمه عنه و إمهاله إيّاه ولا يدري أنّه إنّما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً فيظنّ أنّ تمكّنه من المعاصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله و جهله بمكامن الغرور بالله كما قال تعالى : « و يقولون في أنفسهم لولا يعذّبنا الله بما نقول حسبهم جهنّم يصلونها فبئس المصير»[٣].

و منها أن يأتي الذّنب و يظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتيه في مشهد غيره فإنّ ذلك منه جناية على ستر الله الّذي سدله عليه و تحريك لرغبة الشرّ فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمّتا إلى جنايته فتغلّظت به فإن انضاف إلى ذلك التّرغيب للغير فيه و الحمل عليه و تهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة و تفاحش الأمر و في الخبر « كلّ النّاس معافى إلّا المجاهرين يبيت أحدهم على

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٤٢٧ تحت رقم ٦

(٢) من كلام الغزالي . (٣) المجادلة : ٨ .

ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله عليه ويتحدّث بذنبه »[١] وهذا لأنّ من صفات الله و نعمه أنّه يظهر الجميل و يستر القبيح ولا يهتك الستر ، فالإظهار كفران لهذه النّعمة و قال بعضهم : لا تذنب فإن كان و لابدّ فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين و لذلك قال تعالى : « المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف »[٢]. و قال بعض السّلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثمّ يهوّنها عليه.

أقول: روى في الكافي بإسناده عن مولانا الرّضا عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة و المذيع بالسيّئة مخذول و المستتر بها مغفور له »[٣].

و منها[٤] أن يكون المذنب عالماً يقتدى به فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الأبريسم والذّهب و أخذه مال الشبهة من أموال السّلاطين و دخوله على السّلاطين و تودّده إليهم و مساعدته إيّاهم بترك الإنكار عليهم وإطلاقه اللّسان في الاعراض و تعدّيه باللّسان في المناظرة وقصده الاستخفاف و اشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلّا الجاه كعلم الجدل و المناظرة فهذه ذنوب يتّبع العالم عليها فيموت العالم و يبقى شرّه مستطيراً في العالم آماداً متطاولة و طوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه . و في الخبر « من سنّ سنّة سيّئة فعليه وزرها و وزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً »[٥] و قال تعالى : « و نكتب ما قدّموا و آثارهم »[٦] والآثار ما يلحق الأعمال بعد انقضاء العمل و العامل ، و قال ابن عبّاس : ويلٌ للعالم من الاتباع يزلّ زلّة فيرجع عنها و يحتملها الناس فيذهبون بها في الآفاق ، و قال

(١) أخرجه البخاري والطبراني في الصغير والاوسط .

(٢) التوبة : ٦٧ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٤٢٩ تحت رقم ٢ .

(٤) من كلام الغزالي .

(٥) أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبدالله و قد تقدم كراراً .

(٦) سورة يس : ١٢ .

بعضهم : مثل زلّة العالم مثل انكسار السّفينة تغرق ويغرق أهلها . وفي الإسرائيليات أنّ عالماً كان يضلّ النّاس بالبدعة ثمّ أدركته توبة فعمل في الاصلاح دهراً فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم قل له : إنّ ذنبك لوكان فيما بينك و بيني غفرته لك و لكن كيف بمن أضللت من عبادي فأدخلتهم النّار .

فبهذا يتّضح أنّ أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذّنب و الاُخرى إخفاؤه و كما يتضاعف أوزارهم على الذّنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتّبعوا فاذا ترك التجمّل والميل إلى الدّنيا و قنع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتّبع عليه ويقتدي به العلماء والعوام ويكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمّل مالت طباع من دونه إلى التشبّه به ولايقدرون على التجمّل إلّا بخدمة السّلاطين و جمع الحطام من الحرام و يكون هو السبب في جميع ذلك فحركات العلماء في طرفي الزّيادة والنقصان بتضاعف آثارها إمّا بالرّبح و إمّا بالخسران ، و هذا القدر كاف في تفاصيل الذّنوب الّتي التوبة توبة عنها .

✡(الرّكن الثالث في تمام التوبة وشروطها و دوامه الى آخر العمر)✡

قد ذكرنا أنّ التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً و قصداً و ذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلة بينه و بين محبوبه ولكلّ واحد من العلم و الندم والعزم دوام و تمام و لتمامها علامة ولدوامها شروط فلابدّ من بيانها ، أمّا العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي ، وأمّا الندم فهو توجّع القلب عند شعوره بفوات المحبوب و علامته طول الحسرة والحزن و انسكاب الدّموع وطول البكاء فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزّته طال عليه مصيبته و بكاؤه ، و أيّ عزيز أعزّ عليه من نفسه ؟ و أيّ عقوبة أشدّ من النار ؟ وأيّ سبب أدلّ على نزول العقوبة من المعاصي و أيّ مخبر أصدق من الله و رسوله ، ولو حدّثه إنسان واحد يسمّى طبيباً أنّ ولده المريض لا يبرأ و أنّه سيموت لطال في الحال حزنه ، فليس ولده بأعزّ من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله و رسوله ولا الموت بأشدّ من النار و لا المرض أدلّ على الموت من المعاصي على سخط الله ، والتعرّض بها للنّار فألم الندم كلّما

كان أشدّ كان تكفير الذّنوب به أرجى ، فعلامة صحّة الندم رقّة القلب و غزارة الدّمع ، و في الخبر « جالس التوّابين فانّهم أرقّ افئدة » (١) ومن علامته أن تتمكّن مرارة تلك الذّنوب في قلبه بدلاً عن حلاوتها فيستبدل بالميل كراهية و بالرّغبة نفرة ، و في الاسرائيليات : أنّ الله سبحانه قال لبعض أنبيائه و قد سأله النبيّ قبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة و لم ير أثر قبول توبته فقال : و عزّتي و جلالي لو شفع فيه أهل السماوات و الأرض ما قبلت توبته و حلاوة ذلك الذّنب الّذي تاب منه في قلبه .

أقول: و من طريق الخاصّة ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال لقائل بحضرته : « أستغفر الله » : « ثكلتك أُمّك أتدري ما الاستغفار ، إنّ الاستغفار درجة العلّيّين و هو اسم واقعٌ على ستّة معان أوّلها الندم على ما مضى ، و الثاني العزم على ترك العود عليه أبداً ، والثالث أن تؤدّي إلى المخلوقين حقوقهم حتّى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرّابع أن تعمد إلى كلّ فريضة عليك ضيّعتها تؤدّي حقّها ، و الخامس أن تعمد إلى اللّحم الّذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتّى تلصق الجلد بالعظم و ينشأ بينهما لحم جديد . و السادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول : أستغفر الله» (٢).

قال أبو حامد : فإن قلت : الذّنوب هي أعمال مشتهاة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول : من تناول عسلاً كان فيه سمّ ولم يدركه بالذّوق واستلذّه ، ثمّ مرض و طال مرضه و ألمه و تناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدّم إليه عسل فيه مثل ذلك السمّ و هو في غاية الجوع و الشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا فإن قلت : لا ، فهو جحد للمشاهدة ، بل ربّما تنفر عن العسل الّذي ليس فيه سمّ أيضاً

---

(١) قال العراقى : لم أجده مرفوعاً و هو قول عون بن عبدالله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال : «جالسوا التوابين فان رحمة الله الى النادم أقرب» . وقال أيضاً «فالموعظة الى قلوبهم أسرع و هم الى الرقة أقرب» و فيه أيضاً «التائب أسرع دمعة وارق قلباً» .

(٢) أورده الشريف الرضى فى النهج باب المختار من الحكم تحت رقم ٤١٧ .

لشبهه به فوجدان التائب مرارة الذّنب كذلك يكون و ذلك لعلمه بأنّ كلّ ذنب فذوقه ذوق العسل و عمله عمل السمّ ولا تصحّ التوبة ولا تصدق إلّا بمثل هذا الايمان و لمّا عزّ مثل هذا الايمان عزّت التوبة والتائبون فلا يرى إلّا معرضاً عن الله متهاوناً بالذّنوب مصرّاً عليها ، فهذا شرط تمام الندم و ينبغي أن يدوم إلى الموت ؛ و ينبغي أن يجد هذه المرارة في جميع الذّنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجدمتناول السمّ في العسل النفرة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السمّ إذ لم يكن ضرره من العسل بل ممّا فيه ، و لم يكن ضرر التائب من سرقته و زناه من حيث إنّه سرقة و زنى بل من مخالفته أمر الله و ذلك جار في كلّ ذنب .

وأمّا القصد الّذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلّق بالحال وهو يوجب ترك كلّ محظور هو ملابس له و أداء كلّ فرض هو متوجّه عليه في الحال وله تعلّق بالماضي و هو تدارك ما فرّط وبالمستقبل وهو دوام الطاعة و دوام ترك المعصية إلى الموت و شرط صحّتها فيما يتعلّق بالماضي أن يردّ فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسنّ أو الاحتلام و يفتّش عمّا مضى من عمره سنة سنة و شهراً شهراً و يوماً يوماً و نفَساً نفَساً و ينظر إلى الطاعات ما الّذي قصّر فيه منها و إلى المعاصي ما الّذي قارفه منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلّاها مع ثوب نجس أوصلّاها بنيّة غير صحيحة لجهله بشرط النيّة فيقضيها عن آخرها فإن شكّ في عدد ما فاته منها حسب من مدّة بلوغه و ترك القدر الّذي يستيقن أنّه أدّاه و يقضي الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظنّ و يصل إليه على سبيل التحرّي و الاجتهاد ، و أمّا الصوم فإن كان قد تركه في السفر أو المرض ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النيّة باللّيل و لم يقض فيتعرّف مجموع ذلك بالتحرّي و الاجتهاد و يشتغل بقضائه ، و أمّا الزّكاة فيحسب جميع ماله و عدد السنين من أوّل وقت اجتمع فيه شرائط وجوبها عليه فيقضي ما أخلّ به من ذلك أو أخلّ ببعض شروط أدائها المعتبرة بغالب الظنّ . و أمّا الحجّ فإن كان قد استطاع في بعض السنين و لم يتّفق له خروج و الآن قد أفلس فعليه الخروج فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزّاد فإن لم يكن له

كسب و مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكوات أو الصدقات مايحجّ به فإنّه إن مات قبل الحجّ مات عاصياً قال عليه السلام: « من مات و لم يحجّ فليمت إن شاء يهوديّاً و إن شاء نصرانيّاً »(١) و العجز الطاري بعد القدرة لا يسقط عنه الحجّ فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها، وأمّا المعاصي فينبغي أن يفتّش أوّل بلوغه عن سمعه و بصره ولسانه و بطنه و يده و رجله و فرجه و سائر جوارحه ثمّ ينظر في جميع أيّامه و ساعاته ويفصّل عند نفسه ديوان معاصيه حتّى يطّلع على جميعها صغائرها و كبائرها، ثمّ ينظر فيها فما كان من ذلك بينه و بين الله من حيث لا يتعلّق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم و قعود في مسجد من الجنابة و مسّ مصحف بغير وضوء و اعتقاد بدعة و شرب خمر و سماع ملاه و غير ذلك ممّا لا يتعلّق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم و التحسّر عليها، و بأن يحسب مقدارها من حيث الكبر و من حيث المدّة و يطلب لكلّ معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات مقدار تلك السيّئات أخذاً من قوله عليه السلام: « اتّق الله حيث كنت و أتبع السيّئة الحسنة تمحها »(٢) بل من قوله تعالى: « إنّ الحسنات يذهبن السيّئات » فيكفّر سماع الملاهي بسماع القرآن و بمجالس الذكر، و يكفّر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة، ويكفّر مسّ المصحف محدثاً بإكرام المصحف و كثرة قراءة القرآن منه و كثرة تقبيله و بأن يكتب مصحفاً و يجعله وقفاً و يكفّر شرب الخمر بالتصدّق بكلّ شراب حلال هو أطيب وأحبّ إليه، و عدّ جميع المعاصي غير ممكن، و إنّما المقصود سلوك طريق المضادّة فإنّ المرض يعالج بضدّه فكلّ ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلّا نور يرتفع إليه بحسنة تضادّها و المتضادّات هي المتناسبات فلذلك ينبغي أن يمحو كلّ سيّئة بحسنة من جنسها لكي تضادّها فإنّ البياض يزال بالسواد لا بالحرارة و البرودة و هذا التدريج والتحقيق من التلطّف في طريق المحو فالرّجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضاً مؤثّراً في المحو فهذا حكم ما بينه وبين

(١) تقدم في كتاب الحج. (٢) تقدم آنفا.

الله تعالى . و يدلّ على أنّ الشيء يكفّر بضدّه أنّ حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة و أثر اتّباع الدّنيا في القلب السرور بها ، الالف لها والحنين إليها فلاجرم كان كلّ أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدّنيا يكون كفّارة له إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «من الذّنوب ذنوب لا يكفّرها إلّا الهموم»[1] و في لفظ آخر « إلّا الهمّ بطلب المعيشة » . و في الحديث « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفّرها أدخل الله عليه الهموم فيكون كفّارة لذنوبه »[2] .

و يقال : إنّ الهمّ الّذي يدخل على القلب و العبد لا يعرفه هو ظلمة الذّنوب و الهمّ بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطّلع ، فإن قلت : همّ الانسان غالباً بماله و ولده و جاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفّارة ؟ فاعلم أنّ الحبّ له خطيئة والحرمان عنه كفّارة ولو تمتّع به لتمّت الخطيئة ، فقد روي أنّ جبرئيل دخل على يوسف في السجن فقال له : كيف تركت الشيخ الكئيب فقال[3] : قد حزن عليك حزن مائة ثكلى ؟ قال : فماله عند الله ؟ فقال : أجر مائة شهيد . فإذن الهموم أيضاً مكفّرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله .

و أمّا مظالم العباد ففيها معصية و جناية على حقّ الله فإنّ الله نهى عن ظلم العباد أيضاً ، فما يتعلّق منه بحقّ الله تداركه بالندم و التحسّر و ترك مثله في المستقبل و الاتيان بالحسنات الّتي هي أضدادها فيقابل إيذاؤه الناس بالاحسان إليهم ويكفّر غصب أموالهم بالتصدّق بملكه الحلال ، و يكفّر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدّين و إظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه و أمثاله ، ويكفّر قتل النفوس باعتاق الرّقاب لأنّ ذلك إحياء إذ العبد مفقود لنفسه موجود لسيّده فالاعتاق إيجاد لا يقدر الانسان على أكثر منه فيقابل الاعدام

---

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط و أبونعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف و قد تقدم في النكاح .

(٢) أخرجه أحمد في المسند من حديث عائشة بسند حسن كما في الجامع الصغير و رواه البزار كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ١٩٢.   (٣) كذا .

بالايجاد، و بهذا تعرف أنّ ماذكرناه من سلوك طريق المضادّة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع حيث كفّر القتل باعتاق رقبة، ثمّ إذا فعل ذلك كلّه لم يكفه ولم ينجه مالم يخرج من مظالم العباد، و مظالم العباد إمّا في النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب أعني به الايذاء المحض، أمّا النفوس فان جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدّية وإيصالها إلى المستحقّ إمّا منه أو من عاقلته و هو في عهدة ذلك قبل الوصول و إن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص، فان لم يعرف فيجب عليه أن يتعرّف عند وليّ الدّم و يحكمه في روحه فان شاء عفا عنه و إن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلّا بهذا ولا يجوز له الاخفاء، وليس هذا كما لوزنى أو شرب أوسرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب فيه حدّ الله فانّه لايلزمه في التوبة أن يفضح نفسه و يهتك ستره ويلتمس من الوالي استيفاء حقّ الله بل عليه أن يتستّر بستر الله ويقيم حدّ الله على نفسه بأنواع المجاهدة و التعذيب فالعفو في محض حدود الله قريب من التائبين النادمين فان رفع أمره إلى الوالي حتّى أقام عليه الحدّ فالحدّ وقع موقعه و تكون توبته صحيحة مقبولة عند الله بدليل ماروي «أنّ ماعز بن مالك أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: يا رسول الله إنّي قد ظلمت نفسي وزنيت و إنّي اُريد أن تطهّرني فردّه، فلمّا كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله إنّي قد زنيت فردّه الثانية و الثالثة فلمّا كان في الرّابعة أمر به فحفر له حفيرة ثمّ أمر به فرجم فكان الناس فيه فرقتين، فقائل يقول: لقد هلك و أحاطت به خطيئته. و قائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لقد تاب توبة لو قسمت بين اُمّة لوسعتهم»(١). وجاءت الغامديّة فقالت: يا رسول الله: إنّي زنيت فطهّرني فردّها فلمّا كان الغد قالت: يا رسول الله لم تردّني لعلّك تريد أن تردّني كما رددت ماعزاً فو الله إنّي لحبلى فقال: أمّا الآن فلافاذهبي حتّى تضعي فلمّا ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت: هذا قد ولدته قال: إذهبي فارضعيه حتّى تفطميه فلمّا فطمته أتت بالصبيّ و في يده كسرة خبز فقالت: يا نبيّ الله قد فطمته و قد أكل

(١) أخرجه مسلم ج ٥ ص ١١٩ و قد تقدم.

الطعام فدفع الصبيّ إلى رجل من المسلمين، ثمّ أمر بها فحفر لها إلى صدرها و أمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتنضح الدّم على وجه خالد فسبّها فسمع رسول الله صلّى الله عليه وآله سبّه إيّاها فقال: «مهلا يا خالد فو الّذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له ثمّ أمر بها فصلّى عليها ودفنت»(١).

و أمّا القصاص وحدّ القذف فلا بدّ من تحليل صاحبه المستحقّ فيه و إن كان المتناول مالاً تناوله بغصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبيس كترويج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجرة أجير أو منع اُجرته فكلّ ذلك يجب أن يفتش عنه لامن حدّ بلوغه بل من أوّل مدّة وجوده فإنّ ما يجب في مال الصبيّ يجب على الصبيّ إخراجه بعد البلوغ إن كان الوليّ قد قصّر فيه فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به في القيامة إذ يستوي في الحقوق الماليّة الصبيّ و البالغ وليحاسب نفسه على الحبّات و الذرّات من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة و ليناقش قبل أن يناقش، فمن لم يحاسب نفسه في الدّنيا طال في الآخرة حسابه فإن حصل مجمع ما عليه بظنّ غالب و نوع من الاجتهاد ممكن فليكتبه و ليكتب أسامي أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطلبهم و ليستحلّهم أوليؤدّ حقوقهم و هذه التوبة تشقّ على الظلمة وعلى التجّار فإنّهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلّهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كلّ واحد منهم أن يفعل منه مايقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلّا أن يكثر من الحسنات حتّى تفيض عنه يوم القيامة فتؤخذ حسناته و توضع في موازين أرباب المظالم ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنّه إن لم تف بها حسناته حمل من سيّئات أرباب المظالم فيهلك بسيّئات غيره، وهذا طريق كلّ تائب في ردّ المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدّة الظلم فكيف و ذلك ممّا لا يعرف و ربّما يكون الأجل قريباً فينبغي أن يكون تشمّره للحسنات و الوقت ضيق أشدّ من تشمّره الّذي كان في المعاصي في متّسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمّته أمّا

(١) حديث الغامدية، رواه مسلم ج ٥ ص ١٢٠.

أمواله الحاضرة فليردّ إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيّناً و مالايعرف له مالكاً فعليه أن يتصدّق به فإن اختلط الحرام بالحلال فعليهأن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد و يتصدّق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحرام والحلال.

أقول: و من طريق الخاصّة عن أمير المؤمنين عليه السلام « أنّه إذا تصدّق بخمسه حلّ له الباقي »(١).

قال: و أمّا الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم أو يعيبهم بالغيبة فيطلب كلّ من تعرّض له بلسانه أو أذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحلّ واحداً واحداً منهم و من مات أو غاب فقد فات أمره و لاتدارك إلّا بتكثير الحسنات ليؤخذ منه عوضاً في القيامة وأمّا من وجده و أحلّه بطيب قلب منه فذلك كفّارته و عليه أن يعرّفه قدرجنايته وتعرّضه له فالاستحلال المبهم لا يكفي وربّما لو عرف ذلك و كثرة تعدّيه عليه لم تطب نفسه بالإحلال و ادّخر ذلك في القيامة ذخيرة [بأن] يأخذها من حسناته أو يحمله من سيّئاته فإن كان في جملة جنايته على الغير مالوذكره وعرّفه لتأذّى بمعرفته كزناه بجاريته أوأهله أو نسبته باللّسان إلى عيب من خفايا عيوبه يعظم أذاه مهما شافهه بهفقد انسدّ عليه طريق الاستحلالفليس له إلّا أن يستحلّ مبهماً ثمّ تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميّت و الغائب، فأمّا الذّكر و التعريف فهو سيّئة جديدة يجب الاستحلال منها و مهما ذكر جنايته وعرفه المجنيّ عليه فلمتسمح نفسه بالإحلال بقيت المظلمة عليه فإنّ هذا حقّه فعليه أن يتلطّف به و يسعى في مهمّاته وأغراضه ويظهر من حبّه و الشفقة عليه ما يستميل به قلبهفإنّ الإنسان عبيد الإحسان و كلّ من نفر بسيّئة مال بحسنة فإذا تاب قلبه بكثرة تودّده و تلطّفه سمحت نفسه بالإحلال فإن أبى إلّا الإصرار فيكون تلطّفه به و اعتذاره إليه من جملة حسناته الّتي يمكن أن تجبر بها في القيامة جنايته وليكن قدر سعيه في فرحه وسرور قلبه بتودّده وتلطّفه كقدر سعيه في إيذائه حتّى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك منه عوضاً في

---

(١) رواه الكليني في حديث في الكافي ج ٥ ص ١٢٥ باب مكاسب الحرام.

القيامة بحكم الله به عليه كمن أتلف في الدنيا مالاً فجاء بمثله فامتنع من له المال عن القبول وعن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض عنه شاء أم أبى فكذلك يحكم في صعيد القيامة أحكم الحاكمين وأعدل المقسطين وفي المتفق عليه من الصحيحين (١) عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعاً وتسعين نفساً فسأل عن أعلم أهل الأرض وأزهدهم فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعاً وتسعين نفساً فهل له من توبة فقال: لافقتله فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال: نعم و من يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا و كذا فإن بها ناساً يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء فانطلق حتى إذا بلغ نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة » و في رواية «فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها » و في رواية « فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي و إلى هذه أن تقربي، و قال: قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » فبهذا يعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال فلابد للتائب من تكثير الحسنات. هذا حكم القصد المتعلق بالماضي.

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً أو يعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزماً جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه فإن هذا العزم يتأكد في الحال و إن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال، ولكن لا يكون تائباً مالم يتأكد عزمه في الحال و لا يتصور أن يتم ذلك للتائب في أول

---

(١) راجع صحيح البخاري و صحيح مسلم ج ٨ ص ١٠٤.

أمره إلّا بالعزلة و الصمت و قلّة الأكل و النوم و إحراز قوت حلال فإن كان له مالٌ موروثٌ حلالٌ أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فإنّ رأس المعاصي أكل الحرام فكيف يكون تائباً مع الإصرار عليه و لا يكتفي بالحلال و ترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات في المأكولات و الملبوسات و قد قال بعضهم : من صدق في ترك شهوة و جاهد نفسه لله تعالى سبع مرّات لم يبتل بها . و قال آخر : من تاب من ذنب و استقام سبع سنين لم يعد إليه أبداً .

و من مهمّات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلّم ما يجب عليه في المستقبل و ما يحرم عليه حتّى يمكنه الاستقامة و إن لم يؤثر العزلة لم تتمّ له الاستقامة المطلقة إلّا أن يتوب عن بعض الذّنوب كالّذي يتوب عن الشرب و الزنى و الغصب مثلاً و ليست هذه توبة مطلقة و قد قال بعض الناس : إنّ هذه التوبة لاتصحّ و قال قائلون : تصحّ ، و لفظ الصحّة في هذا المقام مجملٌ بل نقول لمن قال : لا تصحّ إن عنيت به أنّ تركه بعض الذّنوب لا يفيد أصلاً بل وجوده كعدمه فما أعظم خطاك فإنّا نعلم أن كثرة الذّنوب سبب لكثرة العقاب وقلّتها سبب لقلّته و نقول لمن قال : تصحّ إن أردت به أنّ التوبة عن بعض الذّنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أوالفوز فهذا أيضاً خطأ ، بل النجاة والفوز بترك الجميع ، هذا حكم الظاهر و لسنا نتكلّم في خفايا أسرار عفوالله . فإن قال من ذهب إلى أنّه لا تصحّ : إنّي أردت به أنّ التوبة عبارة عن الندم و إنّما يندم على السرقة مثلاً لكونها معصية لا لكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزّنى إن كان توجّعه لأجل المعصية فإنّ العلّة شاملة لهما إذ من يتوجّع على قتل ولده بالسيف يتوجّع على قتله بالسكّين ، لأنّ توجّعه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين ، فكذلك توجّع العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو بالزّنى فكيف يتوجّع على البعض دون البعض فالندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنّها معصية فلا يتصوّر أن يكون على بعض المعاصي دون بعض و لو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدّنّين دون الآخر فإن استحال ذلك من حيث

إنّ المعصية في الخمرين واحدة و إنّما الدّنّان ظروف ، فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث إنّها مخالفة الأمر واحدة فإذن معنى عدم الصحّة أنّ الله وعد التائبين رتبة وتلك الرّتبة لاتنال إلّا بالندم و لا يتصوّر الندم على بعض المتماثلات دون بعض فهو كالملك المرتّب على الإيجاب و القبول فإنّه إذا لم يتمّ الإيجاب و القبول يقال : إنّ العقد لايصحّ أي لم يترتّب عليه الثمرة و هو الملك و تحقيق هذا أنّ ثمرة مجرّد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه و ثمرة الندم تكفير ما سبق ، فترك السرقة لا يكفّر السرقة بل الندم عليها ولايتصوّر الندم إلّا لكونها معصية ، وذلك يعمّ جميع المعاصي ، وهذا كلام مفهوم واقع يستنطق المنصف بتفصيل به ينكشف الغطاء ، فنقول التوبة عن بعض الذّنوب لا تخلو إمّا أن تكون عن الكبائر دون الصّغائر أو عن الصغائر دون الكبائر ، أو عن كبيرة دون كبيرة ، أمّا التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنّه يعلم أنّ الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله و مقته و الصغائر أقرب إلى تطرّق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندّم عليه ، كالّذي يجني على أهل الملك و حرمه و يجني على دابّته ، فيكون خائفاً من الجناية على الأهل ، مستحقراً للجناية على الدّابّة . و الندم بحسب استعظام الذّنب و اعتقاد كونه مبعداً عن الله . وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثر التائبون في الأعصار الخالية و لم يكن أحدٌ منهم معصوماً فلا تستدعي التوبة العصمة ، و الطبيب قد يحذّر المريض العسل تحذيراً شديداً و يحذّره السكّر تحذيراً أخفّ منه على وجه يشعر معه أنّه ربّما لايظهر ضرر السكّر أصلاً فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكّر فهذا غير محال وجوده وإن أكلهما جميعاً بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكّر .

الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر وهذا أيضاً ممكن لاعتقاده أنّ بعض الكبائر أشدّ وأغلظ عند الله كالّذي يتوب عن القتل والنهب و الظلم ومظالم العباد لعلمه بأنّ ديوان العباد لا يترك و ما بينه و بين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضاً ممكنٌ كما في تفاوت الصغائر و الكبائر لأنّ الكبائر أيضاً متفاوتة في أنفسها و في اعتقاد مرتكبها

و كذلك قد يتوب عن الكبائر الّتي لاتتعلّق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزّنى مثلاً إذ يتّضح له أنّ الخمر مفتاح الشرور ، وأنّه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي و هو لا يدري فبحسب ترجّح شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركاً في المستقبل و ندماً على الماضي .

الثالث أن يتوب عن صغيرة وهو مصرّ على كبيرة يعلم أنّها كبيرة كالّذي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير المحرم أو ما يجري مجراه و هو مصرّ على شرب الخمر و هو أيضاً ممكن و وجه إمكانه أنّه ما من مؤمن إلّا و هو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندماً إمّا ضعيفاً و إمّا قوياً ولكن تكون لذّة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والغفلة و أسباب توجب قوّة الشهوة فيكون الندم موجوداً ولكن لا يكون مليّاً بتحريك العزم ولا قويّاً عليه فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلّا ما هو أضعف قهر الخوف الشهوة وغلبها و أوجب ذلك ترك المعصية و قد تشتدّ ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنها و تكون له ضراوة ما بالغيبة وثلب الناس و النظر إلى غير المحرم و خوفه من الله قد بلغ مبلغاً يقمع هذه الشهوة الضعيفة دون القويّة فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار و أرخى العنان بالكلّيّة بل اُجاهده في بعض المعاصي فعساني أغلبه فيكون قهري له في البعض كفّارة لبعض ذنوبي ولولم يتصوّر هذا لما تصوّر من الفاسق أن يصوم ويصلّي ولقيل له : إن كانت صلاتك لغير الله فلا تصحّ وإن كانت لله فاترك الفسق لله فإنّ أمر الله فيه واحد فلا يتصوّر أن تقصد بصلاتك التقرّب إلى الله مالم تتقرّب بترك الفسق وهذا محالٌ بل يقول : لله عليّ أمران ولي على المخالفة فيهما عقوبتان وأناملي‌ءٌ في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر ، فأقهره فيما أقدر عليه و أرجو بمجاهدتي فيه أن يكفّر عنّي بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتي ، فكيف لايتصوّر هذا وهو حال كلّ مسلم إذ لا مسلم إلّا وهو جامعٌ بين طاعة الله و معصيته و لا سبب له إلّا هذا وإذا فهم

هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذّنوب ممكن وجودها والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم ، و قد قال النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الندم توبة »(١) ولم يشترط الندم على كلّ ذنب . وقال عليه السلام : «التائب من الذّنب كمن لا ذنب له»(٢) ولم يقل التائب من الذّنوب كلّها، وبهذه المعاني تبيّن (*) أنّ التوبة عن بعض الذّنوب غير ممكنة لأنّها متماثلة في حقّ الشهوة وفي حقّ التعرّض لسخط الله نعم يجوز أن يتوب عن الخمر دون النبيذ لتفاوتهما في اقتضاء السخط و يتوب عن الكثير دون القليل لأنّ لكثرة المعصية تأثيراً في كثرة العقوبة ، فيساعد الشهوة بالقدر الّذي يعجز عنه و يترك بعض شهوته لله كالمريض الّذي حذّره الطبيب الفاكهة فإنّه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا أنّه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لابدّ أن يكون ما تاب عنه مخالفاً لما بقي عليه ، إمّا في شدّة المعصية و إمّا في غلبة الشهوة ، و إذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصوّر اختلاف حاله في الخوف و الندم فيتصوّر اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذّنب و وفاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب و إن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأوامر و النواهي .

فإن قلت : فهل تصحّ توبة العنّين من الزّنى الّذي قارفه قبل طريان العنّة ؟

فأقول : لا ، لأنّ التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله و ما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إيّاه ، ولكنّي أقول : لو طرأ عليه بعد العنّة كشف و معرفة تحقّق به ضرر الزّنى الّذي قارفه و ثار منه احتراق و تحسّر و تندّم بحيث لو كانت شهوة الوقاع به باقية لكان حرقة الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها فإنّي أرجو أن يكون ذلك مكفّراً لذنبه و ماحياً عنه سيّئته إذ لا خلاف في أنّه لو تاب قبل طريان العنّة و مات عقيبها كان من التائبين و إن لم يطرء عليه حالة تهيج فيها الشهوة و تتيسّر أسباب قضاء الشهوة و لكنّه تائب باعتبار

(١) تقدم أول الباب . (*) كذا وفى الاحياء زاد هنا «سقوط قول القائل:».

(٢) تقدم غير مرة فى الباب . وفى استدلاله بالخبر تأمل لان المراد الجنس لا النوع .

أنّ ندمه بلغ مبلغاً أوجب صرف قصده عن الزّنى لوظهر قصده فإذن لايستحيل أن تبلغ قوّة الندم في حقّ العنّين هذا المبلغ إلّا أنّه لا يعرفه من نفسه فإنّ كلّ من لايشتهي شيئاً يقدّر نفسه قادراً على تركه بأدنى خوف والله مطّلع على ضميره وعلى مقدار تندّمه فعساه يقبله منه بل الظاهر أنّه يقبله والحقيقة في هذا ترجع إلى أنّ ظلمة المعصية تنمحي عن القلب بشيئين أحدهما حرقة الندم و الآخر شدّة المجاهدة بالترك في المستقبل ، و قد امتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ، ولولا هذا لقلنا : إنّ التوبة لاتقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدّة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرّات كثيرة و ذلك ممّا لا يدلّ ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً.

فإن قلت : إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذّنب و الآخر بقي في نفسه نزوع إليه و هو يجاهدها و يمنعها فأيّهما أفضل ؟ فاعلم أنّ هذا ممّا اختلف العلماء فيه ، فقال قوم : إنّ المجاهد أفضل لأنّ له مع فضل التوبة فضل الجهاد ، و قال آخرون : ذلك الآخر أفضل لأنّه لو فتر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الّذي هو في عرضة الفتور عن المجاهدة و ما قاله كلّ واحد من الفريقين لا يخلو عن حقّ و عن قصور عن كمال الحقيقة . و الحقّ فيه أنّ الّذي انقطع نزوع نفسه له حالتان احداهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط ، فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دلّ على قوّة يقينه واستيلاء دينه على شهوته ، فهو دليلٌ قاطعٌ على قوّة اليقين وعلى قوّة الدّين و أعني بقوّة الدّين قوّة الإرادة الّتي تنبعث بإشارة اليقين و تقمع الشهوة المنبعثة بإشارة الشياطين فهاتان قوّتان تدلّ المجاهدة عليهما قطعاً و قول القائل : إنّ هذا أسلم إذ لو فتر لا يعود إلى الذّنب .

فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كقول القائل : العنّين أفضل من الفحل لأنّه في أمن من خطر الشهوة ، و الصبيّ أفضل من البالغ لأنّه أسلم والمفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأنّ المفلس لاعدوّ له والملك ربّما

يغلب مرّة وإن غلب مرّات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النّظر على الظّواهر غير عالم بأنّ العزّ في الأخطار و أنّ العلوّ شرطه اقتحام الأغوار ، بل هو كقول القائل : الصيّاد الّذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد و أعلى رتبة من صاحب الكلب و الفرس لأنّه آمن من أن يجمح به فرسه فتنكسر أعضاؤه عند السّقوط على الأرض وآمن من أن يعضّه الكلب ويعتدي عليه ، فهذا خطأ بل صاحب الفرس و الكلب إذا كان قويّاً عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة و أحرى بدرك سعادة الصّيد . والحالة الثانية أن يكون بطلان النزوع بسبب قوّة اليقين و صدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتّى تأدّبت بأدب الشّرع فلا تهيج إلّا بالإشارة من الدّين و قد سكنت بسبب استيلاء الدّين عليه ، فهذا أعلى رتبة من المجاهد المقاسي لهيجان الشهوة وقمعها وقول القائل : ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الإحاطة بمقصود الجهاد ، فإنّ الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل المقصود منه قطع ضراوة العدوّ حتّى لا يستجرّك إلى شهواته ، و إن عجز عن استجرارك فلا يصدّك عن سلوك طريق الدّين فإذا قهرته و حصّلت المقصود فقد ظفرت و ما دمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظّفر . و مثاله كمثال من قهر العدوّ واسترقّه بالإضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صفّ القتال و لا يدري كيف يسلم و مثاله أيضاً مثال من علّم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالإضافة إلى من هو مشغول بمقاساة التأديب بعد ، و لقد زلّ في هذا فريق فظنّوا أنّ الجهاد هو المقصود الأقصى ، ولم يعلموا أنّ ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق ، و ظنّ آخرون أنّ قمع الشّهوات و إماطتها بالكلّيّة مقصود حتّى جرّب بعضهم نفسه فعجز عنه فقال : هذا محالٌ فكذّب بالشرع و سلك سبيل الإباحة و استرسل في اتّباع الشهوات ، و كلّ ذلك جهلٌ و ضلالٌ ، و قد قرّرنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات .

فإن قلت : فما قولك في تائبين أحدهما نسي الذّنب ولم يشتغل بالتفكّر فيه و الآخر جعله نصب عينه و لا يزال يتفكّر فيه و يحترق ندماً عليه فأيّهما أفضل ؟

فاعلم أنّ هذا أيضاً قد اختلفوا فيه فقال بعضهم : حقيقة التّوبة أن تنصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر : حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكلٌّ واحد من المذهبين عندنا حقٌّ ولكن بالإضافة إلى حالين وكلام المتصوّفة أبداً يكون قاصراً فإنّ عادة كلّ واحد منهم أن يخبر عن حال نفسه فقط ولا يهمّه حال غيره ، فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال ، و هذا نقصان بالإضافة إلى درجة العلم فإنّ معرفة الأشياء على ما هو عليه أفضل و أعلى ولكنّه كمال بالإضافة إلى الهمّة و الإرادة والجدّ حيث يكون صاحبه مقصور النظر على حال نفسه لا يهمّه أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازله أحواله ، وقد يكون طريق العبد إلى الله العلم و التعليم فالطرق إلى الله كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد ، والله أعلم بمن هو أهدى سبيلاً مع الاشتراك في أصل الهداية .

فأقول : تصوّر الذّنب وذكره والتفجّع عليه كمال في حقّ المبتدي المريد ، لأنّه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته و انبعاثه لسلوك الطريق و لأنّ ذلك يستخرج منه الحزن و الخوف الوازع عن الرّجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى الغافل كمالٌ و لكنّه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فإنّه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يعرّج على غير السّلوك فإن ظهر له مبادي الوصول و انكشف له أنوار المعرفة و لوامع الغيب استغرقه ذلك ، ولم يبق فيه متّسع للالتفات إلى ماسبق من أحواله وهو الكمال ، بل لو عاق المسافر عن الطريق إلى بلدة من البلاد نهرٌ حاجز طال تعب المسافر في عبوره من حيث إنّه كان قد خرب جسره من قبل فلو جلس على شاطئ النّهر بعد عبوره يبكي متأسّفاً على تخريبه الجسر كان هذا مانعاً آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك المانع نعم إن لم يكن الوقت وقت الرّحيل بأن كان ليلاً فتعذّر السلوك وكان على طريقه أنهارٌ وهو يخاف على نفسه أن يمرّ بها فليطل بالّليل بكاؤه و حزنه على تخريب الجسر ليتأكّد بطول الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله ، فإن حصل له من التنبّه ما وثق بنفسه أنّه لا يعود إلى مثله فسلوك الطريق أولى به من الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء

عليه ، و هذا لا يعرفه إلّا من عرف الطريق و المقصد و العائق و طريق السلوك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم و في ربع المهلكات ، بل نقول : شرط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة لتزيد رغبته ، و لكن إن كان شابّاً فلا ينبغي أن يطيل فكره في كلّ ماله نظير في الدّنيا كالحور و القصور فإنّ ذلك الفكر ربّما يحرّك رغبته فيطلب العاجلة ولا يرضى بالآجلة ، بل ينبغي إن يتفكّر في لذّة جوار الله فقط فإنّ ذلك لا نظير له في الدّنيا فكذلك تذكّر الذّنب قد يكون محرّكاً للشهوة ، فالمبتدي أيضاً قد يستضرّ به فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدنّك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكى لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فإنّ قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنّهم قد ينزلون في أقوالهم و أفعالهم إلى الدّرجات اللّائقة بأُمّتهم فإنّهم ما بعثوا إلّا لإرشادهم فعليهم التلبّس بما تنتفع أُمّتهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلاً عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلّا ويخوض معه فيها ، وقد كان مستغنياً عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس ولكن تسهيلاً للأمر على المريد ، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: « أما إنّي لا أنسى و لكنّي أُنسى لأُشرّع » (١) و لا تعجب من هذا فإنّ الأُمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء و كالمواشي في كنف الرّعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستنطق ولده الصبيّ كيف ينزل إلى درجة نطق الصبيّ كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم للحسن عليه السلام : « كخ كخ » لما أخذ تمرة من الصّدقة و وضعها في فيه(٢) و ما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول : ارم هذه التمرة فإنّها حرامٌ و لكنّه إذ علم أنّه لا يفهم منطقه ترك فصاحته و نزل إلى لكنته بل الّذي يعلّم شاة أو طائراً يصوت به رغاء أو صفيراً تشبّهاً بالبهيمة والطائر تلطّفاً في تعليمه ، فإيّاك أن تغفل عن أمثال هذه الدّقايق فإنّها مزلّة أقدام العارفين فضلاً عن الغافلين .

---

(١) ما عثرت على أصل له الا على ما في الموطأ هكذا « عن مالك بلغه أن رسول الله صلى الله عليه و آله قال : « انى لأنسى أو أُنسّى لاسن» راجع الموطأ ج ١ ص ٩١ .

(٢) أخرجه البخارى ج ٢ ص ١٥٠ من حديث أبى هريرة .

(بيان أقسام العباد في دوام التوبة)

إعلم أنّ طبقات التائبين أربع طبقات : الطبقة الأولى أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيتدارك ما فرط من أمره و لايحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلّا الزلّات الّتي لا ينفكّ البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوّة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيّئات حسنات و اسم هذه التوبة التوبة النصوح و اسم هذه النفس الساكنة النفس المطمئنّة الّتي ترجع إلى ربّها راضية مرضيّة و هؤلاء هم الّذين إليهم الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «سبق المفردون المستهترون بذكر الله وضع الذّكر أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً» (١) فإنّ فيه إشارة إلى أنّهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات ، فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها ، و إلى من لا ينفكّ عن منازعة النفس ولكنّه مليء بمجاهدتها و ردّها ، ثمّ تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة و القلّة وباختلاف المدّة و باختلاف الأنواع و كذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته و موته قبل الفترة ، ومن ممهل طال جهاده و صبره و تمادت استقامته و كثرت حسناته و حال هذا أعلى و أفضل إذ كلّ سيّئة فإنّما تمحوها حسنة حتّى قال بعض العلماء : إنّما يكفّر الذّنب الّذي ارتكبه العاصي عشر مرّات أن يتمكّن منه عشر مرّات مع صدق الشهوة ثمّ يصبر عنه ويكسر شهوته خوفاً من الله تعالى و اشتراط هذا بعيد و إن كان لا ينكر عظيم أثره لوفرض ، ولكن لاينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فيهيّج الشهوة و تحضر الأسباب حتّى يتمكّن ثمّ يطمع في الانكفاف فإنّه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على المعصية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسّرة له حتّى يسدّ طريقها على نفسه ويسعى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فبه تسلم توبته في الابتداء.

(١) أخرجه الترمذي ج ١٣ ص ٨٨ واستهتر فيه أولع به ولا يتحدث بغيره ولا يفعل غيره.

الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أُمّهات الطاعات و كبائر الفواحش كلّها إلّا أنّه ليس ينفكّ عن ذنوب تعتريه لا عن عمد و تجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ولكنّه كلّما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسّف وجدّد عزمه على أن يتشمّر للاحتراز من أسبابها الّتي تعرّضه لها ، و هذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوّامة ، إذ تلوم صاحبها على ما يستهدف له من الأحوال الذّميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي و قصد ، وهذه أيضاً رتبة عالية و إن كانت نازلة عن الطبقة الأُولى وهي أغلب أحوال التائبين لأنّ الشرّ معجونٌ بطينة الآدميّ قلّما ينفكّ عنه و إنّما غاية سعيه أن يغلب خيره شرّه حتّى يثقل ميزانه فترجّح كفّة الخيرات فأمّا أن تخلو بالكلّية كفّة السيّئات فذلك في غاية البعد ، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى : «الّذين يجتنبون كبائر الإثم و الفواحش إلّا اللّمم إنّ ربّك واسع المغفرة » (١) فكلّ إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفس عليه فهو جديرٌ بأن يكون من اللّمم المعفوّ عنه ، وقد قال تعالى : « و الّذين إذا فعلوا فاحشة أوظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم و من يغفر الذّنوب إلّا الله » (٢) فأثنى عليهم من ظلمهم أنفسهم لتندّمهم و لومهم أنفسهم عليه و إلى مثل هذه الرّتبة الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيما رواه عليٌّ عليه السلام « خيار كم كلّ مفتّن توّاب » (٣) و في خبر آخر « المؤمن كالسنبلة تفيء أحياناً وتميل أحياناً » (٤) و في الخبر « لابدّ للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » (٥)

(١) النجم : ٣٢ . (٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) أخرجه البيهقى فى الشعب عن على عليه السلام بسند صحيح كما فى الجامع الصغير . و أخرج أحمد باسناده عن أبى جعفر محمد بن على عن محمد بن الحنفية عن أبيه على بن أبى طالب عليهم السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : « ان الله يحب العبد المؤمن المفتن التواب » . والمفتن - بفتح التاء - الذى يفتن و يمتحن بالذنوب .

(٤) أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير . و قال العراقى : وفى الامثال للرامهرمزى اسناده جيد .

(٥) أخرجه الطبرانى فى الكبير والاوسط بسند جيد كمافى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠١ .

أي الحين بعد الحين ، و كلّ ذلك أدلّة قاطعة على أنّ هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرّين ، و من يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الّذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحّة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارّة مرّة بعد أُخرى من غير مداومة و استمرار ، و كالفقيه الّذي يؤيس المتفقّه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار و التعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة ، وذلك يدلّ على نقصان الطبيب و الفقيه ، بل الفقيه في الدّين هو الّذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتّفق لهم من الفترات ومقارفة السيّئات المختطفات قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « كلّ بني آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون المستغفرون »[1].

و قال أيضاً : « المؤمن واه راقع فخيرهم من مات على رقعه »[2] أي واه بالذّنوب راقع بالتوبة والندم .

و قال تعالى : « اُولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا و يدرؤن بالحسنة السيّئة »[3] فما وصفهم بعدم السيّئة أصلاً .

الطبقة الثالثة أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة ثمّ تغلبه شهوته في بعض الذّنوب فيقدم عليها عن صدق و قصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة إلّا أنّه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذّنوب مع القدرة و الشهوة و إنّما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يودّ لو أقدره الله على قمعها و كفاه شرّها هذا اُمنيّته في حال قضاء الشهوة و عند الفراغ يتندّم و يقول : ليتني لم أفعله وسأتوب عنه و اُجاهد نفسي في قهرها ، لكنّه تسوّل نفسه ويسوّف توبته مرّة بعد اُخرى و يوماً بعد يوم ، فهذه النفس هي الّتي تسمّى النفس المسوّلة صاحبها من

(١) أخرجه الترمذى واستغربه وابن ماجه تحت رقم ٤٢٥١ والحاكم ج ٤ ص ٢٤٤ و صحح اسناده وأخرجه أحمد من حديث أنس كما فى الفتح الربانى ج ١٩ ص ٣٣٧ .

(٢) رواه الطبرانى فى الصغير و الاوسط و البزار أيضاً من حديث جابر و قال الطبرانى : معنى واه يعنى مذنب و راقع يعنى تائب مستغفر و فى سنده ضعف كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠١ لمقام الخالد الخزاعى

(٣) القصص : ٥٤ .

الّذين قال الله تعالى فيهم : « و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً »(١) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات و كراهيته لما يتعاطاه مرجوٌّ فعسى الله أن يتوب عليه وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه و تأخيره ؛ فربّما يختطف قبل التوبة و يقع أمره في المشيّة ، فإن تداركه الله بفضله و جبر كسره و امتنّ عليه بالتوبة التحق بالسابقين و إن غلبته شقوته و قهرته شهوته فيخشى أن يحقّ عليه في الخاتمة ماسبق عليه من القول في الأزل لأنّه مهما تعذّر على المتفقّه مثلاً الاحتراز عن شواغل التعلّم دلّ تعذّره على أنّه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرّجاء في حقّه ، وإذا يسّرت له أسباب المواظبة على التحصيل دلّ على أنّه سبق له في الأزل أن يكون من جملة العالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة و دركاتها بالحسنات و السيّئات بحكم تقدير مسبّب الأسباب كارتباط المرض و الصحّة بتناول الأغذية و الأدوية و ارتباط حصول فقه النفس الّذي به تستحقّ المناصب العليّة في الدّنيا بترك الكسل و المواظبة على تفقيه النفس ، فكما لايصلح لمنصب الرّئاسة و القضاء و التقدّم بالعلم إلّا نفس صارت فقيهة بطول التفقيه ، فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها و لاالقرب من ربّ العالمين إلّا قلب سليم صار طاهراً بطول التزكية و التطهير هكذا سبق في الأزل تدبير ربّ الأرباب ولذلك قال تعالى : « و نفس وماسوّاها ۞ فألهمها فجورها وتقويها ۞ قد أفلح من زكّيها ۞ وقد خاب من دسّيها »(٢) فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذّنب نقداً و التوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال ﷺ : « إنّ العبد ليعمل بعمل أهل الجنّة سبعين سنة حتّى يقول الناس : إنّه من أهلها ولايبقى بينه وبينها إلّا شبر فيسبق عليه الكتاب فليعمل بعمل أهل النار فيدخلها »(٣) فإذن الخوف من الخاتمة قبل التوبة و كلّ نفس فهو خاتمة ماقبله إذ يمكن أن يكون الموت متّصلاً به فليراقب الأنفاس وإلّا وقع المحذور ودامت الحسرات حين لاينفع التحسّر .

(١) التوبة : ١٠٢. (٢) الشمس : ٧ الى ١٠ .
(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٧٦ باب القدر . وفيه «ذراع» مكان «شبر» .

الطبقة الرّابعة : أن يتوب ويجري مدّة على الاستقامة ثمّ يعود إلى مقارفة الذّنب أو الذّنوب من غير أن يحدّث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسّف على فعله بل ينهمك انهماك الغافل في اتّباع الشهوات فهذا من جملة المصرّين و هذه النفس هي النفس الأمّارة بالسوء الفرّارة من الخير و يخاف على هذا سوء الخاتمة و أمره في مشيّة الله ، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها و إن ختم له بالحسنى حتّى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار و لو بعد حين ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفيّ لا نطّلع عليه كما لا يستحيل أن يدخل الانسان خراباً ليجد كنزاً فيتّفق أن يجده ولا أن يجلس في البيت ليجعله الله عالماً بالعلوم من غير تعلّم كما كان للأنبياء عليهم السلام فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد و التكرار وطلب المال بالتجارة و ركوب البحار و طلبها بمجرّد الرّجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة ، وليت من اجتهد تعلّم ، وليت من اتّجر استغنى ، وليت من صام وصلّى غفر له ، فالناس كلّهم محرومون إلّا العالمون و العالمون كلّهم محرومون إلّا العاملون و العاملون كلّهم محرومون إلّا المخلصون و المخلصون على خطر عظيم ، و كما أنّ من خرّب بيته و ضيّع ماله و ترك نفسه و عياله جياعاً يزعم أنّه ينتظر فضل الله بأن يرزقه كنزاً يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعدّ عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله وهو مقصّر عن الطاعة مصرّ على الذّنوب غير سالك سبيل المغفرة معدود عند أرباب القلوب من المعتوهين، والعجب من عقل هذا المعتوه وترويجه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول : إنّ الله كريمٌ و جنّته ليست تضيق عن مثلي و معصيتي ليست تضرّه ثمّ تراه يركب البحار ويقتحم الأوعار في طلب دينار و إذا قيل له : إنّ الله كريم و دنانير خزائنه ليست تقصر عن فقرك و كسلك بترك التجارة ليس يضرّك فاجلس في بيتك فعساه يرزقك من حيث لا تحتسب يستحمق قائل هذا الكلام و يستهزىء ويقول : ما هذا الهوس ؟ السماء لا تمطر ذهباً و لا فضّة و إنّما ينال ذلك بالكسب هكذا قدّره رب

الأرباب وأجرى به سنّته ولا تبديل لسنّة الله ، ولا يعلم المغرور : أنّ ربّ الآخرة وربّ الدّنيا واحد وأنّ سنّته لاتبديل لها فيهما جميعاً وأنّه قد أخبر بذلك إذ قال : « وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى » (١) فكيف يعتقد أنّه كريمٌ في الآخرة وليس بكريم في الدّنيا ، وكيف يقول : ليس مقتضى الكرم الفتور عن كسب المال ومقتضاه الفتور عن العمل للملك المقيم والنعيم الدائم ، وأنّ ذلك بحكم الكرم يعطيه من غير جهد ، وهذا يمنعه من شدّة الاجتهاد في غالب الأمر ، فنعوذ بالله من العمى والضلال ، فما هذا إلّا انتكاس على أمّ الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحبه جديرٌ بأن يكون داخلاً تحت قوله تعالى : « ولوترى إذالمجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربّهم ربّنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً » (٢) أي أبصرنا أنّك صدقت إذ قلت : « وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى » فارجعنا لنسعى وعند ذلك لا يتمكّن من الانقلاب ويحقّ عليه العذاب ، فنعوذ بالله من دواعي الجهل والشكّ والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء المنقلب والمآب .

(بيان ما ينبغى أن يبادر اليه التائب)

(ان جرى عليه ذنب اما عن قصد وشهوة غالبة أو عن المام بحكم الاتفاق)

إعلم أنّ الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضادّه كما ذكرنا طريقه ، فإن لم يساعده النفس على العزم على الترك لغلبة الشهوة فقد عجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيّئة لتمحوها فيكون ممّن خلط عملاً صالحاً وآخر سيّئاً والحسنات المكفّرة للسيّئات إمّا بالقلب وإمّا باللّسان وإمّا بالجوارح ، ولتكن الحسنة في محلّ السيّئة وفيما يتعلّق بأسبابها . فأمّا بالقلب فليكفّره بالتضرّع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعفو ويتذلّل تذلّل العبد الآبق ويكون ذلّه بحيث يظهر لسائر العباد ، وذلك بنقصان كبره فيما بينهم ، فما للعبد الآبق المذنب وجه للتكبّر على سائر العباد وكذلك يضمر بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأمّا باللّسان

(١) النجم : ٣٩ . (٢) السجدة : ١٢ .

فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول : ربّ ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي و كذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدّعوات و الأذكار . وأمّا بالجوارح فبالطاعات والصدقات . وفي الآثار ما يدلّ على أنّ الذّنب إذا تبع بثمانية أعمال كان العفو عنه مرجوّاً ، أربعة من أعمال القلوب و هي التوبة أو العزم على التوبة و حبّ الاقلاع عن الذّنب وخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له ؛ وأربعة من أعمال الجوارح و هي أن يصلّي عقيب الذّنب ركعتين ثمّ يستغفر الله بعدهما سبعين مرّة ، ويقول : « سبحان الله العظيم وبحمده » مائة مرّة ، ثمّ يتصدّق بصدقة ثمّ يصوم يوماً ، و في بعض الآثار « يسبغ الوضوء و يدخل المسجد و يصلّي ركعتين » وفي بعض الأخبار « يصلّي أربع ركعات » [١] وفي الخبر « إذا عملت سيّئة فأتبعها حسنة يكفّرها السرّ بالسرّ والعلانية بالعلانية » [٢] و لذلك قيل : صدقة السرّ تكفّر ذنوب اللّيل ، وصدقة الجهر تكفّر ذنوب النهار . وفي الخبر « إنّ رجلاً قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّي عالجت امرأة فأصبت منها كلّ شيء إلّا المسيس فاقض عليّ بحكم الله ، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : أو ما صلّيت معنا صلاة الغداة ؟ قال : بلى ، فقال : إنّ الحسنات يذهبن السيّئات » [٣] وهذا يدلّ على أنّ مادون الزّنى من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفّارة له بمقتضى قوله « الصلوات الخمس كفّارة لما بينهنّ إلّا الكبائر » [٤] فعلى الأحوال كلّها ينبغي أن يحاسب نفسه كلّ يوم و يجمع سيّئاته و يجتهد في دفعها بالحسنات ، فان قلت : فكيف يكون الاستغفار نافعاً من غير حلّ عقدة الإصرار ؟ و في الخبر « المستغفر من الذّنب و هو مصرّ عليه كالمستهزىء بآيات

---

(١) أخرج أحمد من حديث أبي الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام فصلى ركعتين - أو أربعاً - (الشك من الراوى) يحسن فيها الركوع والخشوع ثم استغفر الله غفر له » راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠١ .

(٢) أخرجه أحمد فى الزهد عن عطاء مرسلاً بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير

(٣) أخرجه البخارى ج ٦ ص ٩٤ من حديث ابن مسعود .

(٤) تقدم غير مرة .

الله »[١] و كان بعضهم يقول : أستغفر الله من قولي أستغفر الله . و قيل : الاستغفار باللّسان توبة الكذّابين ، وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ؟

فاعلم أنّه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الأذكار و الدّعوات حتّى قرن الله الاستغفار ببقاء الرّسول فقال : « وما كان الله ليعذّبهم و أنت فيهم و ما كان الله معذّبهم و هم يستغفرون »[٢] فكان بعض الصحابة[٣] يقول : كان لنا أمانان ذهب أحدهما و هو كون الرّسول فينا و بقي الاستغفار فإن ذهب هلكنا . فنقول : الاستغفار الّذي هو توبة الكذّابين هو الاستغفار بمجرّد اللّسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الإنسان بحكم العادة وعن رأس الغفلة : أستغفر الله و كما يقول إذا سمع صفة النار : نعوذ بالله منها ، من غير أن يتأثّر به قلبه وهذا يرجع إلى مجرّد حركة اللّسان ولا جدوى له فأمّا إذا انضاف إليه تضرّع القلب إلى الله تعالى و ابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق إرادة وخلوص نيّة ورغبة فهذه حسنة في نفسها فتصلح لأن تدفع بها السيّئة وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتّى قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما أصرّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرّة»[٤] وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب .

وللتوبة و الاستغفار درجات و أوائلها لا تخلو عن الفائدة و إن لم ينته إلى أواخرها ولذلك قال سهل : لا بدّ للعبد في كلّ حال من مولاه فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كلّ شيء ، فإن عصى قال : يا ربّ استر عليّ ، فإذا فرغ من المعصية قال : يا ربّ تب عليّ ، فإذا تاب قال : يا ربّ ارزقني العصمة ، و إذا عمل طاعة قال :

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب و ابن عساكر عن ابن عباس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٢) الانفال : ٣٣

(٣) أخرجه الترمذى عن أبى موسى الاشعرى أنه قال هذا القول . وأخرج أبو الشيخ والحاكم و صححه والبيهقى فى الشعب أن قائله أبو هريرة . و البيهقى فى طريق آخر أنه ابن عباس رضى الله عنه . راجع الدر المنثور ج ٣ ص ١٨٢ .

(٤) أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٦٩ و قد تقدم فى الدعوات .

يا ربّ تقبّل منّي. و سئل أيضاً عن الاستغفار الّذي يكفّر الذّنوب فقال: أوّل الاستغفار الاستجابة، ثمّ الإنابة، ثمّ التوبة، فالاستجابة أعمال الجوارح، والإنابة أعمال القلوب، و التوبة إقباله على مولاه بأن يترك الخلق ثمّ يستغفر من تقصيره الّذي هوفيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر، فعند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه، ثمّ التنقّل إلى الانفراد، ثمّ الثبات، ثمّ البيان، ثمّ القرب، ثمّ المعرفة، ثمّ المناجاة، ثمّ المصافاة، ثمّ الموالاة، ثمّ محادثة السرّ وهو الخلّة، ولا يستقرّ هذا في قلب عبد حتّى يكون العلم غذاءه، و الذّكر قوامه، و الرضا زاده، و التوكّل صاحبه، ثمّ ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش.

وسئل أيضاً عن قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «التائب حبيب الله» فقال: إنّما يكون التائب حبيباً إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى: «التائبون العابدون الحامدون - الآية -» (١) و قال: الحبيب هو الّذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه و المقصود أنّ للتوبة ثمرتين إحداهما تكفير السيّئات حتّى يصير كمن لاذنب له، و الثاني نيل الدّرجات حتّى يكون حبيباً، و للتكفير أيضاً درجات فبعضها محو لأصل الذّنب بالكلّيّة، وبعضها تخفيف له و تفاوت ذلك بحسب درجات التوبة، فالاستغفار بالقلب و التدارك بالحسنات و إن خلاعن حلّ عقدة الإصرار من أوائل الدّرجات وليس يخلو عن الفائدة أصلاً فلا ينبغي أن يظنّ أنّ وجودها كعدمها، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أنّ قول الله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره» (٢) صدق و أنّه لا تخلو ذرّة من الخير عن أثر كما لاتخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجّح الميزان بأحمال الذّرّات، وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يترجّح بذرّات الخير إلى أن يثقل ومثله كفّة السيّئات فإيّاك وأن تستصغر ذرّات الطاعات فلا تأتيها و ذرّات المعاصي فلاتتّقيها، كالمرأة الخرقاء تكسل عن الغزل تعلّلاً بأنّها لا تقدر في كلّ ساعة إلّا على خيط واحد و أي غنى يحصل بخيط و ما وقع ذلك في

(١) التوبة: ١١٢. (٢) الزلزال: ٧.

الثياب ، ولاتدري المعتوهة أنّ ثياب الدّنيا اجتمعت خيطاً خيطاً وأنّ أجسام العالم مع اتّساع أقطاره اجتمعت ذرّة ذرّة ، فإذن التضرّع والاستغفار بالقلب حسنة لاتضيع عند الله أصلاً ، بل أقول : الاستغفار باللّسان أيضاً حسنة إذ حركة اللّسان بها عن غفلة خير من حركة اللّسان في تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام بل خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه وإنّما يكون نقصاناً بالاضافة إلى عمل القلب ، ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إنّ لساني في بعض الأحوال يجري بالذّكر و القرآن و قلبي غافل ؟ فقال : اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في خير و عوّده الذّكر و لم يستعمله في الشرّ و لم يعوّده الفضول . وما ذكره حقّ فإنّ تعوّد الجوارح للخيرات حتّى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي ، فمن تعوّد لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذباً سبق لسانه إلى ما تعوّد فقال : أستغفر الله ، ومن تعوّد الفضول سبق لسانه إلى أن يقول : ما أحمقك و ما أقبح كذبك ، و من تعوّد الاستعاذة إذا حدّث بظهور مبادي الشرّ من شرير قال بحكم سبق اللّسان : نعوذ بالله ، فإذا تعوّد الفضول قال : لعنه الله فيعصي في إحدى الكلمتين ويسلم في الأُخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير ، وهو من جملة معاني قوله تعالى : « إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين » (١) و معاني قوله تعالى : « وإن تك حسنة يضاعفها» (٢) فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللّسان حتّى دفع بتلك العادة شرّ العصيان بالغيبة و اللّعن و الفضول ، هذا تضعيف في الدّنيا لأدنى الطاعات وتضعيف الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ، فإيّاك أن تلمح في الطاعات بمجرّد الآفات فيفتر رغبتك في العبادات فإنّ هذه مكيدة روّجها الشيطان بلعبه على المغرورين وخيّل إليهم أنّهم أرباب البصائر وأهل التفطّن للخفايا و السرائر فأيّ خير في ذكر اللّسان مع غفلة القلب فانقسمُ الخلق في هذه المكيدة على ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات ، أمّا السابق فقال : صدقت يا ملعون ، ولكن هي كلمة حقّ أردت بها باطلاً فلا جرم أُعذّبك مرّتين وأرغم أنفك

---

(١) التوبة : ١٢٠ . (٢) النساء : ٤٠ .

من وجهين فاُضيف إلى حركة اللّسان حركة القلب و كان الّذي داوى جرح الشيطان بنثر الملح عليه ، وأمّا الظالم المغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدّقيقة ثمّ عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللّسان بالذّكر فأسعف الشيطان و تدلّى بحبل غروره فتمّت بينهما المشاكلة و الموافقة كما قيل :

وافق شَنٌ طَبَقة ✡ وافقه فَاعْتَنقه(١)

و أمّا المقتصد فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل و تفطّن لنقصان حركة اللّسان بالإضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السّكوت و الفضول و استمرّ عليه و سأل الله أن يشرك القلب مع اللّسان في اعتياد الخير ، فكان السابق كالحائك الّذي ذمّت حياكته فتركها فأصبح كاتباً و الظالم المتخلّف كالّذي ترك الحياكة وأصبح كنّاساً . والمقتصد كالّذي عجز عن الكتابة فقال : لا اُنكر مذمّة الحياكة ولكنّ الحائك مذمومٌ بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكنّاس ، فإن عجزتُ عن الكتابة فلا أترك الحياكة ، ولذلك قالت رابعة العدويّة : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ، فلا تظنّ أنّها تذمّ حركة اللّسان من حيث إنّه ذكر الله ، بل تذمّ غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فإن سكت عن الاستغفار باللّسان أيضاً احتاج إلى الاستغفارين لا إلى استغفار واحد ، فهكذا ينبغي أن يفهم ذمّ مايذمّ و حمد ما يحمد ، و إلّا جهلت معنى ما قال القائل الصّادق : « حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين » فإنّ هذه اُمور تثبت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستحقر ذرّات الطاعات و المعاصي و لذلك قال الإمام جعفر الصّادق عليه السلام : « إنّ الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقّروا منها شيئاً فلعلّ رضاه فيه ، و غضبه في معاصيه فلا تحقّروا منها شيئاً فلعلّ غضبه فيه ، وخبأ ولايته في عباده فلا تحقّروا منهم أحداً فلعلّه وليّ الله » .

---

(١) مثل سائر، راجع مجمع الامثال للميدانى الباب السادس والعشرين .

﴿ الرّكن الرابع في دواء التوبة ﴾

﴿ و طريق العلاج لحل عقدة الاصرار ﴾

إعلم أنّ النّاس قسمان شابٌ لاصبوة له نشأ على الخير و اجتناب الشرّ وهو الّذي قال فيه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: « يعجب ربّك من شابّ ليست له صبوة »[1] و هذا عزيزٌ نادرٌ، والقسم الثاني هو الّذي لا يخلو عن مقارفة الذّنوب، ثمّ هم ينقسمون إلى مصرّين وإلى تائبين و غرضنا أن نبيّن العلاج في حلّ عقدة الإصرار و نذكر الدّواء فيه، فاعلم أنّ شفاء التّوبة لا يحصل إلّا بالدّواء ولا يقف على الدّواء من لا يقف على الدّاء، إذ لا معنى للدّواء إلّا مناقضة أسباب الدّاء، فكلّ داء حصل من سبب فدواؤه حلّ ذلك السّبب و رفعه و إبطاله ولا يبطل الشّيء إلّا بضدّه ولاسبب للإصرار إلّا الغفلة والشهوة ولا يضادّ الغفلة إلّا العلم ولا يضادّ الشهوة إلّا الصبر على قطع الأسباب المحرّكة للشهوة، والغفلة رأس الخطايا قال الله تعالى: «اُولئك هم الغافلون ﴿ لا جرم أنّهم في الآخرة هم الخاسرون »[2] فلا دواء إذن للتّوبة إلّا معجون يعجن من حلاوة العلم و مرارة الصبر، و كما يجمع في السّكنجبين بين حلاوة السكّر و حموضة الخلّ و يقصد بكلّ واحد منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فينقمع الأسباب المهيّجة للصفراء، فهكذا ينبغي أن يفهم علاج القلب عمّا به من مرض الإصرار، فإذن لهذا الدّواء أصلان أحدهما العلم و الآخر الصبر فلابدّ من بيانهما، فإن قلت: أينفع كلّ علم لحلّ الإصرار أم لابدّ من علم مخصوص؟ فاعلم أنّ العلوم بجملتها أدوية لأمراض القلوب لكن لكلّ مرض علم يخصّه كما أنّ علم الطبّ نافع في علاج الأمراض بالجملة و لكن يخصّ كلّ علّة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار، فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم، فنقول: يحتاج المريض إلى التصديق باُمور أربعة: الأوّل أن يصدّق على الجملة بأنّ للمرض والصحّة أسباباً يتوصّل إليها بالاختيار على ما رتّبه مسبّب

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني من حديث عقبة بن عامر كما في المغني.

(٢) النحل: ١٠٩ و ١١٠.

الأسباب و هذا هو الإيمان بأصل الطبّ فإنّ من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج و يحقّ عليه الهلاك و هذا وزانه ممّا نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أنّ للسعادة في الآخرة سبباً هو الطاعة و للشقاوة سبباً وهو المعصية وهو الإيمان بأصل الشرائع و هذا لا بدّ من حصوله إمّا عن تحقيق أو تقليد و كلاهما من جملة الإيمان، الثاني أنّه لا بدّ و أن يعتقد المريض في طبيب معيّن أنّه عالم بالطبّ حاذق فيه صادق فيما يعبّر عنه، لا يلبس ولا يكذب، فإنّ إيمانه بأصل الطبّ لا ينفعه بمجرّده دون هذا الإيمان و وزانه ممّا نحن فيه العلم بصدق الرّسول صلى الله عليه وآله والإيمان بأنّ كلّ ما يقوله حقّ و صدق لا كذب فيه ولا خلف، الثالث أنّه لا بدّ وأن يصغي إلى الطبيب فيما يحذّره من تناول الفواكه والأسباب المضرّة على الجملة حتّى يغلب عليه الخوف في ترك الاحتماء فتكون شدّة الخوف باعثة له على الاحتماء، و وزانه من الدّين الإصغاء إلى الآيات والأخبار المشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذّنوب و اتّباع الهوى و التّصديق بجميع ما يلقى إلى سمعه من ذلك من غير شكّ و استرابة حتّى ينبعث به الخوف المقوي على الصبر الّذي هو الرّكن الآخر في العلاج، الرابع أن يصغي إلى الطبيب فيما يخصّ مرضه وفيما يلزمه بنفسه الاحتماء عنه ليعرّفه أوّلاً تفصيل ما يضرّه من أفعاله و أحواله و مأكوله و مشروبه فليس على كلّ مريض الاحتماء عن كلّ شيء ولا ينفعه كلّ دواء، بل لكلّ علّة خاصّة علم خاصّ وعلاج خاصّ و وزانه من الدّين أنّ كلّ عبد ليس يبتلى بكلّ شهوة و ارتكاب كلّ ذنب، بل لكلّ مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة و إنّما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنّها ذنوب ثمّ إلى العلم بآفاتها و قدر ضررها في الدّين ثمّ إلى العلم بكيفيّة التوصّل إلى الصبر عنها ثمّ إلى العلم بكيفيّة تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختصّ بها أطبّاء الدّين وهم العلماء الّذين هم ورثة الأنبياء، فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب و هو العالم و إن كان لا يدري أنّ ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرّفه ذلك بأن يتكفّل كلّ عالم بإقليم أو بلدة أو محلّة أو مسجد أو مشهد فيعلّم أهله دينهم و يميّز ما يضرّهم عمّا ينفعهم و ما يشقيهم عمّا يسعدهم و

لا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدّى لدعوة الناس إلى نفسه فإنّهم ورثة الأنبياء، والأنبياء ماتركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم و يدورون على أبواب دورهم في الابتداء و يطلبون واحداً واحداً فيرشدونهم ، فإنّ مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أنّ الّذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف مرضه مالم يعرفه غيره ، وهذا فرض عين على العلماء كافّة ، وعلى السلاطين كافّة أن يرتّبوا في كلّ قرية و كلّ محلّة فقيهاً متديّناً يعلّم الناس دينهم ، فإنّ الخلق لا يولدون إلا جهّالاً فلابدّ من تبليغ الدّعوة إليهم في الأصل والفرع فالدّنيا دار مرضى إذ ليس في بطن الأرض إلّا ميّت ولا على ظهرها إلّا سقيم و مرض القلوب أكبر من مرض الأبدان ، والعلماء أطبّاء و السّلاطين قوّام دار المرضى ، فكلّ مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلّم إلى السلطان ليكفّ شرّه كما يسلّم الطبيب المريض الّذي لا يحتمي أو الّذي غلب عليه الجنون إلى القيّم ليقيّده بالسلاسل و الأغلال ويكفّ شرّه عن نفسه وعن سائر الناس ، وإنّما صار مرض القلوب أكثر من مرض الأبدان لثلاث علل : إحداها أنّ المريض به لايدري أنّه مريض ، والثانية أنّ عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن ، فإنّ عاقبته موت مشاهد تنفر الطباع منه و ما بعد الموت غير مشاهد و عاقبة الذّنوب موت القلب و هو غير مشاهد في هذا العالم فقلّت النّفرة عن الذّنوب و إن علمها مرتكبها فلذلك تراه يتّكل على فضل الله في مرض القلب و يجتهد في علاج مرض البدن من غير اتّكال ، والثالثة - و هو الدّاء العضال - فقد الطبيب فإنّ الأطبّاء هم العلماء و قد مرضوا في هذه الأعصار مرضاً شديداً عجزوا عن علاجه و صارت لهم سلوة في عموم المرض حتّى لا يظهر نقصانهم فاضطرّوا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بمايزيدهم مرضاً ، لأنّ الدّاء المهلك هو حبّ الدّنيا و قد غلب هذا الدّاء على الأطبّاء فلم يقدروا على تحذير الخلق منه استنكافاً من أن يقال لهم : فما بالكم تأمرون بالعلاج و تنسون أنفسكم ، فبهذا السّبب عمّ الدّاء و عظم الوباء و انقطع الدّواء و هلك الخلق لفقد الأطبّاء ، بل اشتغل الأطبّاء بفنون الاغواء ، فليتهم إذ لم يصلحوا لم

يفسدوا ، و ليتهم سكتوا فما نطقوا ، فإنّهم إذا تكلّموا لم يهمّهم في مواعظهم إلّا ما يرغّب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصّلون إلى ذلك إلّا بالإرجاء و تغليب أسباب الرّجاء ، و ذكر دلائل الرّحمة لأنّ ذلك ألذّ في الأسماع و أخفّ على الطّباع فينصرف الخلق عن مجالس الوعظ و قد استفادوا مزيد جرأة على المعاصي و مزيد ثقة بفضل الله ، و مهما كان الطبيب جاهلاً أوخائناً أهلك بالدّواء حيث يضعه في غير موضعه فالرّجاء والخوف دوآن و لكن لشخصين متضادّي العلّة ، أمّا الّذي غلب عليه الخوف حتّى هجر الدّنيا بالكلّيّة و كلّف نفسه مالا يطيق و ضيّق العيش على نفسه بالكلّيّة فتكسر سورة إسرافه في الخوف بذكر أسباب الرّجاء ليعود إلى الاعتدال ، و كذا المصرّ على الذّنوب المشتهي للتّوبة الممتنع عنها بحكم القنوط و اليأس استعظاماً لذنوبه الّتي سبقت يعالج أيضاً بأسباب الرّجاء حتّى يطمع في قبول التّوبة فيتوب . فأمّا معالجة المغرور المسترسل في المعاصي بذكر أسباب الرّجاء فيضاهي معالجة المحرور بالعسل طلباً للشفاء ، و ذلك من دأب الجهّال و الأغبياء فإذن فساد الأطبّاء هو الدّاء المعضل الّذي لا يقبل الدّواء أصلاً.

فإن قلت : فاذكر الطّريق الّذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في وعظه مع الخلق؟ فاعلم أنّ ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حلّ عقدة الإصرار ، وحمل الناس على ترك الذّنوب وهي أربعة أنواع :

النوع الأوّل - أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوّفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم[1] : « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلّا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ، و يقول الآخر : ياليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : و يا ليتهم إذ لم يعلموا لماذا خلقوا عملوا بما علموا ». و في بعض الرّوايات

---

(١) قال العراقى : لم أجده هكذا ، و روى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف «ان لله ملكاً ينادى فى كل ليلة أبناء الاربعين زرع قد دنى حصاده» - و فيه - «ليت الخلائق لم يخلقوا وليتهم اذا خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا - الحديث - ».

« تجالسوا فتذاكروا ماعلموا - فيقول الآخر : و ياليتهم إذلم يعملوا بما علموا تابوا ممّا عملوا » . و قال بعض السّلف : إذا أذنب العبد أمر صاحب اليمين صاحب الشّمال - و هو أمير عليه - أن يرفع القلم عنه ستّ ساعات فإن تاب و استغفر لم يكتبها عليه و إن لم يستغفر كتبها .

وقال بعض السلف : ما من عبد يعصي إلّا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفّا عن عبدي و امهلاه فإنّكما لم تخلقاه و لو خلقتماه لرحمتماه ، لعلّه يتوب إليّ فأغفر له ، لعلّه يستبدل صالحاً فأبدله حسنات ، فذلك معنى قوله تعالى : «إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده »[1].

والأخبار والآثار في ذمّ المعاصي ومدح التائبين لا تحصى ، فينبغي أن يستكثر الواعظ منها إن كان هو وارث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فإنّه ما خلّف ديناراً و لا درهماً إنّما خلّف العلم و الحكمة و ورثه كلّ عالم بقدرما أصابه .

و النوع الثاني حكايات الأنبياء والسلف وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم عليه السلام في عصيانه و ما لقيه من الإخراج من الجنّة حتّى روي أنّه لمّا أكل من الشجرة تطايرت الحلل عن جسده و بدت عورته فاستحيى التّاج و الإكليل من وجهه أن يرتفعا عنه فجاءه جبرئيل فأخذ التاج من رأسه وحلّ الإكليل عن جبينه و نودي من فوق العرش اهبطا من جواري فإنّه لا يجاورني من عصاني ، قال : فالتفت آدم إلى حوّاء باكياً و قال : هذا أوّل شؤم المعصية أخرجنا من جوار الحبيب .

و روي في الاسرائيليّات أنّ رجلاً تزوّج امرأة من بلدة أُخرى و أرسل عبده يحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال : فنبّأه الله ببركة تقواه فكان نبيّاً في بني إسرائيل ، وفي قصص موسى عليه السلام أنّه قال للخضر عليه السلام : بم أطلعك الله على علم الغيب ؟ فقال : بتركي المعاصي لأجل الله تعالى ، وروي أنّ الله تعالى

(١) فاطر : ٤١ .

أوحى إلى يعقوب عليه السلام: أتدري لم فرّقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال: لا، قال: لقولك لإخوته أخاف أن يأكله الذّئب لم خفت عليه الذّئب ولم ترجني ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له؟ وكذلك لمّا قال يوسف لصاحب الملك: «اذكرني عند ربّك» قال تعالى: «فأنساه الشيطان ذكر ربّه فلبث في السّجن بضع سنين»[1].

و أمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسمار، بل الغرض بها الاعتبار و الاستبصار ليعلم أنّ الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذّنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذّنوب الكبار، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة و لم يؤخّروا إلى الآخرة، والأشقياء يمهلون ليزدادوا إثماً ولأنّ عذاب الآخرة أشدّ وأكبر، فهذا أيضاً ممّا ينبغي أن يكثر جنسه على أسماع المصرّين فإنّه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرّر عندهم أنّ تعجيل العقوبة في الدّنيا متوقّع على الذّنب و أنّ كلّ ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته فربّ عبد يتساهل في أمر الآخرة و يخاف من عقوبة الله في الدّنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوّف به فإنّ الذّنوب كلّها يتعجّل في الدّنيا شؤمها في غالب الأمر حتّى قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه و قد تسقط منزلته عن القلوب و يستولي عليه أعداؤه قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ العبد ليحرم الرّزق بالذنب يصيبه»[2] و قال ابن مسعود: إنّي لأحسب أنّ العبد لينسى العلم بذنب يصيبه و هو معنى قوله عليه السلام: «من قارف ذنباً فارقه عقل لا يعود إليه أبداً»[3].

و قال بعض السلف: ليست اللّعنة سواداً في الوجه ونقصاناً في المال إنّما اللّعنة أن لا تخرج من ذنب إلّا وقعت في مثله أو أشدّ منه، وهو كما قاله لأنّ اللّعنة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفّق للخير ويسّر له الشرّ فقد أبعد، و الحرمان عن رزق

(١) يوسف: ٤٣.

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٠٢٢ باسناد حسن وفي الكافي ج ٢ ص ٢٧١ مثله.

(٣) قد تقدم.

التوفيق أعظم حرمان ، و كلّ ذنب فإنّه يدعو إلى ذنب آخر و يتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع في مجالسة العلماء المنكرين للذّنوب وعن مجالسة الصالحين بل يمقته الصالحون ، وفي الخبر «ما أنكرتم من زمانكم فبما غيّرتم من أعمالكم»(١) وفيه يقول الله تعالى « إنّ أدنى ما أصنع بالعبد إذا آثر شهوته على طاعتي أن اُحرّمه لذيذ مناجاتي» .أقول : وهذا مرويٌّ من طريق الخاصّة أيضاً ، وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : «قال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » : ليس من التواء عرق و لا نكبة حجر ولا عثرة قدم ولا خدشة عود إلّا بذنب ولما يعفو الله أكثر» (٢).

و عنه عليه السلام قال : « قال أمير المؤمنين : ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة ، وكم من شهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً و الموت فضح الدّنيا و لم يترك لذي لبّ فرحاً » (٣).

النوع الرّابع : ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذّنوب كالخمر والزّنا و السرقة و القتل و الغيبة و الكبر و الحسد وذلك ممّا لا يمكن حصره و ذكره مع غير أهله وضع للدّواء في غير موضعه ، بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق يستدلّ أوّلاً بالنبض و السحنة(٤) و وجوه الحركات على العلل الباطنة و يشتغل بعلاجها فليستدلّ بقرائن الأحوال على خفايا الصفات و ليتعرّض لما وقف عليه

---

(١) أخرجه البيهقى فى الزهد من حديث أبى الدرداء وقال : غريب تفرد به هكذا العقيلى و هو عبدالله بن هانى ، قال العراقى : هو متهم بالكذب وقال ابن أبى حاتم : روى عن أبيه بواطيل . أقول : معناه صحيح والدليل على ذلك كتاب الله عزوجل : « ما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » وقوله تعالى : «ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس » .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٤٥ تحت رقم ٦ ، و الاية فى سورة الشورى : ٣٠ . الالتواء : الانفتال و الانعطاف . فى القاموس لواه يلويه ليّاً ولويّاً بالضم : فتله و ثناه ، فالتوى و تلوى . و برأسه : أمال . و قال : نكب الحجارة رجله لثمتها أو أصابتها .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٤٥١ تحت رقم ١ . (٤) اى الهيئة واللون .

اقتداء برسول الله ﷺ حيث قال له واحد: أوصني ولا تكثر علي فقال: لا تغضب. و قال له آخر: أوصني فقال: عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو الغنى، و إياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاة مودع وإياك وما يتعذر منه»(١). فكأنه عليه السلام توسم بالسائل الأول مخائل الغضب فنهاه عنه، وفي السائل الآخر مخائل الطمع في الناس و طول الأمل، والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل، فإذن على كل ناصح أن تكون غايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية و توسم الأحوال اللائقة ليكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير ممكنة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان.

فإن قلت: فإن كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فإن في علوم الشرع أغذية و أدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل، ومثاله ما قال لقمان لابنه: «يا بني زاحم العلماء بركبتيك ولا تجادلهم فيمقتوك، وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضول كسبك لآخرتك، ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالاً وعلى أعناق الرجال كلاً، وصم صوماً يكسر شهوتك ولا تصم صوماً يضر بصلاتك فإن الصلاة أفضل من الصوم و لا تجالس السفيه و لا تخالط ذا الوجهين. و قال لابنه أيضاً: يا بني لا تضحك من غير عجب ولا تمش في غير أرب(٢) ولا تسأل عما لا يعنيك و لا تضيع مالك و تصلح مال غيرك فإن مالك ما قدمت و مال غيرك ما تركت، يا بني إن من يرحم يرحم و من يصمت يسلم، و من يقل الخير يغنم، و من يقل الشر يأثم، و من لا يملك لسانه يندم». و قال رجل لأبي حازم: أوصني، فقال: كل ما لو جاءك الموت عليه فرأيته غنيمة فألزمه و كل ما جاءك الموت عليه فرأيته مصيبة فاجتنبه.

---

(١) أخرجه الحاكم و ابن ماجه وقد تقدم

(٢) الارب - محركة -: الحاجة

و قال موسى عليه السلام للخضر : أوصني فقال : كن بسّاماً ولا تكن غضّاباً و كن نفّاعاً ولاتكن ضرّاراً . وانزع عن اللّجاجة ، ولاتمش في غير حاجة ، ولا تضحك من غير عجب ، و لا تعيّر الخطّائين بخطاياهم ، و ابك على خطيئتك يا ابن عمران .

و قال رجل لمحمّد بن كرّام : أوصني فقال : اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك .

فهذه المواعظ مثل الأغذية الّتي يشترك الكافّة في الانتفاع بها و لأجل فقد مثل هؤلاء الوعّاظ انحسم باب الاتّعاظ و غلبت المعاصي و استسرى الفساد و بلي الخلق بوعّاظ يزخرفون أسجاعاً وينشدون أبياتاً و يتكلّفون ذكر ما ليس في سعة علمهم و يتشبّهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامّة وقارهم و لم يكن كلامهم صادراً من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متصلّف (١) و المستمع متكلّف و كلّ واحد منهما مدبرٌ متخلّف ، فإذن كان طلب الطبيب أوّل علاج المرضى فطلب العلماء أوّل علاج العاصين ، فهذا أحد أركان العلاج واُصوله .

و الأصل الثاني : الصبر و وجه الحاجة إليه أنّ المريض إنّما يطول مرضه لتناوله ما يضرّه و إنّما يتناول ذلك إمّا لغفلته عن مضرّته و إمّا لشدّة غلبة شهوته فله سببان فما ذكرناه هو علاج الغفلة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس ، و حاصله أنّ المريض إذا اشتدّت ضراوته لمأكول مضرّ فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثمّ يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثمّ يتسلّى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثمّ يصبر بقوّة الخوف على الألم الّذي يناله في تركه فلابدّ على كلّ حال من مرارة الصبر ، فكذلك يعالج الشهوة في المعاصي كالشابّ مثلاً إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولاحفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقري المخوفات الّتي جاءت فيه من كتاب الله وسنّة رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم فإذا اشتدّ خوفه تباعد عن الأسباب المهيّجة لشهوته ومهيّج الشهوة من خارج هو حضور المشتهي والنظر إليه و علاجه

(١) المتصلف : من تكلف الصلف و هو التمدح بماليس فيه والتملق .

الهرب و العزلة و من داخل تناول لذائذ الأطعمة و علاجه الجوع و الصوم الدائم و كلّ ذلك لا يتمّ إلّا بصبر و لا يصبر إلّا عن خوف و لا يخاف إلّا عن علم و لا يعلم إلّا عن بصيرة و افتكار أو عن سماع و تقليد فأوّل الأمر حضور مجالس الذّكر ثمّ الاستماع عن قلب مجرّد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثمّ التفكّر فيه لتمام الفهم و ينبعث من تمامه لا محالة خوفه و إذا قوي الخوف تيسّر بمعونته الصبر و انبعث الدّواعي لطلب العلاج و توفيق الله و تيسيره من وراء ذلك، فمن أعطى من قلبه حسن الإصغاء و استشعر الخوف فاتّقى و انتظر الثّواب و صدّق بالحسنى فسييسّره الله لليسرى وأمّا من بخل واستغنى و كذّب بالحسنى فسييسّره الله للعسرى، ثمّ لا يغني عنه ما اشتغل به من ملاذّ الدّنيا مهما هلك فتردّى و ما على الأنبياء إلّا شرح طرق الهدى و إنّما لله الآخرة و الأولى.

فإن قلت: فقد رجع الأمر كلّه إلى الإيمان لأنّ ترك الذّنب لا يمكن إلّا بالصبر والصبر لا يمكن إلّا بالخوف و الخوف لا يحصل إلّا بالعلم بعظم ضرر الذّنوب والتصديق بعظم ضرر الذّنوب هو تصديق الله و رسوله فهو الإيمان فكلّ من أصرّ على الذّنب لم يصرّ عليه إلّا لأنّه غير مؤمن؟ فاعلم أنّ هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان إذ كلّ مؤمن مصدّق بأنّ المعصية سبب البعد من الله وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذّنب اُمور: أحدها أنّ العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنّفس جبلت متأثّرة بالحاضر فتأثّرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثّرها بالحاضر، والثاني أنّ الشهوات الباعثة على الذّنوب لذّاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالمخنق و قد قوي ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف والعادة طبيعة خامسة، والنزوع عن العاجل لخوف الآجل شديد على النّفس و لذلك قال تعالى: «كلّا بل تحبّون العاجلة و تذرون الآخرة»[1] و قال: «بل تؤثرون الحياة الدّنيا»[2] و قد عبّر عن شدّة الأمر قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «حفّت الجنّة

(١) القيامة: ٢٠ و ٢١ (٢) الاعلى: ١٧.

بالمكاره و حفت النار بالشهوات »[١] و قوله عليه السلام : « إن الله خلق النار فقال لجبرئيل : إذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال : و عزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فحفها بالشهوات ثم قال : إذهب فانظر إليها فنظر فقال : و عزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها ، وخلق الجنة فقال لجبرئيل · إذهب فانظر إليها فنظر فقال : و عزتك لايسمع بها أحد إلا دخلها ، فحفها بالمكاره ثم قال : إذهب فانظر إليها فنظر فقال : و عزتك لقد خشيت ألا يدخلها أحد »[٢] فإذن كون الشهوة مرهقة في الحال و كون العقاب متأخراً إلى المآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الايمان ، فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذباً بأصل الطب ولا مكذباً بأن ذلك مضر في حقه ، ولكن الشهوة تغلبه و ألم الصبر عنه ناجز فيهون عليه الألم المنتظر ، والثالث أنه ما من مذنب مؤمن إلا و هو في الغالب عازم على التوبة و تكفير السيئات بالحسنات و قد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير فمن حيث رجائه التوفيق للتوبة ربما يقدم عليه مع الايمان ، والرابع أنه ما من مؤمن موقن إلا و هو معتقد أن الذنب لا يوجب العقوبة إيجاباً لا يمكن العفو عنها فهو يذنب و ينتظر العفو اتكالاً على فضل الله ، فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الايمان نعم قد يقدم المذنب بسبب خامس يقدح في أصل الايمان وهو كونه شاكاً في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذره الطبيب عن تناول ما يضره في المرض وكان المحذر ممّا لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالي به فهذا هو الكفر ، فإن قلت : فما علاج الأسباب الخمسة ؟ فأقول : هو الفكر و ذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول و هو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت و أن غداً للناظرين قريب و أن الموت أقرب إلى كل أحد من شراك

---

(١) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٣٢ وأحمد ومسلم من حديث أنس و أيضاً أحمد فى الزهد عن ابن مسعود و مسلم أيضاً عن أبى هريرة كلهم بسند صحيح كما في الجامع الصغير.

(٢) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٣٣ .

تعله فما يدريه فلعلّ الساعة قريب و المتأخّر إذا وقع صار ناجزاً و يذكّر نفسه أنّه أبداً في دنياه يتعب في الحال لخوف أمر في الاستقبال إذ يركب البحار ويقاسي الأسفار لأجل الرّبح الّذي يظنّ أنّه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض و أخبره نصراني طبيب بأن شرب الماء البارد يضرّه و يسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألذّ الأشياء عنده تركه مع أنّ الموت ألمه لحظة إذا لم يخف ما بعده و مفارقته للدّنيا لابدّ منها فكم نسبة وجوده في الدّنيا إلى عدمه أزلاً وأبداً ، فلينظر كيف يبادر إلى ترك ملاذّه بقول ذمّيّ لم تقم معجزةٌ على طبّه فيقول : كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء المؤيّدين بالمعجزات عندي دون قول نصرانيّ يدّعي الطبّ لنفسه بلا معجزة على طبّه ولا يشهد له إلّا عوام الخلق و كيف يكون عذاب النّار أخفّ عندي من عذاب المرض ، و كلّ يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيّام الدّنيا و بهذا التّفكّر بعينه يعالج اللّذّة الغالبة عليه ويكلّف نفسه تركها ويقول : إذا كنت لا أقدر على ترك لذّاتي أيّام العمر وهي أيّام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبد الآباد؟ و إذا كنت لا أُطيق ألم الصّبر فكيف اُطيق ألم النّار ؟ و إذا كنت لا أصبر عن زخارف الدّنيا مع كدورتها و تنغّصها و امتزاج صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعيم الآخرة ؟.

و أمّا تسويف التّوبة فيعالجه بالفكر في أنّ أكثر صياح أهل النّار من التسويف لأنّ المسوّف يبني الأمر على ما ليس إليه و هو البقاء فلعلّه لا يبقى ، و إن بقي فلا يقدر على الترك غداً كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحال إلّا لغلبة الشّهوة ، و الشهوة ليست تفارقه غداً بل تتضاعف إذ تتأكّد بالاعتياد فليست الشهوة الّتي أكّدها الانسان بالعادة كالّتي لم يؤكّدها و عن هذا هلك المسوّفون لأنّهم يظنّون الفرق بين المتماثلين ولا يظنّون أنّ الأيّام متشابهة في أنّ ترك الشّهوات فيها أبداً شاقّ ، و ما مثال المسوّف إلّا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قويّة لا تنقلع إلّا بمشقّة شديدة فقال : أؤخّرها سنة ثمّ أعود إليها و هو يعلم أنّ الشجرة كلّما بقيت ازداد رسوخها و هو كلّما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدّنيا أعظم

من حماقته إذ عجز مع قوّته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه و قوي الضّعيف ، وأمّا المعنى الرّابع وهو انتظار عفوالله تعالى فعلاجه ما سبق كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله فقراء منتظراً من فضل الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في أرض خربة فإنّ إمكان العفو عن الذّنب مثل هذا الإمكان وهو مثل من يتوقّع النهب من الظلمة في بلده وذخائر أمواله في صحن داره وقدر على دفنها وإخفائها فلم يفعل وقال : أنتظر من فضل الله أن يسلّط غفلة وعقوبة على الظالم الناهب حتّى لا يتفرّغ إلى داري أوإذا انتهى إلى داري مات على باب الدّار فإنّ الموت ممكنة ، وقد حكي في الأسمار أنّ مثل ذلك وقع فأنا أنتظر من فضل الله مثله فمنتظر هذا منتظر أمر ممكن و لكنّه في غاية الحماقة ، و أمّا الخامس و هو الشكّ فهذا كفرٌ ، و علاجه الأسباب الّتي تعرّفه صدق الرّسل وذلك يطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحدّ عقله فيقال له : ماقاله الأنبياء المؤيّدون بالمعجزات هل صدقه ممكن أو يقول أعلم أنّه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فإن قال : أعلم استحالته كذلك فهو أخرق معتوه و كأنّه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال : أنا شاكٌ فيه ، فيقال : لوأخبرك شخصٌ واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنّه قد ولغت فيه حيّة وألقت سمّها فيه وجوّزت صدقه فهل تأكله أوتتركه ، وإن كان ألذّ الأطعمة ، فتقول : أتركه لامحالة لأنّي أقول : إن كذب فلا يفوتني إلّا هذا الطعام والصّبر عنه وإن كان شديداً فهو قريب و إن صدق فتفوتني الحياة ، والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام و إضاعته شديد فيقال : يا سبحان الله كيف تؤخّر صدق الأنبياء كلّهم مع ما ظهر لهم من المعجزات و صدق كافّة العلماء والأولياء و الحكماء بل جميع أصناف العقلاء و لست أعني بهم جهّال العوام بل ذوي الألباب عن صدق رجل واحد مجهول لعلّ له غرضاً فيما يقول ، فليس في العقلاء إلّا من صدّق باليوم الآخر وأثبت ثواباً و عقاباً وإن اختلفوا في كيفيّته ، فإن صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلّا بعض شهوات هذه الدّنيا الفانية المكدّرة فلا يبقى له توقّف إن كان عاقلاً مع

هذا التفكّر إذ لا نسبة لمدّة العمر إلى أبد الآباد ، بل لو قدرنا الدّنيا مملوّة بالذّرة و قدّرنا طائراً يلتقط في كلّ ألف ألف سنة حبّة واحدة منها لفنيت الذّرة ولم ينقص أبد الآباد شيئاً فكيف يفتر رأي العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلاً لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ، و ذلك لا منتهى له ، و لذلك قال أبو العلاء المعرّي :

قال المنجّم والطبيب كلاهما ✿ لا يحشر الأموات قلت إليكما

إن صحّ قولكما فلست بخاسر ✿ أو صحّ قولي فالخسار عليكما

و لذلك قال علي عليه السلام لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور و كان شاكّاً : إن صحّ ما قلت فقد تخلّصنا جميعاً وإلّا فقد تخلّصنا وهلكت . أي العاقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال .

فإن قلت : فهذه اُمور جليّة ولكنّها ليست تنال إلّا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها و استثقلته و ما علاج القلوب لردّها إلى الفكر لا سيّما من آمن بأصل الشرع و تفصيله ؟ فاعلم أنّ المانع من الفكر أمران :

أحدهما أنّ الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة و أهوالها و شدائدها وحسرات العاصين في الحرمان عن النعيم المقيم ، وهذا فكر لدّاغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويتلذّذ بالفكر في اُمور الدّنيا على سبيل التفرّج والاستراحة ، والثاني أنّ الفكر شغل في الحال مانع من لذائذ الدّنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلّا وله في كلّ حال من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلّطت عليه واسترقّته فصار عقله مسخّراً لها فهو مشغول بتدبير حيلته وصارت لذّته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر يمنعه من ذلك ، وأمّا علاج هذين المانعين فهو أن يقول لقلبه : ما أشدّ غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت و ما بعده تألّماً بذكره مع استحقار ألم مواقعته فكيف تصبر على مقاساته إذا وقع و أنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت و ما بعده ومتألّم به ؟ وأمّا الثاني وهو كون الفكر مفوتاً للذّات الدّنيا فهو أن يتحقّق أنّ فوات لذّات الآخرة أشدّ و أعظم ، فإنّها لا آخر لها ولا كدورة فيها ، ولذّات الدّنيا

سريعة الدّثور و هي مشوبة بالمكدّرات فما فيها لذّة صافية عن كدر و كيف و في التوبة عن المعاصي و الإقبال على الطاعة تلذّذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته و طاعته وطول الأنس به ، ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلّا مايجده من حلاوة الطاعة وروح الاُنس بمناجاة الله لكان ذلك كافياً ، فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الأخرة ، نعم هذه اللّذّة لاتكون في ابتداء التوبة ولكنّها تصبر عليها مدّة مديدة وقد صار الخير دَيدَناً كما كان الشرّ دَيدَناً ، فالنفس قابلة ماعوّدتها تتعوّد ، والخير عادة و الشرّ لجاجة ، فإذن هذه الأفكار المهيّجة للخوف المهيّج لقوّة الصبر عن اللّذات ومهيّج هذه الأفكار وعظ الوعّاظ ومنبّهات تقع للقلب بأسباب تتّفق لا تدخل تحت الحصر فيصير الفكر موافقاً للطبع فيميل القلب إليه ويعبّر عن السبب الّذي أوقع الموافقة بين الطبع و بين الفكر - الّذي هو سبب الخير - بالتوفيق إذ التوفيق هو التأليف بين الإرادة و بين المعنى الّذي هو طاعة نافعة في الآخرة . و قد روي في حديث طويل أنّه قام عمّار بن ياسر فقال لعليّ عليه السلام : يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ماذا بني ؟ فقال : على أربع دعائم على الجفاء والعمى والغفلة و الشكّ فمن جفا احتقر الحقّ و جهر بالباطل و مقت العلماء ، و من عمى نسي الذّكر ، و من غفل حاد عن الرّشد و من شكّ غرّته الأمانيّ فأخذته الحسرة و الندامة ، و بداله من الله ما لم يكن يحتسب » (١) .

فما ذكرناه بيان لبعض آفات الغفلة عن التفكّر ، وهذا القدر في التوبة كاف .

و إذ كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة فلابدّ من بيان الصبر فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى والحمد لله ربّ العالمين و صلاته وسلامه على سيّدنا محمّد النبيّ وآله الطيّبين الطاهرين وحسبنا الله و نعم الوكيل .

تمّ كتاب التوبة من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه كتاب الصبر والشكر والحمد لله .

---

(١) أصل هذا الخبر مروى فى الكافى باختلاف كما يأتى عنقريب .

كتاب الصبر والشكر

وهو الكتاب الثاني من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله أهل الحمد و الثناء، المتفرّد برداء الكبرياء، المتوحّد بصفات المجد و العلاء، المؤيّد صفوة الأولياء بقوّة الصبر على السرّاء والضرّاء، والشكر على البلاء و النعماء، والصلاة على محمّد سيّد الأنبياء، وعلى أصحابه سادة الأصفياء، و على آله قادة البررة الأتقياء، صلاة محروسة بالدّوام عن الفناء، و مصونة بالتعاقب عن التصرم و الانقضاء.

أما بعد فإنّ الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر[1] كما وردت به الأخبار وشهدت له الآثار وهما أيضاً وصفان من أوصاف الله تعالى واسمان من أسمائه الحسنى إذ سمّى نفسه صبوراً شكوراً، فالجهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثمّ هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرّحمن، ولا سبيل إلى القرب من الله تعالى إلّا بالإيمان، و كيف يتصوّر سلوك سبيل الإيمان دون معرفة ما به الإيمان و من به الإيمان والتقاعد عن معرفة الصبر والشكر تقاعد عن معرفة من به الإيمان و عن إدراك ما به الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح و البيان، و نحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله.

❁(الشطر الأوّل في الصبر)❁

وفيه بيان فضيلة الصبر، وبيان حدّه وحقيقته، و بيان كونه نصف الإيمان، وبيان اختلاف أساميه باختلاف متعلّقاته، و بيان أقسامه بحسب اختلاف القوّة و الضعف، و بيان مظانّ الحاجة إلى الصبر، وبيان دواء الصبر و ما يستعان به عليه، فهي سبعة فصول نشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى.

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب عن أنس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

بيان فضيلة الصبر : قد وصف الله سبحانه الصابرين بأوصاف و ذكر الصبر في القرآن في نيّف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الخيرات والدّرجات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال ـ عزّ من قائل ـ : « و جعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا لمّا صبروا » [1] و قال : « وتمّت كلمة ربّك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا » [2] وقال : « ولنجزينّ الّذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » [3] وقال : « اُولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا » [4] و قال : « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » [5]

فما من قربة إلّا وأجرها بتقدير و حساب إلّا الصبر و لأجل كون الصوم من الصبر فإنّه نصف الصبر قال تعالى : « الصوم لي و أنا أجزي به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات و وعد الصابرين بأنّه معهم فقال : « و اصبروا إنّ الله مع الصابرين » [6] وعلّق النصرة على الصبر فقال : « بلى إن تصبروا وتتّقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين » [7] و جمع للصابرين بين اُمور لم يجمعها لغيرهم فقال : « اُولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة واُولئك هم المهتدون » [8] فالهدى و الصلوات والرّحمة مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول .

و أمّا الأخبار فقد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الصبر نصف الايمان » [9] على ما سيأتي وجه كونه نصفاً .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من أقلّ ما اُوتيتم اليقين و عزيمة الصبر و من اُعطي حظّه منهما لم يبال بما فاته من قيام اللّيل و صيام النهار ولأن تصبروا على مثل ما أنتم

---

(١) السجدة : ٢٤ . (٢) الاعراف : ١٣٤ .
(٣) النحل : ٩٦ . (٤) القصص : ٥٤ .
(٥) الزمر : ١٤ . (٦) الانفال : ٤٦ .
(٧) آل عمران : ١٢٥ . (٨) البقرة : ١٥٣ .
(٩) أخرجه أبو نعيم فى الحلية والبيهقي فى الشعب عن ابن مسعود بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير . و رواه الطبراني فى الكبير و رواته رواة الصحيح و هو موقوف و قد رفعه بعضهم كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٧٧ .

عليه أحبّ إليّ من أن يوافيني كلّ امرىء منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنّي أخاف أن يفتح عليكم الدّنيا بعدي فينكر بعضكم بعضاً ، وينكركم أهل السماء عندذلك فمن صبرواحتسب ظفرُ بكمال ثوابه ، ثمّ قرأ قوله تعالى : «ما عندكم ينفدوماعندالله باق ولنجزينّ الّذين صبروا ـ الآية ـ»[١].

وروى جابر أنّه سئل صلى الله عليه وآله وسلم عن الإيمان فقال : «الصبر والسماحة»[٢].

وقال أيضاً : «الصبر كنز من كنوز الجنّة»[٣] ، وسئل مرّة ما الإيمان فقال : «الصبر»[٤] وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «الحجّ عرفة»[٥] معناه معظم الحجّ عرفة . وقال أيضاً : «أفضل الأعمال ما اكرهت عليه النفوس»[٦].

وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام تخلّق بأخلاقي وإنّ من أخلاقي أنّي أنا الصبور . وفي حديث عطاء عن ابن عبّاس لمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الأنصار فقال : «أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله ، فقال : وما علامة إيمانكم ؟ فقالوا : نشكر على الرّخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم «مؤمنون وربّ الكعبة»[٧].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «في الصبر على ماتكره خيرُ كثير»[٨].

---

(١) قال العراقي : تقدم في العلم مختصراً و لم أجده هكذا .

(٢) أخرجه الطبراني في مكارم الاخلاق وابن حبان في الضعفاء بسند ضعيف ورواه الطبراني في الكبير أيضاً من رواية عبدالله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده كما في المغني .

(٣) ما عثرت على لفظ له في كتبهم و يأتي من طريق الخاصة نحوه .

(٤) ما عثرت عليه بهذا اللفظ وأخرج أبومنصورالديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف «الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد» ويأتي عن علي عليه السلام «لا ايمان لمن لا صبر له»

(٥) تقدم في الحج .

(٦) رواه ابن ابي الدنيا في محاسبة النفس من قول عمر بن عبدالعزيز وقال العراقي : لا أصل له مرفوعاً .

(٧) أخرجه الطبراني في الاوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث عن عطاء (المغني) . (٨) أخرجه الترمذي و قد تقدم

وقال المسيح عليه السلام: «إنّكم لاتدركون ماتحبّون إلّا بصبركم على ماتكرهون».

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو كان الصبر رجلاً لكان كريماً ، و الله يحبّ الصابرين »(١).

و قال عليّ عليه السلام : « بني الإيمان على أربع دعائم اليقين و الصبر و الجهاد والعدل »(٢).

وقال أيضاً : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرّأس من الجسد و لا جسد لمن لارأس له ، ولا إيمان لمن لاصبر له »(٣).

أقول: و هذا المعنى الأخير مرويّ من طريق الخاصّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و أمير المؤمنين عليه السلام و عليّ بن الحسين و أبي عبد الله عليهما السلام بغير واحد من الإسناد رواه في الكافي . و فيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه و الزكاة عن يساره والبرّ مطل عليه ويتنحّى الصبر ناحية فإذا دخل عليه الملكان اللّذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة و الزكاة و البرّ : دونكم صاحبكم فإن عجزتم عنه فأنا دونه »(٤).

و عنه عليه السلام « من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد »(٥) . و عنه عليه السلام قال : « إنّ الله تعالى أنعم على قوم فلم يشكروا فصارت عليهم وبالاً ، و ابتلي قوماً بالمصائب فصبروا فصارت عليهم نعمة »(٦).

وعنه أوعن أبي جعفر عليهما السلام قال : «من لايعدّ الصبر لنوائب الدّهر يعجز»(٧).

و عن أبي جعفر عليه السلام قال : « الجنّة محفوفة بالمكاره و الصبر، فمن صبر على المكاره في الدّنيا دخل الجنّة ، وجهنّم محفوفة باللّذات والشهوات فمن أعطى نفسه

---

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث عائشة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير.

(٢) يأتى عن الكافى مثله .

(٣) أورده الشريف الرضى فى النهج باب الحكم تحت رقم ٨٢ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٩٠ تحت رقم ٨ .

(٥) و (٦) المصدر ج ٢ ص ٩٢ تحت رقم ١٨

(٧) المصدر ج ٢ ص ٩٣ تحت رقم ٢٤ .

لذّتها وشهوتها دخل النار»[١].

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سيأتي على الناس زمان لاينال الملك فيه إلّا بالقتل و التجبّر ولا الغنى إلّا بالغصب و البخل ولا المحبّة إلّا باستخراج الدّين و اتّباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزّمان فصبر على الفقر و هو يقدر على الغنى و صبر على البغضة و هو يقدر على المحبّة، وصبر على الذّل وهو يقدر على العزّ آتاه الله ثواب خمسين صدّيقاً ممّن صدّق بي»[٢]. والأخبار في فضيلة الصبر أكثر من أن تحصى.

قال أبو حامد: هذا بيان فضيلة الصبر من حيث النقل، فأمّا من حيث النظر بعين الاعتبار فلا تفهمه إلّا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه، إذ معرفة الفضيلة والرّتبة معرفة صفة فلا يحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته و معناه.

❁ (بيان حقيقة الصبر ومعناه) ❁

إعلم أنّ الصبر مقام من مقامات الدّين ومنزل من منازل السالكين و جميع مقامات الدّين إنّما ينتظم من ثلاثة اُمور: معارف و أحوال وأعمال. فالمعارف هي الأصول وهي تورث الأحوال والأحوال تثمر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان و الأعمال كالثمار، وهذا مطّرد في جميع منازل السالكين إلى الله، واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف و تارة يطلق على الكلّ كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان و الإسلام في كتاب قواعد العقائد و كذلك الصبر لا يتمّ إلّا بمعرفة سابقة و بحالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمرة يصدر عنها ولايعرف هذا إلّا بمعرفة كيفيّة الترتيب بين الملائكة والإنس و البهائم فإنّ الصبر خاصيّة الإنس ولا يتصوّر ذلك في البهائم و الملائكة أمّا في البهائم فلنقصانها وأمّا في الملائكة فلكمالها، و بيانه أنّ البهائم سلّطت عليها الشهوات و صارت مسخّرة لها فلا باعث لها على الحركة و السكون إلّا الشهوة ليس فيها قوّة تصادم الشهوة و تردّها عن مقتضاها حتّى يسمّى ثبات تلك القوّة في مقابلة مقتضى الشهوة صبراً، وأمّا الملائكة

(١) الكافي ج ٢ ص ٨٩ تحت رقم ٧.
(٢) المصدر ج ٢ ص ٩١ تحت رقم ١٢.

فإنّهم جرّدوا للشوق إلى الحضرة الرّبوبيّة والابتهاج بدرجة القرب منها ، ولم تسلّط عليهم شهوة صارفة صادّة عنها حتّى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر يغلب الصوارف ، وأمّا الإنسان فإنّه خلق في ابتداء الصبى ناقصاً مثل البهيمة لم يخلق فيه إلّا شهوة الغذاء الّذي هو محتاج إليه ، ثمّ تظهر فيه شهوة اللّعب والزينة ، ثمّ شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوّة الصبر البتّة إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضادّ مقتضاهما ومطالبهما وليس في الصبيّ إلّا جند الهوى كما في البهائم ولكنّ الله تعالى بفضله وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجتهم عن درجة البهائم فوكّل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين أحدهما يهديه والآخر يقويه فتميّز بمعونة الملكين عن البهائم واختصّ بصفتين إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة المصالح المتعلّقة بالعواقب ، وكلّ ذلك حاصل من الملك الّذي إليه الهداية والتعريف ، فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط ، فلذلك لا تطلب إلّا اللّذيذ فأمّا الدّواء النافع مع كونه مضرّاً في الحال فلا تطلبه ولا تعرفه ، فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أنّ اتّباع الشهوات له مغبّات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضرّ ، فكم من مضرّ يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلاً ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوّة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوّة حتّى يقطع عدوانها عن نفسه فوكّل الله تعالى به ملكاً آخر يسدّده ويؤيّده ويقوّيه بجنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جنود الشهوة فتارة يضعف هذا الجند بقتال جنود الشهوة ، وتارة يقوى وذلك بحسب إمداد الله عبده بالتأييد كما أنّ نور الهداية أيضاً يختلف في الخلق اختلافاً لا ينحصر فلنسمّ هذه الصفة الّتي بها فارق الإنسان البهائم - في قمع الشهوات وقهرها - باعثاً دينياً ، ولنسمّ مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أنّ القتال قائم بين باعث الدّين وباعث الهوى والحرب بينهما سجال ، ومعركة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدّين من الملائكة الناصرين

لحزب الله ، و مدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدّين في مقابلة باعث الشهوة فإن ثبت حتّى قهره و استمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله و التحق بالصابرين ، و إن تخاذل و ضعف حتّى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين فإذن ترك الأفعال المشتهاة عمل يثمره حال يسمّى الصبر وهو ثبات باعث الدّين الّذي هو في مقابلة باعث الشهوة ، وثبات باعث الدّين حال تثمرها المعرفة بعداوة الشهوات ومضادّتها لأسباب السعادات في الدّنيا و الآخرة فإذا قوي يقينه أعني المعرفة الّتي تسمّى إيماناً و هو اليقين بكون الشهوة عدوّاً قاطعاً لطريق الله تعالى قوي ثبات باعث الدّين ، و إذا قوي ثباته تمّت الأفعال على خلاف ما تتقاضاه الشهوة ، فلا يتمّ ترك الشهوة إلّا بقوّة باعث الدّين المضادّ لباعث الشهوة ، وقوّة المعرفة و الإيمان تقبح مغبّة الشهوات و سوء عاقبتها ، وهذان الملكان هما المتكفّلان بهذين الجندين بإذن الله تعالى و تسخيره إيّاهما وهما من الكرام الكاتبين وهما الملكان الموكّلان بكلّ شخص من الآدميّين وإذا عرفت أنّ رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك المقوّي لم يخف عليك أن جانب اليمين الّذي هو أشرف الجانبين من جنبتي الدّست ينبغي أن يكون مسلماً له فهو إذن صاحب اليمين و الآخر صاحب الشمال ، و للعبد طوران في الغفلة و في الفكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومسيء إليه فيكتب إعراضه سيّئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب إقباله له حسنة و كذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو مسيء إليه فيثبت عليه سيّئة و بالمجاهدة مستمدّ من جنوده فيثبت له به حسنة ، و إنّما تثبت هذه الحسنات والسيّئات بإثباتهما فلذلك سمّيا كراماً كاتبين أمّا الكرام فلانتفاع العبد بكرمهما و لأنّ الملائكة كلّهم كرام بررة ، و أمّا الكاتبون فلإثباتهما الحسنات و السيّئات وإنّما يكتبان في صحائف مطويّة في سرّ القلب ومطويّة عن سرّ القلب حتّى لا يطّلع عليه في هذا العالم ، فإنّهما و كتبتهما وخطّهما و صحائفهما و جملة ما يتعلّق بهما من عالم الغيب والملكوت لا من عالم الشهادة و كلّ شيء من عالم الملكوت

لا تدركه الأبصار في هذا العالم، ثمّ تنشر هذه الصّحائف المطويّة عنه مرّتين، مرّة في القيامة الصّغرى و مرّة في القيامة الكبرى، وأعني بالقيامة الصّغرى حالة الموت إذ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من مات فقد قامت قيامته» (١) و في هذه القيامة يكون العبد وحده و عندها يقال: «لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة» و فيها يقال: «كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» أمّا في القيامة الكبرى الجامعة لكافّة الخلائق لا يكون وحده بل ربّما يحاسب على ملاء من الخلق، و فيها يساق المتّقون إلى الجنّة و المجرمون إلى النّار، زمراً لا آحاداً، و الهول الأوّل هو هول القيامة الصّغرى، و لجميع أهوال القيامة الكبرى نظيرٌ في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلاً فإنّ أرضك الخاصّة بك تزلزل في الموت فإنّك تعلم أنّ الزلزلة إذا نزلت ببلدة صدق أن يقال: قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زازل مسكن الانسان و داره فقد حصلت الزّلزلة في حقّه، لأنّه إنّما يتضرّر عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لابزلزلة مسكن غيره فحصّته من الزّلزلة قد توفّرت من غير نقصان، واعلم أنّك أرضيٌّ مخلوق من التّراب وحظّك الخاصّ من التّراب بدنك فقطّ فأمّا بدن غيرك فليس بحظّك، والأرض الّتي أنت جالس عليها بالاضافة إلى بدنك ظرف و مكان وإنّما تخاف من تزلزله أن يتزلزل بدنك بسببه و إلّا فالهواء أبداً متزلزل و أنت لاتخشاه إذ ليس يتزلزل به بدنك، فحظّك من زلزلة الأرض كلّها زلزلة بدنك فقطّ، فهي أرضك وترابك الخاصّ بك وعظامك جبال أرضك، و رأسك سماء أرضك، و قلبك شمس أرضك، و سمعك و بصرك و سائر حواسك نجوم سمائك، و مفيض العروق من بدنك بحر أرضك، و شعورك نبات أرضك، وأطرافك أشجار أرضك، وهكذا إلى جميع أجزائك فاذا انهدم بالموت أركان بدنك فقد زلزلت الأرض زلزالها، فاذا انفصل العظام من اللّحوم فقد حملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة فاذا رمّت العظام فقد نسفت الجبال نسفاً فاذا أظلم قلبك عندالموت فقد كوّرت الشّمس تكويراً، فاذابطل سمعك و بصرك وسائر

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف كما فى المغنى.

حواسّك فقد انكدرت النجوم انكداراً ، فإذا انشق دماغك فقد انشقّت السّماء انشقاقاً ، فإذا انفجر من هول الموت عرق جبينك فقدفجّرت البحار تفجيراً ، فإذا التفّت إحدى ساقيك بالأُخرى وهما مطيّتاك فقد عطّلت العشار تعطيلاً ، فإذا فارق الرّوح الجسد فقد حملت الأرض فمدّت حتّى ألقت ما فيها و تخلّت ، ولست أطول بموازنة جميع الأحوال والأهوال ولكنّي أقول : بمجرّد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولايفوتك من القيامة الكبرى شيء ممّا يخصّك بل مايخصّ غيرك ، فإنّ بقاء الكواكب في حقّ غيرك ما ذا ينفعك ، وقد انتثرت حواسّك الّتي بها تنتفع بالكواكب والأعمى يستوي عنده اللّيل والنّهار و كسوف الشمس وانجلاؤها لأنّه قد كسفت في حقّه دفعة واحدة و هي حصّته منها فالانجلاء بعد ذلك حصّة غيره ، و من انشقّ رأسه فقد انشقت سماؤه ، إذالسماء عبارة عمّا يلي جهة الرّأس ، فمن لا رأس له لا سماء له ، فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى ، والخوف بعد أسفل والهول بعد مدّخر ، و ذلك إذا جاءت الطّامة الكبرى و ارتفع الخصوص و بطلت السماوات والأرض و نسفت الجبال و تمّت الأهوال .

و اعلم أنّ هذه الصّغرى و إن طوّلنا في وصفها فإنّا لم نذكر عشر عشير أوصافها فهي بالنّسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصّغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فإنّ للإنسان ولادتين إحداهما الخروج من الصّلب والترائب إلى مستودع الأرحام و هو في الرّحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل و أطوار من نطفة و علقة و مضغة و غيرها إلى أن يخرج من مضيق الرّحم إلى فضاء العالم فنسبة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرّحم و نسبة سعة العالم الّذي يقدم عليه العبد بالموت إلى سعة فضاء الدّنيا كنسبة فضاء الدّنيا أيضاً إلى الرّحم بل أوسع وأعظم ، فقس الآخرة بالأُولى « فما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة » وما النشأة الثانية إلّا على قياس النشأة الأُولى ، بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى :

« و ننشئكم فيما لا تعلمون »(١) فالمقرّ بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشّهادة و موقن بالملك والملكوت ، والمقرّ بالقيامة الصّغرى دون الكبرى ناظر بالعين العوراء إلى أحد العالمين ، و ذلك هو الجهل والضلال والاقتداء بالأعور الدّجّال فما أعظم غفلتك يا مسكين ـ و كلّنا ذلك المسكين ـ و بين يديك هذه الأهوال ، فإن كنت لاتؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل و الضلال أفلا تكفيك القيامة الصغرى ، أوما سمعت قول سيّد الأنبياء : « كفى بالموت واعظاً »(٢) أو ما تستحيي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاع الغافلين الّذين لاينظرون إلّاصيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ، فيأتيهم المرض نذيراً من الموت فلا ينزجرون ، ويأتيهم الشيب رسولاً منه فما يعتبرون « فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزؤن » أفيظنّون أنّهم في الدّنيا خالدون ، « أولم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنّهم إليهم لا يرجعون » أم يحسبون أنّ الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلاّ « إن كلّ لمّا جميع لدينا محضرون » ولكن « ما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلّا كانوا عنها معرضين » وذلك لأنّا « جعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون ✿ وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون » .

و لنرجع إلى الغرض فإنّ هذه تلويحات تشير إلى اُمور هي أعلى من علوم المعاملة فنقول : قد ظهر أنّ الصبر عبارة عن ثبات باعث الدّين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصّة الآدميّين لما وكّل بهم من الكرام الكاتبين فلا يكتبان شيئاً على الصبيان و المجانين إذ ذكرنا أنّ الحسنة في الإقبال على الاستفادة منهما و السيّئة في الإعراض عنهما و ما للصبيان و المجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصوّر منهما إقبال وإعراض ، وهما لا يكتبان إلّا الإقبال و الإعراض من القادرين على الإقبال والإعراض ، ولعمري إنّه تظهر مبادي إشراق نور الهداية عند سنّ التمييز

---

(١) الواقعة : ٦١ .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث عمار بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

وتنمو على التدريج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصبح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا ، فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزاً و لا يعاقب في الآخرة و لا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة ، بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على سمت الكرام البررة الأخيار أن يكتب على الصبي سيئته و حسنته على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ، ثم ينشره عليه بالتعريف ، ثم يعذبه عليه بالضرب ، فكل ولي هذا سمته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقربين والصديقين ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام : « أنا وكافل اليتيم كهاتين » (١)

(بيان كون الصبر نصف الايمان)

إعلم أن الإيمان تارة يخص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين و تارة يخص بالأعمال الصادرة منها و تارة يطلق عليهما جميعاً وللمعارف أبواب و للأعمال أبواب ولاشتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفاً وسبعين باباً(٢) و اختلاف هذه الإطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعاً فيكون للإيمان ركنان أحدهما اليقين و الآخر الصبر ، و المراد باليقين المعارف القطعية الحاصلة بهداية الله عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يعرفه أن المعصية ضارة و الطاعة نافعة ، و لا يمكن ترك المعصية و المواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) أخرجه الترمذي ج ٨ ص ١٠٧ وصححه . و فيه « وأشار بأصبعيه يعني السبابة والوسطى ».

(٢) أخرج ابن ماجه تحت رقم ٥٧ « الايمان بضع و ستون أو سبعون شعبة ».

بينهما فقال : « من أقلّ ما أوتيتم اليقين و عزيمة الصبر.... الحديث إلى آخره »[١].

الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال المثمرة للأعمال لا على المعارف ، و عند ذلك ينقسم جميع ما يلاقيه العبد إلى ما ينفعه في الدّنيا و الآخرة أو يضرّه فيهما وله بالاضافة إلى ما يضرّه حال الصبر وبالاضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الايمان بهذا الاعتبار ، كما كان اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأوّل . وبهذا النظر قال ابن مسعود رضي الله عنه : الايمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يُرفع أيضاً إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم[٢] و لمّا كان الصبر صبراً عن بواعث الهوى بثبات بواعث الدّين و كان باعث الهوى قسمين باعث من جهة الشهوة و باعث من جهة الغضب و الشهوة لطلب اللّذيذ و الغضب الهرب من المؤلم و كان الصوم صبراً عن مقتضى الشهوة فقطّ وهي شهوة البطن و الفرج دون مقتضى الغضب قال صلّى الله عليه وآله وسلّم بهذا الاعتبار «الصوم نصف الصبر »[٣] لأنّ كمال الصبر بالصبر عن داعي الشهوة وداعي الغضب جميعاً فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الايمان ، فهكذا ينبغي أن تفهم تقديرات الشرع لحدود الأعمال و الأحوال و نسبتها إلى الايمان والأصل فيه أن يعرف كثرة أبواب الايمان ، و أنّ اسم الايمان يطلق على وجوه مختلفة .

✿(بيان الاسامى الّتى لتجدّد للصبر بالاضافة إلى ما عنه الصبر)✿

إعلم أنّ الصبر ضربان أحدهما ضرب بدنيّ كتحمّل المشاقّ بالبدن والثبات عليه و هو إمّا بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقّة إمّا من العبادات أو من غيرها و إمّا بالاحتمال كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم و الجراحات الهائلة ، وذلك قد يكون محموداً إذا وافق الشرع ولكنّ المحمود التام هو الضرب الآخر وهو الصبر

---

(١) تقدم أول الكتاب و من طريق الخاصة فى الكافى ج٢ ص ٥٢ تحت رقم ٦ . فى حديث الرضا عليه السلام « لم يقسم بين العباد شىء أقل من اليقين » .

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه البيهقى فى الشعب و ابن ماجه على ما فى الجامع الصغير هكذا « الصيام نصف فى الصبر و نصف في الشكر » .

النفسي عن مشتهيات الطبع و مقتضيات الهوى ، ثمّ هذا الضرب إن كان صبراً عن شهوة البطن و الفرج سمّي عفّة ، و إن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الّذي غلب عليه الصبر فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، و تضادّه حالة تسمّى الجزع والهلع و هو اطلاق داعي الهوى ليسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود و شقّ الجيوب و غيرها ، و إن كان في احتمال الغنى سمّي ضبط النفس ، وتضادّه حالة تسمّى البطر ، وإن كان في حرب و مقاتلة سمّي شجاعة ، و يضادّه الجبن ، و إن كان في كظم الغيظ و الغضب سمّي حلماً ، و يضادّه التذمّر ، و إن كان في نائبة من نوائب الزّمان مضجرة سمّي سعة الصدر ، ويضادّه الضجر و التبرّم و ضيق الصدر ، و إن كان في إخفاء كلام سمّي كتماناً و سمّي صاحبه كتوماً ، و إن كان عن فضول العيش سمّي زهداً ، و يضادّه الحرص ، و إن كان صبراً على قدر يسير من الحظوظ سمّي قناعة ، ويضادّه الشّره ، فأكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر فلذلك لمّا سئل ﷺ مرّة عن الايمان قال : « هو الصبر »[(١)] لأنّه أكثر أعماله و أعزّها كما قال « الحجّ عرفة » [(٢)] و قد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمّى الكلّ صبراً فقال تعالى : « و الصّابرين في البأساء (أي المصيبة) و الضرّاء (أي الفقر) و حين البأس (أي المحاربة) اُولئك الّذين صدقوا و اُولئك هم المتّقون »[(٣)] فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلّقاتها و من يأخذ المعاني من الأسامي يظنّ أنّ هذه أحوال مختلفة في ذواتها و حقايقها من حيث رأى الأسامي مختلفة ، والّذي يسلك الطريق المستقيم و ينظر بنور الله يلحظ المعاني أوّلاً فيطّلع على حقائقها ، ثمّ يلاحظ الأسامي فإنّها وضعت دالّة على المعاني ، فالمعاني هي الاُصول و الألفاظ هي التوابع و من يطلب الاُصول من التوابع لابدّ و أن يزلّ و إلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى : « أفمن يمشي مكبّاً على وجهه أهدى أمّن يمشي سويّاً على صراط مستقيم » [(٤)] فإنّ الكفّار لم يغلطوا فيما غلطوا فيه إلّا بمثل هذه الانعكاسات .

---

(١) و (٢) تقدما آنفاً . (٣) البقرة : ١٧٧ . (٤) الملك : ٢٢ .

(بيان اقسام الصبر بحسب اختلاف القوّة والضعف)

إعلم أنّ باعث الدّين بالاضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة ويتوصّل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال : من صبر ظفر ، والواصلون إلى هذه الرّتبة هم الأقلّون فلاجرم هم الصدّيقون المقرّبون « الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا » فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنّت نفوسهم على مقتضى بواعث الدّين وإيّاهم ينادي المنادي « يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مرضية » .

الحالة الثانية أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلّيّة منازعة باعث الدّين فيسلّم نفسه إلى جند الشيطان ولا يجاهد ليأسه عن المجاهدة ، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم الّذين استرقّتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوقهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم الّتي هي سرّ من أسرار الله وأمرٌ من اُمور الله ، وإليهم الاشارة بقوله تعالى : « ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هديها ولكن حقّ القول منّي لأملأنّ جهنّم من الجنّة والناس أجمعين »[١] وهؤلاء هم الّذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة فخسرت صفقتهم . وقيل لمن قصد إرشادهم : « فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحيوة الدّنيا ذلك مبلغهم من العلم » وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط ، أو الغرور بالأمانيّ ، وهو غاية الحمق كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من اتّبع نفسه هواها وتمنّى على الله »[٢] وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال : أنا مشتاق إلى التوبة ولكنّها قد تعذّرت عليّ فلست أطمع فيها ، أو لم يكن مشتاقاً إلى التوبة ولكن قال : إنّ الله غفورٌ رحيمٌ كريمٌ فلاحاجة به إلى توبتي ، وهذا المسكين قد صار عقله رفيقاً لشهوته ، فلا يستعمل عقله إلّا في استنباط دقائق الحيل الّتي بها يتوصّل إلى قضاء شهواته ، فقد صار عقله في يد شهواته كمسلم أسير في أيدي الكفّار ، فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الخمور وحملها ،

---

(١) السجدة : ١٣ .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٢٥١ وقد تقدم فى ذم الغرور .

و محلّه عند الله محلّ من يقهر مسلماً و يسلّمه إلى الكفّار و يجعله أسيراً عندهم ، لأنّه بفاحش جنايته يشبه أنّه سخّر ما كان حقّه أن يستسخر ، وسلّط من حقّهان يتسلّط عليه ، و إنّما استحقّ المسلم أن يكون متسلّطاً لما فيه من معرفة الدّين وباعث الدّين ، و إنّما استحقّ الكافر أن يكون متسلّطاً عليه لما فيه من الجهل بالدّين و باعث الشياطين و حقّ المسلم على نفسه أوجب من حقّ غيره عليه ، فمهما سخّر المعنى الشريف الّذي هومن حزب الله و جند الملائكة للمعنى الخسيس الّذي هو من حزب الشياطين المبعدين عن الله كان كمن أرقّ مسلماً لكافر ، بل هو كمن قصد الملك المنعم عليه فأخذ أعزّ أولاده و سلّمه إلى بعض أعدائه فانظر كيف يكون كفرانه لنعمته و استيجابه لنقمته لأنّ الهوى أبغض إله عُبد في الأرض عند الله و العقل أعزّ موجود خلق في الأرض .

الحالة الثالثة أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين ، فتارةً له اليد عليها ، و تارة لها عليه وهذا من المجاهدين يعدّ مثله لامن الظافرين . وأهل هذه الحالة هم الّذين « خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيّئاً عسى الله أن يتوب عليهم » هذا باعتبار القوّة والضعف ، ويتطرّق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه فإنّه إمّا أن يغلب جميع الشهوات ، أو لايغلب شيئاً منها ، أويغلب بعضها دون بعض ، وتنزيل قوله تعالى : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً » (١) على من عجز عن بعض الشهوات دون بعض أولى ، والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضلّ ، إذالبهيمة لم يخلق لها المعرفة والقدرة الّتي بهما يجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق له وعطّله فهو الناقص حقّاً المدبر يقيناً و لذلك قيل :

ولم أر في عيوب الناس عيباً ✡ كنقص القادرين على التمام

و ينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشقّ على النفس فلايمكن الدّوام عليه إلّا بجهد جهيد و تعب شديد ، ويسمّى ذلك تصبّراً ، و إلى ما يكون من غير شدّة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ، ويخصّ ذلك باسم الصبر ،

---

(١) التوبة : ١٠٢ .

و إذا دام التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسّر الصبر ، و لذلك قال تعالى : « فأمّا من أعطى واتّقى ۞ وصدّق بالحسنى ۞ فسنيسّره لليسرى »[١] و مثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فإنّ الرّجل القويّ يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة و أيسر قوّة بحيث لا يلقاه في مصارعته إعياء و لا لغوب ، ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر[٢] ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلاّ بتعب ومزيد جهد و عرق جبين ، فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدّين و باعث الهوى فإنّه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ، ومهما أذعنت الشّهوات وانقمعت و تسلّط باعث الدّين و استولى وتيسّر الصبر بطول المواظبة أورث ذلك مقام الرّضا كما سيأتي في كتاب الرّضا فالرّضا أعلى من الصبر ، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « اعبد الله على الرّضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير »[٣].

و قال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاث مقامات أوّله ترك الشكوى وهذه درجة التائبين و الثانية الرّضا بالمقدور وهذه درجة الزّاهدين و الثالثة المحبّة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصدّيقين ، وسنبيّن في كتاب المحبّة أنّ مقام المحبّة أعلى من مقام الرّضا كما أنّ مقام الرّضا أعلى من مقام الصبر ، و كأنّ هذا الانقسام يجري في صبر خاصّ وهو الصبر على المصائب والبلايا .

و اعلم أنّ الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض ونفل ومكروه ومحرّم فالصبر عن المحظورات فرض ، وعلى المكاره نفل ، والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يد ولده و هو يصبر عليه ساكتاً و كمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة و يسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرّم ، و الصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر ، فكون الصبر نصف الايمان لا ينبغي أن يخيّل إليك أنّ جميعه محمودٌ بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

---

(١) الليل : ٥ و٦ و٧.　(٢) البهر - بالضم - : تتابع النفس .

(٣) أخرجه الترمذي و أحمد في المسند نحوه من حديث ابن عباس .

✿(بيان مظان الحاجة الى الصبر)✿

﴿و انّ العبد لايستغني عنه في حال من الأحوال ﴾

إعلم أنّ جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين أحدهما هو الّذي يوافق هواه والآخر هو الّذي لا يوافقه بل يكرهه و هو محتاج إلى الصبر في كلّ واحد منهما وهو في جميع الأحوال لايخلو عن أحد هذين النوعين أوعن كلاهما فهو إذن لايستغني قطّ عن الصبر.

النوع الأوّل ما يوافق الهوى والصحّة و السلامة و المال و الجاه و كثرة العشيرة و اتّساع الأسباب و كثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذّ الدّنيا ؛ و ما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فانّه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها و الانهماك في ملاذّها المباحة لها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان فانّ الانسان ليطغى أن رآه استغنى، حتّى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن و العوافي لايصبر عليها إلّا صدّيق، ولمّا فتحت أموال الدّنيا على الصحابة قالوا : ابتلينا بفتنة الضرّاء فصبرنا و ابتلينا بفتنة السرّاء فلم نصبر . ولذلك حذّر الله تعالى عباده من فتنة المال والزّوج والولد فقال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تلهكم أموالكم و لا أولادكم عن ذكر الله » (١) و قال عزّ وجلّ : « إنّ من أزواجكم و أولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم »(٢) . و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الولد مبخلة مجبنة محزنة » (٣) و لمّا نظر صلى الله عليه وآله وسلم إلى ابنه الحسين يتعثّر في قميصه نزل عن المنبر و احتضنه، ثمّ قال : « صدق الله إنّما أموالكم وأولادكم فتنة إنّي لمّا رأيت ابني يتعثّر لم أملك نفسي أن أخذته » (٤) ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار

(١) المنافقون : ٩ . (٢) التغابن : ١٤ .

(٣) أخرجه أبويعلى عن أبى سعيد الخدرى بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير . و أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٦٦٦ « الولد مبخلة مجبنة » .

(٤) أخرجه النسائى ج ٣ص ١٠٨ من السنن من حديث بريدة و رواه أبو داود و ابن ماجه والترمذى و قال : حسن غريب .

فالرّجل كلّ الرّجل من يصبر على العافية ، و معنى الصبر عليها أن لا يركن إليها و يعلم أنّ كلّ ذلك مستودع عنده و عسى أن يسترجع على القرب و أن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولاينهمك في التنعّم و اللّذّة و اللّهو و اللّعب و أن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق و في بدنه ببذل المعونة للخلق و في لسانه ببذل الصدق و كذلك في سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متّصل بالشكر فلا يتمّ إلّا بالقيام بحقّ الشكر كما سيأتي و إنّما كان الصبر على السرّاء أشدّ لأنّه مقرون بالقدرة و من العصمة أن لا تقدر ، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولّاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك و الجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيّبة اللّذيذة و قدر عليها فلهذا عظمت فتنة السرّاء .

النوع الثاني ما لا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إمّا أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات و المعاصي أو لا يرتبط باختياره كالمصائب و النوائب ، أو لا يرتبط أوّله باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفّي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله الّتي توصف بكونها طاعة أومعصية وهما ضربان الضرب الأوّل الطاعة و العبد يحتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأنّ النفس بطبعها تنفر عن العبوديّة و تشتهي الرّبوبيّة ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلّا و هي مضمرة ما أظهره فرعون من قوله : « أنا ربّكم الأعلى » ولكن فرعون وجد له مجالاً و قبولاً فأظهره إذ استخفّ قومه فأطاعوه ، و ما من أحد إلّا و هو يدّعي ذلك مع عبده وخادمه و أتباعه و كلّ من هو تحت قهره وطاعته و إن كان ممتنعاً من إظهاره فإنّ امتعاضه و غيظه عند تقصيرهم في خدمته واستعباده ذلك ليس يصدر إلّا عن إضمار الكبر ومنازعة الرّبوبيّة في رداء الكبرياء ، فإذن العبوديّة شاقّة على النفس مطلقاً ، ثمّ من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزّكاة ، و منها ما يكره بسببهما جميعاً كالحجّ و الجهاد ، فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد و يحتاج المطيع

إلى الصبر على طاعته في ثلاثة أحوال ، الاولى قبل الطاعة و ذلك في تصحيح النيّة و الإخلاص و الصبر عن شوائب الرّياء ودواعي الآفات و عقد العزم على الإخلاص و الوفاء ، و ذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النيّة و الاخلاص وآفات الرّياء و مكائد النفس ، و قدنبّه عليه صلوات الله عليه وآله إذ قال : «إنّما الأعمال بالنيّات ، ولكلّ امرىء مانوى »[١] وقال الله تعالى : « و ما اُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين »[٢] و لهذا المعنى قدّم الله الصبر على العمل فقال : « إلّا الّذين صبروا وعملوا الصالحات »[٣].

الحالة الثانية حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله و لا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ، ويدوم على شروط الأدب إلى الآخر عمل الأخير، فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، و هذا أيضاً من شدائد الصبر و لعلّه المراد بقوله تعالى : « نعم أجر العاملين ۞ الّذين صبروا »[٤] أي صبروا إلى تمام العمل .

الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة و الرّياء و الصبر عن النظر إليه بعين العجب و عن كلّ ما يبطل عمله و يحبط أثره كما قال تعالى : « و لا تبطلوا أعمالكم »[٥] و كما قال : « لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى »[٦] فمن لم يصبر بعد الصدقة عن المنّ و الأذى فقد أبطل عمله ، والطاعات تنقسم إلى فرض و نفل وهو محتاجٌ إلى الصبر عليهما جميعاً و قد جمعهما الله تعالى في قوله : « إنّ الله يأمر بالعدل و الإحسان وإيتاء ذي القربى »[٧] فالعدل هو الفرض و الإحسان هو النفل ، وإيتاء ذي القربى المروّة وصلة الرّحم ، و كلّ ذلك يحتاج إلى الصبر . الضرب الثاني المعاصي فما أحوج العبد إلى الصبر عنها وقد جمع الله أنواع المعاصي في قوله : « وينهى عن الفحشاء والمنكر »[٨] وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم:

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٢٧ و قد تقدم عن الصحيحين .
(٢) البينة : ٥ . (٣) هود : ١١ .
(٤) العنكبوت : ٥٩ و ٦٠. (٥) محمد : ٣٦ .
(٦) البقرة : ٢٦٤ . (٧) و (٨) النحل : ٩٠ .

« المهاجر من هجر السوء و المجاهد من جاهد هواه » (١) و المعاصي مقتضى باعث الهوى وأشدّ أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي الّتي صارت مألوفة بالعادة، فإنّ العادة طبيعة خامسة فإذا انضافت إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى، فلا يقوى باعث الدّين على قمعها، ثمّ إن كان ذلك الفعل ممّا يتيسّر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللّسان من الغيبة و الكذب و المراء و الثناء على النفس تعريضاً و تصريحاً، و أنواع المزاح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات الّتي يقصد بها الإزراء و الاستحقار وذكر الموتى بالقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم و مناصبهم، فإنّ ذلك في ظاهره غيبة و في باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان إحداهما نفي الغير و الأخرى إثبات نفسه، وبهما تتمّ له الرّبوبيّة الّتي في طبعه وهي ضدّ ما أمر به من العبوديّة، و لاجتماع الشهوتين وتيسّر تحريك اللّسان ومصير ذلك معتاداً في المحاورات يعسر الصبر عنها حتّى يزول استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الاُنس بها، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيستبعد غاية الاستبعاد، و يطلق لسانه طول النّهار في أعراض النّاس ولا يستنكر ذلك مع ما ورد في الخبر من « أنّ الغيبة أشدّ من الزّنى » (٢) ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر فيجب عليه العزلة والانفراد فلا ينجيه غيره، فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدّة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوّتها وضعفها، وأيسر من حركة اللّسان حركة الخواطر باختلاج الوساوس فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة فلا يمكن الصبر عنه أصلاً إلّا بأن يغلب على القلب همّ آخر في الدّين يستغرقه كمن أصبح وهمومه همّ واحد و إلّا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معيّن لم يتصوّر فتور الوسواس عنه.

(١) أخرج شطره الاول ابن ماجه و شطره الثاني النسائي في الكبرى و كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسناد جيد و قد تقدما.

(٢) تقدم في آفات اللسان.

القسم الثاني ما لا يرتبط هجومه باختياره و له اختيار في دفعه كما لو اُوذي بفعل أو قول و جني عليه في نفسه أو ماله فالصبر على ذلك بترك المكافأة يكون واجباً و تارة يكون فضيلة ، قال بعض الصحابة : ما كنّا نعدُّ إيمان الرّجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى وقال تعالى : « ولنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون » (١) وقسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّة مالاً فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما اُريد بها وجه الله فاُخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاحمرّت وجنتاه ثمّ قال : رحم الله أخي موسى قد اُوذي بأكثر من هذا فصبر » (٢) وقال تعالى : « ودع أذاهم وتوكّل على الله » (٣) وقال : « واصبر على ما يقولون و اهجرهم هجراً جميلاً » (٤) وقال : « ولقد نعلم أنّك يضيق صدرك بما يقولون فسبّح بحمد ربّك » (٥) و قال : « ولتسمعنّ من الّذين اُوتوا الكتاب من قبلكم ومن الّذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتّقوا فإنّ ذلك من عزم الامور » (٦) أي تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره فقال : « و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » (٧).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « صل من قطعك و أعط من حرمك واعف عمّن ظلمك » (٨) ورأيت في الانجيل قال عيسى عليه السلام : « لقد قيل لكم من قبل : إنّ السنّ بالسنّ والأنف بالأنف ، وأنا أقول لكم : لا تقاوموا الشرّ بالشرّ بل من ضرب خدّك اليمنى فحوّل إليه الخدّ اليسرى ، ومن أخذ رداءك فأعطه إزارك ، ومن سخّرك لتسير معه ميلاً فسر معه ميلين ». و كلّ ذلك أمر بالصبر على الأذى فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنّه يتعاون فيه باعث الدّين و باعث الشهوة والغضب جميعاً .

القسم الثالث ما لا يدخل تحت الاختيار أوّله و آخره كالمصائب مثل موت

---

(١) ابراهيم : ١٢ .
(٢) تقدم غير مرة عن البخاري و مسلم .
(٣) الاحزاب : ٤٨ .
(٤) المزمل : ١٠ .
(٥) الحجر : ٩٧ .
(٦) آل عمران : ١٨٦ .
(٧) النحل : ١٢٦ .
(٨) تقدم غير مرة .

الأعزّة و هلاك الأموال و زوال الصحّة بالمرض و عمى العين و فساد الأعضاء ، وبالجملة فسائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر ، قال ابن عبّاس - رضي الله عنه - : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله فله ثلاثمائة درجة ، و صبر عن محارم الله وله ستّمائة درجة ، و صبر في المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجه ، وإنّما فضّلت هذه الرّتبة مع أنّها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأنّ كلّ مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم ، فأمّا الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلّا الأنبياء لأنّه بضاعة الصدّيقين ، فإنّ ذلك شديد على النفس ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : « أسألك من اليقين ما تهون به عليّ مصائب الدّنيا » [1] فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

قال أبو سليمان : و الله ما نصبر على ما نحبّ فكيف نصبر على ما نكره .

أقول: كلام أبي حامد ههنا ينافي ما ذكره في أوائل هذا الفصل من أنّ الصبر على العافية أشدّ و أفضل من الصبر على البلاء ، و ذلك هو الصحيح دون هذا و ما نقله ههنا عن ابن عبّاس يخالف ما ر ويناه بطريق أهل البيت عليهم السلام فقد روي في الكافي بإسناده إلى عليّ عليه السلام أنّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الصبر ثلاثة صبر عند المصيبة و صبر على الطاعة و صبر عن المعصية فمن صبر على المصيبة حتّى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدّرجة إلى الدرّجة كما بين السماء والأرض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستّمائة درجة ما بين الدرّجة إلى الدرّجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش ، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرّجة إلى الدرّجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش » [2].

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام : « الصبر صبران صبر على البلاء حسن جميل و أفضل الصبرين الورع عن محارم الله » [3] وروي هذا عن أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً .

قال أبو حامد : و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « قال الله عزّ وجلّ : إذا وجّهت إلى عبد من

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم و صححه من حديث ابن عمر .

(٢) و (٣) المصدر ج ٢ ص ٩١ تحت رقم ١٥ و ١٤ .

عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ، ثمّ استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً » (١).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « انتظار الفرج بالصبر عبادة » (٢).

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما من عبد مؤمن اُصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى : «إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، اللّهمّ أجرني في مصيبتي و أعقبني خيراً منها » إلّا فعل الله ذلك به » (٣).

و عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم «إنّ الله عزّ وجلّ قال : ياجبرئيل ماجزاء من سلبت كريمتيه ؟ قال : سبحانك لا علم لنا إلّا ما علّمتنا قال : جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي » (٤).

و قال عليه السلام : يقول الله عزّ وجلّ : « إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عوّاده أبدلته لحماً خيراً من لحمه و دماً خيراً من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له و إن توفّيته فإلى رحمتي » (٥).

و قال داود عليه السلام : « يا ربّ ماجزاء الحزين الّذي يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟ قال : جزاؤه أن ألبسه لباس الأمان فلا أنزعه عنه أبداً ».

وقال داود لسليمان عليهما السلام : يستدلّ على تقوى المؤمن بثلاث حسن التوكّل فيما لم ينل ، وحسن الرّضا فيما قد نال ، وحسن الصبر فيما قد فات .

و قال نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من إجلال الله تعالى و معرفة حقّه ألّا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » (٦).

---

(١) أخرجه ابن عدى من حديث أنس بسند ضعيف (المغنى) .
(٢) أخرجه القضاعى فى مسند الشهاب من حديث ابن عمر كما فى الجامع الصغير
(٣) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٣٧ من حديث أم سلمة
(٤) أخرجه البخارى باختلاف ج ٧ ص ١٥١ من حديث ابن ظلال القسملى عن أنس و أخرجه الطبرانى فى الاوسط من رواية أنس أيضا . كمافى المغنى
(٥) أخرجه مالك فى الموطأ ج ٢ ص ٢٢٩ من حدث عطاء بن يسار .
(٦) قال العراقى : لم أجده مرفوعاً وانما رواه ابن أبي الدنيا في المرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء نحوه .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قال الله تعالى: من مرض ثلاثاً فلم يشك إلى عوّاده أبدلته لحماً خيراً من لحمه و دماً خيراً من دمه فإن عافيته عافيته و لا ذنب له و إن قبضته قبضته إلى رحمتي»[1] و في معناه أخبار اُخر.

وفي بعضها فسّر التبديل بخير بأن يبدله لحماً و دماً و بشرة لم يذنب فيها[2].

و فسّر الشكاية بأن يقول: «ابتليت بما لم يبتل به أحدٌ و أصابني مالم يصب أحداً، قال: و ليس الشكوى أن يقول: سهرت البارحة و حممت اليوم و نحو هذا»[3].

وفي رواية عن الصادق عليه السلام «من اشتكى ليلة فقبلها بقبولها وأدّى إلى الله شكرها كانت كعبادة ستّين سنة، سئل ماقبولها قال: يصبر عليها ولا يخبر بماكان فيها فإذا أصبح حمد الله على ماكان»[4].

وسئل الباقر عن الصبر الجميل فقال: «ذاك صبر ليس فيه شكوى إلى الناس»[5].

قال أبوحامد: فإن قلت: فبما ذا تنال درجة الصّبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطرٌ شاء أم أبى فإن كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار؟ فاعلم أنّه إنّما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع و شقّ الجيوب و ضرب الخدود و المبالغة في الشكوى و إظهار الكآبة و تغيير العادة في الملبس والمفرش و المطعم، وهذه الاُمور داخله تحت اختياره فينبغي أن يجتنب جميعها و يظهر الرّضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرّاً على عادته ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روي عن الرُّميصاء اُمّ سليم أنّها قالت توفّي ابن لي و زوجي أبوطلحة غائب فقمت فسجّيته في ناحية البيت فقدم أبوطلحة فقمت فهيّأت له إفطاره فجعل يأكل فقال: كيف الصبيُّ فقلت: بأحسن حال بحمد الله ومنّه فإنّه لم يكن منذ اشتكى خيراً منه اللّيلة ثمّ تصنّعت له أحسن ما كنت أتصنّع قبل

(١) المصدر ج ٣ ص ١١٥ تحت رقم ١.

(٢) و (٣) و (٤) المصدر ج ٣ ص ١١٦ تحت رقم ٦ و ١ و ٥ على الترتيب

(٥) المصدر ج ٢ ص ٩٣ تحت رقم ٢٣.

ذلك حتّى أصاب منّي حاجته ثمّ قلت : ألاتعجب من جيراننا ؟ قال : ومالهم ؟ قلت : اعيروا عارية فلمّا طلبت منهم جزعوا فقال : بئس ما صنعوا ، فقلت : هذا ابنك كانت عارية من الله تعالى و إنّ الله قد قبضه إليه ، فحمد الله واسترجع ثمّ غدا على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فأخبره فقال : « اللّهمّ بارك لهما في ليلتهما » قال الرّاوي : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة كلّهم قد قرؤوا القرآن (١) . و روى جابر أنّه عليه السلام قال : رأيتني دخلت الجنّة فإذا أنا بالرّميصاء امرأة أبي طلحة .

و قد قيل : الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة ، إذ يشبه غيره . ولا يخرجه عن حدّ الصابرين توجّع القلب و لا فيضان العين بالدّمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل الموت سواء و لأنّ البكاء توجّع القلب على الميّت فإنّ ذلك مقتضى البشريّة و لا يفارق الإنسان إلى الموت و لذلك لمّا مات إبراهيم ولد النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فاضت عيناه فقيل له : « أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال : إنّ هذه رحمة و إنّما يرحم الله من عباده الرّحماء » (٢) بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرّضا فالمقدم على الفصد و الحجامة راض به و هو متألّم بسببه لا محالة و قد تفيض عينه إذا عظم ألمه ، و سيأتي ذلك في كتاب الرّضا إن شاء الله .

و كتب ابن أبي نجيح يعزّي بعض الخلفاء فكتب أنّ أحقّ من عرف حقّ الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حقّ الله تعالى عنده فيما أبقاه له ، واعلم أنّ الماضي قبلك هو الباقي لك و الباقي بعدك هو المأجور فيك ، و اعلم أنّ أجر الصابرين فيما

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ومسلم في الصحيح ج ٧ ص ١٤٥ والرميصاء بضم الراء صحابية .

(٢) رواه البزار و الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عوف قال : بعثت ابنة لرسول الله صلى الله عليه وآله أن ابنتي مغلوبة فقال للرسول : قل لها ان لله ما أخذ وله ما أعطى ثم بعثت اليه ثانية فقال لها مثل ذلك ، ثم بعثت اليه الثالثة فجاءها في ناس من أصحابه فأخرجت اليه الصبية و نفسها تقعقع (أي تضطرب) في صدرها ، فرق عليها فذرفت عيناه ففطن به بعض أصحابه وهم ينظرون اليه حين ذرفت عيناه ، فقال : « مالكم تنظرون رحمة الله يضعها حيث يشاء انما يرحم الله من عباده الرحماء » . راجع مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٨ . و ما عثرت على لفظ ما نقله المصنف .

يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يعافون منه فإذن مهمادفع الكراهة بالتفكّر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصّابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان المرض والفقر و سائر المصائب ، وقدقيل : من كنوزالبرّ كتمان المصائب والأوجاع والصّدقة ، فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أنّ وجوب الصبر عامٌّ في جميع الأحوال والأفعال فإنّ الّذي كفى الشهوات كلّها و اعتزل وحده فلا يستغني عن الصبرعلى العزلة و الانفراد ظاهراً و عن الصبر عن وساوس الشيطان باطناً ، فإنّ إختلاج الخواطر لا يسكن ، فأكثر جولان الخاطر إنّما يكون في فائت لا تدارك له أو في مستقبل لابدّ وأن يحصل منه ما هومقدّر فهو كيف ماكان تضييع زمان ، وآلةالعبد قلبه و بضاعته عمره ، فإذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به اُنساً بالله أو عن فكر يستفيد معرفة بالله ليستفيد بالمعرفة محبّة الله فهو مغبون ، هذا إن كان فكره و وسواسه فيالمباحات مقصوراً عليه و لا يكون ذلك غالباً بل يتفكّر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لايزال ينازع كلّ من تحرّك على خلاف غرضه في جميع عمره أو من يتوهّم به أنّه ينازعه ويخالف غرضه بظهور أمارةله منه بل يقدّرالمخالفة من أخلص الناس فيحبّه حتّى في أهله و ولده ، ويتوهّم مخالفتهم له ، ثمّ يتفكّرفي كيفيّة زجرهم و كيفيّة قهرهم ، وجوابهم عمّا يتعلّلون به في مخالفته و لا يزال في شغل دائم ، فللشيطانجندان جنديطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركةجنده الطيّار ، و الشهوة عبارة عن حركة جنده السيّار ، وهذا لأنّ الشيطان خلق من النار ، و خلق الانسان من صلصال كالفخّار ، والفخّار قد اجتمع فيه مع النار الطين ، و الطين طبعه السكون . و النار طبعها الحركة ، فلا يتصوّر نار مشتعلة لا تتحرّك ، بل لا تزال تتحرّك بطبعها وقد كلّف الملعون المخلوق من النارأنيطمئنّ عن حركته ، ساجداً لما خلق من الطين فأبي و استكبر واستعصى ، وعبّر عن سبب استعصائه بأن قال : « خلقتني مننار وخلقته من طين » فإذنحيث لميسجد الملعون لأبينا آدم صلوات الله عليه فلا ينبغي أنيطمع في سجوده لأولاده ، ومهما كفّ عن القلبوسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه فقدأظهر انقياده وإذعانه وانقياده بالإذعان

سجود منه فهو روح السجود و إنّما وضع الجبهة على الأرض قالبه ، وعلامته الدالّة عليه بالاصطلاح و لو جعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصوّر ذلك كما أنّ الانبطاح بين يدي المعظّم المحترم يرى استخفافاً بالعادة ، فلا ينبغي أن يدهشك صدف الجوهر عن الجوهر و قالب الرّوح عن الرّوح و قشر اللّب عن اللّب ، فتكون ممّن قيّده عالم الشهادة بالكلّيّة عن عالم الغيب و تحقّق أنّ الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكفّ عن الوسواس إلى يوم الدّين إلّا أن تصبح وهمومك همّ واحدٌ ، فيشتغل قلبك بالله وحده فلا يجد الملعون مجالاً فيك فعندذلك تكون من عباد الله المخلصين الدّاخلين في الاستثناء من سلطنة هذا اللّعين ولا تظننّ أنّه يخلو عنه قلب فارغ ، بل هو سيّال يجري من ابن آدم مجرى الدّم و سيلانه مثل الهواء في القدح فإنّك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو بغيره فقد طمعت في غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لامحالة ، فكذلك القلب المشغول بفكر مهمّ في الدّين يخلو عن جولان الشياطين و إلّا فمن غفل عن الله و لو في لحظة فليس له في تلك اللّحظة قرين إلّا الشيطان ، و لذلك قال تعالى : « و من يعش عن ذكر الرّحمن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين »(١).

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ الله يبغض الشابّ الفارغ »(٢) و هذا لأنّ الشابّ إذا تعطّل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغاً و لم يبق قلبه فارغاً بل يعشش فيه الشيطان ويبيض و يفرخ ثمّ يزدوج أفراخه أيضاً و يبيض مرّة اُخرى و يفرخ و هكذا يتوالد نسل الشيطان توالداً أسرع من توالد سائر الحيوانات لأنّ طبعه من النار ، و إذا وجد الحلفاء اليابسة كثر تولّده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا ينقطع ألبتة ، بل يسري شيئاً فشيئاً على الاتّصال . فالشهوة

---

(١) الزخرف : ٣٦ .

(٢) قال العراقى : لم أجده . أقول : رواه الكلينى فى الكافى ج ٥ ص ٨٤ من حديث موسى بن جعفر عليهما السلام هكذا « ان الله يبغض العبد النوام الفارغ ».

في نفس الشابّ للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار ، و كما لايبقى النار إذا لم يبق لها قوت و هو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذ لم تكن شهوة فإذن إذا تأمّلت علمت أن أعدى عدوّ لك شهواتك و هي صفة نفسك الّتي إن لم تشغلها شغلتك ، فإذن حقيقة الصبر و كماله الصبر عن كلّ حركة مذمومة ، و حركة الباطن أولى بالصبر عنها وهذا صبر دائم لايقطعه إلّا الموت .

(بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه)

إعلم أنّ الّذي أنزل الدّاء أنزل الدّواء و وعد الشفاء ، فالصبر و إن كان شاقّاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم و العمل ، فالعلم والعمل هما الاخلاط الّتي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلّها ولكن يحتاج كلّ مرض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكما أنّ أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منها مختلفة ، و إذا اختلفت العلل اختلف العلاج ، إذ معنى العلاج مضادّة العلّة وقمعها واستيفاء ذلك ممّا يطول ولكنّا نعرّف الطريق في بعض الأمثلة فنقول : إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع مثلاً فقد غلبت عليه بحيث ليس يملك معها فرجه أويملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أويملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لاتزال تحدّثه بمقتضيات الشهوة ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذّكر والفكر والأعمال الصالحة ، فنقول : قد قدّمنا أنّ الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدّين مع باعث الهوى و كلّ متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلّا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ، فلزمنا ههنا تقوية باعث الدّين وتضعيف باعث الشهوة فأمّا باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة اُمور أحدها أن تنظر إلى مادّة قوتها فهي الأغذية الطيّبة المحرّكة للشهوة من حيث نوعها و من حيث كثرتها فلابدّ من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصار عند الأفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللّحم والأطعمة المهيّجة للشهوة ، والثاني قطع أسبابه المهيّجة له في الحال فإنّه إنّما يهيّج بالنظر إلى مظانّ الشهوة إذ النظر يحرّك القلب والقلب يحرّك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة و الاحتراز عن مظانّ وقوع البصر على

الصور المشتهاة و الفرار منها بالكلّية ، قال رسول الله ﷺ : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس »(١) و هذا سهم يسدّده الملعون و لا ترس يمنع منه إلّا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه فإنّه إنّما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انتقلت عن صوب الصور لم يصبك سهمه ، الثالث تسلية النفس بالمباح من الجنس الّذي يشتهيه و ذلك بالنكاح فإنّ كلّ ما يشتهيه الطبع ففي المباحات ما يغني عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأنفع في حقّ الأكثر ، فإنّ قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثمّ قد لا يقمع الشهوة في حقّ أكثر الرّجال ولذلك قال ﷺ : « عليكم بالباه فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنّ الصوم له وجاء »(٢) فهذه ثلاثة أسباب فالعلاج الأوّل و هو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجموح و عن الكلب الضاري ليضعف فيسقط قوّته ، والثاني يضاهي تغييب اللّحم عن الكلب وتغييب الشعير عن البهيمة حتّى لا يتحرّك بواطنها بسبب مشاهدتها ، و الثالث يضاهي تسليتها بشيء قليل ممّا يميل إليه طبعها حتّى يبقى معها من القوّة ما تصبر على التأديب

و أمّا تقوية باعث الدّين فإنّما تكون بطريقين : أحدهما في إطماعه في فوائد المجاهدة و ثمراتها في الدّين و الدّنيا و ذلك بأن يكثر فكره في الأخبار الّتي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدّنيا و الآخرة ، وفي الأثر : أنّ ثواب الصبر على المصيبة أكثر ممّا فات . و إنّه بسبب ذلك مغبوطٌ بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه إلّا مدّة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدّهر ، ومن أسلم خسيساً في نفيس فلا ينبغي أن يحزن لفوات الخسيس في الحال وهذا باب المعارف ، وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوي قوي باعث الدّين و هيّجه تهييجاً شديداً و إن ضعف ضعف ، وإنّما قوّة الإيمان يعبّر عنها باليقين وهو المحرّك

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣١٤ وتقدم كراراً في كتاب النكاح وغيره .

(٢) أخرجه مسلم ج ٤ ص ١٢٨ والبخاري ج ٧ ص ٣ والنسائي ج ٦ ص ٥٧ كلهم من حديث ابن مسعود و قد تقدم .

لعزيمة الصبر « وأقلّ ما اُوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر » . والثاني أن يعوّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجاً قليلاً قليلاً حتّى يدرك لذّة الظفر بها فيستجري عليها و تقوى مُنّته في مصارعتها ، فإنّ الاعتياد و الممارسة للأعمال الشاقّة يؤكّد القوى الّتي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوّة الحمّالين والفلاّحين والمقاتلين و بالجملة الممارسين للأعمال الشاقّة على قوّة الخيّاطين و العطّارين و الفقهاء و الصالحين ، وذلك لأنّ قواهم لم تتأكّد بالممارسة ، فالعلاج الأوّل يضاهي أطماع المصارع في الخلعة عند الغلبة و وعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إيّاهم بموسى حيث قال : « وإنّكم إذاً لمن المقرّبين » و الثاني يضاهي تعويد الصبي الّذي يراد منه المصارعة و المقاتلة مباشرة أسباب ذلك منذ الصبى حتّى يأنس به ويستجري عليه و يقوى فيه منّته ، فمن ترك بالكلّية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدّين ولا يقوى على الشهوة و إن ضعفت ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد ، فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه وإنّما أشدّها كفّ الباطن عن حديث النفس ، و إنّما يشتدّ ذلك على من تفرّغ له بأنّ قمع الشهوات الظاهرة و آثر العزلة و جلس للمراقبة والذّكر والفكر ، فإنّ الوسواس لايزال يجاذبه من جانب وهذا لاعلاج له البتّة إلّا قطع العلائق كلّها ظاهراً وباطناً بالفرار عن الأهل و الولد و المال و الجاه و الرّفقاء والأصدقاء ، ثمّ الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت و بعد القناعة به ثمّ كلّ ذلك لايكفي ما لم تصر الهموم همّاً واحداً وهو الله تعالى ثمّ إذا غلب ذلك على القلب فلايكفي ذلك مالم يكن فيه مجال في الفكر و سير بالباطن في ملكوت السماوات و الأرض و عجائب صنع الله و سائر أبواب معرفة الله حتّى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك محادثة الشيطان و وسواسه ، و إن لم يكن له سيرٌ بالباطن فلا ينجيه إلّا الأوراد المتواصلة المترتّبة في كلّ لحظة من القراءة و الأذكار و الصلوات و يحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فإنّ التفكّر بالباطن هو الّذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ، ثمّ إذا فعل كلّ ذلك لم يسلم له من الأوقات إلّا بعضها إذ لايخلو

في جميع أوقاته عن حوادث تتجدّد ، فتشغله عن الفكر والذّكر من مرض و خوف و إيذاء من إنسان وطغيان من مخالط إذ لايستغني عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الأنواع الشاغلة ، و أمّا النوع الثاني فهو ضروري أشدّ ضرورة من الأوّل و هو اشتغاله بالمطعم و الملبس و أسباب المعاش فإنّ تهيئة ذلك أيضاً تحوج إلى شغل إن تولّاه بنفسه ، و إن تولّاه غيره فلا يخلو عن شغل قلب ممّن يتولّاه ، ولكن بعد قطع العلائق كلّها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به ملمّة أو واقعة و في تلك الأوقات يصفو القلب و يتيسّر الفكر و ينكشف فيه من أسرار الله في ملكوت السماوات و الأرض ما لا يقدر على عشر عشيره في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق ، و الانتهاء إلى هذا هو أقصى المقامات الّتي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد ، فأمّا مقادير ماينكشف و مبالغ ما يرد من لطف الله في الأحوال و الأعمال فذلك يجري مجرى الصيد و هو بحسب الرّزق فقد يقلّ الجهد و يجلّ الصيد و قد يطول الجهد و يقلّ الحظّ ، و المعوّل و راء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرّحمن فإنّها توازي أعمال الثقلين و ليس ذلك باختيار العبد نعم اختيار العبد في أن يتعرّض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدّنيا فإنّ المجذوب إلى أسفل السافلين لايجذب إلى أعلى علّيّين و كلّ منهوم بالدّنيا فهو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو المراد بقوله عليه السلام : « إنّ لربّكم في أيّام دهركم نفحات ألا فتعرّضوا لها »[1] و ذلك لأنّ تلك النفحات و الجذبات لها أسباب السماويّة إذ قال تعالى : « و في السماء رزقكم وما توعدون »[2] و هذا أعلى أنواع الرّزق ، والاُمور السماويّة غائبة عنّا فلا ندري متى ييسّر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا إلّا تفريغ المحلّ و الانتظار لنزول الرّحمة وبلوغ الكتاب أجله كالّذي يصلح الأرض و ينقّيها من الحشيش و يبثّ البذر فيها ، و كلّ ذلك لا ينفعه إلّا بمطر ، و لا

---

(١) أخرجه الطبراني فى الاوسط والكبير من حديث محمد بن مسلمة و أنس كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٣١ . و قد تقدم .

(٢) الذاريات : ٢٢ .

يدري متى يقدّر الله أسباب المطر إلّا أنّه يشق بفضل الله تعالى و رحمته أنّه لا يخلى سنة عن مطر ، فكذلك قلّما تخلو سنة و شهر و يوم عن جذبة من الجذبات و نفحة من النّفحات ، فينبغي أن يكون العبد قد طهّر أرض القلب من حشيش الشهوات و بذر فيه بذر الإرادة والإخلاص ، و عرضه لمهابّ رياح الرّحمة و كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الرّبيع و عند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعنداجتماع الهمم و تساعد القلوب كما في يوم عرفة و يوم الجمعة و أيّام رمضان فإنّ الهمم و الأنفاس أسباب بحكم تقرير الله تعالى لاستدرار رحمته حتّى يستدرّ بها الأمطار في أوقات الاستسقاء و هي لاستدرار أمطار المكاشفات و لطائف المعارف من خزائن الملكوت أشدّ مناسبة منها لاستدرار قطرات الماء و استجرار الغيوم من أقطار الجبال و البحار ، بل الأحوال والمكاشفات حاضرة معك في قلبك و إنّما أنت مشغول عنها بعلائقك و شهواتك فصار ذلك حجاباً بينك و بينها فلا تحتاج إلّا أن تنكسر الشهوة و ترفع الحجاب فيشرق أنوار المعارف من باطن القلب ، و إظهار ماء الأرض بحفر القنى أسهل و أقرب من استرسال الماء إليها من مكان بعيد منخفض عنها و لكونه حاضراً في القلب و منسياً بالشغل عنه سمّى الله جميع معارف الإيمان تذكّراً فقال : « ليتذكّر اُولو الألباب » (١) و قال : « ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر » (٢) فهذا هو علاج الصبر عن الوساوس و الشواغل و هو آخر درجات الصبر وإنّما الصبر عن العلائق كلّها مقدّم على الصبر عن الخواطر ، و أشدّ العلائق على النفس علاقة الخلق و حبّ الجاه ، فإنّ لذّة الرّئاسة و الغلبة و الاستعلاء و الاستتباع أغلب اللّذات في الدّنيا على نفوس العقلاء و كيف لا تكون أعلى اللّذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى والرّبوبيّة مطلوبة و محبوبة بالطبع للقلب بما فيه من المناسبة لأمور الرّبوبيّة و عنه العبارة بقوله تعالى : « قل الرّوح من أمر ربي » (٣) وليس القلب مذموماً على حبّه ذلك و إنّما

(١) ص : ٢٩ . (٢) القمر : ١٧ .
(٣) الاسراء : ٨٥ .

هو مذموم على غلط وقع له بسبب تغرير الشيطان اللّعين المبعد عن عالم الأمر، إذ حسده على كونه من عالم الأمر، فأضلّه و أغواه، و كيف يكون مذموماً عليه و هو يطلب سعادة الآخرة، فليس يطلب إلّا بقاء لافناء فيه، و عزّاً لا ذلّ فيه، و أمناً لاخوف فيه، و غنىً لا فقر فيه، و كمالاً لانقصان فيه، و هذه كلّها من أوصاف الرّبوبيّة و ليس مذموماً على طلب ذلك بل حقّ كلّ عبد أن يطلب ملكاً عظيماً لا آخر له، و طالب الملك طالب للعلوّ و العزّ والكمال لامحالة ولكنّ الملك ملكان ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام و لكنّه عاجل وهو في الدّنيا، وملك مخلّد دائم لا يشوبه كدر و لا ألم، و لا يقطعه قاطع و لكنّه آجل و قد خلق الإنسان عجولاً راغباً في العاجلة، فجاء الشيطان و توسّل إليه بواسطة العجلة الّتي في طبعه فاستغواه بالعاجلة و زيّن له الحاضرة و توسّل إليه بواسطة الحمق فوعده بالغرور في باب الآخرة ومنّاه مع ملك الدّنيا ملك الآخرة، كماقال عليه السلام: «والأحمق من اتّبع نفسه هواها و تمنّى على الله الأمانيّ»[1] فانخدع المخذول بغروره و اشتغل بطلب عزّ الدّنيا و ملكها على قدر إمكانه، ولم يتدلّ الموفّق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة فعبّر عن المخذولين فقال سبحانه: «كلّا بل تحبّون العاجلة ✿ و تذرون الآخرة»[2] و قال تعالى: «إنّ هؤلاء يحبّون العاجلة و يذرون وراءهم يوماً ثقيلاً»[3] وقال تعالى: «فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا و لم يرد إلّا الحيوة الدّنيا ✿ ذلك مبلغهم من العلم»[4] ولمّا استطار مكر الشيطان في كافّة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرّسل فأوحوا إليهم ما مرّ على الخلق من إهلاك العدوّ و إغوائه، فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقيّ عن الملك المجازي الّذي لا أصل له إن سلم ولا دوام له أصلاً، فنادوا فيهم «يا أيّها الّذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحيوة الدّنيا من الآخرة فما متاع الحيوة الدّنيا في الآخرة إلّا قليل»[5] فالتّورية و

(١) قد تقدم. (٢) القيامة: ٢٠ و ٢١. (٣) الانسان: ٢٧.
(٤) النجم: ٢٩ و ٣٠. (٥) التوبة: ٣٨.

الإنجيل و الزّبور و الفرقان وصحف موسى و كلّ كتاب منزل ما أُنزل إلّا لدعوة الخلق إلى الملك الدّائم المخلّد ، و المراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدّنيا ملوكاً في الآخرة ، أمّا ملك الدّنيا فبالزّهد فيها والقناعة باليسير منها ، و أمّا ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى بدرك بقاء لا فناء فيه و عزّ لا ذل فيه ، و قرّة عين اُخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس ، و الشيطان يدعوهم إلى ملك الدّنيا لعلمه بأنّ ملك الآخرة يفوت به إذ الدّنيا و الآخرة ضرّتان ، و لعلمه بأنّ الدّنيا لا تسلم له أيضاً ولو كانت تسلم لكان يحسده أيضاً ، ولكن ملك الدّنيا لا يخلو عن المنازعات و المكدّرات و طول الهموم في التدبيرات و كذلك سائر أسباب الحياة ، ثمّ كما يسلم ويتمّ الأسباب ينقضي العمر « حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس » فضرب الله تعالى لها مثلاً و قال : « و اضرب لهم مثل الحيوة الدّنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرّياح »[1] و الزّهد في الدّنيا لمّا كان ملكاً حاضراً حسده الشيطان عليه فصدّه عنه ، و معنى الزّهد أن يملك العبد شهوته و غضبه فينقادان لباعث الدّين و إشارة الإيمان ، و هذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرّاً و باستيلاء الشهوة عليه يصير عبداً لبطنه و فرجه و سائر أعضائه فيكون مسخّراً مثل البهيمة مملوكاً يستجرّه زمام الشهوة آخذاً بمخنقه[2] إلى حيث يريد، ويهوى فما أعظم اغترار الإنسان إذ ظنّ أنّه ينال الملك بأن يصير مملوكاً وينال الرّبوبيّة بأن يصير عبداً ، ومثل هذا هل يكون إلّا معكوساً في الدّنيا منكوساً في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزّهّاد : سلني حاجة ، قال : كيف أطلب منك حاجة وملكي أعظم من ملكك ، فقال : كيف ؟ قال : من أنت عبده فهو عبدٌ لي، فقال : كيف ذلك ؟ قال : أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك و قد ملكت أنا هؤلاء كلّهم فهم عبيدٌ لي ، فهذا إذن هو الملك في الدّنيا و هو الّذي يسوق إلى الملك في الآخرة فالمنخدعون بغرور الشيطان خسروا

(١) الكهف : ٤٥ . (٢) اى مضيقه .

الدّنيا و الآخرة جميعاً ، فالّذين وفّقوا للاستداد (١) على الصراط المستقيم فازوا بالدّنيا و الآخرة جميعاً ، فإذا عرفت الآن معنى الملك والرّبوبيّة ومعنى التسخير و العبوديّة و مدخل الغلط في ذلك و كيف تعيمة الشيطان و تلبيسه فيسهل عليك النزوع عن الملك و الجاه و الإعراض عنه و الصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكاً في الحال و ترجو به ملكاً في الآخرة و من كوشف بهذه الاُمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخ فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلايكفيه في العلاج مجرّد العلم والكشف بل لابدّ و أن يضيف إليه العمل و عمله في ثلاثة اُمور : أحدها أن يهرب من موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعسر عليه الصبر مع الأسباب ، كما يهرب من غلبته الشهوة عن مشاهدة الصور المحركة و من لم يفعل هذا فقد كفر نعمة الله تعالى في سعة الأرض إذ قال تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (٢) . الثاني أن يكلّف نفسه في أعماله أفعالاً تخالف ما اعتاده فيبدّل التكلّف بالتبذّل و زيّ الحشمة بزيّ التواضع ، و كذلك كلّ هيئة و حال وفعل في مسكن وملبس ومطعم و قيام وقعود كان يعتاده وفاء بمقتضى جاهه ، فينبغي أن يبدّلها بنقائضها حتّى يترسّخ باعتياد ذلك ضدّ ما رسخ فيه من قبل باعتياد ضدّه ، فلا معنى للمعالجة إلّا المضادّة .
الثالث أن يراعي في ذلك التلطّف و التدريج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذّل فإنّ الطبع نفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلّا بالتدريج فيترك البعض ويسلّي نفسه بالبعض ثمّ إذا قنعت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض إلى أن يقنع بالبقيّة و هكذا يفعل شيئاً فشيئاً إلى أن يقمع تلك الصفات الّتي رسخت فيه ، وإلى هذا التدريج الإشارة بقوله صلّى الله عليه وآله : « إنّ هذا الدّين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغّض إلى نفسك عبادة الله تعالى فإنّ المنبتّ لا أرضاً قطع و لا ظهراً أبقى » (٣) و إليه الإشارة بقوله عليه السلام : « لا تشادّوا هذا الدّين فإنّ من يشادّه

(١) استد ـ بالسين المهملة ـ : استقام . (٢) النساء : ٩٧ .
(٣) أخرجه البزار من حديث جابر كما في الجامع الصغير وقد تقدم . و في الكافي ج ٢ ص ٨٧ مثله . والمنبت من انقطع به في سفره .

يغلبه »[١] فإذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة و عن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربع المهلكات ، و اتّخذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام الّتي فصّلناها من قبل ، فإنّ تفصيل الآحاد يطول و من راعى التدريج ترقّى به الصبر إلى حالة يشقّ عليه الصبر دونه كما كان يشقّ عليه الصبر معه ، فتنعكس اُموره فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً ، وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا يصبر عنه ، وهذا لا يعرف إلّا بالتجربة و الذوق ، وله نظير في العادات فإنّ الصبيّ يحمل على التعلّم في الابتداء قهراً فيشقّ عليه الصبر عن اللّعب والصبر مع العلم حتّى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر فصار يشقّ عليه الصبر عن العلم و الصبر على اللّعب .

و إلى هذا يشير ما حكي عن بعض العارفين أنّه سأل الشبلي عن الصبر أيّه أشدّ ، فقال الصبر في الله ، فقال : لا ، فقال : الصبر لله ، فقال : لا ، قال : الصبر مع الله ، قال : لا ، قال : فأيش ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف .

و قد قيل في معنى قوله تعالى : « اصبرو وصابروا ورابطوا »[٢] : اصبروا في الله ، وصابروا بالله ، ورابطوا مع الله . وقيل : الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء . و قد قيل في معناه :

و الصبر عنك فمذمومٌ عواقبه ✿ و الصبر في سائر الأشياء محمود

وقيل أيضاً :

الصبر يجمل في المواطن كلّها ✿ إلّا عليك فإنّه لا يجمل

هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسراره .

✿(الشطر الثاني من الكتاب في الشكر)✿

وله ثلاثة أركان الرّكن الأوّل في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ج ٣ ص ١٩ باختلاف في اللفظ وفي صحيح البخاري مثله .
(٢) آل عمران : ٢٠٠ .

الرُّكن الثاني في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصّة والعامّة . الرُّكن الثالث في بيان الأفضل من الصبر والشكر .

الرُّكن الأوّل في نفس الشكر :

✿(بيان فضيلة الشكر)✿

إعلم أنّ الله تعالى قرن الشكر بالذِّكر في كتابه مع أنّه قال : « ولذكر الله أكبر » (١) فقال تعالى : « فاذكروني أذكركم واشكروا لي و لا تكفرون » (٢) . وقال تعالى : « ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم » (٣) . و قال : « و سنجزي الشاكرين » (٤) . و قال تعالى إخباراً عن إبليس اللّعين : « لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم » (٥) . وقيل : هو طريق الشكر ، ولعلوِّ رتبة الشكر طعن اللّعين في الخلق فقال : « و لا تجد أكثرهم شاكرين » (٦) . و قال تعالى : « و قليلٌ من عبادي الشكور » (٧) . و قد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر و لم يستثن فقال : « لئن شكرتم لأزيدنّكم » (٨) . و استثنى في خمسة أشياء في الإغناء و الإجابة و الرِّزق و المغفرة و التوبة فقال تعالى : « فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » (٩) . وقال : « فيكشف ما تدعون إليه إن شاء » (١٠) . و قال : « يرزق من يشاء » (١١) . و قال : « ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » (١٢) . وقال : « و يتوب الله على من يشاء » (١٣) . وهو خلق من أخلاق الرُّبوبيّة إذ قال تعالى : « والله شكورٌ حليم » (١٤) و قد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنّة فقال : « وقالوا الحمد لله الّذي صدقنا وعده » (١٥) .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .
(٢) البقرة : ١٥٢ .
(٣) النساء : ١٤٧ .
(٤) آل عمران : ١٤٥ .
(٥) الاعراف : ١٦ .
(٦) الاعراف : ١٧ .
(٧) سبأ : ١٣ .
(٨) ابراهيم : ٧ .
(٩) التوبة : ٢٨ .
(١٠) الانعام : ٤١ .
(١١) الشورى : ١٩ .
(١٢) النساء : ٤٨ .
(١٣) التوبة : ١٥ .
(١٤) التغابن : ١٧ .
(١٥) الزمر : ٧٤ .

وقال : « و آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » (١).

وأما الاخبار : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » (٢).

و روي عن عطاء أنه قال : دخلت على عائشة فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجباً إنه أتى ليلة فدخل معي في فراشي - أو قالت : في لحافي - حتى مس جلده جلدي ثم قال : يا ابنة أبي بكر ذريني أتعبد لربي قالت : قلت : إني أحب قربك ولكني أوثر هواك ، فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكى ثم سجد فبكى ثم رفع رأسه فبكى فلم يزل كذلك حتى جاء بلال فآذنه بالصلاة ، فقلت : يا رسول الله ما يبكيك ؟ و قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك و ما تأخر قال : أفلا أكون عبداً شكوراً و لم لا أفعل ذلك ؟ وقد أنزل الله علي « إن في خلق السموات والأرض (٣) - الآية - » (٤). و هذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً ، وإلى هذا السر يشير ما روي أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير يخرج منه ماء كثير فتعجب فأنطقه الله فقال : منذ سمعت قوله تعالى : «وقودها الناس والحجارة » فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجيره من النار فأجاره ثم رآه بعد مدة مثل ذلك فقال : لم تبكي الآن ؟ فقال : ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر و السرور ، و قلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال

---

(١) يونس : ١٠.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه تحت رقم ١٧٦٤.

(٣) البقرة : ١٦٤.

(٤) حديث عطاء أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه و آله و من طريقه ابن الجوزي في الوفاء و فيه أبو جناب و اسمه يحيى بن أبي حية ضعفه الجمهور ، و رواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قوله : « وأي شأنه لم يكن عجباً » وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصراً على آخر الحديث . (المغني)

الخوف والشكر جميعاً .

و روي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « ينادي مناد يوم القيامة ليقم الحمّادون فيقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنّة قيل : ومَن الحمّادون؟ فقال : الّذين يشكرون الله تعالى على كلّ حال » وفي لفظ آخر « الّذين يشكرون الله على السرّاء والضرّاء »[1].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الحمد رداء الرّحمن »[2].

و أوحى الله تعالى إلى أيّوب أنّي رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي ـ في كلام طويل ـ و أوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين : دارهم دار السلام إذ دخلوها ألهمتهم الشكر و هو خير الكلام ، و عند الشكر أستزيدهم و بالنظر إليّ أزيدهم .

ولمّا نزل في الكنوز ما نزل قال عمر : فأيّ المال نتّخذ ؟ فقال عليه السلام : « ليتّخذ أحدكم لساناً ذاكراً و قلباً شاكراً »[3] فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن المال .

و قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : « الشكر نصف الإيمان ».

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب ، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر . والمعطى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع »[4].

و عنه عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما فتح الله على عبد باب شكر فخزن عنه باب الزّيادة »[5].

و عنه عليه السلام قال : « من اُعطى الشكر اُعطى الزّيادة قال الله تعالى : « لئن

(١) ما عثرت على لفظيه نعم روى الطبرانى فى الكبير و الحاكم فى المستدرك ج ١ ص٥٠٢ والبيهقى فى الشعب « أول من يدعى الى الجنة الحمادون يحمدون على السراء والضراء » بسند حسن عن ابن عباس كما فى الجامع الصغير .

(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت ١٨٥٦ . و قد تقدم فى النكاح .

(٤) و(٥) المصدر ج ٢ ص ٩٤ تحت رقم ١ و ٢ .

شكرتم لأزيدنّكم »(١).

و عنه عليه السلام قال : « ما أنعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمدالله ظاهراً بلسانه فتمّ كلامه حتّى يؤمرله بالمزيد »(٢).

و عن الباقر عليه السلام قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند عائشة ليلتها فقالت : يا رسول الله لم تتعب نفسك و قد غفر الله لك ماتقدّم من ذنبك وما تأخّر ؟ فقال : يا عائشة ألا أكون عبداً شكوراً ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوم على أصابع رجليه فأنزل الله سبحانه : « طه ۞ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » (٣).

۞(بيان حد الشكر و حقيقته)۞

إعلم أنّ الشكر من جملة مقامات السّالكين و هو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال ، والحال يورث العمل ، أمّا العلم فهومعرفة النعمة من المنعم والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه والعمل هو القيام بماهومقصود المنعم و محبوبه و يتعلّق ذلك العمل بالقلب و بالجوارح و باللّسان و لابدّ من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشّكر فإنّ كلّ ما قيل في حدّ الشّكر قاصرٌ عن الاحاطة بكمال معانيه ، فالأصل الأوّل العلم و هو علم بثلاثة اُمور بعين النّعمة و وجه كونها نعمة في حقّه ، و بذات المنعم و وجود صفاته الّتي بها يتمّ الإنعام ويصدرالإنعام منه عليه فإنّه لابدّ من نعمة و منعم ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد و إرادة فهذه الاُمور لابدّ من معرفتها.هذا في حقّ غير الله تعالى ، فأمّا في حقّ الله فلا يتمّ إلّا بأن يعرف أنّ النعم كلّها من الله وأنّه هو المنعم ، والوسائط مسخّرون من جهته و هذه المعرفة وراء التقديس و التّوحيد إذ دخل التّوحيد و التقديس فيها ، بل الرّتبة الاُولى في معارف الإيمان التقديس ثمّ إذا عرف ذاتاً مقدّسة فيعرف أنّه لامقدّس إلّا واحدٌ و ما عداه غير مقدّس ، وهو التّوحيد ،

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ٨، والاية في سورة ابراهيم : ٧ .

(٢) الكافي ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ٩ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ٦ والاية في سورة طه : ١ و ٢ .

ثمّ يعلم أنّ كلّ ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكلّ نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرّتبة الثالثة إذ ينطوي فيها مع التقديس و التّوحيد كمال القدرة و الانفراد بالفعل و عن هذا عبّر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : « من قال : «سبحان الله » فله عشر حسنات ، و من قال : « لا إله إلّا الله » فله عشرون حسنة ، و من قال : « الحمد لله » فله ثلاثون حسنة »(١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: « أفضل الذكر لا إله إلّا الله ، و أفضل الدّعاء الحمد لله »(٢).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ليس شيء من الأذكار يضاعف مايضاعف الحمد لله »(٣).

و لا تظننّ أنّ هذه الحسنات بإزاء تحريك اللّسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدلّ على التّقديس ، ولا إله إلّا الله كلمة تدلّ على التّوحيد ، و الحمد لله كلمة تدلّ على معرفة النعمة من الواحد الحقّ فالحسنات بإزاء هذه المعارف الّتي هي من أبواب الإيمان واليقين ، واعلم أنّ تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأفعال فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو لوكيله دخلاً في تيسير ذلك و إيصاله إليه فهو إشراك به في النّعمة فلا يرى النعمة من الملك من كلّ وجه بل منه بوجه و من غيره بوجه فيتوزّع فرحه عليهما فلايكون موحّداً في حقّ الملك ، نعم لا ينقص من توحيده في حقّ الملك و كمال شكره أن يرى النّعمة الواصلة إليه بتوقيعه الّذي كتبه بقلمه و بالكاغذ الّذي كتبه عليه فإنّه لا يفرح بالقلم والكاغذ ولا يشكرهما لأنّه لا يثبت لهما دخلاً من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخّران تحت قدرة الملك وقد نعلم أنّ الوكيل الموصل والخازن أيضاً مضطرّان من جهة الملك في الإيصال وأنّه لو ردّ الأمر

---

(١) أخرجه الحاكم بأدنى اختلاف فى المستدرك ج١ ص ٥١٢ من حديث أبى هريرة و صححه .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٨٠٠ والترمذى والنسائى و ابن حبان والحاكم فى المستدرك عن جابر بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

(٣) قال العراقى : لم أجده مرفوعاً و انما رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن ابراهيم النخعى يقال : ان أكثر الكلام تضعيفاً .

إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاق وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئاً فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن الموصل كنظره إلى القلم والكاغذ فلا يورث ذلك شركاً في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك ، فكذلك من عرف الله تعالى وعرف أفعاله علم أن الشمس و القمر و النجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلاً في يد الكاتب و أن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فإن الله تعالى هو المسلط للدواعي عليها لتفعل شاءت أم أبت ، كالخازن المضطر الذي لا يجد سبيلاً إلى مخالفة الملك ولو خلي و نفسه لما أعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل إليك نعمة من الله على يده فهو مضطر إذ سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعي و ألقى في قلبه أن خيره في الدنيا و الآخرة في أن يعطيك ما أعطاك و أن غرضه المقصود عنده في الحال والمآل لا يحصل إلا به و بعد أن خلق الله فيه هذا الاعتقاد فلا يجد سبيلاً إلى تركه فهو إذاً إنما يعطيك لغرض نفسه لا لغرضك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك ، و لو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما نفعك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك فليس منعماً عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة اُخرى هو يرجوها وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك و ألقى في قلبه من الاعتقادات و الإرادات ما صار به مضطراً إلى الإيصال إليك ، فإن عرفت الاُمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله و كنت موحداً و قدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكراً ، و لذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته : إلهي خلقت آدم بيدك وأسكنته جنتك و زوجته حواء أمتك فكيف شكرك ؟ فقال الله تعالى : اُعلم أن ذلك مني فكانت معرفته شكراً . فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه فإن خالجك ريب في هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة و لا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل به و بغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح و بنقصان فرحك ينقص عملك . فهذا بيان هذا الأصل .

الأصل الثاني الحال المستمدة من أصل المعرفة و هو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع و التواضع و هو أيضاً في نفسه شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر و لكن إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه و شرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا

بالنّعمة ولا بالإنعام، و لعلّ هذا ممّا يتعذّر عليك فهمه فنضرب لك مثالاً فنقول: الملك الّذي يريد الخروج إلى سفر فأنعم بفرس على إنسان يتصوّر أن يفرح المنعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه: أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنّه فرس وإنّه مال ينتفع به و مركوب يوافق غرضه و إنّه جواد نفيس و هذا فرح لا حظّ له في الملك بل غرضه الفرس فقط ولو وجده في صحراء فأخذه لكان فرحه مثل ذلك.

الوجه الثاني أن يفرح به لا من حيث إنّه فرس بل من حيث يستدلّ به على عناية الملك به و شفقته عليه و اهتمامه بجانبه حتّى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلاً لاستغنائه عن الفرس أصلاً أو لاستحقاره له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل المحلّ في قلب الملك.

الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك و يتحمّل مشقّة السّفر لينال بخدمته رتبة القرب منه وربّما يرتقي إلى درجة الوزارة من حيث إنّه ليس يقنع بأن يكون محلّه في قلب الملك أن يعطيه فرساً ويعتني به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلّا بواسطته، ثمّ إنّه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضاً بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتّى لو خيّر بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات:

فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلاً لأنّ نظر صاحبها مقصور على الفرس ففرحه بالفرس لا بالمعطي و هذا حال كلّ من فرح بنعمة من حيث إنّها لذيذة و موافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشّكر.

والثانية داخلة في معنى الشّكر من حيث إنّه فرح بالمنعم و لكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته الّتي تستحثّه على الإنعام في المستقبل و هذا حال الصّالحين الّذين يعبدون الله ويشكرونه خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه وإنّما الشّكر التّام في الفرح الثالث:

و هو أنّ يكون فرح العبد بنعم الله من حيث إنّه يقدر بها على التوصّل إلى القرب منه والنزول في جواره و النظر إلى وجهه على الدّوام فهذا هو الرّتبة

العليا و أمارته أن لايفرح من الدّنيا إلاّ بماهو مزرعة الآخرة و يعينه عليها ويحزن بكلّ نعمة تلهيه عن ذكر الله و تصدّه عن سبيله لأنّه ليس يريد النّعمة لأنّها لذيذة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنّه جواد ومهملج بل من حيث انّه يحمله في صحبة الملك حتّى تدوم مشاهدته له و قربه منه ، ولذلك قال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة ، و قال الخوّاص : شكر العامّة على المطعم والملبس والمشرب و شكر الخاصّة على واردات القلوب . وهذه رتبة لايدركها كلّ من انحصرت عنده اللّذات في البطن و الفرج ومدركات الحواسّ من الألوان والأصوات و خلا عن لذّة القلب فإنّ القلب لا يلتذّ في حال الصحّة إلّا بذكر الله و معرفته و لقائه و إنّما يلتذّ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذّ بعض النّاس بأكل الطين و كما يستبشع بعض المرضى الأشياء الحلوة و يستحلي الأشياء المرّة حتّى قيل :

ومن يك ذا فم مرّ مريض ✿ يجد مرّاً به الماء الزّلالا

فإذن هذا شرط الفرح بنعمة الله فإن لم تكن إبل فمعزى ، و إن لم يكن هذا فالدرّجة الثانية أمّا الأولى فخارجة عن كلّ حساب ، فكم من فرق بين من يريد الملك للفرس و بين من يريد الفرس للملك ، و كم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه و بين من يريد نعمة الله ليصل بها إليه .

الاصل الثالث العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم و هذا العمل يتعلّق بالقلب وباللّسان وبالجوارح ، أمّا بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافّة الخلق ، و أمّا باللّسان فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدّالّة عليه ، و أمّا بالجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته و التوقّي من الاستعانة بها على معصيته حتّى أنّ شكر العينين أن تستر كلّ عيب تراه بمسلم و شكر الأذنين أن تستر كلّ عيب تسمعه لمسلم فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء و الشكر باللّسان لإظهار الرّضا عن الله تعالى و هو مأمور به .

فقد قال صلّى الله عليه وآله وسلّم لرجل: كيف أصبحت ؟ فقال : بخير فأعاد السؤال ، فأعاد

حتّى قال في الثالثة : بخير أحمد الله و أشكره ، فقال : هذا الّذي أردت منك » [١]

وكان السلف يتساءلون بينهم و نيّتهم استخراج الشكر لله ليكون الشاكر مطيعاً و المستنطق له به مطيعاً وماكان قصدهم الرّياء باظهار الشوق و كلّ عبد يسأل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ، فالشّكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدّين و كيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك و من بيده كلّ شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء ، فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء و القضاء و أفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو المبلي و هو القادر على إزالة البلاء ، وذلّ العبد لمولاه عزّ والشكوى إلى غيره ذلّ ، وإظهار الذّل للعبيد مع كونهم أذلاء قبيح ، قال تعالى : « إنّ الّذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرّزق واعبدوه و اشكروا له » [٢].

و قال تعالى : « إنّ الّذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » [٣] فالشكر باللّسان من جملة الشكر .

أقول: روى في الكافي عن الصّادق عليه السلام أنّه قال : « شكر كلّ نعمة و إن عظمت أن تحمد الله » [٤].

و عنه عليه السلام « أنّه خرج من المسجد و قد ضاعت دابّته فقال : لئن ردّها الله عليّ لأشكرنّ الله حقّ شكره قال الرّاوي : فما لبث أن اُتي بها فقال : الحمدلله ، فقال قائل له : جعلت فداك أليس قلت : لأشكرنّ الله حقّ شكره ؟ فقال أبو عبدالله عليه السلام : ألم تسمعني قلت : الحمد لله » [٥].

و عنه عليه السلام قال : « شكر النعم اجتناب المحارم و تمام الشكر قول الرّجل الحمد لله ربّ العالمين » [٦] .

---

(١) روى نحوه مالك في الموطأ ج ٢ ص ٢٣٩ والسائل عمر لا النبي صلى الله عليه و آله .
(٢) العنكبوت : ١٧. (٣) الاعراف : ١٩٤ .
(٤) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ١١ .
(٥) المصدر ج ٢ ص ٩٧ تحت رقم ١٨ .
(٦) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ١٠ .

وعنه عليه السلام أنّه سئل «هل للشكر حدٌّ إذا فعله العبد كان شاكراً؟ قال: نعم قلت: ما هو قال: يحمد الله على كلّ نعمة عليه في أهل و مال و إن كان فيما أنعم عليه في ماله حقٌّ أدّاه، و منه قوله سبحانه: «سبحان الّذي سخّر لنا هذا و ما كنّا له مقرنين» ومنه قوله: «ربّ أنزلني منزلاً مباركاً و أنت خير المنزلين» و قوله: «ربّ أدخلني مدخل صدق و أخرجني مخرج صدق و اجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً» [1].

و عنه عليه السلام: «إذ ذكر أحدكم نعمة الله فليضع خدّه على التراب شكراً لله فإن كان راكباً فلينزل و ليضع خدّه على التراب و إن لم يكن يقدر على النّزول للشهرة فليضع خدّه على قربوسه و إن لم يقدر فليضع خدّه على كفّه ثمّ ليحمد الله على ما أنعم الله عليه» [2].

قال أبو حامد: فهذه هي اُصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته، فأمّا قول من قال: «إنّ الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع» فهو نظر إلى فعل اللّسان مع بعض أحوال القلب، و قول من قال: «إنّ الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه» نظر إلى مجرّد عمل اللّسان، و قول القائل: «إنّ الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة» جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذّ منه إلّا عمل اللّسان، و قول الجنيد: «الشكر أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة» إشارة إلى حالة من أحوال القلب على الخصوص، وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم و لذلك تختلف أجوبتهم ولا تتّفق، ثمّ قد يختلف جواب كلّ واحد في حالتين لأنّهم لا يتكلّمون إلّا عن حالتهم الغالبة عليهم اشتغالاً بما يهمّهم عمّا لا يهمّهم، أو يتكلّمون بما يرونه لائقاً بحال السائل اقتصاراً على ذكر القدر الّذي يحتاج إليه و إعراضاً عمّا لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظنّ أنّ ما ذكرناه طعن عليهم و أنّه لو عرض عليهم

---

(١) المصدر ج ٢ ص ٩٥ تحت رقم ١٢ والايات في سورة الزخرف: ١٣. وفي سورة المؤمنون: ٢٩. وفي سورة الاسراء: ٨٠.

(٢) الكافي ج ٢ ص ٩٨ تحت رقم ٢٥.

مجامع المعاني الّتي شرحناها كانوا ينكرونها ، بل لا يظن ذلك بعاقل أصلاً إلّا أن يفرض منازعة من حيث اللّفظ في أنّ اسم الشكر في وضع اللّسان هل يشمل جميع المعاني أم يتناول بعضها مقصوداً و بقيّة المعاني تكون من توابعه و لوازمه و لسنا نقصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللّغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء.

﴿ بيان كشف الغطاء عن الشكر في حقّ الله سبحانه ﴾

لعلّه يخطر ببالك أنّ الشكر إنّما يعقل في حقّ منعم هو صاحب حظّ في الشكر فإنّا نشكر الملوك إمّا بالثناء ليزيد محلّهم في القلوب و يظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم ، أو بالخدمة الّتي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالمثول بين أيديهم في صورة الخدم و ذلك تكثير لسوادهم و سبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلّا بشيء من ذلك وهذا محالٌ في حقّ الله تعالى من وجهين: أحدهما أنّ الله منزّه عن الحظوظ و الأغراض ، مقدّس عن الحاجة إلى الخدمة و الإعانة وعن نشر الجاه والحشمة بالثناء و الإطراء ، وعن تكثير سواد الخدم بالمثول بين يديه ركّعاً سجّداً فشكرنا إيّاه بما لاحظّ له فيه يضاهي شكرنا الملك المنعم علينا بأن ننام في بيوتنا أو نسجد أو نركع إذ لا حظّ للملك فيه وهو غائب لا علم له .ولا حظّ لله تعالى في أفعالنا كلّها . الوجه الثاني أنّ جميع ما نتعاطاه باختيارنا فهو نعمة اُخرى علينا من نعم الله إذ جوارحنا و قدرتنا و إرادتنا و داعيتنا و سائر الاُمور الّتي هي أسباب حركتنا و نفس حركتنا من خلق الله تعالى و نعمته فكيف نشكر نعمته بنعمته ، و لو أعطانا الملك مركوباً فأخذنا مركوباً آخر له و ركبناه أو أعطانا مركوباً آخر لم يكن الثاني شكراً للأوّل منّا ، بل كان الثّاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأوّل ، ثمّ لا يمكن شكر الشّكر إلّا بنعمة اُخرى فيؤدّي إلى أن يكون الشكر محالاً في حقّ الله تعالى من هذين الوجهين ولسنا نشكّ في الأمرين جميعاً والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع ، فاعلم أنّ هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام و كذلك لموسى عليه السلام فقال: يا ربّ كيف أشكرك و أنا لا أستطيع أن أشكرك إلّا بنعمة ثانية من نعمك ؟ و في لفظ آخر: و شكري لك نعمة اُخرى منك توجب عليّ

الشكر لك ؟ فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني . و في خبر آخر إذا عرفت أنّ النّعم منّي رضيت منك بذلك شكراً .

أقول : و هذا مرويّ في الكافي عن الصّادق عليه السلام أيضاً (١) . و فيه عنه عليه السلام قال : « من أنعم الله عليه بنعمة فعرفها بقلبه فقد أدّى شكرها » (٢).

و عن الكاظم عليه السلام « من حمد الله على النّعمة فقد شكره ، والحمد أفضل من تلك النّعمة » (٣) .

قال أبو حامد : فإن قلت : فقد فهمت السّؤال وفهمي قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم و إنّي أعلم استحالة الشكر لله فأمّا كون العلم باستحالة الشّكر شكراً فلا أفهمه فإنّ هذا العلم أيضاً نعمة منه فكيف صار شكراً و كأنّ الحاصل يرجع إلى أنّ من لم يشكر فقد شكر و إنّ قبول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الاُولى و الفهم قاصر عن درك السرّ فيه فإن أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهمٌ في نفسه . فاعلم أنّ هذا قرع باب من أبواب المعارف و هي أعلى من علوم المعاملة ولكنّا نشير منها إلى ملامح و نقول : ههنا نظران نظر بعين التّوحيد المحض و هذا النّظر يعرفك قطعاً أنّه الشاكر و أنّه المشكور و أنّه المحبّ و أنّه المحبوب و هذا نظر من قد عرف أنّه ليس في الوجود غيره وأنّ كلّ شيء هالك إلّا وجهه وأنّ ذلك صدق في كلّ حال أزلاً و أبداً لأنّ الغير هو الّذي يتصوّر أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير الّذي يتصوّر فلا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الموجود المحقّق هو القائم بنفسه و ما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره ، فإن اعتبر ذاته و لم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البتّة وإنّما الموجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الّذي لو قدّر عدم غيره بقي موجوداً فإن كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيّوم ولا قيّوم إلّا واحد ولا يتصوّر

---

(١) المصدر ج ٢ ص ٩٨ تحت رقم ٢٧ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٩٦ تحت رقم ١٥ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٩٦ تحت رقم ١٣ .

أن يكون غير ذلك فاذاً ليس في الوجود غير الحيّ القيّوم و هو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام علمت أنّ الكلّ منه مصدره و إليه مرجعه فهو الشاكر و هو المشكور و هو المحبّ و هو المحبوب .

و من ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ قوله تعالى : « إنّا وجدناه صابراً نعم العبد إنّه أوّاب »(١) فقال : واعجباه أعطى وأثنى . أشار إلى أنّه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثني و هو المثنى عليه . و من ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني حيث قرء بين يديه « يحبّهم و يحبّونه » فقال : لعمري يحبّهم ودعه يحبّهم فبحقّ يحبّهم لأنّه إنّما يحبّ نفسه . أشار به إلى أنّه المحبّ و أنّه المحبوب ، و هذه رتبة عالية لا تفهمها إلّا بمثال على حدّ عقلك ولا يخفى عليك أنّ المصنّف إذا أحبّ تصنيفه فقد أحبّ نفسه والصانع إذا أحبّ صنعته فقد أحبّ نفسه والوالد إذا أحبّ ولده من حيث إنّه ولده فقد أحبّ نفسه ، و كلّ ما في الوجود سوى الله فهو تصنيف الله و صنعته فان أحبّه فما أحبّ إلّا نفسه و إذا لم يحبّ إلّا نفسه فبحقّ أحبّ ما أحبّ ، وهذا كلّه نظر بعين التّوحيد ، و تعبّر الصوفيّة عن هذه الحالة بفناء النفس أي فنى عن نفسه و عن غير الله ولم ير إلّا الله فمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول : كيف فنى وطول ظلّه أربعة أذرع ؟ ولعلّه يأكل في كلّ يوم أرطالاً من الخبز فيضحك عليهم الجهّال لجهلهم بمعاني كلامهم ، وضرورة قول العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الاشارة بقوله تعالى : « إنّ الّذين أجرموا كانوا من الّذين آمنوا يضحكون ✿ و إذا مرّوا بهم يتغامزون ✿ و إذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين ✿ وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالّون ✿ وما ارسلوا عليهم حافظين »(٢) ثمّ بيّن إن ضحك العارفين عليهم غداً أعظم إذ قال : « فاليوم الّذين آمنوا من الكفّار يضحكون ✿ على الآرائك ينظرون »(٣) و كذلك اُمّة نوح كانوا يضحكون عليه عنداشتغاله بعمل السّفينة فقال : « إن تسخروا منّا فانّا نسخر منكم كما تسخرون »

(١) ص : ٤٤ .

(٢) المطففين : ٣٠ الى ٣٤ . (٣) المطففين : ٣٥ و ٣٦ .

فهذا أحد النظرين .

النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه و هؤلاء قسمان قسم لم يثبتوا إلّا وجود أنفسهم و أنكروا أن يكون لهم ربٌ يعبد و هؤلاء هم العميان المنكوسون و عماهم في كلتا العينين لأنّهم نفوا ما هو الثابت تحقيقاً و هو القيّوم الّذي هو قائم بنفسه وقائم على كلّ نفس بما كسبت و كلٌ قائم فقائم به ولم يقتصروا على هذا حتّى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلموا أنّهم من حيث هم هم لاثبات لهم ولا وجود لهم و إنّما وجودهم من حيث اُوجدوا لا من حيث وجدوا ، و فرق بين الموجود وبين الموجد ، وليس في الوجود إلّا موجود واحد و موجد ، فالموجود حقٌ والموجد باطلٌ من حيث هو هو ، و الموجود قائم و قيّوم ، والموجد هالك و فان ، فإذا كان كلٌ من عليها فان فلا يبقى إلّا وجه ربّك ذوالجلال والإكرام .

الفريق الثاني ليس بهم عمى ولكنّ بهم عور لأنّهم يبصرون بإحدى العينين وجود الموجود الحقّ فلا ينكرونه و العين الاُخرى إن تمّ عماها لم يبصر بها فناء غير الموجود الحقّ فأثبت موجوداً آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقاً كما كان الّذي قبله جاحداً تحقيقاً فإن جاوز حدّ العمى إلى العمش أدرك تفاوتاً بين الموجودين فأثبت عبداً و ربّاً فبهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الموجود الآخر دخل في حدّ التوحيد ، ثمّ إن كحل بصره بما يزيد في أنواره فيقلّ عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له من نقصان ما أثبته سوى الله فإن بقي في سلوكه كذلك ، فلايزال يفضي به النقصان إلى المحو فينمحي عن رؤية ما سوى الله فلا يرى إلّا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد و حيث أدرك نقصاً في وجود ما سوى الله دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لاتحصى فبهذا تتفاوت درجات الموحّدين ، و كتب الله تعالى المنزلة على ألسنة رسله هي الكحل الّذي يحصل به أنوار الأبصار ، و الأنبياء هم الكحّالون وقد جاؤوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلّا الله ومعناه أن لايرى إلّا الواحد الحقّ ، والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأقلّون والجاحدون والمشركون أيضاً هم قليلون و هم على الطرف الأقصى المقابل لطرف التوحيد إذ

عبدة الأوثان قالوا : «ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى» فكانوا داخلين في أوائل أبوابْ التوحيد دخولاً ضعيفاً والمتوسّطون هم الأكثرون و فيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ، ولكن كالبرق الخاطف لايثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زماناً ولكن لايدوم والدّوام فيه عزيز .

لكلٍّ إلى شأو العلى حركات ✿ و لكن عزيز في الرّجال ثبات

و لمّا أمر الله تعالى نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم بطلب القرب فقيل له : «واسجدواقترب»[1] قال في سجوده «أعوذ بعفوك من عقابك ، و أعوذ برضاك من سخطك و أعوذ بك منك ، لا اُحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك»[2] فقوله : «أعوذ بعفوك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله فقطّ فكأنّه لم ير إلّا الله و أفعاله فاستعاذ بفعله من فعله ، ثمّ اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال و ترقّى إلى مصادر الأفعال و هي الصفات فقال : «أعوذ برضاك من سخطك»[3] و هما صفتان ثمّ رأى ذلك نقصاناً في التوحيد فاقترب و رقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذّات فقال : أعوذ بك منك وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل و صفة ولكنّه رأى نفسه فارّاً منه إليه ومستعيذاً و مثنياً ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصاناً واقترب فقال : «أنت كما أثنيت على نفسك لا اُحصي ثناء عليك» فقوله: «لا اُحصي» خبر عن فناء نفسه وخروجه عن مشاهدته و قوله : «أنت كما أثنيت على نفسك» بيان أنّه المثني والمثنى عليه وأنّ الكلّ منه بدا وإليه يعود ، وأنّ كلّ شيء هالك إلّا وجهه فكان أوّل مقامه نهاية مقامات الموحّدين و هو أن لا يرى إلّا الله وأفعاله ، فيستعيذ بفعل من فعل فانظر إلى ما ذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحقّ حتّى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذّات الحقّ ، ولقد كان عليه السلام لايرقى من رتبة إلى اُخرى

---

(١) العلق : ١٩ (٢) رواه مالك في الموطأ ج ١ ص ١٦٧ من حديث عائشة . و فيه «أعوذ برضاك عن سخطك و بمعافاتك من عقوبتك» و كذا رواه مسلم و غيره و قد تقدم . (٣) عرفت أن هذه الحملة في الحديث مقدمة على الجملة الاولى . فلا يستقيم ماقاله أبو حامد إلّا على رواية النسائي في السنن ج ٨ ص ٢٨٤ لانه روى الاستعاذات فقط كما في المتن دون قوله : «لااحصى ثناء - الخ -» .

إلّا ويرى الأُولى بعداً بالإضافة إلى الثانية ، فكان يستغفر الله من الأُولى و يرى ذلك نقصاً في سلوكه وتقصيراً في مقامه ، وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «إنّه ليغان على قلبي حتّى استغفر الله في اليوم و اللّيلة سبعين مرّة » (١) فكان ذلك لترقّيه إلى سبعين مقاماً بعضها بعد البعض و أوائلها و إن كان مجاوزاً أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصاناً بالإضافة إلى أواخرها فكان استغفاره لذلك ، ولمّا قالت عائشة : أليس قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر فما هذا البكاء في السجود ؟ و ما هذا الجهد الشديد ؟ قال : «أفلا أكون عبداً شكوراً » (٢) معناه أفلا أكون طالباً للمزيد في المقامات فإنّ الشكر سبب الزّيادة حيث قال تعالى : «لئن شكرتم لأزيدنّكم»(٣) و إذ تغلغلنا في بحار المكاشفة فلنقبض العنان و لنرجع إلى ما يليق بعلوم المعاملة فنقول : الأنبياء بعثوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الّذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة ، و إنّما الشرع كلّه تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة اُخرى و مقام آخر فيظهر في ذلك المقام بالإضافة إلى تلك المشاهدة الشكر و الشاكر و المشكور ولا يعرف ذلك إلاّ بمثال ، فأقول : يمكنك أن تفهم أنّ ملكاً من الملوك أرسل إلى عبد قد بعد منه مركوباً وملبوساً ونقداً لأجل زاده في الطريق حتّى يقطع به مسافة البعد و يقرب من حضرة الملك ثمّ يكون له حالتان إحداهما أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهمّاته ويكون له عناية في خدمته ، و الثانية أن لا يكون للملك حظّ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه لأنّه لا يقوى على القيام بخدمة تغني فيه غناء وغيبته لا تنقص من ملكه فيكون قصده من الإنعام عليه بالمركوب و الزّاد أن يحظي العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا لينتفع الملك به وبانتفاعه فمنزل العبد من الله تعالى في

(١) تقدم غير مرة .

(٢) تقدم من طريق الخاصة والعامة آنفاً .

(٣) ابراهيم : ٧ .

المنزلة الثّانية لا في المنزلة الأولى فانّ الاُولى محالٌ على الله تعالى و الثّانية غير محال .

ثمّ اعلم أنّ العبد لا يكون شاكراً في الحالة الاُولى بمجرّد الرّكوب و الوصول إلى حضرته ما لم يقم بخدمته الّتي أرادها الملك منه ، و أمّا في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً و مع ذلك يتصوّر أن يكون شاكراً و كافراً و يكون شكره بأن يستعملما أنفذ إليه مولاه فيما أحبّه لأجله لا لأجل نفسه ، و كفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يعطّله أويستعمله فيما يزيد في بعده منه ، فمهما لبس العبد الثوب وركب المركوب ولم ينفق الزّاد إلّا في الطريق فقد شكرمولاه إذاستعمل نعمته في محبّته أي فيما أحبّه لعبده لالنفسه ، وإن ركبه و استدبرحضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبده لا لنفسه ، و إن جلس ولم يركب لا في طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته إذ أهملها وعطّلها ، وإن كان هذا دون ما لو بَعُد منه ، فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتكمل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وإنّما سعادتهم في القرب منها فأعدّ لهم من النعم ما يقدرون على استعماله في نيل درجة القرب ، و عن بعدهم و قربهم عبّر الله تعالى إذ قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ✿ ثمّ رددناه أسفل سافلين ✿ إلّا الّذين آمنوا ـ الآية ـ »(١) فاذن نعم الله آلات يترقّى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتّى ينال بها سعادة القرب والله غنيٌّ عنه قرب أو بعد و العبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبّة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فيكون قد كفر لاقتحامه ما يكرهه مولاه و لا يرضاه له ، فانّ الله لا يرضى لعباده الكفر و المعصية ، و إن عطّلها ولم يستعملها في طاعة و لا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع ، و كلّ ماخلق في الدّنيا إنّماخلق آلةللعبد ليتوصّل به إلى سعادةالآخرة و نيل القرب من الله تعالى ، فكلّ مطيع فهو بقدرطاعته شاكر نعمة الله في الأسباب

---

(١) التين : ٥ و ٦ و ٧ .

الّتي استعملها في الطاعة . و كلّ كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعمل في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبّة الله ، فالمعصية و الطاعة يشملهما المشيئة ولكن لا يشملهما المحبّة والكراهة ، بل ربّ مراد محبوب و ربّ مراد مكروه ، و وراء بيان هذه الدّقيقه سرّ القدر الّذي منع من إفشائه ، و قد انحلّ بهذا الإشكال الأوّل وهو أنّه إذا لم يكن للمشكور حظّ فكيف يكون الشكر ؟ وبهذا أيضاً ينحلّ الاشكال الثاني ، فانّا لم نعن بالشكر إلّا انصراف نعمة الله في جهة محبّة الله ، فاذا انصرفت النعمة في جهة المحبّة بفعل الله تعالى فقد حصل المراد ، و فعلك عطاء من الله و من حيث أنت محلّه فقد أثنى عليك وثناؤه نعمة اُخرى منه إليك ، فهو الّذي أعطى وهو الّذي أثنى و صار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة محبّته ، فله الشكر على كلّ حال و أنت موصوف بأنّك شاكر بمعنى أنّك محلّ المعنى الّذي الشكر عبارة عنه ، لابمعنى أنّك موجد له ، كما أنّك موصوف بأنّك عارف وعالم لا بمعنى أنّك خالق العلم وموجده ولكن بمعنى أنّك محلّ له ، و قد وجد بالقدرة الأزليّة فيك فوصفك بأنّك شاكر إثبات شيئيّة لك و أنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً ، و إنّما أنت لا شيء إذ كنت أنت ظانّاً لنفسك شيئاً من ذاتك فأمّا باعتبار النظر إلى الّذي جعل الأشياء شيئاً فأنت شيء إذ جعلك شيئاً فإن قطع النظر عن جعله كنت لا شيء تحقيقاً ، وإلى هذا أشار عليه السلام حيث قال : «اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له» (١) لمّا قيل له : ففيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ عنها من قبل فبيّن أنّ الخلق مجاري قدرة الله ومحلّ أفعاله و إن كانوا هم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محلّ للبعض وقوله : «اعملوا» و إن كان جارياً على لسان الرسول صلى الله عليه وآله فهو فعل من أفعاله و هو سبب لعلم الخلق بأنّ العمل نافع و علمهم فعل من أفعال الله والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة و الطاعة وانبعاث الدّاعية أيضاً من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضاً من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله

(١) متفق عليه من حديث علي عليه السلام وعمران بن حصين ورواه الطبراني من حديث عمران وابن عباس بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

سبب للبعض أي الأوّل شرط للثاني كما كان خلق الجسم سبباً لخلق العرض إذ لايخلق العرض قبله ، وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة و الكلّ من أفعال الله تعالى و بعضها سبب للبعض أي هي شرط ، و معنى كونه شرطاً أنّه لايستعدّ لقبول فعل الحياة إلّا جوهر ولا يستعدّ لقبول العلم إلّاذو حياة ولا لقبول الإرادة إلّا ذو علم ، فيكون بعض أفعاله سبباً للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أنّ بعض أفعاله موجد لغيره بل ممهّد شرط الحصول لغيره و هذا إذا حقّق ارتقى إلى درجة التوحيد الّذي ذكرناه .

فإن قلت : فلم قال الله تعالى : «اعملوا» و إلّا فأنتم معاقبون و مذمومون على العصيان و ما إلينا شيء فكيف ندمّ و إنّما الكلّ إلى الله ؟ فاعلم أنّ هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقاد فينا و الاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات و التجافي عن دار الغرور و ذلك سبب للوصول إلى جوار الله و الله تعالى مسبّب الأسباب و هو مرتّبها فمن سبق له في الأزل السعادة يسّر له هذه الأسباب حتّى يقوده بسلسلتها إلى الجنّة ويعبّر عن مثله بأنّ كلّاً ميسّر لما خلق له ، و من لم تسبق له من الله الحسنى بعُد عن سماع كلام الله و كلام رسوله و كلام العلماء ، وإذا لم يسمع لم يعلم ، و إذا لم يعلم لم يخف ، و إذا لم يخف لم يترك الرّكون إلى الدّنيا ، فإذا لم يترك الرّكون إلى الدّنيا بقي في حزب الشيطان وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين ، فإذا عرفت هذا تعجّبت من قوم يقادون إلى الجنّة بالسلاسل فما من موفّق إلّا و هو مقود إلى الجنّة بسلاسل الأسباب و هو تسليط العلم والخوف عليه ، و ما من مخذول إلّا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة و الأمن و الغرور عليه فالمتّقون يساقون إلى الجنّة قهراً و المجرمون يقادون إلى النار قهراً ولا قاهر إلّا الله الواحد القهّار ولاقادر إلّا الملك الجبّار ، وإذا انكشف الغطاء عن أعين الغافلين فشاهدوا الأمر كذلك سمعوا عندذلك نداء المنادي «لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار » و لقدكان الملك لله الواحد القهّار كلّ يوم لا ذلك اليوم على الخصوص ، ولكنّ الغافلين لايسمعون هذا النداء إلّاذلك اليوم فهو بناء على عمى

يتجدّد للغافلين من كشف الأحوال حيث لا ينفعهم الكشف فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل و العمى فإنّه أصل أسباب الهلاك.

(بيان تمييز ما يحبه الله تعالى عمّا يكرهه)

إعلم أنّ فعل الشكر و ترك الكفران لا يتمّ إلّا بمعرفة ما يحبّه الله إذ معنى الشكر استعمال نعمه في محابّه و معنى الكفر نقيض ذلك إمّا بترك الاستعمال أو باستعماله في مكارهه ولتمييز ما يحبّه الله عمّا يكرهه مدر كان أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار والثاني بصيرة القلب وهو النظر بعين الاعتبار و هذا الأخير عسير و هو لأجل ذلك عزيز فلذلك أرسل الله الرّسل و سهّل بهم الطريق على الخلق و معرفة ذلك تبتني على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد فمن لا يطّلع على حكم الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحقّ الشكر أصلاً، و أمّا الثاني و هو النظر بعين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كلّ موجود خلقه إذ ما خلق شيئاً في العالم إلّا وفيه حكمة و تحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب و تلك الحِكم منقسمة إلى جليّة و خفيّة أمّا الجليّة فكالعلم بأنّ من الحِكم في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين اللّيل والنهار فيكون النهار معاشاً و اللّيل لباساً، فتتيسّر الحركة عند الإبصار و السكون عند الاستتار، فهذا من جملة حِكم الشمس لا كلّ الحِكم فيها، بل فيها حِكم أُخرى كثيرة دقيقة. و كذلك معرفة الحكمة في الغيم ونزول الأمطار و ذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعماً للخلق و مرعى للانعام و قد انطوى القرآن على جملة من الحِكم الجليّة الّتي تحتملها أفهام الخلق دون الدّقيق الّذي يقصرون عن فهمه إذ قال تعالى: «أنّا صببنا الماء صبّاً * ثمّ شققنا الأرض شقّاً * فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً - الآية -»(١) و أمّا الحكمة في سائر الكواكب السيّارة منها والثوابت فخفيّة لا يطّلع عليها كافّة الخلق والقدر الّذي يحتمله فهم الخلق أنّها زينة السماء ليستلذّ العين بالنظر إليها و أشار إليه قوله تعالى: «إنّا زيّنّا السماء الدّنيا بزينة الكواكب»(٢) فجميع أجزاء العالم سماؤه و كواكبه وبحاره

---

(١) عبس: ٢٥ الى ٢٩. (٢) الصافات: ٦.

و رياحه وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لاتخلوذرّة من ذرّاته عن حِكم كثيرةمن حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف و كذلك أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما نعرف حكمتها كالعلم بأنّ العين للإبصار لا للبطش ، واليد للبطش لا للمشي ، والرّجل للمشي لا للشمّ .

وأمّا الأعضاء الباطنة من الأمعاء و المرارة و الكلية والكبد و آحاد العروق و الأعصاب و العضلات و ما فيها من التجاويف و الالتفاف و الاشتباك والانحراف والدّقّة و الغلظ و سائر الصفات فلا يعرف وجه الحكمة فيها كافّة الناس و الّذين يعرفونها لايعرفون منها إلّا قدراًيسيراً بالإضافة إلى مافي علم الله «و ما اُوتيتم من العلم إلّا قليلاً » فإذن كلّ من استعمل شيئاً في جهة غير الجهة الّتي خلق لها و لا على الوجه الّذي اُريد به فقد كفر نعمة الله فيه ، فمن ضرب غيره بيده فقد كفر نعمة الله في اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا ليهلك بها غيره ، و من نظر إلى وجه غيرالمحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذالإبصار يتمّ بهما و إنّما خلقتا ليبصر بهما ما ينفعه في دينه و دنياه و يتّقي بهما ما يضرّه فيهمافقد استعملهما في غيرما اُريدتا به ، وهذا لأنّ المراد من خلق الأرض والسماء وخلق الخلق و خلق الدّنيا و أسبابها أن يستعين الخلق بها على الوصول إلى الله ولا وصول إليه إلّا بمحبّته و الاُنس به في الدّنيا و التجافي عن غرورالدّنيا ، و لا اُنس إلّا بدوام الذكر، ولا محبّة إلّا بالمعرفةالحاصلة بدوام الفكر ، ولايمكن الدّوام على الذّكر و الفكر إلّا ببقاء البدن ، و لا يبقي البدن إلّا بالغذاء ، ولا يتمّ الغذاء إلّا بالأرض و الماء و الهواء ، ولا يتمّ ذلك إلّا بخلق السماء و الأرض و خلق سائر الأعضاء ظاهراً و باطناً ، فكلّ ذلك لأجل البدن و البدن مطيّة النفس ، والرّاجع إلى الله هي النفس المطمئنّة بطول العبادة و المعرفة ، و لذلك قال تعالى : « و ما خلقت الجنّ و الإنس إلّاليعبدون » (١) فكلّ من استعمل شيئاً في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب الّتي لابدّ منها لإقدامه على تلك المعصية ، و لنذكر

(١) الذاريات : ٥٦ .

مثالاً واحداً للحكم الخفيّة الّتي ليست في غاية الخفاء حتّى تعتبر بها و تعلم طريقة الشكر و الكفران على النعم.

فنقول: من نعم الله تعالى خلق الدّراهم و الدّنانير و بهما يتمّ قوام الدّنيا و هما حجران لا منفعة في أعيانهما ولكن يضطرّ الخلق إليهما من حيث إنّ كلّ إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته و قد يعجز عمّا يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه كمن يملك الزعفران مثلاً و هو محتاج إلى جمل يركبه و من يملك الجمل ربّما يستغني عنه و يحتاج إلى الزعفران فلابدّ بينهما من معاوضة و لابدّ في مقدار العوض من تقدير إذ لا يبذل صاحب الجمل جمله بكلّ مقدار من الزّعفران و لا مناسبة بين الزّعفران و الجمل حتّى يقال يعطي منه مثله في الوزن أو الصورة، و كذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخفّ أو دقيقاً بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها فلا يدري أنّ الجمل كم يسوي بالزّعفران فتتعذّر المعاملات جدّاً فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسّط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كلّ واحد رتبته و منزلته حتّى إذا تقدّرت المنازل و ترتّبت الرّتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي، فخلق الله تعالى الدّراهم و الدّنانير حاكمين و متوسّطين بين سائر الأموال حتّى تقدّر الأموال بهما، فيقال: هذا الجمل يساوي مائة دينار، وهذا القدر من الزّعفران يساوي مائة، فهما من حيث إنّهما مساويان لشيء واحد إذن يتساويان وإنّما أمكن التعديل بالنقدين إذ لا غرض في أعيانهما و لو كان في أعيانهما غرض ربّما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حقّ صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حقّ من لا غرض له فلا ينتظم الأمر فإذاً خلقهما الله تعالى ليتداولهما الأيدي و يكونا حاكمين بين الأموال بالعدل ولحكمة اُخرى وهي التوسّل بهما إلى سائر الأشياء لأنّهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانهما ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنّه ملك كلّ شيء لا كمن ملك ثوباً فإنّه لم يملك إلّا الثوب، فلو احتاج إلى طعام ربّما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأنّ غرضه في دابّة فاحتيج إلى شيء

هو في صورته كأنّه ليس بشيء، و هو في معناه كأنّه كلّ الأشياء، و الشيء إنّما تستوي نسبته إلى المختلفات إذا لم يكن له صورة خاصّة تقيّدها بخصوصها كالمرآة لا لون لها وتحكي كلّ لون، فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كلّ غرض، وكالحرف لا معنى له في نفسه و تظهر به المعاني في غيره، فهذه هي الحكمة الثانية، وفيهما أيضاً حِكم يطول ذكرها فكلّ من عمل فيهما عملاً لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما، فإذن من كنزهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يمتنع عليه الحكم بسببه لأنّه إذا كنز فقد ضيّع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدّراهم والدّنانير لزيد خاصّة ولا لعمرو خاصّة، إذ لا غرض للآحاد في أعيانهما فإنّهما حجران وإنّما خلقا لتتداولهما الأيدي فيكونا حاكمين بين الناس و علامة معرفة للمقادير مقوّمة للمراتب فأخبر الله تعالى الّذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهيّة المكتوبة على صفحات الموجودات بخطّ إلهي لا حرف فيه ولا صوت، الّذي لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسول الله صلّى الله عليه وآله حتّى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت المعنى الّذي عجزوا عن إدراكه فقال: «والّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم [1]» و كلّ من اتّخذ من الدّراهم و الدّنانير آنية من ذهب أو فضّة فقد كفر النعمة، و كان أسوء حالاً ممّن كنز لأنّ مثال هذا مثال من استسخر حاكم البلد في الحياكة و الكنس والأعمال الّتي يقوم بها أخسّاء الناس، والحبس أهون منه، و ذلك أنّ الخزف والحديد والرّصاص و النحّاس تنوب مناب الذّهب و الفضّة في حفظ المايعات عن أن تتبدّد، و إنّما تراد الأواني لحفظ المايعات ولا يكفي الخزف و الحديد في المقصود الّذي اُريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهيّة، و قيل له: «من شرب في آنية من ذهب أو فضّة فكأنّما يُجرجِر في بطنه نار

(١) التوبة: ٣٥.

جهنّم (١)» و كلّ من عامل معاملة الرّبا على الدّراهم والدّنانير فقد كفر النعمة و ظلم لأنّهما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما إذلا غرض في عينهما فإذا اتّجر في عينهما فقد اتّخذهما مقصوداً على خلاف، وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم و من معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاماً و دابّة، وإذ ربّما لايباع الطعام والدّابة بالثوب فهومعذور في بيعه بنقد آخر ليحصل النقد فيتوصّل به إلى مقصوده فإنّهماوسيلتان إلى الغير لاغرض في أعيانهما، وموقعهمامن الأموال كموقع الحرف من الكلام كما قال النحويّون: إنّ الحرف هو الّذي جاء لمعنى في غيره. و كموقع المرآة من الألوان، فأمّا من معه نقد فلوجازله أن يبيع بالنقد فيتّخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيّداً عنده و ينزل منزلة المكنوز، و تقييد الحاكم و البريد الموصل إلى الغير ظلم كما أنّ حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلّا اتّخاذ النقد مقصوداً للادّخار و هو ظلم.

فإن قلت: فلم جاز بيع أحد النقدين بالآخر ولم جاز بيع الدّرهم بمثله؟ فاعلم أنّ أحد النقدين يخالف الآخر في مقصود التوصّل إذ قد يتيسّر التوصّل بأحدهما من حيث كثرته كالدّراهم تتفرّق في الحاجات قليلاً قليلاً، ففي المنع منه ما يشوّش المقصود الخاصّ به و هو تيسّر التوصّل به إلى غيره، و أمّا بيع الدّرهم بدرهم يماثله فجائز من حيث إنّ ذاك لا يرغب فيه عاقل مهما تساويا ولا يشتغل به تاجر، فإنّه عبث يجري مجرى وضع الدّرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لانخاف

(١) أخرجه مسلم ج ٦ ص ١٣٤ من حديث ام سلمة. و فى النهاية «يجرجر فى بطنه» اى يحدر فيها نار جهنّم فجعل الشرب و الجرع جرجرة و هى صوت وقوع الماء فى الجوف قال الزمخشرى: يروى برفع النار و الاكثر النصب. وهذا القول مجاز لان نار جهنم على الحقيقة لاتجرجر فى جوفه والجرجرة صوت البعير عند الضجر ولكنه جعل صوت جرع الانسان للماء فى هذه الاوانى المخصوصة لوقوع النهى عنها و استحقاق العقاب على استعمالها كجرجرة نار جهنم فى بطنه من طريق المجاز، هذا وجه رفع النار ويكون قد ذكر يجرجر بالياء للفصل بينه وبين النار واما على النصب فالشارب هو الفاعل والنار مفعوله يقال: جرجر فلان الماء اذا جرعه جرعاً متواتراً له صوت، فالمعنى كانما يجرع نار جهنم. انتهى.

على العقلاء بأن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدّرهم على الأرض و أخذه بعينه ، فلا نمنع ممّا لا تتشوّق النفوس إليه إلّا أن يكون أحدهما أجود وذلك أيضاً لا يتصوّر جريانه إذ صاحب الجيّد لا يرضى بمثله من الرّدي فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الرّدي فذلك ممّا قد يقصده فلاجرم نمنعه منه ، ونحكم بأنّ جيّدها ورديّها سواء لأنّ الجودة والرّداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، و ما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته ، و إنّما الّذي ظلم هو الّذي ضرب النقود مختلفة في الجودة و الرّداءة حتّى صارت مقصودة في أعيانها و حقّها أن لا تقصد ، وأمّا إذا باع درهماً بدرهم مثله نسيئة فإنّه لم يجز ذلك لأنّه لا يقدم على هذا إلّا مسامح قاصد للإحسان ففي القرض و هو مكرمة مندوحة عنه لتبقى صورة المسامحة فيكون له حمد وأجر ، و المعاوضة لا حمد فيها و لا أجر ، فهو أيضاً ظلم لأنّه إضاعة خصوص المسامحة و إخراجها في معرض المعاوضة .

و كذلك الأطعمة خلقت ليغتذّى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف عن جهتها فإنّ فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخّر عنها الأكل الّذي اُريدت له فما خلق الله الطعام إلّا ليؤكل ، والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغني عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلّا مستغن عنها ، إذ من معه طعام فلم لا يأكله إن كان محتاجاً و لم يجعله بضاعة تجارة و إن جعله بضاعة تجارة فليبعه ممّن يطلبه بعوض غير الطعام يكون محتاجاً إليه ، فأمّا من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضاً مستغن عنه ، ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر و ورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب المكسب ، نعم بائع البرّ بالتمر معذور إذ أحدهما لا يسدّ مسدّ الآخر في الغرض وبائع صاع من البرّ بصاع مثله غير معذور ولكنّه عابث فلا يحتاج إلى منع لأنّ النفوس لا تسمح به إلّا عند التفاوت في الجودة و مقابلة الجيّد بمثله من الرّدي لا يرضى بها صاحب الجيّد ، و أمّا جيّد برديئين فقد يقصد ولكن لمّا كانت الأطعمة من الضروريات و الجيّد يساوي الرّدي في أصل الفائدة و يخالفه في وجوه التنعّم أسقط الشرع غرض التنعّم فيما هو القوام فهذه

حكمة الشرع في تحريم الرّبا .

فهذا مثال واحد لحكمة خفيّة من حكم النقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة و كفرانها بهذا المثال فكلّ ماخلق لحكمة فلا ينبغي أن يصرف عنها ، ولا يعرف هذا إلّا من قدعرف الحكمة و من يؤت الحكمة فقد اُوتي خيراً كثيراً ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات و ملاعب الشياطين ، بل لا يتذكّر إلّا اُولو الألباب ، و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء » (١) .

و إذا عرفت هذا المثال فقس عليه حركتك و سكونك و نطقك و سكوتك و كلّ فعل صادر منك فإنّه إمّا شكر وإمّا كفران لايتصوّر أن تنفكّ عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الّذي يناطق به عوام الخلق بالكراهة و بعضه بالحظر و كلّ ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر ، فأقول : مثلاً لو استنجيت باليمين فقد كفرت نعمةاليدين إذ خلق الله تعالى لك اليدين وجعل إحديهماأقوى من الاُخرى فاستحقّ الأقوى بمزيد رجحانه في الغالب التشريف و التفضيل إذ تفضيل الناقص عدول عن العدل و الله لايأمر إلّابالعدل ، ثمّ أحوجك من أعطاك اليدين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ المصحف وبعضها خسيس كإزالة النجاسة فإذا أخذت المصحف باليسار و أزلت النجاسة باليمين فقد خصّصت الشريف بما هو خسيس فغضضت من حقّه وظلمته وعدلت عن العدل ، و كذلك إذا بزقت مثلاً في جهة القبلة أواستقبلتها في قضاء الحاجة فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنّه خلق الجهات ليكون متّسعك في حركاتك ، وقسّم الجهات إلى مالم يشرّفها وإلى ماشرّفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيّد به قلبك فيتقيّد بسببه بدنك في تلك الجهة على هيئة الثبات و الوقار إذا عبدت ربّك ، و كذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة و رمي البزاق ، فإذا رميت بزاقك إلى جهة القبلةفقدظلمتها و كفرت نعمة الله تعالى

---

(١) تقدم غيرمرة في الصوم وغيره.

عليك بوضع القبلة الّتي بوضعها كمال عبادتك ، و كذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى فقد ظلمت لأنّ الخفّ وقاية الرّجل فللرّجل فيه حظّ و البداية في الحظوظ ينبغي أن يكون بالأشرف فهو العدل و الوفاء بالحكمة ، و نقيضه ظلم و كفران لنعمة الرّجل والخفّ وهذا عند العارفين كبيرة و إن سمّاه الفقيه مكروها حتّى أنّ بعضهم كان قد جمع أكراراً من الحنطة و كان يتصدّق بها فسئل عن سببه فقال : لبست المداس مرّة فابتدأت بالرّجل اليسرى سهواً فاُريد أن اُكفّره بالصدقة ، نعم الفقيه لا يقدر على تفخيم الأمر في هذه الاُمور لأنّه مسكين بلي باصلاح العوام الّذين تقرب درجتهم من درجة الأنعام فهم منغمسون في ظلمات أطمّ و أعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالاضافة إليها فقبيح أن يقال : الّذي شرب الخمر و أخذ القدح بيساره فقد تعدّى من وجهين أحدهما الشرب و الآخر الأخذ باليسار و من باع حرّاً في وقت النداء يوم الجمعة فقبيح أن يقال : خالف من وجهين أحدهما بيع الحرّ و الآخر البيع في وقت النداء ، ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة فقبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث أنّه لم يجعل القبلة عن يمينه ، فالمعاصي كلّها ظلمات و بعضها فوق بعض فينمحق بعضها في جنب البعض ، فالسيّد قد يعاقب عبده إذا استعمل سكّينه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكّين أعزّ أولاده لم يبق لاستعمال السكّين بغير إذنه حكم و نكاية في نفسه ، فكلّ ما راعاه الأنبياء عليهم السلام و الأوصياء من الآداب و تسامحنا به في الفقه مع العوام فسببه هذه الضرورة و إلّا فكلّ هذه المكاره عدول عن العدل و كفران للنعمة و نقصان عن الدّرجة المبلّغة للعبد إلى درجات القرب ، نعم بعضها يؤثّر في العبد بنقصان القرب و انحطاط المنزلة و بعضها يخرج بالكلّيّة عن حدود القرب إلى عالم البعد الّذي هو مستقرّ الشياطين . و كذلك من كسر غصناً من شجرة من غير حاجة ناجزة مهمّة و من غير غرض صحيح فقد كفر نعمة الله في خلق الأشجار و خلق اليد ، و أمّا اليد فإنّها لم تخلق للعبث بل للطاعة والأعمال المعينة على الطاعة ، وأمّا الشجر فإنّما خلقه الله تعالى و خلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوّة الاغتذاء و النماء

لیبلغ منتهى نشوه فينفع به عباده . فكسره قبل منتهى نشوه لا على وجه ينتفع به . عباده مخالفة لمقصود الحكمة و عدول عن العدل ، فإن كان له غرضٌ صحيحٌ فله ذلك إذ الشجر و الحيوان جعل فداءً لأغراض الإنسان فانّهما جميعاً فانيان هالكان ، فإفناء الأحسن في بقاء الأشرف مدّةً مّا أقرب إلى العدل من تضييعهما جميعاً ، و إليه الإشارة بقوله تعالى : « و سخّر لكم ما في السموات و ما في الأرض جميعاً منه »[١] نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضاً ، و إن كان محتاجاً لأنّ كلّ شجرة بعينها لاتفي بحاجات عباد الله كلّهم ، بل تفي بحاجة واحد ولو خصّص واحدبها من غير رجحان واختصاص كان ظلماً و صاحب الاختصاص هو الّذي حصل البذر و وضعه في الأرض و ساق إليه الماء و قام بالتعهّد فهو أولى به من غيره فيرجّح جانبه بذلك فإن نبت ذلك في موات لابسعي آدميّ اختصّ بمغرسه فلابدّ من طلب اختصاص آخر وهو السبّق إلى أخذه فللسابق خاصيّة السبق فالعدل أن يكون هوأولى به ، وعبّر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك وهو مجاز محض إذلاملك إلّا لملك الملوك الّذي له مافي السماوات والأرض ، فكيف يكون العبد مالكاً و هو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله و الأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعبيده فمن أخذ لقمة بيمينه و احتوت عليها براجمه فجاء عبد آخر و أراد انتزاعها من يده لم يمكن منه ، لا لأنّ اللّقمة صارت ملكاً له بالأخذ باليد فإنّ اليد و صاحب اليد أيضاً مملوك ، و لكن إذا كانت كلّ لقمة بعينها لاتفي بحاجة كلّ العبيد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص يتفرّد به العبد فمنع من لايدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن نفهم أمر الله في عباده ، ولذلك نقول : من أخذ من أموال الدّنيا أكثر من حاجته و كنزه وأمسكه و في عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالمٌ و هو من الّذين يكنزون الذّهب و الفضّة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، و إنّما سبيل الله طاعته و زاد الخلق في طاعته أموال

---

(١) الجاثية : ١٣ .

الدّنيا إذبها تندفع ضروراتهم و ترتفع حاجاتهم ، نعم لايدخل هذا في حدّ فتاوي الفقه لأنّ مقادير الحاجات خفيّة و النفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة و أواخر الأعمار غير معلومة فتكليف العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصّبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كلّ كلام غير مهمّ و هم بحكم نقصانهم لايطيقونه فتركنا الاعتراض عليهم في اللّعب واللّهو وإباحتنا إيّاهم ذلك لايدلّ على أنّ اللّهو واللّعب حقّ ، و كذلك إباحتنا للعوام حفظ الأموال و الاقتصار في الإنفاق على قدر الزكوات لضرورة ماجبلوا عليه من البخل لايدلّ على أنّه غاية الحقّ ، و قد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى : « إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا » [1] بل الحقّ الّذي لا كدورة فيه والعدل الّذي لاظلم فيه أن لا يأخذ أحدٌ من عبادالله من مال الله إلّا بقدر زاد الرّاكب ، و كلّ عبادالله ركّاب لمطايا الأبدان إلى حضرة الملك الدّيّان فمن أخذ زيادة عليه ثمّ منعه عن راكب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدول و خارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمةالله عليه بالقرآن والرّسول و العقل وسائر الأسباب الّتي بها عرف أنّ ما سوى زاد الراكب وبال عليه في الدّنيا والآخرة ، فمن فهم حكمةالله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر و استقصاء ذلك يحتاج إلى مجلّدات ، ثمّ لاتفي إلّا بالقليل و إنّما أوردنا هذا القدر ليعلم علّة الصدق في قوله تعالى : « وقليل من عبادي الشكور » [2] و فرح إبليس لعنهالله بقوله : « ولاتجد أكثرهم شاكرين » [3] فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف هذا كلّه و اُموراً اُخر وراء هذا ينقضي الأعمار دون استقصاء مباديها ، فأمّا تفسير الآية و معنى لفظها فيعرف كلّ من يعرف اللّغة و بهذا يتبيّن لك الفرق بين المعنى والتّفسير .

فإن قلت : فقد رجع حاصل هذا الكلام إلى أنّ لله حكمة في كلّ شيء و أنّه جعل بعض أفعال العباد سبباً لتمام تلك الحكمة و بلوغها غاية المراد منها و جعل

---

(١) سورة محمد صلى الله عليه وآله : ٣٧ .

(٢) سبأ : ١٣ . (٣) الاعراف : ١٦ .

بعض أفعالهم مانعاً من تمام الحكمة فكلّ فعل وافق مقتضى الحكمة حتّى انساقت الحكمة إلى غايتها فهو شكر ، و كلّ ما خالف و منع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران و هذا كلّه مفهوم ، ولكنّ الاشكال باق و هوأنّ فعل العبد المنقسم إلى ما يتمّم الحكمة و إلى ما يرفعها هو أيضاً من فعل الله تعالى فأين العبدفي البين حتّى يكون شاكراً مرّة و كافراً أخرى ؟

فاعلم أنّ تمام التحقيق في هذا يستمدّ من تيّار بحر عظيم من علوم المكاشفات وقد رمزنا فيما سبق إلى تلويحات بمباديها ونحن الآن نعبّر بعبارة وجيزة عن آخرها و غايتها يفهمها من عرف منطق الطير و يجحد ها من عجز عن الايضاع في السّير (١) فضلاً عن أن يجول في جوّ الملكوت جولان الطير ، فنقول : إنّ لله سبحانه في جلاله و كبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع و تلك الصّفة أعلى و أجلّ من أن تلمحها عين واضع اللّغة حتّى يعبّر عنها بعبارة تدلّ على كنه جلالها و خصوص حقيقتها فلم يكن في العالم لها عبارة لعلوّ شأنها و انحطاط رتبة واضعي اللّغات عن أن يمتدّ طرفهم إلى مبادي إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الخفافيش عن نور الشمس لا لغموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الخفافيش ، فاضطرّ الّذين فتحت أبصارهم لملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم المتناطقين باللّغات عبارة تفهم من مبادي حقائقها شيئاً ضعيفاً جدّاً ، فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق فقلنا : لله صفة هي القدرة ، عنها يصدر الخلق و الاختراع ، ثمّ الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام و خصوص صفات ، و مصدر انقسام هذه الأقسام و اختصاصها بخصوص صفاتها صفة أُخرى استعير لها بمثل الضرورة الّتي سبقت عبارة المشيّة فهي توهم منها أمراً مجملاً عند المتناطقين باللّغات الّتي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها و قصور لفظ المشيّة عن الدّلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كقصور لفظ القدرة ، ثمّ انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الّذي هو غاية حكمتها و إلى ما يقف

(١) أوضع في سيره : أسرع .

دون الغاية ، و كان لكلّ واحد نسبة إلى صفة المشيّة لرجوعها إلى الاختصاصات الّتي بها يتمّ القسمة و الاختلافات ، فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبّة ، و استعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة ، و قيل : إنّهما جميعاً داخلان في وصف المشيّة ولكنّ لكلّ واحد منهما خاصية اُخرى في النسبة يوهم لفظ المحبّة والكراهة منهما أمراً مجملاً عند طالبي الفهم من الألفاظ واللّغات ، ثمّ انقسم عباده الّذين هم أيضاً من خلقه واختراعه إلى من سبقت له في المشيّة الأزليّة أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهراً في حقّهم بتسليط الدّواعي والبواعث عليهم ، و إلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الاُمور ، فكان لكلّ واحد من الفريقين نسبة إلى المشيّة خاصّة فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرّضا ، واستعير للّذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب ، وظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقفت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللّعن والمذمّة زيادة في النكال وظهر على من ارتضاه في الأزل فعل انساقت بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف بخلعة الثناء و الإطراء زيادة في الرّضا و القبول و الإقبال ، فكان الحاصل أنّه تعالى أعطى الجمال ثمّ أثنى ، وأعطى النكال ثمّ قبح وأردى ، وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثمّ يكسيه من محاسن ثيابه ، فإذا تمّم زينته قال : يا جميل ما أجملك وأجمل ثيابك و أنظف وجهك ، فيكون بالحقيقة هو المجمل و هو المثني على الجمال فهو المثنى عليه بكلّ حال و كأنّه لم يثن من حيث المعنى إلّا على نفسه ، و إنّما العبد هدف الثناء من حيث الظاهر و الصورة فهكذا كانت الاُمور في أزل الآزال ، وهكذا تسلسل الأسباب و المسبّبات بتقدير ربّ الأرباب ومسبّب الأسباب ولم يكن ذلك عن اتّفاق وبخت بل عن إرادة و حكمة وحكم حقّ و أمر جزم استعير له لفظ القضاء و قيل : إنّه كلمح بالبصر ، ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير ، فاستعير لترتّب آحاد المقدورات بعضها على بعض لفظ القدر ، فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلّي و لفظ القدر بإزاء

التفصيل المتمادي إلى غير نهاية ، و قيل : إنّ شيئاً من ذلك ليس خارجاً عن القضاء و القدر ،فخطر لبعض العباد أنّ القسمة لما ذا اقتضت هذا التفصيل و كيف انتظم العدل مع هذا التفاوت و التفضيل ، و كان بعضهم لقصوره لا يطيق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه فأُلجموا عمّا لم يطيقوا خوض غمرته بلجام المنع وقيل لهم : اسكتوا فما لهذا خلقتم لايسأل عمّا يفعل وهم يسألون ، وامتلأت مشكاة بعضهم نوراً مقتبساً من نورالله تعالى في السماوات والأرض و كان زيتهم أوّلاً صافياً يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فمسّته نار فاشتعل نور على نور فأشرقت أقطار الملكوت بين أيديهم بنور ربّها فادركوا الأمور كما هي عليه فقيل لهم : تأدّبوا بآداب الله و اسكتوا «وإذا ذكر القدر فأمسكوا» [١] فانّ للحيطان آذاناً و حواليكم ضعفاء الأبصار فسيروا بسير أضعفكم و لا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلّقوا بأخلاق الله تعالى و أنزلوا إلى السماء الدّنيا من منتهى علوّكم ليأنس بكم الضعفاء ويقتبسوا من بقايا أنواركم المشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشّمس و الكواكب في جنح اللّيل فيحيى حياة يحتملها شخصه و حاله و إن كان لا يحيى به حياة المتردّدين في كمال نور الشمس و كونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شراباً طيّباً عند طيّب ✡ كذاك شراب الطيّبين يطيب
شربنا وأهرقنا على الأرض فضله ✡ وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أوّل هذا الأمر وآخره ولا تفهمه إلّا إذا كنت أهلاً له ، وإذا كنت أهلاً له فتحت العين وأبصرت ، فلا تحتاج إلى قائد يقودك و الأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حدّ ما ، فاذا ضاق الطريق وصار أحدّ من السيف و أدقّ من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجرّ وراءه أعمى وإذا دقّ المجال ولطف لطف الماء مثلاً ولم يكن العبور إلّا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصنعة السباحة أن

(١) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود و ابن عدى عنه وعن ثوبان و عمر بسند حسن كما في الجامع الصغير.

يعبر بنفسه وربّما لم يقدر على أن يستجرّ وراءه آخر. فهذه أمور نسبة السير عليها إلى السير على ما هو مجال جماهير الخلق كنسبة المشي على الماء إلى المشي على الأرض، والسباحة يمكن أن تتعلّم أمّا المشي على الماء فلا يكتسب بالتعلّم بل ينال بقوّة اليقين ولذلك قيل للنبيّ عليه السلام: إنّ عيسى يقال إنّه مشى على الماء، فقال: «لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء»[1] فهذه رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبّة و الرّضا و الغضب و الشكر و الكفران لا يليق بعلم المعاملة أكثر منها و قد ضرب الله تعالى مثلاً لذلك تقريباً إلى أفهام الخلق إذ عرف أنّه ما خلق الجنّ والإنس إلّا ليعبدوه و كانت عبادتهم غاية الحكمة في حقّهم، ثمّ أخبر أنّ له عبدين يحبّ أحدهما و اسمه جبرئيل و روح القدس و الأمين و هو عنده محبوب مطاع مكين، و يبغض الآخر و هو إبليس و هو اللّعين المنظر إلى يوم الدّين، ثمّ أحال الإرشاد إلى جبرئيل فقال: «قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ»[2] وقال: «يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده»[3] و أحال الإغواء على إبليس فقال: «ليضلّهم عن سبيله»[4] والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة، فانظر كيف نسبه إلى العبد الّذي غضب عليه، والإرشاد سياقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبه إلى العبد الّذي أحبّه، وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان يحتاج إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحجمه وينظف فناء منزله عن القاذورات و كان له عبدان فلا يعيّن للحجامة و التنظيف إلّا أقبحهما وأخسّهما، ولا يفوّض حمل الشراب الطيّب إليه إلّا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبّهما إليه، ولا ينبغي أن تقول: هذا فعلي ولم يكن فعله على دون فعلي[5]. فإنّك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الّذي صرف

---

(١) قال العراقي: هذا حديث منكر لا يعرف هكذا و المعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبدالله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم فقيل لهم: توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه، فلما انتهوا الى البحر اذا هو قد أقبل يمشي على الماء - فذكر حديثا فيه - أن عيسى قال: «لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء».

(٢) النحل: ١٠٤. (٣) المؤمن: ١٥.

(٤) الزمر: ٨ هكذا «ليضل عن سبيله». (٥) في بعض النسخ الاحياء [ذوق فعلي].

داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه و الفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماماً للعدل ، فإنّ عدله تارة يتمّ بأُمور لا مدخل لك فيها ، و تارة يتمّ بك فإنّك أيضاً من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعلمك وعملك و سائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الّذي رتّبه بالعدل ترتيباً تصدر منه الأفعال المعتدلة إلّا أنّك لا ترى إلّا نفسك فتظنّ أنّ ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سببٌ من عالم الغيب والملكوت فلذلك تضيفه إلى نفسك ، وإنّما أنت مثل الصبيّ الّذي ينظر ليلاً إلى لعب المشعبذ الّذي يخرج صوراً من وراء حجاب ترقص و تزعق و تقوم و تقعد وهي مؤلّفة من خرق لا تتحرّك بأنفسها وإنّما تحرّكها خيوط شعريّة دقيقة لا تظهر في ظلام اللّيل و رؤوسها في يد المشعبذ ، و هو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون و يتعجّبون لظنّهم أنّ تلك الخرق ترقص وتلعب وتقوم و تقعد ، و أمّا العقلاء فإنّهم يعلمون أنّ ذلك تحريك وليس بتحرّك ولكنّهم ربّما لا يعرفون تفصيله ، والّذي يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه المشعبذ الّذي الأمر إليه و الجاذبة بيده ، فكذلك صبيان أهل الدّنيا - والخلق كلّهم صبيان إلّا العلماء - ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنّون أنّها المتحرّكة فيحيلون الحركة عليها ، والعلماء يعلمون أنّهم محرّكون إلّا أنّهم لا يعرفون كيفيّة التحريك و هم الأكثرون إلّا العارفون و العلماء الرّاسخون[١] فإنّهم أدركوا بحدّة أبصارهم خيوطاً دقيقة عنكبوتيّة بل أدقّ منها بكثير معلّقة من السماء متشبّثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقّتها بهذه الأبصار الظاهرة ثمّ شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لها هي معلّقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هي في أيدي الملائكة المحرّكين للسماوات و شاهدوا أبصار ملائكة السّماوات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل إليهم من الأمر من حضرة الرّبوبيّة كي لا يعصوا الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون وعبّر عن هذه المكاشفات في القرآن فقيل : «وفي السماء رزقكم وما توعدون»[٢] وعبّر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من الأمر والقدر فقيل : «خلق سبع سموات ومن

(١) كذا ، و «إلّا» بمعنى «غير» . (٢) الذاريات :٢١ .

الأرض مثلهنّ يتنزّل الأمر بينهنّ لتعلموا أنّ الله على كلّ شيء قدير ۞ وأنّ الله قد أحاط بكلّ شيء علماً »(١) وهذه اُمور لايعلم تأويلها إلّا الله والرّاسخون في العلم وعبّر ابن عبّاس - رضي الله عنه - عن اختصاص الرّاسخين في العلم بعلوم لايحتملها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى : « يتنزّل الأمر بينهنّ » فقال : لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجمتموني - وفي لفظ آخر - لقلتم : إنّه كافر. ولنقصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار و امتزج بعلم المعاملة ما ليس منه.

۞(الرّكن الثاني من أركان الشكر ما عليه الشكر وهو النّعمة)۞

ولنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها ومجامعها فيما يخصّ ويعمّ فإنّ إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى : « وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها »(٢) فنقدّم اُموراً كلّيّة تجري مجرى القوانين في معرفة النعم ثمّ نشتغل بذكر الآحاد.

۞(بيان حقيقة النعمة وأقسامها)۞

إعلم أنّ كلّ خير ولذّة و سعادة بل كلّ مطلوب ومؤثر فإنّه يسمّى نعمة ولكن النعمة الحقيقيّة هي السعادة الاُخرويّة وتسمية ما عداها نعمة و سعادة إمّا غلط وإمّا مجاز كتسمية السعادة الدّنياويّة الّتي لا تعين على الآخرة نعمة ، فإنّ ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقاً ولكن يكون إطلاقه على السعادة الاُخرويّة أصدق فكلّ سبب يوصل إلى سعادة الآخرة و يعين عليها إمّا بواسطة واحدة أو بوسائط فإنّ تسميته نعمة صحيحة و صدق لأجل أنّه يفضي إلى النعمة الحقيقيّة والأسباب المعينة واللّذات المسمّاة نعمة نشرحها بتقسيمات :

القسمة الاولى : إعلم أنّ الاُمور كلّها بالاضافة إلينا تنقسم إلى ما هو نافع في الدّنيا والآخرة جميعاً كالعلم و حسن الخلق ، و إلى ما هو ضارّ فيهما جميعاً كالجهل و سوء الخلق ، وإلى ماينفع في الحال ويضرّ في المآل كالتلذّذ باتّباع الشهوات ، وإلى

(١) الطلاق : ١٢ . (٢) ابراهيم : ٣٤ .

مايضرّ في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المآل كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمآل هو النعمة تحقيقاً كالعلم وحسن الخلق، والضارّ فيهما هو البلاء تحقيقاً وهو ضدّهما ، والنافع في الحال المضرّ في المآل بلاء محض عند ذوي الأبصار و تظنّه الجهّال نعمة ، ومثاله الجائع إذا وجدعسلاً فيهسمّ فإنّه يعدّه نعمة إن كان جاهلاً ، و إذا علمه علم أنّ ذلك بلاء سيق إليه و الضارّ في الحال النافع في المآل نعمة عند ذوي الألباب بلاء عند الجهّال ومثاله الدّواء البشع في الحال مذاقه إلّا أنّه شافٍ من الأمراض و الأسقام وجالب للصحّة والسلامة فالصبيّ الجاهل إذا كلّف شربه ظنّه بلاء والعاقل يعدّه نعمة و يتقلّد المنّة ممّن يهديه إليه ويهيّیء له أسبابه فلذلك تمنع الأمّ ولدها من الحجامة والأب يدعوه إليها فإنّ الأب لكمال عقله يلحظ العاقبة و الأمّ لقصورها وفرط حبّها تلحظ الحال و الصبيّ لجهله يتقلّد منّة من أمّه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدّر الأب عدوّاً له ، و لو عقل لعلم أنّ الأمّ عدوّ باطناً في صورة صديق لأنّ منعها إيّاه من الحجامة يسوقه إلى آلام و أمراض أشدّ عليه من الحجامة ، ولكن الصديق الجاهل شرٌّ من العدوّ العاقل و كلّ إنسان فإنّه صديق نفسه و لكنّه صديق جاهل فلذلك يعمل به ما لا يعمل به العدوّ .

القسمة الثانية : إعلم أنّ الأسباب الدّنياويّة مختلطة و قد امتزج خيرها بشرّها فقلّما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه و سائر الأسباب ولكن تنقسم إلى ما نفعه أكثر من ضرّه كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب ، وإلى ما ضرّه أكثر من نفعه في حقّ أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع وإلى ما يكافیء ضرّه نفعه ، وهذه أمور تختلف الأشخاص ، فربّ إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن كثر فينفقه في سبيل الله و يصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حقّه ، وربّ إنسان يستضرّ بالقليل أيضاً إذ لا يزال مستصغراً له شاكياً من ربّه طالباً للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حقّه .

القسمة الثالثة : إعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثّر لذاته لا لغيره وإلى مؤثّر لغيره وإلى مؤثّر لذاته ولغيره ، فالأوّل ما يؤثّر لذاته لا لغيره كلذّة النظر إلى

وجه الله تعالى و سعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الآخرة الّتي لا انقضاء لها فإنّها لا تطلب ليتوصّل بها إلى غاية أُخرى مقصودة وراءها بل تطلب لذاتها : الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلاً في ذاته كالدّرهم و الدّنانير فإنّ الحاجات لو كانت لا تنقضي بها لكانت هي والحصى بمثابة واحدة ولكن لمّا كانت وسيلة إلى اللّذات سريعة الإيصال إليها صارت عند الجهّال محبوبة في نفسها حتّى يجمعوها و يكنزوها و يتصارفوا عليها بالرّبا ويظنّون أنّها مقصودة ، ومثال هؤلاء مثال من يحبّ شخصاً فيحبّ بسببه رسوله الّذي يجمع بينه و بينه ، ثمّ ينسى في محبّة الرّسول محبّة الأصل فيعرض عنه طول عمره ، و لا يزال مشغولاً بتعهّد الرّسول و مراعاته و تفقّده و هو غاية الجهل و الضلال ، و الثالث ما يقصد لذاته و لغيره كالصحّة و السلامة فإنّها تقصد ليقدر بسببها على الفكر و الذكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو ليتوصّل بها إلى استيفاء لذّات الدّنيا وتقصد أيضاً لذاتها فإنّ الإنسان وإن استغنى عن الشيء الّذي تراد سلامة الرّجل لأجله فيريد أيضاً سلامة الرّجل من حيث أنّها سلامة فإذن المؤثّر لذاته فقطّ هو الخير و النعمة تحقيقاً وما يؤثّر لذاته ولغيره أيضاً فهو نعمة ولكن دون الأوّل . فأمّا ما لا يؤثّر إلّا لغيره كالنقدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث هما جوهران بأنّهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حقّ من يقصد أمراً ليس يمكنه أن يتوصّل إليه إلّا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية الّتي هي ضرورة حياته استوى عنده الذّهب والمدر ، وكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة ، بل ربّما يشغله وجودهما عن الفكر والعبادة فيكونان بلاء في حقّه ولا يكونان نعمة .

القسمة الرّابعة: إعلم أنّ الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى نافع وجميل ولذيذ فاللّذيذ هو الّذي تدرك راحته في الحال ، والنافع هو الّذي يفيد في المآل ، والجميل هو الّذي يستحسن في سائر الأحوال ، والشرور أيضاً تنقسم إلى ضارّ وقبيح و مؤلم ، و كلّ واحد من القسمين ضربان مطلق ومقيّد فالمطلق هو الّذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة إمّا في الخير فكالعلم و الحكمة فإنّها نافعة و جميلة و لذيذة عند أهل العلم

م الحكمة و إمّا في الشرّ فكالجهل فإنّه ضارّ و قبيح و مؤلم وإنّما يحسّ الجاهل بألم جهله إذا عرف أنّه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبعث منه شهوة العلم للذّته ثمّ قد يمنعه الحسد و الكبر والشهوات اللّذيذة عن التعلّم فيتجاذبه متضادّان فيعظم ألمه ، فإنّه إن ترك التعلّم تألّم بالجهل و درك النقصان ، و إن اشتغل بالتعلّم تألّم بترك الشهوات أو بترك الكبر و ذلّ التعلّم . و مثل هذا الشخص لايزال في عذاب دائم لا محالة ، والضرب الثاني مقيّد وهوالّذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فربّ نافع مؤلم كقطع الأصبع المتأكلة والسلعة الخارجة من البدن و ربّ نافع قبيح كالحمق فإنّه بالإضافة إلى بعض الأحوال نافع وقد قيل : استراح من لا عقل له فإنّه لا يهتمّ بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن يحين وقت هلاكه و ربّ نافع من وجه ضارّ من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الغرق فإنّه ضارّ للمال و نافع للنفس في نجاتها ، و النافع قسمان ضروريّ كالإيمان وحسن الخلق في الإيصال إلى سعادة الآخرة و أعني بهما العلم و العمل إذ لا يقوم مقامهما البتّة غيرهما وإلى ما لا يكون ضروريّاً كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفراء ، فإنّه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه .

القسمة الخامسة إعلم أنّ النعمة يعبّر بها عن كلّ لذيذ و اللّذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها أومشاركته لغيره ثلاثة أنواع عقليّة و بدنيّة مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنيّة مشتركة مع جميع الحيوانات ، أمّا العقليّة فكلذّة العلم و الحكمة إذ ليس يستلذّهما السمع و البصر و الشمّ و البطن و لا الفرج ، و إنّما يستلذّهما القلب لاختصاصه بصفة يعبّر عنها بالعقل و هذه أقلّ اللّذّات وجوداً و هي أشرفها ، أمّا قلّتها فلأنّ العلم لا يستلذّه إلّا عالم والحكمة لا يستلذّها إلّا حكيم و ما أقلّ أهل العلم و الحكمة و ما أكثر المتسمّين باسمهم و المترسّمين برسومهم ، و أمّا شرفها فلأنّها لازمة لا تزول أبداً لا في الدّنيا و لا في الآخرة ودائمة لاتملّ ، فالطعام يشبع منه فيملّ وشهوة الوقاع يفرغ عنها فتستثقل و العلم و الحكمة قطّ لا يتصوّر أن يملّ ويستثقل ، و من قدر على الشريف الباقي

أبد الآباد إذا رضي بالخسيس الفاني في أقرب الآماد فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته و إدباره ، و أقلّ أمر فيه أنّ العلم و العقل لا يحتاج إلى أعوان و حفظة بخلاف المال إذ العلم يحرسك و أنت تحرس المال ، و العلم يزيد بالإنفاق و المال ينقص بالإنفاق ، والمال يسرق والولاية يعزل عنها والعلم لايمتدّ إليه أيدي السرّاق بالأخذ ولا أيدي السلاطين بالعزل فيكون صاحبه فيروح الأمن أبداً وصاحب المال و الجاه في كرب الخوف أبداً ، ثمّ العلم نافع و لذيذ و جميل في كلّ حال أبداً ، و المال تارة يجذب إلى الهلاك و تارة يجذب إلى النجاة و لذلك ذمّ الله تعالى المال في القرآن في مواضع و إن سمّاه خيراً في مواضع ، و أمّا قصور أكثر الخلق عن إدراك لذّة العلم فإمّا لعدم الذّوق فمن لم يذق لم يعرف ولم يشتق إذ الشوق تبع الذّوق ، و إمّا لفساد أمزجتهم و مرض قلوبهم بسبب اتّباع الشهوات كالمريض الّذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرّاً . و إمّا لقصور فطنتهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة الّتي بها يستلذّ العلم كالطفل الرّضيع الّذي لا يدرك لذّة العسل و الطيور السمان ولا يستلذّ إلّا باللّبن و ذلك لا يدلّ على أنّها ليست لذيذة و لا استطابته للّبن تدلّ على أنّه ألذّ الأشياء ، فالقاصرون عن درك لذّة العلم و الحكمة ثلاثة إمّا من لم يحي بعد باطنه كالطفل ، وإمّا من مات بعد الحياة باتّباع الشهوات ، و إمّا من مرض بسبب اتّباع الشهوات وقوله تعالى : «في قلوبهم مرض» (١) إشارة إلى مرض القلوب لفقدان العقول و قوله : « لينذر من كان حيّاً » (٢) إشارة إلى من لم يمت حياته الباطنة و كلّ حيّ بالبدن ميّت بالقلب فهو عندالله من الموتى وإن كان عندالجهّال من الأحياء ، و لذلك كان الشهداء أحياء عند ربّهم يرزقون و إن كانوا موتى بالأبدان ، الثانية:لذّة يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلذّة الرّئاسة والغلبة و الاستيلاء و ذلك موجود في الأسد و النمر وبعض الحيوانات ، والثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلذّة البطن و الفرج و هذه أكثرها وجوداً و هي أخسّها ، ولذلك اشترك فيها كلّ ما دبّ و درج حتّى الدّيدان و الحشرات ومن جاوز هذه

---

(١) البقرة : ١٠ . (٢) يس : ٧٠ .

الرّتبة تشبّثت به لذّة الغلبة وهي أشدّها التصاقاً بالمتغافلين فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب اللّذّات عليه لذّة العلم و الحكمة لا سيّما لذّة معرفة الله تعالى و معرفة صفاته وأفعاله، و هذه رتبة الصدّيقين و لا ينال تمامها إلّا بخروج استيلاء حبّ الرّئاسة من القلب «و آخر ما يخرج من رؤوس الصدّيقين حبّ الرّئاسة»، و أمّا شره البطن و الفرج فكسره ممّا يقوى عليه الصالحون و شهوة الرّئاسة لا يقوى على قهرها إلّا الصدّيقون، فأمّا قمعها بالكلّية حتّى لا يقع بها الإحساس على الدّوام و في اختلاف الأحوال فيشبه أن يكون خارجاً عن مقدور البشر، نعم تغلب لذّة معرفة الله في أحوال لا يقع معها الإحساس بلذّة الرّئاسة و الغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشريّة فتكون موجودة، لكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على العدول عن العدل، وعندهذا تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام: قلب لايحبّ إلّاالله ولايستريح إلّا إليه و إلى زيادة المعرفة به والفكر فيه، و قلب لا يدري ما لذّة المعرفة و ما معنى الاُنس بالله، وإنّما لذّته بالجاه والرّئاسة و المال وسائر الشهوات البدنيّة، و قلب أغلب أحواله الاُنس بالله سبحانه و التلذّذ بمعرفته والفكر فيه، ولكن قد يعتريه في بعض الأحوال الرّجوع إلى أوصاف البشريّة، وقلب أغلب أحواله التلذّذ بالصفات البشريّة و يعتريه في بعض الأحوال تلذّذ بالعلم و المعرفة، و أمّا الأوّل فإن كان ممكناً في الوجود فهو في غاية البعد، وأمّا الثاني فالدّنيا طافحة به، وأمّا الثالث والرّابع فموجودان ولكن على غاية الندور ولا يتصوّر أن يكون ذلك إلّا نادراً شاذّاً وهو مع الندور يتفاوت في القلّة والكثرة، و إنّما تكون كثرته في الأعصار القريبة من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولاً ويزداد مثل هذه القلوب قلّة إلى أن تقرب الساعة و يقضي الله أمراً كان مفعولاً، و إنّما وجب أن يكون هذا نادراً لأنّه مبادي ملك الآخرة و الملك عزيز و الملوك لا يكثرون فكما لا يكون الفائق في الملك و الجمال إلّا نادراً و أكثر الناس من دونهم فكذا في ملك الآخرة فإنّ الدّنيا مرآة الآخرة فإنّها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة عن عالم الغيب

و عالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أنّ الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة و الصورة في المرآة و إن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنّها أولى في حقّ رؤيتك ، فإنّك لا ترى نفسك وترى صورتك في المرآة أوّلاً فتعرف بها صورتك الّتي هي قائمة بك ثانياً على سبيل المحاكاة ، فانقلب التابع في الوجود متبوعاً في حقّ المعرفة والقلب المتأخّر متقدّماً ، و هذا النوع من الانعكاس ولكن الانعكاس و الانتكاس ضرورة هذا العالم ، و كذلك عالم الملك و الشهادة محاك لعالم الغيب و الملكوت ، فمن الناس من يسّر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلّا ويعبر به إلى عالم الملكوت فيسمّى عبوره عبرة و قد أمر الخلق به فقال : « فاعتبروا يا أُولي الأبصار » ومنهم من عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك و الشهادة و ستنفتح إلى حبسه أبواب جهنّم و هذا الحبس ممتلىء ناراً من شأنها أن تطّلع على الأفئدة إلّا أنّ بينه وبين إدراك ألمها حجاباً ، فإذا رفع ذلك الحجاب بالموت أدرك و عن هذا أظهر الله تعالى الحقّ على لسان قوم استنطقهم بالحقّ فقالوا : الجنّة و النار مخلوقتان . ولكنّ الجحيم تدرك مرّة بإدراك يسمّى علم اليقين ومرّة بإدراك آخر يسمّى عين اليقين ، و عين اليقين لا يكون إلّا في الآخرة ، و علم اليقين قد يكون في الدّنيا ولكن للّذين وفّر حظّهم من نور اليقين ، فلذلك قال الله تعالى : « كلّا لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم » أي في الدّنيا « ثمّ لترونّها عين اليقين »[1] أي في الآخرة ، فإذن قد ظهر أنّ القلب الصالح لملك الآخرة لا يكون إلّا عزيزاً كالشخص الصالح لملك الدّنيا .

القسمة السادسة و هي الحاوية لمجامع النعم ، إعلم أنّ النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها و إلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية ، أمّا الغاية فإنّها سعادة الآخرة ، ويرجع حاصلها إلى أربعة أُمور بقاء لا فناء له ، وسرور لا غمّ فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنىً لا فقر بعده ، وهي النعمة الحقيقيّة ولذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم :

---

(١) التكاثر : ٦ و ٧ .

« لا عيش إلّا عيش الآخرة »(١) قال ذلك مرّة في الشدّة تسلية للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في شدّة الضرّ ، ومرّة في السرور منعاً للنفس من الرّكون إلى سرور الدّنيا و ذلك عند إحداق الناس به في حجّة الوداع قال رجل :« اللّهمّ إنّي أسألك تمام النعمة » فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : « وهل تعلم ما تمام النعمة ؟ قال : لا ، قال : تمام النعمة دخول الجنّة »(٢) .

وأمّا الوسائل فتنقسم إلى الأقرب الأخصّ كفضائل النفس وإلى ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني ، و إلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب المطيفة بالبدن من المال والأهل والعشيرة ، وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق و الهداية فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأوّل و هو الأخصّ الفضائل النفسيّة و يرجع حاصلها مع انشعاب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته و ملائكته و رسله ، وإلى علوم المعاملة وحسن الخلق وينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوة والغضب واسمه العفّة ومراعاة العدل في الكفّ عن مقتضى الشهوات والإقدام حتّى لا يمتنع أصلاً ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجامه بالميزان العدل الّذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وآله إذ قال تعالى : « ألّا تطغوا في الميزان ۞ و أقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان »(٣) فمن خصى نفسه ليزيل شهوة النكاح أو ترك النكاح مع القدرة و الأمن من الآفات أو ترك الأكل حتّى ضعف عن العبادة و الذّكر و الفكر فقد أخسر الميزان ، و من انهمك في شهوة البطن و الفرج فقد طغى في الميزان و إنّما العدل أن يخلو وزنه و تقديره عن الطغيان و الخسران فتعتدل به كفّتا الميزان ، فإذن الفضائل الخاصّة بالنفس المقرّبة إلى الله تعالى أربعة :

---

(١) أخرجه مسلم ج ٥ ص ١٨٨ من حديث سهل بن سعد فى قصة حفر الخندق قال صلى الله عليه وآله : « اللهم لا عيش الا عيش الاخرة فاغفر للمهاجرين والانصار » .

(٢) أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٥١ من حديث معاذ بن جبل .

(٣) الرحمن : ٨ و ٩ .

علم مكاشفة ، وعلم معاملة ، وعفّة ، و عدالة ولا يتمّ هذا في غالب الأمر إلّا بالنوع الثاني و هو الفضائل البدنيّة و هي أربعة : الصحّة و القوّة و الجمال و طول العمر ، ولاتتهيّأ هذه الاُمور الأربعة إلّابالنوع الثالث و هي النعم الخارجة المطيفة بالبدن و هي أربعة : المال والجاه والأهل و كرم العشيرة ، ولا ينتفع بشيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنيّة إلّا بالنوع الرّابع وهي الأسباب الّتي تجمع بينها وبين مايناسب الفضائل النفسيّة الدّاخلة وهي أربعة : هداية الله و رشده و تسديده و تأييده فمجموع هذه النعم ستّة عشر إذ قسمناها إلى أربعة وقسمنا كلّ واحدة إلى أربعة و هذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إمّا حاجة ضروريّة أونافعة أمّا الحاجة الضروريّة كحاجة سعادة الآخرة إلى الايمان و حسن الخلق إذ لاسبيل للوصول إلى سعادة الآخرة البتّة إلّا بهما فليس للإنسان إلّا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلّا ماتزوّد من الدّنيا، فكذلك حاجة الفضائل النفسيّة بكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحّة البدن ضروريّ، وأمّا الحاجة النافعة على الجملة كحاجة هذه النّعم النفسيّة و البدنيّة إلى النعم الخارجة مثل المال و العزّ والأهل فإنّ ذلك لوعدم ربّما تطرّق الخلل إلى بعض النعم الداخلة .

فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل و الجاه و العشيرة ، فاعلم أنّ هذه الأسباب جارية مجرى الجناح المبلّغ والآلة المسهّلة للمقصود ،أمّا المال فالفقير في طلب العلم والكمال و ليس معه كفايته كساع إلى الهيجاء بغير سلاح و كبازي يروم الصيد بلا جناح ولذلك قال عليه السلام « نعم المال الصالح للرّجل الصالح» (١) وقال : «نعم العون على تقوى الله المال »(٢) و كيف

---

(١) أخرجه أحمد و ابويعلى و الطبرانى من حديث عمرو بن العاص بسند جيد كما فى المغنى .

(٢) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر . ورواه ابوالقاسم البغوى من رواية ابن المنكدر مرسلا ، و من طريقه القضاعى فى مسند الشهاب هكذا مرسلا كما فى مفتاح الكنوز للمناوى و المغنى للعراقى .

لا و من عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب القوت وفي تهيئة اللّباس و المسكن و ضرورات المعيشة ثمّ يتعرّض لأنواع من التأذّي تشغله عن الذكر و الفكر ولا تندفع إلّا بسلاح المال ، ثمّ مع ذلك يحرم عن فضيله الحجّ و الزّكاة و الصدقات و إفاضة الخيرات ، و قال بعض العلماء : وقدقيل له : ما النعيم فقال : الغنى فانّي رأيت الفقير لاعيش له ، قيل : زدنا قال : الأمن فانّي رأيت الخائف لاعيش له ، قيل : زدنا : قال : العافية فانّي رأيت المريض لاعيش له ، قيل : زدنا ، قال : الشباب فانّي رأيت الهرم لاعيش له . وكأنّ ما ذكره إشارة إلى نعيم الدّنيا ولكنّه من حيث أنّه معين على الآخرة فهو نعمة ولذلك قال صلّى الله عليه وآله « من أصبح منكم معافى في بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها »(١) و أمّا الأهل والولد الصالح فلا يخفى وجه الحاجة إليهما إذ قال صلّى الله عليه وآله : « نعم العون على الدّين المرأة الصالحة »(٢) وقال في الولد : « إذا مات العبد المؤمن انقطع عمله إلّا من ثلاث ولد صالح يدعو له - الحديث »(٣) وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح ، وأمّا الأقارب فمهما كثر أولاد الرّجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين و الأيدي فيتيسّر له بسببهم من الاُمور الدّنياويّة المهمّة في دينه مالو انفرد به لطال شغله بها و كلّ ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدّنيا فهو معين على الدّين فهو إذن نعمة ، و أمّا العزّ و الجاه فبه يدفع الإنسان عن نفسه الذلّ والضيم و لا يستغنى عنه مسلم ، فانّه لا ينفكّ عن عدوّ يؤذيه و ظالم يشوّش عليه عمله و فراغه ، و يشغل قلبه رأس ماله وإنّما تندفع هذه الشواغل بالعزّ والجاه و لذلك قيل : الدّين والسلطان توأمان . وقال الله تعالى : «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض »(٤) و لا معنى

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤١ والترمذى فى السنن و البخارى فى الادب .

(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا أقول : روى الكلينى فى الكافى ج ٥ ص ٣٢٧ « من سعادة المرء الزوجة الصالحة » .

(٣) أخرجه مسلم و قد تقدم فى كتاب العلم و كتاب النكاح .

(٤) البقرة : ٢٥١ .

للجاه إلّا ملك القلوب كما لا معنى للغنى إلّا ملك الدّراهم و من ملك الدّراهم تسخّرت له أرباب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر ، وجبّة تدفع عنه البرد ، وكلب يدفع الذّئب عن ماشيته فيحتاج أيضاً إلى من يدفع الشرّ به عن نفسه ، و على هذا القصد كان الأنبياء الّذين لا ملك لهم و لا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاه و كذلك علماء الدّين لا على قصد التناول من خزائنهم و الاستئثار و الاستكثار في الدّنيا بمتابعتهم ، و لا تظنّنّ أنّ نعمة الله تعالى على رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه و مكّن له في القلوب حبّه حتّى اتّسع به عزّه وجاهه كانت أقلّ من نعمته عليه حين كان يؤذى و يضرب حتّى افتقر إلى الهرب والهجرة .

فإن قلت : كرم العشيرة و شرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول : نعم قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الأئمّة من قريش » [١] ولذلك كان عليه السلام من أكرمهم أرومة في نسب آدم ، ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « تخيّروا لنطفكم الأكفاء » [٢] و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إيّاكم و خضراء الدّمن ، فقيل : وما خضراء الدّمن ؟ فقال : المرأة الحسناء في المنبت السوء » [٣] فهذا أيضاً من النعم و لست أعني به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدّنيا ، بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و إلى أئمّة العلماء و إلى الصالحين والأبرار المتزيّنين بالعلم و العمل .

فإن قلت : فما معنى الفضائل البدنيّة ؟ فأقول : لا خفاء لشدّة الحاجة إلى الصحّة و القوّة وإلى طول العمر إذ لا يتمّ علم وعمل إلّا بهما ، ولذلك قال عليه السلام :

---

(١) أخرجه الحاكم والبيهقى فى السنن من حديث على عليه السلام بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٩٦٨ و قدتقدم فى النكاح

(٣) رواه الكلينى فى الكافى ج ٥ ص ٣٣٢ و فى النهاية الاثيرية بعد نقل الحديث قال : الدمن جمع دمنة وهى ما تدمنه الابل والغنم بابوالها وابعارها أى تلبده فى مرابضها فربما نبت فيها النبات الحسن النضير .

« أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله »(١) وإنّما يستحقر من جملته أمر الجمال فيقال : يكفي أن يكون البدن سليماً من الأمراض الشاغلة عن تحرّي الخيرات و لعمري الجمال قليل الغناء ولكنّه من الخيرات أيضاً أمّا في الدُّنيا ، فلا يخفى نفعه فيها ، وأمّا في الآخرة فمن وجهين أحدهما أنّ القبيح مذمومٌ و الطباع عنه نافرة و حاجات الجميل إلى الإجابة أقرب و جاهه في الصدور أوسع ، فكأنّه من هذا الوجه جناح مبلّغ كالمال والجاه إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجميل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح و كلّ معين على قضاء حاجات الدُّنيا فمعين على الآخرة بواسطتها ، و الثاني أنّ الجمال في الأكثر يدلّ على فضيلة النفس لأنّ نور النفس إذا تمّ إشراقه تأدّى إلى البدن فالمنظر و المخبر كثيراً مّا يتلازمان ، ولذلك عوّل أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن ، وقالوا : الوجه والعين مرآة الباطن ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والغمّ و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه »(٢) وقال بعض الصحابة : إذا بعثتم رسولاً فاطلبوا حسن الوجه حسن الاسم ، وقال الفقهاء : إذا تساوت درجات المصلّين فأحسنهم وجهاً أولاهم بالإمامة ، و قال تعالى ممتنّاً بذلك : « و زاده بسطة في العلم و الجسم »(٣) ولسنا نعني بالجمال ما يحرّك الشهوة فإنّ ذلك أنوثة ، وإنّما نعني به إرتفاع القامة على الاستقامة مع الاعتدال في اللّحم و تناسب الأعضاء و تناصف خلقة الوجه بحيث لا تنبو الطباع عن النظر إليه .

فإن قلت : فقد أدخلت المال و الجاه و النسب والأهل و الولد في حيّز النعم

---

(١) قال العراقي : غريب بهذا اللفظ و للترمذي من حديث أبي بكرة أن رجلا قال : « يا رسول الله أي الناس خير قال : من طال عمره و حسن عمله » .

(٢) أخرجه أبو يعلى من رواية اسماعيل بن عياش عن خيرة بنت محمد بن ثابت بن سباع عن امها عائشة ولا يعرف حالهما ، ورواه ابن حبان من وجه آخر في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيف كما في المغني .

(٣) البقرة : ٢٤٧ .

و قد ذمّ الله تعالى المال والجاه و كذا رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم و كذا العلماء قال تعالى : «إنّ من أزواجكم و أولادكم عدوّاً لكم»[١] و قال تعالى : «إنّما أموالكم و أولادكم فتنة»[٢] وقال عليّ عليه السلام في ذمّ النسب «الناس أبناء ما يُحسنون . و قيمة كلّ امرء ما يُحسنه»[٣]، وقيل : المرء بنفسه لا بأبيه . فما معنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعاً ؟ فاعلم أنّ من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة المأوّلة و العمومات المخصّصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله إلى إدراك الاُمور على ما هي عليه ثمّ ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرّة و بالتخصيص اُخرى فهذه نعم معينة على أمر الآخرة لاسبيل إلى جحدها إلّا أنّ فيها فتناً ومخاوف ، فمثل المال مثال الحيّة الّتي فيها ترياق نافع وسمّ ناقع فإن أصابها المعزّم الّذي يعرف وجه الاحتراز عن سمّها و طريق استخراج ترياقها النافع كانت نعمة ، و إن أصابها السوادي الغرّ فهي عليه بلاء وهلاك ، وهو مثل البحر الّذي تحته أصناف الجواهر واللآلي ، فمن ظفر بالبحر فإن كان عالماً بالسباحة وطريق الغوص و طريق الاحتراز عن مهلكات البحر فقد ظفر بنعمه ، و إن خاضه جاهلاً بذلك فقد هلك ، فلذلك مدح الله تعالى المال و سمّاه خيراً ، و مدحه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وقال : «نعم العون على تقوى الله المال» و كذلك مدح الجاه و العزّ إذ منّ الله على رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم بأن أظهره على الدّين كلّه و حبّبه في قلوب الخلق و هو المعنيّ بالجاه ولكنّ المنقول في مدحهما قليل و المنقول في ذمّ المال والجاه كثيرٌ ، وحيث ذمّ الرّياء فهو ذمّ الجاه إذ الرّياء مقصوده اجتلاب القلوب ، و معنى الجاه ملك القلوب ، و إنّما كثر هذا و قلّ ذاك لأنّ الناس أكثرهم جهّال بطريق الرّقية لحيّة المال ، و طريق الغوص في بحر الجاه ، فوجب تحذيرهم فإنّهم يهلكون بسمّ المال قبل الوصول إلى ترياقه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانا في أعيانهما مذمومين بالإضافة

---

(١) التغابن : ١٤ . (٢) التغابن : ١٥ .

(٣) الاختصاص ٢ . فى النهج أبو ب الحكم تحت رقم ٨١ «قيمة كل امرء ما يحسن» فقط و كذا فى تحف العقول ص ٢٠٩ .

إلى كلّ أحد لما تصوّر أن ينضاف إلى النبوّة الملك كما كان لرسولنا عليه السلام ولا أن ينضاف إليهما الغنى كما كان لسليمان عليه السلام، فالناس كلّهم صبيان والأموال حيّات والأنبياء عليهم السلام والعارفون معزّمون، وقد يضرّ الصبيّ ما لا يضرّ المعزّم، نعم المعزّم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حيّة وعلم أنّه لو أخذها لأجل ترياقها لاقتدى به ولده وأخذ الحيّة إذا رآها ليلعب بها فيهلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد، فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضرّ به ضرراً كثيراً ولو أخذها لأخذها الصبيّ ويعظم ضرره بهلاكه، فواجب عليه أن يهرب عن الحيّة إذا رآها، ويشير على الصبيّ بالهرب ويقبّح صورتها في عينه ويعرّفه أنّ فيها سمّاً قاتلاً لا ينجو منه أحد ولا يحدّثه أصلاً بما فيها من نفع الترياق، فإنّ ذلك ربما يغرّه فيقدم عليه من غير تمام المعرفة، وكذلك الغوّاص إذا علم أنّه لو غاص في البحر بمرأى من ولده لاتّبعه وهلك فواجب عليه أن يحذّر الصبيّ ساحل البحر والنهر، فإن كان لا ينزجر الصبيّ بمجرّد الزجر مهما رأى أباه يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبيّ فلا يقرب منه بين يديه، فكذلك الأمّة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان الأغبياء. ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّما أنا لكم مثل الوالد لولده»(١) وقال عليه السلام: «إنّكم تتهافتون في النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم»(٢) وحظّهم الأوفى في حفظ أولادهم عن المهالك فإنّهم لم يبعثوا إلّا لذلك وليس لهم في المال حظّ إلّا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يمسكوه بل أنفقوه فإنّ الانفاق فيه الترياق وفي الإمساك السمّ، ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لمالوا إلى سمّ الإمساك ورغبوا عن ترياق

(١) أخرجه مسلم وقد تقدم.

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ مثلي ومثل الناس وقال مسلم «ومثل امتي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه فأنا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه».

الإنفاق، فلذلك قبحت الأموال والمعنيّ به تقبيح إمساكها والحرص عليها للاستكثار منها، والتوسّع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدّنيا ولذّاتها، فأمّا أخذها بقدر الكفاية وصرف الفاضل إلى الخيرات فليس بمذموم وحقّ كلّ مسافر أن لا يحمل إلّا بقدر زاده في السفر إذا صمّم العزم على أن يختصّ بما يحمله فأمّا إذا سمحت نفسه بإطعام الطعام وتوسيع الزّاد على الرّفقاء فلا بأس بالاستكثار، وقوله عليه السلام: «ليكن بلاغ أحدكم من الدّنيا كزاد الرّاكب» (١) معناه لأنفسكم خاصّة وإلّا فقد كان فيمن يروي هذا الحديث ويعمل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويفرّقها في موضعه ولا يمسك منها حبّة، فإذن النعم الدّنياويّة مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها، ومرجوّها بمخوفها، ونفعها بضرّها، فمن وثق ببصيرته وكمال معرفته فله أن يقرب منها متّقياً داءها ومستخرجاً دواءها، ومن لا يقدر على ذلك فالبعد البعد، والفرار الفرار عن مظانّ الأخطار فلا تعدل بالسلامة شيئاً في حقّ هؤلاء وهم الخلق كلّهم إلّا من عصمه الله تعالى وهداه لطريقه.

فإن قلت: فما معنى النعم التوفيقيّة الرّاجعة إلى الهداية والرّشد والتأييد والتسديد؟ فاعلم أنّ التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة العبد وبين قضاء الله وقدره، وهذا يشمل الخير والشرّ وما هو سعادة وما هو شقاوة، ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله وقدره كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل فخصّص بمن يميل إلى الباطل عن الحقّ وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى ✿ فأكثر ما يجني عليه اجتهاده

فأمّا الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلّا بها لأنّ داعية الإنسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتّى يظنّ الفساد صلاحاً فمن أين ينفعه مجرّد الإرادة فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلّا بعد الهداية، ولذلك قال تعالى: «ربّنا الّذي أعطى كلّ شيء خلقه

(١) أخرجه ابن ماجه، والحاكم ج ٤ ص ٣١٧ من حديث سلمان.

ثمّ هدى »[١] وقال تعالى : « ولولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكنّ الله يزكّي من يشاء »[٢].

و قال عليه السلام : « ما من أحد يدخل الجنّة إلّا برحمة الله تعالى أي بهدايته فقيل : ولا أنت يا رسول الله . قال : ولا أنا »[٣]

و للهداية ثلاثة منازل :

الأُولى : معرفة طريق الخير و الشرّ المشار إليه بقوله تعالى : « و هديناه النّجدين »[٤] و قد أنعم الله تعالى به على كافّة عباده بعضه بالعقل و بعضه على لسان الرُّسل و لذلك قال تعالى : « و أمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على الهدى»[٥] و أسباب الهدى هي الكتب و الرُّسل و بصائر العقول و هي مبذولة و لا يمنع منها إلّا الحسد و الكبر وحبُّ الدُّنيا و الأسباب الّتي تعمى القلوب وإن كانت لا تعمى الأبصار ، و من جملة المعمّيات الإلف و العادة و حبُّ استصحابها و عنه العبارة بقوله تعالى : « إنّا وجدنا آباءنا على اُمّة »[٦] و عن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى : « و قالوا لو لا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[٧] و قوله تعالى : « أبشراً منّا واحداً نتّبعه »[٨] ، فهذه المعمّيات هي الّتي منعت الاهتداء ، و الهداية الثانية و راء هذه الهداية العامّة و هي الّتي يمدّ الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا »[٩] وهو المراد بقوله تعالى : « والّذين اهتدوا زادهم هدى »[١٠] ، و الهداية الثالثة وراء الثانية وهي النور الّذي يشرق في عالم النبوّة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدي بها إلى ما لا يهتدي إليه بالعقل الّذي يحصل به التكليف و إمكان تعلّم العلوم به وهو الهدى المطلق و ما عداه حجابٌ له و مقدّمات و هو الّذي شرّفه الله

(١) طه : ٥٠ .
(٢) النور : ٢١ .
(٣) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٨ .
(٤) البلد : ١٠ .
(٥) فصلت . ١٧ .
(٦) الزخرف : ٢١ .
(٧) الزخرف : ٣١ .
(٨) القمر : ٢٤
(٩) العنكبوت : ٦٩ .
(١٠) محمد : ١٧.

تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكلّ من جهته فقال تعالى : « قل إنّ هدى الله هو الهدى » (١) و هو المسمّى حياة في قوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه و جعلنا له نوراً يمشي به في الناس » (٢) و بقوله : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه » (٣) .

و أمّا الرّشد فنعني به العناية الإلهيّة الّتي تعين الإنسان عند توجّهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتفتره عمّا فيه فساده ، و يكون ذلك من الباطن كما قال تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل و كنّا به عالمين » (٤) فالرّشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محرّكة إليها ، فالصبيّ إذا بلغ خبيراً بحفظ المال و طرق التجارة و الاستنماء ولكنّه مع ذلك مبذّر ولايريد الاستنماء لا يسمّى رشيداً ، لا لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته ، فكم من شخص يقدم على ما يعلم أنّه يضرّه فقد أُعطي الهداية وميّز بها عن الجاهل الّذي لا يدري أنّه يضرّه ولكن ما أعطي الرّشد ، فالرّشد بهذا الاعتبار أكمل من مجرّد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة .

و أمّا التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب و تيسّرها عليه ليشتدّ في صوب الصواب في أسرع وقت ، فإنّ الهداية بمجرّدها لا تكفي ، بل لابدّ من هداية محرّكة للدّاعية و هي الرّشد و الرّشد لايكفي بل لابدّ من تيسّر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتّى يتمّ المراد ممّا انبعثت الدّاعية إليه ، فالهداية محض التعريف و الرّشد هو تنبيه الدّاعية لتستيقظ و تتحرّك و التسديد إعانة و نصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد ، وأمّا التأييد فكأنّه جامع للكلّ وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وبقوّة البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله تعالى : « إذ أيّدتك بروح القدُس » (٥) و تقرب منه العصمة و هي عبارة عن

---

(١) البقرة : ١٢٠ . (٢) الانعام : ١٢٢ .
(٣) الزمر : ٢٢ . (٤) الانبياء : ٥١ .
(٥) المائدة : ١١٠ .

وجود إلهي يسنح في الباطن يقوى به الانسان على تحرّي الخير وتجنّب الشرّ حتّى يصير كمانع من باطنه غير محسوس و إيّاه عنى بقوله تعالى : « ولقد همّت به و همّ بها لولا أن رأى برهان ربّه » (١) فهذه هي مجامع النعم و لن تتثبّت إلّا بمايخوّله الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير المتواضع المراعي والمعلّم الناصح ، والمال الزّائد على ما يقصر عن المهمّات بقلّته ، القاصر عمّا يشغل عن الدّين بكثرته ، و العزّ الّذي يصونه عن سفه السفهاء و ظلم الأعداء و يستدعي كلّ واحد من هذه الأسباب الستّة عشر أسباباً و تستدعي تلك الأسباب أسباباً إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل المتحيّرين و ملجأ المضطرّين و ذلك ربّ الأرباب و مسبّب الأسباب ، و إذا كانت تلك الأسباب طويلة لايحتمل مثل هذا الكتاب استقصاءها فلنذكر منها اُنموذجا ليعلم به معنى قوله تعالى : « و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها » (٢)

﴿بيان وجه الانموذج فى كثرة نعم الله﴾
﴿وتسلسلها وخروجها عن الحصر والاحصاء﴾

إعلم أنّا جمعنا النعم في ستّة عشر ضرباً و جعلنا صحّة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرّتبة المتأخّرة ، فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصي الأسباب الّتي بها تمّت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكنّ الأكل أحد أسباب الصحّة فلنذكر نبذة من جملة الأسباب الّتي بها تتمّ نعمة الأكل ، ولا يخفى أنّ الأكل فعل و كلّ فعل من هذا النوع فهو حركة و كلّ حركة فلابدّ لها من جسم متحرّك هو آلتها و لابدّ لها من قدرة على الحركة ، و لابدّ له من إرادة للحركة و لابدّ من علم بالمراد و إدراك له ولابدّ للأكل من مأكول و لابدّ للمأكول من أصل منه يحصل ولابدّ له من صانع يصلحه ، فلنذكر أسباب الإدراك ، ثمّ أسباب الإرادة ، ثمّ أسباب القدرة ، ثمّ أسباب المأكول على سبيل التلويح لا على سبيل الاستقصاء .

الطرف الأوّل في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك . إعلم أنّ الله تعالى -

(١) يوسف : ٢٤ .　　(٢) ابراهيم : ٣٤ .

خلق النبات و هو أكمل وجوداً من الحجر و المدر و الحديد و النحاس و سائر الجواهر الّتي لا تنمي ولا تغذّي فإنّ النبات خلق فيه قوّة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله و عروقه الّتي في الأرض و هي له آلات بها يجتذب الغذاء و هي العروق الدّقيقة الّتي تراها في كلّ ورقة ثمّ تغلظ اُصولها ، ثمّ تتشعّب و لا تزال تستدقّ وتتشعّب إلى عروق شعريّة تنبسط في أجزاء الورقة حتّى تغيب عن البصر إلّا أنّ النبات مع هذا الكمال ناقص فإنّه إذا أعوزه غذاء يساق إليه و يماسّ أصله جفّ ويبس ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر فإنّ الطلب إنّما يكون بمعرفة المطلوب و بالانتقال إليه ، والنبات عاجز عن ذلك ، فمن نعمة الله عليك أن خلق لك آلة الإحساس و آلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى ترتيب حكمة الله في خلق الحواسّ الخمس الّتي هي آلة الإدراك فأوّلها حاسّة اللّمس و إنّما خلقت لك حتّى إذا مسّتك نار محرقة أو سيف جارح تحسّ به فتهرب منه ، و هذا أوّل حسّ يخلق للحيوان ولا يتصوّر حيوان إلّا وأن يكون له هذا الحسّ لأنّه إن لم يحسّ أصلاً فليس بحيوان ، و أنقص درجات الحسّ أن يحسّ بما يلاصقه و يماسّه فإنّ الإحساس بما يبعد منه إحساس أتمّ لامحالة ، و هذا الحسّ موجود لكلّ حيوان حتّى الدّودة الّتي في الطين فإنّها إذا غرز فيها إبرة انقبضت للهرب لاكالنبات فإنّ النبات يقطع فلا ينقبض إذ لايحسّ بالقطع إلّا أنّك لولم يخلق لك إلّا هذا الحسّ لكنت ناقصاً كالدّودة و لا تقدر على طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما يماسّ بدنك فتحسّ به فتجذبه إلى نفسك فقطّ فافتقرت إلى حسّ تدرك به ما بعد عنك فخلق لك الشمّ إلّا أنّك تدرك به الرّائحة و لا تدري أنّها جاءت من أيّ ناحية فتحتاج أن تطوف كثيراً من الجوانب ، فربّما تعثر على الغذاء الّذي شممت ريحه وربّما لم تعثر فتكون في غاية النقصان لولم يخلق لك إلّا هذا ، فخلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتقصد تلك الجهة بعينها إلّا أنّه لو لم يخلق لك إلّا هذا لكنت ناقصاً إذلاتدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدوّاً لاحجاب بينك وبينه وأمّا مابينك وبينه حجاب فلاتبصره

و قد لا ينكشف الحجاب إلّا بعد قرب العدوّ فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتّى تدرك به الأصوات من وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات ولأنّك لا تدرك بالبصر إلّا شيئاً حاضراً وأمّا الغائب فلا يمكنك معرفته إلّا بكلام ينتظم من حروف و أصوات تدرك بحسّ السمع فاشتدّت إليه حاجتك فأحدث فيك ذلك وميّزت بفهم الكلام عن سائر الحيوانات و كلّ ذلك ما كان يغنيك لو لم يكن لك حسّ الذّوق إذ يصل الغذاء إليك ، فلا تدرك أنّه موافق لك أو مخالف فتأكله فتهلك ، كالشجرة يصبّ في أصلها كلّ مايع ولا ذوق لها فتجذبه ، و ربّما يكون ذلك سبب جفافها ، ثمّ كلّ ذلك ما كان يكفيك لولم يخلق في مقدّم دماغك إدراك آخر يسمّى حسّاً مشتركاً يتأدّى إليه هذه المحسوسات الخمس ويجتمع فيه و لولاه لطال الأمر عليك فإنّك إذا أكلت شيئاً أصفر مثلا فوجدته مرّاً مخالفاً لك فتركته فإذا رأيته مرّة اُخرى فلا تعرف أنّه مرّ مضرّ مالم تذقه ثانياً لولا الحسّ المشترك ، إذ العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، فكيف تمتنع عنه ، و الذّوق يدرك المرارة و لا يدرك الصفرة فلابدّ من حاكم تجتمع عنده الصفرة و المرارة جميعاً حتّى إذا أدركت الصفرة حكم بأنّه مرّ فيمتنع عن تناوله ثانياً وهذا كلّه يشاركك فيه الحيوانات إذ للشاة هذه الحواسّ كلّها ، فلو لم يكن لك إلّا هذا لكنت ناقصاً فإنّ البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها و كيف تتخلّص إذا قيّدت وقد تلقي نفسها في البئر و لا تدري أنّ ذلك يهلكها ، ولذلك قد تأكل البهيمة ما تستلذّه في الحال ويضرّها في ثاني الحال فتمرض وتموت إذ ليس لها إلّا الإحساس بالحاضر ، فأمّا إدراك العواقب فلا ، فميّزك الله تعالى و أكرمك بصفة اُخرى هي أشرف من الكلّ و هو العقل فبه تدرك مضرّة الأطعمة و منفعتها و ما يضرّ في الحال و المآل ، و به تدرك كيفيّة طبخ الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها ، فتنتفع بعقلك في الأكل الّذي هو سبب صحّتك و هو أخسّ فوائد العقل و أقلّ الحكم فيه ، بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى و معرفة أفعاله و معرفة الحكمة في عالمه و عند ذلك تنقلب فائدة الحواسّ الخمس في حقّك فتكون الحواسّ الخمس كالجواسيس وأصحاب

الأخبار الموكّلين بنواحي المملكة ، و قد وكّلت كلّ واحدة منها بأمر تخصّه فواحدة منها بأخبار الألوان والأُخرى بأخبار الأصوات والأُخرى بأخبار الرّوائح والأُخرى بأخبار الطعوم و الأُخرى بأخبار الحرّ و البرد و الخشونة و الملاسة و اللّين و الصلابة و غيرها و هذه البرد و الجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلّمونها إلى الحسّ المشترك ، والحسّ المشترك قاعد في مقدّمة الدّماغ مثل صاحب القصص و الكتب على باب الملك يجمع القصص و الكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي مختومة فيسلّمها إذ ليس له إلّا أخذها و جمعها و حفظها فأمّامعرفة حقائق ما فيها فليس إليه ولكن إذا صادق القلب العاقل الّذي هو الأمير و الملك سلّم الأنهاآت إليه مختومة فيفتّشها الملك و يطّلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام عجيبة لايمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام و المصالح يحرّك الجنود و هي الأعضاء مرّة في الطلب و مرّة في الهرب ومرّة في إتمام التدبيرات الّتي تعنّ له فهذه سياقة نعمة الله تعالى عليك في الإدراكات و لاتظنّنّ أنّنا استوفيناها ، فإنّ الحواسّ الظاهرة هي بعض الإدراكات و البصر واحد من جملة الحواسّ ، والعين آلة واحدة له و قد ركبت العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات و بعضها أغشية و بعض الأغشية كأنّها نسج العنكبوت ، وبعضها كالمشيمة و بعض تلك الرّطوبات كأنّها بياض البيض و بعضها كأنّه الجمد و لكلّ واحدة من هذه الطبقات العشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض و تدوير و تركيب لو اختلّت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات تلك الطبقة لاختلّ البصر و عجز الأطباء و الكحّالون عنه فهذا في حسّ واحد فقس به حاسّة السمع وسائر الحواسّ بل لايمكن أن تستوفى حكم الله تعالى و أنواع نعمته في جسم البصر و طبقاته في مجلّدات كثيرة مع أنّ جملته لا تزيد على قدر جوزة صغيرة ، فماظنّك بجميع حواسّ البدن وسائر أعضائه وعجائبه فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات .

الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الإدراكات : إعلم أنّه لوخلق لك البصر

حتّى تدرك به الغذاء من بعد و لم يخلق لك ميل في الطبع و شوق إليه و شهوة له تستحثك على الحركة لكان البصر معطّلاً فكم من مريض يرى الطعام و هو أنفع الأشياء له و قد سقطت شهوته فلا يتناوله فيبقى البصر و الإدراك معطّلاً في حقه فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك تسمّى شهوة و نفرة عمّا يخالفك تسمّى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله فيك شهوة الطعام وسلّطها عليك و وكّلها بك كالمتقاضي الّذي يضطرّك إلى التناول حتّى تتناول و تغتذي فتبقى بالغذاء و هذا ممّا يشاركك فيه الحيوان دون النبات ، ثمّ هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت و أهلكت نفسك فخلق الله تعالى لك الكراهة عند الشبع لتترك الأكل بها ، لا كالزّرع فإنّه لا يزال يجتذب الماء إذا انصبّ في أسافله حتّى يفسد فتحتاج إلى آدميّ يقدّر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرّة ويقطع عنه الماء اُخرى ، و كما خلقت لك هذه الشهوة حتّى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الوقاع حتّى تجامع فيبقى به نسلك و لو قصصنا عليك عجائب صنع الله في خلق الرّحم وخلق دم الحيض وتأليف الجنين من النطفة ودم الحيض و كيفيّة خلق الانثيين و العروق السالكة إليها من الفقار الّذي هو مستقرّ النطفة و كيفيّة انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق و كيفيّة انقسام مقعر الرّحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها فتتشكّل بشكل الذكور و تقع في بعضها فتتشكّل بشكل الإناث و كيفيّة إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقة ثمّ عظماً و لحماً و دماً و كيفيّة قسمة أجزائها إلى رأس ورجل وبطن وظهر و يد وسائر الأعضاء لقضيت من أنواع نعم الله عليك في مبدأ خلقك كلّ العجب فضلاً ممّا تراه الآن ولكنّا لسنا نريد أن نتعرّض إلّا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كيلا يطول الكلام فإذن شهوة الطعام أحد ضروب الإرادات وذلك لا يكفيك فإنّه تأتيك المهلكات من الجوانب ، فلو لم يخلق فيك الغضب الّذي به تدفع كلّ ما يضادّك و لا يوافقك لبقيت عرضة للآفات و لأخذ منك كلّ ما حصّلته من الغذاء ، فإنّ كلّ أحد يشتهي ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه و مقاتلته و هي داعية الغضب ، ثمّ لا يكفيك هذا إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلّا

إلى ما يضرّ و ينفع في الحال أمّا في المآل فلا تكفي فيه هذه الارادة فخلق لك إرادة أُخرى مسخّرة تحت إشارة العقل المعرّف للعواقب كما خلق الشهوة و الغضب مسخّرة تحت إدراك الحسّ المدرك للحالة الحاضرة فتمّ بها انتفاعك بالعقل إذ كان مجرّد المعرفة بأنّ هذه الشهوة مثلاً تضرّك لا تغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة و هذه الارادة أفردت بها عن البهائم إكراماً لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد سمّينا هذه الارادة باعثاً دينيّاً وفصّلناه في كتاب الصبر تفصيلاً أوفى من هذا .

الطرف الثالث : في نعم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة . إعلم أنّ الحسّ لا يفيد إلّا الادراك و الارادة لا معنى لها إلّا الميل إلى الطلب أو الهرب وهذا لا كفاية فيه مالم تكن فيك آلة الطلب والهرب فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد منه مدرك له لكنّه لا يمكنه أن يمشي إليه لفقد رجله أو لا يمكنه أن يتناوله لفقد يده أو لفلج أو خدر فيهما ، فلابدّ من آلات للحركة و قدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلباً و بمقتضى الكراهة هرباً فلذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء الّتي تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فمنها ما هو للطلب والهرب كالرّجل للانسان و الجناح للطير و القوائم للدّوابّ ، و منها ما هو للدّفع كاليد للانسان و القرن للحيوان ، و في هذا تختلف الحيوانات اختلافاً كثيراً فمنها ما يكثر أعداؤه ويبعد غذاؤه ، فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجناح ليطير بسرعة ، و منها ما خلق له أربع قوائم ، ومنها ماله رجلان ، ومنها مايدبّ و ذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء الّتي بها يتمّ الأكل فقط ليقاس عليها غيرها ، فنقول رؤيتك الطعام من بُعد وحركتك إليه لاتكفي مالم تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأنعم الله عليك بخلق اليدين و هما طويلتان فتمدّان إلى الأشياء و مشتملتان على مفاصل كثيرة لتتحرّك في الجهات فتمتدّ و تنثني إليها فلا تكون كخشبة منصوبة ، ثمّ جعل رأس اليد عريضاً بخلق الكفّ ، ثمّ قسم رأس الكفّ بخمسة أقسام هي الأصابع وجعلها في صفّين بحيث يكون الابهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة

أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعها وضعاً إن بسطتها كانت لك مجرفة و أن ضممتها و ثنّيتها كانت لك مغرفة و إن جمعتها كانت لك آلة للضرب ، و إذا نشرتها ثمّ قبضتها كانت لك آلة في القبض ، ثمّ خلق لها أظفاراً و أسند إليها رؤوس الأصابع حتّى لاتتفتّت وحتّى تلتقط بها الأشياء الدّقيقة الّتي لا تحويها الأصابع فتأخذها برؤوس أظفارك ، ثمّ هب أنّك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة و هي في الباطن فلابدّ وأن يكون من الظاهر دهليز إليها حتّى يدخل الطعام منه فجعل الفم منفذاً إلى المعدة مع ما فيه من الحكمة الكثيرة سوى كونه منفذاً للطعام إلى المعدة ، ثمّ إن وضعت الطعام في الفم و هو قطعة واحدة فلا يتيسّر ابتلاعه فتحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللّحيين من عظمين وركب فيها الأسنان و طبق الأضراس من العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحناً ، ثمّ الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ، ثمّ يحتاج إلى الطحن بعد ذلك ، فقسّم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس ، و إلى حادّة قواطع كالرّباعيّات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ، ثمّ جعل مفصل اللّحيين متخلخلاً بحيث يتقدّم الفكّ الأسفل و يتأخّر حتّى يدور على الفكّ الأعلى دوران الرّحى ولولاه لما تيسّر إلّا ضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلاً و بذلك لا يتمّ الطحن فجعل اللّحى الأسفل متحرّكاً حركة دوريّة واللّحى الأعلى ثابتاً لا يتحرّك ، فانظر إلى عجيب صنع الله فإنّ كلّ رحى تكون صنعة الخلق فيثبت منها الحجر الأسفل و يدور الأعلى إلّا هذه الرّحى الّتي صنعها الله إذ يدور منها الأسفل على الأعلى ، فسبحانه ما أعظم شأنه و أتمّ برهانه و أوسع امتنانه ، ثمّ هب أنّك وضعت الطعام في فضاء الفم فكيف يتحرّك الطعام إلى ما تحت الأسنان أو كيف تستجرّه الأسنان إلى نفسها ، و كيف يتصرّف اليد في داخل الفم فانظر كيف أنعم الله تعالى عليك بخلق اللّسان فإنّه يطوف في جوانب الفم و يرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالمجرفة الّتي ترد الطعام إلى الرّحى هذا مع ما فيه من فائدة الذوق و عجائب قوّة النطق الّتي لسنا نطنب بذكرها ، ثمّ هب أنّك قطعت الطعام و طحنته

وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلاّ بأن ينزلق إلى الحلق بنوع رطوبة ، فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللّسان عيناً يفيض اللّعاب منها وينصبُّ بقدر الحاجة حتّى ينعجن به الطعام ، و انظر كيف سخّرها لهذا الأمر فإنّك ترى الطعام من بعيد فيثور الحنكان للخدمة و ينصبُّ اللّعاب حتّى تتحلّب أشداقك و الطعام بعد بعيد عنك ثمّ يحتاج هذا الطعام المطحون المنعجن إلى من يوصله إلى المعدة و هو في الفم ولا تقدر على أن تدفعه باليد و لا في المعدة يد حتّى تمتدّ فتجذب الطعام ، فانظر كيف هيّأ الله تعالى المريء والحنجرة وجعل على رأسها طبقات تنفتح لأخذ الطعام ، ثمّ تنطبق و تنضغط حتّى يتقلّب الطعام بضغطة فيهوى إلى المعدة في دهليز المريء ، فإذا ورد الطعام على المعدة فهو خبز و فاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير عظماً و لحماً و دماً على هذه الهيئة بل لابدّ أن يطبخ طبخاً تامّاً يتشابه أجزاؤه ، فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قِدر فيقع فيها الطعام فتحتوي عليه و تغلق عليه الأبواب فلا يزال لابثاً فيها حتّى يتمّ الهضم والنضج بالحرارة الّتي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد و من الأيسر الطحال و من قدّام الثرب [(١)] . ومن خلف لحم الصلب فتتعدّى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتّى ينطبخ الطعام ويصير مائعاً متشابهاً يصلح للنفوذ في تجاويف العروق ، و عند ذلك يشبه ماء الشعير في تشابه أجزائه ورقّته و هو بعد لايصلح للتغذية ، فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجاري من العروق وجعل لها فوهات كثيرة [(٢)] حتّى ينصبّ الطعام فيها فينتهي إلى الكبد و الكبد معجون من طينة الدّم حتّى كأنّه دم و فيه عروق كثيرة شعريّة منتشرة في أجزاء الكبد فينصبُّ الطعام الرقيق النافذ فيها و ينتشر في أجزائها حتّى تستولي عليه قوّة الكبد فتصبغه بلون الدّم فيستقرّ فيها ريثما يحصل له نضج آخر [(٣)] ويحصل له هيئة الدّم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء إلّا أنّ حرارة

---

(١) الثرب ـ بالثاء المثلثة ـ : الشحم الرقيق الذى يغشى الكرش والامعاء . و فى بعض نسخ الاحياء مكان الثرب [الترائب] .

(٢) الفوهة من الوادى و الطريق و جبل النار : فمها ، جمعها فوهات .

(٣) الريث ـ بالفتح الراء ـ : المهلة من الزمان وريثما يحصل أى مقدار ما يحصل .

الكبد هي الّتي تنضج هذا الدّم فيتولّد من هذا الدّم فضلتان كما يتولّد من جميع ما يطبخ،إحداهما شبيهة بالدُّردي والعكر (١) ، و هي الخلط السوداوي والاُخرى شبيهة بالرَّغوة و هي الصفراء ، و لو لم يفضل عليها هاتان الفضلتان فسد مزاج الأعضاء ، فخلق الله المرارة و الطحال وجعل لكلّ واحد منهما عنقاً ممدوداً في الكبد داخلاً في تجويفه فتجذب المرارة الفضلة الصفراويّة و يجذب الطحال العكر السوداوي ، فيبقى الدّم صافياً ليس فيه إلّا زيادة رقّة و رطوبة لما فيه من المائيّة و لو لاها لما انتشرت في تلك العروق الشعريّة ، و لا خرجت منها متصاعدةً إلى الأعضاء فخلق الله تعالى الكليتين وأخرج من كلّ واحدة منهما عنقاً ممدوداً طويلاً إلى الكبد ، ومن عجائب حكمة الله تعالى أنّ عنقهما ليس داخلاً في تجويف الكبد بل متّصل بالعروق الطالعة من حدبة الكبدحتّى يجذب مائيّتها بعدالطلوع من العروق الدّقيقة الّتي في الكبد إذ لو اجتذب قبل ذلك لغلظ ولم يخرج من العروق ، فإذا انفصلت منه المائيّة فقد صار الدّم صافياً من الفضلات الثلاث نقيّاً من كلّ ما يفسد الغذاء ، ثمّ إنّ الله تعالى أطلع من الكبد عروقاً ، ثمّ قسّمها بعد الطلوع أقساماً و قسّم كلّ قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كلّه من القرن إلى القدم ظاهراً وباطناً فيجري الدّم الصافي فيها و يصل إلى سائر الأعضاء حتّى تصير العروق المنقسمة شعريّة كعروق الأوراق في الأشجار بحيث لا تدرك بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرّشح إلى سائر الأجزاء ، ولو حلّت بالمرارة آفة فسد الدّم وحصل منه الأمراض الصفراويّة كاليرقان و البثور والحمرة (٢)، إن حلّ بالطحال آفة فلم يجذب الخلط السوداوي حدثت الأمراض السوداويّة كالبهق و الجذام والماليخوليا و غيرها ، وإن لم تندفع المائيّة نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ، ثمّ انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم حيث رتّب منافع على هذه الفضلات الثلاث الخسيسة أمّا المرارة فإنّها تجذب بأحد

---

(١) العكر دردى التريت .

(٢) البثور بتقديم الموحدة على المثلثة : خراج صغار ، والحمرة داء يحمر موضعه و هى الورم الصفراوى المحض فارسيتها « سرخ باد » .

عنقيها و تقذف بالعنق الأخرى إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزلقة و يحدث في الأمعاء لذع يحرّكها للدّفع فتنضغط حتّى يندفع الثفل و ينزلق وتكون صفرته لذلك ، وأمّا الطحال فإنّه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثمّ يرسل منها في كلّ يوم شيئاً إلى فم المعدة فيحرّك الشهوة بحموضته وينبّهها ويثيرها ويخرج الباقي مع الثفل ، و أمّا الكلية فإنّها تغتذي ممّا في تلك المائيّة من دم وترسل الباقي إلى المثانة ، ولنقتصر على هذا القدر من بيان نعمة الله تعالى في الأسباب الّتي اُعدّت للأكل ، ولو ذكرنا كيفيّة احتياج الكبد إلى القلب و الدّماغ واحتياج كلّ واحد من الأعضاء الرّئيسة إلى صاحبه و كيفيّة انشعاب العروق الضوارب في القلب إلى سائر البدن و الّتي بواسطتها يصل الرّوح و كيفيّة انشعاب الأعصاب من الدّماغ إلى سائر البدن و بواسطتها يصل الحسّ و كيفيّة انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن و بواسطتها يصل الغذاء ، ثمّ كيفيّة تركيب الأعضاء و عدد عظامها و عضلاتها و عروقها و أوتارها و رباطاتها و غضاريفها و رطوباتها لطال الكلام ، و كلّ ذلك يحتاج إليه للأكل ولاُمور اُخر سواه بل في الآدمي آلاف من العضلات و العروق مختلفة بالصغر و الكبر والدّقّة والغلظ ، و كثرة الانقسام وقلّته ، ولا شيء منها إلّا وفيه حكمة أواثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر و زيادة ، و كلّ ذلك نعمة من الله عليك ، لو سكن من جملتها عرق متحرّك أو تحرّك عرق ساكن لهلكت يامسكين ، فانظر إلى نعمة الله أوّلاً لتقوى بها على الشكر ، فإنّك لا تعرف من نعمة الله إلّا الأكل وهي أخسّها ، ثمّ لا تعرف منها إلّا أنّك تجوع فتأكل و الحمار أيضاً يعلم أنّه يجوع فيأكل و يتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستريح فيقمص و يرمح[1] ، فإذا لم تعرف أنت من نفسك إلّا ما يعرفه الحمار فكيف تقوم بشكر نعم الله عليك و هذا القدر الّذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله تعالى فقطّ ، فقس على الإجمال ما

(١) قمص الفرس و غيره : رفع يديه معاً وطرحهما معا ، و عجن برجليه ، والعير : وثب و نفر . رمحه الفرس والحمار و البغل اذا ضربه برجليه .

أهملناه من جملة ما عرفناه حذراً من التطويل وجملة ما عرفناه و عرفه الخلق كلّهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله أقلّ من قطرة من بحار إلّا أنّ من علم شيئاً من هذا أدرك شمّة عن معاني قوله تعالى: «و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها»(١)

ثمّ انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء و قوام منافعها و إدراكاتها و قواها ببخار لطيف يتصاعد من الأخلاط الأربعة و مستقرّه القلب ويسري في جميع البدن بواسطة العروق الضوارب فلاينتهي إلى جزء من أجزاء البدن إلّا و يحدث عند وصوله في تلك الأجزاء مايحتاج إليه من قوّة حسّ وإدراك و قوّة حركة وغيرها كالسراج الّذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلّا و يحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت وهو من خلق الله تعالى و اختراعه ولكنّه جعل السراج سبباً له بحكمته و هذا البخار اللّطيف هو الّذي تسمّيه الأطباء الرّوح و محلّه القلب، و مثاله جرم نار السراج، والقلب له كالمسرجة، والدّم الأسود الّذي في باطن القلب له كالفتيلة، و الغذاء له كالزّيت و الحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في جملة البيت، و كما أنّ السراج إذا انقطع زيته انطفأ فسراج الرّوح أيضاً ينطفىء مهما انقطع غذاؤه و كما أنّ الفتيلة قد تحترق و تصير رماداً بحيث لا يقبل الزّيت فينطفئ السراج مع كثرة الزيت و كذلك الدّم الّذي تشبّث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفرط حرارة القلب فينطفئ مع وجود الغذاء فإنّه لايقبل الغذاء الّذي يبقى الرّوح به كما لايقبل الرّماد الزّيت قبولاً تتشبّث النّاريّة، و كما أنّ السراج تارة تنطفئ بسبب من داخل كما ذكرنا و تارة بسبب من خارج كهبوب ريح أو إطفاء إنسان فكذلك انطفاء الرّوح تارة يكون بسبب من داخل و تارة بسبب من خارج وهو القتل و كما أنّ انطفاء السراج بفناء الزّيت أو بفساد الفتيلة أو بريح عاصف أو بإطفاء إنسان لايكون إلّا بأسباب مقدّرة في علم الله مرتّبة، و يكون كلّ ذلك بقدر فكذلك انطفاء الرّوح و كما أنّ انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الّذي أجّل له في امّ الكتاب فكذلك انطفاء الرّوح و كما أنّ السراج

---

(١) ابراهيم: ٣٤.

إذا انطفأ أظلم البيت كلّه فالرّوح إذا انطفأ أظلم ابدن كلّه و فارقته أنواره الّتي كان يستفيدها من الرّوح و هي أنوار الإحساسات و القدر والإرادات و سائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة ، فهذا أيضاً رمز وجيز إلى عالم آخر من عوالم نعمة الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته ليعلم أنّه لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلماته فتعساً لمن كفر بالله تعساً وسحقاً لمن كفر نعمته سحقاً[١] فإن قلت : فقد وصفت الرّوح و مثّلته و رسول الله صلى الله عليه وآله سئل عن الرّوح فلم يزد على أن قال : « الرّوح من أمر ربّي » فلم لم يصفه على هذا الوجه ؟ فاعلم أنّ هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الرّوح فإنّ الرّوح يطلق لمعان كثيرة لانطول بذكرها و نحن إنّما وصفنا من جملتها جسماً لطيفاً تسمّيه الأطبّاء روحاً و قد عرفوا صفته و وجوده و كيفيّة سريانه في الأعضاء و كيفيّة حصول الإحساس و القوى في الأعضاء به حتّى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أنّ ذلك لوقوع سدّة في مجرى هذا الرّوح فلا يعالجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب و مواقع السدّة فيها ويعالجونها بما يفتح السدّة فإنّ هذا الجسم بلطفه ينفذ في شباك العصب و بواسطته يتأدّى من القلب إلى سائر الأعضاء و ما يرتقي إليه معرفة الأطبّاء فأمره نازل سهل ، وأمّا الرّوح الّتي هي الأصل و هي الّتي إذا فسدت فسد بها سائر الجسد ، فذلك سرّ من أسرار الله تعالى لم نصفه و لارخصة في وصفه إلّا أن يقال : هو أمر ربّاني كما قال تعالى : « قل الروح من أمر ربّي »[٢] والاُمور الربّانيّة لم يحتمل العقول وصفها بل تتحيّر فيها عقول أكثر الخلق ، وأمّا الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتتزلزل في ذكر مبادي وصفها معاقد العقول المقيّدة بالجوهر و العرض المحبوسة في مضيقها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل بنور آخر أعلى و أشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوّة و الولاية ونسبته إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم و الخيال وقد خلق الله تعالى الخلق أطواراً ، فكما يدرك الصبيّ المحسوسات

---

(١) التعس : الهلاك . والسحق - بالضم و بضمتين - : البعد .

(٢) الاسراء : ٨٥ .

و لا يدرك المعقولات لأنّ ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ المعقولات ولا يدرك ما وراء ها لأنّ ذلك طور لم يبلغه بعد ، و إنّه لمقام شريف ومشرب عذب و رتبة عالية فيها يلحظ جناب الحقّ بنور الإيمان و اليقين وذلك المشرب أعزّ من أن يكون شريعة لكلّ وارد بل لا يطّلع عليه إلّا واحد بعد واحد و لجناب الحقّ صدر وفي مقدّمة الصدر مجال وميدان رحب وعلى أوّل الميدان عتبة هي مستقرّ ذلك الأمر الربّاني فمن لم يكن له على العتبة جواز و لا لحافظ العتبة مشاهدة استحال أن يصل إلى الميدان فكيف بالانتهاء إلى ما وراءه من المشاهدات العالية ولذلك قيل . من لم يعرف نفسه لم يعرف ربّه ، و أنّى يصادف هذا في خزائن الأطبّاء و من أين للطبيب أن يلاحظه ؟ بل المعنى المسمّى روحاً عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الربّاني كالكرة الّتي يحرّكها صولجان الملك بالإضافة إلى الملك فمن أدرك الرّوح الطبّي وظنّ أنّه أدرك الأمر الربّاني كان كمن رأى الكرة فظنّ أنّه رأى الملك ولا شكّ في أنّ خطاءه فاحش وهذا الخطاء أفحش منه جدّاً ، ولمّا كانت العقول الّتي بها يحصل التكليف و بها يدرك مصالح الدّنيا عقولاً قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلّى الله عليه وآله أن يتحدّث عنه بل أمره أن يكلّم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئاً لكن ذكر نسبته وفعله ولم يذكر ذاته أمّا نسبته ففي قوله « من أمر ربّي » و أمّا فعله فقد ذكره في قوله : « يا أيّتها النّفس المطمئنّة ✽ ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة ✽ فادخلي في عبادي ✽ وادخلي جنّتي » (١) ولنرجع الآن إلى الغرض فانّ المقصود ذكر نعم الله في الأكل وقد ذكر بعض نعم الله في آلات الأكل .

الطرف الرّابع : في نعم الله في الأصول الّتي منها تحصل الأطعمة و تصير صالحة لأن يصلحها الآدمي بعد ذلك بصنعته : إعلم أنّ الأطعمة كثيرة و لله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى وأسباب متوالية لا تتناهى وذكر ذلك في كلّ طعام ممّا يطول فانّ الأطعمة إمّا أدوية و إمّا فواكه و إمّا أغذية فلنأخذ الأغذية فانّها الأصل

(١) الفجر : ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١

و لنأخذ من جملتها حبّة من البرّ و لندع سائر الأغذية فنقول : إذا وجدت حبّة أو حبّات فلو أكلتها فنيت وبقيت جائعاً فما أحوجك إلى أن تنمو الحبّة في نفسها وتزيد و تتضاعف حتّى تفي بجميع حاجتك ، فخلق الله تعالى في حبّة الحنطة من القوى ما تغتذي به كما خلق فيك ، فإنّ النبات إنّما يفارقك في الحسّ و الحركة و لا يفارقك في الاغتذاء لأنّه يغتذي بالماء ويجتذب إلى باطنه بواسطة العروق كما تغتذي أنت وتجتذب ، ولسنا نطنب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشير إلى غذائه فنقول : كما أنّ الخشب و التراب لا يغذيك بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبّة لا تغتذي بكلّ شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنّك لو تركتها في البيت لم تزد لأنّه لم يحط بها إلّا الهواء ، و مجرّد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد بل لابدّ من أرض فيها ماء يمتزج ماؤها بالأرض فيصير طيناً ، و إليه الإشارة بقوله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه ✿ أنّا صببنا الماء صبّاً ✿ ثمّ شققنا الأرض شقّاً » (١) ثمّ لا يكفي الماء و التراب إذ لو تركت في أرض نديّة صلبة متراكمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلخلة يتغلغل الهواء إليها ، ثمّ الهواء لا يتحرّك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرّك الهواء و تضربه بقهر وعنف على الأرض حتّى ينفذ فيها و إليه الإشارة بقوله تعالى : « وأرسلنا الرّياح لواقح » (٢) و إنّما إلقاحها في إيقاع الازدواج بين الهواء و الماء والأرض ، ثمّ كلّ ذلك لايغنيك لو كان في برد مفرط أو شتاء شاتي فتحتاج إلى حرارة الرّبيع والصيف ، فقد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة ، فانظر إلى ما ذا يحتاج كلّ واحد إذ يحتاج الماء لينساق إلى أرض الزّراعة من البحار والعيون والأنهار و السواقي فانظر كيف خلق البحار وفجر العيون و أجرى منها الأنهار ، ثمّ الأرض ربّما تكون مرتفعة و المياه لا ترتفع إليها فانظر كيف خلق الغيوم و كيف سلّط الرّياح عليها لتسوقها بإذنه إلى أقطار العالم وهي سحب ثقال حوامل بالماء ، ثمّ انظر كيف يرسله مدراراً

---

(١) عبس : ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ . (٢) الحجر : ٢٢ .

على الأراضي في وقت الرّبيع و الخريف على حسب الحاجة و انظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجاً فلو خرجت دفعة لغرقت البلاد وهلك الزّرع والمواشي، و نعم الله تعالى في الجبال و السحاب و البحار و الأمطار لا يمكن احصاؤها و أمّا الحرارة فإنّها لاتحصل بين الماء والأرض و كلاهما باردان فانظر كيف سخّر الشمس و كيف خلقها مع بعدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عندالحاجة إلى البرد، والحرّ عند الحاجة إلى الحرّ فهذه إحدى حِكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى، ثمّ النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انعقاد و صلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها، فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيّته الترطيب كما جعل من خاصيّة الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه و يصبغها بتقدير الفاطر الحكيم، و كذلك لو كانت الأشجار في ظلّ يمنع شروق الشمس و القمر و الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة، حتّى أنّ الشجرة الصغيرة إذا أظلّتها شجرة كبيرة تفسد و تعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له في اللّيل فتغلب على رأسك الرّطوبة الّتي يعبّر عنها بالزكام فكما يرطّب رأسك يرطّب الفواكه أيضاً، و لا نطول فيما لا مطمع في استقصائه بل نقول: كلّ كوكب في السّماء فقد سخّر لنوع فائدة كما سخّرت الشمس للتسخين و القمر للترطيب، فلا يخلو واحد منها عن حكم كثيرة لاتفي قوّة البشر باحصائها و لو لم تكن كذلك لكان خلقها عبثاً و باطلاً و لم يصحّ قوله تعالى: «و ما خلقنا السماء والأرض و مابينهما لاعبين»[1] وقوله تعالى: ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك»[2]. وكما أنّه ليس في أعضاء بدنك عضو إلّا لفائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلّا لفائدة، والعالم كلّه كشخص واحد وآحاد أجسامه كالأعضاء له، وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك، وشرح ذلك يطول. ولا ينبغي أن تظنّ أنّ الايمان بأنّ النجوم والشمس والقمر مسخّرات بأمر الله تعالى في أمور جعلت أسباباً لها بحكم الحكمة مخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق المنجّمين وعن علم النجوم

---

(١) الانبياء: ١٦. (٢) آل عمران ١٩١.

بل المنهيّ عنه في النجوم أمران أحدهما أن يصدّق بأنّها فاعلة لآثارها مستقلّة بها وأنّها ليست مسخّرة تحت تدبير مدبّر خلقها وقهرها و هذا كفر ، و الثاني تصديق المنجّمين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار الّتي لايشترك في دركها كافّة الخلق لأنّهم يقولون ذلك عن جهل ، فإنّ علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء ثمّ اندرس ذلك العلم فلم يبق منه إلّا ما هو مختلط لا يتميّز فيه الصواب عن الخطأ ، فاعتقاد كون الكواكب أسباباً لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض و في النّبات و الحيوان ليس بقادح في الدّين بل هو الحقّ ولكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قادح في الدّين ، و لذلك إذا كان معك ثوب غسّلته و تريد تجفيفه فقال لك غيرك : أخرج الثوب أبسطه فإنّ الشمس قد طلعت وحمى الهواء ، لايلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوالته حمى الهواء على طلوع الشمس ، و إذا سألت عن تغيّر وجه الإنسان فقال : قرعتني الشمس في الطريق فاسودّ وجهي لم يلزمك تكذيبه ، وقس بهذا سائر الآثار إلّا أنّ آثار بعضها معلومة وآثار بعضها مجهول فالمجهول لا يجوز دعوى العلم فيه و المعلوم بعضه معلوم للناس كافّة كحصول الضياء و الحرارة بطلوع الشمس و بعضه لبعض الناس كحصول الزّكام بشروق القمر فإذن الكواكب ما خلقت عبثاً بل فيها حكم كثيرة لا تحصى و لقد نظر رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى السماء و قرأ قوله تعالى : « ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار » ثمّ قال : ويل لمن قرأ هذه الآية ثمّ مسح بها سبلته »(١) و معناه أن يقرأ و يترك التأمّل و يقتصر من فهم ملكوت السماوات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك ممّا يعرفه البهائم أيضاً فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الّذي مسح بها سبلته فللّه في ملكوت السماوات و الأرض و الآفاق و الأنفس و الحيوانات والنباتات عجائب يطلب معرفتها المحبّون لله فإنّ من أحبّ عالماً لم

---

(١) قال العراقي : أخرجه الثعلبي من حديث ابن عباس بلفظ «ولم يتفكر فيها» وفيه أبو جناب يحيى بن أبي حية ضعيف .

يزل مشعوفاً بطلب تصانيفه(١) فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبّاً له فكذلك الأمر في عجائب صنع الله فإنّ العالم كلّه من تصنيفه بل تصنيف المصنّفين من تصنيفه الّذي صنّفه بواسطة قلوب العباد ، فإن تعجّبت من تصنيف فلا تتعجّب من المصنّف بل من الّذي سخّر المصنّف لتأليفه بما أنعم عليه من هدايته و تسديده وتعريفه ، كما إذا رأيت لعب المشعوذ ترقص وتتحرّك حركات موزونة متناسبة فلا تتعجّب من اللّعب فإنّها خرق محرّكة لا متحرّكة ولكن تتعجّب من حذق المشعوذ المحرّك لها بروابط دقيقة خفيّة عن الأبصار فإذن المقصود أنّ غذاء النبات لا يتمّ إلّا بالماء والهواء و الشمس و القمر و الكواكب ، و لا يتمّ ذلك إلّا بالأفلاك الّتي هي مركوزة فيها ، و لا يتمّ الأفلاك إلّا بحركاتها ، و لا يتمّ حركاتها إلّا بملائكة سماويّة يحرّكونها و كذلك يتمادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تنبيهاً بما ذكرناه على ما أهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

الطرف الخامس : في نعمة الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطعمة إليك : إعلم أنّ هذه الأطعمة كلّها لا توجد في كلّ مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض ، و الناس منتشرون على وجه الأرض و قد تبعد عنهم الأطعمة و تحول بينهم وبينها البحار و البراري ، فانظر كيف سخّر الله تعالى التجّار وسلّط عليهم حرص حبّ المال وشره الرّبح مع أنّهم لا يغنيهم شيء في غالب الأمر، بل يجمعون فإمّا أن تغرق بهم السفن أو تنهبها قطّاع الطريق أو يموتون في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورثتهم وهم أشدّ أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلّط الله الجهل و الغفلة عليهم حتّى يقاسوا الشدائد في طلب الرّبح و يركبوا الأخطار و يغرّروا بالأرواح في ركوب البحار فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق و الغرب إليك ، و انظر كيف علّمهم الله صناعة السفن و كيفيّة الرّكوب فيها ، وانظر كيف خلق الحيوانات وسخّرها للحمل والرّكوب في البراري

(١) شغفه حبه ـ بالغين المعجمة ـ : وشعفه حبه ـ بالعين المهملة ـ كلاهما بمعنى، أى غشى الحب شغاف قلبه .

و انظر إلى الإبل كيف خلقت ، و إلى الخيل كيف اُيّدت بسرعة الحركة ، و إلى الحمار كيف جعل صبوراً على التعب ، و إلى الجمال كيف تقطع البراري و تطوي المراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش ، وانظر كيف سيّرهم الله بواسطة السفن والحيوانات في البرّ والبحر ليحملوا إليك الأطعمة و سائر الحوائج وتأمّل ما يحتاج إليه الحيوانات من أسبابها و أدواتها و علفها و ما يحتاج إليه السفن وقد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حدّ الحاجة و فوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك إلى اُمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز .

الطرف السادس في إصلاح الأطعمة : إعلم أنّ الّذي ينبت في الأرض من النبات و ما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يقضم[1] و يؤكل وهو كذلك بل لابدّ في كلّ واحد من إصلاح بطبخ وتركيب و تنظيف بالقاء البعض و إبقاء البعض إلى اُمور اُخر لاتحصى واستقصاء ذلك في كلّ طعام طويل فلنعيّن رغيفاً واحداً و لننظر إلى ما يحتاج إليه الرّغيف الواحد حتّى يستدير و يصلح للأكل من بعد إلقاء البذر في الأرض فأوّل ما يحتاج إليه الحرّاث ليزرع ويصلح الأرض ، ثمّ الثور الّذي تثير به الأرض و الفدّان[2] و جميع أسبابه ، ثمّ بعد ذلك التعهّد بسقي الماء مدّة ثمّ تنقية الأرض من الحشيش ، ثمّ الحصاد ، ثمّ الفرك و التنقية ، ثمّ الطحن ، ثمّ العجن ، ثمّ الخبز ، فتأمّل عدد هذه الأفعال الّتي ذكرناها و ما لم نذكره و عدد الأشخاص القائمين بها و عدد الآلات الّتي يحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصنّاع في إصلاح آلات الحراثة و الطحن و الخبز من نجّار وحدّاد وغيرهما ، وانظر إلى حاجة الحدّاد إلى الحديد والرّصاص والنحّاس ، وانظر كيف خلق الله الجبال و الأحجار و المعادن و كيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ، فإن فتّشت علمت أنّ رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكلك - يا مسكين - مالم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدىء من الملك الّذي يزجي السحاب

(١) قضم - كسمع - : أكل بأطراف أسنانه ، أو أكل يابساً .

(٢) الفدان - بتخفيف الدال و تشديدها - : الثوران يقرن بينهما للحرث .

لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة الملائكة حتّى ينتهي النوبة إلى عمل الإنسان فاذا استدار فقد عمل عليه قريب من سبعة آلاف صانع كلّ صانع صناعته أصل من أُصول الصنائع الّتي بها يتمّ مصلحة الخلق، ثمّ تأمّل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات حتّى أنّ الإبرة الّتي هي آلة صغيرة و فائدتها خياطة اللّباس الّذي يمنع البرد عنك لاتكمل صورتها من حديد تصلح للإبرة حتّى تمرّ على يدي الإبري خمساً وعشرين مرّة يتعاطى في كلّ مرّة منها عملاً، فلولم يجمع الله البلاد ولم يسخّر العباد و افتقرت إلى عمل المنجل الّذي تحصد به البرّ مثلاً بعد نباته لنفد عمرك وعجزت عنه، أفلاترى كيف هدى الله عبده الّذي خلقه من نطفة قذرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع الغريبة، فانظر إلى المقراض مثلاً وهما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر فيتناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة ولو لم يكشف الله طريق اتّخاذه بفضله و كرمه لمن قبلنا و افتقرنا إلى استنباط الطريق فيه بفكرنا ثمّ إلى استخراج الحديد من الحجر و إلى تحصيل الآلات الّتي يعمل بها المقراض و عمر الواحد منّا عمر نوح و أُوتي أكمل العقول لقصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها، فسبحان من ألحق ذوي الأبصار بالعميان و سبحان من منع التبيين مع هذا البيان فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحّان مثلاً أو عن الحدّاد أو عن الحجّام الّذي عمله أخسّ الأعمال أو عن الحائك أو عن واحد من جملة الصنّاع ماذا يصيبك من الأذى و كيف يضطرب عليك أُمورك كلّها فسبحان من سخّر بعض العباد لبعض حتّى نفذت به مشيّته وتمّت به كلمته و ثبتت به حكمته و لنوجز القول في هذه الطبقة أيضاً فانّ الغرض التنبيه على النعم دون الاستقصاء.

الطرف السابع في إصلاح المصلحين: إعلم أنّ هؤلاء الصنّاع المصلحين للأطعمة وغيرها لو تفرّقت آراؤهم وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش لتبدّدوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لايحويهم مكان واحد ولايجمعهم غرض واحد، فانظر كيف ألّف الله بين قلوبهم وسلّط الأُنس و المحبّة عليهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بين قلوبهم، فلأجل الأُلفة وتعارف الأرواح

اجتمعوا و ائتلفوا و بنوا المدن والبلاد و رتّبوا المساكن والدّور متقاربة متجاورة ، و رتّبوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع ممّا يطول احصاؤه ، ثمّ هذه المحبّة تزول بأغراض يتزاحمون عليها و يتنافسون فيها ففي جبلّة الإنسان الغيظ والحسد والمنافسة و ذلك ممّا يؤدّي إلى التقاتل والتنافر ، فانظر كيف سلّط الله عزّ و جلّ السلاطين و أمدّهم بالقوّة والعدّة و الأسباب ، و ألقى رعبهم في قلوب الرّعايا حتّى أذعنوا لهم طوعاً و كرهاً ، و كيف هدى السلاطين إلى طريق إصلاح العباد حتّى رتّبوا أجزاء البلد كأنّها أجزاء شخص واحد يتعاون على غرض واحد ينتفع البعض منها بالبعض ، فرتّبوا الرّؤساء والقضاة والشحن و زعماء الأسواق واضطرّوا الخلق إلى قانون العدل و ألزموهم التساعد والتعاون حتّى صار الحدّاد ينتفع بالقصّاب و الخبّاز وسائر أهل البلد و كلّهم ينتفعون بالحدّاد ، وصار الحجّام ينتفع بالحرّاث و الحرّاث بالحجّام و ينتفع كلّ واحد بكلّ واحد بسبب ترتّبهم و اجتماعهم و انضباطهم تحت ترتيب السلطان و جمعه كما يتعاون أعضاء البدن و ينتفع بعضها ببعض ، وانظر كيف بعث الأنبياء حتّى أصلحوا السلاطين المصلحين للرّعايا وعرّفوهم قوانين الشرع في حفظ العدل بين الخلق و قوانين السياسة في ضبطهم و كشفوا من أحكام الامامة و السلطنة و أحكام الفقه ما اهتدوا به إلى إصلاح الدّنيا فضلاً عمّا أرشدوهم إليه من إصلاح الدّين وانظر كيف أصلح الله الأنبياء بالملائكة ، و كيف أصلح الملائكة بعضهم ببعض إلى أن تنتهي إلى الملك المقرّب الّذي لا واسطة بينه و بين الله ، فالخبّاز يخبز العجين ، و الطحّان يطحن الحبّ ، و الحرّاث يصلحه بالحصاد ، والحدّاد يصلح آلات الحراثة ، و النجّار يصلح آلات الحدّاد ، و كذا جميع أرباب الصناعات المصلحين لآلات الأطعمة والسلاطين يصلحون الصنّاع ، والعلماء يصلحون السلاطين ، والأنبياء يصلحون العلماء الّذين هم ورثتهم ، والملائكة يصلحون الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الرّبوبيّة الّتي هي ينبوع كلّ نظام و مطلع كلّ حسن و جمال و منشأ كلّ ترتيب وتأليف و كلّ ذلك نعم من ربّ الأرباب و مسبّب الأسباب ولولا فضله و كرمه إذ قال تعالى : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم

سبلنا »[١] لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة اليسيرة من نعم الله تعالى ، ولولا عزله إيّانا عن أن نطمح بعين الطمع إلى الإحاطة بكنه نعمه لتشوّفنا إلى طلب الإحاطة و الاستقصاء و لكنّه عزلنا بحكم القهر و القدرة فقال : « و إن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها »[٢] فإن تكلّمنا فبإذنه انبسطنا و إن سكتنا فبقهرة انقبضنا إذ لا معطي لمّا منع ، و لا مانع لما أعطى ، لأنّا في كلّ لحظة من لحظات العمر قبل الموت نسمع بسمع القلوب نداء الملك الجبّار « لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار » فالحمد لله الّذي ميّزنا عن الكفّار و أسمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة : ليس يخفيّ عليك ما سبق من نعمة الله في الملائكة بإصلاح الأنبياء و هدايتهم وتبليغ الوحي إليهم و لا تظننّ أنّهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر ، بل طبقات الملائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: الملائكة الأرضيّة ، والسماويّة ، وحملة العرش ، فانظر كيف وكّلهم الله تعالى بك فيما يرجع إلى الأكل والغذاء الّذي ذكرناه دون ما يجاوز ذلك من الهداية و الإرشاد و غيرهما ، واعلم أنّ كلّ جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يغتذي إلّا بأن يوكّل به سبعة من الملائكة هم أقلّ الأعداد إلى عشرة إلى مائة إلى ما وراء ذلك ، و بيانه أنّ معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء قد تلف و ذلك الغذاء يصير دماً في آخر الأمر ثمّ يصير لحماً وعظماً و إذا صار عظماً تمّ اغتذاؤك ، و الدّم واللّحم أجسام ليس لها قدرة و معرفة و اختيار ، فهي لا تتحرّك بأنفسها ولا تتغيّر بأنفسها ومجرّد الطبع لا يكفي في تردّدها في أطوارها كما أنّ البرّ بنفسه لا يصير طحيناً ثمّ عجيناً ثمّ خبزاً مستديراً مطبوخاً إلّا بصنّاع ، فكذلك الدّم بنفسه لا يصير لحماً وعظماً و عرقاً وعصباً إلّا بصنّاع والصنّاع في الباطن هم الملائكة كما أنّ الصنّاع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله عليكم نعمه ظاهرة و باطنة ، فلا ينبغي أن يغفل عن نعمه الباطنة .

فأقول : لابدّ من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللّحم و العظم فإنّ الغذاء

---

(١) العنكبوت : ٦٩ .　　(٢) ابراهيم : ٣٤ .

لا يتحرّك بنفسه ، ولابدّ من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، و لا بدّ من ثالث يخلع عنه صورة الدّم ، و لابدّ من رابع يكسوه صورة اللّحم والعظم والعرق ، ولابدّ من خامس يدفع الفضل الفاضل من حاجة الغذاء ، ولابدّ من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللّحم باللّحم حتّى لايكون منفصلاً ، ولابدّ من سابع يرعى المقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير ما لا يبطل استدارته وبالعريض ما لايزيل عرضه و بالمجوّف ما لا يبطل تجويفه و يحفظ على كلّ واحد قدر حاجته ، فإنّه لو جمع مثلاً من الغذاء على أنف الصبيّ ما يجمع على فخذه لكبر أنفه وبطل تجويفه وتشوّهت صورته ، بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقّتها ، وإلى الحدقة مع صفائها ، وإلى الأفخاذ مع غلظها ، وإلى العظم مع صلابته ما يليق بكلّ واحد منها من حيث القدر و الشكل و إلّا بطلت الصورة ، وربا بعض المواضع وضعف البعض ، بل لولم يراع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيط فساق إلى رأس الصبيّ و سائر بدنه من الغذاء ما ينمو به إلّا أنّه لم يسق إلى إحدى الرّجلين مثلاً لبقيت تلك الرّجل كما كانت في حدّ الصغر و كبر جميع البدن فكنت ترى شخصاً في ضخامة رجل و له رجل واحدة كأنّها رجل صبيّ فلا ينتفع بنفسه البتة ، فمراعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوّضة إلى ملك من الملائكة ، ولا تظننّ أنّ الدّم بطبعه يهندس شكل نفسه فإنّ محيل هذه الاُمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الأرضيّة وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردّد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولاخبر لك منهم ، و كذلك في كلّ جزء من أجزائك الّتي لا تتجزّى حتّى يفتقر بعض الأجزاء كالعين و القلب إلى أكثر من مائة ملك ، تركنا تفصيل ذلك للإيجاز و الملائكة الأرضيّة مددهم من الملائكة السماويّة على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلّا الله تعالى و مدد الملائكة السماويّة من حملة العرش والمنعم على جميعهم بالتأييد و الهداية و التسديد المهيمن القدّوس المتفرّد بالملك والملكوت والعزّة والجبروت ، الحيّ الّذي لا يموت جبّار السماوات والأرض مالك الملك ذو الجلال والاكرام ، والأخبار الواردة في الملائكة

الموكّلين بالسماوات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتّى على كلّ قطرة من المطر وكلّ سحاب ينجرّ من جانب إلى جانب أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد بها.

فإن قلت: فهلاّ فوّضت هذه الأفعال إلى ملك واحد ولم افتقر إلى سبعة أملاك والحنطة أيضاً تحتاج إلى من يطحن أوّلاً ثمّ إلى من يميّز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانياً، ثمّ إلى من يصبّ الماء عليه ثالثاً، ثمّ إلى من يعجن رابعاً، ثمّ إلى من يقطعها كرات مدوّرة خامساً، ثمّ إلى من يرقّها رغفاناً عريضة سادساً، ثمّ إلى من يلصقها بالتنّور سابعاً، ولكن قد يتولّى جميع ذلك رجل واحد يستقلّ به مرّة بعد اُخرى فهلاّ كانت أعمال الملائكة باطناً كأعمال الإنس ظاهراً فاعلم أنّ خلقة الملائكة تخالف خلقة الإنس وما من واحد منهم إلاّ وهو وحدانيّ الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكلّ واحد منهم إلاّ فعل واحد وإليه الإشارة بقوله تعالى: «وما منّا إلّا له مقام معلوم»[1] فلذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل، بل مثالهم في تعيّن مرتبة كلّ واحد وفعله عليه مثال الحواسّ الخمس فإنّ البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات، ولا الشمّ يزاحمها ولاهما يزاحمان الشمّ وليس كاليد والرّجل، فإنّك قد تبطش بأصابع الرّجل بطشاً ضعيفاً فتزاحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك فتزاحم اليد الّتي هي آلة الضرب ولا كالإنسان الواحد الّذي يتولّى بنفسه الطحن والعجن والخبز فإنّ هذا نوع من الإعوجاج والعدول عن العدل سببه اختلاف صفات الإنسان واختلاف دواعيه، فإنّه ليس وحدانيّ الصفة فلم يكن وحدانيّ الفعل ولذلك ترى الإنسان يطيع الله مرّة ويعصيه اُخرى لاختلاف دواعيه وصفاته، وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمعصية في حقّهم فلاجرم «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. ويسبّحون اللّيل والنهار لا يفترون» والرّاكع منهم راكع أبداً والساجد منهم ساجد أبداً والقائم قائم أبداً لا اختلاف في أفعالهم ولا فتور ولكلّ واحد مقام معلوم لايتعدّاه

(١) الصافات: ١٦٤

و طاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك فإنّك مهما جزمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردّد و اختلاف في طاعتك مرّة و معصيتك اُخرى بل كأنّه منتظر لأمرك و نهيك ينفتح وينطبق متّصلاً بإشارتك فهذا يشبه به من وجه ولكن يخالفه من وجه إذ الجفن لاعلم له بما يصدر منه من الحركات فتحاً و انطباقاً ، و الملائكة أحياء عالمون بما يفعلون ، فإذن هذه هي نعمة الله عليك في الملائكة الأرضيّة والسماويّة وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ما عداها من الحركات و الحاجات كلّها فإنّا لم نطوّل بذكرها ، فهذه طبقة اُخرى من طبقات النعم و مجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها ، فكيف آحادها يدخل تحت مجامع الطبقات ؟ فإذن قد أسبغ الله عليك نعمه ظاهرة و باطنة ثمّ قال : «و ذروا ظاهر الإثم و باطنه» (١) فترك باطن الإثم ممّا لا يعرفه الخلق من الحسد و سوء الظنّ و البدعة و إضمار الشرّ للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة ، بل أقول : كلّ من عصى الله ولو في طرفة واحدة بأن فتح جفنه مثلاً حيث يجب غضّ البصر فقد كفر نعمة الله تعالى عليه في السماوات و الأرض وما بينهما ، فإنّ كلّ ما خلقه الله حتّى الملائكة و السماوات و الأرض و الحيوان والنبات بجملته نعمة على كلّ واحد من العباد قد تمّ به انتفاعه وإن انتفع به غيره أيضاً فإنّ لله تعالى في كلّ تطريفة بالجفن نعمتين في نفس الجفن إذ خلق تحت كلّ جفن عضلات ولها أوتار و رباطات متّصله بأعصاب الدّماغ بها يتمّ انخفاض الجفن الأعلى و ارتفاع الجفن الأسفل وعلى كلّ جفن شعرات سود ونعمة الله في سوادها أنّها تجمع ضوء العين إذ البياض يفرّق الضوء والسواد يجمعه ونعمة الله في ترتيبها صفّاً واحداً أن يكون مانعاً للهوامّ من الدّبيب إلى باطن العين و متشبّثاً للأقذاء الّتي تتناثر في الهواء وله في كلّ شعرة منها نعمتان من حيث لين أصلها و مع اللّين تقويم نصبها وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكلّ ، و هو أنّ غبار الهواء قد يمنع من

(١) الانعام : ١٢٠

فتح العين فلو أطبق لم يبصر بها فيجمع الأجفان مقدار ما تتشابك الأهداب فينظر من وراء شباك فيكون شباك الشعر مانعاً من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ، ثمّ إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق أطراف الأجفان حادّة منطبقة على الحدقة كالمصقلة للمرآة فيطبقها مرّة أو مرّتين و قد انصقلت الحدقة من الغبار وخرجت الأقذاء إلى زوايا العين والأجفان ، والذّباب لمّا لم يكن لحدقته جفن خلق له يدان فتراه على الدّوام يمسح بهما حدقتيه ليصقلهما من الغبار ، و إذ تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لافتقاره إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب فلعلّنا نستأنف له كتاباً مقصوداً فيه إن أمهل الزّمان وساعد التوفيق نسمّيه عجائب صنع الله تعالى .

فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر بغير ذات محرم قد كفر بفتح العين بمعصيته نعمة الله تعالى في الأجفان و لايقوم الأجفان إلّا بعين ، ولا العين إلّا برأس ولا الرّأس إلّا بجميع البدن ولا البدن إلّا بالغذاء ، و لا الغذاء إلّا بالماء و الأرض والهواء و المطر و الغيم و الشمس و القمر ، و لا يقوم شيء من ذلك إلّا بالسماوات ولاالسماوات إلّا بالملائكة ، فإنّ الكلّ كالشيء الواحد يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض ، فإذن قد كفر كلّ نعمة الله في الوجود من منتهى الثريّا إلى منتهى الثرى ، فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان و لانبات ولا جماد إلّا و يلعنه ولذلك ورد في الأخبار « أنّ البقعة الّتي يجتمع فيها الناس ، إمّا أن تلعنهم إذا تفرّقوا أو تستغفر لهم »(١) وكذلك ورد أنّ العالم يستغفر له كلّ شيء حتّى الحوت في البحر »(٢) و« أنّ الملائكة يلعنون العصاة »(٣) في ألفاظ كثيرة لايمكن إحصاؤها و كلّ ذلك إشارة إلى أنّ العاصي بتطريفة واحدة جنى على جميع ما في

---

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٢) تقدم فى المجلد الاول كتاب العلم .

(٣) روى مسلم من حديث أبى هريرة « الملائكة تلعن أحدكم اذا أشار الى أخيه بحديدة وان كان أخاه لابيه و امه » .

الملك و الملكوت و قد أهلك نفسه إلّا أن يتبع السيّئة بحسنة تمحوها فيتبدّل اللّعن بالاستغفار فعسى الله أن يتوب عليه و يتجاوز عنه. وأوحى الله إلى أيّوب عليه السلام: ما عبد لي من الآدميّين إلّا ومعه ملكان فإذا شكرني على نعمائي قال الملكان: اللّهمّ زده نعماً على نعم فإنّك أهل الحمد و الشكر فكن من الشاكرين قريباً، فكفى بالشاكرين علوّ رتبة عندي أنّي أشكر شكرهم و ملائكتي يدعون لهم و البقاع تحبّهم و الآثار تبكي عليهم. وكما عرفت أنّ في كلّ طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أنّ في كلّ نفس ينبسط و ينقبض نعمتين إذ بانبساطه يخرج الدّخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك، وبانقباضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدّ متنفّسه لانقطع قلبه بانقطاع روح الهواء و برودته عنه و هلك، بل اليوم و اللّيلة أربع وعشرون ساعة وفي كلّ ساعة قريب من ألف نفَس و كلّ نَفَس قريب من عشر لحظات فعليك في كلّ لحظة آلاف ألف نعمة في كلّ جزء من أجزاء بدنك بل في كلّ جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصوّر إحصاء ذلك أم لا؟ و لمّا انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى: «وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها» قال: إلهي كيف أشكرك ولك في كلّ شعرة من جسدي نعمتان أن ليّنت أصلها وأن طميت رأسها[1]، ولذلك ورد في الأثر: من لم يعرف نعمة الله عزّ وجلّ إلّا في مطعمه و مشربه فقد قلّ علمه وحضر عذابه. و جميع ما ذكرناه يرجع إلى المطعم و المشرب فاعتبر ماسواه من النعم به فإنّ البصير لا يقع عينه في العالم على شيء و لا يلمّ خاطره بموجود إلّا و يتحقّق أنّ لله تعالى فيه نعمة عليه فلنترك الاستقصاء والتفصيل فإنّه طمع في غير مطمع.

(بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر)

إعلم أنّه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلّا الجهل و الغفلة فإنّهم صرفوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم ولا يتصوّر شكر النعمة إلّا بعد معرفتها ثمّ إنّهم إن عرفوا نعمة ظنّوا أنّ الشكر عليها أن يقولوا بلسانهم الحمد لله الشكر لله ولم يعرفوا

(١) طمى النبت: طال و ارتفع.

أنّ معنى الشكر أن يستعمل النعمة في إتمام الحكمة الّتي أُريدت بها وهي طاعةالله تعالى فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المعرفتين إلّا غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، أمّا الغفلة عن النعم فلها أسباب ، وأحدأسبابهاأنّ الناس بجهلهم لايعدّون ما يعمّ الخلق و يسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فلذلك لا يشكرون على جملة ما ذكرناه من النعم لأنّها عامّة للخلق مبذولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كلّ واحد لنفسه اختصاصاً به فلا يعدّه نعمة فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء و لو أخذ بمختنقهم لحظة حتّى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولوحبسوا في بيت حمّام فيه هواء حارّ أو في بئر فيه هواء ثقل برطوبة الماء ماتوا غمّاً ، فإن ابتلي واحد منهم بشيء من ذلك ثمّ نجا منه ربما قدّر ذلك نعمة وشكر الله عليه وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة ثمّ تردّ عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر من النعمة في بعضها ، فلا ترى البصير يشكر صحّة بصره إلى أن تعمى عينه فعند ذلك لو اُعيد عليه أحسّ به وشكره و عدّه نعمة ، ولمّا كانت رحمةالله واسعة عمّ الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فلم يعدّه الجاهلون نعمة ، و هذا الجاهل مثل العبد السوء حقّه أن يضرب دائماً حتّى إذا ترك ضربه ساعة تقلّد ذلك منّة ، فإن ترك ضربه على الدّوام غلب عليه البطر و ترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلّا المال الّذي يتطرّق الاختصاص إليه من حيث الكثرة و القلّة ، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم .

كما حكي أنّ بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر شدّة اغتمامه به فقال له : أيسرّك أنّك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا ، فقال : أيسرّك أنّك أخرس ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، فقال : أيسرّك أن تكون أقطع اليدين والرّجلين ولك عشرون ألفاً ؟ قال : لا ، قال : أيسرّك أن تكون مجنوناً ولك عشرة آلاف ؟ قال : لا ، فقال : أما تستحيي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً .

و حكي أنّ بعض القرّاء اشتدّ به الفقر حتّى ضاق به ذرعاً فرأى في المنام كأنّ قائلاً يقول له : تودّ أنّا أنسيناك سورة الأنعام و أنّ لك ألف دينار ؟ قال :

لا ، قال : فسورة هود ؟ قال : لا ، قال : فسورة يوسف ؟ قال : لا ، فعدَّ عليه سوراً ، ثمّ قال : فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو فأصبح وقد سُري عنه .

و دخل ابن السماك على بعض الخلفاء وفي يده كوز ماء يشربه فقال له : عظني ، فقال: لولم تعطه هذه الشربة إلّا ببذل جميع أموالك و إلّا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه ؟ قال : نعم ، فقال : ولولم تعط إلّا بملكك كلّه فهل كنت تتركه ؟ قال : نعم ، قال : فلا تفرح بملك لا يسوي شربة ماء ؛ فبهذا تبيّن أنّ نعمة الله على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلّها ، و إذ كانت الطباع مائلة إلى اعتداد النعمة الخاصّة نعمة دون العامّة و قد ذكرنا النعم العامّة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم الخاصّة .

فنقول : ما من عبد إلّا ولو أمعن النظر في أحواله لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصّه لا يشاركه فيها الناس كافّة بل يشاركه عدد يسير من الناس و ربّما لا يشاركه فيها أحدٌ و ذلك يعترف به كلّ عبد في ثلاثة اُمور : في العقل و الخلق و العلم ، أمّا العقل فما من عبد لله تعالى إلّا و هو راض عن الله في عقله يعتقد أنّه أعقل الناس ، وقلّما يسأل الله العقل و إنّ من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به المتّصف به فإذا كان اعتقاده أنّه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنّه إن كان كذلك فالشكر واجب و إن لم يكن ولكنّه يعتقد أنّه كذلك فهو نعمة في حقّه فمن وضع كنزاً تحت الأرض فهو يفرح به ويشكر عليه فإن اُخذ الكنز من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده ويبقى شكره لأنّه في حقّه كالباقي ، و أمّا الخُلق فما من عبد إلّا ويرى من غيره عيوباً يكرهها و أخلاقاً يذمّها ، و إنّما يذمّها من حيث إنّه يرى نفسه بريئاً عنها و إلّا لم يشتغل بذمّ الغير فينبغي أن يشتغل بشكر الله إذا حسن خلقه و ابتلي غيره بالخلق السيىء ، و أمّا العلم فما من أحد إلّا ويعرف من بواطن اُمور نفسه وخفايا أفكاره ما هو منفردٌ به ولو كشف الغطاء حتّى اطّلع عليه أحدٌ من الخلق لا فتضح فكيف لو اطّلع الناس كافّة فإذاً لكلّ عبد علم بأمر خاصّ لا يشاركه فيه أحدٌ من عباد الله فلم لا يشكر ستر الله الجميل الّذي

أرسله على وجه مساويه ، فأظهر الجميل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الخلق و خصّص علمه به حتّى لا يطّلع عليها أحدٌ فهذه ثلاثة من النعم خاصّة يعترف بها كلُّ عبد إمّا مطلقاً و إمّا في بعض الاُمور ، فلننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة اُخرى أعمّ منها قليلاً ، فنقول : ما من عبد إلّا وقد رزقه الله في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزّه أو جاهه أو في سائر محابّه اُموراً لو سلب ذلك منه و اُعطي ما خصّص به غيره لكان لا يرضى به و ذلك مثل أن جعل مؤمناً لا كافراً ، و حيّاً لا جماداً ، و إنساناً لا بهيمة ، و ذكراً لا اُنثى ، و صحيحاً لا مريضاً ، وسليماً لا معيباً ، فإنَّ هذه كلّها خصائص و إن كان فيها عموم أيضاً فإنَّ هذه الأحوال لو بدّلت بأضدادها لم يرض به ، بل له اُمور لا يبدلها بأحوال الآدميّين أيضاً و ذلك إمّا أن يكون بحيث لا يبدله بما خصَّ به أحدٌ من الخلق أو لا يبدله بما خصَّ به الأكثر فإذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فإذن حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضي لنفسه حالة بدلاً عن حال نفسه إمّا على الجملة وإمّا في أمر خاصّ فإذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواه وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده فإنّه لا محالة يراهم أقلّ بالإضافة إلى غيرهم فيكون مَن دونه في الحال أكثر بكثير ممّن هو فوقه فما باله ينظر إلى من هو فوقه ليزدري نعم الله على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله تعالى عليه وما باله لا يسوي دنياه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيّئة يقارفها يعتذر إليها بأنَّ في الفسّاق كثرة فينظر أبداً في الدّين إلى مَن دونه لا إلى مَن فوقه فلم لا يكون نظره في الدّنيا كذلك فإذا كان حال أكثر الخلق في الدّين خيراً منه و حاله في الدّنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر .

ولهذا قال عليه السلام : «من نظر في الدّنيا إلى من هو دونه و نظر في الدّين إلى من هو فوقه كتبه الله صابراً شاكراً ، ومن نظر في الدّنيا إلى من هو فوقه وفي الدّين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابراً و لا شاكراً »(١) فإذن كلُّ من اعتبر حال نفسه

---

(١) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٣١٧ بسند حسن غريب من حديث عبدالله بن عمرو .

و فتش عمّا خصّ به وجد لله تعالى على نفسه نعماً كثيرة لا سيّما من خصّ بالسنّة و الايمان و العلم و القرآن ثمّ الفراغ و الصحّة و الأمن وغير ذلك ، ولذلك قال عليه السلام : « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » (١) و هذا إشارة إلى نعمة العلم ، و قال عليه السلام : « إنّ القرآن هو الغنى الّذي لا غنى بعده و لا فقر معه » (٢) و قال عليه السلام : « من آتاه الله القرآن فظنّ أنّ أحداً أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله » (٣).

و قال عليه السلام : « ليس منّا من لم يَتغنّ بالقرآن » (٤) و قال : « كفى باليقين غنى » (٥).

وقال بعض السلف : يقول الله تعالى : إنّ عبداً أغنيته من ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتي : عن سلطان يأتيه ، و طبيب يداويه ، و عمّا في يد أخيه ، وعبّر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ماالقوت يأتيك كذا الصحّة والأمن ✩ و أصبحت أخاحزن فلا فارقك الحزن

بل أرشق العبارات و أصحّ الكلمات كلام أفصح من نطق بالضّاد حيث عبّر صلّى الله عليه وآله وسلّم عن هذا المعنى فقال : « من أصبح آمناً في سِرْبه مُعافىً في بدنه ، عنده قوت يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها » (٦) ومهما تأمّلت الناس كلّهم وجدتهم يشكون و يتألّمون من اُمور وراء هذه الثلاث مع أنّها و بالٌ عليهم ولا يشكرون نعمةالله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الايمان الّذي به وصولهم إلى النعيم

(١) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ ، أقول . وفي السنن البيهقي ج ٢ ص ٥٤ و ج ١٠ ص ٢٢٩ و سنن الدارمي ج ٢ ص٤٧١ هكذا « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » قال ابن عيينة « يستغنى » .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده ومحمد بن نصر عن أنس بسند ضعيف كمافي الجامع الصغير

(٣) أخرجه البخاري من حديث رجاء الغنوي بلفظ « من آتاه الله القرآن حفظ كتابه و ظن أن أحداً اوتي أفضل مما اوتي فقد صغر أعظم النعم » و قد تقدم في فضل القرآن .

(٤) تقدم آنفاً عن البيهقي والدارمي .

(٥) أخرجه الطبراني من حديث عقبة بن عامر و رواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفاً . (المغني)

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤١ و قد تقدم .

المقيم و الملك العظيم ، بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلّا بالمعرفة و اليقين و الإيمان ، بل نحن نعلم من العلماء من لو سلّم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى الغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له : خذ هذا عوضاً عن علمك بل عن عشر عشير علمك لم يأخذه وذلك لرجائه أنّ نعمة العلم تفضي به إلى قرب الله سبحانه و تعالى في الآخرة بل لو قيل له : لك في الآخرة ما ترجوه بكماله فخذ هذه اللّذّات في الدّنيا بدلاً عن التذاذك بالعلم في الدّنيا و فرحك به لكان لا يأخذه لعلمه بأنّ لذّة العلم دائمة لا تنقطع ، وثابتة لا تسرق ولا تغصب ولا تنافس فيها و أنّها صافية لا كدورة فيها ، ولذّات الدّنيا كلّها ناقصة مكدّرة مشوّشة لا يفي مرجوّها بمخوفها ولا لذّتها بألمها ولا فرحها بغمّها هكذا رئي إلى الآن ، وهكذا تكون في ما بقي من الزّمان إذ ما خلقت لذّات الدّنيا إلّا لتجلب بها العقول الناقصة وتخدع حتّى إذا انخدعت وتقيّدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميلة ظاهرها تتزيّن للشابّ الشبق الغني حتّى إذا تقيّد بها قلبه استعصت عليه واحتجبت عنه فلا يزال معها في عناء دائم و تعب قائم ، و كلّ ذلك لاغتراره بلذّة النظر إليها في لحظة و لو عقل و غضّ البصر و استهان بتلك اللّذة سلم جميع عمره فهكذا وقوع أرباب الدّنيا في شباك الدنيا و حبائلها فلا ينبغي أن نقول : إنّ المعرض عن الدّنيا متألّم بالصبر عنها فإنّ المقبل أيضاً عليها متألّم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها و دفع اللّصوص عنها و تألّم المعرض يفضي إلى لذّه في الآخرة و تألّم المقبل يفضي إلى الألم في الآخرة فليقرء المعرض عن الدّنيا على نفسه قوله تعالى : « و لا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون»(١) فإذن إنّما انسدّ طريق الشكر على الخلق لجهلهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة و الخاصّة والعامّة .

فإن قلت : فما علاج هذه القلوب الغافلة حتّى تشعر بنعم الله فعساها تشكر ؟ فأقول : أمّا القلوب البصيرة فعلاجها التأمّل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامّة وأمّا القلوب البليدة الّتي لا تعدّ النعمة نعمة إلّا إذا خصّته أو أشعر بالبلاء معها

---

(١) النساء : ١٠٥ .

فسبيله أن ينظر أبداً إلى من دونه و يفعل ما كان يفعله بعض الصوفيّة إذ كان يحضر كلّ يوم دار المرضى والمقابر والمواضع الّتي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثمّ يتأمّل في صحّته و سلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحّة عند شعوره ببلاء الأمراض و يشكر الله تعالى ، يشاهد الجناة الّذين يقتلون و تقطع أطرافهم ويعذّبون بأنواع العذاب ليشكر الله على عصمته من الجنايات ومن تلك العقوبات و يشكر الله على نعمة الأمن ، ويحضر المقابر فيعلم أنّ أحبّ الأشياء إلى الموتى أن يردّوا إلى الدّنيا ولو يوماً واحداً أمّا من عصى الله فليتدارك و أمّا من أطاع فليزد في طاعته فإنّ يوم القيامة يوم التغابن فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول : كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات فما أعظم غبني إذ ضيّعت بعض الأوقات في المباحات ، وأمّا العاصي فغبنه ظاهر فإذا شاهد المقابر و علم أنّ أحبّ الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقيّة العمر إلى ما يشتهي أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك معرفة لنعم الله في بقيّة العمر بل في الإمهال في كلّ نفس من الأنفاس ، وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله و هو التزوّد من الدّنيا للآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة الغليظة لتشعر بنعم الله فعساها تشكر ، و لقد كان ربيع بن خثيم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيداً للمعرفة فكان قد حفر في داره قبراً فكان يضع غلاً على عنقه وينام في لحده ثمّ يقول : ربّ ارجعون لعلّي أعمل صالحاً ثمّ يقوم ويقول : يا ربيع قد اُعطيت ما سألت فاعمل قبل أن تسأل الرّجوع فلا تردّ ، و ممّا ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أنّ النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ، ولذلك كان الفضيل يقول : عليكم بمداومة الشكر على النعم فقلّ نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم . و قال بعض السلف : النعم وحشية فقيّدوها بالشكر . وفي الخبر « ما عظمت نعمة الله على عبد إلّا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن تهاون بهم عرض تلك النعمة للزوال » [1] وقال الله سبحانه : « إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما

---

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل و ابن حبان فى الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ ←

بأنفسهم » (١) فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث : من كتاب الصبر و الشكر فيما يشترك فيه الصبر و الشكر ويرتبط أحدهما بالآخر .

(بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد)

لعلّك تقول : ما ذكرته من النعم إشارة إلى أنّ لله تعالى في كلّ موجود نعمة و هذا يشير إلى أنّ البلاء لا وجود له أصلاً فما معنى الصبر إذن و إن كان البلاء موجوداً فما معنى الشكر على البلاء ؟ وقد ادّعى مدّعون أنّا نشكر على البلاء فضلاً عن الشكر على النعمة فكيف يتصوّر الشكر على البلاء ؟ و كيف يشكر على ما نصبر عليه و الصبر على البلاء يستدعي ألماً والشكر يستدعي فرحاً وهما متضادّان ؟ وما معنى ما ذكرتموه من أنّ لله تعالى في كلّ ما أوجده نعمة على عباده ؟ فاعلم أنّ البلاء موجود كما أنّ النعمة موجودة والقول باثبات النعمة يوجب القول باثبات البلاء لأنّهما متضادّان ففقد البلاء نعمة و فقد النعمة بلاء و قد سبق أنّ النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كلّ وجه إمّا في الآخرة فكسعادة العبد بالنزول في جوار الله تعالى وإمّا في الدّنيا فكالايمان و حسن الخلق وما يعين عليهما ، و إلى نعمة مقيّدة من وجه دون وجه كالمال الّذي يصلح الدّين من وجه ويفسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيّد ، أمّا المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى إمّا مدّة و إمّا أبداً و أمّا في الدّنيا فالكفر و المعصية و سوء الخلق و هي الّتي تفضي إلى البلاء المطلق ، و أمّا المقيّد فكالفقر و المرض و الخوف و سائر أنواع البلاء الّتي لا يكون بلاء في الدّين بل في الدّنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة ، وأمّا البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأنّ الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه و كذا المعصية ، بل حقّ الكافر أن يترك كفره و كذا حقّ العاصي ، نعم الكافر قد لا يعرف أنّه كافر فيكون

← « الا عظمت مؤونة الناس عليه فمن لا يحتمل تلك المؤونة - الحديث - » وهكذا أخرجه البيهقي في الشعب عن عائشة عن معاذ كما في الجامع الصغير والمغني .

(١) الرعد : ١١ .

كمن به علّة و هو لا يتألّم بها بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه و العاصي يعرف أنّه عاص فعليه ترك المعصية بل كلّ بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتّى عظم تألّمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم و إنّما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته، فإذن يرجع الصبر في الدّنيا إلى ماليس ببلاء مطلق، بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فلذلك يتصوّر أن يجتمع عليه وظيفة الصبر و الشكر فإنّ الغنى مثلا يجوز أن يصير سبباً لهلاك الإنسان حتّى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده، والصحّة أيضاً كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدّنياويّة إلّا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه، و كذلك مامن بلاء إلّا و يجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فربّ عبد يكون الخيرة له في الفقر والمرض، ولو صحّ بدنه و كثر ماله لبطر وطغى وبغى، قال الله تعالى: «ولو بسط الله الرّزق لعباده لبغوا في الأرض»(١) و قال تعالى: «إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»(٢) وقال صلّى الله عليه وآله: «إنّ الله ليحمي عبده المؤمن الدّنيا وهو يحبّه كما يحمي أحدكم مريضه»(٣) و كذلك الزّوجة والولد والقريب و كلّ ما ذكرناه في الأقسام الستّة عشر من النعم سوى الإيمان و حسن الخلق فإنّها يتصوّر أن يكون بلاء في حقّ بعض الناس فيكون أضدادها إذن نعماً في حقّهم إذ قد سبق أنّ المعرفة كمال ونعمة فإنّها صفة من صفات الله تعالى، ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء و يكون فقدها نعمة، مثاله جهل الإنسان بأجله فإنّه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنغّص عليه العيش و طال بذلك غمّه، و كذلك جهله بما يضمره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو رفع الستر و اطّلع عليه لطال ألمه و حقده و حسده واشتغاله بالانتقام، و كذلك جهله بالصفات المذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالاً عليه في الدّنيا و الآخرة، بل جهله بالخصال المحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه، فإنّه ربّما يكون وليّاً لله و هو

---

(١) الشورى: ٢٧. (٢) العلق: ٦ و٧.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم ج ٤ ص ٣٠٩ نحوه وصححه وقد تقدم.

يضطرّ إلى إيذائه وإهانته ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه أعظم لامحالة فليس من آذى نبيّاً أو وليّاً وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف ، ومنها إبهام الله أمر القيامة وإبهامه ليلة القدر و ساعة يوم الجمعة و إبهامه بعض الكبائر فكلّ ذلك نعمة لأنّ هذا الجهل يوفّر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا : إنّ لله في كلّ موجود نعمة فهو حقّ ، وذلك مطّرد في حقّ كلّ أحد ولا يستثنى عنه بالظنّ إلّا الآلام الّتي يخلقها في بعض الناس وهي أيضاً قد تكون نعمة في حقّ غير المتألّم بها و إن لم تكن نعمة في حقّه كالألم الحاصل من المعصية كقطعه يد نفسه و وشمه بشرته فإنّه يتألّم به و هو عاص به ، و ألم الكفّار في النّار فهي أيضاً نعمة ولكن في حقّ غيرهم من العباد لا في حقّهم لأنّ مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أنّ الله خلق العذاب و عذّب به طائفة لما عرف المتنعّمون قدر نعمه و لأكثر فرحهم بها ففرح أهل الجنّة إنّما يتضاعف إذا تفكّروا في آلام أهل النار ، أما ترى أهل الدّنيا ليس يشتدّ فرحهم بنور الشمس مع شدّة حاجتهم إليها من حيث إنّها عامّة مبذولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء و هي أحسن من كلّ بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمّت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها ، فإذن قد صحّ ما ذكرناه من أنّ الله تعالى لم يخلق شيئاً إلّا وفيه حكمة ولا خلق شيئاً إلّا وفيه نعمة ، إمّا على جميع عباده أو على بعضهم ، فإذن في خلق الله البلاء أيضاً نعمة إمّا على المبتلى و إمّا على غير المبتلى ، فإذن كلّ حالة لا يوصف بأنّها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر و الشكر جميعاً ، فإن قلت : فهما متضادّان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلّا على غمّ ولا شكر إلّا على فرح ؟ فاعلم أنّ الشيء الواحد قد يغتمّ به من وجه ويفرح به من وجه آخر ، فيكون الصبر من حيث الاغتمام و الشكر من حيث الفرح ، وفي كلّ فقر و مرض و خوف وبلاء في الدّنيا خمسة أُمور ينبغي أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها : أحدها أنّ كلّ مصيبة و مرض فيتصوّر أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهي فلو ضعّفها الله و زادها ما ذا كان يردّه و يحجزه فليشكر إذ لم

يكن أعظم منها في الدّنيا . الثاني أنّه كان يمكن أن يكون مصيبته في دينه ، قال رجلٌ لسهل : دخل اللّص بيتي وأخذ متاعي فقال : اُشكر الله لو دخل الشيطان قلبك وأفسد التوحيد ما ذا كنت تصنع ؟ . ولذلك استعاذ عيسى على نبيّنا وعليه السلام في دعائه إذ قال : « اللّهمّ لا تجعل مصيبتي في ديني » وقال بعض الصحابة : ما ابتليت ببلاء إلّا كان لله تعالى عليّ فيه أربع نعم إذ لم يكن في ديني و إذ لم يكن أعظم منه و إذ لم أحرم الرّضا به و إذ أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل إليه فقال له : اشكر الله ، فضربه فقال : اشكر الله فجيء بمحبوس مجوسيّ مبطون و قيّد وجعل حلقة من قيده على رجله وحلقة على رجل المجوسيّ فأرسل إليه فقال : اشكر الله ، فكان يحتاج المجوسيّ أن يقوم مرّات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتّى يقضي حاجته فكتب إليه بذلك فقال : اشكر الله تعالى ، فقال : إلى متى هذا وأيّ بلاء أعظم من هذا ؟ فقال : لو جعل الزّنّار الّذي في وسطه على وسطك ما ذا كنت تصنع ؟ فإذن ما من إنسان قد اصيب ببلاء إلّا و لو تأمّل حقّ التأمّل في سويدائه[1] ظاهراً وباطناً في حقّ مولاه لكان يرى أنّه يستحقّ أكثر ممّا اُصيب به عاجلاً وآجلاً ، ومن استحقّ عليك أن يضربك مائة سوط فاقتصر على عشرة فهو مستحقّ للشكر ومن استحقّ أن يقطع يديك فترك إحديهما فهو مستحقّ للشكر ، و لذلك مرّ بعض الشيوخ في شارع فصبّ على رأسه طست من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر ، فقيل له : ما هذه السجدة ؟ فقال : كنت أنتظر أن يصبّ عليّ النار فالاقتصار على الرّماد نعمة . و قيل لبعضهم : ألا تخرج للاستسقاء فقد احتبست الأمطار فقال : أنتم تستبطئون المطر و أنا أستبطيء الحجر .

فإن قلت : كيف أفرح و أرى جماعة ممّن زادت معصيتهم على معصيتي و لم يصابوا بما أصبت به حتّى الكفّار ؟ فاعلم أنّ الكافر قد خبيء له ما هو أكثر و إنّما أمهل حتّى يستكثر من الإثم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى : « إنّما نملي لهم ليزدادوا إثما »[2] وأمّا العاصي فمن أين يعلم أنّ في العالم من هو أعصى منك ،

---

(١) في الاحياء « سوء ادبه » . (٢) آل عمران : ١٧٨ .

و ربّ خاطر بسوء أدب في حقّ الله تعالى و في صفاته أعظم و أطمّ من شرب الخمر والزّنا وسائر المعاصي بالجوارح ، ولذلك قال تعالى في مثله « تحسبونه هيّناً وهو عند الله عظيم »[١] فمن أين تعلم أنّ غيرك أعصى منك ثمّ لعلّه قد أخّرت عقوبته إلى الآخرة و عجّلت عقوبتك في الدّنيا فلم لا تشكر الله على ذلك ؟ و هذا هو الوجه الثالث في الشكر و هو أنّه ما من عقوبة إلّا و كان يتصوّر أن تؤخّر إلى الآخرة ومصائب الدّنيا يتسلّى عنها بأسباب اُخر تهون المصيبة فيخفّ وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلّي إذ أسباب التسلّي مقطوعة بالكلّيّة في الآخرة عن المعذّبين و من عجّلت عقوبته في الدّنيا فلا يعاقب ثانياً إذ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ العبد إذا أذنب ذنباً فأصابته شدّة أو بلاء في الدّنيا فالله أكرم من أن يعذّبه ثانياً »[٢].

أقول : وهذا المعنى مرويّ من طريق الخاصّة أيضاً بغير واحد من الاسناد[٣].

قال : الرابع أنّ هذه المصيبة والبليّة كانت مكتوبة عليه في اُمّ الكتاب و كان لابدّ من وصولها إليه و قد وصلت و وقع الفراغ و استراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة . الخامس أنّ ثوابها أكثر منها فانّ مصائب الدّنيا طرق إلى الآخرة من وجهين . أحدهما الوجه الّذي به يكون الدّواء الكريه نعمة في حقّ المريض و يكون المنع من أسباب اللّعب نعمة في حقّ الصبيّ فإنّه لو خلّي واللّعب كان يمنعه ذلك عن العلم و الأدب فكان يخزن جميع عمره ، فكذلك المال و الأهل و الأقارب و الأعضاء حتّى العين الّتي هي أعزّ الأشياء قد تكون سبباً لهلاك الإنسان في بعض الأحوال بل العقل الّذي هو أعزّ الاُمور قد يكون سبباً لهلاكه فالملاحدة غداً يتمنّون لو كانوا مجانين و صبياناً و لم يتصرّفوا بعقولهم في دين الله ، فمامن

(١) النور : ١٥ .
(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٦٠٤ من حديث علي عليه السلام هكذا « من أصاب في الدنيا ذنباً فعوقب به فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده ، و من أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه » .
(٣) راجع الكافي ج ٢ ص ٤٤٤ باب تعجيل عقوبة الذنب .

شيء من هذه الأسباب يوجد من العبد إلّا ويتصوّر أن يكون له فيه خيرة دينيّة فعليه أن يحسن الظنّ بالله ويقدّر فيه الخيرة ويشكره عليه ، فإنّ حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد و غداً يشكره العباد على البلايا إذا رأوا ثواب الله على البلايا كما يشكر الصبيّ بعد العقل والبلوغ اُستاده وأباه على ضربه و تأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب ، والبلاء تأديب من الله تعالى و عنايته بعباده أتمّ وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روي أنّ رجلاً قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أوصني فقال : « لا تتّهم الله في شيء قضاه عليك » (١) ونظر صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى السماء فضحك فسئل فقال : « عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسرّاء رضي وكان خيراً له و إن قضى له بالضرّاء رضي وكان خيراً له » (٢) .

والوجه الثاني: رأس الخطايا المهلكة حبّ الدّنيا ورأس أسباب النجاة التجافي بالقلب عن دار الغرور ، و مؤاتاة النعم على وفق المراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدّنيا وأسبابها حتّى تصير كالجنّة في حقّه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقته و إذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدّنيا و لم يسكن إليها ولم يأنس بها وصارت الدّنيا سجناً عليه وكان نجاته منها غاية اللّذة كالخلاص من السجن و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر » (٣) والكافر كلّ من أعرض عن الله ولم يرد إلّا الحيوة الدّنيا و رضي بها و اطمأنّ إليها و المؤمن كلّ منقلع بقلبه عن الدّنيا شديد الحنين إلى الخروج منها ، والكفر بعضه ظاهر و بعضه خفيّ ، و بقدر حبّ الدّنيا في القلب سرى فيه الشرك الخفيّ بل الموحّد المطلق هو الّذي لا يحبّ إلّا الواحد الحقّ ، فإذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به ، و أمّا التألّم فهو ضروريّ و ذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى

(١) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٣١٩ من حديث عبادة بن صامت بزيادة فى أوله و فى اسناده عبدالله ابن لهيعة و هو صدوق الا أنه خلط بعد احتراق كتبه .

(٢) أخرجه البغوى ج ٢ ص ١٧٩ من حديث صهيب بسند صحيح .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١١٣ وغيره فى كتاب الزهد .

الحجامة بمن يتولّى حجامتك مجّاناً أو يسقيك دواء نافعاً بشعاً و هو مجّان فإنّك تتألّم وتفرح فتصبر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكلّ بلاء في الأمور الدنيويّة مثاله مثال الدّواء الّذي يؤلم في الحال و ينفع في المآل، بل من دخل دار ملك للنظارة وعلم أنّه يخرج منها لا محالة فرأى وجهاً حسناً لا يقدر على أن يخرج معه من الدّار كان ذلك بلاء عليه لأنّه يورثه الأنس بمنزل لا يمكنه المقام فيه، ولو كان عليه في المقام خطرٌ من أن يطّلع عليه الملك فيعذّبه فأصابه ما يكره حتّى نفره عن المقام كان ذلك نعمة عليه و الدّنيا منزل وقد دخلها النّاس من باب الرّحم وهم خارجون عنها إلى باب اللّحد، فكلّ ما يحقّق اُنسهم بالمنزل فهو بلاء و كلّ ما يزعج قلوبهم عنها ويقطع اُنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصوّر منه أن يشكر على البلاء، ومن لم يعرف هذه النعمة في البلاء لم يتصوّر منه الشكر لأنّ الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة، ومن لا يؤمن بأنّ ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصوّر منه الشكر على المصيبة.

وحكي أنّ أعرابيّاً عزّى ابن عبّاس على أبيه فقال:

اصبر نكن بك صابرين فإنّما ✿ صبر الرّعيّة بعد صبر الرّاس
خيرٌ من العبّاس أجرك بعده ✿ و الله خيرٌ منك للعبّاس

فقال ابن عبّاس: ما عزّاني أحدٌ أحسن من تعزيته و الأخبار الواردة في الصبر على المصائب كثيرة قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من يرد الله به خيراً يصب منه»(١) و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «قال الله تعالى: إذا وجّهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو ماله أو ولده ثمّ استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزاناً أو أنشر له ديواناً»(٢) و قال عليه السلام: «ما من عبد اُصيب بمصيبة فقال كما أمره الله: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» اللّهمّ أجرني في مصيبتي وأعقبني خيراً منها

---

(١) أخرجه البخارى ج ٧ ص ١٤٩ كتاب الطب ح ٥.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذى من حديث أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير باب القاف ج ٢ ص ٨٣.

إلّا فعل الله ذلك به » (١).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من سلبته كريمتيه فجزاؤه الخلود في داري و النظر إلى وجهي » (٢) وروي أنّ رجلاً قال : يا رسول الله ذهب مالي و سقم جسمي فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « لا خير في عبد لا يذهب ماله و لا يسقم جسده إنّ الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه و إذا ابتلاه صبّره » (٣) و قال عليه السلام : « إنّ الرّجل ليكون له الدّرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتّى يبتلى ببلاء في جسمه فيبلغها بذلك » (٤) وعن خباب الأرتّ قال : أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : و هو متوسّد بردائه في ظلّ الكعبة فشكونا إليه فقلنا : يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا فجلس محمارّاً لونه ، ثمّ قال : « إنّ فيمن كان قبلكم ليؤتى بالرّجل فيحفر له في الأرض حفيرة و يجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه » (٥) وعن عليّ عليه السلام قال : « أيّما رجل حبسه السلطان ظلماً فمات فهو شهيد وإن ضربه فمات فهو شهيد » وقال عليه السلام : « من إجلال الله ومعرفة حقّه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك » .

و قال أبو الدّرداء : تولدون للموت و تعمرون للخراب ، وتحرصون على ما يفنى ، وتذرون ما يبقى ، ألا حبّذا المكروهات الثلاث الفقر و المرض والموت .

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (٦): « إذا أراد الله بعبد خيراً و أراد أن يصافيه صبّ عليه البلاء صبّاً وثجّه عليه ثجّاً ، فإذا دعاه قالت الملائكة : صوت معروف و إن

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٣٨ من حديث ام سلمة .

(٢) روى نحوه البخارى و أحمد من حديث أنس و قد تقدم و أيضاً أبو نعيم فى الحلية والطبرانى فى الكبير عن عرباض كلهم بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب المرض و الكفارات من حديث أبى سعيد الخدرى باسناد فيه لين كما فى المغنى .

(٤) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ١٦٢ بأدنى اختلاف فى اللفظ .

(٥) أخرجه أحمد والبخارى و أبوداود والنسائى وقد تقدم .

(٦) قال العراقى : رواه الاصفهانى فى الترغيب و الترهيب عن بكر بن خنيس عن ضرار بن عمرو عن يزيد الرقاشى عن أنس و بكر و ضرار و يزيد كلهم ضعيف .

دعاه ثانياً فقال : يا ربّ قال الله تعالى : لبّيك عبدي و سعديك لا تسألني شيئاً إلّا أعطيتك أو رفعت عنك ما هو خير وادّخرت لك عندي ما هو أفضل منه فإذا كان يوم القيامة جيء بأهل الأعمال فوفّوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة و الصيام و الصدقة و الحجّ ثمّ يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصبّ عليهم الأجر صبّاً ، كما كان يصبّ عليهم البلاء صبّاً فيودّ أهل العافية في الدّنيا لو أنّهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب فذلك قوله تعالى : « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب » (١) وعن ابن عبّاس قال : شكا نبيّ من الأنبياء إلى ربّه فقال : يا ربّ العبد المؤمن يطيعك و يجتنب معاصيك تزوي عنه الدّنيا و تعرض له البلاء و يكون العبد الكافر لا يطيعك و يجترىء على معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدّنيا فأوحى الله تعالى إليه أنّ العباد لي والبلاء لي و كلّ يسبّح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذّنوب كأمثال الجبال فأزوي عنه الدّنيا وأعرضه للبلاء فيكون كفّارة لذنوبه حتّى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرّزق و أزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدّنيا حتّى يلقاني فأجزيه بسيّئاته .

وروي أنّه لما نزل قوله تعالى : « من يعمل سوءً يجز به » (٢) قيل : كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للقائل : « ألست تمرض ؟ أليس يصيبك الأذى؟ أليس تحزن ؟ فهذا ما تجزون به » (٣) يعني أنّ جميع ما يصيبك يكون كفّارة لذنوبك .

و عن عقبة بن عامر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « إذا رأيتم الرّجل يعطيه الله ما يحبّ و هو مقيم على معصيته فاعلموا أنّ ذلك استدراج ، ثمّ قرأ قوله تعالى : «فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء » (٤) يعني لمّا تركوا ما أمروا

---

(١) الزمر : ١٠ . (٢) النساء : ١٢٣ .

(٣) راجع الدر المنثور ج ٢ ص ٢٢٦ رواه عن جماعة .

(٤) أخرجه أحمد ج ٤ ص ١٤٥ والطبراني فى الكبير والبيهقى فى الشعب . والاية فى سورة الانعام : ٤٤ .

به فتحنا عليهم أبواب الخيرات حتّى إذا فرحوا بما أُوتوا أي بما أُعطوا من الخير أخذناهم بغتة . وقيل : إنّ رجلاً من الصحابة رأى امرأة كان يعرفها في الجاهليّة فكلّمها ثمّ تركها فجعل الرّجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثّر في وجهه فأتى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقال عليه السلام : « إذا أراد الله بعبد خيراً عجّل له عقوبة ذنبه في الدّنيا»[1] وقال علي عليه السلام : « ألا أُخبركم بأرجى آية في كتاب الله؟ قالوا : بلى فقرأ عليهم «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » فالمصائب في الدّنيا بكسب الأوزار فاذا عاقبه الله في الدّنيا فالله أكرم من أن يعذّبه ثانياً و إن عفى عنه في الدّنيا فالله أكرم من أن يعذّبه يوم القيامة ».

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : أنّه قال : « ما تجرّع عبدٌ قطّ جرعتين أحبّ إلى الله من جرعة غيظ ردّها بحلم ، و جرعة مصيبة يصبر الرّجل لها ، و لا قطرت قطرة أحبّ إلى الله تعالى من قطرة دم اهريقت في سبيل الله أوقطرة دمع في سواد اللّيل و هو ساجد ولا يراه إلّا الله ، و ما خطا عبد خطوتين أحبّ إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة فريضة وخطوة إلى صلة الرّحم »[2]

و عن أبي الدّرداء أنّه قال : توفّي ابن لسليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجداً شديداً ، فأتاه ملكان فجثيا بين يديه في زيّ الخصوم فقال أحدهما : بذرت بذراً فلمّا استحصد مرّ به هذا فأفسده فقال للآخر : ما تقول ؟ فقال : أخذت الجادّة فأتيت على زرع فنظرت يميناً وشمالاً فا ذا الطريق عليه فقال سليمان عليه السلام :

---

(١) أخرجه الترمذى والحاكم من حديث أنس والطبرانى والحاكم أيضاً والبيهقى فى الشعب من حديث عبدالله بن مغفل كما فى الجامع الصغير والمغنى

(٢) قال العراقى : أخرجه أبوبكر بن لال فى مكارم الاخلاق من حديث على عليه السلام دون ذكر الجرعتين ، و فيه محمد بن صدقة و هو الفدكى منكر الحديث . و روى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد «ما من جرعة أعظم عندالله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله» . و روى الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى أمامة « ما قطرت فى الارض قطرة أحب الى الله عزوجل من دم رجل مسلم فى سبيل الله أو قطرة دمع فى سواد الليل » الحديث و فيه أيضاً محمد بن صدقة و هو الفدكى منكر الحديث كما مر

و لم بذرت على الطريق أما علمت أن لابدّ للناس من الطريق قال : فلم تحزن على ولدك أما علمت أنّ الموت سبيل الآخرة فتاب سليمان إلى ربّه ولم يجزع على ولده بعد ذلك ، ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض فقال : يا بنيّ لأن تكون في ميزاني أحبّ إليّ من أن أكون في ميزانك ، فقال : يا أبت لأن يكون ما تحبّ أحبّ إليّ من أن يكون ما اُحبّ.

و عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنّه نعيت إليه ابنة له فاسترجع و قال : عورة سترها الله ومؤونة كفاها الله و أجرٌ قد ساقه الله ، ثمّ نزل فصلّي ركعتين ، ثمّ قال : قد صنعنا ما أمر الله تعالى قال الله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة - الآية - » (١).

و عن ابن المبارك أنّه مات ابنٌ له فعزّاه مجوسيٌّ فقال له ، ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيّام فقال ابن المبارك : اكتبوها عنه. و قال بعض العلماء : إنّ الله تعالى ليبتلي العبد بالبلاء بعد البلاء حتّى يمشي على الأرض و ما له ذنب ، وقال الفضيل : إنّ الله عزّ وجلّ ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرّجل أهله بالخير . وقال حاتم الأصمّ : إنّ الله عزّ وجلّ يحتجّ على الخلق يوم القيامة بأربع أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بعيسى و على العبيد بيوسف و على المرضى بأيّوب صلوات الله عليهم ، و روي أنّ زكريّا عليه السلام لمّا هرب من الكفّار من بني إسرائيل و اختفى في الشجرة فعرفوا ذلك فجيء بالمنشار فنشرت الشجرة حتّى بلغ المنشار إلى رأس زكريّا فأنّ أنّة فأوحى الله تعالى إليه يا زكريّا لئن صعدت منك أنّة ثانية لأمحونّك من ديوان النبوّة ، فعضّ زكريّا عليه السلام على الصبر حتّى قطع بشطرين.

و قال لقمان لابنه : يا بنيّ إنّ الذّهب يجرّب بالنار والعبد الصالح يجرّب بالبلاء و إذا أحبّ الله قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرّضا و من سخط فله السخط.

و قال أحنف بن قيس : أصبحت يوماً أشتكي ضرسي فقلت لعمّي : ما نمت البارحة من وجع الضرس - حتّى قلتها ثلاثاً - فقال : لقد أكثرت من شكوى ضرسك

(١) البقرة : ٤٥ .

في ليلة واحدة، قد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحدٌ. و أوحى الله تعالى إلى عزير عليه السلام إذا نزلت بك بليّة فلاتشكني إلى خلقي واشك إليّ كما لا أشكوك إلى ملائكتي إذا صعدت إليّ مساويك و فضائحك (✡).

✡(بيان فضل النعمة على البلاء)✡

لعلّك تقول : إنّ هذه الأخبار تدلّ على أنّ البلاء خيرٌ في الدّنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله تعالى البلاء ، فأقول : لا وجه لذلك لما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يستعيذ في دعائه من بلاء الدّنيا و بلاء الآخرة [١] و كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربّنا آتنا في الدّنيا حسنة وفي الآخرة حسنة [٢] ، وكانوا يستعيذون من شماتة الأعداء وغيره [٣].

و قال عليٌّ عليه السلام : « اللّهمّ إنّي أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لقد سألت الله البلاء فاسأله العافية » [٤].

و روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « سلوا الله العافية فما اُعطي عبد أفضل من العافية إلّا اليقين » [٥] و أشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشكّ

(✡) دعوات الراوندى كما فى مستدرك النورى ج ١ ص ٨١ .

(١) أخرج ابن حبان والحاكم و أحمد من حديث بسر بن أرطاة « اللهم أحسن عاقبتنا فى الامور كلها و أجرنا من خزى الدنيا وعذاب الاخرة » كما فى الجامع الصغير .

(٢) أخرج مسلم و البخارى من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « اللهم آتنا فى الدنيا ـ الحديث» و لابى داود والنسائى من حديث عبدالله بن السائب قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول مابين الركنين : « ربنا آتنا » الحديث .

(٣) أخرجه النسائى ج ٨ ص ٢٦٨ بغير واحد من الاسناد .

(٤) قال العراقى : أخرجه الترمذى من حديث معاذ فى أثناء حديث و حسنه ولم يسم علياً و انما قال سمع رجلا . وله و للنسائى فى اليوم والليلة من حديث على عليه السلام « كنت ساكناً فمر بى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أنا أقول .. الحديث » وفيه « فان كان بلاء فصبرنى فضربه برجله ، و قال : اللهم عافه واشفه » و قال : حسن جيد .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٨٤٩ بنحوه و أخرجه النسائى و الترمذى أيضاً راجع الترغيب للمنذرى ج ٤ ص ٢٧٢ .

فعافية القلب أعلى من عافية البدن .

و قال مطرّف بن عبدالله : لأن أُعافي فأشكر أحبُّ إليَّ من أن أبتلي فأصبر .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم في دعائه : « وعافيتك أحبُّ إليَّ »[1] وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل واستشهاد وهذا لأنَّ البلاء صار نعمة باعتبارين أحدهما بالإضافة إلى ما هو أكبر منه إمّا في الدُّنيا أو في الدِّين والآخر بالإضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن يسأل الله تمام النعمة في الدُّنيا ودفع ما فوقه من البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته ، فإنّه قادر على أن يعطي على الشكر ما [لا] يعطيه على الصبر ، فإن قلت : فقد قال بعضهم : أودّ أن أكون جسراً على النار يعبر عليَّ الخلق كلّهم فينجون و أكون أنا في النار . و قال سمنون :

و ليس لي في سواك حظٌّ　　✿　　فكيف ما شئت فاختبرني

فهذا من هؤلاء سؤال للبلاء ؟ فاعلم أنّه حكي أنَّ سمنون ابتلي بعد هذا البيت بعلّة الحصر فكان بعد ذلك يدور على أبواب المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعمّكم الكذّاب .

و أمّا محبّة الإنسان ليكون هو في النّار دون سائر الخلق فغير ممكن ولكن قد تغلب المحبّة على القلب حتّى يظنُّ المحبُّ بنفسه حبّاً لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبّة سكر و من سكر توسّع في الكلام و لو زايله سكره علم أنَّ ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة لها فما تسمعه من هذا الفنّ فهو كلام العشّاق الّذين أفرط حبّهم و كلام العشّاق يستلذُّ سماعه ولا يعوّل عليه كما روي أنَّ فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه فقال : ما الّذي يمنعك عنّي و لو أردت أن أقلب لك ملك سليمان ظهراً لبطن لفعلته لأجلك فسمعه سليمان فاستدعاه و عاتبه فقال : يا نبيّ الله كلام العشّاق لا يحكى وهو كما قال . و قول الشاعر :

أُريد وصاله و يريد هجري　　✿　　فأترك ما أُريد لما يريد

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة في دعائه عليه السلام حين خروجه صلى الله عليه و آله و سلم الى الطائف .

هو أيضاً محالٌ و معناه أنّي أُريد مالا أُريد لأنّ من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الّذي لم يرده بل لا يصدق هذا الكلام إلّا بتأويلين أحدهما أن يكون ذلك في بعض الأحوال حتّى يكتسب به رضاه الّذي يتوصّل به إلى مراد الوصال في الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرّضا والرّضا وسيلة إلى وصال المحبوب، والوسيلة إلى المحبوب محبوبةٌ فيكون مثاله مثال محبّ المال إذا أسلم درهماً في درهمين فهو لحبّ الدّرهمين يترك الدّرهم في الحال. الثاني أن يصير رضاه عنده مطلوباً من حيث إنّه رضى فقطّ و يكون له لذّة في استشعاره رضا محبوبه منه تزيد تلك اللّذّة على لذّته في مشاهدته مع كراهته فعند ذلك يتصوّر أن يريد ما فيه الرّضا فلذلك قد انتهى حال بعض المحبّين إلى أن صارت لذّتهم في استشعارهم رضا الله عنهم أكثر من لذّتهم في العافية من غير شعور الرّضا، فهؤلاء إذا قدروا رضاه في البلاء صار البلاء أحبّ إليهم من العافية، و هذه حالة لا يبعد وقوعها في غلبات الحبّ ولكنّها لا تثبت وإن ثبتت مثلاً فهل هي حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة اُخرى وردت على القلب فمالت به عن الاعتدال هذا فيه نظرٌ، وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه. وقد ظهر بما سبق أنّ العافية خيرٌ من البلاء فنسأل الله العفو والعافية في الدّنيا و الآخرة.

﴿ بيان الافضل من الصبر والشكر ﴾

إعلم أنّ الناس اختلفوا في ذلك فقال قائلون: الصّبر أفضل من الشّكر و قال آخرون: الشكر أفضل، وقال آخرون هما سيّان، وقال آخرون: يختلف ذلك باختلاف الأحوال و استدلّ كلٌّ فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلا معنى للتّطويل بالنقل بل المبادرة إلى إظهار الحقّ أولى فنقول: في بيان ذلك مقامان:

الأوّل البيان على سبيل التساهل و هو أن ننظر إلى ظاهر الأمر و لا نطلب بالتفتيش تحقيقه و هو البيان الّذي ينبغي أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفنّ من الكلام هو الّذي ينبغي أن يعتمده الوعّاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم، و الظئر المشفقة لا ينبغي أن تصلح

الصبيّ الطفل بالطيور السّمان و ضروب الحلاوات بل باللّبن اللّطيف ، و عليها أن تؤخّر عنه أطائب الأطعمة إلى أن يصير محتملاً لها بقوّته و يفارق الضعف الّذي هو عليه في بنيته ، فنقول : هذا المقام في البيان يأبى البحث والتّفصيل و مقتضاه النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشرع و ذلك يقتضي تفضيل الصبر فإنّ الشكر و إن وردت أخبار في فضله فإذا اُضيف إلى ما ورد في فضيلة الصّبر كان فضائل الصبر أكثر بل فيها ألفاظ صريحة في التفضيل كقوله عليه‌السلام : « من أفضل ما ا و تيتم اليقين و عزيمة الصبر »(١).

و في الحديث « يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين و يؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن نجزيك كما جزينا هذا الشّاكر ؟ فيقول : نعم ربّ ! فيقول الله تعالى : كلاّ أنعمت عليه فشكر و ابتليتك فصبرت لأضعفنّ لك الأجر عليه فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين ، و قد قال الله تعالى : « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب »(٢).

و أمّا قوله : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصّائم الصابر »(٣) فهو دليل على الفضيلة في الصّبر إذ ذكر ذلك في معرض المبالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصّبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنّه فهم من الشرع علوّ درجة الصّبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر و هو كقوله صلى‌الله‌عليه‌وآله « الجمعة حجّ المساكين »(٤) « وجهاد المرأة حسن التبعّل »(٥) و « شارب الخمر كعابد الوثن »(٦) وأبداً المشبّه به ينبغي أن يكون

(١) تقدم غير مرة .
(٢) الزمر : ١٠ ، والخبر قال العراقي : لم أجد له أصلا
(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٧٦٤ والترمذي وحسنه عن أبي هريرة وقد تقدم .
(٤) أخرجه الحرث بن أبي اسامة بلفظ المتن كما في كنوز الحقائق للمناوي . و أخرجه القضاعي في مسند الشهاب و ابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عباس هكذا « الجمعة حج الفقراء » كما في الجامع الصغير .
(٥) أخرجه الطبراني كما في كنوز الحقائق .
(٦) أخرجه الحرث بن أبي اسامة من حديث عبدالله بن عمر بسند ضعيف و رواه الطبراني في الاوسط وابن ماجه تحت رقم ٣٣٧٥ بلفظ « مد من الخمر » .

أعلى رتبة و كذلك قوله : « الصبر نصف الإيمان »(١) لا يدلّ على أنّ الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام : «الصوم نصف الصبر»(٢) فإنّ كلّ ماينقسم بقسمين يسمّى أحدهما نصفاً و إن كان بينهما تفاوت كما يقال : الإيمان هو العلم والعمل ، فالعمل نصف الإيمان فلا يدلّ ذلك على أنّ العمل يساوي العلم ، و في الخبر « أبواب الجنّة كلّها مصراعان إلّا باب الصبر فإنّه مصراع واحد و أوّل من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب صلوات الله عليه »(٣) و كلّ ما ورد في فضائل الفقر يدلّ على فضيله الصبر لأنّ الصبر حال الفقير و الشكر حال الغنيّ .

أقول : و في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : « مروءة الصبر في حال الحاجة و الفاقة والتعفّف و الغنى أكثر من مروءة الإعطاء »(٤).

قال أبو حامد : فهذا هو المقام الّذي يقنع العوام و يكفيهم في الوعظ اللّائق بهم والتعريف لما فيه صلاح دينهم .

المقام الثاني: هو البيان الّذي يقصد به تعريف أهل العلم و الاستبصار بحقائق الاُمور بطريق الكشف والإيضاح فنقول فيه : كلّ أمرين مبهمين لا يمكن الموازنة بينهما مع الإبهام مالم يكشف عن حقيقة كلّ واحد منهما و كلّ مكشوف يشتمل على أقسام لاتمكن الموازنة بين الجملة و الجملة بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتّى يتبيّن الرّجحان ، والصبر والشكر أقسامهما وشعبهما كثيرة فلايتبيّن حكمهما في الرّجحان والنقصان مع الإجمال فنقول : قد ذكرنا أنّ هذه المقامات تنتظم من ثلاثة اُمور : علوم وأحوال وأعمال ، والشكر و الصبر و سائر المقامات هي كذلك ، و هذه الثلاثة إذا وزن البعض منها بالبعض لاح للناظرين إلى الظواهر أنّ العلوم

---

(١) تقدم فى الباب .

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبىهريرة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير بلفظ «الصيام» .

(٣) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٩٣ تحت رقم ٢٢ .

تراد للأحوال والأحوال تراد للأعمال ، فالأعمال هي الأفضل ، وأمّا أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فإنّ الأعمال تراد للأحوال و الأحوال تراد للعلوم ، فالأفضل العلوم ثمّ الأحوال ثمّ الأعمال لأنّ كلّ مراد لغيره فذلك الغير لامحالة أفضل منه ، و أمّا آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى و قدتتفاوت إذا اُضيف بعضها إلى بعض و كذا آحاد الأحوال إذا اُضيف بعضها إلى بعض و كذا آحاد المعارف و أفضل المعارف علوم المكاشفة وهي أرفع من علوم المعاملة ، بل علوم المعاملة دون المعاملة فإنّها تراد للمعاملة ففائدتها إصلاح العمل ، و إنّما فضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان علمه ممّا يعمّ نفعه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاصّ أفضل و إلّا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر ، فنقول : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب و فائدة إصلاح حال القلب أن ينكشف له جلال الله في ذاته و صفاته و أفعاله ، فأرفع علوم المكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية الّتي تطلب لذاتها فإنّ السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدُّنيا بأنّها عين السعادة و إنّما يشعر بها في الآخرة فهي المعرفة الحرّة الّتي لاقيد عليها فلا تتقيّد بغيرها و كلّ ما عداها من المعارف عبيد وخدم بالإضافة إليها فإنّها إنّما تراد لأجلها و لمّا كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب نفعها في الإفضاء إلى معرفة الله فإنّ بعض المعارف يفضي إلى بعض إمّا بواسطة و إمّا بوسائط كثيرة فكلّ ما كانت الوسائط بينه و بين معرفة الله أقلّ فهي أفضل ، وأمّا الأحوال فنعني بها أحوال القلب في تصفيته و تطهيره عن شوائب الدُّنيا و شواغل الخلق حتّى إذا طهر وصفا اتّضح له حقيقة الحقّ فإذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب و تطهيره و إعداده لأن تحصل له علوم المكاشفة ، و كما أنّ تصقيل المرآة يحتاج إلى أن يتقدّم على تمامه أحوال للمرآة بعضها أقرب إلى الصقالة من بعض فكذلك أحوال القلب ، فالحالة القريبة أو المقرّبة من صفاء القلب هي أفضل ممّا دونها لامحالة بسبب القرب من المقصود و هكذا ترتيب الأعمال فإنّ تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه ، و كلّ عمل فإمّا

أن يجلب إليه حالة مانعة من المكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدّنيا و إمّا أن يجلب إليه حالة مهيّئة للمكاشفة موجبة لصفاء القلب و قطع علائق الدّنيا عنه ، واسم الأوّل المعصية و اسم الثاني الطاعة ، و المعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب و قساوته متفاوته ، و كذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها و ذلك يختلف باختلاف الأحوال ، و ذلك أنّا بالقول المطلق ربّما نقول : الصلاة النافلة أفضل من كلّ عبادة نافلة ، و إنّ الحجّ أفضل من الصدقة ، وإنّ قيام اللّيل أفضل من غيره ، ولكنّ التحقيق فيه أنّ الغنيّ الّذي معه مال وقد غلبه البخل وحبّ المال على إمساكه فإخراج درهم له أفضل من قيام ليالٍ و صيام أيّام لأنّ الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء الفكر في علوم المكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع ، فأمّا هذا المريد إذ لم يكن حاله هذه الحال فليس يستضرّ بشهوة بطنه و لا هو مشتغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله اللائق به إلى حال غيره و هو كالمريض الّذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع فلا ينتفع به بل حقّه أن ينظر في المهلك الّذي استولى عليه ، و الشحّ المطاع من جملة المهلكات ولا يزيل صيام مائة سنة و قيام ألف ليلة منه ذرّة ، بل لا يزيله إلّا إخراج المال فعليه أن يتصدّق بما معه وتفصيل هذا ممّا ذكرناه في ربع المهلكات فليرجع إليه ، فإذن باعتبار هذه الأحوال يختلف تأثير الطاعات و المعاصي فكذلك درجاتها تختلف ، و عند ذلك يعرف البصير أنّ الجواب المطلق فيه خطأ إذ لو قال لنا قائل : الخبز أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حقّ إلّا أنّ الخبز للجائع أفضل والماء للعطشان ، فإن اجتمعا فلينظر إلى الأغلب فإن كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل فإن تساويا فهما متساويان ، وكذا إذا قيل السكنجبين أفضل أم شراب النيلوفر لم يصحّ الجواب عنه مطلقاً أصلاً ، نعم لو قيل السكنجبين أفضل أم عدم الصفراء ؟ فنقول : عدم الصفراء لأنّ السكنجبين مرادٌ له وما يراد لغيره فذلك الغير أفضل منه لا محالة ، فإذاً في بذل المال عمل وهو الانفاق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حبّ الدّنيا من القلب ، و يتهيّأ القلب

بسبب خروج حبّ الدّنيا من القلب لمعرفة الله وحبّه ، فالأفضل المعرفة و دونها الحال و دونها العمل

فإن قلت : فقد حثّ الشرع على الأعمال وبالغ في ذكر فضلها حتّى طلب الصدقات وقال : «مَن ذَا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً »[1] وقال : «ويأخذ الصدقات»[2] فكيف لا يكون الفعل و هو الإنفاق أفضل ؟ فاعلم أنّ الطبيب إذا أثنى على الدّواء لم يدلّ ذلك على أنّ الدّواء مراد لعينه أو على أنّه أفضل من الصحّة و الشفاء الحاصل به ولكنّ الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلب ممّا لا يشعر به غالباً فهو كبرص على وجه من لا مرآة معه فإنّه لا يشعر به و لو ذكر له لا يصدّق به فالسبيل معه المبالغة في الثناء على غسل الوجه بماء الورد مثلاً إن كان ماء الورد يزيل البرص حتّى يستحثّه فرط الثناء على المواظبة عليه فيزول مرضه ، فإنّه لو ذكر له أنّ المقصود زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج و زعم أنّ وجهه لا عيب فيه ولنضرب مثلاً أقرب من هذا فنقول : من له ولد علّمه العلم أو القرآن و أراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه و علم أنّه لو أمره بالتّكرار و الدّراسة ليبقى له محفوظاً لقال : إنّه محفوظٌ معي ولا حاجة بي إلى تكرار و دراسة لأنّه يظنّ أنّ ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبداً ، وكان له عبيدٌ فأمر الولد بتعليم العبيد و وعده على ذلك بالجميل لتتوفّر داعيته على كثرة التكرار بالتعليم ، فربّما يظنّ الصبيّ المسكين أنّ المقصود تعليم العبيد القرآن و أنّه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول : ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد و أنا أجلّ منهم وأعزّ عند الوالد ، و أعلم أنّ أبي لو أراد تعليم العبيد لقدر عليه دون تكليفي به و أعلم أنّه لا نقصان لأبي بفقد هؤلاء العبيد فضلاً عن عدم علمهم بالقرآن ، فربّما يتكاسل هذا المسكين فيترك تعليمهم اعتماداً على استغناء أبيه و على كرمه في العفو عنه فينسى العلم و القرآن و يبقى مدبراً محروماً من حيث لا يدري ، و قد انخدع بمثل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة و قالوا : إنّ الله غنيّ عن عبادتنا و عن أن يستقرض

---

(١) البقرة : ٢٤٥ .　　(٢) التوبة : ١٠٤

منّا فأيّ معنى لقوله : « من ذا الّذي يقرض الله قرضاً حسناً » و لو شاء الله إطعام المساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفّار : « و إذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله قال الّذين كفروا للّذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه »[1] و قالوا أيضاً : «لو شاء الله ما أشركنا و لا آباؤنا»[2] فانظر كيف كانوا صادقين في كلامهم و كيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذ شاء أهلك بالصدق و إذا شاء أسعد بالجهل يضلّ به كثيراً و يهدي به كثيراً ، فهؤلاء ظنّوا أنّهم استخدموا لأجل المساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى ثمّ قالوا : لاحظ لنا في المساكين ولا حظّ لله فينا وفي أموالنا سواء أنفقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبيّ لمّا ظنّ أنّ مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنّه كان المقصود ثبات صفة العلم في نفسه و تأكّده في قلبه حتّى يكون ذلك سبب سعادته في الدّنيا و الآخرة ، و إنّما كان ذلك من الوالد تلطّفاً به في استجراره إلى مافيه سعادته ، فهذا المثال يبيّن لك ضلال من ضلّ من هذا الطريق فإذن المسكين الآخذ لما لك يستوفي بواسطة المال خبث البخل وحبّ الدّنيا من باطنك فإنّه مهلك لك ، فهو كالحجّام يستخرج الدّم منك ليخرج بخروج الدّم العلّة المهلكة من باطنك ، فالحجّام خادم لك لا أنت خادم للحجّام و لا يخرج الحجّام عن كونه خادماً بأن يكون له غرض في أن يصنع شيئاً بالدّم و لما كانت الصدقات مطهّرة للبواطن و مزكّية لها عن خبائث الصفات امتنع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن أخذها و انتهى عنها كما نهى عن كسب الحجّام وسمّاها أوساخ أموال الناس وشرّف أهل بيته بالصيانة عنها و المقصود أنّ الأعمال مؤثّرات في القلب كما سبق في ربع المهلكات ، والقلب بحسب تأثّره يستعدّ لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلّي و القانون الأصلي الّذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال و الأحوال و المعارف فلنرجع الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الشكر و الصبر فنقول : في كلّ واحد منهما معرفة و حال و عمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في

---

(١) يس : ٤٨ . (٢) الانعام : ١٤٨ .

الآخر بل كلّ واحد بنظره حتى يظهر التناسب وبعد التناسب يظهر الفضل، و مهما قوبلت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربّما رجعا إلى معرفة واحدة، إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العينين مثلاً من الله و معرفة الصابر أن يرى العمى من الله وهما معرفتان متلازمتان ومتساويتان هذا إن اعتبرتا في البلاء والمصائب و قد بيّنّا أنّ الصبر قد يكون على الطاعة و عن المعصية و فيهما يتّحد الشكر و الصبر لأنّ الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأنّ الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، و الصبر يرجع إلى ثبات باعث الدّين في مقابلة باعث الهوى فالصبر و الشكر فيه اسمان لمسمّى واحد باعتبارين مختلفين فإثبات باعث الدّين في مقاومة باعث الهوى يسمّى صبراً بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمّى شكراً بالإضافة إلى باعث الدّين إذ باعث الدّين إنّما خلق لهذه الحكمة و هو أن يصرع به باعث الهوى فقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فإذن مجاري الصبر ثلاثة: الطاعة و المعصية و البلايا وقد ظهر حكمهما في الطاعة والمعصية، وأمّا البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إمّا أن تكون ضروريّة كالعينين مثلاً وإمّا أن تقع في محلّ الحاجة كالزّيادة على قدر الكفاية من المال أمّا العينان فصبر الأعمى عنهما بأن لا يظهر الشكوى ويظهر الرّضا بقضاء الله و لا يترخّص بسبب العمى في بعض المعاصي وشكر البصير عليهما من حيث العمل بأمرين أحدهما أن لا يستعين بهما على معصية و الآخر أن يستعملهما في الطاعة؛ و كلّ واحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإنّ الأعمى كفي الصبر عن الصور الجميلة لأنّه لا يراها، والبصير إذا وقع بصره على جميل فصبر كان شاكراً لنعمة العينين وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره، و كذلك إذا استعان بالعينين على الطاعة فلابدّ فيه أيضاً من صبر على الطاعة، ثمّ قد يشكرهما بالنظر إلى عجائب صنع الله ليتوصّل به إلى معرفة الله فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعيب عليه السلام مثلاً وقد كان ضريراً من بين الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره لأنّه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف

كلّها ويترك كلحم على وضم ، و ذلك محال جداً لأنّ كلّ واحد من هذه الأعضاء آلة في الدّين فيفوت بفواتها ذلك الرّكن من الدّين و شكرها استعمالها فيما هي آلة فيه من الدّين و ذلك لا يكون إلّا بصبر ، وأمّا مايقع في محل الحاجة كالزّيادة على الكفاية من المال فانّه إذا لم يؤت إلّا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة و هو جهاد الفقراء و وجود الزّيادة نعمة و شكرها أن تصرف إلى الخيرات أوأن لا تستعمل في المعصية ، فان اُضيف الصبر إلى الشكر الّذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنّه تضمن الصبر أيضاً وفيه فرح بنعمة الله و فيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء و ترك صرفه إلى التنعّم المباح وكان الحاصل يرجع إلى أنّ شيئين أفضل من شيء واحد و أنّ الجملة أعلى رتبة من البعض و هذا فيه خلل إذلا يصحّ الموازنة بين الجملة وبين أبعاضها ، و أمّا إذا كان شكره بأن لايستعين به على معصية بل يصرفه إلى التنعّم المباح فالصبر ههنا أفضل من الشكر و الفقير الصابر أفضل من الغنيّ الممسك ماله الصارف إيّاه إلى المباحات لا من الغنيّ الصارف ما له إلى الخيرات لأنّ الفقير قد جاهد نفسه و كسر نهمتها و أحسن الرّضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي قوّة لا محالة و الغنيّ أتبع نهمته و أطاع شهوته ولكنّه اقتصر على المباح و في المباح مندوحة عن الحرام ولكن لابدّ من قوّة في الصبر عن الحرام أيضاً إلّا أنّ القوّة الّتي عنها يصدر صبر الفقير أعلى و أتمّ من القوّة الّتي عنها يصدر الاقتصاد في التنعّم على المباح و الشرف لتلك القوّة الّتي يدلّ العمل عليها فانّ الأعمال لا تراد إلّا لأحوال القلب و تلك القوّة حالة للقلب تختلف بحسب قوّة اليقين و الايمان فما دلّ على زيادة قوّة في الايمان فهو أفضل لا محالة و جميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات و الأخبار إنّما اُريد به هذه الرّتبة على الخصوص لأنّ السابق إلى أفهام الناس من النعم والأموال والغنى بها و السابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الانسان : الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المعصية لاأن يصرفها إلى الطاعة فاذاً الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الّذي تفهمه العامّة أفضل من الشكر الّذي تفهمه العامّة ، ومهما لاحظت

المعاني الّتي ذكرناها علمت أنّ لكلّ واحد من القولين وجه في بعض الأحوال فربّ فقير صابر أفضل من غنيّ شاكر كما سبق ، و ربّ غنيّ شاكر أفضل من فقير صابر ، وذلك هو الغنيّ الّذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يمسك لنفسه من المال إلّا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات أو يمسكه على اعتقاد أنّه خازن المحتاجين والمساكين وإنّما ينتظر حاجة تسنح حتّى يصرف إليها ثمّ إذا صرف لم يصرفه لطلب جاه وصيت ولا لتقليد منّة بل أداء لحقّ الله تعالى في تفقّد عباده فهذا أفضل من الفقير الصابر .

فإن قلت : فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأنّ هذا يستشعر الذّة القدرة وذلك يستشعر ألم الصبر فإن كان متألّماً بفراق المال فينجبر ذلك بلذّته في القدرة على الانفاق ، فاعلم أنّ الّذي تراه أنّ من ينفق ماله عن رغبة و طيب نفس أكمل حالاً ممّن ينفقه و هو بخيل به ، و إنّما يقتطعه عن نفسه قهراً و قد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة ، فإيلام النفس ليس مطلوباً لعينه بل لتأديبها وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد و الكلب المتأدّب أكمل من الكلب المحتاج إلى الضرب و إن كان صابراً على الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلام و المجاهدة في البداية ، ولا يحتاج إليه في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان مؤلماً في حقّه لذيذاً فإطلاق القول بأنّ الصبر أفضل من الشكر صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فأمّا إذا أردت التحقيق فالصواب التفصيل فإنّ للصبر درجات أقلّها ترك الشكوى مع الكراهة ، و وراءها الرّضا وهو مقام وراء الصبر ، و وراؤه الشكر على البلاء ، وهو وراء الرّضا إذ الصبر مع التألّم والرّضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن إلّا على محبوب مفروح به ، و كذلك للشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها و يدخل في جملتها اُمور دونها فإنّ حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكرٌ ، ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكرٌ ، و الاعتذار من قلّة الشكر شكرٌ ، و المعرفة بعظيم حلم الله و كنف ستره شكرٌ ، والاعتراف بأنّ النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكرٌ ، و العلم بأنّ الشكر أيضاً نعمة من نعم الله و موهبة منه شكرٌ ، وحسن التواضع بالنعم و التذلّل فيها شكرٌ ، وشكر الوسائط شكرٌ إذ قال عليه السلام :

« من لم يشكر الناس لم يشكر الله »[1] . وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة . و قلّة الاعتراض وحسن الأدب بين يدي المنعم شكرٌ ، و تلقّي النعم بحسن القبول و استعظام صغيرها شكرٌ ، فما يندرج من الأعمال و الأحوال تحت اسم الشكر و الصبر لا ينحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلّا على سبيل إرادة الخصوص باللّفظ العامّ كما ورد في الأخبار و الآثار .

و قد روي عن بعضهم أنّه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السنّ فسألته عن حاله ، فقال : إنّي كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عمّ لي وهي كذلك تهواني فاتّفق أنّها زوّجت منّي فليلة زفافها قلت تعالي حتّى نحيى هذه اللّيلة شكراً لله على ما جمعنا ، فصلّينا تلك اللّيلة ولم يتفرّغ أحدنا إلى صاحبه فلمّا كانت اللّيلة الثانية قلنا مثل ذلك فصلّينا طول اللّيل فمنذ سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كلّ ليلة ، أليس كذلك يا فلانة ؟ فقالت العجوز : هو كما يقول الشيخ . فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة إن لم يجمع الله بينهما ما زاد صبر الفرقة على شكر الوصال على هذا الوجه ، فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فإذن لا وقوف على حقائق المعضلات إلّا بتفصيل كما سبق والله أعلم .

هذا آخر كتاب الصبر و الشكر من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ويتلوه كتاب الخوف و الرجاء إن شاء الله تعالى ، ولله الحمد والمنّة والصلاة على خير البريّة وآله .

---

(١) أخرجه أحمد والترمذى والضياء المقدسى من حديث أبي سعيد بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

كتاب الخوف و الرّجاء

و هو الكتاب الثالث من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المرجوّ لطفه وثوابه ، والمخوف مكره و عقابه ، الّذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه ، حتّى ساقهم بلطائف آلائه ، إلى النزول بفنائه ، والعدول عن دار بلائه ، الّتي هي مستقرّ أعدائه ، وصرف بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه المعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه و كرامته ، و صدّهم عن التعرّض لأئمّته و التهدّف لسخطه و نقمته قوداً لأصناف الخلق بسلاسل القهر و العنف و أزمّة الرفق و اللّطف إلى جنّته .

و الصلاة على محمّد سيّد أنبيائه وخير خليقته و على آله وأصحابه وعترته .

أمّا بعد فانّ الرجاء والخوف جناحان يطير بهما المقرّبون إلى كلّ مقام محمود ومطيّتان بهما يقطع من طرق الآخرة كلّ عقبة كؤود ، فلا يقود إلى قرب الرّحمن و روح الجنان ، مع كونه بعيد الأرجاء ، ثقيل الأعباء ، محفوفاً بمكاره القلوب و مشاقّ الجوارح و الأعضاء ، إلّا أزمّة الرّجاء ، و لا يصدّ عن نارالجحيم و العذاب المقيم ، مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات و عجائب اللّذات إلّا سياط التخويف ، وسطوات التعنيف . فلابدّ إذن من بيان حقيقتهما و فضيلتهما و سبيل التوصّل إلى الجمع بينهما مع تضادّهما و تعاندهما ونحن نجمع ذكرهما في كتاب واحد مشتمل على شطرين : الشطر الأوّل في الرّجاء و الشطر الثاني في الخوف ، أمّا الشطر الأوّل فيشتمل على بيان حقيقة الرّجاء و بيان فضيلة الرّجاء ، و بيان دواء الرّجاء ، والطريق الّذي به يجتلب الرّجاء .

✿(بيان حقيقة الرّجاء)✿

إعلم أنّ الرّجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين و إنّما يسمّى الوصف مقاماً إذا ثبت و أقام ، و إنّما يسمّى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزّوال وكما أنّ الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب و إلى سريعة الزّوال كصفرة الوجل و إلى ما هو بينهما كصفرة المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم إلى هذه الأقسام فالّذي هو غير ثابت يسمّى حالاً لأنّه يحول على القرب وهذا جار في كلّ وصف من أوصاف القلب ، وغرضنا الآن حقيقة الرّجاء فالرّجاء أيضاً يتمّ من علم و حال وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرّجاء اسم للحال من جملة الثلاثة ، بيانه أنّ كلّ ما يلاقيك من مكروه و محبوب ينقسم إلى موجود في الحال و إلى موجود فيما مضى و إلى منتظر في الاستقبال فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمّي ذكراً و تذكّراً ، و إن كان ما خطر ببالك موجوداً في الحال سمّي وجداً و ذوقاً و إدراكاً ، إنّما سمّي وجداً لأنّها حالة تجدها من نفسك ، وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمّي انتظاراً وتوقّعاً ، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب يسمّى خوفاً وإشفاقاً ، و إن كان محبوباً حصل من انتظاره و تعلّق القلب به و اخطار وجوده بالبال لذّة في القلب و ارتياح يسمّى ذلك الارتياح رجاء .

فالرّجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقّع لابدّ و أن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرّجاء عليه صادق ، و إن كان ذلك انتظاراً مع انخرام أسبابه و اضطرابها فاسم الغرور و الحمق عليه أصدق من اسم الرّجاء ، و إن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمنّي أصدق على انتظاره لأنّه انتظار من غير سبب ، وعلى كلّ حال فلا يطلق اسم الرّجاء و الخوف إلّا على ما يتردّد فيه أمّا ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع و أخاف غروبها وقت الغروب لأنّ ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر و أخاف انقطاعه و قد علم أرباب

القلوب أنّ الدّنيا مزرعة الآخرة و القلب كالأرض ، و الإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض ، وتطهيرها و مجرى حفر الأنهار ، و سياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدّنيا المستغرق بها كالأرض السبخة الّتي لاينموفيها البذر ، و يوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحدٌ إلّا ما زرع ، ولاينمو زرع إلّا من بذر الايمان ، وقلّما ينفع إيمان مع خبث القلب و سوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبخة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكلّ من طلب أرضاً طيّبة وألقى فيها بذراً جيّداً غيرعفن ولا مسوس ثمّ أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثمّ نقي الأرض عن الشوك و الحشيش و كلّ ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثمّ جلس منتظراً من فضل الله دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتمّ الزّرع ويبلغ غايته سمّي انتظاره رجاء ، و إن بثّ البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصبّ إليها ماء ولم يشتغل بتعهّد البذر أصلاً ، ثمّ انتظر الحصاد منه سمّي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء ، و إن بثّ البذر في أرض طيّبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار و لا يمتنع أيضاً سمّي انتظاره تمنّياً لا رجاء فاذن اسم الرّجاء إنّما يصدق على انتظار محبوب تمهّدت جميع أسبابه الدّاخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلّا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع و المفسدات فالعبد إذا بثّ بذر الايمان و سقاه بماء الطاعات وطهّر القلب من شوك الأخلاق الرّديّة وانتظر من فضل الله تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى الايمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت ، و إن قطع عن بذر الايمان تعهّده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق ، وانهمك في طلب لذّات الدّنيا ، ثمّ انتظر المغفرة فانتظاره حمقٌ وغرورٌ ، قال صلّى الله عليه وآله : « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الجنّة »(١). وقال تعالى : « فخلف من بعدهم خلفٌ أضاعوا الصلاة و اتّبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً »(٢)

(١) تقدم غير مرة . (٢) مريم : ٦٠ .

وقال : « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا » (١) و ذمّ الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنّته و قال : « ما أظنّ أن تبيد هذه أبداً ✿ وما أظنّ الساعة قائمة و لئن رددت إلى ربّي لأجدنّ خيراً منها منقلباً » (٢).

أقول: روى في الكافي باسناده عن الصادق عليه السلام قيل له : « إنّ قوماً من مواليك يلمّون بالمعاصي ويقولون نرجو فقال : كذبوا ليسوا لنا بموال اُولئك قومٌ ترجّحت بهم الأماني من رجا شيئاً عمل له ومن خاف شيئاً هرب منه » (٣).

وعنه عليه السلام قال : « لا يكون مؤمن مؤمناً حتّى يكون خائفاً راجياً ولا يكون خائفاً راجياً حتّى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو » (٤).

و عن بعض الحكماء : من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه .

قال أبو حامد : فإذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيقٌ بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلّا بدخول الجنّة ، وأمّا العاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيقٌ بأن يرجو قبول التوبة وأمّا قبول التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوءه السيّئة وتسرّه الحسنة وهو يذمّ نفسه ويلومها ومن يشتهي التوبة ويشتاق إليها فحقيقٌ بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأنّ كراهته للمعصية و حرصه على الطاعة يجري مجرى السبب الّذي قد يفضي إلى التوبة وإنّما الرجاء بعد تأكّد الأسباب ، و لذلك قال الله تعالى : « إنّ الّذين آمنوا و الّذين هاجروا و جاهدوا في سبيل الله اُولئك يرجون رحمة الله » (٥) و معناه اُولئك يستحقّون أن يرجوا و ما اُريد به تخصيص وجود الرّجاء لأنّ غيرهم أيضاً قد يرجوا ولكن خصّص بهم استحقاق الرّجاء ، فأمّا من ينهمك فيما يكرهه الله و لا يذمّ نفسه عليه

---

(١) الاعراف : ١٦٩ . (٢) الكهف : ٣٥ و ٣٦ .

(٣) المصدر : ج ٢ ص ٦٨ تحت رقم ٦ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٧١ تحت رقم ١١ .

(٥) البقرة : ٢١٨ .

ولا يعزم على التوبة و الرّجوع فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بثّ البذر في أرض سبخة عزم على أن لا يتعهّده بسقي ولا تنقية .

قال يحيى بن معاذ : من أعظم الاغترار عندي التمادي في الذّنوب مع رجاء العفو من غير ندامة ، وتوقّع القرب من الله عزّ وجلّ بغير طاعة ، وانتظار زرع الجنّة ببذر النار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بغير عمل ، والتمنّي على الله عزّ وجلّ مع الإفراط ، فإذا عرفت حقيقة الرّجاء و مظنّته فقد علمت أنّها حالة أثمرها العلم بجريان أكثر الأسباب ، و هذه الحالة تثمر الجهد للقيام ببقيّة الأسباب على حسب الإمكان فإنّ من حسن بذره وطابت أرضه و غزر ماؤه صدق رجاؤه فلا يزال يحمله صدق الرّجاء على تفقّد الأرض و تعهّدها و تنحية كلّ حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهّدها أصلاً إلى وقت الحصاد و هذا لأنّ الرّجاء يضادّه اليأس و اليأس يمنع من التعهّد فمن عرف أنّ الأرض سبخة و أنّ الماء مغور و أنّ البذر لا ينبت فيترك لامحالة تفقّد الأرض و التعب في تعهّدها و الرّجاء محمودٌ لأنّه باعث و اليأس مذموم وهو ضدّه لأنّه صارف عن العمل و الخوف ليس بضدّ للرّجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرّهبة كما أنّ الرّجاء باعث بطريق الرّغبة فإذن حال الرّجاء يورث طول المجاهدة بالأعمال و المواظبة على الطاعات كيف ما تقلّبت الأحوال ، و من آثاره التلذّذ بدوام الإقبال على الله و التنعّم بمناجاته و التلطّف في التملّق له . فإنّ هذه الأحوال لابدّ و أن تظهر على كلّ من يرجو ملكاً من الملوك أو شخصاً من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حقّ الله تعالى ، فإن كان ذلك لايظهر فليستدلّ به على الحرمان عن مقام الرّجاء و النزول في حضيض الغرور و التمنّي فهذا هو البيان لحال الرجاء و لما أثمره من العلم و لما استثمر منه من العمل و يدلّ على أثماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلّى الله عليه وآله : جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد و علامته فيمن لايريد فقال : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت اُحبّ الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني شيء منه حزنت عليه وحننت

إليه فقال : هذه علامة الله فيمن يريد فلو أرادك بالآخرى هيّأك لها ثمّ لايبالي في أيّ أوديتها هلكت » (*) فقد ذكر عليه‌السلام علامة من اُريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراداً بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور .

(بيان فضيلة الرّجاء والترغيب فيه)

إعلم أنّ العمل على الرّجاء أعلى منه على الخوف لأنّ أقرب العباد إلى الله تعالى أحبّهم إليه و الحبّ يغلب الرّجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ، ولذلك وردفي الرّجاء وحسن الظنّ رغائب لاسيّما وقت الموت قال : « لا تقنطوا من رحمة الله » [1] فحرّم أصل اليأس .

و في أخبار يعقوب عليه‌السلام انّ الله تعالى أوحى إليه أتدري لم فرّقت بينك وبين يوسف ؟ لقولك : « إنّي أخاف أن يأكله الذّئب وأنتم عنه غافلون » لم خفت الذّئب و لم ترجني ، ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له ؟! .

وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله : « لا يموتنّ أحدكم إلّا وهو يحسن الظنّ بالله » [2] وقال صلى‌الله‌عليه‌وآله : يقول الله عزّوجلّ : « أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء » [3] . ودخل صلى‌الله‌عليه‌وآله على رجل و هو في النزع فقال : « كيف تجدك ؟ قال : أجدني أخاف ذنوبي و أرجو رحمة ربّي فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله : مااجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلّا أعطاه الله ما رجا وآمنه ممّا يخاف » [4] .

و قال عليّ عليه‌السلام لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه : « يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك » [5] وعيّر الله قوماً فقال : « وذلكم ظنّكم الّذي

(*) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف و فيه أنه قال : « أنت زيد الخير » .

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) أخرجه مسلم وابن ماجه و أبو داود و أحمد من حديث جابر بسند صحيح كما في الجامع الصغير .

(٣) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٢٤٠ من حديث واثلة بن الاسقع بسند حسن .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٦١ .

(٥) ما عثرت عليه من كلام أمير المؤمنين عليه‌السلام نعم في خبر حميد بن قحطبة المروي في عيون أخبار الرضا عليه‌السلام نحوه .

ظننتم بربّكم أرديكم »[1] و قال تعالى : « ظننتم ظنّ السوء و كنتم قوماً بوراً »[2].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : مامنعك إذ رأيت المنكر أن تنكره فإن لقّنه الله حجّته قال : يا ربّ رجوتك وخفت الناس ، قال : فيقول الله تعالى : قد غفرته لك »[3].

وفي الخبر الصحيح « أنّ رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن المعسر، فلقى الله ولم يعمل خيراً قطّ فقال الله عزّ و جلّ : من أحقّ بذلك منّا فعفى عنه بحسن ظنّه و رجائه أنّه يعفى عنه مع إفلاسه عن الطاعات »[4] و قال الله تعالى : « إنّ الّذين يتلون كتاب الله و أقاموا الصلاة و أنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً و علانية يرجون تجارة لن تبور »[5] ولما قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً و لخرجتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم و تجأرون إلى ربّكم فهبط جبرئيل عليه السلام فقال : إنّ ربّك عزّ و جلّ يقول : لم تقنط عبادي ؟ فخرج فرجاً و بشّرهم »[6].

وفي الخبر « أنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحبّني و أحبّ من يحبّني و حبّبني إلى خلقي فقال : يا ربّ كيف اُحبّبك إلى خلقك ؟ قال : اذكرني بالحسن الجميل و اذكر آلائي وإحساني وذكّرهم ذلك فإنّهم لايعرفون منّي إلّا الجميل .

و في الخبر أنّ رجلاً من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدّد عليهم قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : اليوم أو يسك من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ رجلاً يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي : يا

---

(١) فصلت : ٢٣ . (٢) الفتح : ١٢ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٠١٧ من حديث أبي سعيد الخدري .

(٤) أخرجه مسلم ج ٥ ص٣٢ من حديث حذيفة و قدتقدم . (٥) الفاطر : ٢٣ .

(٦) قال العراقي : أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه بزيادة « و لخرجتم الى الصعدات » أحمدوالحاكم وقدتقدم . أقول : رواه الحاكم ج٤ ص٥٧٩ من حديث أبي ذر والبغوي في المصابيح ج٢ ص ١٨١ .

حنّان يا منّان فيقول الله تعالى لجبرئيل : اذهب فأتني بعبدي قال : فيجيء به فيوقفه على ربّه فيقول الله : كيف وجدت مكانك ؟ فقال : شرّ مكان ، قال : فيقول : ردّوه إلى مكانه ، قال فيمشي ويلتفت إلى ورائه فيقول الله عزّ وجلّ : إلى أي شيء تلتفت ؟ فيقول : لقد رجوت أن لا تعيدني إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى : اذهبوا به إلى الجنّة » (١) فدلّ هذا على أنّ رجاءه كان سبب نجاته .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله قال الله تعالى : لا يتّكل العاملون على أعمالهم الّتي يعملونها لثوابي فإنّهم لو اجتهدوا و أتعبوا أنفسهم - أعمارهم - في عبادتي كانوا مقصّرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي و النعيم في جنّاتي و رفيع الدّرجات العلى في جواري ، ولكن برحمتي فليثقوا و بفضلي فليرجوا و إلى حسن الظنّ بي فليطمئنّوا ، فإنّ رحمتي عند ذلك تدركهم و منّي يبلغهم رضواني ومغفرتي تلبسهم عفوي فإنّي أنا الله الرّحمن الرّحيم وبذلك تسمّيت » (٢).

و عنه عليه السلام قال : « وجدنا في كتاب عليّ عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : وهو على منبره : والّذي لا إله إلّا هو ما اُعطي مؤمن قطّ خير الدّنيا والآخرة إلّا بحسن ظنّه بالله ورجائه له وحسن خلقه والكفّ عن اغتياب المؤمنين ، والّذي لا إله إلّا هو لا يعذّب الله مؤمناً بعد التوبة والاستغفار إلّا بسوء ظنّه بالله وتقصيره من رجائه و سوء خلقه واغتيابه للمؤمنين ، والّذي لا إله إلّا هو لا يحسن ظنّ عبد مؤمن بالله إلّا كان الله عند ظنّ عبده المؤمن لأنّ الله كريم بيده الخيرات يستحيي أن يكون عبده المؤمن قد أحسن به الظنّ ثمّ يخلف ظنّه و رجاءه ، فأحسنوا بالله الظنّ و ارغبوا إليه» (٣).

و عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال : «أحسن الظنّ بالله فإنّ الله تعالى يقول : أنا عند ظنّ عبدي المؤمن بي إن خيراً فخير و إن شراً فشرّ » (٤).

و عن الصادق عليه السلام «حسن الظنّ بالله أن لا ترجو إلّا الله ولا تخاف إلّا ذنبك » (٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب مقطوعاً عن زيد بن أسلم . (المغني)

(٢) و (٣) المصدر ج ٢ ص ٧١ تحت رقم ١ و ٢ .

(٤) و (٥) المصدر ج ٢ ص ٧٢ تحت رقم ٣ و ٤ .

✡(بيان دواء الرجاء و السبب الّذى يحصل منه حال الرّجاء ويغلب)✡

إعلم أنّ هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إمّا رجلٌ غلب عليه اليأس فترك العبادة وإمّا رجلٌ غلب عليه الخوف فأسرف في المواظبة على العبادة حتّى أضرّ بنفسه و أهله و هذان رجلان مايلان عن الاعتدال إلى طرفي الإفراط و التفريط فيحتاجان إلى علاج يردّهما إلى الاعتدال فأمّا العاصي المغرور المتمنّي على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرّجاء تنقلب سموماً في حقّه مهلكة و تنزل منزلة العسل الّذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد و هو سمّ مهلك لمن غلب عليه الحرارة ، بل المغرور لا يستعمل في حقّه إلّا أدوية الخوف و الأسباب المهيّجة له ، فلهذا يجب أن يكون واعظ الخلق متلطّفاً ناظراً إلى مواقع العلل معالجاً لكلّ علّة بما يضادّها لا بما يزيد فيها ، فإنّ المطلوب هو العدل و القصد في الصفات والأخلاق كلّها و خير الأمور أوساطها فإذا جاوز الوسط إلى أحد الطرفين عولج بما يردّه إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط ، و هذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق أسباب الرّجاء بل المبالغة في التخويف أيضاً تكاد أن لا تردّهم إلى جادّة الحقّ وسنن الصواب ، فأمّا ذكر أسباب الرّجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلّيّة ولكنّها لمّا كانت أخفّ على القلوب و ألذّ عند النفوس و لم يكن غرض الوعّاظ إلّا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيف ما كانوا مالوا إلى الرجاء حتّى ازداد الفساد فساداً وازداد المنهمكون في طغيانهم تمادياً .

قال عليّ عليه السلام : « إنّما العالم الّذي لا يقنط الناس من رحمة الله و لا يؤمنهم من مكر الله » (١) و نحن نذكر أسباب الرّجاء ليستعمل في حقّ الآيس أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله فإنّهما مشتملان على الخوف والرّجاء جميعاً لأنّهما جامعان لأسباب الشفاء في حقّ أصناف المرضى ، ليستعمله العلماء الّذين هم ورثة الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق

(١) رواه الكلينى فى الكافى ج ١ ص ٣٦ تحت رقم ٣ و فيه « ولم يؤمنهم من عذاب الله »

لا استعمال الأخرق الّذي يظنّ أنّ كلّ شيء من الأدوية صالح لكلّ مريض كيف ما كان، و حال الرّجاء يغلب بفنّين أحدهما الاعتبار و الآخر استقراء الآيات و الأخبار والآثار.

أمّا الاعتبار فهو أن يتأمّل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب الشكر حتّى إذا علم لطائف نعم الله لعباده في الدّنيا وعجائب حكمه الّتي راعاها في فطرة الإنسان حتّى أعدّ له في الدّنيا كلّ ما هو ضروريّ له في دوام الوجود كآلات الغذاء و ما هو محتاج إليه كالأصابع و الأظفار و ما هو زينة له كاستقواس الحاجبين و اختلاف ألوان العينين و حمرة الشفتين و غير ذلك ممّا كان لا ينثلم بفقده غرض مقصود، و إنّما كان يفوت به مزيّة جمال فالعناية الإلهيّة إذا لم تقصر عن عباده في أمثال هذه الدّقائق حتّى لم يرض لعباده أن يفوتهم المزائد والمزايا في الزّينة و الحاجة كيف يرضى بسياقهم إلى الهلاك المؤبّد، بل إذا نظر الإنسان نظراً شافياً علم أنّ أكثر الخلق قد هيّىء له أسباب السعادة في الدّنيا حتّى أنّه يكره الانتقال من الدّنيا بالموت وإن اُخبر بأنّه لا يعذّب بعد الموت أبداً مثلاً أو لا يحشر أصلاً، فليست كراهتهم للعدم إلّا لأنّ أسباب النعم أغلب لامحالة وإنّما الّذي يتمنّى الموت نادرٌ ثمّ لا يتمنّاه إلّا في حالة نادرة و واقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدّنيا الغالب عليه الخير والسّلامة، فسنّة الله لا تجد لها تبديلاً فالغالب أنّ أمر الآخرة هكذا يكون لأنّ مدبّر الدّنيا و الآخرة واحد و هو غفورٌ رحيمٌ لطيف بعباده متعطّفٌ عليهم، فهذا إذا تأمّل حقّ التأمّل قوى به أسباب الرّجاء.

و من الاعتبار أيضاً النظر في حكمة الشريعة و سننها في مصالح الدّنيا و وجه الرّحمة للعباد بها حتّى كان بعض العارفين يرى آية المداينة في البقرة من أقوى أسباب الرّجاء، فقيل له: وما فيها من الرّجاء؟ فقال: الدّنيا كلّها قليلٌ و رزق الإنسان منها قليلٌ و الدّين قليل من رزقه، فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الّذي لا عوض له منه.

الفن الثاني استقراء الآيات و الأخبار فما ورد في الرّجاء خارج عن الحصر أمّا الآيات فقد قال الله تعالى : « يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذّنوب جميعاً » [١] و في قراءة رسول الله صلّى الله عليه وآله « و لا يبالي إنّه هو الغفور الرّحيم » [٢] .

وقال تعالى : « والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم ويستغفرون لمن في الأرض » [٣] .

و أخبر تعالى أنّ النار أعدّها لأعدائه و إنّما خوّف بها أولياءه فقال : « اتّقوا النار الّتي اُعدّت للكافرين » [٤] .

و قال تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوّف الله به عباده » [٥] و قال تعالى : « فأنذرتكم ناراً تلظّى ۞ لا يصليها إلّا الأشقى ۞ الّذي كذّب وتولّى » [٦] وقال : « و إنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » [٧] .

و يقال : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لم يزل يسأل في اُمّته حتّى قيل له : أما ترضى و قد اُنزلت عليك هذه الآية « وإنّ ربّك لذو مغفرة للناس على ظلمهم » .

و في تفسير قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربّك فترضى » [٨] قال : لا يرضى محمّد و واحد من اُمّته في النار . وكان أبو جعفر محمّد بن عليّ عليهما السلام يقول : أنتم أهل العراق تقولون : أرجى آية في كتاب الله عزّ وجلّ « يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله - الآية - » ونحن أهل البيت نقول : أرجى آية في كتاب الله قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربّك فترضى » [٩] .

وأما الأخبار فقد روي عنه صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « اُمّتي اُمّة مرحومة لا عذاب

---

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) أخرجه الترمذي ج ١٢ ص ١١٨ من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

(٣) الشورى : ٥ .

(٤) آل عمران : ١٣١ .

(٥) الزمر : ١٦ .

(٦) الليل : ١٥ و ١٦ و ١٧ .

(٧) الرعد : ٦ .

(٨) الضحى : ٦ .

(٩) لم أجده من كلامه عليه السلام انما هو من كلام محمد بن على ابن الحنفية كما في تفسير المجمع ذيل الاية .

عليها في الآخرة وعجّل الله عقابها في الدّنيا الزّلازل و الفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كلّ رجل من اُمّتي رجلٌ من أهل الكتاب فقيل : هذا فداؤك من النار»[1] ـ و في لفظ آخر ـ « يأتي كلّ رجل من هذه الأمّة بيهودي أو نصراني إلى جهنّم فيقول : هذا فداي من النار فيلقى فيها »[2].

أقول : في أخبار أهل البيت عليهم السلام : « أنّ النصّاب يجعلون فداء لشيعتهم بظلمهم إيّاهم و وقيعتهم فيهم»[3].

و في تفسير أبي محمّد العسكري عن الصادق عليه السلام قال : و سيؤتى بالواحد من مقصّري شيعتنا في أعماله بعد أن صان الولاية و التقيّة و حقوق إخوانه ويوقف بإزائه ما بين مائة و أكثر من ذلك إلى مائة ألف من النصّاب فيقال له : هؤلاء فداؤك من النار فيدخل هؤلاء المؤمنون إلى الجنّة واُولئك النصّاب إلى النار وذلك ما قال الله تعالى : «ربما يودّ الّذين كفروا لو كانوا مسلمين»[4] في الدّنيا منقادين للإمامة ليجعل مخالفوهم من النار فداءهم ».

قال أبو حامد : و قال عليه السلام : « الحمّى من فيح جهنّم وهي حظّ المؤمن من النّار »[5]. و روي في تفسير قوله تعالى : «يوم لايخزي الله النبيّ والّذين آمنوا معه»[6] إنّ الله أوحى إلى نبيّه عليه السلام أنّي أجعل حساب اُمّتك إليك فقال : لا يا ربّ أنت

---

(١) أخرجه أبو داود و الحاكم و الطبرانى فى الكبير و البيهقى فى الشعب من حديث أبى موسى بسند صحيح كما فى الجامع الصغير بدون ذكر « فاذا كان يوم القيامة».

(٢) أخرجه الطيالسى فى الجزء الثامن من مسنده تحت رقم ٤٩٩ بأدنى اختلاف وكذلك مسلم فى صحيحه من حديث أبى موسى .

(٣) راجع بحار الانوار ج ٣ ص ٢٤٦ الى ٢٥٠ باب أحوال المتقين و المجرمين يوم القيامة .

(٤) الحجر : ٢ . وفى تفسير البرهان ج ٢ ص ٣٢٥ زاد بعد قوله : « مسلمين » بفتح السين و تشديد اللام .

(٥) روى الكلينى فى الكافى ج ٣ ص ١١١ عن الصادق عليه السلام « الحمى رائد الموت و هو سجن الله فى الارض و هو حظ المؤمن من النار ». (٦) التحريم : ٨.

ارحم بهم منّي ، فقال : إذن لا اُخزيك فيهم »(١)

و روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سأل ربّه في ذنوب اُمّته فقال : يا ربّ اجعل حسابهم إليّ لئلّا يطّلع على مساويهم غيري ، فأوحى الله تعالى إليه هم اُمّتك و هم عبادي و أنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري لئلّا تنظر إلى مساويهم أنت ولا غيرك »(٢).

قال صلى الله عليه وآله : « حياتي خيرٌ لكم و موتي خيرٌ لكم أمّا حياتي فأسنّ لكم السنن وأشرع لكم الشرائع ، وأمّا موتي فإنّ أعمالكم تعرض عليّ فما رأيت منها حسناً حمدت الله تعالى عليه وما رأيت منها سيّئاً استغفرت الله لكم »(٣)

و قال صلى الله عليه وآله يوماً : يا كريم العفو ، فقال جبرئيل : تدري ما تفسير يا كريم العفو ؟ هو إن عفا عن السيّئات برحمته بدّلها حسنات بكرمه »(٤).

و في الخبر « إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله عزّ وجلّ لملائكته : انظروا إلى عبدي أذنب ذنباً فعلم أنّ له ربّاً يغفر الذّنوب و يأخذ بالذّنوب اُشهد كم أنّي قد غفرت له »(٥) وفي الخبر « لو أذنب العبد حتّى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها لمن استغفرني ورجاني »(٦) و في الخبر « لو لقيني عبدي بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب

---

(١) قال العراقى : أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله

(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٣) أخرجه البزار من حديث ابن مسعود و رجاله رجال الصحيح (المغنى) وأخرجه ابن سعد عن بكر بن عبدالله مرسلا بسند حسن كما فى الجامع الصغير .

(٤) قال العراقى : لم أجده عن النبى صلى الله عليه و آله انما الموجود عن ابراهيم الخليل عليه السلام رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة من قول عتبة بن الوليد ، و رواه البيهقى فى الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال : حدثنى بعض الزهاد .

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٧ باختلاف ، و رواه البخارى فى الصحيح من حديث أبى هريرة .

(٦) أخرجه الترمذى ج ١٣ ص ٥٩ بأدنى اختلاف من حديث أنس و قال : حسن .

الأرض مغفرة»[١] و في الحديث « إنّ الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ستّ ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلّا كتبها سيئة » وفي لفظ آخر « فإذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال وهو أمير عليه : ألق هذه السيّئة حتّى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشرة و ارفع له تسع حسنات ، فتلقى عنه هذه السيّئة »[٢] .

و روي أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه ، فقال أعرابيّ : و إن تاب عنه ؟ قال : محي عنه ، قال : فإن عاد ؟ قال عليه السلام : يكتب عليه ، فقال الأعرابي : فإن تاب ؟ قال : محي من صحيفته ، قال : إلى متى ؟ قال : إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عزّ وجلّ إنّ الله لا يملّ من المغفرة حتّى يملّ العبد من الاستغفار فإذا همّ العبد بحسنة كتبها صاحب اليمين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثمّ يضاعفها الله عزّ و جلّ إلى سبعمائة ضعف ، و إذا همّ بخطيئة لم تكتب عليه فإن عملها كتبت خطيئة واحدة و وراءها حسن عفو الله عزّ وجلّ »[٣]

و جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إنّي لا أصوم إلّا الشهر لا أزيد عليها . وليس لله في مالي صدقة ولا حجّ ولا تطوّع أين أنا إذا متّ فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و قال : نعم معي إن حفظت قلبك من اثنتين الغلّ و الحسد ، و لسانك من اثنتين الغيبة و الكذب ، و عينك من اثنتين النظر إلى ما حرّم الله عزّ و جلّ

(١) أخرجه الطبرانى و زاد فيه « لا يشرك بى شيئاً » بسند مجهول كمافى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٦ . و رواه الترمذى من حديث الذى قبله ج ١٣ ص ٦٠ و رواه أحمد فى مسنده من حديث أبى ذر

(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أبى امامة بسند فيه لين باللفظ الاول ، و رواه أيضاً أطول منه و فيه « ان صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال » و ليس فيه انه يأمر صاحب الشمال بالقاء السيئة حتى يلقى من حسناته واحدة ، ولم أجد لذلك أصلا (قاله العراقى) أقول : ورواه الطبرانى فى الكبير باختلاف راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٨.

(٣) أخرج صدره الى قوله « حتى يمل العبد من الاستغفار » الطبرانى فى الكبير والاوسط من حديث عقبة بن عامر واسناده حسن كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٠٠

و أن تزدري بهما مسلماً دخلت معي الجنّة على راحتي هاتين »[١] و في الحديث إنّ أعرابيّاً قال : يا رسول الله من يلي حساب الخلق ؟ فقال : الله تبارك و تعالى ، قال : هو بنفسه ؟ قال : نعم ، فتبسّم الأعرابيّ ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : ممّ ضحكت يا أعرابي ؟ فقال : إنّ الكريم إذا قدر عفا ، و إذا حاسب سامح ، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم صدق الأعرابيّ ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ، ثمّ قال : فقه الأعرابيّ »[٢] و فيه أيضاً أنّ الله تعالى شرّف الكعبة وعظّمها ، ولو أنّ عبداً هدمها حجراً حجراً ثمّ أحرقها ما بلغ جرم من استخفّ بوليّ من أولياء الله تعالى ، قال الأعرابيّ ومن أولياء الله ؟ قال : المؤمنون كلّهم أما سمعت قول الله عزّ وجلّ : « الله وليّ الّذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور »[٣].

وفي بعض الأخبار « المؤمن أفضل من الكعبة »[٤] « والمؤمن طيّب طاهر »[٥] « والمؤمن أكرم على الله تعالى من الملائكة »[٦] . و في الخبر « خلق الله جهنّم من فضل رحمته سوطاً يسوق الله به عباده إلى الجنّة »[٧].

و في خبر آخر « يقول الله عزّ وجلّ : إنّما خلقت الخلق ليربحوا عليّ ولم أخلقهم لأربح عليهم »[٨] و في حديث أبي سعيد الخدريّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما خلق الله تعالى شيئاً إلّا جعل له ما يغلبه و جعل رحمته تغلب غضبه »[٩] و في

---

(١) قد تقدم سابقاً .

(٢) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٣) قال العراقى : لم أجد له أصلا . والاية فى سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٣٢ بلفظ « ما أعظمك و أعظم حرمتك والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك ماله و دمه و أن نظن به الاخيرا » .

(٥) قال العراقى : لم أجده أصلا بهذا اللفظ وفى الصحيحين « المؤمن لاينجس » .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٩٤٧ من رواية أبى مهزم عن أبى هريرة .

(٧) ما عثرت على أصل له ، وروى البخارى و أبو داود و أحمد بسند صحيح من حديث أبى هريرة « عجب ربنا من قوم يقادون الى الجنة فى السلاسل » .

(٨) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٩) أخرجه أبو الشيخ ابن حبان فى الثواب . (المغنى)

الخبر المشهور « إنّ الله تعالى كتب على نفسه الرّحمة قبل أن يخلق الخلق إنّ رحمتي تغلب غضبي »(١).

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من قال : لا إله إلّا الله دخل الجنّة »(٢).

« و من كان آخر كلامه قول لا إله إلّا الله لم تمسّه النار »(٣).

« و من لقي الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار »(٤).

« ولا يدخلها من في قلبه وزن مثقال ذرّة من إيمان »(٥) وفي خبر آخر « لو علم الكافر سعة رحمة الله ما ايس من جنّته أحد »(٦) و لما تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله تعالى : « إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم »(٧) قال : أتدرون أيّ يوم هذا ؟ هذا يوم يقال لآدم عليه السلام قم فابعث بعث النّار من ذرّيتك فيقول : كم ؟ فيقال : من كلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النّار و واحدة إلى الجنّة ، قال : فأبلس القوم وجعلوا يبكون وتعطّلوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : مالكم لا تعملون ، فقالوا : و من يشتغل بعمل بعد ما حدّثتنا بهذا ؟ فقال : كم أنتم في الاُمم أين تاويل و ثاريس و منسك و يأجوج و مأجوج اُمم لا يحصيها إلّا الله تعالى إنّما أنتم في سائر الاُمم كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود وكالرقمة في ذراع الدّابة »(٨).

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٥ من حديث أبى هريرة هكذا « لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده ان رحمتى تغلب غضبى » .

(٢) رواه الطبرانى فى الاوسط والكبير من حديث أبى سعيد الخدرى كما فى مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨ .

(٣) أخرجه أبوداود والحاكم و صححه من حديث معاذ بلفظ « دخل الجنة » .

(٤) أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث سلمة بن نعيم الاشجعى و رواه أحمد و رجاله ثقات كما فى مجمع الزوائد ج ١ ص ١٨ . (٥) تقدم نحوه .

(٦) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٧ من حديث أبى هريرة باختلاف . (٧) الحج : ٢ .

(٨) أخرجه البخارى ج ٦ ص ١٢٢ و سعيد بن منصور و أحمد و عبد بن حميد و الترمذى و صححه و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبى حاتم و الحاكم وصححه و ابن مردويه من طرق عن الحسن و عمران بن حصين و غيره كما فى الدر المنثور ج ٤ ص ٣٤٣ .

فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمّة الرّجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أوّلاً فلمّا خرج بهم عن حدّ الاعتدال إلى إفراط اليأس داواهم بدواء الرّجاء و ردّهم إلى الاعتدال و القصد والأخير لم يكن مناقضاً للأوّل ولكن ذكر في الأوّل ما رآه سبباً للشفاء و اقتصر عليه فلمّا احتاجوا إلى المعالجة بالرّجاء ذكر تمام الأمر ، فعلى الواعظ أن يقتدي بسيّد الوعّاظ فيتلطّف في استعمال أخبار الخوف و الرّجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة العلل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر ممّا يصلحه .

و في الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله تعالى خلقاً يذنبون فيغفر لهم » و في لفظ آخر « لذهب بكم و جاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنّه هو الغفور الرحيم »[1].

و في الخبر « لولم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شرّ من الذّنوب ، قيل : ما هو ؟ قال : العجب »[2].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «و الّذي نفسي بيده لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها »[3].

و في الخبر « ليغفرنّ الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قطّ على قلب أحد حتّى أنّ إبليس ليتطاول لها رجاء أن تصيبه »[4].

و في الخبر « إنّ لله مائة رحمة ادّخر عنده منها تسعاً وتسعين رحمة وأظهر منها في الدّنيا رحمة واحدة فبها يتراحم الخلق فتحنّ الوالدة إلى ولدها وتعطف البهيمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضمّ هذه الرّحمة إلى التسع والتسعين ثمّ بسطها على جميع خلقه و كلّ رحمة منها طباق السماوات والأرضين قال : فلايهلك على الله تعالى

---

(١) أخرجه الطبراني فى الكبير والاوسط بلفظيه من حديث عبدالله بن عمر بسند جيد راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٥ .

(٢) اخرجه البيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(٣) أخرجه الشيخان و الطبرانى فى الكبير كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٣.

(٤) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف كما فى المغنى .

يومئذ إلّا هالك » (١).

و في الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنّة و لا ينجيه من النار ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : و لا أنا إلّا أن يتغمّدني الله تعالى برحمته » (٢).

و قال عليه السلام : « اعملوا وأبشروا و اعلموا أنّ أحداً لن ينجيه عمله » (٣).

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّي اختبأت شفاعتي لأهل الكبائر من اُمّتي أترونها للمطيعين المتّقين بل هي للمخلطين المتلوّثين » (٤).

و قال عليه السلام « بعثت بالحنيفيّة السمحة السهلة » (٥).

و قال عليه السلام : « اُحبّ أن يعلم أهل الكتابين أنّ في ديننا سماحة » (٦) ويدلّ على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم « و لا تحمل علينا إصراً » (٧) و قال : « ويضع عنهم إصرهم و الأغلال الّتي كانت عليهم » (٨) و روى محمّد بن الحنفيّة عن عليّ عليه السلام أنّه قال : « لما نزل قوله تعالى «فاصفح الصفح الجميل» قال : ياجبرئيل و ما الصفح الجميل ؟ قال : إذا عفوت عمّن ظلمك فلا تعاتبه ، فقال : يا جبرئيل فالله أكرم أن يعاتب من عفا عنه ، فبكى جبرئيل و بكى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فبعث الله تعالى إليهما ميكائيل وقال : إنّ ربّكما يقرئكما السلام ويقول : كيف اُعاتب من عفوت عنه هذا ما لا يشبه كرمي » (٩).

---

(١) أخرج صدره مسلم ج ٨ ص ٩٦ من حديث أبى هريرة . و كذا البخارى فى الصحيح ج ٨ ص ١٢٣ و ما عثرت على ذيله .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة و قد تقدم .

(٣) تقدم أيضاً .

(٤) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٧٥ فى مسنده بأدنى اختلاف فى اللفظ من حديث عبدالله بن عمر . و فيه من لم يسم .

(٥) أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة ج ٥ ص ٢٦٦ « دون لفظ « السهلة » .

(٦) قال العراقى : أخرجه أبو عبيد فى غريب الحديث و أحمد .

(٧) البقرة : ٢٨٦ . (٨) الاعراف : ١٥٧ .

(٩) أخرجه ابن مردويه وابن النجار عن على عليه السلام هكذا « فاصفح الصفح الجميل ←

و قال عليٌّ عليه السلام : « من أذنب ذنباً فستره الله عليه في الدُّنيا فالله أكرم أن يكشف ستره في الآخرة ، و من أذنب ذنباً فعوقب عليه في الدُّنيا فالله تعالى أعدل من أن يثنّي عقوبته على عبده في الآخرة »[١].

وفي الحديث « إنَّ رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عزَّ وجلَّ فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويزجره وكان يقول : دعني و ربّي أبعثت عليَّ رقيباً ، حتّى رآه ذات يوم على كبيرة فغضب فقال : لايغفر الله لك قال : فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيستطيع أحد أن يحظر رحمتي على عبادي إذهب أنت فقد غفرت لك ثمَّ يقول للعابد : وأنت فقد أوجبت لك النار قال : فو الّذي نفسي بيده لقد تكلّم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته »[٢].

و روي أنَّ لصّاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فمرَّ عليه عيسى عليه السلام و خلفه عابد من عبّاد بني إسرائيل من الحواريّين فقال اللّصُّ في نفسه : هذا نبيُّ الله يمرُّ و إلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً ، قال : فنزل فجعل يريد أن يدنو من الحواريّ فيزدري نفسه تعظيماً للحواريّ ويقول في نفسه : مثلي لايمشي إلى جنب هذا العابد قال : و أحسّ به الحواريُّ فقال في نفسه : هذا يمشي إلى جانبي فضمَّ منه نفسه و تقدَّم إلى عيسى عليه السلام فمشى إلى جانبه فبقي اللّصُّ خلفه قال : فأوحى الله تعالى إلى عيسى قل لهما ليستأنفا العمل فقد أحبطت ما سلف من أعمالهما أمّا الحواري فقد أحبطت حسناته لعجبه بنفسه وأمّا الآخر فقد أحبطت سيّئاته بما ازدرى على نفسه فأخبرهما بذلك و ضمَّ اللّصُّ إليه في سياحته وجعله من حواريه » . وفي الأثر أنَّ رجلين كانا من العابدين متساوين في العبادة قال: فإذا أدخلا الجنّة رفع أحدهما في الدَّرجات العلى على صاحبه فيقول : يا ربِّ ما

— الرضا بغير عتاب » وكذا رواه الصدوق فى العيون عن الرضا عليه السلام و ما عثرت على رواه المصنف .

(١) تقدم نحوه عن النبى صلى الله عليه وآله .

(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٥٧٣ من حديث أبى هريرة باسناد جيد .

كان هذا في الدّنيا بأكثر منّي عبادة فرفعته عليّ في علّيين ؟ فيقول الله سبحانه : إنّه كان يسألني في الدّنيا الدّرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كلّ عبد سؤله . وهذا يدلّ على أنّ العبادة على الرّجاء أفضل لأنّ المحبّة أغلب على الرّاجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتّقاء لعقابه و بين من يخدم ارتجاءً لإنعامه و إكرامه . و لذلك أمر الله تعالى بحسن الظنّ و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « سلوا الله الدّرجات العلى فإنّما تسألون كريماً »(١).

و قال : «إذا سألتم الله فأعظموا الرّغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإنّ الله لا يتعاظمه شيء »(٢).

و قال يحيى بن معاذ في مناجاته : يكاد رجائي لك من الذّنوب يغلب رجائي إيّاك مع الأعمال لأنّي أعتمد في الأعمال على الإخلاص و كيف أحرزها و أنا بالآفة معروف وأجدني في الذّنوب أعتمد على عفوك و كيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

وقيل : إنّ مجوسيّاً استضاف إبراهيم الخليل عليه السلام فقال : إن أسلمت أضفتك فمرّ المجوسيّ فأوحى الله تعالى إلى إبراهيم يا إبراهيم لم تطعمه إلّا بتغيير دينه ونحن منذ سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ما ذا كان عليك ، فمرّ إبراهيم يسعى خلف المجوسيّ فردّه وأضافه فقال المجوسيّ : ما السبب فيما بدالك ؟ فذكر له ، فقال المجوسيّ : أ هكذا يعاملني ، ثمّ قال : اعرض عليّ الإسلام فأسلم . وقيل: كان رجل شرّيب جمع قوماً من ندمائه و دفع إلى غلام له أربعة دراهم و أمره أن يشتري شيئاً من الفواكه للمجلس، فمرّ الغلام بباب منصور بن عمّار و هو يسأل لفقير شيئاً و يقول : من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات ، قال : فدفع الغلام الدّراهم إليه فقال منصور : ما الّذي تريد أن أدعو لك فقال : لي سيّد أريد

---

(١) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ وللترمذي من حديث ابن مسعود « سلوا الله من فضله ان الله يحب أن يسئل ».

(٢) روى نحوه مسلم ج ٨ ص ٦٣ من حديث أبي هريرة . و في سنن الترمذي ج ١٠ ص ٧ في ذيل حديث عن معاذ بن جبل « فاذا سألتم الله فسلوه الفردوس ».

أن أتخلّص منه ، فدعا منصور ، و قال : الآخر ؟ فقال : أن يُخلف الله عليّ دراهمي. فدعا ، ثمّ قال : الآخر ؟ فقال : يتوب الله على سيّدي فدعا ، ثمّ قال : الآخر؟فقال : أن يغفر الله لي ولسيّدي ولك وللقوم ، فدعا منصور ، فرجع الغلام فقال له سيّده : لم أبطأت فقصّ عليه القصّة فقال : وبم دعا فقال : سألت لنفسي العتق ، فقال : اذهب فأنت حرّ ، قال : وأيش الثاني فقال : أن يُخلف الله عليّ الدّراهم ، فقال : لك أربعة آلاف درهم ، وأيش الثالث ؟ قال : أن يتوب الله عليك ، فقال : تبت إلى الله ، و أيش الرّابع ؟ فقال : أن يغفر الله لي ولك وللقوم و للمذكّر ، فقال : هذا الواحد ليس إليّ فلمّا بات تلك اللّيلة رأي في المنام كأنّ قائلاً يقول له : أنت فعلت ماكان إليك أفترى أنّي لا أفعل ما إليّ قد غفرت لك و للغلام و لمنصور بن عمّار و للقوم الحاضرين أجمعين .

وقال إبراهيم الأطروش : كنّا قعوداً ببغداد مع المعروف الكرخي على دجلة إذ مرّ قوم أحداث في زورق يضربون بالدّف و يشربون و يلعبون ، فقالوا لمعروف : أمّا تراهم يعصون الله مجاهرين ادع الله عليهم ، فرفع يده وقال : إلهي كما فرحتهم في الدّنيا ففرّحهم في الآخرة ، فقال القوم : إنّما سألناك أن تدعو عليهم فقال : إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم .

و كان بعض السلف يقول في دعائه : يا ربّ وأيّ أهل دهر لم يعصوك ثمّ كانت نعمتك عليهم سابغة و رزقك عليهم دارّا ، سبحانك ما أحلمك و عزّتك إنّك لتعصى ثمّ تسبغ النعمة و تدرّ الرّزق حتّى لكأنّك يا ربّنا إنّما تطاع ، سبحانك ما أحلمك تعصى و تدرّ الرّزق و تسبغ النعمة حتّى لكأنّك يا ربّنا لا تغضب . فهذه هي الأسباب الّتي يجلب بها روح الرّجاء إلى قلوب الخائفين و الآيسين ، فأمّا الحمقى المغرورون فلا ينبغي أن يسمعوا شيئاً من ذلك بل يسمعون ما سنورده في أسباب الخوف فإنّ أكثر الناس لا يصلح إلّا على الخوف كالعبد السوء والصبيّ العرم الّذي لا يستقيم إلّا بالسوط و العصا وإظهار الخشونة في الكلام فأمّا ضدّ ذلك فيسدّ عليهم باب الصلاح في الدّين والدّنيا .

☼(الشطر الثاني من الكتاب في الخوف)☼

و فيه بيان حقيقة الخوف و بيان درجات الخوف ، و بيان أقسام المخاوف ، وبيان فضيلة الخوف ، وبيان الأفضل من الخوف والرّجاء ، و بيان دواء الخوف ، وبيان معنى سوء الخاتمة ، وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء والصالحين .

☼(بيان حقيقة الخوف)☼

إعلم أنّ الخوف عبارة عن تألّم القلب و احتراقه بسبب توقّع مكروه في الاستقبال و قد ظهر هذا في بيان حقيقة الرّجاء و من أنس بالله وملك الحقّ قلبه وصار ابن وقته مشاهداً لجمال الحقّ على الدّوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف و الرّجاء فإنّهما زمامان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها و إلى هذا أشار الواسطيّ حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد ، وقال أيضاً : إذا ظهر الحقّ على السرائر لايبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف ، وبالجملة فالمحبّ إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصاً في الشهود ، و إنّما دوام الشهود غاية المقامات ولكنّا الآن إنّما نتكلّم في أوائل المقامات ، فنقول : حال الخوف ينتظم أيضاً من علم وحال وعمل : أمّا العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه و ذلك كمن جنى على ملك ثمّ وقع في يده فيخاف القتل مثلاً ويجوّز العفو و الافلات ولكن يكون تألّم قلبه بالخوف بحسب قوّة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاحش جنايته وكون الملك في نفسه حقوداً غضوباً منتقماً ، وكونه محفوفاً بمن يحثّه على الانتقام خالياً عمّن يتشفّع إليه في حقّه ، وكان هذا الخائف عاطلاً عن كلّ وسيلة وحسنة تمحو أثر جنايته عند الملك ، فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سببٌ لقوّة الخوف وشدّة تألّم القلب ، وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف . فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لاحتراق القلب وتألّمه ، و ذلك الاحتراق هو الخوف و كذا الخوف من الله تعالى تارة يكون بمعرفة الله تعالى و معرفة صفاته ، و تارة يكون

لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعاً و بحسب معرفته بعيوب نفسه و معرفته بجلال الله تعالى و استغنائه تكون قوّة خوفه ، فأخوف الناس لربّه أعرفهم بنفسه وبربّه ، و لذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم « أنا أخوفكم لله »[1] و كذلك قال تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء »[2] ثمّ إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف و احتراق القلب ثمّ يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح و على الصفات أمّا في البدن فبالنحول و الصفار والغشية والزّعقة والبكاء وقد تنشقّ به المرارة فيفضي إلى الموت أو يصعد إلى الدّماغ فيفسد العقل أو يقوي فيورث القنوط واليأس ، وأمّا في الجوارح فبكفّها عن المعاصي و تقييدها بالطاعات تلافياً لما فرط و استعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل : ليس الخائف من يبكي ويمسح عينيه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه ، و أمّا في الصفات فهو أن يقمع الشهوات ويكدّر اللّذّات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهاً عند من يشتهيه إذا عرف أنّ فيه سمّاً فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدّب الجوارح ويحصل في القلب الذّبول و الخشوع و الذّلّة و الاستكانة ، ويفارقه الكبر والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهمّ بخوفه و النظر في خطر عاقبته فلا يتفرّغ لغيره و لا يكون له شغل إلّا المراقبة و المحاسبة والمجاهدة و الضنّة بالأنفاس واللّحظات و مؤاخذة النفس في الخطرات و الخطوات والكلمات فيكون ظاهره و باطنه مشغولاً بما هو خائف منه لامتّسع فيه لغيره هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه . وقوّة المراقبة و المجاهدة بحسب قوّة الخوف الّذي هو تألّم القلب واحتراقه و قوّة الخوف بحسب قوّة المعرفة بجلال الله تعالى و صفاته و أفعاله و بعيوب النفس و ما بين يديها من الأخطار والأهوال و أقلّ درجات الخوف ممّا يظهر أثره في الأعمال أن يمنع من المحظورات ، و يسمّى الكفّ الحاصل من المحظورات ورعاً . فإن زادت قوّته كفّ

---

(١) أخرجه البخارى من حديث أنس « والله انى لاخشاكم لله و أتقاكم له » . و للشيخين من حديث عائشة « والله انى لاعلمهم بالله و أشدهم له خشية ». (المغنى)

(٢) فاطر : ٢٨ .

عمّا يتطرّق إليه إمكان التحريف فيكفّ أيضاً عمّا لا يتيقّن أيضاً تحريمه ويسمّى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه ، و قد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس ، و هو الصدق في التقوى ، فإذا انضمّ إليه التجرّد للخدمة فصار لا يبني ما لا يسكنه ، ولا يجمع ما لا يأكله ، و لا يلتفت إلى دنيا يعلم أنّها تفارقه ، ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أنفاسه فهو الصدق و صاحبه جدير بأن يسمّى صدّيقاً ويدخل في الصدق التقوى ، و يدخل في التقوى الورع ، ويدخل في الورع العفّة فإنّها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصّة ، فإذن الخوف يؤثّر في الجوارح بالكفّ و الإقدام . فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف و ما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة الموجبة له و من جانب السفل كالأعمال الصادرة منه كفّاً وإقداماً .

✡(بيان درجات الخوف واختلافه في القوّة والضعف)✡

إعلم أنّ الخوف محمودٌ و ربّما يظنّ أنّ كلّ ما هو محمودٌ كلّما كان أقوى و أكثر كان أحمد ، وهو غلطٌ بل الخوف سوط الله تعالى يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم و العمل لينالوا بهما رتبة القرب من الله تعالى و الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط و كذا الصبيّ ولكن ذلك لا يدلّ على أنّ المبالغة في الضرب محمودٌ فكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال ، و المحمود هو الاعتدال و الوسط فأمّا القاصر منه فهو الّذي يجري مجرى رقّة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدّموع و كذلك عند مشاهدة سبب هائل ، فإذا غاب ذلك السبب عن الحسّ رجع القلب إلى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع ، و هو كالقضيب الضعيف الّذي تضرب به دابّة قويّة لا يؤلمها ألماً مبرحاً فلا يسوقها إلى المقصد ولا يصلح لرياضتها ، و هكذا خوف الناس كلّهم إلّا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء المترسّمين برسوم العلماء والمتسمّين بأسمائهم فإنّهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني به العلماء بالله و بأيّامه وأفعاله و ذلك ممّا قد عزّ وجوده الآن ، و أمّا المفرط فهو الّذي يقوى ويجاوز حدّ الاعتدال حتّى يخرج

إلى اليأس و القنوط و هو مذموم أيضاً لأنّه يمنع من العمل ، و المراد من الخوف ما هو المراد من السوط و هو الحمل على العمل ولولاه لما كان الخوف كمالاً لأنّه بالحقيقة نقصان لأنّ منشأه الجهل والعجز ، أمّا الجهل فهو أنّه ليس يدري عاقبة أمره ولو عرف لم يكن خائفاً لأنّ المخوف هو الّذي يتردّد فيه . و أمّا العجز فهو أنّه متعرّض لمحذور لا يقدر على دفعه فإذن هو محمود بالإضافة إلى نقص الآدميّ و إنّما المحمود في نفسه وذاته هو العلم و القدرة و كلّ ما يجوز أن يوصف الله تعالى به و ما لا يجوز وصف الله به فليس بكمال في ذاته و إنّما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدّواء محموداً لأنّه أهون من ألم المرض و الموت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم و قد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض و الضعف و إلى الوله و الدّهشة و زوال العقل و قد يخرج إلى الموت و كلّ ذلك مذموم وهو كالضرب الّذي يقتل الصبيّ والسوط الّذي يهلك الدّابة أو يمرضها أو يكسر عضواً من أعضائها و إنّما ذكر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أسباب الرّجاء و أكثر منها ليعالج بها صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكلّ ما يراد لأمر فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه و ما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم و فائدة الخوف الحذر والورع و التقوى و المجاهدة و العبادة والفكر و الذّكر و سائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى و كلّ ذلك يستدعي الحياة مع صحّة البدن وسلامة العقل فكلّ ما يقدح هذه الأسباب فهو مذموم ، فإن قلت : من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً ، فاعلم أنّ معنى كونه شهيداً أنّ له رتبة بسبب موته من الخوف كان لاينالها لو مات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالإضافة إليه فضيلة فأمّا بالإضافة إلى تقدير بقائه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك سبيل الله بطريق الفكر والمشاهدة و الترقّي في درجات المعارف في كلّ لحظة رتبة شهيد أو شهداء ولولا هذا لكانت رتبة صبيّ يقتل أو مجنون يفترسه سبع أعلى من رتبة نبيّ أو وليّ يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظنّ هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله فكلّ ما أبطل

العمر أوالعقل أو الصحّة الّتي يتعطّل العمر بتعطيلها فهو خسران و نقصان بالإضافة إلى أُمور و إن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة إلى أُمور أُخر كما كانت الشهادة فضيلة بالإضافة إلى ما دونها لا بالإضافة إلى درجة النبيّين و الصدّيقين(١) ، فإذن الخوف إن لم يؤثّر في العمل فوجوده كعدمه مثل السّوط الّذي لا يزيد في حركة الدّابة و إن أثّر فله درجات بحسب ظهور أثره فإن لم يحمل إلّا على العفّة و هي الكفّ عن مقتضى الشهوات فله درجة فإذا أثمر الورع فهوأعلى ، وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصدّيقين وهوأن يسلب الظاهر و الباطن عمّا سوى الله تعالى حتّى لا يبقى لغير الله فيه متّسع فهذا أقصى ما يحمد منه و ذلك مع بقاء الصحّة و العقل فإن جاوز هذا إلى إزالة العقل و الصحّة فهو مرض يجب علاجه إن قدر عليه .

✲(بيان اقسام الخوف بالاضافة الى ما يخاف منه)✲

إعلم أنّ الخوف لا يتحقّق إلّا بانتظار مكروه ، و المكروه إمّا أن يكون مكروهاً في ذاته كالنار و إمّا أن يكون مكروهاً لأنّه يفضي إلى المكروه كما تكره المعاصي لإدّائها إلى مكروه في الآخرة ، وكما يكره المريض الفواكه المضرّة لإدّائها إلى الموت ، فلابدّ لكلّ خائف من أن يتمثّل في نفسه مكروهاً من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتّى يحترق قلبه بسبب استشعاره ذلك المكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يغلب على قلوبهم من المكروهات المحذورة فالّذي يغلب على قلوبهم ما ليس مكروهاً لذاته بل لغيره كالّذين يغلب عليهم خوف الموت قبل التوبة ، أوخوف نقض التوبة أونكث العهد ، أو خوف ضعف القوّة عن الوفاء بتمام حقوق الله ، أو خوف زوال رقّة القلب و تبدّلها بالقساوة ، أو خوف الميل عن الاستقامة ، أو خوف استيلاء العادة في اتّباع الشهوات المألوفة ، أو خوف أن يكله الله إلى حسناته الّتي اتّكل عليها و تعزّز بها في عباد الله ، أوخوف البطر بكثرة نعم الله عليه ، أوخوف الاشتغال عن الله بغير الله ، أو خوف الاستدراج بتواتر النعم ، أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدوله من الله مالم يكن يحتسب ، أوخوف تبعات

---

(١) فى الاحياء « بالاضافة الى درجة المتقين والصديقين » .

الناس عنده في الغيبة و الخيانة و الغشّ و اضمار السوء ، أو خوف مالا يدري أنّه يحدث في بقيّه عمره ، أوخوف تعجيل العقوبة في الدّنيا و الافتضاح قبل الموت ، أو خوف الاغترار بزخارف الدّنيا ، أوخوف اطّلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه ، أو خوف الختم له عند الموت بخاتمة السوء ، أوخوف السابقة الّتي سبقت له في الأزل ، فهذه كلّها مخاوف العارفين ولكلّ واحد خصوص فائدة و هو سلوك سبيل الحذر عمّا يفضي إلى المخوف ، فمن يخاف استيلاء العادة عليه فيواظب على الفطام عن العادة ، والّذي يخاف من اطّلاع الله على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوساوس و هكذا إلى بقيّة الأقسام و أغلب هذه المخاوف على المتّقين خوف الخاتمة فان الأمر فيه مخطر و أعلى الأقسام و أدلّها على كمال المعرفة خوف السابقة ، لأنّ الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرّع عنها بعد تخلّل أسباب كثيرة ، فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أمّ الكتاب والخائف من الخاتمة بالإضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقّهما بتوقيع يحتمل أن يكون فيه جزّ الرّقبة ، و يحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ، ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره و أنّه عمّا ذا يظهر ، ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك و كيفيّته و أنّه ما الّذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب ، و هذا التفات إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع ، فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الّذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد ، وإليه أشار النبيّ صلّى الله عليه وآله حيث كان على المنبر « فقبض كفّه اليمني ، ثمّ قال : هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنّة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزاد فيهم ولا ينقص ، ثمّ قبض اليسرى وقال : هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأسمائهم و أنسابهم لا يزاد فيهم و لا ينقص وليعملنّ أهل السعادة بعمل أهل الشقاء حتّى يقال: كأنّهم منهم بل هم هم ثمّ يستنقذهم الله تعالى قبل الموت ولو بفواق ناقة وليعملنّ أهل الشقاء بعمل أهل السعادة حتّى يقال : كأنّهم منهم بل هم هم ، ثمّ يستخرجهم الله تعالى قبل الموت ولو بفواق ناقة ، السعيد من سعد بقضاء الله و الشقي من شقي بقضاء الله و الأعمال

بالخواتيم »[1] وهذا كانقسام الخائفين إلى من يخاف معصيته و خيانته ، و إلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله و أوصافه الّتي تقتضي الهيبة لامحالة فهذه أعلى رتبة و لذلك يبقى خوفه و إن كان في طاعة الصدّيقين ، و أمّا الآخر فهو في عرصة الغرور، والآمن إن واظب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله تعالى خوف الموحّدين و الصدّيقين و هو ثمرة المعرفة بالله تعالى فكلّ من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأن يخاف من غير جناية . الطبقة الثانية من الخائفين أن يتمثّل في أنفسهم ما هو المكروه و ذلك مثل سكرات الموت وشدّته أو سؤال منكر و نكير أوعذاب القبر أو هول المطّلع أو هيبة الموقف بين يدي الله تعالى و الحياء من كشف الستر والسؤال عن النقير و القطمير ، أو الخوف من الصراط وحدّته و كيفيّة العبور عليه،أو الخوف من النار وأغلالها وأهوالها،أو الخوف من الحرمان عن الجنّة دار النعيم والملك المقيم وعن نقصان الدّرجات ، أوالخوف من الحجاب عن الله تعالى و كلّ هذه الأسباب مكروهة في نفسها فهي لا محالة مخوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها وأعلاها رتبة هو خوف الفراق و الحجاب عن الله و هو خوف العارفين و ما قبل ذلك خوف العابدين والصالحين والزّاهدين و كافّة العاملين ومن لم يكمل معرفته ولم ينفتح بصيرته لم يشعر بلذّة الوصال ولا بألم البعد والفراق و إذا ذكر له أنّ العارف لا يخاف النار و إنّما يخاف الحجاب وجد ذلك منكراً في باطنه وتعجّب منه في نفسه لأنّه لا يعرف إلّا لذّة الفرج و البطن والعين بالنظر إلى الألوان و الوجوه الحسان ، و بالجملة كلّ لذّة تشاركه البهائم فيها فأمّا لذّة العارفين فلا يدركها غيرهم وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلاً له ومن كان أهلاً له استبصر بنفسه واستغنى عن أن يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين .

✿ (بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه) ✿

إعلم أنّ فضل الخوف تارة يعرف بالتأمّل و الاعتبار و تارة بالآيات والأخبار

(١) أخرجه الترمذي من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ج ٨ ص ٣٠٨ وقال : حسن صحيح غريب .

أمّا الاعتبار فسبيله أنّ فضيلة الشيء بقدر إعانته في الإفضاء إلى سعادة لقاء الله إذ لا مقصود سوى السعادة و لا سعادة للعبد إلّا في لقاء الله مولاه و القرب منه فكلّ ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر إعانته و قد ظهر أنّه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلّا بتحصيل محبّته و الاُنس به في الدّنيا و لا تحصل المحبّة إلّا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلّا بدوام الفكر و لا يحصل الاُنس إلّا بالمحبّة و دوام الذّكر و لا تتيسّر المواظبة على الذّكر و الفكر إلّا بانقلاع حبّ الدّنيا من القلب و لا ينقلع ذلك إلّا بترك لذّات الدّنيا و شهواتها و لا يمكن ترك المشتهيات إلّا بقمع الشهوات ولا تنقمع الشهوة بشيء كما تنقمع بنار الخوف والخوف هو النار المحرقة للشهوات فإذن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوة و بقدر ما يكفّ عن المعاصي ويحثّ على الطاعات، و يختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق، و كيف لايكون الخوف ذافضيلة و به تحصل العفّة و الورع و التقوى و المجاهدة و هي الأعمال الفاضلة المحمودة الّتي يتقرّب بها إلى الله تعالى زلفى، وأمّا بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار، فما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر و ناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرّضوان و هي مجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى: «هدى و رحمة للّذين هم لربّهم يرهبون»[١] و قال تعالى: «إنّما يخشى الله من عباده العلماء»[٢] فوصفهم للعلم بخشيتهم و قال تعالى: «رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربّه»[٣] و كلّ ما دلّ على فضيلة العلم دلّ على فضيلة الخوف لأنّ الخوف ثمرة العلم و لذلك جاء في خبر موسى عليه السلام: و أمّا الخائفون فإنّ لهم الرّفيق الأعلى لا يشاركون فيه، فانظر كيف أفردهم بمرافقة الرّفيق الأعلى و ذلك لأنّهم العلماء و العلماء لهم رتبة مرافقة الأنبياء لأنّهم ورثة الأنبياء، و مرافقة الرّفيق الأعلى للأنبياء و من يلحق بهم و لذلك لمّا خيّر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مرض موته بين البقاء في الدّنيا

---

(١) الاعراف: ١٥٤. (٢) فاطر: ٢٨.
(٣) البينة: ٨.

و بين القدوم على الله تعالى كان يقول : « أسألك الرّفيق الأعلى » [١] فإذن إن نظر إلى مثمره فهو العلم و إن نظر إله ثمرته فهو الورع والتقوى ، ولا يخفى ما ورد في فضائلهما حتّى إنّ العاقبة صارت موسومة بالتّقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصاً بالله تعالى و الصلاة برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى يقال : الحمد لله ربّ العالمين و العاقبة للمتّقين ، والصلاة على محمّد و آله . وقد خصّص الله التقوى بالإضافة إلى نفسه فقال تعالى : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم» [٢] و إنّما التقوى عبارة عن كفّه بمقتضى الخوف كما سبق ، و لذلك قال الله تعالى : « إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم» [٣] ولذلك وصّى الله تعالى الاولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى : « ولقد وصّينا الّذين أوتوا الكتاب من قبلكم و إيّاكم أن اتّقوا الله » [٤] و قال تعالى : « وخافون إن كنتم مؤمنين » [٥] فأمر بالخوف وأوجبه و شرطه في الايمان فلذلك لا يتصوّر أن ينفكّ مؤمن من خوف وإن ضعف و يكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته و إيمانه ، و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في فضيلة التقوى: « إذا جمع الله تعالى الأوّلين و الآخرين لميقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمع أقصاهم كما يسمع أدناهم فيقول : يا أيّها النّاس إنّي قد أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إليّ اليوم إنّما هي أعمالكم ترد عليكم أيّها الناس إنّي جعلت نسباً و جعلتم نسباً فوضعتم نسبي و رفعتم نسبكم ، قلت : إنّ أكرمكم عندالله أتقيكم و أبيتم إلّا أن تقولوا فلان ابن فلان وفلان أغنى من فلان ، فاليوم أضع نسبكم وأرفع نسبي أين المتّقون فينصب للقوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنّة بغير حساب [٦] » و قال عليه السلام : « رأس الحكمة مخافة الله [٧] » و كذلك ما ورد في

(١) متفق عليه من حديث عائشة و قد تقدم .
(٢) الحج : ٣٧ . (٣) الحجرات : ١٣ .
(٤) النساء : ١٣١ . (٥) آل عمران : ١٧٠.
(٦) أخرجه الحاكم فى المستدرك والطبرانى فى الاوسط بسند ضعيف .
(٧) أخرجه الحكيم الترمذى فى النوادر و أبو بكر بن لال بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

فضائل الذّكر لا يخفى و قد جعله الله تعالى مخصوصاً بالخائفين فقال « سيذّكّر من يخشى »(١) وقال تعالى: « ولمن خاف مقام ربّه جنّتان (٢) ».

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « قال الله تعالى : و عزّتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فا ذا أمنني في الدّنيا أخفته يوم القيامة و إذا خافني في الدّنيا أمنته يوم القيامة (٣) ». و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من خاف الله تعالى خافه كلّ شيء (٤) ».

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أتمّكم عقلاً أشدّكم لله تعالى خوفاً ، و أحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظراً (٥) ».

و قالت عائشة: قلت : يا رسول الله « الّذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة (٦) » هو الرّجل يسرق و يزني ؟ قال : لابل الرّجل يصوم و يصلّي و يتصدّق و يخاف أن لا يقبل منه (٧) ». و التشديدات الواردة في الأمن من مكر الله و عذابه لاتنحصر و كلّ ذلك ثناء على الخوف لأنّ مذمّة الشيء ثناء على ضدّه الّذي ينفيه ، و ضدّ الخوف الأمن كما أنّ ضدّ الرّجاء اليأس ، و كما دلّ مذمّة القنوط على فضيلة الرّجاء فكذلك يدلّ مذمّة الأمن على فضيلة الخوف المضادّ له ، بل نقول : كلّ ما ورد في فضل الرّجاء فهو دليلٌ على فضل الخوف لأنّهما متلازمان ، فإنّ كلّ من رجا محبوباً فلابدّ وأن يخاف فوته ، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذن لا يحبّه

---

(١) الاعلى : ١٠ . (٢) الرحمن : ٤٧

(٣) قال العراقى : أخرجه ابن حبان فى صحيحه و البيهقى فى الشعب من حديث أبى هريرة و رواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا .

(٤) يأتى عن الكافى بلفظ أبسط وأخرجه ابن حبان فى كتاب الثواب من حديث ابى امامة بسند ضعيف جداً و رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل كما فى المغنى

(٥) ماعثرت على أصل له . وقال العراقى : لم يصح فى فضل العقل شىء . أقول : و هكذا قال المقدسى فى الموضوعات . ولكن جاء من طريق الخاصة أخبار متظافرة صحاح حسان فى مدح العقل و فضله

(٦) المؤمنون : ٦٠ .

(٧) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٢ ص ٣٩٣ و صححه وابن جرير وابن المنذر و ابن أبى حاتم وابن مردوية والبيهقى من حديث عائشة كما فى الدر المنثور

فلا يكون بانتظاره راجياً ، فالخوف و الرّجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحد هما على الآخر و هما مجتمعان و يجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه و هذا لأنّ من شرط الرّجاء والخوف تعلّقهما بما هو مشكوكٌ فيه إذ المعلوم لا يرجى ولايخاف، فإذن المحبوب الّذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالةفتقدير وجوده يرّوح القلب و هو الرّجاء و تقدير عدمه يوجع القلب و هو الخوف ، و التقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر المنتظر مشكوكاً فيه ، نعم أحد طرفي الشكّ قديترجّح بحضور بعض الأسباب و يسمّى ذلك ظنّاً فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر ، فإذا غلب على الظنّ وجود المحبوب قوي الرّجاء وخفي الخوف بالإضافة إليه ، و كذا بالعكس ، و على كلّ حال فهما متلازمان و لذلك قال تعالى : « و يدعوننا رغباً و رهباً [١] » و قال تعالى : « يدعون ربّهم خوفاً و طمعاً [٢] » و لذلك عبّر العرب عن الخوف بالرّجاء ، قال الله تعالى : « مالكم لاترجون لله وقاراً [٣] » أي لا تخافون ، و كثيراً ما ورد في القرآن الرّجاء بمعنى الخوف و ذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه ، بل أقول : كلّ ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإنّ البكاء ثمرة الخشية و قد قال الله تعالى : «فليضحكوا قليلاً و ليبكوا كثيراً [٤] » و قال تعالى : « ويخرّون للأذقان يبكون و يزيدهم خشوعاً [٥] » و قال : « أفمن هذا الحديث تعجبون ✿ و تضحكون ولاتبكون ✿ وأنتم سامدون [٦] »وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « مامن عبد مؤمن تخرج من عينيه دمعة و إن كانت مثل رأس الذّباب من خشية الله تعالى ثمّ تصيب شيئاً من حرّ وجهه إلّا حرّمه الله تعالى على النّار [٧] » وقال عليه السلام : « إذا اقشعرّ قلب

(١) الانبياء : ٩٠ . (٢) السجدة : ١٦ .

(٣) نوح : ١٣ . (٤) التوبة : ٨٢ .

(٥) الاسراء : ١٠٩ . (٦) النجم : ٦٠ و ٦١ و ٦٢ .

(٧) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٩٧ من حديث ابن مسعود و سنده حسن كمافى الجامع الصغير .

المؤمن من خشية الله تحاتت عنه خطاياه كما يتحات من الشجرة ورقها [١] »

و قال ﷺ : « لا يلج النّار أحدٌ بكى من خشية الله حتّى يعود اللّبن في الضرع [٢] ».

و قال عقبة بن عامر : ما النّجاة يا رسول الله ؟ قال : « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك و ابك على خطيئتك [٣] ».

و قالت عائشة : قلت : يا رسول الله يدخل أحدٌ من أمّتك الجنّة بغير حساب ؟ قال : « نعم من ذكر ذنوبه فبكى »[٤].

و قال ﷺ : « مامن قطرة أحبّ إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله أو قطرة دم اهريقت في سبيل الله [٥] ».

و قال ﷺ [٦] « اللّهمّ ارزقني عينين هطّالتين [٧] تشفيان بذروف الدّمع قبل أن تصير الدّموع دماً والأضراس جمراً ».

و قال ﷺ : «سبعة يظلهم الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه - و ذكر منهم - رجلاً ذكر الله في خلوة ففاضت عيناه [٨] ».

---

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي من حديث العباس بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٢) أخرجه الترمذي و قال حسن صحيح و أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٢٦٠ و صححه والنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد ج ٤ ص ١٤٨ من حديثه وقد تقدم ج ٤ ص ٩ و وقع هناك تصحيف من النساخ و كتب مكان عقبة بن عامر عبدالله بن عامر الجهني . و ما نبهت عليه الاههنا . نسأل الله أن يوفقنا على زلاتنا و يغفر لنا خطايانا .

(٤) قال العراقي : لم أجده .

(٥) أخرجه الترمذي في سننه من حديث أبي امامة و قال : حسن غريب وقد تقدم .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير وفي الدعاء ، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر باسناد حسن ، و رواه الحسين المروزي في زياداته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبدالله مرسلا . دون « ذكر الله » . (المغني) أقول : ورواه ابن عساكر وفيه « تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك الحديث » كما في الجامع الصغير .

(٧) أي بكاءتين . (٨) متفق عليه من حديث أبي هريرة و قد تقدم .

و روي عن حنظلة قال : كنّا عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، فوعظنا موعظة رقّت منها القلوب و ذرفت منها العيون و عرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلي فدنت منّي المرأة و جرى بيننا من حديث الدّنيا فنسيت ما كنّا عليه عند رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و أخذنا في الدّنيا ، ثمّ تذكّرت ما كنت فيه و قلت في نفسي : قد نافقت حتّى تحوّل عنّي ما كنت فيه من الخوف والرقّة فخرجت و جعلت أنادي نافق حنظلة فدخلت على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و أنا أقول : نافق حنظلة ، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : كلاّ لم ينافق ، فقلت : يا رسول الله كنّا عندك فوعظتنا موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون و عرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدّنيا و نسيت ما كنّا عندك عليه ، فقال : يا حنظلة لو أنّكم أبداً على تلك الحالة لصافحتكم الملائكة في الطرق و على فرشكم ولكن يا حنظلة ساعة و ساعة (١) » .

فإذن كلّ ما ورد في فضل الرّجاء و البكاء ، و فضل التّقوى و الورع ، و فضل العلم و مذمّة الأمن فهو دالّة على فضل الخوف لأنّ جملة ذلك متعلّقة به إمّا تعلق السّبب أو تعلّق المسبّب .

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمّار قال : قال أبو عبدالله عليه السلام : «يا إسحاق خف الله كأنّك تراه و إن كنت لاتراه فإنّه يراك ، و إن كنت ترى أنّه لايراك فقد كفرت ، و إن كنت تعلم أنّه يراك ثمّ برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون النّاظرين إليك (٢) » .

و عنه عليه السلام قال : « من خاف الله أخاف الله منه كلّ شيء و من لم يخف الله أخافه الله من كلّ شيء (٣) » .

وعنه عليه السلام « من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدّنيا » (٤) .

وعنه عليه السلام « إنّ من العبادة شدّة الخوف من الله ، يقول الله تعالى : « إنّما

---

(١) رواه مسلم مختصراً و كذا الطيالسي في مسنده تحت رقم ١٣٤٥ . والقصة في اسد الغابة ج ٢ ص ٥٨ تحت عنوان حنظلة بن الربيع التميمي نحوها .

(٢) و (٣) و (٤) المصدر ج ١ ص ٦٨ تحت رقم ٢ و ٣ و ٤ .

يخشى الله من عباده العلماء » [١] و قال تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشون » [٢] و قال تعالى : « و من يتّق الله يجعل له مخرجاً » [٣] و قال عليه السلام : إنّ حبّ الشرف و الذّكر لا يكونان في قلب الخائف الرّاهب » [٤].

وعنه عليه السلام « المؤمن بين المخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه ، و عمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك ، فهو لايصبح إلّا خائفاً ولا يصلحه إلاّ الخوف » [٥].

وعنه عليه السلام قال : « لا يكون المؤمن مؤمناً حتّى يكون خائفاً راجياً، و لا يكون خائفاً راجياً حتّى يكون عاملاً لما يخاف و يرجو » [٦].

✿(بيان أن الافضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما)✿

إعلم أنّ الأخبار في فضل الخوف و الرّجاء قد كثرت و ربّما ينظر الناظر إليها فيعتريه شكّ في أنّ الأفضل أيّهما و قول القائل : الخوف أفضل أم الرّجاء ؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل : الخبز أفضل أم الماء ، و جوابه أن يقال : الخبز أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل وإن كان العطش أغلب كان الماء أفضل وإن استويا فهما متساويان و هذا لأنّ كلّ ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه و الخوف و الرّجاء دواءان يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الدّاء الموجود فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله و الاغترار به فالخوف أفضل ، و إن كان الأغلب هو اليأس و القنوط من رحمة الله فالرّجاء أفضل و كذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل و يجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل على التأويل الّذي يقال : الخبز أفضل من السّكنجبين إذ يعالج بالخبز مرض الجوع و

(١) فاطر : ٢٨ . (٢) المائدة : ٤٤ .
(٣) الطلاق : ٢ .
(٤) الكافي ج ٢ ص ٦٩ تحت رقم ٧ .
(٥) و (٦) المصدر ج ٢ ص ٧١ تحت رقم ١٢ و ١١ .

بالسّكنجبين مرض الصّفراء و مرض الجوع أغلب وأكثر فالحاجة إلى الخبز أكثر فهو أفضل.فبهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأنّ المعاصي و الاغترار على الخلق أغلب، وإن نظر إلى مطلع الخوف والرّجاء فالرّجاء أفضل لأنّه مستقى من بحر الرّحمة و مستقى الخوف من بحر الغضب و من لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضي اللّطف و الرّحمة كانت المحبّة عليه أغلب و ليس وراء المحبّة مقام ، و أمّا الخوف فمستنده الالتفات إلى الصفات الّتي تقتضي العنف فلا يمازجه المحبّة ممازجتها للرّجاء وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فيقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرّجاء و ذلك لأجل غلبة المعاصي وأمّا المتّقي الّذي ترك ظاهر الإثم و باطنه وخفيّه وجليّه فالأصلح أن يعتدل خوفه و رجاؤه ، و لذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن و رجاؤه لاعتدلا ، روي أنّ علياً عليه السلام قال لبعض ولده :«يا بنيّ خف الله خوفاً ترى أنّك إن أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبّلها منك ، و ارج الله رجاء ترى كأنّك لو أتيته بسيّئات أهل الأرض غفرها لك» .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده عن الحارث بن المغيرة أو أبيه عن أبي عبدالله عليه السلام قال : « قلت له : ماكان في وصيّة لقمان ؟ قال : كان فيها الأعاجيب و كان أعجب ماكان فيها أن قال لابنه : خف الله خيفة لو جئته ببرّ الثقلين لعذّبك ، و ارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك ، ثمّ قال أبوعبدالله عليه السلام : كان أبي يقول : إنّه ليس من عبد مؤمن إلّا و في قلبه نوران نور خيفة و نور رجاء لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا » [١].

و في مصباح الشريعة [٢] عنه عليه السلام قال : « الخوف رقيب القلب و الرّجاء شفيع النفس ، و من كان بالله عارفاً كان من الله خائفاً ، و إليه راجياً و هما جناحا الإيمان يطير بهما العبد المحقّق إلى رضوان الله و عينا عقله يبصر بهما إلى وعد الله و وعيده و الخوف طالع عدل الله باتّقاء وعيده و الرّجاء داعي فضل الله وهو يحيي

(١) المصدر ج ٢ ص ٦٧ تحت رقم ١
(٢) المصدر باب الثامن و الثمانون

القلب والخوف يميت النّفس ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « المؤمن بين خوفين خوف مامضى و خوف ما بقي » و بموت النفس يكون حيوة القلب ، و بحياة القلب يكون البلوغ إلى الاستقامة ، و من عبدالله على ميزان الخوف و الرّجاء لا يضلّ و يصل إلى مأموله ، و كيف لا يخاف العبد وهو غير عالم بما يختم صحيفته ولاله عمل يتوسّل به استحقاقاً و لا قدرة له على شيء و لا مفرّ و كيف لا يرجو وهو يعرف نفسه بالعجز و هو غريق في بحر آلاء الله و نعمائه من حيث لا تحصى و لا تعدّ والمحبّ يعبد ربّه على الرّجاء بمشاهدة أحواله بعين سهر ، و الزّاهد يعبد على الخوف .

قال اُويس لهرم بن حيان : قد عمل الناس على الرّجاء فقال : بل نعمل على الخوف ، و الخوف خوفان ثابت و معارض فالثابت من الخوف يورث الرّجاء و المعارض منه يورث خوفاً ثانياً ، والرّجاء رجاءان عاكف وباد ، فالعاكف منه يورث خوفاً ثابتاً يقوى نسبة المحبّة ، والبادي منه يصحّح أهل العجز والتقصير والحياء .

قال أبوحامد : فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه و رجاؤه أمّا غلبة الرّجاء في غالب النّاس يكون مستنده الاغترار و قلّة المعرفة ، و لذلك جمع الله بينهما في وصف من أثنى عليهم . فقال : « يدعون ربّهم خوفاً و طمعاً » (١) و قال : « يدعوننا رغباً و رهباً » (٢) فالخلق الموجودون في هذا الزّمان كلّهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس و ترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل و داعياً إلى الانهماك في المعاصي فإنّ ذلك قنوط و ليس بخوف ، إنّما الخوف هو الّذي يحثّ على العمل و يكدّر جميع الشهوات و يزعج القلب عن الرّكون إلى الدّنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود دون حديث النّفس الّذي لا يؤثّر في الكفّ والحثّ و دون اليأس الموجب للقنوط .

و قد قال يحيى بن معاذ : من عبدالله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ، و من عبده بمحض الرّجاء تاه في مفازة الاغترار ، و من عبده بالخوف و

(١) السجدة : ١٦ . (٢) الانبياء : ٩٠ .

الرّجاء استقام في محجّة الأذكار ، فإذن لابدّ من الجمع بين هذه الأمور . وغلبة الخوف هو الأصلح و لكن قبل الاشراف على الموت أمّا عند الموت فالأصلح غلبة الرّجاء و حسن الظنّ لأنّ الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل . و قد انقضى وقت العمل ، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ، ثمّ لا يطيق أسباب الخوف فإنّ ذلك يقطع نياط قلبه و يعين على تعجيل موته ، و أمّا روح الرّجاء فإنّه يقوى قلبه ويحبّب إليه ربّه الّذي إليه رجاؤه ولا ينبغي أن يفارق أحدالدّنيا إلّا محبّاً لله تعالى ليكون محبّاً للقاء الله ، فإنّ من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، و الرّجاء تقارنه المحبّة فمن ارتجى كرمه فهو محبوب و المقصود من العلوم والأعمال كلّها معرفة الله حتّى يثمر المعرفة المحبّة فإنّ المصير إليه و القدوم بالموت عليه ، و من قدم على محبوبه عظم سروره بقدر محبّته و من فارق محبوبه اشتدّت محنته و عذابه ، فمهما كان القلب الغالب عليه عندالموت حبّ الأهل والولد والمال والمسكن والعقار و الرّفقاء و الأصحاب فهذا رجل محابّه كلّها في الدّنيا فالدّنيا جنّته إذ الجنّة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحابّ فموته خروج من الجنّة و حيلولة بينه و بين ما يشتهيه ، و لا يخفى حال من يحال بينه و بين مايشتهيه ، فأمّا إذالم يكن له محبوب سوى الله و سوى ذكره و معرفته و الفكر فيه فالدّنيا و علائقها شاغلة له عن المحبوب فالدّنيا إذن سجنه لأنّ السّجن عبارة عن البقعة المانعة للمحبوس عن الاستروأح إلى محابّه فموته قدوم على محبوبه و خلاص من السجن و لا يخفى حال من أفلت من السجن وخلّي بينه وبين محبوبه بلا مانع ولامكدّر ، فهذا أوّل مايلقاه كلّ من فارق الدّنياعقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عمّا أعدّ الله لعباده الصّالحين ممّا لم تره عين ولم تسمعه اُذن ولا خطر على قلب بشر وفضلاً عمّا أعدّ الله للّذين استحبّوا الحيوة الدّنيا على الآخرة و رضوا بها و اطمأنّوا إليها من الأنكال و السلاسل و الأغلال و ضروب الخزي و النّكال فنسأل الله تعالى أن يتوفّانا مسلمين و يلحقنا بالصّالحين و لا مطمع في إجابة هذا الدّعاء إلّا باكتساب حب الله ولا سبيل إليه إلّا بإخراج حبّ غيره من القلب و قطع العلائق عن كلّ ما سوى الله من جاه و مال و

وطن فالأولى أن ندعو بمادعابه نبيّنا عليه السلام إذقال : « اللّهمّ ارزقني حبّك وحبّ من أحبّك و حبّ ما يقرّبني إلى حبّك ، واجعل حبّك أحبّ إليّ من الماء البارد »[١] والغرض أنّ غلبة الرّجاء عند الموت أصلح لأنّه أجلب للمحبّة و غلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنّه أحرق لنار الشهوات و أقمع لمحبّة الدّنيا عن القلب ، و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لا يموتنّ أحدكم إلّا و هو يحسن الظّنّ بربّه »[٢]. و قال تعالى : « أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ما شاء »[٣] و المقصود من ذلك كلّه أن يحبّب الله إلى نفسه ، و لذلك أوحى الله إلى داود عليه السلام : أن حبّبني إلى عبادي ، فقال : بماذا ؟ فقال : بأن تذكّرلهم آلائي و نعمائي. فإذن غاية السعادة أن يموت العبد محبّاً لله ، و إنّما تحصل المحبّة بالمعرفة و بإخراج حبّ الدّنيامن القلب حتّى تصير الدّنيا كالسجن المانع من المحبوب .

✿(بيان الدواء الذى به يستجلب حال الخوف)✿

إعلم أنّ ما ذكرناه في دواء الصّبر و شرحناه في كتاب الصّبر و الشكر هو كاف في هذا الغرض لأنّ الصّبر لا يمكن إلّا بعد حصول الخوف و الرّجاء لأنّ أوّل مقامات الدّين اليقين الّذي هو عبارة عن قوّة الإيمان بالله و اليوم الآخر و الجنّة و النّار ، و هذا اليقين بالضّرورة يهيّج الخوف من النّار و الرّجاء للجنّة و الخوف و الرّجاء يقويان على الصبر ، فإنّ الجنّة قد حفّت بالمكاره فلا يصبر على تحمّلها إلّا بقوّة الرّجاء و النّار قد حفّت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلّا بقوّة الخوف ، و لذلك قال عليّ عليه السلام : « من اشتاق إلى الجنّة سلاعن الشّهوات ، و من أشفق من النّار رجع عن المحرّمات »[٤] ثمّ يؤدّي مقام الصبر المستفاد من

---

(١) ما عثرت عليه الا ما رواه الترمذى ج ١٣ ص ٢٧ من حديث أبى الدرداء عنه صلى الله عليه وآله قال : كان من دعاء داود عليه السلام و ذكر مثله بأدنى اختلاف .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٦٧ من حديث جابر و قد تقدم .

(٣) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٢٤٠ من حديث واثلة بن الاسقع .

(٤) النهج أبواب الحكم تحت رقم ٣٠ . والكافى ج ٢ ص ٥٠ .

الخوف و الرّجاء إلى مقام المجاهدة و التجرّد لذكر الله و الفكر فيه على الدّوام و يؤدّي دوام الذّكر إلى الاُنس ، و دوام الفكر إلى كمال المعرفة و يؤدّي كمال المعرفة و الاُنس إلى المحبّة و يتبعها مقام الرّضا والتوكّل و سائر المقامات ، فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدّين ، فليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف و الرّجاء ، و لا بعدهما مقام سوى الصّبر و به المجاهدة و التجرّد لله باطناً و ظاهراً و لا مقام بعد المجاهدة لمن فتحله الطريق إلّا الهداية والمعرفة ، ولا مقام بعدالمعرفة إلّا المحبّة و الاُنس و من ضرورة المحبّة الرّضا بفعل المحبوب و الثقة بعنايته و هو التوكّل فاذن فيما ذكرنا في علاج الصبر كفاية ولكنّا نفرد الخوف بكلام جملي .

فنقول : الخوف يحصل بطريقين مختلفين أحدهما أعلى من الآخر ، و مثاله أنّ الصبيّ إذاكان في بيت فدخل عليه سبع أو حيّة ربّما كان لا يخاف و ربّما مدّ اليد إلى الحيّة ليأخذها و يلعب بها ، و لكن إذاكان معه أبوه و هو عاقل خاف من الحيّة و هرب منها فاذا نظر الصبيّ إلى أبيه و هو يرتعد فرائصه ويحتال في الهرب قام معه و غلب عليه الخوف و وافقه في الهرب فخوف الأب عن بصيرة و معرفة بصفة الحيّة و سمّها و خاصيّتها و سطوة السبع وبطشه و قلّة مبالاته ، و أمّا خوف الابن فانّما كان بمجرّد التقليد لأنّه يحسن الظنّ بأبيه ويعلم أنّه لا يخاف إلّا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أنّ السبع مخوف و لا يعرف وجهه ، فاذا عرفت هذا المثال فاعلم أنّ الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه ، و الثاني الخوف منه في ذاته ، فأمّا الخوف منه فهو خوف العلماء و أرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة و الخوف و الحذر المطّلعين على سرّ قوله : « و يحذّركم الله نفسه » (١) ، و قوله : « اتّقوا الله حقّ تقاته » (٢) فأمّا الأوّل فهو خوف عموم الخلق و هو حاصل بأصل الايمان بالجنّة و النّار و كونهما جزاءين على الطاعة و المعصية و ضعفه بسبب الغفلة و بسبب ضعف الايمان و إنّما تزول الغفلة بالوعظ و التذكير و ملازمة الفكر في أهوال القيامة و أصناف العذاب في الآخرة و يزيد أيضاً

(١) آل عمران : ٢٩ . (٢) آل عمران : ١٠٢ .

بالنظر إلى الخائفين و مجالستهم و مشاهدة أحوالهم ، فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو عن تأثير ، و أمّا الثاني و هو الأعلى أن يكون الله هو المخوف أعني أن يخاف البعد و الحجاب عنه و يرجو القرب منه كما قال ذوالنون : خوف النّار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجّيّ . وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى : « إنّما يخشى الله من عباده العلماء »[1] و لعموم المؤمنين أيضاً حظّ من هذه الخشية ولكن هو بمجرّد التقليد يضاهي خوف الصبيّ من الحيّة تقليداً لأبيه و ذلك لايستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف و يزول عن قرب حتّى انّ الصبيّ ربّما يرى المعزّم يقدم على أخذ الحيّة فينظر إليه و يغترّ به فيتجرء على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه ، و العقائد التقليديّة ضعيفة في الغالب إلّا إذا قويت بمشاهدة أسبابها المؤكّدة لها على الدّوام و بالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات و اجتناب المعاصي مدّة طويلة على الاستمرار ، فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف. و من قعد به القصور عن الارتفاع إلى يفاع الاستبصار فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار و الآثار فيطالع أحوال الخائفين و أقوالهم و ينسب عقولهم و مناصبهم إلى مناصب الرّاجين المغرورين فلا يتمارى في أنّ الاقتداء بهم أولى لأنّهم الأولياء و العلماء و أمّا الآمنون فهم الفراعنة والجهّال و الأغبياء ، أمّا رسولنا صلّى الله عليه وآله وسلّم فهو سيّد الأوّلين و الآخرين أشدّ الناس خوفاً حتّى روي أنّ رجلاً من أهل الصفّة استشهد فقالت امّه : هنيئاً لك الجنّة هاجرت إلى رسول الله وقتلت في سبيل الله ، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : وما يدريك لعلّه كان يتكلّم بما لاينفعه ويمنع ما لا يضرّه »[2] وفي حديث آخر أنّه دخل عليه السلام على بعض أصحابه و هو عليلٌ فسمع امرأة تقول : هنيئاً لك الجنّة ، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : من هذه المتألّية على الله تعالى فقال المريض : هي امّي يا رسول الله ، فقال : و ما يدريك لعلّ فلاناً كان يتكلّم بما لا يعنيه و يبخل بما لا يغنيه »[3] وكيف لا

(١) فاطر : ٢٨ .
(٢) تقدم عن البيهقي فى الشعب و غيره باختلاف فى اللفظ فى كتاب آفات اللسان .
(٣) تقدم أيضاً فى آفات اللسان .

يخاف المؤمنون كلّهم وهو ﷺ يقول : « شيّبتني سورة هود وأخواتها سورة الواقعة و إذا الشمس كوّرت وعمّ يتساءلون » [١] فقال العلماء : لعلّ ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى : «ألا بعداً لعاد قوم هود» «ألا بعداً لثمود » «ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود » [٢] مع علمه عليه السلام بأنّه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء الله لآتى كلّ نفس هديها وفي سورة الواقعة « ليس لوقعتها كاذبة خافضة رافعة » [٣] أي جفّ القلم بما هو كائن و تمّت السابقة حتّى نزلت الواقعة إمّا خافضة قوماً كانوا مرفوعين في الدّنيا ، و إمّا رافعة قوماً كانوا مخفوضين في الدّنيا ، وفي سورة التكوير أهوال القيامة وانكشاف الخاتمة وهو قوله : « إذا الجحيم سعّرت ✿ وإذا الجنّة أزلفت ✿ علمت نفس ما أحضرت» [٤] و في عمّ يتساءلون « يوم ينظر المرء ما قدّمت يداه» [٥] وقوله « لا يتكلّمون إلاّ من أذن له الرّحمن وقال صواباً » [٦] و القرآن من أوّله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبّر ولو لم يكن فيه إلّا قوله تعالى : « وإنّي لغفّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثمّ اهتدى » [٧] لكان كافياً إذ علّق المغفرة على أربعة شروط يعجز العبد عن آحادها ، وأشدّ منه قوله تعالى : « فأمّا من تاب وآمن و عمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين» [٨] و كقوله تعالى : «ليسأل الصادقين عن صدقهم » [٩] وقوله : « سنفرغ لكم أيّه الثقلان » [١٠] و قوله : « أفأمنوا مكر الله - الآية - » [١١] و قوله : « و كذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى و هي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد» [١٢] وقوله : « يوم نحشر المتّقين إلى الرّحمن وفداً - الآيتين » [١٣] وقوله : « وإن منكم إلّا واردها -

---

(١) أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم والبغوى فى المصابيح ج٢ ص١٨٢ وقد تقدم .
(٢) السورة : ٦٠ و ٦٨ و ٩٥ .
(٣) السورة : ٢ و ٣ . (٤) السورة : ١٠ الى ١٢ .
(٥) و (٦) السورة : ٤١ و ٣٨ . (٧) طه : ٨٢ .
(٨) القصص : ٦٧ . (٩) الاحزاب : ٨ .
(١٠) الرحمن : ٣١ . (١١) الاعراف : ٩٩ .
(١٢) هود : ١٠٢ . (١٣) مريم : ٨٥ و ٨٦ .

الآية » (١) وقوله تعالى : « اعملوا ما شئتم » (٢) وقوله : «من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ـ الآية ـ » (٣) وقوله : «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ـ الآيتين ـ » (٤) و قوله تعالى : « و قدمنا إلى ما عملوا من عمل ـ الآية ـ » (٥) و كذلك قوله تعالى : «والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق و تواصوا بالصبر » (٦) فهذه أربعة شروط للخلاص من الخسران و إنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى : « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » (٧) حتى روي أن النبي صلى الله عليه وآله وجبرئيل عليه السلام بكيا من خوف الله عز وجل فأوحى الله تعالى إليهما لم تبكيان و قد أمنتكما ، فقالا : ومن يأمن مكرك» (٨) و كأنهما إذ علما أن الله تعالى هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمنا أن يكون قوله : « قد أمنتكما » ابتلاء لهما وامتحاناً ومكراً بهما حتى أن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمنا المكر وما وفيا بقولهما كما أن إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال : حسبي الله وكانت هذه من الدعاوي العظام فامتحن وعورض بجبرئيل في الهواء حتى قال: ألك حاجة ؟ قال : أما إليك فلا ، فكان ذلك وفاء بمقتضى قوله : حسبي الله ، فأخبر الله تعالى عنه وقال : « و إبراهيم الذي وفى» (٩) أي بموجب قوله : «حسبي الله» وبمثل هذا أخبر عن موسى صلوات الله عليه حيث قال : « إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » فقال تعالى : « لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى » (١٠) ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله و التباس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقيل له : « لا تخف إنك أنت

(١) مريم : ٧١
(٢) فصلت : ٤٠
(٣) الشورى : ٢٠
(٤) الزلزلة : ٧ .
(٥) الفرقان : ٢٣
(٦) العصر : ٢ و ٣ و ٤
(٧) الاعراف : ٩٧
(٨) قال العراقي : أخرجه ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر و رويناه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف .
(٩) النجم : ٣٧
(١٠) طه : ٤٩ .

الأعلى » و ما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله ومن عرف حقيقة المعرفة بقصور معرفته عن الإحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لا محالة ولذلك قال عيسى عليه السلام لما قيل : « أأنت قلت للناس اتّخذوني وأمّي إلهين من دون الله » [1] قال : « إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » وقال : « إن تعذّبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم - الآية - » [2] فوّض الأمر إلى المشيّة وأخرج نفسه بالكلّيّة من البين لعلمه بأنّه ليس إليه من الأمر شيء وأنّ الأمور مرتبطة بالمشيّة ارتباطاً يخرج عن حدّ المعقولات و المألوفات فلا يمكن الحكم عليها بقياس و حدس وحسبان فضلاً عن التحقيق و الاستيقان وهذا هو الّذي قطع قلوب العارفين وليس إلّا التسليم و استقراء خفيّ السابقة من جليّ الأسباب الظاهرة على القلب و الجوارح فمن يسّر له أسباب الشرّ وحيل بينه و بين أسباب الخير وأحكمت علاقته مع الدّنيا فكأنّه كشف له على التحقيق سرّ السابقة الّتي سبقت له بالشقاوة إذ كلّ ميسّر لما خلق له و إن كانت الخيرات كلّها ميسّرة والقلب بالكلّيّة عن الدّنيا منقطعاً وبظاهره و باطنه على الله مقبلاً كان هذا يقتضي تخفيف الخوف لو كان الدّوام على ذلك موثوقاً به ، ولكن خطر الخاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف اشتعالاً و لا يمكنها من الانطفاء و كيف يؤمن تغيّر الحال و قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرّحمن وإنّه أشدّ تقلّباً من القدر في غليانها وقد قال مقلّب القلوب : « إنّ عذاب ربّهم غير مأمون » [3] و أجهل الناس من أمنه وهو يناديه بالتحذير من الأمن و لولا أنّ الله لطف بعباده العارفين إذ روّح قلوبهم بروح الرّجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف ، فأسباب الرّجاء رحمة الله لخواصّ الله وأسباب الغفلة رحمته على عوام الخلق من وجه إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطّعت القلوب

وروي في أخبار الأنبياء أنّ نبيّاً شكا إلى الله تعالى الجوع و القمل و العرى سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : عبدي أما رضيت أن عصمت قلبك

---

(١) المائدة : ١١٦ (٢) المائدة : ١١٨

(٣) المعارج : ٢٨

أن تكفر بي حتّى تسألني الدّنيا ؟ فأخذ التراب فوضعه على رأسه وقال : بلى قد رضيت يا ربّ فاعصمني من الكفر . فإذن إذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم و قوّة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، ولسوء الخاتمة أسباب تتقدّم على الموت مثل البدعة و النفاق و الكبر وجملة من الصفات المذمومة ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق و ماعنوا به النفاق الّذي هو ضدّ أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً منافقاً و له علامات كثيرة . قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أربع من كنّ فيه منافق خالص وإن صام و صلّى و زعم أنّه مسلم ، و إن كانت فيه خصلة منهنّ ففيه شعبة من النفاق حتّى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر » وفي لفظ آخر « وإذا عاهد غدر » (١) وقد فسّر الصحابة و التابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلّا صدّيق إذ قيل : إنّ من النفاق اختلاف السرّ و العلانية ، و اختلاف اللّسان و القلب ، و المدخل و المخرج ، و من الّذي يخلو عن هذه المعاني ، بل صارت هذه الاُمور مألوفة بين الناس معتادة و نسي كونها منكراً بالكلّيّة ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوّة فكيف الظنّ بزماننا حتّى قال حذيفة(٢) : أن كان الرّجل ليتكلّم بالكلمة على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيصير بها منافقاً إنّي لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرّات و كان أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقولون : إنّكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ في أعينكم من الشعر كنّا نعدّها على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من الكبائر . وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله و أن تحبّ على شيء من الجور و أن تبغض على شيء من الحقّ(٣) ، وقيل : من النفاق أنّه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك ، وأشدّ من ذلك ما روي أنّ نفراً قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلّمون في شيء من شأنه

---

(١) أخرجه البخارى ج ١ ص ١٦ باب علامة المنافق من حديث عبدالله بن عمر . باللفظ الثاني .

(٢) أخرجه أحمد من حديث حذيفة ج ٥ ص ٣٨٤ .

(٣) في بعض النسخ [وأن تحث على شيء من الخير ولا تفعله] .

فلمّا خرج عليهم سكتوا حياء منه فقال : تكلّموا فيما كنتم تقولون فسكتوا فقال : كنّا نعدّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وهذا حذيفة كان قد خصّ بعلم المنافقين و أسباب النفاق[١] وكان يقول : إنّه يأتي على القلب ساعة يمتلي بالإيمان حتّى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة و يأتي عليه ساعة يمتلي بالنفاق حتّى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة . فقد عرفت بهذا أنّ خوف العارفين من سوء الخاتمة و أنّ سببه اُمور مقدّمة منها البدع و منها المعاصي ومنها النفاق ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظنّ أنّه قد خلا عنه فهو النفاق إذ قيل: من آمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين: إنّي أخاف على نفسي النفاق فقال : لو كنت منافقاً لما خفت النفاق ، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه و بين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فوالّذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدّنيا من دار إلّا الجنّة أو النّار »[٢].

❁(بيان معنى سوء الخاتمة)❁

فإن قلت : إنّ أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة فما معنى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أنّ سوء الخاتمة على رتبتين إحديهما أعظم من الاُخرى فأمّا الرّتبة العظيمة الهائلة أن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إمّا الشكّ وإمّا الجحود فتقبض الرّوح على حالة غلبة الجحود أو الشكّ فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله أبداً وذلك يقتضي البعد الدّائم والعذاب المخلّد ، و الثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حبّ أمر من اُمور الدّنيا وشهوة من شهواتها فيتمثّل ذلك في قلبه ويستغرقه حتّى لا يبقى في تلك الحالة متّسع لغيره فيتّفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدّنيا وصارفاً وجهه إليها ، ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ، ومهما حصل

(١) راجع المجلد الاول ص ١٦٢ ، و مسند أحمد ج ٥ ص ٣٨٦ الى ٣٩٠ .
(٢) أخرجه البيهقى فى الشعب مرسلا وقد تقدم فى ذم الدنيا .

الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلّا المحجوبين عنه فأمّا المؤمن السليم قلبه عن حبّ الدّنيا المصروف همّه إلى الله تعالى تقول له النّار: جزيا مؤمن فإنّ نورك أطفأ لهبي فمهما اتّفق قبض الرّوح في حالة غلبة حبّ الدّنيا فالأمر مخطر لأنّ المرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة اُخرى للقلب بعد الموت تضادّ الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرّف في القلوب إلّا بأعمال الجوارح و قد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع في عمل و لا مطمع في الرّجوع إلى الدّنيا ليتدارك و عند ذلك تعظم الحسرة إلّا أنّ أصل الإيمان وحبّ الله تعالى إذا كان قد رسخ في القلب بمدّة طويلة وتأكّد ذلك بالأعمال الصالحة فإنّه يمحو عن القلب هذه الحالة الّتي عرضت له عند الموت ، فإن كان إيمانه في القوّة إلى حدّ مثقال أخرجه من النّار في زمان أقرب و إن كان أقلّ من ذلك طال مكثه في النّار و لو لم يكن إلّا مثقال حبّة فلابدّ وأن يخرج من النّار ولو بعد آلاف سنين.

فإن قلت: فما ذكرته يقتضي أن يسرع النّار إليه عقيب موته فما باله يؤخّر إلى يوم القيامة ويمهل طول هذه المدّة؟ فاعلم أنّ من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الإيمان و نور القرآن بل الصحيح عند ذوي الأبصار ما صحّت به الأخبار وهو «أنّ القبر إمّا حفرة من حفر النيران أو روضة من رياض الجنّة» (١) و أنّه «قد يفتح إلى قبر المعذّب سبعون باباً من الجحيم» كما وردت به الأخبار (٢) فلا يفارقه روحه إلّا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقي بسوء الخاتمة و إنّما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكر و نكير عند الوضع في القبر و التعذيب بعده ، ثمّ المناقشة في الحساب و الافتضاح على ملأ الأشهاد في القيامة ، ثمّ بعد ذلك خطر الصراط وهول الزّبانية إلى آخر ما وردت به الأخبار (٣) فلا

---

(١) أخرجه الترمذى والبغوى فى المصابيح ج٢ص١٨٢ وفى الكافى ج ٣ ص٢٤٢ من حديث أبى عبدالله عليه السلام قال: «ان للقبر كلاماً فى كل يوم يقول: أنا بيت الغربة ، أنا بيت الوحشة ، أنا بيت الدود ، أنا القبر ، أنا روضة من رياض الجنة أوحفرة من حفر النار».

(٢) راجع بحار الانوار ج ٣ باب أحوال المجرمين والمتقين فى البرزخ.

(٣) تقدم جلها فى كتاب العقائد و راجع بحار الانوار كتاب المعاد

يزال الشقي متردّداً في جميع أحواله بين أصناف العذاب و هو في جملة الأحوال معذّبٌ إلّا أن يتغمّده الله برحمته ، و لا تظننّ أنّ محلّ الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويبدّدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله فيجتمع الأجزاء المتفرّقة و يعاد إليها الرّوح الّتي هي محلُّ الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى الإعادة إمّا في حواصل طير خضر معلّقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإمّا على حالة تضادّ هذه الحالة إن كانت - والعياذ بالله - شقيّة .

فإن قلت : فما السبب الّذي يفضي إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أنّ أسباب هذه الأُمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أمّا الختم على الشكّ والجحود فينحصر سببه في فنّين أحدهما يتصوّر مع تمام الورع والزّهد و تمام الصلاح في الأعمال كالمبتدع الزّاهد فإنّ عاقبته مخطرة جدّاً و إن كانت أعماله صالحة و لست أعني مذهباً و أقول : إنّه بدعة فإنّ بيان ذلك يطول القول فيه ، بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرّجل في ذات الله وصفاته وأفعاله خلاف الحقّ فيعتقد على خلاف ما هو عليه ، إمّا برأيه ومعقوله ونظره الّذي به يجادل الخصوم و عليه يعوّل وبه يغترّ ، وإمّا أخذاً بالتقليد ممّن هذا حاله فإذا قرب الموت و ظهرت له ناصية ملك الموت و اضطرب القلب بما فيه فربّما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلاً ، إذ حال الموت حال كشف الغطاء و مبادي سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأُمور فمهما بطل عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعاً به متيقّناً له عند نفسه لم يظنّ بنفسه أنّه أخطأ في هذا الاعتقاد خاصّة لا لتجائه فيه إلى رأيه الغائل وعقله الناقص ، بل ظنّ أنّ كلّ ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف بعض اعتقاداته عن الجهل سبباً لبطلان بقيّة اعتقاداته أو لشكّه فيها فإن اتّفق زهوق روحه في هذه الخطرة قبل أن ينيب ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء و خرجت روحه على الشرك و العياذ بالله منه ، فهؤلاء هم المرادون بقوله تعالى :

« وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون »(١) وبقوله تعالى : « هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً ۞ الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدّنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً »(٢).
وكما أنّه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل و ذلك بسبب خفّة اشغال الدّنيا عن القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الاُمور إذ شواغل الدّنيا و شهوات البدن هي المانعة للقلب من أن ينظر إلى الملكوت فيطالع ما في اللّوح المحفوظ لتنكشف له الاُمور على ما هي عليه فيكون مثل هذه الحالة سبباً للكشف ويكون الكشف سبب الشكّ في بقيّة الاعتقادات ، و كلّ من اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به إمّا تقليداً وإمّا نظراً بالرأي والمعقول فهو في هذا الخطر ، و الزّهد و الصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجي منه إلّا الاعتقاد الحقّ ، والبله بمعزل عن هذا الخطر أعني الّذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيماناً مجملاً راسخاً كالأعراب والسوادية وسائر العوام الّذين لم يخوضوا في البحث و النظر و لم يشرعوا في الكلام استقلالاً و لا أصغوا إلى أصناف المتكلّمين في تقليد أقاويلهم المختلفة ولذلك قال صلّى الله عليه وآله : « أكثر أهل الجنّة البله »(٣) و لذلك منع السلف من البحث و النظر و الخوض في الكلام و التفتيش عن هذه الاُمور و أمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله جميعاً وبكلّ ما جاء من الظواهر مع اعتقاد نفي التشبيه ومنعوهم عن الخوض في التأويل لأنّ الخطر في البحث عن الصفات عظيم وعقباته كؤودة ومسالكه وعرة ، والعقول عن درك جلال الله قاصرة ، وهداية الله بنور اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حبّ الدّنيا محجوبة ، و ما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم مضطرب ومتعارض و القلوب لما اُلقي إليها من مبدء النشوء آلفة وبه متعلّقة والتعصّبات الثائرة بين الخلق مسامير مؤكّدة للعقايد الموروثة أو المأخوذة بحسن الظنّ من المعلّمين في أوّل الأمر ، ثمّ الطباع بحبّ الدّنيا مشغوفة و عليها

(١) الزمر : ٤٧ . (٢) الكهف : ١٠٣ و ١٠٤ .

(٣) أخرجه ابن شاهين فى الافراد و ابن عساكر عن جابر بسند ضعيف هكذا « دخلت الجنة فاذا أكثر أهلها البله » . و رواه البزار و قد تقدم .

مقبلة وشهوات الدّنيا بمخنقها آخذة و عن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام في الله وصفاته بالرّأي والمعقول مع تفاوت في قرائحهم و اختلافهم في طباعهم وحرص كلّ جاهل منهم على أن يدّعي الكمال و الإحاطة بكنه الحقّ انطلقت ألسنتهم بما يقع لكلّ واحد منهم وتعلّق ذلك بقلوب المصغين إليهم وتأكّد ذلك بطول الإلف فيهم و انسدّ بالكلّيّة طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعرّضوا لما هو خارج عن حدّ طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كلّ جاهل على ما وافق طبعه بظنّ وحسبان وهو يعتقد أنّ ذلك علم واستيقان و أنّه صفو الإيمان ويظنّ أنّه ما قنع به [1] من حدس و تخمين علم اليقين وعين اليقين وسيعلمون نبأه بعد حين وينبغي أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء :

أحسنت ظنّك بالأيّام إذ حسنت ✿ ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
و سالمتك اللّيالي فاغتررت بها ✿ و عند صفو اللّيالي يحدث الكدر

و اعلم يقيناً أنّ كلّ من فارق الإيمان الساذج بالله ورسله و كتبه و خاض في البحث فقد تعرّض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتّفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد و الهلاك أغلب عليه و كلّ نازل على عقيدة تلقّفها من الباحثين ببضاعة عقولهم إمّا مع الأدلّة الّتي حرّروها في تعصّباتهم أو دون الأدلّة فإن كان شاكّاً فيه فهو فاسد الدّين و إن كان واثقاً به فهو آمن من مكر الله مغترّ بعقله الناقص و كلّ خائض في البحث فلا ينفكّ عن هاتين الحالتين إلّا إذا جاوز حدّ العقل إلى نور المكاشفة الّذي يشرق في عالم الولاية والنبوّة وذلك هو الكبريت الأحمر وأنّى يتيسّر وإنّما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام والّذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الخاتمة .

و أمّا السبب الثاني فهو ضعف الإيمان في الأصل ثمّ استيلاء حبّ الدّنيا على القلب ، ومهما ضعف الإيمان ضعف حبّ الله تعالى و قوي حبّ الدّنيا فيصير

---

(١) فى الاحياء « ما وقع به » .

بحيث لايبقى في القلب موضع لحبّ الله إلّا من حيث حديث النفس لايظهر له أثر في مخالفة النفس و العدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتّباع الشهوات حتّى يظلم القلب ويقسو ويسوّد ويتراكم ظلمة الذّنوب على القلب و لايزال يطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتّى يصير طبعاً وريناً فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحبّ أعني حبّ الله ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدّنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألّم القلب باستشعار فراق الدّنيا و يرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قدّر الله من الموت و كراهة ذلك من حيث إنّه من الله فيخشى أن يثور في باطنه بغض الله بدل الحبّ كما أنّ الّذي يحبّ ولده حبّاً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله الّتي هي أحبّ إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحبّ الضعيف بغضاً فإن اتّفق زهوق روحه في تلك اللّحظة الّتي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء و هلك هلاكاً مؤبّداً ، و السبب الّذي يفضي إلى مثل هذه الخاتمة هو غلبة حبّ الدّنيا والرّكون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حبّ الله ، فمن وجد في قلبه حبّ الله أغلب من حبّ الدّنيا و إن كان يحبّ الدّنيا أيضاً فهو أبعد عن هذا الخطر و حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة و هو الدّاء العضال و قد عمّ أصناف الخلق وذلك كلّه لقلّة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبّه إلّا من عرفه ولهذا قال تعالى : «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم و أزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره»(١) فإذن من فارقته روحه في حال خطرة الانكار على الله تعالى بباله وظهور بغض فعل الله تعالى بقلبه في تفريقه بينه و بين أهله وماله و سائر محابّه فيكون موته قدوماً على ما أبغضه وفراقاً لما أحبّه فيقدم على الله تعالى قدوم العبد المبغض الآبق إذا قدم به على مولاه قهراً فلا يخفى مايستحقّه من الخزي و النكال وأمّا الّذي يتوفّى على الحبّ فإنّه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحسن المشتاق إلى مولاه الّذي يتحمّل مشاقّ الأعمال ووعثاء الأسفار طمعاً في لقائه فلايخفى

(١) التوبة : ٢٤ .

ما يلقاه من الفرح و السرور بمجرّد القدوم فضلاً عمّا يستحقّه من لطائف الاكرام و بدائع الإنعام ، و أمّا الخاتمة الثانية الّتي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النّار فلها أيضاً سببان أحدهما كثرة المعاصي و إن قوي الايمان و الآخر ضعف الايمان و إن قلّت المعاصي وذلك لأنّ مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف و العادة وجميع ما ألفه الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله الأكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره طاعة الله و إن كان ميله الأكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربّما يقبض روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدّنيا و معصية من المعاصي فيتقيّد بها قلبه ويصير محجوباً عن الله تعالى، فالّذي لا يقارف الذّنب إلّا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر و الّذي لم يقارف ذنباً أصلاً فهو بعيد جدّاً عن هذا الخطر ، والّذي غلبت عليه المعاصي و كانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أروح منه بالطاعة فهذا الخطر عظيم في حقّه جدّاً و يعرف هذا بمثال و هو أنّه لا يخفى عليك أنّ الإنسان يرى في منامه جملة من الأحوال الّتي عهدها طول عمره حتّى أنّه لا يرى إلّا ما يماثل مشاهداته في اليقظة وحتّى أنّ المراهق الّذي يحتلم لا يرى صورة الوقاع إذا لم يكن قد واقع في اليقظة ولو بقي كذلك مدّة لما رأى عند الاحتلام صورة الوقاع ، ثمّ لا يخفى أنّ الّذي قضى عمره في التفقّه يرى من الأحوال المتعلّقة بالعلم والعلماء أكثر ممّا يراه التجّار الّذي قضى عمره في التجارة و التجّار يرى من الأحوال المتعلّقة بأسباب التجارة أكثر ممّا يراه الطبيب و الفقيه لأنّه إنّما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول الإلف أو لسبب آخر من الأسباب والموت شبيه النوم ولكنّه فوقه ولكن سكرات الموت و ما يتقدّمه من الغشية قريب من النوم فيقتضي ذلك تذكّر المألوفات و عودها إلى القلب وأحد الأسباب المرجّحة لحصول ذكره في القلب طول الإلف وطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضاً مرجّح ولذلك يخالف أيضاً منامات الصالحين منامات الفسّاق فيكون غلبة الإلف سبباً لأن يتمثّل صورة فاحشة في قلبه وتميل إليها نفسه فربما يقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الإيمان باقياً بحيث يرجى

له الخلاص منها و كما أنّ ما يخطر في اليقظة إنّما يخطر بسبب خاصّ يعلمه الله تعالى فكذلك آحاد المنامات لها أسباب عندالله يعرف بعضها ولايعرف بعضها كماأنّا نعلم أنّ الخاطر ينقل من الشيء إلى ما يناسبه إمّا بالمشابهة و إمّا بالمضادّة ، و إمّا بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحسّ معه ، أمّا المشابهة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكّر جميلاً آخر ، وأمّا بالمضادّة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكّر قبيحاً و يتأمّل في شدّة التفاوت بينهما ، وأمّا بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قد رآه من قبل مع إنسان فيتذكّر ذلك الإنسان وقد ينتقل الخاطر من شيء إلى شيء ولايدري وجه مناسبته له وإنّما يكون ذلك بواسطة أو واسطتين مثل أن ينتقل من شيء إلى ثان ومنه إلى ثالث ، ثمّ ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث و الأوّل مناسبة ولكن يكون بينه و بين الثاني مناسبة و بين الثاني و الأوّل مناسبة و كذلك لانتقالات الخواطر في المنام أسباب من هذا الجنس و كذا عند سكرات الموت، ومن أراد أن يكفّ خاطره عن الانتقال إلى المعاصي و الشهوات فلا طريق له إلّا المجاهدة طول العمر في فطام نفسه عنها و في قمع الشهوات من القلب ، فهذا هو القدر الّذي يدخل تحت الاختيار و يكون طول المواظبة على الخير و تخلية النفس عن الشرّ عدّة و ذخيرة لحالة سكرات الموت فإنّه يموت المرء على ما عاش عليه و يحشر على ما مات عليه ، ولذلك نقل عن بقّال أنّه كان يلقّن عند الموت كلمتي الشهادة و هو يقول : خمسة ستّة أربعة . و كان مشغول النفس بالحساب الّذي طال فيه إلفه له قبل الموت ، وقال بعض العارفين من السلف : إنّ العرش جوهرة يتلألأ نوراً فلا يكون العبد على حال إلّا انطبع مثاله في العرش على الصورة الّتي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشفت له صورته من العرش فربّما يرى نفسه على صورة معصية و كذلك يكشف له يوم القيامة فيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يجلّ عن الوصف . و ما ذكره صحيح و سبب الرّؤيا الصادقة قريب من ذلك فإنّ النائم يدرك ما سيكون في المستقبل من مطالعة اللّوح المحفوظ و هو جزء من أجزاء النبوّة فإذن رجع سوء الخاتمة إلى أحوال القلب واختلاج الخواطر ومقلّب القلوب هو الله و الاتفاقات المقتضية لسوء الخواطر غير

داخلة تحت الاختيار دخولاً كلّياً و إن كان لطول الإلف فيه تأثير ، فلهذا عظم خوف العارفين من سوء الخاتمة لانّه لو أراد الإنسان أن لا يرى في المنام إلّا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك و إن كان كثرة الصلاح و المواظبة عليه ممّا يؤثّر فيه ولكن اضطرابات الخيال لا تدخل بالكلّيّة تحت الضبط و إن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتّى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذيّ يصف لي وجوب حسن أدب المريد لشيخه و أن لا يكون في قلبه إنكار لكلّ ما يقوله ولا في لسانه مجادلة عليه فقال : حكيت لشيخي أبي القاسم الكرماني مناماً لي وقلت : رأيتك أنّك قلت لي كذا ، فقلت لم ذلك ؟ قال : فهجرني شهراً ولم يكلّمني وقال: لولا أنّه كان في باطنك تجويز المطالبة و إنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في المنام و هو كما قال : إذ قلّ ما يرى الإنسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الّذي يسمح بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الخاتمة و ما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة ، و قد ظهر لك بهذا أنّ الأمن من سوء الخاتمة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وتزجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية ، فإن كنت تعلم أنّ ذلك محالٌ أو عسير فلابدّ و أن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتّى يطول بسببه بكاؤك ونياحتك ويدوم حزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الأنبياء و الأولياء و السلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيّجة لنار الخوف من قلبك ، و قد عرفت بهذا أنّ أعمال المرء كلّها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الّذي عليه خروج الرّوح و أنّ سلامته مع اضطراب أمواج الخواطر مشكلٌ جدّاً ، ولذلك كان مطرّف بن عبد الله يقول : إنّي لأعجب ممّن هلك كيف هلك ولكنّي أعجب ممّن نجا كيف نجا . ولذلك قال حامد اللّفّاف : إذا صعدت الملائكة بروح المؤمن و قد مات على الخير و الإسلام تعجّبت الملائكة منه وقالوا : كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا ، وبالجملة من وقعت سفينته في لجّة البحر وهجمت عليه الرّياح العاصفة و اضطربت الأمواج كانت النجاة في حقّه أبعد من الهلاك ، و قلب المؤمن أشدّ اضطراباً من السفينة وأمواج الخواطر أعظم التطاماً

من أمواج البحر ، و إنّما المخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الّذي قال ﷺ : « إنّ الرّجل ليعمل بعمل أهل الجنّة خمسين سنة حتّى لايبقى بينه وبين الجنّة إلّا فَواق ناقةٍ فيختم له بما سبق به الكتاب »(١) ولا يتّسع فَواق ناقة لأعمال توجب الشقاوة بل هي الخواطر الّتي تضطرب وتخطر خطور البرق الخاطف ، وقال سهل : رأيت كأنّي دخلت الجنّة فرأيت ثلاثمائة نبيّ فسألتهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدّنيا؟ قالوا : سوء الخاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مغبوطاً عليها وكان موت الفجأة مكروهاً أمّا الموت فجأة فلأنّه ربّما يتّفق عند غلبة خاطر سوء و استيلائه على القلب والقلب لايخلو عن أمثالها إلى أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة وأمّا الشهادة فلأنّها عبارة عن قبض الرّوح في حالة لم يبق في القلب سوى حبّ الله وخرج حبّ الدّنيا و الأهل والمال و الولد و جميع الشهوات عن القلب، إذ لا يهجم على صفّ القتال موطّناً نفسه على الموت إلّا حبّاً لله و طالباً لمرضاته ، و بايعاً دنياه بآخرته ، وراضياً بالبيع الّذي بايعه الله به إذ قال تعالى : «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة »(٢) و البايع راغب عن المبيع لامحالة و مخرجٌ حبّه من القلب ، ومجرّدٌ حبّ العوض المطلوب في قلبه ، ومثل هذه الحالة قد يغلب في بعض الأحوال ولكن لايتّفق زهوق الرّوح فيها فصفّ القتال سبب زهوق الرّوح على مثل هذه الحالة ، وهذا فيمن ليس يقصد الغلبة و الغنيمة وحسنُ الصيت بالشجاعة فإنّ من هذا حاله و إن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرّتبة كما دلّت عليه الأخبار. و إذا بان لك معنى سوء الخاتمة و ما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها و واظب على ذكر الله و أخرج من قلبك حبّ الدّنيا واحرس عن فعل المعاصي جوارحك و عن الفكر فيها قلبك و احترز عن مشاهدة المعاصي و مشاهدة أهلها جهدك فإنّ ذلك أيضاً يؤثّر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإيّاك أن تسوّف وتقول : سأستعدّ لها إذا جاءت الخاتمة فإنّ كلّ نفس من أنفاسك خاتمتك

(١) روى نحوه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير و قد تقدم .

(٢) التوبة : ١١١ .

إذ يمكن أن تختطف فيه روحك، فراقب قلبك في كلّ تطريفة و إيّاك أن تهمله لحظة فلعلّ تلك اللّحظة خاتمتك، هذا مادمت في يَقَظَتك وأمّا إذا نمت فإيّاك أن تنام إلّا على طهارة الظاهر والباطن و أن يغلبك النوم إلّا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فإنّ حركة اللّسان بمجرّدها ضعيفة الأثر واعلم قطعاً أنّه لا يغلب عند النوم على قلبك إلّا ما كان قبل النوم غالباً عليه و أنّه لا يغلب في النوم إلّا ما كان غالباً قبل النوم ولا ينبعث عن نومك إلّا على ما غلب على قلبك في نومك ، والموت و البعث شبه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد إلّا على ما غلب عليه في يقظته و لا يستيقظ إلّا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت المرء إلّا على ما عاش عليه ولا يحشر إلّا على ما مات عليه ، وتحقّق قطعاً ويقيناً أنّ الموت و البعث حالتان من أحوالك كما أنّ النوم و اليقظة حالتان من أحوالك و آمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة ، وراقب أنفاسك ولحظاتك و إيّاك أن تغفل عن الله طرفة عين فانّك إذا فعلت ذلك كلّه كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والنّاس كلّهم هلكى إلّا العالمون ، والعالمون كلّهم هلكى إلّا العاملون ، (كذا) والعاملون كلّهم هلكى إلّا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . واعلم أنّ ذلك لا يتيسّر لك ما لم تقنع من الدّنيا بقدر ضرورتك وضرورتك مطعم وملبس ومسكن و الباقي كلّه فضول و الضرورة من المطعم ما يقيم صلبك و يسدّ رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطرّ كاره له و لا تكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن و بين إخراجه فهما ضرورتان في الجبلّة و كما لا يكون قضاء الحاجة من همّتك الّتي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همّتك ، و اعلم أنّه إن كان همّتك ما يدخل في بطنك فقيمتك ما يخرج من بطنك . و إذا لم يكن قصدك من الطعام إلّا التقوّي على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء حاجتك، فعلامة ذلك تظهر في ثلاثة اُمور من مأكولك في وقته وقدره وجنسه. أمّا الوقت فأقلّه أن تكتفي في اليوم و اللّيلة بمرّة واحدة فتواظب على الصوم، و أمّا قدره فأن لا تزيد على ثلث البطن ، و أمّا جنسه

فأن لا تطلب اللّذائذ من الأطعمة بل تقنع بما يتّفق فإن قدرت على هذه الثلاث وسقط عنك مؤونة الشهوات واللّذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشبهات وأمكنك أن لا تأكل إلّا من حلّه فإنّ الحلال يعزّ ولا يفي بجميع الشهوات ، وأمّا ملبسك فليكن غرضك منه دفع الحرّ والبرد وستر العورة وكلّ ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدانق فطلبك غيره فضول منك يضيع زمانك ويلزمك الشغل الدّائم والعناء القائم في تحصيله بالكسب مرّة والطمع اُخرى من الحرام والشبهة ، وقس بهذا ما تدفع به الحرّ والبرد عن بدنك ، فكلّما حصل مقصود اللّباس إن لم يكتف به من خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومردّ بعده ، بل كنت ممّن لا يملأ بطنه إلّا التراب ، وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفاً والأرض مستقرّاً فإن غلبك حرّ أو برد فعليك بالمساجد فإن طلبت مسكناً خاصّاً طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثمّ إن يتيسّر لك فقصدت من الحائط سوى كونه حائلاً بينك وبين الأبصار ومن السقف سوى كونه دافعاً للأمطار فأخذت ترفع الحيطان وتزيّن السقوف فقد تورطّت في مهواة يتعذّر رقيّك منها وهكذا جميع ضرورات اُمورك إن اقتصرت عليها تفرّغت لله وقدرت على التزوّد لآخرتك والاستعداد لخاتمتك وإن جاوزت حدّ الضرورة إلى أودية الأماني تشعّبت همومك ولم يبال الله في أيّ واد أهلكك فاقبل هذه النصيحة ممّن هو أحوج إلى النصيحة منك .

واعلم أنّ متّسع التدبير والتزوّد والاحتياط هذا العمر القصير فإذا دفعته يوماً بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك ، فإن كنت لا تقدر على ملازمة ما أرشدت إليه لضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الخاتمة كفاية في تخويفك فإنّا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن تزيل بعض القساوة عن قلبك فإنّك تتحقّق أنّ عقل الأنبياء والعلماء والأولياء وعلمهم ومكانهم عند الله لم تكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمّل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتدّ بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتّى كان بعضهم يصعق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيّاً عليه وبعضهم يخرّ ميتاً

إلى الأرض ولاغرو أن كان ذلك لايؤثّر في قلبك فإنّ قلوب الغافلين مثل الحجارة «أو أشدّ قسوة وإنّ من الحجارة لما يتفجّر منه الأنهار وإنّ منها لما يشقّق فيخرج منه الماء و إنّ منها لما يهبط من خشية الله و ما الله بغافل عمّا تعملون».

(بيان أحوال الانبياء والأولياء والملائكة عليهم السّلام في الخوف)

روت عائشة أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان إذا تغيّر الهواء وهبّت ريح عاصفة يتغيّر وجهه و يقوم و يتردّد في الحجرة ويدخل ويخرج كلّ ذلك خوفاً من عذاب الله[1] وقرأ صلّى الله عليه وآله وسلّم آية في سورة الحاقّة فصعق[2]. و قال الله تعالى: «وخرّ موسى صعقاً»[3] و رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم صورة جبرئيل عليه السلام بالأبطح فصعق[4].

وروي أنّه عليه السلام كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل[5].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ما جاءني جبرئيل قطّ إلّا وهو يرعد فرقاً من الجبّار»[6] وقيل: لمّا ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبرئيل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله تعالى إليهما مالكما تبكيان كلّ هذا البكاء فقالا: يا ربّ ما نأمن مكرك فقال الله تعالى

(١) راجع صحيح البخاري ج ٦ ص ١٦٧ في عنوان «سورة الاحقاف».

(٢) المعروف في ما يروى من هذه القصة أنه قرأ «أن لدينا أنكالا و جحيماً و طعاماً ذا غصة و عذاباً أليماً» فصعق. كما أخرجه عبد بن حميد و محمد بن نصر عن حمران، وأحمد في الزهد كما في الدر المنثور ج ٦ ص٢٧٩.

(٣) الاعراف: ١٤٣.

(٤) أخرج البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي صلى الله عليه و آله و سلم جبرئيل أن يريه صورته فقال: ادع ربك فدعا ربه فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع و يسير فلما رآه صعق، و رواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلا بلفظ «فغشي عليه». (المغني)

(٥) أخرجه الترمذي في الشمائل ص٢٣ باب ما جاء في بكاء رسول الله.

(٦) قال العراقي: لم أجده بهذا اللفظ و روى أبو الشيخ في كتاب العظمة عن ابن عباس قال: ان جبرئيل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائصه فرقاً من عذاب الله - الحديث -».

هكذا كونا لاتأمنا مكري ، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه سأل جبرئيل «مالي لأرى ميكائيل يضحك فقال جبرئيل عليه السلام ماضحك ميكائيل منذ خلقت النّار »(١) ويقال: إنّ لله تعالى ملائكة لم يضحك أحدٌ منهم منذ خلقت النّار مخافة أن يغضب الله عليهم فيعذّبهم

و روي أنّ داود عليه السّلام كان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت عليّ الأرض برحبها ، وإذا ذكرت رحمتك ارتدّت إليّ روحي. سبحانك إلهي أتيت أطبّاء عبادك ليداووا خطيئتي فكلّهم عليك يدلّني فبؤساً للقانطين من رحمتك.

وقال الفضيل : بلغني أنّ داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخاً واضعاً يده على رأسه حتّى لحق بالجبال فاجتمعت إليه السباع فقال : ارجعوا لا اُريد كم إنّما اُريد كلّ بكّاء على خطيئته فلايستقبلني إلّا البكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطّاء. وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول: دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تخريق العظام و اشتعال الحشا ، و قبل أن يؤمر بي ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون

و قال عبد العزيز بن عمر : لمّا أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال : الهي بحّ صوتي في صفاء أصوات الصدّيقين . وروي أنّه عليه السلام لمّا طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك فضاق ذرعه واشتدّ غمّه قال : يا ربّ أما ترحم بكائي؟ فأوحى الله تعالى إليه : ياداود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك ، فقال: إلهي وسيّدي كيف أنسى ذنبي و كنت إذا تلوت الزّبور كفّ الماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الرّيح وأظلّني الطير على رأسي وأنست الوحوش إلى محرابي ، إلهي وسيّدي فما هذه الوحشة الّتي بيني وبينك ؟. فأوحى الله تعالى إليه : ياداود ذاك اُنس الطاعة وهذه وحشة المعصية ، ياداود آدم خلقٌ من خلقي خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي و أسجدت له ملائكتي و ألبسته ثوب كرامتي و توّجته بتاج وقاري و شكا لي الوحدة فزوّجته حوّاء أمتي وأسكنته جنّتي عصاني فطردته عن جواري عريان ذليلاً ، يا داود اسمع منّي - و الحقّ أقول - أطعتنا فأطعناك و سألتنا فأعطيناك و عصيتنا فأهملناك و إن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك .

(١) أخرجه أحمد في مسنده ج ٣ ص ٢٢٤ من حديث أنس .

وقال يحيى بن أبي كثير: بلغنا أنّ داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أُخرج له إلى البريّة منبر فيأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقرىء البلاد وما حولها من الغياض والآكام والجبال والبراري والصوامع والبيع فينادي فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت قال: فتأتي الوحوش من البراري و الآكام وتأتي السباع من الغياض و تأتي الهوامّ من الجبال و تأتي الطير من الأوكار وتأتي العذارى من خدورهنّ و يجتمع الناس لذلك اليوم و يأتي داود حتّى يرقى المنبر و يحيط به بنو إسرائيل و كلّ صنف على حدته محيطون به و سليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربّه فيضجّون بالبكاء والصراخ ثمّ يأخذ في ذكر الجنّة والنّار فتموت الهوامّ وطائفة من الوحوش والسباع والناس، ثمّ يأخذ في أهوال القيامة وفي النياحة على نفسه فيموت من كلّ نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال: يا أبتاه قد مزّقت المستمعين كلّ ممزّق و ماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوامّ فيأخذ في الدّعاء، فبينا هو كذلك إذ ناداه بعض عبّاد بني إسرائيل يا داود عجّلت بطلب الجزاء على ربّك، قال: فخرّ مغشيّاً عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه ثمّ أمر منادياً ينادي ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فيحمله فإنّ الّذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنّة والنّار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول: يا من قتله ذكر النّار، يا من قتله خوف الله، ثمّ إذا أفاق داود قام و وضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته و أغلق بابه و يقول: يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال يناجي ربّه فيأتي سليمان فيقف على الباب ويستأذن ثمّ يدخل ومعه قرص من شعير ويقول: يا أبتاه تقوّ بهذا على ما تريد فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله ثمّ يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم. (١) وقال يزيد الرقاشي: خرج داود ذات يوم بالناس يعظهم ويخوّفهم فخرج في أربعين ألفاً فمات منهم ثلاثون ألفاً وما رجع إلّا في عشرة آلاف، قال: وكان له جاريتان اتّخذهما حتّى إذا جاء الخوف

(١) قصة من الاسرائيليات توجد في بعض كتب الصوفية و كذا التي قبلها و بعدها.

وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجليه مخافة أن يتفرّق أعضاؤه ومفاصله فيموت .

وقال ابن عمر : دخل يحيى بن زكريّا عليهما السلام بيت المقدّس وهو ابن ثمان سنين فنظر إلى عبّادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهديهم قد خرّقوا التراقي وسلكوا فيها السلاسل وشدّوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك فرجع إلى أبويه فمرّ بصبيان يلعبون فقالوا له : يا يحيى هلمَّ بنا لنلعب فقال : إنّي لم اُخلق للّعب قال : فأتى أبويه فسألهما أن يدرّعاه الشعر ففعلا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهاراً ويصبح فيه ليلاً حتّى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيران الشعاب فخرج أبواه في طلبه فأدركاه على بحيرة الاُردن وقد انقطع رجليه في الماء حتّى كاد العطش يذبحه وهو يقول : وعزّتك وجلالك لا أذوق بارد الشراب حتّى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يفطر على قرص كان معهما من شعير ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفّر عن يمينه فمدح بالبرّ فردّه أبواه إلى بيت المقدس فكان إذا قام يصلّي بكى حتّى يبكي معه الشجر والمدر ويبكي زكريّا عليه السلام لبكائه حتّى يغمى عليه فلم يزل يبكي حتّى خرقت دموعه لحم خدّيه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له اُمّه : يا بنيّ لو أذنت لي أن أتّخذ لك شيئاً تواري به أضراسك عن الناظرين ، فأذن لها فعمدت إلى قطعتي لبود فألصقتهما على خدّيه فكان إذا قام يصلّي بكى فإذا استنقعت دموعه في القطعتين أتت إليه اُمّه فعصرتهما فإذا رأى دموعه تسيل على ذراعي اُمّه قال : اللّهمَّ هذه دموعي وهذه اُمّي وأنا عبدك وأنت أرحم الرّاحمين ، فقال له زكريّا : يا بنيَّ إنّما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرَّ عيناي فقال يحيى: يا أبت إنَّ جبرئيل أخبرني أنَّ بين الجنّة والنّار مفازة لا يقطعها إلّا كلّ بكّاء، قال زكريّا عليه السلام : فابك يا بنيَّ .

أقول: وهذا الحديث رواه شيخنا الصدوق في المجلس الثامن من كتاب عرض المجالس بإسناده عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله مع زيادة ونقصان واختلاف في ألفاظه وروى في المجلس الرّابع والخمسين من طريق الخاصّة عن ليث بن أبي سليم قال: سمعت رجلاً من الأنصار يقول : بينما رسول الله صلى الله عليه وآله مستظلّ بظلّ شجرة في يوم شديد

الحرّ إذ جاء رجل ينزع ثيابه ثمّ جعل يتمرّغ في الرّمضاء يكوي ظهره مرّة وبطنه مرّة وجبهته مرّة ويقول : يا نفس ذوقي فما عند الله أعظم ممّا صنعت بك . ورسول الله ينظر إلى ما يصنع ثمّ إنّ الرّجل لبس ثيابه ثمّ أقبل فأومأ إليه النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بيده و دعاه فقال له: ياعبدالله لقد رأيتك صنعت شيئاً ما رأيت أحداً من الناس صنعه فما حملك على ما صنعت؟ فقال الرّجل : حملني على ذلك مخافة الله وقلت لنفسي : يا نفسي ذوقي فما عند الله أعظم ممّا صنعت بك فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : لقد خفت ربّك حقّ مخافته وإنّ ربّك ليباهي بك أهل السماء ثمّ قال لأصحابه : يا معشر من حضر ادنوا من صاحبكم حتّى يدعو لكم فدنوا منه فدعا لهم وقال : « اللّهمّ اجمع أمرنا على الهدى و اجعل التقوى زادنا والجنّة مآبنا » .

قال أبو حامد : و قال عيسى عليه السلام : معاشر الحواريّين خشية الله و حبّ الفردوس يورثان الصبر على المشقّة و يباعدان من الدّنيا ، بحقّ أقول لكم : إنّ أكل الشعير و النوم على المزابل مع الكلاب في طلب الفردوس قليل . وقيل : كان الخليل عليه السلام إذا ذكر خطيئته يغشى عليه ويسمع اضطراب قلبه ميلاً في ميل فيأتيه جبرئيل فيقول له : الجبّار يقرئك السلام ويقول : هل رأيت خليلاً يخاف خليله ، فيقول : يا جبرئيل إنّي إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلّتي ، و قيل كان يسمع أزيز قلبه عليه السلام إذا كان في الصلاة مسيرة ميل خوفاً من ربّه ، وقال عليّ عليه السلام و قد سلّم عن صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلّب يده : لقد رأيت أصحاب محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم فلم أر اليوم شيئاً يشبههم لقد كانوا يصبحون صفراً شعثاً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى قد باتوا لله سجّداً وقياماً يتلون كتاب الله يراوحون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا و ذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الرّيح وهملت أعينهم بالدّموع حتّى تبلّ ثيابهم والله لكأنّي بالقوم باتوا غافلين . ثمّ قام فما رئي بعد ذلك ضاحكاً حتّى ضربه ابن ملجم ، وكان عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا توضّأ اصفرّ لونه فيقول له أهله : ماهذا الّذي يعتادك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من اُريد أن أقوم [1]. **أقول** :ومن

(١) تقدم جميع ذلك فى المجلد الاول كتاب أسرار الصلاة و المجلد الرابع كتاب أخلاق النبوة و كتاب آداب الشيعة و أخلاق الامامة .

طريق الخاصّة روي في الكافي حديث عليّ عليه السلام عن الباقر عليهما السلام هكذا صلّى أمير المؤمنين صلوات الله عليه بالناس الصبح بالعراق فلمّا انصرف وعظهم فبكى وأبكاهم من خوف الله ثمّ قال : « أما و الله لقد عهدت أقواماً على عهد خليلي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و إنّهم ليصبحون ويمسون شُعثاً غبراً خمصاً بين أعينهم كركب المعزى يبيتون لربّهم سجّداً و قياماً يراوحون بين أقدامهم وجباههم يناجون ربّهم ويسألونه فكاك رقابهم من النار و الله لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون»(١).

و في رواية اُخرى : «كأنّ زفير النّار في آذانهم ، إذا ذكر الله عندهم مادوا كما تميد الشجر كأنّما القوم ماتوا غافلين ، قال: ثمّ قال : فما رئي ضاحكاً حتّى قبض عليه السلام » (٢).

و عن الصادق عليه السلام قال : « كان عليّ بن الحسين عليهما السلام إذا قام في الصلاة تغيّر لونه فاذا سجد لم يرفع رأسه حتّى يرفض عرقاً»(٣) . و عنه عليه السلام قال : « كان أبي يقول : كان عليّ بن الحسين إذا قام في الصلاة كأنّه ساق شجرة لا يتحرّك منه إلّا ما حرّك الرّيح منه» (٤). و الأدعية المنسوبة إليه تنادي بشدّة خوفه و كذا الندبات المنقولة عنه .

وقد أكثر أبو حامد من ذكر خوف الصحابة والسلف ههنا بما ليس في ذكره فائدة فإنّ منهم من هو معروف عندنا بالنفاق والضلال ومنهم من هو مجهول الحال .

قال : فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والعلماء ونحن أجدر بالخوف منهم ليس الخوف بكثرة الذّنوب بل بصفاء القلوب و كمال المعرفة و إلّا فليس أمننا لقلّة ذنوبنا و كثرة طاعتنا ، بل قادتنا شهوتنا و غلبت علينا شقوتنا وصدّتنا عن ملاحظة أحوالنا

---

(١) المصدر ج ٢ ص ٢٣٥ والشعث تفرق الشعر وعدم اصلاحه ومشطه . والاغبر: المتلطخ بالغبار ، والركب : مابين أسافل أطراف الفخذ . وراجع بيانه المصدر في الهامش .

(٢) المصدر ج ٢ ص٢٣٦ . وماد يميد أي اضطرب وفي بعض النسخ [باتوا غافلين]

(٣) الكافي ج ٣ ص ٣٠٠ تحت رقم ٥ .

(٤) الكافي ج ٣ ص ٣٠٠ تحت رقم ٤ .

غفلتنا وقسوتنا ، فلاقرب الرّحيل ينبّهنا ، ولا كثرة الذّنوب تحرّكنا ، ولامشاهدة أحوال الخائفين تخوّفنا ، ولاخطر الخاتمة يزعجنا ، فنسأل الله تعالى أن يتدارك بفضله وجوده أحوالنا فيصلحنا إن كان تحريك اللّسان بمجرّد السؤال دون الاستعداد ينفعنا و من العجائب أنّا إذا أردنا المال في الدّنيا زرعنا وغرسنا واتّجرنا و ركبنا البحار و البراري و خاطرنا و إن أردنا طلب رتبة العلم تفقّهنا و تعبنا في حفظه و تكراره و سهرنا ونجتهد في طلب أقواتنا ولا نثق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول : اللّهمّ ارزقنا ، ثمّ إذا طمحت أعيننا نحو الملك الدّائم المقيم قنعنا بأن نقول بألسنتنا : اللّهمّ اغفر لنا وارحمنا ، والّذي إليه رجاؤنا و به اغترارنا ينادينا ويقول : « وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى » « ولا يغرّنّكم بالله الغرور » « يا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم » كلّ ذلك لا ينبّهنا ولايخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا ، فما هذه إلّا محنة هائلة إن لم يتفضّل الله علينا بتوبة نصوح تداركنا بها و يجبرنا فنسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوّق إلى التوبة سرائر قلوبنا و أن لا يجعل حركة اللّسان بسؤال التوبة غاية حظّنا فنكون ممّن يقول ولا يعمل ويسمع و لايقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا و إذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخذلان أعظم من هذا . فنسأل الله تعالى أن يمنّ علينا بالتوفيق والرّشد علينا بمنّه وفضله ، و لنقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردنا فإنّ القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي و الكثير منه و إن أُفيض على القلب الغافل فلا يغني ، ولقد صدق الرّاهب الّذي حكي عنه عيسى بن مالك الخولاني و كان من خيار العبّاد أنّه رآه على باب بيت المقدس واقفاً كهيئة المحزون من شدّة الوله ما يكاد يرقأ دمعه من كثرة البكاء قال عيسى : فلمّا رأيته هالني منظره فقلت : أيّها الرّاهب أوصني بوصيّة أحفظها عنك ، فقال : يا أخي بما ذا اُوصيك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع و الهوامّ فهو خائف حذر يخاف أن يغفل فيفترسه السباع أو يسهو فتنهشه الهوامّ فهو مذعور القلب وجل فهو في المخافة في ليله وإن أمن المغترّون ، وفي الحزن في نهاره و إن فرح البطّالون فافعل ، ثمّ ولّى و تركني فقلت : لو زدتني شيئاً عسى

أن ينفعني فقال : الظمآن يجزئه من الماء أيسره . فقد صدق ، فانّ القلب الصافي يحرّكه أدنى مخافة و القلب الجامد ينبو عنه كلّ المواعظ، وما ذكره من تقديره إنّه احتوشته السباع والهوامّ فلا ينبغي أن يظنّ أنّه تقدير بل هو تحقيق فانّك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيته مشحوناً باصناف السباع و أنواع الهوامّ مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرّياء و غيرها وهي الّتي لاتزال تفترسك وتنهشك إن سهوت عنها لحظة إلّا أنّك محجوب العين عن مشاهدتها فاذا انكشف الغطاء و وضعت في قبرك عاينتها وقد تمثّلت لك بصورها و أشكالها الموافقة لمعانيها ، فترى بعينك العقارب والحيّات قد أحدقت بك في قبرك وإنّما هي صفاتك الحاضرة لك الآن قد انكشف لك صورها فان أردت أن تقتلها وتقهرها وأنت قادرٌ عليها قبل الموت فافعل وإلّا فوطّن نفسك على لدغها ونهشها لصميم فؤادك فضلاً عن ظاهر بشرتك وجسمك والسّلام .

هذا آخر كتاب الخوف والرّجاء من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، ويتلوه كتاب الفقر والزّهد ، والحمد لله ربّ العالمين وصلواته على سيّدنا محمّد النبيّ وآله وسلامه .

كتاب الفقر والزّهد

وهو الكتاب الرّابع من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الأحياء

بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمد لله الّذي، تسبّح له الرّمال، وتسجد له الظّلال، و تندكّ[1] من هيبته الجبال، خلق الإنسان من الطين اللاّزب و الصلصال، وزيّن صورته بأحسن تقويم و أتمّ اعتدال، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال، وأذن له في قرع باب الخدمة بالغدوّ والآصال، ثمّ كحل بصيرة المخلص في خدمته بنور العبرة حتّى لاحظ بضيائه حضرة الجلال، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال، ما استقبح دون مبادي إشراقه كلّ حسن وجمال، فاستثقل كلّ ما صرفه عن مشاهدته و ملازمته غاية الاستثقال، وتمثّل له ظاهر الدّنيا في صورة امرأة جميلة تميس[2] و تختال، وانكشف له باطنها عن عجوز شوهاء عجنت من طينة الخزي، وضربت في قالب النكال، وهي متلفّقة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال و قد نصبت حبائلها في مدارج الرّجال فهي تقتنصهم[3] بضروب المكر و الاغتيال، ثمّ لاتجتزىء معهم بالخلف في مواعيد الوصال، بل تقيّدهم مع قطع الوصال بالسلاسل و الأغلال، وتبتليهم بأنواع البلايا و الانكال فلمّا انكشف للعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال زهدوا فيها زهد المبغض لها فتركوها وتركوا التفاخر و التكاثر بالأموال، وأقبلوا بكنه هممهم على حضرة الجلال والجمال، واثقين منه بوصال ليس دونه فصال، و مشاهدة

---

(١) أى تنهدم.

(٢) ماس الرجل يميس ميساً و ميساناً فى المشى أى يتمايل و يتبختر.

(٣) أى تصيدهم.

أبديّة لا يعتريها فناء ولا زوال ، والصلاة والسلام على سيّد الأنبياء وآله خير آل .

أمّا بعد فإنّ الدّنيا عدوّة لله تعالى بغرورها ضلّ من ضلّ ، و بمكرها زلّ من زلّ فحبّها رأس الخطايا و السيّئات ، و بغضها اُمّ الطاعات واُسّ الحسنات ، و قد استقصينا ما يتعلّق بوصفها و ذمّ الحبّ لها في كتاب ذمّ الدّنيا من ربع المهلكات ونحن الآن نذكر فضل البغض لها و الزّهد فيها فإنّه رأس المنجيات ، فلا مطمع في النجاة إلّابالانقطاع عن الدّنيا والبعد منها ولكن مقاطعتها إمّا أن تكون بانزوائها عن العبد و يسمّى ذلك فقراً ، و إمّا بانزواء العبد عنها و يسمّى ذلك زهداً، ولكلّ واحد منهما درجة في نيل السعادات و حظّ في الإعانة على الفوز و النجاة ، و نحن الآن نذكر حقيقة الفقر و الزّهد و درجاتهما و أقسامهما و شروطهما و أحكامهما ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزّهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر .

الشطر الأوّل من الكتاب في الفقر وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقاً ، وبيان فضيلة خصوص الفقراء ، وبيان فضل الفقير على الغني ، و بيان أدب الفقير في فقره ، وبيان أدبه في قبول العطاء ، وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة ، وبيان مقدار الغنى المحرّم للسؤال ، وبيان أحوال السائلين .

✿(بيان حقيقة الفقر واختلاف احوال الفقير واساميه)✿

إعلم أنّ الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه فأمّا فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمّى فقراً ، و إن كان المحتاج إليه موجوداً مقدوراً عليه لم يكن المحتاج فقيراً ، وإذا فهمت هذا لم تشكّ في أنّ كلّ موجود سوى الله فهو فقير لأنّه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال و دوام وجود مستفاد من فضل الله وجوده ، فإن كان في الوجود موجودٌ ليس وجوده مستفاداً له من غيره فهو الغنيّ المطلق ولا يتصوّر أن يكون مثل هذا الموجود إلّا واحداً فليس في الوجود إلّا غنيّ واحد ، و كلّ من عداه فإنّهم محتاجون إليه ليمدّ وجودهم بالدّوام وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى : «والله الغنيّ وأنتم الفقراء»[1] وهذا معنى الفقر مطلقاً ولكنّا لسنا نقصد بيان الفقر المطلق

---

(١) محمد : ٣٨ .

بل الفقر من المال على الخصوص و إلّا ففقر العبد بالإضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأنّ حاجاته لاحصر لها و من جملة حاجاته ما يتوصّل إليه بالمال وهو الّذي نريد الآن بيانه فقط فنقول: كلّ فاقد للمال فانّا نسمّيه فقيراً بالإضافة إلى المال الّذي فقده إذاكان ذلك المفقود محتاجاً إليه في حقّه، ثمّ يتصوّر أن يكون له خمسة أحوال عندالفقر ونحن نميّزها ونخصّص كلّ حال باسم لنتوصّل بالتمييز إلى ذكر أحكامها.

الحالة الأولى: و هي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه و تأذّى به وهرب من أخذه مبغضاً له ومحترزاً من شرّه وشغله وهو الزّهد واسم صاحبه الزّاهد.

الثانية: أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح بحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذّي بها ويزهد فيه و لو أتاه رضي به وصاحب هذه الحالة يسمّى راضياً.

الثالثة: أن يكون وجود المال أحبّ إليه من عدمه لرغبة له فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه عفواً صفواً أخذه وفرح به، و إن افتقر إلى تعب في طلبه لم يشتغل به، وصاحب هذه الحالة نسمّيه قانعاً إذ قنع نفسه بالموجود حتّى ترك الطلب مع ما فيه من الرّغبة الضعيفة.

الرّابعة: أن يكون تركه الطلب لعجزه و إلّا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلاً إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه أو هو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسمّيه بالحريص.

الخامسة: أن يكون ما فقده من المال مضطرّاً إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب، ويسمّى صاحب هذه الحالة مضطرّاً كيف ما كانت رغبته في الطلب إمّا ضعيفة وإمّا قويّة وقلّما ينفكّ هذه الحالة عن الرّغبة فهذه خمسة أحوال أعلاها الزّهد و الاضطرار إن انضمّ إليه الزّهد و تصوّر ذلك فهو أقصى درجات الزّهد كما سيأتي بيانه.

أقول: الاضطرار المنضمّ إليه الزّهد إن تصوّر فليس من الخصال المحمودة بل ولا من شيم العقلاء. فضلاً عن أن يكون أقصى درجات الزّهد فانّ الجائع المضطرّ

إلى الخبز الفاقد له لو آتاه الله الخبز عفواً صفواً فتأذّى به وهرب من أخذه عدّ من المجانين ولا يأتي لفضله بيان في كلام أبي حامد و كيف نبيّن ماليس ، ثمّ التقسيم الّذي ذكره ليس بسديد وذلك لأنّ المضطرّ ليس قسيماً للأربعة الاُخر بل هو أيضاً ينقسم إلى بعضها كما أشار إليه أبو حامد فيما بعد ، فالصواب أن يقسم الفقير أوّلاً إلى مضطرّ وغير مضطرّ ثمّ يقسم غير المضطرّ إلى الأقسام الأربعة ، ويقسم المضطرّ إلى بعضها ممّا يتصوّر ثمّ يذكر ترتيب الفضل في أقسام كلّ منهما على حدة .

قال : و وراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزّهد وهي أن يستوي عنده وجود المال و فقده فإن وجده لم يفرح به ولم يتأذّ و إن فقده فكذلك .

أقول : لم نجد فرقاً بيّناً بين هذه الحالة والحالة الثانية الّتي سمّاها رضا .

قال : فمن هذه حاله فلو كانت الدّنيا بحذافيرها في يده وخزائنه لم تضرّه إذ هو يرى الأموال في خزانة الله لا في يد نفسه فلا يفرق بين أن يكون في يده أو في يد غيره ، وينبغي أن يسمّى صاحب هذه الحالة المستغني لأنّه غنيّ عن فقد المال و وجوده جميعاً و ليفهم من هذا الاسم معنى يفارق معنى اسم الغنيّ المطلق على الله تعالى وعلى من كثر ماله من العباد فإنّ من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده و إنّما هو غنيّ عن دخول المال في يده لا عن بقائه في يده فهو إذن فقير من وجه ، وأمّا هذا الشخص فهو غنيّ عن دخول المال في يده وعن بقائه في يده وعن خروجه من يده أيضاً ، فإنّه ليس يتأذّى به ليحتاج إلى الخروج وليس يفرح به ليحتاج إلى البقاء وليس فاقداً له ليحتاج إلى الدّخول في يده فغناه إلى العموم أميل فهو إلى الغنى الّذي هو وصف الله أقرب ، و إنّما قرب العبد من الله بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكنّا لا نسمّي صاحب هذه الحالة غنيّاً بل مستغنياً ليبقى الغنى إسماً لمن له الغنى المطلق عن كلّ شيء وهو الله سبحانه ، وأمّا هذا العبد وإن استغنى عن المال وجوداً وعدماً فلم يستغن عن أشياء اُخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليبقى استغناؤه الّذي زيّن الله به قلبه فإنّ القلب المقيّد بحبّ المال رقيق و المستغني عنه حرّ والله تعالى هو الّذي أعتقه من هذا الرّقّ فهو محتاج إلى دوام هذا العتق ، والقلوب متقلّبة بين الرّقّ والحرّيّة في أوقات متقاربة لأنّها

بين أصبعين من أصابع الرّحمن فلذلك لم يكن اسم الغني مطلقاً عليه مع هذا الكمال إلّا مجازاً .

و اعلم أنّ الزّهد درجة هي كمال الأبرار و صاحب هذه الحالة من المقرّبين فلاجرم صار الزّهد في حقّه نقصاناً إذ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين وهذا لأنّ الكاره في الدّنيا مشغول بالدّنيا كما أنّ الرّاغب فيها مشغول بها . والشغل بما سوى الله حجاب عن الله تعالى إذ لا بعد بينك وبين الله حتّى يكون البعد حجاباً فإنّه أقرب إليك من حبل الوريد ، وليس هو في مكان حتّى تكون السماوات والأرض حجاباً بينك وبينه فإنّه أقرب إليك منك ، فلا حجاب بينك و بينه إلّا شغلك بغيره و شغلك بنفسك و شهواتك شغل بغيره و أنت لاتزال مشغولاً بنفسك و بشهوات نفسك ، فلذلك لا تزال محجوباً عنه فالمشغول بحبّ نفسه مشغول عن الله و المشغول ببغض نفسه أيضاً مشغول عن الله بل كلّ ما سوى الله مثاله مثال الرّقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمعشوق فإن التفت قلب العاشق إلى الرّقيب وإلى بغضه واستثقاله و كراهة حضوره فهو في حالة اشتغال قلبه ببغضه مصروف عن التلذّذ بمشاهدة معشوقه و لو استغرقه العشق لغفل عن غير المعشوق ولم يلتفت إليه فكما أنّ النظر إلى غير المعشوق لحبّه عند حضور المعشوق شرك في العشق و نقص فيه ، فكذا النظر إلى غيره لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخفّ من الآخر بل الكمال في أن لا يلتفت القلب إلى غير المحبوب بغضاً وحبّاً فإنّه كما لايجتمع في القلب حبّان في حالة واحدة فلايجتمع أيضاً بغض وحبّ في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدّنيا غافل عن الله تعالى كالمشغول بحبّها إلّا أنّ المشغول بحبّها غافلٌ وهو في غفلته سالك في طريق البعد ، والمشغول ببغضها غافلٌ وهو في غفلته سالك في طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهي حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتتبدّل بالشهود ، فالكمال له مرتقب لأنّ بغض الدّنيا مطيّة توصل إلى الله فالمحبّ والمبغض كرجلين في طريق الحجّ مشغولين بركوب الناقة و علفها وتسييرها ولكن أحدهما مستدبر للكعبة والآخر مستقبل لها فهما سيّان بالاضافة إلى الحال في أنّ كلّ واحد منهما محجوب عن الكعبة و مشغول عنها ، ولكن حال المستقبل

محمود بالاضافة إلى المستدبر إذ يرجى له الوصول إليها و ليس بمحمود بالإضافة إلى المعتكف في الكعبة و الملازم لها الّذي لايخرج منها حتّى يفتقر إلى الاشتغال بالدابّة في الوصول إليها فلاينبغي أن تظنّ أنّ بغض الدّنيا مقصود في عينه بل الدّنيا عائق عن الله و لاوصول إليه إلّا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الدّاراني من زهد في الدّنيا واقتصر عليه فقد استعجل الرّاحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة . فبيّن أن سلوك طريق الآخرة وراء الزّهد كما أنّ سلوك طريق الحجّ وراء دفع الغريم العائق عن طريق الحجّ ، فإذن قد ظهر أنّ الزّهد في الدّنيا إن اُريد به عدم الرّغبة في وجودها و عدمها فهو غاية الكمال وإن اُريد به الرّغبة في عدمها فهو كمال بالإضافة إلى درجة الرّاضي والقانع والحريص ، ونقصان بالإضافة إلى درجة المستغني ، بل الكمال في حقّ المال أن يستوي عندك الماء والمال ، و كثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطىء البحر ولا قلّته تؤذيك إلّا في قدر الضرورة مع أنّ الماء محتاج إليه كما أنّ المال محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولاً بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يبغض الماء الكثير ، بل تقول : أشرب منه بقدر الحاجة وأسقي منه عباد الله بقدر الحاجة ، ولا أبخل به على أحد ، فهكذا ينبغي أن يكون المال لأنّ الخبز والماء واحد في الحاجة وإنّما الفرق بينهما في قلّة أحدها و كثرة الآخر وإذا عرفت الله و وثقت بتدبيره الّذي دبّر به العالم علمت أنّ قدر حاجتك من الخبز يأتيك لامحالة ما دمت حيّاً كما يأتيك قدر حاجتك من الماء على ما سيأتي بيانه في كتاب التوكّل .

فإن قلت : فما بال الأنبياء و الأولياء هربوا من المال ونفروا منه كلّ النفار فأقول : كما نفروا من الماء على معنى أنّهم ما شربوا أكثر من حاجتهم فنفروا عمّا وراءها و لم يجمعوه في القرب و الروايا يديرونه مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والبراري للمحتاجين لا أنّهم كانت قلوبهم مشغولة بحبّه أو بغضه وقد حملت خزائن الأرض إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله و إلى بعض أصحابه فأخذوها و وضعوها في مواضعها وما هربوا منها إذ كان قد استوى عندهم الماء والمال والذّهب والحجر ومانقل عنهم من امتناع فإمّا أن ينقل عمّن خاف أن لو أخذه أن يخدعه المال ويقيّد قلبه فيدعوه إلى

الشهوات و هذا حال الضعفاء فلاجرم البغض للمال والهرب منه في حقّهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأنّ كلّهم ضعفاء إلّا الأنبياء والأولياء ، و إمّا أن ينقل عن قويّ بلغ الكمال ولكن أظهر الفرار والنفار نزولاً إلى درجة الضعفاء ليقتدوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لهلكوا كما يفرّ الرّجل المعزّم بين يدي أولاده من الحيّة لا لضعفه عن أخذها ولكن لعلمه بأنّه لو أخذها أخذها أولاده إذا رأوها وهلكوا ، و السير بسيرة الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء فقد عرفت إذن أنّ المراتب ستّ وأنّ أعلاها رتبة المستغني ،ثمّ الزّاهد ، ثمّ الرّاضي ، ثمّ القانع، ثمّ الحريص.

أقول: بل عرفت أنّها لا تزيد على خمس لأنّ الرّاضي و المستغني واحد .

قال : واسم الفقر يطلق على هذه الخمسة وأمّا تسمية المستغني فقيراً فلاوجه له بهذا المعنى ، بل إن سمّي فقيراً فبمعنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجاً إلى الله تعالى في جميع اُموره عامّة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصّة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبوديّة وأقرّ بها فإنّه أحقّ باسم العبد من الغافلين وإن كان اسم العبد عامّاً للخلق فكذلك اسم الفقير عامّ و من عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحقّ باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين ، فإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أنّ قوله عليه السلام: « أعوذ بك من الفقر » [1] و « كاد الفقر أن يكون كفراً » [2] لايناقض قوله :« أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين» [3] إذ فقر المضطرّ هو الّذي استعاذ منه ، و الفقر الّذي هو الاعتراف بالمسكنة و الذّلّة والافتقار إلى الله تعالى هو الّذي سأله في دعائه .

﴿بيان فضيلة الفقر مطلقاً﴾

أمّا من الآيات فيدلّ عليه قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الّذين اُخرجوا

---

(١) أخرجه النسائي ج ٨ ص ٢٦٢ في حديث وفيه « من شر فتنة الفقر » وأخرجه أبو داود و ابن ماجه .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس و قد تقدم في كتاب الحسد .

(٣) أخرجه الحاكم وابن ماجه تحت رقم ٤١٢٦ وصححه من حديث أبي سعيد وقد تقدم

من ديارهم وأموالهم »(١) وقال تعالى : « للفقراء الّذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف » (٢) ساق الله تعالى الكلام في معرض المدح ثمّ قدّم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة و الإحصار ، و فيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر .

أقول: لا دلالة في الآيتين على مدح الفقر وإنّما سيقتا لبيان أنّ مصرف المال إنّما هو الفقراء المتّصفون بهذه الصفات و كذا في بعض الأخبار الّتي ذكرها مثل ما رواه أنّه عليه السلام « سئل من خير الناس ؟ فقال : فقير يعطي جهده » فإنّه يدلّ على فضيلة الإعطاء جهد المقلّ لا على فضيلة الفقر مطلقاً فلنطو منها ما لا دلالة فيه والمتشابه وما أوّله به و ما لا اعتماد على قائله ، ولنذكر ماورد عن أهل البيت عليهم السلام من طريق الخاصّة ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : « كلّما ازداد العبد إيماناً ازداد ضيقاً في معيشته » (٣) .

وعن أمير المؤمنين عليه السلام : « وكّل الرّزق بالحمق و وكّل الحرمان بالعقل و وكّل البلاء بالصبر » (٤) وعن الصادق عليه السلام : « إنّ فقراء المؤمنين يتقلّبون في رياض الجنّة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً قال : سأضرب لك مثل ذلك ، إنّما مثل ذلك مثل سفينتين مرّ بهما على عاشر فنظر في أحدهما فلم ير فيها شيئاً فقال : أسربوها و نظر في الأُخرى فإذا هي موقورة فقال : احبسوها » (٥) و عنه عليه السلام « في مناجاة موسى عليه السلام : يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل : ذنب عجّلت عقوبته » (٦) .

و عنه عليه السلام قال لرجل : « أما تدخل السوق أمّا ترى الفاكهة تباع والشيء

(١) الحشر : ٨ . (٢) البقرة : ٢٧٣ .
(٣) المصدر ج ٢ ص ٢٦١ تحت رقم ٤ .
(٤) المصدر ج ٨ ص ٢٢١ تحت رقم ٢٧٧ .
(٥) المصدر ج ٢ ص ٢٦٠ تحت رقم ١ .
(٦) المصدر ج ٢ ص ٢٦٣ تحت رقم ١٢ .

ممّاتشتهيه قال : بلى فقال : أما إنّ لك بكلّ ماتراه فلاتقدر على شرائه حسنة »(١).

وعنه عليه السلام « إذا كان يوم القيامة قام عنق من النّاس حتّى يأتوا باب الجنّة فيضربوا باب الجنّة فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن الفقراء ، فيقال لهم : أقبل الحساب ؟ فيقولون : ما أعطيتمونا شيئاً تحاسبونا عليه ، فيقول الله تعالى : صدقوا ! ادخلوا الجنّة »(٢).

وعن أمير المؤمنين عليه السلام «الفقر أزين للمؤمن من العذار على خدّ الفرس»(٣).

وعن الكاظم عليه السلام « إنّ الله تعالى يقول : إنّي لم أغن الغني لكرامة به عليّ ولم أفقر الفقير لهوان به عليّ وهو ممّا ابتليت به الأغنياء بالفقراء و لولا الفقراء لم يستوجب الأغنياء الجنّة »(٤).

قال أبو حامد : و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «إنّ لي حرفتين اثنتين فمن أحبّهما فقد أحبّني ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر والجهاد »(٥).

و روي «أنّ جبرئيل نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا محمّد إنّ الله يقرء عليك السلام ويقول : أتحبّ أن أجعل هذه الجبال ذهباً ويكون معك حيث ما كنت فأطرق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ساعة ثمّ قال : يا جبرئيل : إنّ الدّنيا دار من لا دار له و مال من لامال له وقد يجمعها من لاعقل له فقال له جبرئيل : يا محمّد ثبّتك الله بالقول الثابت في الحياة الدّنيا وفي الآخرة »(٦).

و روي أنّ عيسى عليه السلام مرّ في سياحته برجل نائم ملتفّ في عباءة فأيقظه فقال :

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٢٦٤ تحت رقم ١٧ .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٦٤ تحت رقم ١٩ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٢٦٥ تحت رقم ٢٢ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٢٦٥ تحت رقم ٢٠ .

(٥) ما عثرت على أصل له .

(٦) ملفق من حديثين روى الترمذي من حديث أبي أمامة : « عرض على ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يارب ولكن أشبع يوماً و أجوع يوماً ـ الحديث ـ » وقال حسن : ولاحمد من حديث عائشة « الدنيا دار من لادار له ـ الحديث ـ » وقد تقدم (المغني)

يا نائم قم فاذكر الله ، فقال: ما تريد منّي إنّي قد تركت الدّنيا لأهلها ، فقال له : فنم إذن ياحبيبي . ومرّ موسى عليه السلام برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متّزر بعباءة فقال : يا ربّ عبدك هذا في الدّنيا ضايع فأوحى الله إليه : يا موسى أما علمت أنّي إذا نظرت إلى عبدي بوجهي كلّه زويت عنه الدّنيا كلّها .

وعن أبي رافع قال : وفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ضيف فلم يجد عنده مايصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر و قال : قل له : يقول لك محمّد : أسلفني أو بعني دقيقاً إلى هلال رجب،قال : فأتيته فقال : لا والله إلّا برهن،فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك فقال : أما والله إنّي لأمين في أهل السماء وأمين في أهل الأرض ولو باعني أو أسلفني لأدّيت إليه إذهب بدرعي هذا إليه فارهنه ، فلمّا خرجت نزلت هذه الآية « ولا تمدّنّ عينيك إلى مامتّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدّنيا - الآية - تعزية له عن الدّنيا » [١].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «الفقر أزين للمؤمنين من العذار الحسن على خدّ الفرس»[٢].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافىً في جسمه وعنده طعام يومه فكأنّما حيزت له الدّنيا بحذافيرها» [٣].

و قال عليه السلام : « تحفة المؤمن في الدّنيا الفقر » [٤] و قال عيسى عليه السلام: بشدّة يدخل الغنى الجنّة .

وفي خبر عن أهل البيت عليهم السلام أنّه عليه السلام قال : « إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه فإذا أحبّه الحبّ البالغ اقتناه قيل : وما اقتناه قال : لم يترك له أهلاً ولا مالاً » [٥].

---

(١) قال العراقي : أخرجه الطبراني بسند ضعيف .

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير من حديث شداد بن أوس و سعيد بن مسعود بسند ضعيف كما في الجامع الصغير و رواه الكليني في الكافي بسند حسن كماتقدم .

(٣) أخرجه ابن ماجه وغيره و قد تقدم .

(٤) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ كما في الجامع الصغير .

(٥) أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني (المغني) .

وعن النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرَّجل إلى الرَّجل في الدُّنيا فيقول وعزَّتي وجلالي ما زويت الدُّنيا عنك لهوانك عليَّ ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة اُخرج يا عبدي! إلى هذه الصفوف فمن أطعمك فيَّ أو كساك فيَّ يريد بذلك وجهي فخذه بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلّل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذه بيده ويدخله الجنّة» (١).

اقول: وهذا الحديث في الكافي عن الصادق عليه السلام هكذا «إنَّ الله يلتفت يوم القيامة إلى فقراء المؤمنين شبيهاً بالمعتذر إليهم فيقول: وعزَّتي وجلالي ما أفقرتكم في الدُّنيا من هوان بكم عليَّ ولترون ما أصنع بكم اليوم فمن زوَّد أحداً منكم في دار الدُّنيا معروفاً فخذوا بيده فأدخلوه الجنّة. قال: فيقول رجل منهم: يارب إنَّ أهل الدُّنيا تنافسوا في دنياهم فنكحوا النّساء و لبسوا الثياب اللّيّنة و أكلوا الطعام و سكنوا الدُّور وركبوا المشهور من الدَّواب فأعطني مثل ما أعطيتهم. فيقول الله تبارك وتعالى: لك ولكلِّ عبد منكم مثل ما أعطيت أهل الدُّنيا منذ كانت الدُّنيا إلى أن انقضت الدُّنيا سبعون ضعفاً» (٢).

قال أبوحامد: وقال عليه السلام: «أكثروا معرفة الفقراء، واتّخذوا عندهم الأيادي فإنَّ لهم دولة فقالوا: يا رسول الله و ما دولتهم قال: إذا كان يوم القيامة قيل لهم: انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوباً فخذوا بيده ثمَّ امضوا به إلى الجنّة» (٣).

وقال عمران بن حصين: كانت لي من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم منزلة وجاه فقال: «يا عمران إنَّ لك عندنا منزلة وجاهاً فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله؟ فقلت: نعم بأبي أنت واُمّي يا رسول الله فقام وقمت معه حتّى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال: السلام

(١) أخرج أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس باسناد ضعيف نحوه (المغنى)

(٢) المصدر ج ٢ ص ٢٦١ تحت رقم ٩.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي عليهما السلام باختلاف في آخره كما في الجامع الصغير.

عليكم أأدخل ؟ فقالت : ادخل بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ، فقال : أنا ومن معي؟ قالت : و من معك يا رسول الله ،قال : عمران . فقالت فاطمة : و الّذي بعثك بالحقّ نبيّاً ما عليّ إلّا عباءة قال : اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت: هذاجسدي قد واريته فكيف لي برأسي فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال : شدّي بها على رأسك ، ثمّ أذنت له فدخل فقال : السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت فقال:أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على مابي أنّي لست أقدرعلى طعام آكله وقد أضرّ بي الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : لاتجزعي ياابنتاه فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث وإنّي لأكرم على الله منك ولو سألت ربّي لأطعمني ولكن آثرت الآخرة على الدّنيا،ثمّ ضرب بيده على منكبها وقال لها : أبشري فوالله إنّك لسيّدة نساء أهل الجنّة .قالت: فأين آسية امرأة فرعون ، و مريم بنت عمران ، و خديجة بنت خويلد؟ قال : آسية سيّدة نساء عالمها ، ومريم سيّدة نساء عالمها ، وخديجة سيّدة نساء عالمها ، وأنت سيّدة نساء عالمك إنّكنّ في بيوت من قصب لاأذى فيها ولاصخب ولا نصبٌ ، ثمّ قال لها : اقنعي بابن عمّك فوالله لقد زوّجتك سيّداً في الدّنيا سيّداً في الآخرة » (١).

و روي عن علي عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إذا أبغض الناس فقراءهم و أظهروا عمارة الدّنيا وتكالبوا على جمع الدّراهم و الدّنانير رماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزّمان ، والجور من السلطان ، و الخيانة من ولاة الأحكام و الشوكة من الأعداء »(٢) و قال يحيى بن معاذ: حبّك للفقراء من أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم من علامات الصالحين ، و فرارك من صحبتهم من علامة المنافقين . و في الأخبار من الكتب السالفة أنّ الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه : احذر أن أمقتك فتسقط من عيني ، فأصبّ عليك الدّنيا صبّاً .

✿(بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقانعين والصادقين)✿

قال صلى الله عليه وآله وسلم : « طوبى لمن هدي إلى الإسلام و كان عيشه كفافاً وقنع به »(٣).

(١) تقدم سابقاً .　(٢) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس . (المغنى)
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه و قد تقدم .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم و إلّا فلا »[١] فالأوّل للقانع و هذا للرّاضي و يكاد يشعر هذا بمفهومه أنّ الحريص لا ثواب له على فقره ، ولكنّ العمومات الواردة في فضل الفقراء يدلّ على أنّ له ثواباً كما سيأتي تحقيقه ، فلعلّ المراد بعدم الرّضا هو الكراهة لفعل الله في حبس الدّنيا عنه، وربّ راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله ولا كراهة في فعله فتلك الكراهة هي الّتي تحبط ثواب الفقر .

و روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «أنّ لكلّ شيء مفتاحاً ومفتاح الجنّة حبّ المساكين والفقراء لصبرهم ، هم جلساء الله يوم القيامة »[٢].

و روي عن عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « أحبّ العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الرّاضي عن الله تعالى »[٣].وقال صلى الله عليه وآله وسلم :« اللّهمّ اجعل قوت آل محمّد كفافاً »[٤].

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « ما من أحد غنيّ ولا فقير إلّا ودّ يوم القيامة أنّه كان اُوتي قوتاً في الدّنيا »[٥].

و أوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام: اطلبني عند المنكسرة قلوبهم من أجلي، قال : و من هم قال : الفقراء الصادقون .

و قال عليه السلام : « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضياً »[٦]. و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يقول الله تعالى يوم القيامة: أين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة : ومن هم يا ربّنا فيقول : فقراء المسلمين القانعون بعطائي الرّاضون بقدري ادخلوهم الجنّة فيدخلونها

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف جداً كما في المغني و روى نحوه الكليني في الكافي ج ٢ ص ٢٦٣ .

(٢) أخرجه أبو بكر بن لال من حديث ابن عمر ، كما في الجامع الصغير .

(٣) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ .

(٤) أخرجه المسلم ج من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٤٠ .

(٦) ما عثرت على أصل له .

و يأكلون و يشربون و الناس في الحساب يتردّدون »[1] فهذا في القانع والرّاضي فأمّا الزّاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب .

أقول: ومن طريق الخاصّة الخبران اللّذان مرّا في أوّل الباب .

و عن الصّادق عليه السلام : « مكتوب في التوراة ابن آدم كن كيف شئت كما تدين تُدان ، من رضي من الله بالقليل من الرّزق قبل الله منه اليسير من العمل ، و من رضي باليسير من الحلال خفّت مؤونته وزكت مكسبته و خرج من حدّ الفجور »[2].

و عنه عليه السلام : « إنّ الله يقول : يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه وذلك أقرب له منّي. و يفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه و ذلك أبعد له منّي »[3].

و عن أمير المؤمنين عليه السلام « ابن آدم إن كنت تريد من الدّنيا ما يكفيك فإنّ أيسر ما فيها يكفيك، وإن كنت إنّما تريد مالا يكفيك فإنّ كلّ ما فيها لا يكفيك »[4].

و عن الباقر عليه السلام « إيّاك أن تطمح بصرك إلى من هو فوقك فكفى بما قال الله لنبيّه صلى الله عليه وآله : « و لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم »[5] و قال : « ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحيوة الدّنيا »[6] فإن دخلك من ذلك شيءٌ فاذكر عيش رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّما كان قوته الشعير و حلواه التمر و وقوده السّعف إذا وجده »[7].

قال أبو حامد : و أمّا الآثار في القناعة و الرّضا فكثيرة ، قال : وكان أبوذرّ يوماً جالساً في النّاس فأتته امرأة فقالت له : أتجلس بين هؤلاء والله ما في البيت هفّة

---

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس كما في المغني .

(٢) الكافي ج ٢ ص ١٣٨ تحت رقم ٤ .

(٣) الكافي ج ٢ ص ١٤١ تحت رقم ٥ .

(٤) الكافي ج ٢ ص ١٣٨ تحت رقم ٦ .

(٥) التوبة : ٥٦ . هكذا « فلا تعجبك » .

(٦) طه : ١٣١ .

(٧) الكافي ج٢ ص ١٣٧ تحت رقم ١ ، والوقود : الحطب وما يوقد به . والسعف : اغصان النخل ما دامت في الخوص .

ولا سُفّةٌ (١) فقال : يا هذه إنّ بين أيدينا عقبة كؤوداً لا ينجو منها إلّا كلّ مخفّ فرجعت و هي راضية .

و قال ذوالنّون : أقرب النّاس إلى الكفر ذوفاقة لا صبر له . و قيل لبعض الحكماء : ما مالك ؟ فقال : التجمّل في الظّاهر ، والقصد في الباطن ، و اليأس ممّا في أيدي النّاس. و روي أنّ الله تعالى قال في بعض الكتب المنزلة : يا ابن آدم لو كانت الدُّنيا كلّها لك لم يكن لك منها إلّا القوت فإذا أنا أعطيتك منها القوت و جعلت حسابها على غيرك فأنا إليك محسن . و قيل في القناعة :

اضرع إلى الله لا تضرع إلى النّاس ✡ واقنع بيأس فإنّ العزّ في اليأس

واستغن عن كلّ ذي قربى وذي رحم ✡ إنّ الغنيّ من استغنى عن النّاس

و قيل :

يا جامعاً مانعاً والدّهر يرمقه ✡ مقدّراً أيّ باب منه يغلقه

مفكّراً كيف تأتيه منيّته ✡ أغادياً أم بها يسري فتطرقه

جمعت مالاً ففكّر هل جمعت له ✡ يا جامع المال أيّاماً تفرّقه

المال عندك مخزون لوارثه ✡ ما المال مالك إلّا يوم تنفقه

أرفه ببال فتى يغدو على ثقة ✡ إنّ الّذي قسّم الأرزاق يرزقه

فالعِرض منه مصونٌ ما يدنّسه ✡ والوجه منه جديد ليس يخلقه

إنّ القناعة من يحلل بساحتها ✡ لم يبق في ظلّها همّاً يؤرقه

✡(بيان فضيلة الفقر على الغنى)✡

أقول : ذكر أبو حامد أوّلاً في بيان فضيلة الفقر على الغنى أقوال النّاس و اختلافهم و حججهم و بسط الكلام في ذلك بما لا طائل تحته ثمّ قال : فكشف الغطاء في هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر و هو أنّ ما لا يراد لعينه بل يراد لغيره فينبغي أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضيلته والدّنيا ليست محذورة لعينها ولكن لكونها

---

(١) أى ما فى البيت مشروب ولا مأكول (النهاية) .

عائقة عن الوصول إلى الله ولا الفقر مطلوب لعينه ولكن لأن فيه فقد العائق عن الله و عدم الشاغل عنه ، و كم من غني لم يشغله الغنى مثل سليمان بن داود عليهما السلام ، و كم من فقير شغله الفقر وصرفه عن المقصد ، وغاية المقصود في الدنيا هو حب الله والأنس به ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته و سلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن و الفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل و إنما الشواغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والمحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله ، و ربما يكون شغله في الفراق أكثر و ربما يكون في الوصال أكثر ، والدنيا معشوقة الغافلين والمحروم عنها مشغول بها و بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها وبالتمتع منها ، فإذن إن فرضت فارغين من حب المال بحيث صار المال في حقهما كالماء استوى الفاقد و الواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة و وجود قدر الحاجة أفضل من فقده إذ الجائع يسلك سبيل الموت لا سبيل المعرفة وإن أخذت الأمر باعتبار الأكثر فالفقر عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ، ومن العصمة أن لا تقدر ولذلك قالت الصحابة: بلينا بفتنة الضراء فصبرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، وهذا خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الفذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادراً فلما كان خطاب الشرع مع الكل لا مع ذلك النادر والضراء أصلح للكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه ، حيث قال عيسى عليه السلام : «لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم » و قال بعض العلماء : تقليب الأموال يمص حلاوة الإيمان

وفي الخبر «إن لكل أمة عجل وعجل هذه الأمة الدينار والدرهم »(١) وكان أصل عجل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضاً ، واستواء المال والماء والذهب و الحجر إنما يتصور للأنبياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة

---

(١) أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث حذيفة كما في كنوز الحقائق للمناوي

إذكان صلى الله عليه وآله وسلم يقول للدنيا: «إليك عنّي إليك عنّي»(١) إذكانت الدنيا تتمثّل له بزينتها، وكان عليّ عليه السلام يقول: «ياصفراء غرّي سواي ويا بيضاء غرّي غيري»(٢) وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادي الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربّه، وذلك هو الغنيّ المطلق إذقال عليه السلام: «ليس الغنى بكثرة العرض إنّما الغنى غنى النفس»(٣) وإذاكان ذلك بعيداً فاذن الأصلح لكافّة الخلق فقدالمال وإن تصدّقوابها وصرفوها إلى الخيرات لأنّهم لاينفكّون في القدرة على المال عن الاُنس بهذا العالم و بقدر ما يأنس العبد بالدّنيا يستوحش من الآخرة وبقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله ومن حبّه، و مهما انقطعت أسباب الاُنس بالدّنيا تجافى القلب عن الدّنيا وزهرتها و القلب إذا تجافى عمّا سوى الله و كان مؤمناً بالله انصرف لامحالة إلى الله إذ لايتصوّر قلب فارغ وليس في الوجود إلّا الله و غيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه، و من أقبل عليه تجافى من غيره و يكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر و قربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل المشرق والمغرب فإنّهما جهتان فالمتردّد بينهما بقدرمايقرب من أحدهما يبعدمن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد عن الآخر فعين حبّ الدّنيا هو عين بغض الله، فينبغي أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوفه عن الدّنيا و اُنسه بها فاذن فضل الفقير والغنيّ بحسب تعلّق قلبيهما بالمال فقط فان تساويا فيه تساوت درجتهما إلّا أنّ هذا مزلّة الأقدام وموضع الغرور فإنّ الغنيّ ربّما يظنّ أنّه منقطع القلب عن المال ويكون حبّه دفيناً في باطنه وهو لايشعر به وإنّما يشعر به إذا فقده فليجرّب نفسه بتفريقه وإذا سرق منه فان وجد لقلبه إليه التفاتاً فليعلم أنّه كان مغروراً فكم من رجل باع سريّة له لظنّه أنّه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعل من قلبه النار الّتي كانت مستكنّة فيه فتحقّق إذن أنّه كان مغروراً و إنّ العشق

(١) أخرجه الحاكم باختلاف فى المستدرك ج ٤ ص ٣٠٩.
(٢) روى مثله الصدوق فى الامالى من حديث ضرار بن ضمرة الليثى وفى النهج مثله
(٣) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١١٨

كان مستكنّاً في الفؤاد استكنان النار تحت الرّماد ، وهذا حال كلّ الأغنياء إلّا الأنبياء و الأولياء ، وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأنّ الفقر أصلح لكافّة الخلق و أفضل لأنّ علاقة الفقير و اُنسه بالدّنيا أضعف و بقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسبيحاته و عباداته فإنّ حركات اللّسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكّد بها الاُنس بالمذكور ولا يكون تأثيرها في أثارة الاُنس في قلب فارغ عن غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول ، ولذلك قال بعض السلف : مثل من تعبّد وهو في طلب الدّنيا مثل من يطفىء النّار بالحلفاء ، ومثل من يغسل يده من الغمر بالسمن .

أقول: وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ : « إلّا من أتى الله بقلب سليم » (١) قال : « القلب السليم الّذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه ، قال: و كلّ قلب فيه شرك أو شكّ فهو ساقط وإنّما أرادوا الزّهد في الدّنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة » (٢).

✡(بيان آداب الفقير في فقره)✡

للفقير آداب في باطنه وظاهره ومخالطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها ، وأمّا أدب باطنه فأن لا يكون فيه كراهة لما ابتلاه الله به من الفقر ، أعني به أنّه لا يكون كارهاً فعل الله من حيث إنّه فعله و إن كان كارهاً للفقر كالمحجوم يكون كارهاً للحجامة لتألّمه بها ولا يكون كارهاً فعل الحجّام ولا كارهاً له بل ربّما يتقلّد منّة منه فهذا أقلّ درجاته وهو واجب ونقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر ، وهو معنى قوله عليه السلام : « يا معشر الفقراء أعطوا الله الرّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم و إلّا فلا » (٣) و أرفع من هذا أن لا يكون كارهاً للفقر بل يكون راضياً به ، و أرفع منه أن يكون طالباً له و فرحاً به لعلمه بغوائل الغنى ويكون متوكّلاً في باطنه على الله واثقاً به في قدر ضرورته أنّه يأتيه لا محالة ويكون كارهاً للزّيادة على الكفاف .

أقول: هذا ينافي قوله فيما مضى أنّ أرفع المراتب أن يكون الفقر والغنى عنده

---

(١) الشعراء : ٨٩ .　(٢) المصدر ج ٢ ص ١٦ تحت رقم ٥ .

(٣) تقدم آنفا .

متساويين .

قال : وقد قال علي عليه السلام : «إنّ لله عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن علامة الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه و يطيع به ربّه و لا يشكو حاله و يشكر الله على فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسيء عليه خلقه ويعصي به ربّه ويكثر الشكاية ويتسخّط بالقضاء » وهذا يدلّ على أنّ كلّ فقير فليس بمحمود بل الّذي لا يتسخّط أو يرضى أو يفرح بالفقر يرضى لعلمه بثمرته إذ قيل ما اعطى عبد شيئاً من الدّنيا إلّا قيل له : خذه على ثلاثة أثلاث : شغل وهمّ وطول حساب ، وأمّا أدب ظاهره فأن يظهر التعفّف والتجمّل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستر أنّه يستره ففي الحديث «إنّ الله يحبّ الفقير المتعفّف أبا العيال »[(1)] وقال تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف»[(2)] وقيل : أفضل الأعمال التجمّل عند المحنة . وقال بعضهم : ستر الفقر من كنوز البر . و أمّا أدبه في مخالطته فأن لا يتواضع لغنيّ لأجل غناه بل يتكبّر عليه قال علي عليه السلام : « ما أحسن تواضع الغنيّ للفقير رغبة في ثواب الله وأحسن منه تيه الفقير على الغنيّ ثقة بالله عزّ وجلّ »فهذه رتبة الفقير وأقلّ منها أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأنّ ذلك من مبادي الطمع . قال بعض العارفين : إذا مال الفقير إلى الأغنياء انحلت عروته ، فإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، فإذا سكن إليهم ضلّ . وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحقّ مداهنة للأغنياء وطمعاً في العطاء .

وأمّا أدبه في أفعاله فأن لا يفترّ بسبب الفقر عن عبادة الله ولا يمنع بذل قليل ما يفضل عنه فإنّ ذلك جهد المقلّ و فضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم . قيل : و كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : أخرج رجل من عُرض ماله مائة ألف فتصدّق بها ، و أخرج رجلٌ درهماً من درهمين لا يملك غيرهما طيبة به نفسه فصار صاحب الدّرهم أفضل من صاحب مائة ألف» [(3)] وينبغي أن لا يدّخر مالاً بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي.

(١) تقدم كراراً. (٢) البقرة : ٢٧٣ .

(٣) أخرجه النسائي ج ٥ ص ٥٩ كتاب الزكاة باب جهد المقل و قوله عليه السلام : « عرض ماله » بضم العين المهملة و سكون الراء أي جانبه .

و في الادّخار ثلاث درجات احداها أن لا يدّخر إلّا ليومه و ليلته وهي درجة الصدّيقين ، والثانية أن يدّخر لأربعين يوماً فإنّ ما زاد عليه داخل في طول الأمل وقد فهم العلماء ذلك من ميعاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرّخصة في أمل الحياة أربعين يوماً وهذه درجة المتّقين ، والثالثة أن يدّخر لسنته وهي أقصى المراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادّخار على هذه فهو واقع في غمار العموم خارج عن حيّز الخصوص بالكلّيّة فغنى الصالح العفيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوماً وغنى خصوص الخصوص في يوم وليلة .

☆(بيان آداب الفقير في قبول العطاء اذا جاءه بغير سؤال)☆

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة اُمور نفس المال وغرض المعطي وغرضه في الأخذ . أمّا نفس المال فينبغي أن يكون حلالاً خالياً عن الشبهات كلّها فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه ، وقد ذكرنا في كتاب الحلال و الحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه و ما يستحبّ تناولها . وأمّا غرض المعطي فلا يخلو إمّا أن يكون غرضه تطييب قلبه وطلب محبّته وهو الهديّة أو الثواب وهو الصدقة و الزّكاة أو الذّكر والرّياء والسّمعة إمّا على التجرّد و إمّا ممزوجاً ببقية الأغراض ، أمّا الأوّل و هو الهديّة فلا بأس بقبولها فإنّ قبولها سنّة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منّة وإن كان فيها منّة فالأولى تركها فإن علم أنّ بعضها ممّا تعظم فيه المنّة فليردّ البعض دون البعض ، فقد أهدى رجل إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم سمناً و أقطاً و كبشاً فقبل السمن والأقط وردّ الكبش» (١) وكان صلّى الله عليه وآله وسلّم يقبل من بعض الناس ويردّ على بعض (٢) و قال : «لقد هممت أن لا أتّهب إلّا من قرشيّ أو ثقفيّ أو أنصاريّ أو دوسيّ» (٣) وفعل هذا جماعة من الصحابة والتابعين ، وجيء بصرّة إلى فتح الموصلي فيها خمسون درهماً فقال : حدّثنا عطاء عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : «من أتاه رزق من غير مسئلة و ردّه

(١) أخرجه أحمد في ضمن حديث ليعلى بن مرة و اسناده جيد .
(٢) راجع مسند أبي داود الطيالسي ص ١٤٦ تحت رقم ١٠٨٢ و١٠٨٣
(٣) أخرجه النسائي ج ٦ ص ٢٨٠ من حديث أبي هريرة .

فإنما يردّه على الله »(١) ثمّ فتح الصرّة فأخذ منها درهماً وردّ سائرها . و كان إبراهيم التيمي يسأل أصحابه الدّرهم والدّرهمين ونحوه ويعرض عليه غيرهم المئين فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئاً يقول : اتركه عندك و انظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل منّي قبل القبول فأخبرني حتّى آخذه و إلاّ فلا ، و أمارة هذا أن يشقّ عليه الرّدّ لو ردّه ويفرح بالقبول و يرى المنّة على نفسه في قبول صديقه هديّته فإن علم أنّه يمازجه منّة فأخذه مباح ولكنّه مكروه عند الفقراء الصادقين .

و قال بشر : ما سألت أحداً قطّ شيئاً إلّا سريّاً السّقطي لأنّه قد صحّ عندي زهده في الدّنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده و يتبرّم ببقاءه عنده فأكون عوناً على ما يحبّ . وجاء خراسانيّ إلى الجنيد بمال و سأله أن يأكله فقال : افرقه على الفقراء ، فقال : ما اُريد هذا ، فقال : و متى أعيش إلى أن آكل هذا ، فقال : ما اُريد أن تنفقه في الخلّ والبقل بل في الحلاوات والطيّبات فقبل فقال الخراساني : ما أجد ببغداد أمنّ عليّ منك فقال الجنيد : وما ينبغي أن يقبل إلّا من مثلك .

الثاني أن يكون للثواب المجرّد وذلك صدقة أو زكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه أنّه هل هو مستحقّ للزكاة فإن اشتبه عليه فهو محلّ شبهة وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزّكاة، وإن كان يعطيه لظنّه أنّه عالم أو علويّ ولم يكن كذلك فإنّ أخذه حرامٌ محض لاشبهة فيه .

الثالث أن يكون غرضه الشهرة والرّياء و السمعة فينبغي أن يردّ عليه قصده الفاسد و لا يقبله إذ يكون معيناً له على غرضه الفاسد . وكان بعضهم يردّ ما يعطى ويقول : لو علمت أنّهم لايذكرون ذلك افتخاراً به لأخذت . وعوتب بعضهم في ردّه ما كان يأتيه من صلة فقال : إنّما أردّ صلتهم إشفاقاً و نصحاً لهم لأنّهم يذكرون

---

(١) قال العراقى : لم أجده مرسلا هكذا ولاحمد و أبى يعلى و الطبرانى باسناد جيد من حديث خالد بن عدى الجهنى « من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة و لا اشراف نفس فليقبله ولا يرده فانما هورزق ساقه الله عز وجل اليه» اه. أقول : وروى نحوه الطيالسى تحت رقم ٢٤٧٨ من حديث أبى هريرة .

ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم ويحبط أجرهم ، وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لابد منه أو هو مستغنى عنه فإن كان محتاجاً إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في المعطي فالأفضل له الأخذ قال ﷺ : « ما المعطي من سعة بأعظم أجراً من الآخذ إذا كان محتاجاً »(١) وقال ﷺ : « من آتاه شيء من هذا المال من غير مسئلة ولا استشراف فإنما هو رزق ساقه الله إليه » وفي لفظ آخر « فلا يردّه »(٢) وقال بعض العلماء : من أعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط . وقد قال بعض العلماء : يخاف في الردّ مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره فأما إذا كان ما آتاه زائداً على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه أو التكفل بأمور الفقراء والإنفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولاً بنفسه فلا وجه لأخذه وإمساكه إن كان طالباً طريق الآخرة فإن ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو من سبيل الشيطان أوداع إليه « ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه » . ثم له مقامان أحدهما أن يأخذ في العلانية ويرد في السر أو يأخذ في العلانية ويفرق في السر ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمأنت نفسه بالرياضة ، والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصله إلى من هو أحوج منه فيقع كلاهما في السر أو كلاهما في العلانية ، وقد ذكرنا هل الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب منه .

وقال بعض المجاورين بمكة : كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله فسمعت فقيراً قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي : أنا جائع كما ترى عريان كما ترى ، فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يرى ؟ فنظرت فإذا عليه خلقان لا تكاد تواريه ، فقلت : في نفسي لا أجد لدراهمي موضعاً أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم فقال : أربعة دراهم ثمن مئزرين ودرهم أنفقه ثلاثاً فلا حاجة بي إلى

(١) أخرجه الطبراني في الكبير بسند صحيح من حديث ابن عمر كما في الجامع الصغير .
(٢) تقدم آنفاً .

الباقي فردّه ، قال : فرأيته اللّيلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إليّ فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعاً كلّ شوط منها في جوهر من معادن الأرض يتخشخش تحت أقدامنا إلى الكعبين منها ذهب وفضّة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس فقال: هذا كلّه قد أعطانيه فزهدت فيه وآخذ من أيدي الخلق لأنّ هذه أثقال و فتنة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة . والمقصود من هذا أنّ الزيادة على قدر الحاجة إنّما تأتيك ابتلاء و فتنة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه و قدر الحاجة يأتيك رفقاً بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرّفق والابتلاء قال الله تعالى : « إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم حسن عملاً »[1].

و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « لا حقّ لابن آدم إلاّ في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، و ثوب يواري عورته ، وبيت يكنّه فمازاد فهو حساب »[2] فإذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب و فيما زاد عليه إن لم تعص الله متعرّض للحساب و إن عصيت الله فأنت متعرّض للعذاب

ومن الاختبار أيضاً أن تعزم على ترك لذّة من اللّذّات تقرّباً إلى الله تعالى و كسراً لصفة النفس فتأتيك عفواً صفواً لتمتحن به قوّة عقدك فالأولى الامتناع عنها فإنّ النفس إذا رخصت في نقض العزم ألفت نقض العهد وعادت لعادتها فلايمكن قهرها ، وردّ ذلك مهمّ وهو الزّهد فإن أخذته وصرفت إلى محتاج فهو غاية الزّهد ولايقدر عليه إلّا الصدّيقون ، فأمّا إذا كان حالك السخاء والبذل والتكفّل بحقوق الفقراء وتعهّد جماعة من الصلحاء ، فخذ ما زاد على حاجتك فإنّه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولاتدّخر فإنّ إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار ، فربّما يخلو في قلبك فتمسكه ويكون فتنة عليك ، فقد تصدّى لخدمة الفقراء جماعة اتّخذوها وسيلة إلى التوسّع في المال والتنعّم في المطعم والمشرب وذلك هو الهلاك ، ومن كان غرضه الرّفق وطلب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظنّ بالله لا

(١) الكهف : ٧

(٢) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٠٦ بتقديم و تأخير واختلاف فى اللفظ

اعتماداً على السلاطين الظلمة فإن رزقه الله من حلال قضاه وإن مات قبل القضاء قضى الله تعالى عنه وأرضى غرماءه ، وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يغرّ المقرض ولا يخدعه بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقراضه على بصيرة ودَين مثل هذا الرّجل واجبٌ أن يقضى من مال بيت المال أو من الزّكوات فقد قال تعالى : « ومن قدر عليه رزقه فلينفق ممّا آتاه الله » [(١)] و قيل : معناه ليبع أحد ثوبيه ، وقيل: معناه فليستقرض بجاهه، فذلك ممّا آتاه الله وقال بعضهم : إنّ لله تعالى عباداً ينفقون على قدر بضائعهم و لله عباد ينفقون على قدر حسن الظنّ بالله . و مات بعضهم فأوصى بماله لثلاث طوائف الأقوياء و الأسخياء والأغنياء فقيل : من هؤلاء ؟ فقال : أمّا الأقوياء فهم أهل التوكّل على الله ، وأمّا الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله ، وأمّا الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله . فإذن مهما وجدت هذه الشروط فيه و في المال وفي المعطي فليأخذه ، وينبغي أن يرى ما يأخذه من الله لا من المعطي إنّما المعطي واسطة قد سخّر للعطاء وهو مضطرّ إليه بما سلّط عليه من الدّواعي والإرادات والاعتقادات .

قال موسى عليه السلام : يا ربّ جعلت رزقي هكذا في أيدي بني إسرائيل يغديني هذا يوماً و يعشيني هذا ليلة فأوحى الله إليه: هكذا أصنع بأوليائي أجري أرزاقهم على أيدي البطّالين من عبادي ليؤجروا فيهم . فلا ينبغي أن يرى المعطي إلّا من حيث أنّه مسخّر مأجور .

✿(بيان تحريم السؤال من غير ضرورة و آداب الفقير المضطر فيه)✿

اعلم أنّه قد وردت مناه كثيرة في السؤال وتشديدات ، و ورد فيه أيضاً ما يدلّ على الرّخصة والكاشف للغطاء فيه أنّ السؤال حرامٌ في الأصل و إنّما يباح بضرورة أو حاجة مهمّة قريبة من الضرورة فإن كان عنها بدٌّ فهو حرامٌ و إنّما قلنا : إنّ الأصل فيه التحريم لأنّه لا ينفكّ من ثلاثة اُمور محرّمة : الأوّل إظهار الشكوى من الله إذ السؤال إظهار للفقر و ذكر لقصور نعمة الله عليه و هو عين الشكوى و كما

(١) الطلاق : ٧ .

أنّ العبد المملوك لوسأل كان سؤاله تشنيعاً على سيّده ، فكذا سؤال العباد تشنيع على الله تعالى و هذا ينبغي أن يحرّم ولايحلّ إلّا بضرورة كما يحلّ الميتة ، والثاني أنّ فيه إذلال السائل نفسه لغير الله وليس للمؤمن أن يذلّ نفسه لغير الله بل عليه أن يذلّ نفسه لمولاه فإنّ فيه عزّه فأمّا سائر الخلق فإنّهم عبادٌ أمثاله ، فلا ينبغي أن يذلّ لهم إلّا بضرورة ، و في السؤال ذلّ للسائل بالإضافة إلى المسؤول ، والثالث أنّه لاينفكّ عن ايذاء المسؤول غالباً لأنّه ربّما لاتسمح نفسه بالبذل عن طيبة قلب منه فإن بذل حياء من السائل أو رياء فهو حرام على الآخذ وإن منع ربما استحيى وتأذّى في نفسه بالمنع إذيرى نفسه في صورة البخلاء ففي البذل نقصان ماله و في المنع نقصان جاهه و كلاهما مؤذيان والسائل هو السبب في الإيذاء والإيذاء حرام إلّا بضرورة ، ومهما فهمت هذه المحذورات فهمت قوله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال : «مسئلة الناس من الفواحش وما أحلّ من الفواحش غيرها » (١) فانظر كيف سمّاه فاحشة ولايخفى أنّ الفاحشة إنّما تباح بضرورة . وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من سأل عن ظهر غنى فإنّما يستكثر من جمر جنهم» (٢) «و من سأل وله مايغنيه جاء يوم القيامة و عظم وجهه يتقعقع ليس عليه لحم » (٣) وفي لفظ آخر «كانت مسألته خدوشاً و كدوحاً في وجهه» (٤) و هذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد . وبايع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوماً على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثمّ قال لهم كلمة خفيفة : « ولا تسألوا الناس شيئاً» (٥) وكان يأمر كثيراً بالتعفف

---

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٢) أخرجه أبوداود ج ١ ص ٣٧٨ و رواه عبدالله بن أحمد ، والطبراني في الاوسط بلفظ « رضف جهنم » و هو بمعنى جمر جهنم وفي اسناده ضعف كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٩٤ .

(٣) روى نحوه ابن ادريس في مستطرفات السرائر . و في مجمع الزوائد عن الطبراني في الاوسط مثله .

(٤) رواه أصحاب السنن و قد تقدم في كتاب الزكاة .

(٥) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٩٧ من حديث عوف بن مالك الاشجعي . وأخرجه أبوداود السجستاني ج ١ ص ٣٨٢ .

عن السؤال ويقول: «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله» وقال: «ومن لم يسألنا فهو أحبّ إلينا» [(١)] و قال: «استغنوا عن الناس و لو بشوص من سواك» [(٢)] و قال: «استغنوا عن السؤال و ما قلّ من السؤال فهو خير قالوا: و منك يا رسول الله؟ قال: و منّي» [(٣)].

أقول: ومن طريق الخاصّة مارواه في الكافي عن الباقر عليه السلام «لو يعلم السائل ما في المسئلة ما سأل أحد أحداً، و لو يعلم المعطي ما في العطيّة ما ردّ أحد أحداً» [(٤)].

و عن الصادق عليه السلام «إيّاكم وسؤال النّاس فإنّه ذلّ في الدّنيا وفقر تعجّلونه وحساب طويل يوم القيامة» [(٥)].

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم «الأيدي ثلاث يد العليا و يد المعطي الّتي تليها ويد المعطى أسفل الأيدي فاستعفوا عن السؤال ما استطعتم إنّ الأرزاق دونها حجب فمن شاء قنى حياءه وأخذ رزقه ومن شاء هتك الحجاب و أخذ رزقه و الّذي نفسي بيده لأن يأخذ أحد كم عرض الوادي فيحتطب حتّى لا يلتقي طرفاه ثمّ يدخل به السوق فيبيعه بمدّ من تمر يأخذ ثلثه و يتصدّق بثلثيه خير له من أن يسأل النّاس أعطوه أم حرموه» [(٦)].

و عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم «من فتح على نفسه باباً من مسألة فتح الله عليه باب فقر» [(٧)].

قال أبو حامد: فإذا عرفت أنّ السؤال يباح لضرورة فاعلم أنّ الشيء إمّا أن

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحارث بن أبي اسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري و روى صدره الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٣٩ تحت رقم ٧.

(٢) رواه البزار والطبراني في الكبير و رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٩٤. «بشوص من سواك» أي بغسالته وقيل بما يتفتت منه عند التسوك.

(٣) ما عثرت على أصل له.

(٤) و (٥) و (٦) المصدر ج ٤ ص ٢٠ تحت رقم ٢ و ١ و ٣.

(٧) الكافي ج ٤ ص ١٩ تحت رقم ٢.

يكون مضطرّاً إليه أومحتاجاً إليه حاجة مهمّة أو حاجة خفيفة أومستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال: أمّا المضطرّ إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتاً ومرضاً ، وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه مايواريه وهومباح مهماوجدت بقيّةالشّروط في المسؤول بكونه مباحاً والمسؤول منه بكونه راضياً في الباطن وفي السائل بكونه عاجزاً عن الكسب فإنّ القادرعلى الكسب وهو بطّالٌ ليس له السؤال إلّا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكلّ من له خطّ فهو قادرعلى الكسب بالوراقة ، وأمّا المستغني فهوالّذي يطلب شيئاًوعنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعاً وهذان طرفان واضحان ، وأمّا المحتاج حاجة مهمّة كمريض محتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لولم يستعمله ولكنّه لايخلو عن خوف وكمن له جبّة ولا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذّى بالبرد تأذّياً لاينتهي إلى حدّ الضرورة ، وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادرٌ على المشي بمشقّة فهذا أيضاً ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنّها حاجة محقّقة ولكنّ الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولايسمّى سؤاله مكروهاً مهما صدق في السؤال ، وقال : ليس تحت جبّتي قميص والبرد يؤذيني أذى اُطيقه ولكن يشقّ عليّ فإذا صدق فصدقه يكون كفّارة لسؤاله إن شاءالله ، وأمّا الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصاً ليلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستتر به الخروق الّتي في ثيابه عن أعين الناس وكمن يسأل لأجل الأُدم وهو واجد للخبز وكمن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واجد كراء الحمار أويسأل كراء المحمل وهو قادرٌ على الرّاحلة ، فهذا ونحوه إن كان فيه تلبيس حال بإظهار حاجة غيرهذه فهوحرام وكذلك لوكان فيه شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى أو الذّلّ أو إيذاء المسؤول فهو حرام لأنّ مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بهاهذه المحذورات ، وإن لم يكن فيه شيء من ذلك فهومباح مع الكراهة .

فإن قلت : فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات ؟ فاعلم أنّ الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله و الاستغناء عن الخلق ، ولا يسأل سؤال محتاج و لكن يقول : أنا مستغن بما أملكه ولكنّي تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي و هو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حدّ الشكوى .

و أمّا الذّلّ فبأن يسأل أباه أوقريبه أو صديقه الّذي يعلم أنّه لاينقصه ذلك في عينه ولايزدريه بسبب سؤاله أو الرّجل السخيّ الّذي قد أعدّ ماله لمثل هذه المكارم فيفرح بوجود مثله و يتقلّد منّة بقبوله فيسقط عند الذّلّ بذلك فإنّ الذّلّ لازم للمنّة لامحالة. و أمّا الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لايعيّن شخصاً بالسؤال بعينه بل يلقى الكلام تعريضاً بحيث لا يقدم على البذل إلّا متبرّع بصدق الرّغبة و إن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء فإنّه ربّما يبذل كرهاً خوفاً من الملامة ويكون الأحبّ إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير ملامة، وأمّا إذاكان يسأل شخصاً معيّناً فينبغي أن لايصرّح بل يعرّض تعريضاً يبقى له سبيلاً إلى التغافل إن أراد، فإذا لم يتغافل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنّه غير متأذّ به.

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله « لاتسألوا أمّتي في مجالسها فتبخلوها »(١)

قال أبو حامد: و ينبغي أن يسأل من لايستحيي منه لوردّه أو تغافل مع القدرة عليه فإنّ الحياء من السّائل يؤذي كما أنّ الرّياء مع غير السّائل يؤذي، فإن قلت: فإذا أخذ مع العلم بأنّ باعث المعطي هو الحياء منه أو من الحاضرين ولولاه لما ابتدأه فهو حلال أو شبهة؟ فأقول: ذلك حرام محض لاخلاف فيه بين الأمّة وحكمه حكم أخذ مال الغير بالضرب والمصادرة إذ لافرق أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياء وخوف الملام وضرب الباطن أشدّ نكاية في قلوب العقلاء. ولايجوز أن يقال هو في الظاهر قد رضي به وقد قال صلّى الله عليه وآله: « نحن نحكم بالظاهر والله يتولّى السرائر »(٢) فإنّ هذه ضرورة القضاء في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردّهم إلى البواطن وقرائن الحالات فاضطرّوا إلى الحكم بظاهر اللّسان مع أنّه ترجمان كثير الكذب ولكنّ الضرورة دعت إليه وهذه سؤال عمّا بين العبد وبين الله والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كالألسنة عند سائر الحكّام فلا تنظر في مثل هذا

(١) المصدر ج ٤ ص ٤٧ تحت رقم ٨.

(٢) قال العراقي: لم أجد له أصلا و كذا قال المزى لما سئل عنه.

إلّا إلى قلبك وإن أفتوك و أفتوك فإنّ المفتي معلّم القاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ، ومفتي القلوب هم علماء الآخرة وبفتواهم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أنّ بفتوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدّنيا ، فإذن ما يأخذه مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله ويجب عليه الردّ على صاحبه فإن كان يستحيي من أن يردّ ولم يستردّ فعليه أن يثيبه على ذلك بما يساوي قيمته في معرض الهديّة والمقابلة ليتفصّى عن عهدته ، فإن لم يقبل هَدِيّته فعليه أن يردّ ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمونٌ عليه بينه وبين الله وهو عاص بالتصرّف فيه وبالسؤال الّذي حصل به الأذى ، فإن قلت : هذا أمرٌ باطن يعسر الاطّلاع عليه فكيف السبيل فيه ، و ربّما يظنّ السائل أنّه راض ولا يكون هو في الباطن راضياً ؟ فأقول : لهذا ترك المتّقون السؤال رأساً فما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً ، وكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلّا من السري وقال : لأنّي أعلم أنّه يفرح بخروج المال من يده فأنا اُعينه على ما يحبّه و إنّما عظم النكير في السؤال وتأكّد الأمر بالتعفّف لهذا لأنّ هذا الأذى إنّما يحلّ بضرورة و هو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له لحم الخنزير وأكل الميتة وكان الامتناع طريق الورعين ، ومن أرباب القلوب من كان واثقاً ببصيرته في الاطّلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض النّاس دون البعض ، ومنهم من كان لا يأخذ إلّا من أصدقائه ، ومنهم من كان يأخذ ممّا يعطي بعضاً ويردّ بعضاً كما فعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الكبش والسمن والأقط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فإنّ ذلك لا يكون إلّا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعاً في جاه أو طلباً لرياء وسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فأمّا السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلّا في موضعين أحدهما الضرورة والثاني السؤال من الأصدقاء والإخوان وفي حقّ الإخوان ، وكانوا يأخذون مالهم بغير سؤال واستيذان لأنّ أرباب القلوب علموا أنّ المطلوب رضا القلب لا نطق اللّسان وكانوا قد وثقوا بإخوانهم أنّهم كانوا يفرحون بمباسطتهم فإذن كانوا لا يسألون الإخوان عند شكّهم في إقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلّا فكانوا يستغنون عن السؤال . وحدّ إباحة

السؤال أن تعلم أنّ المسؤول بصفة لو علم مابك من الحاجة لابتدأك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلّا في تعريف حاجتك فأمّا في تحريكه بحياء أو إثارة داعيته بالحيل فلا ويتصدّى للسائل حالة لايشكّ معها في رضا الباطن وحالة لايشكّ في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال طلق وفي الثانية حرام سحت ، ويتردّد بين الحالتين أحوال يشكّ فيها فليستفت قلبه فيها وليترك حزاز القلب فانّه الإثم وليدع ما يريبه إلى ما لايريبه ، وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهلٌ على من قويت فطنته و ضعف حرصه وشهوته فان قوي الحرص وضعفت الفطنة تراءى له ما يوافق غرضه ولايتفطّن للقرائن الدّالّة على الكراهة وبهذه الدّقائق يطلع على سرّ قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حيث قال : «إنّ أطيب ما يأكل الرّجل من كسبه»[1] و قد أُوتي جوامع الكلم لأنّ من لا كسب له ولامال ورثه من كسب أبيه أو أحد أقربائه فيأكل من أيدي النّاس فان أعطى بغير سؤال فانّما يعطى لدينه ومن يكون باطنه بحيث لو انكشف لايعطى لدينه فيكون مايأخذه حراماً ، وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذاسئل وأين من يقتصر في السؤال على حدّ الضرورة ، فاذا فتّشت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت ، و إنّ الطيّب هو الكسب الّذي اكتسب هو أو موروثه ، فاذن بعيدٌ أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يغنينا بحلاله عن حرامه بمنّه وسعة جوده .

✿(بيان مقدار الغنى المحرّم للسؤال)✿

إعلم أنّ قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «من سأل عن ظهر غنىً فانّما يستكثر من جمر جهنّم»[2] صريحٌ في التحريم ولكن حدّ الغنى مشكلٌ وتقديره عسير وليس إلينا وضع المقادير بل نستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث «استغنوا بغنى الله تعالى عن غيره قالوا: وما هو؟ قال : غداء يوم ، وعشاء ليلة»[3]. وفي حديث آخر «من سأل وله خمسون درهماً أو

(١) تقدم في كتاب الحلال والحرام .

(٢) تقدم آنفاً .

(٣) ذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة كما في المغني .

عدلها من الذّهب فقد سأل إلحافاً»[1] وورد في لفظ آخر «أربعون درهماً». ومهما اختلفت التقديرات وصحّت الأخبار فينبغي أن يقطع بورودها على أحوال مختلفة فإنّ الحقّ في نفسه لا يكون إلّا واحداً و التقدير ممتنع وغاية الممكن فيه تقريب و لا يتمّ ذلك إلّا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين، فنقول: قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لا حقّ لابن آدم إلّا في ثلاث طعام يقيم صلبه، وثوب يواري به عورته، و بيت يكنّه و ما زاد فهو حساب»[2] فلنجعل هذه الثلاث أصلاً في الحاجات لبيان أجناسها، والنظر في الأجناس والأقدار والأوقات فأمّا الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتّى يلحق بها الكراء للمسافر إذا كان لا يقدر على المشي و كذلك ما يجري مجراه من المهمّات ويلحق بنفسه عياله و ولده و كلّ من يجب عليه كفالته، و أمّا الأقدار فالثوب يراعى فيه ما يليق بذوي الدّين وهو ثوب واحد وقميص ومنديل وسراويل ومداس، وأمّا الثاني من كلّ جنس فهو مستغنى عنه وليقس على هذا أثاث البيت ولا ينبغي أن يطلب رقّة الثياب و كون الأواني من النحاس والصفر فيما يكفي فيه الخزف فإنّ ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أخسّ أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة، وأمّا الطعام فقدره في اليوم مدّ وهو ما قدّره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير و الأدم على الدّوام فضلة وقطعه بالكلّية إضرار وفي طلبه في بعض الأحوال رخصة، وأمّا المسكن فأقلّه ما يجزى، من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأمّا السؤال للزّينة والتوسّع فهو سؤال عن ظهر غنى، و أمّا بالاضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه ومأوى يكنّه، فلا شكّ فيه فأمّا سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات إحداها ما يحتاج إليه في غد والثانية ما يحتاج إليه في أربعين يوماً أو خمسين، والثالثة ما يحتاج إليه في السنّة فلنقطع بأنّ من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة فسؤاله حرام فإنّ ذلك غاية الغنى وعليه ينزّل التقدير بخمسين درهماً في الحديث فإنّ خمسة دنانير تكفي للمنفرد في السّنة إذا اقتصد وأمّا

(١) رواه أحمد و رجاله رجال الصحيح كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٩٥.

(٢) تقدم آنفاً.

المعيل فربّما لايكفيه ذلك فإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادراً على السؤال ولايفوته فرصته فلايحلّ له السؤال لأنّه مستغن في الحال و ربّما لايعيش إلى الغد فيكون قد سأل مالا يحتاج إليه فيكفيه غداء يوم وعشاء ليلة وعليه ينزّل الخبر الّذي ورد في التقدير بهذا القدر و إن كان يفوته فرصة السؤال و لايجد من يعطيه لو أخّر فيباح له السؤال لأنّ أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرّاً عاجزاً عمّا يغنيه ، فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفاً وكان ما لأجله السؤال خارجاً عن محلّ الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطرار و خوف الفوت وتراخي المدّة الّتي فيها يحتاج إلى السؤال و كلّ ذلك لايقبل الضبط وهو منوط باجتهاد العبد ونظره لنفسه بينه وبين الله فيستفتي فيه قلبه ويعمل به إن كان سالكاً طريق الآخرة و كلّ ما كان يقينه أقوى وثقته بمجيء الرّزق في المستقبل أتمّ و قناعته بقوت الوقت أظهر فدرجته عند الله أعلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعيالك إلّا من ضعف اليقين والإصغاء إلى تخويف الشيطان وقد قال الله تعالى : «فلاتخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين»(١) وقال : «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً»(٢) والسؤال من الفحشاء الّذي اُبيح بالضرورة وحال من يسأل لحاجة متراخية عن يومه وإن كان ممّا يحتاج إليه في السنة أشدّ من حال من ملك مالاً موروثاً و ادّخر لحاجته وراء السنة و كلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنّهما صادران عن حبّ الدّنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهي من اُمّهات المهلكات .

أقول : ثمّ ذكر أبوحامد فصلاً في بيان أحوال السائلين و أورد فيه من أقوال الصوفيّة وما كانوا يفعلون و إذ لا وثوق بهم و بما كان يصدر عنهم فلنعرض عن ذلك و من أراد الإطّلاع على حقيقة الحال في الفقر والزّهد فليطالع ما أوردناه في آخر الشّطر الثاني من هذا الكتاب من كلام الصادق عليه السلام و محاجّته مع الصوفيّة .

---

(١) آل عمران : ١٧٥ .

(٢) البقرة : ٢٦٨ .

☼(الشطر الثّاني من الكتاب في الزُّهد)☼

و فيه بيان حقيقة الزُّهد ، و بيان فضيلة الزُّهد ، و بيان درجات الزُّهد وأقسامه ، وبيان تفصيل الزُّهد في المطعم و الملبس و المسكن و الأثاث و ضرورات المعيشة ، وبيان علامات الزُّهد .

☼(بيان حقيقة الزُّهد)☼

إعلم أنَّ الزُّهد في الدُّنيا مقام شريف من مقامات السالكين و ينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كسائر المقامات لأنَّ أبواب الإيمان كلّها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل و كأنَّ القول لظهوره اُقيم مقام الحال إذبه يظهر حال الباطن وإلّا فليس القول مراداً لعينه و إن لم يكن صادراً عن حال سمّي إسلاماً و لم يسمَّ إيماناً والعلم هو السبب في الحال يجري مجرى المثمر والعمل يجري من الحال مجرى الثمرة فلنذكر الحال مع كلا طرفيه من العلم والعمل أمّا الحال فنعني بها ما يسمّى زهداً وهو عبارة عن انصراف الرَّغبة عن الشيء إلى ماهو خيرٌ منه و كلُّ من عدل عن شيء إلى غيره بمعاوضة وبيع وغيره فإنّما عدل عنه لرغبته عنه وإنّما عدل إلى غيره لرغبته فيه فحاله بالإضافة إلى المعدول عنه يسمّى زهداً وبالإضافة إلى المعدول إليه يسمّى رغبة وحبّاً فإذن يستدعي حال الزُّهد مرغوباً عنه ومرغوباً إليه وهو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون أيضاً هو مرغوب فيه من وجه من الوجوه فمن رغب عمّا ليس مطلوباً في نفسه لا يسمّى زاهداً فتارك التراب والحجر والحشرات لايسمّى زاهداً و إنّما يسمّى تارك الدَّراهم و الدَّنانير زاهداً لأنَّ التراب والحجر ليسا في مظنّة الرَّغبة و شرط المرغوب إليه أن يكون خيراً عنده من المرغوب عنه حتّى تغلب هذه الرَّغبة فالبائع لايقدم على البيع إلّا والمشترى عنده خيرٌ من المبيع فيكون حاله بالإضافة إلى المبيع زهداً فيه و بالإضافة إلى العوض رغبة وحبّاً و لذلك قال تعالى : «وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين»[(١)] معناه باعوه وقد يطلق الشرى بمعنى البيع ووصف إخوة يوسف بالزُّهد فيه إذا طمعوا في أن يخلو لهم

(١) يوسف : ٢١ .

وجه أبيهم وكان ذلك عندهم أحبّ من يوسف فباعوه طمعاً في العوض فإذن كلّ من باع الدّنيا بالآخرة فهو زاهد في الدّنيا وكلّ من باع الآخرة بالدّنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة ولكنّ العادة جارية بتخصيص اسم الزّهد بمن زهد في الدّنيا كما خصّص اسم الإلحاد بمن يميل إلى الباطل خاصّة وإن كان هو الميل في وضع اللّسان ولمّا كان الزّهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصوّر إلّا بالعدول إلى شيء هو أحبّ منه وإلّا فترك المحبوب بغير الأحبّ محال والّذي يرغب عن كلّ ما سوى الله حتّى الفراديس ولايحبّ إلّا الله فهو الزّاهد المطلق، والّذي يرغب عن كلّ حظّ ينال في الدّنيا ولم يزهد في مثل تلك الحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والفواكه والأنهار فهو أيضاً زاهد ولكنّه دون الأوّل والّذي يترك من حظوظ الدّنيا البعض دون البعض كالّذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسّع في الأكل ولا يترك التجمّل في الزّينة فلا يستحقّ اسم الزّاهد مطلقاً ودرجته في الزّهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أنّ التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فإنّ التوبة عبارة عن ترك المحظورات والزّهد عبارة عن ترك المباحات الّتي هي حظّ النفس ولايبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لايبعد ذلك في المحظورات والمقتصر على ترك المحظورات لايسمّى زاهداً وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن تخصّص هذا الاسم بترك المباحات فإذن الزّهد عبارة عن رغبته عن الدّنيا عدولاً إلى الآخرة أو عن غير الله عدولاً إلى الله وهي الدّرجة العليا وكما يشترط في المرغوب إليه أن يكون خيراً عنده فيشترط في المرغوب عنه أن يكون مقدوراً عليه فإنّ تركه مالايقدر عليه محال وبالترك يتبيّن زوال الرّغبة، وأمّا العلم الّذي هو المثمر لهذه الحال هو العلم بكون المتروك حقيراً بالإضافة إلى المأخوذ كعلم التاجر بأنّ العوض خير من المبيع فيرغب فيه ومالم يتحقّق هذا العلم لايتصوّر أن يزول الرّغبة عن المبيع فكذلك من عرف أنّ ماعندالله باق وأنّ الآخرة خير وأبقى أي لذّاتها خير في أنفسها كمايكون الجوهر خيراً وأبقى من الثلج مثلاً ولايعسر على مالك الثلج بيعه بالجواهر واللآلي فهكذا مثال الدّنيا والآخرة فالدّنيا كالثلج الموضوع

في الشمس لايزال في الذّوبان إلى الانقراض والآخرة كالجواهر الّتي لافناء لها فبقدر قوّة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدّنيا والآخرة تقوي الرّغبة في البيع والمعاملة حتّى أنّ من قوي يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى: «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون» (١) ثمّ بيّن أنّ صفقتهم رابحة فقال: «فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» (٢) فليس يحتاج من العلم في الزّهد إلّا إلى هذا القدر وهو أنّ الآخرة خيرٌ وأبقى وقد يعلم ذلك من لايقدر على ترك الدّنيا إمّا لضعف علمه ويقينه وإمّا لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهوراً في يد الشيطان وإمّا لاغتراره بمواعيد الشيطان في التسويف يوماً فيوماً إلى أن يختطفه الموت ولا يبقى معه إلّا الحسرة بعد الفوت، وإلى تعريف خساسة الدّنيا الإشارة بقوله تعالى: «قل متاع الدّنيا قليل» (٣) وإلى تعريف نفاسة الآخرة الإشارة بقوله: «وقال الّذين اُوتوا العلم ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمن وعمل صالحاً ولايلقّيها إلّا الصابرون» (٤) فنبّه على أنّ العلم بنفاسة الجوهر هو المرغب عن عوضه ولمّا لم يتصوّر الزّهد إلّا بمعاوضة ورغبة عن المحبوب في أحبّ منه، قال رجل في دعائه: اللّهمّ أرني الدّنيا كما تراها فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «لاتقل هكذا ولكن قل: أرني الدّنيا كما أريتها الصالحين من عبادك» (٥) وهذا لأنّ الله يراها حقيرة كما هي وكلّ مخلوق فهو بالإضافة إلى جلاله حقيرٌ والعبد يراها حقيرة في حقّ نفسه بالإضافة إلى ما هو خيرٌ له ولايتصوّر أن يرى بائع الفرس وإن رغب عن فرسه كما يرى بائع حشرات الأرض لأنّه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس والله تعالى غنيٌّ بذاته عن كلّ ماسواه فيرى الكلّ في درجة واحدة بالإضافة إلى جلاله ويراها متفاوتة بالإضافة إلى غيره والزّاهد هو الّذي يرى تفاوته بالإضافة

---

(١) و (٢) التوبة: ١١٣.

(٣) النساء: ٧٧. (٤) القصص: ٨٠.

(٥) قال العراقي: ذكره صاحب الفردوس مختصراً «اللهم أرني الدنيا كما تريها الصالح من عبادك» من حديث أبي الفصير ولم يخرجه ولده.

إلى نفسه لا إلى غيره ، وأمّا العمل الصادر عن حال الزّهد فهو ترك واحد لأنّه بيع ومعاملة واستبدال للّذي هو خير بالّذي هو أدنى فكما أنّ العمل الصادر من عقد البيع هو ترك المبيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزّهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلّية وهي الدّنيا بأسرها مع أسبابها ومقدّماتها وعلائقها ، فيخرج من القلب حبّها ويدخل حبّ الطاعات ويخرج من اليد والعين ما أخرجه من القلب ويوظّف على اليد و العين و سائر الجوارح وظائف الطاعات و إلّا كان كمن سلّم المبيع ولم يأخذ الثمن فإذا وفى بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليستبشر ببيعه الّذي بايع ، فإنّ الّذي بايعه بهذا البيع وفى بالعهد ، فمن سلّم حاضراً في غائب وسلّم الحاضر و أخذ يسعى في طلب الغائب سلّم إليه الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممّن يوثق بصدقه وقدرته و وفائه بالعهد ، و مادام ممسكاً للدّنيا لايصحّ زهده أصلاً ، و لذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزّهد في ابن يامين وإن كانوا قد « قالوا ليوسف وأخوه أحبّ إلى أبينا منّا » (١) وعزموا على إبعاده كما عزموا على إبعاد يوسف حتّى تشفع فيه أحدهم فترك ولا وصفهم أيضاً بالزّهد في يوسف عند العزم على إخراجه إلّا عند التسليم والبيع ، فعلامة الرّغبة الإمساك وعلامة الزّهد الإخراج فإن أخرجت عن اليد بعض الدّنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقطّ ولست زاهداً مطلقاً وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدّنيا لم يتصوّر منك الزّهد لأنّ مالا يقدر عليه لايقدر على تركه، وربّما يستهويك الشيطان بغروره ويخيّل إليك أنّ الدّنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلّى بحبل غروره دون أن تستوثق وتستظهر بموثق غليظ من الله ، فإنّك إذا لم تجرّب نفسك حال القدرة فلا تثق بالقدرة على الترك عندها فكم من ظانّ بنفسه كراهة المعاصي عند تعذّرها فلمّا تيسّرت له أسبابها من غير مكدّر و لاخوف من الخلق يقع فيها ، و إذا كان هذا غرور النفس في المحظورات فإيّاك وأن تثق بوعدها في المباحات والموثق الغليظ أن تجرّبها مرّة بعد مرّة في حال القدرة فإذا وفت بما وعدت على الدّوام مع انتفاء الصوارف و الأعذار ظاهراً وباطناً ، فلا

---

(١) يوسف : ٨ .

بأس أن تثق بها وثوقاً مّا ولكن تكون من تغيّرها أيضاً على حذر فانّها سريعة النقض للعهد قريبة الرّجوع إلى مقتضى الطبع ، بالجملة فلا أمان منها إلّا عند الترك بالاضافة إلى ما ترك فقطّ ، وذلك عند القدرة ، ولذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : إنّا نحبّ ربّنا ولو علمنا في أيّ شيء محبّته لفعلنا حتّى نزل قوله تعالى : « ولو أنّا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلّا قليل منهم »(١) وقال ابن مسعود: وما عرفت أنّ فينا من يحبّ الدّنيا حتّى نزل قوله « منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة »(٢) وليس من الزّهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء و الفتوّة وعلى سبيل استمالة القلوب ولا على سبيل الطمع فذلك كلّه من محاسن العادات ، ولكن لامدخل لها في العبادات ، إنّما الزّهد أن تتركها لعلمك بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة فأمّا كلّ نوع من الترك فانّه يتصوّر ممّن لايؤمن بالله وبالآخرة فذلك قد يكون مروّة وفتوّة و سخاء و حسن خلق ، ولكن لا يكون زهداً إذ حسن الذّكر و ميل القلوب من حظوظ العاجلة و هي ألذّ وأهنأ من المال وكما أنّ ترك المال على سبيل السلم طمعاً في العوض ليس من الزّهد فكذلك تركه طمعاً في الذّكر والثناء و الاشتهار بالفتوّة والسخاء واستثقالاً له لما في حفظ الأموال من المشقّة و العناء والحاجة إلى التذلّل للسلاطين و الأغنياء ليس من الزّهد أصلاً بل هو استعجال حظّ آخر للنفس بل الزّاهد من أتته الدّنيا راغمة عفواً صفواً وهو قادر على التنعّم بها من غير نقصان جاه وقبح اسم ولافوات حظّ فتركها خوفاً من أن يأنس بها فيكون آنساً بغير الله ومحبّاً لما سوى الله ويكون مشركاً في حبّ الله غير الله أو تركها طمعاً في ثواب الآخرة فترك التمتّع بأشربة الدّنيا طمعاً في أشربة الجنّة ، وترك التمتّع بالسراري و النسوان طمعاً في الحور العين ، وترك التفرّج في البساتين طمعاً في بساتين الجنّة و أشجارها ، و ترك التزيّن و التجمّل بزينة الدّنيا طمعاً في زينة الجنّة ، و ترك المطاعم اللّذيذة طمعاً في فواكه الجنّة و خوفاً من أن يقال له

---

(١) النساء : ٦٦ .

(٢) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة باسناد حسن كما فى المغنى

«أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدّنيا» فآثر في جميع ذلك ما وعده في الجنّة على ما تيسّر له في الدّنيا عفواً صفواً لعلمه بأنّ ما في الآخرة خيرٌ وأبقى وما سوى هذا فمعاملات دنيويّة لا جدوى لها في الآخرة أصلاً.

أقول: الكلام الجامع في حقيقة الزّهد ما رواه في نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الزّهد كلّه بين كلمتين من القرآن قال الله سبحانه: «لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»[١] ومن لم يأس على الماضي ولم يفرح بالآتي فقد أخذ الزّهد بطرفيه»[٢].

☼(بيان فضيلة الزُّهد)☼

قال الله تعالى: «فخرج على قومه في زينته - إلى قوله - وقال الّذين اُوتوا العلم ويلكم ثواب الله خيرٌ»[٣] نسب الزّهد إلى العلماء و وصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء، و قال تعالى: «اُولئك يؤتون أجرهم مرّتين بما صبروا»[٤] وجاء في التفسير على الزّهد في الدّنيا. وقال تعالى: «إنّا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيّهم أحسن عملاً»[٥] قيل: معناه أيّهم أزهد فيها فوصف الزّهد بأنّه من أحسن الأعمال. و قال تعالى: «من كان يريد حرث الدّنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب»[٦]. وقال تعالى: «ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدّنيا لنفتنهم فيه ورزق ربّك خيرٌ و أبقى»[٧]. وقال تعالى: «الّذين يستحبّون الحياة الدّنيا على الآخرة»[٨] فبه وصف الكفّار فمفهومه أنّ المؤمن هو الّذي يتّصف بضدّه وهو أن يستحبّ الآخرة على الحياة الدّنيا.

وأمّا الأخبار فما ورد منها في ذمّ الدّنيا كثير و قد أوردنا بعضها في كتاب ذمّ الدّنيا من ربع المهلكات إذحبّ الدّنيا من المهلكات، ونحن الآن نقتصر على فضيلة بغض

---

(١) الحديد: ٢٣.　　(٢) المصدر أبواب الحكم تحت رقم ٤٣٩.
(٣) و (٤) القصص: ٨٠ و ٥٤.
(٥) الكهف: ٧.　　(٦) الشورى: ٢٠.
(٧) طه: ١٣١.　　(٨) ابراهيم: ٣.

الدّنيا فإنّه من المنجيات وهو المعنيّ بالزّهد و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم « مَن أصبح و همّه الدّنيا شتّت الله عليه أمره ، و فرّق عليه ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، و لم يأته من الدّنيا إلاّ ما كتب له ، ومن أصبح وهمّه الآخرة جمع الله له همّه ، حفظ عليه ضيعته ، وجعل غناه في قلبه وأتته الدّنيا وهي راغمة »(١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا رأيتم العبد وقد اُعطي صَمتاً وزهداً في الدّنيا فاقربوا منه فإنّه يلقى الحكمة و قد قال الله تعالى : « و من يؤت الحكمة فقد اُوتي خيراً كثيراً »(٢) ولذلك قيل : من زهد في الدّنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه .

وعن بعض الصحابة أنّه قال : قلنا: «يارسول الله أيّ النّاس خيرٌ ؟ قال : كلّ مؤمن مخموم القلب صدوق اللّسان ، قلنا : يا رسول الله وما مخموم القلب ؟ قال : التقيّ النقيّ الّذي لا غشّ فيه ولا غلّ ولا بغي ولا حسد ، قيل : يا رسول الله فمن على أثره ؟ قال : الّذي يشنأ الدّنيا ويحبّ الآخرة »(٣) ومفهومه أنّ شرّ النّاس الّذي يحبّ الدّنيا .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أردت أن يحبّك الله فازهد في الدّنيا »(٤) فجعل الزّهد سبباً للمحبّة فمن أحبّه الله فهو في أعلى الدّرجات فينبغي أن يكون الزّهد من أفضل المقامات ومفهومه أيضاً أنّ محبّ الدّنيا متعرّض لبغض الله . و في خبر من طريق أهل البيت : « الزّهد و الورع يجولان في القلب كلّ ليلة فإن صادفا قلباً فيه الإيمان والحياء أقاما فيه و إلّا ارتحلا »(٥) ولمّا قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا مؤمن حقّاً فقال : وما حقيقة إيمانك فقال : عزفت نفسي عن الدّنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها و كأنّي بالجنّة والنّار و كأنّي بعرش ربّي بارزاً فقال صلى الله عليه وآله وسلم: فالزم هذا عبدٌ نوّر الله

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٥ بسند صحيح بأدنى اختلاف ، وفى الكافى مثله .

(٢) البقرة : ٢٦٩ والخبر أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠١ من حديث أبى خلاد .

(٣) أخرجه الخرائطى فى مكارم الاخلاق كما فى المغنى .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٢ بنحوه .

(٥) قال العراقى : لم أجد له أصلا . أقول : فى التحف ص ٣٧٣ عن الصادق عليه السلام هكذا « ان الغنى والعز يجولان فاذا ظفرا بموضع التوكل أوطناه » .

قلبه بالإيمان»[1] فانظر كيف بدأ بإظهار حقيقة الإيمان بعزوف النفس عن الدّنيا وقرنه باليقين وكيف زكّاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ قال: «عبد نوّر الله قلبه بالإيمان» ولمّا سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن معنى الشرح في قوله تعالى: «فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام»[2] وقيل له: ما هذا الشرح قال: إنّ النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر وانفسح، قيل: يا رسول الله هل لذلك من علامة؟ قال: نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله»[3] فانظر كيف جعل الزّهد شرطاً للإسلام وهي التجافي عن دار الغرور.

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «استحيوا من الله حقّ الحياء قالوا: إنّا لنستحيي منه قال: ليس كذلك، تبنون ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون»[4] فبيّن أنّ ذلك يناقض الحياء من الله، ولمّا قدم عليه وفد وقالوا: إنّا مؤمنون قال: وما علامة إيمانكم؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرّخاء والرّضا بمواقع القضاء، وترك الشماتة بالمصيبة إذا نزلت بالأعداء، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: فإن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون»[5] فجعل الزّهد تكملة إيمانهم.

وقال جابر: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «من جاء بلا إله إلّا الله لا يخلط معها غيرها وجبت له الجنّة فقام إليه عليّ عليه السلام فقال: بأبي أنت وأمّي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها صفه لنا وفسّره لنا، فقال: حبّ الدّنيا طلباً لها واتّباعاً لها وقوم يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة فمن جاء بلا إله إلّا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنّة»[6] وفي الخبر «السخاء من اليقين ولا يدخل النّار

---

(١) أخرجه الطبراني ورواه الكليني في الكافي بنحو أبسط ج ٢ ص ٥٣.

(٢) الانعام: ١٢٥. (٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣١١.

(٤) أخرجه الطبراني من حديث ام الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف.

(٥) أخرجه الخطيب وابن عساكر في تاريخهما من حديث جابر باسناد ضعيف (المغني)

(٦) قال العراقي: لم أجده من حديث جابر وقد رواه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث زيد بن أرقم.

موقن، والبخل من الشكّ ولايدخل الجنّة من شكّ»[١] وقال: «أيضاً السخيّ قريبٌ من الله قريبٌ من الناس قريبٌ من الجنّة، والبخيل بعيد من الله بعيدٌ من النّاس قريبٌ من النار»[٢] والبخل ثمرة الرّغبة في الدّنيا والسخاء ثمرة الزّهد و الثناء على الثمرة ثناء على المثمر لامحالة.

و روى ابن المسيّب عن أبي ذرّ عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال: «من زهد في الدّنيا أدخل الله الحكمة في قلبه فأنطق به لسانه وعرفه داء الدّنيا و دواءها و أخرجه منها سالماً إلى دار السلام»[٣].

و روي أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم مرّ في أصحابه بعشار من النوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحبّ أموالهم إليهم وأنفسها عندهم لأنّها تجمع الظهر واللّحم واللّبن والوبر و لعظمها في قلوبهم قال الله تعالى: «وإذا العشار عطّلت»[٤] فأعرض عنها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وغضّ بصره فقيل: يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لاتنظر إليها؟ فقال: قد نهاني الله عن ذلك، ثمّ تلا قوله تعالى: «ولا تمدّنّ عينيك إلى ما متّعنا به - الآية -»[٥] وروى مسروق عن عائشة قالت: قلت: يا رسول الله ألاتستطعم الله فيطعمك؟ قالت: وبكيت لما رأيت به من الجوع، فقال: «يا عائشة والّذي نفسي بيده لو سألت ربّي أن يجري معي جبال الدّنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكنّي اخترت جوع الدّنيا على شبعها، وفقر الدّنيا على غناها، وحزن الدّنيا على فرحها. يا عائشة إنّ الدّنيا

---

(١) أخرجه صاحب الفردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرجه ولده في مسنده.

(٢) أخرجه الترمذي و قد تقدم و البيهقي في الشعب والطبراني في الاوسط عن أبي هريرة و جابر و عائشة كما في الجامع الصغير.

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٢٨ من حديث أبي عبدالله عليه السلام ولم أجده من حديث جابر، و أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلا و لابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الاشعري نحوه.

(٤) التكوير: ٤.

(٥) أخرج أبوعبيد وابن المنذر عن يحيى بن كثير نحوه باختصار كما في الدرالمنثور ج ٤ ص ١٠٥ و اورده أبوالفتوح الرازي في تفسيره باختصار من حديث أنس.

لاينبغي لمحمّد ولا لآل محمّد، يا عائشة إنّ الله لم يرض لأولي العزم من الرّسل إلّا الصبر على مكروه الدّنيا والصبر عن محبوبها، ثمّ لم يرض لي إلّا أن يكلّفني مثل ما كلّفهم فقال: «فاصبر كماصبر اولوا العزم من الرّسل» والله مالي بدّ من طاعته وإنّي و الله لأصبرنّ كما صبروا بجهدي ولاقوّة إلّا بالله» (١) وعن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال: «لقد كان الأنبياء من قبلي ليبتلى أحدهم بالفقر فلايجد إلّا العباءة و إن كان أحدهم ليبتلى بالقمل حتّى يقتله القمل وكان ذلك أحبّ إليهم من الإعطاء إليهم» (٢).

وعن ابن عبّاس قال: لما ورد موسى ماء مدين كان خضرة البقل ترى في بطنه من الهزل. فهذاكان مااختاره أنبياء الله والمرسلون وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة، وفي حديث عمر أنّه قال: لمانزل قوله تعالى: «والّذين يكنزون الذّهب و الفضّة. الآية» (٣) قال عليه السلام: «تبّاً للدّينار و الدّرهم فقلنا: نهانا الله عن كنز الذّهب والفضّة فأيّ شيء ندّخر فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: ليتّخذ أحدكم لساناً ذاكراً وقلباً شاكراً وزوجة صالحة تعينه على أمر الآخرة» (٤).

وفي حديث حذيفة عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم «من آثر الدّنيا على الآخرة ابتلاه الله

---

(١) أخرجه ابن حبان في كتاب اخلاق النبى ص ٢٩٣ بتمامه، و أخرجه ابن أبى حاتم والديلمى فى مسند الفردوس مختصراً راجع الدر المنثور ج ٦ ص ٤٥.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ نعم روى ابن ماجه تحت رقم ٤٠٢٣ عن أبى سعيد قال: دخلت على النبى صلى الله عليه وآله و سلم و هو يوعك فوضعت يدى عليه فوجدت حرة بين يدى فوق اللحاف، فقلت: يا رسول الله ماأشدها عليك قال: انا كذلك يضعف لنا البلاء و يضعف لنا الاجر، قلت: يا رسول الله أى الناس أشد بلاء، قال: الانبياء، قلت: يا رسول الله ثم من؟ قال: ثم الصالحون ان كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى ما يجد الا العباءة يحويها وان كان أحدهم ليفرح بالبلاء كما يفرح أحدكم بالرخاء».

(٣) التوبة: ٣٤.

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ١٨٥٦.

بثلاث هم لايفارق قلبه أبداً ، وفقر لايستغني معه أبداً ، وحرص لايشبع معه أبداً»(١)

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لايستكمل العبد الايمان حتّى يكون أن لايعرف أحبّ إليه من أن يعرف ، وحتّى يكون قلّة الشيء أحبّ إليه من كثرته»(٢).

وقال عيسى عليه السلام : «الدّنيا قنطرة فاعبروها ولاتعمروها» . وقيل له : يانبيّ الله لو أمرتنا أن نبني لك بيتاً تعبد الله فيه فقال : إذهبوا فابنوا بيتاً على الماء ، فقالوا : كيف يستقيم بنيان على الماء ؟ قال : فكيف تستقيم عبادة على حبّ الدّنيا .

وقال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ ربّي عرض عليّ أن يجعل لي بطحاء مكّة ذهباً فقلت: لايارب ولكن أجوع يوماً وأشبع يوماً فأما اليوم الّذي أجوع فيه فأتضرّع إليك و أدعوك ، وأمّا اليوم الّذي أشبع فيه فأحمدك وأُثني عليك»(٣)

وعن ابن عباس أنّه قال: خرج ذات يوم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومعه جبرئيل فصعد على الصفا فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : والّذي بعثك بالحقّ ماأمسى لآل محمد كفّ سويق ولاسفّة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدّة من السماء أفزعته فقال عليه السلام: أمر الله القيامة أن تقوم؟ فقال : لاولكن هذا إسرافيل قد نزل إليك حين سمع كلامك ، فأتاه إسرافيل فقال : إنّ الله عزّ و جلّ سمع ما ذكرت فبعثني إليك بمفاتيح الأرض فأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمرّداً وياقوتاً و ذهباً وفضّة فعلت فان شئت نبيّاً ملكاً و إن شئت نبيّاً عبداً فأومأ إليه جبرئيل أن تواضع لله فقال نبيّاً عبداً ثلاثاً(٤).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا أراد الله بعبد خيراً زهّده في الدّنيا ورغّبه في الآخرة وبصّره

---

(١) ما عثرت على أصل له

(٢) ذكره صاحب الفردوس من رواية على بن طلحة مرسلا بتقديم و تأخير وزيادة ولم يخرجه ولده فى مسند الفردوس . (المغنى)

(٣) قد تقدم عن الترمذى فى السنن ج ٩ ص ٢٠٩ .

(٤) رواه الطبرانى باسناد حسن والبيهقى فى الزهد من حديث ابن عباس ورواه ابن حبان فى صحيحه مختصراً من حديث أبى هريرة كما فى الترغيب والترهيب ج٤ ص١٩٦.

بعيوب نفسه »[١].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : لرجل: «ازهد في الدُّنيا يحبّك الله ، وازهد فيما في أيدي الناس يحبّك الناس»[٢].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من أراد أن يؤتيه الله علماً بغير تعلّم ، وهدى بغير هداية ، فليزهد في الدُّنيا »[٣].

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «من اشتاق إلى الجنّة سارع إلى الخيرات ، ومن خاف من النّار لها عن الشهوات ، ومن ترقّب الموت ترك اللّذّات . ومن زهد في الدُّنيا هانت عليه المصيبات »[٤] وجميع الأخبار الواردة في مدح بغض الدُّنيا وذمّ حبّها لا يمكن حصرها فإنَّ الأنبياء مابعثوا إلّا لصرف الناس عن الدُّنيا إلى الآخرة فإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية .

أقول: وجلُّ ما أورده وارد من طريق الخاصّة أيضاً وما ورد فيه أيضاً أكثر من أن يحصى وقد أوردنا نبذاً من ذلك في كتاب ذمّ الدُّنيا من ربع المهلكات ولنقتصر ههنا على ثلاث روايات ففي الكافي عن أبي عبيدة الحذّاء قال : سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : قال الله : إنَّ من أغبط أوليائي عندي رجلاً خفيف الحال[٥]

---

(١) أخرجه الديلمي في مسند الفردوس والبيهقي في الشعب بدون قوله : ورغبه في الاخرة » وزاد في أوله . « فقهه في الدين » من حديث محمد بن كعب القرظي مرسلا كما في الجامع الصغير . (٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٠٢ و قد تقدم .

(٣) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

(٤) رواه الكليني في الكافي ج ٢ ص ١٣٢ من حديث علي بن الحسين عليهما السلام. و ابن حبان في الضعفاء ، من حديث علي بن أبي طالب عليه السلام . و في النهج أيضاً أبواب الحكم تحت رقم ٣٠ من حديثه عليه السلام .

(٥) « خفيف الحال » أي قليل المال والحظ من الدنيا ، و في بعض نسخ الحديث بالمهملة بمعنى سوء العيش و قلة المال و لعل الصحيح « خفيف الحاذ » و في النهاية : « و فيه أغبط الناس المؤمن الخفيف الحاذ ، الحاذ و الحال واحد واصل الحاذ طريقة المتن و هو ما يقع عليه اللبد من ظهر الفرس أي خفيف الظهر من العيال و منه الحديث « ليأتين على الناس زمان يغبط فيه الرجل بخفة الحاذ .. » .

ذاحظّ من صلاة ، أحسن عبادة ربّه بالغيب ، وكان غامضاً في النّاس [١] ، جعل رزقه كَفافاً فصبر عليه ، عجّلت منيّته فقلّ تراثه وقلّت بَواكيه» [٢] .

و عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال : «مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم براعي إبل فبعث إليه يستسقيه فقال: أمّا مافي ضروعها فصبوح الحيّ وأمّا ما في آنيتنا فغبوقهم [٣] فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللّهمّ أكثر ماله و ولده ، ثمّ مرّ براعي غنم فبعث إليه يستسقيه فحلب ما في ضروعها و أكفأ [٤] ما في إنائه في إناء رسول الله وبعث إليه بشاة وقال : هذا ماعندنا و إن أحببت أن نزيدك زدناك ، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللّهمّ ارزقه الكفاف ، فقال له بعض أصحابه: يا رسول الله دعوت للّذي ردّك بدعاء عامّتنا نحبّه و دعوت للّذي أسعفك بحاجتك [٥] بدعاء كلّنا نكرهه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ ماقلّ و كفى خيرٌ ممّا كثر وألهى [٦] اللّهمّ ارزق محمّداً وآل محمّد الكفاف » [٧] .

وعن أبي عبدالله عليه السلام قال : « إنّ الله تعالى يقول : يحزن عبدي المؤمن إن قترت عليه و ذلك أقرب له منّي ويفرح عبدي المؤمن إن وسعت عليه وذلك أبعد له منّي» [٨] .

✡(بيان درجات الزّهد واقسامه)✡
✡(بالاضافة الى نفسه والى المرغوب عنه والى المرغوب فيه)✡

إعلم أنّ الزّهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوّته على ثلاث درجات :الدّرجة السفلى منها أن يزهد في الدّنيا و هو لها مشته و قلبه إليها مائل ونفسه إليها ملتفتة

---

(١) في النهاية : غامضاً أي مغموراً غير مشهور .
(٢) المصدر ج ٢ ص ١٤٠ تحت رقم ١ . (٣) الغبوق : شرب آخر النهار .
(٤) « اكفأ » أي قلب و كب . في القاموس كفأه كمنعه : صرفه و كبه وقلبه كاكفأه .
(٥) « اسعفك بحاجتك » أي قضاها لك .
(٦) « ألهى » أي شغل عن الله وعن عبادته .
(٧) المصدر ج ٢ ص ١٤٠ تحت رقم ٤ .
(٨) المصدر ج ٢ ص ١٤١ تحت رقم ٥ .

ولكن يجاهدها ويكفّها وهذا يسمّى المتزهّد وهو مبدء الزّهد في حقّ من يصل إلى درجة الزّهد بالكسب والاجتهاد والمتزهّد يذيب أوّلاً نفسه ثمّ كيسه والزّاهد يذيب أوّلاً كيسه ثمّ يذيب نفسه في الطاعات لا في الصبر على ما فارقه و المتزهّد على خطر فإنّه ربّما تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدّنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير ، الدّرجة الثانية أن يترك الدّنيا طوعاً لاستحقاره إيّاها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالّذي يترك درهماً لأجل درهمين فإنّه لا يشقّ عليه ذلك و إن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزّاهد يرى لامحالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجباً بنفسه وبزهده ويظنّ بنفسه أنّه ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه وهذا أيضاً نقصان ، الدّرجة الثالثة وهي العليا أن يزهد طوعاً ويزهد في زهده فلا يرى زهده إذ لا يرى أنّه ترك شيئاً إذ عرف أنّ الدّنيا لا شيء فيكون كمن ترك خنفساءة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركاً شيئاً ، والدّنيا بالإضافة إلى الله ونعيم الآخرة أخسّ من خنفساءة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزّهد وسببه كمال المعرفة ، ومثل هذا الزّاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدّنيا ، كما أنّ تارك الخنفساءة بالجوهرة آمن من طلب الإقالة في البيع .

قال أبو يزيد لأبي موسى عبد الرّحيم: في أيّ شيء تتكلّم ؟ قال : في الزّهد قال : في أيّ شيء ؟ قال : في الدّنيا فنفض يده ، وقال : ظننت أنّك تتكلّم في شيء، الدّنيا لا شيء أيش تزهد فيها ، ومثل من ترك الدّنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بنفسه و دخل الباب و نال القرب عند الملك حتّى نفذ أمره في جميع مملكته أفترى أنّه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما يناله ، فالشيطان كلب على باب الله يمنع الناس من الدّخول مع أنّ الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدّنيا كلقمة خبز إن أكلها فلذّتها في حال المضغ وتنقضي على القرب بالابتلاع ، ثمّ يبقى ثقله في المعدة ، ثمّ ينتهي إلى النتن والقذر ويحتاج إلى إخراج الثفل فمن يتركها لينال عزّ الملك كيف يلتفت إليها، أو نسبة الدّنيا كلّها

أعني ما يسلّم لكلّ شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقلّ من لقمة بالإضافة إلى ملك الدّنيا إذ لا نسبة للمتناهي إلى ما لا نهاية له و الدّنيا متناهية على القرب ولو كانت تتمادى ألف ألف سنة صافية عن كلّ كدر لكان لا نسبة له إلى الأبد فكيف ومدّة العمر قصيرة ولذّات الدّنيا مكدّرة غير صافية فأيّ نسبة لها إلى نعيم الأبد، فإذن لا يلتفت الزّاهد إلى زهده إلّا إذا التفت إلى ما زهد فيه ولا يلتفت إلى ما زهد فيه إلّا لأنّه يراه شيئاً معتدّاً به، ولا يراه شيئاً معتدّاً به إلّا لقصور معرفته، فسبب نقصان الزّهد نقصان المعرفة فهذا تفاوت درجات الزّهد و كلّ درجة من هذه أيضاً لها درجات. إذ تصبّر المتزهّد يختلف و يتفاوت أيضاً باختلاف قدر المشقّة في الصبر، و كذلك درجة المعجب بزهده في قدر التفاته إلى زهده.

و أمّا انقسام الزّهد بالإضافة إلى المرغوب فيه فهو أيضاً على ثلاث درجات: الدّرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النّار ومن سائر الآلام كعذاب القبر و مناقشة الحساب، وخطر الصراط، وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها «أنّ الرّجل ليوقف في الحساب حتّى لو وردت مائة بعير عطاش على عرقه لصدرت رواء»[1] فهذا زهد الخائفين و كأنّهم رضوا بالعدم ولو أعدموا فإنّ الخلاص من الألم يحصل بمجرّد العدم. الدّرجة الثانية أن يزهد رغبة في ثواب الله و نعيمه واللّذّات الموعودة في جنّته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الرّاجين فإنّ هؤلاء ما تركوا الدّنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم على نعيم قائم لا آخر له. الدّرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلّا في الله و في لقائه، فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها، ولا إلى اللّذّات ليقصد نيلها و الظفر بها، بل هو مستغرق الهمّ بالله تعالى وهو الّذي أصبح و همومه همّ واحد وهو الموحّد الحقيقي الّذي لا يطلب غير الله تعالى لأنّ من طلب غير الله فقد عبده و كلّ مطلوب معبود و كلّ طالب عبد بالإضافة إلى مطلوبه وطلب غير الله من الشرك الخفيّ وهذا زهد المحبّين و هم العارفون لأنّه لا يحبّ الله خاصّة إلّا من عرفه. و كما أنّ من عرف

(١) ما عثرت على أصل له.

الدّينار وعرف الدّرهم وعلم أنّه لايقدرعلى الجمع بينهما لم يحبّ إلاّ الدّينار فمن عرف الله وعرف لذّة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أنّ الجمع بين تلك اللّذة وبين لذّة التنعّم بالحور العين و النظر إلى نقش القصور و خضرة الأشجار غير ممكن فلا يحبّ إلّا لذّة النظر ولايؤثر غيره و لاتظنّنّ أن أهل الجنّة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبقى للذّة الحور والقصورمتّسع في قلوبهم ، بل تلك اللّذة بالإضافة إلى لذّة نعيم الجنّة كلذّة ملك الدّنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذّة الاستيلاء على عصفور واللّعب به ، و الطالبون لنعيم الجنّة عند أهل المعرفة و أرباب القلوب كالصبيّ الطالب للّعب بالعصفور التارك للذّة الملك ، وذلك لقصوره عن إدراك لذّة الملك لالأنّ اللّعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذّ من الاستيلاء بطريق الملك على كافّة الخلق .

و أمّا انقسامه بالإضافة إلى المرغوب عنه فقد كثرت فيه الأقاويل و لعلّ المذكور فيه يزيد على مائة قول فلانشتغل بنقل الأقاويل ، ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتّى يتّضح أنّ أكثر ماذكر فيه قاصرٌ عن الإحاطة بالكلّ ، فنقول : المرغوب عنه بالزّهد له إجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لآحاد الأقسام وبعضها أجمع للجمل أمّا الإجمال في الدّرجة الأولى فهو كلّ ماسوى الله ، فينبغي أن يزهد فيه حتّى يزهد في نفسه أيضاً ، والإجمال في الدّرجة الثانية أن يزهد في كلّ صفة للنفس فيها متعة ، وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة و الغضب والكبر والرّئاسة والمال والجاه وغيرها ، والإجمال في الدّرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه و أسبابهما إذ إليهما ترجع حظوظ النفس ، و في الدّرجة الرّابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدّينار والدّرهم والجاه ، اذالأموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدّينار و الدّرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كلّ علم وقدرة مقصودها ملك القلوب إذ معنى الجاه ملك القلوب و القدرة عليها كما أنّ معنى المال ملك الأعيان و القدرة عليها ، فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح و تفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزّهد عن الحصر ، و قد ذكر الله تعالى في آية

واحدة سبعة منها فقال : « زيّن للنّاس حبّ الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذّهب والفضّة والخيل المسوّمة و الأنعام والحرث ذلك متاع الحيوة الدّنيا »[1] ثمّ ردّه في آية أُخرى إلى خمسة فقال : « اعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ و تفاخرٌ بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد »[2] ثمّ ردّه في موضع آخر [إلى اثنين فقال تعالى : « إنّما الحيوة الدّنيا لعب ولهو »[3] ثمّ ردّ الكلّ] إلى واحد في موضع آخر فقال : « ونهى النفس عن الهوى ۞ فإنّ الجنّة هي المأوى »[4] فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدّنيا فينبغي أن يكون الزّهد فيه ، وإذا عرفت طريق الإجمال والتفصيل عرفت أنّ البعض من هذه لا يخالف البعض وإنّما يفارقه في الشرح مرّة والإجمال اُخرى والحاصل أنّ الزّهد عبارة عن الرّغبة عن حظوظ النفس كلّها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدّنيا فقصر أمله لا محالة لأنّه يريد البقاء ليتمتّع ويريد التمتّع الدّائم بإرادة البقاء ، فإنّ من أراد شيئاً أراد دوامه ، ولا معنى لحبّ الحياة الدّنيا إلّا حبّ دوام ما هو موجودٌ أو ممكن في هذه الحياة ، فإذا رغب عنها لم يردها ولذلك « لمّا كتب عليهم القتال قالوا ربّنا لم كتبت علينا القتال لولا أخّرتنا إلى أجل قريب » فقال تعالى : « قل متاع الدّنيا قليل »[5] أي لستم تريدون البقاء إلّا لمتاع الدّنيا فظهر عند ذلك الزّاهدون وانكشف حال المنافقين أمّا الزّاهدون المحبّون لله فقاتلوا في سبيل الله كأنّهم بنيان مرصوصٌ و انتظروا إحدى الحسنيين وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنّة ويبادرون إليه مبادرة الظمآن إلى الماء البارد حرصاً على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة و كلّ من مات منهم على فراشه يتحسّر على فوت الشهادة ، وأمّا المنافقون ففرّوا من الزّحف خوفاً من الموت فقيل لهم : « إنّ الموت الّذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم » فإيثارهم البقاء على الشهادة استبدال الّذي هو أدنى بالّذي هو خير « فاُولئك الّذين اشتروا الضلالة

---

(١) آل عمران : ١٣ .
(٢) الحديد : ٢٠ .
(٣) محمد : ٣٦ .
(٤) النازعات : ٤٠ .
(٥) النساء : ٧٧ .

بالهدى فما ربحت تجارتهم و ما كانوا مهتدين » و أمّا المخلصون فإنّ الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة فلمّا رأوا أنّهم تركوا تمتّع عشرين سنة أو ثلاثين بتمتّع الأبد استبشروا ببيعهم الّذي بايعوا به ، و هذا بيان المزهود فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أنّ ما ذكر المتكلّمون في حدّ الزّهد لم يشيروا به إلّا إلى بعض أقسامه فذكر كلّ واحدمنهم ما رآه غالباً على نفسه أوعلى من كان يخاطبه .

أقول : ثمّ ذكر أبو حامد جملة من أقاويل الناس في الزّهد و بيّن قصورها واحداً واحداً .

ثمّ قال : وفي الزّهد أقاويل وراء ماقلناه فلم نرفي نقله فائدة ، فإنّ من طلب كشف حقايق الاُمور من أقاويل الناس ورآها مختلفة فلايستفيد إلّا الحيرة و أمّا من انكشف له الحقّ في نفسه و أدركه بمشاهدة من قلبه لايتلقّف ممّن سمعه وثق بالحقّ و اطّلع عن قصور من قصر لقصور بصيرته و على اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته ، وهؤلاء كلّهم اقتصروا لاالقصور في البصيرة ولكنّهم ذكروا ماذكروه عندالحاجة فلاجرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلاجرم الكلمات تختلف و قد يكون سبب الاقتصار الإخبار عن الحالة الرّاهنة الّتي هي مقام العبد في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المخبرة عنها تختلف ، و أمّا الحقّ في نفسه فلا يكون إلّا واحداً ولايتصوّر أن يختلف .

أقول : و في الكافي عن السجّاد عليه السلام « إنّ الزّهد في آية من كتاب الله تعالى «لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »[(١)] وقد مضى هذا في كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهي الكلمة الجامعة في الزّهد ، و عن أمير المؤمنين عليه السلام : «الزّهد في الدّنيا قصر الأمل وشكر كلّ نعمة والورع عن كلّ ماحرّم الله عزّ وجلّ » [(٢)] .

و عن الصادق عليه السلام « أنّه سئل عن الزّاهد في الدّنيا فقال : الّذي يترك حلالها مخافة حسابه ويترك حرامها مخافة عقابه » [(٣)].

---

(١) المصدر ج ٢ ص ١٢٨ تحت رقم ٤ ، والاية فى سورة الحديد : ٣٣ .
(٢) المصدر ج ٥ ص ٧١ تحت رقم ٣ .
(٣) رواه الصدوق في العيون ص ١٧٣ .

وفي مصباح الشريعة(١) عنه عليه السلام قال: «الزّهد مفتاح باب الآخرة والبراءة من النار وهو تركك كلّ شيء يشغلك عن الله من غير تأسّف على فوتها ولا إعجاب في تركها ولا انتظار فرج منها ولا طلب محمدة عليها ولا عوض لها بل ترى فوتها راحة و كونها آفة، وتكون أبداً هارباً من الآفة، معتصماً بالرّاحة، و الزّاهد الّذي يختار الآخرة على الدّنيا والذّل على العزّ والجهد على الرّاحة والجوع على الشبع و عافية الآجل على محنة العاجل و الذكر على الغفلة و يكون نفسه في الدّنيا وقلبه في الآخرة قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «حبُّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة» ألاترى كيف أحبُّ ما أبغضه الله و أيُّ خطاء أشدُّ جرماً من هذا؟ و قال بعض أهل البيت عليهم السلام: لو كانت الدّنيا بأجمعها لقمة في فم طفل لرحمناه فكيف حال من ينبذ حدود الله خلف ظهره في طلبها والحرص عليها، والدّنيا دار لو أحسنت إلى ساكنها لرحمتك وأحسنت وداعك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله «لما خلق الله الدّنيا أمرها بطاعته فأطاعت ربّها فقال لها: خالفي من طلبك و وافقي من خالفك، فهي على ما عهد إليها الله وطبعها عليه.

قال أبو حامد: فهذا بيان انقسام الزّهد بالإضافة إلى أصناف المزهود فيه فأمّا بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض ونفل وسلامة فالفرض هو الزّهد في الحرام والنفل هو الزّهد في الحلال و السلامة هو الزّهد في الشبهات و قد ذكرنا درجات الورع في كتاب الحلال والحرام وذلك من الزّهد إذ قيل لبعض السلف: ما الزّهد؟ فقال: التقوى، و أمّا بالإضافة إلى خفايا ما يترك فلا نهاية للزّهد فيه إذ لا نهاية لما تتمتّع به النّفس في الخطرات و اللّحظات وسائر الحالات لا سيّما خفايا الرّياء فإنّ ذلك لا يطّلع عليه إلّا سماسرة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضاً درجات الزّهد فيها لا تتناهى فمن أقصى درجاتها زهد عيسى عليه السلام إذ توسّد حجراً في نومه فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدّنيا فما الّذي بدالك؟ فقال: وما الّذي تجدّد فقال: توسّدك الحجر أي تنعّمت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر و قال: خذه فقد تركته لك. وروي عن يحيى بن زكريّا أنّه لبس المسوح حتّى نقب جلده

(١) المصدر باب الحادى والثلاثون.

تركاً للتنعّم بلين الثياب و استراحة حسّ اللّمس فسألته اُمّه أن يلبس مكانها جبّة من صوف ففعل فأوحى الله إليه يا يحيى آثرت عليّ الدّنيا فبكى ونزع الصوف وعاد إلى ما كان. وجلس عيسى عليه السلام في ظلّ حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال: ما أقمتني أنت إنّما أقامني الّذي لم يرض لي أن أتنعّم بظلّ الحائط، فإذن درجات الزّهد ظاهراً وباطناً لاحصر لها وأقلّ درجاته الزّهد في كلّ شبهة ومحظور، فإن قلت: مهما كان الصحيح هو أنّ الزّهد ترك ما سوى الله فكيف يتصوّر ذلك مع الأكل والشرب واللّبس ومخالطة الناس ومكالمتهم، فكلّ ذلك اشتغال بما سوى الله؟ فاعلم أنّ معنى الانصراف من الدّنيا إلى الله الإقبال بكلّ القلب إليه ذكراً وفكراً ولا يتصوّر ذلك إلّا مع البقاء، ولابقاء إلّا بضرورات النفس فمهما اقتصرت من الدّنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلاً بغير الله فإنّ ما لايتوصّل إلى الشيء إلّا به فهو منه فالمشتغل بعلف الناقة في طريق الحجّ ليس معرضاً عن الحجّ ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحجّ ولاغرض لك في تنعّم ناقتك باللّذات بل غرضك مقصور على دفع المهلكات عنها حتّى تسير بك إلى مقصدك، فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش المهلك بالأكل والشرب و عن الحرّ والبرد المهلك باللّباس والمسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولاتقصد التلذّذ بل التقوّي على طاعة الله فذلك لايناقض الزّهد بل هو شرط الزّهد.

✿(بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضرورات الحياة)✿

إعلم أنّ ما الناس منهكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهمّ فالفضول كالخيل المسوّمة مثلاً إذ يقتنيها الإنسان ليركب و هو قادر على المشي و المهمّ كالأكل والشرب ولسنا نقدر على تفصيل أصناف الفضول فإنّ ذلك لاينحصر وإنّما ينحصر المهمّ الضروري والمهمّ أيضاً يتطرّق إليه فضول في مقداره وجنسه و أوقاته فلابدّ من بيان وجه الزّهد فيه، والمهمّات ستّة المطعم والملبس والمسكن وأثاثه والمنكح والمال و الجاه يطلب لأغراض هذه الستّة من جملتها وقد ذكرنا معنى الجاه و سبب حب

الخلق له و كيفيّة الاحتراز منه في كتاب الرّياء من ربع المهلكات و نحن الآن نقتصر على بيان هذه المهمّات الستّة .

أقول : ثمّ أخذ أبوحامد في بيان هذه المهمّات الستّة واحداً واحداً بكلام عليل وتفصيل طويل خرج به عن حدّ الاعتدال و الاقتصار فيها إلى التضييق والتعسير والمبالغة في التقشّف وماليس عند أهل الحقّ بمرضي و مالايوجد في الناس عامل به وما ذمّه أهل البيت عليهم السلام فيما روى عنهم أصحابنا رحمهم الله و استند في ذلك إلى أقوال السلف وأفعالهم وهم بين من ليس قوله ولافعله حجّة وبين من لفعله وقوله تأويل أو تخصيص بالزّمان أو العرف أو غير ذلك فلنعرض عن ذكر كلامه هذا صفحاً إلّا ما ذكره في المال والجاه و ما ذكره بعد ذلك من علامات الزّهد، ثمّ نذكر كلاماً في هذا الباب عن الصادق عليه السلام يكون ميزاناً يعرف به كلّ خلل كان في كلام أبي حامد في أبواب الزّهد نختم به الكتاب إن شاء الله .

قال : المهمّ السادس ما يكون وسيلة إلى هذه الخمسة وهو المال و الجاه أمّا الجاه فمعناه ملك القلوب بطلب محلّ فيها ليتوصّل بها إلى الاستعانة في الأغراض و الأعمال و كلّ من لايقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وافتقر إلى أن يخدم افتقر إلى جاه لامحالة في قلب خادمه لأنّه إن لم يكن له عنده محلّ وقدر لم يقم بخدمته وقيام القدر والمحلّ في القلوب هو الجاه وهذا له أوّل مرتبة ولكن يتمادى به إلى هاوية لاعمق لها ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، و إنّما يحتاج إلى المحلّ في القلوب إمّا لجلب نفع أو لدفع ضرّ ولخلاص من ظلم فأمّا النفع فيغني عنه المال فإنّ من يخدم بأجرة يخدم و إن لم يكن للمستأجر عنده قدر و إنّما يحتاج إلى الجاه في قلب من يخدم بغير اُجرة، وأمّا دفع الضرّ فيحتاج لأجله إلى الجاه في بلد لا يكمل العدل فيها ، أو يكون بين جيران يظلمونه فلا يقدر على دفع شرّهم إلّا بمحلّ له في القلوب أو محلّ له عند السلطان ،وقدر الحاجة فيه لا ينضبط لا سيّما إذا انضمّ إليه الخوف وسوء الظنّ بالعواقب والخائض في طلب الجاه سالك طريق الهلاك بل حقّ الزّاهد أن لايسعى لطلب المحلّ في القلوب أصلاً فإنّ اشتغاله بالدّين والعبادة

يمهّد له من المحلّ في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفّار فكيف بين المسلمين، وأمّا التوهّمات و التقديرات الّتي تحوج إلى زيادة في الجاه على الحاصل بغير كسب فهي أوهام كاذبة، إذ من طلب الجاه أيضاً لم يخل عن أذى في بعض الأحوال فعلاج ذلك بالاحتمال و الصبر أولى من علاجه بطلب الجاه، فإذن طلب المحلّ في القلوب لا رخصة فيه أصلاً واليسير منه داع إلى الكثير و ضراوته أشدّ من ضراوة الخمر فليحترز من قليله و كثيره. وأمّا المال و هو ضروري في المعيشة أعني القليل منه فإن كان كسوباً فإذا اكتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب، كان بعضهم إذا اكتسب قدر حاجته رفع سفطه وقام، هذا شرط الزّهد فإن جاوز ذلك إلى ما يكفيه أكثر من سنة فقد خرج عن حدّ ضعفاء الزّهاد و أقويائهم جميعاً و إن كانت له ضيعة و لم يكن له قوّة يقين في التوكّل فأمسك منها مقدار ما يكفي ريعه لسنة واحدة فلا يخرج بهذا القدر عن الزّهد بشرط أن يتصدّق بكلّ ما يفضل من كفاية سنته ولكن يكون من ضعفاء الزّهاد فإن شرط التوكّل في الزّهد كما شرطه اُويس القرني فلا يكون هذا من الزّهّاد و قولنا إنّه خرج من حدّ الزّهّاد نعني به أنّ ما وعد للزّاهدين في الدّار الآخرة من المقامات المحمودة لا يناله و إلّا فاسم الزّهد قد لا يفارقه بالاضافة إلى ما زهد فيه من الفضول والكثرة. أقول: بل الّذي أمسك من أكثر قوت السنة أيضاً بنيّة أنّه إن احتاج إلى إنفاق أو بذل لا يحوجه ذلك إلى الطلب لا يخرج عن الزّهد ولا التوكّل بشرط أن يكون وثوقه بالله سبحانه لا بذلك المال، و بشرط أن لا يشتغل قلبه به كما يتبيّن ممّا يأتي. قال: و أمر المنفرد في جميع ذلك أخفّ من أمر المعيل وقد قال أبوسليمان لا ينبغي أن يرهق الرّجل أهله إلى الزّهد بل يدعوهم إليه فإن أجابوا وإلّا تركهم و فعل بنفسه ما شاء. معناه أنّ التضييق المشروط على الزّاهد يخصّه ولا يلزمه كلّ ذلك في عياله، نعم لا ينبغي أن يجيبهم أيضاً فيما يخرج عن حدّ الاعتدال، فإذاً ما يضطرّ الانسان إليه من جاه ومال ليس بمحذور بل الزّائد على الحاجة سمّ قاتل والمقتصر على الضرورة دواء نافع و ما بينهما درجات متشابهة، فما يقرب من الزّيادة وإن لم يكن سمّاً قاتلاً فهو مضرّ وما يقرب من الضرورة فهو دواء

و إن لم يكن دواء نافعاً ، ولكنه يسير الضرر . والسم محظور شربه ، و الدواء فرض تناوله و ما بينهما مشتبه أمره ، فمن احتاط فإنما يحتاط لنفسه و من تساهل فإنما يتساهل على نفسه و من استبرء لدينه وترك ما يريبه إلى مالا يريبه ، ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم وهو من الفرقة الناجية لا محالة والمقتصر على قدر الضرورة و المهم لايجوز أن ينسب إلى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين و الشرط من جملة المشروط ، فإذن قدر الحاجة من الدين و ماوراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضاً كذلك يعرفه من عاين أحوال الأغنياء وماعليهم من المحنة في كسب المال وجمعه وحفظه و احتمال الذل فيه ، و غاية سعادته فيه أن يسلم لورثته فيأكلونه وهم أعداؤه وربما يستعينون به على المعصية فيكون هي معيناً لهم عليها و لذلك شبه جامع الدنيا و متبع الشهوات بدود القز لايزال ينسج على نفسه حيناً ثم يروم الخروج فلا يجد مخلصاً فيموت و يهلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه قال الشاعر :

ألم تر أن المرء طول حياته ✿ معنى بأمر لا يزال معالجه
كدود كدود القز ينسج دائماً ✿ ويهلك غماً وسط ماهو ناسجه

فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فإنما يحكم على قلبه سلاسل تقيده بما يشتهيه حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه و الأهل و الولد و شماتة الأعداء و مراياة الأصدقاء و سائر حظوظ الدنيا فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه وقصد الخروج من الدنيا لم يقدر عليه و رأى قلبه مقيداً بسلاسل و أغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوباً من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلاً لنفسه وساعياً في هلاكه إلى أن يفرق ملك الموت بينه و بين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معلقة بالدنيا التي هي فاتته وخلفها فهي تجاذبه إلى الدنيا و مخالب ملك الموت قد تعلقت بعروق قلبه تجذ به إلى الآخرة فيكون أهون أهواله عند الموت أن يكون مثل شخص ينشر بالمناشير ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل الألم ببدنه ويألمه من حيث يسرى أثره إلى قلبه فكيف الظن بألم يتمكن

أوّلاً من صميم القلب مخصوصاً به لا طريق للسراية إليه من غيره ، فهذا أوّل عذاب يلقاه قبل ما يراه من حسرات فوت النزول في أعلى علّيّين و جوار ربّ العالمين ، فبالنزوع إلى الدُّنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تتسلّط عليه نارجهنّم إذالنار غيرمسلّطة إلّاعلى محجوب قال تعالى : « كلاإنّهم عن ربّهم يومئذلمحجوبون☆ ثمّ إنّهم اصالوا الجحيم » (١) فرتّب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غيرعلاوة النار ، فكيف إذا اُضيفت العلاوة إليه فنسأل الله تعالى أن يقرّ في أسماعنا ما نفث في روع رسول الله صلّى الله عليه وآله حيث قيل له : « إحبب من أحببت فانّك مفارقه »(٢) ولمّا انكشف لأولياء الله أنّ العبد مهلك نفسه بأعماله واتّباعه هوى نفسه إهلاك دود القزّ نفسه رفضوا الدُّنيا بالكلّيّة وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلايأخذه و يقول : أخاف أن يفسد عليّ قلبي فمن كان له قلبٌ كان يخاف من فساده و الّذين أمات حبّ الدُّنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال : « ورضوا بالحياة الدّنيا واطمأنّوا بها و الّذين هم عن آياتنا غافلون » (٣) و قال « و لا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطاً »(٤) وقال : « فأعرض عن من تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحيوة الدُّنيا ذلك مبلغهم من العلم » (٥) فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام : احملني معك في سياحتك فقال : اخرج مالك و الحقني قال : لا أستطيع فقال عليه السلام : بعجب يدخل الغنيُّ الجنّة أو قال : بشدّة ، و قال بعضهم : مامن يوم ذرّ شارقه إلّا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالمشرق وملكان بالمغرب ، يقول أحدهم من المشرق : يا باغي الخير هلمّ ويا باغي الشرّ أقصر ، و يقول الآخر : اللّهمّ أعط منفقاً خلفاً و أعط ممسكاً تلفاً ، و يقول اللّذان بالمغرب أحدهما : لدوا للموت وابنوا للخراب ، ويقول الآخر : كلوا وتمتّعوا لطول الحساب .

---

(١) المطففين : ١٥ و ١٦ .
(٢) تقدم سابقاً .
(٣) يونس : ٧ .
(٤) الكهف : ٢٨ .
(٥) النجم : ٢٩ .

✿(بيان علامات الزهد)✿

إعلم أنّه قديظنّ أنّ تارك المال زاهدٌ وليس كذلكفإنّ ترك المال و إظهار الخشونة سهل على من أحبّ المدح بالزّهد فكم من الرّاهبين ردّوا أنفسهم كلّ يوم على قدر يسير من الطعام و لازموا ديراً لاباب له وإنّما مسرّتهم معرفة الناس حالهم ونظرهم إليه ومدحهم له فذلك لايدلّ على الزّهد دلالة قاطعة بل لابدّ من الزّهد في المال والجاه جميعاً حتّى يكمل الزّهد في جميع حظوظ النفس من الدّنيا.

أقول: و هذا كحال بعض المنافقين من الصحابة و التابعين ومن تأخّر عنهم كالحسن البصريّ والسفيان الثوريّ وأبي حنيفة و كثير ممّن يسمّيهم أبو حامد بالسلف و يستند إلى أقوالهم و أفعالهم انخداعاً له من تقشّفهم و تعرّفهم أنفسهم إلى الناس ليحمدوا حبّاً للرّئاسة والجاه.

قال أبو حامد: فإذن معرفة الزّهد أمر مشكل بل حال الزّهد على الزّاهد مشكلٌ وينبغي أن يعوّل في باطنه على ثلاث علامات: العلامة الاُولى أن لايفرح بموجود ولا يحزن على مفقود كما قال الله تعالى: «لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم»(١) و الثانية أن يستوي عنده ذامّه و مادحه فالأولى علامة الزّهد في المال، و الثانية علامة الزّهد في الجاه، و العلامة الثالثة أن يكون اُنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذلايخلو القلب عن حلاوة المحبّة إمّا محبّة الدّنيا و إمّا محبّة الله، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح فالماء إذادخل خرج الهواء ولا يجتمعان، و كلّ من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره و لذلك قيل لبعضهم: إلى ماذا أفضى بهم الزّهد؟ فقال: إلى الاُنس بالله، فأمّا الاُنس بالدنيا وبالله جميعاً فلايجتمعان وقد قال أهل المعرفة: إذا تعلّق الايمان بظاهر القلب أحبّ الدّنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما و إذا بطن الايمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدّنيا فلم ينظر إليها و لم يعمل لها و لهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام «اللّهمّ إنّي أسألك إيماناً يباشر قلبي» فكلّ من ترك من الدّنيا شيئاً مع القدرة عليه خوفاً على قلبه وعلى

(١) الحديد: ٢٣.

دينه فله مدخل في الزّهد بقدر ما تركه و آخره أن يترك كلّ ما سوى الله حتّى لا يتوسّد حجراً كما فعله عيسى عليه السلام، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مباديه نصيباً وإن قلّ فإنّ أمثالنا لا يستجري على الطمع في غاياته وإن كان قطع الرّجاء عن فضل الله غير مأذون فيه، وإذا لاحظنا عجائب نعم الله علينا علمنا أنّ الله لا يتعاظمه أمر فلا يبعد أن نعظم السؤال اعتماداً على الجود المجاوز لكلّ كمال فإذن علامة الزّهد استواء الغنى و الفقر و العزّ و الذّلّ و المدح و الذّمّ لأجل غلبة الاُنس بالله، و يتفرّع عن هذه العلامات علامات اُخر لا محالة، مثل أن يترك الدّنيا ولا يبالي من أخذها، وقيل: علامته أن يترك الدّنيا كما هي فلا يقول أبني رباطاً أو أعمر مسجداً، و قال يحيى ابن معاذ: علامة الزّهد السخاء بالموجود، وقال ابن خفيف: علامته وجود الرّاحة في الخروج من الملك، و قال أيضاً: الزّهد هو عزوف النفس عن الدّنيا بلا تكلّف.

فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزّهد و أحكامه، و إذا كان الزّهد لا يتمّ إلّا بالتوكّل فلنشرع في بيانه.

أقول: ولنأت الآن بما وعدناه من ذكر كلام الصادق عليه السلام

(كلام الصادق عليه السلام في الزّهد)

روى في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن هارون بن مسلم عن مسعدة بن صدقة قال: «دخل سفيان الثوريّ على أبي عبدالله عليه السلام فرأى عليه ثياب بيض كأنّها غرقىء البيض [(١)] فقال له: إنّ هذا اللّباس ليس من لباسك، فقال له: اسمع منّي وع ما أقول لك فإنّه خير لك عاجلاً و آجلاً إن أنت متّ على السنّة والحقّ [(٢)] ولم تمت على بدعة، اُخبرك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله كان في زمان مقفر جدب [(٣)] فأمّا إذا أقبلت الدّنيا فأحقّ أهلها بها أبرارها لا فجّارها، و مؤمنوها لا منافقوها، و مسلموها لا

(١) الغرقىء - كزبرج - : القشرة الملتزمة ببياض البيض اوالبياض الذى يؤكل، قال الفراء: وهمزته زائدة. (الصحاح).

(٢) اى انتفاعك بما أقول آجلا انما يكون اذا تركت البدع.

(٣) القفر: خلو الارض من الماء والجدب: انقطاع المطر ويبس الارض.

كفّارها فما أنكرت يا ثوري فوالله إنّني لمع ماترى ماأتى عليّ مذعقلت صباح ولا مساء ولله في مالي حقّ أمرني أن أضعه موضعاً إلّاوضعته ، قال : فأتاه قومٌ ممّن يظهرون الزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الّذي هم عليه من التقشّف فقالوا له : إنّ صاحبنا حصرعن كلامك[١] ولم تحضره حججه فقال لهم : فهاتوا حججكم فقالوا له : إنّ حججنا من كتاب الله ، فقال لهم : فأدلوا بها[٢] فإنّها أحقّ ما اتّبع وعمل به ، فقالوا يقول الله تبارك وتعالى مخبراً عن قوم من أصحاب النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم «ويؤثرون على أنفسهم و لو كان بهم خصاصة ومن يوق شحّ نفسه فاُولئك هم المفلحون»[٣] فمدح فعلهم ، وقال في موضع آخر «ويطعمون الطعام على حبّه مسكيناً ويتيماً وأسيراً»[٤] فنحن نكتفي بهذا ، فقال رجل من الجلساء : إنّا رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيّبة و مع ذلك تأمرون النّاس بالخروج من أموالهم حتّى تمتّعوا أنتم منها ؟ ! فقال له أبو عبد الله عليه السلام : دعوا عنكم ما لاينتفعون به أخبروني أيّها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه الّذي في مثله ضلّ من ضلّ وهلك من هلك من هذه الاُمّة فقالوا له : أوبعضه فأمّا كلّه فلا ، فقال لهم : فمن ههنا اُتيتم[٥] وكذلك أحاديث رسول الله[٦] فأمّا ما ذكرتم من إخبار الله عزّ وجلّ إيّانا في كتابه عن القوم الّذين أخبر عنهم بحسن فعالهم فقد كان مباحاً جائزاً[٧] ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله عزّ وجلّ وذلك أنّ الله جلّ و تقدّس أمر بخلاف ما عملوا به فصار أمره

(١) القشف - محركة - قذر الجلد و رثاثة الهيئة و سوء الحال و ترك النظافة و الترفه . والحصر : العيّ في المنطق والعجز عن الكلام .

(٢) الادلاء بالشيء : احضاره أي احضروها .

(٣) الحشر : ١٠ . والخصاصة : الفقر والحاجة والشح : البخل .

(٤) الدهر : ٨ .

(٥) «اتيتم» بالبناء للمفعول أى دخل عليكم البلاء و أصابكم ما أصابكم .

(٦) اى فيها أيضاً ناسخ و منسوخ ومحكم و متشابه وانتم لاتعرفونها .

(٧) هذا لاينافى ما ذكره عليه السلام فى جواب الثورى فانه علة شرعية الحكم اولا و نسخه ثانياً .

ناسخاً لفعلهم و كان نهي الله تبارك و تعالى رحمة منه للمؤمنين و نظراً لكيلا يضرّوا بأنفسهم وعيالاتهم منهم الضعفة الصغار و الولدان و الشيخ الفاني و العجوز الكبيرة الّذين لايصبرون على الجوع فإن تصدّقت برغيفي ولارغيف لي غيره ضاعوا و هلكوا جوعاً ، ومن ثمّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « خمس تمرات أوخمس قرص أو دنانير أو دراهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه ، ثمّ الثانية على نفسه وعياله ، ثمّ الثالثة على قرابته الفقراء ، ثمّ الرّابعة على جيرانه الفقراء ، ثمّ الخامسة في سبيل الله وهو أخسّها أجراً » و قال صلى الله عليه وآله وسلم للأنصاري حين أعتق عند موته خمسة أوستّة من الرّقيق ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار : « لو أعلمتموني أمره ماتركتكم تدفنونه مع المسلمين ترك صبية صغاراً يتكفّفون الناس »(١) ثمّ قال : حدّثني أبي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إبدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى » ثمّ هذا ما نطق به الكتاب ردّاً لقولكم و نهياً عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم قال : « والّذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً »(٢) أفلا ترون أنّ الله تبارك وتعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الأثرة على أنفسهم وسمّى من فعل ماتدعون الناس إليه مسرفاً وفي غير آية من كتاب الله يقول : « إنّه لايحبّ المسرفين »(٣) فنهاهم عن الإسراف ونهاهم عن التقتير ولكن أمر بين أمرين لايعطي جميع ما عنده ثمّ يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له للحديث الّذي جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « إنّ أصنافاً من اُمّتي لايستجاب لهم دعاؤهم : رجلٌ يدعو على والديه ، و رجل يدعو على غريم(٤) ذهب له بمال فلم يكتب عليه ولم يشهد عليه ، ورجلٌ يدعو على امرأته وقد جعل الله عزّوجلّ تخلية سبيلها بيده ، ورجل يقعد في بيته و يقول ربِّ ارزقني ولا يخرج ولا يطلب الرّزق فيقول الله له : عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض

---

(١) الصبية ـ بالتثليث ـ جمع صبى . وقوله : « يتكففون » يقال : تكفف اذا سئل كفاً من الطعام .

(٢) الفرقان : ٦٧ ، و القتر : القليل من العيش ، يقال : فلان قتر على عياله اى ضيق عليهم فى النفقة . والمقتر : الفقير المقل . والقوام العدل بين شيئين لاستقامة الطرفين .

(٣) الانعام : ١٤١ والاعراف : ٣١ . (٤) الغريم : المديون .

بجوارح صحيحة فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطلب لاتّباع أمري ولكيلا تكون كلاًّ على أهلك ، فإن شئت رزقتك وإن شئت قتّرت عليك وأنت غير معذور عندي ، ورجل رزقه الله مالاً كثيراً فأنفقه ثمّ أقبل يدعو يا ربّ ارزقني فيقول الله عزّ وجلّ ألم أرزقك رزقاً واسعاً فهلاّ اقتصدت فيه كما أمرتك ولِمَ تسرف وقد نهيتك عن الاسراف ، ورجل يدعو في قطيعة رحم» ثمّ علّم الله نبيّه صلى الله عليه وآله كيف ينفق وذلك أنّه كانت عنده أوقيّة [1] من الذّهب فكره أن تبيت عنده فتصدّق بها فأصبح وليس عنده شيء وجاءه من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل واغتمّ هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيماً رقيقاً فأدّب الله عزّ وجلّ نبيّه صلى الله عليه وآله بأمره فقال : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كلّ البسط فتقعد ملوماً محسوراً » [2] يقول : إنّ الناس قد يسألونك ولا يعذرونك فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال فهذه أحاديث رسول الله يصدّقها الكتاب والكتاب يصدّقه أهله من المؤمنين وقال : أبو بكر عند موته حيث قيل له : أوص فقال : اُوصي بالخُمس والخمس كثيرٌ فإنّ الله عزّ وجلّ قد رضي بالخمس فأوصى بالخمس وقد جعل الله له الثلث عند موته ، ولو علم أنّ الثلث خيرٌ له أوصى به ، ثمّ من قد علمتم بعده في فضله وزهده سلمان الفارسي - رضي الله عنه - وأبوذر - رحمه الله - فأمّا سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته حتّى يحضر عطاؤه من قابل فقيل له : يا أبا عبدالله أنت في زهدك تصنع هذا وأنت لا تدري لعلّك تموت اليوم أو غداً ؟ فكان جوابه أن قال : مالكم لا ترجون لي البقاء كما خفتم عليّ الفناء ، أما علمتم يا جهلة أنّ النفس قد تلتاث على صاحبها [3]

(١) الاوقية بالضم و السكون و كسر القاف و فتح الياء المشددة سبعة مثاقيل .

(٢) الاسراء : ٣١ . وهي تمثيل لمنع الشحيح واعطاء المسرف وامر بالاقتصاد الذى هو بين الاسراف والتقتير : « فتقعد » اى فتصير ملوماً غير مرضى عند الله اذا خرجت عن القوام و عند الناس ، اذ يقول المحتاج : اعطى فلانا وحرمنى ، ويقول المستغنى : ما يحسن تدبير امر المعيشة ، وعند نفسك اذا احتجت فندمت على ما فعلت محسوراً نادماً او منقطعا بك لا شيء عندك .

(٣) قوله «قد تلتاث» اى تبطيء و تحتبس عن الطاعات و تسترخي و تستضعف قال الفيروزآبادى : اللوث : القوة والستر و البطوء فى الامر .

إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنّت . و أمّا أبوذرّ - رضي الله عنه - فكانت له نويقات وشويهات يحلبها [١] و يذبح منها إذا اشتهى أهله اللّحم أو نزل به ضيف أو رأى بأهل الماء الّذين هم معه خصاصة نحر لهم الجزور أو من الشياه على قدر ما يذهب عنهم بقرَم اللّحم [٢] فيقسّمه بينهم ويأخذ هو كنصيب واحد منهم لا يتفضّل عليهم ، ومن أزهد من هؤلاء ، وقد قال فيهم رسول الله صلّى الله عليه وآله ما قال ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم و شيئهم ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم .

و اعلموا أيّها النفر أنّي سمعت أبي يروي عن آبائه أنّ رسول الله قال يوماً : « ماعجبت من شيء كعجبي من المؤمن أنّه إن قرّض جسده في دار الدُّنيا بالمقاريض كان خيراً له ، وإن ملك ما بين مشارق الأرض و مغاربها كان خيراً له و كلُّ ما يصنع الله به فهو خيرٌ له» فليت شعري هل يحيق فيكم [٣] ماقد شرحت لكم منذ اليوم أم أزيدكم ، أما علمتم أنّ الله قد فرض على المؤمنين في أوّل الأمر أن يقاتل الرّجل منهم عشرة من المشركين ليس له أن يولّي وجهه عنهم ومن ولاّهم يومئذ دبره فقد تبوّأ مقعده من النار ، ثمّ حوّلهم عن حالهم رحمة منه لهم فصار الرّجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين تخفيفاً من الله عزّ وجلّ للمؤمنين فنسخ الرجلان العشرة وأخبروني أيضاً عن القضاة أجورة هم حيث يقضون على الرّجل منكم نفقة امرأته إذا قال : إنّي زاهد وإنّي لا شيء لي فإن قلتم جورة ظلّمكم أهل الإسلام وإن قلتم بل عدول خصمتم أنفسكم وحيث تردّون صدقة من تصدّق على المساكين عند الموت بأكثر من الثلث ، أخبروني لو كان الناس كلّهم كالّذين تريدون زهّاداً لاحاجة لهم في متاع غيرهم فعلى

(١) قوله : « نويقات» جمع نويقة مصغر ناقة و كذا « شويهات» جمع شويهة مصغر شاة .

(٢) القرم - محركة - : شدة شهوة اللحم .

(٣) يحيق فيه اى أثر فيه ، ويحيق به : أحاط - ويحيق بهم : نزل . وفى بعض النسخ من المصدر [يحق] اى يثبت ويستقر فيهم . وفى بعضها [يحتفى] - بالحاء المهملة - فمعناه هل يبالغ فى نصيحتكم والبر بكم وفى بعضها [يختفى] و الاختفاء جاء بمعنى الاظهار و الاستخراج و بمعنى الاستتار و التوارى و كلا المعنيين محتمل ههنا على بعد .

من كان يتصدّق بكفّارات الأيمان والنذور والصدقات من فرض الزّكاة من الذّهب و الفضّة و التمر والزّبيب وسائر ماوجب فيه الزّكاة من الابل والبقر والغنم وغير ذلك إذا كان الأمر كما تقولون لاينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الدّنيا إلّا قدّمه، وإن كان به خصاصة ، فبئس ماذهبتم إليه وحملتم الناس عليه من الجهل بكتاب الله عزّ و جلّ و سنّة نبيّه و أحاديثه الّتي يصدّقها الكتاب المنزل و ردّكم إيّاها بجهالتكم وترككم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنهي ، وأخبروني أين أنتم عن سليمان بن داود حيث سأل الله ملكاً لاينبغي لأحد من بعده فأعطاه الله جلّ اسمه ذلك وكان يقول الحقّ و يعمل به ، ثمّ لم نجد الله عزّ وجلّ عاب عليه ذلك و لا أحداً من المسلمين . وداود النبيّ قبله في ملكه وشدّة سلطانه ، ثمّ يوسف النبيّ حيث قال لملك مصر : «اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم» فكان من أمره الّذي كان أن اختار مملكة الملك و ما حولها إلى اليمن ، وكانوا يمتارون الطعام من عنده لمجاعة أصابتهم وكان يقول الحقّ و يعمل به فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه ، ثمّ ذوالقرنين عبداً أحبّ الله فأحبّه الله وطوى له الأسباب و ملّكه مشارق الأرض ومغاربها وكان يقول الحقّ ويعمل به ، ثمّ لم نجد أحداً عاب ذلك عليه فتأدّبوا أيّها النفر بآداب الله عزّ وجلّ للمؤمنين و اقتصروا على أمر الله ونهيه ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لاعلم لكم به و ردّوا العلم إلى أهله توجروا و تعذروا عند الله تبارك وتعالى وكونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه و ما أحلّ الله فيه ممّا حرّم فانّه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل ودعوا الجهالة لأهلها فانّ أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل وقد قال الله عزّ وجلّ «و فوق كلّ ذي علم عليم»(١).

و باسناده عنه عليه السلام أنّه سئل عن الزّهد في الدّنيا قال : «ويحك حرامها فتنكّبه»(٢).

---

(١) يوسف : ٧٦ والخبر في الكافي ج ٥ ص ٦٥ تحت رقم ١ .

(٢) المصدر ج ٥ ص ٧٠ تحت رقم ١ .

وعنه عليه السلام: «ليس الزّهد في الدّنيا بإضاعة المال ولا تحريم الحلال، بل الزّهد في الدّنيا أن لاتكون بما في يدك أوثق منك بما عندالله عزّ وجلّ»[1]

تمّ كتاب الفقر والزّهد من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء ويتلوه كتاب التوحيد والتوكّل إن شاء الله وفرغ منه مؤلّفه أقلّ العباد عملاً وأكثرهم زللاً محسن ابن مرتضى وفّقه الله للتحلّي بالحالات المرضيّة والمقامات المحمودة بمنّه وكرمه والحمدلله ربّ العالمين

(١) الكافي ج ٥ ص ٧٠ تحت رقم ٢

كتاب التوحيد والتوكّل

وهو الكتاب الخامس من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المدبّر للملك والملكوت ، المتفرّد بالعزّ و الجبروت ، و الرّافع السماء بغير عماد ، المقدّر فيها أرزاق العباد ، الّذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط و الأسباب إلى مسبّب الأسباب ، و رفع هممهم عن الالتفات إلى ما عداه ، و الاعتماد على مدبّر سواه ، فلم يعبدوا إلّا إيّاه ، علماً بأنّه الواحد الفرد الصمد الإله ، وتحقيقاً بأنّ جميع أصناف الخلق عبادٌ أمثالهم لايبتغى عندهم الرّزق ، وأنّه مامن ذرّة إلّا إلى الله خلقها ، وما من دابّة إلّا على الله رزقها ، فلمّا تحقّقوا أنّه لرزق عباده ضامن و به كفيل توكّلوا عليه و قالوا : حسبنا الله و نعم الوكيل .

و الصلاة على محمّد قامع الأباطيل ، الهادي إلى سواء السبيل ، وعلى آله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً .

أمّا بعد فإنّ التوكّل منزل من منازل الدّين و مقام من مقامات الموقنين بل هو من معالي درجات المقرّبين وهو في نفسه غامضٌ من حيث العلم ثمّ هو شاقّ من حيث العمل ، و وجه غموضه من حيث الفهم أنّ ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد و التباعد عنها بالكلّيّة طعن في السنّة و قدح في الشرع و الاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسباباً ، تغيير في وجه العقل و انغماس في غمرة الجهل وتحقيق معنى التوكّل على وجه يتوافق فيه مقتضى التوحيد و العقل والشرع في غاية الغموض والعسر، و لا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدّة هذا الخفاء إلّا سماسرة

العلماء الّذين اكتحلوا من فضل الله تعالى بأنوار الحقايق فأبصروا و تحقّقوا ثمّ نطقوا بالاعراب عمّا شاهدوه من حيث استنطقوا ونحن الآن نبدء بذكر فضيلة التوكّل على سبيل التقدمة ثمّ نردفه بالتّوحيد في الشطر الأوّل من الكتاب و نذكر حال التوكّل وعمله في الشطر الثاني .

(بيان فضيلة التوكّل)

أمّا من الآيات فقد قال الله تعالى : « وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين » (١) و قال : « وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون » (٢) . وقال تعالى : « ومن يتوكّل على الله فهو حسبه » (٣) . وقال تعالى : «إنّ الله يحبّ المتوكّلين» (٤) فأعظم بمقام موسوم بمحبّة الله صاحبه ومضمون بكفاية الله ملابسه ، فمن الله حسبه وكافيه ومحبّه ومراعيه ، فقد فاز الفوز العظيم فانّ المحبوب لايعذّب ولايبعّد ولايحجب وقد قال الله تعالى : «أليس الله بكاف عبده » (٥) و طالب الكفاية من غيره هو التارك للتوكّل و هو المكذّب بهذه الآية فانّه سؤال في معرض استنطاق بالحقّ كقوله تعالى : « هل أتى على الانسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً » (٦) وقال تعالى : « ومن يتوكّل على الله فانّ الله عزيز حكيم » (٧) أي عزيز لايذلّ من استجار به ولا يضيع من لاذ بجنابه والتجأ إلى ذمامه و حماه ، و حكيم لا يقصر عن تدبير من توكّل على تدبيره ، و قال تعالى : « إنّ الّذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » (٨) بيّن أنّ كلّ من سوى الله عبد مسخّر حاجته مثل حاجتك فكيف تتّكل عليه وقال : «إنّ الّذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرّزق و اعبدوه» (٩) . و قد قال تعالى : « ولله خرائن السموات و الأرض ولكنّ المنافقين لا يفقهون » (١٠) . و قال تعالى : « يدبّر

---

(١) المائدة : ٢٣ . (٢) ابراهيم : ١٢ .
(٣) الطلاق : ٣ . (٤) آل عمران : ١٥٩ .
(٥) الزمر : ٣٦ . (٦) الدهر : ٢ .
(٧) الانفال : ٤٩ . (٨) الاعراف : ١٩٤ .
(٩) العنكبوت : ١٧ . (١٠) المنافقون : ٧ .

الأمر ما من شفيع إلاّ من بعد إذنه »(١).

وكلّ ما ذكر في القرآن من التوحيد فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكّل على الواحد القهّار.

وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه ابن مسعود: «اُريت الاُمم بالموسم فرأيت اُمّتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبتني كثرتهم وهيئاتهم فقيل لي أرضيت؟ قلت: نعم قال: ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب، قيل: من هم يارسول الله؟ فقال: الّذين لايكتوون ولايتطيرون ولايسترقون وعلى ربّهم يتوكّلون فقام عكاشة ابن محصن فقال: يارسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم: اللّهمّ اجعله منهم فقام آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: سبقك بها عكاشة »(٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »(٣).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله كلّ مؤونة ورزقه من حيث لايحتسب، ومن انقطع إلى الدُّنيا وكله الله إليها»(٤)

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده »(٥).

ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «أنّه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال: قوموا إلى الصلاة ويقول: بهذا أمرني ربّي قال تعالى: «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها »(٦).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لم يتوكّل من استرقى واكتوى» (٧).

وروي أنّه لمّا قال جبرئيل عليه السلام لإبراهيم عليه السلام وقد رمي إلى النار من المنجنيق:

---

(١) يونس: ٣.

(٢) قال العراقي: رواه ابن منيع باسناد حسن، ومتفق عليه من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٠٧ و قد تقدم.

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير وابن ابي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب.

(٥) أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد. (٦) رواه الطبراني في الاوسط بنحوه.

(٧) أخرجه النسائي في الكبرى والترمذي في السنن ج ٨ ص ٢١٢ بتقدم وتأخير.

ألك حاجة ؟ فقال : أمّا إليك فلا ، وفاء بقوله «حسبي الله ونعم الوكيل» إذ قال ذلك حين اُخذ ليرمى به فأنزل الله تعالى فيه «وإبراهيم الّذي وفّى»[١] .

و أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : يا داود ما من عبد يعتصم بي دون خلقي فتكيده السماوات والأرض إلّا جعلت له مخرجاً .

أقول: ومن طريق الخاصّة عن الصّادق عليه السلام « أوحى الله تعالى إلى داود ما اعتصم عبدٌ من عبادي دون أحد من خلقي عرفت ذلك من نيّته[٢] ثمّ تكيده السماوات و الأرض و من فيهنّ إلّا جعلت له المخرج من بينهنّ ، وما اعتصم عبدٌ من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيّته إلّا قطعت أسباب السماوات الأرض من يديه و أسخت الأرض من تحته[٣] ولم اُبال بأيّ واد هلك»[٤] .

وعنه عليه السلام «أنّه قرأ في بعض الكتب أنّ الله تعالى يقول وعزّتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لاُقطّعنّ أمل كلّ مؤمّل [من الناس] غيري باليأس و لأكسونّه ثوب المذلّة عند الناس ولاُنحّينّه[٥] من قربي و لابعدنّه من وصلي أيؤمّل غيري في الشدائد و الشدائد بيدي و يرجو غيري و يقرع بالفكر باب غيري[٦] و بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة و بابي مفتوح لمن دعاني فمن ذا الّذي أمّلني لنوائبه فقطعته دونها ، و من ذا الّذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه منّي ، جعلت آمال عبادي عندي محفوظة فلم يرضوا بحفظي و ملأت سمواتي ممّن لا يملّ من تسبيحي و أمرتهم أن لا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي فلم يثقوا بقولي[٧] ألم يعلم [أنّ] من طرقته نائبة من نوائبي أنّه لا يملك كشفها أحد غيري إلّا من بعد إذني ، فمالي أراه لاهياً عنّي ، أعطيته بجودي ما لم يسألني ثمّ انتزعته عنه فلم يسألني ردّه وسأل غيري ؛ أفيراني

---

(١) النجم : ٣٧ .
(٢) «عرفت ذلك» نعت للعبد .
(٣) اى خسفتها من الاساخة .
(٤) الكافى ج ٢ ص ٦٣ تحت رقم ١ .
(٥) اى لابعدنه واز يلنه .
(٦) تشبيه الفكر باليد مكنية واثبات القرع له تخييلية وذكر الباب ترشيح .
(٧) اى وعدى الاجابة لهم .

أبداً بالعطاء قبل المسئلة ثمّ اُسأل فلا اُجيب سائلي أبخيل أنا فيبخّلني عبدي[1] أو ليس الجود والكرم لي ، أوليس العفو و الرّحمة بيدي أو ليس أنا محلّ الآمال فمن يقطعها دوني ، أفلا يخشى المؤمّلون أن يؤمّلوا غيري فلو أنّ أهل سماواتي وأهل أرضي أمّلوا جميعاً ، ثمّ أعطيت كلّ واحد منهم مثل ما أمّل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرّة وكيف ينقص ملك أنا قيّمه فيا بؤساً[2] للقانطين من رحمتي ويا بؤساً لمن عصاني ولم يراقبني »[3].

وعنه عليه السلام « إنّ الغنى والعزّ يجولان فإذا ظفرا بموضع التوكّل أوطنا»[4].

وعن الكاظم عليه السلام في قول الله تعالى : « ومن يتوكّل على الله فهو حسبه»[5] فقال : «التوكّل على الله على درجات منها أنّ تتوكّل على الله في اُمورك كلّها فمافعل بك كنت عنه راضياً تعلم أنّه لايألوك خيراً وفضلاً وتعلم أنّ الحكم في ذلك له فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به فيها وفي غيرها ».

✿(بيان حقيقة التوحيد الّذى هو أصل التوكّل)✿

إعلم أنّ التوكّل من أبواب الإيمان و جميع أبواب الإيمان لاينتظم إلّا بعلم و حال و عمل والتوكّل كذلك ينتظم من علم هو الأصل ، ومن عمل هو الثمرة ، وحال هو المراد باسم التوكّل فلنبدأ ببيان العلم الّذي هو الأصل و هو المسمّى إيماناً في أصل اللّسان ، إذ الإيمان هو التصديق و كلّ تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوي سمّي يقيناً ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنّما نحتاج منها إلى ما يبتني عليه التوكّل وهو التوحيد الّذي يترجمه قولك : « لا إله إلّا الله وحده لاشريك له » و الإيمان بالقدرة الّتي يترجم عنها قولك: «له الملك» والإيمان بالجود والحكمة الّذي يدلّ عليه قولك :

---

(١) بخله بالتشديد اى نسبه الى البخل .

(٢) البؤس والبأساء : الشدة والفقر والحزن .

(٣) الكافى ج ٢ ص ٦٦ تحت رقم ٧ .

(٤) المصدر ج ٢ ص ٦٤ تحت رقم ٣ .

(٥) الطلاق : ٣ . والخبر فى الكافى ج ٢ ص ٦٥ تحت رقم ٥ .

« وله الحمد و هو على كلّ شيء قدير» فمن قال : « لا إله إلّا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد و هو على كلّ شيء قدير » فقد تمّ له الايمان الّذي هوأصل التوكّل أعني أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه . فأمّا التوحيد فهو الأصل والقول فيه طويل وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفة يتعلّق بالأعمال بواسطة الأحوال و لا يتمّ علم المعاملة إلّا بها ، فاذن لا نتعرّض إلّا للقدر الّذي يتعلّق بالمعاملة و إلّا فالتّوحيد هو البحر الخضم الّذي لاساحل له .

فنقول : للتوحيد أربع مراتب وهو منقسم إلى لبّ ولبّ اللّبّ ، وإلى قشر وقشر القشر ، ولنمثّل ذلك تقريباً إلى الأفهام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإنّ له قشرتين وله لبّ وللّبّ دهن هو لبّ اللّبّ .

فالرّتبة الاُولى من التوحيد هي أن يقول الإنسان باللّسان « لا إله إلّا الله» وقلبه غافل عنه أو منكرٌ له كتوحيد المنافقين ، و الثانية أن يصدّق بمعنى اللّفظ قلبه كما صدّق به عموم المسلمين وهو اعتقاد ، والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحقّ وهو مقام المقرّبين و ذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهّار ، والرابعة أن لا يرى إلّا واحداً و هي مشاهدة الصدّيقين ويسمّيه أهل المعرفة الفناء في التّوحيد لأنّه من حيث لا يرى إلّا واحداً فلا يرى نفسه أيضاً و إذا لم ير نفسه لكونه مستغرقاً بالتوحيد كان فانياً عن نفسه في توحيده بمعنى أنّه فني عن رؤية نفسه والخلق .

فالأوّل موحّدٌ بمجرّد اللّسان و يعصم ذلك صاحبه في الدّنيا عن السيف والسنان ، والثاني موحّد بمعنى أنّه معتقد بقلبه مفهوم لفظه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفتاح ولكنّه يحفظ صاحبه عن العذاب في الآخرة إن توفّي عليها ولم تضعف بالمعاصي عقدته ولهذا العقد حيل يقصد بها تضعيفه وتحليله يسمّى بدعة وله حيل يقصد بها رفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصد بها أيضاً إحكام هذه العقدة و شدّها على القلب و تسمّى كلاماً و العارف بها يسمّى متكلّماً وهو في مقابلة المبتدع ومقصده دفع المبتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب

العوام وقد يخصّ المتكلّم باسم الموحّد من حيث إنّه يحمي بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتّى لا تنحل عقدته ، والثالث موحّد بمعنى أنّه لم يشاهد إلّا فاعلاً واحداً إذا انكشف له الحقّ كما هو عليه لا أنّه كلّف قلبه أن يعقد على مفهوم اللّفظ فإنّ تلك رتبة العوام و المتكلّمين، إذ لم يفارق المتكلّم العاميّ في الاعتقاد بل في صنعة تلفيق الكلام الّذي به يدفع حيل المبتدع في تحليل هذه العقدة ، و الرّابع موحّد بمعنى أنّه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكلّ من حيث إنّه كثير بل من حيث إنّه واحد ، و هذه هي الغاية القصوى في التوحيد ، فالأوّل كالقشرة العليا من الجوز ، و الثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللّبّ ، و الرّابع كالدّهن المستخرج من اللّبّ ، و كما أنّ القشرة العليا لا خير فيها بل إن اُكلت فهي مرّ المذاق و إن نظر إلى باطنها فهو كريه المنظر و إن اتّخذت حطباً أطفأت النار و أكثر الدّخان و إن تركت في البيت ضيّقت المكان فلا تصلح إلّا أن تترك مدّة على الجوز للصون ، ثمّ ترمى فكذلك التوحيد بمجرّد اللّسان عديم الجدوى كثير الضرر ، مذموم الظاهر والباطن ، لكنّه ينفع مدّة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت ، والقشرة السفلى هي القلب و البدن ، وتوحيد المنافق يصون بدنه عن سيف الغزاة فإنّهم لم يأمروا بشقّ القلوب والسيف إنّما يصيب جسم البدن وهو القشر و إنّما يتجرّد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيده فائدة بعده و كما أنّ القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فإنّها تصون اللّبّ وتحرسه عن الفساد عند الادّخار وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطباً لكنّه نازلة القدر بالإضافة إلى اللّبّ فكذلك مجرّد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرّد نطق اللّسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف و المشاهدة الّتي تحصل بانشراح الصدر و انفساحه بإشراق نور الحقّ فيه إذ ذلك الشرح هو المراد بقوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام»(١) و بقوله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه »(٢) و كما أنّ اللّبّ نفيس في نفسه بالإضافة إلى القشر و كلّه المقصود و لكنّه لا يخلو

(١) الانعام : ١٢٥ . (٢) الزمر : ٢٢

عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدّهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصدٌ عال للسالكين، لكنّه لايخلو عن شوب ملاحظة الغير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من يشاهد سوى الواحد الحقّ.

فإن قلت: كيف يتصوّر أن لايشاهد إلّا واحداً وهو يشاهد السماء و الأرض و سائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحداً: فاعلم أنّ هذه غاية علوم المكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سرّ الرّبوبيّة كفر، ثمّ هو غير متعلّق بعلم المعاملة نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك ممكن وهو أن يكون الشيء قديكون كثيراً بنوع مشاهدة و اعتبار و يكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة و الاعتبار، وهذا كما أنّ الإنسان كثيرٌ إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه و عروقه و عظامه و أحشائه و هو باعتبار آخر و مشاهدة اُخرى واحدٌ إذ نقول: إنّه إنسان واحد، فهو بالإضافة إلى الإنسانيّة واحد وكم من شخص يشاهد إنساناً ولايخطر بباله كثرة أمعائه و عروقه وأطرافه وتفصيل روحه و جسده و الفرق بينهما فهو في حال الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق فكأنّه في عين الجمع والملتفت إلى الكثرة في تفرقة، فكذلك كلّ ما في الوجود من الخالق و المخلوق له اعتبارات و مشاهدات كثيرة مختلفة، و هو باعتبار واحد من حيث الاعتبارات واحد، و باعتبارات اُخر سواه كثيرٌ بعضها أشدّ كثرة من بعض، ومثاله الإنسان و إن كان لا يطابق الغرض ولكنّه ينبّه بالجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم المشاهدة واحداً و تستفيد بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام تبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنّك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنّك إذا آمنت بالنبوّة و إن لم تكن نبيّاً كان لك نصيب منه بقدر قوّة إيمانك و هذه المشاهدات الّتي لا يظهر فيها إلّا الواحد الحقّ تارة تدوم وتارة تطرأ كالبرق الخاطف و هو الأكثر و الدّوام نادرٌ عزيزٌ وهذه مقامات الموحّدين في التوحيد على سبيل الإجمال.

فإن قلت: فلابدّ لهذا من شرح بمقدار مايفهم كيفية ابتناء التوكّل عليه.

فأقول : أمّا الرّابع فلا يجوز الخوض في بيانه وليس التوكّل أيضاً مبنيّاً عليه بل يحصل حال التوكّل بالتوحيد الثالث ، وأمّا الأوّل وهو النفاق فهو واضح ، وأمّا الثاني و هو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين و طريق تأكيده بالكلام و دفع حيل المبتدعة فيه مذكور في علم الكلام و قد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهمّ منه .

و أمّا الثالث و هو الّذي يبتني التوكّل عليه إذ مجرّد التّوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكّل فلنذكر منه القدر الّذي يرتبط التوكّل به دون تفصيله الّذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب ، وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلّا الله ، و أنّ كلّ موجود من خلق و رزق و عطاء و منع وحياة و موت و غنى و فقر إلى غير ذلك ممّا يطلق عليه اسم ، فالمتفرّد بإبداعه و اختراعه هو الله تعالى لا شريك له فيه ، و إذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك و إليه رجاؤك و به ثقتك وعليه اتّكالك فإنّه الفاعل على الانفراد دون غيره وماسواه مسخّرون لا استقلال لهم بتحريك ذرّة في ملكوت السماوات والأرض ، و إذا انفتح لك أبواب المكاشفة اتّضح لك هذا اتّضاحاً أتمّ من المشاهدة بالبصر وإنّما يصدّك الشيطان عن هذا التّوحيد في مقام يبتغي به أن يتطرّق إلى قلبك شائبة الشرك بسببين : أحدهما الالتفات إلى اختيار الحيوانات والثاني الالتفات إلى الجمادات أمّا الالتفات إلى الجمادات كاعتمادك إلى المطر في خروج الزّرع ونباته ونمائه وعلى الغيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع الغيم و على الرّيح في استواء السفينة وسيرها وهذا شرك كلّه في التوحيد وجهل بحقائق الاُمور ، ولذلك قال تعالى : « فإذا ركبوا في الفُلك دعوا الله مخلصين له الدّين فلمّا نجّيهم إلى البرّ إذا هم يشركون»[1] قيل : معناه إنّهم يقولون : لولا استواء الرّيح لما نجونا ، و من انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أنّ الرّيح هواء والهواء لا تتحرّك بنفسه ما لم يحرّك و كذلك محرّكه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرّك الأوّل الّذي لا محرّك له و لا هو متحرّك في نفسه ، فالتفات العبد إلى النجاة بالرّيح يضاهي التفات من

(١) العنكبوت : ٦٥ .

اُخذ لتجزّ رقبته فكتب الملك توقيعاً بالعفو عنه وتخليته فأخذ يشتغل بذكر الحبر و الكاغذ و القلم الّذي به كتب التوقيع و يقول : لولا القلم لما تخلّصت فيرى نجاته من القلم لامن محرّك القلم وهو غاية الجهل ، ومن علم أنّ القلم لاحكم له في نفسه وإنّما هو مسخّر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلّا الكاتب ، بل ربّما يدهشه فرح النجاة و شكر الملك و الكاتب عن أن يخطر بباله القلم و الحبر و الدّواة و الشمس والقمر والنجوم والمطر والغيم والأرض ، و كلّ حيوان وجماد مسخّر في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقّك لاعتقادك أنّ الملك الموقّع هو كاتب التوقيع والحقّ أنّ الله هو الكاتب كما قال تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى »[1] فإذا انكشف لك أنّ جميع ما في السماوات و الأرض مسخّرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائباً وآيس عن مزج توحيدك بهذا الشرك فيأتيك في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختياريّة ويقول : كيف ترى الكلّ من الله وهذا الإنسان يعطيك رزقك باختياره فإن شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الّذي يجزّ رقبتك بسيفه وهو قادر عليك فإن شاء جزّ رقبتك و إن شاء عفا عنك فكيف لاتخافه و لا ترجوه وأمرك بيده و أنت تشاهد ذلك ولاتشكّ فيه و يقول لك أيضاً : نعم إن كنت لاترى القلم لأنّه مسخّر فكيف لاترى الكاتب بالقلم وهو مسخّر له ، وعند هذا زلّ أقدام الأكثر من الناس إلّا عباد الله المخلصين الّذين لا سلطان عليهم للشيطان فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخّراً مضطرّاً كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم مسخّراً ؛ وعرفوا أنّ غلط الضعفاء في ذلك كغلط النملة مثلاً لو كانت تدبّ على الكاغذ فترى رأس القلم يسوّد الكاغذ ولم يمتدّ بصرها إلى اليد والأصابع فضلاً من صاحب اليد ، وظنّت أنّ القلم هو المسوّد للبياض و ذلك لقصور بصره عن مجاوزة رأس القلم لضيق حدقتها ، فكذلك من لم ينشرح بنور الله صدره قصرت بصيرته عن ملاحظة جبّار السماوات والأرض ومشاهدة كونه قاهر أوراء الكلّ فوقف في الطريق على الكاتب وهو جهل محض بل أرباب القلوب و المشاهدات

(١) الانفال : ١٧ .

قد أنطق الله في حقّهم كلّ ذرّة في الأرض والسماوات بقدرته الّتي بها أنطق كلّ شيء، حتّى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله وشهادتها على أنفسها بالعجز بلسان ذلق يتكلّم بلا حرف و لا صوت لا يسمعه الّذين هم عن السمع معزولون، و لست أعني به السمع الظاهر الّذي لا يجاوز الأصوات فإنّ الحمار شريك فيه ولا قدر لما شارك فيه البهائم و إنّما اُريد به سمعاً يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربيّ ولا عجميّ. فإن قلت: فهذه اُعجوبة لا يقبلها العقل فصف لي كيفيّة نطقها و أنّها كيف نطقت وبماذا نطقت و كيف سبّحت و قدّست و كيف شهدت على نفسها بالعجز؟ فاعلم أنّ لكلّ ذرّة في السماوات و الأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السرّ وذلك ممّا لا ينحصر و لا يتناهى فإنّها كلمات تستمدّ من بحر كلام الله الّذي لا نهاية له «قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي و لو جئنا بمثله مدداً» ثمّ إنّها تتناجى بأسرار الملك والملكوت، وإفشاء السرّ لؤم بل صدور الأحرار قبور الأسرار، وهل رأيت قطّ أميناً على أسرار الملك قد نوجي بخفاياه فنادى بسرّه على ملأ من الخلق ولو جاز إفشاء كلّ سرّ لنا لما قال صلّى الله عليه وآله: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً و لبكيتم كثيراً» (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتّى يبكوا ولا يضحكوا، و لما نهى عن إفشاء سرّ القدر (٢) و لما خصّ حذيفة - رضي الله عنه - ببعض الأسرار (٣) فإذن عن حكايات مناجاة ذرّات الملك و الملكوت لقلوب أرباب المشاهدات مانعان: أحدهما استحالة إفشاء السرّ، والثاني خروج كلماتها عن الحصر و النهاية، ولكنّا في المثال الّذي كنّا فيه وهو حركة القلم نحكي من مناجاتها قدراً يسيراً يفهم به على الإجمال كيفيّة ابتناء التوكّل عليه و نردّ كلماتها إلى الحروف والأصوات، وإن لم تكن هي حروفاً و أصواتاً ولكن هذه ضرورة التفهيم، فنقول: قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغذ وقد رآه اسودّ وجهه بالحبر: ما بال وجهك كان أبيض مشرقاً

---

(١) تقدم غير مرة

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث ابن عمر كما فى الجامع الصغير.

(٣) راجع صحيح مسلم ج ٨ ص ١٧٣ كتاب الفتن ومسند أحمد ج٥ ص ٣٨٦.

والآن قد ظهر عليه السواد فلم سوّدت وجهك وما السبب فيه فقال الكاغذ : ما أنصفتني في هذه المقالة فإنّي ما سوّدت وجهي بنفسي لكن سل الحبر فإنّه كان مجموعاً في المحبرة الّتي هي مستقرّه ووطنه فسافر عن الوطن ونزل بساحتي وسوّد وجهي ظلماً وعدواناً ، فقال : صدقت فسأل الحبر عن ذلك ، فقال : ما أنصفتني فإنّي كنت في المحبرة وادعاً ساكناً عازماً على أن لا أبرح منها فاعتدى عليّ القلم بطبعه الفاسد و اختطفني من وطني و أجلاني عن بلدي وفرّق جمعي وبدّدني كما تراه على ساحة بيضاء فالسؤال عليه لا عليّ ، فقال : صدقت ثمّ سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه و إخراج الحبر من أوطانه ، فقال : سل اليد و الأصابع فإنّي كنت قصباً نابتاً على شطّ الأنهار متنزّهاً بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكّين فنحت عنّي قشري ومزّقت عنّي ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصّلت بين أنابيبي ثمّ برتني وشقّت رأسي ثمّ غمستني في سواد الحبر ومرارته و هو ذا تستخدمني و تمشيني على قمّة رأسي ، فلقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك فتنحّ عنّي وسل من قهرني فقال : صدقت ثمّ سأل اليد عن ظلمها على القلم واستخدامها له وتعدّيها عليه فقال اليد : ما أنا إلّا لحمٌ وعظمٌ و دمٌ وهل رأيت لحماً أوجسماً يتحرّك بنفسه إنّما أنا مركب مسخّر ركبني فارسٌ يقال له القدرة والقوّة ، وهي الّتي تردّدني و تجول بي في نواحي الأرض ، أمّا ترى المدر والحجر و الشجر لا يتعدّى شيء منها مكانه و لا يتحرّك بنفسه إذ لم يركبها مثل هذا الفارس القويّ القاهر ، أما ترى أيدي الموتى تساويني في صورة اللّحم و العظم والدّم ، ثمّ لا معاملة بينها وبين القلم فأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم ، فسل القدرة عن شأني فإنّي مركب أزعجني من ركبني ، فقال : صدقت ثمّ سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد و استخدامها و كثرة ترديدها لها ، فقالت : دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم و كم من ملوم لا ذنب له ، و كيف خفي عليك أمري أو كيف ظننت أنّي ظلمت اليد لما ركبتها ولقد كنت راكباً إيّاها قبل التحريك وما كنت اُحرّكها ولا أستسخرها بل كنت نائماً ساكناً نوماً حتّى ظنّ ظانّون بي أنّي ميتة أو معدومة لأنّي ما كنت أتحرّك ولا اُحرّك حتّى جاءني موكّل

ازعجني وارهقني[١] إلى ما تراه مني ، فكانت لي قوّة على مساعدته ولم يكن لي قوّة على مخالفته وهذا الموكّل يسمّى الإرادة ولا أعرفه إلّا باسمه وبهجومه وصياله[٢] إذ ازعجني من غمرة النوم و أرهقني إلى ماكان لي مندوحة عنه لو خلاني ورائي فقال : صدقت ثمّ سأل الإرادة ما الّذي حداك على هذه القدرة الساكنة المطمئنّة حتّى صرفتها إلى التحريك وأرهقتها إليه إرهاقاً لم تجد عنه مخلصاً ومناصاً ، فقالت الإرادة لا تعجل عليّ فلعلّ لنا عذراً وأنت تلوم فإنّي ما انتهضت بنفسي ولكنّي اُنهضت وما انبعثت ولكنّي بعثت بحكم قاهر وأمر جازم فقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد عليّ من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطرار فإنّي مسكين مسخّر تحت قهر العلم و العقل و لا أدري بأيّ جرم وقفت عليه وسخّرت له وألزمت طاعته لكنّي أدري أنّي في دعة وسكون مالم يرد عليّ هذا الوارد القاهر و هذا الحاكم العادل أو الظالم و قد وقفت عليه وقفاً و ألزمت طاعته إلزاماً بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة في المخالفة لعمري مادام هو في التردّد على نفسه والتحيّر في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه ، فإذا انجزم حكمه ازعجت بطبع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة ليقوم بموجب حكمه ، فسل العلم عن شأني ودع عنّي عتابك فإنّي كما قيل :

متى ترحّلت عن قوم وقد قدروا ☼ ألّا تفارقهم فالرّاحلون هم

فقال : صدقت ، وأقبل على العلم و العقل و القلب مطالباً ومعاتباً إيّاهم على استنهاض الإرادة و ترشيحها لإشخاص القدرة فقال العقل له : أمّا أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكنّي اشعلت ، وقال القلب : أمّا أنا فلوح ما انبسطت بنفسي ولكنّي بسطت ، وقال العلم : إنّما أنا نقش نقشت في بياض لوح القلب لمّا أشرق سراج العقل و ما انخططت بنفسي ولكنّي خططت ، فكم كان هذا اللّوح قبلي خالياً عنّي فسل القلم عنّي فإنّ الخطّ لا يكون إلّا بالقلم فعند هذا تتعتع السائل[٣] و لم يقنعه

(١) أرهقه اثماً : كلفه اياه وأرهقه أى حمله مالا يطيق .
(٢) صال عليه يصول صيالا : سطا عليه وقهره .
(٣) تعتع فى الكلام تردد فيه من حصر أوعى .

جوابه ، وقال : قدطال تعبي في هذا الطريق و كثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ، ولكنّي كنت أطيب نفساً بكثرة التّرداد لما كنت أسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال ، فأمّا قولك فانّي خطٌّ ونقشٌ وإنّما خطّني قلمٌ فلست أفهمه فانّي لا أعلم قلماً إلّا من القصب و لا لوحاً إلّا من الحديد أو الخشب ولا خطّاً إلّا بالحبر ولا سراجاً إلّا من النار ، و إنّي أسمع في هذا المنزل حديث اللّوح والسراج و الخطّ والقلم ولا اُشاهد من ذلك شيئاً أسمع جعجعة و لا أرى طحناً ، فقال له العلم : صدقت فيما قلت فبضاعتك مزجاة و زادك قليل ومركبك ضعيف والمهالك في الطريق الّذي توجّهت إليه كثيرة فالصواب لك أن تنصرف و تدع ما أنت فيه فماهذا بعشّك (١) فأدرج عنه فكلٌّ ميسّرٌ لما خلق له . وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصود فألق سمعك وأنت شهيد :

و اعلم أنّ العوالم في طريقك هذا ثلاثة عالم الملك و الشهادة أوّلها و لقد كان الكاغذ و الحبر والقلم و اليد من هذا العالم و قد جاوزت تلك المنازل على سهولة ، و الثاني عالم الملكوت وهو ورائي فإذا جاوزتني انتهيت إلى منازله و فيها المهامه(٢) الفسيحة والجبال الشاهقة والبحار المغرقة ولا أدري كيف تسلم فيها ، والثالث عالم الجبروت و هو بين عالم الملك و عالم الملكوت و لقد قطعت منها ثلاثة منازل إذ في أوائلها منزل القدرة و الإرادة و العلم و هو واسطة بين عالم الملك و الملكوت لأنّ عالم الملك أسهل منه طريقاً و عالم الملكوت أوعر منه منهجاً و إنّما عالم الجبروت بين عالم الملك و عالم الملكوت يشبه السفينة الّتي بين الأرض و الماء فلا هي في حدّ اضطراب الماء ولا هو في حدّ سكون الأرض وثباته و كلٌّ من يمشي على الأرض يمشي في عالم الملك و الشهادة فان جاوزت قوّته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة كان كمن يمشي في عالم الملكوت من غير تكعكع(٣) فإن كنت

(١) العش - بضم العين و تشديد الشين المعجمة - موضع الطائر .

(٢) المهمه : المفازة البعيدة . (٣) تكعكع : احتبس عن وجهه أو جبن .

لاتقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض و خلّفت السفينة ولم يبق بين يديك إلّا الماء الصافي ، و أوّل عالم الملكوت مشاهدة القلم الّتي يكتب به العلم و حصول اليقين الّذي يمشي به على الماء ، أما سمعت قول رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في عيسى عليه السلام « لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء » لمّا قيل له : إنّه كان يمشي على الماء (١) فقال السائل السالك : قد تحيّرت في أمري و استشعر قلبي خوفاً ممّا وصفته من خطر الطريق ولست أدري اُطيق قطع هذه المهامه الّتي وصفتها أم لا ، فهل لذلك من علامة ؟ فقال : نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينك وحدّقه نحوي فإن ظهر لك القلم الّذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلاً لهذا الطريق ، فإنّ كلّ من جاوز عالم الجبروت و قرع أوّل باب من أبواب الملكوت كوشف بالقلم ، أما ترى أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في أوّل مرّة كوشف بالقلم إذا نزل عليه قوله تعالى : «اقرأ باسم ربّك الّذي خلق - إلى قوله - اقرأ وربّك الأكرم ۞ الّذي علّم بالقلم ۞ علّم الإنسان مالم يعلم » (٢) فقال السالك : لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قصباً و لا خشباً ولاأعلم قلماً إلّا كذلك، فقال العلم : لقد أبعدت النجعة(٣) أماسمعت أنّ متاع البيت يشبه ربّ البيت أما علمت أنّ الله تعالى لايشبه ذاته سائر الذّوات فكذلك لايشبه يده سائر الأيدي ولاقلمه سائر الأقلام ولاخطّه سائر الخطوط وهذه اُمور إلهيّة من عالم الملكوت فليس الله في ذاته بجسم ، ولاهو في مكان بخلاف غيره ، ولا يده لحمٌ وعظمٌ ودمٌ بخلاف الأيدي ، ولاقلمه من قصب ، و لالوحه من خشب ، ولا كلامه بصوت وحرف ، ولاخطّه رقم ورسم ، ولا حبره زاج وعفص ، فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلّا مخنّثاً بين فحولة التنزيه و اُنوثة التشبيه مذبذباً بين هذا وذاك لا إلى هؤلاء و لا إلى هؤلاء ، فكيف نزّهت ذاته تعالى و صفاته عن ذوات الأجسام وصفاتها ونزّهت كلامه عن معاني الحروف و الأصوات وأخذت تتوقّف في يده و قلمه و لوحه و خطّه فإن كنت قد فهمت من قوله : « إنّ الله خلق آدم على

---

(١) تقدم سابقاً . (٢) العلق : ٢ الى ٦ .

(٣) النجعة طلب الكلام فى موضعه .

صورته»[١] الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبهياً مطلقاً كما يقال كن يهودياً صرفاً و إلّا فلا تلعب بالتورية ، و إن فهمت منه الصورة الباطنة الّتي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزّهاً صرفاً ومقدّساً فحلاً واطو الطريق فإنّك بالواد المقدّس طوى ، و استمع بسرّ قلبك لما يوحى فلعلّك تجد على النار هدى ولعلّك من سرادقات العزّة تنادى بما نودي به موسى إنّي أنا ربّك الأعلى ، فلمّا سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه و أنّه مخنث بين التشبيه والتنزيه فاشتعل قلبه ناراً من حدّة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص ولقد كاد زيتة الّذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار ، فلمّا نفخ فيه العلم بحدّته اشتعل زينة فأصبح نوراً على نور ، فقال له العلم : اغتنم الآن هذه الفرصة و افتح بصرك فلعلّك تجد على النار هدى ، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهيّ وإذا هو كما وصفه العلم في التنزيه وما هو من خشب و لا قصب ولا رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدّوام في قلوب البشر كلّهم أصناف العلوم وكان له في كلّ قلب رأس ولا رأس له فقضى منه العجب وقال : نعم الرّفيق العلم جزاه الله عنّي خيراً إذا الآن ظهر لي صدق إنبائه عن أوصاف القلم فإنّي أراه قلماً لا كالأقلام ، فعند هذا ودّع العلم وشكره وقال : قد طال مقامي عندك و مراودتي لك وأنا عازم على أن اُسافر إلى حضرة القلم فأساله عن شأنه ، وسافر إليه وقال : أيّها القلم مالك تخطّ على الدّوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادات إلى اشخاص القدرة و صرفها إلى المقدورات فقال : أفنسيت ما رأيت في عالم الملك و الشهادة و سمعته من جواب القلم إذ سألته فأحالك على اليد قال : لم أنس ذلك ، قال : فجوابي مثل جوابه ، قال : كيف و أنت لا تشبهه قال القلم : أمّا سمعت « إنّ الله تعالى خلق آدم على صورته » قال : نعم ؟ قال : فسل عن شأني الملقّب بيمين الملك فإنّي في قبضته هو الّذي يردّدني و أنا مقهور مسخّر فلا فرق بين القلم الإلهيّ وقلم الآدمي في معني التسخير وإنّما الفرق في ظاهر الصورة فقال : ومن يمين الملك قال : أما سمعت قوله تعالى « والسموات مطويّات بيمينه »[٢] قال : نعم قال فالأقلام أيضاً في قبضته هو الّذي يردّدها فسافر

---

(١) تقدم سابقاً.

(٢) الزمر : ٦٧.

السالك من عنده إلى اليمين حتّى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوي مجلّدات كثيرة عشر عشير وصفه والجملة فيه أنّه يمين لا كالأيمان، ويدٌ لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع، فرأى القلم محرّكاً في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم، فقال جوابي مثل ما سمعته من اليمين الّتي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة إذ اليد حكم لها في نفسها وإنّما محرّكها القدرة لا محالة فسافر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر عندها ما قبلها وسألها عن تحريك اليمين فقال: إنّما أنا صفة فسل القادر إذ العهدة على الموصوفات لا على الصفات وعند هذا كاد يزيغ قلبه وينطق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة «لا يسئل عمّا يفعل وهم يسئلون» فغشيته دهشة الحضرة فخرّ صعقاً يضطرب في غشيته مدّة فلمّا أفاق قال: سبحانك ما أعظم شأنك وأعزّ سلطانك تبت إليك وتوكّلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبّار الواحد القهّار، فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلّا بعفوك من عقابك وبرضاك من سخطك، ومالي إلّا أن أسألك وأتضرّع إليك وأبتهل بين يديك فأقول: اشرح صدري لأعرفك، واحلل عقدة من لساني لأثني عليك فنودي من وراء الحجاب إيّاك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيّد الأنبياء بل ارجع إليه فما آتاك فخذه وما نهاك عنه فانته؛ وما قاله فقله فانّه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال: «سبحانك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» [1] فقال: إلهي إن لم يكن للّسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك؟ فنودي إيّاك أن تتخطّى رقاب الصدّيقين أما سمعتهم يقولون: العجز عن درك الإدراك إدراك، فيكفيك نصيباً من حضرتنا أن تعرف أنّك محروم عن حضرتنا، عاجزٌ عن ملاحظة جمالنا وجلالنا، فعند هذا رجع السائل السالك واعتذر عن أسولته ومعاتبته وقال لليمين والقلم والعلم والإرادة والقدرة وما بعده: أقبلوا

(١) كان من دعائه صلى الله عليه وآله «لا أحصي ثناء عليك أنت كما اثنيت على نفسك» وقد تقدم غير مرة من الترمذي وابن ماجه وغيره.

عذري فانّي كنت غريباً حديث العهد بالدّخول في هذه البلاد ولكلّ داخل دهشة فما كان إنكاري عليكم إلّا عن قصور وجهل والآن قد صحّ عندي عذركم وانكشف لي أنّ المتفرّد بالملك والملكوت والعزّة والجبروت هو الواحد القهّار ، فما أنتم إلّا مسخّرون تحت قهره مردّدون في قبضته وهو الأوّل والآخر و الظاهر والباطن ، فلمّا قال ذلك في عالم الشهادة استبعد ذلك منه وقيل : كيف يكون هو الأوّل والآخر وهما متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن والأوّل ليس بآخر و الظاهر ليس بباطن فقال هو الأوّل بالاضافة إلى الوجود إذ صدر منه الكلّ على ترتيبه واحداً بعد واحد ، و هو الآخر بالاضافة إلى سير السائرين إليه فانّهم لا يزالون مترقّين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر في المشاهدة أوّل في الوجود وهو باطن بالاضافة إلى العاكفين في عالم الشهادة الطالبين لإدراكه بالحواسّ الخمس ، ظاهر بالاضافة إلى من يطلبه بالسراج الّذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم الملكوت فهذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في الفعل أعني من انكشف له أنّ الفاعل واحد .

فان قلت : لقد انتهى هذا التوحيد إلى أنّه يبتني على الايمان بعالم الملكوت فمن لا يفهم ذلك أو يجحده فما طريقه ؟

فأقول : أمّا الجاحد فلا علاج له إلّا أن يقال له : إنكارك لعالم الملكوت كإنكار السمنيّة لعالم الجبروت و هم الّذين حصروا العلوم في الحواسّ الخمس فأنكروا القدرة و الإرادة والعلم لأنّها لا تدرك بالحواسّ الخمس ، و لازموا حضيض عالم الشهادة ، فإن قال : وأنا منهم فإنّي لا أهتدي إلّا إلى عالم الشهادة بالحواسّ الخمس و لا أعلم شيئاً سواه ، فيقال : إنكارك لما شاهدنا ممّا وراء الحواسّ الخمس كإنكار السوفسطائيّة للحواسّ الخمس فإنّهم قالوا ما نراه لا نثق به فلعلّنا نراه في المنام فإن قال : وأنا من جملتهم فإنّي شاكّ أيضاً في المحسوسات فيقال : هذا شخص فسد مزاجه و امتنع علاجه فيترك ، فلا كلّ مريض يقوى على علاجه الأطبّاء هذا حكم الجاحد ، و أمّا الّذي لا يجحد و لكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه الّتي

بها يشاهدعالم الملكوت فإن وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسوديقبل التنقية اشتغلوا بتنقيته اشتغال الكحّال بالأبصار الظاهرة ، فإذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكه كما فعل ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بخواصّ أصحابه ، و إن كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك السبيل الّذي ذكرناه في التوحيد ، ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرّات الملك والملكوت بمشاهدة التوحيد كلّموه بحرف و صوت و ردّوا ذروة التوحيد إلى حضيض فهمه فإنّ في عالم الشهادة أيضاً توحيداً إذ يعلم كلّ أحد أنّ المنزل يفسد بصاحبين والبلد يفسد بأميرين فيقال له على حدّ عقله : إله العالم واحد والمدبّر واحد إذ «لو كان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا» فيكون ذلك على ذوق ما رآه في عالم الشهادة فينغرس اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللّائق بقدر عقله وقد كلّف الله الأنبياء أن يكلّموا الناس على قدر عقولهم[1] ولذلك نزل القرآن بلسان العرب وعلى حدّ عادتهم في المحاورة .

فإن قلت : فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عماداً للتوكّل و أصلاً فيه ؟

فأقول : نعم فإنّ الاعتقاد إذا قوي عمل عمل الكشف في إثارة الأحوال إلّا أنّه في الغالب يضعف و يتسارع إليه الاضطراب و التزلزل غالباً و لذلك يحتاج صاحبه إلى متكلّم يحرسه بكلامه أو إلى من يتعلّم هذا الكلام منه ليحرس به العقيدة الّتي تلقّنها من استاده أو من أبويه أو من أهل بلده و أمّا الّذي يشاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شيئاً من ذلك بل لو كشف الغطاء لما ازداد يقيناً و إن كان يزداد وضوحاً كما أنّ الّذي يرى إنساناً في وقت الاسفار لا يزداد يقيناً عند طلوع الشمس بأنّه إنسان ولكن يزداد وضوحاً في تفصيل خلقته وما مثال المكاشفين والمعتقدين إلّا كسحرة فرعون مع أصحاب السامريّ فإنّ سحرة فرعون لمّا أن كانوا مطّلعين على منتهى تأثير السحر لطول

---

(١) روى الكلينى فى الكافى ج ١ ص ٢٣ والبرقى فى المحاسن و غير واحد من أرباب السنن من الجمهور عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال : «نحن معاشر الانبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

مشاهدتهم وتجربتهم فرأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر انكشفت لهم حقيقة الأمر فلم يكترثوا بقول فرعون «فلأُقطّعنّ أيديكم وأرجلكم» بل «قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيّنات والّذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنّما تقضي هذه الحياة الدُّنيا إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا» [1] فإنّ البيان و الكشف يمنع التغيير وأمّا أصحاب السامريّ لمّا كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان فلمّا نظروا إلى عجل السامري وسمعوا خواره تغيّروا وسمعوا قوله «هذا إلهكم وإله موسى فنسي» [2] أنّه لا يرجع إليهم قولاً و لا يملك لهم ضرّاً و لا نفعاً فكلّ من آمن بالنظر إلى ثعبان فيكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل لأنّ كليهما من عالم الشهادة و الاختلاف والتضادّ في عالم الشهادة كثير ، و أمّا عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فلذلك لا تجد فيه اختلافاً وتناقضاً أصلاً .

فإن قلت : ما ذكرته من التوحيد ظاهرٌ مهما ثبت أنّ الوسائط والأسباب مسخّرات و كلّ ذلك ظاهر إلّا في حركات الإنسان فإنّه يتحرّك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخّراً ؟

فاعلم أنّه لو كان مع هذا يشاء إن شاء ولا يشاء إن لم يشأ لكان هذا مزلّة القدم و موقع الغلط ولكن علمت أنّه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشاء أم لم يشأ فليست المشيّة إليه ، إذ لو كانت إليه لافتقرت إلى مشيّة أُخرى ويتسلسل إلى غير نهاية ، و إذا لم تكن المشيّة إليه و وجدت المشيّة الّتي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة و لم يكن لها سبيل إلى المخالفة ، فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة و القدرة متحرّكة ضرورة عند انجزام المشيّة والمشيّة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات مرتّبة بعضها على بعض ، و ليس للعبد أن يدفع وجود المشيّة و لا انصراف القدرة إلى المقدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيّة للقدرة فهو مضطرٌ في الجميع

فإن قلت : فهذا جبرٌ محضٌ و الجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبوراً مختاراً ؟

---

(١) طه : ٧١ و ٧٣ . (٢) طه : ٨٨ .

فأقول لو انكشف لك الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار و كيف يفهم هذا من لم يفهم الاختيار فلنشرح الاختيار بلسان المتكلمين شرحاً وجيزاً يليق بما نذكر متطفلاً و تابعاً فإن هذا الكتاب لم يقصد به إلا علم المعاملة ولكني أقول : لفظ الفعل في الإنسان يطلق على ثلاثة أوجه إذ يقال الإنسان يكتب بالأصبع ويتنفس بالرية والحنجرة ويخرق الماء إذا وقف عليه بجسمه فينسب إليه الخرق في الماء والتنفس والكتابة و هذه الثلاثة في حقيقة الاضطرار و الجبر واحد ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها بثلاث عبارات فنسمي خرقه للماء عند وقوعه على وجهه فعلاً طبيعياً ، ونسمي تنفسه فعلاً إرادياً ، ونسمي كتابته فعلاً اختيارياً والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو تخطى من السطح في الهواء انخرق لا محالة فيكون الخرق بعد التخطي ضرورياً والتنفس في معناه فإن نسبة حركة الحنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انخراق الماء إلى ثقل البدن فمهما كان الثقل موجوداً وجد الانخراق بعده وليس الثقل إليه فكذلك مهما وجدت إرادة التنفس وجدت بعدها حركة الحنجرة بالضرورة فكذلك الإرادة ليست إليه و لذلك لو قصد عين إنسان بإبرة طبق الأجفان اضطراراً و لو أراد أن يتركها مفتوحة لا يقدر مع أن تغميض الأجفان اضطراراً فعل إرادي ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالإدراك حدثت الإرادة بالتغميض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك التغميض لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة و الإرادة فقد التحق بالفعل الطبيعي في كونه ضرورياً ، وأما الثالث وهو الاختياري فهو مظنة الالتباس كالكتابة و النطق وهو الذي يقال فيه : إن شاء فعل و إن لم يشأ لم يفعل و تارة يشاء و تارة لا يشاء فيظن من هذا أن الأمر إليه وهو الجهل بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، وبيانه أن الإرادة تبع للعلم الذي يحكم بأن الشيء موافق لك و الأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير و تردد وإلى ما قد يتردد العقل فيه ، فالذي تقطع به من غير تردد أن تقصد عينك مثلاً بإبرة أو بدنك بسيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك و موافق فلا جرم تنبعث

الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة وتحصل حركة الأجفان بالدّفع وحركة اليد بدفع السيف و ذلك من غير رويّة وفكرة ويكون ذلك بالإرادة ، ومن الأشياء ما يتوقّف التمييز و العقل فيه فلا يدرى أنّه موافق أم لا فيحتاج إلى رويّة وفكر حتّى يتبيّن أنّ الخير في الفعل أو الترك فإذا حصل بالفكر و الرويّة العلم بأنّ أحدهما خير التحق ذلك بالّذي يقطع به من غير رويّة وفكر وانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعث لدفع السيف والإبرة ، فإذا انبعثت لفعل ماظهر للعقل أنّه خيرٌ سمّيت هذه الإرادة إختياراً مشتقاً من الخير أي هو انبعاث إلى ماظهر للعقل أنّه خيرٌ وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعاثها إلّا ما انتظرت في انبعاث تلك الإرادة و هو ظهور خيريّة الفعل في حقّه إلّا أنّ الخيريّة في دفع السيف ظهرت من غير رويّة بل على البديهة وهذا افتقر إلى الرويّة فالاختيار عبارة عن إرادة خاصّة وهي الّتي انبعثت بإشارة العقل فيما له في إدراكه توقّف ، وعن هذا قيل : العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشرّ الشرّين ولايتصوّر أن تنبعث الإرادة إلّا بحكم الحسّ والخيال أو بحكم جزم من العقل ، ولذلك لو أراد الإنسان أن يجزّ رقبة نفسه لم يمكنه ذلك لالعدم القدرة في اليد ولالعدم السكّين ولكن لفقد الإرادة الدّاعية المشخّصة للقدرة ، وإنّما فقدت الإرادة لأنّها تنبعث بحكم العقل أو الحسّ بكون الفعل موافقاً و قتله نفسه ليس موافقاً له فلايمكنه مع قوّة الأعضاء أن يقتل نفسه إلّا إذا كان في عقوبة مؤلمة لاتطاق فإنّ العقل ههنا يتوقّف في الحكم ويتردّد لأنّه يتردّد بين شرّ الشرّين فإن ترجّح له بعد الرّويّة أنّ ترك القتل أقلّ شرّاً لم يمكنه قتل نفسه و إن حكم بأنّ القتل أقلّ شرّاً وكان حكمه جزماً لاميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالّذي يتبع بالسيف ليقتل فإنّه يرمي بنفسه من السطح و إن كان مهلكاً و لا يبالي ولايمكنه أن يرمي نفسه و إن كان يتبع بضرب خفيف ، فإذا انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأنّ الضرب أهون من الرّمي فوقفت أعضاؤه فلايمكنه أن يرمي نفسه ولا تنبعث داعية البتّة لأنّ داعية الإرادة مسخّرة لحكم العقل ، و الحسّ والقدرة مسخّرة للدّاعية ، والحركة مسخّرة للقدرة ، والكلّ مقدّر بالضرورة فيه

من حيث لا يدري فإنّما هو محلّ و مجرى لهذه الأمور ، فأمّا أن يكون منه فكلاّ و لا ، فإذن معنى كونه مجبوراً أنّ جميع ذلك حاصل فيه من غيره لا منه ومعنى كونه مختاراً أنّه محلّ لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً و حدث الحكم أيضاً جبراً ، فإذن هو مجبور على الاختيار ففعل النار في الإحراق مثلاً جبر محض وفعل الله اختيار محض و فعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنّه جبر على الاختيار وليس مناقضاً للجبر و لا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه ويسمّى فعل الله اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تحيّر وتردّد فإنّ ذلك في حقّه محال وجميع الألفاظ المذكورة في اللّغات لا يمكن أن يستعجل في حقّ الله إلّا على نوع من الاستعارة و التجوّز ، وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم ويطول القول فيه .

فإن قلت : فهل تقول : إنّ العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وإنّ كلّ متأخّر حدث المتقدّم فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لا من قدرة الله و إن أبيت ذلك فما معنى ترتّب البعض من هذا على البعض ؟.

فاعلم أنّ القول بأنّ بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبّر عنه بالتولّد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المعنى الّذي يعبّر عنه بالقدرة الأزليّة وهو الأصل الّذي لم يقف عليه كافّة الخلق إلّا الرّاسخون في العلم فإنّهم وقفوا على كنه معناه والكافّة وقفوا على مجرّد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحقّ وبيان ذلك يطول ولكن بعض المقدورات مترتّب على البعض في الحدوث ترتّب المشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزليّة إرادة إلّا بعد علم ولا علم إلّا بعد حياة ولا حياة إلّا بعد محلّ الحياة ، وكما لا يجوز أن يقال : الحياة حصلت من الجسم الّذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ممّا ظهر للعامّة وبعضها لم يظهر إلّا للخواصّ المكاشفين بنور الحقّ و إلّا فلا يتقدّم متقدّم ولا يتأخّر متأخّر إلّا بالحقّ واللّزوم وكذلك جميع أفعال الله ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علوّاً كبيراً ، و إلى هذا أشار قوله تعالى : « وما خلقنا السّماوات والأرض وما بينهما لاعبين ✽ ما خلقناهما إلّا بالحقّ

ولكنّ أكثرهم لايعلمون»[١] فكلّ مابين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحقّ لازم ولا يتصوّر أن يكون إلّا كما حدث على الترتيب الّذي وجد فما تأخّر متأخّر إلّا بانتظار شرطه والمشروط قبل الشرط محال والمحال لايوصف بكونه مقدوراً ، فلا يتأخّر العلم عن النطفة إلّا لفقد شرط الحياة ، ولاتتأخّر عنها الإرادة بعد الحياة[٢] إلّا لفقد شرطها وهو العلم ، وكلّ ذلك على منهاج الواجب وترتيب الحقّ ليس في شيء من ذلك لعب واتّفاق بل كلّ ذلك بحكمة وتقدير ، وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فإنّ مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فإنّ الفاعل بالحقيقة واحد فهو المخوف والمرجوّ عليه التوكّل والاعتماد ، ولم نقدر على أن نذكر من بحار التوحيد إلّا قطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستنقاء ماء البحر بأخذ القطرات عنه وكلّ ذلك ينطوي تحت قولك لا إله إلّا الله ؛ وما أخفّ مؤونته على اللّسان ، وما أسهل اعتقاد مفهوم لفظه على القلب ، وما أعزّ حقيقته ولبّه عند العلماء الرّاسخين فكيف عند غيرهم .

فإن قلت : كيف الجمع بين التّوحيد والشرع ومعنى التوحد أن لا فاعل إلّا الله ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله فاعلاً وإن كان الله فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً ومفعول بين فاعلين غير مفهوم ؟ فأقول : نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم مجملاً مردّداً بينهما لم يتناقض كما يقال : قتل الأمير فلاناً ويقال : قتله الجلّاد ولكنّ الأمير قاتل بمعنى والجلّاد بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى والله تعالى فاعل بمعنى آخر فمعنى كون الله فاعلاً أنّه المخترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلاً أنّه المحلّ الّذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق الله فيه العلم فارتبطت القدرة والإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط وارتبط بقدرة الله إرتباط

(١) الدخان : ٣٨ و ٣٦ .
(٢) في الاحياء « بعد العلم » .

المعلول بالعلّة وارتباط المخترع بالمخترع ، و كلّ ماله ارتباط بقدرة فإنّ محلّ القدرة يسمّى فاعلاً له كيف ما كان الارتباط كما يسمّى الجلّاد قاتلاً و الأمير قاتلاً لأنّ القتل ارتبط بقدرتهما، ولكن على وجهين مختلفين فلذلك يسمّى فعلاً لهما فكذلك ارتباط المقدور بين القدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله الأفعال في القرآن مرّة إلى الملائكة ومرّة إلى العباد ونسبها بعينها مرّة اُخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت : « قل يتوفّيكم ملك الموت الّذي وكّل بكم »[١] ثمّ قال : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها »[٢] وقال : « أفرأيتم ماتحرثون ۞ أأنتم تزرعونه »[٣] أضاف إلينا ثمّ قال : « أنّا صببنا الماء صبّاً ۞ ثمّ شققنا الأرض شقّاً ۞ فأنبتنا فيها حبّاً وعنباً »[٤] وقال : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشراً سويّاً »[٥] ثمّ قال: « فنفخنا فيها من روحنا »[٦] وكان النافخ جبرئيل و كما قال تعالى : « فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه »[٧] قيل في التفسير معناه فإذا قرأ عليك جبرئيل . وقال تعالى : « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم »[٨] فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرّح وقال : « فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى »[٩] وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهراً ولكن معناه و ما رميت بالمعنى الّذي يكون به الرّبّ رامياً إذ رميت بالمعنى الّذي يكون العبد به رامياً إذهما معنيان مختلفان و قال تعالى : « الّذي علّم بالقلم علّم الإنسان مالم يعلم »[١٠] ثمّ قال: « الرّحمن ۞ علّم القرآن »[١١] وقال: « علّمه البيان »[١٢] وقال : « إنّ علينا جمعه وقرآنه - إلى قوله - بيانه » وقال تعالى : « أفرأيتم ما تمنون ۞ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون »[١٣] ثمّ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في وصف ملك الأرحام

---

(١) السجدة : ١١ .
(٢) الزمر : ٤٢ .
(٣) الواقعة : ٦٤ و ٦٥ .
(٤) عبس : ٢٥ الى ٢٨ .
(٥) مريم : ١٨ .
(٦) الانبياء : ٩١ .
(٧) القيامة : ٢٠ .
(٨) التوبة : ١٤ .
(٩) الانفال : ١٧ .
(١٠) العلق : ٤ و ٥ .
(١١) الرحمن : ١ و ٢.
(١٢) الرحمن : ٤.
(١٣) الواقعة : ٥٩ و ٦٠.

«إنّه يدخل الرّحم فيأخذ النطفة في يده ثمّ يصوّرها جسداً فيقول : يا ربّ أذكر أم أُنثى أسويّ أم معوج فيقول الله ماشاء ويخلق الملك»[1] وفي لفظ آخر «ويصوّر الملك ثمّ ينفخ فيها الرّوح بالسعادة أو بالشقاوة» وقد قال بعض السلف: إنّ الملك الّذي يقال له الرّوح هو الّذي يولج الأرواح في الأجسام وأنّه يتنفّس بوصفه فيكون كلّ نفس من أنفاسه روحاً يلج في جسم ولذلك سمّي روحاً ، وما ذكره من مثل هذا الملك وصفته فهو حقّ شاهده أرباب القلوب ببصائرهم فأمّا كون الرّوح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلّا بالنقل ، والحكم به دون النقل تخمين مجرّد و كذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلّة والآيات في الأرض والسماوات ثمّ قال : «أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد» [2] و قال : « شهد الله أنّه لا إله إلّا هو »[3] فبيّن أنّه الدّليل على نفسه وذلك ليس بمتناقض بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله بالنظر إلى الموجودات و كم من طالب عرف الموجودات بالله كما قال بعضهم: عرفت ربّي بربّي ولولا ربّي لما عرفت ربّي. وهو معنى قوله : « أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد» و قد وصف الله نفسه بأنّه المحيي والمميت وفوّض الموت والحياة إلى ملكين ففي الخبر «إنّ ملك الموت وملك الحياة تناظرا ، فقال ملك الموت: أنا أُميت الأحياء وقال ملك الأحياء : أنا أُحيي الموتى فأوحى إليهما كونا على عملكما وماسخّرتكما له من الصنع وإنّما أنا المميت و المحيي لا مميت ولا محيي سواي» فإذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت ، و لذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم للّذي ناوله التمرة: «خذها ولم تأتها لأتتك»[4] أضاف الإتيان إليه وإلى التمرة ومعلوم أنّ التمرة لا تأتي على الوجه الّذي يأتي الإنسان إليها و كذلك لمّا قال التائب أتوب إلى الله تعالى و لا أتوب إلى محمّد فقال عليه السلام: «عرف الحقّ لأهله»[5] فكلّ من أضاف الكلّ إلى الله

---

(١) أخرجه البزار وابن عدى من حديث عائشة كما فى المغنى .

(٢) فصلت : ٥٣ . (٣) آل عمران : ١٨ .

(٤) أخرجه ابن حبان فى كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصله الطبرانى عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح (المغنى) .

(٥) أخرجه أحمد والطبرانى من حديث الاسود بن السريع بسند ضعيف .

تعالى فهو المحقّق الّذي عرف الحقّ والحقيقة لأهله ومن أضافه إلى غيره فهو المتجوّز المستعير في كلامه و للتجوّز وجه كما أنّ للحقيقة وجهاً واسم الفاعل وضعه واضع اللّغة للمخترع ، ولكن ظنّ أنّ الإنسان مخترع بقدرته فسمّاه فاعلاً بحركته ، وظنّ أنّه تحقيق وتوهّم أن نسبته إلى الله على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فإنّه مجاز بالإضافة إلى نسبته إلى الجلّاد فلمّا انكشف الحقّ لأهله عرفوا أنّ الأمر بالعكس و قالوا إن كان الفاعل قد وضعته أيّها اللّغوي للمخترع فلا فاعل إلّا الله فالاسم له بالحقيقة ولغيره بالمجاز أي تتجوّز به عمّا وضعه اللّغوي له . و لما جرى حقيقة المعنى على لسان بعض الأعراب قصداً و اتّفاقاً صدّقه رسول الله صلّى الله عليه و آله و قال عليه السلام : أصدق بيت قاله شاعر قول لبيد : « ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل » (١) أي كلّ مالا قوام له في نفسه و إنّما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإنّما حقّيته وحقيقته بغيره لا بنفسه فإذن لا حقّ بالحقيقة إلّا الحيّ القيّوم الّذي ليس كمثله شيء و هو السميع البصير فإنّه قائم بذاته و كلّ ما سواه قائم بقدرته فهو الحق و ماسواه باطل ، ولذلك قال سهل : يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلمّا كنت اليوم صرت تقول : أنا وأنا ، كن الآن كما لم تكن فإنّه اليوم كما كان .

فإن قلت: فقد ظهر الآن أنّ الكلّ جبر فما معنى الثواب والعقاب والغضب والرّضا وكيف غضبه على فعل نفسه ؟ فاعلم أنّ معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلا نطول بإعادته، فهذا هو القدر الّذي رأينا الرّمز إليه من التوحيد الّذي يورث حال التوكّل ولايتمّ هذا إلّا بالإيمان بالرّحمة و الحكمة ، فإنّ التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب ، والإيمان بالرّحمة وسعتها هو الّذي يورث الثقة بمسبّب الأسباب ولايتمّ حال التوكّل كما سيأتي إلّا بالثقة بالوكيل و طمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل ، وهذا أيضاً باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه طويلة فلنذكر حاصله ليعتقده الطالب لمقام التوكّل اعتقاداً قاطعاً لا يستريب فيه و هو أن

(١) راجع صحيح مسلم ج ٧ ص ٤٩.

يصدّق تصديقاً يقينياً لاضعف فيه ، و لا ريب أنّ الله تعالى لو خلق الخلائق كلّهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم ، وخلق لهم من العلم ما تحتمله نفوسهم ، وأفاض عليهم من الحكمة مالا منتهى لوصفها ثمّ زاد مثل عدد جميعهم علماً وحكمة وعقلاً ثمّ كشف لهم عن عواقب الاُمور و أطلعهم على أسرار الملكوت و عرفهم دقائق اللّطف و خفايا العقوبات حتّى اطّلعوا على الخير و الشرّ و النفع و الضرّ، ثمّ أمرهم أن يدبّروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم و الحكم لما اقتضى تدبير جميعهم من التعاون و التظاهر عليه أن يزاد فيما دبّر الله سبحانه الخلق به في الدّنيا و الآخرة جناح بعوضة ، و لا أن ينقص منها جناح بعوضة ولا أن يرفع فيها ذرّة أو يخفض منها ذرّة ، ولا أن يدفع مرض أو عيب أو نقص أو فقر أو ضرّ عمّن بلي به و لا أن يزال صحّة أو جمال أو غنى أو نفع عمّن أنعم به عليه بل كلّ ماخلق الله تعالى من السماوات والأرض إذا رجعوا فيها البصر وطوّلوا فيها النظر ما رأوا فيها من تفاوت ولافطور ، و كلّ ما قسم الله بين عباده من رزق وأجل وسرور وفرح وهمّ وغمّ وعجز وقدرة وإيمان و كفر و طاعة و معصية فكلّه عدل محض لا جور فيه و حقّ صرف لا ظلم فيه ، بل هو على الترتيب الواجب الحقّ على ما ينبغي و كما ينبغي و بالقدر الّذي ينبغي و ليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتمّ ولا أكمل فلو كان و ادّخره مع القدرة ولم يفعله لكان بخلاً يناقض الجود وظلماً يناقض العدل ، ولو لم يكن قادراً لكان عجزاً يناقض الإلهيّة بل كلّ فقر وضرّ في الدّنيا فهو نقصان من الدّنيا وزيادة في الآخرة و كلّ نقص في الآخرة بالإضافة إلى شخص فهو نعيم بالإضافة إلى غيره إذ لولا اللّيل لما عرف النهار ، ولولا المرض لم يتنعّم الأصحّاء بالصحّة ، و لولا النار لم يعرف أهل الجنّة قدر النعمة فكما أنّ فداء أرواح الإنس بأرواح البهائم و تسليطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعمة على سكّان الجنان بتعظيم العقوبة على أهل النيران وفداء لأهل الإيمان بأهل الكفران عين العدل ومالم يخلق الناقص لايعرف الكامل ولولاخلق البهائم لما ظهرت شرف الإنس فإنّ الكمال و النقص جميعاً يظهر بالإضافة فمقتضى الجود و الحكمة خلق الكامل و الناقص

جميعاً و كما أنّ قطع اليد إذا تأكّلت إبقاء على الرّوح عدل لأنّه فداء كامل بناقص فكذا الأمر في التّفات الّذي بين الخلق في القسم في الدّنيا والآخرة فكلّ ذلك عدل لاجور فيه وحقّ لالعب فيه ، وهذا الآن بحر آخر عظيم واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أنّ ذلك غامض لا يعقله إلّا العالمون ، و وراء هذا البحر سرّ القدر الّذي تحيّر فيه الأكثرون و منع عن إفشاء سرّه المكاشفون ، والحاصل أنّ الخير والشرّ مقضيّ به وقد صار ما قضى الله به واجب الحصول بعدسبق المشيّة فلا رادّ لحكمه و لا معقّب لقضائه وأمره ، بل كلّ صغير و كبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولنقتصر على هذه المرامز من علوم المكاشفات الّتي هي اُصول مقام التوكّل ولنرجع إلى علم المعاملة

✡(الشطر الثاني من الكتاب في احوال التوكل واعماله)✡

وفيه بيان حال التوكّل ، وبيان ما قاله الشيوخ في حدّ التوكّل و بيان التوكّل في الكسب للمنفرد و المعيل ، وبيان التوكّل بترك الادّخار ، وبيان التوكّل في دفع المضارّ ، وبيان التوكّل في إزالة الضرر بالتداوي وغيره .

✡(بيان حال التوكل)✡

قد ذكرنا أنّ مقام التوكّل ينتظم من علم وحال وعمل ، وذكرنا العلم ، فأمّا الحال فالتوكّل بالتحقيق عبارة عنه و إنّما العلم أصله و العمل ثمرته و قد أكثر الخائضون في بيان حدّ التوكّل واختلفت عباراتهم و تكلّم كلّ واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه كماجرت عادة أهل التصوّف به ولافائدة في النقل والإكثار ولنكشف الغطاء عنه ، فنقول التوكّل مشتقّ من الوكالة يقال: وكل أمره إلى فلان أي فوّضه إليه و اعتمد عليه فيه ويسمّى الموكول إليه وكيلاً ويسمّى المفوّض إليه متّكلاً عليه ومتوكّلاً عليه مهما اطمأنّت نفسه إليه و وثق به ولم يتّهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً ، فالتوكّل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده و لنضرب

الوكيل في الخصومة مثلاً فنقول : من ادّعي عليه دعوى باطلة بتلبيس فوكّل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكّلاً عليه ولا واثق القلب مطمئنّ النفس بوكيله إلّا إذا اعتقد فيه أربعة أُمور : منتهى الهداية ، و منتهى القوّة ، و منتهى الفصاحة ، و منتهى الشفقة ، أمّا الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتّى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً ، و أمّا القدرة والقوّة فليستجرىء على التصريح بالحقّ فلا يداهن و لايخاف و لايستحيي ولا يجبن فإنّه ربّما يطّلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به ، وأمّا الفصاحة فهي أيضاً من القدرة إلّا أنّها قدرة في اللّسان على الإفصاح عن كلّ ما استجرأ القلب عليه و أشار إليه ، فلا كلّ عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حلّ عقدته ، وأمّا منتهى الشفقة فليكون باعثاً له على بذل كلّ ما يقدر عليه من المجهود في حقّه فإنّ قدرته لاتغني دون العناية به إذا كان لايهمّه أمره ولا يبالي به ظفر بخصمه أو لم يظفر ، هلك به حقّه أو لم يهلك ، فإن كان شاكّاً في هذه الأُمور الأربعة أو في واحدة منها أو جوّز أن يكون خصمه أكمل في هذه الأربعة منه لم تطمئنّ نفسه إلى وكيله بل بقي منزعج القلب مستغرق الهمّ بالحيلة و التدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت أحواله في شدّة الثقة و الطمأنينة بحسب تفاوت قوّة اعتقاده لهذه الخصال فيه والاعتقادات والظنون في القوّة والضعف تتفاوت تفاوتاً لاينحصر فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكّلين في قوّة الطمأنينة و الثقة تفاوتاً لاينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الّذي لاضعف فيه كما لو كان الوكيل والد الموكّل وهو الّذي يسعى لجمع الحلال والحرام من أجله فإنّه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعيّة و كذلك سائر الخصال يتصوّر أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنّه أفصح الناس لساناً و أقواهم بياناً و أقدرهم على نصرة الحقّ بل على تصوير الحقّ بالباطل والباطل بالحقّ ، فإذا عرفت التوكّل في هذا المثال فقس التوكّل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنّه لافاعل إلّا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم

والقدرة على كفاية العباد ، ثمّ تمام العطف والعناية والرّحمة بجملة العباد بالآحاد ، وأنّه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولاوراء منتهى علمه علم ، ولاوراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتّكل لامحالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، ولا إلى نفسه وحوله وقوّته ، فإنّه لا حول و لا قوّة إلّا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فإنّ الحول عبارة عن الحركة ، والقوّة عبارة عن القدرة ، فإن كنت لاتجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين: إمّا ضعف اليقين بإحدى هذه الخصال الأربعة ، وإمّا ضعف القلب و مرضه باستيلاء الجبن عليه و انزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإنّ القلب قدينزعج تبعاً للوهم و طاعة له من غير نقصان في اليقين فإن من يتناول عسلاً يشبه بين يديه بالعذرة ربّما نفر طبعه و تعذّر تناوله عليه ، ولو كلّف العاقل أن يبيت مع الميت في قبر أوفراش أوبيت نفر طبعه و إن كان متيقّناً لكونه ميتاً وأنّه جماد في الحال و أنّ سنّة الله مطّردة بأنّه لا يحشره الآن ولا يحييه و إن كان قادراً عليه كما أنّها مطّردة بأن لايقلب القلم الّذي في يده حيّة ولايقلب السنور أسداً و إن كان قادراً عليه ومع أنّه لايشكّ في هذا اليقين ، فينفر طبعه عن مضاجعة الميّت في فراش أو المبيت معه في بيت ، ولاينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلّمايخلو الإنسان عن شيء منه و إن قلّ فقد يقوى فيصير مرضاً حتّى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب و إحكامه فإذن لايتمّ التوكّل إلّا بقوّة القلب وقوّة اليقين جميعاً إذبهمايحصل سكون القلب وطمأنينته ، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر ، فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال : تعالى لإبراهيم «أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي»(١) فالتمس أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله فإنّ النفس تتبع الخيال وتطمئنّ به ولاتطمئنّ باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس المطمئنّة ، وذلك لايكون في البداية أصلاً وكم من مطمئنّ لايقين له كسائر أرباب الملل والمذاهب ، فإنّ اليهودي مطمئنّ القلب إلى تهوّده ، و كذا النصرانيّ ولايقين لهما أصلاً « وإنّما يتّبعون الظنّ » و ما

---

(١) البقرة : ٢٦٠ .

تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدى» وهو سبب اليقين إلّا أنّهم معرضون عنه ، فإذن الجبن و الجرأة غرائز و لا ينفع اليقين معها فهي أحد الأسباب الّتي تضادّ حال التوكّل كما أنّ ضعف اليقين بالخصال الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله و قد قيل : مكتوب في التورية ملعونٌ من ثقته إنسان مثله ، وقد قال عليه السلام : « من استعزّ بالعبيد أذلّه الله »(١) وإذا انكشف معنى التوكّل وعلمت الحالة الّتي سمّيت توكّلاً ، فاعلم أنّ تلك الحالة لها في القوّة والضعف ثلاث درجات : الأولى ما ذكرناه وهي أن يكون حاله في حقّ الله و الثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل ، الثانية وهو أقوى أن يكون حاله مع الله كحال الطفل مع أمّه فإنّه لا يعرف غيرها ، و لا يفزع إلى ما سواها ، و لا يعتمد إلّا عليها فإن رآها تعلّق بها في كلّ حال وتشبّث بذيلها و لم يخلها ، و إن نابه أمر في غيبتها كان أوّل سابق إلى لسانه: يا أمّاه و أوّل خاطر يخطر على قلبه أمّه ، فإنّها مفزعه لأنّه قد وثق بكفالتها و كفايتها و شفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الّذي له و يظنّ أنّه طبع من حيث إنّ الصبيّ لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظها ولا على إحضارها مفصّلة في ذهنه ، ولكن كلّ ذلك وراء الإدراك فمن كان باله إلى الله و نظره إليه و اعتماده عليه كلف به كما يكلف الصبيّ بأمّه فيكون متوكّلاً حقّاً فإنّ الطفل متوكّل على أمّه والفرق بين هذا وبين الأوّل أنّ هذا متوكّلٌ وقد فنى في توكّله عن توكّله ، إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكّل وحقيقته بل إلى المتوكّل عليه فقطّ ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكّل عليه ، و أمّا الأوّل فمتوكّل بالتكلّف والكسب وليس فانياً عن توكّله ، أي له التفات إلى توكّله وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكّل عليه وحده ، وإلى هذه الدّرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكّل ما أدناه ؟ قال : ترك الأمانيّ ، قيل فأوسطه ؟ قال : ترك الاختيار ، وهو

---

(١) قال العراقي : أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر ، أورده العقيلي في ترجمة عبدالله بن عبدالله الاموي ، وقال : لايتابع على حديثه وقد ذكره ابن حبان في الثقات و قال يخالف في روايته

إشارة إلى الدّرجة الثانية ، وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لايعرفه إلّا من بلغ أوسطه . الثالثة وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله في حركاته و سكناته مثل الميّت بين يدي الغاسل لايفارقه إلّا في أنّه يرى نفسه ميّتاً و تحرّكه القدرة الأزليّة كما تحرّك يدالغاسل الميّت ، وهو الّذي قوي يقينه بأنّه مجري الحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات وأنّ كلّه يحدث جبراً فيكون بائناً عن الانتظار لما يجري عليه و يفارق الصبيّ فإنّ الصبيّ يفزع إلى اُمّه ويصيح ويتعلّق بذيلها ويعدو خلفها ، بل مثال هذا مثال صبيّ علم أنّه وإن لم يزعق باُمّه فالاُمّ تطلبه ، وإن لم يتعلّق بذيل اُمّه فالاُمّ تحمله ، وإن لم يسأل اللّبن فالاُمّ تفاتحه وتسقيه ، وهذا المقام في التوكّل يثمر ترك الدّعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته و أنّه يعطي ابتداء أفضل و أكثر ممّا يسأل ، فكم من نعمة ابتدأها قبل الدّعاء وقبل الاستحقاق، والمقام الثاني لايقتضي ترك الدّعاء و السؤال منه وإنّما يقتضي ترك السؤال من غيره فقط .

فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصوّر وجودها ؟ فاعلم أنّ ذلك ليس بمحال ولكنّه عزيز نادر و المقام الثاني والثالث أعزّها ، و الأوّل أقرب إلى الإمكان ، ثمّ إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لايكون المقام الثالث إلّا كصفرة الوجل فإنّ انبساط القلب إلى ملاحظة الحول و القوّة والأسباب طبع و انقباضه عارض كما أنّ انبساط الدّم في جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض والوجل عبارة عن انقباض الدّم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتّى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة الّتي كانت تتراءى من وراء الرّقيق من ستر البشرة فإنّ البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدّم فانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم فكذلك انقباض القلب بالكلّية عن ملاحظة الحول و القوّة و سائر الأسباب الظاهرة لا يدوم ، و أمّا المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنّه قد يدوم يوماً ويومين والأوّل يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولايبعد أن يزول .

فإن قلت : فهل يبقى مع العبد تدبير و تعلّق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أنّ المقام الثالث ينفي التدبير رأساً مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمبهوت

والمقام الثاني ينفي كلّ تدبير إلّا من حيث الفزع إلى الله بالدّعاء و الابتهال كتدبير الطفل في التعلّق باُمّه فقط. و المقام الأوّل لا ينفي أصل التدبير و الاختيار و لكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكّل على وكيله في الخصومة فإنّه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل، ولكن لايترك التدبير الّذي أشار إليه وكيله به. أو التدبير الّذي عرفه من عادته و سنّته دون تصريح إشارته، فأمّا الّذي يعرفه بإشارته بأن يقول له: لست أتكلّم إلّا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتّدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضاً توكّله عليه إذ ليس هو فزعاً منه إلى حول نفسه وقوّته في إظهار الحجّة وإلى حول غيره، بل من تمام توكّله عليه أن يفعل مارسمه له إذ لو لم يكن متوكّلا عليه ولا معتمداً له في قوله لما حضر بقوله، وأمّا المعلوم بعادته واطّراد سنّته فهو أن يعلم من عادته أنّه لايحاجّ الخصم إلّا من السجلّ فتمام توكّله إن كان متوكّلا عليه أن يكون معوّلاً على سنّته و عادته و وافياً بمقتضاها وهو أن يحمل السجلّ مع نفسه إليه عند مخاصمته فإذن لا يستغنى عن التدبير في الحضور و عن التدبير في إحضار السجلّ ولو ترك شيئاً من ذلك كان نقصاً في توكّله فكيف يكون فعله نقصاً فيه نعم بعد أن حضره وفاء بإشارته وأحضر السجلّ وفاء بسنّته و عادته وقعد ناظراً إلى محاجّته فقد ينتهي إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتّى يبقى كالمبهوت المنتظر لايفزع إلى حوله وقوّته إذ لم يبق له حول ولاقوّة وقد كان فزعه إلى حوله وقوّته في الحضور و إحضار السجلّ بإشارة الوكيل و سنّته وقد انتهى إلى نهايته فلم يبق إلّا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري

و إذا تأمّلت هذا اندفع عنك كلّ إشكال في التوكّل وفهمت أنّه ليس من شرط التوكّل ترك كلّ تدبير وعمل وأنّ كلّ تدبير وعمل لايجوز أيضاً مع التوكيل بل هو على الانقسام وسيأتي تفصيله في الأعمال فإذن فزع المتوكّل إلى حوله وقوّته في الحضور والإحضار لا يناقض التوكّل، لانّه يعلم أنّه لو لا الوكيل لكان حضوره و إحضاره باطلاً و تعباً محضاً بلاجدوى، فإذن لم يصر مفيداً من حيث إنّه حوله وقوّته، بل من حيث إنّ الوكيل جعله معتمداً لمحاجّته و عرفه ذلك بإشارته وسنّته فإذن لاحول ولاقوّة إلّا بالوكيل، إلّا أنّ هذه الكلمة لايكمل معناها في حقّ الوكيل لأنّه ليس

خالقاً حوله و قوّته بل هو جاعل لهما مفيدين في أنفسهما و لم يكونا مفيدين لو لا فعله و إنّما يصدق ذلك في حقّ الوكيل المطلق الحقّ وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوّة كما سبق في التوحيد وهو الّذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما شرطاً لما سيخلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد ، فإذن لاحول ولاقوّة إلّا بالله حقّاً وصدقاً فمن شاهد هذا كذلك كان له الثواب العظيم الّذي وردت به الأخبار في من يقول : « لا حول و لا قوّة إلّا بالله » و ذلك قد يستبعد فيقال : كيف يعطى هذا الثواب العظيم بهذه الكلمة مع سهولتها على اللّسان و سهولة اعتقاد القلب بمفهوم لفظها، و هيهات فإنّما ذلك جزاء المشاهدة الّتي ذكرناها في التوحيد و نسبة هذه الكلمة و ثوابها إلى كلمة لا إله إلّا الله وثوابها كنسبة معنى إحديهما إلى الأخرى إذ في هذه الكلمة إضافة لشيئين إلى الله تعالى فقط وهو الحول والقوّة ، وأمّا كلمة لا إله إلّا الله فهو نسبة للكلّ إليه فانظر إلى التفاوت بين الكلّ وبين شيئين لتعرف به ثواب لا إله إلّا الله بالإضافة إلى هذا ، وكما ذكرنا من قبل أنّ للتوحيد قشرين و لبّين فكذلك لهذه الكلمة ولسائر الكلمات، وأكثر الخلق قد قيّدوا بالقشرين وما نظروا إلى اللّبّين وإلى اللّبّين الإشارة بقول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : «من قال :لا إله إلّا الله صادقاً من قلبه مخلصاً وجبت له الجنّة»[1] وحيث اُطلق من غير ذكر الصّدق والإخلاص أراد بالمطلق المقيّد كما أضاف المغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواقع ، وأضاف إلى مجرّد الإيمان في بعض المواضع والمراد به المقيّد بالعمل الصالح ، فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللّسان حديث و عقد القلب أيضاً حديث و لكنّه حديث النفس ، و إنّما الصدق والإخلاص وراءهما ولا ينصب سرير الملك إلّا للمقرّبين وهم المخلصون نعم لمن يقرب منهم في الرّتبة من أصحاب اليمين أيضاً درجات عند الله و إن كانت لاتنتهي إلى الملك أما ترى أنّ الله تعالى لمّا ذكر في سورة الواقعة المقرّبين السابقين تعرّض لسرير الملك فقال : «على سرر موضونة * متّكئين عليها متقابلين»[2] ولمّا انتهى إلى أصحاب اليمين ما زاد على ذكر

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث زيد بن ارقم (المغني)

(٢) الواقعة : ١٦ و ١٧ .

الماء والظلّ والفواكه والأشجار والحور العين وكلّ ذلك من لذّات المنظور والمشروب والمأكول والمنكوح ويتصوّر ذلك للبهائم على الدّوام وأين لذّات البهائم من لذّات الملك والنزول في أعلى علّيّين في جوار ربّ العالمين، ولو كان لهذه اللّذّات قدر لما وسعت على البهائم ولما رفعت عليها درجة الملائكة أفترى أنّ أحوال البهائم وهي مسيبة في الرّياض، متنعّمة بالمياه والأشجار وأصناف المأكولات، متمتّعة بالنزوان والسفاد أعلى وألذّ وأشرف وأجدر بأن تكون عند ذوي الكمال مغبوطة من أحوال الملائكة في سرورهم بالقرب من جوار الله في أعلى علّيّين، هيهات هيهات ما أبعد عن التحصيل من إذا خيّر بين أن يكون حماراً أو يكون في درجة جبرئيل فيختار درجة الحمار على درجه جبرئيل، وليس يخفى أنّ شبه كلّ شيء منجذب إليه وأنّ النّفس الّتي يكون نزوعها إلى صنعة الأساكفة(١) أكثر من نزوعها إلى صنعة الكتابة فهي بالأساكفة أشبه في جوهرها منها بالكتّاب، وكذلك مَن كان نزوع نفسه إلى نيل لذّات البهائم فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لامحالة وهؤلاء هم الّذين يقال فيهم أُولئك كالأنعام بل هم أضلّ وإنّما كانوا أضلّ لأنّ الأنعام ليس في قوّتها طلب درجة الملائكة فتركها ذلك للعجز، وأمّا الإنسان ففي قوّته ذلك والقادر على نيل الكمال أحرى بالذّم وأجدر بالنسبة إلى الضّلال مهما تقاعد عن طلب الكمال، وإذا كان هذا كلاماً معترّضاً فلنرجع إلى المقصود فقد بيّنّا معنى قول: «لا إله إلّا الله» ومعنى قول «لاحول ولا قوّة إلّا بالله» وأنّ من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة فلا يتصوّر منه حال التوكّل.

فإن قلت: أليس في قولك «لاحول ولا قوّة إلّا بالله» إلّا نسبة شيئين إلى الله فلو قال: قائل السّماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه؟

فأقول: لا، لأنّ الثواب على قدر درجة المثاب عليه ولا مساواة بين الدّرجتين ولا ينظر إلى عظم السّماء والأرض وصغر الحول والقوّة وإن جاز وصفهما بالصّغر تجوّزاً فليست الأُمور بعظم الأشخاص، بل كلّ عاميّ يفهم أنّ الأرض والسّماء ليس

(١) الاسكاف - بالكسر -: صانع الخفاف جمعه أساكفة.

من جهة الآدميّين بل من خلق الله فأمّا الحول والقوّة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة وطوائف كثيرة ممّن يدّعي أنّه يدقّق النظر في الرّأي و المعقول حتّى يشقّ الشعر بحدّة نظره فهي مهلكة مخطرة ومزلّة عظيمه هلك فيها الغافلون إذا أثبتوا لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد و إثبات خلق لغير الله فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله إيّاه فقد علت رتبته وعظمت درجته و هو الّذي يصدق قول «لا حول ولا قوّة إلّا بالله»، و قد ذكرناه أنّه ليس في التّوحيد إلّا عقبتان: إحداهما النظر إلى السّماء والأرض والشمس والقمر والغيم و المطر و سائر الجمادات، والثانية النظر إلى اختيار الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرهما وكأنّه كمال سرّ التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة أعني ثواب المشاهدة الّتي هذه الكلمة ترجمتها فإذن رجع حاصل التوكّل إلى التبرّي من الحول والقوّة والتوكّل على الواحد الحقّ وسيتضح ذلك عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكّل.

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد فصلاً في بيان ما قاله الشيوخ في حال التوكّل و لما لم يكن فيه مزيد فائدة على ما حقّقه في معناه طويناه. قال:

✿(بيان أعمال المتوكّلين)✿

إعلم أنّ العلم يورث الحال والحال يثمر الأعمال وقد يظنّ أنّ معنى التوكّل ترك الكسب بالبدن و ترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة و اللّحم على الوضم و هذا ظنّ الجهّال فإنّ ذلك حرام في الشرع والشرع قد أثنى على المتوكّلين فكيف ينال مقام من مقامات الدّين بمحظورات الدّين بل نكشف الغطاء عن الحقّ فيه و نقول: إنّما يظهر تأثير التوكّل في حركة العبد و سعيه بعلمه إلى مقاصده و سعي العبد باختياره إمّا أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالكسب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادّخار أو لدفع ضارّ لم ينزل به كدفع الصائل و السّارق والسباع أو لإزالة ضارّ قد نزل به كالتّداوي من المرض، فمقصود حركات العبد لا تعدو هذه الفنون الأربعة و هو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضّارّ أو قطعه فلنذكر شروط التوكّل و درجاته في كلّ واحد منها مع شواهد الشرع.

الفنّ الأوّل في جلب النافع و نقول فيه: الاسباب الّتي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوعٌ به ومظنونٌ ظنّاً يوثق به وموهوم وهماً لاتثق النفس به ثقة تامّة ولا تطمئنّ إليه.

الدّرجة الاُولى المقطوع به و ذلك مثل الأسباب الّتي ارتبطت المسبّبات بها بتقدير الله ومشيّته ارتباطاً مطّرداً لا يختلف كما إذا كان الطعام موضوعاً بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنّك لست تمدّ إليه اليد وتقول: أنا متوكّل وشرط التوكّل ترك السعي و مدّ اليد إليه سعيٌ و حركةٌ، و كذلك مضغه بالأسنان و ابتلاعه باطباق أعالي الحنك على أسافله، فهذا جنون محض وليس من التوكّل في شيء، فإنّك إن انتظرت أن يخلق الله فيك شبعاً دون الخبز أو يخلق في الخبز حركة إليك أو يسخر ملكاً ليمضغه و يوصله إلى معدتك فقد جهلت سنّة الله و كذلك لو لم تزرع الأرض فطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر، أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم، فكلّ ذلك جنون وأمثال هذا ممّا يكثر و لا يمكن إحصاؤه فليس التوكّل في هذا المقام بالعمل بل بالحال والعلم، أمّا العلم فهو أن تعلم أنّ الله خالق الطعام واليد و الأسنان وقوّة الحركة وأنّه يطعمك ويسقيك، وأمّا الحال فهو أن يكون سكون قلبك و اعتماده على فضل الله تعالى لا على اليد و الطعام و كيف تعتمد على صحّة يدك وربّما تجفّ في الحال و تفلج و كيف تعول على قدرتك و ربّما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويبطل قوّة حركتك و كيف تعول على حضور الطعام و ربّما يسلّط الله من يغلبك عليه أو يبعث حيّة تزعجك عن مقامك وتفرق بينك وبين طعامك وإذا احتمل أمثال ذلك و لم يكن لها علاج إلّا بفضل الله فبذلك فلتفرح وعليه فلتتوكّل و إذا كان هذا حاله وعلمه فيمدّ اليد إليه فإنّه متوكّل.

الدّرجة الثانية الأسباب الّتي ليست متيقّنة، لكنّ الغالب أنّ المسبّبات لاتحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيداً كالّذي يفارق الأمصار و القوافل ويسافر في البوادي الّتي لايطرقها الناس إلّا نادراً ولايكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطاً في التوكّل بل استصحاب الزّاد في البوادي سنّة الأوّلين ولا يزول التوكّل به

بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لا على الزّاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز وهو من أعلى مقامات التوكّل و لذلك كان يفعله الخوّاص .

فإن قلت : فهذا سعي في الهلاك و إلقاء النفس في التهلكة فاعلم أنّ ذلك يخرج من كونه حراماً بشرطين أحدهما أن يكون الرّجل قد راض نفسه وجاهدها وسوّاها على الصبر عن الطعام اُسبوعاً فما يقاربه بحيث يصبر عنه من غير ضيق قلب وتشوّش خاطر و تعذّر في ذكر الله تعالى ، والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوّت بالحشيش وما يتّفق له من الأشياء الخسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كلّ اُسبوع عن أن يلقاه آدميّ أو ينتهي إلى حلّة أو قرية أو إلى حشيش يجتزي به فيحيى به مجاهداً نفسه ، و المجاهدة عماد التوكّل ، وعلى هذا كان يعوّل الخوّاص ونظراؤه من المتوكّلين ، و الدّليل عليه أنّ الخوّاص كان لا تفارقه الإبرة والمقراض والحبل والرّكوة ويقول : هذا لا يقدح في التوكّل و سببه أنّه علم أنّ البوادي لا يكون الماء فيها على وجه الأرض و ما جرت سنّة الله تعالى بصعود الماء من البئر بغير دلو ولا حبل ، ولا يغلب وجود الحبل و الدّلو في البوادي كما يغلب وجود الحشيش ، و الماء يحتاج إليه لوضوئه كلّ يوم مرّات و لعطشه في في كلّ يوم أو يومين مرّة فإنّ المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام و كذلك يكون له ثوب واحد وربّما ينخرق فينكشف عورته ولا يوجد المقراض و الإبرة في البوادي غالباً عند كلّ صلاة ولا يقوم مقامهما في الخياطة والقطع شيء ممّا يوجد في البوادي ، فكلّ ما في معنى هذه الأربعة أيضاً لا يلتحق بالدّرجة الاُولى لأنّه مظنون ظنّاً لا يقطع به لأنّه يحتمل أن لا تنخرق الثوب أو يعطيه إنسان ثوباً أو يجد على رأس البئر من يسقيه و لا يحتمل أن يتحرّك الطعام ممضوغاً إلى فيه ، فبين الدّرجتين فرق ولكن الثاني في معنى الأوّل و لهذا نقول : لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث لا ماء ولا حشيش ولا يطرقه طارق فيه وجلس متوكّلاً فهو آثم به ساع في إهلاك نفسه كما روي أنّ زاهداً من الزّهاد فارق الأمصار و أقام في سفح جبل وقال: لا أسأل أحداً شيئاً حتّى يأتيني ربّي برزقي فقعد سبعاً فكاد يموت ولم يأته رزق

فقال: يارب إن أحييتني فأتني برزقي الّذي قسمت لي و إلّا فاقبضني إليك فأوحى الله إليه وعزّتي وجلالي لا أرزقك حتّى تدخل الأمصار وتقعد بين النّاس ، فدخل المصر وأقام فجاءه هذا بطعام فأكل وشرب و أوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله إليه أردتَ أن تذهب حكمتي بزهدك في الدّنيا أما علمت أنّي أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحبّ إليّ من أن أرزقه بيد قدرتي ، فإذن التباعد عن الأسباب كلّها مراغمة للحكمة وجهل بسنّة الله تعالى والعمل بموجب سنّة الله تعالى مع الاتّكال على الله دون الأسباب لا يناقض التوكّل كما ضربنا مثلاً في الوكيل بالخصومة من قبل ، ولكنّ الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفيّة ، فمعنى التوكّل الاكتفاء بالأسباب الخفيّة عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبّب الأسباب الخفيّة لا إلى السبب .

أقول: ليت شعري أيّ مدخل في خفاء الأسباب و جلائها في التوكّل بعد ما تقرّر أنّ معناه الثّقة بالله وحده لا بالأسباب فسواء وجود الأسباب و فقدها جلاؤها وخفاؤها مع أنّ من جاهد نفسه وسوّاها بحيث يصبر على الجوع الاُسبوع ويمكنه التقوّت بالحشيش صارت الأسباب له جليّة فإنّ عدم الحاجة أحد الغناءين فإن كانت ثقته حينئذ على صبره وتمكّنه من التقوّت بالحشيش فلاتوكّل وإن كان إنّما يثق بالله وحده فليقم في البلد مع الأسباب الجليّة وليثق بالله دون الأسباب كما أمر الله به الزّاهد الّذي روى قصّته أبو حامد آنفاً .

قال : فإن قلت : القعود في البلد بغير كسب أهو حرامٌ أم مباح أو مندوب ؟ فاعلم أنّ ذلك ليس بحرام لأنّ صاحب السياحة في البادية إذا لم يكن مهلكاً نفسه فهذا كيف كان مهلكاً نفسه حتّى يكون فعله حراماً ، بل لا يبعد أن يأتيه الرّزق من حيث لا يحتسب ولكن قد يتأخّر عنه والصبر ممكن إلى أن يتّفق ، ولكن لو أغلق باب البيت على نفسه بحيث لا يترك طريقاً لأحد إليه ففعله ذلك حرام ، و إن فتح باب البيت وهو بطّال غير مشغول بعبادة فالكسب والخروج له اُولى ولكن ليس فعله حراماً(١) إلى أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج والسؤال أو الكسب ، وإن

(١) بل صار ملعوناً لانه حينئذ كل على الناس .

كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلّع إلى من يدخل من الباب ليأتيه برزقه تطلّعه إلى فضل الله واشتغاله بالله فهذا أفضل وهو من مقامات التوكّل و هو أن يشتغل بالله ولا يهتمّ برزقه فإن الرّزق يأتيه لامحالة وعندهذا يصحّ ماقاله بعض العلماء وهو أنّ العبد لوهرب من رزقه لطلبه كما لوهرب من الموت لأدركه ، وإنّه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه لما استجاب له وكان عاصياً ، ولقال له : ياجاهل كيف أخلقك و لا أرزقك ، ولذلك قال ابن عباس : اختلف الناس في كلّ شيء إلّا في الرّزق و الأجل فإنّهم أجمعوا على أن لارازق ولا مميت إلّا الله تعالى. وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «لو توكّلتم على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً و تروح بطاناً ولزالت بدعائكم الجبال»(١) وقال عيسى عليه السلام : «انظروا إلى الطير لايزرع ولايحصد ولا يدّخر والله تعالى يرزقها يوماً يوماً » فإن قلتم : نحن أكبر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف قيّض الله لها الخلق.

أقول: لعلّ أباحامد إنّما أورد أمثال هذه الأخبار والأقوال ليردّ أهل الحرص إلى الاعتدال وإلّا فلا ريب أنّ الإنسان مكلّف بطلب الرّزق بالأسباب الّتي هداه الله إليها من زراعة أوتجارة أوصناعة أوغير ذلك ممّا أحلّه الله و كما أنّ الصلاة والصيام و الحجّ عبادات كلّف الله بها عباده يتقرّبون بها إليه كذلك طلب الرّزق الحلال عبادة كلّفهم الله به ليتقرّبوا به إليه ولكنّه سبحانه كلّفهم أيضاً بأن لايثقوا إلّا به تعالى لا بملابستهم الأسباب كما أنّه كلّفهم الله بأن لايتّكلوا على أعمالهم الحسنة بل بفضل الله . قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «العبادة سبعون جزءاً أفضلها طلب الحلال »(٢) «وأوحى الله إلى داود عليه السلام إنّك نعم العبد لولا أنّك تأكل من بيت المال ولاتعملنّ بيدك شيئاً فبكى داود أربعين صباحاً فألان الله له الحديد»(٢) والأنبياء وأئمّة الهدى سلام الله -

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٣١٨ وأحمد بدون قوله : «ولزالت بدعائكم الجبال » و رواه محمد بن نصر بهذه الزيادة وأدنى اختلاف في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ بن جبل .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٨ تحت رقم ٦ .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٤ تحت رقم ٥ .

عليهم كانوا يعملون بأيديهم في طلب الرّزق كما مرّ في كتاب أحكام الكسب ولو كان ترك الكسب خيراً لكانوا أولى به .

قال الصادق عليه السلام: « ليس منّا من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه»[١].

وسأل عليه السلام عن رجل فقيل : أصابته الحاجة قال : فما يصنع اليوم ؟ قيل : في البيت يعبد ربّه ، فقال: من أين قوته ؟ قيل : من عند بعض إخوانه فقال عليه السلام : والله الّذي يقوته أشدّ عبادة منه[٢].

وقال له رجلٌ: «لأقعدنّ في بيتي ولأصلينّ ولأصومنّ ولأعبدنّ ربّي فأمّا رزقي فسيأتيني فقال عليه السلام : هذا أحد الثلاثة الّذين لا يستجاب لهم»[٣].

و الأخبار في هذا المعني أكثر من أن تحصى ، و قد روى أبو حامد أيضاً طرفاً منها في مواضعها و إنّما خبل عقله و كياسته في أمثال هذا المقام لحسن ظنّه بالسلف وزعمه أنّ ما انتهى إليه من أفعال متقشّفتهم صحيح وأنّهم قدوة وقد أخطأ في الجميع .

قال: الدّرجة الثالثة ملابسة الأسباب الّتي يتوهّم إفضاؤها إلى المسبّبات من غير ثقة ظاهرة كالّذي يستقصي في التّدبيرات الدّقيقة في تفصيل الاكتساب و وجوهه فذلك يخرج بالكلّيّة عن درجات التوكّل كلّها ، و هو الّذي فيه الناس كلّهم أعني من يكتسب بالحيل الدّقيقة اكتساباً مباحاً لمال مباح فأمّا أخذ الشبهة أو الاكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدّنيا والاتّكال على الأسباب فلا يخفى أنّ ذلك يبطل التوكّل وهي مثل الأسباب الّتي نسبتها إلى جلب المنافع مثل نسبة الرّقية و الطيرة و الكيّ بالإضافة إلى إزالة الضّارّ ، فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وصف المتوكّلين بذلك ولم يصفهم بأنّهم لا يكتسبون ولا يجلسون في الأمصار و لا يأخذون من أحد شيئاً ، بل وصفهم بأنّهم يتعاطون هذه الأسباب ، وأمثال هذه الأسباب الّتي لا يوثق

(١) الفقيه باب المعايش والمكاسب ص ٣٥١ تحت رقم ٢ .

(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٨ تحت رقم ٤ .

(٣) التهذيب ج ٦ كتاب المكاسب باب المكاسب تحت رقم ٨ عن الكليني (ره) و رواه هو في الكافي ج ٥ ص ٧٧ تحت رقم ١ عن الصادق عليه السلام .

بها في المسبّبات ممّا يكثر فلا يمكن إحصاؤها و قال سهل في التوكّل : إنّه ترك التدبير ، وقال : إنّ الله خلق الخلق و لم يحجبهم عن نفسه وإنّما حجابهم تدبيرهم . و لعلّه أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي الّتي تحتاج إلى التدبير دون الأسباب الجليّة فإذن قد ظهر أنّ الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلّق بها عن التوكّل وإلى ما لا يخرج وأنّ الّذي لا يخرج ينقسم إلى مقطوع به وإلى مظنون و أنّ المقطوع به لا يخرج عن التوكّل عند وجود حال التوكّل و علمه و هو الاتّكال على مسبّب الأسباب فالتوكّل فيها بالحال والعلم لا بالعمل ، فأمّا المظنونات فالتوكّل فيها بالحال والعلم والعمل جميعاً .

أقول : أراد بالعمل الاكتفاء بالأسباب الخفيّة عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبّب الأسباب كما قاله فيما قبل وقد عرفت ما فيه من الخطأ ، ثمّ ذكر درجات مقامات المتوكّلين في ملابسة هذه الأسباب و بسط الكلام فيه بما لا طائل تحته ولاسيّما بعد ما سمعت منّا ، ثمّ قال : فإن قلت : فالأفضل أن يقعد في بيته أو يخرج ويكتسب ؟ فاعلم أنّه إذا كان يتفرّغ بترك الكسب لفكر و ذكر و إخلاص واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوّش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل فيحمل له شيئاً بل يكون قويّ القلب في الصبر والاتّكال على الله فالقعود له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى النّاس فالكسب له أولى لأنّ استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهمّ من ترك الكسب و ما كان المتوكّلون يأخذون ما تستشرف إليه نفوسهم .

أقول : بل الكسب أفضل له على التقديرين لأنّ قعوده في البيت تعرّض للذلّ فإنّه إن لم يسأل الناس بقلبه و لسانه فقد سألهم بحاله مع أنّه ترك أفضل العبادة رأساً و ربّما يصير على الناس كلّاً وبأساً و أنّى له ذلك وقد عاتب الله تعالى داود عليه السلام على أكله من بيت المال[1] كما مرّ ذكره قال الصادق عليه السلام : « إن استطعت أن لا تكون كلّاً على الناس فافعل »[2].

(١) تقدم عن الكافي ج ٥ ص ٧٤ تحت رقم ٥ .
(٢) الكافي ج ٥ ص ٧٩ تحت رقم ٩ .

وقال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : ملعون من ألقى كلّه على الناس » (١) .

و قال أمير المؤمنين عليه السلام :

لنقل الصّخر عن قلل الجبال ✿ أعزّ اليّ من مِنن الرّجال
يقول الناس لي في الكسب عار ✿ فقلت العار في ذلّ السّؤال (٢)

قال أبو حامد: فإذن المكتسب إذا راعى آداب الكسب و شروط نيّته كما سبق في كتاب الكسب و لم يقصد الاستكثار و لم يكن اعتماده على بضاعته و كفايته كان متوكّلاً ، فإن قلت : فما علامة عدم اتّكاله على البضاعة و الكفاية ؟ فأقول : علامته أنّه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارته أو يعوق أمر من اُموره كان راضياً به ولم يبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله و بعده واحداً ، فإنّ من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقده ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه ، و مالم يكمل الإيمان بأن لافاعل إلّا الله ولارازق سواه وبأنّ كلّ ما يقدّره على العبد من فقر وغنى و موت وحياة فهو خير له ممّا يتمنّاه العبد لنفسه لم يكمل حال المتوكّل فبناء التوكّل على قوّة الإيمان بهذه الاُمور كما سبق و كذا سائر مقامات الدّين من الأحوال والأعمال تبتني على اُصولها من الإيمان ، وبالجملة التوكّل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوّة القلب و قوّة اليقين .

فإن قلت: فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الرّكون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظنّ بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفيّة ؟ فأقول : نعم أن تعرف أنّ سوء الظنّ تلقين الشيطان ، و حسن الظنّ تلقين الله ، قال الله تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً » (٣) فالإنسان بطبعه مشعوفٌ بسماع تخويف الشيطان ولذلك قيل : الشفيق بسوء الظنّ مولع وإذا انضمّ إليه الجبن و ضعف القلب و مشاهده المتّكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها

---

(١) المصدر ج ٥ ص ٧٢ تحت رقم ٧ .

(٢) ديوان المنسوب اليه عليه السلام حرف اللام .

(٣) البقرة : ٢٦٨ .

غلب سوء الظنّ وبطل التوكّل بالكلّيّة ، بل رؤية الرزق من الأسباب الخفيّة أيضاً تبطل التوكّل فقد حكي عن عابد أنّه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم فقال له إمام المسجد: لو اكتسبت لكان أفضل لك ، فلم يجبه حتّى أعاد القول ثلاثاً فقال له في الرّابعة: يهوديّ في جوار المسجد قد ضمن لي كلّ يوم رغيفين فقال : إن كان صادقاً في ضمانه فعكوفك في المسجد خير لك فقال : يا هذا لولم تكن إماماً تقف بين الله و بين العباد مع هذا النقص في التوحيد كان خيراً لك إذ فضّلت وعد يهوديّ على ضمان الله في الرّزق . و قال إمام مسجد لبعض المصلّين: من أين تأكل؟ فقال : يا شيخ اصبر حتّى اُعيد الصلاة الّتي صلّيتها خلفك ثمّ اُجيبك .

أقول : قد عرفت أنّ الله سبحانه كما ضمن الرّزق كذلك أمر بالطلب وملابسة الأسباب ثمّ لايخفى مافي جواب هذين الرّجلين من الرّعونة وادّعائهما مقاماً عالياً من التوكّل و تعجّبهما أن يسأل مثلهما عن سبب رزقه ثمّ أيّ منافاة بين إمامة الصّلاة والسّؤال عن حال رجل مجهول ينادي ظاهره بالبؤس والبأس وأنّه كَلّ على الناس بل ضارب على قلوبهم و بواطنهم في اللّباس أنّه من أيّ الجهات والأسباب يرزقه الله .

قال أبوحامد : و ينفع في حسن الظنّ بمجيء الرّزق من لطف الله بواسطة الأسباب الخفيّة أن يسمع الحكايات الّتي فيها عجائب صنع الله في وصول الرّزق إلى صاحبه و فيها عجائب قهر الله في إهلاك أموال التّجار والأغنياء و قتلهم جوعاً كما روي عن حذيفة المرعشي وكان قد خدم إبراهيم بن أدهم فقيل له : ماأعجب مارأيت منه قال : لبثنا في طريق مكّة أيّاماً لم نجد طعاماً ، ثمّ دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إليّ إبراهيم و قال : ياحذيفة أرى بك أثر الجوع ، فقلت : هو كمارأى الشيخ، فقال : ائتني بدواة و قرطاس فجئت بهما فكتب بسم الله الرّحمن الرّحيم أنت المقصود بكلّ حال والمشار إليه بكلّ معنى .

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ✡ أنا جائع أنا ضائع أنا عاري
هي ستّة و أنا الضمين لنصفها ✡ فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهب نار خضتها ✡ فأجر عبيدك من دخول النار

ثمّ دفع إليّ الرّقعة و قال : اُخرج ولا تعلّق قلبك بغير الله و ادفع الرّقعة إلى أوّل من يلقاك ، فخرجت فأوّل من لقيني كان رجلاً على بغلة فناولته الرّقعة فأخذها و نظر فيها وبكى وقال : ما فعل صاحب هذه الرّقعة فقلت : هو في المسجد الفلاني فدفع إليّ صرّة فيها ستّمائة دينار ثمّ لقيت رجلاً آخر فسألته عن راكب البغلة،فقال : هذا نصرانيّ فجئت إلى إبراهيم وأخبرته بالقصّة فقال : لاتمسّها فانّه يجيء الساعة فلمّا كان بعد ساعة دخل النصرانيّ علينا فأكبّ على رأس إبراهيم فقبّله و أسلم . ثمّ ذكر أبو حامد حكايات غريبة و روايات عجيبة من هذا القبيل .

أقول : إن صحّت تلك الوقائع فهي مخصوصة بطوائف بلغوا من الرّياضة حدّاً لا يبلغ إليه من ألف ألف إلّا واحد أو اثنان ثمّ بعد يبقى النظر في أنّه هل هو محمود أم لا ولا يجوز تكليف عامّة الناس بذلك من غير إذن من الشرع ولا إذن بل ورد الأمر بخلافه .

ثمّ أخذ أبو حامد في بيان توكّل المعيل و الفرق بينه و بين المنفرد و بسط القول فيه بما لاطائل تحته واشترط في صحّة توكّل المنفرد أن يطيب نفساً بالموت إن لم يأته رزقه علماً بأنّ رزقه الموت والجوع ، قال : وهو وإن كان نقصاناً في الدّنيا فهو زيادة في الآخرة فيرى أنّه سيق إليه خير الرّازقين له وهو رزق الآخرة و أنّ هذا هو المرض الّذي يموت به فيكون راضياً بذلك وأنّه كذا قضى و قدّر فبهذا يتمّ التوكّل .

أقول : لا يخفى فساد هذا القول فإنّ توطين النفس على الموت اختياراً منهيّ عنه شرعاً فإنّه تعزير بالنّفس وتعرّض للهلاك قال الله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (١).

ثمّ قال : بل التحقيق أنّه لافرق بينه و بين عياله فإنّه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدّة و على الاعتداد بالموت على الجوع رزقاً وغنيمة في الآخرة فله أن يتوكّل في حقّهم ، ونفسه أيضاً عيال عنده ولا يجوز له أن يضيّعها إلّا بأن تساعده على الصبر مع الجوع مدّة فإن كان يطيقه ويضطرب عليه قلبه ويتشوّش عبادته لم يجز

(١) البقرة : ١٩٥ .

له التوكّل .

ثمّ قال : و قد انكشف لك من هذا أنّ التوكّل ليس انقطاعاً عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدّة والرّضا بالموت إن تأخّر الرّزق نادراً وملازمة الأمصار و البلاد أو ملازمة البوادي الّتي لا تخلو من حشيش وما يجري مجراه فهذه كلّها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى لا يمكن الاستمرار عليه إلّا بالصبر إلّا أنّ الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدّوا ذلك أسباباً لضعف إيمانهم و شدّة حرصهم وقلّة صبرهم على الأذى في الدّنيا لأجل الآخرة وجبن قلوبهم .

أقول: بل التوكّل ليس إلّا الاعتماد على الله تعالى و مباشرة الأسباب جليّة كانت أو خفيّة من دون اعتماد عليها كما عرفت ، ثمّ بعد كلام كثير من هذا القبيل ضرب مثالاً لأحوال المتوكّلين في التعلّق بالأسباب موافقاً لما بنى عليه كلامه في التوكّل ولمّا لم يكن في ذكر أمثال هذه الترّهات والتعرّض لها فائدة طويناها وضربنا عنها صفحاً واكتفينا بما حقّقنا سابقاً مطابقاً لما استفدناه من أئمّة الهدى سلام الله عليهم .

✿(الفنّ الثاني في التعرّض لأسباب الادّخار)✿

فمن حصل له مال بإرث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في ادّخاره ثلاثة أحوال : الاُولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل إن كان جائعاً ويلبس إن كان عارياً ويشتري مسكناً مختصراً إن كان محتاجاً إليه ويفرق الباقي في الحال أو لا يأخذه و لا يدّخره إلّا القدر الّذي يدرك به من يستحقّه و يحتاج إليه فيدّخره على هذه النيّة فهذا هو الوفاء بموجب التوكّل تحقيقاً وهي الدّرجة العليا .

الحالة الثانية والدّرجة المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكّل أن يدّخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من المتوكّلين أصلاً ، فقد قيل لا يدّخر من الحيوانات إلّا ثلاثة: الفارة ، والنملة ، وابن آدم .

الحالة الثالثة و الدّرجة الوسطى أن يدّخر لأربعين يوماً فما دونه فهذه هل يوجب حرمانه عن المقام المحمود الموعود في الآخرة للمتوكّلين ؟ اختلفوا فيه .

أقول : ثمّ ذكر أبو حامد اختلاف الناس في مدّة الادّخار المنافي للتوكّل

وتفاوت الناس في قصر الأمل وطوله وبسط الكلام في ذلك بما لا طائل تحته.

ثمّ قال: وليس الكوز و السفرة و ما يحتاج إليه على الدّوام في معنى ذلك فادّخاره لاينقص الدّرجة و أمّا ثوب الشتاء فلايحتاج إليه في الصيف و هذا في حقّ من لاينزعج قلبه بترك الادّخار و لا يستشرف نفسه إلى أيدي الخلق بل لا يلتفت قلبه إلّا إلى الوكيل الحقّ، فإن كان يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذّكر والفكر فالادّخار له أولى بل لو أمسك ضيعة يكون دخلها وافياً بقدر كفايته وكان لايتفرّغ قلبه إلّا به فذلك له أولى لأنّ المقصود إصلاح القلوب ليتجرّد لذكر الله، وربّ شخص يشغله وجود المال وربّ شخص يشغله عدمه، والمحذور مايشغله عن الله وإلّا فالدّنيا في عينها غير محذورة لا وجودها ولاعدمها، ولذلك بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى أصناف الخلق وفيهم التجّار والمحترفون و أهل الحرف و الصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكلّ إلى الله وأرشدهم إلى فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدّنيا إلى الله و عمدة الاشتغال بالله تعالى هو القلب فصواب الضعيف ادّخار قدر حاجته كما أنّ صواب القويّ ترك الادّخار، وهذا كلّه حكم المنفرد فأمّا المعيل فلايخرج عن حدّ التوكّل بادّخار قوت سنة لعياله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وادّخار أكثر من ذلك مبطل للتوكّل لأنّ الأسباب تتكرّر عند تكرّر السنين فادّخار ما يزيد عليه سببه ضعف القلب، وذلك يناقض قوّة التوكّل، فالمتوكّل عبارة عن موحّد قويّ القلب مطمئنّ النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة و قد ادّخر رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لعياله قوت سنة(١)، ونهى اُمّ أيمن وغيرها عن أن تدّخر شيئاً لغد(٢) و كان عليه السلام لو ادّخر لم ينقص ذلك من توكّله إذ كان لا يثق بما ادّخره ولكنّه ترك ذاك تعليماً للأقوياء من اُمّته فإنّ أقوياء اُمّته ضعفاء بالإضافة إلى قوّته و ادّخر لعياله سنة لالضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليسنّ ذلك للضعفاء من اُمّته

---

(١) أخرجه الترمذى من حديث أنس و قد تقدم.

(٢) قد تقدم و راجع مسند أحمد ج ٦ ص ٢٩٣ من حديث أم سلمة.

ثمّ أخبر « انّ الله يحبّ أن تؤتى رخصه كما يحبّ أن تؤتى عزائمه » (١) تطييباً لقلوب الضعفاء حتّى لاينتهي بهم الضعف إلى اليأس و القنوط فيتر كون الميسور من الخير عليهم بعجزهم عن منتهى الدّرجات فما أرسل صلّى الله عليه وآله وسلّم إلّا رحمة للعالمين كلّهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم فاذافهمت هذا علمت أنّ الادّخار قد يضرّ بعض النّاس وقد لايضرّ.

﴿ الفنّ الثالث في مباشرة الأسباب الدّافعة للضّرر المتعرّض للخوف ﴾

اعلم أنّ الضرر قد يتعرّض للخوف في نفس أومال و ليس من شروط التوكّل ترك الأسباب الدّافعة رأساً أمّا في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجرى السيل من الوادي أوتحت الجدار المائل أو السقف المنكسر فكلّ ذلك منهيّ عنه و صاحبه قد عرض نفسه للهلاك بغير فايدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها و إلى مظنون و إلى موهوم فترك الموهوم منها من شرط التوكّل و هي الّتي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة الكيّ والرّقية فانّ الكيّ والرّقية قد يقدّم على المحذور دفعاً لما يتوقّع ، فقد يستعمل بعد نزول المحذور للإزالة و رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يصف المتوكّلين إلّا بترك الكيّ والرّقية والطيرة ولم يصفهم بأنّهم إذا خرجوا إلى موضع بارد لم يلبسوا جبّة والجبّة تلبس دفعاً للبرد المتوقّع و كذلك كلّ مافي معناها من الأسباب ، نعم الاستظهار بأكل الثوم مثلاً عند الخروج للسفر في الشتاء تهييجاً لقوّة الحرارة من الباطن ربما يكون من قبيل التعمّق في الاسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكيّ بخلاف الجبّة و لترك الأسباب الدّافعة و إن كانت مقطوعة بها وجه إذا نال الضرر من إنسان فانّه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدّفع والتشفّي فشرط التوكّل الاحتمال والصبر قال تعالى : « فاتّخذه وكيلاً واصبر على مايقولون » (٢) و قال : « و لنصبرنّ على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكّل المتوكّلون » (٣) و قال : « ودع أذيهم و توكّل على الله (٤) » و قال : « فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرّسل » (٥) وقال :

---

(١) أخرجه أحمد و البيهقي من حديث ابن عباس وعن ابن مسعود بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٢) المزمل : ١٠

(٣) ابراهيم : ١٢.

(٤) الاحزاب : ٤٨

(٥) الاحقاف : ٣٥.

« نعم أجر العاملين الّذين صبروا و على ربّهم يتوكّلون »[١] و هذا في أذى النّاس ، وأمّا الصبر على أذى السباع و الحيّات والعقارب و ترك دفعها ليس من التوكّل في شيء إذلا فائدة فيه ولا يراد السعي ولا ترك السعي لعينه بل لا عانته على الدّين وترتّب الأسباب ههنا كترتّبها في الكسب وجلب المنافع فلانطول بالإعادة ، و كذلك في الأسباب الدّافعة عن المال فلاينقص التوكّل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يعقل البعير لأنّ هذه الأسباب عرفت بسنّة الله تعالى إمّا قطعاً وإمّا ظنّاً ولذلك قال صلّى الله عليه وآله وسلّم للأعرابي لما أن أهمل البعير و قال : توكّلت على الله . فقال : « اعقلها و توكّل »[٢] و قال تعالى : « خُذوا حِذرَكم »[٣] وقال في كيفيّة صلاة الخوف : « وليأخذوا حذرهم و أسلحتهم »[٤] و قال : « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة و من رباط الخيل »[٥] و قال لموسى عليه السلام « فاسر بعبادي ليلاً »[٦] والتحصين باللّيل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبّب واختفى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في الغار اختفاءً عن أعين الأعداء دفعاً للضرر. وأخذ السلاح في الصلاة فليس دافعاً قطعاً كقتل الحيّة والعقرب فإنّه يكون دافعاً قطعاً و لكن أخذ السلاح سببٌ مظنونٌ وقد بيّنّا أنّ المظنون كالمقطوع به ، و إنّما الموهوم هو الّذي يقتضي التوكّل تركه

فان قلت : فقد حكي عن جماعة أنّ الأسد وضع يديه على كتفيه ولم يتحرّك ؟ فأقول : و قد حكي عن جماعة أنّهم ركبوا الأسد وسخّروه ولا ينبغي أن يعول على ذلك فإنّه و إن كان صحيحاً في نفسه فلا يصلح الاقتداء بطريق التعلّم من الغير بل ذلك مقام رفيع في الكرامات و ليس ذلك شرطاً في التوكّل و فيه أسرار لا تقف عليها ما لم تنته إليها .

فإن قلت : وهل من علامة أعلم بها أنّي قد وصلت إليها ؟ فأقول : الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات و لكن من العلامات السابقة عليه أن يسخّر لك كلب

---

(١) النحل : ٤١ و ٤٢ .
(٢) رواه الترمذي من حديث أنس .
(٣) النساء : ٧١
(٤) النساء : ٧٢ .
(٥) الانفال : ٦٠
(٦) الدخان : ٢٣

هو معك في إهابك يسمّى الغضب فلا يزال يعضّك و يعضّ غيرك فإن سخّر لك هذا الكلب بحيث إذا هيّج وأشلى لم يستشل إلّا بإشارتك و كان مسخّراً لك فربّما ترتفع درجتك إلى أن يسخّر لك الأسد الّذي هو ملك السباع و كلب دارك أولى بأن يكون مسخّراً لك من كلب البوادي وكلب اهابك أولى بأن يتسخّر لك من كلب دارك فإن لم يسخّر لك الكلب الباطن فلا تطمع في استسخار الكلب الظاهر.

فإن قلت: فإذا أخذ المتوكّل سلاحه حذراً من العدوّ و أغلق بابه حذراً من اللّصّ وعقل بعيره حذراً من أن ينطلق فبأيّ اعتبار يكون متوكّلاً.

فأقول: يكون متوكّلا بالعلم والحال فأمّا العلم فهو أن يعلم أنّ اللّصّ إن اندفع لم يندفع بكفايته في إغلاق الباب بل لم يندفع إلّا بدفع الله تعالى إيّاه فكم من باب يغلق ولا ينفع و كم من بعير يعقل و يموت أو ينفلت و كم من أخذ سلاح يغلب و يقتل فلا تتّكل على هذه الأسباب أصلاً بل على مسبّب الأسباب كما ضربنا المثل في الموكّل بالخصومة، فإنّه و إن حضر و أحضر السجلّ فلا يتّكل على نفسه و على سجلّه بل على كفاية الوكيل وقوّته، و أمّا الحال فهو أن يكون راضياً بما يقضي الله به في بيته و نفسه ويقول: اللّهمّ إن سلّطت عليّ ما في البيت من يأخذه فهو في سبيلك وأنا راض بحكمك فإنّي لا أدري أنّ ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية أو وديعة فتستردّها ولا أدري أنّها رزقي أو سبقت مشيّتك في الأزل بأنّه رزق غيري و كيف ما قضيت فأنا راض به و ما أغلقت الباب تحصّناً من قضائك وتسخّطاً له بل جرياً على مقتضى سنّتك في ترتيب الأسباب فلا ثقة إلّا بك يا مسبّب الأسباب، فإذا كان هذا حاله وذلك الّذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكّل بعقل البعير و أخذ السلاح و إغلاق الباب، ثمّ إذا عاد فوجد ما في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله و إن لم يجده بل وجده مسروقاً نظر إلى قلبه، فإن وجده راضياً أو فرحاً بذلك عالماً بأنّه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلّا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صحّ مقامه في التوكّل وظهر له صدقه، و إن تألّم قلبه به و وجد قوّة الصبر فقد بان له أنّه ما كان صادقاً في دعوى التوكّل لأنّ التوكّل مقام بعد الزّهد ولا يصحّ الزّهد إلّا ممّن لا يتأسّف على مافات

من الدّنيا ولايفرح بما يأتي بل قد يكون على العكس منه فكيف يصحّ له التوكّل نعم قد صحّ له مقام الصبر إن أخفاه و لم يظهر شكواه و لم يكثر سعيه في الطلب والتجسّس و إن كان لا يقدر على ذلك حتّى تأذّى بقلبه و أظهر الشكوى بلسانه و استقصى الطلب بنفسه فقد كانت السرقة مزيداً له في ذنبه من حيث إنّها ظهر له قصوره عن جميع المقامات و كذبه في جميع الدّعاوي فبعد هذا ينبغي أن يجتهد حتّى لايصدق نفسه في دعاويها ولايتدلّى بحبل غرورها فإنّها خدّاعة أمّارة بالسوء ومدّعية للخير.

فإن قلت: فكيف يكون للمتوكّل مال حتّى يؤخذ؟ فأقول: المتوكّل لايخلو بيته عن متاع كقصعة يأكل فيها و كوز يشرب منه وإناء يتوضّأ منه وجراب يحفظ به زاده و عصا يدفع به عدوّه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يمسكه ليجد محتاجاً فيصرفه إليه فلايكون ادّخاره على هذه النيّة مبطلاً لتوكّله وليس من شرط التوكّل إخراج الكوز الّذي يشرب منه و الجراب الّذي فيه زاده و إنّما ذلك في المأكول و في كلّ مال زائد على قدر الضرورة لأنّ سنّة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء المتوكّلين في زوايا المساجد و ما جرت السنّة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كلّ يوم ولا في كلّ اُسبوع والخروج عن سنّة الله ليس شرطاً في التوكّل.

فإن قلت: فكيف يتصوّر أن لايحزن إذا اُخذ متاعه الّذي هو محتاج إليه ولا يتأسّف عليه فإن كان لايشتهيه فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن أمسكه لأنّه يشتهيه لحاجته إليه فكيف لايتأذّى ولايحزن وقد حيل بينه وبين ما يشتهيه؟ فأقول: إنّما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذا كان يظنّ أنّ الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع و لولا أنّ الخيرة له فيه لما رزقه الله ولما أعطاه فاستدلّ على ذلك بتيسير الله و حسن الظنّ بالله مع ظنّه أنّ ذلك معين له على أسباب دينه و لم يكن ذلك عنده مقطوعاً به إذ يحتمل أن يكون خيرته في أن يبتلى بفقد ذلك حتّى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر، فلمّا أخذه الله منه بتسليط اللّص ما تغيّر قلبه لأنّه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظنّ به فيقول: لولا أنّ الله تعالى

علم أنّ الخيرة لي كانت في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها منّي وبمثل هذا يتصوّر أن يندفع الحزن عنه إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بالأسباب من حيث أنّها أسباب بل من حيث إنّه يسّرها مسبّب الأسباب عناية به و تلطّفاً و هو كالمريض بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فإن قدّم إليه الغذاء فرح وقال: لولا أنّه عرف أنّ الغذاء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قدّمه إليّ و إن أخّر عنه الغذاء بعد ذلك أيضاً فرح و قال: لولا أنّ الغذاء يضرّني و يسوقني إلى الموت لماحال بيني وبينه، وكلّ من لا يعتقد في لطف الله ما يعتقده المريض في الوالد المشفق الحاذق بعلم الطبّ فلا يصحّ منه التوكّل أصلاً و من عرف الله و عرف أفعاله و عرف سنّته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فإنّه لا يدري أيّ الأسباب خير له و كذلك ينبغي أن لا يبالي المتوكّل بسرقة متاعه أو ببقائه فإنّه لا يدري أيّهما خير له في الدّنيا و في الآخرة، فكم من متاع في الدّنيا يكون سبب هلاك الإنسان و كم من غني يبتلى بواقعة لأجل غناه يقول: ياليتني كنت فقيراً.

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد آداب المتوكّلين إذا سرق متاعهم ولمّا لم يكن لها كثير فائدة ولاخصوص مناسبة لباب التوكّل طويناها.

✿(الفنّ الرّابع السّعي في إزالة الضّرر كمداواة المرض وغيرها)✿

إعلم أنّ الأسباب المزيلة للضرر أيضاً تنقسم إلى مقطوع به كالماء المزيل لضرر العطش والخبز المزيل لضرر الجوع و إلى مظنون كالفصد والحجامة وشرب المسهل و سائر أبواب الطبّ أعني معالجة البرودة بالحرارة ومعالجة الحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطبّ و إلى موهوم كالكيّ و الرّقية أمّا المقطوع به فليس من التوكّل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت، و أمّا الموهوم فشرط التوكّل تركه إذ به وصف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم المتوكّلين وأقواها الكيّ ويليه الرّقية و الطيرة آخر درجاتها و الاعتماد عليها و الاتّكال إليها غاية التعمّق في ملاحظة الأسباب، و أمّا الدّرجة المتوسّطة وهي المظنونة كالمداواة بالأسباب الظاهرة عند الأطبّاء ففعله ليس مناقضاً للتوكّل بخلاف الموهوم وتركه ليس محظوراً بخلاف المقطوع به بل قد يكون أفضل

من فعله في بعض الأحوال و في حقّ بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدّرجتين و يدلّ على أنّ التداوي غير مناقض للتوكّل فعل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و قوله وأمره به أمّا قوله فقد قال صلّى الله عليه وآله : « ما من داء إلّا وله دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلّا السام »[١] يعني الموت ، و قال : «تداووا عبادالله فإنّ الله خلق الدّاء و الدّواء »[٢] وسئل عن الدّواء والرّقي هل تردّ من قدرالله تعالى فقال : «هي من قدرالله تعالى»[٣] و في الخبر المشهور «ما مررت بملأ من الملائكة إلّا قالوا مر اُمّتك بالحجامة »[٤] و في الحديث أنّه أمر بها و قال : « احتجموا لسبع عشرة و تسع عشرة وإحدى و عشرين لا يتبيّغ بكم الدّم فيقتلكم »[٥] فذكر أنّ تبيّغ الدّم سبب الموت و أنّه قاتل باذن الله و بيّن أنّ إخراج الدّم خلاص منه إذ لا فرق حينئذ بين إخراج العقرب من تحت الثياب و بين إخراج الدّم المهلك من الإهاب وإلى إخراج الحيّة من البيت ، و ليس من شرط التوكّل ترك ذلك بل هو كصبّ الماء على النّار لإطفائه ودفع ضررها عند وقوعها في البيت ، و ليس من التوكّل الخروج عن سنّة الوكيل أصلاً ، و في خبر مقطوع « من احتجم يوم الثلثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة »[٦] .

---

(١) أخرجه أحمد ج ١ ص ٣٧٧ و ٤١٣ دون قوله « الا السام » و رواه البزار بتمامه والطبرانى فى الصغير من حديث أبى سعيد الخدرى كمافى مجمع الزوائد ج ٥ ص ٨٤ .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٩٢ وابن ماجه تحت رقم ٣٤٣٦ بنحوه .

(٣) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ٢٢٤ من حديث أبى حزامة عن أبيه .

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٤٧٩ من حديث أنس .

(٥) راجع مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٣ نقله عن البزار فى مسنده بتمامه . وأخرجه الطيالسى تحت رقم ٢٦٦٦ من حديث عكرمة عن ابن عباس هكذا « خير ما تحتجمون فيه سبع عشرة و تسع عشرة واحدى و عشرين » و أخرجه أحمد هكذا ج ١ ص ٣٥٤ .

(٦) رواه الطبرانى مسنداً وفيه زيد بن أبى الحوارى وهوضعيف وقد وثقه الدارقطنى وغيره كما فى مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٣ .

وأمّا أمره فقد أمر صلّى الله عليه وآله غير واحد من الصحابة بالتداوي و الحمية [١]. وقطع لسعد بن معاذ عرقاً أي فصده [٢] و كوى سعد بن زرارة [٣]، وقال لعلي عليه السلام وكان رَمَد العين: لاتأكل من هذا يعني الرُّطب وكُل من هذا فإنّه أوفق لك يعني سلقاً قد طبخ بدقيق أو شعير [٤] و قال لصهيب و قد رآه يأكل التمر و هو رمد العين الواحدة: أتأكل تمراً وأنت رمد؟ فقال إنّما آكل بالجانب الآخر فتبسّم صلّى الله عليه وآله» [٥].

وأمّا فعله فقد روي في حديث من طريق أهل البيت أنّه كان يكتحل كلّ ليلة ويحتجم كلّ شهر ويشرب الدّواء كلّ سنة [٦] قيل: السناء المكّيّ، وتداوى عليه السلام غير مرّة من العقرب وغيرها [٧] و روي أنّه «كان إذا نزل عليه الوحي تصدع رأسه فكان يغلّفه بالحنّاء» [٨] و في خبر آخر أنّه «كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حنّاء» [٩] و قد جعل على قرحة خرجت به تراباً [١٠] و ما روي في تداويه و أمره

---

(١) أخرج الترمذى من حديث اسامة بن شريك قال قالت الاعراب: يا رسول الله ألا نتداوى قال: نعم يا عبادالله تداووا - الخبر - » و راجع سنن ابن ماجه كتاب الطب باب الحمية.

(٢) أخرجه مسلم، و رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ١٣١.

(٣) رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ١٣٢.

(٤) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ١٩ من حديث ام المنذر، و قال: حسن غريب.

(٥) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٣٤٤٣.

(٦) قال العراقى: أخرجه ابن عدى من حديث عائشة بسند فيه سيف بن محمد كذبه أحمد و يحيى بن معين.

(٧) قال العراقى: روى الطبرانى باسناد حسن من حديث جبلة بن الازرق «أن رسول الله لدغته عقرب فغشى عليه فرقاه الناس - الحديث» وله فى الاوسط من رواية سعيد بن ميسرة وهو ضعيف عن أنس «أن النبى صلى الله عليه و آله كان اذا اشتكى تقمح كفاً من شونيز و يشرب عليه ماء و عسلا» و لابى يعلى و الطبرانى فى الكبير من حديث عبدالله بن جعفر «أن النبى صلى الله عليه و آله احتجم بعد ماسم».

(٨) رواه البزار كما فى مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٥.

(٩) رواه ابن ماجه تحت رقم ٣٥٠٢، والترمذى ج ٨ ص ٢١١.

(١٠) رواه البخارى ج ٧ ص ١٧٢، و مسلم ج ٧ ص ١٧.

بذلك كثير خارج عن الحصر، و قد صنّف في ذلك كتاب وسمّي طبّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وذكر بعض العلماء في الإسرائيليّات أنّ موسى عليه السلام اعتلّ بعلّة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علّته فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرأت فقال: لا أتداوى حتّى يعافيني من غير دواء، فطالت علّته فقالوا له: إنّ دواء هذه العلّة معروف مجرّب وإنّا نتداوي به فنبرأ، فقال: لا أتداوى فدامت علّته فأوحى الله إليه وعزّتي و جلالي لا أبرأتك حتّى تتداوى بما ذكروه لك، فقال لهم: داووني بما ذكرتم فداووه فبرأ، فأوجس في نفسه من ذلك فأوحى الله إليه أردت أن تبطل حكمتي بتوكّلك عليّ فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟

و يروى في آخر أنّ نبيّاً من الأنبياء شكا علّة يجدها فأوحى الله إليه كل البيض[1]. وشكا نبيّ آخر الضعف فأوحى الله إليه كل اللّحم باللّبن فإنّ فيهما القوّة[2] قيل: هو الضعف عن الجماع.

و قد روي أنّ قوماً شكوا إلى نبيّهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنّه يحسّن الولد. ويفعل ذلك في الشهر الثالث والرّابع إذ فيه يصوّر الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبالى السفرجل والنفساء الرطب، فبذا يتبيّن أنّ مسبّب الأسباب أجرى سنّته بربط المسبّبات بالأسباب إظهاراً للحكمة و الأدوية أسباب مسخّرة لحكمة الله تعالى كسائر الأسباب، فكما أنّ الخبز دواء الجوع و الماء دواء العطش فالسكنجبين دواء الصفراء و السقمونيا دواء الإسهال لا يفارقه إلّا في أمرين أحدها أنّ معالجة الجوع والعطش بالماء والخبز جليّ واضح يدركه كافّة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجبين يدركه بعض الخواصّ فمن أدركه بالتجربة التحق في حقّه بالأوّل. والثاني أنّ الدّواء يسهل والسكنجبين يسكّن الصفراء بشروط اُخر في الباطن وأسباب في المزاج ربّما يتعذّر الوقوف على جميعها و ربّما يفوت بعض الشروط فيتقاعد الدّواء عن الإسهال، وأمّا زوال العطش فلا يستدعي سوى الماء شروطاً كثيرة وقد يتّفق من العوارض ما يوجب دوام العطش

(١) و (٢) الكافي ج ٦ ص ٣٢٥ و ٣١٦

مع كثرة شرب الماء و لكنّه نادر واختلاف الأسباب أبداً ينحصر في هذين الفنّين و إلّا فالمسبّب يتلوا السبب لامحالة مهما تمّت شروط السبب ، و كلّ ذلك بتدبير مسبّب الأسباب و تسخيره وترتيبه بحكم حكمته و كمال قدرته ، فلا يضرّ المتوكّل استعماله مع النظر إلى مسبّب الأسباب دون الطبيب و الدّواء ، و قد روي عن موسى عليه السلام أنّه قال : يا ربّ ممّن الدّاء و الشفاء فقال تعالى : منّي قال : فما يصنع الأطبّاء ؟ قال : يأكلون أرزاقهم ويطيبون نفوس عبادي حتّى يأتي شفائي أو قبضي ، فإذن معنى التوكّل مع التداوي التوكّل بالعلم والحال كما سبق في فنون الأعمال الدّافعة للضرر و الجالبة للنفع فأمّا ترك التداوي رأساً فليس شرطاً فيه .

فإن قلت : فالكيّ أيضاً من الأسباب الظاهرة للنفع ؟ فأقول: ليس كذلك إذ الأسباب الظاهرة مثل الفصد و الحجامة و شرب المسهل وسقي المبردات للمحرور وأمّا الكيّ فلو كان مثلها في الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه ، و قلّما يعتاد الكيّ في أكثر البلاد و إنّما ذلك عادة بعض الأتراك و الأعراب فهي من الأسباب الموهومة كالرقي إلّا أنّه تميّز عنها بأمر وهو إحراق بالنار في الحال مع الاستغناء عنه فإنّه ما من وجع يعالج بالكيّ إلّا وله دواء ينوب عنه ليس فيه إحراق فالإحراق بالنار جرح مؤلم مخرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه ، بخلاف الفصد والحجامة فإنّ سرايتهما بعيدة ولا يسدّ مسدّهما غيرهما و لذلك نهى صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الكيّ دون الرّقي[(١)] و كلّ واحد منهما بعيد عن التوكّل و روي « أنّ عمران بن الحصين اعتلّ فأشاروا إليه بالكيّ فامتنع فلم يزالوا به وعزم عليه الأمر حتّى اكتوى وكان يقول: كنت أرى نوراً و أسمع صوتاً وتسلّم عليّ الملائكة فلمّا اكتويت انقطع ذلك عنّي و كان يقول : اكتوينا كيّات فو الله ما أفلحن ولاأنجحن ، ثمّ تاب من ذلك و أناب الله تعالى إليه ما كان يجد من أمر الملائكة ، وقال لمطرف بن عبد الله : ألم تر إلى

(١) راجع سنن الترمذى ج ٨ ص ٢٠٦ ، و سنن ابن ماجه تحت رقم ٣٤٩١ . وفى الصحيحين فى كتاب الطب من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه و آله فى الرقية من كل ذى حمة

الكرامة الّتي كان أكرمني الله بها قد ردّها عليّ بعد أن كان قد أخبره بفقدها. فإذن الكيّ و ما يجري مجراه هو الّذي لا يليق بالمتوكّل لأنّه يحتاج في استنباطه إلى تدبير ثمّ هو موهوم فيدلّ ذلك على شدّة ملاحظة الأسباب و على التعمّق فيها.

أقول: ثمّ شرع أبوحامد في بيان أنّ ترك التداوي قد يحمد في بعض الأحوال و يدلّ على قوّة التوكّل ونقل عن جماعة من الأكابر أنّهم كانوا لا يتداوون أمراضهم كأبي الدّرداء فإنّه قيل له في مرضه: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي، قيل: فما تشتهي قال: مغفرة ربّي قالوا: ألا ندعولك طبيباً قال: الطبيب أمرضني، قال: و ربّما يظنّ أنّ ذلك نقصان لأنّه لو كان كمالاً لتركه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذ لا يكون حال غيره في التوكّل أكمل من حاله، ثمّ أجاب عنه بأنّ لترك التداوي أسباباً ثمّ ذكر لذلك أسباباً و عللاً عليلة غيرموجّهة إلّاما يرجع إلى ماسبق ذكره من كون الدّواء موهوم النفع جارياً مجرى الكيّ والرّقية فيتركه المتوكّلون ثمّ شرع في بيان الرّدّ على من قال: إنّ ترك التداوي أفضل على كلّ حال ثمّ ذكر حكم التوكّل في إظهار المرض و كتمانه وختم به الكتاب وأطنب في ذلك كلّه بما لا طائل تحته فنحن نطوي ذكر ذلك كلّه لقلّة جدواه و بعد معناه عن طريقة أهل البيت عليهم السلام إلّا كلاماً واحداً ذكره في أثناء ردّه على من فضل ترك التداوي فإنّا نورده بألفاظه ونختم به الكتاب إن شاء الله تعالى.

قال: فإن قلت: فلم نهى عن الخروج من البلد الّذي فيه الوباء و إنّ سبب الوباء في الطبّ الهواء و أظهر طرق التداوي الفرار من المضرّ والهواء هو المضرّ فلم لم يرخّص فيه.

فاعلم أنّه لاخلاف في أنّ الفرار من المضرّ غير منهيّ عنه إذ الحجامة فرار من المضرّ وترك التوكّل في هذا مباح فهذا لايدلّ على المقصود ولكنّ الّذي ينقدح فيه والعلم عندالله إنّ الهواء لايضرّ من حيث تلاقي ظاهر البدن من حيث دوام الاستنشاق له فإنّه إذا كانت فيه عفونة ووصل إلى الكبد والقلب[1] وباطن الأحشاء أثّر فيها بطول

---

(١) في الاحياء الى الرية و القلب.

الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلّا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخلّص غالباً من الأثر الّذي استحكم من قبل ولكنّه يتوهّم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرُّقي والطيرة وغيرهما فلو تجرّد هذا المعنى لكان مناقضاً للتوكّل ولم يكن منهيّاً عنه ولكن صار منهيّاً عنه لأنّه انضاف إليه أمرٌ آخر وهو أنّه لو رخّص للأصحّاء في الخروج لما بقي في البلد إلّا المرضى الّذين أقعدهم المرض و الطاعون و انكسرت قلوبهم و فقدوا المتعهّدين ، ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء و يطعمهم الطعام ، و هم يعجزون عن مباشرة ذلك بأنفسهم فيكون ذلك سعياً في إهلاكهم تحقيقاً وخلاصهم منتظر كما أنّ خلاص الأصحّاء أيضاً منتظر فلو أقاموا لم تكن الاقامة قاطعاً بالموت ، ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطعاً بالخلاص و هو قاطع في إهلاك الباقين ، والمسلمون كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً ، والمؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إلى سائر أعضائه فهذا هو الّذي ينقدح عندنا في تعليل النهي وينعكس هذا فيمن لم يقدم على البلد فإنّه لم يؤثّر الهواء في باطنهم ولا بأهل البلد حاجة إليهم نعم لو لم يبق في البلد إلّا مطعونون وافتقروا إلى المتعهّدين فقدم عليهم قومٌ ، فربّما كان ينقدح استحباب الدّخول ههنا لأجل الإعانة ولا ينهى عن الدّخول لأنّه تعرّض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن بقيّة المسلمين ولهذا شبه الفرار من الطاعون في بعض الأخبار(١) بالفرار من الزّحف لأنّ فيه كسراً لقلوب بقيّة المسلمين و يصير سعياً في إهلاكهم ، فهذه اُمور دقيقة فمن لا يلاحظها و ينظر إلى ظواهر الأخبار و الآثار يتناقض عنده أكثر ما يسمعه و غلط الزّهّاد و العبّاد في مثل هذا يكثر وإنّما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك

تمّ كتاب التوحيد و التوكّل من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و يتلوه كتاب المحبّة و الشوق و الرّضا و الاُنس إن شاء الله تعالى .

و فرغ منه مؤلّفه محسن بن مرتضى جعله الله من الموحّدين المتوكّلين والحمد لله ربّ العالمين و الصلاة والسلام على محمّد وآله الطاهرين

(١) تشبيه الفرار من الطاعون من الزحف أخرجه أحمد فى مسنده ج ٦ ص ١٤٥ من حديث عائشة .

فهرست ما فى هذا المجلّد

الصفحة	الموضوع
	كتاب التوبة
٥	الرُّكن الأوَّل في نفس التوبة
٥	باب حقيقة التوبة و حدِّها
٦	وجوب التوبة وفضلها
١٣	بيان أنَّ وجوب التوبة على الفور
١٦	وجوب التوبة عامٌّ
٢٣	بيان أنَّ التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة
٢٨	الركن الثاني فيما عنه التوبة
٢٨	بيان اقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد
٤٢	بيان كيفيّة توزّع الدرجات والدركات
٥٨	بيان ما تعظم به الصغائر من الذُّنوب
٦٢	الرُّكن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامه إلى آخر العمر
٧٩	بيان اقسام العباد في دوام التوبة
٨٤	بيان ماينبغي أن يبادر إليه التائب
٩٠	الرُّكن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحلّ عقدة الاصرار
	كتاب الصبر والشكر
١٠٥	الشطر الأوَّل في الصبر
١٠٩	بيان حقيقة الصبر ومعناه
١١٥	بيان كون الصبر نصف الايمان
١١٦	بيان الأسامي الّتي تتجدّد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر

الصفحة	الموضوع
١١٨	بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوّة والضعف
١٢١	بيان مظانّ الحاجة إلى الصبر
١٣٢	بيان دواء الصبر و ما يستعان به عليه
١٤٠	الشطر الثاني من الكتاب في الشكر
١٤١	بيان فضيلة الشكر
١٤٤	بيان حدّ الشكر وحقيقته
١٥١	بيان كشف الغطاء عن الشكر في حقّ الله سبحانه
١٦٠	بيان تمييز ما يحبّه الله تعالى عمّا يكرهه
١٧٥	الرّكن الثاني من أركان الشكر
١٧٥	بيان حقيقة النعمة وأقسامها
١٩٢	بيان وجه الانموذج في كثرة نعم الله
٢١٧	بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر
٢٢٤	بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد
٢٣٥	بيان فضل النعمة على البلاء
٢٣٧	بيان الأفضل من الصبر والشكر
	كتاب الخوف والرّجاء
٢٤٩	بيان حقيقة الرّجاء
٢٥٣	بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه
٢٥٦	بيان دواء الرجاء والسبب الّذي يحصل منه حال الرجاء
٢٦٩	الشطر الثاني من الكتاب في الخوف
٢٦٩	بيان حقيقة الخوف
٢٧١	بيان درجات الخوف واختلافه

الصفحة	الموضوع
٢٧٣	بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه
٢٧٥	بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه
٢٨٢	بيان أنّ الأفضل هوغلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما
٢٨٦	بيان دواء الّذي به يستجلب حال الخوف
٢٩٣	بيان معنى سوء الخاتمة
٣٠٥	بيان أحوال الأنبياء والأولياء و الملائكة في الخوف
	كتاب الفقر والزّهد
٣١٤	بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير
٣١٩	بيان فضيلة الفقر مطلقاً
٣٢٤	بيان فضيلة خصوص الفقراء من الرّاضين و القانعين والصادقين
٣٢٧	بيان فضيلة الفقر على الغنى
٣٣٠	بيان آداب الفقير في فقره
٣٣٢	بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال
٣٣٦	بيان تحريم السؤال من غير ضرورة
٣٤٢	بيان مقدار الغنى المحرّم للسؤال
٣٤٥	الشطر الثاني من الكتاب في الزّهد
٣٤٥	بيان حقيقة الزّهد
٣٥٠	بيان فضيلة الزّهد
٣٥٧	بيان درجات الزّهد وأقسامه
٣٦٤	بيان تفصيل الزّهد فيما هو من ضرورات الحياة
٣٦٩	بيان علامات الزّهد
٣٧٠	كلام الصادق عليه السلام في الزهد

الصفحة	الموضوع

كتاب التوحيد والتوكّل

٣٧٨ بيان فضيلة التوكّل

٣٨١ بيان حقيقة التوحيد الّذي هو أصل التوكّل

٤٠٥ الشطر الثاني من الكتاب في أحوال التوكّل وأعماله

٤٠٥ بيان حال التوكّل

٤١٣ بيان أعمال المتوكّلين وفيه أربعة فنون

٤١٤ الفنّ الأوّل في جلب النافع

٤٢٣ الفنّ الثاني في التعرّض لأسباب الادّخار

٤٢٥ الفنّ الثالث في مباشرت الأسباب الدافعة للضرر المتعرّض للخوف

٤٢٩ الفنّ الرابع السعي في إزالة الضرر كمداواة المرض و غيرها

المحجة البيضاء

في تهذيب الأحياء

المحجة البيضاء

في تهذيب الأحياء

تأليف

المحقق العظيم والمحدث الكبير الحكيم المتأله محمد بن المرتضى المدعو

بالمولى محسن الكاشاني ره

المتوفى ١٠٩١ هـ

صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري

دفتر انتشارات اسلامي

وابسته بجامعه مدرسين حوزه علميه قم

الجزء الثامن

تیراژ: ۵۰۰۰ نسخه
چاپ و صحافی: چاپخانه سپهر، تهران

حمداً لك يا من جعل الحمد مفتاحاً لذكره ، وطريقاً من طرق الاعتراف بوحدانيّته ، و سبباً لمزيد فضله و نعمه ، و محجّة بيضاء لطالبي فضله و إحسانه .

و صلاة على رسولك الأعظم ، و الهادي إلى صراطك الأقوم وعلى آله أئمّة الهدى ، ومصابيح الدّجى .

كتاب المحبة والشوق والرّضا والانس

وهو الكتاب السّادس من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي نزّه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى متاع الدّنيا و نضرته، وصفى سرائرهم عن ملاحظة غير حضرته، ثمّ استخلصها للعكوف على بساط عزّته، ثمّ تجلّى لها بأسمائه وصفاته حتّى أشرقت بأنوار معرفته، ثمّ كشف لها عن سبحات وجهه حتّى احترقت بنار محبّته، ثمّ احتجب عنها بكنه جلاله حتّى تاهت في بيداء كبريائه وعظمته، فكلّما اهتزّت لملاحظة كنه الجلال غشيها من الدّهش ماأغبر في وجه العقل وبصيرته، و كلّماهمّت بالانصراف عنه آيسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً أيّها الآئس عن نيل الحقّ بجهله وعجلته، فبقيت بين الردّ والقبول والصدّ والوصول غرقى في بحر معرفته، محترقة بنار محبّته، والصلاة على محمّد خاتم الأنبياء بكمال نبوّته، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمّته، وقادة الحقّ و أزمّته و سلّم كثيراً.

أمّا بعد فإنّ المحبّة لله عزّ وجلّ هي الغاية القصوى من المقامات و الذّروة العليا من الدّرجات فما بعد إدراك المحبّة مقام إلّا و هو ثمرة من ثمراتها و تابع من توابعها كالشوق و الاُنس والرّضا و أخواتها، و لا قبل المحبّة مقام إلّا و هو مقدّمة من مقدّماتها كالتوبة و الصبر والزّهد وغيرها وسائر المقامات وإن عزّ وجودها فلم تخل القلوب عن الإيمان بإمكانها، فأمّا محبّة الله عزّ وجلّ فقد عزّ الإيمان بها حتّى أنكر بعض العلماء إمكانها و قال: لامعنى لها إلّا المواظبة على طاعة الله عزّ و جلّ، و أمّا حقيقة المحبّة فمحال إلّا مع الجنس و المثال، و لمّا أنكروا

المحبّة أنكروا الأنس والشوق ولذّة المناجاة وسائر لوازم الحبّ و توابعه و لابدّ من كشف الغطاء عن هذا الأمر ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبّة ، ثمّ بيان حقيقتها و أسبابها ، ثمّ بيان أن لامستحق للمحبة إلّا الله عزّ وجلّ ، ثمّ بيان أنّ أعظم اللّذات لذّة النظر إلى وجه الله تعالى ، ثمّ بيان سبب زيادة لذّة النظر في الآخرة على المعرفة في الدّنيا ، ثمّ بيان الأسباب المقوّية لحبّ الله تعالى ثمّ بيان السبب في تفاوت الناس في الحبّ لله ، ثمّ بيان السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله عزّ وجلّ ، ثمّ بيان معنى الشوق ، ثمّ بيان محبّة الله عزّ و جلّ للعبد ، ثمّ القول في علامات محبّة العبد لله تعالى ، ثمّ بيان معنى الأنس بالله تعالى ، ثمّ بيان معنى الانبساط في الأنس ، ثمّ القول في معنى الرّضا وبيان فضيلته ، ثمّ بيان حقيقته ، ثمّ بيان أنّ الدّعاء و كراهة المعاصي لا تناقضه و كذا الفرار من المعاصي ، ثمّ بيان حكايات المحبّين و كلمات للمحبّين متفرّقة .

✿(بيان شواهد الشرع فى حب العبد لله تعالى)✿

إعلم أنّ الاُمّة مجمعة على أنّ الحبّ لله عزّ وجلّ ولرسوله فرض ولن يفترض ما لا وجود له و كيف يفسّر الحبّ بالطاعة و الطاعة تبع الحبّ و ثمرته فلابدّ أن يتقدّم الحبّ ثمّ بعد ذلك يطيع من أحبّ فمن شواهد الشرع في حبّ الله عزّ وجلّ قوله : «يحبّهم ويحبّونه»[1] وقوله تعالى: «والّذين آمنوا أشدّ حبّاً لله» [2] وهو دليل على إثبات الحبّ لله و إثبات التفاوت فيه ، و قد جعل النبيّ صلّى الله عليه وآله الحبّ لله من شروط الايمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي : يا رسول الله ما الايمان ؟ قال : «أن يكون الله ورسوله أحبّ إليك ممّا سواهما »[3] وفي حديث آخر «لا يؤمن أحدكم حتّى يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما »[4] وفي حديث آخر «لايؤمن

(١) المائدة : ٥٩ . (٢) البقرة : ١٦٠ .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند ج ٤ ص ١١ فى حديث .

(٤) أخرجه بمضمونه النسائي ج٨ ص٩٤ ، وأحمد فى مسنده ج ٣ ص ١٧٢ ، والطبراني فى الاوسط .

العبد حتّى أكون أحبّ إليه من ماله وأهله والناس أجمعين »[١] وفي رواية « ومن نفسه » .

كيف و قد قال تعالى : « قل إن كان آباؤكم و أبناؤكم و إخوانكم - إلى قوله - أحبّ إليكم من الله ورسوله - الآية »[٢] .

و إنّما ذلك جرى في معرض التهديد و الإنكار و قد أمر عليه السلام بالمحبّة فقال : « أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه وأحبّوني لحبّ الله إيّاي »[٣] .

و قد يروى أنّ رجلاً قال : « يا رسول الله إنّي أُحبّك ، فقال: استعدّ للفقر ، فقال : إنّي أُحبّ الله ، فقال : استعدّ للبلاء »[٤].

و عن عمر قال : نظر النبيّ عليه السلام إلى مصعب بن عمير مقبلاً و عليه إهاب كبش قد تنطق به[٥] فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : « انظروا إلى هذا الرّجل الّذي قد نوّر الله قلبه لقد رأيته بين أبويه يغذوانه بأطيب الطعام و الشراب فدعاه حبّ الله و حبّ رسوله إلى ما ترون »[٦].

و في الخبر المشهور « إنّ إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلاً يميت خليله؟ فأوحى الله عزّ و جلّ إليه هل رأيت محبّاً يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : يا ملك الموت الآن فاقبض »[٧] و هذه لا يجدها إلّا عبدٌ يحبّ الله عزّ وجلّ بكلّ قلبه فإذا علم أنّ الموت سبب اللّقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتّى يلتفت إليه و قد قال نبينا عليه السلام في دعائه : « اللّهمّ ارزقني حبّك و حبّ

---

(١) أخرجه البخاری ج ١ ص١٢ من حديث أنس وأيضاً مسلم ج ١ ص ٤٩ بنحوه.

(٢) التوبة : ٢٤ .

(٣) أخرجه الترمذی ، والحاكم فی المستدرك ج ٣ ص ١٥٠ من حديث ابن عباس .

(٤) أخرجه البزار ورجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة و فيه « استعد للفاقة » دون آخر الحديث كما فی مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٧٤ . (٥) أی شد وسطه به .

(٦) أخرجه أبو نعيم فی الحلية بسند حسن كما فی المغنی .

(٧) قال العراقی : لم أجد له أصلا .

من يحبّك و حبّ مايقرّبني إلى حبّك واجعل حبّك أحبّ إليّ من الماء البارد»[١].

وجاءأعرابي إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : «يا رسول الله متى الساعة ؟ فقال: ماأعددت لها ؟ فقال : ما أعددت لها كثير صلاة و صيام إلّا أنّي اُحبّ الله و رسوله فقال له : النبيّ عليه السلام : المرء مع من أحبّ »قال أنس : فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك[٢].

و قال بعض الصحابة : من ذاق من خالص محبّة الله عزّ وجلّ شغله ذلك عن طلب الدّنيا وأوحشه عن جميع البشر . وقال آخر: من عرف ربّه أحبّه ، ومن عرف الدّنيا زهد فيها و أبغضها ، والمؤمن لايلهو حتّى يغفل فإذا تفكّر حزن .

وقال أبوسليمان الدّاراني : إنّ من خلق الله تعالى خلقاً ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشتغلون عنه بالدّنيا .

و يروى أن عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلت أبدانهم و تغيّرت ألوانهم فقال لهم : ماالّذي بلغ بكم ما أرى؟ فقالوا : الخوف من النار ، فقال : حقّ على الله أن يؤمن الخائف ، ثمّ جاوزهم إلى ثلاثة اُخرى فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً فقال: ما الّذي بلغ بكم ماأرى؟قالوا: الشوق إلى الجنّة ؟ قال : حقّ على الله أن يعطيكم ما ترجون ، ثمّ جاوزهم إلى ثلاثة اُخرى فإذا هم أشدّ نحولاً وتغيّراً كأنّ على وجوههم المرايا من النور فقال : ماالّذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حبّ الله عزّ وجلّ فقال : أنتم المقرّبون أنتم المقرّبون .

و قال عبد الواحدبن زيد : مررت برجل قائم في الثلج فقلت له : أما تجد البرد؟ فقال : من شغله حبّ الله لم يجدالبرد ، عن سري السقطي أنّه قال : تدعى الاُمم يوم القيامة بأنبيائها فيقال : يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمّد غيرالمحبّين لله تعالى فإنّهم ينادون يا أولياء الله هلمّوا إلى الله سبحانه و تعالى فتكاد قلوبهم تنخلع فرحاً .

---

(١) تقدم عن الترمذي من حديث عبدالله بن يزيد الخطمي بسند حسن كما في الجامع الصغير.

(٢) رواه مسلم ج ٨ ص ٤٢ ، والطبراني والبزار كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٨٠.

و قال هرم بن حيّان : المؤمن إذا عرف ربّه عزّ وجلّ أحبّه وإذا أحبّه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الإقبال إليه لم ينظر إلى الدّنيا بعين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بعين الرّغبة وهو بجسده في الدّنيا وروحه في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذّنوب فكيف رضوانه ، و رضوانه يستغرق الآمال فكيف حبّه ، و حبّه يدهش العقول فكيف ودّه ، و ودّه ينسي ما دونه فكيف لطفه. و في بعض الكتب : عبدي أنا وحقّك لك محبّ فبحقّي عليك كن لي محبّاً . وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحبّ أحبّ إلى الله من عبادة سبعين سنة بلاحبّ. وقال أيضاً : إلهي إنّي مقيم بفنائك ، مشغول بثنائك صغيراً أخذتني إليك و سربلتني بقربك ، و شرّفتني بمعرفتك ، وأمكنتني من لطفك ، ونقلتني في الأحوال ، و قلبتني في الأعمال ستراً و توبة و زهداً و شوقاً ورضاً وحبّاً فسقيتني من حياضك ونعّمتني في رياضك ملازماً لأمرك ومشعوفاً بقولك ولما طرّ شاربي ولاح طائلي (١) فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً و قد اعتدت هذا منك صغيراً فلي مابقيت حولك زمزمة وبالضراعة إليك همهمة ، لأنّي اُحبّك و كلّ حبيب بحبيبه مشعوف ، وعن غير حبيبه مصروف .

أقول : و في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : « حبّ الله إذا أضاء على سرّ عبد أخلاه عن كلّ شاغل و كلّ ذكر سوى الله ، والمحبّ أخلص الناس سرّاً لله و أصدقهم قولاً و أوفاهم عهداً و أزكاهم عملاً وأصفاهم ذكراً و أعبدهم نفساً يتباهى به الملائكة عند مناجاته و تفتخر برؤيته ، وبه يعمر الله تعالى بلاده وبكرامته يكرم الله عباده ، يعطيهم إذا سألوه بحقّه ، و يدفع عنهم البلايا برحمته ، فلو علم الخلق ما محلّه عند الله و منزلته لديه لما تقرّبوا إلى الله إلّا بتراب قدميه . و قال أمير المؤمنين عليه السلام : « حبّ الله نار لا يمرّ على شيء إلّا احترق ، و نور الله لا يطلع على شيء إلّا أضاء ، وسماء الله ماظهر من تحته من شيء إلّا غطّاه ، وريح الله ماتهبّ في شيء إلّا حرّكته وماء الله يحيى به كلّ شيء ، وأرض الله ينبت منها كلّ شيء ،فمن أحبّ الله أعطاه كلّ شيء من المُلك و المِلك . قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إذا أحبّ الله عبداً من اُمّتي قذف في قلوب أصفيائه وأرواح ملائكته و سكّان عرشه محبّته ليحبّوه فذلك المحبّ حقّاً ،

(١) طرّ النبت : يبست ومنه طرّ شارب الغلام . والطائل:الفضل والقدرة و الغنى .

طوبى له ثمّ طوبى له وله‌عندالله شفاعة يوم القيامة »[1] إلى هنا كلام الصادق عليه السلام.

قال أبوحامد: وقد ورد في حبّ الله من الأخبار و الآثار ما لا يدخل في حصر حاصر و ذلك أمرٌ ظاهر و إنّما الغموض في تحقيق معناه فلنشتغل به.

(بيان حقيقة المحبّة و اسبابها)

(وتحقيق معنى محبّة العبد لله تعالى)

إعلم أنّ المطلب من هذا الفصل لاينكشف إلّا بمعرفة حقيقة المحبّة في نفسها ثمّ معرفة شروطها وأسبابها، ثمّ النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حقّ الله عزّ و جلّ، فأوّل ما ينبغي أن يتحقّق أنّه لا يتصوّر محبّة إلّا بعد معرفة و إدراك إذ لا يحبّ الإنسان من لا يعرفه و لذلك لم يتصوّر أن يتّصف بالحبّ جمادٌ بل هو من خاصيّة الحيّ المدرك ثمّ المدركات في أنفسها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذّه وإلى ما ينافيه وينافره ويؤلمه وإلى ما لايؤثّر فيه بايلام و إلذاذ فكلّ ما في إدراكه لذّة و راحة فهو محبوب عند المدرك، و ما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك، و ما يخلو عن استعقاب ألم و لذّة فلا يوصف بكونه محبوباً و لا مكروهاً، فإذن كلّ لذيذ محبوبٌ عند المتلذّذ به، و معنى كونه محبوباً أنّ في الطبع ميلاً إليه ومعنى كونه مبغوضاً أنّ في الطبع نفرة عنه، فالحبّ عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء الملذّ فان تأكّد ذلك الميل و قوي سمّي عشقاً، والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فإذا قوي سمّي مقتاً فهذا أصل في معنى حقيقة الحبّ لابدّ من معرفته.

الأصل الثاني أنّ الحبّ لمّا كان تابعاً للمعرفة و الإدراك انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات و الحواسّ فلكلّ حاسّة إدراك لنوع من المدركات، ولكلّ واحدة منها لذّة في بعض المدركات، و للطبع بسبب تلك اللّذّة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع السليم فلذّة العين في الإبصار و إدراك المبصرات الجميلة والصور المليحة الحسنة، ولذّة الأُذن في النغمات الطيّبة الموزونة، ولذّة الشمّ في الرّوائح الطيّبة، ولذّة الذوق في الطعوم، ولذّة اللّمس في اللّين و النعومة، ولمّا كانت هذه

---

(١) المصدر الباب السادس والتسعون.

المدركات بالحواسّ ملذّة كانت محبوبة أي كان للطبع السليم ميل إليها حتّى قال: عليه السلام «حبّب إليّ من دنياكم ثلاث الطيب و النساء وجعلت قرّة عيني في الصلاة»(١) فسمّى الطيب محبوباً و معلومٌ أن لاحظّ للعين و السمع فيه بل للشمّ فقط و سمّى النساء محبوبات و لاحظّ فيهنّ إلّا للبصر و اللّمس دون الشمّ و الذّوق و السمع و سمّى الصلاة قرّة عين و جعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنّه ليس تحظى بها الحواسّ الخمس بل حسّ سادس مظنّته القلوب لايدركه إلّامن كان له قلبٌ ولذّات الحواسّ الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان فإن كان الحبّ مقصوراً على مدركات الحواسّ الخمس حتّى يقال: إنّ الله تعالى لا يدرك بالحواسّ ولايمثّل في الخيال فلايحبّ فإذن قد بطلت خاصيّة الإنسان وما تميّز به من الحسّ السادس الّذي يعبّر عنه إمّا بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو بما شئت من العبارات فلا مشاحّة فيها وهيهات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشدّ إدراكاً من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للابصار فتكون لا محالة لذّة القلوب بما تدركه من الأُمور الشريفة الإلهيّة الّتي تجلّ عن أن تدركها الحواسّ أتمّ وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحبّ إلّا الميل إلى ما في إدراكه لذّة كما سيأتي تفصيله فلا ينكر إذن حبّ الله تعالى إلّا من قعد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواسّ أصلاً.

الأصل الثالث أنّ الإنسان لا يخفى أنّه يحبّ نفسه ولا يخفى أنّه قد يحبّ غيره لأجل نفسه وهل يتصوّر أن يحبّ غيره لذاته لا لأجل نفسه هذا ممّا قد يشكل على الضعفاء حتّى يظنّون أنّه لايتصوّر أن يحبّ الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظّ إلى المحبّ سوى إدراك ذاته و الحقّ أنّ ذلك متصوّر و موجود فلنبيّن أقسام المحبّة وأسبابها.

و بيانه أنّ المحبوب الأوّل عند كلّ حيّ نفسه وذاته ومعنى حبّه لنفسه أنّ في طبعه ميلاً إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأنّ المحبوب بالطبع هو

---

(١) تقدم كراراً.

الملائم للمحبّ وأي شيء أتمّ ملاءمة من نفسه و دوام وجوده وأيّ شيء أعظم مضادّة و منافرة له من عدمه و هلاكه ، فلذلك يحبّ الإنسان دوام الوجود ، ويكره الموت و القتل لا لمجرّد ما يخافه بعد الموت و لا لمجرّد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم و تعب و أميت من غير ثواب و لا عقاب لم يرض به وكان كارهاً لذلك ولا يحبّ الموت والعدم المحض إلّا لمقاساة ألم في الحياة و مهما كان مبتلى ببلاء فمحبوبه زوال البلاء ، فإن أحبّ العدم لم يحبّه لأنّه عدم بل لأنّ فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم ممقوت و دوام الوجود محبوبٌ و كما أنّ دوام الوجود محبوب فكمال الوجود أيضاً محبوبٌ لأنّ الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر المفقود ، و هو هلاك بالنسبة إليه و الهلاك و العدم ممقوت في الصفات و كمال الوجود كما أنّه ممقوت في أصل الذّات و وجود صفات الكمال محبوبٌ كما أنّ دوام أصل الوجود محبوبٌ وهذه غريزة في الطباع بحكم سنّة الله تعالى : «ولن تجد لسنّة الله تبديلاً »[1] فإذن المحبوب الأوّل للإنسان ذاته ثمّ سلامة أعضائه ، ثمّ ماله و ولده و عشيرته وأصدقاؤه ، فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأنّ كمال الوجود و دوام الوجود موقوفٌ عليها ، والمال محبوبٌ لأنّه أيضاً آلة في دوام الوجود و كماله و كذا سائر الأسباب ، فالإنسان يحبّ هذه الأشياء لا لأعيانها بل لارتباط حظّه في دوام الوجود و كماله بها حتّى أنّه ليحبّ ولده وإن كان لا يناله منه حظّ بل يتحمّل المشاقّ لأجله لأنّه يخلفه في الوجود بعد عدمه فيكون في بقاء نسله نوع بقاء له فلفرط حبّه لبقاء نفسه يحبّ بقاء من هو قائم مقامه ، وكأنّه جزء منه لما عجز عن الطمع في بقاء نفسه أبداً نعم لو خيّر بين قتله و قتل ولده وكان طبعه باقياً على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده لأنّ بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاؤه المحقّق و كذلك حبّه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبّه لكمال نفسه فإنّه يرى نفسه كثيراً بهم قويّاً بسببهم متجمّلاً بكمالهم ، فإنّ العشيرة والمال والأسباب الخارجة كالجناح المكمل للإنسان ، و كمال الوجود و دوامه محبوب بالطبع لا محالة فإذن المحبوب

(١) الفتح : ٢٣ .

الأوّل عند كلّ حيّ ذاته و كمال ذاته ودوام ذلك كلّه والمكروه عنده ضدّ ذلك فهذا هو أوّل الأسباب .

السبب الثاني الإحسان و إنّ الإنسان عبد الإحسان و قد جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اللّهمّ لا تجعل لفاجر عليّ يداً فيحبّه قلبي »(١) أشار إلى أنّ حبّ القلب للمحسن اضطرار لا يستطاع دفعه وهو جبلّة و فطرة لا سبيل إلى تغييرها وبهذا السبب قد يحبّ الإنسان الأجنبيّ الّذي لا قرابة بينه و بينه و لا علاقة ، و هذا إذا حقّق رجع إلى السبب الأوّل فإنّ المحسن من أمد بالمال و المعونة و سائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود و كمال الوجود و حصول الحظوظ الّتي بها يتهيّأ الوجود إلّا أنّ الفرق أنّ أعضاء الإنسان محبوبة لأنّ بها كمال وجوده و هي عين الكمال المطلوب ، فأمّا المحسن فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سبباً له كالطّبيب الّذي يكون سبباً في دوام صحّة الأعضاء ففرق بين حبّ الصحّة وبين حبّ الطبيب الّذي هو سبب الصحّة إذ الصحّة مطلوبة لذاتها و الطبيب محبوبٌ لا لذاته بل لأنّه سببٌ للصحّة ، و كذلك العلم محبوبٌ والاُستاد محبوبٌ ولكنّ العلم محبوبٌ لذاته و الاُستاد محبوبٌ لكونه سبب العلم المحبوب ، و كذلك الطعام و الشراب محبوبٌ و الدّنانير محبوبةٌ لكنّ الطعام محبوبٌ لذاته و الدّنانير محبوبةٌ لأنّها وسيلة إلى الطعام فإذن يرجع الفرق إلى تفاوت الرّتبة و إلّا فكلٌّ واحد يرجع إلى محبّة الإنسان نفسه فكلّ من أحبّ المحسن لإحسانه فما أحبّ ذاته تحقيقاً بل أحبّ إحسانه و هو فعل من أفعاله لو زال ذلك زال الحبّ مع بقاء ذاته تحقيقاً ولو نقص نقص الحبّ ولو زاد زاد و يتطرّق إليه الزّيادة والنقصان بحسب زيادة الإحسان ونقصانه .

السبب الثالث : أن يحبّ الشيء لذاته لا لحظّ ينال منه وراء ذاته ، بل يكون ذاته عين حظّه و هذا هو الحبّ الحقيقي البالغ الّذي يوثق بدوامه و ذلك كحبّ الجمال والحسن فإنّ كلّ جمال فهو محبوبٌ عند مدرك الجمال ، وذلك لعين الجمال

(١) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ وقد تقدم .

لأنّ إدراك الجمال فيه عين اللّذّة واللّذّة محبوبة، ولاتظنّنّ أنّ حبّ الصور الجميلة لا يتصوّر إلّا لأجل قضاء الشهوة فإنّ قضاء الشهوة لذّة اُخرى قد تحبّ الصور الجميلة لأجلها و إدراك نفس الجمال أيضاً لذيذ فيجوز أن يكون محبوباً لذاته و كيف ينكر ذلك، والخضرة و الماء الجاري محبوبان لاليشرب الماء أوتؤكل الخضرة أو ينال منها حظّ سوى نفس الرّؤية وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تعجبه الخضرة والماء الجاري (١) و الطباع السليمة قاضية باستلذاذ النظر إلى الأنوار (٢) و الأزهار و الأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتّى أنّ الانسان لتنفرج عنه الغموم بالنظر إليها لا لطلب حظّ وراء النظر، فهذه الأسباب ملذّة و كلّ لذيذ محبوب و كلّ حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذّة، ولا أحد ينكر كون الجمال محبوباً بالطبع فإن ثبت أنّ الله تعالى جميل كان لا محالة محبوباً عند من انكشف له جماله و جلاله كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله جميل يحبّ الجمال» (٣).

السبب الرابع في بيان معنى الحسن والجمال: إعلم أنّ المحبوس في مضيق الخيالات و المحسوسات ربّما يظنّ أنّه لا معنى للحسن و الجمال إلّا تناسب الخلقة و الشكل وحسن اللّون و كون البياض مشوباً بالحمرة و امتداد القامة إلى غير ذلك ممّا يوصف من جمال شخص الانسان فإنّ الحسّ الأغلب على الخلق حسّ الابصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظنّ أنّ ماليس مبصراً ولا متخيّلاً ولامتشكّلاً ولا متلوّناً منقدّراً فلايتصوّر حسنه، وإذا لم يتصوّر حسنه لم يكن في إدراكه لذّة فلم يكن محبوباً، وهذا خطأ ظاهر فإنّ الحسن ليس مقصوراً على مدركات البصر، و

---

(١) رواه أبو نعيم فى كتاب طب النبى صلى الله عليه و آله من حديث ابن عباس بسند ضعيف كما فى المغنى.

(٢) جمع النور بالفتح مصدر واحدتها نورة ونور النبات زهرتها و بهجتها وغضارتها.

(٣) أخرجه البيهقى فى شعب الايمان من حديث أبى سعيد الخدرى بسند ضعيف، و مسلم و الترمذى من حديث ابن مسعود، والطبرانى فى الكبير من حديث أبى أمامة وابن عساكر من حديث جابر وابن عمر بسند صحيح كما فى الجامع الصغير.

لا على تناسب الخلقة و امتزاج البياض بالحمرة ، فإنّا نقول هذا خطٌّ حسن وهذا صوت حسن بل نقول : هذا ثوب حسن وهذا إناء حسن فأيُّ معني لحسن الصّوت و والخطّ وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلّا في الصورة و معلوم أنَّ العين تستلذّ النظر إلى الخطّ الحسن و الأُذن تستلذُّ استماع النغمات الحسنة الطيّبة و ما من شيء من المدركات إلّا و هي منقسمة إلى حسن وقبح فما معنى الحسن الّذي يشترك فيه هذه الأشياء ، فلابدَّ من البحث عنه ، و هذا بحث يطول ولا يليق بعلم المعاملة الاطناب فيه فنصرّح بالحقّ فنقول : كلُّ شيء فجماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال و هي غاية الكمال و إن كان الحاضر بعضها فله من الحسن و الجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الّذي جمع كلّ ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون و حسن عدو وتيسّر كرّ وفرّ عليه ، و الخطّ الحسن كلُّ ما جمع ما يليق بالخطّ من تناسب الحروف وتوازنها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها و لكلّ شيء كمال يليق به و قد يليق بغيره ضدّه فحسن كلّ شيء في كماله الّذي يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخطّ بما يحسن به الصوت ولا يحسن الأواني بما يحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء ، فإن قلت : فهذه الأشياء و إن لم يدرك جميعها بحسّ البصر مثل الأصوات والطعوم والأرائيح فإنّها لا تنفكُّ عن إدراك الحواسّ لها فهي محسوسات وليس ينكر الحسن و الجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللّذّة بإدراك حسنها و إنّما ينكر ذلك في غير المدرك بالحواسّ ، فاعلم أنَّ الحسن و الجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال: هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن ، وهذه سيرة حسنة ، و هذه أخلاق جميلة و إنّما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة و الشجاعة والتقوى والكرم والمروّة وسائر خلال الخير وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواسّ الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة و كلُّ هذه الخصال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية أنّ الأمر كذلك أنّ الطباع مجبولة على حبّ الانبياء صلوات الله عليهم مع أنّهم لم يشاهدوهم بل على حبّ أرباب المذاهب

حتّى أنّ الرّجل قديجاوزبه حبّه لصاحب مذهبه حدّ العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع أمواله في نصرة مذهبه والذّبّ عنه ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه ، فكم من دم أُريق في نصرة أرباب المذاهب وليت شعري من يحبّ إمامه مثلاً فلِمَ يحبّه ؟ ولم يشاهد قطّ صورته ولوشاهده ربّما لم يستحسن صورته فاستحسانه الّذي حمله على إفراطه في الحبّ إنّما السيرته الباطنة لا لصورته الظاهرة فإنّ صورته الظاهرة قد انقلبت تراباً و إنّما يحبّه لصفاته الباطنة من الدّين و التقوى و غزارة العلم و الإحاطة بمدارك الدّين و انتهاضه لإفاضة علم الشرع ولنشره هذه الخيرات في العالم وهذه أُمور جميلة لا يدرك جمالها إلّا بنور البصيرة فأمّا الحواسّ فقاصرة عنها . و تلك الصفات الباطنة ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذاعلم حقائق الأُمور و قدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته فجميع خلال الخير يتشعّب عن هذين الوصفين و هما غير مدركين بالحسّ و محلّهما من جملة البدن جزء لا يتجزّء فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الّذي لايتجزّء صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتّى يكون محبوباً لأجله فإذن الجمال موجود في السير و لو صدرت السيرة الجميلة من غير علم و بصيرة لم يوجب ذلك حبّاً فالمحبوب مصدر السير الجميلة وهي الأخلاق الحميدة و الفضائل الشريفة و ترجع جملتها إلى كمال العلم و القدرة و هو محبوب بالطبع و غير مدرك بالحواسّ حتّى أنّ الصبيّ المخلّى وطبعه إذا أردنا أن نحبّب إليه غائباً أو حاضراً حيّاً أو ميّتاً لم يكن لنا سبيل إلّا بالإطناب في وصفه بالشجاعة والكرم و العلم وسائر الخصال الحميدة ، فمهما اعتقد ذلك لم يتمالك في نفسه و لم يقدر أن لا يحبّه فهل غلب حبّ الصحابة و بغض أبي جهل و بغض إبليس لعنه الله إلّا بالاطناب في وصف المحاسن و المقابح الّتي لاتدرك بالحواسّ بل لمّا وصف الناس حاتماً بالسخاء ووصفوا رجلاً بالشجاعة أحبّتهم القلوب حبّاً ضروريّاً وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظّ يناله المحبّ منهم بل إذا حكي من سيرة بعض الملوك في بعض أقطار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبّه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبّين لبعد المزار ونأي الدّيار ، فإذن ليس حبّ الإنسان مقصوراً على من أحسن إليه

بل المحسن في نفسه محبوبٌ و إن كان قد لا ينتهي قطّ إحسانه إلى المحبّ لأنّ كلّ جمال وحسن فهو محبوب والصورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر و الصور الباطنة بالبصيرة الباطنة فمن حرم البصيرة الباطنة لايدركها ولايلتذّ بها ولايحبّها و لا يميل إليها و من كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواسّ الظاهرة كان حبّه للمعاني الباطنة أكثر من حبّه للمعاني الظاهرة فشتّان بين من يحبّ نقشاً مصوّراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة وبين من يحبّ نبيّاً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة.

السبب الخامس: المناسبة الخفيّة بين المحبّ والمحبوب إذ ربّ شخصين يتأكّد المحبّة بينهما لابسبب جمال أوحظّ ولكنّ بمجرّد تناسب الأرواح كما قال ﷺ «الأرواح جنود مجنّدة فماتعارف منهاائتلف وماتناكر منها اختلف»(١) وقد حقّقنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحبّ في الله تعالى فليطلب منه لأنّه أيضاً من عجائب أسباب الحبّ فإذن رجع أقسام الحبّ إلى خمسة أقسام وهو حبّ الإنسان وجود نفسه و كماله وبقائه وحبّه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه و دفع المهلكات عنه، وحبّه من كان محسناً في نفسه إلى الناس و إن لم يكن محسناً إليه و حبّه لكلّ ما هو جميل في ذاته سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبّه لمن بينه و بينه مناسبة خفيّة في الباطن، فلو اجتمعت هذه الأسباب كلّها في شخص واحد تضاعف الحبّ لامحالة كما لو كان للإنسان ولدٌ جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوباً لامحالة غاية الحبّ وتكون قوّة الحبّ بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوّة هذه الخلال في نفسها فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات الكمال كان الحبّ لامحالة في أعلى الدّرجات، فلنبيّن الآن أنّ هذه الأسباب كلّها لا يتصوّر كمالها واجتماعها إلّا في حقّ الله فلا يستحقّ المحبّة في الحقيقة إلّا الله سبحانه وتعالى.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ٨ ص ٤١ و قد تقدم.

(بيان ان المستحقّ للمحبّة هو الله تعالى وحده)

و أنّ من أحبّ غير الله لامن حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى وحبّ الرّسول محمودٌ لانّه عين حبّ الله و كذا حبّ العلماء والأتقياء لأنّ محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحبّ المحبوب محبوب و كلّ ذلك يرجع إلى حبّ الأصل فلا يجاوزه إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلّا الله و لامستحقّ للمحبّة سواه و إيضاحه بأن يرجع إلى الأسباب الخمسة الّتي ذكرناها و نبيّن أنّها مجتمعة في حقّ الله تعالى بجملتها ولا توجد في غيره إلّا آحادها و أنّها حقيقة في حقّ الله تعالى ووجودها في حقّ غيره وهم وتخيّل وهو مجاز محض لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكلّ ذي بصيرة ضدّ ما تخيّله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حبّ الله تعالى تحقيقاً وبان أنّ التحقيق يقتضي أن لايحبّ أحداً غير الله تعالى .

أمّا السبب الأوّل : و هو حبّ الإنسان نفسه و بقاءه و كماله و دوام وجوده وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه و قواطع كماله فهذه جبلّة كلّ حيّ و لا يتصوّر أن ينفكّ عنها حيّ وهذا يقتضي غاية المحبّة لله تعالى فإنّ من عرف نفسه و عرف ربّه عرف قطعاً أنّه لا وجود له من ذاته و إنّما وجود ذاته و دوام وجوده و كمال وجوده من الله وبالله و إلى الله فهو المخترع الموجد له و هو المبقي له و هو المكمّل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب و إلّا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله عليه بالإيجاد و هو هالك عقيب وجوده لو لا فضل الله عليه بالابقاء و هو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بتكميل خلقته ، و بالجملة فليس في الوجود شيءٌ له بنفسه قوامٌ إلّا القيّوم الحيّ الدّائم الّذي هو قائم بذاته ، و كلّ ما سواه قائمٌ به فإن أحبّ العارف ذاته ووجود ذاته مستفادٌ من غيره فبالضرورة يحبّ المفيد لوجوده و المديم له إن عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقيّوماً بنفسه ومقوّماً لغيره فإن كان لايحبّه فهو لجهله بنفسه و بربّه و المحبّة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوّتها و لذلك قيل : من عرف ربّه أحبّه و من عرف النّار

بعد عنها و من عرف الدّنيا زهدفيها فكيف يتصوّر أن يحبّ الإنسان نفسه ولايحبّ ربّه الّذي به قوام نفسه و معلوم أنّ المبتلى بحرّ الشمس لمّا كان يحبّ الظلّ فيحبّ بالضرورة الأشجار الّتي بها قوام الظلّ وكلّ ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله عزّ وجلّ هو كالظلّ بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس ، فإنّ الكلّ من آثار قدرته و وجود الكلّ تابع لوجوده كما أنّ وجود النور تابع للشمس ، و وجود الظلّ تابع للشجر ، بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيّلوا أنّ النور أثر الشمس وفائض منها وموجود بها وهو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أنّ النور حاصل من قدرة الله تعالى اختراعاً عند وقوع المقابلة بين الشمس و بين الأجسام الكثيفة كما أنّ نور الشمس و عينها و شكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ولكنّ الغرض من الأمثلة التفهيم فلا يطلب منها الحقائق فإذن إن كان حبّ الإنسان نفسه ضرورياً فحبّه لمن به قوامه أوّلاً و دوامه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه و جواهره و أعراضه أيضاً ضروريّ إن عرف ذلك كذلك و من خلا عن هذا الحبّ فلأنّه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربّه وخالقه فلم يعرفه حقّ معرفته وقصر نظره على شهواته و محسوساته و هو عالم الشهادة الّذي يشاركه البهائم في التنعّم به و الاتّساع فيه دون عالم الملكوت الّذي لا يطأ أرضه إلّا من يقرب في شكله من الملائكة فينظر فيه بقدر قربه في الصفات من الملائكة ويقصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

و أمّا السبب الثاني : وهو حبّه لمن أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته و انتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده و أقاربه فإنّه محبوب لا محالة عنده ، و هذا بعينه يقتضي أن لا يحبّ إلّا الله تعالى فإنّه لو عرف حقّ المعرفة لعلم أنّ المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأمّا أنواع إحسانه إلى كلّ عبيده فلست أعدّها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى: « وإن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها »(١)

---

(١) ابراهيم : ٣٤ .

و لقد أشرنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكنّا الآن نقتصر على بيان أنّ الإحسان من الناس غير متصوّر إلّا بالمجاز فإنّما المحسن هو الله عزّ وجلّ ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع أمواله ومكّنك منها لتتصرّف فيها كيف تشاء فإنّك تظنّ أنّ هذا الإحسان منه وهو غلط فإنّه إنّما تمّ إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الّذي أنعم بخلقه و خلق ماله و خلق قدرته و خلق إرادته وداعيته و من الّذي حبّبك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أنّ صلاح دينه و دنياه في الإحسان إليك ولولا كلّ ذلك لما أعطاك حبّة من ماله ومهما سلّط الله عليه الدّواعي و قرّر في نفسه أنّ صلاح دينه و دنياه في أن يسلّم إليك ماله كان مقهوراً مضطرّاً في التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الّذي اضطرّه وسخّره لك وسلّط عليه الدّواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل و أمّا يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطرّ فيه اضطرار مجرى الماء في جريان الماء فيه ، فإن اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو محسن بنفسه لا من حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فإنّه لا يتصوّر الاحسان من الإنسان إلّا إلى نفسه و أمّا الاحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنّه لا يبذل ماله إلّا لغرض له في البذل إمّا آجل و هو الثواب و إمّا عاجل وهو المنّة والاستسخار أو الثناء و الصيت والاشتهار بالسخاء و الكرم أو جذب قلوب الخلق إلى الطاعة و المحبّة و كما أنّ الإنسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد إنسان إلّا لغرض له فيه و ذلك الغرض هو مطلوبه و مقصوده ، و أمّا أنت فلست مقصوداً بل يدك آلة له في القبض حتّى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرك في القبض للتوصّل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عمّا بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده من ماله ولولا رجحان ذلك الحظّ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتّة ، فإذن هو غير مستحقّ للشكر والحبّ من وجهين أحدهما أنّه مضطرّ بتسليط الله الدّواعي عليه و لا قدرة له على المخالفة فهو جار مجرى خازن الأمير فإنّه لا يرى محسناً بتسليم خلعة الأمير إلى من خلع عليه لأنّه من جهة الأمير

مضطرٌ إلى الطاعة و الامتثال لما يرسمه فلا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلّمه فكذلك كلُّ محسن لو خلاه الله عزَّ وجلَّ ونفسه لم يبذل حبّة من ماله حتّى سلّط الله الدّواعي عليه و ألقى في نفسه أن حظّه ديناً و دنياً في بذله فبذله لذلك ، و الثاني أنّه معتاض عمّا بذله حظّاً هو أوفى عنده وأحبُّ إليه عمّا بذله و كما لا يعدّ البايع محسناً لأنّه بذل بعوض هو أحبُّ عنده ممّا بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب أو الحمد و الثناء أو عوضاً آخر وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متموّلاً بل الحظوظ كلّها أعواض تستحقر الأموال و الأعيان بالإضافة إليها فالإحسان بالجود و الجود هو بذل المال من غير عوض وحظّ يرجع إلى الباذل و ذلك محالٌ من غير الله عزَّ وجلَّ فهو الّذي أنعم على العالمين إحساناً إليهم و لأجلهم لا لحظّ و غرض يرجع إليه فإنّه يتعالى عن الأغراض والحظوظ فلفظ الجود و الإحسان في حقّ غيره كذب أو مجاز ومعناه في حقِّ غيره محالٌ و ممتنع امتناع الجمع بين السّواد و البياض فهو المتفرّد بالجود والإحسان والطول والامتنان فإن كان في الطبع حبُّ المحسن فينبغي أن لا يحبَّ العارف إلّا الله عزَّ و جلَّ إذ الإحسان من غيره محالٌ فهو المستحقّ لهذه المحبّة وحده و أمّا غيره فيستحقُّ المحبّة على الإحسان بشرط الجهل بمعنى الإحسان وحقيقته .

وأمّا السبب الثالث : وهو حبّك المحسن في نفسه و إن لم يصل إليك إحسانه فهذا موجود في الطباع فإذا بلغك خبر ملك عالم عابد عادل رفيق بالناس متلطّف بهم متواضع لهم و هو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبّر فاسق متهتّك شرير وهو أيضاً بعيد عنك فإنّك تجد في القلب تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلاً إلى الأوّل وهو الحبُّ ونفرة عن الثاني وهو البغض مع أنّك آئس من خير الأوّل وآمن من شرّ الثاني لانقطاع طمعك عن الترحّل إلى بلادهما فهذا حبُّ المحسن من حيث أنّه محسن في نفسه فقطّ لا من حيث أنّه محسن إليك و هذا أيضاً يقتضي حبَّ الله تعالى بل يقتضي أن لا يحبَّ غيره أصلاً إلّا من حيث يتعلّق منه بسبب فإنَّ الله تعالى هو المحسن إلى الكافّة المتفضّل على جميع أصناف

الخلق أوّلاً بإيجادهم وثانياً بتكميلهم بالأعضاء والأسباب الّتي هي من ضروراتهم وثالثاً بترفيههم و تنعيمهم بخلق الأسباب الّتي هي في مظانّ حاجاتهم و إن لم تكن في مظانّ الضرورة ، ورابعاً بتجميلهم بالزّوايد والمزايا الّتي هي في مظنّة زينتهم و هي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم ، ومثال الضروريّ من الأعضاء الرّأس والقلب والكبد ، ومثال المحتاج إليه العين واليد والرّجل ، ومثال الزّينة استقواس الحاجبين وحمرة الشفتين وتلوّن العينين إلى غير ذلك ممّا لولم يكن لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ، ومثال الضروري من النعم الخارجة من بدن الإنسان الماء والغذاء ، ومثال الحاجة الدّواء و اللّحم و الفواكه ، ومثال المزايا و الزّوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار و الأزهار ولذائذ الفواكه و الأطعمة الّتي لاتنخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكلّ حيوان بل لكلّ نبات بل لكلّ صنف من أصناف الخلق من ذروة العرش إلى منتهى الثرى فإذن هو المحسن و كيف يكون غيره محسناً و ذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فإنّه خالق الخلق و خالق الحسن و خالق المحسن و خالق الإحسان و خالق أسباب الإحسان فالحبّ بهذه العلّة أيضاً لغيره جهل محض و من عرف ذلك لم يحبّ بهذه العلّة إلّا الله تعالى .

و أمّا السبب الرابع : و هو حبّ كلّ جميل لذات الجمال لا لحظّ ينال منه وراء إدراك الجمال فقد بيّنا أنّ ذلك مجبولٌ في الطباع فإنّ الجمال ينقسم إلى جمال الصور الظاهرة المدركة بعين الرّأس و إلى جمال الصور الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة ، و الأوّل يدركه الصبيان و البهائم فضلاً عن غيرهم و الثاني يختصّ بدركه أرباب القلوب ولايشاركهم فيه من لا يعلم إلّا ظاهراً من الحياة الدّنيا فكلّ جمال فهو محبوبٌ عند مدرك الجمال فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوبٌ القلب، ومثال هذا في المشاهدة حبّ الأنبياء والعلماء و ذوي المكارم السنيّة والأخلاق الرّضيّة فإنّ ذلك متصوّر مع تشويه الوجه وسائر الأعضاء و هو المراد بحسن الصورة الباطنة و الحسّ لا يدركه ، نعم يدرك الحسّ آثاره الصادرة منه الدّالّة عليه حتّى إذا دلّ القلب عليه مال القلب إليه فأحبّه فمن يحبّ الرّسول أو الإمام أو عالماً

من أولياء الله فلايحبّهم إلّالحسن ما ظهر له منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولالحسن أفعالهم بل دلّ حسن أفعالهم على حسن الصفات الّتي هي مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالّة عليها فمن رأى حسن تصنيف المصنّف وحسن شعر الشاعر بل حسن نقش النقّاش وبناء البنّاء انكشف له من هذه الأفعال صفاتهم الجميلة الباطنة الّتي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة فكلّما كان المعلوم أشرف وأتمّ جمالاً وجلالاً وعظمة كان العلم أشرف و أجمل و كذا المقدور كلّما كان أعظم رتبة و أجلّ مرتبة كانت القدرة عليه أجلّ رتبة و أشرف قدراً، وأجلّ المعلومات هوالله فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله عزّ وجلّ و كذلك ما يقاربه فشرفه على قدر تعلّقه به فإذن جمال صفات الصدّيقين الّذين تحبّهم القلوب طبعاً يرجع إلى ثلاثة اُمور أحدها علمهم بالله عزّ وجلّ وملائكته و كتبه ورسله وشرائع الأنبياء ، والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد و السياسة ، والثالث تنزّههم عن الرّذائل و الخبائث و الشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشرّ وبمثل هذا يحبّ الأنبياء و العلماء فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى أمّا العلم فأين علم الأوّلين والآخرين من علم الله الّذي هومحيط بالكلّ إحاطة خارجة عن النهاية حتّى لايعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات و لا في الأرض و قد خاطب الخلق كلّهم فقال : « و ماأوتيتم من العلم إلّا قليلاً » (١) ولو اجتمع أهل السماوات و الأرض على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلقة نملة أوبعوضة لم يطّلعوا على عشر عشيره ولا يحيطون بشيء من علمه إلّا بماشاء ، و القدرة اليسير الّذي علمه الخلائق كلّهم فبتعليمه إيّاهم علموه كما قال تعالى : « خلق الإنسان ۞ علّمه البيان » (٢) فإن كان جمال العلم و شرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة و كمالاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحبّ بهذا السبب إلّا الله تعالى ، فعلوم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحبّ بسبب العلم الأجهل و يترك الأعلم و إن كان الأجهل لا يخلو عن علم ما بتفاصيل معيشته و

(١) الاسراء : ٨٨ . (٢) الرحمن : ٣ و ٤ .

التفاوت بين علم الله وعلم الخلائق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلق و أجهلهم لأنّ الأعلم لايفضل إلّا بعلوم معدودة متناهية يتصوّر في الإمكان أن ينالها الأجهل بالكسب و الاجتهاد ، و فضل علم الله على علوم الخلائق كلّهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها و معلومات الخلق متناهية ، وأمّا صفة القدرة فهي أيضاً كمال و العجز نقص وكلّ كمال وبهاء وعظمة وقهر ومجد واستيلاء فإنّه محبوبٌ وإدراكه لذيذٌ حتّى أنّ الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة عليّ وغيره من الشجعان وقدرتهما و استيلاءهما على الأقران فيصادف من قلبه اهتزازاً و فرحاً و ارتياحاً ضروريّاً بمجرّد السماع فضلاً عن المشاهدة و يورث ذلك حبّاً ضروريّاً للمتّصف به فإنّه نوع كمال فأنسب الآن قدرة الخلق كلّهم إلى قدرة الله عزّ وجلّ فأعظم الأشخاص قوّة و أوسعهم ملكاً و أقواهم بطشاً و أقهرهم للشهوات و أقمعهم لخبائث النفس و أجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره فإنّه ينتهي قدرته ، وإنّما غايته أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الإنس في بعض الاُمور و هو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولاحياة ولا نشوراً ولانفعاً ولا ضرّاً ، بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الخرس و اُذنه من الصمم و بدنه من المرض و لا يحتاج إلى عدّ ما يعجز عنه في نفسه وغيره ممّا هو على الجملة متعلّق قدرته فضلاً عمّا لاتتعلّق به قدرته من ملكوت السماوات و أفلاكها و كواكبها و الأرض و جبالها و بحارها و رياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرّة منها وما هو قادرٌ عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه و بنفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكّن له من ذلك ، ولو سلّط بعوضاً على أعظم ملك وأقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس للعبد قدرة إلّا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملك من ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال : «إنّا مكّنّا له في الأرض »[1] فلم يكن جميع ملكه و سلطنته إلّا بتمكين الله عزّ وجلّ إيّاه في جزء من الأرض والأرض كلّها مدرة بالإضافة إلى أجسام العالم و جميع الولايات الّتي يحظى بها الناس من الأرض

(١) الكهف : ٨٤ .

غبرة من تلك المدرة ، ثمّ تلك الغبرة أيضاً من فضل الله وتمكينه فيستحيل أن يحبّ عبداً من عباد الله لقدرته وسياسته وتمكّنه واستيلائه و كمال قوّته ولا يحبّ الله تعالى لذلك ولا قويّ غيره ، فليس أحد قدرته من نفسه بل لا حول لأحد ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، فهو الجبّار القاهر والعليم القادر، السماوات مطويّات بيمينه والأرض و ما عليها في قبضته ، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرّة ، وإن خلق أمثالهم ألف مرّة لم يعي بخلقها ولا يمسّه لغوب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة و لا قادر إلّا وهو أثر من آثار قدرته فله الجمال و البهاء و العظمة و الكبرياء و القهر والاستيلاء ، فإن كان يتصوّر أن يحبّ قادر لكمال قدرته فلا يستحقّ الحبّ بكمال القدرة سواه أصلاً ، و أمّا صفة التنزّه عن العيوب و النقائص والتقدّس عن الرّذائل و الخبائث فهو أحد موجبات الحبّ ومقتضيات الحسن و الجمال في الصور الباطنة والانبياء والصدّيقون وإن كانوا منزّهين عن العيوب و الخبائث فلا يتصوّر كمال التقدّس و التنزّه إلّا لذي الجلال و الإكرام وأمّا كلّ مخلوق فلا يخلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزاً مخلوقاً مسخّراً مضطرّاً هو عين العيب والنقص ، فالكمال لله وحده فليس لغيره كمال إلّا بقدر ما أعطاه و ليس في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإنّ منتهى الكمال أقلّ درجاته أن لا يكون عبداً مسخّراً لغيره و قائماً بغيره وذلك محال في حقّ الله فهو المتفرّد بالكمال المتنزّه عن النقص المقدّس عن العيوب و شرح ذلك التقديس و التنزيه في حقّه عن النقائص يطول و هو من أسرار علوم المكاشفات فلا نطول بذكره ، فهذا الوصف أيضاً إن كان كمالاً وجمالاً محبوباً فلا تتمّ حقيقته إلّا له و كمال غيره وتنزّهه لا يكون مطلقاً بل بالإضافة إلى ما هو أشدّ منه نقصاناً كما أنّ للفرس كمالاً بالإضافة إلى الحمار ، وللإنسان كمالاً بالإضافة إلى الفرس ، وأصل النقص شامل للكلّ و إنّما يتفاوتون في درجات النقصان فإذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الله الواحد الّذي لا ندّ له ، الفرد الّذي لا ضدّ له ، الصمد الّذي لا منازع له ، الغنيّ الّذي لا حاجة له ، القادر الّذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا رادّ لحكمه ولا معقّب

لقضائه، العالم الّذي لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات ولافي الأرض ، القاهر الّذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ، ولا تنفلت عن سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزليّ الّذي لاأوّل لوجوده الأبديّ الّذي لاآخر لبقائه ، الواجب الوجود الّذي لايحوم إمكان العدم حول حضرته، القيّوم الّذي يقوم بنفسه ويقوم كلّ موجود به ، جبّار الأرض والسماوات ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المتفرّد بالعزّة و الجبروت ، المتوحّد بالملك والملكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الّذي تتحيّر في معرفة جلاله العقول و تخرس عن وصفه الألسنة الّذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته و منتهى نبوّة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيّد الأنبياء صلوات الله عليه و عليهم أجمعين « أنت كما أثنيت على نفسك لا اُحصي ثناء عليك »[١] .

أقول: و قال سيّد الأوصياء : «العجز عن درك الادراك إدراك»[٢] وقال سيّد الساجدين«سبحان من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلّا بالعجز عن معرفته»[٣] .

قال أبو حامد : فليت شعري مَن ينكر إمكان حبّ الله عزّ و جلّ تحقيقاً و يجعله مجازاً أينكر أنّ هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال والمحاسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفاً بها، أو ينكر كون الجمال والجلال والكمال والعظمة محبوباً بالطبع عند من أدركه ، فسبحان من احتجب عن أبصار العُميان غيرة على جماله وجلاله أن يطّلع عليه إلّا من سبقت له منه الحسنى الّذين هم عن نار الحجاب مبعدون. وتَرَكَ الخاسرين في ظلمات العمى يتيهون وفي مسارح المحسوسات و شهوات البهائم يتردّدون ، يعلمون ظاهراً من الحياة الدّنيا و هم عن الآخرة هم غافلون ، الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، فالحبّ بهذا السبب أقوى من الحبّ بالإحسان لأنّ الإحسان يزيد و ينقص و لذلك أوحى الله تعالى إلى داود ان أودّ الأودّاء إليّ من عبدني بغير نوال لكن ليعطى الرّبوبيّة حقّها. و في الزّبور من أظلم

(١) تقدم كراراً عن الترمذى و غيره .

(٢) ماعثرت على أصل له . (٣) فى مناجات العارفين من المناجات الخمسة عشر .

ممّن عبدني لجنّة أونار، لولم أخلق جنّة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أُطاع. ومرّ عيسى عليه السلام على طائفة من العبّاد قد نحلوا فقال: ماأنحلكم قالوا: نخاف النار و نرجو الجنّة فقال لهم: مخلوقاً خفتم ومخلوقاً رجوتم، و مرّ بقوم آخرين كذلك فقالوا: نعبده حبّاً له وتعظيماً لجلاله، فقال: أنتم أولياء الله عزّ وجل حقّاً معكم اُمرت أن اُقيم. و في الخبر «لايكوننّ أحدكم كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل و لا كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل»[١].

و أمّا السبب الخامس للحبّ فهو المناسبة و المشاكلة إذ شبه الشيء منجذب إليه و الشكل إلى الشكل أميل و لذلك ترى الصبيّ يألف الصبيّ و الكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه وينفر من غير نوعه، واُنس العالم بالعالم أكثر منه بالمحترف وألف التاجر بالتاجر واُنسه به أكثر من اُنسه بالفلاّح وهذا أمر تشهد به التجربة و تشهد له الأخبار و الآثار كما استقصيناه في باب الأخوّة في الله من كتاب آداب الصحبة فليطلب منه، وإذا كانت المناسبة سبب المحبّة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبيّ للصبيّ في معنى الصّبى وقد تكون خفيّاً بحيث لايطّلع عليه كما ترى من الاتّحاد الّذي يتّفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار عليه السلام إليه إذ قال: «الأرواح جنودٌ مجنّدة فما تعارف منها ائتلف و ما تناكر منها اختلف»[٢] والتعارف هو التناسب والتناكر هو التباين، و هذا السبب أيضاً يقتضي حبّ الله لمناسبة باطنة لاترجع إلى المشابهة في الصورة والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب و بعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغبرة حتّى يعثر عليه السّالكون للطّريق إذا استكملوا شروط السّلوك فالّذي يذكر هو قرب العبد من الله عزّ و جلّ في الصفات الّتي أمر فيها بالاقتداء و التخلّق بأخلاق الرّبوبيّة حتّى قيل: تخلّقوا بأخلاق الله، و ذلك في اكتساب محامد الصفات الّتي هي من صفات الإلهيّة من العلم و البرّ و الإحسان و

---

(١) قال العراقي: لم أجد له أصلا.

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٤١ و قد تقدم كراراً.

اللّطف وإفاضة الخير والرّحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحقّ و منعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة ، فكلّ ذلك يقرّب إلى الله عزّ وجلّ لا بمعنى طلب القرب بالمكان بل بالصفات ، و أمّا ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصّة الّتي اختصّ بها الآدميّ فهي الّتي يومي إليها قوله تعالى : «و يسألونك عن الرّوح قل الرّوح من أمر ربّي»[١] إذ بيّن أنّه أمر ربّانيّ خارج عن حدّ عقول الخلق ، ويشير إليه قوله تعالى : « إنّي جاعل في الأرض خليفة » [٢] إذ لم يستحقّ آدم خلافة الله إلاّ بتلك المناسبة و إليه يرمز قوله عليه السلام «إنّ الله خلق آدم على صورته » [٣] حتّى ظنّ القاصرون أن لا صورة إلّا الصورة الظاهرة المدركة بالحواسّ فشبّهوا وجسّموا وصوّروا تعالى الله ربّ العالمين عمّا يقول الجاهلون علوّاً كبيراً و إليه الإشارة بقوله لبعض الأنبياء و في نسخة لموسى عليه السلام : « مرضت فلم تعدني فقال : يا ربّ و كيف ذلك ؟ قال : مرض فلان فلم تعده ، و لو عدته لوجدتني عنده » [٤] و هذه المناسبة لا تظهر إلّا بالمواظبة على النوافل بعد أحكام الفرائض ، قال الله عزّ وجلّ : « و لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى اُحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به ، وبصره الّذي يبصر به ، ولسانه الّذي ينطق به»[٥] وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد تحزّب الناس فيه إلى قاصرين ما لوا إلى التشبيه الظاهر و إلى غالين مسرفين جاوزوا حدّ المناسبة إلى الاتّحاد وقالوا بالحلول حتّى قال بعضهم : أنا الحقّ . فضلّ النصارى في عيسى عليه السلام وقالوا هو الإله ، و قال آخرون منهم : تدرّع الناسوت باللاّهوت ، وقال آخرون : اتّحد به ، وأمّا الّذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل واستحالة الحلول و الاتّحاد و اتّضح لهم مع ذلك حقيقة السرّ فهم الأقلّون فهذه هي المعلومة من أسباب الحبّ وجملتها متظاهرة في حقّ الله تعالى تحقيقاً لا مجازاً و في أعلى الدّرجات لا في أدناها فكان المعقول المقبول هو حبّ الله تعالى فقط عند ذوي -

---

(١) الاسراء : ٨٥ . (٢) البقرة : ٢٩ .

(٣) تقدم غير مرة . (٤) تقدم أيضاً .

(٥) تقدم عن البخارى فى الصحيح و الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ٣٥٢ .

البصائر كما أنّ المعقول الممكن عند العميان حبّ غير الله تعالى فقط، ثمّ كلّ من يحبّ واحداً من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصوّر أن يحبّ غيره لمشاركته إيّاه في السبب والشركة نقصان في الحبّ وغضّ من كماله ولا يتفرّد أحد بوصف محبوب إلّا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إلّا في حقّ الله فإنّه موصوف بهذه الأوصاف الّتي هي غاية الجمال والكمال ولا شريك له فيه وجوداً ولا يتصوّر أن يكون ذلك إمكاناً فلا جرم لا يكون في حبّه شركة فلا يتطرّق النقصان إلى حبّه كما لا تتطرّق الشركة إلى صفاته فهو المستحقّ إذ الأصل المحبّة ولكمال المحبّة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً.

(بيان انّ أجلّ اللّذّات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر الى وجهه الكريم)
(و انّه لا يتصوّر ان يؤثر عليها لذّة أخرى الّا من حرم هذه اللّذة)

إعلم أنّ اللّذات تابعة للإدراكات والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز ولكلّ قوّة و غريزة لذّة و لذّتها في نيلها بمقتضى طبعها الّتي خلقت له فإنّ هذه الغرائز ما ركبت في الإنسان هزلاً بل خلقت كلّ قوّة و غريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع، فغريزة الغضب خلقت للتشفّي و الانتقام، فلا جرم لذّتها في الغلبة والانتقام الّذي هو مقتضى طبعها، و غريزة شهوة الطعام مثلاً خلقت لتحصيل الغذاء الّذي به القوام فلا جرم لذّتها في نيل الغذاء الّذي هو مقتضى طبعها و كذلك لذّة السمع و البصر و الشمّ في الابصار و الاستماع و الاستشمام فلا يخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم و لذّة بالإضافة إلى مدركاتها فكذلك في القلب غريزة تسمّى النور الإلهيّ لقوله تعالى: «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه»[1] و قد تسمّى العقل و قد تسمّى البصيرة الباطنة وقد تسمّى نور الإيمان و اليقين ولا معنى للاشتغال بالأسامي فإنّ الاصطلاحات مختلفة و الضعيف يظنّ أنّ الاختلاف واقع في المعاني لأنّ الضعيف أبداً يطلب المعاني من الألفاظ و هو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني الّتي ليست متخيّلة و لا

(١) الزمر: ٢٣.

محسوسة كإدراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق مدبّر حكيم موصوف بصفات الإلهيّة ولنسمّ تلك الغريزة عقلاً بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة و المناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذمّه من ذمّه وإلّا فالصّفة الّتي بها فارق الإنسان البهائم وبها يدرك معرفة الله تعالى أعزّ الصفات فلا ينبغي أن يذمّ و هذه الغريزة خلقت فيه ليعلم بها حقائق الأُمور كلّها فمقتضي طبعها المعرفة والعلم و هي لذّتها كما أنّ مقتضى طبع سائر الغرائز هو لذّتها و ليس يخفى أنّ في العلم والمعرفة لذّة حتّى أنّ الّذي ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به والّذي ينسب إلى الجهل و لو في شيء حقير يغتمّ به و حتّى أنّ الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدّي بالعلم والتمدّح به في الأشياء الحقيرة فالعالم باللّعب بالشطرنج على خسّة لا يطيق السكوت فيه عن التعليم و ينطق لسانه بذكر ما يعلمه و كلّ ذلك لفرط لذّة العلم وما يستشعره من كمال ذاته فإنّ العلم من أخصّ صفات الرّبوبيّة وهو منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا أُثني عليه بالذّكاء و غزارة العلم لأنّه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته و كمال علمه فيعجب بنفسه و يلتذّ به ، ثمّ ليست لذّة العلم بالحراثة والحياكة و الخياطة كلذّة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ولا لذّة العلم بالنحو والشعر كلذّة العلم بالله تعالى وصفاته و ملائكته و ملكوت السماوات والأرض ، بل لذّة العلم بقدر شرف العلم و شرف العلم بقدر شرف المعلوم حتّى أنّ الّذي يعرف بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذّة و إن جهله يتقاضاه طبعه أن يتفحّص عنه فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره في رياسته كان ذلك ألذّ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلّاح أو حائك ، فإن اطّلع على أسرار الوزير و تدبيره و ما هو عازم عليه في أمر الوزارة فهي أشهى عنده و ألذّ من علمه بأسرار الرّئيس، و إن كان خبيراً بباطن أحوال الملك و السّلطان الّذي هو المستولي على الوزير كان ذلك أطيب عنده و ألذّ من علمه بباطن أمر الوزير وكان يمدحه بذلك و حرصه على البحث عنه أشدّ وحبّه له أكثر لأنّ لذّته فيه أعظم فبهذا يستبان أنّ ألذّ المعارف أشرفها و شرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان في المعلومات ما هو

الأجلّ و الأكمل و الأشرف و الأعظم فالعلم به ألذّ العلوم لا محالة و أشرفها و أطيبها ، وليت شعري هل في الوجود شيء أجمل و أعلى و أشرف و أكمل من خالق الأشياء كلّها ومكمّلها ومزيّنها و مبدئها ومعيدها ومدبّرها و مرتّبها و هل يتصوّر أن تكون حضرة في الملك و الكمال و البهاء و الجمال و الجلال أعظم من الحضرة الرّبّانيّة الّتي لايحيط بمبادي جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين فإن كنت لا تشكّ في ذلك فلا ينبغي أن تشكّ في أنّ الاطّلاع على أسرار الرّبوبيّة و العلم بترتّب الاُمور الإلهيّة المحيطة بكلّ الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطّلاعات و ألذّها و أطيبها و أشهاها و أحرى ما يشتهي النفوس الاتّصاف بكمالها و جلالها وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح و الاستبشار و بهذا يتبيّن أنّ العلم لذيذ و أنّ ألذّ العلوم العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله وتدبيره في مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرض فينبغي أن يعلم أنّ لذّة المعرفة أقوى من سائر اللّذّات أعني لذّة الشهوة و الغضب و لذّة سائر الحواسّ الخمس فإنّ اللّذات مختلفة بالنوع أوّلاً كمخالفة لذّة الوقاع للذّة السماع و لذّة المعرفة للذّة الرّئاسة وهي مختلفة بالضعف و القوّة كمخالفة لذّة الشبق المغتلم من الجماع بالإضافة إلى لذّة الفاتر للشهوة و كمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال بالإضافة إلى ما دونه في الجمال ، وإنّما تعرف أقوى اللّذّات بأن تكون مؤثّرة على غيرها فإنّ المخيّر بين النظر إلى صورة جميلة و التمتّع بمشاهدتها و بين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصور الملاح علم به أنّ الصور الجميلة عنده ألذّ من الروائح الطيّبة و كذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل و استمرّ اللاّعب بالشطرنج على اللّعب و ترك الأكل فيعلم به أنّ لذّة الغلبة في الشطرنج أقوى عنده من لذّة الأكل ، فهذا معيار صادق في الكشف عن ترجيح اللّذّات فنعود ونقول: اللّذّات تنقسم إلى ظاهرة كلذّة الحواسّ الخمس وإلى باطنة كلذّة الرّياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللّذّات للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للّمس ولا للذّوق و المعاني الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللّذّات الظاهرة فلو خيّر الرّجل بين لذّة الهريسة و

الدّجاج المسمن واللّوزينَج و بين لذّة الرّئاسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاستيلاء ، فإن كان المخيّر خسيس الهمّة ميّت القلب شديد النهمة اختار الهريسة والحلاوة و إن كان عليّ الهمّة كامل العقل اختار الرّئاسة و هان عليه الجوع والصبر على ضرورة القوت أيّاماً كثيرة فاختياره للرّئاسة يدلّ على أنّها ألذّ عنده من الهريسة و المطعومات الطيّبة ، نعم الناقص الّذي لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبيّ أو كالّذي ماتت قواه الباطنة كالمعتوه لا يبعد أن يؤثر لذّة المطعومات على لذّة الرّئاسة و كما أنّ لذّة الرّئاسة و الكرامة أغلب اللّذّات على من جاوز نقصان الصّبى و العته فلذّة معرفة الله تعالى و مطالعة جمال الحضرة الرّبوبيّة و النظر إلى أسرار الاُمور الإلهيّة ألذّ من الرّئاسة الّتي هي أعلى اللّذّات الغالبة على الخلق ، و غاية العبارة عنه أن يقال : « فلا تعلم نفس ما اُخفي لهم من قرّة أعين[1] » و أنّه أعدّ لهم ما لا عين رأت و لا اُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، و هذا لا يعرفه إلّا من ذاق اللّذّتين جميعاً فإنّه لا محالة يؤثر التبتّل و التفرّد و الفكر و الذّكر ، وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرّئاسة ويستحقر الخلق الّذين يرأسهم لعلمه بفناء رئاسته وفناء من عليه رئاسته و كونه مشوباً بالكدورات الّتي لا يتصوّر الخلوّ عنها و كونه مقطوعاً بالموت الّذي لابدّ من إتيانه مهما « أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ـ الآية »[2] فيستعظم بالإضافة إليه لذّة معرفة الله تعالى و مطالعة صفاته و أفعاله و نظام مملكته من أعلى علّيّين إلى أسفل السافلين ، فإنّها خالية عن المزاحمات والمكدّرات ، متّسعة للمتواردين عليها ، لا يضيق عنهم بكثرتهم دائماً و إنّما عرضها من حيث التقدير السماوات و الأرض ، و إذا خرج النظر عن المقدّرات فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها في جنّة عرضها السماوات و الأرض ، يرتع في رياضها و يكرع في حياضها و يقطف من ثمارها و هو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنّة غير مقطوعة ولا ممنوعة بل هي أبديّة سرمديّة لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم محلّ معرفة الله تعالى إذ محلّها الرّوح الّذي هو أمر ربّانيّ

(١) السجدة : ١٧ . (٢) يونس : ٢٤ .

سماويٌّ و إنّما الموت يغيّر أحوالها ويقطع شواغلها و عوائقها و يخلّيها من حبسها فأمّا أن يعدمها فلا قال الله تعالى : « ولا تحسبنَّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون ۝ فرحين بما آتيهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية » (١) و لا تظننَّ أنَّ هذا مخصوص بالمقتول في المعركة فإنَّ للعارف بكلِّ نفس درجة ألف شهيد ، و في الخبر «إنَّ الشهيد يتمنّى في الآخرة أن يردَّ إلى الدُّنيا فيقتل مرَّة اُخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة و أنَّ الشهداء يتمنّون لو كانوا علماء لما يرون من علوِّ درجة العلماء »(٢) فإذن جميع أقطار ملكوت السماوات والأرض ميدان للعارف يتبوَّء منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرَّك فيها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنّة عرضها السماوات والأرض و كلُّ عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً إلّا أنّهم يتفاوتون في سعة متنزَّهاتهم بقدر تفاوتهم في اتّساع نظرهم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أنَّ لذَّة الرِّئاسة وهي باطنة أقوى عند ذوي الكمال من لذَّات الحواسِّ كلّها ، و أنَّ هذه اللّذَّة لا تكون لبهيمة ولا لصبيٍّ و لا لمعتوه و إنَّ لذَّة المحسوسات و الشهوات تكون لذوي الكمال مع لذَّة الرِّئاسة ولكن يؤثرون الرِّئاسة فأمّا معنى كون معرفة الله وصفاته و أفعاله وملكوت سماواته وأسرار ملكه أعظم لذَّة من الرِّئاسة فهذا يختصُّ بمعرفته من نال رتبة المعرفة وذاقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأنَّ القلب معدن هذه القوَّة كما أنّه لا يثبت رجحان لذَّة الوقاع على لذَّة اللّعب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحانه على لذَّة شمِّ البنفسج عند العنّين لأنّه قد فقد الصفة الّتي بها تدرك هذه اللّذَّة ، ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسّة شمّه أدرك التفاوت بين اللّذَّتين وعند هذا لا يبقى إلّا أن يقال : من ذاق عرف ، ولعمري أنَّ طلّاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الاُمور الالهيّة فقد استنشقوا رائحة هذه اللّذَّة عند انكشاف المشكلات و انحلال الشبهات

(١) آل عمران : ١٦٣ و ١٦٤ .

(٢) متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم .

الّتي قوي حرصهم على طلبها فإنّها أيضاً معارف و علوم و إن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهيّة فأمّا من طال فكره في معرفة الله سبحانه و قد انكشف له من أسرار ملك الله و لو الشيء اليسير فإنّه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح مايكاد يطير به ويتعجّب من نفسه في ثباته و احتماله لقوّة فرحه وسروره وحذا ممّا لا يدرك إلّا بالذّوق ، والحكاية فيه قليلة الجدوى ، فهذا القدر ينبّهك على أنّ معرفة الله سبحانه ألذّ الأشياء و أنّه لا لذّة فوقها ، و لذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولاً بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه و من كان اليوم مشغولاً بربّه فهو غداً مشغولٌ بربّه . وقيل لرابعة : ما حقيقة إيمانك قالت : ما عبدته خوفاً من ناره ولا رجاء لجنّته فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبّاً له وشوقاً إليه ، و قالت في معنى المحبّة نظماً :

أُحبّك حبّين حبّ الهوى ✿ و حبّاً لأنّك أهل لذاكا

فأمّا الّذي هو حبّ الهوى ✿ فشغلي بذكرك عمّن سواكا

و أمّا الّذي أنت أهلٌ له ✿ فكشفك لي الحجب حتّى أراكا

فلا الحمد في ذا و لا ذاك لي ✿ و لكن لك الحمد في ذا وذاكا

و لعلّها أرادت بحبّ الهوى حبّ الله تعالى لإحسانه إليها وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ، و بحبّها لما هو أهل له الحبّ لجماله وجلاله الّذي انكشف لها و هو أعلى الحبّين و أقواهما و لذّة مطالعة جمال الرّبوبيّة هي الّتي عبّر عنها رسول الله صلّى الله عليه وآله حيث قال حاكياً عن ربّه تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (١) و قد يتعجّل بعض هذه اللّذات لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إنّي لأقول: يا ربّ يا الله فأجد ذلك أثقل على قلبي من الجبال لأنّ النداء يكون من وراء حجاب و هل رأيت جليساً ينادي جليسه ؟ وقال : إذا بلغ الرّجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة. أي يخرج كلامه عن حدّ عقولهم فيرون ما يقوله جنوناً و كفراً ، فمقصد العارفين كلّهم وصله و لقاؤه

---

(١) أخرجه البخاری ج ٤ ص ١٤٣ من حديث أبی هريرة وقد تقدم .

فهي قرّة العين الّتي لاتعلم نفس ما اُخفي لها منها، و إذا حصلت انمحقت الهموم و الشهوات كلّها فصار القلب مستغرقاً بنعيمها فلو اُلقي في النار لم يحسّ بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنّة لم يلتفت إليه، لكمال نعيمه و بلوغه الغاية الّتي ليس فوقها غاية، وليت شعري من لا يفهم إلّا حبّ المحسوسات كيف يؤمن بلذّة النظر إلى وجه الله تعالى وماله شبه وصورة وشكل، وأيّ معنى لوعد الله تعالى به عباده وذكره أنّه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أنّ اللّذّات المقرونة بالشهوات المختلفة كلّها تنطوي تحت هذه اللّذّة كما قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواء مفرّقة ✩ فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي

فصار يحسدني من كنت أحسده ✩ فصرت مولى الورى مذ صرت مولائي

تركت للناس دنياهم و دينهم ✩ شغلاً بذكرك يا ديني و دنيائي

و لذلك قال بعضهم: وهجره أعظم من ناره، و وصله أطيب من جنّته. و ما أرادوا بهذا الإيثار لذّة القلب في معرفة الله تعالى على لذّة الأكل و الشرب والنكاح فإنّ الجنّة معدن تمتّع الحواسّ فأمّا القلب فلذّته في لقاء الله عزّ و جلّ فقط، ومثال أطوار الخلق في لذّاتهم ما نذكره و هو أنّ الصبيّ في أوّل حركته و تمييزه تظهر فيه غريزة بها يستلذّ اللّعب واللّهو حتّى يكون ذلك عنده ألذّ من سائر الأشياء، ثمّ تظهر بعده لذّة الزّينة ولبس الثياب وركوب الدّوابّ فيستحقر معها لذّة اللّعب ثمّ تظهر بعده لذّة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثمّ تظهر له لذّة الرّئاسة و العلوّ والتكاثر و هي أحبّ لذّات الدّنيا و أغلبها و أقواها كما قال: «إعلموا أنّما الحياة الدّنيا لعبٌ ولهوٌ و زينة و تفاخر - الآية»(١) ثمّ بعد هذا تظهر غريزة اُخرى يدرك بها الذّة معرفة الله تعالى و معرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها وكلّ متأخّر فهو أقوى وهذا هو الأخير إذ يظهر حبّ اللّعب في سنّ الصّبى و حبّ الزينة في سنّ التمييز و حبّ النساء في سنّ البلوغ و حبّ الرّئاسة بعد العشرين و حبّ العلوم بقرب الأربعين و هي الغاية العليا و كما أنّ

(١) الحديد: ٢٠

الصبيّ يضحك على من يترك اللّعب ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرّئاسة فكذلك الرّؤساء يضحكون على من يترك الرّئاسة و يشتغل بمعرفة الله تعالى و العارفون يقولون « إن تسخروا منّا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون فسوف تعلمون » .

(بيان السبب في زيادة لذّة النظر في الآخرة على المعرفة في الدّنيا)

إعلم أنّ المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور المختلفة المتخيّلة و الأجسام المتلوّنة المتشكّلة في أشخاص الحيوان و النبات ، و إلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله سبحانه و كلّ ما ليس بجسم كالعلم و القدرة و الإرادة و غيرها و من رأي إنساناً ثمّ غضّ بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنّه ينظر إليها ولكن إذا فتح العين و أبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين لأنّ الصورة المرئيّة تكون موافقة للمتخيّلة و إنّما الافتراق بمزيد الوضوح و الكشف فإنّ صورة المرئي صارت بالرّؤية أتمّ انكشافاً و وضوحاً وهو كشخص يرى في وقت الأسفار قبل انتشار ضوء النهار ثمّ رئي بعد تمام الضوء فإنّه لا يفارق إحدى الحالتين الاُخرى إلّا في مزيد الانكشاف فإذن الخيال أوّل الإدراك و الرّؤية هي الاستكمال لإدراك الخيال وهي غاية الكشف وسمّى ذلك رؤية لأنّه غاية الكشف لا لأنّه في العين ، بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل المكشوف في الجبهة أو الصدر مثلا استحقّ أن يسمّى رؤية ، وإذا فهمت هذا في المتخيّلات فاعلم أنّ المعلومات الّتي لا تتشكّل في الخيال أيضاً لمعرفتها وإدراكها درجتان إحداهما اُولى والثانية استكمال لها و بين الثانية والأولى من التفاوت في مزيد الكشف و الإيضاح ما بين المتخيّل و المرئي فيسمّى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأوّل مشاهدة ولقاء و رؤية و هذه التسمية حقّ لأنّ الرّؤية سمّيت رؤية لأنّها غاية الكشف و كما أنّ سنّة الله تعالى جارية بأنّ تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرّؤية و يكون حجاباً بين البصر و المرئي و لابدّ من ارتفاع الحجاب لحصول الرّؤية و ما لم يرتفع كان الإدراك الحاصل مجرّد التخيّل فكذلك مقتضى سنّة الله أنّ النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن و مقتضى الشهوات و ما غلب عليها من الصفات البشريّة فإنّها لا تنتهي إلى

المشاهدة و اللّقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجاباً يطول، ولايليق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام: «لن تراني»[١] وقال تعالى: «لاتدركه الأبصار»[٢] أي في الدّنيا . و الصحيح أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله «ما رأى الله عزّ وجلّ ليلة المعراج»[٣].

أقول: بل التحقيق أنّه لافرق في الرؤية بين الدّنيا والآخرة فكما أنّه لايجوز رؤيته سبحانه في الدّنيا بالعين والبصر فكذلك لايجوز رؤيته في الآخرة بالعين والبصر، و كما أنّه يجوز رؤيته في الآخرة بالقلب و البصيرة لأهل البصائر أعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث يتأدّى إلى المشاهدة واللّقاء كذلك يجوز رؤيته في الدّنيا بهذا المعنى والحجاب بينه و بين خلقه ليس إلّا الجهل وقلّة المعرفة دون البدن ، فإنّ أولياء الله يشاهدونه في الدّنيا في جميع أحوالهم و منصرّ فاتهم ليلهم و نهارهم كما قال تعالى: «والشهداء عند ربّهم»[٤] وقال: «شهد الله أنّه لا إله إلّا هو والملائكة واولوا العلم»[٥] وقال: «إلّا من شهد بالحقّ وهم يعلمون»[٦] فسمّاهم شهداء لمشاهدتهم له في جميع أحوالهم كما ذكر بقوله: «فأينما تولّوا فثمّ وجه الله»[٧] و قال: «هو الأوّل و الآخر و الظاهر و الباطن و هو بكلّ شيء عليم»[٨] و قال: «ما يكون من نجوى ثلاثة - الآية»[٩]. و قال: «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد»[١٠] فلمّا تحقّق أولياء الله بمعاني هذه الآيات شاهدوه بأعين قلوبهم ، سئل أمير المؤمنين عليه السلام «هل رأيت ربّك حين عبدته؟ فقال: ويلك ما كنت أعبد ربّاً لم أره ، قيل: و كيف رأيته؟ قال: ويلك

---

(١) الاعراف : ١٤٠ . (٢) الانعام : ١٠٣ .

(٣) قال العراقي : هذا الذى صححه المصنف هو قول عائشة ففى الصحيحين أنها قالت «من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب» .

(٤) الحديد : ١٩ . (٥) آل عمران : ١٦ .

(٦) الزخرف : ٨٦ . (٧) البقرة : ١١٠ .

(٨) الحديد : ٣. (٩) المجادلة : ٨ .

(١٠) ق : ١٦ .

لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان »[1] و قال ابنه الحسين سيّد الشهداء : « كيف يستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك ومتى بعدت حتّى تكون الآثار هي الّتي توصل إليك ، عميت عين لا تراك و لا تزال عليها رقيباً ، و خسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً » وقال أيضاً « تعرّفت لكلّ شيء فماجهلك شيء » وقال : « تعرّفت إليّ في كلّ شيء »[2] إلى غير ذلك ممّا وردعنهم عليهم السلام في هذا المعنى ، نعم يمكن أن يزيد الانكشاف في الآخرة بقدر زيادة صفاء القلوب و زكائها .

قال أبو حامد : فإذا ارتفع الحجاب بالموت بقيت النفس ملوّثة بكدورات الدّنيا غير منفكّة عنها بالكلّيّة و إن كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليها الخبث و الصدأ فصار كالمرآة الّتي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح و التصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربّهم أبد الآباد نعوذ بالله منه ، ومنها مالم ينته إلى حدّ الرّين و الطبع و لم يخرج عن قبول التزكية و التصقيل فيعرض على النار عرضاً يقمع منها الخبث الّذي هو متدنّس به ويكون العرض على النّار بقدر الحاجة إلى التزكية و أقلّها لحظة خفيفة و أقصاها في حقّ المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة ولم ترتحل نفس عن هذا العالم إلّا وتصحبها غبرة و كدورة مّا و إن قلّت ، و لذلك قال تعالى : « و إن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً ۞ ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا ونذر الظالمين فيها جثيّاً »[3] فكلّ نفس مستيقنة الورود على النار وغير مستيقنة الصدور عنها فإذا أكمل الله عزّ وجلّ تطهيرها و تزكيتها بلغ الكتاب أجله و وقع الفراغ عن جملة ما ورد به الشرع من العرض و الحساب وغيره وكان له استحقاق الجنّة و ذلك وقت مبهم لم يطّلع الله عليه أحداً من خلقه

---

(١) الكافي ج ١ ص ٩٧ تحت رقم ٦ .

(٢) راجع دعاءه عليه السلام في يوم عرفة في كتاب اقبال الاعمال للسيد بن الطاووس (ره) .

(٣) مريم : ٧٢ و٧٣ .

فإنّه واقع بعد القيامة ووقت القيامة مجهول فعند ذلك يشتغل بصفائه و نقائه عن الكدورات حيث لا ترهق وجهه غبرة ولاقترة لأن يتجلّى فيه الحقّ سبحانه وتعالى فينجلّى له تجلّياً يكون انكشاف تجلّيه بالإضافة إلى ماعلمه كانكشاف تجلّي المرآة بالإضافة إلى ما تخيّله و هذه المشاهدة والتجلّي هي الّتي تسمّى رؤية فإذن الرُّؤية حقّ بشرط أن لا يفهم من الرُّؤية استكمال الخيال في متخيّل متصوَّر مخصوص بجهة و مكان فإنَّ ذلك ممّا يتعالى عنه ربُّ الأرباب علوّاً كبيراً بل كما عرفته في الدّنيا معرفة حقيقيّة تامّة من غير تخيّل وتصوُّر و تقدير شكل و صورة فتراه في الآخرة كذلك ، بل أقول : المعرفة الحاصلة في الدُّنيا بعينها هي الّتي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح و تنقلب مشاهدة و لايكون بين المشاهدة في الآخرة والمعلوم في الدُّنيا اختلاف إلّا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا المثال في استكمال الخيال بالرُّؤية فإذا لم يكن في معرفة الله إثبات صورة وجهة فلايكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقّيها في الوضوح إلى غاية الكشف أيضاً جهة وصورة لأنّها هي بعينها لاتفترق منها إلّا في زيادة الكشف كما أنّ الصورة المرئيّة هي المتخيّلة بعينها إلّا في زيادة الكشف ، و على الجملة فالله سبحانه بذاته و جميع صفاته كما وصفه في كتابه و أخبر عنه نبيّه منزَّه مقدَّس عن الشبه والمثل و مشاكلة رسوم الحدثان ، لا يشبه ذاته سائر الذّوات ولا صفاته جميع الصفات و أنّى يشبه ربٌّ أزليٌّ حيٌّ قيّومٌ أبديٌّ فردٌ وترٌ أحديٌّ لم يزل متّصفاً بصفاته العليا متسمّياً بأسمائه الحسنى إلهاً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً و من أين يماثل مخلوقاً عاجزاً محدثاً مكوَّناً لم يكن في الأصل شيئاً فخلقه بقدرته و أنشأه كما شاء بحكمته ، و أحدث فيه صفات ناقصة متزلزلة غيرمستقيمة فوكّل به أنواع الآفات و فنون النّقائص والعاهات من البلايا المتنوّعة والفتن والمحن المتفنّنة كالجوع والعطش والغلق والشبق والحيرة والضجر والقلق والأدواء والأمراض والعلل والأسقام إلى مالا يتناهى ثمّ أرهقه ورود مورد الممات وجرّعه مرارة كؤس الوفاة . وجعله على أثر ذلك رهين الجدث والتراب إلى وقت العرض والحساب ، ثمّ يبعثه في يوم يكلُّ اللّسان عن وصف أحواله ، و يعجز

البيان دون حصر أحواله لمواقف ومقامات يفرغ عنها معشر الصدّيقين والأولياء بل خيار الرُّسل والأنبياء، وهلمّ جرّاً إلى أن يسكنه بحبوحة الجنان مع الرَّوح و الرَّيحان والرَّاحة والرِّضوان أو يحبسه في حصير جهنّم و أركان النيران بالخزي والهوان و الشقاء و الخذلان، فليت شعري من أين يتصوَّرهنا مماثلة أو كيف يمكن بين خالق وصفناه و مخلوق ذكرناه مشاكلة عند غمر غافل وسفيه جاهل فضلاً عن ذوي العقول وأرباب الألباب تعالى الله عمّا يقول الظالمون و المشركون والمشبّهة و الممثّلة والمعطّلون علوّاً كبيراً.

نعم اقتضت الحكمة الأزليّة والإرادة الأحديّة الإيجاد والإبداع والإنشاء والاختراع فأنشأ أصناف الخليقة و أوجد أنواع البريّة على وفق مراده و مشيّته دون سابقة مثال في تكوين الكون و فطرته و قسّم إذ ذاك بني آدم من بينهم قسمين وذرأهم من قبل الطاعة والمعصية فرقتين أشقياء و سعداء و مهتدين و أغوياء، فنوّر أهل السعادة في هذه الحياة بنور المعرفة و الإيمان و ترك أهل الشقاوة في غمرات ظلمة الكفر و الطغيان ثمّ غدا في دار البقاء و مقام الرُّؤية و اللّقاء يتمّ لهم ذلك النور و الضياء و إليه الإشارة بقوله تعالى: «نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا»[1] إذ تمام النور لا يؤثر إلّا في زيادة الكشف و لهذا لا يفوز بدرجة الرُّؤية والنظر إلّا العارفون في الدُّنيا لأنّ المعرفة هي البذر الّتي تنقلب في الآخرة مشاهدة كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعاً ومن لا نواة له فكيف يحصل له نخل و من لم يزرع البذر كيف يحصل الزَّرع و كذلك من لم يعرف الله عزَّ وجلَّ في الدُّنيا فكيف يراه في الآخرة، ولمّا كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلّي أيضاً على درجات متفاوتة فاختلاف التجلّي بالإضافة إلى اختلاف المعارف كاختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف لامحالة بكثرتها وقلّتها وحسنها ورديّها وقوّتها وضعفها و كما أنّك ترى في الدُّنيا من يؤثر لذّة الرِّئاسة على المنكوح والمطعوم وترى من يؤثر لذّة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السماوات والأرض وسائر الاُمور الإلهيّة

(١) التحريم: ٨.

على الرّئاسة وعلى المنكوح والمشروب جميعاً فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذّة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنّة إذ يرجع نعيمها إلى المنكوح والمطعوم و هؤلاء بعينهم هم الّذين حالهم في الدّنيا ماوصفنا من إيثار لذّة المعرفة والعلم والاطّلاع على أسرار الرّبوبيّة على لذّة المنكوح و المشروب و سائر الخلق، مشغولون به، و لذلك لمّا قيل لرابعة: ما تقولين في الجنّة؟ فقالت: الجار، ثمّ الدّار. فبيّنت أنّه ليس في قلبها إلتفات إلى الجنّة بل إلى ربّ الجنّة فكلّ من لم يعرف الله عزّ وجلّ في الدّنيا فلا يراه في الآخرة و كلّ من لم يجد لذّة المعرفة في الدّنيا فلا يجد لذّة النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة مالم يصحبه في الدّنيا فلايحصد أحد إلّا ما زرع ولا يحشر المرء إلّا على مامات عليه ولا يموت إلّا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الّذي يتنعّم به بعينه فقط إلّا أنّه ينقلب مشاهدة بكشف الغطاء فتتضاعف اللّذّة به كما تتضاعف لذّة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإنّ ذلك هو منتهى لذّته و إنّما طيبة الجنّة أنّ لكلّ واحد فيها مايشتهي فمن لا يشتهي إلّا لقاء الله عزّ وجلّ فلا لذّة له في غيره بل ربّما يتأذّى به فإذن نعيم الجنّة بقدر حبّ الله تعالى وحبّ الله تعالى بقدر معرفته فأصل السعادات هي المعرفة الّتي عبّر الشرع عنها بالإيمان، فإن قلت: فلذّة الرّؤية إن كانت لها نسبة إلى لذّة المعرفة فهي قليلة وإن كانت أضعافها لأنّ لذّة المعرفة في الدّنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حدّ قريب لا ينتهي في القوّة إلى أن يستحقر في جنبه سائر لذّات الجنّة، فاعلم أنّ هذا الاستحقار للذّة المعرفة مصدره الخلوّ عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذّتها و إن انطوى على معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدّنيا فكيف يدرك لذّتها فللعارفين في معرفتهم وفكرتهم و مناجاتهم لله عزّ وجلّ لذّات لو عرضت عليهم الجنّة في الدّنيا بدلاً عنها لم يستبدلوا بها لذّة الجنّة ثمّ هذه اللّذّة مع كمالها لا نسبة لها أصلاً إلى لذّة اللّقاء والمشاهدة كما لا نسبة للذّة خيال المعشوق إلى رؤيته ولا للذّة استنشاق روائح الأطعمة الشهيّة إلى ذوقها ولا للذّة اللّمس باليد إلى لذّة الوقاع و إظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلّا بضرب مثال فنقول: لذّة النظر إلى

وجه المعشوق في الدّنيا تتفاوت بأسباب أحدها جمال المعشوق و نقصانه فإنّ اللّذّة في النظر إلى الأجمل أكمل لا محالة . والثاني كمال قوّة الحبّ والشّهوة و العشق فليست لذّة من اشتدّ عشقه كالتذاذ من ضعفت شهوته وحبّه . والثالث كمال الإدراك فليس التذاذه برؤية المعشوق في ظلمة أو من وراء ستر رقيق أو من بُعد كالتذاذه بإدراكه على قرب من غير ستر وعند كمال الضّوء ولا إدراك لذّة المضاجعة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرّد. والرّابع اندفاع العوائق المشوّشة والآلام الشاغلة للقلب فليس التذاذ الصحيح الفارغ المتجرّد للنظر إلى المعشوق كالتذاذ الخائف المذعور أو المريض المتألّم أو المشغول قلبه بمهمّ من المهمّات فقدّر عاشقاً ضعيف العشق ينظر إلى وجه معشوقه من وراء ستر رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتمع عليه عقارب و زنابير تؤذيه وتلدغه و تشغل قلبه فهو في هذه الحالة لا يخلو من لذّة مّا من مشاهدة معشوقه فلو طرأت على الفجأة حالة انهتك به الستر وأشرق به الضّوء و اندفع عنه المؤذيات وبقي سليماً فارغاً وهجمت عليه الشهوة القويّة والعشق المفرط حتّى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللّذّة حتّى لا يبقى للأُولى إليها نسبة يعتدّ بها، و كذلك فافهم نسبة لذّة النظر إلى لذّة المعرفة فالستر الرّقيق مثال للبدن والاشتغال به ، والعقارب والزّنابير مثال للشهوات المسلّطة على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والغمّ والحزن ، وضعف الشهوة و الحبّ مثال لقصور النّفس في الدّنيا و نقصانها عن الشوق إلى الملأ الأعلى وإلتفاتها إلى أسفل السافلين و هو مثل قصور الصّبي عن ملاحظة لذّة الرّئاسة وإلتفاته إلى اللّعب بالعصفور ، فالعارف إن قويت في الدّنيا معرفته فلا يخلو عن هذه المشوّشات ولا يتصوّر أن يخلو عنها البتّة نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم فلاجرم يلوح من جمال المعرفة ما يدهش العقل ويعظم لذّته بحيث يكاد القلب يتفطّر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف و قلّما يدوم بل يعرض من الشواغل والأفكار و الخواطر ما يشوّشه و ينغّصه و هذه الضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللّذّة منغّصة إلى الموت و إنّما الحيوة الطيّبة بعد الموت و إنّما العيش عيش الآخرة فإنّ الدّار

الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» و كلّ من انتهى إلى هذه الرّتبة فإنّه يحبّ لقاء الله عزّ وجلّ فيحبّ الموت ولا يكرهه إلّا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإنّ المعرفة كالبذر وبحر المعرفة لا ساحل له والإحاطة بكنه جلال الله محال و كلّما كثرت المعرفة بالله عزّ وجلّ وبصفاته و بأفعاله و بأسرار مملكته و قويت كثر النعيم في الآخرة و عظم كما أنّه كلّما كثر البذر و حسن كثر الزّرع وحسن، و لايمكن تحصيل هذا البذر إلّا في الدّنيا و لا زرع إلّا في صعيد القلب ولاحصاد إلّا في الآخرة، ولذلك قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله عزّ وجلّ»[1] لأنّ المعرفة إنّما تكمل و تكثر و تتّسع في العمر الطويل بمداومة الفكر و المواظبة على الذّكر و طول المجاهدة و الانقطاع عن علائق الدّنيا و التجرّد للطّلب و يستدعي ذلك زماناً لا محالة فمن أحبّ الموت أحبّه لا محالة لأنّه رأى نفسه واثقاً في المعرفة بالغاً إلى منتهى ما يسّر له. و من كره الموت كرهه لأنّه كان يأمل مزيد معرفة يحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصّراً عمّا تحتمله قوّته لو عمّر فهذا سبب كراهة الموت و حبّه عند أهل المعرفة، و أمّا سائر الخلق فنظرهم مقصور على شهوات الدّنيا إن اتّسعت اختاروا البقاء وإن ضاقت تمنّوا الموت و كلّ ذلك حرمان وخسران مصدره الجهل و الغفلة، فالجهل والغفلة مغرس كلّ خطيئة و شقاوة، و العلم والمعرفة أساس كلّ سعادة، فقد عرفت بماذكرناه معنى المحبّة ومعنى العشق فإنّه المحبّة المفرطة القويّة، و معنى لذّة المعرفة، و معنى الرؤية، ومعنى كونها ألذّ من سائر اللّذّات عند ذوي العقول و الكمال و إن لم يكن كذلك عند ذوي النقصان كمالم تكن الرّئاسة ألذّ من المطعومات والملاعب عند الصبيان.

فإن قلت: فهذه الرّؤية محلّها العين أو القلب في الآخرة، فاعلم أنّ النّاس اختلفوا فيه و أرباب البصائر لا يلتفتون إلى ذلك ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن المبقلة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى

(١) رواه القضاعي في الشهاب والديلمي في الفردوس من حديث ابن عمر، هكذا «السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله» و سنده حسن كما في الجامع الصغير.

أنّ رؤيته تخلق في عينه أوفي جبهته بل يقصد الرُّؤية ولذّتها سواء بالعين أوغيرها فانّ العين محلّ و ظرف لانظر إليه ولاحكم له و الحقّ فيه أنّ القدرة الأزليّة واسعة فلا يحكم عليها بالقصور عن أحد الأمرين هذا في حكم الجواز ، وأمّا الواقع في الآخرة من الجائزين فلايدرك إلّا بالسمع والحقّ ما ظهر لأهل السنّة والجماعة من شواهد الشرع أنّ ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرُّؤية و النظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهرها إذ لا يجوز إزالة الظاهر إلّا بضرورة ، والله أعلم .

أقول: بل الحقّ فيما أشرنا إليه وصحّت روايته عن أهل البيت عليهم السلام العارفين بأسرار النبوّة الّذين هم مهابط الوحي ومختلف الملائكة و هو أنّ ذلك إنّما يكون بالقلب فحسب دون العين و أنّ رؤية العين في حقّ الله تعالى محالٌ سواء في الدّنيا و الآخرة ، روى شيخنا ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني رحمه الله [1] وشيخنا الصدوق محمّد بن عليّ بن بابويه طاب ثراه [2] باسنادهما الصحيح ، عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عمّا يروون من الرؤية فقال : « الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي ، و الكرسيّ جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ، والعرش جزءٌ من سبعين جزءاً من نور الحجاب ، والحجاب جزءٌ من سبعين جزءاً من نور الستر ، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب ».

و باسنادهما عن أحمد بن إسحاق قال : « كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية و ما اختلف فيه الناس ، فكتب «لايجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي و المرئي هواء ينفذه البصر فاذا انقطع الهواء عن الرائي و المرئي لم تصحّ الرُّؤية و كان في ذلك الاشتباه لأنّ الرّائي متى ساوى المرئيّ في السبب الموجب بينهما في الرُّؤية وجب الاشتباه وكان ذلك التشبيه لأنّ الأسباب لابدّ من اتّصالها بالمسبّبات».

و باسناد الصدوق رحمه الله ـ عن أبي بصير ، عن الصادق عليه السلام قال : قلت له : «أخبرني عن الله عزّ وجلّ هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال : نعم و قد رأوه قبل يوم القيامة، فقلت : متى ؟ قال : حين قال لهم : ألست بربّكم قالوا : بلى ، ثمّ سكت

(١) راجع الكافي ج ١ باب ابطال الرؤية .
(٢) راجع التوحيد باب ماجاء في الرؤية .

ساعة ، ثمّ قال : و إنّ المؤمنين ليرونه في الدّنيا قبل يوم القيامة ألست تراه في وقتك هذا ، قال أبو بصير : فقلت له : جعلت فداك فأُحدّث بهذا عنك ؟ فقال : لافانّك إذا حدّثت به فأنكره منكر جاهلٌ بمعنى ما تقول ثمّ قدر أنّ ذلك تشبيه و كفر وليست الرّؤية بالقلب كالرّؤية بالعين تعالى الله عمّا يصفه المشبّهون والملحدون » .

✿(بيان الاسباب المقوية لحبّ الله تعالى)✿

إعلم أنّ أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حبّاً لله فانّ الآخرة معناها القدوم على الله عزّ و جلّ و درك سعادة لقائه و ما أعظم نعيم المحبّ إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكّن من دوام مشاهدته أبد الآباد من غير منغّص ومكدّر ومن غير رقيب و مزاحم و من غير خوف انقطاع إلّا أنّ هذا النعيم على قدر قوّة الحبّ فكلّما ازداد الحبّ ازدادت اللّذّة و إنّما يكتسب العبد حبّ الله عزّ و جلّ في الدّنيا وأصل الحبّ لاينفكّ عنه مؤمن لأنّه لاينفكّ عن أصل المعرفة و أمّا قوّة الحبّ و استيلاؤه حتّى ينتهي إلى الاستهتار الّذي يسمّى عشقاً فذلك ينفكّ عنه الأكثرون و إنّما يحصل ذلك بسببين أحدهما قطع علائق الدّنيا و إخراج حبّ غير الله من القلب فانّ القلب مثل الاناء الّذي لايتّسع للخلّ مثلاً مالم يخرج منه الماء «و ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه» و كمال الحبّ في أن يحبّ الله عزّ و جلّ بكلّ قلبه وما دام يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حبّ الله وبقدر ما يبقى من الماء في الاناء ينقص من الخلّ المصبوب فيه و إلى هذا التفريد و التجريد الاشارة بقوله تعالى : « قل الله ثمّ ذرهم » (١) و بقوله « إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا» (٢) بل هو معنى قولك «لا إله إلّاالله» أي لا معبود ولا محبوب سواه ، وكلّ محبوب فانّه معبود فانّ العبد هو المتعبّد والمعبود هو المتعبّدله و كلّ محبّ فهو يعبد لمايحبّه و لذلك قال تعالى : « أفرأيت

---

(١) الانعام : ٩١ . (٢) فصلت : ٣٠ .

من اتّخذ إلهه هواه»[١] وقال عليه السلام: «أبغض إله عبد في الأرض الهوى»[٢] ولذلك قال عليه السلام: «من قال لا إله إلّا الله مخلصاً دخل الجنّة»[٣] ومعنى الإخلاص أن يخلّص قلبه لله عزّ وجلّ فلا يبقى فيه شركة لغير الله فيكون الله محبوب قلبه و معبود قلبه و مقصود قلبه فقطّ ومن هذا حاله فالدّنيا سجنه لأنّها مانعة له عن مشاهدة محبوبه و موته خلاص من السجن و قدوم على المحبوب، فما حال من ليس له إلّا محبوبٌ واحدٌ و قد طال إليه شوقه و تمادى عنه حبسه فخلى من السجن ومكّن من المحبوب و روّح بالأُنس أبد الآباد، فإذن أحد أسباب ضعف حبّ الله في القلوب قوّة حبّ الدّنيا و منه حبّ الأهل و المال و الولد والأقارب و العقار و الدّواب و البساتين و المتنزّهات حتّى أنّ المتفرّج بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسحار ملتفت إلى نعيم الدّنيا و متعرّض لنقصان حبّ الله بسببه فبقدر ما أنس بالدّنيا ينقص اُنسه بالله فلا يؤتى أحدٌ شيئاً من الدّنيا إلّا و ينقص بقدره من الآخرة بالضرورة، كما أنّه لا يقرب الإنسان من المشرق إلّا و يبعد بالضرورة من المغرب بقدره، ولا يطيب قلب امرأة إلّا و يضيق به قلب ضرّتها فالدّنيا و الآخرة ضرّتان و هما كالمشرق و المغرب، وقد انكشف ذلك لذوي القلوب انكشافاً أوضح من الابصار بالعين وسبيل قلع حبّ الدّنيا من القلب سلوك طريق الزّهد و ملازمة الصبر والانقياد إليهما بزمام الخوف و الرّجاء فما ذكرناه من المقامات كالتوبة و الصبر و الزّهد و الخوف و الرّجاء هي مقدّمات ليكتسب بها أحد ركني المحبّة و هو تخلية القلب عن غير الله و أوّله الايمان بالله واليوم الآخر والجنّة والنار، ثمّ يتشعّب منه الخوف والرّجاء وينشعب منهما التوبة والصبر عليهما ثمّ ينجرّ ذلك إلى الزّهد في الدّنيا و في المال و الجاه و كلّ حظوظ الدّنيا حتّى تحصل من جميعه طهارة القلب عن غير الله فقطّ حتّى يتّسع بعده لنزول معرفة الله عزّ وجلّ وحبّه فيه و كلّ ذلك مقدّمات تطهير

(١) الجاثية: ٢٢.

(٢) أخرجه الطبراني على مافي كنوز الحقائق هكذا «أبغض اله عبد عند الله في الارض الهوى».

(٣) رواه الصدوق في التوحيد باب ثواب الموحدين والعارفين.

القلب وهو أحد ركني المحبّة وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «الطّهور شطر الإيمان»[1] كما ذكرناه في أوّل كتاب الطهارة.

السبب الثاني: لقوّة المحبّة قوّة معرفة الله و اتّساعها و استيلاؤها على القلب، و ذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدّنيا و علائقها و ذلك يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش و هو الشطر الثاني، ثمّ يتولّد من هذا البذر شجرة المحبّة و المعرفة وهي الكلمة الطيّبة الّتي ضرب الله بها مثلاً حيث قال: ومثل «كلمة طيّبة كشجرة طيّبة أصلها ثابت وفرعها في السماء»[2] وإليها الإشارة بقوله تعالى: «إليه يصعد الكلم الطيّب (أي المعرفة) والعمل الصّالح يرفعه»[3] فالعمل الصالح كالحمّال لها و كالخادم و إنّما العمل الصّالح كلّه في تطهير القلب أوّلاً من الدّنيا ثمّ في إدامة طهارته، فلا يراد العمل إلّا لهذه المعرفة و أمّا العلم بكيفيّة العمل فيراد للعمل، فالعلم هو الأوّل وهو الآخر و إنّما الأوّل علم المعاملة وغرضه العمل وغرض المعاملة صفاء القلب و طهارته ليتّضح فيه جليّة الحقّ ويتزيّن بعلم المعرفة وهو علم المكاشفة و مهما حصلت هذه المعرفة تبعها المحبّة بالضرورة كما أنّ من كان معتدل المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبّه ومال إليه ومهما أحبّه حصلت اللّذّة فاللّذّة تتبع المحبّة بالضرورة و المحبّة تتبع المعرفة بالضرورة و لا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدّنيا من القلب إلّا بالفكر الصافي والذّكر الدّائم والجدّ البالغ في الطلب والنظر المستمرّ في الله و في صفاته و ملكوت سماواته و سائر مخلوقاته، و الواصلون إلى هذه الرّتبة ينقسمون إلى أقوياء و يكون أوّل معرفتهم بالله تعالى ثمّ به يعرفون غيره و إلى ضعفاء فيكون أوّل معرفتهم بالأفعال ثمّ يترقّون منها إلى الفاعل وإلى الأوّل الإشارة بقوله تعالى: «أو لم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد»[4] و بقوله:

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٤٠ وقد تقدم.

(٢) ابراهيم: ٢٩. (٣) فاطر: ١١.

(٤) فصلت: ٥٣.

« شهد الله أنّه لا إله إلّاهو » (١) و منه نظر بعضهم حيث قيل له : بم عرفتَ ربّك؟ فقال : عرفتُ ربّي بربّي ، ولولا ربّي لما عرفتُ ربّي ، و إلى الثّاني الإشارة بقوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم » (٢) وبقوله : «أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض» (٣) وبقوله : « قل انظروا ما ذا في السموات و الأرض » (٤) و بقوله : « الّذي خَلَقَ سبع سَماواتٍ طِباقاً ما ترى في خلق الرّحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ۞ ثمّ ارجع البصرَ كرّتين ينقلب إليك البصرُ خاسئاً وهو حسير» (٥) و هذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتّدبّر والتّذكّر و التفكّر والاعتبار و النظر في آيات خارجة عن الحصر.

فإن قلت : كلا الطريقين مشكلٌ فأوضح لنا منهما ما يتوصّل به إلى تحصيل المعرفة و التوصّل به إلى المحبّة . فاعلم أنّ الطّريق الأعلى هو الاستشهاد بالحقّ سبحانه على سائر الخلق فهو غامضٌ والكلام فيه خارج عن حدّ فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيراده في الكتب. وأمّا الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حدّ الافهام و إنّما قصرت الأفهام عنها لإعراضها عن التدبّر و اشتغالها بشهوات الدّنيا و حظوظ النّفس و المانع من ذكر هذا اتّساعه و كثرته و انشعاب أبوابه الخارجة عن الحصر و النهاية إذ ما من ذرّة من أعلى السماوات إلى تخوم الأرضين إلّا وفيها عجائب و آيات تدلّ على كمال قدرة الله عزّ و جَلّ و كمال حكمته و منتهى جلاله و عظمته و ذلك ممّا لا يتناهي «قل لو كان البحر مِداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي» فالخوض فيه انغماس في بحار علوم المكاشفة فلا يمكن أن يتطفّل به على علوم المعاملة ولكن يمكن الرّمز إليه بمثال واحد على الإيجاز ليقع التنبيه لجنسه فنقول : أسهل الطّريقين النظر إلى الأفعال فلنتكلّم فيها ولنترك الأعلى ، ثمّ

(١) آل عمران : ١٦ .
(٢) فصلت : ٥٣ .
(٣) الاعراف : ١٨٤ .
(٤) يونس : ١٠١ .
(٥) الملك : ٣ و ٤ .

الأفعال الإلهيّة كثيرة فنطلب أقلّها و أحقرها و أصغرها و لننظر في عجائبها فأقلّ المخلوقات هو الأرض و ما عليها أعني بالإضافة إلى الملائكة و ملكوت السماوات فإنّك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشّخص فالشّمس على ما ترى من صغر حجمها مثل الأرض مائة ونيّفاً وستّين مرّة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إلى الشّمس ثمّ انظر إلى صغر الشّمس بالإضافة إلى فلكها الّذي هي مركوزة فيه فإنّه لا نسبة لها إليه و هي في السماء الرّابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السماوات ، ثمّ السماوات السبع في الكرسيّ كحلقة ملقاة في فلاة . و الكرسيّ في العرش كذلك ، فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث المقادير و ما أحقر الأرض كلّها بالإضافة إليها بل ما أصغر الأرض بالإضافة إلى البحار فقد قال عليه السلام : «الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض» (١) و مصداق ذلك عرف بالمشاهدة و التجربة .

و اعلم أنّ المكشوف من الأرض عن الماء كجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كلّ الأرض ثمّ انظر إلى الآدمي المخلوق من التراب الّذي هو جزء من الأرض و إلى سائر الحيوانات و إلى صغره بالإضافة إلى الأرض ودَعْ عنك جميع ذلك فأصغر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل و ما يجري مجراهما فانظر في البعوض على صغر قدره و تأمّله بعقل حاضر وفكر صاف ، و انظر كيف خلقه الله تعالى على شكل الفيل الّذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطوماً مثل خرطومه ، وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للفيل بزيادة جناحين ، وانظر كيف قسم أعضاءه الظاهرة فأنبت جناحيه وأخرج يديه و رجليه و شقّ سمعه و بصره و دبّر في باطنه من أعضاء الغذاء و آلاته ما دبّره في سائر الحيوانات و ركّب فيها من القوى الغاذية و الجاذبة والدّافعة والماسكة والهاضمة ما ركّب في سائر الحيوانات هذا في شكله و صفاته ، ثمّ انظر إلى هدايته كيف هداه الله إلى غذائه و عرّفه أنّ غذاءه دم الإنسان ثمّ انظر كيف أنبت له آلة الطيران إلى الإنسان و كيف خلق له الخرطوم الطويل و هو محدّد الرّأس و كيف هداه إلى المصاص من مسام بشرة الإنسان حتّى يضع خرطومه

---

(١) قال العراقي: لم أجد له أصلا .

في واحد منها ، ثمّ كيف قوّاه حتّى يغرز فيه الخرطوم و كيف علّمه المصّ والتجرّع للدّم و كيف خلق الخرطوم مع دقّته مجوّفاً حتّى يجري فيه الدّم الصافي الرقيق و ينتهي إلى باطنه و ينتشر في سائر أجزائه و معدته ، ثمّ كيف عرّفه أنّ الإنسان يقصده بيده فعلّمه حيلة الهرب و استعمال آلته ، و خلق له السمع الّذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعد بعيدة منه فيترك المصّ ويهرب ، ثمّ إذا سكنت اليد عاد ثمّ انظر كيف خلق له حدقتين حتّى يبصر مواضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه و انظر إلى أنّ حدقة كلّ حيوان صغير لمّا لم تحتمل حدقته الأجفان لصغره و كانت الأجفان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى و الغبار خلق للبعوض و الذّباب يدين فتنظر إلى الذّباب فتراه على الدّوام يمسح حدقتيه بيديه وأمّا الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقتيه الأجفان حتّى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادّة فيجمع الغبار الّذي يلحق الحدقة و يرميها إلى أطراف الأهداب ، وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين و تعين على الإبصار و تحسن صورة العين و لتشبّكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شباك الأهداب و اشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار ، و أمّا البعوض فخلق له حدقتين مصقلتين من غير أجفان و علّمه كيفيّة التصقيل باليدين و لأجل ضعف أبصارها تراه تتهافت على السّراج لأنّ بصره ضعيف فهو يطلب ضوء النهار فإذا رأي المسكين ضوء السّراج باللّيل ظنّ أنّه في بيت مظلم وأنّ السراج كوّة في البيت المظلم إلى الموضع المضيء فلا يزال يطلب الضوء و يرمي بنفسه إلى الكوّة فإذا جاوزه و رأى الظلام ظنّ أنّه لم تصب الكوّة و لم يقصدها على السداد فيعود إليه مرّة اُخرى ، إلى أن يحترق فلعلّك تظنّ أن هذا لنقصانها و جهلها ، فاعلم أنّ جهل الإنسان أعظم من جهلها بل صورة الآدمي في الإكباب على شهوات الدّنيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ يلوح للآدمي أنوار الشهوات من الدّنيا من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أنّ تحتها السمّ الناقع القاتل فلايزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينغمس فيها و يتقيّد بها و يهلك هلاكاً مؤبّداً فليت كان جهل الآدمي كجهل الفراش فإنّها باغترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلّصت في

الحال و الآدمي يبقى في النارأبد الآباد أو مدّة مديدة ولذلك كان ينادي رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الناس ويقول : «إنّكم تتهافتون على النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم»(١) فهذه لمعة عجيبة من عجائب صنع الله عزّ وجلّ في أصغر الحيوانات وفيهما من العجائب ما لو اجتمع الأوّلون والآخرون على الإحاطة بكنهه عجزوا عن حقيقته ولم يطّلعوا على اُمور جليّة من ظاهر صورته فأمّا خفايا معانيه فلا يطّلع عليه إلّا الله تعالى، ثمّ في كلّ حيوان و نبات اُعجوبة و عجائب تخصّها لا يشاركها غيرها فانظر إلى النحل وعجائبه فكيف أوحى الله عزّ و جلّ إليه حتّى اتّخذت من الجبال بيوتاً و من الشجر وممّا يعرشون، و كيف استخرج من لعابها الشمع و العسل وجعل أحدهما ضياء و الآخر شفاء، ثمّ لو تأمّلت عجائب أمرها في تناولها الأزهار و الأنوار و احترازها عن النجاسات و الأقذار و طاعتها لواحد من جملتهم هو أكبرهم شخصاً و هو أميرهم ثمّ ما سخّر الله لأميرهم من العدل و الإنصاف بينهم حتّى أنّه ليقتل على باب المنفذ كلّ ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجباً آخر العجب إن كنت بصيراً في نفسك و فارغاً من مهمّ بطنك و فرجك وشهوات نفسك و معاداة أقرانك وموالاة إخوانك، ثمّ دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع و اختيارها من جملة الأشكال الشكل المسدّس فلا تبني بيتها مستديراً ولا مربّعاً ولا مخمّساً بل مسدّساً لخاصيّة في الشكل المسدّس يقصر فهم المهندسين عن دركها وهو أنّ أوسع الأشكال وأحواها المستدير وما يقرب منه فإنّ المربع يخرج منها زوايا ضائعة و شكل النحل مستدير مستطيل فترك المربّع حتّى لا يضيع الزّوايا فتبقى فارغة، ثمّ لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإنّ الأشكال المستديرة إذا اجتمعت لم تجتمع متراصّة ولا شكل في الأشكال ذوات الزّوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثمّ تتراصّ الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلّا المسدّس فهذه خاصيّة هذا الشكل، فانظر كيف ألهم الله عزّ وجلّ النحل على صغر جرمه و لطافة قدّه لطفاً به و عناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتهنّأ عيشه، فسبحانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه و امتنانه،

(١) متفق عليه في الصحيحين باختلاف في اللفظ من حديث أبي هريرة وجابر وقد تقدم.

فاعتبر بهذه اللّمعة اليسيرة من محقّرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض و السماوات فإنّ القدر الّذي بلغه فهمنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه و لانسبة لما أحاط به علمنا إلى ما أحاط به علم العلماء و الأنبياء ولا نسبة لما أحاط به علم الخلائق كلّهم إلى ما استأثر الله عزّ وجلّ بعلمه بل كلّ ما عرفه الخلق لايستحقّ أن يسمّى علماً في جنب علم الله تعالى ، فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين و بزيادة المعرفة يزداد المحبّة فإن كنت طالباً سعادة لقاء الله تعالى فانبذ الدّنيا وراء ظهرك و استغرق العمر في الفكر الدّائم والذّكر اللّازم فعساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تنال بذلك القدر اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له .

✡(بيان السبب في تفاوت النّاس في الحبّ)✡

إعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل المحبّة لاشتراكهم في أصل الإيمان ولكنّهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة و في حبّ الدّنيا إذ الأشياء إنّما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من معرفة الله إلّا الصفات والأسماء الّتي قرعت أسماعهم فتلقّنوها وحفظوها وربّما تخيّلوا لها معاني يتعالى عنها ربّ الأرباب وربّما لم يطّلعوا على حقيقتها و لا تخيّلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم و تصديق و اشتغلوا بالعمل و تركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين و المتخيّلون هم الضالّون و العارفون بالحقائق هم المقرّبون وقد ذكر الله عزّ وجلّ حال الأصناف الثلاثة في قوله : « فأمّا إن كان من المقرّبين ✡ فروح و ريحان وجنّة نعيم - الآيات »(١) و إذا كنت لا تفهم الأمور إلّا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحبّ مثالاً فنقول : أصحاب إمام مثلاً يشتركون في حبّ ذلك الإمام ، العلماء منهم والعوام لأنّهم يشتركون في معرفة فضله و دينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكنّ العامّي يعرف علمه مجملاً و الفقيه يعرفه مفصّلاً فيكون معرفة الفقيه به أتمّ و إعجابه به وحبّه له أشدّ فمن رأى تصنيف مصنّف فاستحسنه و عرف به فضله أحبّه لا محالة و مال إليه قلبه ، فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه و أعجب تضاعف لا محالة حبّه و

(١) الواقعة : ٨٧ و ٨٩ .

مال إليه قلبه أكثر من ميله الأوّل لأنّه تضاعفت معرفته بعلمه و كذلك يعتقد الرّجل في الشاعر أنّه حسن الشعر فيحبّه، فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعته ازداد به معرفة وازداد له حبّاً و كذاسائر الصناعات والفضائل فالعاميّ قد يسمع أنّ فلاناً مصنّف وأنّه حسن التصنيف ولكن لايدري ما في التصنيف فيكون له معرفة مجملة و يكون له بحسبه ميل مجمل، والبصير إذا فتّش عن التصانيف و اطّلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبّه لا محالة لأنّ عجائب الصنعة و الشعر والتصنيف تدلّ على كمال صفات الفاعل والمصنّف، والعالم بجملته صنع الله وتصنيفه و العاميّ يعلم ذلك و يعتقده، وأمّا البصير فإنّه يطالب تفصيل صنع الله تعالى فيه حتّى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنعه ومايبنهر به عقله ويتحيّر فيه لبّه فيزداد بسببه لامحالة عظمة الله وجلاله و كمال صفاته في قلبه فيزداد له حبّاً فكلّما ازداد على أعاجيب صنع الله اطّلاعاً استدلّ به على عظمة الصانع وجلاله و ازداد به معرفة وله حبّاً و بحر هذه المعرفة أعني معرفة عجائب صنع الله لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحبّ لا حصر له و ممّا يتفاوت بسببه الحبّ أيضاً اختلاف الأسباب الخمسة الّتي ذكرناها للحبّ فإنّ من يحبّ الله مثلاً لكونه محسناً إليه و منعماً عليه ولم يحبّه لذاته ضعفت محبّته إذ تتغيّر بتغيّر الإحسان فلايكون حبّه في حالة البلاء كحبّه في حالة الرّخاء والنعماء، وأمّا من يحبّه لذاته أولأنّه مستحقّ للحبّ بسبب كماله وجماله و مجده و عظمته فإنّه لا يتفاوت حبّه بتفاوت الإحسان إليه فهذا و أمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبّة و التفاوت في المحبّة هو سبب التفاوت في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى: «وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً»(١).

✽(بيان السبب فى قصور أفهام الخلق عن معرفة الله عزّ وجلّ)✽

إعلم أنّ أظهر الموجودات و أجلاها هو الله عزّ وجلّ وكان هذا يقتضي أن يكون معرفته أوّل المعارف و أسبقها إلى الأفهام وأسهلها على العقول و ترى الأمر بالضدّ من ذلك فلابدّ من بيان السبب فيه، وإنّما قلنا: إنّ أظهر الموجودات وأجلاها

(١) الاسراء: ٢١.

هو الله تعالى لمعنى لانفهمه إلّا بمثال و هو أنّا إذا رأينا إنساناً يكتب أويخيط مثلاً كان كونه حيّاً عندنا من أظهر الموجودات فحياته و علمه وقدرته و إرادته للكتابة و الخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة و الباطنة إذ صفاته الباطنة كشهوته و غضبه وحلمه و صحّته و مرضه و كلّ ذلك لا نعرفه و صفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشكّ فيه كمقدار طوله و اختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أمّا حياته و قدرته و إرادته و علمه و كونه حيواناً فإنّه جليّ عندنا من غير أن يتعلّق حسّ البصر بحياته و قدرته وإرادته فإنّ هذه الصفات لاتحسّ بشيء من الحواسّ الخمس ثمّ لايمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلّا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كلّ ما في العالم سواه لم نعرف به صفاته فما عليه إلّا دليل واحد وهو مع ذلك جليّ واضح و وجود الله وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضّرورة كلّ ما نشاهده و ندركه بالحواسّ الظاهرة و الباطنة من حَجَر و مَدَر ونبات و شجر وحيوان وسماء و ماء و أرض و كوكب و برّ وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض ، بل أوّل شاهد عليه أنفسنا و أجسامنا و أوصافنا و تقلّب أحوالنا و تغيّر قلوبنا و جميع أطوارنا في حركاتنا و سكناتنا و أشهر الأشياء في علمنا أنفسنا ، ثمّ محسوساتنا بالحواسّ الخمس ثمّ مدركاتنا بالبصيرة و العقل و كلّ واحد من هذه المدركات لها مدرك واحد و شاهدٌ واحدٌ و دليلٌ واحد ، وجميع ما في العالم شواهد ناطقة و أدلّة شاهدة بوجود خالقها ومدبّرها و مصرّفها ومحرّكها و دالّة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته و الموجودات المدركة لا حصر لها ، فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا و ليس يشهد له إلّا شاهد واحدٌ و هو ما أحسسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا من لا يتصوّر في الوجود شيء داخل نفوسنا و خارجها إلّا و هو شاهد عليه و على عظمته و جلاله إذ كلّ ذرّة فإنّها تنادي بلسان حالها أنّه ليس وجودها بنفسها ولاحركتها بذاتها وأنّها تحتاج إلى موجد و محرّك لها يشهد بذلك أوّلاً تركيب أعضائنا و ائتلاف عظامنا و لحومنا و أعصابنا و منابت شعورنا و تشكّل أطرافنا و سائر أجزائنا الظاهرة و الباطنة فإنّا نعلم أنّها لم تأتلف بنفسها كما نعلم أنّ يدالكاتب لم تتحرّك بنفسها ولكن لمّالم يبق

في الوجود مدركٌ ومحسوسٌ ومعقولٌ وحاضرٌ وغائبٌ إلّا وهو شاهدٌ ومعرِّفٌ فلوجوده وعظم ظهوره فانبهرت العقول و دهشت عن إدراكه فإذن ماتقصر عن فهمه عقولنا له سببان أحدهما خفاؤه في نفسه و غموضه و ذلك لا يخفى مثاله ، و الآخر ما يتناهى وضوحه وهذا كما أنّ الخفّاش يبصر باللّيل ولا يبصر بالنهار لالخفاء النهار واستتاره ولكن لشدّة ظهوره فإنّ بصر الخفّاش ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت فتكون قوّة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع إبصاره فلا يرى شيئاً إلّا إذا امتزج الظلام بالضوء وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهيّة في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق و الشمول حتّى لم يشذّ عن ظهوره ذرّة من ملكوت السماوات و الأرض فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان من احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر و الأبصار بظهوره ، ولايتعجّب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإنّ الأشياء تستبان بأضدادها . وما عمّ وجوده حتّى أنّه لا ضدّ له عسر إدراكه. فلو اختلف الأشياء فدلّ بعضها دون البعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدّلالة على نسق واحد أشكل الأمر ، و مثاله نور الشمس المشرق على الأرض فإنّا نعلم أنّه عرض من الأعراض يحدث في الأرض و يزول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الإشراق لا غروب لها لكنّا نظنّ أن لا هيئة في الأجسام إلّا ألوانها و هي السواد والبياض وغيرهما ، فإنّا لا نشاهد في الأسود إلّا السواد و في الأبيض إلّا البياض فأمّا الضوء فلاندركه وحده ولكن لمّا غابت الشّمس وأظلمت المواضع أدركنا تفرقة بين الحالتين فعلمنا أنّ الأجسام كانت قد استضاءت بضوء واتّصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه و ما كنّا نطّلع عليه لولا عدمه إلّا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام و النور ، هذا مع أنّ النور أظهر المحسوسات إذ به يدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره ، انظر كيف تصوّر استبهام أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضدّه ، فإنّ الربّ تعالى هو أظهر الأُمور و به ظهرت الأشياء كلّها ، و لو كان له عدم أو غيبة أو تغيّر لانهدّت السماوات و الأرض وبطل الملك و الملكوت و لأدركت به التفرقة بين

الحالتين ، ولو كان بعض الأشياء موجوداً به و بعضها موجوداً بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين في الدّلالة ولكن دلالته عامّة في الأشياء على نسق واحد و وجوده دائمٌ في الأحوال يستحيل خلافه ، فلاجرم أورثت شدّة الظهور خفاء ، فهذا هو السبب في قصور الأفهام ، و أمّا من قويت بصيرته ولم تضعف منّته فإنّه في حال اعتدال أمره لا يرى إلّا الله ولا يعرف غيره و يعلم أنّه ليس في الوجود إلّا الله و أفعاله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهي تابعة له فلا جرم لا وجود لها بالحقيقة دونه و إنّما الوجود الواحد الحقّ الّذي به وجود الأفعال كلّها ، و من هذا حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلّا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث إنّه سماء وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنّه صنع الواحد الحقّ ، فلا يكون نظره مجاوزاً إلى غيره ، كمن نظر في شعر إنسان أو خطّه أو تصنيفه و رأى آثاره من حيث إنّها آثاره لامن حيث إنّه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض ، فلا يكون قد نظر إلى غير المصنّف ، فكلُّ العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنّه فعل الله و عرفه من حيث إنّه فعل الله و أحبّه من حيث إنّه فعل الله لم يكن ناظراً إلّا في الله و لاعارفاً إلّا بالله ولا محبّاً إلّا له ، و كان هو الموحّد الحقّ الّذي لا يرى إلّا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنّه عبد الله فهذا هو الّذي يقال فيه إنّه فنى في التوحيد وأنّه فنى من نفسه وإليه الإشارة بقول من قال: كنّا بنا ففنينا عنّا فبقينا بلا نحن . فهذه أُمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت على ضعفاء الأفهام و إشكالها إمّا لضعف الأفهام أو لاشتغالهم بأنفسهم و اعتقادهم أنّ بيان ذلك لغيرهم ممّا لا يعنيهم فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى ، وانضمّ إليه أنّ المدركات كلّها الّتي هي شاهدة على الله إنّما يدركها الإنسان في الصّبى عند فقد العقل ثمّ تبدو فيه غريزة العقل قليلاً و هو مستغرق الهمّ بشهواته ، وقد أنس بمدركاته و محسوساته و ألفها فسقط وقعها عن قلبه بطول الانس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيواناً غريباً أو نباتاً غريباً أو فعلاً من أفعال الله خارقاً للعادة عجيباً انطلق لسانه بالمعرفة طبعاً فقال : سبحان الله ، وهو يرى طول النهار نفسه و أعضاءه و سائر الحيوانات المألوفة

وكلّها شواهد قاطعة ولا يحسُّ بشهادتها لطول الأُنس بها ، ولو فرض أكمه بلغ عاقلاً ثمّ انقشعت غشاوة عن عينيه فامتدّ بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة يخاف على عقله أن ينبهر لعظم تعجّبه من مشاهدة هذه العجائب على خالقها فهذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هي الّتي سدّت على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسباحة في بحارها الواسعة ، فالناس في طلبهم معرفة الله تعالى كالمدهوش الّذي يضرب به المثل إذ كان راكباً لحماره وهو يطلب حماره والجليّات إذا صارت مطلوبة صارت معتاصة[1] فهذا سرُّ هذا الأمر فليتحقّق ولذلك قيل :

فقد ظهرتَ فلا تَخفى على أحدٍ ✿ إلّا على أكمه لا يعرف القمرا
لكن بطنت بما أظهرت محتجباً ✿ وكيف يعرف من بالعرف قد سترا

✿(بيان معنى الشوق الى الله عزّ وجلّ)✿

إعلم أنَّ من أنكر حقيقة المحبّة لله تعالى فلابدَّ وأن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصوَّر الشوق إلّا إلى محبوب ونحن نثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار أمّا الاعتبار فيكفي في إثباته ما سبق في إثبات الحبِّ وكلُّ محبوب فهو مشتاق إليه في غيبته فإنَّ الحاصل الحاضر فلا يشتاق إليه ، فإنَّ الشوق طلب وتشوّف إلى نيل أمر ، والموجود لا يطلب ولكن بيانه أنَّ الشوق لا يتصوَّر إلّا إلى شيء أدرك من وجه ولم يدرك من وجه فأمّا ما لا يدرك أصلاً فلا يشتاق إليه ، فمن لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يتصوَّر أن يشتاق إليه وما أدرك بكماله لا يشتاق إليه ، وكمال الإدراك بالرُّؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصوَّر أن يكون له شوق ، ولكن الشوق إنّما يتعلّق بما أدرك من وجه ولم يدرك من وجه وهو من وجهين : الأوَّل هو أن يتّضح الشيء اتّضاحاً مّا ولكنّه يحتاج إلى استكمال ولا ينكشف إلّا بمثال من المشاهدات فمن غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه

(١) اعتاص يعتاص اعتياصاً الامر عليه اشتد وامتنع والتاث عليه فلم يهتد الى وجه الصواب.

خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرُّؤية فلو انمحى عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتّى نسيه لم يتصوَّر أن يشتاق إليه ولو رآه لم يتصوَّر أن يشتاق إلى معرفته في وقت الرُّؤية فمعنى شوقه تشوُّف نفسه إلى استكمال خياله، ولذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته، وتمام الانكشاف في صورته باشراق الضوء عليه، والثاني أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره ولا سائر محاسنه مثلاً ولا سائر أعضائه فيشتاق إلى رؤيته ولو لم يرها قطُّ ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرُّؤية ولكنّه يعلم أنَّ له عضواً وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرُّؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قطُّ والوجهان جميعاً متصوَّران في حقِّ الله بل هما لازمان بالضرورة لكلِّ العارفين فإنَّ ما اتّضح للعارفين من الاُمور الإلهيّة وإن كان في غاية الوضوح فكأنّه من وراء ستر رقيق فلا يكون متّضحاً غاية الاتّضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيّلات فإنَّ الخيالات لا تفتر في هذا العالم عن التمثيل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدّرات للعارف ومنغّصات، وكذلك ينضاف إليها شواغل الدُّنيا فإنّما كمال الوضوح بالمشاهدة وتمام إشراق التجلّي ولا يكون ذلك إلّا في الآخرة وذلك بالضرورة يوجب الشوق فإنّه منتهى محبوب العارفين فهذا هو أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيما اتّضح اتّضاحاً مّا، الثاني أنَّ الاُمور الإلهيّة لانهاية لها وإنّما ينكشف لكلِّ عبد من العباد بعضها وتبقى اُمور لانهاية لها غامضة، والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله ويعلم أنَّ ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر ممّا حضر فلا يزال متشوِّقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل له ممّا بقي من المعلومات الّتي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأوَّل ينتهي في الدّار الآخرة بالمعنى الّذي يسمّى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصوَّر أن يسكن في الدُّنيا وقد كان إبراهيم بن أدهم من المشتاقين فقال: قلت ذات يوم: يا ربِّ إن أعطيت أحداً من المحبّين لك ما يسكن به قلبه قبل لقائك فأعطني ذلك فقد أضرَّ بي القلق، قال: فرأيت في النوم كأنّه أوقفني بين يديه وقال: يا إبراهيم أما استحييت منّي أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل

لقائي و هل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه ، فقلت : يا رب تهت في حبّك فلم أدر ما أقول فاغفر لي وعلّمني ما أقول فقال: قل : «اللّهمّ رضّني بقضائك وصبّرني على بلائك و أوزعني شكر نعمائك» فإذن هذا الشوق يسكن في الآخرة ، و أمّا الشوق الثاني فيشبه أن لا يكون له نهاية في الدّنيا و لا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله وصفاته وأحكامه وأفعاله ما هو معلوم لله و هو محال لأنّ ذلك لانهاية له ولايزال العبد عالماً بأنّه بقي من الجمال والجلال مالم يتّضح له فلا يسكن قطّ شوقه لاسيّما من يرى فوق درجته درجات كثيرة لأنّه يتشوّف إلى استكمال الوضوح مع حصول أصل الوصال فهو يجد لذلك شوقاً لذيذاً لا يظهر فيه ألم و لا يبعد أن تكون ألطاف الكشف و النظر متوالية إلى غير نهاية فلايزال النعيم واللّذة متزايداً أبد الآباد و يكون لذّة ما يتجدّد من لطائف النعيم شاغلة عن الإحساس بالشوق إلى مالم يحصل و هذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدّنيا أصلاً فإنّ ذلك غير مبذول فيكون النعيم واقفاً على حدّ لايتضاعف ولكن يكون مستمرّاً على الدّوام وقوله تعالى : «نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربّنا أتمم لنا نورنا »(١) محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بإتمام النور مهما تزوّد من الدّنيا أصل النور ، و يحتمل أن يكون المراد به إتمام النور في عين ما استنار في الآخرة استنارة محتاجة إلى زيادة الاستكمال و الإشراق ليكون هذا هو المراد بتمامه، وقوله تعالى : «انظرونا نقتبس من نورِكم قيل إرجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً» (٢) يدلّ على أنّ الأنوار لابدّ أن يتزوّد أصلها في الدّنيا ثمّ يزداد في الآخرة إشراقاً ، فأمّا أن يتجدّد نور يتلألأ فلا و الحكم في هذا برجم الظنون مخطرٌ ، ولم ينكشف لنا بعد فيه ما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علماً ورشداً ويرينا الحقّ حقّاً فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق و معانيه .

وأمّا شواهد الأخبار والآثار فهي أكثر من أن تحصى فمنها ما اشتهر من دعاء رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه كان يقول : « اللّهمّ إنّي أسألك الرّضا بعد القضاء ، وبرد العيش

---

(١) التحريم : ٨ . (٢) الحديد : ١٣ .

بعد الموت ، ولذّة النظر إلى وجهك الكريم ، و شوقاً إلى لقائك » [١] و قد قال أبو الدّرداء لكعب الأحبار : أخبرني عن أخصّ آية في التوراة فقال : يقول الله عزّ وجلّ : طال شوق الأبرار إلى لقائي و أنا إلى لقائهم لأشدّ شوقاً. قال : و مكتوب إلى جانبها من طلبني وجدني و من طلب غيري لم يجدني ، فقال أبوالدّرداء : أشهد أنّي لسمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول هذا . و في أخبار داود عليه السلام « إنّ الله عزّ وجلّ قال : ياداود أبلغ أهل أرضي أنّي حبيبٌ لمن أحبّني ، وجليس لمن جالسني ، ومونس لمن أنس بذكري ، وصاحب لمن صاحبني ، ومختار لمن اختارني ، ومطيع لمن أطاعني ، ما أحبّني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلّا قبلته لنفسي و أحببته حبّاً لايتقدّمه أحدٌ من خلقي ، من طلبني بالحقّ وجدني ، و من طلب غيري لم يجدني ، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلمّوا إلى كرامتي ومصاحبتي و مجالستي و ائنسوابي أؤانسكم و اُسارع إلى محبّتكم فإنّي خلقت طينة أحبّائي من طينة إبراهيم خليلي، من موسى كليمي [٢] و محمّد صفيّي ، إنّي خلقت قلوب المشتاقين من نوري و نعّمتها بجلالي، و روي عن بعض السلف إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إلى بعض الصدّيقين انّ لي عباداً من عبادي يحبّونني واُحبّهم ويشتاقون إليّ وأشتاق إليهم ويذكرونني و أذكرهم وينظرون إليّ وأنظر إليهم ، فإن حذوت طريقهم أحببتك و إن عدلت عنهم مقتّك ، قال : يا ربّ و ما علامتهم ؟ قال عزّ و جلّ : يراعون الظلال بالنّهار كما يراعي الرّاعي الشفيق غنمه و يحنّون إلى غروب الشمس كما يحنُّ الطير إلى أوكارها عند الغروب ، فإذا جنّهم اللّيل و اختلط الظلام و فرشت الفرش و نصبت الأسترة وخلا كلُّ حبيب بحبيبه نصبوا لي أقدامهم وافترشوا لي وجوههم وناجوني بكلامي وتملّقوني بإنعامي ، فبين صارخ وباك و متأوّه و شاك ، وبين قائم وقاعد ، و بين راكع وساجد ، بعيني ما يتحمّلون من أجلي ، وبسمعي ما يشتكون من حبّي،

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٥٢٤ فى دعاء من حديث عمار بن ياسر- رحمه الله - .

(٢) فى بعض النسخ [نجيى] .

أوّل ما أُعطيهم ثلاث أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عنّي كما أُخبر عنهم ، و الثانية لو كانت السماوات والأرض و ما فيهما في موازينهم لاستقللتها لهم ، و الثالثة أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه يعلم أحدٌ ما أُريد أن أعطيه ؟.

و في أخبار داود عليه السلام إنّ الله عزّ وجلّ أوحى إليه : يا داود إلى كم تذكر الجنّة ولا تسألني الشوق إليّ قال : يا ربّ من المشتاقون إليك ؟ قال : إنّ المشتاقين إليّ الّذين صفّيتهم من كلّ كدر و أنبهتهم بالحذر و خرقت من قلوبهم إليّ خرقاً ينظرون إليّ ، وإنّي لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي ثمّ أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي فأقول : إنّي لم أجمعكم لتسجدوا لي ولكن دعوتكم لأُعرض عليكم قلوب المشتاقين إليّ و اُباهي بكم أهل الشوق إليّ ، وإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي كما تضيء الشمس لأهل الأرض ، يا داود إنّي خلقت قلوب المشتاقين من رضواني و نعّمتها بنور وجهي واتّخذتهم لنفسي محدّثين و جعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض و قطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إليّ يزدادون في كلّ يوم شوقاً ، قال داود : يا ربّ أرني أهل محبّتك ، فقال : يا داود ائت جبل لبنان فإنّ فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبّان وفيهم كهول وفيهم مشايخ فإذا أتيتهم فأقرئهم منّي السلام وقل لهم : إنّ ربّكم يقرئكم السلام و يقول لكم : ألا تسألوني حاجة فإنّكم أحبّائي و أصفيائي و أوليائي ، افرح لفرحكم و اُسارع إلى محبّتكم فأتاهم داود فوجدهم عند عين من العيون يتفكّرون في عظمة الله تعالى وملكوته فلمّا نظروا إلى داود نهضوا ليتفرّقوا عنه فقال لهم داود : إنّي رسول الله إليكم جئتكم لأُبلّغكم رسالة ربّكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماعهم نحو قوله ، وألقوا أبصارهم إلى الأرض ، فقال داود : إنّي رسول الله إليكم وهو يقرئكم السلام ويقول لكم: ألا تسألوني حاجة ألا تنادوني فأسمع صوتكم و كلامكم فإنّكم أحبّائي و أصفيائي و أوليائي أفرح لفرحكم و أُسارع إلى محبّتكم و أنظر إليكم في كلّ ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرّفيقة ، قال : فجرت الدّموع على خدودهم ، فقال شيخهم : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عمرنا ، و قال

الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك، وقال الآخر: سبحانك سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أفنجترء على الدّعاء و قد علمت أنّه لا حاجة لنا في شيء من اُمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك و أتمم بذلك المنّة علينا، و قال الآخر: نحن مقصّرون في طلب رضاك فأعنّا عليه بجودك، و قال الآخر: ألا من نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكّر في عظمتك أفيجترء على الكلام من هو مشتغل بعظمتك متفكّر في جلالك وطلبتنا الدّنوّ من نورك، و قال الآخر: كلّت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك وقربك من أوليائك و كثرة منّتك على أهل محبّتك، وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك و فرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك، و قال الآخر: قد عرفت حاجتنا إنّما هي النظر إلى وجهك. وقال الآخر: كيف يجترء العبد على سيّده فإذا أمرتنا بالدّعاء بجودك فهب لنا نوراً نهتدي به في الظلمات بين أطباق السماوات، وقال الآخر: ندعوك أن تقبل علينا و تديمه علينا، وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضّلت به علينا، وقال الآخر: لاحاجة لنا في شيء من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك. و قال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمى عيني عن النظر إلى الدّنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة، و قال الآخر: قد عرفنا أنّك تباركت و تعاليت تحبّ أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كلّ شيء دونك، فأوحى الله تعالى إلى داود قل لهم: قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أحببتم فليفارق كلّ واحد منكم صاحبه و ليتّخذ لنفسه سرباً فإنّي كاشف الحجاب فيما بيني و بينكم حتّى تنظروا إلى نوري وجلالي، فقال داود: يا ربّ بم نالوا منك هذا؟ قال بحسن الظنّ و الكفّ عن الدّنيا وأهلها و الخلوات بي و مناجاتهم لي، و إنّ هذا منزل لاينالّه إلّا من رفض الدّنيا و أهلها ولم يشتغل بشيء من ذكرها و فرغ قلبه لي و اختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه فأفرغ نفسه له وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتّى ينظر إليّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء. و اُريه كرامتي في كلّ ساعة و اُقرّبه من نور وجهي، إن مرض مرّضته كما تمرّض الوالدة الشفيقة ولدها و إن

عطش أرويته و أذقته طعم ذكري فإذا فعلت ذلك به يا داود عزفت نفسه عن الدّنيا وأهلها و لم اُحبّبها إليه لئلاّ تصدّه عن الاشتغال بي يستعجلني بالقدوم عليّ و أنا أكره أن اُميته لأنّه موضع نظري من بين خلقي لا يرى غيري و لا أرى غيره فلو رأيته يا داود و قد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشّمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكري اُباهي به ملائكتي وأهل سماواتي تزداد خوفاً وعبادة ، وعزّتي و جلالي يا داود لأقعدنّه في الفردوس و لأشفينّ صدره من النظر إليّ حتّى يرضى وفوق الرضا .

وفي أخبار داود أيضاً قل لعبادي المتوجّهين إليّ بمحبّتي ماضرّكم إذا احتجبتم عن خلقي إذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتّى تنظروا إليّ بعيون قلوبكم، وما ضرّكم ما زويت عنكم من الدّنيا إذ بسطت ديني لكم، و ماضرّكم مسخطة الخلق إذا التمستم رضاي .

و في أخبار داود إنّ الله تعالى أوحى إليه : يا داود أنّك تزعم أنّك تحبّني فإن كنت تحبّني فأخرج حبّ الدّنيا عن قلبك فإنّ حبّي وحبّها لا يجتمعان في قلب ، يا داود خالص محبّتي مخالصة وخالط أهل الدّنيا مخالطة ودينك فقلّدنيه ولا تقلّد دينك الرّجال أمّا ما استبان لك ممّا يوافق محبّتي فتمسّك به وأمّا ما أشكل عليك فقلّدنيه حقّاً عليّ أن أتولّى سياستك و تقويمك و أكون قائدك و دليلك ، أعطيك من غير أن تسألني واُعينك على الشدائد فإنّي قد آليت على نفسي ألاّ اُثيب إلاّ عبداً هرب عن طلبته و إرادته و ألقى نفسه بين يدي فإنّه لا غنى به عنّي فإذا كنت كذلك نزعت الوحشة والذلّة عنك و أسكنت الاُنس و الحلاوة قلبك فإنّي قد حلفت على نفسي أنّه لا يطمئنّ عبدٌ لي إلى نفسه ينظر إلى فعالها إلاّ و كلته إليها،أضف الأشياء إليّ لا تضادّ عملك فتكون متعنّتاً ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تحدّ لمعرفتي حدّاً فليس لها نهاية و متى طلبت منّي الزّيادة أعطيك ، ولا تجد لزيادتك منّي حدّاً ، ثمّ أعلم بني إسرائيل أنّه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب فلتعظم رغبتهم و إرادتهم عندي اُبيح لهم مالا عين رأت و لا اُذن سمعت و لا خطر على قلب بشر ، ضعني بين عينيك وانظر إليّ ببصر قلبك و لا تنظر بعينك الّتي في رأسك إلى الّذين حجبت عقولهم

عنّي فامزجوها و سمحت بانقطاع توابي عنها فإنّي حلفت بعزّتي وجلالي لا اُبيح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة و التسويف. تواضع لمن تعلّمه و لا تطاول على المريدين فلو علم أهل محبّتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها، يا داود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندي جهبذاً و من كتبته جهبذاً لا يكون عليه وحشة ولافاقة إلى المخلوقين، يا داود تمسّك بكلامي و خذ من نفسك لنفسك ولا تؤمننّ منها فتحجب عن محبّتي لاتؤيس عبادي من رحمتي أقطع شهوتك لي فإنّما أبحت الشهوات لضعفة خلقي، ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فإنّها تنقص حلاوة مناجاتي و إنّما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب قلوبهم عنّي فإنّي لم أرض الدّنيا لحبيبي و نزهته عنها، يا داود لا تجعل بيني و بينك عالماً يحجبك بسكره عن محبّتي أولئك قطّاع الطريق على عبادي المريدين، استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم وإيّاك والتجربة في الإفطار فإنّي يعجبني من الصوم إدمانه، يا داود تحبّب إليّ بمعاداة نفسك بمنعها الشهوات أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة إنّما اُداريك مداراة لتقوى على ثوابي إذا مننت به عليك و إنّي اُخفيه عنك وأنت متمسّك بطاعتي. وأوحى الله إلى داود يا داود لو يعلم المدبرون عنّي كيف انتظاري لهم و رفقي بهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لماتوا شوقاً إليّ و تقطّعت أوصالهم من محبّتي، ياداود هذه إرادتي في المدبرين عنّي فكيف إرادتي في المقبلين عليّ، يا داود أحوج ما يكون العبد إليّ إذا استغنى عنّي و أرحم ما أكون بعبدي إذا أدبر عنّي وأجلّ ما يكون عبدي إذا رجع إليّ. فهذه الأخبار و نظائرها ممّا لايحصى تدلّ على إثبات المحبّة و الشوق والاُنس و أمّا تحقيق معناها فينكشف بما سبق.

أقول: و في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال: «المشتاق لايشتهي طعاماً و لايلتذّ شراباً ولا يستطيب رقاداً و لايأنس حميماً ولا يأوي داراً ولايسكن عمراناً ولا يلبس ليناً ولا يقرّ قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه و يناجيه بلسان شوقه معبّراً عمّا في سريرته كما أخبر الله عن موسى بن عمران عليه السلام

في ميعاد ربّه بقوله : « و عجلت إليك ربّ لترضى »[١] وفسّر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن حاله أنّه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه و مجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربّه ، فإذا دخلت ميدان الشوق فكبّر على نفسك ومرادك من الدّنيا ودع المألوفات و احرم عن سوى مشوّقك ، ولبّ بين حياتك و موتك لبّيك اللّهمّ لبّيك وأعظم الله تعالى أجرك ، و مثل المشتاق مثل الغريق ليس له همّة إلّا خلاصه و قد نسي كلّ شيء دونه»[٢].

(بيان محبّة الله عزّ وجلّ للعبد ومعناها)

إعلم أنّ شواهد القرآن متظاهرة على أنّ الله عزّ وجلّ يحبّ عبده فلابدّ من معرفة معناه ولنقدّم الشواهد على محبّته و قد قال تعالى : « يحبّهم و يحبّونه »[٣] وقال : «إنّ الله يحبّ الّذين يقاتلون في سبيله صفّاً »[٤] وقد قال تعالى : «إنّ الله يحبّ التوّابين ويحبّ المتطهّرين »[٥] ولذلك ردّ سبحانه و تعالى على من ادّعى أنّه حبيب الله فقال : « قل فلم يعذّبكم بذنوبكم »[٦].

و قد روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « إذا أحبّ الله عبداً لم يضرّه ذنب ، و التائب من الذّنب كمن لا ذنب له ، ثمّ تلا : إنّ الله يحبّ التوّابين »[٧] ومعناه أنّه إذا أحبّه تاب عليه قبل الموت فلم تضرّه الذّنوب الماضية و إن كثرت كما لا يضرّ الكفر الماضي بعد الاسلام و قد اشترط الله للمحبّة غفران الذّنب فقال : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم»[٨].

و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «إنّ الله يعطي الدّنيا من يحبّ ومن لا يحبّ ولا يعطي

---

(١) طه : ٨٦ .
(٢) المصدر الباب الثامن والتسعون .
(٣) المائدة ٥٩ .
(٤) الصف : ٤
(٥) البقرة :٢٢٢ .
(٦) المائدة : ٢١ .
(٧) رواه صاحب الفردوس و لم يخرجه ولده في مسنده كما في المغني و روى ابن ماجه شطره الثاني من حديث ابن مسعود وقد تقدم .
(٨) آل عمران : ٢٩ .

الإيمان إلّا من يحبّ» [١].

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: من تواضع لله رفعه الله و من تكبّر وضعه الله و من أكثر ذكر الله أحبّه الله» [٢].

و قال عليه السلام إخباراً عن ربّه «لايزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أُحبّه فإذا أحببته كنت سمعه الّذي يسمع به - الحديث» [٣] وقال زيد بن أسلم: إنّ الله ليحبّ العبد حتّى يبلغ من حبّه له أن يقول: إعمل ما شئت فقد غفرت لك، وما ورد من ألفاظ المحبّة خارج عن الحصر و قد ذكرنا أنّ محبّة العبد لله عزّ وجلّ حقيقة و ليست بمجاز إذ المحبّة في وضع اللّسان عبارة عن الميل إلى الشيء الموافق و العشق عبارة عن الميل المفرط الغالب، وقد بيّنّا أنّ الإحسان موافق للنّفس و الجمال موافق أيضاً و إنّ الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة بالبصيرة، و الحبّ يتبع كلّ واحد منهما فلا يختصّ بالبصر، فأمّا حبّ الله تعالى للعبد فلاندرك حقيقته بعقولنا و أفهامنا أصلاً فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلاً، بل الأسامي كلّها إذا أُطلقت على الله تعالى وعلى غيرالله لم تنطلق بمعنى واحد عليهما أصلاً حتّى أنّ اسم الوجود الّذي هو أعمّ الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق و الخلق على وجه واحد بل كلّ ماسوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله فالوجود التابع لايكون مساوياً للوجود المتبوع، وإنّما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم إذ معنى الجسم و حقيقته متشابه فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلاً، فليست الجسميّة لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله عزّ وجلّ ولالخلقه وهذا التباعد في سائر الأسامي أظهر كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها فكلّ ذلك لايشبه فيه الخلق الخالق فإنّ الخالق في ذاته وفي جميع صفاته منزّه مقدّس عن مشابهة مخلوق مّا من ذروة العرش إلى منتهى الفرش، و واضع اللّغة

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٣٣ و ج ٤ ص ١٦٥ وقد تقدم.

(٢) أخرجه ابن ماجه وقد تقدم.

(٣) تقدم كراراً عن الكافى والبخارى ومسلم وغيرهم.

إنّما وضع هذه الأسامي أوّلاً للخلق فإنّ الخلق أسبق إلى العقول و الأفهام من الخالق وكان استعمالها في حقّ الخالق بطريق الاستعارة و التجوّز والنقل ، والمحبّة في وضع اللّسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم و هذا إنّما يتصوّر في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها و يستفيد بنيله كمالاً فتستلذّ بنيله وهذا محال على الله عزّ و جلّ ، فإنّ كلّ كمال وجمال وبهاء و جلال ممكن من الإلهيّة فهو حاضر وحاصل و واجب الحصول أبداً وأزلاً ولايتصوّر تجدّده ولا زواله فلايكون له إلى غيره نظر من حيث أنّه غيره بل نظره إلى ذاته وإلى أفعاله فقطّ و ليس في الوجود إلّا ذاته و أفعاله ، ولذلك قال شيخ أبو سعيد الميهني - رحمه الله - لما قرىء عليه قوله تعالى : « يحبّهم و يحبّونه » فقال: بحقّ يحبّهم فإنّه ليس يحبّ إلّا نفسه على معنى أنّه الكلّ وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحبّ إلّا نفسه وأفعال نفسه وتصانيف نفسه فلا يجاوز حبّه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلّقة بذاته ، فهو إذن لا يحبّ إلّا نفسه و ما ورد من الألفاظ في حبّه لعباده فهو مأوّل فيرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتّى يراه بقلبه وإلى تمكينه إيّاه من القرب منه و إلى إرادته ذلك به في الأزل و إلى تطهير باطنه من حلول الغير به و إلى تفريغه وتخليته عن علائق وعوائق تحول بينه و بين مولاه حتّى لا يسمع إلّا بالحقّ و من الحقّ و لا يبصر إلّا به و لا ينطق إلّا به كما قال صلّى الله عليه وآله حكاية عن ربّه سبحانه «لايزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى اُحبّه فإذا أحببته كنت سمعه - الحديث » فحبّه لمن أحبّه أزليّ مهما اُضيف إليه الإرادة الأزليّة الّتي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق القرب إذا اُضيف إلى فعله الّذي ينكشف به الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المقتضي له كما قال تعالى : « لا يزال العبد يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى اُحبّه » فيكون تقرّبه بالنوافل سبباً لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربّه و كلّ ذلك فضل الله عزّ وجلّ ولطفه به فهو معنى محبّته ولا يفهم هذا إلّا بمثال ، وهو أنّ الملك قد يقرّب عبده من نفسه ويأذن له في كلّ وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إمّا لينتصر بقوّته أو لتستريح بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه

أو ليهيئ له أسباب شرابه وطعامه فيقال : إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليهما فيه من المعنى الموافق الملائم له وقد يقرب عبداً ولا يمنعه من الدخول عليه لا للانتفاع به ولا للاستنجاد به بل لكون العبد في نفسه موصوفاً بالأخلاق الرضية والخصال الحميدة وما يليق به أن يكون قريباً من حضرة الملك وافر الحظ من قربه منه أن الملك لاغرض له فيه أصلاً فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه ، وإذا اكتسب من الخصال المحمودة ما اقتضى دفع الحجاب يقال قد توصل إليه وحبب نفسه إلى الملك فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول وإنما يصح تمثيله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهم عبد دخول تغير عليه عند تجدد القرب فإن الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله تعالى في البعد من صفات البهائم والسباع والشياطين والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية فهو قريب بالصفة لا بالمكان ، ومن لم يكن قريباً فصار قريباً فقد تغير فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعاً إذ صار قريباً بعد أن لم يكن و هو محال في حق الله إذ التغير عليه محال بل لا يزال في نعوت الكمال والجمال على ما كان عليه في أزل الآزال ، ولا ينكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص فإن الشخصين قد يتقاربان بتحركهما جميعاً وقد يكون أحدهما ثابتاً فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضاً كذلك فإن التلميذ يطلب القرب من درجة أستاده في كمال العلم وجماله والاستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالنزول إلى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى يفاع العلم فلا يزال دائباً في التغير والترقي إلى أن يقرب من أستاده والأستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقي العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علماً وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشياطين وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن الرذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله تعالى وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التلميذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله تعالى محال فإنه لا نهاية لكماله وسلوك العبد في درجات

الكمال متناه ولا ينتهي إلّا إلى حدّ محدود فلا مطمع له في المساواة ثمّ درجات القرب تتفاوت تفاوتاً لا نهاية له أصلاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فإذن محبّة الله للعبد تقريبه من نفسه بدفع الشّواغل والمعاصي عنه، و تطهير باطنه من كدورات الدنيا، ورفع الحجاب عن قلبه حتّى يشاهده كأنّه يراه بقلبه، وأمّا محبّة العبد لله تعالى فهو ميله إلى درك هذا الكمال الّذي هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشتاق إلى مافاته وإذا أدرك منه شيئاً يلتذّ به، والشوق و المحبّة بهذا المعنى محال على الله تعالى.

فإن قلت: فمحبّة الله تعالى للعبد أمرٌ ملتبس فبم يعرف العبد أنّه حبيب الله فأقول: يستدلّ عليه بعلاماته وقد قال عليه السلام: «إذا أحبّ الله تعالى عبداً ابتلاه فإن أحبّه الحبّ البالغ اقتناه، قيل: وما اقتناؤه؟ قال: لم يترك له مالاً ولا أهلاً»[1] فعلامة محبّة الله تعالى للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره، وقيل لعيسى عليه السلام: ألا تشتري حماراً فتركبه؟ فقال: أنا أعزّ على الله تعالى من أن يشغلني عن نفسه بحمار، وفي الخبر «إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه وإن رضي اصطفاه[2]» وقال بعض العلماء: إذا رأيتك تحبّه ورأيته يبتليك فاعلم أنّه يريد أن يصافيك، وقال بعض المريدين لاُستاذه: قد طولعت بشيء من المحبّة فقال: يا بنيّ هل ابتلاك بمحبوب سواه فآثرت عليه إيّاه؟ قال: لا قال: فلا تطمع في المحبّة فإنّه لا يعطيها عبداً حتّى يبلوه، وقال عليه السلام: «إذا أحبّ الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه»[3]. وقال: «إذا أراد الله بعبد خيراً بصّره بعيوب نفسه»[4] وأخصّ علاماته حبّه لله فإنّ ذلك يدلّ على حبّ الله عزّ وجلّ له، وأمّا الفعل الدالّ على كونه محبوباً فهو أن يتولّى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سرّه وجهره، فيكون هو المشير عليه، والمدبّر

---

(١) تقدم عن الطبرانى من حديث أبى عنبة الخولانى.

(٢) ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب عليه السلام ولم يخرجه ولده فى مسنده.

(٣) ذكره صاحب الفردوس من حديث ام سلمة بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير.

(٤) رواه البيهقى فى الشعب من حديث أنس عن محمد بن كعب مرسلا.

لأمره، والمزيّن لأخلاقه، والمستعمل لجوارحه والمسدّد لظاهره وباطنه، والجاعل لهمومه همّاً واحداً، والمبغض للدّنيا في قلبه، والموحش له من غيره، والمونس له بلذّة المناجاة في خلواته، والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته، فهذا وأمثاله هي علامة حبّ الله تعالى للعبد، و لنذكر الآن علامة محبّة الله تعالى فإنّها أيضاً علامات حبّ الله عزّ وجلّ للعبد.

(القول في علامات محبّة العبد لله عزّوجلّ)

إعلم أنّ المحبّة يدّعيها كلّ أحد وما أسهل الدّعوى و ما أعزّ المعنى فلا ينبغي أن يغترّ الإنسان بتلبيس الشيطان و خدع النفس مهما ادّعت محبّة الله عزّ و جلّ مالم يمتحنها بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين و الأدلّة و المحبّة شجرة طيّبة أصلها ثابت و فرعها في السماء، و ثمارها تظهر على القلب و اللّسان و الجوارح وتدلّ تلك الآثار الفائضة منها على القلب والجوارح على المحبّة دلالة الدّخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار، فهي كثيرة فمنها حبّ لقاء الحبيب بطريق الكشف والمشاهدة في دار السلام، ولا يتصوّر أن يحبّ القلب محبوباً إلّا ويحبّ مشاهدته ولقاءه، و إذا علم أنّه لا وصول إلّا بالارتحال من الدّنيا بالموت فينبغي أن يكون محبّاً للموت غير فارّ منه، فإنّ المحبّ لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقرّ محبوبه ليتنعّم بمشاهدته و الموت مفتاح اللّقاء و باب الدّخول إلى المشاهدة، قال عليه السلام: «من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه» (١).

فإن قلت: فمن لا يحبّ الموت فهل يتصوّر أن يكون محبّاً لله، فأقول: كراهة الموت قد تكون لحبّ الدّنيا و التأسّف على فراق الأهل والمال و الولد و هذا ينافي كمال حبّ الله تعالى لأنّ الحبّ الكامل هو الّذي يستغرق كلّ القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حبّ الأهل و الولد شائبة من حبّ الله تعالى ضعيفة فإنّ الناس متفاوتون في الحبّ فمنهم من لا يحبّ الله بكلّ قلبه فيحبّه و يحبّ غيره

(١) متّفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة راجع صحيح البخاري ج ٨ ص ١٣٢.

أيضاً فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبّه و عذابه بفراق الدّنيا عند الموت على قدر حبّه لها .

و أمّا السبب الثاني للكراهة فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبّة فليس يكره الموت و إنّما يكره عجلته قبل أن يستعدّ للقاء الله فذلك لايدلّ على ضعف الحبّ و هو كالمحبّ الّذي وصل إليه الخبر بقدوم حبيبه عليه فأحبّ أن يتأخّر قدومه ساعة لعمارة داره و تهيئة أسبابها فيلقاه كما يهواه فارغ القلب عن الشواغل خفيف الظهر عن العوائق فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال الحبّ أصلاً وعلامته الجدّ في العمل و استغراق الهمّ في الاستعداد .

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبّه الله عزّ وجلّ على ما يحبّه في ظاهره وباطنه فيجتنب اتّباع الشهوات ويعرض عن دعة الكسل فلا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى و متقرّباً إليه بالنوافل وطالباً عنده مزايا الدّرجات كما يطلب المحبّ مزيد القرب في قلب محبوبه و قد وصف الله تعالى المحبّين بالإيثار فقال : «يحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا اُوتوا و يؤثرون على أنفسهم » (١) و من بقي مستمرّاً على متابعة الهوى فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحبّ هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

اُريد وصاله ويريد هجري ✡ فأترك ما اُريد لما يريد

بل الحبّ إذا غلب قمع الهوى فلم يبق له تنعّم بغير المحبوب ، فإذن من أحبّ الله لا يعصيه ، ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تعصي الإله و أنت تظهر حبّه ✡ هذا لعمري في الفعال بديع
لو كان حبّك صادقاً لأطعته ✡ إنّ المُحبّ لمن يحُبّ مطيع

وقيل :

و أترك ما أهوى لما قد هويته ✡ و أرضى بماترضى وإن سخطت نفسي

و قال سهل : علامة المحبّ إيثاره من أحبّه على نفسه ، وليس كلّ من عمل

---

(١) الحشر : ٩.

بطاعة الله صار حبيباً وإنّما الحبيب من اجتنب المناهي وهو كماقال: لأنّ محبّته لله تعالى سبب محبّة الله له كما قال تعالى: «يحبّهم ويحبّونه»[1] وإذا أحبّه الله تعالى تولّاه ونصره على أعدائه و إنّما عدوّه نفسه وشهواته فلا يخذ له الله تعالى و لايكله إلى نفسه وهواه وشهواته ولذلك قال تعالى: «والله أعلم بأعدائكم و كفى بالله وليّاً و كفى بالله نصيراً»[2]

فان قلت: فالعصيان هل يضادّ أصل المحبّة؟ فأقول: لا إنّما يضادّ كمالها ولا يضادّ أصلها فكم من إنسان يحبّ نفسه و هو مريض وهو يحبّ الصحّة فيأكل ما يضرّه مع العلم بأنّه يضرّه و ذلك لا يدلّ على عدم حبّه لنفسه ولكنّ المعرفة قد تضعف و الشهوة قد تغلب فيعجز عن القيام بحقّ المحبّة، و يدلّ عليه ما روي أنّ نعيمان الأنصاري كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في كلّ قليل فيحدّه في معصية يرتكبها إلى أن أُتي به يوماً فحدّه فلعنه رجل وقال: ما أكثر مايؤتى به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال عليه السلام: «لا تلعنه فإنّه يحبّ الله و رسوله»[3] فلم يخرجه بالمعصية عن المحبّة، نعم تخرجه المعصية عن كمال الحبّ، وقد قال بعض العلماء: إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحبّ الله تعالى حبّاً متوسّطاً، و إذا دخل سويداء القلب أحبّ الله الحبّ البالغ و ترك المعاصي، و بالجملة في دعوى المحبّة خطر و لذلك قال الفضيل: إذا قيل لك أتحبّ الله فاسكت فإنّك إن قلت: لا، كفرت، وإن قلت: نعم وليس وصفك وصف المحبّين فاحذر المقت، و لقد قال بعض العلماء: ليس في الجنّة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة و المحبّة، ولا في جهنّم عذاب أشدّ من عذاب من ادّعى المعرفة والمحبّة ولم يتحقّق بشيء من ذلك.

و منها أن يكون مستهتراً بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه ولا يخلو عنه قلبه فمن أحبّ شيئاً أكثر بالضرورة ذكره و ذكر ما يتعلّق به، فعلامة حبّ الله تعالى حبّ ذكره، وحبّ القرآن الّذي هو كلامه، وحبّ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وحبّ كلّ من

---

(١) المائدة: ٥٧. (٢) النساء: ٤٤.

(٣) أخرجه البخاري ج ٨ ص١٩٧ وكان اسم الرجل عبدالله وكان يلقب حماراً.

ينسب إليه ، فإنّ من يحبّ إنساناً يحبّ كلب حبيبه ، فالمحبّة إذا قويت تعدّت من المحبوب إلى كلّ مايكتنف بالمحبوب ويحيط به و يتعلّق بأسبابه ، وذلك ليس شركة في الحبّ فإنّ من أحبّ رسولَ المحبوب لِأنّه رسولُه، و كلامَه لأنّه كلامُه فلم يجاوز حبّه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبّه ، و من غلب حبّ الله على قلبه أحبّ جميع خلق الله لأنّهم خلقه فكيف لايحبّ القرآن و الرّسول و عباد الله الصالحين ، و قد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب آداب الأُخوّة و الصحبة و لذلك قال الله تعالى : « قل إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله »[1] و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « أحبّوا الله لما يغذوكم به من نعمه و أحبّوني لله تعالى »[2] وقيل : من أحبّ من يحبّ الله فإنّما أحبّ الله عزّ وجلّ ومن أكرم من يكرم الله تعالى فإنّما يكرم الله عزّ وجلّ .

و منها أن يكون اُنسه بالخلوة و مناجاة الله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجّد و يغتنم هدء اللّيل و صفاء الوقت بانقطاع العوائق ، و أقلّ درجات الحبّ التلذّذ بالخلوة بالحبيب و التنعّم بمناجاته فمن كان النوم و الاشتغال بالحديث ألذّ عنده وأطيب من مناجاة الله عزّ و جلّ كيف تصحّ محبّته ، ومهما أنس بغير الله كان بقدر اُنسه بغير الله مستوحشاً من الله ساقطاً عن درجة محبّته وفي قصّة برخ وهو العبد الأسود الّذي استسقى به موسى عليه السلام إنّ الله عزّ و جلّ قال لموسى : إنّ برخاً نعم العبد هو لي إلّا أنّ فيه عيباً ، قال : يا ربّ و ما عيبه ؟ قال : يعجبه نسيم الأسحار فيسكن إليه و من أحبّني لايسكن إلى شيء .

وروي أنّ عابداً عبدالله في غيضة[3] دهراً طويلاً فنظر يوماً إلى طائر وقد عشّش في شجرة يأوي إليها ويصفر عندها فقال : لو حوّلت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر ، ففعل فأوحى الله تعالى إلى نبيّ زمانه قل لفلان العابد : استأنست بمخلوق لأحطّنّك عن درجة لا تنالها بشيء من عملك أبداً. فعلامة المحبّة

(١) آل عمران : ٣٠ .

(٢) تقدم فى باب شواهد الشرع فى باب حب العبدلله تعالى .

(٣) الغيضة : الاجمة مجتمع الشجرفى مغيض الماء .

كمال الأنس بمناجاة المحبوب و كمال التنعم بالخلوة به و كمال الاستيحاش من كل ماينغص عليه الخلوة و يعوق عن لذة المناجاة .

و علامة الأنس بالله أن يصير العقل والفهم كله مستغرقاً بلذة المناجاة كالذي يخاطب معشوقه و يناجيه ، و قد انتهت هذه اللذة ببعضهم حتى أنه كان في صلاته و وقع الحريق في داره فلم يشعر به ، وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته و هو في الصلاة فلم يشعر به ، و مهما غلب الحب والأنس صارت الخلوة والمناجاة قرة عينه تدفع بها جميع الهموم بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لايفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مراراً مثل العاشق الولهان فإنه يكلم الناس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبه والمحب من لايطمئن إلا إلى محبوبه و أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبتي إذا جنه الليل نام عني أليس كل محبوب يحب لقاء حبيبه ؟ فها أنا ذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يا رب أين أنت فأقصدك ؟ فقال : إذا قصدتني فقد وصلت .

ومنها أن لايتأسف على مايفوته مما سوى الله ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله و طاعته فيكون رجوعه عند الغفلات بالاستعطاف و الاستعتاب و الاستغفار والتوبة إليه قال بعض العارفين : إن لله عز وجل عباداً أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على الفائت فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان قلبهم شاكراً راضياً ، وملك مليكهم تاماً ، و ما شاء كان ، فما كان لهم فهو واصل إليهم وما فاتهم فلحسن تدبيره لهم ، وحق المحب إذا رجع من غفلته في لحظته أن يقبل على محبوبه و يشتغل بالعتاب و يسأله ويقول : يارب بأي ذنب قطعت برك عني و أبعدتني عن حضرتك وشغلتني بنفسي وبمتابعتي الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر و رقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سبباً لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئاً إلا منه لم يتأسف و لم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يقدر له إلا ما فيه خيرته و يذكر قوله تعالى : « عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » (١) و منها أن يتنعم بالطاعة ولا يستثقلها و يسقط

(١) البقرة : ٢١٣ .

عنه تعبها و كلّ هذا مثاله موجود في المشاهدات فإنّ العاشق لايستثقل السعي في هوى معشوقه ويستلذّ خدمته بقلبه و إن كان شاقّاً على بدنه و مهما عجز بدنه كان أحبّ الأشياء إليه أن تعاوده القدرة و أن يفارقه العجز حتّى يشتغل به فهكذا يكون حبّ الله عزّ وجلّ فإنّ كلّ حبّ صار غالباً قهر لامحالة ما دونه فمن كان محبوبه أحبّ إليه من الكسل ترك الكسل في خدمته و من كان أحبّ إليه من المال ترك المال في حبّه . وقيل لبعض المحبّين و قد كان بذل ماله ونفسه حتّى لم يبق له شيء : ما كان سبب حالك هذه في المحبّة ؟ فقال : سمعت يوماً محبّاً ظفر بمحبوبه و هو يقول له : أناو الله اُحبّك بقلبي كلّه وأنت معرض عنّي بوجهك كلّه ، فقال له المحبوب : إن كنت تحبّني فأيش تنفقه عليّ ؟ فقال : يا سيدي اُملّكك ما أملك ، ثمّ أنفق عليك روحي حتّى تهلك ، فقلت : هذا حبّ خلق لخلق و عبد لعبد فكيف بعبد لمعبود ، فكلّ هذا بسببه .

و منها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله ، رحيماً بهم ، شديداً على جميع أعداء الله و على كلّ من يقارف شيئاً ممّا يكرهه الله عزّ و جلّ كما قال الله تعالى : « أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم »(١) ولاتأخذه في الله لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف ، و به وصف الله تعالى أولياءه إذ قال في بعض الكتب : الّذين يكلّفون بحبّي كمايكلّف الصبيّ بالشيء و يأوون إلى ذكري كما يأوي النسر إلى وكره ويغضبون لمحارمي كما يغضب النمر إذا حرد فإنّه لا يبالي قلّ الناس أم كثروا ، فانظر إلى هذا المثال فإنّ الصبيّ إذا كلّف بالشيء لم يفارقه أصلاً فإن أخذ منه لم يكن له شغل إلّا البكاء و الصياح حتّى يردّ إليه فإذا نام أخذه معه في ثيابه فإذا انتبه عاد و تمسّك به و مهما فارقه بكى و مهما وجده فرح وضحك ومن نازعه فيه أبغضه معه ومن أعطاه أحبّه ، وأمّا النمر فإنّه لايملك نفسه عند الغضب حتّى يبلغ من شدّة غضبه أن يهلك نفسه ، فهذه علامات المحبّة فمن تمّت فيه هذه العلامات فقد تمّت محبّته وخلص حبّه وصفا في الآخرة شرابه و عذب مشربه و من امتزج بحبّه

(١) الفتح : ٢٩ .

حبّ غير الله تنعّم في الآخرة بقدر حبّه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب المقرّبين كما قال تعالى في حقّ الأبرار : «إنّ الأبرار لفي نعيم ✿ على الأرائك ينظرون ✿ تعرف في وجوههم نضرة النعيم ✿ يسقون من رحيق مختوم ✿ ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ✿ ومزاجه من تسنيم ✿ عيناً يشرب بها المقرّبون» (١) وإنّما طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصرف الّذي هو للمقرّبين ، و الشراب عبارة عن جملة نعيم الجنان كما أنّ الكتاب عبّر به عن جميع الأعمال فقال : « إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين » (٢) ثمّ قال : « يشهده المقرّبون » (٣) فكانت أمارة علوّ كتابهم أنّه ارتفع إلى حيث يشهده المقرّبون ، و كما أنّ الأبرار يجدون المزيد في حالهم و معرفتهم بقربهم من المقرّبين و مشاهدتهم لهم كذلك يكون حالهم في الآخرة « ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة » (٤) و« كما بدأنا أوّل خلق نعيده » (٥) وقال : «جزاء وفاقاً» (٦) أي وافق الجزاء أعمالهم فقوبل الخالص بالصرف من الشراب و قوبل المشوب بالمشوب وشوب كلّ شراب على قدر ما سبق من الشوب في حبّه و أعماله « فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ✿ و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره » (٧) و « إنّ الله لايغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم» (٨) و «إنّ الله لايظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها» (٩) « إن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين » (١٠) فمن كان حبّه في الدّنيا رجاؤه لنعيم الجنّة و الحور و القصور يمكّن في الجنّة ليتبوّء منها حيث يشاء فيكون مع الولدان و يتمتّع بالنسوان و من كان مقصده ربّ الأرباب ومالك الملك ولم يغلب عليه الأحبّة فالإخلاص والصدق ينزلانه في مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فالأبرار يرتعون في البستان ويتنعّمون في الجنان مع الحور و الولدان و

---

(١) المطففين : ٢٢ - الى - ٢٩ . (٢) المطففين : ١٨ .
(٣) المطففين : ٢١ : (٤) لقمان ٢٨ .
(٥) الانبياء : ١٠٤ . (٦) النبأ : ٢٦ .
(٧) الزلزال : ٧و٨ : (٨) الرعد : ١٢ .
(٩) النساء : ٤٢ . (١٠) الانبياء : ٤٨ .

المقرّبون يلازمون الحضرة عاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالاضافة إلى ذرّة منها فقوم بقضاء شهوة البطن والفرج مشغولون وللمجالسة أقوام آخرون و لذلك قال عليه السلام: «أكثر أهل الجنّة البله»[١] وعلّيّون لذوي الألباب ولماقصرت الأفهام عن إدراك معنى علّيّين عظم أمره فقال: «وما أدريك ما علّيّون»[٢] كما قال: «القارعة ۞ ما القارعة ۞ و ما أدريك ما القارعة»[٣].

و منها أن يكون في حبّه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة و التعظيم و قديظنّ أنّ الخوف يضادّ الحبّ و ليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أنّ إدراك الجمال يوجب الحبّ ولخصوص المحبّين مخاوف في مقام المحبّة ليست لغيرهم وبعض مخاوفهم أشدّ من بعض فأوّلها خوف الإعراض و أشدّ منه خوف الحجاب وأشدّ منه خوف الإبعاد وهذا المعنى في سورة هود هو الّذي شيّب سيّد المحبّين إذ سمع قوله: «ألا بُعداً لعاد قوم هود»[٤]، «ألا بُعداً لثمود»[٥] «ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود»[٦] و إنّما تعظيم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف الحبّ والقرب و ذاقه و تنعّم به فحديث البعد في حقّ المبعدين يشيب سماعه أهل القرب في القرب و لايحنّ إلى القرب من ألف البعد ولا يبكي لخوف البعد من لم يمكّن من بساط القرب ثمّ خوف الوقوف وسلب المزيد فإنّا قدّمنا أنّ درجات القرب لا نهاية لها وحقّ العبد أن يجتهد في كلّ نفس حتّى يزداد فيه قرباً، ولذلك قال عليه السلام: «من استوى يوماه فهو مغبون و من كان يومه شرّاً من أمسه فهو ملعون»[٧] و كذلك قال عليه السلام: «إنّه ليغان على قلبي و إنّي لاستغفر الله في اليوم و اللّيلة سبعين مرّة»[٨] و إنّما كان استغفاره من القدم الأولى فإنّها كانت بُعداً بالإضافة إلى القدم الثانية ويكون

---

(١) تقدم مراراً.
(٢) المطففين: ١٩. (٣) القارعة ١و٢ و٣.
(٤) و(٥) و(٦) السورة: ٦٣ و ٧١ و٩٧.
(٧) رواه الصدوق فى معانى الاخبارص ٢٤٢ من حديث الصادق عليه السلام.
(٨) تقدم كراراً من حديث الاغر.

ذلك عقوبة لهم على العثور في الطريق و الالتفات إلى غير المحبوب كما روي في بعض الكتب « إنّ الله يقول : إنّ أدنى ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوة الدّنيا على طاعتي أن أسلبه لذيذ مناجاتي »[1] فسلب المزيد بسبب الشهوات عقوبة للعموم ، وأمّا الخصوص فيحجبهم عن المزيد مجرّد الدّعوى والعجب والرّكون إلى ما ظهر من مبادي اللّطف، وذلك هو المكر الخفيّ الّذي لا يقدر على الاحتراز منه إلّا ذووا الأقدام الرّاسخة في العلم ثمّ خوف فوت ما لا يدرك بعد فوته ثمّ خوف السلوّ عنه فانّ المحبّ يلازمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب المزيد و لا يتسلّى إلّا بلطف جديد فان تسلّى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه أو سبب رجعته و السلوّ يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل الحبّ عليه من حيث لا يشعر فانّ هذه التقلّبات في القلب لها أسباب خفيّة سماويّة ليس في قوّة البشر الاطّلاع عليها وإذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلوّ فيقف مع الرّجاء و يغترّ بحسن الظنّ وبغلبة الغفلة و الهوى و النسيان وكلّ ذلك من جنود الشيطان الّتي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذّكر و الثبات ، و كما أنّ من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضي هيجان الحبّ و هي أوصاف اللّطف و الرّحمة والحكمة فمن أوصافه ما يلوح فيورث السلوّ كأوصاف الجبريّة والعزّة والاستغناء ، وذلك من مقدّمات المكر والشقاء والحرمان ثمّ خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبّه إلى حبّ غيره ، وذلك هو المقت والسلوّ عنه مقدّمة هذا المقام و الإعراض و الحجاب مقدّمة السلوّ وضيق الصدر بالبرّ وانقباضه عن دوام الذكر و ملالته لوظائف الأوراد أسباب هذه المعاني و مقدّماتها فظهور هذه الأسباب دليل على النقل من مقام الحبّ إلى مقام المقت ، نعوذ بالله منه ، و ملازمة الخوف لهذه الاُمور و شدّة الحذر منه بصفاء المراقبة دليل صدق الحبّ فانّ من أحبّ شيئاً خاف لا محالة فقده ، فلا يخلو المحبّ عن خوف إذا كان المحبوب ممّا يمكن فواته ، و قد قال بعض العارفين : من عبد الله بمحض المحبّة من غير خوف هلك بالبسط و الإدلال و من عبده من طريق الخوف من غير محبّة انقطع عنه بالبعد و

---

(١) تقدم في المجلد الاول ص ١٣١ عن كتاب العلل للصدوق رحمه الله

الاستيحاش و من عبده من طريق المحبّة و الخوف أحبّه الله فقرّبه و مكّنه و علّمه و المحبّ لايخلو من خوف والخائف لايخلو عن محبّة ولكنّ الّذي غلبت عليه المحبّة حتّى اتّسع فيها ولم يكن له من الخوف إلّا يسير يقال هو في مقام المحبّة ويعدّ من المحبّين و كان شوب الخوف يسكّن قليلاً من سكر الحبّ فلو غلب الحبّ واستولت المعرفة لم تثبت لها طاقة البشر فانّما الخوف يعدله ويخفّف وقعه على القلب ، وأمثال هذه المعارف الّتي إليها الاشارة لايجوز أن يشرك الناس فيها ولايجوز أن يظهرها من انكشف له شيء منها لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدّنيا فالحكمة تقتضي شمول الغفلة لعمارة الدّنيا بل لو أكل الناس كلّهم الحلال أربعين يوماً لخربت الدّنيا لزهدهم فيها وبطلت الأسواق والمعايش بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولوقفت الألسنة و الأقلام عن كثير ممّا انتشر من العلوم ولكن لله فيما هو شرّ في الظاهر أسرار وحكم كما أنّ له في الخير أسراراً و حكماً ولامنتهى لحكمته كما لا غاية لقدرته .

و منها كتمان الحبّ واجتناب الدّعوى و التوقّي من إظهار الوجد والمحبّة تعظيماً للمحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيرةً على سرّه فانّ الحبّ سرّ من أسرار الحبيب . و لأنّه قد يدخل في الدّعوى ما يتجاوز حدّ المعنى و يزيد عليه فيكون ذلك من الافتراء و تعظم العقوبة عليه في العقبى و يتعجّل عليه البلوى في الدّنيا . نعم قد يكون للمحبّ سكرة في حبّه حتّى يدهش فيها وتضطرب أحواله فيظهر عليه حبّه فان وقع ذلك من غير تمحّل أواكتساب فهو معذور لأنّه مقهور وربما تشتعل من الحبّ نيرانه ، فلا يطاق سلطانه و قد يفيض القلب به فلايندفع فيضانه .

فان قلت : المحبّة منتهى المقامات و إظهارها إظهار للخير فلماذا يستنكر؟ فاعلم أنّ المحبّة محمودة وإظهارها أيضاً محمود وإنّما المذموم التظاهر بهالما يدخل فيها من الدّعوى و الاستكبار، وحقّ المحبّ أن يتمّ على حبّه الخفي أحواله دون أقواله و أفعاله فان ظهر فينبغي أن يظهر حبّه من غير قصد منه إلى إظهار الحبّ ولا إلى إظهار الفعل الدّالّ على الحبّ بل ينبغي أن يكون قصد المحبّ اطّلاع الحبيب

فقطّ فأمّا إرادته اطّلاع غيره فشركٌ في الحبّ وقادح فيه كما ورد في الانجيل: إذا تصدّقت فتصدّق بحيث لا تعلم شمالك ما صنعت يمنك، فالّذي يرى الخفيّات يجزيك به علانية، و إذا صمت فاغسل وجهك وادّهن رأسك لئلّا يعلم بذلك غير ربّك فإظهار القول والفعل كلّه مذمومٌ إلّا إذا غلب سكر الحبّ القلب فانطلق اللّسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه، ممّا يكره التظاهر بالحبّ بسببه أنّ المحبّ إن كان عارفاً و عرف أحوال الملائكة في حبّهم الدّائم و شوقهم اللازم الّذي به «يسبّحون اللّيل و النهار ولا يفترون ولا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون» لاستنكف من نفسه و من إظهار حبّه وعلم قطعاً أنّه أخسّ المحبّين في مملكته و إنّ حبّه أنقص من حبّ كلّ محبّ لله فهذه مجامع علامات الحبّ و ثمراته.

و منها الأُنس و الرّضا كما سيأتي، و بالجملة جميع محاسن الدّين و مكارم الأخلاق ثمرة الحبّ وما لا يثمره الحبّ فهو اتّباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق، نعم قد يحبّ الله لإحسانه إليه وقد يحبّه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه. و المحبّون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد: الناس في محبّة الله عامٌّ وخاصٌّ فالعوام نالوا ذلك بمعرفتهم في دوام إحسانه و كثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أحبّوه إلّا أنّه تقلّ محبّتهم وتكثر على قدر النعم والإحسان، و أمّا الخاصّة فنالوا المحبّة بعظم القدر و القدرة و العلم و الحكمة و التفرّد بالملك، فلمّا عرفوا صفاته الكاملة و أسماءه الحسنى لم يمتنعوا أن أحبّوه إذ استحقّ عندهم بذلك المحبّة لأنّه أهل لها، ولو أزال عنهم جميع النعم، نعم من الناس من يحبّ هواه وعدوّ الله إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الغرور و الجهل و يظنّ أنّه محبّ لله. و هو الّذي لا يجد من نفسه هذه العلامات أو يلبس بها نفاقاً و رئاء وسمعة، و غرضه عاجل حظّ الدّنيا و هو يظهر من نفسه خلافه كعلماء السوء و قرّاء السوء أُولئك بغضاء الله في أرضه، و قد قال أبو التراب النخشبي في علامات المحبّ أبياتاً:

لا تخدعنّ فللمحبّ دلائل ✿ و لديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعّمه بمرّ بلائه ✿ و سروره في كلّ ما هو فاعل

فالمنع منه عطيّة مبـذولة ✡ و الفقر إكرام و برّ عاجل
ومن الدّلائل أن يرى من عزمه ✡ طوع الحبيب و إن ألحّ العاذل
و مِن الدّلائل أن يرى متبسّماً ✡ و القلب فيه من الحبيب بلابل
و مِن الدّلائل أن يرى متفهّماً ✡ لكلام من يحظي لديه السائل
و مِن الدّلائل أن يرى مُتَقشّفاً ✡ مُتَحَفّظاً من كلّ ما هو قائل

أقول: و ممّا يصحّ أن يجعل دليلاً ما نقله أبو حامد عن بعضهم في جملة ما تركناه في أواخر هذا الكتاب في معنى المحبّة: أنّها محو الإرادات و احتراق الصفات و الحاجات. ونقل من آخر: أنّ المحبّة معنى من المحبوب قاهر للقلوب تعجز القلوب عن إدراكه و تمنع الألسن عن عبارته فإنّ من يجد في قلبه ذلك لله فهو محبّ له.

✡(بيان معنى الانس بالله عزّ و جلّ)✡

قد ذكرنا أنّ الاُنس و الخوف و الشوق من آثار المحبّة إلّا أنّ هذه آثار مختلفة تختلف على المحبّ بحسب نظره وما يغلب عليه في وقته فإذا غلب عليه التطلّع من وراء حجب الغيب إلى منتهى الجمال و استشعر قصوره عن الاطّلاع على كنه الجلال انبعث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه فسمّيت هذه الحالة في الانزعاج شوقاً وهو بالإضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف غير ملتفت إلى مالم يدركه بعد استبشر القلب بما يلاحظه فيسمّى استبشاره اُنساً و إن كان نظره إلى صفات العزّ والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزّوال والبعد تألّم قلبه بهذا الاستشعار فيسمّى تألّمه خوفاً، وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تقتضيها لا يمكن حصرها، فالاُنس معناه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتّى أنّه إذا غلب وتجرّد عن ملاحظة ما غاب عنه وما يتطرّق إليه من خطر الزّوال عظم نعيمه و لذّته، و من هنا نظر بعضهم حيث قيل له: أنت مشتاق فقال: لا إنّما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضراً فإلى من يشتاق؟ و هذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الإمكان من مزايا الألطاف، ومن

غلب عليه حال الأُنس لم تكن شهوته إلّا في الانفراد و الخلوة ، و ذلك لأنّ الاُنس بالله يلازمه التوحّش من غير الله تعالى ، بل كلّ ما يعوق عن الخلوة فيكون من أثقل الأشياء على القلب كما روي أنّ موسى عليه السلام لمّا كلّمه ربّه مكث دهراً لا يسمع كلام أحد من الخلق إلّا أخذه الغشيان لأنّ الحبّ يوجب عذوبة كلام المحبوب و عذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آنسني بذكره وأوحشني من خلقه . وقال الله تعالى لداود عليه السلام: كن بي مستأنساً ومن سواي مستوحشاً . و قال عبدالواحد بن زيد : مررت براهب فقلت له : ياراهب لقد أعجبتك الوحدة فقال : يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لا ستوحشت إليها من نفسك، الوحدة رأس العبادة ، قلت : ياراهب ما أقلّ ما تجد في الخلوة ؟ قال : الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرّهم ، قلت : ياراهب متى يذوق العبد حلاوة الأُنس بالله عزّ وجلّ ؟ قال : إذا صفا الودّ وخلصت المعاملة ، قلت: ومتى يصفو الودّ؟ قال : إذا اجتمعت الهموم فصارت همّاً واحداً في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجباً للخلائق كيف أرادوا لك بدلاً ، عجباً للقلوب كيف استأنست بسواك عنك .

فإن قلت : فما علامة الأُنس بالله ؟ فاعلم أنّ علامته الخاصّة ضيق الصدر عن معاشرة الخلق والتبرّم بهم واستهتاره بعذوبة الذّكر فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة و غريب في حضر وحاضر في سفر و شاهد في غيبة و غائب في حضور و مخالط بالبدن متفرّد بالقلب المستغرق بعذوبة الذكر ، قال عليّ عليه السلام في وصفهم : « هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين و استلانوا ما استوعره المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون صحبوا الدّنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحلّ الأعلى اُولئك خلفاء الله في أرضه و الدّعاة إلى دينه » (١) فهذا معنى الأُنس بالله و هذه علامته و هذه شواهده ، و قد ذهب بعض المتكلّمين إلى إنكار الأُنس و الحبّ والشوق لظنّه أنّ ذلك يدلّ على التشبيه وجهله بأنّ جمال المدركات بالبصائر أكمل لذّة من جمال المبصرات ولذّة معرفتها أغلب على ذوي القلوب ، حتّى أنكر

(١) اورده الشريف الرضى فى النهج قسم الحكم والمواعظ تحت رقم ١٤٧ .

بعضهم مقام الرّضا و قال : ليس إلّا الصبر فأمّا الرّضا فغير متصوّر وهذا كلّه كلام ناقص قاصر لم يطّلع قائله من مقامات الدّين إلّا على القشور و ظنّ أنّه لا وجود إلّا للقشر ، فإنّ المحسوسات و كلّ ما يدخل في الخيال في طريق الدّين قشر مجرّد و وراءه اللّب المطلوب ، فمن لم يصل من الجوز إلّا إلى قشره يظنّ أنّ الجوز خشب كلّه و يستحال عنده خروج الدّهن منه لا محالة و هو معذور ولكن عذره غير مقبول ، و قد قيل :

الأُنس بالله لا يَحويه بَطّال ✿ و ليس يدركه بالحول محتال
و الآنسون رجال كلّهم نجب ✿ و كلّهم صفوة لله عمّال

✿(بيان معنى الانبساط و الادلال الّذى تثمره غلبة الأُنس)✿

إعلم أنّ الأُنس إذا دام و غلب واستحكم ولم يشوّشه قلق الشوق ، ولم ينغّصه خوف البعد و الحجاب فإنّه يثمر نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والمناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجرأة و قلّة الهيبة ولكنّه محتمل ممّن أُقيم في مقام الأُنس و من لم يقم في ذلك المقام ويتشبّه بهم في الفعل و الكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الّذي أمر الله تعالى كليمه موسى عليه السلام أن يسأله ليستسقي لبني إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين ، وخرج موسى ليستسقي لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عزّ وجلّ إليه : كيف أستجيب لهم و قد أظلمت عليهم ذنوبهم ، سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويأمنون مكري ، ارجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له يخرج حتّى أستجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف ، فبينا موسى ذات يوم يمشي في طريق إذا بعبد أسود قد استقبله ، بين عينيه تراب من أثر السجود في شملة قد عقدها على عنقه ، فعرفه موسى بنور الله تعالى فسلّم عليه فقال : ما اسمك ؟ قال : اسمي برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين اُخرج فاستسق لنا ، فخرج فقال في كلامه : « ما هذا من فعالك ، ولا هذا من حلمك ، و ما الّذي بدالك أتعصّت عليك غيومك أم عاندت الرّياح عن طاعتك أم نفد ما عندك أم اشتدّ

غضبك على المذنبين ألست كنت غفّاراً قبل خلق الخطّائين خلقت الرّحمة و أمرت بالعطف أم ترينا أنّك ممتنع أم تخشى الفوت فتعجل بالعقوبة» ؟ قال : فما برح حتّى اخضلّت بنو إسرائيل بالقطر و أنبت الله عزّ و جلّ العشب في نصف يوم حتّى بلغ الرّكب قال : فرجع برخ فاستقبله موسى فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربّي كيف أنصفني فهمّ موسى عليه السلام به فأوحى الله عزّ و جلّ إليه أنّ برخاً يضحكني كلّ يوم ثلاث مرّات .

و عن الحسن قال : احترقت أخصاص بالبصرة فبقي في وسطها خُصّ لم يحترق و أبو موسى الأشعريّ يومئذ أمير البصرة فأُخبر بذلك فبعث إلى صاحب الخصّ فأُتي بشيخ فقال : يا شيخ ما بال خصّك لم يحترق فقال : إنّي أقسمت على ربّي ألّا يحرقه ، فقال أبوموسى : إنّي سمعت النبيّ صلى الله عليه وآله يقول : «يكون في أُمّتي قوم شعثة رؤوسهم ، دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرّهم »(١) .

وقيل: وقع حريق بالبصرة فجاء أبو عبدة الخوّاص فجعل يتخطّى النار فقال له أمير البصرة : انظر لا تحترق بالنار فقال : إنّي أقسمت على ربّي ألّا يحرقني بالنار ، قال : فاعزم عليه أن تطفىء ، قال : فعزم عليه فطفئت .

و كان أبو حفص يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقيّ مدهوش فقال له أبو حفص : ما أصابك ؟ فقال : ضلّ حماري ولا أملك غيره ، قال : فوقف أبو حفص وقال : وعزّتك لا أخطو خطوة مالم تردّ عليه حماره ، قال : فظهر الحمار في الوقت ومرّ أبو حفص. فهذا و أمثاله يجري لذوي الأُنس وليس لغيرهم أن يتشبّه بهم .

قال الجنيد : أهل الأُنس يقولون في كلامهم و مناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامّة و قال مرّة لو سمعها العوامّ لكفّروهم و هم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم و يليق بهم وإليه أشار القائل :

قومٌ يخالجهم زهوٌ لسيّدهم ✿ والعبد يزهو على مقدار مولاه
تاهو برؤيته عمّا سواه له ✿ ياحسن رؤيتهم في عزّ ما تاهو

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الاولياء و فيه انقطاع وجهالة كما في المغني .

وقال الشبلي :

إنّ المحبّة للرّحمن أسكرني ✿ وهل رأيت محبّاً غير سكران

ولا تستبعدنّ رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما ففي القرآن تنبيهات على هذه المعاني لو فطنت لها وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأُولي البصائر والأبصار حتّى ينظروا إليها بعين الاعتبار وإنّما هي عند ذوي الاغترار من الأسمار فأوّل القصص قصّة آدم عليه السلام و إبليس أما تراهما كيف اشتركا في اسم المعصية و المخالفة ثمّ تباينا في الاجتباء و العصمة أمّا إبليس فأبلس عن رحمة الله و قيل : إنّه من المبعدين ، و أمّا آدم فقيل فيه « و عصى آدم ربّه فغوى ✿ ثمّ اجتبيه ربّه فتاب عليه وهدى »(١) و لذلك الانبساط و الإدلال يحتمل من بعض العباد دون البعض فمن انبساط الأُنس قول موسى عليه السلام : «إنْ هي إلّا فتنتك تضلّ بها من تشاء و تهدي من تشاء » (٢) و قوله في التعلّل و الاعتذار لمّا قيل له : « اذهب إلى فرعون إنّه طغى » (٣) فقال : « و لهم عليّ ذنب فأخاف أن يقتلون » (٤) وقوله : « و يضيق صدري » (٥) وقوله : « إنّنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى » (٦) و هذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأنّ الّذي أُقيم مقام الأُنس يلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام ما دون هذا لمّا أُقيم مقام القبض و الهيبة فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث فنودي عليه إلى يوم المحشر « لولا أن تداركه نعمة من ربّه لنبذ بالعراء و هو مذموم»(٧) ونهى نبيّنا عليه السلام أن يقتدي به فقال له : «فاصبر لحكم ربّك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم »(٨).

و هذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والمقامات وبعضها لما سبق في الأزل من التفاضل و التفاوت في القسمة بين العباد و قد قال تعالى : « و لقد فضّلنا بعض النبيّين على بعض » (٩) وقال : «منهم من كلّم الله و رفع بعضهم درجات » (١٠) و كان

(١) طه : ١٢٠ و ١٢١ .
(٢) الاعراف : ١٥٤ .
(٣) طه : ٢٥ .
(٤) و(٥) الشعراء : ١٣ و١٢.
(٦) طه : ٤٦.
(٧) و (٨) القلم : ٤٩ و ٤٨ .
(٩) الاسراء : ٥٧ .
(١٠) البقرة : ٢٥٤ .

عيسى عليه السلام من المفضّلين ولا دلاله سلّم على نفسه فقال: «و السلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم اُبعث حيّاً»[١] وهذا انبساط منه لما شاهد منه من اللّطف في مقام الاُنس، وأمّا يحيى بن زكريّا فإنّه اُقيم مقام الهيبة و الحياء فلم ينطق حتّى سلّم عليه خالقه فقال: «وسلامٌ عليه يوم ولد و يوم يموت ويوم يبعث حيّاً»[٢] و انظر كيف احتمل لإخوة يوسف مافعلوا بيوسف و قد قال بعض العلماء: قد عدّدت من أوّل قوله تعالى: «إذ قالوا ليوسف و أخوه أحبُّ إلى أبينا منّا»[٣] إلى رأس العشرين آية من إخباره تعالى عن زهدهم فيه نيّفاً وأربعين خطيئة بعضها أكبر من بعض و قد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث و الأربع، فغفرلهم و عفا عنهم و لم يحتمل لعزير مسئلة واحدة سأل عنها في القدَر حتّى قيل لئن عاد محي عن ديوان النبوّة، و كذلكَ بلعام بن باعوراء من أكابر العلماء فأكل الدّنيا بالدّين فلم يحتمل له ذلك، وكان آصف من المسرفين و كانت معصيته في الجوارح فعفا عنه، و قد روي أنّ الله تعالى أوحى إلى سليمان عليه السلام يا رأس العابدين ويا موضح محجّة الزّاهدين إلى كم يعصيني ابن خالتك آصف و أنا أحلم عليه مرّة بعد مرّة فوعزّتي و جلالي لئن أخذته غضبة من غضباني عليه لأتركنّه مثلة لمن معه و نكالاً لمن بعده، فلمّا دخل آصف على سليمان أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتّى علا كثيباً من رمل، ثمّ رفع رأسه ومدّ يديه إلى السماء، وقال: إلهي وسيّدي أنت أنت و أنا أنا فكيف أتوب إن لم تتب عليّ؟ و كيف أستعصم إن لم تعصمني؟ أغثني و إلّا لأعودنّ و لأعودنّ و لأعودنّ، فأوحى الله تعالى إليه أن قد صدقت يا آصف أنا أنا وأنت أنت استقبل التوبة إليّ فقد تبت عليك وأنا التوّاب الرّحيم، وهذا كلام مدلّ به وهارب منه إليه وناظر به إليه. وفي الخبر إنّ الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن أشفى على الهلكة: يا عبدي كم من ذنب واجهتني به غفرته لك قد أهلكت بدونه اُمّة من الاُمم. فهذه سنّته في عباده بالتفضيل والتقديم و التأخير على ما سبقت به مشيّته

(١) مريم: ٣٤. (٢) مريم: ١٥.
(٣) يوسف: ٨.

الأزليّة و هذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنّة الله تعالى في عباده الّذين خلوا من قبل فما في القرآن شيء إلّا وهو هدى ونور وتعرّف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يتعرّف إليهم بالتقديس فيقول: « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد » (١) و تارة يتعرّف إليهم بصفات جلاله فيقول: « الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر » (٢) و تارة يتعرّف إليهم بأفعاله المخوفة و المرجوّة فيتلو عليهم سنّته في أنبيائه وأعدائه فيقول: «ألم تر كيف فعل ربّك بعاد ۞ إرم ذات العماد » (٣) «ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل» (٤) ولا يعدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي الارشاد إلى معرفة ذات الله تعالى وتقديسه أو معرفة صفاته وأسمائه أو معرفة أفعاله وسنّته مع عباده ولمّا اشتملت سورة الاخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس وازنها النبيّ ﷺ بثلث القرآن فقال: « من قرأ سورة الاخلاص فقد قرأ ثلث القرآن » (٥) لأنّ منتهى التقديس أن يكون واحداً في ثلاثة أمور لا يكون حاصلاً منه من هو من نوعه و شبهه و دلّ عليه قوله: « لم يلد » ، و لا يكون حاصلاً ممّن هو نظيره و شبهه و دلّ عليه قوله: « و لم يولد » ولا يكون في درجته و إن لم يكن أصلاً له و لا فرعاً من هو مثله و دلّ عليه قوله: « ولم يكن له كفواً أحد » و يجمع جميع ذلك قوله: « قل هو الله أحد » وجملته تفصيل قولك: « لا إله إلّا الله» فهذه أسرار القرآن و لا تتناهى أمثال هذه الأسرار في القرآن فلا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين. و لذلك قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : ثوّروا القرآن والتمسوا غرائبه ففيه علم الأوّلين والآخرين » وهو كما قال ولا يعرفه إلّا من طال فكره في آحاد كلماته و صفا له فهمه حتّى تشهد له كلّ كلمة منه بأنّه كلام جبّار قاهر مليك مقتدر وأنّه خارج عن حدّ استطاعة البشر وأكثر

(١) تمام سورة الاخلاص. (٢) الحشر: ٢٣.

(٣) الفجر: ٥و٦. (٤) الفيل: ٢.

(٥) أخرجه أحمد من حديث أبي بن كعب والبخارى نحوه ج ٦ ص ٢٣٢ من حديث أبي سعيد الخدرى.

أسرار القرآن معبأة في طيّ القصص والأخبار فكن حريصاً على استنباطها لينكشف لك فيها من العجائب ما تستحقر معها العلوم المزخرفة الخارجة عنها فهذا ما أردنا ذكره من معنى الأنس و الانبساط الّذي هو ثمرته وبيان تفاوت عباداللہ فيه .

✿(القول في معنى الرّضا بقضاء الله و حقيقته وما ورد في فضيلته)✿

إعلم أنّ الرّضا ثمرة من ثمرات المحبّة و هو من أعلى مقامات المقرّبين و حقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه و الابهام غيرمنكشف إلّا لمن علّمه الله التأويل و فقّهه في الدّين فقد أنكر منكرون تصوّر الرّضا بمايخالف الهوى ثمّ قالوا : إن أمكن الرّضا بكلّ شيء لأنّه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر و المعاصي ، وانخدع به قوم فرأوا الرّضا بالفجور و الفسوق و ترك الاعتراض و الإنكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى و لو انكشفت هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشّرع لمادعا النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لابن عبّاس - رضي الله عنه - حيث قال: «اللّهمّ فقّهه في الدّين و علّمه التأويل» [١] فلنبدأ أوّلاً ببيان فضيلة الرّضا ، ثمّ بحكايات أحوال الرّاضين ثمّ نذكر حقيقة الرّضا و كيفيّة تصوّره فيما يخالف الهوى ، ثمّ نذكر ما يظنّ أنّه من تمام الرّضا وليس منه كترك الدّعاء والسكوت على المعاصي .

✿(بيان فضيلة الرّضا)✿

أمّا من الآيات فقوله تعالى : «رضي الله عنهم و رضوا عنه» [٢] وقدقال تعالى «هل جزاء الإحسان إلّا الإحسان» [٣] و منتهى الإحسان رضا الله تعالى عن عبده و هو ثواب رضا العبد عنه وقد قال تعالى : «ومساكن طيّبة في جنّات عدن ورضوان من الله أكبر» [٤] فقد رفع الله الرّضا فوق جنّات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال : «إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر» [٥] فكما أنّ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده وقد تقدم في العلم .
(٢) المائده : ١٢٠ . (٣) الرحمن : ٦٠ .
(٤) التوبة : ٧٣ . (٥) العنكبوت : ٤٥ .

مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان ربّ الجنّة أعلى من الجنّة بل هو غاية مطلب سكّان الجنان و في الحديث « إنّ الله عزّ و جلّ يتجلّى للمؤمنين فقال : سلوني فيقولون : رضاك يا ربّنا »[١] فسؤالهم الرّضا بعد النظر نهاية التفضيل فلا رتبة فوق النظر إليه و إنّما سألوه الرّضا لأنّه سبب دوام النظر فكأنّهم رأوه غاية الغايات و أقصى الأماني لما ظفروا بنعيم النظر فلمّا اُمروا بالسؤال لم يسألوا إلّا دوامه و علموا أنّ الرّضا هو سبب دوام رفع الحجاب و قال تعالى : « و لدينا مزيد »[٢] و قال بعض المفسّرين فيه : يأتي أهل الجنّة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند ربّ العالمين ليس في الجنان مثلها إحداها هدية الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها و ذلك قوله تعالى : « فلا تعلم نفس ما اُخفي لهم من قرة أعين »[٣] و الثانية السلام عليهم من ربّهم فيزيد ذلك على الهداية و هو قوله تعالى : « سلام قولاً من ربّ رحيم »[٤] و الثالثة يقول الله تعالى: إنّي عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهديّة والتسليم وذلك قوله تعالى : « ورضوان من الله أكبر »[٥] أي من النعيم الّذي هم فيه فهذا فضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا العبد ومعناه يقرب ممّا ذكرناه في حبّ الله تعالى للعبد ويجوز أن ينكشف عن حقيقته لقصور أفهام الخلق عن دركه و من قوي عليه فيستقلّ بإدراكه من نفسه وأمّا رضا الخلق فسنذكر حقيقته .

وأمّا الأخبار في فضيلته فقد روي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم « سأل طائفة من أصحابه ما أنتم؟ فقالوا: مؤمنون فقال : ما علامة إيمانكم؟ قالوا : نصبر عند البلاء ونشكر عند الرّخاء ونرضى بمواقع القضاء فقال : مؤمنون وربّ الكعبة»[٦] وفي خبر آخر أنّه قال: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء »[٧] و في الخبر « طوبى لمن هدي إلى الإسلام و كان رزقه كفافاً ، و رضي به »[٨] و قال عليه السلام : « من رضي من الله

---

(١) قال العراقى : أخرجه البزار والطبرانى فى الاوسط من حديث أنس بسند فيه لين.

(٢) ق : ٣٥ . (٣) السجدة : ١٧ .

(٤) يس : ٥٨ . (٥) التوبة : ٧٣ .

(٦) تقدم فى كتاب الصبر والشكر ج ٧ ص ١٠٧ من حديث عطاء عن ابن عباس .

(٧) قد تقدم ايضاً . (٨) أخرجه الترمذى وقد تقدم .

عزّ وجلّ بالقليل من الرّزق رضي الله عنه بالقليل من العمل »[١] و قال أيضاً : « إذا أحبّ الله عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضي اصطفاه »[٢] وقال أيضاً : «إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة من اُمّتي أجنحة فيطيرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعّمون فيها كيف شاؤوا فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون : ما رأينا حساباً ، فتقولون : هل جزتم على الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطاً ، فتقولون لهم : هل رأيتم جهنّم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئاً ، فتقول لهم الملائكة: من اُمّة من أنتم ؟ فيقولون : من اُمّة محمّد ، فتقولون : ناشدناكم الله حدّثونا ما كانت أعمالكم في الدّنيا ؟ فيقولون : خصلتان كانتا فينا فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فتقولون : وما هما ؟ فيقولون : كنّا إذا خلونا نستحيي أن نعصيه ، ونرضى باليسير ممّا قسّم لنا ، فتقول الملائكة : فحقّ لكم هذا »[٣].

وقال عليه السلام : «أعطوا الله الرّضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلّا فلا»[٤].

و في أخبار موسى عليه السلام «إنّ بني إسرائيل لما قالوا له عليه السلام سل لنا ربّك أمراً إذا نحن فعلناه يرضى به عنّا ، فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ما قالوا ، فقال : يا موسى قل لهم : يرضون عنّي حتّى أرضى عنهم » و يشهد لهذا ما روي عن نبيّنا عليه السلام أنّه قال : « من أحبّ أن يعلم ماله عند الله عزّ وجلّ فلينظر ما لله تعالى عنده فإنّ الله تعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه »[٥] . و في أخبار داود عليه السلام : « ما لأوليائي و الهمّ بالدّنيا إنّ الهمّ يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ، يا داود إنّ محبّتي من أوليائي أن يكونوا روحانيّين لا يغتمّون . و سئل عيسى عليه السلام ما أفضل الأعمال ؟ فقال : الرّضا عن الله و الحبّ له .

(١) رواه الكليني فى الكافي ج ٢ ص ١٣٧ باب القناعة .
(٢) تقدم آنفاً .
(٣) رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف .
(٤) قد تقدم .
(٥) أخرجه الحاكم من حديث جابر بأدنى اختلاف فى اللفظ وصححه وقد تقدم .

و روي أنّ موسى عليه السلام قال : يا ربّ دلّني على أمر فيه رضاك حتّى أعمله فأوحى الله تعالى إليه : رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكره ، فقال : ياربّ دلّني عليه ؟ فقال : إنّ رضاي في رضاك بقضائي. و في مناجاة موسى عليه السلام أي ربّ أيّ خلقك أحبّ إليك ؟ قال : من إذا أخذت منه المحبوب سالمني ، قال : فأيّ خلقك أنت عليه ساخط ، قال : من يستخيرني في الأمر فإذا قضيت له كره قضائي . وقد روي ما هو أشدّ منه وذلك أنّ الله تعالى قال : أنا الله لا إله إلّا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي ولم يشكر نعمائي فليتّخذ ربّاً سواي»[١] ومثله في الشدّة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال الله تعالى: قدّرت المقادير ودبّرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضي فله الرّضا عنّي حتّى يلقاني ، ومن سخط فله السخط منّي حتّى يلقاني»[٢] و في الخبر المشهور « يقول الله عزّ وجلّ : خلقت الخير والشرّ فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه و ويل لمن خلقته للشرّ وأجريت الشرّ على يديه ، و ويل ثمّ ويل لمن قال : لمَ و كيف» [٣] وفي الأخبار السالفة أنّ نبيّاً من الأنبياء شكا إلى الله عزّ وجلّ الجوع و الفقر والقمّل عشر سنين فما أجيب له ، ثمّ أوحى الله تعالى إليه كم تشكوني و لست أهلاً للذمّ و الشكوى و أنت أحقّ بالذمّ و الشكوى، وهكذا كان بدؤك عندي في أمّ الكتاب قبل أن أخلق السّماوات والأرض ، وهكذا سبق لك منّي وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدّنيا أتريد أن أُعيد خلق الدّنيا من أجلك أم تريد أن أبدّل ما قدّرته عليك فيكون ما تحبّ فوق ما أُحبّ و يكون ما تريد فوق ما أُريد ، وعزّتي وجلالي لئن اختلج هذا في صدرك مرّة أُخرى لأمحونّك من ديوان النبوّة .

و روي أنّ آدم عليه السلام كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه و ينزلون

---

(١) قال العراقى : رواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى الضعفاء من حديث أبى هند الدارى مقتصراً على قوله : «من لم يرض بقضائى ولم يصبر على بلائى فليلتمس رباً سواى» واسناده ضعيف . (٢) ماعثرت على هذا اللفظ .

(٣) رواه ابن شاهين فى شرح السنة عن أبى امامة باسناد ضعيف كما فى المغنى ورواه الكلينى فى الكافى ج ١ ص ١٥٤ باب الخير والشر عن أبى جعفر وأبى عبدالله عليهما السلام

يجعل أحدهم رجله على أضلاعه كهيئة الدّرج فيصعد إلى رأسه ثمّ ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه فقال له بعض أولاده الكبار : يا أبت أما ترى ما يصنع هذا بك لو نهيته عن هذا، فقال : يا بنيّ إنّي رأيت مالم تروا وعلمت مالم تعلموا إنّي تحرّكت حركة واحدة فاهبطت من دار الكرامة إلى دار الهوان و من دار النعيم إلى دار الشقاء، فأخاف أن أتحرّك حركة أُخرى فيصيبني ما لا أعلم.

و يروى أنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : تريد وأُريد و إنّما يكون ما أُريد فإن سلّمت لما أُريد كفيتك ما تريد ، و إن لم تسلّم لما أُريد أتعبتك فيما تريد ، ثمّ لا يكون إلّا ما أُريد . وقال عليه السلام : « إنّ الله عزّ و جلّ جعل بحكمته و جلاله الرّوح و الفرح في الرّضا واليقين وجعل الغمّ والحزن في الشكّ والسّخط »[1].

أقول : وأمّا الآثار الّتي ذكرها أبوحامد في هذا المقام فلمّا لم يكن فيها مزيد فائدة تركنا ذكرها .

(بيان حقيقة الرّضا وتصوّره فيما يخالف الهوى)

إعلم أنّ من قال : ليس فيما يخالف الهوى و أنواع البلاء إلّا الصبر فأمّا الرّضا فلا يتصوّر فإنّما أتى من ناحية إنكار المحبّة فأمّا إذا ثبت تصوّر الحبّ لله تعالى و استغراق الهمّ به فلا يخفى أنّ الحبّ يورث الرّضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين أحدهما أن يبطل الإحساس بالألم حتّى يجري عليه المؤلم ولا يحسّ به و تصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ، و مثاله الرّجل المحارب فإنّه في حال غضبه أو حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحسّ بها فإذا رأى الدّم استدلّ به على الجراحة بل الّذي يعدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحسّ بألمه لشغل قلبه بل الّذي يحجم أو يحلق رأسه بحديدة كالّة يتألّم به فإن كان مشغول القلب بمهمّ من مهمّاته فيفرغ المزيّن أو الحجّام و هو لا يشعر به و كلّ ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأُمور مستوفى به لم يدرك ما عداه ، و كذا العاشق المستغرق الهمّ

(١) اخرجه الطبراني من حديث ابن مسعود الا أنه قال : «جعل بقسطه» . (المغنى)

بمشاهدة معشوقه أو بحبّه قد يصيبه ما كان يتألّم به أو يغتمّ لولا عشقه ، ثمّ لايدرك غمّه وألمه لفرط استيلاء الحبّ على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحبّ و العشق من أعظم الشواغل و إذا تصوّر هذا في ألم يسير بسبب حبّ خفيف تصوّر في الألم العظيم بالحبّ العظيم فإنّ الحبّ أيضاً يتصوّر تضاعفه في القوّة كما يتصوّر تضاعف الألم و كما يقوى حبّ الصور الجميلة المدركة بحاسّة البصر فكذا يقوى حبّ الصور الجميلة الباطنة المدركة بنور البصيرة و جمال الحضرة الرّبوبيّة وجلالها لايقاس به جمال ولاجلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ولايحسّ بما يجري عليه فقد قيل : ضرب الحبيب لايوجع ، و أمّا وجه الثاني فهو أن يحسّ به و يدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه مريداً له أعني بعقله و إن كان كارهاً له بطبعه كالّذي يلتمس من الفصّاد الفصد و الحجامة فإنّه يدرك ألمه إلّا أنّه راض به و راغب فيه ومتقلّد من الفصّاد و الحجّام المنّة فهذا حالة الرّاضي بما يجري عليه من الألم و كذلك كلّ من يسافر في طلب الرّبح يدرك مشقّة السفر ولكن حبّه لثمرة سفره طيّب عنده مشقّة السفر وجعله راضياً بها ومهما أصابته بليّة من الله عزّ وجلّ وكان له يقين بأنّ ثوابه الّذي ادّخر له فوق مافاته رضي به و رغب فيه وأحبّه و شكر الله تعالى عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الّذي يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحبّ بحيث يكون حظّ المحبّ في مراد حبيبه و رضاه لا لمعنى آخر وراءه فيكون مراد حبيبه و رضاه محبوباً عنده و مطلوباً وكلّ ذلك موجود في المشاهدات في حبّ الخلق ، وقد تواصفها المتواصفون في نظمهم ونثرهم ولا معنى له إلّا ملاحظة جمال الصور الظاهرة المدركة بالبصر ، فإن نظر إلى الجمال فما هو إلّا جلد على لحم و دم مشحون بالأقذار و الأخباث بدايته من نطفة مذرة ونهايته جيفة قذرة وهو فيما بينهما يحمل العذرة وإن نظر إلى المدرك للجمال فهي العين الخسيسة الّتي تغلط فيما ترى كثيراً فترى الصغير كبيراً والكبير صغيراً و البعيد قريباً و القبيح جميلاً و إذا تصوّر فيه استيلاء هذا الحبّ فمن أين يستحيل ذلك في حبّ الجمال الأزلي الأبدي الّذي لا منتهى لكماله

المدرك بعين البصيرة الّتي لا يعتريها الغلط و لا يدوربها الموت بل تبقى بعد الموت حيّة عند الله تعالى فرحة برزق الله مستفيدة بالموت مزيد تنبيه و استكشاف و هذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار و يشهد لذلك الوجود و حكايات أحوال المحبّين وأقوالهم .

قال بِشر : قصدت عبّادان في بدايتي فإ ذا أنا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع و النمل تأكل لحمه فرفعت رأسه و وضعته في حجري و أنا أردّد الكلام فلمّا أفاق قال : من هذا الفضولي الّذي يدخل بيني وبين ربّي لوقطّعني إرباً إرباً ما ازددت له إلّا حبّاً ، قال بشر : فما رأيت بعد ذلك نقمة بين عبد و بين ربّه فأنكرتها ، و قال أبو عمرو محمّد بن الأشعث : إنّ أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلّا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك و هو قطع النسوة أيديهنّ لاستهتارهنّ بملاحظة جماله حتّى ما أحسّن بذلك .

وقيل : إنّ يونس قال لجبرئيل عليه السلام : دلّني على أعبد أهل الأرض فدلّه على رجل قد قطع الجذام يديه و رجليه و ذهب ببصره وسمعه وهو يقول : إلهي متّعتني بها ماشئت أنت وسلبتني ما شئت أنت وأبقيت لي فيك الأمل يا برّ يا وصول .

و قال مسروق كان في بني إسرائيل رجلٌ بالبادية له كلبٌ و حمار و ديك فالدّيك يوقظهم للصلاة و الحمار ينقلون عليه الماء و يحمل لهم خباءهم و الكلب يحرسهم قال: فجاء الثعلب وأخذ الدّيك فحزنوا له وكان الرّجل صالحاً فقال : بقَدَر عسى أن يكون خيراً ، ثمّ أُصيب الكلب فقال : بقَدَر عسى أن يكون خيراً، ثمّ جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فحزنوا عليه ، فقال : بقَدَر عسى أن يكون خيراً، ثمّ أصبحوا ذات يوم فنظروا فا ذاقدسبي من كان حولهم وبقوا هم ، قال : وإنّما أُخذوا اُولئك لما كان عندهم من أصوات الكلب و الحمار والدّيك وكانت الخيرة في هلاك هذه الحيوانات كما قدّره الله تعالى فمن عرف خفيّ لطف الله رضي بفعله .

و يروى أنّ عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد ، مضروب الجنبين

بفالج ، وقد تناثر لحمه من الجذام وهو يقول : الحمد لله الّذي عافاني ممّا ابتلى به كثيراً من خلقه ، فقال له عيسى عليه السلام : يا هذا أيّ شيء من البلاء تراه مصروفاً عنك فقال : يا روح الله أنا خير ممّن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفته ، فقال له : صدقت هات يدك فناوله يده فإذا هو أحسن الناس وجهاً وأفضلهم هيئة قد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتعبّد معه .

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد حكايات و أقوالاً اُخر من هذا القبيل ثمّ قال : فإذا تأمّلت هذه الحكايات عرفت قطعاً أنّ الرّضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدّين و مهما كان ذلك ممكناً في حبّ الخلق و حظوظهم كان ممكناً في حبّ الله عزّ وجلّ وحظوظ الآخرة قطعاً وإمكانه من وجهين أحدهما الرّضا بالألم لما يتوقّع من الثواب الموعود كالرّضا بالحجامة و شرب الدّواء انتظاراً للشفاء ، و الثاني الرّضا به لا لحظّ وراءه بل لكونه مراد المحبوب و رضى له فقد يغلب الحبّ بحيث ينغمر مراد المحبّ في مراد المحبوب فيكون ألذّ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه و رضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه كما قيل : « فما لجرح إذا أرضاكم ألم » و هذا ممكن مع الإحساس بالألم و قد يستولى الحبّ بحيث يدهش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة و المشاهدة دالّة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه لأنّه إنّما فقده لفقد سببه و هو فرط حبّه و من لم يذق طعم الحبّ لم يعرف عجائبه فللمحبّين عجائب أعظم ممّا وصفناه فقد روي عن عمرو بن الحارث الرّافعي قال : كنت في مجلس بالرّقّة عند صديق لي و كان معنا فتى يتعشّق جارية مغنّية و كانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنّت :

علامة ذلّ الهوى على العاشقين البكا ✿ ولا سيما عاشق إذا لم يجد مشتكى

فقال لها الفتى : أحسنت و الله يا سيّدتي أفتأذنين لي أن أموت ؟ فقالت : مت راشداً ، قال : فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فمه وغمض عينيه فحرّكناه فإذا هو ميّت . وقال الجنيد : رأيت رجلاً متعلّقاً بكمّ صبي و هو يتضرّع إليه و يظهر له المحبّة فالتفت إليه الصبيّ و قال له : إلى متى ذا النفاق الّذي تظهر لي فقال : قد

علم الله أنّي صادق فيما اورده حتّى لو قلت لي مت لمتّ فقال : إن كنت صادقاً فمت قال : فتنحّى الرّجل و غمض عينيه فوجد ميتاً . و قال سمنون المحبّ : كان في جيراننا رجلٌ وله جارية يحبّها غاية الحبّ فاعتلّت الجارية فجلس الرّجل ليصلح لها حيساً فبينا هو يحرّك ما في القدر إذ قالت الجارية : آه ، قال : فدهش الرّجل وسقطت الملعقة من يده وجعل الرّجل يحرّك ما في القِدْر بيده حتّى تساقطت أصابعه فقالت الجارية : ما هذا ؟ فقال الرّجل هذا من أجل قولك : آه .

وحكي عن محمّد بن عبد الله البغدادي قال : رأيت بالبصرة شابّاً على سطح مرتفع وقد أشرف على النّاس وهو يقول هذا البيت :

من مات عشقاً فليمت هكذا ✡ لا خير في عشق بلا موت

ثمّ رمى بنفسه إلى الأرض فحملوه ميتاً ، فهذا وأمثاله قد يصدق به في حبّ المخلوق فالتصديق به في حبّ الخالق أولى لأنّ البصيرة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الرّبوبيّة أوفى من كلّ جمال بل كلّ جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الّذي فقد البصر ينكر جمال الصور و من فقد السمع ينكر لذّة الألحان و النغمات الموزونة فالّذي فقد القلب لابدّ أن ينكر أيضاً هذه اللّذّات الّتي لامطيّة لها سوى القلب .

✡(بيان أنّ الدّعاء غير مناقض للرّضا ولايخرج صاحبه عن مقام الرّضا)✡

و كذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها و حسم أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لايناقضه ، وقد غلط في ذلك قوم من البطّالين المغترّين و زعموا أنّ المعاصي و الفجور و الكفر من قضاء الله و قدره فيجب الرّضا به و هذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع ، فأمّا الدّعاء فقد تعبّدنا به و كثرت أدعية النبيّ وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدّعوات و لقد كان عليه السلام في أعلى مقامات الرّضا و قد أثنى الله عزّ و جلّ على بعض عباده بقوله : « يدعوننا رغباً و رهباً »[1] و أمّا إنكار المعاصي و كراهتها وعدم الرّضا فقد تعبّد الله عزّ وجلّ به عباده

(١) الانبياء : ٩٠ .

وذمّهم على الرّضا بها فقال : « ورضوا بالحيوة الدّنيا واطمأنّوا بها »(١) و قال «رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم » (٢) وفي الخبر المشهور « من شهد منكراً ورضي به فكأنّه قد فعله »(٣) و في الحديث «الدالّ على الشرّ كفاعله »(٤) وعن ابن مسعود : إنّ العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه ، قيل : و كيف ذاك قال : فيبلغه فيرضى به . و في الخبر « لوأنّ عبداً قتل بالمشرق و رضي بقتله آخر بالمغرب كان شريكه في قتله »(٥) و قد أمر الله عزّ وجلّ بالحسد و المنافسة في الخيرات وتوقّي الشرور فقال تعالى : « و في ذلك فليتنافس المتنافسون »(٦) وقال : النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : «لاحسد إلّا في اثنين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثّها في الناس ويعلّمها، ورجل آتاه الله تعالى مالاً فسلّطه على هلكته في الحقّ »(٧) و في لفظ آخر «ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء اللّيل والنهار فيقول الرّجل : لو آتاني الله تعالى مثلما اُوتي هذا لفعلت مثل ما يفعل »(٨).

و أمّا بعض الكفّار والفجّار و الإنكار عليهم و مقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لايحصى مثل قوله تعالى : « لايتّخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين » (٩) وقال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض»(١٠) وقال « كذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً »(١١) وفي الخبر « إنّ الله عزّ وجلّ أخذ الميثاق على كلّ مؤمن أن يبغض كلّ منافق ، و على كلّ

---

(١) يونس : ٧ . (٢) التوبة ٨٨ .

(٣) ما عثرت على لفظه نعم وردت أخبار كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ذلك راجع وسائل الشيعة كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الباب الخامس

(٤) رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف .

(٥) رواه الصدوق في العيون والعلل عن الرضا عليه السلام في حديث .

(٦) المطففين : ٢٦ .

(٧) قد تقدم في كتاب العلم . (٨) تقدم أيضاً نحوه .

(٩) آل عمران : ٢٨ . (١٠) المائدة : ٥٦ .

(١١) الانعام : ١٢٩

منافق أن يبغض كلّ مؤمن»[1] وقال أيضاً : « المرء مع من أحبّ » [2] و قال عليه السلام : « من أحبّ قوماً و والاهم حشر معهم يوم القيامة » [3] وقال عليه السلام : « أوثق عرى الإيمان الحبّ في الله والبغض في الله»[4] وشواهدهذاقد ذكرناها في باب الحبّ في الله و البغض في الله من كتاب آداب الصحبة ، و في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلانعيدها .

فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرّضا بقضاء الله تعالى فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح في التوحيد ، و إن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها و مقتها كراهة لقضاء الله تعالى فكيف السبيل إلى الجمع بينهما و هومتناقض على هذا الوجه و كيف يمكن الجمع بين الرّضا والكراهة في شيء واحد فاعلم أنّ هذا ممّا يلتبس على الضعفاء القاصرين على الوقوف على أسرار العلوم و قد التبس على قوم حتّى رأوا السكوت عن المنكرات مقاماً من مقامات الرضا وسمّوه حسن الخلق و هو جهل محض ، بل نقول : الرّضا و الكراهة متضادّان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد و ليس من التضادّ في شيء واحد أن يكره من وجه و يرضى به من وجه إذ قد يموت عدوّك الّذي هو أيضاً عدوّ بعض أعدائك و ساع في إهلاكه فتكره موته من حيث أنّه مات عدوّ عدوّك و ترضاه من حيث أنّه مات عدوّك و كذلك المعصية لها وجهان وجه إلى الله عزّ وجلّ من حيث أنّها فعله و اختياره و إرادته فترضى به من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك و رضاه بما يفعله فيه و وجه إلى العبد من حيث أنّها كسبه و وصفه و علامة كونه ممقوتاً عند الله تعالى و بغيضاً عنده حيث سلّط عليه أسباب البعد و المقت فهو من هذا الوجه منكرٌ ومذمومٌ ، و لاينكشف هذا لك إلاّ بمثال : فلنفرض محبوباً من الخلق قال :

---

(١) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك وقد تقدم .

(٣) رواه الطبرانى والضياء المقدسى عن أبى قرصافة بسند صحيح كما فى الجامع الصغير . ورواه ابن عدى من حديث جابر بسند ضعيف كما فى المغنى .

(٤) رواه احمد وقدتقدم فى آداب الصحبة .

بين أيدي محبّيه إنّي أريد أن أميّز بين من يحبّني و يبغضني و أنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً وهو أنّي أقصد فلاناً بما يؤذيه و أضربه ضرباً يضطرّه في ذلك إلى الشتم حتّى إذا شتمني أبغضته واتّخذته عدوّاً لي فكلّ من أحبّه فأعلم أنّه أيضاً عدوّي و كلّ من أبغضه فأعلم أنّه صديقي ومحبّي، ثمّ فعل ذلك و حصل مراده من الشتم الّذي هو سبب البغض و حصل البغض الّذي هو سبب العداوة فحقّ على كلّ من هو صادق في محبّته و عالم بشروط المحبّة أن يقول: أمّا تدبيرك في إيذاء هذا الشخص و ضربه وإبعاده و تعريضك إيّاه للبغض و العداوة فأنا محبّ له و راض به فانّه رأيك وتدبيرك وفعلك و إرادتك، وأمّا شتمه إيّاك فانّه عدوان من جهته إذ كان حقّه أن يصبر و لا يشتم ولكنّه كان مرادك منه فانّك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم الموجب للمقت فهو من حيث أنّه حصل على وفق مرادك و تدبيرك الّذي دبّرته فأنا راض به و لو لم يحصل لكان ذلك نقصاناً في تدبيرك و تعويقاً في مرادك و أناكاره لفوات مرادك ولكنّه من حيث إنّه وصف لهذا الشخص و كسب له و عدوان و تهجّم منه عليك على خلاف مايقتضيه جمالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه و من حيث هو وصف له لا من حيث هو مرادك و مقتضى تدبيرك وأمّا بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به و محبّ له لأنّه مرادك و أنا على موافقتك أيضاًمبغض له لأنّ شرط المحبّ أن يكون لحبيب المحبوب حبيباً ولعدوّه عدوّاً وأمّا بغضه لك فانّني أرضاه من حيث إنّك أردت منه أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلّطت عليه دواعي البغض ولكنّا بغضه من حيث إنّه وصف ذلك البغيض و كسبه و فعله و أمقته لذلك فهو ممقوت عندي لمقته إيّاك و بغضه و مقته لك أيضاً مكروه عندي من حيث إنّه وصف له و كلّ ذلك من حيث إنّه مرادك مرضي و إنّما التنافض أن يقول هو من حيث إنّه مرادك مرضيّ ومن حيث إنّه مرادك مكروه، فأمّا إذا كان مكروهاً لا من حيث إنّه فعله و مراده بل من حيث إنّه وصف غيره و كسبه فهذا لا تناقض فيه ويشهد لذلك كلّ ما يكره من وجه ويرضى به من وجه و نظائر ذلك لا تحصى فإذن تسليط الله تعالى دواعي الشهوة و

المعصية عليه حتّى يجرّه ذلك إلى حبّ المعصية و يجرّه الحبّ إلى فعل المعصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الّذي ضربناه مثلاً ليجرّه الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله عزّ وجلّ لمن عصاه و إن كانت معصيته بتدبيره يشبه بغض المشتوم لمن شتمه و إن كان شتمه إنّما حصل بتدبيره واختياره لأسباب ذلك وفعل الله ذلك بكلّ عبد من عبيده أعني تسليط دواعي المعصية عليه يدلّ على أنّه سبقت مشيّته بإبعاده ومقته فواجبٌ على كلّ عبد محبّ لله عزّ وجلّ أن يبغض من أبغضه الله ويمقت من مقته الله ويعادي من أبعده عن حضرته وإن اضطرّه بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته فإنّه بعيدٌ مطرودٌ ملعونٌ عن الحضرة و إن كان بعيداً بإبعاده قهراً ومطروداً و اضطراراً و المبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون مقيتاً بغيضاً إلى جميع المحبّين موافقة للمحبوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده وبهذا يتقرّر جميع ما وردت به الأخبار في البغض في الله والحبّ في الله و التشديد على الكفّار و التغليظ عليهم و المبالغة في مقتهم مع الرّضا بقضاء الله عزّ وجلّ من حيث انّه قضاء الله تعالى وهذا كلّه يستمدّ من سرّ القدر الّذي لا رخصة في إفشائه وهو أنّ الشرّ و الخير كليهما داخلان في المشيّة والإرادة ولكنّ الشرّ مراد مكروه و الخير مراد مرضيٌّ به فمن قال : ليس الشرّ من الله تعالى فهو جاهل و كذا من قال : إنّهما جميعاً منه من غير افتراق في الرّضا و الكراهة فهو أيضاً مقصّر و كشف الغطاء عنه غير مأذون فيه ، فالأولى السكوت و التأدّب بأدب الشرع فقد قال عليه السلام : « القدر سرّ الله فلا تفشوه » (١) وذلك يتعلّق بعلم المكاشفة و غرضنا الآن بيان الإمكان فيما تعبّد به جميع الخلق في الجمع بين الرّضا بقضاء الله و مقت المعاصي مع أنّها من قضاء الله عزّ وجلّ وقد ظهر الغرض من غير حاجة إلى كشف السرّ فيه و بهذا يعرف أيضاً أنّ الدّعاء للمغفرة والعصمة من المعاصي و لسائر الأسباب المعينة على الدّين غير مناقض للرّضا بقضاء الله تعالى فإنّ الله عزّ و جلّ تعبّد العباد بالدّعاء ليستخرج الدّعاء منهم صفاء الذّكر وخشوع القلب و رقّة التضرّع ويكون

(١) أخرجه أبونعيم في الحلية من حديث ابن عمر ، وقد تقدم .

ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف و سبباً لتواتر مزايا اللّطف كما أنّ حمل الكوز و شرب الماء ليس مناقضاً للرّضا بقضاء الله تعالى في العطش و شرب الماء طلب لإزالة العطش ومباشرة سبب رتّبه مسبّب الأسباب فكذلك الدّعاء سببٌ رتّبه الله تعالى و أمر به .

و قد ذكرنا أنّ التمسّك بالأسباب جرياً على سنّة الله تعالى لا يناقض التوكّل و استقصيناه في كتاب التوكّل فهو أيضاً لا يناقض الرّضا لأنّ الرّضا مقام ملاصق بالتوكّل و يتّصل به ، نعم إظهار البلاء في معرض الشّكوى و إنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرّضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر و الكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض فيه و قدقال السلف : من حسن الرّضا بقضاء الله أن لا يقول : هذا يوم حارّ أي في معرض الشكاية وذلك في الصيف ، فأمّا في الشتاء فهو شكرٌ و الشكوى مناقض للرّضا بكلّ حال و ذمّ الأطعمة وعيبها يناقض الرّضا بقضاء الله لأنّ مذمّة الصنعة مذمّة الصانع والكلّ من صنع الله تعالى وقول القائل : الفقر بلاء و محنة ، و العيال همّ وتعبٌ و الاحتراف كدّ ومشقّة ، كلّ ذلك قادحٌ في الرّضا بل ينبغي أن يسلّم التدبير لمدبّره و المملكة لمالكها و يقول ما قال بعض الصحابة : لا اُبالي أصبحت غنيّاً أو فقيراً فإنّي لا أدري أيّهما خيرٌ لي .

(بيان أنّ الفرار من البلاد الّتى هى مظانّ المعاصى)
(ومذمّتها لا يقدح فى الرّضا)

إعلم أنّ الضعيف قد يظنّ أنّ نهي النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون[1] يدلّ على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأنّ كلّ واحد منهما فرارٌ من قضاء الله تعالى و ذلك محالٌ بل العلّة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون أنّه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحّاء و بقي فيه المرضى المطعونون مهملين لا متعهّد لهم فيهلكون هزلاً و ضراراً ولذلك شبّهه النبيّ عليه السلام

---

(١) النهى عن الفرار من الطاعون أخرجه مسلم ج ٧ ص ٢٧ من حديث اسامة بن زيد .

في بعض الأخبار بالفرار من الزّحف (١) ولو كان ذلك من القضاء لما أذن لمن قارب البلد في الانصراف عنه و قدذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكّل ، و إذا عرف المعنى ظهر أنّ الفرار من البلادالّتيهي مظانّ المعاصي ليس فراراً من القضاء بل من القضاء الفرار منها ومن كلّ مالابدّ من الفرار منه و كذلك مذمّة المواضع الّتي تدعوا إلى المعاصي و الأسباب الّتي تدعوا إليها لأجل التنفير عن المعصية ليست مذموماً فمازال السلف الصالح يعتادون ذلك حتّى اتّفقت جماعة على ذمّ بغداد و إظهارهم ذلك و طلب الفرار منها .

فقال ابن المبارك : طفت الشرق والغرب فما رأيت بلداً شرّاً من بغدادقيل : و كيف ؟ قال : هو بلد تزدري فيه نعمةالله وتستصغر فيه معصيةالله ، ولمّا قدم خراسان قيل له: كيف رأيت بغداد ؟ قال : ما رأيت به إلّا شُرْطياً غضبان أو تاجراً لهفان أوقارياً حيران ، ولاينبغي أن تظنّ أنّ ذلك من الغيبة لأنّه لم يتعرّض لشخص بعينه حتّى يستضرّ ذلك الشخص به بل قصد بذلك تحذير الناس ، فهذا يدلّ على أنّ من سكن ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقلّ فيها الخير فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر، قال الله تعالى : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » (٢) فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله مطمئنّ النفس إليه ، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلاً على الدّوام « ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها » . و ذلك لأنّ الظلم إذا عمّ نزل البلاء و دمّر على الجميع و شمل المطيعين و العاصين قال الله تعالى : «واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة »(٣) فإذن ليس في شيء من أسباب نقصان الدّين البتّة رضا مطلق إلّا من حيث إضافتها إلى فعل الله فأمّا هي في أنفسها فلا وجه للرّضا بها بحال ، وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل مقامات ثلاثة : رجلٌ يحبّ الموت شوقاً إلى لقاءالله تعالى ورجلٌ يحبّ البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال : لاأختارشيئاً بل أرضى بما اختاره الله تعالى ، ورفعت هذه المسألة

---

(١) تقدم فى كتاب آداب السفرج ٤ص ٥٢ . وأخرجه احمد فى مسنده ج ٦ص ١٤٥.
(٢) النساء : ٩٩ . (٣) الانفال : ٢٥ .

إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرّضا أفضلهم لأنّه أقلّهم فضولاً .

أقول : ثمّ ذكر أبو حامد جملة من حكايات المحبّين و أقوالهم و مكاشفاتهم و كلمات متفرّقة كما وعده في أوّل الكتاب ولمّا كان بعضها في معنى ما ذكر وبعضها ممّا كرّر وكان سائرها دعاوي لا وثوق بصحّتها و لا بحال من ادّعاها و كان بعضها يناقض بعضاً وبعضها ينقض بعض ظواهر الشرع نقضاً ضربنا عنها صفحاً و طويناعنها كَشحاً إذ لا فائدة في سماع ما هو من قبيل الشطح و الطامات و ما صدر على سبيل الزّهو والرّعونات و إن صحّت فينال أمثالها من كان من أهلها و رجالها و لنختم الكتاب بحديث أورده أبو حامد في جملة ما تركناه نقلاً عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : سألت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن سنّته فقال : المعرفة رأس مالي ، والعقل أصل ديني ، و الحبّ أثاثي ، و الشوق مركبي ، و ذكر الله عزّ و جلّ أنيسي ، والثقة كنزي ، و الحزن رفيقي ، والعمل سلاحي ، والصبر ردائي ، والرّضا غنيمتي ، والفقر فخري ، و الزّهد حرفتي ، و اليقين قوّتي ، و الصدق شفيعي ، و الطاعة جنّتي ، و الجهاد خلقي ، و قرّة عيني في الصلاة »(١) .

تمّ كتاب المحبّة وتوابعها من المحجّة البيضاء على يد مؤلّفه محسن بن مرتضى جعله الله من المحبّين له المشتاقين إليه الآنسين به الرّاضين بقضائه بمنّه و كرمه .
ويتلوه كتاب النيّة و الصدق والإخلاص إن شاء الله تعالى .

---

(١) قال العراقى : ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب عليه السلام ولم أجد له اسناداً .

كتاب النيّة والصّدق والاخلاص

و هو الكتاب السابع من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله حمد الشاكرين، ونؤمن به إيمان الموقنين، ونقرّ بوحدانيّته إقرار الصادقين، و نشهد أن لا إله إلّا الله ربّ العالمين، و خالق السماوات و الأرضين، و مكلّف الجنّ والإنس والملائكة المقرّبين أن يعبدوه عبادة المخلصين. فقال: «وما اُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين» (١) فما لله إلّا الدّين الخالص المتين فإنّه أغنى الأغنياء عن شركة المشاركين، والصلاة على نبيّه محمّد سيّد المرسلين وعلى جميع النبيّين وعلى آله وأصحابه الطيّبين الطاهرين.

أما بعد فقد انكشف لأرباب القلوب ببصيرة الإيمان و أنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلّا بالعلم والعبادة، والناس كلّهم هلكى إلّا العالمين، والعالمون كلّهم هلكى إلّا العاملين، والعاملون كلّهم هلكى إلّا المخلصين، و المخلصون على خطر عظيم، فالعمل بغير نيّة عناء و النيّة بغير إخلاص رياء وهو للنفاق كفاء ومع العصيان سواء، و الإخلاص من غير صدق و تحقيق هباء، و قد قال الله تعالى في كلّ عمل كان بإرادة غير الله مشوباً مغموراً «و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً» (٢) فليت شعري كيف يصحّح النيّة من لا يعرف حقيقة النيّة أو كيف يخلص من صحّح النيّة إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص؟ أو كيف تطالب المخلص نفسه بالصدق إذا لم يتحقّق معناه فالوظيفة الأولى على كلّ عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلّم النيّة أوّلاً لتحصل المعرفة ثمّ يصحّحها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق و

(١) البينة: ٥. (٢) الفرقان: ٢٥.

الاخلاص اللّذين هما وسيلتان للعبد إلى النجاة و الخلاص ، و نحن نذكر معاني النيّة و الصدق و الإخلاص في ثلاثة أبواب إن شاء الله : الباب الأوّل في حقيقة النيّة ومعناها ، الباب الثاني في الاخلاص وحقائقه ، الباب الثالث في الصدق وحقيقته .

الباب الأوّل في النيّة ، وفيه بيان فضيلة النيّة ، وبيان حقيقة النيّة ، وبيان كون النيّة خيراً من العمل ، و بيان تفصيل الأعمال المتعلّقة بالنيّة و بيان خروج النيّة عن الاختيار .

(بيان فضيلة النيّة)

قال الله تعالى : « و لا تطرد الّذين يدعون ربّهم بالغداة و العشيّ يريدون وجهه »[١] و المراد بتلك الارادة هي النيّة . وقال عليه السلام : «إنّما الأعمال بالنيّات و لكلّ امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله و رسوله و من كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوّجها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٢] و قال عليه السلام : « أكثر شهداء اُمّتي أصحاب الفرش وربّ قتيل بين الصفّين الله أعلم بنيّته »[٣] و قال عزّ وجلّ : «إن يريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما »[٤] فجعل النيّة سبب التوفيق وقال عليه السلام : « إنّ الله عزّ و جلّ : لاينظر إلى صوركم و أموالكم و إنّما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[٥] و إنّما نظر إلى القلوب لأنّها مظنّة النيّة .

و قال عليه السلام : « إنّ العبد ليعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة في صحف مختتمة فتلقى بين يدي الله عزّ وجلّ فيقول : ألقوا هذه الصحيفة فإنّه لم يرد بما فيها وجهي ، ثمّ ينادي الملائكة اكتبوا له كذا و كذا فتقولون يا ربّنا إنّه لم يعمل شيئاً من ذلك ، فيقول : إنّه نواه إنّه نواه »[٦] و قال عليه السلام : « الناس أربعة : رجل

---

(١) الانعام : ٥٢ .

(٢) أخرجه البخارى فى الصحيح ج ١ ص ٢٢ وقد تقدم كراراً .

(٣) أخرجه احمد فى المسند ج ١ ص ٣٩٧ من حديث ابن مسعود .

(٤) النساء : ٣٤ .

(٥) أخرجه مسلم وقد تقدم .

(٦) قال العراقى : أخرجه الدار قطنى من حديث أنس باسناد حسن .

آتاه الله تعالى علماً ومالاً فهو يعمل بعلمه في ماله ، فيقول رجلٌ : لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الأجر سواء و رجل آتاه الله تعالى مالاً ولم يؤته علماً وهو يتخبّط بجهله في ماله فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل فهما في الوزر سواء » (١) ألا ترى كيف شركه بالنيّة في محاسن عمله و مساويه ، ولمّا خرج النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في غزوة تبوك قال : « إنّ بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطئنا موطئاً يغيظ الكفّار و لا أنفقنا نفقة و لا أصابتنا مخمصة إلّا شاركونا في ذلك و هم في المدينة : قالوا : و كيف ذلك يا رسول الله و ليسوا معنا ؟ فقال : حبسهم العذر فشركونا بحسن النيّة » (٢) و في الخبر « إنّ رجلاً قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار » (٣) لأنّه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه و حماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيّته . وهاجر آخر ليتزوّج امرأة فكان يسمّى مهاجر امّ قيس (٤). و في حديث عبادة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم « من غزا وهو لا ينوي إلّا عقالاً فله ما نوى» (٥)

و قال اُبيّ : « استعنت برجل ليغزو معي فقال : لا حتّى تجعل لي جعلاً فجعلت له ، فذكرت ذلك للنبيّ عليه السلام فقال : ليس له من دنياه وآخرته إلّا ما جعلت له » (٦) .

و روي في الإسرائيليّات أنّ رجلاً مرّ بكثبان رمل في مجاعة فقال في نفسه : لو كان هذا الرّمل طعاماً لقسّمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيّهم أن قل له :

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى باب النية تحت رقم ٤٢٢٨ . وفيه «مثل هذه الامة كمثل أربعة نفر - الخبر » من حديث ابى كبشة الانمارى .

(٢) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٣١ مختصراً وأخرجه أبوداود هكذا «ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا انفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد الا وهم معكم ، قالوا يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال: حبسهم المرض».

(٣) رواه أبو اسحاق الفزارى مرسلا فى السنن (المغنى)

(٤) أخرجه الطبرانى باسناد جيد كما فى المغنى .

(٥) أخرجه النسائى فى السنن ج ٦ ص ٢٤ من حديث عبادة .

(٦) أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين وروى نحوه عن عوف بن مالك كما فى مجمع الزوائد.

إنّ الله قد قبل صدقتك و شكر حسن نيّتك وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً فتصدّقت به و قد ورد في أخبار كثيرة « من همّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة »(١) وفي حديث اُمّ سلمة رضي الله عنها أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ذكر جيشاً يخسف بهم بالبيداء فقلت : يا رسول الله يكون فيهم الصالح ؟ فقال : «يحشرون على نيّاتهم»(٢) وقال عليه السلام : « إذا التقى الصفّان نزلت الملائكة تكتب الخلق على مراتبهم فلان يقاتل للدُّنيا ، فلان يقاتل للحمية ، فلان يقاتل للعصبيّة ألا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله فمن قاتل ليكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »(٣)

و عن جابر رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : «يبعث كلُّ عبد على ما مات عليه »(٤) وفي حديث الأحنف عن أبي بكرة «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل و المقتول في النار ، قيل : يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : لأنّه أراد قتل صاحبه»(٥) وفي الحديث « من تزوّج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ، و من ادّان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق »(٦)

و قال عليه السلام : « من تطيّب لله تعالى جاء يوم القيامة و ريحه أطيب من المسك الأذفر ، ومن تطيّب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة »(٧)

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده عن عليّ بن الحسين عليهما السلام

---

(١) متفق عليه وقد تقدم ، ورواه الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ٤٢٨

(٢) أخرجه أبو داود ج ٢ ص ٤٢٣ و قد تقدم

(٣) أخرجه ابن المبارك فى الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع ففى الصحيحين من حديث ابى موسى الاشعرى

(٤) رواه مسلم فى صحيحه ج ٨ ص ١٦٥

(٥) أخرجه البخارى فى الصحيح ج ٩ ص ٦٤

(٦) أخرجه احمد ج ٤ ص ٣٣٢ من حديث صهيب بن سنان

(٧) قال العراقى : رواه ابوالوليد الصفار فى كتاب الصلاة من حديث اسحاق بن ابى طلحة .

قال : « لاعمل إلّا بنيّة » (١).

و عن الصادق عليه السلام قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله : نيّة المؤمن خيرٌ من عمله ونيّة الكافر شرٌّ من عمله ، و كلّ عامل يعمل على نيّته » (٢).

و عنه عليه السلام قال : « إنّ العبد المؤمن الفقير ليقول : يا ربّ ارزقني حتّى أفعل كذا و كذا من البرّ و وجوه الخير ، فا ذا علم الله تعالى ذلك منه بصدق نيّة كتب له من الأجر مثل ما يكتب له لوعمله إنّ الله واسع كريم » (٣).

و عنه عليه السلام إنّه سئل عن حدّ العبادة الّتي إذافعلها فاعلها كان مؤدّياً؟ فقال: «حسن النيّة بالطاعة » (٤).

وعنه عليه السلام قال : «إنّما خلّد أهل النار في النار لأنّ نيّاتهم كانت في الدّنيا أن لو خلّدوا فيها أن يعصوا الله تعالى أبداً و إنّما خلّد أهل الجنّة في الجنّة لأنّ نيّاتهم كانت في الدّنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً فبالنيّات خلّد هؤلاء وهؤلاء ثمّ تلا قوله تعالى : «قل كلّ يعمل على شاكلته » (٥) قال : يعني على نيّته » (٦).

ثمّ ذكر أبوحامد الآثار ولمّا لم يكن فيها زيادة فائدة على ماذكر تركناها .

✿(بيان حقيقة النية)✿

إعلم أنّ النيّة و الإرادة و القصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران علم وعمل فالعلم يتقدّم لأنّه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنّه ثمرته وفرعه وذلك لأنّ كلّ عمل أعني كلّ حركة وسكون اختياريّ فإنّه لا يتمّ إلّا بثلاثة اُمور علم و إرادة وقدرة لأنّه لايريد الإنسان مالم يعلمه فلابدّ أن يعلم ولا يعمل مالم يرد فلابدّ من إرادة و معنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه

(١) و (٢) المصدر ج ٢ ص ٨٤ تحت رقم ١ و ٢ .
(٣) المصدر ج ٢ ص ٨٥ تحت رقم ٣ .
(٤) المصدر ج ٢ ص ٨٥ تحت رقم ٤ .
(٥) الاسراء : ٨٤ .
(٦) الكافي ج ٢ ص ٨٥ تحت رقم ٥ .

موافقاً للغرض ، إمّا في الحال أو في المآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافقه بعض الأُمور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الأُمور فاحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه و دفع المضارّ المنافي عن نفسه فإذن لابدّ من معرفة و إدراك للشيء المضرّ و النافع حتّى يطلب ويهرب فإنّ من لايدرك الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله و من لا يبصر النار لايمكنه الهرب منها فخلق الله الهداية والمعرفة و جعل لها أسباباً و هي الحواسّ الظاهرة والباطنة و ليس ذلك من غرضنا ، ثمّ لو أبصر الغذاء و عرف أنّه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إلى الغذاء و شهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنّه موافق له و لا يمكنه التناول لعدم الرّغبة و الميل ولفقد الدّاعية المحرّكة إليه فخلق الله تعالى له الميل و الرّغبة و الإرادة و أعني بها نزوعاً في نفسه إليه وتوجّهاً في قلبه إليه ، ثمّ ذلك لايكفيه فكم من مشاهد طعاماً راغب فيه مريد تناوله عاجز عنه لكونه زمناً ، فخلقت له القدرة و الأعضاء المتحرّكة حتّى يتمّ بها التناول والعضو لايتحرّك إلّا بالقدرة و القدرة تنتظر الدّاعية الباعثة و الدّاعية تنتظر العلم و المعرفة أو الظنّ و الاعتقاد و هو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقاً له و إذا جزمت المعرفة بأنّ الشيء موافق ولابدّ أن يفعل وسلمت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقّق الميل فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة ، فالنيّة عبارة عن الصفة المتوسّطة و هي الإرادة و انبعاث النفس بحكم الرّغبة و الميل إلى ما هو موافق للغرض إمّا في الحال أوفي المآل ، فالمحرّك الأوّل هو الغرض المطلوب وهو الباعث و الغرض الباعث هو المقصد المنويّ و الانبعاث هو القصد و النيّة ، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلّا أنّ انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد فإذا كان بباعثين فقد يكون كلّ واحد بحيث لو انفرد لكان مليّاً بانهاض القدرة ، و قد يكون كلّ واحد قاصراً عنه إلّا بالاجتماع ، و قد يكون أحدهما كافياً لو لا الآخر لكن الآخر انتهض عاضداً له و معاوناً ، فيخرج من هذا التقسيم أربعة

أقسام فلنذكر لكلّ واحد مثالاً وإسماً ، أمّا الأوّل فهوأن ينفرد الباعث الواحد و يتجرّد كما إذاهجم على الانسان سبع فكلّما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلّا غرض الهرب من السبع فإنّه رأى السبع و عرفه ضارّاً فانبعث نفسه على الهرب ور كبّت فيه القدرة فانتهضت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقم لطلب الفرار من السبع لا نيّة له في القيام لغيره و هذه النيّة تسمّى خالصة و يسمّى العمل بموجبها إخلاصاً بالاضافة إلى الغرض الباعث ومعناه أنّه خلص عن مشاركة غيره وممازجته ، الثاني هوأن يجتمع باعثان كلّ واحد مستقلّ بالانهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوّة كانت كافية من الحمل لو انفردت ومثاله في غرضنا أنّ من له قريب فقير يعرض حاجته فيقضيها لفقره و قرابته وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرّد القرابة وأنّه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرّد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غنيّ فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجنبيّ فيرغب أيضاً فيه ، و كذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام و هو يعلم أنّه لولا عرفة لكان يترك الطعام حمية ولولاالحمية لكان يترك لأجل أنّه عرفة و قد اجتمعا جميعاً فأقدم على الفعل و كان الباعث الثاني رفيق الأوّل فلنسمّ هذا موافقة البواعث ، الثالث أن لايستقلّ كلّ واحد لوانفرد و لكن يقوى مجموعهما على إنهاض القدرة ، و مثاله من المحسوسات أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد به أحدهما ، ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه الغنيّ ليطلب درهماً فلا يعطيه و يقصده الأجنبيّ الفقير ليطلب منه درهماً فلايعطيه ، ثمّ يقصده الفقير القريب فيعطيه فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين هما القرابة و الفقر ، و كذلك الرّجل يتصدّق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء ، ويكون بحيث لو كان منفرداً لكان لايبعثه مجرّد قصد الثواب على العطاء ، و لو كان الطالب فاسقاً لا ثواب في التصدّق عليه لكان لا يبعثه مجرّد الرّياء على العطاء ولمّا اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب و لنسمّ هذا الجنس مشاركة ، والرّابع أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه و الثاني لايستقلّ ولكن لمّا انضاف إليه لم ينفكّ عن تأثير بالاعانة والتسهيل

ومثاله من المحسوس أن يعاون الضعيف الرّجل القويّ على الحمل ولو انفرد القويّ لاستقلّ و لو انفرد الضعيف لم يستقلّ فانّ ذلك بالجملة يسهل العمل و يؤثّر في تخفيفه ومثاله في غرضنا أن يكون للإنسان وردٌ في الصلوات وعادة في الصدقات.فاتّفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخفّ عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنّه لو كان منفرداً خالياً لم يفتر عن عمله وعلم أنّ عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرّد الرّياء يحمله عليه فهو شوب تطرّق إلى النيّة ولنسمّ هذا الجنس المعاونة ، فالباعث الثاني إمّا أن يكون رفيقاً أو شريكاً أو معيناً وسنذكر حكمها في باب الاخلاص وغرضنا الآن بيان أقسام النيّات فانّ العمل تابعٌ للباعث عليه فيكتسب الحكم منه فلذلك قيل : إنّما الأعمال بالنيّات لأنّها تابعة لاحكم لها في نفسها و إنّما الحكم للمتبوع .

۞(بيان سرّ قوله عليه السلام «نية المؤمن خير من عمله (١)»)۞

إعلم أنّه قد يظنّ أنّ سبب هذا الترجيح أنّ النيّة سرّ لا يطّلع عليه إلّا الله تعالى والعمل ظاهر وفعل السرّ أفضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنّه لو نوى أن يذكر الله تعالى بقلبه أو يتفكّر في مصالح المسلمين فيقتضي عموم الحديث أن تكون نيّته للتفكّر خيراً من التفكّر و قد يظنّ أنّ سبب الترجيح أنّ النيّة تدوم إلى آخر العمل و الأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأنّ ذلك يرجع معناه إلى أنّ العمل الكثير خيرٌ من القليل بل ليس كذلك فانّ نيّة أعمال الصلاة قد لا تدوم إلّا في لحظات معدودة و الأعمال تدوم والعموم يقتضي أن يكون نيّته خيراً من عمله ، و قد يقال: معناه أنّ النيّة بمجرّدها خيرٌ من العمل بمجرّده دون النيّة و هو كذلك ولكنّه بعيد أن يكون هو المراد إذ العمل بلا نيّة بل على الغفلة لا خير فيه أصلاً و النيّة بمجرّدها خيرٌ و ظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير بل المعنى به أنّ كلّ طاعة ينتظم بنيّة وعمل وكانت النيّة من جملة الخيرات وكان العمل من جملة الخيرات

---

(١) أخرجه الطبرانى من حديث سهل بن سعد والبيهقى فى الشعب من حديث أنس بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير ورواه الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ٨٤ .

ولكنّ النيّة من جملة الطاعات خيرٌ من العمل أي لكلٍّ واحد منهما أثر في المقصود وأثر النيّة أكثر من أثر العمل فمعناه نيّة المؤمن من جملة طاعته خيرٌ من عمله الّذي هو من جملة طاعته ، والغرض أنّ للعبد اختياراً في النيّة وفي العمل فهما عملان والنيّة من الجملة خيرهما فهذا معناه .

أقول: للخبر معنى آخر و هو أنّ المؤمن ينوي أن يوقع عباداته على أحسن الوجوه ثمّ لما اشتغل بها فلا يتيسّر له ذلك ويكسل عنها ولم يأت بها على ما ينبغي فالّذي ينوي خيرٌ من الّذي يعمل و أيضاً ينوي أبداً أن يأتي بالطاعات و القربات و يجتنب المعاصي والسيئات لإيمانه بالله و اليوم الآخر ثمّ لا يوفّق لذلك و لا يتأتّى منه ما نواه ، و ينوي إن آتاه الله مالاً ينفقه في سبيله ثمّ لمّا آتاه فربّما ينحلّ به فنيّته خيرٌ من عمله و إلى هذا المعنى أشار أبو جعفر الباقر عليه السلام حيث كان يقول « نيّة المؤمن خيرٌ من عمله ، وذلك لأنّه ينوي من الخير مالا يدركه ، ونيّة الكافر شرٌّ من عمله وذلك لأنّ الكافر ينوي الشرّ ويأمل من الشرّ مالا يدركه »[1] و سئل الصادق عليه السلام عن معنى الحديث فقال : «لأنّ العمل رياء المخلوقين و النيّة خالصة لربّ العالمين فيعطي عزّ وجلّ على النيّة مالا يعطي على العمل»[2] وقال : «إنّ العبد لينوي من نهاره أن يصلّي باللّيل فيغلبه عينه فينام فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحاً ويجعل نومه صدقة »[3]

قال أبو حامد : وأمّا سبب كونها خيراً ومترجّحة على العمل فلا يفهمه إلاّ من فهم مقصد الدّين وطريقه و مبلغ اثر الطريق في الإيصال إلى المقصود وقاس بعض الآثار بالبعض حتّى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود ، ومن قال : الخبز خيرٌ من الفالوذج فإنّما يعني به أنّه خيرٌ بالإضافة إلى مقصود القوت و الاغتذاء ، ولا يفهم ذلك إلّا من فهم أنّ للغذاء مقصداً وهو الصحّة والبقاء ، وأنّ الأغذية

---

(١) و (٢) رواهما الصدوق فى كتاب علل الشرايع الاول من حديث الحسن بن الحسين الانصارى عن رجل ، والثانى من حديث زيد الشحام .

(٣) أيضاً فى العلل .

مختلفة الآثارفيهما ، وفهم أثر كلّ واحد وقاس البعض بالبعض فالطاعات غذاء القلوب و المقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعّمها بلقاء الله عزّ وجلّ فالمقصود لذّة السعادة بلقاء الله تعالى فقط ولن يتنعّم بلقاء الله تعالى إلّا من مات محبّاً لله عارفاً بالله ولن يحبّه إلّا من عرفه و لن يأنس به إلّا من طال ذكره له والاُنس يحصل بدوام الذّكر و المعرفة تحصل بدوام الفكر و المحبّة تتبع المعرفة بالضرورة ، ولن يتفرّغ القلب لدوام الذّكر و الفكر إلّا إذا فرغ من شواغل الدّنيا و لن يتفرّغ من شواغلها إلّا إذا انقطع عن شهواتها حتّى يصير مائلاً إلى الخير مريداً له نافراً عن الشرّ مبغضاً له وإنّما يميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أنّ سعادته في الآخرة منوطة بهما كما يميل العاقل إلى الفصد والحجامة لعلمه بأنّ سلامته فيهما وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنّما يقوى بالعمل بمقتضي الميل و المواظبة عليه فإنّ المواظبة على مقتضى صفات القلب و إرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتّى تترسّخ الصفة وتقوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرّئاسة لا يكون ميله في الابتداء إلّا ضعيفاً فإن اتّبع مقتضى الميل و اشتغل بالعلم و تربية الرّئاسة و الأعمال المطلوبة لها تأكّد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع و إن خالف مقتضى ميله ضعف ميله و انكسر وربّما زال و انمحق بل الّذي ينظر إلى وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعه ميلاً ضعيفاً فلو اتّبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة و المجاورة تأكّد ميله حتّى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه و لو فطم نفسه ابتداء وخالف مقتضى طبعه وميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل و يكون ذلك زجراً و دفعاً في وجهه حتّى يضعف وينكسر بسببه أو ينقمع و ينمحي و هكذا جميع الصفات و الخيرات و الطاعات كلّها هي الّتي تراد بها الآخرة و الشرور كلّها تراد بها الدّنيا لا الآخرة وميل النفس إلى الخيرات الاُخرويّة و انصرافها عن الدّنيا هو الّذي يفرغها للذّكر و الفكر ولن يتأكّد ذلك إلّا بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح ، لأنّ بين الجوارح و بين القلب علاقة حتّى أنّه يتأثّر كلّ واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألّم بها

القلب وترى القلب إذا تألّم بعلمه بموت عزيز من أعزّته أو بهجوم أمر مخوف تأثّرت به الأعضاء و ارتعدت الفرائص وتغيّر اللّون إلّا أنّ القلب هو الأصل المتبوع فكأنّه الأمير والرّاعي، و الجوارح كالخدم والرّعاء و الاتباع، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيها فالقلب هو المقصود والأعضاء آلات موصلة إلى المقصود ولذلك قال عليه السلام: «إنّ في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد»(١) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللّهمّ أصلح الرّاعي والرّعيّة»(٢) وأراد بالرّاعي القلب قال الله تعالى: «لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم»(٣) وهو صفة القلب فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ثمّ يجب أن تكون النيّة من جملتها أفضل لأنّها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوّد القلب إرادة الخير ويؤكّد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدّنيا و يكبّ على الذّكر و الفكر، فبالضرورة يكون خيراً بالإضافة إلى الغرض لأنّه متمكّن من نفس المقصود وهذا كما أنّ المعدة إذا تألّمت فقد تداوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالشرب والدّواء الواصل إلى المعدة فالشرب خير من الطلاء للصدر لأنّ طلاء الصدر أيضاً إنّما اُريد به أن يسري منه الاثر إلى المعدة فما يلاقي في عين المعدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغي أن يفهم تأثير الطاعات كلّها إذ المطلوب منها تغيّر القلوب وتبدّل صفاتها فقطّ دون الجوارح فلا تظنّنّ أنّ في وضع الجبهة على الأرض غرضنا من حيث إنّه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنّه بحكم العادة يؤكّد صفة التواضع في القلب فإنّ من يجد في نفسه تواضعاً فإذا استعان بأعضائه وصوّرها بصورة التواضع تأكّد تواضعه، ومن وجد في قلبه رقّة على يتيم فإذا مسح رأسه وقبّله تأكّدت الرّقّة في قلبه ولهذا لم يكن العمل بغير نيّة مفيداً أصلاً لأنّ من يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانّ أنّه يمسح

(١) متفق عليه من حديث نعمان بن بشير.
(٢) قال العراقي: لم أجده وقد تقدم.
(٣) الحج: ٣٨.

ثوباً لم يسر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكيد الرّقّة ، و كذلك من سجد غافلاً و هو مشغول الهمّ بأغراض الدّنيا لم يسر من جبهته و وضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكّد به التواضع و كان وجوده كعدمه و ما يساوي وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض المطلوب منه يسمّى باطلاً فيقال : العبادة بغير نيّة باطلة و هذا معناه إذا فعل عن غفلة فإن قصدبه رياء أوتعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه بل زاده شرّاً فإنّه لم يؤكّد الصفة المطلوب تأكيدها بل آكد الصفة المطلوب قمعها و هي صفة الرّياء الّتي هي من الميل إلى الدّنيا فهذا وجه كون النيّة خيراً من العمل و بهذا يعرف معنى قوله عليه السلام : «من همّ بحسنة و لم يعملها كتبت له حسنة» لأنّ همّ القلب هو ميله إلى الخير و انصرافه عن الهوى وحبّ الدّنيا وهو غاية الحسنات و إنّما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيداً فليس المقصود من إرادته دم القربان الدّم و اللّحم بل ميل القلب عن حبّ الدّنيا و بذلها إيثاراً لوجه الله عزّ و جلّ و هذه الصفة قد حصلت عند جزم النيّة و الهمّة و إن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، والتقوى ههنا أعني في القلب و لذلك قال عليه السلام : «إنّ قوماً بالمدينة و قد شاركونا في الجهاد» كما رويناه لأنّ قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس و الرّغبة في طلب الشهادة و إعلاء كلمة الله عزّ و جلّ كقلوب الخارجين في الجهاد و إنّما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخصّ الأسباب الخارجة عن القلب وذلك غير مطلوب إلّا لتأكيد هذه الصفات. و بهذا يفهم جميع الأحاديث الّتي أوردناها في فضيلة النيّة فأعرضها عليها لتنكشف لك أسرارها فلانطول بالإعادة .

✡(بيان تفصيل الاعمال المتعلّقة بالنيّة)✡

إعلم أنّ الأعمال و إن انقسمت أقساماً كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب نفع ودفع ضرّ وفكر و ذكر وغير ذلك ممّا لايتصوّر إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام معاصي و طاعات ومباحات .

القسم الأوّل المعاصي وهي لايتغيّر موضوعاتها بالنيّة فلاينبغي أن يفهم الجاهل

ذلك من عموم قوله عليه السلام : « إنّما الأعمال بالنيّات» ويظنُّ أنَّ المعصية تنقلب طاعة بالنيّة كالّذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيراً من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجداً أورباطاً بمال حرام و قصده الخير فهذا كلّه جهل و النيّة لاتؤثّر في إخراجها عن كونها حراماً وظلماً وعدواناً ومعصية بل قصده الخير بالشرّ على خلاف مقتضى الشرع شرٌّ آخر فإن عرفه فهو معاند للشرع و إن جهله فهوعاص بجهله إذ طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ، فالخيرات إنّما عرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشرُّ خيراً هيهات بل المروّج لذلك على القلب خفيُّ الشهوة و باطن الهوى فإنَّ القلب إذا كان مائلاً إلى طلب الجاه واستمالة قلوب الناس و سائر حظوظ النفس توسّل الشيطان به إلى التلبيس على الجاهل ، و لذلك قال سهل : ماعصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل فقيل له : ياأبا محمّد هل تعرف شيئاً أشدّ من الجهل قال : نعم الجهل بالجهل . وهو كما قال لأنَّ الجهل بالجهل يسدُّ بالكلّيّة باب التعلّم فمن ظنَّ بنفسه أنّه عالم كيف يتعلّم و كذلك أفضل ما اُطيع الله به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أنَّ رأس الجهل الجهل بالجهل فإنَّ من لايعرف العلم النافع من العلم الضارّ اشتغل بما أكبّ الناس عليه من العلوم المزخرفة الّتي هي وسائلهم إلى الدُّنيا و ذلك هو مادَّة الجهل و منبع فساد العالم و المقصود أنَّ من قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور إلّا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعد مهلة التعلّم وقد قال تعالى : «فاسئلوا أهل الذّكر إن كنتم لاتعلمون»(١) و قال عليه السلام : « لا يعذر الجاهل على الجهل ولايحلُّ للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه » (٢) و يقرب من تقرُّب السلاطين ببناء المساجد و المدارس بالمال الحرام تقرُّب علماء السوء بتعليم العلم السفهاء و الأشرار المعروفين

---

(١) النحل : ٤٥ .

(٢) أخرجه الطبراني في الاوسط و ابن السني وابو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله : «لايعذر الجاهل على الجهل » وفيه « لاينبغي بدل « لايحل » وقد تقدم في العلم .

بالفجور و القاصرين همتهم على مماراة العلماء و مباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس و جمع حطام الدّنيا وأخذ أموال السلاطين والمساكين واليتامى فإنّ هؤلاء إذا تعلّموا كانوا قطّاع طريق الله و انتهض كلّ واحد في بلدته نائباً عن الدّجال يتكالب على الدّنيا ويتّبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجرىء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله تعالى ثمّ ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتّخذونه أيضاً آلة و وسيلة في الشرّ و اتّباع الهوى ويتسلسل ذلك و وبال جميعه يرجع إلى المعلّم الّذي علّمه العلم مع علمه بفساد نيّته و قصده و مشاهدته أنواع المعصية في أقواله و أفعاله و في مطعمه و ملبسه ومكسبه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شرّه منتشرة في العالم ألف سنة وألفي سنة مثلاً ،وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ، ثمّ العجب من جهله حيث يقول : «الأعمال بالنيّات» و قد قصدت بذلك نشر علم الدّين فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا منّي و ما قصدت به إلاّ أن يستعين به على الخير وإنّما حبّ الرّئاسة والاستتباع والتفاخر بعلوّ العلم يحسّن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حبّ الرّئاسة يلبّس عليه وليت شعري ما جوابه عمّن وهب سيفاً من قاطع طريق وأعدّ له خيلاً وأسباباً يستعين بها على مقصوده ويقول: إنّما أردت البذل والسخاء والتخلّق بأخلاق الله عزّ وجلّ وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والخيل في سبيل الله فإنّ إعداد الخيل للرّباط والقوّة للغزاة من أقرب القربات فإن صرفه هو إلى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أنّ ذلك حرام مع أنّ السخاء هو أحبّ الأخلاق إلى الله تعالى حتّى قال عليه السلام : «إنّ لله ثلاثمائة خُلق من تقرّب إليه بواحد منها دخل الجنّة و أحبّها إليه السخاء» [1] فليت شعري لم حرّم هذا السخاء ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فإذا لاح له من عادته أنّه يستعين بالسلاح على الشرّ فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا في أن يمدّه بغيره و العلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله تعالى و هو الهوى فمن لا يزال مؤثراً لدنياه على دينه ولهواه على آخرته و هو عاجز عنها لقلّة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكّن

---

(١) أخرجه الطبراني في الاوسط من حديث أنس مرفوعاً باختلاف في اللفظ .(المغني)

به من الوصول إلى شهواته ، بل لم يزل علماء السلف يتفقّدون أحوال من يتردّد إليهم فلو رأوا من واحد منهم تقصيراً في نفل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه و إذا رأوا منه فجوراً أو استحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه لعلمهم بأنّ من تعلّم مسئلة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلّا آلة الشرّ و قد تعوّذ جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنّة وماتعوّذوا من الفاجر الجاهل ، فهذا و أمثاله ممّا يلتبس على الأغبياء و أتباع الشيطان و إن كانوا أرباب الطيالسة و الأكمام الواسعة و أصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير أعني الفضل من العلوم الّتي لا تشتمل على التحذير من الدّنيا و الزّجر منها و الترغيب في الآخرة و الدّعاء إليها بل هي العلوم الّتي تتعلّق بالخلق و يتوصّل بها إلى جمع الحطام و استتباع الناس والتقدّم على الأقران فاذن قوله عليه السلام : «الأعمال بالنيّات» يختصّ من الأقسام الثلاثة بالطاعات و المباحات دون المعاصي إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد وتكون طاعة بالقصد و المباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد فأمّا المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً ، نعم النيّة داخلة فيها و هو أنّه إذا انضافت إليها قصود الخبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة .

القسم الثاني الطاعات وهي مرتبطة بالنيّات في أصل صحّتها وفي تضاعف فضلها أمّا الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله لا غير فان نوى الرّياء صارت معصية وأمّا تضاعف الفضل فبكثرة النيّات الحسنة وإنّ الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكلّ نيّة ثواب إذ كلّ واحدة منها حسنة فتضاعف كلّ حسنة عشر أمثالها كما ورد به الخبر و مثالها القعود في المسجد فانّه طاعة و يمكن أن ينوي فيه نيّات كثيرة حتّى يصير من فضائل أعمال المتّقين ويبلغ به درجات المؤمنين أوّلها أن يعتقد أنّه بيت الله و أنّ داخله زائر لله تعالى فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده النبيّ عليه السلام حيث قال : «من دخل (١) المسجد فقد زار الله عزّ وجلّ و حقّ على المزور

---

(١) في الاحياء «من قعد» .

إكرام زائره » [١] و ثانيها أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون من جملة انتظاره في الصلاة و هو معنى قوله تعالى : « و رابطوا » [٢] و ثالثها الترهّب بكفّ السمع و البصر و سائر الأعضاء عن الحركات و التردّدات فانّ الاعتكاف كفّ و هو في معنى الصوم وهو نوع ترهّب ولذلك قال عليه السلام: «رهبانية اُمّتي القعود في المساجد» [٣] ورابعها عكوف الهمّ على الله تعالى ولزوم السرّ للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه باعتزاله إلى المسجد ، و خامسها التجرّد لذكر الله أو الاستماع لذكره أو للتذكّر به كما روي « من غدا إلى المسجد ليذكر الله عزّ وجلّ أو يذكر به كان كالمجاهد في سبيل الله » [٤] وسادسها أن يقصد إفادة علم الله عزّ وجلّ بأمر بمعروف أو نهي عن منكر إذ المسجد لا يخلو عمّن يسيء صلاته أو يتعاطى ما لا يحلّ له فيأمره بالمعروف و يرشده إلى الدّين فيكون شريكاً معه في خيره الّذي يتعلّم منه فتتضاعف خيراته ، و سابعها أن يستفيد أخاً في الله فإنّها غنيمة و ذخيرة للدّار الآخرة ، والمسجد معشّش أهل الدّين المحبّين لله وفي الله تعالى ، وثامنها أن يترك الذّنوب حياء من الله عزّ وجلّ و حياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة وقد قال الحسن بن عليّ عليهما السلام : «من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع خصال أخاً مستفاداً في الله أو رحمة منزلة أو علماً مستطرفاً أو كلمة تدلّه على هدى أو تصرفه عن ردى أو يترك الذّنوب خشية أو حياء» [٥].

أقول: هذا الحديث روّيناه من طريق الخاصّة عن أمير المؤمنين عليه السلام [٦]

---

(١) أخرجه ابن حبان فى الضعفاء من حديث سلمان وللبيهقى فى الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يسمّوا باسناد صحيح وقد تقدّما .

(٢) آل عمران : ٢٠٠ .

(٣) قال العراقى :لم اجد له أصلا .

(٤) قال العراقى : هو معروف من قول كعب الاحبار ورويناه فى جزء ابن طوق .

(٥) رواه الحميرى فى قرب الاسناد بنحوه عن الحسين بن على عن جده عليهم السلام وأيضا البرقى فى المحاسن .

(٦) رواه الشيخ فى التهذيب ج ١ ص ٣٢٤ باب فضل المساجد .

هكذا قال: «من اختلف إلى المسجد أصاب إحدى الثمان أخاً مستفاداً في الله أوعلماً مستطرفاً أو آية محكمة أو يسمع كلمة تدلّه على هدى أو كلمة تردّه عن ردى أو رحمة منتظرة أو يترك ذنباً خشية أو حياءً».

قال أبوحامد: فهذا طريق تكثير النيّات وقس عليه سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلّا وتحتمل نيّات كثيرة وإنّما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدّه في طلب الخير وتشمّره له و تفكّره فيه فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات.

القسم الثالث المباحات وما من شيء من المباحات إلّا و يحتمل نيّة أو نيّات يصير بها من محاسن القربات وينال معالي الدّرجات فما أعظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهملة عن سهو وغفلة ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئاً من الخطرات و اللّحظات فكلّ ذلك يسأل عنها يوم القيامة أنّه لم فعلها و ما الّذي قصد بها هذا في مباح محض لا يشوبه كراهة، ولذلك قال عليه السلام: «حلالها حساب وحرامها عذاب»(١) وفي الخبر «من تطيّب لله تعالى جاء يوم القيامة و ريحه أطيب من المسك، و من تطيّب لغير الله جاء يوم القيامة و ريحه أنتن من الجيفة»(٢) واستعمال الطيب مباح ولكن لابدّ فيه من نيّة. فإن قلت: فما الّذي يمكن أن ينوي بالطيب و هو حظّ من حظوظ النفس و كيف يتطيّب لله تعالى؟ فاعلم أنّ من تطيّب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصوّر أن يقصد التنعّم بلذّات الدّنيا أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده الأقران أو يقصد به رئاء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أو ليتودّد في قلوب النساء الأجنبيّات إذا كان متهيّأً للنظر إليهنّ أو لأمور أخر لا تحصى و كلّ ذلك يجعل التطيّب معصية فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة لا بالقصد الأوّل وهو التلذّذ والتنعّم فإنّ ذلك ليس بمعصية إلّا أنّه يسأل عنه «و من نوقش في الحساب عذّب» و من اُوتي شيئاً من مباح الدّنيا لم يعذّب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسراناً بأن يستعجل ما يفنى ويخسر زيادة نعيم يبقى وأمّا النيّات الحسنة فإنّه ينوي به اتّباع سنّة النبيّ

(١) قد تقدم. (٢) ما عثرت على أصل له.

عليه السلام يوم الجمعة ، و أن ينوي به تعظيم المسجد و احترام بيت الله عزّ و جلّ فلا يرى أن يدخله زائر الله عزّ وجلّ إلّا طيّب الرّائحة و أن يقصد به ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه ، و أن يقصد به دفع الرّوائح الكريهة عن نفسه الّتي تؤدّي إلى إيذاء مخالطيه ، وأن يقصد به حسم باب الغيبة على المغتابين إذا اغتابوه بالرّوائح الكريهة فيعصون الله عزّ وجلّ بسببه فمن تعرّض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كما قيل :

مهما ترحّلت عن قوم وقد قدروا ✡ ألّا تفارقهم فالرّاحلون هم

و قال عزّ و جلّ : « ولاتسبّوا الّذين يدعون من دون الله فيسبّوا الله عدواً بغير علم » (١) أشار به إلى أنّ التسبّب إلى الشرّ شرّ ، و أن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته و ذكاؤه ويسهل عليه درك مهمّات دينه بالفكر ، و قد قيل : من طاب ريحه زاد عقله ، فهذاوأمثاله من النيّات لايعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة و طلب الخير غالباً على قلبه و إذا لم يغلب على قلبه إلّا نعيم الدّنيا لم تحضره هذه النيّات و إن ذكرت له لم ينبعث لها قلبه فلا يكون معه منها إلّا حديث النفس و ليس ذلك من النيّة في شيء ، والمباحات كثيرة ولايمكن إحصاء النيّات فيها فقس على هذا الواحد غيره ، و لهذا قال بعض السلف : إنّي لأستحبّ أن يكون لي في كلّ شيء نيّة حتّى في أكلي و شربي و نومي ودخولي الخلا ، و كلّ ذلك ممّايمكن أن يقصد به وجه الله لأنّ كلّ ما هو سبب لبقاء البدن و فراغ القلب من مهمّات البدن فهو معين على الدّين ، فمن كان قصده من الأكل التقوّي به على العبادة و من الوقاع تحصين دينه و تطيّب قلب أهله والتّوصل به إلى ولد يعبدالله فيكثر به امّة محمّد صلّى الله عليه وآله كان مطيعاً بأكله و نكاحه ، و أغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير ممتنع لمن غلب على قلبه همّ الآخرة ، و كذلك ينبغي أن يحسّن نيّته مهماضاع له مال و يقول هو في سبيل الله ، و إذا بلغه اغتياب غيره له فليطيّب قلبه بأنّه سيحمل عنه سيّئاته و ينقل إلى ديوانه حسناته ولينو ذلك بسكوته عن

(١) الانعام : ١٠٨ .

الجواب ففي الخبر « إنّ العبد ليحاسب فيبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتّى يستوجب النار ثمّ ينشر له من الأعمال الحسنة ما تستوجب به الجنّة فيتعجّب و يقول : يا ربّ هذه أعمال ماعملتها فيقال هي أعمال الّذين اغتابوك و آذوك وظلموك (١)» و في الخبر « إنّ العبد ليوافي القيامة بحسنات أمثال الجبال لو خلصت له لدخل الجنّة و يأتي قد ظلم هذا وشتم هذا و ضرب هذا فيقتصّ لهذا من حسناته ولهذامن حسناته حتّى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة : قد فنيت حسناته و بقي طالبون فيقول الله عزّ وجلّ : ألقوا عليه من سيّئاتهم ثمّ صكّوا له صكّاً إلى النار (٢)» وبالجملة فايّاك ثمّ إيّاك أن تستحقر شيئاً من حركاتك فلا تحذر من غرورها و شرورها ولا تجد لها جواباً يوم السؤال و الحساب فانّ الله مطّلع عليك و شهيد « و ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيب عتيد» فان كنت اُولي الحزم والنهى ولم تكن من المغترّين فانظر لنفسك الآن و دقّق الحساب على نفسك قبل أن يدقّق عليك و راقب أحوالك ولا تسكن ولاتتحرّك مالم تتأمّل أوّلاً إنّك لم تتحرّك وماذا تقصد و ما الّذي تنال بهمن الدّنيا و ما الّذي يفوتك به من الآخرة و بما ذا ترجّح الدّنيا على الآخرة فاذا علمت أنّه لا باعث إلّا الدّين فامض عزمك وما خطر ببالك و إلّا فامسك ثمّ راقب قلبك أيضاً في إمساكك و امتناعك فانّ ترك الفعل فعل ولابدّ له من نيّة صحيحة ولاينبغي أن يكون الدّاعي هوى خفيّاً لاتطّلع عليه ولا يغرّنك ظواهر الاُمور و مشهورات الخيرات و انظر إلى الأغوار و الأسرار تخرج من حيّز أهل الاغترار فقد روي عن زكريّا عليه السلام أنّه كان يعمل في حائط بالطين وكان أجير القوم فقدّموا له رغيفين إذكان لا يأكل إلّا من كسب يديه فدخل عليه قوم فلم يدعهم إلى

(١) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيث بن سعد البلوي مختصراً « ان العبد ليلقى كتابه يوم القيامة منتشراً فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول : هذا لي ولم أعملها ؟ فيقال : بما اغتابك الناس وأنت لاتشعر » وفيه ابو لهيعة (المغني) .

(٢) تقدم مع اختلاف .

الطعام حتّى فرغ منه فتعجّبوا منه لما علموا من سخائه و زهده و ظنّوا أنّ الخير في طلب المساعدة في الطعام فقال : إنّي أعمل لقوم بأُجرة وقدّموا إليّ الرّغيفين لأتقوّي بهما على عملهم فلوأكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفت عن عملهم. فالبصير هكذا ينظر إلى البواطن بنورالله فإنّ ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدّعوة نقص في فضل ولاحكم للفضائل مع الفرائض،فهكذا ينبغي أن يتفقّد العبد نيّته في سائرالأعمال فلا يقدم ولايحجم إلّا بنيّة فإن لم تحضره النيّة توقّف فإنّ النيّة لاتدخل تحت الاختيار .

✿(بيان أنّ النيّة غير داخلة تحت الاختيار)✿

إعلم أنّ الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصيّة بتحسين النيّة و تكثيرها مع قوله عليه السلام :الأعمال بالنيّات فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أوأكله :نويت أن أدرس لله تعالى أوأتّجر أو آكل و يظنّ أنّ ذلك نيّة و هيهات فذلك حديث نفس أو حديث لسان أو فكرة و انتقال من خاطر إلى خاطر، والنيّة بمعزل عن جميع ذلك و إنّما النيّة انبعاث النفس وتوجّهها وميلها إلى ما ظهر لها أنّ فيه غرضها إمّا عاجلاً أو آجلاً والميل إذا لم يكن لايمكن اختراعه و اكتسابه بمجرّدالارادة بل ذلك كقول الشبعان : نويت أن اشتهى الطعام و أميل إليه أو قول الفارغ : نويت إن أعشق فلاناً و أحبّه وأعظمه بقلبي و ذلك محالٌ بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء و ميله إليه و توجّهه نحوه إلّا باكتساب أسبابه وذلك ممّاقديقدر عليه وقد لا يقدر عليه و إنّماينبعث النفس إلى الفعل إجابة للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها ومالم يعتقد الانسان أنّ غرضه منوط بفعل من الأفعال فلايتوجّه نحوه قصده وذلك ممّا لا يقدر على اعتقاده في كلّ حين ، و إذا اعتقد فإنّمايتوجّه القلب إذا كان فارغاً غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه و ذلك لايمكن في كلّ وقت و الدّواعي و الصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص و الأحوال و الأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح و لم يعتقد غرضاً صحيحاً في الولد ديناً ولادنيالم يمكنه إن يواقع على نيّة الولد بل لايمكن إلّا على نيّة قضاء الشهوة إذالنيّة

هي إجابة الباعث ولا باعث إلّا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يغلب على قلبه أنّ إقامة سنّة النكاح اتّباعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يعظم فضلها لم يمكنه أن ينوي اتّباع السنّة إلّا أن يقول ذلك بلسانه و قلبه و هو حديث محض وليس بنيّة، نعم طريق اكتساب هذه النيّة مثلاً أن يقوى أوّلاً إيمانه بالشرع و يقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفّرات عن الولد من ثقل المؤونة وطول التعب و غيره وإذا فعل ذلك، فربّما انبعثت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحرّكه تلك الرّغبة و تحرّك أعضاءه لمباشرة العقد و إذا انتهضت القدرة المحرّكة للّسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان ناوياً و إذا لم يكن كذلك فما يقدّره في نفسه ويردّده في قلبه من قصد الولد وسواس و هذيان ولهذا امتنعت جماعة من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النيّة وكانوا يقولون ليس يحضرني نيّة حتّى أنّ ابن سيرين لم يصلّ على جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نيّة.

أقول: ولعلّه إنّما لم يصلّ على جنازته لأنّه كان يعرفه بالنفاق فتعلّل.

قال أبوحامد: و كانوا إذا سئلوا عملاً من أعمال البرّ قالوا: إن رزقنا الله تعالى نيّة فعلنا. وقال بعضهم: أنا في طلب نيّة لعيادة رجل منذ شهر فما صحّت لي بعد. و قال عيسى بن كثير: مشيت مع ميمون بن مهران فلمّا انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه: ألّا تعرض عليه العشاء؟ فقال: ليس من نيّتي.

أقول: روى البرقي باسناده عن الصادق عليه السلام «أنّه أتاه مولى له فسلّم عليه و جلس فلمّا انصرف عليه السلام انصرف معه الرّجل فلمّا انتهى إلى باب داره دخل وترك الرّجل فقال له ابنه إسماعيل: يا أبه ألّا كنت عرضت عليه الدّخول؟ فقال: لم يكن من شأني إدخاله، قال: فهو لم يكن يدخل، قال: يا بنيّ إنّي أكره أن يكتبني الله عرّاضاً» (١).

قال أبوحامد: و هذا لأنّ النيّة يتبع النظر فإذا تغيّر النظر تغيّرت النيّة

---

(١) كتاب المحاسن ص ٤١٧ تحت رقم ١٨٠.

فكانوا لا يرون أن يعملوا عملاً إلّا بالنيّة لعلمهم بأنّ النيّة روح الأعمال و أنّ العمل بغير نيّة صادقة رياء و تكلّف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أنّ النيّة ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هي انبعاث القلب يجري مجرى الفتوح من الله تعالى قد يتيسّر في بعض الأوقات و قد يتعذّر نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدّين يتيسّر عليه في أكثر الأحوال إحضار النيّة للخيرات فإنّ قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالباً و من مال قلبه إلى الدّنيا و غلبت عليه لم يتيسّر ذلك بل لا يتيسّر في الفرائض إلّا بجهد جهيد و غايته أن يتذكّر النار و يحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنّة و يرغّب نفسه فيها فربّما تنبعث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيّته وأمّا الطاعة على نيّة إجلال الله عزّ وجلّ لاستحقاقه الطاعة و العبوديّة فلا يتيسّر للرّاغب في الدّنيا وهذه أعزّ النيّات و أعلاها ويعزّ من يفهمها فضلاً عمّن يتعاطاها ونيّات الناس في الطاعة أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنّه يتّقي النار، ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرّجاء و هو الرّغبة في الجنّة وهذا و إن كان نازلاً بالإضافة إلى قصد طاعة الله و تعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة النيّات الصحيحة لأنّه ميل إلى الموعود في الآخرة و إن كان من جنس المألوف في الدّنيا ، و أغلب البواعث باعث الفرج و البطن و موضع قضاء و طرهما الجنّة و العامل لأجل الجنّة عامل لبطنه و فرجه كالأجير السوء و درجته درجة البله و إنّه لينالها بعلمه إذ أكثر أهل الجنّة البله و أمّا عبادة ذوي الألباب فلا تجاوز ذكر الله تعالى و الفكر فيه حبّاً لجماله و جلاله و سائر الأعمال تكون مؤكّدات و روادف و هؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح و المطعوم في الجنّة فإنّهم لم يقصدوها بل هم «الّذين يدعون ربّهم بالغَداة و العَشيّ يريدون وجهه» فقط وثواب الناس بقدر نيّاتهم فلا جرم يتنعّمون بالنظر إلى وجهه الكريم ويسخرون ممّن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنعّم بالنظر إلى الحور العين ممّن يتنعّم بالنظر إلى وجه الصور المصنوعة من الطين بل أشدّ ، فإنّ التفاوت بين جمال الحضرة الرّبوبيّة وجمال الحور العين أشدّ وأعظم كثيراً من التفاوت

بين جمال الحور العين و الصور المصنوعة من الطين ، بل استعظام النفوس البهيميّة الشهوانيّة لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضها عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبتها و ألفها لها و إعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعمى أكثر القلوب عن إبصار جمال الله عزّ وجلّ وجلاله يضاهي عمي الخنفساء عن إدراك جمال النساء فإنّها لاتشعر به أصلاً ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لاستخفّ عقل من يلتفت إليهنّ و لايزالون مختلفين إلّا من رحم ربّك ، كلّ حزب بما لديهم فرحون ولذلك خلقهم و الغرض أنّ هذه النيّات متفاوتة الدّرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربّما لم يتيسّر له العدول إلى غيرها و معرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً و أفعالاً يستنكرها الظاهريّون من الفقهاء فإنّا نقول من حضرت له نيّة في مباح و لم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقّه نقيصة لأنّ الأعمال بالنيّات وذلك مثل العفو فإنّه أفضل من الانتصار في الظلم فإنّه ربّما تحضره نيّة في الانتصار دون العفو يكون ذلك أفضل و مثل أن يكون له نيّة في الشرب والأكل والنوم ليريح نفسه ويتقوّى على العبادة في المستقبل وليس تنبعث نيّته في الحالين للصوم و الصلاة فالأكل و النوم هو الأفضل له بل لو ملّ العبادة لمواظبته عليها وسكن نشاطه و ضعف رغبته و علم أنّه لو ترفّه ساعة بلهو وحديث عاد نشاطة ، فاللّهو و الحديث أفضل من الصلاة ، و قال أبو الدّرداء : إنّي لأستجمّ نفسي باللّهو فيكون ذلك عوناً لي على الحقّ . وقال عليّ عليه السلام : «روّحوا القلوب فإنّها إذا أكرهت عميت »(١) وهذه دقائق يدركها سماسرة العلماء دون الحشويّة منهم بل الحاذق بالطبّ قد يعالج المحرور باللّحم مع حرارته و يستبعده القاصر في الطبّ وإنّما يبتغي به أن يعيد أوّلاً قوّته ليحتمل المعالجة بالضدّ ، والحاذق في الشطرنج قد ينزل عن الرخ و الفرس مجّاناً ليتوصّل به إلى الغلبة و الضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجّب منه و كذلك الخبير بالقتال قد يرى من نفسه الهزيمة ويولّي الخصم دبره ليستجرّه إلى مضيق فيكرّ عليه فكذلك سلوك طريق الله عزّ وجلّ

---

(١) تقدم نحوه .

كلّه قتال مع الشيطان و معالجة للقلب ، و البصير الموفّق يقف فيها على لطائف من الحيل يستبعدها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكاراً على ما يراه من شيخه و لا للمتعلّم أن يعترض على اُستاده بل ينبغي أن يقف حدَّ بصيرته و ما لا يفهمه من أحوالهما يسلّمه لهما إلى أن ينكشف له أسرارهما بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما .

✡(الباب الثاني)✡

✡(في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته)✡

فضيلة الإخلاص قال الله تعالى : « و ما اُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدّين » [1] و قال : « ألا لله الدّين الخالص» [2] وقال : « إلّا الّذين تابوا و أصلحوا و اعتصموا بالله و أخلصوا دينهم لله » [3] و قال : « فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً و لا يشرك بعبادة ربّه أحداً » [4] نزلت فيمن يعمل لله و يحبُّ أن يحمد عليه .

وقال عليه السلام : « ثلاث لايغلّ عليهنّ قلبُ رجل مسلم : إخلاص العمل لله عزَّ-وجلّ » [5] وعن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ظنّ أبي أنَّ له فضلاً على من هو دونه من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال عليه السلام : « إنّما نصر الله هذه الاُمّة بضعفائها و دعوتهم و إخلاصهم و صلاتهم » [6] و عن النبيّ عليه السلام قال : « قال الله تعالى : الإخلاص سرٌّ من أسراري أستودعه قلب من أحببته من عبادي » [7] و قال عليٌّ بن

(١) البينة : ٤. (٢) الزمر : ٣ .

(٣) النساء : ١٤٥ . (٤) الكهف : ١١٠ .

(٥) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ١٢٥ من حديث عبدالله بن مسعود و رواه الصدوق فى الخصال باب الثلاثة عن الصادق عليه السلام .

(٦) أخرجه النسائى ج ٦ ص ٤٥ كتاب الجهاد باب الاستنصار بالضعيف .

(٧) قال العراقى : رويناه فى جزء من مسلسلات القزوينى يقول كل واحد من رواته سألت فلاناً عن الاخلاص فقال : وهو من رواية احمد بن عطاء الهجيمى عن عبدالواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرئيل عن الله تعالى .

أبي طالب عليه السلام: لا تهتمّوا لقلّة العمل اهتمّوا للقبول فإنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لمعاذ بن جبل أخلص العمل يجزك منه القليل »[1] و قال عليه السلام: « ما من عبد يخلص العمل لله تعالى أربعين يوماً إلّا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه »[2] و قال عليه السلام « أوّل من يسأل يوم القيامة ثلاث: رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى: ما ذا صنعت فيما علمت؟ فيقول: يا ربّ كنت أقوم به آناء اللّيل و النهار، فيقول الله عزّ وجلّ: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال: فلان عالمٌ، ألا فقد قيل ذلك، و رجل آتاه الله مالاً فيقول الله تعالى: قد أنعمت عليك فما ذا صنعت؟ فيقول: يا ربّ كنت أتصدّق به آناء اللّيل و النهار، فيقول الله عزّ و جلّ: كذبت، و تقول الملائكة: كذبت أردت أن يقال: فلان جواد، ألا فقد قيل ذلك، ورجل قتل في سبيل الله فيقول الله تعالى: ماذا صنعت؟ فيقول: أمرت بالجهاد فقاتلت في سبيلك حتّى قتلت، فيقول الله عزّ وجلّ: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت بل أردت أن يقال: فلان شجاع، ألا فقد قيل ذلك »[3].

و في الإسرائيليّات أنّ عابداً كان يعبد الله دهراً طويلاً فجاءه قومٌ فقالوا: إنّ ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك فأخذ فاسه على عاتقه و قصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: أين تريد رحمك الله قال: اُريد أن أقطع هذه الشجرة قال: و ما أنت وذاك تركت عبادتك و اشتغالك بنفسك و تفرّغت لغير ذلك، فقال: إنّ هذا من عبادتي قال: فإنّي لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد و طرحه على الأرض وقعد على صدره فقال له: إبليس أطلقني حتّى اُكلّمك فقام عنه فقال له: إبليس يا هذا إنّ الله عزّ وجلّ قد أسقط عنك هذا و لم يفرضه عليك و ما تعبدها أنت و ما عليك من غيرك و لله تعالى أنبياء

---

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الاخلاص والحاكم فى المستدرك بلفظ « أخلص نيتك » بسند صحيح من حديث معاذ كما فى الجامع الصغير.

(٢) أخرجه ابو نعيم فى الحلية بسند ضعيف وفيه « من أخلص لله ». وروى الكلينى نحوه عن أبى جعفر عليه السلام فى الكافى ج ٢ ص ١٦ ويأتى.

(٣) أخرجه الترمذى ج ٨ ص ٢٢٩ وقد تقدم.

في الأرض و لو شاء لبعثهم إلى أهلها و أمرهم بقطعها قال العابد : لابدّ لي من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد و صرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال : هل لك في أمر فصل بيني وبينك و هو خيرٌ لك وأنفع قال : وماهو ؟ قال : أطلقني حتّى أقول لك ، فأطلقه فقال له إبليس : أنت رجلٌ فقير لا شيء لك إنّما أنت كلٌّ على النّاس يعولونك و لعلّك تحبّ أن تتفضّل على إخوانك وتواصي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس ؟ قال : نعم ، قال : فارجع عن هذا الأمر ولك عليَّ أن أجعل عند رأسك في كلّ ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقتهما على نفسك و عيالك و تصدّقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك و للمسلمين من قطع هذه الشجرة الّتي تغرس مكانها و لايضرّهم قطعها شيئاً ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إيّاها فتفكّر العابد فيما قال ، وقال : صدق الشيخ لست بنبيّ فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها و ما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد إلى متعبّده فبات فلمّا أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك من الغد ثم أصبح اليوم الثالث و ما بعده فلم يجد شيئاً فغضب وأخذ فاسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة الشيخ فقال له : إلى أين ؟ فقال : أقطع تلك الشجرة فقال : كذبت و الله ما أنت بقادر على ذلك و لا سبيل لك إليها فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أوّل مرّة فقال : هيهات فأخذه إبليس و صرعه فا ذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره فقال : لتنتهينّ عن هذا الأمر أو لأقتلنّك فنظر العابد فا ذا لا طاقة له بد ، فقال : يا هذا غلبتني فخلّ عنّي و أخبرني كيف غلبتك أوّلاً وغلبتني الآن ، فقال : لأنّك غضبت لله تعالى أوّل مرّة وكانت نيّتك الآخرة فسخّرني الله لك وهذه الكرّة غضبت لنفسك وللدّنيا فصرعتك .

و هذه الحكاية تصديق قوله تعالى : « إلّا عبادك منهم المخلصين » (١) إذ لا تتخلّص العبد عن الشيطان إلّا بالاخلاص ولذلك كان المعروف الكرخي يضرب نفسه ويقول : يا نفس أخلصي تخلصي ، وقال يعقوب المكفوف : المخلص من يكتم حسناته

(١) الحجر : ٤٠ .

كما يكتم سيّئاته، وقال أبو سليمان: طوبى لمن صحّت له خطوة واحدة لا يريد بها إلّا الله عزّ وجلّ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له: أخلص النيّة في أعمالك يكفك القليل من العمل، وقال أبو أيّوب السختياني: تخليص النيّات على العمّال أشدّ عليهم من جميع الأعمال.

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد أقاويل الناس في فضيلة الاخلاص وقد طويناها وفي الكافي عن الصادق عليه السلام «في قول الله عزّ وجلّ: «ليبلو كم أيّكم أحسن عملاً» [٢] قال: ليس يعني أكثر كم عملاً ولكن أصوبكم عملاً و إنّما الاصابة خشية الله والنيّة الصادقة الحسنة، ثمّ قال: الابقاء على العمل حتّى تخلص أشدّ من العمل؛ والعمل الخالص: الّذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلّا الله عزّ وجلّ» [٣] وعن الباقر عليه السلام قال: «ما أخلص العبد الايمان بالله عزّ وجلّ أربعين يوماً إلّا زهّده الله في الدّنيا وبصّره داءها و دواءها فأثبت الحكمة في قلبه وأنطق بها لسانه» [٤].

(بيان حقيقة الخلوص)*

إعلم أنّ كلّ شيء يتصوّر أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمّي خالصاً وسمّي الفعل المصفّى المخلص إخلاصاً قال الله تعالى: «من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين» [٥] فإنّما خلوص اللّبن أن لا يكون فيه شوب من الدّم و الفرث ومن كلّ ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص يضادّه الاشراك فمن ليس مخلصاً فهو مشرك إلّا أنّ للشرك درجات والاخلاص في التوحيد يضادّه التشريك في الالهيّة، والشرك منه خفيّ ومنه جليّ وكذا الاخلاص فالاخلاص وضدّه يتواردان على القلب فمحلّهما القلب وإنّما يكون ذلك في القصود والنيّات وقد ذكرنا حقيقة النيّة وأنّها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحداً على التجرّد سمّي الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالاضافة إلى المنوي فمن تصدّق وغرضه محض الرّياء فهو مخلص وإن كان غرضه

(٢) الملك: ٢.
(٣) و(٤) المصدر ج٢ ص ١٦ تحت رقم ٤ و٦.
(٥) النحل: ٦٦.

محض التقرّب إلى الله تعالى فهومخلص ولكنّ العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرّب إلى الله تعالى عن جميع شوائبه كما أنّ الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصّصته العادة بالميل عن الحقّ و من كان باعثه مجرّد الرّياء فهو متعرّض للهلاك ولسنا نتكلّم فيه إذقد ذكرنا ما يتعلّق به في كتاب الرّياء من ربع المهلكات و أقلّ اُموره ما ورد في الخبر «إنّ المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسامي : يامرائي يامخادع يا مشرك يا كافر» (١) وإنّما نتكلّم الآن فيمن انبعث لقصد التقرّب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إمّا من الرّياء و إمّا من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرّب ، أويعتق عبداً ليتخلّص من مؤنته وسوء خلقه ، أم يحجّ ليصحّ مزاجه بحركة السفر ، أو ليتخلّص من شرّ يعرض له في بلده أو ليهرب عن عدوّ له في منزله أو يتبرّم بأهله وولده أو لشغل هو فيه و أراد أن يستريح عنه أيّاماً ، أو يغزو ليمارس الحرب ويتعلّم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرّها ، أو يصلّي باللّيل و له غرض في دفع النعاس عن نفسه به و ليراقب رحله و أهله أو يتعلّم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة ، أوليكون عقاره و أمواله محروسة بعزّ العلم عن الأطماع ، أو اشتغل بالدّرس و الوعظ ليتخلّص عن كرب الصمت ويتفرّج بلذّة الحديث أو تكفّل بخدمة العلماء ليكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقاً في الدّنيا أو كتب مصحفاً ليجوّد بالمواظبة على الكتابة خطّه أويحجّ ماشياً ليخفّف عن نفسه مؤونة الكراء ، أوتوضّأ ليتنظّف ويتبرّد أواغتسل ليتطيّب رائحته ، أوروى الحديث ليعرف بعلوّ الإسناد ، أواعتكف في المسجد ليخفّ عليه كراء المسكن أوصام ليخفّف عن نفسه التردّد في طبخ الطعام أو ليتفرّغ لاشغاله فلايشغله الأكل عنها أويتصدّق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أويعود مريضاً ليعاد إذا مرض و يشيّع جنازة ليشيّع جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير و يذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار ، فمهما كان باعثه هو التقرّب إلى الله عزّ و جلّ ولكن

(١) تقدم فى كتاب الرياء .

انضافت إليه خطرة من هذه الخطرات حتّى صار العمل عليه أخفّ بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حدّ الإخلاص وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى و تطرّق الشرك إليه و قد قال تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشركة ، و بالجملة كلّ حظّ من حظوظ الدّنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قلّ أم كثر إذا تطرّق العمل تكدّر به صفوه و زال به إخلاصه و الانسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلّما ينفكّ فعل من أفعاله و عبادة من عباداته عن حظوظ و أغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل : من سلمت له في عمره خطوة واحدة خالصة لوجه الله تعالى نجا و ذلك لعزّة الإخلاص و عسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الّذي لا باعث عليه إلّا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدّة الأمر على صاحبها وإنّما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرّب و انضافت هذه الأمور إليه ، ثمّ هذه الشوائب إمّا أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النيّة ، و بالجملة فامّا أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الدّيني أو أقوى منه أو أضعف ولكلّ واحد حكم آخر كما سنذكره و إنّما الإخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلّها قليلها و كثيرها حتّى يتجرّد فيه قصد التقرّب فلا يكون فيه باعث سواه و هذا لا يتصوّر إلّا من محبّ لله عزّ و جلّ مستهتر به ، مستغرق الهمّ بالآخرة بحيث لم يبق لحبّ الدّنيا في قلبه قرار حتّى لايحبّ الأكل و الشرب أيضاً بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنّه ضرورة الجبلّة فلا يشتهي الطعام لأنّه طعام بل لأنّه يقوّيه على عبادة الله ويتمنّى أن لو كفى شرّ الجوع حتّى لايحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظّ من الفضول الزائدة على الضرورة و يكون قدر الضرورة مطلوباً عنده لأنّه ضرورة دينه فلا يكون له همّ إلّا لدينه ، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح النيّة في جميع حركاته و سكناته ، فلو نام مثلاً ليريح نفسه ليتقوّى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكانت له درجة المخلصين فيه ، و من ليس كذلك فباب الإخلاص في العمل كالمسدود عليه إلّا على

الندور و كما أنّ من غلب عليه حبّ الله عزّ وجلّ وحبّ الآخرة اكتسبت حركاته الاعتياديّة صفة همّه وصارت إخلاصاً فالّذي يغلب على نفسه حبّ الدّنيا و العلوّ و الرّئاسة و بالجملة حبّ غير الله اكتسب جميع حركاته الاعتياديّة تلك الصفة فلم تسلم له عباداته من صومه وصلاته وغير ذلك إلّا نادراً ، فعلاج الإخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدّنيا و التجرّد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فإذ ذاك يتيسّر الإخلاص ، و كم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظنّ أنّها خالصة لوجه الله تعالى و يكون فيها مغروراً لأنّه لا يدري وجه الآفة فيه كما حكي عن بعضهم أنّه قال : قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صلّيتها في المسجد جماعة في الصفّ الأوّل لأنّي تأخّرت يوماً لعذر وصلّيت في الصفّ الثاني فاعترتني خجلة من الناس حيث رأوني في الصف الثاني فعرفت أنّ نظر الناس إليّ في الصف الأوّل كان يسرّني و كان سبب استراحة قلبي من ذلك من حيث لا أشعر ، وهذا دقيق غامض وقلّما تسلم الأعمال من أمثاله ، و قلّ من يتنبّه له ، و الغافلون عنه يرون حسناتهم كلّها في الآخرة سيّئات وهم المرادون بقوله تعالى : «وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون»(١) «وبدا لهم سيّئات ما عملوا»(٢) و«قل هل ننبّئكم بالأخسرين أعمالاً * الّذين ضلّ سعيهم في الحيوة الدّنيا و هم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً»(٣) وأشدّ الخلق تعرّضاً لهذه الفتنة العلماء فإنّ الباعث للأكثرين على نشر العلم لذّة الاستيلاء و الفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والثناء والشيطان يلبّس عليهم ذلك و يقول : غرضكم نشر دين الله والنضال عن شرع رسول الله ، وترى الواعظ يمنّ على الله بنصيحته للخلق و وعظه للسلاطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه و هو يزعم أنّه يفرح بما تيسّر له من نصرة الدّين ، و لو ظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظاً و انصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمّه ولو كان باعثه الدّين لشكر الله عزّ وجلّ إذ كفاه هذا المهمّ بغيره ، ثمّ الشّيطان مع ذلك لا يخلّيه و يقول إنّما غمّك لانقطاع

(١) الزمر:٤٨. (٢) الجاثية :٣٢.
(٣) الكهف : ١٠٤ و١٠٥.

الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس منك إذ لو اتّعظوا بقولك لكنت أنت المثاب و اغتمامك لفوات الثواب محمودٌ، ولا يدري المسكين أنّ انقياده للحقّ وتسليمه الأمر للأفضل أجزل ثواباً وأعود عليه في الآخرة من انفراده. وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدّث نفسه بأنّه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به ولاختاره بذلك على نفسه وذلك قبل التجربة و الامتحان محض الجهل والغرور، فانّ النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر بها، ثمّ إذا دهاها الأمر تغيّرت و رجعت ولم تف بالوعد، و ذلك لا يعرفه إلّا من عرف مكائد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحانها فمعرفة حقيقة الاخلاص و العمل بها بحرٌ عميق يغرق فيه الجميع إلّا الشاذّ النادر و الفرد الفذّ وهو المستثنى في قوله تعالى: « إلّا عبادك منهم المخلصين»(١) فليكن العبد شديد التفقّد و المراقبة لهذه الدّقائق وإلّا التحق بأتباع الشيطان وهو لا يشعر به.

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد أقاويل الشيوخ في الاخلاص ونقل عن بعضهم أنّ الاخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدّارين قال: و هذه إشارة إلى أنّ حظوظ النفس آفة آجلاً و عاجلاً و العابد لأجل تنعّم النفس بالشهوات في الجنّة معلول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلّا وجه الله و هو إشارة إلى إخلاص الصدّيقين و هو الاخلاص المطلق، فأمّا من يعمل لرجاء الجنّة أو خوف النّار فهو مخلص بالاضافة إلى الحظوظ العاجلة و إلّا فهو في طلب حظّ البطن و الفرج وإنّما المطلوب الحقّ لذوي الألباب وجه الله فقط وقول القائل لا يتحرّك الانسان إلّا لحظّ و البراءة من الحظوظ صفة الالهيّة و من ادّعاها فهو كافرٌ حقّاً، ولكنّ القوم إنّما أرادوا بها البراءة عمّا يسمّيه الناس حظوظاً وهي الشهوات الموصوفة في الجنّة فقط فأمّا التلذّذ بمجرّد المعرفة و المناجاة والنظر إلى وجه الله عزّ وجلّ فهذا حظّ هؤلاء و هذا لا يعدّه الناس حظّاً بل يتعجّبون منه وهؤلاء لو عوّضوا عمّا هم فيه من لذّة الطاعة و المناجاة و ملازمة الشهود للحضرة الالهيّة سرّاً و جهراً جميع نعيم الجنّة

---

(١) ص: ٨٣.

لاستحقروها و لم يلتفتوا إليها فحركتهم لحظّ و طاعتهم لحظّ و لكن حظّهم معبودهم فقطّ دون غيره ، ثمّ قال : والأقاويل في هذا كثيرة ولافائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة و إنّما البيان الشافي بيان سيّد الأوّلين والآخرين عليه السلام إذ سئل عن الإخلاص فقال : «هو أن تقول ربّي الله ثمّ تستقيم كما أُمرت»(١) أي لاتعبد هواك ونفسك ولاتعبد إلّا ربّك وتستقيم في عبادته كما أمرك . وهذه إشارة إلى قطع كلّ ما سوى الله عزّ وجلّ عن مجرى النظر وهو الإخلاص حقّاً .

(بيان درجات الشوائب والآفات المكدّرة للاخلاص)

إعلم أنّ الآفات المشوّشة للإخلاص بعضها جليّ وبعضها خفيّ وبعضها ضعيف مع الجلاء و بعضها قويّ مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء و الجلاء إلّا بمثال و أظهر مشوّشات الإخلاص الرّياء فلنذكر منه مثالاً فنقول : الشيطان يدخل الآفة على المصلّي مهما كان مخلصاً في صلاته حيث نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له : حسّن صوتك حتّى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يغتابك فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرّياء الظاهر ولايخفى ذلك على المبتدين من المريدين .

الدّرجة الثانية أن يكون المريد قد فهم هذه الآفة فأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيه ولا يلتفت إليه ويستمرّ في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير و يقول : أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسّى بك غيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت و عليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فعساه يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة وهذا أغمض من الأوّل وقد ينخدع به من لاينخدع بالأوّل و هو أيضاً عين الرّياء ومبطل للاخلاص فإنّه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لايرتضي لغيره تركه فلم لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى السنن تحت رقم ٣٩٧٢ . أن سفيان بن عبدالله الثقفى قال : قلت : يا رسول الله حدثنى بامر أعتصم به قال : قل : « ربى الله ثم استقم » . وروى نحوه مسلم فى الصحيح .

ولايمكن أن تكون نفس غيره أعزّ عليه من نفسه فهذا محض التلبيس بل المقتدى به هو الّذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأمّا هذا فمحض النفاق والتلبيس فمن اقتدى به اُثيب عليه و أمّا هو فيطالب بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ممّا ليس متّصفاً به .

الدّرجة الثالثة و هي أدقّ ممّا قبلها أن يجرّب العبد نفسه في ذلك ويتنبّه لكيد الشيطان و يعلم أنّ مخالفته بين الخلوة و المشاهدة للغير محض الرّياء و يعلم أنّ الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ ويستحيي من نفسه ومن ربّه أن يتخشّع لمشاهدة خلقه تخشعاً زائداً على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الّذي يرتضيه في الملأ ويصلّي في الملأ أيضاً كذلك ، فهذا أيضاً من الرّياء الغامض لأنّه حسّن صلاته في الخلوة ليحسّن في الملأ فلايكون قد فرق بينهما فالتفاته في الخلوة والملأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته و مشاهدة الخلق على وطيرة واحدة فكأنّ نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثمّ يستحيي من نفسه أن يكون في صورة المرائين ويظنّ أنّ ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلوة و الملأ وهيهات بل زوال ذلك بأن لايلتفت إلى الخلق كما لايلتفت إلى الجمادات في الخلأ والملأ جميعاً وهذا الشخص مشغول الهمّ بالخلق في الملأ و الخلأ جميعاً ، وهذا من المكائد الخفيّة للشيطان .

الدّرجة الرّابعة وهي أدقّ وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له : اخشع لأجلهم فإنّه قد عرف أنّه تفطّن لذلك فيقول له الشيطان : تفكّر في عظمة الله وجلاله و من أنت واقف بين يديه واستحي من أن ينظر الله عزّ وجلّ إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخشع جوارحه ويظنّ أنّ ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع فإنّ خشوعه لو كان لنظره إلى جلاله لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة وكان لايختصّ حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر ممّا يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ ولايكون حضور الغير هو السبب في حضور هذا الخاطر كما لايكون حضور بهيمة سبباً فمادام

يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن صفو الإخلاص مدنّس الباطن بالشرك الخفيّ من الرّياء و هذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في اللّيلة الظلماء على الصخرة الصمّاء كما ورد به الخبر[١] ولا يسلم من الشيطان إلّا من دقّ نظره وسعد بعصمة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلّا فالشيطان ملازم للمتشمّرين لعبادة الله عزّ وجلّ لا يغفل عنهم لحظة حتّى يحملهم على الرّياء في كلّ حركة من الحركات حتّى في كحل العين وقصّ الشارب وطيب يوم الجمعة و لبس الثياب فإنّ هذه سنن في أوقات مخصوصة وللنفس فيها حظّ خفيّ لارتباط نظر الخلق بها ولاستيناس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنّة لا ينبغي أن تتركها ويكون انبعاث القلب باطناً لها لأجل تلك الشهوات الخفيّة أو مشوبة بها شوباً يخرج عن حدّ الإخلاص بسببه و ما لا يسلم عن هذه الآفات كلّها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجد معمور نظيف حسن العمارة يأنس إليه الطبع به فالشيطان يرغّبه فيه ويكثر عليه من ثواب الاعتكاف و قد يكون المحرّك الخفي في سرّه هو الاُنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبيّن ذلك في ميله إلى أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخر و كلّ ذلك امتزاج بشوائب الطبع و كدورات النفس فيبطل حقيقة الإخلاص، لعمري الغشّ الّذي يمزج بخالص الذّهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقلّ ولكن يسهل إدراكه ومنها ما يدقّ بحيث لا يدركه إلّا الناقد البصير وغشّ القلب و دغل الشيطان وخبث النفس أغمض من ذلك و أدقّ كثيراً و لهذا قيل : ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل و اُريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتّى يخلص عنها فإنّ الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة و اغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدّينار المموّه و استدارته و هو زائف في نفسه و قيراط من خالص الذّهب الّذي يرتضيه الناقد خير من الدّينار الّذي يرتضيه الغرّ الغبي فهكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشدّ وأعظم و مداخل الآفات المتطرّقة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها و إحصاؤها فما

(١) تقدم غير مرة فى العلم و غيره .

ذكرناه مثال والفطن يغنيه القليل عن الكثير والبليد لايغنيه التطويل أيضاً فلافائدة في التفصيل.

✿(بيان حكم العمل المشوب و استحقاق الثواب به)✿

إعلم أنّ العمل إذالم يكن خالصاً لوجه الله عزّ وجلّ بل امتزج به شوب من الرّياء أوحظوظ النفس فقداختلف الناس في أنّ ذلك هل يقتضي ثواباً أم يقتضي عقاباً أم لايقتضي شيئاً أصلاً فلايكون له ولاعليه، أمّا الّذي لم يردبه إلّا الرّياء فهوعليه قطعاً وهو سبب المقت و العقاب، و أمّا الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب و إنّما النظر في المشوب وظاهر الأخبار يدلّ على أنّه لاثواب له و ليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه و الّذي ينقدح لنا فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوّة الباعث فإن كان الباعث الدّيني مساوياً للباعث النفسي تقاوما و تساقطا و صار العمل لا له و لا عليه و إن كان باعث الرّياء أقوى وأغلب فليس بنافع بل هو مع ذلك مضرّ ومفض للعقاب نعم العقاب الّذي فيه أخفّ من عقاب العمل الّذي تجرّد للرّياء ولم يمتزج به شائبة التقرّب وإن كان قصد التقرّب أغلب بالاضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوّة الباعث الدّيني وهذا لقوله تعالى: «فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ✿ و من يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره»[1] و لقوله: «إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة»[2] فلاينبغي أن يضيّع قصد الخير بل إن كان قصد التقرّب غالباً على قصد الرّياء حبط منه القدر الّذي يساويه و بقيت زيادة، و إن كان مغلوباً سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد و كشف الغطاء عن هذا أنّ الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكيد صفاتها فداعية الرّياء من المهلكات وإنّما غذاء هذا المهلك و قوّته بالعمل على وفقه و داعية الخير من المنجيات وإنّما قوّتها بالعمل على وفقها فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادّتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرّياء فقد قويت تلك الصفة وإن عمل على وفق داعية الخير قويت أيضاً تلك الصفة وأحدهما مهلك و الآخر منج فإن

---

(١) الزلزال: ٧و٨. (٢) النساء: ٣٩.

كان تقويته لهذا بقدر تقويته للآخر فقد تقاوما وكان كالمستضرّ بالحرارة إذا تناول ما يضرّه ثمّ تناول من المبرّدات مايقاوم قدر قوّته فيكون بعد تناولهما كأنّه لم يتناولهما و إن كان أحدهما غالباً لم يخل الغالب عن أثر فكما لايضيع مثقال ذرّة من الطعام و الشراب والأدوية ولاينفكّ عن أثر في الجسد بحكم سنّة الله عزّ وجلّ فكذلك لايضيع مثقال ذرّة من الخير والشرّ ولاينفكّ عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله تعالى أو إبعاده فإذا جاء بما يقربه شبراً مع ما يبعده شبراً فقد عاد إلى ماكان لا له ولا عليه فإن كان الفعل ممّا يقربه شبرين والآخر يبعده شبراً واحداً فضل له لامحالة شبر و قد قال عليه السلام : « أتبع السيّئة الحسنة تمحها » (١) فإذا كان الرّياء المحض يمحوه الإخلاص المحض عقيبه فإذا اجتمعا جميعاً فلابدّ وأن يتدافعا بالضرورة و يشهد لهذا إجماع الاُمّة على أنّ من خرج حاجّاً و معه تجارة صحّ حجّه و اُثيب عليه و قد امتزج به حظّ من حظوظ النفس ، نعم يمكن أن يقال إنّما يثاب على أعمال الحجّ عند انتهائه إلى مكّة و تجارته غير موقوفة عليه فهو خالص و إنّما المشترك طول المسافة و لاثواب فيه مهما قصد التجارة ولكنّ الصواب أن يقال مهما كان الحجّ هو المحرّك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلاينفكّ نفس السفر عن ثواب .

أقول : بل الصواب أن يقال : أنّ التجارة تعرّض للرّزق وهو أيضاً عبادة و ليس من حظوظ النفس وقد سبق أنّ نيّة الخيرات المتعدّدة موجبة لتضاعف الثواب .

قال أبو حامد : و ما أظنّ أنّ الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفّار في جهة يكثر فيها الغنائم وبين جهة لاغنيمة فيها ، ويبعد أن يقال : إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلّيّة ثواب جهادهم بل العدل أن يقال : إذا كان الباعث الأصليّ والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله وإنّما الرّغبة في الغنيمة على سبيل التبعيّة فلايحبط به الثواب نعم لايساوي ثوابه ثواب من لايلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلاً فإنّ هذا الالتفات نقصان لامحالة، فإن قلت : فالآيات والأخبار تدلّ على أنّ شوب الرّياء محبط للثواب وفي

(١) قد تقدم غير مرة فى رياضة النفس وفى التوبة .

معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاؤوس وغيره من التابعين أنّ رجلاً سأل النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عمّن يصطنع المعروف أو قال: يتصدّق فيحبّ أن يحمد ويوجر فلم يدرما يقول له حتّى نزل قوله تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً ولايشرك بعبادة ربّه أحداً» (١) و قد قصد الأجر و الحمد جميعاً وروي أنّ أعرابيّاً أتاه فقال له: يا رسول الله الرّجل يقاتل حمية و الرّجل يقاتل شجاعة و الرّجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال عليه السلام: «من قاتل ليكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٢) و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدّنيا فهو له» (٣).

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه قال لعبّاد ابن كثير البصريّ في المسجد: «ويلك يا عبّاد إيّاك و الرّياء فإنّه من عمل لغير الله و كله الله إلى من عمل له» (٤).

و عنه عليه السلام قال: «كلّ رياء شرك، إنّه من عمل للناس كان ثوابه على الناس و من عمل لله كان ثوابه على الله» (٥).

وعنه عليه السلام في قوله تعالى: «فمن كان يرجو لقاء ربّه - الآية -» قال: «الرّجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنّما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمّع به الناس فهذا الّذي أشرك بعبادة ربّه، ثمّ قال: ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يظهر الله له خيراً، و مامن عبد يسرّ شرّاً فذهبت الأيّام أبداً حتّى يظهر الله له شرّاً» (٦).

و عنه عليه السلام قال: قال الله تعالى: «أنا خير شريك من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلّا ما كان لي خالصاً» (٧).

---

(١) الكهف: ١١١.
(٢) أخرجه النسائى ج ٦ ص ٢٣ بأدنى اختلاف من حديث ابى موسى الاشعرى.
(٣) تقدم فى الرياء.
(٤) و(٥) و(٦) المصدر ج ٢ ص ٢٩٣ تحت رقم ١ و ٣ و ٢.
(٧) المصدر ج ٢ ص ٢٩٥ تحت رقم ٩.

قال أبو حامد : فنقول : هذه الأحاديث لاتناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد به إلّا الدّنيا كقوله : « من هاجر يبتغي شيئاً من الدّنيا فهوله » أوكان ذلك أغلب على نيّته وقد ذكرنا أنّ ذلك عصيان وعدوان لا لأنّ طلب الدّنيا حرامٌ ولكن طلبها بأعمال الدّين حرامٌ لما فيه من الرّياء وتغيير العبادة عن وضعها ، وأمّا لفظ الشركة حيث ورد فمطلقه للتساوي وقد بيّنّا أنّه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولاعليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ، ثمّ الانسان عند الشركة أبداً في خطر فانّه لا يدري أي الأمرين أغلب على قصده فربّما يكون عليه وبالاً ولذلك قال الله تعالى : «فمن كان يرجو لقاء ربّه فليعمل عملاً صالحاً» أي لا يرجى اللّقاء مع الشركة الّتي أحسن أحوالها التساقط ، ويجوز أن يقال : أيضاً منصب الشهادة أيضاً لا ينال إلّا بالاخلاص في الغزو ، وبعيد أن يقال : من كانت داعيته الدّينيّة بحيث تزعجه إلى مجرّد الغزو وإن لم تكن غنيمة وقدر على غزو طائفتين من الكفّار إحديهما أغنياء والاُخرى فقراء فمال إلى جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله تعالى والغنيمة أنّه لا ثواب له على غزوه البتّة ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فانّ هذا حرج في الدّين ومدخل لليأس على المسلمين لأنّ أمثال هذه الشوائب التابعة قطّ لاينفكّ الانسان عنها إلّا على الندور فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب فأمّا أن يكون في إحباطه فلا ، نعم الانسان فيه على خطر عظيم لأنّه ربّما يظنّ أنّ الباعث الأقوى هو قصد التقرّب إلى الله ويكون الأغلب على سرّه الحظّ النفسي وذلك ممّا يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الأجر إلّا بالاخلاص والاخلاص قلّما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط ، فلذلك ينبغي أن يكون أبداً بعد كمال الاجتهاد متردّداً بين الردّ والقبول خائفاً أن تكون في عباداته آفة يكون وبالها أكثر من ثوابها فلايقاومها وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر ، وهكذا ينبغي أن يكون كلّ ذي بصيرة ، ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرّياء فانّ ذلك منتهى بغية الشيطان منه إذ المقصود أن يفوت الاخلاص ، ومهما ترك العمل فقد ضيّع العمل والاخلاص جميعاً ، وقد قيل : ترك العمل بسبب الخلق رئاء ، وفعله

لأجل الخلق شرك .

أقول: روى في الكافي باسناده الحسن عن أبي جعفر عليه السلام « أنّه سئل عن الرّجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسرّه ذلك فقال : لا بأس ما من أحد إلّا و هو يحبّ أن يظهر الله له في الناس الخير إذا لم يكن صنع ذلك لذلك » (١).

(الباب الثالث)

(في الصّدق وفضيلته وحقيقته)

فضيلة الصدق قال الله تعالى : «رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» (٢) وقال : النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ الصدق يهدي إلى البرّ والبرّ يهدي إلى الجنّة ، و إنّ الرّجل ليصدق حتّى يكتب عند الله صدّيقاً ، و إنّ الكذب يهدي إلى الفجور و الفجور يهدي إلى النّار ، و إنّ الرّجل ليكذب حتّى يكتب عند الله كذّاباً » (٣) و يكفي في فضيلة الصدق أنّ الصدّيق مشتقّ منه و الله تعالى قد وصف به الأنبياء في معرض المدح والثناء فقال : « و اذكر في الكتاب إبراهيم إنّه كان صدّيقاً نبيّاً» (٤) وقال : « و اذكر في الكتاب إدريس إنّه كان صدّيقاً نبيّاً » (٥).

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد أقوال الناس في فضيلة الصدق و روى عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه سئل عن الكمال فقال : «قول الحقّ و العمل بالصدق » (٦).

و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الباقر عليه السلام قال : « إنّ الرّجل ليصدق حتّى يكتبه الله صدّيقاً » (٧).

و عن الصادق عليه السلام قال : « كونوا دعاة للناس بالخير بغير ألسنتكم ليروا منكم الاجتهاد والصدق والورع » (٨).

و عنه عليه السلام : « من صدق لسانه زكى عمله ، ومن حسنت نيّته زيد في رزقه ،

---

(١) المصدر ج٢ ص ٢٩٧ تحت رقم ١٨ .

(٢) الاحزاب : ٢٣. (٣) متفق عليه وقدتقدم .

(٤) مريم : ٤٢ . (٥) مريم : ٥٧.

(٦) قال العراقي : لم أجده بهذا اللفظ .

(٧) و (٨) المصدر ج ٢ ص ١٠٥ تحت رقم ٨ و ١٠ .

ومن حسن برّه بأهل بيته مدّ له في عمره »(١).

و عنه عليه السلام « لا تنظروا إلى طول ركوع الرّجل و سجوده فانّ ذلك شيء اعتاده ولو تركه استوحش لذلك ، ولكن انظروا إلى صدق حديثه و أداء أمانته»(٢)

وعنه عليه السلام قال لبعض أصحابه : «انظر ما بلغ به علي عليه السلام عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالزمه فانّ علياً عليه السلام إنّما بلغ ما بلغ به عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصدق الحديث و أداء الأمانة » (٣).

✿(بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه)✿

إعلم أنّ لفظ الصدق يستعمل في ستّة معان صدق في القول وصدق في النيّة و الإرادة وصدق في العزم وصدق في الوفاء بالعزم و صدق في العمل و صدق في تحقيق مقامات الدّين كلّها ، فمن اتّصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدّيق لأنّه مبالغة من الصدق ، ثمّ هم أيضاً على درجات و من كان له حظّ من الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه .

الصدق الأوّل صدق اللّسان و ذلك لا يكون إلّا في الإخبار أو فيما يتضمّن الإخبار وينبّه عليه والخبر إمّا أن يتعلّق بالماضي أو بالمستقبل وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحقّ على كلّ عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلّم إلّا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها ، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ، ولكن لهذا الصدق كمالان أحدهما الاحتراز عن المعاريض وقد قيل : في المعاريض لمندوحة عن الكذب وذلك لأنّها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلّا أن ذلك ممّا تمسّ إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان و من يجري مجراهم و في الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء و الاحتراز عن اطّلاعهم على أسرار الملك فمن اضطرّ إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله بما يأمره الحقّ به ويقتضيه

---

(١) و (٢) الكافي ج ٢ ص ١٥٠ تحت رقم ١١ و١٢.

(٣) المصدر ج٢ ص١٠٤ تحت رقم ٥ .

الدّين فإذا نطق به فهو صادق و إن كان كلامه مفهماً غير ماهو عليه لأنّ الصدق ما اُريد به لذاته بل للدّلالة على الحقّ و الدّعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه ، نعم في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد إليه سبيلاً «كان النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا توجّه إلى سفر ورّى بغيره»[١] و ذلك لئلّا ينتهي الخبر إلى الأعداء فيقصد ، و ليس هذا من الكذب في شيء وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : «ليس بكذّاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً»[٢] و رخّص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع «من أصلح بين اثنين ومن كانت له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب»[٣] والصدق ههنا يتحوّل إلى النيّة فلا يراعى فيه إلّا صدق النيّة وإرادة الخير فمهما صحّ قصده وصدقت نيّته و تجرّدت للخير إرادته كان صادقاً وصدّيقاً كيف ماكان لفظه ثمّ التعريض فيه أولى و طريقه ما حكي عن بعضهم أنّه كان يطلبه بعض الظلمة و هو في داره فقال: لزوجته خطّي باصبعك دائرة وضعي الاصبع عليها وقولي : ليس هو ههنا ٠ واحترز بذلك عن الكذب و دفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقاً وأفهم الظالم أنّه ليس في الدار فالكمال الأوّل في اللّفظ أن يحترز عن صريح اللّفظ و عن المعاريض أيضاً إلّا عند الضرورة ، والكمال الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه الّتي يناجي بها ربّه كقوله «وجّهت وجهي للّذي فطر السماوات والأرض» فإنّ قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى مشغولاً بأماني الدّنيا وشهواتها فهو كاذب و كقوله «إيّاك نعبد» وقوله : أنا عبد الله فإنّه إذا لم يتّصف بحقيقة العبوديّة وكان له مطلب سوى الله عزّ وجلّ لم يكن كلامه صدقاً ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله «أنا عبد الله» لعجز عن تحقيقه فإنّه إن كان عبداً لنفسه أو عبداً لدنيا أو عبداً لشهواته لم يكن صادقاً في قوله و كلّ ما تقيّد به العبد فهو عبدٌ له كما قال عيسى عليه السلام : يا عبيد الدّنيا ، و قال نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم : « تعس عبد الدّينار تعس عبد الدّرهم و عبد الحلّة و عبد الخميصة »[٤] وسمّي كلّ من تقيّد

(١) فى النهاية أى ستره وأخرجه البخارى و مسلم من حديث كعب بن مالك .
(٢) أخرجه البخارى ج ٣ ص ٢٢٧ و مسلم ج ٨ ص ٢٨ من حديث ام كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط.
(٣) روى مسلم ج ٨ ص ٢٨ والكلينى نحوه عن الصادق عليه السلام فى الكافى ج ٢ ص ٣٤٢.
(٤) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

قلبه بشيء عبداً له ، و إنّما العبدالحقّ لله تعالى من اعتق أوّلاً من غير الله تعالى فصار حرّاً مطلقاً فا ذا تقدّمت هذه الحرّيّة صارالقلب فارغاً فحلّت فيه العبوديّةلله فتشغله بالله و بمحبّته و تقيّد باطنه و ظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلّا الله تعالى ثمّ قد يجاوز هذاإلى مقام أسنى منه يسمّى الحرّيّة و هوأن يعتق أيضاًعن إرادته لله من حيث هو هو بل يقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد فتفنى إرادته في إرادة الله عزّوجلّ وهذا عبد عتق عن غيرالله تعالىفصار حرّاً ثمّ عاد وعتق عن نفسه فصار حرّاً و صار مفقوداً لنفسه و موجوداً لسيّده ومولاه ، إن حرّكه تحرّك وإن سكّنه سكن وإن ابتلاه رضي لم يبق فيه متّسع لطلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميّت بين يدي الغاسل وهذا منتهى الصّدق في العبوديّة فالعبد الحقّ هوالّذي وجوده لمولاه لالنفسه و هذه درجة الصّدّيقين ، و أمّا الحرّيّة عن غيرالله فـدرجات الصّادقين وبعد هذا يتحقّق العبوديّة لله وما قبل هذا فلا يستحقّ صاحبهأن يسمّى صادقاً ولا صدّيقاً ، فهذا هو معنى الصدق في القول .

الصّدق الثاني في النيّة والا رادة ويرجع ذلك إلىالا خلاص وهو أنلايكون له باعث في الحركات والسكنات إلّا الله عزّوجلّ فا ن مازجه شوب منحظوظالنفس بطل صدق النيّة و صاحبه يجوز أن يسمّى كاذباً كما روينا في فضيلة الا خلاص من حديث الثلاثة حين يُسألالعالم «ماذا عملت في ماعلمت فقال : فعلت كذا و كذافقال الله عزّوجلّ : كذبت أردتأن يقال : فلانعالمٌ» فا نّه لميكذّبه ولم يقل له:لمتعمل ولكن كذّبه في إرادته و نيّته ، و قال بعضهم : الصّدق صحّة التوحيد في القصد و لذلك قال الله تعالى : « والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون » (١) و قد قالوا : « إنّك لرسول الله »(٢) وهذاصدق ولكن كذّبهم لا منحيث نطق اللّسان بل من حيثضمير القلب وكان التكذيب يتطرّق إلى الخبر وهذا القول يتضمّن اخباراً بقرينة الحال إذ صاحبه يظهر من نفسه أنّه يعتقد ما يقوله فكذب في دلالته بقرينة الحال على ما في قلبه فا نّه كذب في ذلك و إن لم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحدهما في الصدق

(١) و(٢) المنافقون : ٢ .

إلى خلوص النيّة و هو الإخلاص و كلّ صادق فلابدّ وأن يكون مخلصاً .

الصدق الثالث صدق العزم فإنّ الإنسان قديقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه : إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه أو بشطره ، و إذا لقيت عدوّاً في سبيل الله قاتلته و لم اُبال و إن قتلت ، و إن أعطاني الله ولاية عدلت فيها ولم أعص الله بظلم و ميل إلى خلق ، فهذه العزيمة قد يصادفها في نفسه و هي عزيمة جازمة صادقة و قد يكون في عزمه نوع ميل و تردّد و ضعف يضادّ الصّدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال : لفلان شهوة صادقة و يقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قويّ أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى فالصادق والصدّيق هو الّذي تصادف عزيمته في الخيرات كلّها قويّة تامّة ليس فيها ميل و لا ضعف و لا تردّد بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمّم الجازم على الخيرات .

الصدق الرابع في الوفاء بالعزم فإنّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقّة في الوعد والعزم والمؤونة فيه خفيفة فإذا حقّت الحقائق و حصل التمكّن و هاجت الشهوات انحلّت العزيمة وغلبت الشهوة ولم يتّفق الوفاء بالعزم و هذا يضادّ الصدق فيه ولذلك قال تعالى : « رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه » [(١)].

الصّدق الخامس في الأعمال وهو أن يجتهد حتّى لا تدلّ أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتّصف هو به لا بأن يترك الأعمال و لكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر ، و هذا يخالف ما ذكرناه من ترك الرّياء لأنّ المرائي هو الّذي يقصد ذلك لأجل الخلق ، و ربّ واقف على هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره و لكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله عزّ وجلّ و هو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب و هو مطالب بالصدق في الأعمال و كذلك قد يمشي الرّجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك فهذا

(١) الاحزاب : ٢٣ .

غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إيّاهم ولا ينجو من هذا إلّا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره فإذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سمّيت رياء ويفوت بها الإخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق ولذلك قال عليه السلام : «اللّهمّ اجعل سريرتي خيراً من علانيتي و اجعل علانيتي صالحة» (١) و قيل : إذا استوت سريرة العبد و علانيته فذلك النصف ، و إن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، و إن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور ، فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصّدق .

أقول: وذلك كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « إنّي والله ما أحثّكم على طاعة إلّا وأسبقكم إليها ولا أنهاكم عن معصية إلّا وأتناهى قبلكم عنها» (٢).

الصدق السادس - و هو أعلى الدّرجات و أعزّها - الصدق في مقامات الدّين كالصدق في الخوف والرّجاء والتعظيم والزّهد والرّضا والحبّ والتوكّل وسائر هذه الاُمور فإنّ هذه الاُمور لها مبادي ينطلق الاسم بظهورها ثمّ لها غايات وحقائق والصادق المحقّق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء و تمّت حقيقته يسمّى صاحبها صادقاً كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، و هذه هي الشهوة الصادقة ، وقال تعالى : «إنّما المؤمنون الّذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا - إلى قوله - اُولئك هم الصادقون »(٣) و قال تعالى : « ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر - ثمّ قال : - و الصابرين في البأساء و الضرّاء - إلى قوله - اُولئك الّذين صدقوا » (٤).

وسئل أبوذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له : سألناك عن الإيمان فقال : سألت رسول الله عن الإيمان فقرأ هذه الآية »(٥) و لنضرب للخوف مثلاً فما من عبد

---

(١) قال العراقي : لم أجده . (٢) النهج قسم الخطب تحت رقم ١٧٣ .
(٣) الحجرات : ١٥ . (٤) البقرة : ١٧٧ .
(٥) أخرجه اسحاق بن راهويه في مسنده ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه عن القاسم ابن عبدالرحمن كما في الدر المنثور ج ١ ص ١٦٩ .

يؤمن بالله إلاّ وهو خائف من الله خوفاً ينطلق عليه الاسم ولكنّه خوف غير صادق أي غير بالغ درجة الحقيقة أما تراه إذا خاف سلطاناً أو قاطع طريق في سفره كيف يصفرّ لونه وترتعد فرائصه و يتنغّص عليه عيشه ويتعذّر عليه أكله ونومه ويتقسّم عليه فكره حتّى لاينتفع به أهله و ولده وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالاُنس الوحشة و بالرّاحة التعب و المشقّة والتعرّض للأخطار كلّ ذلك خوفاً من درك المحذور ثمّ إنّه يخاف النار و لا يظهر عليه شيء من ذلك عند جريان معصيته عليه ولذلك قال عليه السلام : « لم أر مثل النار نام هاربها و لم أر مثل الجنّة نام طالبها » (١) فالتحقيق في هذه الاُمور عزيز جدًا و لا غاية لهذه المقامات حتّى ينال غايتها ولكن لكلّ عبد منها حظّ بحسب حاله إمّا ضعيف و إمّا قوي فإذا قوي سمّي صادقاً فيه فمعرفة الله عزّ وجلّ و تعظيمه و الخوف منه لا نهاية له و لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبرئيل عليه السلام : « اُحبُّ أن أراك في صورتك الّتي هي صورتك فقال : لاتطيق ذلك ، قال : بلى أرني قال : فواعده بالبقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر إليه فإذا هو به قد سدّ الاُفق يعني جوانب السماء فوقع عليه السلام مغشياً عليه فأفاق وقد عاد جبرئيل عليه السلام إلى صورته الاُولى فقال : ما ظننت أنّ أحداً من خلق الله عزّ وجلّ هكذا ، قال : كيف و لو رأيت إسرافيل أنّ العرش لعلى كاهله و أنّ رجليه قد مرقتا تخوم الأرضين السفلى وأنّه ليتصاغر من عظمة الله حتّى يصير كالوصع يعني كالعصفور الصغير » (٢) فانظر ما الّذي يغشاه من العظمة والهيبة حتّى يرجع إلى ذلك الحدّ وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم .

وقال جابر : قال عليه السلام : « مررت ليلة اُسري بي أنا وجبرئيل بالملأ الأعلى كالحلس البالي من خشية الله عزّ و جلّ » (٣) يعني الكساء الّذي يلقى على ظهر

(١) أخرجه الترمذى فى صحيحه ج ١٠ ص ٦٥ من حديث ابى هريرة والطبرانى فى الاوسط من حديث أنس .

(٢) تقدم فى كتاب الرجاء والخوف أنه رأى جبرئيل فى صورته مرتين .

(٣) رواه محمد بن نصر فى كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقى فى دلائل النبوة من حديث أنس (المغنى) .

البعير ولذلك قال عليه السلام : «لايبلغ أحد حقيقة الإيمان حتّى يرى الناس كالأباعر في جنب الله ثمّ يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير» (١) و الصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيزٌ ، ثمّ درجات الصدق لا نهاية لها و قد يكون للعبد صدق في بعض الأُمور دون بعض فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصدّيق حقّاً و قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهنّ قوي وفيما سواهنّ ضعيف ما صلّيت صلاة منذ أسلمت فحدّثت نفسي بأن أعيش حتّى أفرغ منها ، وما شيّعت جنازة فحدّثت نفسي بغير ما هي قائله وما هو مقول لها حتّى يفرغ من دفنها ، وما سمعت النبيّ صلّى الله عليه وآله يقول قولاً إلّا علمت أنّه حقّ ، فقال ابن المسيّب لما سمع هذا الحديث : ماظننت أنّ هذه الخصال تجتمع إلّا في النبيّ صلّى الله عليه وآله . فهذا صدق في هذه الأُمور و كم من جملة الصحابة قوم قد أدّوا الصلاة وشيّعوا الجنائز و لم يبلغوا هذا المبلغ ، فهذه هي درجات الصدق و معانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لايتعرّض فيها إلّا لآحاد هذه المعاني ، نعم قد قال أبو بكر الورّاق : الصدق ثلاثة : صدق التوحيد وصدق الطاعة و صدق المعرفة فصدق التوحيد لعامّة المؤمنين قال الله تعالى : « والّذين آمنوا بالله و رسله أُولئك هم الصدّيقون » (٢) وصدق الطاعة لأهل العلم وصدق المعرفة لأهل الولاية الّذين هم أوتاد الأرض . و كلّ هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنّه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضاً غير محيط بجميع الأقسام . وقال جعفر الصادق عليه السلام : الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غير الله كما لم يختر عليك غيرك فقال تعالى : « هو اجتبيكم » (٣). و قيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أنّي إذا أحببت عبداً ابتليته ببلاء لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فإن وجدته صابراً اتّخذته وليّاً وحبيباً ، و إن وجدته جزوعاً يشكوني إلى خلقي خذلته ولم أُبال . فإذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعاً و كراهة اطّلاع الخلق عليها .

أقول : وفي مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : « إذا أردت أن تعلم أصادق

(١) قال العراقى : لم أجد له أصلا .

(٢) الحديد ۰ ١٩ . (٣) الحج: ٧٨ ۰

أنت أم كاذب فانظر في قصدمعناك وغور دعواك وعيّرهما بقسطاس من الله عزّ وجلّ كأنّك في القيامة قال الله عزّ وجلّ : «والوزن يومئذ الحقّ» (١) فإذا اعتدل معناك بغور دعواك ثبت لك الصدق ، وأدنى حدّ الصدق أن لا يخالف اللّسان القلب ولا القلب اللّسان ، و مثل الصادق الموصوف بما ذكرنا كمثل النازع لروحه إن لم ينزع فماذا يصنع »(٢) .

تمّ كتاب النيّة و الصدق و الإخلاص من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء ولله الحمد و المنّة على يد أفقر العباد إلى الله محسن بن مرتضى القاساني جعله الله من المخلصين الصادقين بمنّه و كرمه ، ويتلوه كتاب المراقبة و المحاسبة إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده وحده .

---

(١) الاعراف : ٧ .

(٢) المصدر الباب الرابع والسبعون .

كتاب المراقبة والمحاسبة

وهو الكتاب الثامن من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله القائم على كلّ نفس بما كسبت ، الرّقيب على كلّ جارحة بما اجترحت ، المطّلع على ضمائر القلوب إذا هجست ، الحسيب عباده على الخواطر إذا اختلجت ، الّذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات و الأرض تحرّكت أو سكنت ، المحاسب على النقير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت ، المتفضّل بقبول طاعات العباد و إن صغرت ، المتطوّل بالعفو عن معاصيهم و إن كثرت ، وإنّما يحاسبهم لتعلم كلّ نفس ما أحضرت و تنظر في ما قدّمت و أخّرت فتعلم أنّه لولا لزومها للمراقبة و المحاسبة في الدّنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلكت و بعد المجاهدة و المحاسبة و المراقبة لولا فضل الله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت و خسرت ، فسبحان من عمّت نعمه كافّة العباد ، و شملت و استغرقت رحمته الخلائق في الدّنيا والآخرة وغمرت ، فبنفحات فضله اتّسعت القلوب للإيمان وانشرحت ، وبيمن توفيقه تقيّدت الجوارح بالعبادات وتأدّبت ، و بحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل و انقشعت ، و بتأييده و نصرته انقطعت مكائد الشيطان و اندفعت ، و بلطف عنايته ترجّح كفّة الحسنات إذا ثقلت ، و بتيسيره تيسّرت من الطاعات ما تيسّرت ، فمنه العطاء والجزاء و بحكمه الإبعاد و الإدناء و الإسعاد والإشقاء .

و الصلاة على محمّد سيّد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء و قادة الأتقياء وسلّم كثيراً .

أمّا بعد فقد قال الله تعالى : « و نضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم

نفس شيئاً و إن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين »[١]. وقال : « و وضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين ممّا فيه و يقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصيها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولايظلم ربّك أحداً»[٢] وقال : « يوم يبعثهم الله جميعاً فينبّئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كلّ شيء شهيد »[٣] وقال : « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ✿ فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره ✿ ومن يعمل مثقال ذرّة شرّاً يره »[٤] و قال : « ثمّ توفّي كلّ نفس ما كسبت وهم لايظلمون»[٥] وقال تعالى: «يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذّركم الله نفسه»[٦] وقال تعالى: «واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه و اعلموا أنّ الله غفور رحيم »[٧] فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أنّ الله عزّ وجلّ لهم بالمرصاد وإنّهم سيناقشون في الحساب ، و يطالبون بمثاقيل الذرّ من الخطرات واللّحظات ، وتحقّقوا أنّه لاينجيهم من هذه الأخطار إلّا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الخطرات و اللّحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفّ في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن منقلبه ومآبه ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الخزي و المقت سيّئاته ، فلمّا انكشف لهم ذلك علموا أنّه لا ينجيه منه إلّا طاعة الله عزّ وجلّ وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال : « يا أيّها الّذين آمنوا اصبروا وصابروا و رابطوا »[٨] فرابطوا أوّلاً أنفسهم بالمشارطة ، ثمّ بالمراقبة ، ثمّ بالمحاسبة ، ثمّ بالمعاقبة ثمّ بالمجاهدة ، ثمّ بالمعاتبة ، فكانت لهم في المرابطة ستّ مقامات ولابدّ من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصلها المحاسبة ولكن كلّ حساب فبعد مشارطة و مراقبة و يتبعه عند الحساب معاتبة و معاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات .

(١) الانبياء : ٤٧ .
(٢) الكهف : ٥٠ .
(٣) المجادلة : ٦ .
(٤) الزلزال: ٦ و٧ و٨.
(٥) البقرة : ٢٨١.
(٦) آل عمران : ٣٠.
(٧) البقرة : ٢٣٥.
(٨) آل عمران : ٢٠٠ .

☼(المقام الاول من المرابطة المشارطة)☼

إعلم أنّ مطلب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الرّبح وكما أنّ التاجر يستعين بشريكه فيسلّم إليه المال حتّى يتّجر ثمّ يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنّما مطلبه وربحه تزكية النفس إذ به فلاحها قال الله تعالى: «قد أفلح من زكّيها ☼ و قد خاب من دسّيها»[1] وإنّما فلاحها بالأعمال الصالحة، و العقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها و يستسخرها فيما يزكّيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الّذي يتّجر في ماله و كما أنّ الشريك يصير خصماً منازعاً يحاذيه في الرّبح فيحتاج إلى أن يشارطه أوّلاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاتبه أو يعاقبه رابعاً فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أوّلاً فيوظّف عليها الوظائف و يشترط عليها الشروط و يرشدها إلى طريق الفلاح و يجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطريق ثمّ لا يغفل عن مراقبتها لحظة، فإنّه لو أهملها لم يرمنها إلّا الخيانة و تضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجوّ وانفرد بالمال ثمّ بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإنّ هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء و الشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهمّ كثيراً في تدقيقه في أرباح الدّنيا مع أنّها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى، ثمّ كيف ما كانت فمصيرها إلى التصرّم والانقضاء ولا خير في خير لا يدوم بل شرّ لا يدوم خير من خير لا يدوم لأنّ الشرّ الّذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائماً و قد انقضى الشرّ، و الخير الّذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً و قد انقطع الخير ولذلك قيل:

أشدّ الغمّ عندي في سرور ☼ تيقّن عنه صاحبه انتقالاً

فحتمٌ على كلّ ذي حزم آمن بالله و اليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه و التضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فإنّ كلّ نفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يشتري بها كنزاً من الكنوز لا تتناهى نعيمه

---

(١) الشمس: ٩و١٠.

أبدالآباد فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم هائل لا يسمح به عاقل فإذا أصبح العبد و فرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أنّ التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس : مالي بضاعة إلّا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال و وقع اليأس عن التجارة وطلب الرّبح وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله عزّ وجلّ فيه وأنسأ في أجلي وأنعم به عليّ و لو توفّاني لكنت أتمنّي أن يرجعني إلى الدّنيا يوماً واحداً حتّى أعمل فيه صالحاً فاحسبي أنّك توفّيت ثمّ رددت فإيّاك أن تضيّعي هذا اليوم فإنّ كلّ نفَس من الأنفاس جوهرة لاقيمة لها ، واعلمي أنّ اليوم و اللّيلة أربع و عشرون ساعة و قد ورد في الخبر ، « إنّه ينشر للعبد كلّ يوم و ليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوّة نوراً من حسناته الّتي عملها في تلك الساعة فيناله من الفرح و الاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار الّتي هي وسيلة عند الملك الجبّار مالو وزّع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار ، ثمّ يفتح له خزانة اُخرى سوداء مظلمة يفوح نتنها و يتغشّاه ظلامها و هي الساعة الّتي عصى الله فيها فيناله من الهول و الفزع مالو قسّم على أهل الجنّة لتنغّص عليهم نعيمها ، ويفتح له خزانة اُخرى فارغة ليس فيها ما يسرّه ولاما يسوؤه »(١) و هي الساعة الّتي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدّنيا فيتحسّر على خلوّها وينال من غبن ذلك ما ينال القادر على الرّبح الكثير و الملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتّى فاته وناهيك به حسرة وغبناً وهكذا يعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه : اجتهدي اليوم في أن تعمري خزائنك و لا تدعيها فارغة عن كنوزك الّتي هي أسباب ملكك و لا تركني إلى الكسل والدّعة و الاستراحة فيفوتك من درجات علّيّين مايدركه غيرك وتبقى عندك حسراتها لاتفارقك و إن دخلت الجنّة ، و ألم الغبن و الحسرة لا يطاق و إن كان دون ألم النار ، و قال بعضهم : هب أنّ المسيء قد عفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين . أشار به

(١) أورده العلامة المجلسى فى البحار ج٣ص٢٦٧ فى الهامش من كتاب عدة الداعى.

إلى الغبن والحسرة وقد قال تعالى : «يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن»[١] فهذه وصيّته لنفسه في أوقاته ثمّ يستأنف لها وصيّة في أعضائه السبعة : العين و الاُذن واللّسان والبطن والفرج واليد والرّجل وتسليمها إليها[٢] فإنّها رعايا خادمة لها في التجارة و بها تتمّ أعمال هذه التجارة و إنّ لجهنّم سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزء مقسوم وإنّما تتعيّن تلك الأبواب لمن عصى الله بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أمّا العين فيحفظها عن النظر إلى عورة مسلم و وجه من ليس بمحرم أوالنظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كلّ فضول مستغنى عنه فإنّ الله يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ، ثمّ إذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتّى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها وهي الّتي خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله عزّ وجلّ بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء و النظر في كتاب الله و سنّة رسوله و مطالعة كتب الحكمة للاتّعاظ و الاستفادة و هكذا ينبغي أن يفصّل عليها الأمر في عضو عضو لا سيّما اللّسان و البطن ، أمّا اللّسان فلأنّه منطلق بالطبع و لا مؤونة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة و الكذب و النميمة و تزكية النفس ومذمّة الخلق و الأطعمة والطعن و اللّعن و الدّعاء على الأعداء و المماراة في الكلام و غير ذلك ممّا ذكرناه في آفات اللّسان فهي بصدد ذلك كلّه مع أنّها خلقت للذكر و التذكير وتكرار العلم والتعليم و إرشاد عباد الله إلى طريق الله و إصلاح ذات البين و سائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرّك اللّسان إلّا في الذكر طول نهاره فنطق المؤمن ذكرٌ ونظره عبرة وصمته فكرة « و ما يلفظ من قول إلّا لديه رقيبٌ عتيدٌ » ، وأمّا البطن فيكلّفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات و يمنعه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة و يشترط عليها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع من شهواته فيفوتها أكثر ممّا نالته بشهواتها ، وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء و استقصاء ذلك يطول ولايخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ثمّ يستأنف وصيّتها في وظائف الطاعات الّتي تتكرّر عليه في اليوم واللّيلة ثمّ في النوافل الّتي يقدر

(١) التغابن : ٩ . (٢) أى تسليم الاعضاء الى النفس .

عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتّب لها تفصيلها و كيفيّتها و كيفيّة الاستعداد لها بأسبابها ، و هذه شروط يفتقر إليها كلّ يوم ولكن إذا تعوّد الإنسان بأن شرط ذلك على نفسه أيّاماً و طاوعته نفسه في الوفاء بحقّها استغنى عن المشارطة فيها و إن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد المشارطة فيما بقي ولكن لا يخلو كلّ يوم من مهمّ جديد و واقعة حادثة لها حكم جديد ولله عليه فيه حقّ ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدّنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلّما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضي حقّ الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة عليها و الانقياد للحقّ في مجاريها ويحذّرها مغبّة الإهمال ويعظها كما يوعظ العبد المتمرّد الآبق، فإنّ النفس بالطبع متمرّدة عن الطاعات مستعصية عن العبوديّة ولكن الوعظ و التأديب يؤثّر فيها « وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين » فهذا و ما يجري مجراه هو أوّل مقام المرابطة مع النفس و هي المحاسبة قبل العمل ، والمحاسبة تارة تكون قبله للتحذير قال الله تعالى : « واعلموا أنّ الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه »(١) و هذا للمستقبل و كلّ نظر في كمّيّة و مقدار لمعرفة زيادة و نقصان فإنّه يسمّى محاسبة ، فانظر فيما بين العبد والرّبّ في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا » (٢) و قال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا » (٣) و قال تعالى : « و لقد خلقنا الإنسان و نعلم ما توسوس به نفسه » (٤) ذكر ذلك تنبيهاً و تحذيراً للاحتراز منه في المستقبل .

و روى عبادة بن الصامت أنّه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه و يعظه : « إذا أردت أمراً فتدبّر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه و إن كان غيّاً فانته عنه» (٥).

---

(١) البقرة : ٢٣٥ . (٢) النساء : ٩٣ .
(٣) الحجرات : ٦ . (٤) ق : ١٦ .
(٥) رواه ابن المبارك فى الزهد عن أبى جعفر بن مسور الهاشمى مرسلا بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتّى تنظر إلى العاقبة فإنّ مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفّة الشهوة ، و قال لقمان : إنّ المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . و روى شدّاد بن أوس عنه عليه السلام أنّه قال : « الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت و الأحمق من أتبع نفسه هواها و تمنّى على الله الأماني » (١) دان نفسه أي حاسب نفسه ، و يوم الدّين هو يوم الحساب . وقوله تعالى : « إنّا لمدينون » (٢) أي لمحاسبون . و قال بعض الصحابة : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، و زنوها قبل أن توزنوا ، و تهيّئوا للعرض الأكبر » وهذا كلّه إشارة إلى المحاسبة للمستقبل إذ قال : من دان نفسه و عمل لما بعد الموت معناه وزن الامور أوّلاً و قدّرها ونظر فيها و تدبّرها ثمّ أقدم عليها فباشرها .

☼(المرابطة الثانية المراقبة)☼

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلّا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال و ملاحظتها بالعين الكالئة فإنّها إن تركت طغت و فسدت ، ولنذكر فضيلة المراقبة ثمّ درجاتها .

أمّا الفضيلة فقد سأل جبرئيل عليه السلام النبيّ صلّى الله عليه وآله عن الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنّك تراه » (٣) و قال أيضاً : « اعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك » (٤) و قد قال تعالى : « أفمن هو قائم على كلّ نفس بما كسبت » (٥) و قال تعالى : « ألم يعلم بأنّ الله يرى » (٦) ، و قال تعالى : « إنّ الله كان عليكم رقيباً » (٧) و قال تعالى : « و الّذين هم لأماناتهم و عهدهم راعون ☼ و الّذين هم بشهاداتهم قائمون» (٨) .

(١) تقدم غير مرة . (٢) الصافات : ٥٣ .
(٣) و (٤) أخرجهما النسائي ج ٨ ص ٩٨ في حديث و قد تقدما .
(٥) الرعد : ٣٥ . (٦) العلق : ١٤ .
(٧) النساء : ١ . (٨) المعارج : ٣٢ و ٣٣ .

وحكي أنّ زليخا لما خلت بيوسف فقامت فغطّت وجه صنمها فقال يوسف : مالك أتستحين من مراقبة جماد و لا أستحي من مراقبة الملك الجبّار ؟ و حكي عن بعض الأحداث أنّه راود جارية عن نفسها ليلاً فقالت : ألا تستحي ؟ فقال : ممّن أستحي و ما يرانا إلّا الكواكب ، فقالت : وأين مكوكبها ؟ وقال رجلٌ للجنيد بم أستعين على غضّ البصر قال : بعلمك أنّ نظر الناظر إليك، أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . و قال الجنيد : إنّما يتحقّق بالمراقبة من يخاف على فوت حظّه من ربّه عزّ وجلّ . و قيل : وفي الحديث القدسي": إنّما يسكن جنّات عدن الّذين إذا همّوا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والّذين انحنت أصلابهم من خشيتي ، و عزّتي وجلالي إنّي لأهمّ بعذاب أهل الأرض فاذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب . و يروى أنّ الله عزّ و جلّ قال للملائكة : أنتم موكّلون بالظواهر و أنا رقيب على البواطن .

(بيان حقيقة المراقبة و درجاتها)

إعلم أنّ حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرّقيب وانصراف الهمّ إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال : إنّه راقب فلاناً و راعى جانبه ، و نعني بهذه المراقبة حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة وتثمر تلك الحالة أعمالاً في الجوارح و في القلب أمّا الحالة فهي مراعاة القلب للرّقيب واشتغاله به و التفاته إليه وملاحظته إيّاه و انصرافه إليه ، وأمّا المعرفة الّتي تثمر هذه الحالة فهي العلم بأنّ الله مطّلع على الضمائر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كلّ نفس بما كسبت و أنّ سرّ القلب في حقّه مكشوف كما أنّ ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشدّ من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقيناً يعني أنّها إذا خلت عن الشكّ ، ثمّ استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فربّ علم لاشكّ فيه لايغلب على القلب كالعلم بالموت فاذا استولت على القلب استجرّت القلب إلى مراعات جانب الرّقيب وصرف الهمّة إليه والموقنون بهذه المعرفة هم المقرّبون وهم ينقسمون إلى الصدّيقين وإلى أصحاب اليمين ومراقبتهم على درجتين .

الدّرجة الأُولى مراقبة المقرّبين من الصدّيقين وهي مراقبة التعظيم والإجلال وهي أن يصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال ومنكسراً تحت الهيبة فلا يبقى فيه متّسع للالتفات إلى الغير أصلاً ، وهذه مراقبة لا نطوّل النظر في تفصيل أعمالها فإنّها مقصورة على القلب ، أمّا الجوارح فإنّها تتعطّل عن التلفّت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات فإذا تحرّكت بالطاعات كانت كالمستعملة بها فلا تحتاج إلى تدبّر و تثبّت في حفظها على سنن السداد بل تشتدّ الرّغبة بسداد الرّاعي فإذا صار مستوفى بالمعبود صار الجوارح مستعملة جارية على السداد و الاستقامة من غير تكلّف وهذا هو الّذي صار همّه همّاً واحداً و كفاه الله تعالى سائر الهموم و من نال هذه الدّرجة فقد يغفل عن الخلق حتّى لا يبصر من يحضر عنده و هو فاتح عينيه و لا يسمع ما يقال له مع أنّه لاصمم به وقد يمرّ على ابنه مثلا فلا يكلّمه حتّى كان بعضهم يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه : إذا مررت بي فحرّكني ، ولا تستبعد هذا فإنّك تجد نظير هذا في القلوب المعظمة لملوك الأرض حتّى أنّ خدم الملوك قد لا يحسّون بما يجري عليهم في مجالس الملوك لشدّة استغراقهم بهم ، بل قد يشتغل القلب بمهمّ حقير من مهمّات الدّنيا فيغوص الرّجل في الفكر فيه ويمشي فربّما يخطي الموضع الّذي قصده وينسى الشغل الّذي نهض له ، وحكي عن بعضهم أنّه قال : مررت بجماعة يترامون[1] و واحد جالس بعيداً منهم فتقدّمت إليه فأردت أن اُكلّمه فقال : ذكر الله أشهى لقلبي ، فقلت : إنّك وحدك؟ فقال : ما أنا وحدي معي ربّي و ملكاي ، فقلت : من سبق من هؤلاء ؟ فقال : من غفر الله له ، فقلت : أين الطريق؟ فأشار نحو السماء و قام ومشى ، وقال : أكثر خلقك شاغل عنك . فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يتكلّم إلّا معه ولا يسمع إلّا منه فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه و جوارحه فإنّها لا تتحرّك إلّا بما هو فيه ، وقيل : عليك بصحبة من يذكّرك الله رؤيته ويقع هيبته على قلبك و يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله . فهذه درجة المراقبين الّذين غلب على قلوبهم الاجلال و التعظيم فلم يبق فيهم متّسع لغير ذلك .

الدّرجة الثانية مراقبة الورعين من أصحاب اليمين وهم قوم غلب يقين اطّلاع الله

(١) في الاحياء «يترامون».

على ظواهرهم و بواطنهم و على قلوبهم و لكن لم تدهشهم ملاحظة الجمال و الجلال بل بقيت قلوبهم على حدّ الاعتدال متّسعة للتلفّت إلى الأحوال و الأعمال إلّا أنّها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة فيها ، نعم غلب عليهم الحياء من الله تعالى فلا يقدمون و لا يحجمون إلّا بعد التثبّت فيه و يمتنعون عن كلّ ما يفتضحون به في القيامة فإنّهم يرون الله تعالى في الدّنيا مطّلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة ويعرف اختلاف الدّرجتين بالمشاهدات ، فإنّك في خلواتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبيّ أو امرأة فتعلم أنّه مطّلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعي أحوالك لا عن إجلال و تعظيم بل عن حياء فإنّ مشاهدته و إن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنّها تهيّج الحياء منك و قد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتّى تترك كلّ ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه ، فهكذا تختلف مراتب العباد في مراقبة الله تعالى و من كان في هذه الدّرجة فيحتاج إلى أن يراقب جميع حركاته و سكناته وخطراته ولحظاته و بالجملة جميع اختياراته وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر في العمل أمّا قبل العمل فلينظر أنّ ما ظهر له وتحرّك لفعله خاطره أهو لله تعالى خاصّة أوهو في هوى النفس ومتابعة الشيطان ؟ فيتوقّف فيه ويتثبّت حتّى ينكشف له ذلك بنور الحقّ فإن كان لله أمضاه و إن كان لغير الله استحيا من الله و انكفّ عنه ثمّ لام نفسه على رغبتها فيه و همّها به و ميلها إليه و عزمها على سوء فعلها و سعيها في فضيحتها فإنّها عدوّة نفسها إن لم يتدار كها الله بعصمته ، و هذا التوقّف في بداية الأمور إلى حدّ البيان واجب محتوم لا محيص لأحد عنه فإنّ في الخبر « أنّه ينشر للعبد في كلّ حركة من حركاته و إن صغرت ثلاثة دواوين الدّيوان الأوّل لِمَ ، و الثاني كيف ، والثالث لمن » فمعنى لم أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أوملت إليه بشهوتك وهواك ، فإن سلم عنه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سئل عن الدّيوان الثاني كيف فعلت فإنّ لله في كلّ عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره و وقته و صفته إلّا بعلم فيقال : كيف فعلت أبعلم محقّق أم بجهل وظنّ ، فإن سلم من هذا نشر الدّيوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال :

لمن عملت ألوجه الله خالصاً ؟ وفاء بقولك « لا إله إلّا الله » فيكون أجرك على الله أولمراءاة خلق مثلك فخذأجرك منه ، أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفينا نصيبك من الدُّنيا ، أم عملته بسهو وغفلة فقدسقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيري فقد استوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفّه بنعمتي ثمّ تعمل لغيري أما سمعتني أقول : « إنّ الّذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم»[١] « إنّ الّذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرّزق و اعبدوه » [٢] ويحك أما سمعتني أقول « ألا لله الدّين الخالص » [٣] و إذا عرف العبد أنّه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب و أعدّ للسؤال جواباً وليكن الجواب صواباً فلا يبدىء ولايعيد إلّا بعد التثبّت ولايحرّك جفناً ولا أنملة إلّا بعد التأمّل

و قد قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لمعاذ : « إنّ العبد ليسأل عن كحل عينيه وعن فتّه الطين بأصبعيه و عن لمسه ثوب أخيه » [٤] و قيل : كان أحدهم إذا أراد أن يتصدّق بصدقة نظر وتثبّت فإن كان لله أمضاها ، و في حديث سعد حين أوصاه : كان «اتّق الله عند همّك إذاهممت» وقال محمّد بن عليّ : إنّ المؤمن وقّاف متأن[٥] عند همّه ليس بحاطب ليل . فهذا هو النظر الأوّل في هذه المراقبة ولايخلص من هذا إلّا العلم المتين والمعرفة الحقيقيّة بأسرار الأعمال و أغوار النفس ومكائد الشيطان فمتى لم يعرف نفسه وربّه و عدوّه و هو الشيطان و لم يعرف ما يوافق هواه و لم يميّز بينه و بين مايحبّه الله تعالى ويرضاه في نيّته وهمّته وفكرته وسكونه وحركته فلا يسلم في هذه المراقبة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله عزّ وجلّ وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً ، فلا تظنّنّ أنّ الجاهل بما يقدر على التعلّم فيه يعذر بالجهل هيهات بل طلب العلم فريضة على كلّ مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنّه يعلم آفات النفوس ومكائد الشيطان و مواضع الغرور فيتّقيها و الجاهل

---

(١) الاعراف : ١٩٣ . (٢) العنكبوت : ١٧ (٣) الزمر : ٣ .
(٤) لم أجده . (٥) أى لا يستعجل فى اموره

لا يعرفها فكيف يحترز منها فلا يزال الجاهل في تعب والشيطان منه في فرح وشماتة فنعوذ بالله من الجهل والغفلة ، فهما رأس كلّ شقاوة و أساس كلّ خسران فحكم الله على كلّ عبد أن يراقب نفسه عند همّه بالفعل وسعيه بالجارحة فيتوقّف عن الهمّ و عن السعي حتّى ينكشف له بنور العلم أنّه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فيتّقيه ويزجر القلب عن الفكر فيه و عن الهمّ به فإنّ الخطرة الاُولى في الباطل إذا لم تدفع أورثت الرّغبة و الرّغبة تورث الهمّ والهمّ يورث جزم القصد و القصد يورث الفعل و الفعل يورث العقاب والمقت ، فينبغي أن تحسم مادّة الشرّ من منبعه الأوّل وهو الخاطر فإنّ جميع ماوراءه يتبعه ومهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكّر فيه بنور العلم ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن عجز عن الاجتهاد و الفكر فيه بنفسه فليستضيء بنور علماء الدّين و ليفرّ من العلماء المضلّين المقبلين على الدّنيا فراره من الأسد بل أشدّ فقد أوحى الله عزّ وجلّ إلى داود عليه السلام : « ياداود لاتسأل عنّي عالماً أسكره حبّ الدّنيا فيقطعك عنّي و عن محبّتي اُولئك قطّاع طريق عبادي» فالقلوب المظلمة بحبّ الدّنيا وشدّة الشّره بها و التكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإنّ مستضاء أنوار القلوب حضرة الرّبوبيّة و كيف يستضيء بها من استدبرها و أقبل على عدوّها وعشق ضدّها و هي شهوات الدّنيا فلتكن همّة المريد أوّلاً في أحكام العلم و في طلب عالم معرض عن الدّنيا أو ضعيف الرّغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرّغبة فيها و قد قال عليه السلام : « إنّ الله يحبّ البصير الناقد عند ورود الشبهات » (١) و العقل الكامل عند هجوم الشهوات جمع بين الأمرين و هما متلازمان حقّاً فمن ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ، و لذلك قال عليه السلام : « من قارف ذنباً فارقه عقل لا يرجع إليه أبداً» (٢) فما قدر العقل الضعيف الّذي يتّصف الآدمي به حتّى يعمد إلى محوه و محقه بمقارفة الذّنوب و معرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه

(١) أخرجه أبو نعيم فى الحلية من حديث عمران بن حصين بن عمر العدنى ضعفه الجمهور كما فى المغنى . (٢) قد تقدم .

الأعصار فإنّ الناس كلّهم قدهجروا هذه العلوم و اشتغلوا بالتوسّط بين الخلق في الخصومات الثائرة من اتّباع الشهوات وقالوا : هذاهو الفقه وأخرجواهذا العلم الّذي هو فقه الدّين من جملة العلوم وتجرّدوا لفقه الدّنيا الّذي ما قصد به إلّا دفع الشواغل عن القلوب ليتفرّغ لفقه الدّين وكان فقه الدّنيا من الدّين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر « أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع و سيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبّت » (١) فمن لم يتوقّف عند الاشتباه كان متّبعاً لهواه معجباً برأيه . و كان ممّن وصفه النبيّ عليه السلام إذ قال : « فإذا رأيت شحّاً مطاعاً وهوى متّبعاً و إعجاب كلّ ذي رأي برأيه فعليك بخاصّة نفسك » (٢) و كلّ من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى : « و لا تقف ما ليس لك به علم » (٣) و قوله عليه السلام : « إيّاكم و الظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث » (٤) و أرادبه ظنّاً بغير دليل كما يستفتي بعض العوام قلبه فيما أشكل عليه ويتّبع ظنّه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء بعض الصحابة « اللّهمّ أرني الحقّ حقّاً و ارزقني اتّباعه ، وأرني الباطل باطلاً و ارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابهاً عليّ فأتّبع الهوى » وقال عيسى عليه السلام : « الأمور ثلاثة أمر استبان لك رشده فاتّبعه وأمر استبان غيّه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عالمه » (٥). و قد كان من دعاء النبيّ عليه السلام « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من أن أقول في الدّين بغير علم » (٦) فأعظم نعمة الله على عباده هو العلم و كشف الحقّ و الإيمان عبارة عن نوع كشف و علم و لذلك قال تعالى إمتناناً على عبده : « و كان فضل الله عليك عظيماً » (٧) و أراد به العلم و قال تعالى : « فاسئلوا أهل الذّكر إن كنتم لا

---

(١) قال العراقي : لم أجده .

(٢) قد تقدم . (٣) الاسراء : ٣٦ .

(٤) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ٥٧٧ والترمذي من حديث أبي هريرة . وقد تقدم .

(٥) أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس باسناد ضعيف و رواه الصدوق في الخصال أبواب الثلاثة من حديث الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله .

(٦) قال العراقي : لم أجده . (٧) النساء : ١١٢ .

تعلمون »[١] و قال : « إنّ علينا للهدى »[٢] وقال : «ثمّ إنّ علينا بيانه »[٣] وقال: « و على الله قصد السبيل »[٤].

قال علي عليه السلام : « الهوى شريك العمى، ومن التوفيق التوقّف عند الحيرة »[٥]

فاذن النظر الأوّل للمراقب نظره في الهمّة والحركة أهي لله تعالى أو للهوى وقد قال عليه السلام : « ثلاث من كنّ فيه فقد استكمل إيمانه لايخاف في الله لومة لائم ، ولا يرائي بشيء من عمله ، و إذا عرض له أمران أحدهما للدّنيا و الآخر للآخرة آثر الآخرة على الدّنيا »[٦] و أقلّ[٧] ماينكشف له في حركاته أن يكون مباحاً ولكنّه لايعنيه فيتركه لقوله عليه السلام : « من حسن إسلام المرء تركه مالايعنيه »[٨].

(النظر الثانى للمراقبة عند الشروع فى العمل)

و ذلك بتفقّد كيفيّة العمل ليقضي حقّ الله تعالى فيه ويحسن النيّة في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه و هذا ملازم له في جميع أحواله فإنّه لايخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله عزّ وجلّ في جميع ذلك قدر على عبادة الله فيها بالنيّة و حسن الفعل و مراعاة الأدب فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم «خير المجالس ما استقبل به القبلة »[٩] ولا يجلس متربّعاً إذ لايجالس عند الملوك كذلك و ملك الملوك مطّلع عليه . و إن كان

(١) النحل : ٤٣ . (٢) الليل : ١٢ .
(٣) القيامة : ١٩ . (٤) النحل : ٩ .
(٥) شطره الاول فى النهج كتابه عليه السلام الى ابنه الحسن (ع) وفيه «الهواء شريك العناء» وفى بعض نسخه كما فى المتن . ولم أجد شطره الثانى .
(٦) أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أبى هريرة .(المغنى)
(٧) وفى بعض نسخ الاحياء « وأكثر».
(٨) تقدم فى آفات اللسان .
(٩) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٢٧٠ من حديث ابن عباس هكذا « ان لكل شىء شرفاً و أشرف المجالس ما استقبل به القبلة » .

ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب الّتي ذكرناها في مواضعها ، فكلّ ذلك داخل في المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابه وفاء بالمراقبة ، فإذن لا يخلو العبد إمّا أن يكون في طاعة أو معصية أو مباح فمراقبته في الطاعة بالإخلاص و الإكمال و مراعاة الأدب و حراستها عن الآفات و إن كان في معصية فمراقبته بالتوبة و الندم و الإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكّر ، و إن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثمّ بشهود المنعم في النعمة و بالشكر عليها ، ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليّة لابدّ له من الصبر عليها أو نعمة لا بدّ له من الشكر عليها ، و كلّ ذلك من المراقبة ، بل لا ينفكّ العبد في كلّ حال من فرض الله تعالى عليه إمّا فعل يلزمه مباشرته ، أو محظور يلزمه تركه ، أو ندب حثّ عليه ليسارع به إلى مغفرة الله و يسابق به عباده ، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ، ولكلّ واحد من ذلك حدود لا بدّ من مراعاتها بدوام المراقبة « ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه » فينبغي أن يتفقّد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة ، فإذا كان فارغاً من الفرائض و قدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها فإنّ من فاته مزيد ربح و هو قادر على دركه فهو مغبون والأرباح تنال بمزايا من الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى : «ولا تنس نصيبك من الدّنيا»(١) و كلّ ذلك إنّما يمكن بصبر ساعة واحدة فإنّ الساعات ثلاث : ساعة مضت لا تعب على العبد فيها كيف ما انقضت في مشقّة أو في رفاهية ، و ساعة مستقبلة لم تأت بعد ولا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ، ولا يدري ما يقضي الله فيها ، و ساعة راهنة ينبغي أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربّه ، فإن لم تأته الساعة الثانية لم يتحسّر على فوات هذه الساعة ، و إن أتته الساعة الثانية استوفى حقّه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون ابن وقته و كأنّه في آخر أنفاسه فلعلّه آخر أنفاسه وهو لا يدري ، و إذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت و هو على تلك الحالة

---

(١) القصص : ٧٧ .

ويكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبوذر من قوله عليه السلام : «لا يكون المؤمن ظاعناً إلّا في ثلاث تزوّدٍ لمعاد أو مرمّة لمعاش أو لذّة في غير محرّم»(١) وما روي أيضاً عنه في معناه «على العاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربّه ، و ساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكّر فيها في صنع الله ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب فإنّ في هذه الساعة عوناً له على بقيّة السّاعات»(٢) ثمّ هذه الساعات الّتي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم و المشرب لا ينبغي أن يخلو فيها عن عمل هو أفضل الأعمال و هو الذّكر و الفكر فإنّ الطعام الّذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكّر فيه وفطن له لكان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام قسم ينظرون بعين التبصّر و الاعتبار فينظرون في عجائب صنعها و كيفيّة ارتباط قوام الحيوانات بها و كيفيّة تقدير الله لأسبابها و خلق الشهوة الباعثة عليها وخلق الآلات المسخّرة للشهوة فيها كما فصّلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوي الألباب وقسم ينظرون فيه بعين المقت و الكراهة و يلاحظون وجه الاضطرار إليه وبودّهم لو استغنوا عنه و لكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخّرين لشهواته وهذا مقام الزّاهدين ، وقسم يرون في الصنعة الصانع ويترقّون منها إلى صفات الخالق فيكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكّر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه و هو أعلى مقامات العارفين و علامات المحبّين إذ المحبّ إذا رأى صنعة حبيبه و كتابه وتصنيفه نسي الصنعة و اشتغل قلبه بالصانع و كلّ ما يتردّد العبد فيه هو صنع الله تعالى فله في النظر منها إلى الصانع مجالٌ رحب إن فتحت له أبواب الملكوت و ذلك عزيز جدًّا ، و قسم رابع ينظرون فيه بعين الرّغبة و الحرص فيتأسّفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من

---

(١) رواه الصدوق فى الفقيه ص ٢٢١ وفى الخصال أبواب الثلاثة عن الصادق عليه السلام و فيهما فى حكمة آل داود عليه السلام و قد تقدم واخرجه ابن حبان وأحمد والحاكم و صحّحه أنه قال صلى الله عليه و آله : انه فى صحف موسى عليه السلام .

(٢) هذا تتمة حديث أبى ذر المتقدم ، وروى الصدوق فى معانى الاخبار و كمال الدين نحوه و قد تقدم .

جملته و يذمّون منه ما لا يوافق هواهم و يعيبونه و يذمّون فاعله فيذمّون الطبيخ و والطبّاخ ولا يعلمون أنّ الفاعل للطبيخ والطبّاخ ولقدرته و علمه هو الله تعالى وإن من ذمّ شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذمّ الله ولذلك قال عليه السلام : « لاتسبوا الدّهر فان الله هو الدّهر »[1] فهذه هي المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدّوام والاتّصال و شرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الاُصول .

✿(المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل)✿

و لنذكر فيها فضيلة المحاسبة ثمّ حقيقتها أمّا الفضيلة فقد قال تعالى : «يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله ولتنظر نفس ماقدّمت لغد»[2] وهذه إشارة إلى المحاسبة مامضى من الأعمال ولذلك قيل : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا »[3] و في الخبر أنّه عليه السلام جاءه رجل فقال : يا رسول الله أوصني فقال : أمسترص أنت ؟ قال : نعم ، قال : «إذا هممت بأمر فتدبّر عاقبته فان كان رشداً فأمضه و إن كان غيّاً فانته عنه »[4] و في الخبر « ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات : ساعة يحاسب فيها نفسه» وقال الله عزّوجلّ : «وتوبوا إلى الله جميعاً أيّها المؤمنون»[5] و التوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقال عليه السلام : « إنّي لأستغفر الله عزّ وجلّ وأتوب إليه في اليوم مائة مرّة »[6] و قال تعالى : « إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فاذا هم مبصرون »[7] و عن ميمون بن مهران أنّه قال : لا يكون العبد من المتّقين حتّى يحاسب نفسه أتمّ من محاسبة

(١) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٤٥ من حديث أبي هريرة بسند صحيح

(٢) الحشر : ١٨

(٣) رواه الكليني في الروضة ص ١٤٣ دون قوله « وزنوها قبل ان توزنوا » و ذكره المجلسي في الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر من البحار ص ٤٢ بتمامه و زيادة عن كتاب محاسبة النفس عن النبي صلى الله عليه وآله مرسلا

(٤) تقدم ص ١٥٤ (٥) النور : ٣١

(٦) تقدم غير مرة (٧) الاعراف ٢٠٠

شريكه و الشريكان إنّما يتحاسبان بعد العمل (١) ، وقال بعضهم : المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله و إنّما خفّ الحساب في الآخرة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدّنيا و إنّما شقّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسبة ثمّ فسّر المحاسبة فقال : إنّ المؤمن يفجأ بالشيء يعجبه فيقول : و الله إنّك لتعجبني و إنّك لمن حاجتي ولكن هيهات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثمّ قال : ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول : ما ذا أردت بهذا و الله لا أعذر بهذا والله لا أعود لهذا أبداً إن شاء الله .

أقول: و معاني أكثر هذه الأخبار واردة من طريق الخاصّة أيضاً وفي الكافي عن الكاظم عليه السلام « ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كلّ يوم فإن عمل حسناً استزاد الله تعالى وإن عمل سيّئاً استغفر الله منه وتاب إليه » (٢) و عن الصادق عليه السلام « اقصر نفسك عمّا يضرّها من قبل أن تفارقك واسع في فكاكها كما تسعى في طلب معيشتك فإنّ نفسك رهينة بعملك » (٣) و في مصباح الشريعة عن الصادق عليه السلام قال : «لو لم يكن للحساب مهولة الاحياء للعرض على الله عزّ وجلّ و فضيحة هتك الستر على المخفيّات لحقّ للمرء أن لا يهبط من رؤس الجبال ولا يأوي إلى عمران ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام إلّا عن اضطرار متّصل بالتلف ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة بأهوالها و شدائدها قائمة في كلّ نفس ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبّار حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنّه إلى عرصاتها مدعوّ و في غمراتها مسؤول قال الله عزّ و جلّ : « إن كان مثقال حبّة من خردل أتينا بها و كفى بنا حاسبين» (٤) وقال بعض الأئمّة

---

(١) فى المجلد الخامس عشر من البحار الجزء الثانى منه ص ٤٢ نقل عن يحيى بن الحسين بن هارون الحسنى فى كتاب أماليه باسناده عن الحسن بن على عليهما السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله « لايكون العبد ـ الخ » وأما ميمون بن مهران كان من الذين عنونهم الشعرانى فى الطبقات الكبرى المسمى بلواقح الانوار فى طبقات الاخيار . وكان ممن عاصر الحسن البصرى ، و قيل : لقى علياً عليه السلام ولم يثبت .

(٢) المصدر ج ٢ ص ٤٥٣ تحت رقم ٢ .

(٣) المصدر ج ٢ ص ٤٥٥ تحت رقم ٨ .

(٤) الانبياء : ٤٧ .

«حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم بميزان الحياء قبل أن توزنوا» وقال أبوذر - رحمه الله - : ذكر الجنّة موت و ذكر النار موت فواعجبا لنفس تحيى بين موتين و روى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنّه كان يفكّر في طول اللّيل في أمر الجنّة والنار فيسهر ليلته ولا يأخذه النوم ثمّ يقول عند الصباح : اللّهمّ أين المفرّ وأين المستقرّ اللّهمّ إلّا إليك »(١).

✿(بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل)✿

إعلم أنّ العبد كما يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيها نفسه على سبيل التوصية بالحقّ فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب النفس فيها ويحاسبها على جميع حركاتها و سكناتها و كذلك يفعل التجّار في الدّنيا مع الشركاء في آخر كلّ سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدّنيا وخوفاً من أن يفوتهم منها مالو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته و لو حصل ذلك لهم لكان لا يبقى إلّا أيّاماً قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلّق به خطر الشقاوة و السعادة أبد الآباد ، ما هذه المساهلة إلّا من الغفلة و الخذلان و قلّة التوفيق نعوذ بالله منه . و معنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال و في الرّبح و الخسران ليتبيّن له الزّيادة و النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه و شكره و إن كان من خسران طالبه بضمانه و كلّفه تداركه في المستقبل فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض و ربحه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعامله نفسه الأمّارة بالسوء فليحاسبها على الفرائض أوّلاً فإن أدّتها على وجهها شكر الله عزّ وجلّ عليه ورغّبها في مثلها و إن فوّتها من أصلها طالبها بالقضاء فإن أدّتها ناقصة كلّفها الجبران بالنوافل و إن ارتكبت معصية اشتغل بعتابها و تعذيبها و معاقبتها و استوفى منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه و كما أنّه يفتّش في حساب الدّنيا عن الحبّة و القيراط فيحفظ مداخل الزّيادة والنقصان حتّى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتّقي غائلة النفس و مكرها فإنّها خدّاعة ملبّسة مكّارة

(١) المصدر الباب الرابع و الثمانون .

فليطالبها أوّلاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلّم به طول نهاره و ليتكفّل بنفسه من الحساب ما سيتولاّه غيره في صعيد القيامة و هكذا عن نظره بل عن خواطره و أفكاره و قيامه و قعوده و أكله و شربه و نومه حتّى عن سكوته أنّه لم سكت و عن سكونه أنّه لم سكن فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصحّ عنده قدر ما أدّى الحقّ فيه كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقي عليه فليثبته عليه و ليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الّذي هو على شريكه على قلبه و على جريدته ثمّ النفس غريم يمكن أن يستوفى منه الدّيون أمّا بعضها فبالغرامة و الضمان و بعضها بردّ عينه و بعضها بالعقوبة لها على ذلك و لا يمكن شيء من ذلك إلّا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحقّ الواجب عليه فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة و الاستيفاء وينبغي أنْ يحاسب النفس على جميع العمر على يوم يوم و ساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة و الباطنة وعن معصيته بالقلب والجوارح في كلّ ساعة ولو رمى بكلّ معصية حجراً في صحن داره لامتلأت داره في مدّة قريبة من عمره ولكن يتساهل في حفظ المعاصي و الملكان يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه.

✡(المرابطة الرابعة معاقبة النفس على تقصيرها)✡

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية و ارتكاب تقصير في حقّ الله فلا ينبغي أن يهملها فإنّه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي و أنس بها و عسر عليه فطامها و كان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع و إذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر و كذلك يعاقب كلّ طرف من أطراف بدنه بمنعه من شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة. و عن طلحة قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه و تمرّغ في الرّمضاء و كان يقول لنفسه ذوقي وعذاب جهنّم أشدّ حرّاً أجيفة باللّيل بطّالة بالنهار قال: فبينا هو كذلك إذأبصر النبيّ عليه السلام في ظلّ شجرة فأتاه فقال غلبتني نفسي فقال له النبيّ عليه السلام: ألم يكن لك بدٌّ من الّذي صنعته أما لقد فتحت لك أبواب السماء و باهى الله عزّ و جلّ بك الملائكة ثمّ قال لأصحابه: تزوّدوا من

أخيكم فجعل الرّجل يقول له : يا فلان ادع لي : يا فلان ادع لي فقال عليه السلام: عمّهم فقال : اللّهمّ اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم . فجعل النبيّ عليه السلام يقول : اللّهمّ سدّده فقال الرّجل : اللّهمّ اجعل الجنّة مآبهم» (١).

أقول : قد مضى هذا الحديث من طريق الخاصّة في كتاب الخوف على اختلاف في ألفاظه »(٢)

قال أبو حامد : « و عن وهب بن منبّه أنّ رجلاً تعبّد زماناً ثمّ بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سبتاً يأكل في كلّ سبت إحدى عشرة تمرة ثمّ سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال : منك اُتيت لو فيك خيرٌ لاُعطيت فنزل إليه ملك و قال : يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك الّتي مضت وقد قضى الله حاجتك ، فهكذا كانت عقوبة اُولي الحزم لأنفسهم .

و العجب أنّك تعاقب عبدك و أمتك و أهلك و ولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخاف أنّك لو تجاوزت عنهم خرج أمرهم من يدك و بغوا عليك ثمّ تهمل نفسك وهي أعظم عداوة لك وضراوة ، وأشدّ طغياناً عليك و ضررك من طغيانها أعظم ضرراً من طغيان أهلك فإنّ غايتهم أن يشوّشوا عليك معيشة الدّنيا و لو عقلت لعلمت أنّ العيش عيش الآخرة و أنّ نعيم الجنّة هو النعيم المقيم الّذي لا آخر له و نفسك هي الّتي تنغّص عليك عيش الآخرة فهي أولى بالمعاقبة من غيرها .

✿(المرابطة الخامسة المجاهدة)✿

وهي أنّه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات الّتي مضت و إن رآها تتواني بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدّبها بتثقيل الأوراد عليها و يلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه (ص) وهذا منقطع أو مرسل (المغني) ورواه الصدوق باسناده عن ليث بن أبي سليم قال : سمعت رجلا من الانصار يقول .... راجع مجالس الصدوق المجلس الرابع والخمسين .

(٢) ص ٣٠٨ ج ٧ .

منه وتدارك لما فرط فهكذا كان يعمل عمّال الله تعالى فقد عاقب بعضهم نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدّق بأرض قيمتها مائة ألف درهم ، و كان بعضهم إذا فاتته صلاة في جماعة أحيى تلك اللّيلة ، و أخّر ليلة صلاة المغرب حتّى طلع كوكبان فأعتق رقبتين وفات من ابن ربيعة ركعتا الفجر فأعتق رقبة ، وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحجّ ماشياً أو التصدّق بجميع ماله كلّ ذلك مرابطة للنفس و مؤاخذة لها بما فيه نجاتها .

أقول : وفي مصباح الشريعة عن الصّادق عليه السلام قال : « طوبى لعبد جاهد لله نفسه وهواه ، ومن هزم جند هواه ظفر برضى الله ، و من جاوز عقله نفسه الأمّارة بالسّوء بالجهد والاستكانة والخضوع على بساط خدمة الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، و لا حجاب أظلم وأوحش بين العبد و بين الله تعالى من النفس و الهوى ، و ليس لقتلهما في قطعهما سلاح وآلة مثل الافتقار إلى الله والخشوع والجوع والظمأ بالنّهار والسهر باللّيل فإن مات صاحبه مات شهيداً و إن عاش واستقام أدّاه عاقبته إلى الرّضوان الأكبر قال الله عزّ وجلّ : « و الّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا و إنّ الله لمع المحسنين » [(١)] و إذا رأيت مجتهداً أبلغ منك في الاجتهاد فوبّخ نفسك و لمها و عيّرها تحثيثاً على الازدياد عليه واجعل لها زماماً من الأمر وعناناً من النهي وسقها كالرّائض للفارة الّذي لا يذهب عليه خطوة من خطواتها إلّا وقد صحّح أوّلها وآخرها وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلّي حتّى يتورّم قدماه ويقول : « أفلا أكون عبداً شكوراً » أراد أن يعتبر به اُمّته فلا تغفلوا عن الاجتهاد والتعبّد والرّياضة بحال إلّا و إنّك لوجدت حلاوة عبادة الله ورأيت بركاتها و استضأت بنورها لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطّعت إرباً إرباً فما أعرض من أعرض إلّا بحرمان فوائد السلف من العصمة و التوفيق ، قيل لربيع بن خثيم : مالك لا تنام باللّيل ؟ قال : لأنّي أخاف البيات »[(٢)].

قال أبو حامد : فإن قلت : إن كانت نفسي لا تطاوعني على الاجتهاد والمرابطة على الأوراد فما سبيل معالجتها ؟ فأقول : علاجها أن تسمعها ما ورد في الأخبار من

---

(١) العنكبوت : ٦٩ . (٢) المصدر الباب الثمانون .

فضل المجتهدين و من أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أحواله و تقتدي به ، فكان بعضهم يقول : إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمّد بن واسع و إلى اجتهاده في العبادة فعملت على ذلك أسبوعاً . إلّا أنّ هذا العلاج قد تعذّر إذ فقد في عباد الله من يجتهد في عبادة الله اجتهاد الأوّلين فينبغي أن يعدل من المشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجهيد و قد انقضى تعبهم و بقي ثوابهم و نعيمهم أبد الآباد لا ينقطع فما أعظم ملكهم و ما أشدّ حسرة من لا يقتدي بهم فتمتّع نفسه أيّاماً قلائل بشهوات مكدّرة ثمّ يأتيه الموت و يحال بينه و بين كلّ ما يشتهيه أبد الآباد نعوذ بالله منه ، ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرّك رغبة المريدين في الاجتهاد اقتداءً بهم فقد قال عليه‌السلام : « رحم الله أقواماً يحسبهم الناس مرضى وما هم بمرضى »(١) قيل : أجهدتهم العبادة ، قال الله تعالى : « والّذين يؤتون ما آتوا و قلوبهم وجلة »(٢) قيل : يعملون ما عملوا من أعمال البرّ و يخافون أن لا يقبل و أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله ، و قال النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله »(٣) ويروى أنّ الله عزّ وجلّ يقول لملائكته : « ما بال عبادي مجتهدين فيقولون : إلهنا خوّفتهم شيئاً فخافوه وشوّقتهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تعالى : فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشدّ اجتهاداً . و قال بعض السلف : أدركت أقواماً و صحبت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدّنيا أقبل ، ولا يتأسّفون على شيء منها أدبر ، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الّذي تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليعيش عمره كلّه ما طوي له ثوب ولا أمر أهله بصنعة طعام قطّ ولا جعل بينه و بين الأرض شيئاً قطّ و أدركتهم عاملين بكتاب ربّهم وسنّة نبيّهم إذا جنّهم اللّيل فقيام على أقدامهم يفترشون

(١) لم أجده بهذا اللفظ وفى كلام أمير المؤمنين عليه‌السلام فى خطبته التى وصف فيها المتقين لهمام « ينظر اليهم الناظر فيقول مرضى و ما بالقوم من مرض ».

(٢) المؤمنون : ٦١ .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير وأبو نعيم فى الحلية من حديث عبدالله بن بسر .

وجوههم تجري دموعهم على خدودهم يناجون ربّهم في فكاك رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها(١) وسألوا الله أن يتقبّلها، وإذا عملوا السيّئة أحزنتهم و سألوا الله أن يغفرها لهم ما زالوا كذلك و على ذلك والله ما سلموا من الذّنوب و لا نجوا إلّا بالمغفرة. و يحكى أنّ قوماً دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه و إذا فيهم شابّ ناحل الجسم فقال له عمر: يا فتى ما الّذي بلغ بك ما أرى فقال: يا أمير المؤمنين أسقام و أمراض فقال: سألتك بالله إلّا صدقتني فقال: يا أمير المؤمنين ذقت حلاوة الدّنيا فوجدتها مرّة وصغر عندي زهرتها وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها و كأنّي أنظر إلى عرش ربّي بارزاً والناس يساقون إلى الجنّة والنار فأظمأت لذلك نهاري و أسهرت له ليلي و قليلٌ كلّ ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه. وقال أبو الدّرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً: الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف اللّيل ومجالسة أقوام ينتقون أطائب الكلام كما ينتقى أطائب التمر. و قيل: إنّ قوماً أرادوا سفراً فحادوا عن الطريق فانتهوا إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم من صومعته فقالوا: يا راهب إنّا قد أخطأنا الطريق فكيف هو فأومأ برأسه إلى السماء فلم يعلم الناس ما أراد، فقالوا: يا راهب إنّا سائلوك فهل أنت مجيبنا؟ فقال: سلوا ولا تكثروا فإنّ النهار لن يرجع والعمر لا يعود والطالب حثيث، فتعجّب القوم من كلامه فقالوا: يا راهب على م يحشر الخلق غداً عند مليكهم فقال: على نيّاتهم، فقالوا: أوصنا فقال: تزوّدوا على قدر سفركم فإنّ خير الزّاد ما بلغ البغية ثمّ أرشدهم إلى الطريق و أدخل رأسه في صومعته. و قال عبدالواحد ابن زيد: مررت بصومعة راهب من رهبان الصين فناديته يا راهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجب فناديته الثالثة فأشرف عليّ وقال: يا هذا ما أنا براهب إنّما الرّاهب من رهب الله في سمائه وعظّمه في كبريائه و صبر على بلائه ورضي بقضائه وحمده على آلائه و شكره على نعمائه و تواضع لعظمته و ذلّ لعزّته واستسلم لقدرته و خضع لمهابته وفكر في حسابه و عقابه فنهاره صائم و ليله قائم قد أسهره ذكر النّار ومسألة

---

(١) أي جدّوا وتعبوا واستمروا عليه.

الجبّار فذاك هو الرّاهب فأمّا أنا فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلّا أعقرهم ، فقلت : يا راهب فما الّذي قطع الخلق عن الله بعد إذ عرفوه ؟ فقال : يا أخي لم يقطع الخلق عن الله إلّا حبّ الدّنيا و زينتها لأنّها محلّ المعاصي والذّنوب فالعاقل من رمى بها عن قلبه و تاب إلى الله من ذنبه و أقبل على ما يقرّبه من ربّه .

وكان اُويس القرنيّ يقول : هذه ليلة الرّكوع فيحيي اللّيلة كلّها في ركعة وإذا كانت اللّيلة الآتية قال : هذه ليلة السجود فيحيي اللّيلة كلّها في سجدة . و يروى عن رجل من أصحاب عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّه قال : « صلّيت خلف عليّ بن أبي طالب عليه السلام الفجر فلمّا سلّم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتّى طلعت الشّمس ثمّ قلّب يده فقال : والله لقد رأيت أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً قد باتوا لله سجّداً وقياماً يتلون كتاب الله عزّ وجلّ يراوحون بين أقدامهم وجباههم فكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم الرّيح وهملت أعينهم حتّى ابتلّ ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعني من كان حوله . وقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام : «سيما الصّالحين صفرة الألوان من السهر و عمش العيون من البكاء و ذبول الشفاه من الصوم عليهم غبرة الخاشعين » [1] و قيل لبعض السلف : ما بال المتهجّدين أحسن النّاس وجوهاً ؟ فقال : إنّهم خلوا بالرّحمن فألبسهم نوراً من نوره . و كان عامر بن عبد قيس يقول : إلهي خلقتني ولم تؤامرني و تميتني ولا تعلمني و خلقت معي عدوّاً و جعلته يجري منّي مجرى الدّم و جعلته يراني و لا أراه ثمّ قلت لي استمسك ، إلهي كيف أستمسك إن لم تمسكني ، إلهي في الدّنيا الهموم والأحزان و في الآخرة العقاب والحساب فأين الرّاحة والفرح ، وقال بعض الحكماء : إنّ لله عزّ وجلّ عباداً أنعم عليهم فعرفوه و شرح صدورهم فأطاعوه و توكّلوا عليه فسلّموا الخلق و الأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين و بيوتاً للحكمة و توابيت للعظمة و خزائن للقدرة فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون وقلوبهم تجول في الملكوت وتلوذ بحجب الغيوب ثمّ ترجع ومعها طرائف من لطيف الفوائد مالا يمكن واصفاً أن يصفه

---

(١) روى الكلينى فى الكافى ج ٢ ص ٢٣٥ و ٢٣٦ نحوه .

فهم في باطن أُمورهم كالدّيباج حسناً وهم في الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضعاً.

وهذه طريقة لا يبلغ إليها بالتكلّف وإنّما هو فضل الله يؤتيه من يشاء، وقال بعض الصّالحين: بينا أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هنالك فإذا أنا بصوت قد علا وإذاً تلك الجبال تجيبه لها دويّ عال فأتبعت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتفّ، وإذا أنا برجل قائم يردّد هذه الآية «يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً - إلى قوله: - ويحذّركم الله نفسه»(١) قال: فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردّد هذه الآية إذ صاح صيحة خرّ بها مغشيّاً عليه قلت: وا أسفاه هذا لشقائي، ثمّ انتظرت إفاقته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذّابين، أعوذ بك من أعمال البطّالين، أعوذ بك من إعراض الغافلين، ثمّ قال: لك خشعت قلوب الخائفين وإليك فزعت آمال المقصّرين ولعظمتك ذلّت قلوب العارفين، ثمّ نفض يديه فقال: مالي وللدّنيا وما للدّنيا ولي عليك يادنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك إلى محبّيك فاذهبي وإيّاهم فاخدعي ثمّ قال: أين القرون الماضية وأهل الدّهور السالفة في التراب يبلون وعلى مرّ الزّمان يفنون، فناديته يا عبدالله أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك فقال: وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه أم كيف يفرغ من ذهبت أيّامه وبقيت آثامه، ثمّ قال: أين أنت لها ولكلّ شدّة أتوقّع نزولها، ثمّ لهى عنّي ساعة وقرأ «وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون» ثمّ صاح صيحة أُخرى أشدّ من الأُولى وخرّ مغشيّاً عليه منها فقلت: قد خرجت نفسه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثمّ أفاق وهو يقول: ما أنا ما خطري هب لي إساءتي بفضلك وجلّلني بسترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك. فقلت له: بالّذي ترجوه لنفسك وتثق به إلّا كلّمتني فقال: عليك بكلام من ينفعك كلامه ودع كلام من أوبقته ذنوبه إنّي لفي هذا الموضع منذ ما شاء الله أُجاهد إبليس ويجاهدني فلم يجد عوناً عليّ ليخرجني ممّا أنا فيه غيرك فإليك عنّي يا مخدوع فقد عطّلت عليّ لساني ومالت إلى حديثك شعبة من قلبي فأنا أعوذ بالله

(١) آل عمران: ٢٨-٣٠.

من شرّك ثمّ أرجو أن يعيذني من سخطه ويتفضّل عليّ برحمته قال: فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله فأُعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركته. وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في مسيرلي إذ ملت إلى شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليّ فقال: يا هذا قم فإنّ الموت لم يمت ثمّ هام على وجهه فأتبعته فسمعته و هو يقول: «كلّ نفس ذائقة الموت اللّهمّ بارك لي في الموت» فقلت: وفيما بعد الموت فقال: من أيقن بما بعد الموت شمّر مئزر الحذر ولم يكن له في الدّنيا مستقرّ، ثمّ قال: «يا من لوجهه عنت الوجوه بيّض وجهي بالنظر إليك واملأ قلبي من المحبّة لك و أجرني من ذلّة التوبيخ غداً عندك فقد آن لي الحياء منك وحان لي الرّجوع عن الإعراض عنك، ثمّ قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي، و لولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي، ثمّ مضى وتركني و قد أنشدوا في هذا المعني:

نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ✡ تراه بقنّة أو بطن واد
ينوح على معاصي فادحات ✡ يكدّر ثقلها صفو الرّقاد
فإن هاجت مخاوفه و زادت ✡ فدعوته أغثني يا عمادي
فأنت بما أُلاقية عليم ✡ كثير الصفح عن زلل العباد

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فمهما تمرّدت نفسك عليك و امتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنّه قد عزّ الآن وجود مثلهم ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء، فليس الخبر كالمعاينة، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء فإن لم يكن إبل فمعزى، وخيّر نفسك بين الاقتداء بهم و الكون في غمارهم وهم العقلاء و الحكماء و ذوو البصائر في الدّين و بين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبّه بالاغبياء. وتؤثر مخالفة العقلاء فإن حدّثتك نفسك بأنّ هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها: ألا تستنكفين يا نفس أن تكوني أقلّ من امرأة فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات

فقد روي عن حبيبة العدويّة أنّها كانت إذاصلّت العتمة قامت على سطح لها وشدّت عليها درعها وخمارها ثمّ قالت : إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلّقت الملوك أبوابها وخلا كلّ حبيب بحبيبه وهذا مقامي بين يديك ، ثم أقبلت على صلاتها فإذا كان السحر وطلع الفجر قالت : إلهي هذا اللّيل قد أدبر ، و هذا النهار قد أسفر فليت شعري أقبلت منّي ليلتي فأهنأ أو رددتها عليّ فأعزي و عزّتك لهذا دأبي و دأبك ما أبقيتني وعزّتك لوانتهرتني عن بابك مابرحته لما وقع في نفسي من جودك و كرمك .

و يروى عن عجرة أنّها كانت تحيي اللّيل و كانت مكفوفة البصر فإذا كان السحر نادت بصوت لها محزون : إليك قطع العابدون دجى اللّيالي ، يستبقون إلى رحمتك و فضل مغفرتك ، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أوّل زمرة السابقين و أن ترفعني لديك في علّيّين في درجة المقرّبين و أن تلحقني بعبادك الصالحين فأنت أرحم الرّحماء و أعظم العظماء و أكرم الكرماء يا كريم ، فخرّت ساجدة فسمعت لها وجبة ثمّ لاتزال تدعو وتبكي إلى الفجر .

و قال يحيى بن بسطام : كنت أشهد مجلس شعوانة (١) فكنت أرى ما تصنع من النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لوأتيناها إذا خلت فأمرناها بالرّفق بنفسها قال أنت و ذاك قال : فأتيناها فقلت لها : لو رفقت بنفسك و أقصرت عن هذا البكاء شيئاً لكان ذلك أقوى على ما تريدين فبكت ثمّ قالت : والله لوددت أن أبكي حتّى تنفد دموعي ثمّ أبكي دماً حتّى لا تبقى قطرة من دم في جارحة من جوارحي ، وأنّى لي بالبكاء و أنّى لي بالبكاء ، فلم تزل تردّد « و أنّى لي بالبكاء » حتّى غشي عليها .

وقال محمّد بن معاذ : حدّثتني امرأة من المتعبّدات قالت : رأيت في منامي كأنّي اُدخلت الجنّة فإذا أهل الجنّة قيام على أبوابها فقلت : ما شأن أهل الجنّة قياماً؟ فقال لي قائل : خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة الّتي زخرفت الجنان لقدومها قلت : ومن هذه المرأة ؟ قيل: أمة سوداء من أهل الأيلة يقال لها شعوانة قالت : فقلت : اُختي

(١) في طبقات الشعراني نبذ يسير من حالاتها فراجعه .

والله فبينا أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيبة تطير بها في الهواء فلمّا رأيتها ناديتها يا أُختي أما ترين مكاني من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك ، قالت : فتبسّمت إليّ وقالت : لم يأن لقدومك ولكن احفظي عنّي اثنتين ألزمي الحزن قلبك وقدّمي محبّة الله على هواك ، ولا يضرّك متى مت .

وقال عبد الله بن الحسن : كانت لي جارية روميّة و كنت بها معجباً و كانت في بعض اللّيالي نائمة إلى جنبي فانتبهت فالتمستها فلم أجدها فقمت أطلبها فإ ذا هي ساجدة وهي تقول : بحبّك لي إلّا غفرت لي ذنوبي ، فقلت لها : لا تقولي بحبّك لي ولكن قولي بحبّي اك ، فقالت : لا يا مولاي بحبّه لي أخرجني من الشرك إلى الإسلام و بحبّه لي أيقظ عيني و كثير من خلقه نيام .

وقال أبو هاشم القرشي : قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريّة فنزلت في بعض ديارنا قال : فكنت أسمع لها من اللّيل أنيناً و شهيقاً ، فقلت يوماً لخادم لي أشرف على هذه المرأة فانظر ما ذا تصنع ، فأشرف عليها فما رآها تصنع شيئاً غير أنّها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبلة تقول: خلقت سريّة ثمّ غذّيتها بنعمتك من حال إلى حال و كلّ أحوالك لها حسنة و كلّ بلائك عندها جميل ، وهي مع ذلك متعرّضة لسخطك بالتوثّب على معاصيها فلتة بعد فلتة ، أتراها تظنّ أنّك لا ترى سوء فعالها و أنت عليمٌ خبيرٌ وأنت على كلّ شيء قدير .

وقال ذو النّون المصري : خرجت ليلة من وادي كنعان فلمّا علوت الوادي إذا سواد مقبل عليّ وهو يقول : «و بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون» و يبكي فلمّا قرب منّي السواد إذا هو امرأة عليها جبّة صوف وبيدها ركوة فقالت لي : من أنت ؟ غير فزعة منّي قلت : رجلٌ غريبٌ ، فقالت : يا هذا وهل يوجد مع الله غربة ؟ قال : فبكيت لقولها فقالت : ما الّذي أبكاك ؟ قلت : وقع الدّواء على داء قد قرح فأسرع في نجاحه ، قالت : فإن كنت صادقاً فلم بكيت ؟ قلت : يرحمك الله والصادق لا يبكي ؟ قالت : لا ، قلت : و لم ذاك ؟ قالت : لأنّ البكاء راحة للقلب ، فسكتّ متعجّباً من قولها .

وقال بعض الصالحين: خرجت يوماً إلى السوق ومعي جارية حبشيّة فاحتبستها في موضع بناحية السوق و ذهبت في بعض حوائجي و قلت : لا تبرحي من مكانك حتّى أنصرف إليك قال : فانصرفت فلم أجدها في الموضع و انصرفت إلى منزلي و أنا شديد الغضب عليها فلمّا رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت لي : يا مولاي لا تعجل عليّ إنّك أجلستني في موضع لم أر فيه ذاكراً لله تعالى فخفت أن يخسف بذلك الموضع فعجبت لقولها وقلت لها : أنت حرّة فقالت : لي ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران وأمّا الآن فقد ذهب عنّي أحدهما .

و قال ابن العلاء السعديّ : كانت لي ابنة عمّ يقال لها : بريرة وتعبّدت وكانت تكثر القراءة في المصحف فكلّما أتت على آية فيها ذكر النار بكت ، فلم تزل تبكي حتّى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمّها : انطلقوا بنا إلى هذه المرأة حتّى نعذلها في كثرة البكاء ، قال : فدخلنا عليها فقلنا : يا بريرة كيف أصبحت؟ فقالت : أصبحنا أضيافاً منيخين بأرض غربة ننتظر متى ندعى فنجيب ، فقلنا لها : إلى كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه ؟ فقالت : إن يكن لعينيّ عندالله خير فما يضرّهما ماذهب منهما في الدّنيا و إن كان لهما عند الله شرّ فبين أيديهما بكاء أطول من هذا و أعرضت ، قال : فقال القوم : قوموا بنا فهي والله في شيء غير ما نحن فيه .

وكانت معاذة العدويّة إذا جاء النهار تقول : هذا يومي الّذي أموت فيه فما تطعم حتّى تمسى و إذا جاء اللّيل تقول : هذه اللّيلة الّتي أموت فيها فتصلّي حتّى تصبح .

وقال أبو سليمان الدّاراني : بتّ ليلة عند رابعة فقامت إلى محرابها وقمت أنا إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلمّا كان السحر قلت : ما جزاء من قوّانا على قيام هذه اللّيلة قالت : جزاؤه أن نصوم له غداً .

و كانت شعوانة تقول في دعائها : إلهي ما أشوقني إلى لقائك و أعظم رجائي لجزائك و أنت الكريم الّذي لا يخيب لديك أمل الآملين و لا يبطل عندك شوق المشتاقين ، إلهي إن كان دنا منك أجلي ولم يقرّبني منك عملٌ فقد جعلت الاعتراف

بالذنب وسائل عللي ، فإن عفوت فمن أولى بذلك منك ، و إن عذّبت فمن أعدل منك هنالك ، إلهي قد جرتُ على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك فالويل لها إن لم تسعدها ، إلهي إنّك لم تزل لي برّاً أيّام حياتي فلاتقطع عنّي برّك بعد مماتي و لقد رجوت ممّن تولّاني في حياتي بإحسانه أن يسعفني عند مماتي بغفرانه إلهي كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي و لم تولّني إلّا الجميل في حياتي . إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإنّ محبّتي لك قد أجارتني فتولّ من أمري ما أنت أهله وعد بفضلك على من غرّه جهله ، إلهي لو أردت إهانتي لما هديتني و لو أردت فضيحتي لم تسترني فمتّعني بما له هديتني و أدم لي مابه سترتني ، إلهي ما أظنّك تردّني في حاجة أفنيت فيها عمري ، إلهي لولا ما قارفت من الذّنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك .

و قال الخوّاص دخلنا على رحلة العابدة و كانت صامت حتّى اسودّت وبكت حتّى عميت وصلّت حتّى أقعدت فكانت تصلّي قاعدة فسلّمنا عليها ثمّ ذكرناها شيئاً من العفوليهوّن عليها الأمر قال : فشهقت ثمّ قالت : علمي بنفسي قرح فؤادي و كلم كبدي ، والله لوددت أنّ الله لم يخلقني و لم أك شيئاً مذكوراً ، ثمّ أقبلت على صلاتها .

فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرّجال والنساء من المجتهدين لينبعث نشاطك و يزيد حرصك ، و إيّاك أن تنظر إلى أهل عصرك فإنّك إن تطع أكثر من في الأرض يضلّوك عن سبيل الله ، و حكايات المجتهدين غير محصورة و فيما ذكرناه كفاية للمريد ، و إن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم و بالوقوف عليه يستبين لك بُعدك وبُعد أهل عصرك من أهل الدّين فإن حدّثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك و قالت : إنّما تيسّر الخير في ذلك الزّمان لكثرة الأعوان ، والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً و سخروا بك فوافقهم فيماهم فيه وعليه فلا يجري عليك إلّا مايجري عليهم والمصيبة إذا عمّت

طابت ، فإيّاك أن تتدلّى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها و قل لها : أرأيت لوهجم سيل جارف يغرق أهل البلد و ثبتوا على مواضعهم و لم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال و قدرت على أن تفارقيهم و تركبي سفينة تنجو بها من الغرق فهل يختلج في نفسك أنّ المصيبة إذا عمّت طابت أم تتركين موافقتهم وتستجهليهم في صنيعهم وتأخذين حذرك ممّا دهاك فإذا كنت تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق وعذاب الغرق لا يكون إلّا ساعة فكيف لاتهربين من عذاب الأبد و أنت متعرّضة له في كلّ حال و من أين تطيب المصيبة إذا عمّت ولأهل النّار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص و لم يهلك الكفّار إلّا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا : « إنّا وجدنا آباءنا على اُمّة و إنّا على آثارهم مقتدون » فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك أن تعمد على الاجتهاد و إن استعصت فلا تترك معاتبتها و توبيخها و تقريعها و تعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها .

❁(المرابطة السادسة في توبيخ النّفس و معاتبتها)❁

إعلم أنّ أعدى عدوّك نفسك الّتي هي بين جنبيك و قد خلقت أمّارة بالسّوء ميّالة إلى الشرّ فرّارة من الخير واُمرت بتزكيتها و تقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربّها و خالقها و بمنعها عن شهواتها و فطامها عن لذّاتها فإن أهملتها شردت وجمحت ولم تظفر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللّوامة الّتي أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنّة المدعوّة إلى أن تدخل في زمرة عبادالله راضية مرضيّة فلا تغفلنّ ساعة عن تذكيرها و معاتبتها ولا تشتغلنّ بوعظ غيرك مالم تشتغل أوّلاً بوعظ نفسك .

أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام «ياابن مريم عظ نفسك فإن اتّعظت فعظ النّاس و إلّا فاستحي منّي » و قال تعالى : « و ذكّر فإنّ الذّكرى تنفع المؤمنين » (١) و سبيلك أن تقبل عليها فتقرّر عندها جهلها و غباوتها فإنّها أبداً تتعزّز بفطنتها وهدايتها وتشتدّ أنفتها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك

(١) الذاريات : ٥٥ .

تدّعين الحكمة والذّكاء والفطنة و أنت أشدّ الناس غباوة و حمقاً أما تعرفين ما بين يديك من الجنّة والنار و أنت صائرة إلى إحديهما على القرب فمالك تفرحين و تضحكين وتشتغلين باللّهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غداً فأراك ترين الموت بعيداً ويراه الله تعالى قريباً أما تعلمين أنّ كلّ ما هو آت قريب وأنّ البعيد ما ليس بآت ، أما تعلمين أنّ الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول و من غير مواعدة ومواطأة ، و أنّه لا يأتي في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في سنّ الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كلّ نفَس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثمّ يفضي إلى الموت فمالك لا تستعدّين للموت و هو أقرب إليك من كلّ قريب أما تتدبّرين قوله تعالى : « اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ۞ ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث إلاّ استمعوه وهم يلعبون ۞ لاهية قلوبهم» (١) ويحك يا نفس جرأتك على معصية الله إن كانت لاعتقادك أنّ الله لا يراك فما أعظم كفرك و إن كانت مع علمك باطّلاعه عليك فما أشدّ وقاحتك وأقلّ حياءك ويحك لو واجهك أخ من إخوانك بل عبد من عبادك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه و مقتك له فبأيّ جسارة تتعرّضين لمقت الله تعالى و غضبه و شديد عقابه أفتظنّين أنّك تطيقين عذابه هيهات هيهات جرّبي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمّام أو قرّبي أصبعك من النار ليتبيّن لك قدر طاقتك أم تغترين بكرم الله عزّ وجلّ و فضله و استغنائه عن طاعتك و عبادتك فمالك لا تعولين على كرم الله في مهمّات دنياك فإذا قصدك عدوّ فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله عزّ وجلّ ، و إذا أرهقك حاجة إلى شهوة من شهوات الدّنيا ممّا لا ينقضي إلاّ بالدينار والدّرهم فما لك تنزعين الرّوح في طلبه و تحصيله من وجوه الحيل ؟ فلم لا تعولين على كرم الله عزّ و جلّ حتّى يعينك على ذلك أو يسخّر عبداً من عبيده ليحمل إليك حاجتك من غير سعيك و طلبك أفتحسبين

(١) الانبياء : ٢ و ٣ و ٤ .

أنّ الله كريم في الآخرة دون الدّنيا و قد عرفت أنّ سنّة الله لا تبديل لها وأنّ ربّ الدّنيا والآخرة واحد وأن ليس للإنسان إلّا ما سعى ، ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك و كثرة دعاويك الباطلة فإنّك تدّعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيّدك ومولاك : « وما من دابّة في الأرض إلّا على الله رزقها »[1] وقال في أمر الآخرة : « و أن ليس للإنسان إلّا ما سعى[2] » فقد تكفّل لك بأمر الدّنيا خاصّة و صرفك عن السّعي لها فكذّبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر و وكّل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ما هذا من علامات الايمان فلو كان الايمان باللّسان فلما ذا كان المنافقون في الدّرك الأسفل من النّار . و يحك كأنّك لا تؤمنين بيوم الحساب و تظنّين أنّك إذا متّ انفلتّ و تخلّصت وهيهات أتحسبين أن تتركي سدى ، ألم تكوني نطفة من منيّ يمنى ، ثمّ كنت علقة فخلق فسوّى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى، فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك و أجهلك أما تتفكّرين أنّه ممّا ذا خلقك من نطفة خلقك فقدّرك ثمّ السبيل يسّرك ، ثمّ أماتك فأقبرك أفتكذّبينه في قوله « ثمّ إذا شاء أنشرك »؟ فإن لم تكوني مكذّبة فما بالك لا تأخذين حذرك ولو أنّ يهوديّاً أخبرك في ألذّ أطعمتك بأنّه يضرّك في بدنك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الأنبياء المؤيّدين بالمعجزات و قول الله عزّ وجلّ في كتبه المنزلة أقلّ عندك تأثيراً من قول يهوديّ يخبرك عن حدس و تخمين وظنّ مع نقصان عقل و قصور علم ؟! و العجب أنّه لو أخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعته في الحال من غير مطالبة له ببرهان و دليل أكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء و كافّة الأولياء أقلّ عندك من قول صبيّ من جملة الأغبياء ؟ أو صار حرّ جهنّم وصديدها و أغلالها وأنكالها و زقّومها و مقامعها و حديدها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من لدغ عقرب لا تحسّين بألمه إلّا يوماً أو أقلّ ؟ ما هذا من أفعال العقلاء بل لو انكشف للبهائم حالك لضحكوا منك و سخروا من عقلك . فإن كنت قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوّفين العمل

---

(١) هود : ٦ . (٢) النجم : ٣٩ .

والموت لك بالمرصاد ولعلّه يختطفك من غير مهل فبماذا أمنت استعجال الأجل . وهب إنّك وعدت الإمهال ألف سنة أفتظنّين أنّ من لايعلف الدّابة في حضيض العقبة يفلح و يقدر على قطع العقبة بها ؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك ، أرأيت لو سافر رجل ليتفقّه في الغربة فأقام فيها سنين متعطّلاً بطّالاً يعد نفسه بالتفقّه في السنة الأخيرة من رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله و ظنّه أن تفقيه النفس ممّا يطمع فيه بمدّة قريبة ، أوحسبانه أنّ منازل الفقهاء تنال من غير تفقّه اعتماداً على كرم الله سبحانه ، ثمّ هب أنّ الجهد في آخر العمر نافع و أنّه موصل إلى الدّرجات العلى فلعلّ اليوم آخر عمرك فلم لاتشتغلين به فان اُوحي إليك بالإمهال فما المانع لك من المبادرة و ما الباعث لك على التسويف هل له سبب إلّا عجزك عن مخالفة شهوتك لما فيه من التعب و الشقّة أفتنتظرين يوماً يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلقه الله و لايخلقه و لاتكون الجنّة قطّ إلّا محفوفة بالمكاره ، ولايكون المكاره قطّ خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده ، أماتتأمّلين منذ كم تعدين نفسك وتقولين: غداً غداً ، فقد جاء الغد و صار يوماً فكيف وجدته ، أما علمت أنّ الغد الّذي جاء و صار يوماً كان له حكم الأمس لابل ما تعجزين عنه اليوم فأنت غداً عنه أعجز وأعجز لأنّ الشهوة كالشجرة الرّاسخة الّتي تعبّد الرّجل على قلعها فاذا عجز عن قلعها للضعف وأخّرها كان كمن عجز عن قلع شجرة وهو شابٌّ قويٌّ فأخّرها إلى سنة اُخرى مع العلم بأنّ طول المدّة يزيد الشجرة قوّة ورسوخاً و يزيد القالع ضعفاً ووهناً فما لايقدر عليه في الشباب فلا يقدر عليه قطٌّ في المشيب ، بل من العناء رياضة الهرم ، و من التعذيب تهذيب الذّئب ، والقضيب الرّطب سهل الانحناء فاذا جفّ و طال عليه الزّمان لم يقبله ، فاذا كنت لاتفهمين هذه الاُمور الجليّة و تركنين إلى التسويف فمالك تدّعين الحكمة وأيّة حماقة تزيد على هذه الحماقة و لعلّك تقولين مايمنعني عن الاستقامة إلّا حرصي على لذّة الشهوات وقلّة صبري على الآلام و المشقّات فما أحمقك و أقبح اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعّم بالشهوات الصافية عن الكدورات أبد الآباد و لامطمع في ذلك إلّا في الجنّة فان كنت ناظرة لنفسك فالنظر

لها في مخالفتها فرب أكلة تمنع أكلات، و ما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح و يتهنأ لشربه طول العمر و أخبر أنه إن شربه مرض مرضاً مزمناً و امتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم طول العمر أم يقضي شهوته في الحال خوفاً من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر و إن طالت مدته، و ليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة و أطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم؟! فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟. ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وعظم قدر الثواب و العقاب و أما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى و عفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز وحبة من المال وكلمة واحدة تسمعينها من الخلق، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من النبي ﷺ حيث قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، و الأحمق من أتبع نفسه هواها و تمنى على الله الأماني»(١) و يحك يا نفس لا ينبغي أن تغرنك الحياة الدنيا و لا يغرنك بالله الغرور، فانظري لنفسك فيما أمرك و لا تضيعي أوقاتك فإن الأنفاس معدودة و إذا مضى نفس منك فقد مضى بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، و الفراغ قبل الشغل، و الغنى قبل الفقر و الشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت، و استعدي للآخرة على قدر بقائك فيها أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب واللبد والجبة ولا تتكلين في ذلك على فضل الله و كرمه حتى يدفع البرد عنك من غير جبة ولبد وحطب فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أن زمهرير جهنم أخف برداً أو أقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن وتقدم غير مرة.

هيهات كما لا يندفع برد الشتاء إلّا بالجبّة و النار و سائر الأسباب فلا يندفع حرّ النار و بردها إلا بحصن التوحيد و خندق الطاعات و إنّما كرم الله عزّ وجلّ في أن عرّفك طريق التحصّن ويسّر لك أسبابه لافي أن يدفع عنك العذاب دون حصنه كما أنّ كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النّار و هداك لطريق استخراجها من بين حديدة و حجر حتّى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك و كما أنّ شرى الحطب و الجبّة ممّا يستغنى عنه خالقك و مولاك و إنّما تشترينه لنفسك إذ جعله سبباً لاستراحتك و طاعتك و مجاهدتك أيضاً هو مستغن عنها و إنّما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه و من أساء فعليها والله غنيّ عن العالمين ، و يحك انزعي عن جهلك و قيسي آخرتك بدنياك «فما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة و كما بدأكم تعودون» وسنّة الله لن تجدلها تبديلاً ولا تحويلاً ، و ما أراك إلاّ ألفت الدّنيا و أنست بها فعسرت عليك مفارقتها و أنت مقبلة على مقاربتها و تؤكّدين نفسك مودّتها ، فاحسبي أنّك غافلة عن عقاب الله و ثوابه و عن أهوال يوم القيامة وأحوالها فما أنت موقنة بالموت المفرّق بينك وبين محابّك ، أفترى أنّ من دخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فمدّ بصره إلى وجه مليح يعلم أنّه يستغرق ذلك قلبه ثمّ يضطرّ لا محالة إلى مفارقته أهو معدود من العقلاء أم من الحمقاء ، أما تعلمين أنّ الدّنيا دار لملك الملوك و ما أنت فيها إلّا مجتاز و كلّ ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت و لذلك قال سيّد البشر عليه السلام : «إنّ روح القدس نفث في روعي أحبب ما أحببت فإنّك مفارقه ، و عش ما شئت فإنّك ميّت ، و اعمل ما شئت فإنّك مجزيّ به (١)» أما تعلمين أنّ كلّ من التفت إلى ملاذّ الدنيا و أنس بها مع أنّ الموت من ورائه فإنّما يستكثر من الحسرة عند المفارقة وإنّما يتزوّد من السمّ المهلك و هو لا يدري ، أو ما تنظرين إلى الّذين مضوا كيف بنوا و علوا ثمّ ذهبوا و خلوا ، و كيف أورث الله أرضهم و ديارهم أعداءهم ، أما تراهم كيف يجمعون ما لا يأكلون و يبنون ما لا يسكنون و يأمّلون ما لا يدركون ، يبني كلّ واحد قصراً

---

(١) تقدم فى العلم وغيره .

مرفوعاً إلى جهة السّماء، و مقرّه قبر محفور تحت الأرض فهل في الدّنيا حمق و انتكاس أعظم من هذا يعمر الواحد دنياه و هو مرتحلٌ عنها يقيناً و يخرب آخرته و هو صائر إليها قطعاً، أما تستحين من مساعدة هؤلاء على حماقتهم و احسبي أنّك لست ذات بصيرة تهتدين إلى هذه الاُمور وإنّما تميلين بالطبع إلى التشبّه والاقتداء فقيسي عقل الأنبياء و الحكماء و العلماء بعقل هؤلاء المكبّين على الدّنيا و اقتدي بين الفريقين بمن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقل والذّكاء يا نفس ما أعجب أمرك و أشدّ جهلك و أظهر طغيانك، عجباً لك كيف تعمين عن هذه الاُمور الواضحة الجليّة فلعلّك أسكرك حبّ الجاه و أدهشك عن فهمها أو ما تتفكّرين في أنّ الجاه لا معنى له إلّا ميل قلوب الناس إليك فاحسبي أنّ كلّ من على وجه الأرض سجدوا لك و أطاعوك أفما تعرفين أنّ بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولاأحد ممّن على وجه الأرض ممّن عبدك و سجد لك و سيأتي زمان لا يبقى ذكرك و ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الّذين كانوا من قبلك فهل تحسّ منهم من أحد أوتسمع لهم ركزاً. فكيف تبيعين ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة لو بقي هذا إن كنت ملكاً من ملوك الأرض سلّم لك الشرق و الغرب حتّى أذعنت لك الرّقاب و انتظمت لك الأسباب كيف و يأبى إدبارك و شقاوتك أن يسلّم لك أمر محلّتك بل أمر دارك فضلاً عن محلّتك فإن كنت لاتتركين الدّنيا رغبة في الآخرة لجهلك و عمى بصيرتك فما لك لاتتركينها ترفّعاً عن خسّة شركائها، و تنزّهاً عن كثرة عنائها، و توقّياً من سرعة فنائها أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرها، و مالك تفرحين بدنيا إن ساعدتك فلاتخلو بلدك عن جماعة من يهود أو مجوس يسبقونك بها و يزيدون عليك في نعيمها و زينتها فاُفّ لدنيا سبقك بها هؤلاء الأخسّاء، فما أجهلك وأخسّ همّتك وأسقط رأيك إذ رغبت عن أن تكوني في زمرة المقرّبين من الصدّيقين و النبيّين في جوار ربّ العالمين أبد الآبدين لتكوني في صفّ النعال من جملة الحمقى الجاهلين أيّاماً قلائل، فيا حسرة عليك إذخسرت الدّنيا والدّين، فبادري ويحك فقد أشرفت على الهلاك و اقترب الموت وورد النذير

فمن ذا يصلّي عنك بعد الموت و من ذا يصوم عنك بعد الموت و من ذا يرضى ربّك بعد الموت ، مالك إلّا أيّام معدودة هي بضاعتك إن اتّجرت فيها و قد ضيّعت أكثرها فلو بكيت بقيّة عمرك على ما ضيّعت منها لكنت مقصّرة في حقّ نفسك فكيف إذا ضيّعت البقيّة و أصررت على عادتك ، أما تعلمين أنّ الموت موعدك و القبر بيتك و التّراب فراشك و الدّود أنيسك و الفزع الأكبر بين يديك . أما علمت أنّ عسكر الموتى على باب البلد ينتظرونك و قد آلوا كلّهم (١) على أنفسهم بالأيمان المغلظة أنّهم لا يبرحون من مكانهم مالم يأخذوك إلى أنفسهم . أما تعلمين أنّهم يتمنّون الرّجعة إلى الدّنيا يوماً ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم فأنت في اُمنيّتهم ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه وأنت تضيّعين أيّامك في الغفلة و البطالة ، ويحك أما تستحين تزيّنين ظاهرك للخلق وتبارزين الله تعالى بالعظائم أفتستحين من الخلق ولا تستحين من الخالق ، ويحك أهو أهون الناظرين إليك ويحك أتأمرين الناس بالخير و أنت متلطّخة بالرّذائل تدعين إلى الله و أنت منه فارّة و تذكرين الله وأنت له ناسية ، أما تعلمين أنّ المذنب أنتن من العذرة و أنّ العذرة لا تطهّر غيرها فلم تطمعين في تطييب غيرك و أنت غير طيّبة في نفسك و يحك لو عرفت نفسك حقّ المعرفة لظننت أنّ الناس لا يصيبهم بلاء إلّا لشؤمك ، ويحك و قد جعلت نفسك حماراً لإبليس يقودك إلى حيث يريد و يسخر بك و مع هذا فتعجبين بعملك و فيه من الآفات ما لو نجوت منه رأساً برأس لربحت فكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك . و قد لعن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن كان عبده مائتي ألف سنة و أخرج آدم من الجنّة بخطيئة واحدة مع كونه نبيّه وصفيّه . ويحك يا نفس ما أعذرك ، ويحك يا نفس ما أوقحك ، ويحك يا نفس ما أجهلك وما أجرأك على المعاصي ويحك كم تعقدين فتنقضين ، ويحك كم تعهدين فتغدرين ، ويحك أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنّك غير مرتحلة عنها ، أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا قد جمعوا كثيراً و بنوا شديداً و أمّلوا بعيداً فأصبح جمعهم بوراً و بنيانهم قبوراً و

---

(١) أي أقسموا وحلفوا على أنفسهم .

أملهم غروراً ، أما لك بهم عبرة أما لك إليهم نظرة أتظنّين أنّهم دعوا إلى الآخرة و أنت من الخالدين هيهات هيهات ساء ما تتوهّمين ما أنت إلّا في هدم عمرك منذسقطت من بطن اُمّك فابني على ظهر الأرض قصرك فإنّ بطنها عن قليل يكون قبرك ، أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقي أن تبدو رسل ربّك منحدرة إليك بسواد الألوان و كلح الوجوه و بشّروك بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء ، و العجب كلّ العجب منك أنّك مع هذا تدّعين البصيرة و الفطنة و من فطنتك أنّك تفرحين كلّ يوم بزيادة مالك و لاتحزنين بنقصان عمرك و ما نفع مال يزيد و عمر ينقص . ويحك يا نفس تعرضين عن الآخرة و هي مقبلة عليك و تقبلين على الدنيا و هي معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوماً لم يستكمله و كم من مؤمّل لغد لم يبلغه وأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك وترين تحسّرهم عند الموت ثمّ لا ترجعين عن جهالتك فاحذري يا مسكينة يوماً آلى الله تعالى فيه على نفسه أن لا يترك فيه عبداً أمره في الدّنيا و نهاه حتّى يسأله عن عمله دقيقه و جليله سرّه و علانيته ، فانظرى بأيّ بدن تقفين بين يديه و بأيّ لسان تجيبين وأعدّي للسؤال جواباً و للجواب صواباً و اعملي بقيّة عمرك في أيّام قصار لأيّام طوال و في دار زوال لدار مقامة ، و في دار حزن و نصب لدار نعيم و خلود ، و اعملي قبل أن لا تعملي و اخرجي من الدّنيا اختياراً خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار ، و لا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدّنيا فربّ مسرور مغبون وربّ مغبون لا يشعر فويلٌ لمن له الويل ثمّ لايشعر ، يضحك ويفرح ويمرح ويأكل ويشرب ويلهو ، وقد حقّ له في كتاب الله أنّه من وقود النار ، فليكن نظرك يا نفس إلى الدّنيا اعتباراً و سعيك لها اضطراراً و رفضك لها اختياراً و طلبك للآخرة ابتداراً و لا تكوني ممّن يعجز عن شكر ما أوتي و يبتغي الزّيادة فيما بقي و ينهى النّاس و لا ينتهي ، و اعلمي أنّه ليس للدّين عوض و لا للإيمان بدلٌ و لا للجسد خلفٌ و من كانت مطيّته اللّيل و النّهار فإنّه يسار به و إن لم يسر ، فاتّعظي يا نفس بهذه الموعظة و اقبلي هذه النصيحة فإنّ من أعرض عن الموعظة

فقد رضي بالنّار و ما أراك بها راضية و لالهذه الموعظة واعية و إن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجّد و القيام ، فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام ، فإن لم تزل فبقلّة المخالطة والكلام فإن لم تزل فبصلة الأرحام و اللّطف بالأيتام ، فإن لم تزل فاعلمي أنّ الله قد طبع على قلبك و أقفل عليه و أنّه قد تراكمت ظلمة الذّنوب على ظاهره و باطنه فوطّني نفسك على النّار فقد خلق الله الجنّة و خلق لها أهلاً و خلق النار و خلق لها أهلاً و كلٌّ ميسّر لما خلق له ، فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك و القنوط كبيرة من الكبائر نعوذ بالله منها ، فلا سبيل لك إلى القنوط و لا سبيل لك إلى الرّجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإنّ ذلك اغترار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة الّتي ابتليت بها و هل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن سمحت فمستقى الدّمع من بحر الرّحمة فقد بقي فيك موضع للرّجاء فواظبي على النياحة و البكاء و استغيثي بأرحم الرّاحمين و اشتكي إلى أكرم الأكرمين و أدمني الاستغاثة و لا تملّي طول الشكاية لعلّه أن يرحم ضعفك ويغيثك فإنّ مصيبتك قد عظمت وبليّتك قد تفاقمت و تماديك قد طال و قد انقطعت منك الحيل و زاحت عنك العلل فلامذهب و لامطلبَ و لامستغاثَ و لا مهربَ و لا منجا و لاملجأ إلّا إلى مولاك ، فافزعي إليه بالتضرّع و اجزعي في تضرّعك على قدر عظم جرمك و كثرة ذنوبك فإنّه يرحم المتضرّع الذّليل و يغيث الطالب المتلهّف و يجيب دعوة المضطرّ الذّليل و قد أصبحت إليه مضطرّة و إلى رحمته محتاجة و قدضاقت بك السبل و انسدّت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل و لم تنجع فيك العظات ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم ، والمسؤول عنه جواد ، والمستغاث به برٌّ رؤوف ، و الرّحمة واسعة ، و الكرم فائض ، و العفوشامل و قولي : يا أرحم الرّاحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا كريم أنا المذنب المصرّ أنا الجريء الّذي لا أقلع ، أنا المتمادي الّذي لا استحي ، هذا المقام مقام المتضرّع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق فعجّل إغاثتي وفرجي و أرني آثار رحمتك

و أذقني برد عفوك ومغفرتك وارزقني قوّة عصمتك يا أرحم الرّاحمين ، اقتداءً بأبيك آدم عليه السلام فقد قال وهب بن منبّه : لمّا أهبط الله عزّ و جلّ آدم إلى الأرض من الجنّة مكث لاترقأ له دمعة فأطلع الله عليه في اليوم السابع و هو محزون كئيب كظيم منكّس الرأس فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ما هذا الجهد الّذي أرى بك قال : يا ربّ عظمت مصيبتي و أحاطت بي خطيئتي واُخرجت من ملكوت ربّي فصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار الشقاء بعد السعادة و في دار النّصب بعد الرّاحة و في دار البلاء بعد العافية و في دار الزّوال بعد القرار و في دار الموت و الفناء بعد الخلود و البقاء فكيف لا أبكي على خطيئتي ؟ فأوحى الله عزّ وجلّ إليه ياآدم ألم أصطفك لنفسي وأحللتك داري و خصصتك بكرامتي وحذّرتك سخطي ؟ ألم أخلقك بيدي و نفخت فيك من روحي و أسجدت لك ملائكتي فعصيت أمري و نسيت عهدي و تعرّضت لسخطي فوعزّتي و جلالي لوملأت الأرض رجالاً كلّهم مثلك يعبدونني و يسبّحونني ثمّ عصوني لأنزلتهم منازل العاصين فبكى آدم عند ذلك ثلاثمائة عام .

و كان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول في بكائه طول اللّيلة : إلهي أنا الّذي كلّما طال عمري زادت ذنوبي ، أنا الّذي كلّما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة اُخرى ، و اعبيداه خطيئة لم تبلُ وصاحبها في طلب اُخرى ، و اعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً و مأوى ، واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيّأ ، و اعبيداه قضيت حاجة الطالبين و لعلّ حاجتك لاتقضى .

و قال منصور بن عمّار : سمعت بعض اللّيالي بالكوفة عابداً يناجي ربّه عزّوجلّ و هو يقول : يا ربّ و عزّتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك و لا عصيتك إذ عصيتك و أنا بمكانك جاهل و لا لعقوبتك متعرّض و لا لنظرك مستخفّ و لكن سوّلت لي نفسي و أعانني على ذلك شقوتي و غرّني سترك المرخى عليّ فأقدمت على معصيتك بجهلي و خالفتك بفعلي فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عنّي واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفّين جوزوا ، وللمثقلين : حطّوا ، أمع المخفّين أجوز أم مع المثقلين أحطّ ، ويلي كلّما

كبرت سنّي كثرت ذنوبي ، و يلي كلّما طال عمري كثرت معاصيّ ، فإلى متى أتوب وفي كم أعود أما آن لي أن أستحي من ربّي .

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم و في معاتبة نفوسهم و إنّما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً و يوشك أن لا يكون الله عنه راضياً .

تمّ كتاب المحاسبة و المراقبة من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء و لله الحمد و المنّة ، و يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب التفكّر و الحمد لله ربّ العالمين و الصلوة و السلام على أنبيائه و أوليائه أجمعين سيّما أفضلهم و أكرمهم محمّد و آله الطاهرين آمين .

كتاب التفكّر

و هو الكتاب التاسع من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الاحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي لم يقدّر لانتهاء عزّته نحواً ولا قُطراً ، ولم يجعل لمراقي أقدام الأوهام و مرمى سهام الأفهام إلى حمى عظمته مجرى ، و ترك قلوب الطالبين في بيداء كبريائه والهة حيرى ، كلّما اهتزّت لنيل مطلوبها ردّتها سبحات الجلال قسراً ، وإذا همّت بالانصراف آئسة نوديت من سرادقات الجمال صبراً صبراً ، ثمّ قيل لها أجيلي في ذلّ العبوديّة منك فكراً لأنّك لو تفكّرت في جلال الرّبوبيّة لم تقدّري له قدراً ، و إن طلبت وراء التفكّر في صفاتك أمراً فانظري في نعم الله و أياديه كيف توالت عليك تترى ، و جدّدي لكلّ نعمة منها ذكراً و شكراً ، و تأمّلي في بحار المقادير كيف فاضت على العالمين خيراً و شرّاً ، و نفعاً و ضرّاً ، و عسراً و يسراً ، و ربحاً و خسراً ، و جبراً و كسراً ، و طيّاً و نشراً ، و إيماناً و كفراً ، و عرفاناً ونكراً ، وإن جاوزت النظر في الأفعال إلى النظر في الذّات فقد حاولت أمراً إمراً[1] وخاطرت بنفسك مجاوزة حدّ طاقة البشر ظلماً و جوراً ، فقد انبهرت العقول دون مبادي إشراقه و انتكصت على أعقابها اضطراراً و قهراً .

و الصلاة على محمّد المصطفى إذ كان سيّد ولد آدم و لم يعدّ سيادته فخراً صلاة تبقى لنا في عرصات القيامة عدّة و ذخراً ، و على آله و أصحابه الّذين أصبح كلّ واحد منهم في سماء الدّين بدراً و لطوائف المسلمين صدراً و سلّم .

(١) اى امراً منكراً .

أما بعد فقد وردت السنّة بأنّ تفكّر ساعة خير من عبادة سنة [١] و كثر الحثّ في كتاب الله عزّ وجلّ على التدبّر والاعتبار و النظر و الافتكار، ولايخفى أنّ الفكر هو مفتاح الأنوار و مبدء الاستبصار و هو شبكة العلوم و مصيدة المعارف و الفهوم، و أكثر الناس قد عرفوا فضيلته و رتبته لكن جهلوا حقيقته و ثمرته و مصدره و مورده و مجراه و مسرحه و طريقه و كيفيته، و لم يعلم أنّه كيف يتفكّر و فيما ذا يتفكّر و لما ذا يتفكّر و ما الّذي يطلب به أهو مراد لعينه أو لثمرة تستفاد منه و إن كان لثمرة فما تلك الثمرة أهي من العلوم أو من الأحوال أو منهما جميعاً و كشف جميع ذلك مهمّ و نحن نذكر أوّلاً فضيلة التفكّر، ثمّ حقيقة التفكّر و ثمرته، ثمّ مجاري الفكر و مسارحه إن شاء الله.

✲(فضيلة التفكّر)✲

قد أمر الله تعالى بالتفكّر و التدبّر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى و أثنى على المتفكّرين فقال تعالى: «و يتفكّرون في خلق السموات و الأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً [٢]» و قد قال ابن عبّاس: إنّ قوماً تفكّروا في الله عزّ وجلّ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «تفكّروا في خلق الله و لا تتفكّروا في الله فإنّكم لن تقدروا قدره» [٣] و عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «أنّه خرج على قوم ذات يوم و هم يتفكّرون فقال ما لكم لاتتكلّمون؟ فقالوا: نتفكّر في خلق الله عزّ وجلّ، قال: فكذلك فافعلوا تفكّروا في خلقه و لا تتفكّروا فيه فإنّ بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها و

(١) رواه ابن حبان فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة بلفظ «ستين سنة» ورواه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث انس بلفظ «ثمانين سنة» و رواه أبو-الشيخ فى كتاب العظمة من قول ابن عباس (المغنى) أقول: ورواه بلفظه العياشى فى تفسيره من حديث جعفر بن محمد عليهما السلام كما فى البحار الجزء الثانى من المجلد الخامس عشر ص ١٩٥.

(٢) آل عمران: ١٩١.

(٣) رواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس كما فى الجامع الصغير.

بياضها نورها مسيرة الشّمس أربعين يوماً بها خلق من خلق الله عزّ وجلّ لم يعصوا الله طرفة عين ، قالوا : يا رسول الله فأين الشيطان عنهم قال : ما يدرون خلق الشيطان أم لا ، قالوا : من ولد آدم قال : لا يدرون خلق آدم أم لا[(١)] » و « عن عطاء قال : انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة وبيننا وبينها حجاب فقالت: ياعبيد مايمنعك من زيارتنا فقال قول النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « زرغباً تزدد حبّاً » فقال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : فبكت وقالت : كلّ أمره كان عجباً أتاني في ليلتي حتّى مسّ جلدي جلده ثمّ قال : ذريني أتعبّد لربّي عزّ وجلّ فقام إلى القربة فتوضّأ منها ثمّ قام يصلّي فبكى حتّى بلّ لحيته ، ثمّ سجد حتّى بلّ الأرض ، ثمّ اضطجع على جنبه حتّى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال : يارسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر فقال : ويحك يا بلال مايمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليّ في هذه اللّيلة « إنّ في خلق السموات والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأولي الألباب »[(٢)] ثمّ قال : ويل لمن قرأها ولم يتفكّر فيها »[(٣)] .

وقيل للأوزاعي : ما غاية التفكّر فيهنّ ؟ قال : تقرأهنّ وتعقلهنّ .

أقول : ومن طريق الخاصّة عن أمير المؤمنين عليه السلام « التفكّر يدعو إلى البرّ والعمل به[(٤)] » .

وعن الصادق عليه السلام « أفضل العبادة إدمان التفكّر في الله وفي قدرته[(٥)] » .

وعنه عن عليّ عليه السلام « نبّه بالتفكّر قلبك ، وجاف عن اللّيل جنبك ، واتّق الله ربّك[(٦)] » .

---

(١) أخرج صدره ابن أبي حاتم والبيهقي في الاسماء والصفات عن ابن عباس كما في الدر المنثور ج٢ ص ١١٠ وقال العراقي رويناه في جزء من حديث عبدالله بن سلام .

(٢) آل عمران : ١٩٠ .

(٣) أخرجه عبد بن حميد و ابن أبي الدنيا في التفكر و قد تقدم في كتاب الصبر والشكر .

(٤) و (٥) الكافي ج ٢ ص ٥٥ تحت رقم ٥ و٣ .

(٦) المصدر ج ٢ ص٥٤ تحت رقم ١ .

وعن الرّضا عليه السلام « ليس العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، إنّما العبادة التفكّر في أمر الله تعالى [١] » .

قال أبو حامد : وعن محمّد بن واسع أنّ رجلاً من أهل البصرة ركب إلى أُمّ ذرّ بعد موت أبي ذرّ فسألها عن عبادة أبي ذرّ فقالت : كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكّر . وقال بعض السّلف : تفكّر ساعة خير من قيام ليلة ، وقال آخر : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيّئاتك ، وقال آخر : الفكرة مخّ العقل وقد قيل:

إذا المرء كانت له فكرة ☆ ففي كلّ شيء له عبرة

وروي أنّ الحواريّين قالوا لعيسى ابن مريم عليه السلام : هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال : نعم من كان منطقه ذكراً وصمته فكراً ونظره عبرة فإنّه مثلي

وقال بعض السلف : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ، ومن لم يكن سكوته تفكّراً فهو سهو ، ومن لم يكن نظره اعتباراً فهو لهو . وفي قول الله عزّ وجلّ : « سأصرف عن آياتي الّذين يتكبّرون في الأرض بغير الحقّ [٢] » قال : أمنع قلوبهم من التفكّر في أمري .

وعن أبي سعيد الخدريّ قال : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « اعطوا أعينكم حظّها من العبادة ، قالوا : وما حظّها من العبادة يارسول الله ؟ قال : النظر في المصحف والتفكّر فيه والاعتبار عند عجائبه [٣] » .

وعن امرأة كانت تسكن البادية قريباً من مكّة أنّها قالت لو تطالعت قلوب المتّقين بفكرها إلى ماقد ادّخر في حجب الغيوب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدّنيا عيش ولم تقرّ لهم في الدّنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمرّ به مولاه فيقول : يالقمان إنّك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس لكان آنس لك ، فيقول

---

(١) الكافي ج ٢ ص ٥٥ تحت رقم ٤ .

(٢) الاعراف : ١٤٥ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر ، و من طريقه ابو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة كما في المغني .

لقمان : إنّ طول الوحدة أفهم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنّة ، وقال وهب بن منبّه : «ما طالت فكرة امرء قطّ إلّا علم وما علم امرؤ قطّ إلّا عمل ، وعن ابن عبّاس ركعتان مقتصرتان في تفكّر خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب ، وقال بعضهم : الفكر في الدّنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيي القلب ، وقال آخر : من العبرة يزيد العلم ومن الذّكر يزيد الحبّ ومن التفكّر يزيد الخوف ، وقال ابن عبّاس - رضي الله عنه -: التفكّر في الخير يدعو إلى العمل به والندم على الشرّ يدعو إلى تركه ، ويروى أنّ الله عزّ وجلّ قال في بعض كتبه : إنّي لست أقبل كلام كلّ حكيم ولكن أنظر إلى همّه وهواه فإذا كان همّه وهواه لي جعلت صمته تفكّراً وكلامه حمداً وإن لم يتكلّم . وقال بعض السلف : إنّ أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذّكر على الفكر وبالفكر على الذّكر حتّى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة ، وقال آخر : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسّم بنسيم المعرفة ، والشرب بكأس المحبّة من بحر الوداد ، والنظر بحسن الظنّ بالله تعالى ثمّ قال : يالها من مجالس ما أجلّها ومن شراب ما ألذّه طوبى لمن رزقه ، قال بعض السّلف : استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكرة ، وقال أيضاً : صحّة النظر في الأمور نجاة من الغرور ، والعزم في الرّأي سلامة من التفريط والنّدم والرّؤية والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوّة في البصيرة ، ففكّر قبل أن تعزم ، وتدبّر قبل أن تهجم ، وشاور قبل أن تندم ، وقال أيضاً : الفضائل أربع إحداها الحكمة وقوامها الفكرة ، و الثانية العفّة و قوامها في الشّهوة ، و الثالثة القوّة و قوامها في الغضب والرّابعة العدل وقوامه في اعتدال قوى النفّس . فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحدٌ في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

✡ (بيان حقيقة الفكر و ثمرته) ✡

اعلم أنّ معنى الفكر هو إحضار معرفتين في النّفس ليستثمر منهما معرفة ثالثة ومثاله أنّ من مال إلى العاجلة و آثر الحياة الدّنيا وأراد أن يعرف

أنّ الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقان أحدهما أن يسمع من غيره أنّ الآخرة أولى بالإيثار فيقلّده ويصدّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل بعمله إلى إيثار الآخرة اعتماداً على مجرّد قوله وهذا يسمّى تقليداً ولا يسمّى معرفة والطريق الثاني أن يعرف أنّ الأبقى أولى بالإيثار ثمّ يعرف أنّ الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفة ثالثة وهي أنّ الآخرة أولى بالإيثار، ولايمكن تحقّق المعرفة بأنّ الآخرة أولى بالإيثار إلّا بالمعرفتين السابقتين فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصّل به إلى المعرفة الثالثة يسمّى تفكّراً واعتباراً وتذكّراً ونظراً وتأمّلاً وتدبّراً. أمّا التأمّل والتدبّر والتفكّر فعبارات مترادفة على معنى واحد ليست تحتهامعان مختلفة، فأمّا اسم التذكّر والاعتبار والنظر فهي مختلفةالمعاني وإن كان أصل المسمّى واحداً كما أنّ اسم الصارم والسيف والمهنّد يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصّارم يدلّ على السّيف من حيث هو قاطع والمهنّد يدلّ عليه من حيث نسبته إلى موضعه، والسيف يدلّ دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزّوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار المعرفتين من حيث إنّه يعبر منهما إلى معرفة ثالثة فإن لم يقع العبور ولم يكن إلّا الوقوف على المعرفتين فينطلق عليه اسم التذكّر لا اسم الاعتبار، فأمّا النظر والتفكّر فيقع عليه من حيث إنّ فيه طلب معرفة ثالثة، فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لايسمّى ناظراً فكلّ متفكّر فهو متذكّر وليس كلّ متذكّر متفكّراً وفائدة التذكار تكرار المعارف على القلب لترسخ وتثبت ولا تنمحي عن القلب، و فائدة التفكّر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكّر والتفكّر والمعارف إذا اجتمعت في القلب و ازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة اُخرى فالمعرفة نتاج المعرفة فإذا حصلت معرفة و ازدوجت مع معرفة اُخرى حصل منها نتاج آخر و هكذا يتمادى النتاج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية وإنّما ينسدّ طريق زيادة المعارف بالموت أو العوائق، هذا لمن يقدر على استثمار العلوم ويهتدي إلى طريق زيادة المعارف وطريق التفكّر، فأمّا أكثر الناس فإنّما منعوا الزّيادة في العلوم

لفقدهم رأس المال وهو المعارف الّتي منها تستثمر العلوم كالّذي لابضاعة له فإنّه لايقدر على الرّبح ، وقد يملك البضاعة ولكن لايحسن صنعة التجارة فلا يربح ، فكذلك قد يكون له من المعارف ماهو رأس العلوم ولكنّه ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلى النتاج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور إلهيّ في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء عليهم السلام وذلك عزيز جدّاً وقد تكون بالتعلّم و الممارسة وهو الأكثر ، ثمّ المتفكّر قد تحضر له هذه المعارف وتحصل له الثمرة وهو لايشعر بكيفيّة حصولها ولايقدر على التعبير عنه لقلّة ممارسته لصناعة التدبير في الايراد فكم من إنسان يعلم أنّ الآخرة أولى بالايثار علماً حقيقيّاً ولو سئل عن سبب معرفته لم يقدر على إيراده والتعبير عنه مع أنّه لم تحصل معرفة إلّا عن المعرفتين السابقتين وهو أنّ الأبقى أولى بالإيثار وأنّ الآخرة أبقى من الدّنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهي أنّ الآخرة أولى بالإيثار فرجع حاصل حقيقة التفكّر إلى إحضار معرفتين للتوصّل بهما إلى معرفة ثالثة ، وأمّا ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرتها الخاصّة العلم لاغير ، نعم إذا حصل العلم في القلب تغيّر حال القلب وإذا تغيّر حال القلب تغيّرت أعمال الجوارح فالعمل تابع للحال ، والحال تابع للعلم والعلم تابع للفكر و الفكر إذن هو المبدء والمفتاح للخيرات كلّها و هذا هو الّذي يكشف لك عن فضيلة التفكّر وأنّه خير من الذكر والتذكّر لأنّ في الفكر ذكراً و زيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذّكر فإذن التفكّر أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل : تفكّر ساعة خيرٌ من عبادة سنة . وقيل : هو الّذي ينقل من المكاره إلى المحابّ ومن الرّغبة والحرص إلى الزّهد والقناعة ، وقيل : هو الّذي يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى : « لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكراً [١] » وإن أردت أن تفهم كيفيّة تغيّر الحال بالفكر فمثاله ماذكرناه من أمر الآخرة فإنّ الفكر فيه يعرّفنا أنّ الآخرة أولى بالايثار فإذا رسخت هذه المعرفة يقيناً في

---

(١) طه : ١١٣ .

قلوبنا تغيّرت القلوب إلى الرّغبة في الآخرة والزّهد في الدّنيا وهذا ماعنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حبّ العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلّة الرّغبة فيها وبهذه المعرفة تغيّر حال القلب وتبدّلت إرادته ورغبته ثمّ أثمر تغيّر الارادة أعمال الجوارح في إطراح الدّنياوالاقبال على أعمال الآخرة فههنا خمس درجات أوليها التذكّر وهو إحضار المعرفتين في القلب ، وثانيها التفكّر وهو طلب المعرفة المقصودة منهما ، والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها ، والرابعة تغيّر حال القلب عمّا كان بسبب حصول نور المعرفة ، والخامسة خدمة الجوارح للقلب بحسب مايتجدّد له من الحالة ، فكماتضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها الموضع فيصير العين بها مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة و تنتهض الأعضاء للعمل فكذلك زناد نور المعرفة(١) هو الفكر فيجمع بين المعرفتين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلّف بينهما تأليفاً مخصوصاً كما يضرب الحجر على الحديد ضرباً مخصوصاً فينبعث نورالمعرفة كماتنبعث النار من الحديد ويتغيّر القلب بسبب هذا النور حتّى يميل إلى مالم يكن يميل إليه كما يتغيّر البصربنور النار فيرى مالم يكن يراه ، ثمّ تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر مالم يكن يبصره فاذن ثمرة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لانهاية لها والأحوال الّتي تتصوّر أن تتقلّب على القلب لايمكن حصرها ، فلهذا لوأراد مريد أن يحصى فنون الفكر ومجاريه وأنّه فيماذا يتفكّر لم يقدر عليه لأنّ مجاري الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية ، نعم نحن نجتهدفي ضبط مجاريه بالاضافة إلى مهمّات العلوم الدّينيّة وبالاضافة إلى الأحوال الّتي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطاً جمليّاً فانّ تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلّها وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها فانّها مشتملة على علوم تلك العلوم تستفاد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط المجامع فيه ليحصل الوقوف على مجاري الفكر فيه .

---

(١) الزند هو العود الذى تقدح به النار جمعه زناد .

❁ (بيان مجارى الفكر) ❁

اعلم أنّ الفكر قد يجري في أمر يتعلّق بالدّين وقد يجري فيما يتعلّق بغير الدّين وإنّما غرضنا ما يتعلّق بالدّين فلنترك القسم الآخر ونعني بالدّين المعاملة الّتي بين العبد وبين الرّبّ تعالى فجميع أفكار العبد إمّا أن تتعلّق بالعبد وصفاته وأحواله وإمّا أن تتعلّق بالمعبود وصفاته وأفعاله ولا يمكن أن يخرج من هذين القسمين وما يتعلّق بالعبد إمّا أن يكون نظراً فيما هو محبوبٌ عند الرّبّ تعالى أو فيما هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين وما يتعلّق بالرّبّ تعالى إمّا أن يكون نظراً في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى .

وإمّا أن يكون نظراً في أفعاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرضين وما بينهما وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال وهو أنّ حال السائرين إلى الله والمشتاقين إلى لقائه يضاهي حال العشّاق فلنتّخذ العاشق المستهتر مثالاً فنقول : العاشق المستغرق الهمّ بعشقه لا يعدو فكره من أن يتعلّق بمعشوقه أو يتعلّق بنفسه ، فإن تفكّر في معشوقه فإمّا أن يتفكّر في جماله وحسن صورته ليتنعّم بالفكر فيه ومشاهدته ، وإمّا أن يتفكّر في أعماله اللّطيفة الحسنة الدّالّة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضعفاً للذّته ومقوياً لمحبّته وإن تفكّر في نفسه فيكون فكره في صفاته الّتي تسقطه من عين محبوبه حتّى يتنزّه عنها أو في الصفات الّتي تقرّبه منه وتحبّبه إليه حتّى يتّصف بها فإن تفكّر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدّ العشق وهو نقصان فيه لأنّ العشق التامّ الكامل ما يستغرق العاشق ويستولي على القلب حتّى لا يترك فيه متّسعاً لغيره ، فمحبّ الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يعدو نظره وتفكّره محبوبه ومهما كان تفكّره محصوراً في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجاً عن مقتضى المحبّة فلنبدأ بالقسم الأوّل وهو تفكّره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميّز المحبوب منها عن المكروه ، فإنّ هذا القسم هو الّذي يتعلّق بعلم المعاملة الّذي هو مقصود هذا الكتاب ، وأمّا القسم الآخر فيتعلّق بعلم المكاشفة ، ثمّ كلٌّ واحد ممّا هو مكروهٌ عند الله أو محبوب ينقسم

إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي وإلى باطن كالصفات المنجيات والمهلكات الّتي محلّها القلب وذكرنا تفصيلها في ربع المنجيات والمهلكات. والطاعات و المعاصي تنقسم إلى ما يتعلّق بالأعضاء السبعة و إلى ما ينسب إلى جميع البدن كالفرار عن الزّحف وعقوق الوالدين والسّكون في المسكن الحرام و يجب في كلّ واحد من المكاره التفكّر في ثلاثة اُمور: الأوّل التفكّر في أنّه هل هو مكروه عند الله أم لا، فربّ شيء لايظهر كونه مكروهاً بل يدرك بدقيق النظر، والثاني التفكّر في أنّه إن كان مكروهاً فما طريق الاحتراز عنه، والثالث أنّ هذا المكروه هل هو متّصفٌ به في الحال فيتركه أو هومتعرّض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارفه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه و كذلك كلّ واحد من هذه المحبوبات ينقسم هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر في هذه الأقسام على مائة، و العبد مدفوع إلى التفكّر إمّا في جميعها أو في أكثرها و شرح آحاد هذه الأقسام يطول ولكن انحصر هذا القسم أعني قسم المعاملة في أربعة أنواع الطاعات والمعاصي والصفات المنجيات والمهلكات، فلنذكر في كلّ نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرها وينفتح له باب الفكر ويتّسع له طريقه.

النوع الأول المعاصي وينبغي أن يفتّش العبد صبيحة كلّ يوم عن جميع أعضائه السبعة تفصيلاً ثمّ عن بدنه على الجملة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أولابسها بالأمس فيتداركها بالترك والنّدم، أو هو متعرّض لها في نهاره فيستعدّ للاحتراز والتّباعد عنها فينظر في اللّسان ويقول: إنّه متعرّض للغيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء والمماراة والممازحة والخوض فيما لايعني إلى غير ذلك من المكاره فيقرّر أوّلاً في نفسه أنّها مكروهة عند الله ويتفكّر في شواهد القرآن والسنّة على شدّة العذاب فيهاثمّ يتفكّر في أحواله أنّه كيف يتعرّض لهامن حيث لايشعر، ثمّ يتفكّر أنّه كيف يحترز منها و يعلم أنّه لا يتمّ له ذلك إلّا بالعزلة والانفراد أو بأن لايجالس إلّا صالحاً تقيّاً ينكر عليه مهما تكلّم بما يكرهه الله و إلّايضع حجرة في فيه إذا جالس غيره حتّى يكون ذلك مذكّراًله فهكذايكون الفكر

في حيلة الاحتراز ويتفكّر في سمعه أنّه يصغي به إلى الغيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللّهو والبدعة وأنّ ذلك إنّما يسمعه من زيد ومن عمرو وأنّه كيف ينبغي أن يحترز عنهم بالاعتزال أو بالنّهي عن المنكر مهما سمع ذلك، ويتفكّر في بطنه أنّه إنّما يعصي الله فيه بالأكل والشرب. إمّا بكثرة الأكل من الحلال فإنّ ذلك مكروه عند الله عزّ وجلّ ومقوّ للشهوة الّتي هي سلاح الشيطان عدوّ الله، وإمّا بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ويتفكّر في طرق الحلال ومداخله ثمّ يتفكّر في وجوه الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام ويقرّر على نفسه أنّ العبادات كلّها ضائعة عند الله مع أكل الحرام وأنّ أكل الحلال هو أساس العبادات كلّها وأنّ الله لايقبل صلاة عبدو في ثمن ثوبه درهم حرام كما ورد الخبر به [1] فهكذا يتفكّر في أعضائه. و في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء، فمهما حصلت بالفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتّى يحفظ الأعضاء عنها.

وأمّا النوع الثاني وهو الطاعات فينظر أوّلاً في الفرائض المكتوبة عليه أنّه كيف يؤدّيها و كيف يحرسها عن النّقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكثرة النّوافل، ثمّ يرجع إلى عضو عضو فيتفكّر في الأفعال الّتي تتعلّق بها ممّا كتبه الله عزّ وجلّ عليه فيقول مثلاً: إنّ العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتنظر في كتاب الله وسنّة رسوله وأنا قادر على أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنّة فلم لاأفعله وأنا قادرٌ على أنّ أنظر إلى فلان المطيع بعين التعظيم فأدخل السرورَ على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بعين الازدراء وأزجره بذلك عن معصيته فلم لا أفعله، و كذلك يقول في سمعه: إنّي قادرٌ على استماع كلام الله أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكر، فمالي أُعطّله وقد أنعم الله عزّ وجلّ عليّ به و أودعنيه لأشكره، فمالي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه

(١) أخرج أحمد في مسنده ج ٢ ص ٩٨ من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفيه درهم حرام لم يقبل الله له صلاة مادام عليه».

وتعطيله ، و كذلك يتفكّر في اللّسان ويقول : إنّي قادر على أن أتقرّب إلى الله تعالى بالوعظ وبالتودّد إلى قلوب أهل الصلاح و بالسؤال عن أحوال الفقراء وإدخال السّرور على قلب زيد الصّالح و عمرو العالم بكلمة طيّبة و كلّ كلمة طيّبة فإنّها صدقة و كذلك يتفكّر في ماله فيقول : أنا قادر على أن أتصدّق بالمال الفلاني فإنّي مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقني الله مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنا إلى ثواب الإيثار أحوج منّي إلى ذلك المال ، وهكذا يفتّش عن أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابّه و غلمانه وأولاده فإنّ كلّ ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله عزّ وجلّ بها ويستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات الممكنة بها ويتفكّر فيما يدعوه إلى البدار إلى تلك الطاعات ويتفكّر في إخلاص النيّة فيها و يطلب لها مظانّ الاستحقاق حتّى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات .

وأمّا النّوع الثالث فهو الصفات المهلكة الّتي محلّها القلب فيعرفها ممّا ذكرناه في ربع المهلكات وهي استيلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرّياء والحسد وسوء الظنّ والغفلة والغرور وغير ذلك ويتفقّد من قلبه هذه الصفات فإن ظنّ أنّ قلبه منزّه عنها فيتفكّر في كيفيّة امتحانه والاستشهاد بالعلامات عليه فإنّ النفس أبداً تعده الخير من نفسها وتكذب فإذا ادّعت التواضع والبراءة من الكبر فينبغي أن يجرّب نفسه بحمل حزمة حطب في السّوق كما كان الأوّلون يجرّبون به أنفسهم ، وإذا ادّعت الحلم تعرّض لغضب يناله من غيره ثمّ يجرّبها في كظم الغيظ و كذلك في سائر الصّفات ، وهذا تفكّر في أنّه هل هو موصوف بالصّفة المكروهة أم لا ، ولها علامات ذكرناها في ربع المهلكات فإذا دلّت العلامات على وجودها فكّر في الأسباب الّتي تقبح تلك الصفات عنده ويتبيّن أنّ منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدّخلة[1] كما لو رأى في نفسه عجباً بالعمل فيتفكّر ويقول : إنّما عملي ببدني وجارحتي و بقدرتي وإرادتي و كلّ ذلك ليس منّي ولا إليّ وإنّما هو من خلق الله عزّ وجلّ وفضله عليّ فهو الّذي خلقني و خلق قدرتي وإرادتي وهو الّذي حرّك

(١) دخلة الرجل - مثلثة - و دخيلته نيته ومذهبه و جميع أمره .

أعضائي بقدرته فكيف أُعجب بعملي أو بنفسي ولا قوام لنفسي بنفسي ، وإذا أحسّ في نفسه بالكبر قرّر على نفسه ما فيها من الحماقة ويقول لها : لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو كبير عند الله وذلك ينكشف بعد الموت ، و كم من كافر في الحال يموت متقرّباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر و كم من مسلم يموت شقيّاً بتغيّر حاله عند الموت بسوء الخاتمة ، فإذا عرف أنّ الكبر مهلك وأنّ أصله الحماقة فيتفكّر في علاج إزالته بأن يتعاطى أفعال المتواضعين ، وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكّر في أنّ هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتّصف بهما البهائم ومهما كان الشره عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن الملائكة المقرّبين أبعد ، و كذلك يقرّر على نفسه في الغضب ثمّ يتفكّر في طريق العلاج و كلّ ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتّسع له طريق الفكر فلابدّ له من تحصيل ما في هذه الكتب .

وأمّا النوع الرابع وهو المنجيات فهو التوبة والندم على الذّنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرّجاء والزّهد في الدّنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبّة الله عزّوجلّ و تعظيمه و الرّضا بأفعاله و الشوق إليه والخشوع و التواضع له ، و كلّ ذلك ذكرناه في هذا الرّبع و ذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكّر العبد كلّ يوم وليلة في قلبه وما الّذي يعوزه (١) من هذه الصفات الّتي هي المقرّبة إلى الله عزّ وجل ، فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنّها أحوال لا يثمرها إلّا علوم وأنّ العلوم لا يثمرها إلّا أفكار ، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه حال التوبة والندم فليفتّش عن ذنوبه أوّلاً وليتفكّر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ، ثمّ لينظر في الوعيد و التشديد الّذي ورد في الشرع فيه وليحقّق عند نفسه أنّه متعرّض لمقت الله عزّ وجلّ به حتّى ينبعث له حال الندم ، وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله تعالى إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرحنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك ، وإذا أراد حال المحبّة والشوق

---

(١) أعوز الرجل اعوازاً افتقر ، و أعوزه الدهر أفقره .

فليتفكّر في جلال الله عزّ وجلّ وجماله وعظمته وكبريائه ، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنرمز إلى طرف يسير منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فلينظر أوّلاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثمّ لينظر في الموت وسكراته ثمّ فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحيّاته وعقاربه وديدانه ثمّ في هول النداء عند نفخة الصور ، ثمّ في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ، ثمّ في المناقشة في الحساب والمضائقة في النقير والقطمير ، ثمّ في الصراط ودقّته وحدّته ، ثمّ في خطر الأمر عنده أنّه يصرف إلى الشمال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليمين وينزل دار القرار ، ثمّ ليحضر أهوال القيامة في قلبه من صورة جهنّم ودركاتها ومقامعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقّومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صورة الزّبانية الموكّلين بها وأنّهم كلّما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها وأنّهم كلّما أرادوا أن يخرجوا منها اُعيدوا فيها وأنّهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا زفيرها وتغيظها وهلمّ جرّاً إلى جميع ماورد في القرآن من شرحها ، وإذا أراد أن يستجلب حال الرّجاء فلينظر إلى الجنّة ونعيمها وأشجارها وأثمارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم وملكها الدّائم فهكذا طريق الفكر الّذي يطلب به العلوم الّتي تثمر الاتّصاف بأحوال محبوبة أو التنزّه عن الصفات المذمومة وقد ذكرنا في كلّ واحدة من هذه الأفعال كتاباً مفرداً يستعان به على تفصيل الفكر ، أمّا بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكّر فانّه جامع لجميع المقامات والأحوال وفيه شفاء للعالمين ففيه مايورث الخوف والرّجاء والصبر والشكر والمحبّة والشوق وسائر الأحوال و فيه مايزجر عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد و يردّد الآية الّتي هو محتاج إلى التفكّر فيها مرّة بعد اُخرى ولو مائة مرّة فقراءة آية بتفكّر وفهم خيرٌ من ختمه بغير تدبّر وفهم وليتوقّف في التأمّل فيها ولو في ليلة واحدة فان تحت كلّ كلمة منها أسرار لاتنحصر ولا يوقف عليها إلّا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة و كذلك مطالعة أخبار النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم « فقد اُوتي جوامع الكلم (١) » وكلّ كلمة من كلامه بحر من بحور الحكمة ولو تأمّلها العالم

(١) تقدم .

حقّ تأمّله لم ينقطع فيها نظره طول عمره، وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله عليه السلام: «إنّ روح القدس نفث في روعي: أحبب من أحببت فإنّك مفارقه وعش ما شئت فإنّك ميّت واعمل ما شئت فإنّك مجزيّ به»(١) فإنّ هذه الكلمات جامعة حكم الأوّلين والآخرين وهي كافية للمتأمّلين فيها طول العمر إذ لو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقتهم ولحالت بينهم وبين التلفّت إلى الدّنيا بالكلّيّة فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله أو مكروهة والمبتدي ينبغي أن يكون مستغرق الهمّ في هذه الأفكار حتّى يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة وينزّه باطنه وظاهره عن المكاره وليعلم أنّ هذا مع أنّه أفضل من سائر العبادات فليس هو غاية المطلب بل المشغول به محجوب عن مطلب الصدّيقين وهو التنعّم بالفكر في جلال الله وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أي ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهمّ بالمحبوب كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب فإنّه لا يتفرّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها بل يبقى كالمبهوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذّة العشّاق فأمّا ما ذكرناه فهو تفكّر في عمارة الباطن ليصلح للقرب والوصال فإذا ضيّع بجميع عمره في إصلاح نفسه فمتى يتنعّم بالقرب ولذلك كان الخوّاص يدور في البوادي فلقيه الحسين بن منصور وقال له: فيم أنت؟ قال: أدور في البوادي أصلح حالي في التوكّل قال: أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التّوحيد. فالفناء في الواحد الحقّ هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعيم الصدّيقين وأمّا التنزّه عن الصّفات المهلكات فيجري مجرى الخروج عن العدّة في النكاح والاتّصاف بالصّفات المنجيات وسائر الطاعات يجري مجرى تهيئة المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك للقاء زوجها، فإن استغرقت جميع عمرها في تبرئة الرّحم وتزيين الوجه كان ذلك حجاباً لها عن لقاء زوجها فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدّين إن كنت من أهل المجالسة وإن كنت كالعبد

(١) تقدم غير مرة.

السّوء لا يتحرّك إلّا خوفاً من الضرب و طمعاً في الأجر ، فدونك و إتعاب البدن بالأعمال الظاهرة فإنّ بينك و بين القلب حجاباً كثيفاً فإذا قضيت حقّ الأعمال كنت من أهل الجنّة و لكن للمجالسة قوم آخرون ، فإذا عرفت مجال الفكر في علوم المعاملة الّتي بين العبد و بين ربّه فينبغي أن تتّخذ ذلك عادتك و ديدنك في كلّ صباح و مساء ، فلا تغفل عن نفسك و عن صفاتك المبعدة عن الله عزّ وجلّ و أحوالك المقرّبة إليه تعالى بل كلّ مريد فينبغي أن يكون له جريدة يكتب فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي و الطاعات ويعرض نفسه عليها كلّ يوم و يكفيه من المهلكات النظر في عشرة فإنّه إن سلم منها سلم من غيرها و هي البخل و الكبر و العجب و الرّياء و الحسد و شدّة الغضب وشره الطعام وشره الوقاع وحبّ المال وحبّ الجاه .ومن المنجيات عشرة وهي الندم على الذّنوب و الصبر على البلاء و الرّضا بالقضاء والشكر على النّعماء و اعتدال الخوف والرّجاء و الزّهد في الدّنيا و الإخلاص في العمل و حسن الخُلق مع الخلق و حبّ الله و الخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشر منها مذمومة و عشر محمودة . فمهما كفي عن المذمومات واحدة فيخطّ عليها في جريدته و يدع الفكر فيها و يشكر الله عزّ وجلّ على كفايته إيّاها و تنزيه قلبه عنها و يعلم أنّ ذلك لم يتمّ إلّا بتوفيق الله و عونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقلّ الرّذائل عن نفسه فيقبل على التسع البواقي و هكذا يفعل حتّى يخطّ على الجميع و كذلك يطالب نفسه بالاتّصاف بالمنجيات فإذا اتّصف بواحدة منها كالتّوبة و الندم مثلاً خطّ عليها و اشتغل بالبواقي و هذا يحتاج إليه المريد المتشمّر فأمّا أكثر النّاس من المعدودين من الصّالحين فينبغي أن يثبتوا في جريدتهم المعاصي الظاهرة كالأكل بالشّبهة وإطلاق اللّسان بالغيبة والنميمة و المراء و الثّناء على النّفس والإفراط في معاداة الأعداء و موالاة الأولياء والمداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر فإنّ أكثر من يعدّ نفسه من وجوه الصالحين لا ينفكّ عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه و ما لم يطهّر الجوارح من الآثام لا يمكنه الاشتغال بعمارة القلب و تطهيره بل كلّ فريق من

الناس يغلب عليهم نوع من المعصية فينبغي أن يكون تفقّدهم لها و تفكّرهم فيها لا في معاص هم بمعزل عنها، مثاله العالم الورع فإنّه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم و طلب الشّهرة و انتشار الصّيت إمّا بالتدريس أو بالوعظ و من فعل ذلك تصدّى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلّا الصدّيقون فإنّه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لن ينفكّ عن الاعجاب والخيلاء والتزيّن والتصنّع وذلك من المهلكات وإن رُدّ كلامه لم ينفكّ عن أنفة وغيظ وحقد على من ردّه وهو أكثر من غيظه على من يردّ عليه كلام غيره وقد يلبّس الشيطان عليه ويقول: إنّ غيظك من حيث إنّه ردّ الحقّ و أنكره، فإن وجد تفرقة بين أن يردّ عليه كلامه أو يردّ على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان، ثمّ مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء و استنكاف من الردّ و الاعراض لم يخل عن تكلّف و تصنّع لتحسين اللّفظ و الايراد حرصاً على استجلاب الثناء والله لا يحبّ المتكلّفين، والشيطان قد يلبّس عليه و يقول: إنّما حرصك على تحسين الألفاظ و التكلّف فيها لينتشر الحقّ و يحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله عزّ وجلّ، فإن كان فرحه بحسن الألفاظ وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنّما يدندن حول طلب الجاه و هو يظنّ أنّ مطلبه: الدّين و مهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك، حتّى يكون للموقّر له المعتقد لفضله أكثر احتراماً و يكون بلقائه أشدّ استبشاراً ممّن يغلو في موالاة غيره و إن كان ذلك الغير مستحقّاً للموالاة، و ربّما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتغايروا تغاير النساء فيشقّ على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنّه منتفع بغيره و مستفيد منه في دينه و كلّ هذا رشح الصفات المهلكات المستكنّة في سرّ القلب الّتي قد يظنّ العالم النجاة منها و هو مغرور فيها و إنّما ينكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة و هو إمّا مالك و إمّا هالك و لا مطمع له في سلامة العوام، فمن أحسّ في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه الانفراد و العُزلة و طلب الخمول و المدافعة للفتاوي مهما سئل فقد كان المسجد يهوى جمعاً من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وآله كلّهم مفتون و

كانوا يتدافعون الفتوى فكلٌ من كان يفتي كان يودُّ أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتّقي شياطين الإنس إذ قالوا لا تفعل هذا فإنّ هذا الباب لو فتح لاندرست العلوم من بين الخلق و ليقل لهم إنّ دين الإسلام مستغن عنّي فإنّه كان معموراً قبلي و كذلك يكون بعدي و لومتّ لم تنهدم أركان الإسلام فالدّين مستغن عنّي و أمّا أنا فلستُ بمستغن عن إصلاح قلبي و أمّا إفضاء ذلك إلى اندراس العلم فخيال يدلّ على غاية الجهل فإنّ الناس لو حبسوا في السجن وقيّدوا بالقيود وتوعّدوا بالنّار على طلب العلم لكان حبُّ العلوّ والرّئاسة يحملهم على كسر القيود و هدم حيطان الحصون والخروج منها و الاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحبّب إلى الخلق الرّئاسة و الشيطان لا يفتر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهض لنشره أقوام لا نصيب لهم في الآخرة كما قال عليه السلام: « إنّ الله يؤيّد هذا الدّين بأقوام لاخلاق لهم [١] » و « إنّ الله يؤيّد هذا الدّين بالرّجل الفاجر [٢] » فلا ينبغي أن يغترّ العالم بهذه التلبيسات ويشتغل بمخالطة الخلق حتّى يتربّى في قلبه حبّ الجاه و الثناء و التعظيم فإنّ ذلك بذر النفاق قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: « حبّ المال و الجاه ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل [٣] » و قال عليه السلام: « ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فساداً فيهما من حبّ الجاه والمال في دين المرء المسلم [٤] » و لا ينقلع حبُّ الجاه من القلب إلّا بالاعتزال عن الناس و الهرب من مخالطتهم وترك كلّ ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن فكر العالم في التفطّن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منه وهذه وظيفة العالم المتّقي ، فأمّا أمثالنا فينبغي أن يكون تفكّرنا فيما يقوّي أيماننا بيوم الحساب إذ لو رآنا السّلف الصّالحون لقالوا قطعاً إنّ هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب فما أعمالنا أعمال من يؤمن بالجنّة و النار فإنّ من خاف شيئاً هرب منه ومن رجا شيئاً طلبه ، و قد علمنا أنّ الهرب من

---

(١) و(٢) تقدما عن البخارى فى صحيحه وابىعوانة فى مسنده .

(٣) تقدم فى المجلد السادس ص ٤٠ .

(٤) رواه أحمد والترمذى وقد تقدم فى المجلد السادس ص ٤١ .

النار بترك الشبهات والحرام وبترك المعاصي و نحن منهمكون فيها وأنّ طلب الجنّة بتكثير نوافل الطاعات و نحن مقصّرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلّا أنّه يقتدى بنا في الحرص على الدّنيا و التكالب عليها ويقال : لو كان هذا مذموماً لكان العلماء أولى باجتنابه منّا فليتنا كنّا كالعوام إذا متنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة الّتي تعرّضنا لها لو تفكّرنا فيها فنسأل الله عزّ وجلّ أن يصلحنا و يصلح بنا و يوفّقنا للتوبة قبل أن يتوفّانا إنّه الكريم اللّطيف بنا المنعم علينا فهذه مجاري أفكار العلماء والصّالحين في علم المعاملة فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم و ارتقوا منها إلى التفكّر في جلال الله وعظمته والتنعّم بمشاهدته بعين القلب و لا يتمّ ذلك إلّا بعد الانفكاك من جميع المهلكات و الاتّصاف بجميع المنجيات و إن ظهر منه شيء قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدّراً مقطوعاً وكان ضعيفاً كالبرق الخاطف لايثبت ولايدوم فيكون كالعاشق الّذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه عقارب تلدغه مرّة بعد اُخرى فيتنغّص عليه لذّة المشاهدة ولا طريق له في إكمال التنعّم إلّا بإخراج العقارب من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيّات وهي مؤذيات ومشوّشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيّات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة والمكروهة عند ربّه .

القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته و كبريائه وفيه مقامات :

المقام الأوّل وهو الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا ممّا منع منه حيث قيل : « تفكّروا في خلق الله ولا تتفكّروا في ذات الله (١) » وذلك لأنّ العقول تتحيّر فيه فلايطيق مدّ البصر إليه إلّا الصدّيقون ثمّ لايطيقون دوام النظر إليه بل سائر الخلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلى جلال الله كحال بصر الخفّاش بالاضافة إلى نور الشمس فإنّه لايطيقه البتّة بل يختفي نهاراً وإنّما يتردّد ليلاً لينظر في بقيّة نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصدّيقين كحال الإنسان بالنظر إلى الشمس فإنّه يقدر على النظر إليها ولكن لايطيق دوامه ويخشى على بصره لو

(١) تقدمَ في باب فضيلة التفكر .

أدام النظر إليها ونظره المختطف إليها يورث العمش وتضعف البصر و كذلك النظر إلى ذات الله عزّ وجلّ يورث الحيرة والدّهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لايتعرّض لمجاري الفكر في ذات الله وصفاته فإنّ أكثر العقول لاتحتمله بل القدر اليسير الّذي صرّح به بعض العلماء ، وهو أنّ الله عزّ وجلّ مقدّس عن المكان ، منزّه عن الأقطار والجهات ، وأنّه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متّصل بالعالم ولا هو منفصل عنه ، قد حيّر عقولَ أقوام حتّى أنكروه إذ لم يطيقوا إسماعه ومعرفته بل ضعفت طائفة عن احتمال أقلّ من هذا إذ قيل لهم : إنّه يتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وعضو ، وأن يكون جسماً مشخّصاً له حجم ومقدار فأنكروا هذا فظنّوا أنّ ذلك قدح في عظمته وجلاله حتّى قال بعض الحمقى من العوام : إنّ هذا وصف بطّيخ هندي لا وصف الإله فظنّ المسكين أنّ الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأنّ الإنسان لا يعرف إلّا نفسه ولا يستعظم إلّا نفسه ، فكلّ مالا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه نعم غايته أن يقدّر نفسه جميل الصورة جالساً على سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره فلا جرم غايته أن يقدّر ذلك في حقّ الله تعالى وتقدّس حتّى يفهم العظمة بل لو كان للذّباب عقل وقيل له : ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رجل و لا له طيران لأنكر ذلك ، وقال : كيف يكون خالقي انقص منّي أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زمناً لايقدر على الطيران ، أو يكون لي آلة وقدرة ولا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوّري وعقول أكثر الخلق قريبة من هذا العقل ، وإنّ الإنسان جهول ظلوم كفّار ولذلك أوحى الله عزّ وجلّ إلى بعض أنبيائه لاتخبر عبادي بصفاتي فينكرون ولكن أخبرهم عنّي بما يفهمون ولمّا كان النظر في ذات الله عزّ وجلّ وصفاته مخطراً من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصلاح الخلق بأن لايتعرّض لمجاري الفكر فيه لكنّا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر إلى أفعاله و عجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فإنّها تدلّ على جلاله و كبريائه وتقدّسه وتعاليه وتدلّ على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيّته وقدرته فننظر إلى صفاته من آثار صفاته فإنّالانطيق النظر إلى صفاته كما أنّا [لا] نطيق النظر

إلى الأرض مهما استنار بنور الشّمس ونستدلّ به على عظم نور الشّمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأنّ نور الأرض من آثار نور الشّمس والنظر في الأثر يدلّ على المؤثّر دلالة ما وإن كان لايقوم مقام النظر في نفس المؤثّر وجميع موجودات الدّنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنواره بل لا ظلمة أشدّ من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدّس إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيّوم بنفسه كما أنّ قوام نور الأجسام بنور الشّمس المضيئة بنفسها ومهما انكسف بعض الشّمس فقدجرت العادة بأن يوضع طست ماء حتّى ترى الشّمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة يغضّ قليلاً من نور الشّمس حتّى يطاق النظر إليها وكذلك الأفعال واسطة يشاهد فيها صفات الفاعل ولا يبهرنا نور الذّات بعد أن تباعدنا عنه بواسطة الأفعال، فهذا سرّ قوله عليه السلام «تفكّروا في خلق الله ولا تتفكّروا في ذات الله».

❁ (بيان كيفيّة التفكّر فى خلق الله عزّ وجلّ) ❁

اعلم أنّ كلّ ما في الوجود ممّا سوى الله فعل الله عزّ وجلّ وخلقه وكلّ ذرّة من الذّرّات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنّه لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي بل عشر عشير ذلك ولكنّا نشير إلى جمل منه ليكون ذلك كالمثال لما عداه. فنقول الموجودات المخلوقة منقسمة إلى مالا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكّر فيها، وكم من الموجودات الّتي لانعلمها كما قال تعالى: «سبحان الّذي خلق الأزواج كلّها ممّا تنبت الأرض ومن أنفسهم وممّا لايعلمون[1]» وقال «وننشئكم فيما لاتعلمون[2]» وإلى ما يعرف أصلها وجملتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن نتفكّر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما أدركناه بحسّ البصر وإلى مالا ندركه بالبصر أمّا مالا ندركه بالبصر فكالملائكة والجنّ والشياطين وأمّا المدركات بحسّ البصر فهي السماوات السبع والأرضون وما بينهما والسماوات

(١) يس: ٣٦. (٢) الواقعة: ٦١.

مشاهدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها و ما بين السماء والأرض وهو الجوّ مدرك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها ، فهذه هي الأجناس المشاهدة من السماوات والأرض وما بينهما ، و كلّ جنس منهاينقسم إلى أنواع و كلّ نوع ينقسم إلى أقسام وينشعب كلّ قسم إلى أصناف ولا نهاية لانشعاب ذلك و انقسامه في اختلاف صفاتها وهيآتها ومعانيها الظاهرة والباطنة وجميع ذلك مجالي الفكر فلا تتحرّك ذرّة في السماوات والأرض من جماد ونبات وحيوان وفلك وكوكب إلّا ومحرّكها هو الله عزّ وجلّ وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كلّ ذلك شاهد لله تعالى بالوحدانيّة ودالّ على جلاله وكبريائه وهي الآيات الدالّة عليه وقد ورد القرآن بالحثّ على التفكّر في هذه الآيات كما قال : « إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف اللّيل والنهار لآيات لأولي الألباب (١) » وكما قال « ومن آياته » و «من آياته» من أوّل القرآن إلى آخره فلنذكر كيفيّة الفكر في بعض الآيات .

فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من العجائب الدالّة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنها فيامن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرها وقد أمرك الله تعالى بالتدبّر في نفسك في كتابه العزيز فقال : « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » (٢) وذكر أنّك مخلوق من نطفة قذرة ، فقال تعالى : « قتل الإنسان ما أكفره ۞ من أيّ شيء خلقه ۞ من نطفة خلقه فقدّره ۞ ثمّ السبيل يسّره ۞ ثم أماته فأقبره ۞ ثمّ إذا شاء أنشره (٣) » وقال تعالى : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون (٤) » وقال : « ألم يك نطفةً من منيّ يمنى ۞ ثمّ كان علقة فخلق فسوّى (٥) » وقال : « ألم نخلقكم من ماء مهين ۞ فجعلناه في قرار

(١) آل عمران : ١٩٠ . (٢) الذاريات : ٢١ .
(٣) عبس : ١٧ - الى -٢٢ . (٤) الروم : ٢٠ .
(٥) القيامة : ٢٧و٢٨ .

مكين [١]» وقال : «أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين [٢]» وقال : «إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه [٣]» .

ثمّ ذكر كيف جعل النّطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة عظاماً وقال تعالى : «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ☆ ثمّ جعلناه نطفة في قرار مكين ☆ ثمّ خلقنا النطفة علقة - الآية» [٤] فتكرار ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليسمع لفظها ويترك التأمّل في معناها فانظر الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قذرة ولو تركت ساعة يضربها الهواء فسدت وأنتنت كيف أخرجها ربّ الأرباب من الصلب والترائب وكيف جمع بين الذّكر والانثى ؟ وألقى الإلف والمحبّة في قلبهما ؟ وكيف قادهما بسلسلة المحبّة والشهوة إلى الاجتماع ؟ وكيف استخرج النطفة من الرّجل بحركة الوقاع ؟ وكيف استجلب دم الحيض من أعماق العروق وجمعه في الأرحام ؟ ثمّ كيف خلق المولود من النطفة وسقاه بماء الحيض وغذّاه وربّاه وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثمّ كيف جعلها مضغة ، ثمّ كيف قسّم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظم والأعصاب والعروق والأوتار واللّحم ، ثمّ كيف ركّب من اللّحوم والأعصاب والعروق الأعضاء الظاهرة فدوّر الرأس وشقّ السمع والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثمّ مدّ اليد والرّجل وقسم رؤوسها بالأصابع وقسم الأصابع بالأنامل ثمّ كيف ركّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرّية والرّحم والمثانة والأمعاء كلّ واحد على شكل مخصوص ، بمقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثمّ كيف قسم كلّ عضو من هذه الأعضاء بأقسام آخر فركّب العين من سبع طبقات لكلّ طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها لتعطّلت العين عن الإبصار ولو ذهبنا إلى نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضت فيه الأعمار ، فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام قويّة صلبة كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ثمّ جعلها قواماً للبدن وعماداً له ،

---

(١) المرسلات : ٢٠ و٢١ . (٢) يس : ٧٧ .
(٣) الدهر : ٢ . (٤) المؤمنون : ١٢ و١٣ و١٤ .

ثمّ قدّرها بمقادير مختلفة و أشكال متفاوتة فمنها صغيرٌ و كبيرٌ و طويل و مستدير و مجوّف و مصمت و عريض و دقيق ، و لمّا كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه و ببعض أعضائه للتردّد في حاجاته لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينهما مفاصل حتّى يتيسّر بها الحركة و قدّر شكل كلّ واحد منها على وفق الحركة المطلوبة بها ثمّ وصل مفاصلها و ربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم و ألصق بالطرف الآخر كالرّباط له ثمّ خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزّوائد لتدخل فيها و تنطبق عليها فصار العبد إن أراد حركة جزء من بدنه لم يمتنع عليه ولو لا المفاصل لتعذّر عليه ذلك ، ثمّ انظر كيف خلق عظام الرّأس و كيف جمعها و ركّبها و قد ركّبها من خمسة و خمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوت به كرة الرّأس كما تراه فمنها ستّة تخصّ القحف (١) و أربعة عشر للحى الأعلى و الاثنان للحى الأسفل و البقيّة هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن و بعضها حادّة تصلح للقطع و هي الأنياب و الأضراس و الثنايا ، ثم جعل الرّقبة مركّباً للرّأس و ركّبها من سبع خرزات (٢) مجوّفات مستديرات فيها تجويفات و زيادات ونقصانات لينطبق بعضها على البعض ويطول ذكروجه الحكمة فيها ، ثمّ ركّب الرّقبة على الظهر .

و ركّب الظهر من أسفل الرّقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة و ركّب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة و يتّصل به من أسفله عظم العُصعُص (٣) و هو أيضاً مؤلّف من ثلاثة أجزاء ، ثمّ وصل عظام الظهر بعظام الصدور و عظام الكتف و عظام اليدين و عظام العانة و عظام العجز ثمّ عظام الفخذين و الساقين و أصابع الرّجلين و لانطول بذكر عدده ، ومجموع العظام في بدن الانسان مائتا عظم وثمانية

---

(١) القحف ـ بالكسر ـ : العظم فوق الدماغ .

(٢) يعنى بها فقرات الظهر .

(٣) العصص ـ كقنفذ ـ : عجب الذنب أى اصله .

و أربعون عظماً سوى العظام الصغيرة الّتي حشي بها خلل المفاصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة و ليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فإنّ هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرّحون وإنّما الغرض منها أن ينظر في مدبّرها وخالقها أنّه كيف قدّرها ودبّرها وخالف بين أشكالها و أقدارها وخصّصها بهذا العدد المخصوص ، لأنّه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان و يحتاج إلى قلعه ، و لو نقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره ، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلّوا بها على جلالة خالقها ومصوّرها ، فشتّان ما بين النظرين ، ثمّ انظر كيف خلق الله آلات لتحريك العظام وهي العضلات فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة و العضلة هي المركّبة من اللّحم والعصب والرّبط والأغشية وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع و عشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين و أجفانها و لو نقصت واحدة من جملتها لاختلّ أمر العين و هكذا لكلّ عضو عضلات بعدد مخصوص و قدر مخصوص و أمر الأعصاب و العروق و الأوردة و الشرائين و عددها و منابتها و انشعاباتها أعجب من هذا كلّه ، و شرحه يطول و للتفكّر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثمّ في آحاد هذا الأعضاء ، ثمّ في جملة البدن و كلّ ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن ، و عجائب المعاني والصفات الّتي لا تدرك بالحواسّ أعظم فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان و باطنه و إلى بدنه و صفاته لترى فيها من الصّنعة ما يقضي به العجب و كلّ ذلك صنع الله تعالى في قطرة ماء قذرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السّماوات و كواكبها و ما حكمته في أوضاعها و أشكالها و مقاديرها و أعدادها و اجتماع بعضها و تفرّق بعضها و اختلاف صورها و تفاوت مشارقها و مغاربها ، و لا تظنّن أنّ ذرّة من ملكوت السماوات تنفكّ عن حكمة و حكم بل هي أحكم خلقاً و أتقن صنعاً و أجمع للعجائب من بدن الإنسان بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السماوات و لذلك قال تعالى : « أأنتم

أشدّ خلقا أم السّماء بناها [١] » فارجع الآن إلى النطفة و تأمّل حالها أوّلاً و ما صارت إليه ثانياً و تأمّل أنّه لو اجتمع الانس والجنّ على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون عليها بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته و كيفيّة خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنها فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوّر على حائط تأنّق النقّاش [٢] في تصويرها حتّى قرب ذلك من صورة الانسان و قال الناظر إليها كأنّه إنسان عظم تعجّبك من صنعة النقّاش و حذقه و خفّة يده و تمام فطنته ولعظم في قلبك محلّه مع أنّك تعلم أنّ تلك الصّورة إنّما تمّت بالصبغ و القلم و الحائط و اليد و القدرة و العلم و الارادة ، و شيء من ذلك ليس من فعل النقّاش و لا خلقه بل هو من خلق غيره و إنّما منتهى فعله الجمع بين الصّبغ و الحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجّبك منه و تستعظمه و أنت ترى النّطفة القذرة الّتي كانت معدومة فخلقها خالقها في الأصلاب و التّرائب ثمّ أخرجها منها وشكّلها و أحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها وصوّرها فأحسن تصويرها وقسم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها و حسّن أشكال أعضائها وزيّن ظاهرها و باطنها و رتّب عروقها و أعصابها و جعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبباً لبقائها و جعلها سميعاً بصيراً عالماً ناطقاً ، فخلق لها الظهر أساساً لبدنها و البطن حاوياً لآلات غذائها و الرأس جامعاً لحواسّها ففتح العين و رتّب طبقاتها و أحسن شكلها و لونها و هيأتها ثمّ حماها بأجفان لتسترها و تحفظها و تصقلها و تدفع الأقذاء عنها ، ثمّ أظهر في مقدار عدسة منها صورة السّماء مع اتّساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها وشقّ اُذنيه و أودعهما ماءً مرّاً لحفظ سمعها ويدفع الهوامّ عنها وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فتردّها إلى صماخها و لتحسّ بدبيب الهوامّ إليها و جعل فيها تجويفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدبّ فيها و يطول طريقها

(١) النازعات : ٢٧ .

(٢) تأنق فى عمله أى عمله باتقان .

فينتبه عن النّوم صاحبها إذا قصدته الدّابة في نوم ، ثمّ رفع الأنف من وسط الوجه و أحسن شكله و فتح منخريه وأودع فيهما حاسّة الشمّ ليستدلّ باستنشاق الرّوائح على مطاعمه و أغذيته و ليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاء لقلبه و ترويحاً لحرارة باطنه ، و فتح الفم وأودعه اللّسان ناطقاً و ترجماناً و معرباً عمّا في القلب و زيّن الفم بالأسنان و لتكون آلة للطحن و الكسر والقطع ، فأحكم أصولها وحدّد رؤوسها و حسّن لونها ورتّب صفوفها متساوية الرّؤوس متناسقة التّرتيب كأنّها الدّر المنظوم ، و خلق الشفتين و حسن لونهما وشكلهما لتنطبقا على الفم و تسدّا منفذه و ليتمّ بهما حروف الكلام ، ثمّ خلق الحنجرة و هيّأها لخروج الأصوات ، وخلق اللّسان قدرة للحركات و التقطيعات لتقطع الصّوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتّسع طريق النطق بكثرتها ، ثمّ خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضّيق و السعة و الخشونة و الملاسة و صلابة الجوهر و رخاوته و الطّول و القصر حتّى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كلّ صوتين فرقان حتّى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرّد الصّوت في الظّلمة ، ثمّ زيّن الرأس بالشعور و الأصداغ (١) ، و زيّن الوجه باللّحية و الحاجبين ، و زيّن الحاجبين بدقّة الشعر و استقواس الشكل و زيّن العينين بالأهداب (٢) ثمّ خلق الأعضاء الباطنة وسخّر كلّ واحد لفعل مخصوص ، فسخّر المعدة لنضج الغذاء والكبد لاحالة الغذاء إلى الدّم و الطحال والمرارة والكلية لخدمة الكبد ، فالطحال يخدمه بجذب السوداء عنها والمرارة تخدمه لجذب الصفراء عنه ، والكلية تخدمه لجذب المائيّة عنها ، والمثانة تخدم الكلية بقبول الماء عنها ، ثمّ تخرجه عن طريق الإحليل والعروق تخدم الكبد في إيصال الدّم إلى سائر أطراف البدن ، ثمّ خلق اليدين وطوّلهما لتمتدّ إلى المقاصد و عرض الكفّ و قسم الأصابع الخمس و قسم كلّ أصبع بثلاث أنامل و وضع الأربع في جانب و الإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع و لو اجتمع

---

(١) هى الشعور المتدلية على الصدغين والصدغ ما بين العين والاذن .

(٢) جمع هدبة وآن بفارسى مژهٔ چشم است .

الأوّلون و الآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الابهام عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول و ترتيبها في صفّ واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت إليه للقبض والاعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت آلة للضرب و إن ضمّها ضمّاً غير تامّ كانت مغرفة (١) و إن بسطها و ضمّ أصابعها كانت مجرفة له (٢) ، ثمّ خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل و عماداً لها من ورائها حتّى لا تنقطع و ليلتقط بها الأشياء الدّقيقة الّتي لا تتناولها الأنامل وليحكّ بها بدنه عند الحاجة فالظفر الّذي هو أخسّ الأعضاء لو عدمه الانسان و ظهرت به حكّة لكان أعجز الخلق و أضعفهم و لم يقم شيء مقامه في حكّ بدنه ، ثمّ هدى اليد إلى موضع الحكّ حتّى تمتدّ إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحكّ إلّا بعد تعب طويل ، ثمّ خلق هذا كلّه في النطفة وهي في جوف الرّحم في ظلمات ثلاث و لو كشف الغطاء والغشاء و امتدّ البصر إليه لكان يرى التخطيط و التّصوير يظهر عليها شيئاً فشيئاً ولا يرى المصوّر ولا آلته فهل رأيت مصوّراً أو فاعلاً لا يمس آلته مصنوعه ولا يلاقيه و هو يتصرّف فيها ، فسبحانه ما أعظم شأنه و أظهر برهانه ، ثمّ انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته فإنّه لمّا ضاق الرّحم عن الصبيّ لمّا كبر كيف هداه السّبيل حتّى تنكّس و تحرّك و خرج من ذلك المضيق و طلب المنفذ كأنّه عاقل بصير بما يحتاج إليه ، ثمّ لمّا خرج و احتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ، ثمّ لمّا كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبّر له في خلق اللّبن اللّطيف و استخرجه من بين الفرث و الدّم خالصاً سائغاً ، و كيف خلق الثديين و جمع فيهما اللّبن و أنبت لهما الحلمة (٣) على قدر ما ينطبق عليه فم الصبيّ ، ثمّ فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيّقاً جدّاً حتّى لا يخرج اللّبن إلّا بعد المصّ

(١) مغرفة هى ما يقال لها بالفارسية «چمچه» .
(٢) جرف بالفارسى «كاوبدن» ومجرفة بمعنى بيل است .
(٣) الحلمة ـ محركة ـ الثؤلول فى وسط الثدى وهو الحبة على رأسه .

تدريجاً فإنّ الطفل لايطيق منه إلّا القليل ، ثمّ كيف هداه إلى الامتصاص حتّى يستخرج من ذلك المضيق اللّبن الكثير عند شدّة الجوع ، ثمّ انظر إلى عطفه و رأفته كيف أخّر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنّه في الحولين لايتغذّى إلّا باللّبن فيستغني عن السنّ و إذا كبر لم يوافقه اللّبن السّخيف و يحتاج إلى الطعام الغليظ و يحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبت له الأسنان عند الحاجة لاقبلها ولابعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة من اللّثات اللّينة ثمّ حنّن قلوب الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الّذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه فلو لم يسلّط الله سبحانه الرّحمة على قلبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه ثمّ انظر كيف رزقه القدرة والتميز و العقل و الهداية تدريجاً حتّى بلغ و تكامل فصار مراهقاً ثمّ شابّاً ثم كهلاً ثمّ شيخاً إمّا كفوراً أوشكوراً ، مطيعاً أو عاصياً ، مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى : «هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً ۞ إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ۞ إنّا هديناه السبيل إمّا شاكراً وإمّا كفوراً[1]» فانظر إلى اللّطف والكرم ثمّ إلى القدرة والحكمة تبهرك[2] عجائب الحضرة الرّبوبيّة ، والعجب كلّ العجب ممّن يرى خطّاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه فينصرف بجميع همّه إلى التفكّر في الخطّاط و النقّاش وأنّه كيف خطّه و نقشه و كيف اقتدر عليه ، ولايزال يستعظمه ويقول ما أحذقه وما أجمل صنعته و أحسن قدرته ، ثمّ ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ويغفل عن صانعه ومصوّره ، فلا تدهشه عظمته و لا يحيره جلاله وحكمته ، فهذه نبذة من عجائب بدنك الّتي لايمكن استقصاؤها، وهي أقرب مجال لفكرك وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عنها مشغول ببطنك وفرجك ولا تعرف من نفسك إلّا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام وتشتهي فتجامع وتغضب فتقاتل وتشاركك في معرفة ذلك البهائم والسّباع كلّها وإنّما خاصيّة الإنسان الّتي حجبت البهائم عنها معرفة الله عزّ وجلّ بالنظر في ملكوت السّماوات والأرض

(١) الدهر : ١ الى ٣ .

(٢) بهر القمر غلب ضوؤه ضوء الكواكب .

وعجائب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرّبين و يحشر في زمرة النبيّين والصدّيقين مقرّباً من حضرة ربّ العالمين ، وليست هذه الرّتبة للبهائم ولا للإنسان إذا رضي من الدّنيا بشهوات البهائم فإنّه شرٌّ من البهيمة بكثير إذ لاقدرة للبهيمة على ذلك ، فأمّا هو فقد خلقت له القدرة ثمّ عطّلها و كفر نعمة الله فيها ، فأُولئك كالانعام بل هم أضلّ سبيلاً ، وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكّر في الأرض الّتي هي مقرّك ثمّ في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثمّ ارتفع منها إلى ملكوت السّماوات .

امّا الارض فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً و مهاداً وسلك فيها سبلاً فجاجاً وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها وجعلها وقوراً لاتتحرّك وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد ، ثمّ وسّع أكنافها حتّى عجز الآدميّون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم و كثر تطوافهم فقال تعالى : « والسّماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون ﴿ والأرض فرشناها فنعم الماهدون[1] » وقال تعالى : « هو الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها[2] » وقال : « الّذي جعل لكم الأرض فراشاً[3] » وقد أكثر في كتابه العزيز ذكر الأرض ليتفكّر في عجائبها فظهرها مقرٌّ للأحياء وبطنها للأموات ، و لذلك قال تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتاً ﴿ أحياء و أمواتاً[4] » فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزّت وربت واخضرّت وأنبتت عجائب النّبات و خرجت منها أصناف الحيوان ، ثمّ انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الرّاسيات الشوامخ الصّم الصلاب ، و كيف أودع المياه تحتها ففجّر العيون و أسال الأنهار تجري على وجهها وإنّما أخرج من الحجارة اليابسة

(١) الذاريات : ٤٨ . (٢) الملك : ١٥

(٣) البقرة : ٢٢ .

(٤) المرسلات : ٢٥و٢٦. وقوله تعالى «كفاتاً» قال البيضاوى : اى كافتة ، اسم لما يكفت اى يضم ويجمع، كالضمام والجماع لما يضم و يجمع ، أومصدر نعت به أوجمع كافت كصائم وصيام أو كفت وهو الوعاء أجرى على الارض باعتبار اقطارها .

ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً صافياً زلالاً وجعل به كلّ شيء حيّاً [١] فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حبّ وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمّان وفواكه كثيرة لاتحصى مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصّفات والارائيح ففضّل بعضها على بعض في الأُكل تسقى جميعاً بماء واحد وتخرج من أرض واحدة ، فإن قلت : إنّ اختلافها لاختلاف بذورها واُصولها فمتى كانت في النواة نخلة مطوّقة بعناقيد [٢] الرُّطب ومتى كانت في حبّة واحدة سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبّة ، ثمّ انظر إلى أراضي البوادي وفتّش ظاهرها وباطنها فترى بها تراباً متشابها فإذا أنزل عليها الماء اهتزّت وربت وأنبتت من كلّ زوج بهيج ألواناً مختلفة ونباتاً متشابهاً وغير متشابه ، لكلّ واحد طعم وريح ولون وشكل يخالف الآخر ، فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها و كثرة أشكالها ، ثمّ اختلاف طبائع النبات و كثرة منافعها و كيف أودع الله العقاقير المنافع الغريبة فهذا النبات يغذّي ، وهذا يقوّي ، وهذا يحيي ، وهذا يقتل ، وهذا يبرد ، وهذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصّفراء من أعماق العروق ، وهذا يستحيل إلى الصّفراء ، وهذا يقمع البلغم والسّوداء ، وهذا يستحيل إليهما ، وهذا يستحيل دماً ، وهذا يصفي الدّم ، وهذا يفرّح ، وهذا ينوّم ، وهذا يقوّي ؛ وهذا يضعّف فلم ينبت من الأرض ورقة ولا نبتة إلّا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها و كلّ واحد منها يحتاج الفلّاح في تربيته إلى عمل مخصوص فالنخيل تؤبّر [٣] والكرم يقطع والزّرع ينقّى منه الحشيش والدّغل [٤]

---

(١) لعله مأخوذ من قوله تعالى « و جعلنا من الماء كل شيء حي » و لايخفى ان معنى الاية أن الله تعالى جعل كل شيء حي من الماء لا كل شيء حياً من الماء . وفي الاحياء طبعاته المختلفة بايران و مصر والهند كلها « وجعل به كل شيء حي » وهو الصواب .

(٢) جمع عنقود بمعنى خوشه .

(٣) الابار - بالكسر - هو ادخال شيء من طلع النخل الذكر في طلع الانثى فيعلق باذن الله . أبر النخلة وأبره - بالتشديد - أي لقحه وأصلحه .

(٤) الدغل - محركة - : الشجر الكثير الملتف ، واشتباك النبت .

وبعضها يستنبت ببثّ البذر في الأرض و بعضها بغرس الأغصان وبعضها يركب في الشجر ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النّبات وأنواعها ومنافعها وأحوالها وعجائبها لانقضت الأيّام في وصفها فيكفيك من كلّ جنس نبذة يسيرة تدلّك على طريق الفكر فهذه عجائب النّبات

ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض ففي الأرض قطع متجاوزات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذّهب والنحاس والفضّة والفيروزج واللّعل وغيرها بعضها منطبعة تحت المطارق [1] كالذّهب والنحاس والرّصاص والحديد وبعضها لاينطبع كالفيروزج واللّعل ، و كيف هدى الله تعالى النّاس إلى استخراجها وتنقيتها واتّخاذ الأواني والآلات والنقود والحليّ منها ، ثمّ انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقير وغيرها وأقلّها الملح ولا يحتاج إليه إلّا لتطييب الطّعام ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك عليها، فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصّافي من المطر فيصير ملحاً مالحاً محرقاً بحيث لايمكن تناول مثقال منه ليكون ذلك تطييباً لطعامك إذا أكلته فيتهنّأ عيشك ، وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلّا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا ضائعاً ولاهزلاً بل خُلِق الكلّ بالحقّ كما ينبغي و على الوجه الّذي ينبغي و كمايليق بجلاله و كرمه ولطفه ، ولذلك قال تعالى : « وما خلقنا السموات والأرض و ما بينهما لاعبين ۞ ما خلقناهما إلّا بالحقّ [2] ».

ومن آياته أصناف الحيوانات وانقسامها إلى ما يطير و إلى ما يمشي ، وانقسام ما يمشي إلى ما يمشي على رجلين وإلى ما يمشي على أربع وعلى عشر وعلى مائة ويشاهد ذلك في بعض الحشرات والدّيدان وانقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجوّ وإلى وحوش البرّ وإلى

(١) المطرقة آلة الحدادين ، جمعها مطارق .

(٢) الدخان : ٣٩ و ٤٠ .

البهائم الأهليّة ترى فيها من العجائب مالاتشكّ معها في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها و كيف يمكن أن يستقصى ذلك ، بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقّة(١) أو النملة أو النحلة أو العنكبوت وهي من صغار الحيوات في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها و في ادّخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نقدر ، فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر فيطلب أوّلاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتّى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثمّ يبتدي فيلقي اللّعاب الّذي هو خيطه على جانب ليلتصق به فيعدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثمّ يحكم كذلك ثانياً وثالثاً ويجعل بعد مابينها متناسباً تناسباً هندسياً حتّى إذا أحكم معاقد القمط(٢) ورتّب الخيوط كاللّحمة فيشتغل بالتسدية فيلصق السدى إلى اللّحمة ويحكم العقد على موضع التقاء السدى(٣) باللّحمة و يرعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البقّ والذباب ويقعد في زاوية مترصّداً لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع فيها بادر إلى أخذه وأكله فإن عجز عن الصّيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصله بين طرفي الزّاوية بخيط ثمّ علّق نفسه منها بخيط آخر وبقي منتكّساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير فإذا طارت ذبابة رمى بنفسه إليها فأخذها وأحكم خيطه على رجلها وأحكمها ثمّ أكلها ، وما من حيوان صغير ولا كبير إلّا وفيه من هذه العجائب ما لايحصى افترى أنّه تعلم هذه الصنعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كوّنه آدمي أو علّمه إذ لاهادي له ولا معلّم أيشكّ ذو - بصيرة في أنّه مسكين عاجز ضعيف بل الفيل العظيم شخصه الظاهر قوّته عاجز عن أمر نفسه فكيف بهذا الحيوان الضّعيف أفلا يشهد هو بنفسه وشكله وصورته وحركته

---

(١) هى ما يقال له بالفارسية « پشه ».

(٢) القمط - بكسر القاف - : حبل تشدبه قوائم الشاة للذبح .

(٣) السدى - بفتح السين - : ضداللحمة وهومايمد طولا فى النسج واسديت الثوب بالالف اقمت سداه ، ولحمة الثوب ما ينسج عرضاً .

وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم ، فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبّر وجلاله و كمال قدرته وحكمته ماتتحيّر فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات ، وهذا الباب أيضاً لاحصر له فإنّ الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنّما سقط تعجّب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة ، نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولو دوداً تجدّد تعجّبه وقال : سبحان الله ما أعجبه والإنسان أعجب الحيوانات وليس يتعجّب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام الّتي ألفها ونظر إلى أشكالها و صورها ، ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها و أصوافها و أوبارها و أشعارها الّتي جعلها الله لباساً لخلقه وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم وآنية لأشربتهم وأوعية لأغذيتهم وصوناً لأقدامهم ، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثمّ جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبراري والمفازات لأكثر الناظر التعجّب من حكمة خالقها ومصوّرها فإنّه ما خلقها إلّا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إيّاها فسبحان من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكّر ومن غير تأمّل وتدبّر ومن غير استعانة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير و لقد استخرج بأقلّ القليل ممّا خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده فما للخلق إلّا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيّته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن الّذي يحصي ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنّما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته ، فنسأل الله عزّ وجلّ أن يكرمنا بهدايته بمنّه و رأفته .

ومن آياته البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض الّتي هي قطع من البحر الأخضر المحيط بجميع الأرض حتّى أنّ جميع المكشوف من البوادي والجبال بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم و بقية الأرض مستورة بالماء قال النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض (١) » فانسب اصطبلاً إلى جميع الأرض ، واعلم أنّ الأرض بالاضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب

(١) قال العراقى : لم أجد له أصلا وقد تقدم .

الأرض و ما فيها فتأمّل الآن عجائب البحر فإنّ عجائب ما فيه من الحيوان و الجواهر أضعاف عجائب ما نشاهده على وجه الأرض كما أنّ سعته أضعاف سعتها ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما يرى ظهورها في البحر فيظنّ أنّها جزيرة فينزل الرّكبان عليها فربّما يحسّ بالنّيران إذا اشتعلت فيتحرّك فيعلم أنّها حيوان ، وما من صنف من أصناف حيوان البرّ من فرس أوطير أوبقر أوإنسان إلّا وفي البحر أمثالها وأصنافها ، وفيه أجناس لايعهد لها نظير في البرّ قد ذكرت أوصافها في مجلّدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ، ثمّ انظر كيف خلق الله اللّؤلؤ ودوّره في صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صمّ الصّخور تحت الماء وإنّما هو نبات على هيئة شجرة تنبت من الحجر ، ثمّ تأمّل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس الّتي يقذفها البحر و يستخرج منها ، ثمّ انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله عزّ وجلّ على وجه الماء وسيّر فيها التجّار وطلّاب الأموال وسخّر لهم الفلك ليحمل أثقالهم ، ثمّ أرسل الرّياح لتسوق السّفن ، ثمّ عرّف الملّاحين موارد الرّياح ومهابّها ومواقيتها ، ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلّدات ، و أعجب من ذلك كلّه ما هو أظهر من كلّ ظاهر و هو كيفيّة قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيّال مشفّ متّصل الأجزاء كأنّه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتقطيع كأنّه منفصل مسخّر للتصرّف وقابل للانفصال و الاتّصال به حياة كلّ ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ومنع لبذل جميع خزائن الدّنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ثمّ إذا شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها فالعجب من الآدمي أن يستعظم الدّينار والدّرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله عزّ وجلّ في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها و إخراجها بذل جميع الدّنيا فيها فتأمّل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متّسع للفكر و مجالٌ و كلٌ هذا شواهد متظاهرة و آيات متناصرة ناطقة بلسان حالها ، مفصحة عن جلالة بارئها ، معربة عن كمال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها ، قائلة : أما تراني وما ترى صورتي و تركيبي و صفاتي ومنافعي و

اختلاف حالاتي و كثرة فوائدي أتظنّ أنّي تكوّنت بنفسي أوخلقني أحدٌ من جنسي أو ما تستحي تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنّها صنعة آدمي مريد عالم قادر متكلّم، ثمّ تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهيّة المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الّذي لا تدرك الأبصار ذاته و لا حركته و لا اتّصاله بمحلّ الخطّ، ثمّ ينفكّ قلبك عن جلالة صانعه، و تقول النطفة لأرباب السمع لا للّذين هم عن السمع لمعزولون: توهّموني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الّذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقّاش حدقتي و أجفاني ووجهي وخدّي وشفتي فترى النقوش تظهر شيئاً فشيئاً ولا ترى داخل النطفة نقّاشاً ولا خارجها و لا داخل الرّحم و لا خارجه ولاخبر منها لاللأب و لاللأمّ و لاللنطفة ولاللرّحم أفما هذا النقّاش بأعجب ممّن تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرّة أو مرّتين لتعلّمته فهل تقدر على أن تتعلّم هذا الجنس من النقش الّذي يعمّ ظاهر النطفة و باطنها و جميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة و من غير اتّصال بها لا من داخل و لا من خارج فإن كنت لا تتعجّب من هذه العجائب ولاتفهم بها أنّ الّذي صوّر و نقش و قدّر لا نظير له و لا يساويه نقّاش و مصوّر كما أنّ نقشه و صنعه لا يساويه نقش و صنع، فبين الفاعلين من المباينة و التباعد ما بين الفعلين، و إن كنت لاتتعجّب من هذا فتعجّب من عدم تعجّبك فإنّه أعجب من كلّ عجب فإن الّذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح و منعك التبيّن مع هذا البيان جديرٌ بأن تتعجّب منه فسبحان من هدى وأضلّ و أغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحبّائه فشاهدوه في جميع ذرّات العالم و أجزائه و أعمى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بعزّه و علائه فله الخلق و الأمر و الامتنان و الفضل و اللّطف و القهر، لا رادّ لحكمه و لامعقّب لقضائه.

ومن آياته الهواء اللّطيف المحبوس بين مقعّر السّماء و محدّب الأرض يدرك بحسّ اللّمس عند هبوب الرّيح جسمه ولايرى بالعين شخصه وجملته مثل البحر الواحد و الطيور محلّقة في جوّ السّماء مسفّة سبّاحة فيها بأجنحتها كما تسبح حيوانات

البحر في الماء و تضطرب جوانبه و أمواجه عند هبوب الرّياح كما تضطرب أمواج البحر فإذا حرّك الله الهواء و جعله ريحاً هابّة فإن شاء جعله بشرى بين يدي رحمته كما قال : « و أرسلنا الرّياح لواقح[١] » فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات و النبات فتستعدّ للنماء و إن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال : « إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمرّ ☆ تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر[٢] » ثمّ انظر إلى لطف الهواء ثمّ شدّته و قوّته مهما ضغط في الماء فالزّقّ المنفوخ يتحامل عليه الرّجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه و الحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوّته مع لطافته و بهذه الحكمة أمسك الله عزّ وجلّ السفن على وجه الماء و كذلك كلّ مجوّف فيه هواء لايغوص في الماء لأنّ الهواء ينقبض عن الغوص في الماء و لا ينفصل عن السطح الدّاخل في السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوّتها و صلابتها معلّقة في الهواء اللّطيف كالّذي يقع في البئر فيتعلّق بذيل رجل قويّ ممتنع عن الهويّ في البئر و السفينة بمقعرها تتشبّث بأذيال الهواء القويّ حتّى يمتنع عن الهويّ و الغوص في الماء فسبحان من علّق المركب الثقيل من هواء لطيف من غير علاقة تشاهد و عقدة تشدّ، ثمّ انظر إلى عجائب الجوّ وما يظهر فيها من الغيوم والرّعود والبروق و الأمطار و الثلوج و الشهب و الصواعق و هي عجائب ما بين السماء و الأرض و قد أشار القرآن إلى جملته في قوله تعالى : « وما خلقنا السموات و الأرض ومابينهما لاعبين[٣] » و السحاب هو الّذي بينهما و أشار إلى تفصيله في مواضع شتّى حيث قال : « والسحاب المسخّر بين السماء والأرض »[٤] وحيث تعرّض للرّعد و البرق و السحاب و المطر . فإذا لم يكن لك حظّ من هذه الجملة إلّا أن ترى المطر بعينك و تسمع الرّعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة فارتفع من حضيض عالم

---

(١) الحجر : ٢٢ .

(٢) القمر : ١٩ و ٢٠ .　　　(٣) الدخان : ٣٨ .

(٤) البقرة : ١٦٤ .

البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت ظاهرها فغمّض عينك الظاهرة و انظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها وغرائب أسرارها و هذا أيضاً باب يطول الفكر فيه و لامطمع في استيفائه ، فتأمّل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه تجمع في جوّ صاف لا كدورة فيه و كيف يخلقه الله عزّ وجلّ إذا شاء و متى شاء و هو مع رخاوته حامل للماء الثقيل و ممسك في جوّ السّماء إلى أن يأذن الله عزّ وجلّ في إرساله الماء و تقطيع القطرات كلّ قطرة بالقدر الّذي أراده الله عزّ وجلّ و على الشكل الّذي شاء، فترى السّحاب يرشّ الماء على الأرض و يرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها اُخرى و لا تتّصل واحدة باُخرى بل تنزل كلّ واحدة في الطريق الّذي رسم لها لا تعدل عنه و لا يتقدّم المتأخّر و لايتأخّر المتقدّم حتّى يصيب الارض قطرة قطرة فلو اجتمع الأوّلون و الآخرون على أن يخلقوا منها قطرة واحدة أويعرفوا عدد ماينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجنّ و الانس عنه فلا يعلم عددها إلّا الّذي أوجدها ، ثمّ كلّ قطرة منها عيّنت لكلّ جزء من الأرض و لكلّ حيوان فيها من طير و وحش ودود مكتوب على تلك القطرة بخطّ إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنّها رزق الدّود الفلانية الّذي هو في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللّطيف و في تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب الّتي لاتحصى كلّ ذلك فضل من الجبّار القادر و قهر من الخلّاق القاهر ، مالأحد فيه شركة ولا مدخل بل ليس للمؤمن من خلقه إلّا الاستكانة والخضوع تحت جلاله و عظمته و لاللعميان الجاحدين إلّا الجهل بكيفيّته و رجم الظنّ بذكر سببه و علّته فيقول الجاهل المغرور : إنّما ينزل الماء لأنّه ثقيل بطبعه ، و إنّما هذا سبب نزوله و يظنّ أنّ هذه معرفة انكشفت له و يفرح بها و لو قيل له : ما معنى الطّبع ؟ و ما الّذي خلقه ؟ وما الّذي خلق الماء الّذي طبعه الثقل ؟ و ما الّذي يرقى الماء المصبوب في أسفل الاشجار إلى أعالي الأغصان و هي ثقيلة بطبعها فكيف هوت إلى أسفل ثمّ ارتفعت إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى و لا يشاهد

حتّى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيغذى كلّ جزء من كلّ ورق و يجري إليه في تجاويف عروق شعريّة صغار يروّي منها العرق الّذي هوأصل الورق ، ثمّ ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار فكان الكبير نهر ينشعب عنه جداول ثمّ ينشعب من الجداول سواق أصغر منها ثمّ ينتشر منها خيوط عنكبوتيّة دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتّى تنبسط في جميع عرض الورق فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذّيها وينميها ويربّيها وتبقى طراوتها و نضارتها و كذلك إلى سائر أجزاء الفواكه ، فإن كان الماء يتحرّك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرّك إلى فوق فإن كان ذلك بجذب فما الّذي سخّر ذلك الجاذب فإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السماوات و الأرض و جبّار الملك و الملكوت فلم لايحال عليه في أوّل الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل .

ومن آياته ملكوت السماوات وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كلّه و من أدرك الكلّ و فاتته عجائب السماوات فقد فاته الكلّ تحقيقاً ، فالأرض و البحار و الهواء و كلّ جسم سوى السماوات بالاضافة إلى السماوات كقطرة في بحر أو أصغر ، فانظر كيف عظّم الله أمر السّماوات و النّجوم في كتابه فما من سورة إلّا و تشتمل على تفخيمها في مواضع و كم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى : « و السّماء ذات البروج [١] » « و السماء و الطارق ✿ و ما أدريك ما الطارق ✿ النجم الثاقب [٢] » « و السماء ذات الحبك [٣] » « و السماء و ما بناها [٤] » و قوله : « و الشمس و ضحيها [٥] » « فلا أقسم بالخنّس ✿ الجوار الكنّس [٦] » « والنّجم إذا هوى [٧] » « فلا أقسم بمواقع النّجوم ✿ و إنّه لقسم لو تعلمون عظيم [٨] » وقد علمت أنّ عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوّلون و الآخرون و ما أقسم الله

---

(١) البروج : ١.
(٢) الطارق : ١ و٢و٣.
(٣) الذاريات : ٧.
(٤) و(٥) الشمس : ٥ و ١ .
(٦) التكوير : ١٥ و١٦.
(٧) النجم : ١ .
(٨) الواقعة : ٧٦ و٧٧ .

عزّ وجلّ بها فكيف ظنّك بما أقسم الله عزّ وجلّ به و أحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال: « و في السّماء رزقكم و ما توعدون [(١)] » و أثنى على المتفكّرين فيه فقال: « و يتفكّرون في خلق السّموات و الأرض [(٢)] » و قال النبيّ ﷺ : « ويل لمن قرأ هذه الآية ثمّ مسح بها سبلته[(٣)] » أي تجاوزها من غير فكرة. وذمّ المعرضين عنها فقال: «وجعلنا السّماء سقفاً محفوظاً و هم عن آياتها معرضون [(٤)] » فأيّ نسبة لجميع البحار و الأرض إلى السماء و هي متغيّرات على القرب و السماوات شداد صلاب محفوظات عن التغيّر إلى أن يبلغ الكتاب أجله و لذلك سمّاه الله عزّ و جلّ محفوظاً فقال: « و جعلنا السّماء سقفاً محفوظاً [(٥)] » و قال: « و بنينا فوقكم سبعاً شداداً [(٦)] » و قال: « أأنتم أشدّ خلقاً أم السّماء بناها ۞ رفع سمكها فسوّيها [(٧)] » فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العزّ و الجبروت و لاتظننّ أنّ معنى النظر إلى الملكوت بأن تمدّ البصر إليه فترى زرقة السّماء وضوء الكواكب و تفرّقها فانّ البهائم تشاركك في هذا النظر فان كان هذا هو المراد فلم مدح الله إبراهيم بقوله: « و كذلك نري إبراهيم ملكوت السموات و الأرض [(٨)] » لابل كلّ ما تدركه بحاسّة البصر فالقرآن يعبّر عنه بالملك و الشهادة، و ما غاب عن الأبصار فيعبّر عنه بالغيب والملكوت، والله تعالى عالم الغيب و الشهادة و جبّار الملك و الملكوت ولايحيط أحدٌ بشيء من علمه إلّا بما شاء و هو عالم الغيب «فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول» فأطل أيّها الغافل فكرك في الملكوت فعسى أن يفتح لك أبواب السّماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرّحمن فعند ذلك ربّما يرجى لك أن تبلغ رتبة من قال: «رأى قلبي ربّي» و هذا لأنّ بلوغ الأقصى لايكون إلّا بعد مجاوزة الأدنى، وأدنى شيء إليك نفسك ثمّ الأرض

---

(١) الذاريات: ٢٢.
(٢) آل عمران: ١٩١.
(٣) قد تقدم.
(٤) و(٥) الانبياء: ٣٢.
(٦) النبأ: ١٢.
(٧) النازعات: ٢٧ و٢٨.
(٨) الانعام: ٧٥.

الّتي هي مقرّك ، ثمّ الهواء المكتنف لك ، ثمّ النبات و الحيوان و ما على وجه الأرض ، ثمّ عجائب الجوّ و هو ما بين السّماء و الأرض ، ثمّ السماوات السبع بكواكبها ثمّ الكرسيّ ثمّ العرش ثمّ الملائكة الّذين هم حملة العرش و خزّان السماوات ثمّ منه تجاوز النظر إلى ربّ العرش والكرسيّ والسماوات والأرض وما بينهما فبينك و بينه هذه المفاوز الفيح(١) والمسافات الشاسعة و العقبات الشاهقة(٢) و أنت بعد لم تفرغ من العقبة القريبة النازلة ، و هي معرفة ظاهر نفسك ، ثمّ صرت تطلق اللّسان بوقاحتك وتدّعي معرفة ربّك وتقول : قد عرفته و عرفت خلقه ففيما ذا أتفكّر وإلى ما ذا أتطلّع ؟ فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها و في دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها و مغاربها ودؤوبها في الحركة(٣) على الدّوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغيّر في سيرها بل يجري جميعها في منازل مرتّبة بحساب مقدّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها الله عزّ وجلّ طيّ السجلّ للكتب ، فتدبّر عدد كواكبها و كثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة ، وبعضها إلى البياض ، وبعضها إلى اللّون الرّصاصي ، ثمّ انظر إلى كيفيّة أشكالها فبعضها على صورة العقرب وبعضها على سورة الحمل والثور والاسد والإنسان ، وما من صورة في الأرض إلّا ولها تمثال في السماء ، ثمّ انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدّة سنة ثمّ هي تطلع كلّ يوم وتغرب بسير آخر سخّرها لها خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف اللّيل والنهار ولم تعرف المواقيت ولأطبق الظلام على الدّوام أو الضياء على الدّوام وكان لا يتميّز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل اللّيل لباساً والنوم سباتاً والنهار معاشاً ، وانظر إلى إيلاجه اللّيل في النهار والنهار في اللّيل وإدخاله الزّيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص و انظر إلى إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتّى اختلف بسببه الصّيف والشتاء والرّبيع والخريف

(١) مفازة فيحاء أي واسعة . والجمع فيح .

(٢) الشاسعة البعيدة ، والشاهقة : المرتفعة (الصحاح) .

(٣) الدؤوب الجد و الحركة .

فإذا انخفضت الشمس عن وسط السماء في مسيره برد الهواء فظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتدّ القيظ وإن كانت فيما بينهما اعتدل الزّمان وعجائب السماوات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها وإنّما هذا تنبيه على طريق التفكّر واعتقد على الجملة أنّه ما من كوكب من الكواكب إلّا ولله تعالى حِكم كثيرة في خلقه، ثمّ في مقداره، ثمّ في شكله، ثمّ في لونه، ثمّ في وضعه في السماء وقربه من وسط السّماء وبعده وقربه من الكواكب الّتي بجنبه وبعده وقس ذلك بما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلّا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السّماء لا في كبر جسمه ولا في كثرة معانيه، وقس التفاوت الّذي بينهما في كثرة معانيه بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فأنت تعرف من كبر الأرض واتّساع أطرافها أنّه لا يقدر آدميّ على أن يدور بجوانبها وقد اتّفق المهندسون على أنّ الشمس مثل الأرض مائة ونيّفاً وستّين مرّة [1]، وفي الأخبار ما يدلّ على عظمتها والكواكب الّتي تراها أصغرها هي مثل الأرض ثماني مرّات وأكبرها ينتهي إلى قريب من مائة وعشرين مرّة مثل الأرض وبهذا يعرف إرتفاعها وبعدها فللبعد صارت ترى صغاراً ولذلك أشار الله تعالى إلى بعدها فقال: «رفع سمكها فسوّيها [2]» وفي الأخبار أنّ «بين كلّ سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام [3]» فإذا كان هذا مقدار كوكب واحد من الأرض فانظر إلى كثرة الكواكب ثمّ

---

(١) هذا على مذهب بطلميوس و أتباعه و أما قبله يعنى عصر هيرقلس الفيلسوف اعتقدوا بأن جرم الشمس لا يزيد عما نشاهده بالابصار كما فى كتاب مشهد الكائنات ص ٨٣ و أما اليوم فزعموا أن جسامة الشمس بالنسبة الى الارض تزيد من ألف ألف مرة الى ١٣٠٠٠٠٠ مرة والله أعلم.

(٢) النازعات: ٢٨.

(٣) أخرجه الترمذى من رواية الحسن عن أبى هريرة و قال: غريب. و قال العراقى: ويروى عن أيوب و يونس بن عبيد و على بن زيد قالوا: و لم يسمع الحسن من أبى هريرة، و رواه أبو الشيخ فى كتاب العظمة من رواية أبى نصرة عن أبى ذر و رجاله ثقات الا انه لا يعرف لابى نصرة سماع من أبى ذر.

انظر إلى السماء الّتي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمتها ، ثمّ انظر إلى سرعة حركتها وأنت لا تحسّ بحركتها فضلاً من أن تدرك سرعتها لكن لاتشكّ في أنّه في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأنّ الزّمان من طلوع أوّل جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرّة وزيادة ، فقد دار الفلك في هذه اللّحظة مثل الأرض مائة مرّة وهكذا يدور على الدّوام وأنت غافل عنه ،وانظر كيف عبّر جبرئيل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « هل زالت الشّمس ؟ فقال : لا ، نعم ، فقال كيف تقول: لا نعم فقال: من حيث قلت «لا» إلى أن قلت «نعم» سارت الشّمس مسيرة خمسمائة عام(١) » فانظر إلى عظم شخصها ثمّ إلى خفّة حركتها ثمّ انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورتها مع اتّساع أكنافها في حدقة العين مع صغرها حتّى تجلس على الأرض وتفتح عينك نحوها فترى جميعها فهذه السّماء لعظمتها و كثرة كواكبها لاتنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثمّ أمسكها من غير عمد ترونها و من غير علاقة من فوقها تتدلّى بها فكلّ العالم كبيت واحد والسّماء سقفه فالعجب منك إنّك تدخل بيت غني فتراه مزوّقاً(٢) بالصبغ مموّهاً بالذّهب فلا ينقطع تعجّبك عنه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك وأنت أبداً تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ، ثمّ لاتتحدّث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه فما هذا البيت دون البيت الّذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضاً جزء من الأرض الّتي هي أخسّ أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ، ليس له سبب إلّا أنّه بيت ربّك هو الّذي انفرد ببنائه وتزيينه وأنت قد نسيت نفسك وربّك واشتغلت ببطنك وفرجك ليس لك همّ إلّا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن تملأ بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر ما تأكله بهيمة فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بلسانهم بين يديك

(١) قال العراقى : لم أجده أصلا .
(٢) أى منقشاً .

ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك وإن صدّقوك في مودّتهم إيّاك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حيوة ولا نشوراً وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذه الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السّماوات والأرض ثمّ غفلت عن التنعّم بالنظر إلى جلال مالك الملكوت والملك و ما مثلك و مثل عقلك إلّا كمثل النملة تخرج من الجحر الّذي حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزيّن بالجواري والغلمان وأنواع الذّخائر والنّفائس وإنّها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدّث لو قدرت على النطق إلّا من بيتها وغذائها و كيفيّة إدّخارها فأمّا حال القصر والملك الّذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكّر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها إلى غيرها و كما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضاً عن سكّانه فأنت غافل عن بيت الله تعالى وعن ملائكته الّذين هم سكّان سماواته فلا تعرف من السّماء إلّا ما تعرفه النملة من سقف بيتك ولا تعرف من ملائكة السماوات إلّا ما تعرفه النملة منك ومن سكّان بيتك نعم ليس للنملة طريق إلى أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه فأمّا أنت فلك قدرة على أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنها ، ولنقبض عنان الكلام عن هذا النمط فإنّه مجال لا آخر له ولو استقصينا أعماراً طويلة لم نقدر على شرح ما تفضّل الله عزّ وجلّ علينا بمعرفته وكلّ ما عرفناه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه جملة الأولياء والعلماء ، وما عرفوه قليل بالإضافة إلى ما عرفه نبيّنا صلّى الله عليه وآله وما عرفه نبيّنا قليل بالاضافة إلى ما عرفته الملائكة المقرّبون كجبرئيل وإسرافيل وغيرهما صلوات الله عليهم ثمّ جميع علوم الملائكة والجنّ والانس إذا اُضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحقّ أن يسمّى علماً ، هو إلى أن يسمّى دهشاً وحيرة وقصوراً و عجزاً أقرب ، فسبحان من عرّف عباده ما عرّف ثمّ قال مخاطباً جميعهم : « وما اوتيتم من العلم إلّا قليلا [1] »

(١) الاسرى : ٨٥ .

فهذا بيان معاقد الجمل الّتي يجول فيها فكر المتفكّرين في خلق الله عزّ وجلّ وليس فيها فكر في ذات الله ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لامحالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته و كلّما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله كانت معرفتك بجلاله و عظمته أتمّ و هذا كما أنّك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه فلايزال تطلّع على غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسبه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً حتّى أنّ كلّ كلمة من كلماته و كلّ بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاً في قلبك و يستدعي التعظيم له من نفسك . فهكذا تأمّل في خلق الله وتصنيفه وتأليفه . و كلّ ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه فالنظر والفكر فيه لايتناهى أبداً وإنّما لكلّ عبد منها بقدر ما رزق ، فلنقتصر على ماذكرناه ولنُضف إلى هذا ما فصّلناه في كتاب الشكر فإنّا نظرنا في ذلك الكتاب إلى فعل الله من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث أنّه فعل الله فقط وكلّ مانظرنا فيه فإنّ الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته والموفّق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته وما من ذرّة في السّماء و الأرض إلّا ولله تعالى فيه حكم يضلّ بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ومن نظر في هذه الاُمور من حيث أنّها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لامن حيث ارتباطها بمسبّب الأسباب فقد شقي وتردّى فنعوذ بالله من الضّلال ونسأله أن يجنّبنا مزلّة أقدام الجهّال بمنّه وفضله إنّه على مايشاء قدير .

تمّ كتاب التفكّر من ربع المنجيات من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء بحمد الله ومنّه على يد أحقر العباد وأضعفهم محسن بن مرتضى جعله الله من المتفكّرين في ملكوت السّماوات والارض بمنّه وكرمه .

ويتلوه كتاب ذكر الموت ومابعده إن شاء الله العزيز والحمد لله وحده والصلاة على خير خلقه محمّد وآله الطّاهرين .

كتاب ذكر الموت وما بعده

وهو الكتاب العاشر آخر كتب الأرباع الأربعة من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الّذي قصم بالموت رقاب الجبابرة و كسر به ظهور الأكاسرة وقصر به آجال القياصرة الّذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة حتّى جاءهم الوعد الحقّ فإذا هم في الحافرة فنُقلوا من القصور إلى القبور، ومن ضياء المهود إلى ظلمة اللّحود، ومن ملاعبة الجواري والغلمان إلى مصاحبة الهوامّ والدّيدان، ومن التنعّم بالشراب إلى التمرّغ في التراب، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة، ومن المضجع الوثير إلى المصرع الوبيل، فانظر هل وجدوا من الموت حصناً أو اتّخذوا من دونه حجاباً وحرزاً، وأبصر هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً، فسبحان من تفرّد بالقهر والاستيلاء واستأثر باستحقاق البقاء وأذلّ أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء، ثمّ جعل الموت مخلصاً للأتقياء وموعداً في حقّهم للّقاء، وجعل القبر سجناً للأشقياء وحبساً ضيّقاً عليهم إلى يوم الفصل والقضاء، فله الإنعام بالنعم المتظاهرة، وله الانتقام بالنقم القاهرة، وله الشكر في السماوات والأرض وله الحمد في الأولى و الآخرة والصلاة على محمّد ذي المعجزات الظاهرة وعلى آله وأصحابه وسلّم كثيراً.

أمّا بعد فجدير بمن الموت مصرعه، و التراب مضجعه، و الدّود أنيسه، و منكر ونكير جليسه، والقبر مقرّه، وبطن الأرض مستقرّه، و القيامة موعده، و الجنّة أو النار مورده أن لا يكون له فكر إلّا في الموت و لا ذكر إلّا لأجله، و لا تطلّع إلّا إليه، و لا تعريج إلّا عليه، ولا اهتمام إلّا به، ولاحوم إلّا حوله، ولا انتظار

ولا تربّص إلّا له ، و حقيقٌ بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور فإنّ كلّ ما هو آت قريبٌ ، و البعيد ما ليس بآت و قد قال عليه السلام : « الكيّس من دان نفسه و عمل لما بعد الموت » و لن يتيسّر الاستعداد للشيء إلّا عند تجدّد ذكره على القلب و لا يتجدّد ذكره إلّا عند التذكّر بالإصغاء إلى المذكّرات له ، والنظر في المنبّهات عليه و نحن نذكر من أمر الموت ومقدّماته و لواحقه و أحوال الآخرة و القيامة و الجنّة والنار ما لابدّ للعبد من تذكاره على التكرار و ملازمته بالافتكار و الاستبصار ليكون ذلك مستحثّاً على الاستعداد فقد قرب الرّحيل فما بقي من العمر إلّا قليلٌ والخلق غافلون واقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون . ونحن نذكر ما يتعلّق بالموت في شطرين .

الشطر الأوّل في مقدّماته و توابعه إلى نفخة الصور و فيه ثمانية أبواب : الباب الأوّل في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في طول الأمل وقصره. الباب الثالث في سكرات الموت و شدّته و ما يستحبّ من الأحوال عند الموت . الباب الرّابع في وفاة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم. الباب الخامس في كلام المحتضرين من الصالحين . الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر و حكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت و ما يلقاه الميّت في القبر إلى نفخة الصّور . الباب الثامن في ما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .

✡(الباب الاول)✡

في فضل ذكر الموت و الترغيب فيه إعلم أنّ المنهمك في الدّنيا المكبّ على غرورها المحبّ لشهواتها يغفل قلبه لامحالة عن ذكر الموت فلا يذكره و إذا ذكّر به كرهه ونفر منه اُولئك هم الّذين قال الله تعالى فيهم: «قل إنّ الموت الّذي تفرّون منه فإنّه ملاقيكم ثمّ تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّئكم بما كنتم تعملون[1]» و الناس إمّا منهمك أو تائب مبتدىء أو عارف منته ، أمّا المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره ليتأسّف على دنياه و يشتغل بمذمّته و هذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً ، و أمّا التائب فإنّه يكثر ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف و الخشية

(١) الجمعة : ٨.

فيفي بتمام التوبة و ربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة و قبل إصلاح الزاد و هو معذور في كراهة الموت ولايدخل هذا تحت قوله عليه السلام : «من كره لقاء الله كره الله لقاءه[1]» فإن هذا ليس يكره الموت و لقاء الله و إنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره و تقصيره ، و هو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه فلا يعد كارهاً للقائه و علامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواه و إلا التحق بالمنهمك في الدنيا ، و أما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقائه لحبيبه والمحب لاينسي قط موعد لقاء الحبيب ، و هذا في غالب الأمر يستبطىء مجيىء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين و ينتقل إلى جوار رب العالمين كما روي عن حذيفة - رضي الله عنه - أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ، اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلي من الغنى والسقم أحب إلي من الصحة والموت أحب إلي من الحياة فسهل علي الموت حتى ألقاك فإذن التائب معذور في كراهة الموت و هذا معذور في حب الموت و تمنيه وأعلى رتبة منهما من يفوض أمره إلى الله فصار لايختار لنفسه موتاً و لا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب و الولاء إلى درجة التسليم و الرضا و هو الغاية و المنتهى و على كل حال ففي ذكر الموت ثواب و فضل ، فإن المنهمك في الدنيا أيضاً يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذ يتنغص عليه نعيمه و يتكدر عليه صفو لذته و كل ما يكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

✿(بيان فضل ذكر الموت كيف ما كان)✿

قال النبي عليه السلام : «أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت[2]» أي نغصوا به اللذات

---

(١) أخرجه البخارى ٨ ص ١٣٢ من حديث عبادة بن صامت ومسلم ج ٨ ص ٦٥ من حديث عائشة .

(٢) اخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٨ . والنسائى والترمذى أيضاً وقال السيوطى « هاذم » بالذال المعجمة أى قاطعها ، ويحتمل أن يكون بالدال المهملة والمراد على التقدير بن الموت .

حتّى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى .

وقال عليه السلام : « لو تعلم البهائم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً[١] »

وقالت عائشة : « يارسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرّة[٢] » وإنّما سبب هذه الفضيلة كلّها أنّ ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضي الاستعداد للآخرة والغفلة عن ذكر الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدُّنيا .

وقال عليه السلام : « تحفة المؤمن الموت[٣] » وإنّما قال هذا لأنّ الدُّنيا سجن المؤمن إذ لايزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه ، فالموت إطلاقه له من هذا العذاب والإطلاق تحفة في حقّه .

وقال عليه السلام : « الموت كفّارة لكلّ مسلم[٤] » وأراد بهذا المسلم حقّاً المؤمن صدقاً الّذي سلم المسلمون من لسانه ويده وتحقّق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنّس من المعاصي إلّا باللّمم و الصغاير ، فالموت يطهّره و يكفّره بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض .

وقال عطاء الخراسانيّ : « مرّ رسول الله صلى الله عليه وآله بمجلس قد استعلاه الضحك فقال : شوبوا مجلسكم بذكر مكدِّر اللّذّات ، قالوا : وما مكدِّر اللّذّات ؟ قال : الموت[٥] » .

وقال النبيُّ صلى الله عليه وآله : « أكثروا ذكر الموت فإنّه يمحّص الذُّنوب ويزهد في

---

(١) أخرجه البيهقى فى الشعب من حديث ام حبيبة .

(٢) قال العراقى : تقدم . وما حضرنى الآن متى تقدم .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث عبدالله بن عمر ورجاله ثقات كما فى مجمع الزوائد ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٤) أخرجه أبونعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند صحيح من حديث أنس كما فى الجامع الصغير .

(٥) قال العراقى : رواه ابن ابى الدنيا فى الموت مرسلا .

الدُّنيا (*) » وقال عليه السلام : « كفى بالموت واعظاً (٢) » .

و خرج النبيُّ صلى الله عليه وآله إلى المسجد فإذا قومه يتحدَّثون و يضحكون فقال : «اذكروا الموت أما والّذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً (٣) » وذكر عند النّبيِّ صلى الله عليه وآله رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال : « كيف كان ذكر صاحبكم للموت ؟ قالوا: ما كنّا نكادنسمعه يذكرالموت ، قال : فإنَّ صاحبكم ليس هنالك (٤) » .

وسئل « من أكيس الناس وأكرم النّاس يارسول الله ؟ فقال : أكثرهم ذكراً للموت وأشدُّهم استعداداً له اُولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدُّنيا و كرامة الآخرة (٥) » .

أقول ومن طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أبي عبيدة قال : قلت لأبي - جعفر عليه السلام : « حدِّثني ماأنتفع به فقال : ياأباعبيدة أكثرذكرالموت فإنّه لم يكثر ذكره إنسان إلّازهد في الدُّنيا (٦) » .

و عن أبي بصير قال : « شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام الوسواس فقال : « يا أبامحمّداذكرتقطّع أوصالك في قبرك ، ورجوع أحبّائك عنك إذا دفنوك في حفرتك ، وخروج بنات الماء من منخريك ، وأكل الدُّود لحمك فإنَّ ذلك يسلّي عنك ماأنت فيه ، قال أبو بصير : فوالله ماذكرته إلّاسلى عنّي ما أنا فيه من همِّ الدُّنيا(٧) » .

(*) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الموت بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير .

(١) أخرجه الحرث بن أبى اسامة فى مسنده بسند ضعيف من حديث أنس (المغنى)

(٢) أخرجه الطبرانى من حديث عمار والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف وهومشهور من قول فضيل بن عياض راجع جامع الصغير حرف الكاف .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت بسند ضعيف كما فى المغنى .

(٤) كالذى قبله .

(٥) أخرجه أيضاً ابن أبى الدنيا بتمامه باسناد جيد كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٦) و(٧) المصدر ج ٣ ص ٢٥٥ تحت رقم ١٨ و ٢٠ .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من كان كفنه معه في بيته لم يكتب من الغافلين، وكان مأجوراً كلّما نظر إليه (١)»

وعنه عليه السلام قال: «ما من أهل بيت شعر ولا وبر إلّا وملك الموت يتصفّحهم كلّ يوم خمس مرّات (٢)»

وعنه عليه السلام قال: «إذا أنت حملت جنازة فكن كأنّك أنت المحمول وكأنّك سألت ربّك الرّجوع إلى الدّنيا ففعل فانظر ماذا تستأنف، قال: ثم قال: عجب لقوم حبس أوّلهم عن آخرهم ثمّ نودي فيهم الرّحيل وهم يلعبون (٣)»

وعنه عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: ماأنزل الموت حقّ منزلته من عدّ غداً من أجله، قال: وقال أمير المؤمنين عليه السلام: ما أطال عبد الأمل إلّا أساء العمل، وكان يقول: لورأى العبدأجله وسرعته إليه لأبغض العمل من طلب الدّنيا (٤)».

و عن أبي جعفر عليه السلام أنّه سئل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «أي المؤمنين أكيس قال: أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم له استعداداً (٥)» و في مصباح الشريعة (٦) عن الصادق عليه السلام قال: «ذكر الموت يميت الشهوات في النّفس ويقطع منابت الغفلة ويقوّي القلب بمواعد الله و يرقّ الطبع و يكسر أعلام الهوى و يطفي نار الحرص و يحقّر الدّنيا و هو معنى قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: فكر ساعة خير من عبادة سنة، و ذلك عند ما يحلّ أطناب خيام الدّنيا و يشدّها في الآخرة ولايسكن نزول الرّحمة على ذاكر الموت بهذه الصفة، و من لايعتبر بالموت وقلّة حيلته و كثرة عجزه و طول مقامه في القبر و تحيّره في القيامة فلا خير فيه، قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: أكثروا ذكر هاذم اللّذّات قيل: و ما هو يا رسول الله؟ قال: الموت فما ذكره عبدٌ على الحقيقة في سعة إلّا

(١) و(٢) الكافى ج ٣ ص ٢٥٦ تحت رقم ٢٣ و٢٢

(٣) المصدرج ٣ ص ٢٥٨ تحت رقم ٢٩ .

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٥٩ تحت رقم ٣٠ .

(٥) المصدر ج ٣ص ٢٥٧ تحت رقم ٢٩

(٦) المصدر الباب الثالث والثمانون .

ضاقت عليه الدّنيا و لا في شدّة إلاّ اتّسعت عليه ، و الموت أوّل منزل من منازل الآخرة و آخرمنزل من منازل الدّنيا ، فطوبى لمن أكرم عند النزول بأوّلها وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها ، و الموت أقرب الأشياء من ابن آدم و هو يعدّه أبعد فما أجرأ الإنسان على نفسه و ما أضعفه من خلق و في الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين ولذلك اشتاق من اشتاق إلى الموت و كره من كره قال النبيّ صلى الله عليه وآله : من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ، و من كره لقاء الله كره الله لقاءه » .

قال ابو حامد : وكان الرّبيع بن خثيم حفر قبراً في داره فكان ينام في اللّحد كلّ يوم مرّات ليستديم به ذكر الموت وكان يقول : لوفارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد ، وقال : ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت .

✡(بيان الطريق فى تحقيق ذكر الموت)✡

إعلم أنّ الموت هائل وخطره عظيم وغفلة النّاس عنه لقلّة فكرهم فيه وذكرهم له و من يذكره ليس يذكره بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوات الدّنيا فلاينجع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كلّ شيء إلاّ عن ذكر الموت الّذي هو بين يديه كالّذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنّه لايتفكّر إلاّ فيه فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثّر فيه و عند ذلك يقلّ فرحه و سروره بالدّنيا و ينكسر قلبه و أوقع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله و أقرانه الّذين مضوا قبله فيتذكّر موتهم و مصرعهم تحت التراب و يتذكّر صورهم في مناصبهم و أحوالهم و يتفكّر كيف محا التراب الآن حسن صورتهم و كيف تبدّدت أجزاؤهم في قبورهم و كيف أرملوا نساءهم و أيتموا أولادهم و ضيّعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم و مجالسهم و انقطعت آثارهم و أوحشت ديارهم فمهما تذكّر رجلاً رجلاً و فصّل في قلبه حاله و كيفيّة حياته ، و توهّم صورته ، و تذكّر نشاطه ، و تردّده و أمله في العيش و البقاء ، و نسيانه للموت و انخداعه بمؤاتاة الأسباب ، و ركونه إلى القوّة و الشّباب ، و ميله إلى الضحك و اللّهو و غفلته عمّا بين يديه من الموت الذّريع و الهلاك السريع ، و أنّه كيف كان يتردّد والآن قد تهدّمت رجلاه

و مفاصله ، و أنّه كيف كان ينطق و قد أكل الدّود لسانه ، و كيف يضحك و قد أكل التراب أسنانه ، و كيف كان يدبّر لنفسه ما لايحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه و بين الموت إلّا شهر و هو غافل عمّا يراد به حتّى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه فانكشف له صورة الملك و قرع سمعه النّداء إمّا بالجنّة أو بالنّار فعند ذلك ينظر في نفسه أنّه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم. قال أبوالدّرداء : إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم. وقال ابن مسعود : السعيد من وعظ بغيره. وقال عمر بن عبد العزيز : ألاترون أنّكم تجهزون كلّ يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عزّ وجلّ تضعونه في صدع الأرض قدتوسّد التراب وخلّف الأحباب وقطع الأسباب. فملازمة هذه الأفكار و أمثالها مع دخول المقابر و مشاهدة المرضى هوالّذي يجدّد ذكر الموت في القلب حتّى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعدّ له و يتجافى عن دار الغرور و إلّا فالذكر بظاهر القلب و عذبة اللّسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ومهما طاب قلبه بشيء من الدّنيا فينبغي أن يتذكّر في الحال أنّه لابدّ من مفارقته

نظر ابن مطيع يوماً إلى داره فأعجبه حسنهاثمّ بكى و قال : والله لو لاالموت لكنت بك مسروراً ، و لو لا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرّت بالدّنيا أعيننا ، ثمّ بكى بكاءً شديداً حتّى ارتفع صوته

☼(الباب الثانى فى طول الامل)☼

☼(و فضيلة قصر الأمل وسبب طوله و كيفيّة معالجته)☼

فضيلة قصر الأمل : قال النبي صلّى الله عليه وآله لعبد الله بن عمر : « إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء ، و إذاأمسيت فلاتحدّث نفسك بالصباح وخذ من دنياك لآخرتك و من حياتك لموتك و من صحّتك لسقمك فإنّك ياعبدالله لاتدري ما اسمك غداً[1] » و روى عليّ عليه السلام أنّه صلّى الله عليه وآله قال : « إنّ أشدّ ما أخاف عليكم خصلتان اتّباع الهوى

(١) أى حى أو ميت . و أخرجه ابن حبان ورواه البخارى فى آخر حديث « كن فى الدنيا كانك غريب » من قول ابن عمر (المغنى)

وطول الأمل فأمّا اتّباع الهوى فانّه يعدل عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فانّه يحبّب الدّنيا، ثمّ قال: ألا إنّ الله تعالى يعطي الدّنيا من يحبّ ويبغض وإذا أحبّ الله عبداً أعطاه الايمان إلّا أنّ للدّين أبناء وللدّنيا أبناء فكونوا من أبناء الدّين ولاتكونوا من أبناء الدّنيا، ألا إنّ الدّنيا قد ارتحلت مولّية ألا إنّ الآخرة قد أتت مقبلة، ألا وإنّكم في يوم عمل ليس فيه حساب، ألا وإنّكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل [(١)] » وقالت أمّ المنذر: « اطّلع رسول الله صلّى الله عليه وآله ذات عشيّة إلى الناس فقال: أيّها الناس أما تستحيون من الله عزّ وجلّ؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ فقال: تجمعون ما لاتأكلون وتأملون مالاتدركون وتبنون مالاتسكنون [(٢)] ».

وقال أبو سعيد الخدري: اشترى اُسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت النبيّ صلّى الله عليه وآله يقول: « ألا تعجبون من اُسامة المشتري إلى شهر إنّ اُسامة لطويل الأمل والّذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلّا ظننت أنّ شفريّ لا يلتقيان حتّى يقبض الله روحي ولا رفعت طرفي فظننت أنّي واضعه حتّى اُقبض، ولالقمت لقمة إلّا ظننت أنّي لا اُسيغها حتّى أغصّ بها من الموت، ثمّ قال: يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى، والّذي نفسي بيده إنّ ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين [(٣)] ».

و « روي أنّه عليه السلام أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه وآخر إلى جنبه وأمّا الثالث فأبعده فقال: هل تدرون ماهذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال: هذا الانسان وذلك الأجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل [(٤)] ».

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا فى كتاب قصر الامل ورواه أيضاً من حديث جابر بنحوه وكلاهما ضعيف كما فى المغنى.

(٢) رواه الطبرانى من حديث ام الوليد بنت عمر كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٤١.

(٣) رواه أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب وابن أبى الدنيا فى قصر الامل كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٢٣٢.

(٤) قال العراقى أخرجه احمد وابن أبى الدنيا فى قصر الامل واللفظ له و ←

وقال صلى الله عليه وسلم : « أكلّكم يحبُّ أن يدخل الجنّة ؟ قالوا : نعم يارسول الله قال: قصّروا من الأمل واجعلوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حقّ الحياء (١) » .

و كان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : « اللّهمَّ إنّي أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، و أعوذ بك من حياة تمنع خير المماة ، و أعوذ بك من أمل يمنع خير العمل (٢) » .

و قال سلمان الفارسي : « ثلاث أعجبتني حتّى أضحكتني مؤمّل الدُّنيا و الموت يطلبه ، و غافل وليس بمغفول عنه ، و ضاحك ملء فيه لا يدري أساخط ربُّ العالمين عليه أم راض عنه ، و ثلاث أحزنتني حتّى أبكتني فراق الأحبّة محمّد وحزبه و هول المطّلع و الوقوف بين يدي ربّي لا أدري إلى الجنّة يؤمر بي أو إلى النّار » .

و قال بعضهم : رأيت زرارة بن أبي أوفى في المنام بعد موته فقلت : أيُّ الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال : التوكّل و قصر الأمل

✿(بيان السبب فى طول الامل وعلاجه)✿

إعلم أنَّ طول الأمل له سببان أحدهما الجهل و الآخر حبُّ الدُّنيا أمّا حبُّ الدُّنيا فهو أنّه إذا أنس بها و بشهواتها و لذّاتها وعلائقها ثقلت على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الّذي هو سبب مفارقتها و كلُّ من كره شيئاً دفعه عن نفسه و الإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمنّي نفسه أبداً بما يوافق مراده و إنّما يوافق مراده البقاء في الدُّنيا فلا يزال يتوهّمه ويقرّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء و ما يحتاج إليه من مال و أهل و دار و أصدقاء و دوابّ وسائر أسباب الدُّنيا فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدّر قربه فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت و الحاجة إلى الاستعداد له سوَّف و وعد نفسه وقال : الأيّام بين يديك فإلى أن تكبر ثمَّ تتوب ، و إذا كبر فيقول : إلى أن تصير

← ابن أبي الدنيا والرامهرمزى فى الامثال من رواية أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى واسناده حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا أيضاً من رواية أبى المتوكل مرسلا (م)

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى قصر الامل من حديث الحسن مرسلا (المغنى)

(٢) ابن أبى الدنيا فيه من رواية حوشب .

شيخاً و إذا صار شيخاً قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدّار و عمارة هذه الضّيعة أو ترجع من هذه السفرة أو تفرغ من تدبير هذا الولد و جهازه و تدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدوّ الّذي يشمت بك و لا يزال يسوّف و يؤخّر ولايخوض في شغل إلّا و يتعلّق با تمام ذلك الشغل عدّة أشغال اُخر وهكذاعلى التدريج يؤخّر يوماً و يفضي به شغل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنيّة في وقت لايحتسبه فتطول عند ذلك حسرته ، وأكثر أهل النّار صياحهم من سوف يقولون و احزناه من سوف ، و المسوّف المسكين لايدري أنّ الّذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً و إنّما يزداد بطول المدّة قوّة و رسوخاً و يظنّ أنّه يتصوّر أن يكون للخائض في الدّنيا و الحافظ لها فراغ قطّ وهيهات فمايفرغ منها إلّا من أطرحها . كماقيل :

فما قضى أحد منها لبانته ✡ و ما انتهى أرَب إلّا إلى أرَب

و أصل هذه الأماني كلّها حبّ الدّنيا و الأنس بها و الغفلة عن معنى قوله عليه السلام «أحبب ما أحببت فا نّك مفارقه» و أمّا الجهل فهوأنّ الانسان قد يعوّل على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب و ليس يتفكّر المسكين في أنّ مشايخ بلده لوعدّوا لكانوا أقلّ من عشر أهل البلد و إنّما قلّوا لأنّ الموت في الشبّان أكثر ، وإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبيّ وشابّ ، وقد يستبعد الموت لصحّته ويستبعد الموت فجأة و لا يدري أنّ ذلك غير بعيد و إن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد ، و كلّ مرض فا نّمايقع فجأة وإذامرض لم يكن الموت بعيداً ، ولوتفكّر هذاالغافل و علم أنّ الموت ليس له وقت مخصوص من شباب و شيب و كهولة و من صيف وشتاء و خريف و ربيع و من ليل و نهار لعظم اشتغاله بالاستعداد له و استشعاره و لكنّ الجهل بهذه الاُمور و حبّ الدّنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب فهوأبداً يظنّ أنّ الموت يكون بين يديه ولايقدّر نزوله ووقوعه فيه ، ويشيّع الجنائز و لا يقدّر أن يشيّع جنازته لأنّ هذا قد تكرّر عليه و ألفه و هو شاهد موت غيره فأمّا موت نفسه فلم يألفه و لا يتصوّر أن يألفه فا نّه لم يقع و إذا وقع لا يقع دفعة اُخرى بعده فهو الأوّل و هو الآخر وسبيله أن يقيس نفسه بغيره و يعلم أنّه

لابدّ وأن يحمل جنازته و يدفن في قبره و لعلّ اللّبن الّذي يغطّى به لحده قدضرب و فرغ منه و هو لا يدري فتسويفه جهل محض و إذا عرفت أنّ سببه الجهل و حبّ الدّنيا فعلاجه دفع سببه أمّا الجهل فيدفع بالفكر الصّافي من القلب الحاضر و بسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة و أمّا حبّ الدّنيا فالعلاج في إخراجه من القلب شديد وهو الدّاء العضال الّذي أعيى الأوّلين والآخرين علاجه ولاعلاج له إلّا الإيمان باليوم الآخر و ما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب و مهماحصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حبّ الدّنيا فإنّ حبّ الخطير هو الّذي يمحو من القلب حبّ الحقير فإذا رأى حقارة الدّنيا و نفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدّنيا كلّها و إن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب فكيف و ليس لكلّ عبد من الدّنيا إلّا قدريسيرمكدّر منغّص فكيف يفرح بها ويترسّخ في القلب حبّها مع الإيمان بالآخرة . فنسأل الله تعالى أن يرينا الدّنيا كما أراها الصّالحين من عباده و لا علاج في تقرير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران و الأشكال و أنّهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا أمّا من كان مستعدّاً له فقد فاز فوزاً عظيماً ، و أمّا من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً ، و لينظر الإنسان كلّ ساعة في أطرافه و أعضائه و ليتدبّر أنّها كيف تأكلها الدّيدان لا محالة و كيف تتفتّت عظامها ، و ليتفكّر أنّ الدّود يبدأ بحدقته اليمنى أوّلاً أو باليسرى فما على بدنه شيء إلّا و هو طعمة الدّود و ماله من نفسه إلّا العلم والعمل الخالص لوجه الله عزّ وجلّ و كذلك يتفكّر فيما سيورده من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأهوال القيامة وفزع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هي الّتي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

(بيان مراتب الناس فى طول الامل وقصره)

إعلم أنّ الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال

الله تعالى : « يودُّ أحدهم لو يعمّر ألف سنة [١] » ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الّذي شاهده ورآه وهو الّذي يحبُّ الدُّنيا حبّاً شديداً قال النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : « حبُّ الشيخ شابٌّ في طلب الدُّنيا وإن التفّت ترقوتاه من الكبر إلّا الّذين اتّقوا وقليلٌ ماهم [٢] »، ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ولايقدِّر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكنَّ هذا يستعدٌّ في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف وإذا جمع ما يكفيه لسنة اشتغل بالعبادة ، ومنهم من يأمل مدَّة الصيف أو الشتاء فلا يدَّخر في الصّيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ، و منهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستعدُّ إلّا لنهاره فأمّا للغد فلا .

قال عيسى عليه السلام : « لا تهتمّوا برزق غد فإن يكن غداً من آجالكم فستأتي أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن غداً من آجالكم فلا تهتمّوا لأرزاق غيركم » .

ومنهم من لايجاوز أمله ساعة كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « ياعبد الله إذا أصبحت فلا تحدِّث نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تحدِّث نفسك بالصباح [٣] » ومنهم من لايقدِّر البقاء أيضاً ساعة ، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنّه واقع وهو ينتظره وهذا الانسان هو الّذي يصلّي صلاة مودّع . فهذه مراتب الناس ولكلٍّ درجات عند الله و ليس من أمله مقصوراً على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدَّرجة عند الله فإن الله لايظلم مثقال ذرَّة وإن تك حسنة يضاعفها ومن يعمل مثقال ذرَّة خيراً يره ثمَّ يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل و كلُّ إنسان يدَّعي أنّه قصير الأمل وهو كاذب وإنّما يظهر ذلك بأعماله فإنّه يعتني بأسباب ربّما لايحتاج إليها في سنة فيدلُّ ذلك على طول أمله ، وإنّما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب عينيه لايغفل عنه ساعة فيستعدٌّ للموت الّذي يرد عليه في الوقت فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى

---

(١) البقرة : ٩٦ .

(٢) أخرج صدره مسلم والبخارى فى الصحيح ج ٨ ص ١١١ ولم أجده بتمامه .

(٣) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٠٣ والبيهقى وغيره من حديث ابن عمر قاله صلى الله عليه وآله له .

على طاعته و فرح بأنّه لم يضيّع نهاره بل استوفى منه حظّه و ادّخره لنفسه ثمّ يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذاأصبح ، ولا يتيّسر هذا إلّا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سرّ بحسن الاستعداد ولذّة المناجات فالموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يامسكين فإنّ السير حادٌّ بك وأنت غافل عن نفسك ولعلّك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا يكون كذلك إلّا بمبادرة العمل اغتناماً لكلّ نفس امهلت فيه .

✡ (بيان المبادرة الى العمل حذر آفة التأخير) ✡

إعلم أنّ من له إخوان غائبان و ينتظر قدوم أحدهما في غد و ينتظر قدوم الآخر بعد شهر أوسنة فلا يستعدُّ للّذي يقدم إلى شهرأو سنة وإنّما يستعدُّ للمنتظر قدومه غداً فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدّة ونسي ماوراء المدّة ، ثمّ يصبح كلّ يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لاينقص منها اليوم الّذي انقضى وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً فإنّه أبداً يرى لنفسه متّسعاً في تلك السّنة و يؤخّر العمل كما قال النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : «ما ينتظر أحدكم من الدّنيا إلّا غنى مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مفنّداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدّجّال فالدّجال شرٌّ غائب ينتظر ، أو الساعة ، والساعة أدهى و أمرّ [1] » .

وقال ابن عبّاس رضي الله عنه : قال النّبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لرجل وهو يعظه : «اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتّك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك [2] » .

---

(١) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ١٨٥ من رواية محرز بن هارون عن عبدالرحمن الاعرج ، عن أبى هريرة وقال : حديث حسن . وقوله : « هرماً مفنداً» اى مبلغاً الى ارذل العمر و قوله « موتاً مجهزاً » أى قاضياً على العبد بالفناء ، يقال : أجهزت على فلان ، اذا عجلت قتله وأسرعت بذهاب نفسه .

(٢) رواه الحاكم ج ٤ ص ٣٠٦ وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وقال ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحّة والفراغ [١] » أي أنّه لايغتنمهما ثمّ يعرف قدرهما عند زوالهما .

وقال ﷺ : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، ألاإنّ سلعة الله غالية ألا إنّ سلعة الله الجنّة [٢] »

وقال النبيّ ﷺ : « جاءت الرّاجفة تتبعها الرّادفة جاء الموت بما فيه [٣] »

وكان ﷺ إذا أحسّ من أصحابه غفلة أو غرّة نادى فيهم بصوت رفيع « أتتكم المنيّة راتبة لازمة إمّا بشقاوة وإمّا بسعادة [٤] » .

وقال النبيّ ﷺ : « أنا النذير والموت المغيّر والساعة الموعد [٥] ».

وقال ابن عمر : خرج علينا النبيّ ﷺ والشمس على أطراف السقف فقال: « ما بقي من الدّنيا إلّا مثل ما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه [٦] » .

وقال ﷺ : « مثل الدّنيا مثل ثوب يشقّ من أوّله إلى آخره فبقي معلّقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع [٧] » وقال جابر : كان النبيّ ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرّت وجنتاه كأنّه منذر جيش يقول: « صبحتكم ومسيتكم بعثت أنا والساعة كهاتين - وقرن بين أصبعيه - [٨] » .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تلا النبيّ ﷺ « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » فقال : « إنّ النور إذا دخل الصدر انفسح فقيل : يا رسول الله هل

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤١٧٠ والحاكم في المستدرك ج ٤ ص٣٠٦ .

(٢) أخرجه الترمذي ج ٩ص٢٧٧ والحاكم بسند حسن من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي بن كعب .

(٤) أخرجه ابن ابي الدنيا في قصر الامل من حديث زيد السلمي مرسلا (المغني) .

(٥) أخرجه أيضاً ابن ابي الدنيا في قصر الامل وابو القاسم البغوي أيضاً (المغني).

(٦) رواه ابن أبي الدنيا ايضاً والترمذي نحوه من حديث ابي سعيد الخدري باسناد حسنه .

(٧) ابن أبي الدنيا أيضاً من حديث أنس ولايصح .

(٨) أخرجه مسلم ج٨ص٢٠٩ بنحوه وابن أبي الدنيا في قصر العمل بلفظه كما في المغني.

لذلك من علامة تعرف ؟ فقال : نعم التجافي عن دار الغرور ، والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله [١] » .

✿ (الباب الثالث) ✿

✿ (في سكرات الموت وشدّته وما يستحبُّ من الأحوال عند الموت) ✿

إعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجرّدها لكان جديراً بأن يتنغّص عليه عيشه ويتكدّر عليه سروره ويفارقه سهوه و غفلته وحقيقاً بأن يطول فيه فكرته ويعظم له استعداده لاسيّما وهو في كلّ نفس بصدده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لاتدري متى يغشاك ، وقال لقمان لابنه : يابنيّ أمرٌ لا تدري متى يلقاك استعدّ له قبل أن يفجأك . والعجب أنّ الانسان لو كان في أعظم اللّذّات وأطيب مجالس اللّهو فانتظر أن يدخل عليه جنديٌّ فيضربه خمس خشبات لتكدّرت عليه لذّته و فسد عليه عيشه وهو في كلّ نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النّزع وهو عنه غافل فما لهذا سبب إلّا الجهل والغرور .

واعلم أنّ شدّة الألم في سكرات النزع لايعرفها بالحقيقة إلّا من ذاقها ومن لم يذقها فإنّما يعرفها إمّا بالقياس إلى الآلام الّتي أدركها وإمّا بالاستدلال بأحوال النّاس في النزع على شدّة ماهم فيه فأمّا القياس الّذي يشهد له فهو أنّ كلّ عضو لا روح فيه فلا يحسّ بالألم فإذا كان فيه الرّوح تألّم ، فالمدرك للألم هو الرّوح فمهما أصاب العضو الّذي فيه الرّوح جرح أو حرق سرى الأثر منه إلى الرّوح فبقدر ما يسري إلى الرّوح يتألّم والمؤلم يتفرّق على اللّحم والدّم وسائر الأجزاء فلا يصيب الرّوح إلّا بعض الأثر فإذا كان في الآلام مايباشر نفس الرّوح ولايلاقي غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشدّه ، والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الرّوح فاستغرق جميع أجزائه حتّى لم يبق جزء من أجزاء الرّوح المنتشرة في أعماق البدن إلّا وقد حلّ به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الّذي يجده إنّما يجري في

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك وابن أبي الدنيا في قصر الامل وقد تقدم .

جزء من الرّوح يلاقي ذلك الموضع الّذي أصابته الشوكة وإنّما يعظم أثر الاحتراق لأنّ أجزاء النار تغوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلاّ وتصيبه النّار فتحسّه الأجزاء الرّوحانيّة المنتشرة في سائر أجزاء اللّحم وأمّا الجراحة فإنّما تصيب الموضع الّذي يمسّه الحديد فقط فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النّار فألم النزع يهجم على نفس الرّوح ويستغرق جميع أجزائه فإنّه المنزوع المجذوب من كلّ عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كلّ شعرة وبشرة من القرن إلى القدم فلا تسأل عن كربه وألمه حتّى قالوا: إنّ الموت أشدّ من ضرب بالسّيف ونشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لأنّ قطع البدن بالسيف إنّما يؤلم لتعلّقه بالرّوح فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الرّوح ، وإنّما يستغيث المضروب ويصيح لبقاء قوّته في قلبه و شراسيفه (١) وفي لسانه ، وإنّما انقطع صوت الميّت وصياحه مع شدّة ألمه لأنّ الكرب قد بالغ فيه وتصاعد على قلبه وغلب على كلّ موضع منه فهدّ كلّ قوّة وضعّف كلّ جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة أمّا العقل فقد غشيه وشوّشه وأمّا اللّسان فقد أبكمه وأمّا الأطراف فقد ضعّفها ويودّ لو قدر على الاستراحة بالأنين والصّياح والاستغاثة ، و لكنّه لايقدر على ذلك فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزوع الرّوح وجذبها خواراً وغرغرة في حلقه وصدره وقد تغيّر لونه واربدّ حتّى كأنّه قد ظهر منه التراب الّذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كلّ عرق على حياله ، فالألم منتشر في داخله و خارجه حتّى ترتفع الحدقتان إلى أعالي جفونه ، وتتقلّص الشفتان واللّسان إلى أصله ، وترتفع الانثيان إلى أعالي موضعهما وتخضر أنامله ، فلا تسأل عن بدن يجذب منه كلّ عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً فكيف والمجذوب نفس الرّوح المتألّم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ؟! ثمّ يموت كلّ عضو من أعضائه تدريجاً فتبرّد أوّلاً قدماه ثمّ ساقاه ثمّ فخذاه ولكلّ عضوسكرة بعدسكرة

---

(١) الشرسوف : طرف الضلع المشرف على البطن ، جمعه شراسيف

وكربة بعد كربة حتّى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدّنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تقبل توبة العبد مالم يغرغر [1]».

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد عن السلف أخباراً في شدّة الموت وسكراته وخوف الأنبياء والأولياء منه وشدّته عليهم حتّى ذكر أنّه لمّا مات الخليل عليه السلام قال الله تبارك وتعالى: كيف وجدت الموت يا خليلي فقال كسفّود جعل في صوف رطب ثمّ جذب ولمّا مات الكليم عليه السلام سأله فقال: كشاة حيّة تسلخ بيد القصّاب. وإنّه عليه السلام قال: وجدت نفسي كالعصفور حين يقلي على المقلى لا هو يموت فيستريح ولا ينجو فيطير، وبالجملة مالا يشبه أخبار أهل البيت عليهم السلام بل يشمّ منه رائحة الكذب إلّا حديثاً واحداً رواه عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه كان يحرّض على القتال ويقول: «إن لم تقتلوا تموتوا فوالّذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون من موت على فراش» وهذا الحديث مرويّ عنه من طريق الخاصّة أيضاً فلنطو سائر ما ذكره ونذكر مكانه ما ورد من طريق الخاصّة في هذا الباب وهو ما أورده الشيخ الصدوق رحمه الله في اعتقاداته [2] قال: «قيل لأمير المؤمنين عليّ عليه السلام: صف لنا الموت فقال عليه السلام: «على الخبير سقطتم الموت هو أحد ثلاثة أُمور يرد عليه إمّا بشارة بنعيم الأبد وإمّا بشارة بعذاب الأبد وإمّا بتخويف و تهويل لا يدري من أيّ الفرق هو، أمّا وليّنا المطيع لأمرنا فهو المبشّر بنعيم الأبد، وأمّا عدوّنا المخالف لأمرنا فهو المبشّر بعذاب الأبد، أمّا المبهم أمره الّذي لا يدرى ما حاله فهو المؤمن المسرف على نفسه يأتيه الخبر مبهماً مخوفاً ثمّ لن يسوّيه الله بأعدائنا ويخرجه من النار بشفاعتنا، فاحتملوا وأطيعوا ولا تتّكلوا ولا تستصغروا عقوبة الله فانّ من المسرفين من لا يلحقه شفاعتنا إلّا بعد عذاب ثلاثمائة ألف سنة» و سئل عن الحسن بن عليّ عليهما السلام: «ما الموت الّذي جهلوه؟ فقال: أعظم سرور يرد على المؤمنين إذ نقلوا عن دار النكد إلى النعيم الأبد،

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه تحت رقم ٤٢٥٣ من حديث ابن عمر وقد تقدم.

(٢) ص ٧٧ الذي طبع مع باب حادي عشر و هكذا رواه في معاني الاخبار ص ٢٨٧.

و أعظم ثبور يرد على الكافرين إذ نقلوا عن جنّتهم إلى نار لاتبيد و لاتنفد[١]» .

« و لمّا اشتدّ الأمر على الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام نظر إليه من كان معه فإذا هو بخلافهم لأنّهم كانوا إذا اشتدّ بهم الأمر تغيّرت ألوانهم وارتعدت فرائصهم ووجلت قلوبهم ووجبت [٢] جنوبهم و كان الحسين عليه السلام وبعض من معه من خصائصه تشرق ألوانهم وتهدئ جوارحهم وتسكن نفوسهم فقال بعضهم لبعض : انظروا إليه لايبالي بالموت فقال الحسين عليه السلام صبراً بني الكرام فما الموت إلّا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضرّ إلى الجنان الواسعة والنعم الدّائمة فأيّكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر وهولأعدائكم كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب أليم ، إنّ أبي حدّثني بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدّنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر والموت جسر هؤلاء إلى جنّاتهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذبت ولا كذبت [٣] » .

وقيل لعليّ بن الحسين عليهما السلام ما الموت ؟ قال: « للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة [٤] وفكّ قيود وأغلال ثقيلة والاستبدال بأفخر الثياب و أطيبها روائح و أوطأ المراكب وآنس المنازل ، وللكافر كخلع ثياب فاخرة والنقل عن المنازل الأنيسة والاستبدال بأوسخ الثياب وأخشنها وأوحش المنازل وأعظم العذاب[٥] »

وقيل لمحمّد بن عليّ الباقر عليهما السلام : « ما الموت ؟ قال : هو النوم الّذي يأتيكم في كلّ ليلة إلّا أنّه طويل مدّته لاينتبه إلى يوم القيامة فمنهم من رأى في منامه من أصناف الفرح مالا يقادر قدره ومنهم من رأى في منامه من أصناف الاهوال مالايقادر قدره فكيف حال فرحه في الموت ووجله فيه هذا هو الموت فاستعدّوا له[٦] » .

---

(١) رواه الصدوق أيضاً فى معانى الاخبار ص ٢٨٨ تحت رقم ٣ .

(٢) وجب وجباً ووجيباً ووجبانا : رجف وخفق .

(٣) معانى الاخبار ص٢٨٨

(٤) ثوب وسخ : علاه الدرن لقلة تعهده بالماء : و « قمل » اى كثير فيه القمل و هردوبيّة معروفة

(٥) و(٦) معانى الاخبار ص ٢٨٩

وقيل للصادق عليه السلام: صف لنا الموت فقال: «هو للمؤمن كأطيب ريح يشمّه فينعس [١] لطيبه فيقع التعب والألم كلّه عنه، و للكافر كلدغ الأفاعي و كلسع العقارب وأشدّ، قيل: فإنّ قوماً يقولون: إنّه هو أشدّ من نشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، ورضخ بالحجارة، وتدوير قطب الأرحية [٢] في الأحداق؟ فقال كذلك هو على بعض الكافرين والفاجرين، ألا ترون منهم من يعاين تلك الشدائد فذلكم الّذي هو أشدّ من هذا إلّا من عذاب الآخرة، فهذا أشدّ من عذاب الدّنيا. قيل: فما بالنا نرى كافراً يسهل عليه النزع فينطفي وهو يتحدّث ويضحك ويتكلّم و في المؤمنين من يكون أيضاً كذلك وفي المؤمنين والكافرين من يقاسي عند سكرات الموت هذه الشدائد؟ فقال: ما كان من راحة هناك للمؤمنين فهو عاجل ثوابه وماكان من شديدة فهو تمحيصه من ذنوبه ليردّ إلى الآخرة نقيّاً نظيفاً مستحقّاً لثواب الله ليس له مانع دونه وما كان من سهولة هناك على الكافرين فليوفّى أجر حسناته في الدّنيا ليردّ إلى الآخرة وليس له إلّا ما يوجب عليه العذاب و ماكان من شدّة هناك على الكافرين فهو ابتداء عقاب الله له بعد نفاد حسناته ذلكم بأنّ الله عدل لايجور [٣]».

و دخل موسى بن جعفر عليهما السلام على رجل قد غرق في سكرات الموت و هو لا يجيب داعياً فقالوا له: يا ابن رسول الله وددنا لو عرفنا كيف حال صاحبنا و كيف الموت؟ فقال: إنّ الموت هو المصفّاة يصفّي المؤمنين من ذنوبهم فيكون آخر ألم يصيبهم و كفّارة آخر وزر عليهم و يصفّي الكافرين من حسناتهم فيكون آخر لذّة أو نعمة أو رحمة تلحقهم وهو آخر ثواب حسنة تكون لهم، وأمّا صاحبكم هذا فقد تخلّى من الذّنوب وصفّي من الآثام تصفية وخلص حتّى نقي كما ينقّى الثوب من الوسخ و صلح لمعاشرتنا أهل البيت في دارنا دار الأبد» [٤].

---

(١) فی بعض نسخ المصدر [فيتنفس].

(٢) الرضخ: الرمى. والارحية: جمع الرحى وهى الطاحون.

(٣) معانى الاخبار ص ٢٨٧.

(٤) معانى الاخبار ص ٢٨٩.

ومرض رجل من أصحاب الرّضا عليه السلام فعاده فقال : « كيف تجدك فقال : لقيت الموت بعدك - يريد به مالقيه من شدّة مرضه - فقال : كيف لقيته قال : أليماً شديداً ، فقال : مالقيته إنّما لقيت ماينذرك به ويعرّفك بعض حاله إنّما الناس رجلان مستريح بالموت ومستراح به منه فجدّد الإيمان بالله و النبوّة والولاية لناتكن مستريحاً ففعل الرّجل ذلك - والحديث طويل أخذنامنه موضع الحاجة [١] » .

وقيل لمحمّد بن عليّ بن موسى عليهما السلام : « ما بال هؤلاء المسلمين يكرهون الموت فقال : لأنّهم جهلوه وكرهوه ولو عرفوه وكانوا من أولياء الله حقّاً لأحبّوه وليعلموا أنّ الآخرة خير لهم من الدّنيا ، ثمّ قال : « ياأباعبد الله ما بال الصبيّ والمجنون يمتنع من الدّواء المنقي لبدنه والنافي للألم عنه؟ فقال لجهلهم بنفع الدّواء قال : والّذي بعث محمّداً بالحقّ نبيّاً إنّ من قد استعدّ للموت حقّ الاستعداد فهو أنفع لهم من هذا الدّواء لهذا المعالج ،أما إنّهم لو علموا مايؤدّي إليه الموت من النعيم لاستدعوه وأحبّوه أشدّ ممّا يستدعي العاقل الحازم الدّواء لدفع الآفات واجتلاب السلامات [٢] » .

ودخل عليّ بن محمّد عليهما السلام على مريض من أصحابه وهو يبكي ويجزع عن الموت فقال له : « ياعبد الله تخاف من الموت لأنّك لاتعرفه أرأيتك إذا اتّسخت وتقذّرت وتأذّيت بماعليك من الوسخ والقذرعليك وأصابك قروح وجرب وعلمت أنّ الغسل في الحمّام يزيل عنك ذلك كلّه أما تريد أن تدخله فتغسل ذلك عنك؟ أوماتكره أن لا تدخله فيبقى ذلك عليك ؟ قال : بلى يا ابن رسول الله ، قال : فذلك الموت هو ذلك الحمّام وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك وتنقيتك عن سيّئاتك فإذا أنت وردت عليه وجاوزته فقد نجوت من كلّ غمّ وهمّ وأذى ووصلت إلى كلّ سرور و فرح فسكن الرّجل و نشط و استسلم و غمض عين نفسه و مضى لسبيله [٣] ».

---

(١) و (٢) و (٣) معاني الاخبار ص ٢٩٠ .

« وسئل الحسن بن علي عليهما السلام عن الموت ماهو فقال : هو التصديق بما لا يكون[1] إنَّ أبي حدَّثني بذلك عن أبيه ، عن جدِّه عن الصَّادق عليه السلام أنّه قال : إنَّ المؤمن إذا مات لم يكن ميّتاً وإنَّ الكافر هو الميّت، إنّ الله عزَّ وجلَّ يقول : «يخرج الحيَّ من الميّت ويخرج الميّت من الحيّ[2]» يعني المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن[3]» وجاء رجل إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يارسول الله ما بالي لا اُحبُّ الموت ؟ فقال : لك مال ؟ قال : نعم ، قال : قد قدَّمته قال : لا قال : فمن ثمّة لاتحبُّ الموت[4] » .

وقال رجلٌ لأبي ذرّ رحمة الله عليه : « ما بالنا نكره الموت ؟ فقال : لأنّكم عمّرتم الدُّنيا وخرَّبتم الآخرة فتكرهون أن تنتقلوا من عمران إلى خراب وقيل له كيف ترى قدومنا على الله قال : أمّا المحسن فكالغائب يقدم على أهله وأمّا المسيء فكالآبق يقدم على مولاه ، قيل: فكيف ترى حالنا عندالله قال : اعرضوا أعمالكم على الكتاب إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول : « إنَّ الأبرار لفي نعيم ☆ وإنَّ الفجّار لفي جحيم[5] » قال الرَّجل : فأين رحمة الله ؟ قال : رحمة الله قريب من المحسنين » إلى هنا كلام الصدوق طاب ثراه[6].

---

(١) اى هو امر ، التصديق به تصديق بمالا يكون اذا المؤمن لايموت بالموت والكافر أيضاً كذلك لانه كان ميتاقبله (قاله العلامة المجلسى - رحمه الله) وله معنى آخر يأتى بعد تمام الحديث .

(٢) الروم : ١٩ .

(٣) معانى الاخبار ص ٢٩٠ . قوله : «التصديق بما لايكون » الظاهر أن المعنى ان التصديق بما لايكون اى الامر المحال هو بمنزلة الموت وهو فعل الاحمق الذى لاعقل له وقدروى عن الصادق عليه السلام انه قال : اذا اردت ان تختبر عقل الرجل فى مجلس واحد فحدثه فى خلال حديثك بما لايكون فان أنكره فهو عاقل وان صدقه فهو احمق ». وقال امير المؤمنين عليه السلام : «فقد العقل فقد الحياة ولا يقاس الا بالاموات» ويؤيد هذا المعنى ذيل الخبر ايضاً و عليهذا لايناسب ذكر الخبر فى هذا المقام .

(٤) رواه الصدوق أيضاً فى الخصال ج ١ ص ١٠ .

(٥) الانفطار : ١٣ و١٤ .

(٦) راجع لكل ذلك كتاب الاعتقادات له - رحمه الله - ص ٧٧ الى ٨١ .

قال أبو حامد : فهذه سكرات الموت على أوليائه وأحبّائه فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي ويتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدّواهي فإنّ دواهي الموت ثلاثة الاُولى شدّة النزع كما ذكرناه ، الدّاهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الرّوع والخوف منه على القلب ، فلو رأى صورته الّتي عليها يقبض روح العبد المذنب أعظم الرّجال قوّة لم يطق رؤيته فروي عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنّه قال لملك الموت هل تستطيع أنّ تريني الصورة الّتي تقبض فيها روح الفاجر ؟ قال : فأعرض عنّي فأعرض عنه ثمّ التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الرّيح أسود الثياب يخرج من فيه ومنخريه لهب النار والدّخان فغشي على إبراهيم عليه السلام ثمّ أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : ياملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلّا صورة وجهك لكان حسبه(١). وأمّا المطيع فإنّه يراه في أحسن صورة وأجملها فقد روى عكرمة عن ابن عبّاس أنّ إبراهيم صلوات الله عليه كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبّد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال : من أدخلك داري ، فقال : أدخلنيها ربّها فقال : أنا ربّها قال : أدخلنيها من هو أملك لها منّي ومنك فقال : من أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت فقال : فهل تستطيع أن تريني الصورة الّتي تقبض فيها روح المؤمنين ؟ قال : نعم فأعرض عنّي فأعرض عنه ، ثمّ التفت فإذا هو بشابّ فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال : ياملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلّا صورتك كان حسبه . ومنها مشاهدة الملكين الحافظين قال وهب : بلغنا أنّه ما من ميّت يموت حتّى يترأى له الملكان الكاتبان عمله فإن كان مطيعاً قالا له : جزاك الله عنّا خيراً فربّ مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح قد أحضرتنا وإن كان فاجراً قالا: لاجزاك الله عنّا خيراً فربّ مجلس سوء قد أجلستنا وعمل غير صالح قد أحضرتنا وكلام قبيح قد أسمعتنا فلاجزاك الله عنّا خيراً(٢). فذلك حين شخوص بصر الميّت

(١) جامع الاخبار فصل ١٣٥ .

(٢) راجع جامع الاخبار فصل ١٣٣ في القبر .

إليهما ولا يرجع إلى الدُّنيا أبداً . الدَّاهية الثالثة مشاهدة العصاة مواضعهم من النّار وخوفهم قبل المشاهدة فإنّهم في حال السّكرات وقد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ولم يخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بإحدى البشارتين إمّا أبشر ياعدوّ الله بالنار أو أبشر ياوليّ الله بالجنّة . وعن هذا الخطر كان خوف أرباب القلوب والألباب وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لن يخرج أحدكم من الدُّنيا حتّى يعلم أين مصيره وحتّى يرى مقعده من الجنّة أو النار [١] ».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فقالوا : كلّنا نكره الموت ، قال : ليس ذاك بذاك إنّ المؤمن إذا فرّج له عمّا هو قادم عليه أحبّ لقاء الله وأحبّ الله لقاءه [٢] » .

و عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « إنّ الله تعالى إذا رضي عن عبد قال : ياملك الموت اذهب إلى عبدي فلان فأتني بروحه لأريحه حسبي من عمله قد بلوته بالسرّاء فوجدته حيث اُحبُّ فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة معهم قُضبان الرّيحان واُصول الزّعفران كلُّ واحد منهم يبشّره ببشارة سوى بشارة صاحبه ويقوم الملائكة صفّين لخروج روحه معهم الرّيحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثمَّ صرخ قال: فيقول له جنوده : مالك ياسيّدنا فيقول أما ترون ما اُعطي هذا العبد من الكرامة أين كنتم عن هذا ؟ قالوا : قد جهدنا به ولكنّه كان معصوماً [٣] » .

قال بعض السلف : لاراحة للمؤمن إلّا في لقاء الله ومن كان راحته في لقاء الله فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزّه وشرفه

أقول :وفي الكافي عن سدير الصيرفي قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : « جعلت -

---

(١) أخرجه ابن ابى الدنيا فى الموت من رواية رجل لم يسمّ عن على عليه السلام موقوفاً

(٢) متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت .

(٣) قال العراقى : أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث تميم الدارى باسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح فى اول الحديث برفعه وفى آخره مادل على أنه مرفوع .

فداك ياابن رسول الله هل يكره المؤمن على قبض روحه ؟ قال : لا والله إنّه إذا أتاه ملك الموت لقبض روحه جزع عند ذلك فيقول له ملك الموت : ياوليّ الله لاتجزع فو الّذي بعث محمّداً لأ نا أبرّ بك وأشفق عليك من والد رحيم لو حضرك ، افتح عينك وانظر قال : وتمثّل له رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة من ذرّيتهم عليهم السلام فقال له : هذا رسول الله وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمّة رفقاؤك ، قال : فيفتح عينه فينظر فينادي روحه مناد من قبل ربّ العزّة فيقول : ياأيّتها النّفس المطمئنّة إلى محمّد وأهل بيته ارجعي إلى ربّك راضية بالولاء مرضيّة بالثواب ، فادخلي في عبادي يعني محمّداً وأهل بيته ، وادخلي جنّتي فما شيء أحبّ إليه من استلال روحه واللّحوق بالمنادي (١) » .

وعنه عليه السلام « إنّ الرّجل إذا وقعت نفسه في صدره يرى ، قلت : جعلت فداك وما يرى ؟ قال : يرى رسول الله فيقول له رسول الله : أنا رسول الله أبشر ، قال : ثمّ يرى عليّ بن أبي طالب فيقول : أنا عليّ بن أبي طالب الّذي كنت تحبّه أنا أنفعك اليوم قال : قلت له أيكون أحدٌ من الناس يرى هذا ثمّ يرجع إلى الدّنيا قال : قال : لا إذا رأى هذا أبداً مات وأعظمَ ذلك ، قال: وذلك في القرآن قول الله تعالى : « الّذين آمنوا و كانوا يتّقون لهم البشرى في الحيوة الدّنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله (٢) » .

وعن ابن أبي يعفور قال : « كان خطّاب الجهني خليطاً لنا وكان شديد النصب لآل محمّد عليهم السلام وكان يصحب نجدة الحروريّة قال : فدخلت عليه أعوده للخلط والتقيّة فا ذا هو مغمى عليه في حدّ الموت فسمعته يقول : مالي ولك ياعليّ فأخبرت بذلك أبا عبد الله عليه السلام فقال عليه السلام : رآه وربّ الكعبة رآه و ربّ الكعبة رآه وربّ الكعبة (٣) » .

---

(١) الكافي ج ٣ ص ١٢٨ تحت رقم ٢ والاستلال من السل وهوالنزع .
(٢) المصدر ج ٣ ص ١٣٣ تحت رقم ٨ والآية في سورة يونس : ٦٣و٦٤ .
(٣) المصدر ج ٣ص ١٣٣ تحت رقم ٩ .

قال أبو حامد: وخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهي من الدّواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدّة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرّجاء وهو لائق بهذا الموضع ولكنّا لانطول بذكره وإعادته.

✡ (بيان مايستحب من احوال المحتضر عند الموت) ✡

اعلم أنّ المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسّكون ، ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة ، ومن قلبه أنّ يكون حسن الظنّ بالله تعالى ، أمّا الصّورة فقد روي عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « راقبوا الميّت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه و يبست شفتاه فهي من رحمة الله تعالى قد نزلت به ، وإذا غطّ غطيط المخنوق[1] واحمرّ لونه واربدّت شفتاه فهو من عذاب الله تعالى قد نزل به[2] ».

أقول: ومن طريق الخاصّة ما رواه في الفقيه عن الصّادق عليه السلام قال : « إذا رأيت المؤمن قد شخص ببصره وسالت عينه اليسرى ورشح جبينه وتقلّصت شفتاه وانتشر منخراه فأيّ ذلك رأيت فحسبك به[3] ».

وعنه عليه السلام في الميت تدمع عيناه عند الموت وإنّ ذلك عند معاينة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فيرى مايسرّه ، ثمّ قال : أما ترى الرّجل يرى ما يسرّه وما يحبّ فتدمع عيناه ويضحك[4] ».

وعنه عليه السلام «إنّ وليّ عليّ عليه السلام يراه في ثلاثة مواطن حيث يسرّه عند الموت وعند الصراط وعندالحوض ، وملك الموت يدفع الشّيطان عن المحافظ على الصلوات ويلقّنه شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله في تلك الحالة العظيمة[5] ».

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لقّنوا موتاكم « لا إله إلّا الله» فإنّ من كان آخر كلامه « لا إله إلّا الله» دخل الجنّة[6] ».

---

(١) غط الجمل يغط - من باب ضرب - غطيطا : صوت فى الشقشقة . و غط النائم يغط غطيطاً أيضاً تردد نفسه صاعداً الى حلقه حتى يسمعه من حوله .

(٢) اخرجه الحكيم الترمذى فى نوادر الاصول من حديث سلمان .

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) المصدر باب غسل الميت تحت رقم ٢٠و١٩و٢٧و٣ .

قال أبو حامد : وأمّا انطلاق لسانه بكلمتي الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدريّ : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لقنّوا موتاكم لا إله إلّا الله [1] » وفي رواية حذيفة « فإنّها تهدم ماقبلها من الخطايا [2] »

وقال عثمان قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من مات وهو يعلم أنّه لا إله إلّا الله دخل الجنّة [3] »

وينبغي للملقّن أن لايلحّ بالتلقين ولكن يتلطّف فربّما لا ينطلق لسان المريض فيشقّ عليه ذلك و يؤدّي إلى استثقاله التلقين و كراهيته للكلمة ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة ، وإنّما معنى هذه الكلمة أن يموت الرّجل وليس في قلبه غير الله تعالى فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحقّ كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقّه وإن كان القلب مشعوفاً بالدُّنيا ملتفتاً إليها متأسّفاً على لذّاتها وكانت الكلمة على رأس اللّسان ولم ينطق القلب على تحقيقها وقع الأمر في خطر المشيّة فإنّ مجرّد حركة اللّسان قليل الجدوى إلّا أن يتفضّل الله بالقبول .

أقول : « وعن الصادق عليه السلام « ما من أحد يحضره الموت إلّا وكّل به إبليس من شياطينه أن يأمره بالكفر ويشكّكه في دينه حتّى تخرج نفسه فمن كان مؤمناً لم يقدر عليه فإذا حضرتم موتاكم فلقّنوهم شهادة أنّ لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله حتّى يموتوا» . وفي رواية اُخرى قال : « فلقّنه كلمات الفرج والشهادتين وتسمّي له الاقرار بالأئمّة عليهم السلام واحداً بعد واحد حتّى ينقطع عنه الكلام [4] ».

وعن أبي بكر الحضرميّ قال : « مرض رجلٌ من أهل بيتي فأتيته عائداً له فقلت له : يا ابن أخ إنّ لك عندي نصيحة أتقبلها ؟ فقال : نعم ، قلت : قل : « أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لاشريك له » فشهد بذلك فقلت : قل « وأنّ محمّداً رسول الله »

---

(١) اخرجه أحمد ومسلم وقد تقدم

(٢) تقدم أيضاً . (٣) تقدم ايضاً

(٤) الوافي ج ٣ باب تلقين المحتضر

فشهد بذلك ، فقلت : إنّ هذا لاينتفع به إلّا أن يكون منك على يقين فذكر أنّه منه على يقين ، فقلت : إشهد أنّ عليّاً وليّ الله و وصيّه و هو الخليفة من بعده والإمام المفترض الطاعة من بعده . فشهد بذلك ، فقلت له : إنّك لاتنتفع بذلك حتّى يكون منك على يقين ، فذكر أنّه منه على يقين ، ثمّ سمّيت له الأئمّة عليهم السلام رجلاً رجلاً فأقرّ بذلك وذكر أنّه على يقين ، فلم يلبث الرّجل أن توفّي فجزع أهله عليه جزعاً شديداً قال : فغبت عنهم ، ثمّ أتيتهم بعد ذلك فرأيت عزاء حسناً فقلت : كيف تجدونكم كيف عزاؤك أيّتها المرأة ؟ قالت والله لقد اُصبنا بمصيبة عظيمة بوفاة فلان - رحمه الله - وكان ممّا سخا بنفسي لرؤيا رأيتها اللّيلة ، فقلت : وماتلك الرّؤيا ؟ قالت : رأيت فلاناً يعني الميّت - حيّاً سليماً ، فقلت : فلان؟! فقال : نعم ، فقلت له : أما كنت ميّتاً ؟ فقال : بلي ولكن نجوت بكلمات لقّنيهنّ أبوبكر ولولا ذلك لكدت اُهلك [1] »

وعن الباقر عليه السلام « لو أدركت عكرمة عندالموت لنفعته ، فقيل للصّادق عليه السلام « بماذا كان ينفعه ؟ قال : يلقّنه ما أنتم عليه [2] »

وعن الصّادق عليه السلام « والله لو أنّ عابد وثن وصف ما تصفون [3] عند خروج نفسه ماطعمت النار من جسده شيئاً أبداً [4] »

وعنه عليه السلام « أعقل ما يكون الرجل المؤمن عند موته [5] »

وقال عليه السلام : « اعتقل لسان رجل من أهل المدينة على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم في مرضه الّذي مات فيه فدخل عليه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال له قل : « لا إله إلّا الله » فلم يقدرعليه فأعاد عليه فلم يقدرعليه ، وعند رأس الرّجل امرأة فقال لها : هل لهذا الرّجل

---

(١) هكذا فى الوافى وفى الكافى ج ٣ ص ١٢٢ باختلاف فى اللفظ

(٢) الكافى ج ٣ ص ١٢٢ تحت رقم ٣

(٣) اى اقرّ بما تقرون به من أمر الامامة

(٤) حمل على عدم معاينة الاخرة . والخبر فى الكافى ج ٣ ص ١٢٤ تحت رقم ٨ .

(٥) الفقيه باب غسل الميت تحت رقم ٤

أمّ؟ فقالت: نعم يارسول الله أنا اُمّه فقال لها: أفرضيت أنت عنه أم لا؟ فقالت: لابل ساخطة، فقال لها رسول الله: فإنّي اُحبُّ أن ترضين عنه فقالت: قد رضيتُ عنه لرضاك يا رسول الله فقال: لهقل: «لا إله إلّا الله» فقال: «لا إله إلّا الله» فقال له: قل: «يامن يقبل اليسير ويعفو عن الكثير اقبل منّي اليسير واعف عنّي الكثير إنّك أنت العفوّ الغفور» فقالها، فقال له ماذا ترى؟ قال: أرى أسودين قد دخلا عليّ قال: أعدها فأعادها فقال: ما ذا ترى؟ قال: قدتباعدا عنّي ودخل أبيضان وخرج الأسودان فماأراهما ودنا الابيضان منّي الآن يأخذان بنفسي. فمات من ساعته[(١)]».

قال الصّادق عليه السلام: «إذا حضرتم ميّتاً فقولوا له هذا الكلام ليقوله[(٢)]».

قال أبو حامد: وأمّا حسن الظنّ فهو مستحبٌّ في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرّجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظنّ «دخل واثلة بن أسقع على مريض فقال: أخبرني كيف ظنّك بالله فقال أغرقتني ذنوب أشرفت على الهلكة و لكنّي أرجو رحمة الله فكبّر واثلة و كبّر أهل البيت بتكبيره، وقال: الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: قال الله تعالى «أنا عند ظنّ عبدي بي فليظنّ بي ماشاء[(٣)]».

ودخل صلى الله عليه وآله على شابّ وهو يموت فقال: «كيف تجدك قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الوقت إلّا أعطاه الله الّذي يرجو وآمنه من الّذي يخاف[(٤)]»

ومرض أعرابيّ فقيل له: إنّك تموت قال: أين يذهب بي؟ قالوا: إلى الله قال: فما كراهتي أن أذهب إلى من لايرى الخير إلّا منه

❁ (بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات تعرب بلسان الحال عنها)❁

أقول: قد ذكر أبو حامد أوّلاً كيفيّة قبض الأرواح ثمّ أورد الحكايات

---

(١) الفقيه باب غسل الميت تحت رقم ٥، وفى الكافى نحوه

(٢) هذه الزيادة فى الكافى ج ٣ ص ١٢٤ تحت رقم ١٠

(٣) اخرجه ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم، واحمد والبيهقى فى الشعب به جميعاً.

(٤) تقدم.

ونحن نذكر الأوّل من طريق الخاصّة ثمّ نكتفي ببعض ما أورده فعن الصادق عليه السلام «قيل لملك الموت: كيف تقبض الأرواح وبعضها في المشرق في ساعة واحدة؟ فقال: أدعوها فتجيبني قال: وقال ملك الموت: إنّ الدّنيا بين يدي كالقصعة بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء، والدّنيا عندي كالدّرهم في كفّ أحدكم يقلّب كيف يشاء»[1] وقيل للصادق عليه السلام: «يعلم ملك الموت نفس من يقبض؟ قال: لا إنّما هي صكاك تنزل من السّماء اقبض نفس فلان بن فلان[2]».

قال أبو حامد: قال وهب بن منبّه: كان ملك من ملوك الأرض أراد أن يركب إلى أرض فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتّى لبس ما أعجبه بعد مرّات وكذلك طلب دابّة فلم يعجبه حتّى أتى بدوابّ فركب أحسنها فجاء إبليس فنفخ في منخريه نفخة فملأه كبراً ثمّ سار وسارت معه الجنود، وهو لا ينظر إلى الناس كبراً فجاءه رجل رثّ الهيئة فسلّم عليه فلم يرد عليه السلام فأخذ بلجام دابّته فقال: أرسل اللّجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً، وقال: إنّ لي إليك حاجة قال: اصبر حتّى أنزل قال: لا الآن فقهره على لجام دابّته فقال: اذكرها، قال: هي سرّ فأدنا إليه رأسه فسارّه فقال: أنا ملك الموت فتغيّر لون الملك واضطرب لسانه، ثمّ قال: دعني حتّى أرجع إلى أهلي فأقضي حاجتي وأودّعهم قال: لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبداً فقبض روحه فخرّ كأنّه خشبة، ثمّ لقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلّم عليه فردّ السّلام فقال: إنّ لي إليك حاجة أذكرها في اُذنك فقال: هات فسارّه فقال: أنا ملك الموت فقال: مرحباً وأهلاً بمن طالت غيبته عليّ فوالله ما كان في الأرض غائب أحبّ إليّ أنّ ألقاه منك فقال: ملك الموت اقض حاجتك الّتي خرجت لها، فقال: مالي حاجة أكبر عندي ولا أحبّ إليّ من لقاء الله، قال: فاختر على أيّ حال شئت أن أقبض روحك فقال: تقدر على ذلك؟ قال: نعم إنّي أمرت بذلك، قال: فدعني حتّى أتوضّأ واُصلّي ركعتين فاقبض روحي وأنا ساجد

---

(١) الفقيه ص ٣٢ و ٣٣.

(٢) الكافي ج ٣ ص ٢٥٥ تحت رقم ٢١.

فقبض روحه وهو ساجد .

وقال بكر بن عبد الله المزنيّ : جمع رجل من بني إسرائيل مالاً فلمّا أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأُتي بشيء كثير من الخيل والابل والرّقيق وغيره فلمّا نظر إليه بكى تحسّراً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال: مايبكيك فو الّذي خوّلك ما أنا بخارج من منزلك حتّى أفرّق بين روحك وبدنك ، قال : فالمهلة حتّى اُفرّقه قال : هيهات انقطعت عنك المهلة فهلاّ كان ذلك قبل حضور أجلك فقبض روحه . وقال وهب بن منبّه : قبض ملك الموت روح جبّار من الجبابرة ما في الأرض مثله ، ثمّ عرج إلى السّماء فقالت الملائكة : لمن كنت أشدّ رحمة ممّن قبضت روحه قال: اُمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره و كونه في فلاة لامتعهّد له بها فقالت له الملائكة : الجبّار الّذي قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الّذي رحمته فقال ملك الموت : سبحان اللّطيف لما يشاء .

وقال يزيد الرّقاشيّ : بينا جبّار من الجبابرة من بني إسرائيل كان جالساً في منزله فدخل ببعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل إلى باب بيته فثار إليه فزعاً مغضباً فقال : من أنت ومن أدخلك داري ؟ قال : أمّا الّذي أدخلني الدّار فربّها أمّا أنا فالّذي لايمنعني الحجاب و لا أستأذن على الملوك ولا أخاف سطوة السّلاطين ولا يمتنع عنّي كلّ جبّار عنيد و لا شيطان مريد ، قال : فسقط في يدي الجبّار وأرعد حتّى سقط منكبّاً لوجهه ، ثمّ رفع إليه رأسه مستعطفاً متذلّلاً فقال له : أنت إذاً ملك الموت ، قال : أنا هو ، قال : فهل أنت ممهّلي حتّى أحدث عهداً ، قال : هيهات انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك ونفدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال : فالى أين تذهب بي ؟ قال : إلى عملك الّذي قدّمته وإلى بيتك الّذي مهّدته ، قال : فانّي لم اُقدّم عملاً صالحاً ولم اُمهّد بيتاً حسناً ، قال : فالى لظى ، نزّاعة للشّوى ، ثمّ قبض روحه فسقط بين أهله فمن صارخ وباك .

وقال يزيد الرّقاشي : لو تعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر .

وعن الأعمش عن خيثمة قال : « دخل ملك الموت على سليمان بن داود صلوات الله عليهما فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلمّا خرج قال الرّجل لسليمان عليه السلام : من هذا قال : هذا ملك الموت قال : لقد رأيته ينظر إليّ كأنّه يريدني ، قال ، فماذا تريد ؟ قال : اُريد أن تخلّصني عنه فتأمر الرّيح حتّى يحملني إلى أقصى الهند ، فأمر سليمان عليه السلام الرّيح ففعل الرّيح ذلك ، ثمّ قال سليمان عليه السلام لملك الموت بعد أن أتاه ثانية : رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي ، قال : نعم كنت أتعجّب منه لأنّي كنت اُمرت أن أقبض روحه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك فتعجّبت من ذلك.

✿ (الباب الرابع في وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله) ✿

أقول : و لنعرض الآن عمّا ذكره أبو حامد من طريق العامّة في هذا الباب فإنّ أكثره من مفتريات سلفهم لترويج أغراضهم الفاسدة . و لنذكر ماروته أصحابنا من مآخذهم الصحيحة قال : بعض علمائنا في كتاب له صنّفه [1] في ذكر وفاة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسبب اختلاف الصحابة بعده بعدما ذكر حديث حجّة الوداع ووصيّة يوم الغدير وما يتعلّق بذلك ما هذا لفظه « ثمّ إنّه عليه السلام تحقّق من دنوّ أجله فخاف توثّب المنافقين ومن والاهم على هذا الأمر وكانوا ألف رجل فعقد لاُسامة بن زيد فولاء الرّاية وأمّره على أكثر المهاجرين و الأنصار و ندبه إلى الخروج بهم إلى الوجه الّذي قتل أبوه فيه من بلاد الرّوم لكيلا يبقى بالمدينة بعد وفاته من يطمع في الإمارة فيستتمّ الأمر لأمير المؤمنين عليه السلام فلا ينازعه هناك منازعٌ ، فأمر اُسامة فعسكر على أميال من المدينة ورسول الله صلّى الله عليه وآله يحثّ النّاس على الخروج إلى اُسامة والمسير معه ، فبينما هو كذلك إذ عرض له المرض الّذي توفّي فيه فلمّا أحسّ بالمرض أخذ بيد عليّ بن أبي طالب عليه السلام وتبعه جماعة من

(١) الظاهر أن هذا الكتاب تأليف أحد علماء البحرين ويسمى « التهاب نيران الاحزان » و على ما سمعت في مكتبة الامام امير المؤمنين عليه السلام العامة في النجف الاشرف نسخة مخطوطة منه .

المهاجرين والأنصار ، فقال عليه السلام : إنّي اُمرت بالاستغفار لأهل البقيع فلمّا جاءهم قال : السلام عليكم يا أهل القبور ليهنّئكم ما أصبحتم فيه ممّا فيه الناس ، أقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم يتبع أوّلها آخرها ، فاستغفر لهم كثيراً ، ثمّ أقبل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : يا أخي إنّ جبرئيل عليه السلام كان يعرض عليّ القرآن كلّ سنة مرّة وقد عرضه عليّ في هذا العام مرّتين ولا أراه إلّا لحضور أجلي ، ثمّ قال : يا عليّ إنّي خيّرت بين خزائن الدّنيا والخلود فيها وبين لقاء ربّي والجنّة فاخترت لقاء ربّي والجنّة خالداً فيها ، فإذا أنا متّ فغسّلني واسترعورتي فإنّه لا يراها أحدٌ إلّا أكمهه الله تعالى ، ثمّ عاد إلى منزله فمكث ثلاثة أيّام موعوكاً ، ثمّ إنّه خرج إلى المسجد معتمداً على أمير المؤمنين عليه السلام حتّى صعد المنبر وخطب فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : معاشر النّاس قد حان منّي خفوقٌ ما بين أظهركم ، فمن كان له عندي عدةٌ فليأتني اُعطه إيّاها ومن كان له عندي دين فليخبرني به ، فقام رجلٌ وقال ؟ يارسول الله إنّ لي عندك عدةً إنّي تزوّجت فوعدتني أن تنحلني ثلاث أنواق ، فقال له : أنحلتكها وأفضل ، ثمّ قال : معاشر الناس إنّه ليس بين الله وبين أحد شيءٌ يعطيه به خيراً أو يصرف عنه شرّاً إلّا العمل ، والّذي بعثني بالحقّ لا ينجي إلّا العمل مع رحمة الله ولو عصيت لهويت ، ثمّ نزل فصلّى بالنّاس صلاة خفيفة ، ودخل بيته وكان في بيت اُمّ سلمة فجاءت عائشة فسألته أن ينتقل إلى البيت الّذي هي فيه فانتقل إليها وجاءت الأنصار من غد فأحدقوا بالباب وقالوا لغلامه : استأذن لنا على رسول الله، فقال الغلام : إنّه مغشيٌّ عليه فجعلوا يبكون ، ثمّ إنّه عليه السلام أفاق فسمع البكاء فقال : من هؤلاء ؟ قالوا : الانصار فقال : من ههنا من أهل بيتي ؟ فقالوا : عليٌّ والعباس فدعا بهما وخرج متوكّئاً عليهما واستند إلى جذع من جذوع مسجده واجتمع الناس حوله ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : معاشر الناس إنّه لم يمت نبيٌّ قطّ إلّا خلّف تركة وقد خلّفت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي فتمسّكوا بهما فمن ضيّعهما ضيّعه الله ، ألا وإنّ الأنصار كرشي وعيبتي الّتي أوى إليها اُوصيكم بتقوى الله والإحسان إلى محسنهم والتجاوز عن مسيئهم ، وجعل الناس ممّن لم يكن

في جيش اُسامة يعودون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثمَّ ينصرفون إلى سعد بن عبادة ويعودونه ثمَّ إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا اُسامة بن زيد وقال له : سر على بركة الله حيث أمرتك بمن أمّرتك عليه وكان قد أمّره على جماعة من المهاجرين والأنصار فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم وأمره أنَّ يعبر على قرية وادي فلسطين وهو الموضع الّذي قتل فيه أبوه زيد ، فقال اُسامة : بأبي أنت واُمّي يارسول الله تأذن لي بالمقام حتّى يشفيك الله فإنّي متى خرجت وأنت على هذه الحالة خرجت وفي قلبي قرحة ، فقال : أنفذ يا اُسامة لما أمرتك فإنَّ القعود عن الجهاد لا يحبُّ فخرج اُسامة من يومه ذلك فعسكر على رأس فرسخ من المدينة فنادى منادي رسول الله : ألا لايتخلّف عن اُسامة أحدٌ ممّن أمّرته عليه ، قال : فلمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تثاقل الناس عن الخروج أمر قيس بن سعد بن عبادة وكان سيّاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والخباب بن المنذر أن يخرجا في جماعة من الأنصار وأن يرحّلا القوم إلى عسكرهم فأخرجهم قيس و أصحابه حتّى لحقوا بالعسكر وقالا لاُسامة : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يرخّص لك في التأخير فسر من قبل أن يعلم بتأخّرك فارتحل بهم اُسامة وانصرف قيس ومن معه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأعلمه بمسير القوم فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنَّ القوم غير سائرين، فلمّا نزلوا أتى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة نحو اُسامة وقالوا له : أين تذهب وتخلّي المدينة ونحن أحوج من كلِّ أحد إلى المقام بها ، فقال اُسامة : وما ذاك ؟ قالوا : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد نزل به الموت والله لئن خلّينا المدينة لَيلينَّ الأمر عليٌّ بن أبي طالب و ما وجّهنا محمّدٌ إلى هذا الوجه البعيد إلّا لنخلّي المدينة لعليٍّ بن أبي طالب فيبايع له الناس ويستتمَّ الأمر له ويفسد علينا جميع ما أبرمناه ، قال : فرجع القوم إلى المنزل الأوّل فأقاموا به وبعثوا رسولاً يتعرَّف لهم الخبر وعلّة رسول الله فأتى الرّسول إلى عائشة وسألها عن ذلك سرّاً فقالت له : امض إلى أبي بكر وعمر وقل لهما: إنّ رسول الله قد ثقل حاله وازداد مرضه فلا يبرح أحدٌ منكم وأنا أعرّفكم الخبر وقتاً بعد وقت ، فلمّا اشتدّت علّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعت عائشة صهيباً الرّومي وقالت له : امض إلى أبي بكر وعمر وأعلمهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حال الإياس وقل له:

يدخل هو وعمر وأبو عبيدة بالليل ، فأتاهم صهيب وأخبرهم برسالة عائشة فأخذوا بيده وادخلوه على اُسامة وأخبروه بما أرسلت عائشة واستأذنوه في الدخول فأمرهم وقال : لايملمنّ بكم أحدٌ فإن عوفي رسول الله رجعتم إلى معسكركم وإن قبض رسول الله صلى الله عليه وآله عرّفوني ذلك فأدخل فيما دخل فيه الناس ، فدخل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ليلاً إلى المدينة ورسول الله صلى الله عليه وآله مغشيٌّ عليه فلمّا أفاق قال: والله لقد طرق المدينة هذه الليلة شرٌّ عظيم ، قيل : وما هو يا رسول الله ؟ قال : الّذين أمرتهم بالخروج في جيش اُسامة رجع منهم قوم إلى المدينة مخالفين لأمري ألا وإنّي إلى الله منهم بريء ، ويحكم نفّذوا جيش اُسامة - ثلاثاً - لعن الله من تخلّف عنه ، حتّى قالها - ثلاثاً - قال : وكان عليٌّ بن أبي طالب والفضل بن عباس لايفارقانه في مرضه .

وكان بلال المؤذّن يأتي في وقت كلّ فريضة إلى النّبيّ صلى الله عليه وآله فيقول : الصلاة يا رسول الله ، فإن قدر على الخروج صلّى بالناس وإن لم يقدر أمر عليّ ابن أبي طالب أن يصلّي بهم فلّما أصبح رسول الله من ليلته الّتي قدم فيها القوم إلى المدينة أتاه بلال يؤذّن بالصّلاة فوجده قد ثقل عن الخروج فنادى الصلاة يرحمكم الله فأومى رسول الله صلى الله عليه وآله بيده - وكان رأسه في حجر عليّ - أن يصلّي بالناس بعضهم فإنّي مشغول بنفسي ، فقالت عائشة : مروا أبابكر يصلّي بهم ، وقالت حفصة : مروا عمر ، فلمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وآله كلامهما ورأى حرص كلّ واحدة على تقديم أبيها قال لهنّ : اعففن ، ثمّ اُغمي عليه فقالت عائشة لبلال : إنّ رسول الله قد اُغمي عليه ورأسه في حجر عليّ فلا يقدر على مفارقته فمر أبا بكر فليصلّ بالناس فظنّ بلال أنّ ذلك عن رسول الله فقال للناس : قدّموا أبا بكر وكان أبو بكر وعمر ومن معهما قد دخلا المسجد فارسلت عائشة صهيباً الرّومي إلى أبي بكر قد أمرت بلالاً يقول للناس صلّوا بصلوة أبي بكر فتقدّم حتّى يأتيك بلال بالأمر فتقدّم أبو بكر إلى المحراب فلمّا كبّر أفاق رسول الله من غشوته فسمع التكبيرة فقال لعليّ من يصلّي بالناس قال : يارسول الله إنّ عائشة وحفصة أمرتا بلالاً أنّ يأمر أبا بكر أن يصلّي بالناس فقال : سنّدوني و أخرجوني إلى المسجد فقد نزلت والله بالإسلام فتنة

ليست بهنيئة ، ثمّ نظر إلى عائشة وحفصة نظر المغضب ، وقال : أما إنّكنّ كصويحبات يوسف ، يريد بذلك أنّ صويحبات يوسف قد كذبن عليه وأردن مراد الشيطان الغويّ من يوسف فشبّه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عائشة وحفصة بهنّ حيث كذبن عليه لقولهنّ لبلال : إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم مشغول بنفسه وعليّ لايقدر على مفارقته فأمر أبا بكر أن يصلّي بالناس ، ثمّ خرج عليه السلام معصّب الرأس يتهادى بين عليّ وبين الفضل بن العبّاس ورجلاه يخطّان إلى الأرض من الضعف فلمّا رأى المسلمون رسول الله قد دخل المسجد على تلك الحالة عظم ذلك عليهم ، فتقدّم عليه السلام ونحّى أبا بكر عن المحراب وصلّى بالناس جالساً وبلال يسمع التكبير حتّى أكمل رسول الله صلاته ثمّ التفت فلم ير أبا بكر فقال : أيّها الناس ألاتعجبوا من ابن أبي قحافة وأصحابه أنفذتهم تحت راية اُسامة إلى الوجه الّذي وجّهتهم له فرجعوا إلى المدينة ابتغاء الفتنة ألا وإنّ الله أركسهم فيها عرّجوا بي إلى المنبر فقام منهوكاً حتّى أجلسوه على أدنى مرقاة منه فحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ قال : أيّها الناس إنّي مخلّف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي فإنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليّ الحوض فتمسّكوا بهما ولا تتفرّقوا ولاتتقدّموا أهل بيتي فتمرقوا و لا تتأخّروا عنهم فتزهقوا وأوفوا بعهدي ولا تنكثوا بيعتي الّتي بايعتموني عليها اللّهمّ إنّي قد بلّغت ُما أمرتني به و نصحت لهم ما استطعت وماتوفيقي إلّا بالله عليه توكّلت و إليه اُنيب ، ثمّ قام فدخل حجرته ، ثمّ أمر من استدعى له أبا بكر وعمر ومن كان بالمسجد فقال لهم : ألم آمركم أن تنفذوا مع جيش اُسامة فقال أبوبكر : إنّي كنت قد خرجت ثمّ عدت لاُجدّد بك عهداً وقال عمر : إنّي لم أخرج لأنّي لم اُحبّ أن أسأل عنك الرّكبان ، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم نفّذوا جيش اُسامة - يكرّرها ثلاثاً - لعن الله على من تأخّر عن أمره ، ثمّ اُغمي عليه لعظم مالحقه من التعب والأسف على من تأخّر عن أمره فبكى المسلمون وارتفع النحيب من أزواجه و ولده .

ثمّ أفاق فنظر إليهم وقال : ايتوني بدواة وبيضاء أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا

بعدي ، ثمّ اُغمي عليه فقام بعض من حضر ليأتي بالدّواة والكتف فقال له عمر : ارجع فإنّ النبيّ يهجر ، ثمّ تلاوموا بينهم فقال بعضهم : أطيعوا رسول الله و أتوه بالدّواة والكتف ، و قال آخرون : أطيعوا عمر ، و قال آخرون : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، لقد أشفقنا من مخالفتنا لرسول الله . فلمّا أفاق قال بعض: ألا نأتيك بالدّواة والكتف يارسول الله ؟ فقال : أمّا بعد الّذي قلتم لا ، ولكنّي اُوصيكم بأهل بيتي خيراً ، وأعرض بوجهه عن القوم فنهضوا ، وقال بعض العارفين في هذا المعنى:

أوصي النبيّ فقال قائلهم ✿ قد ظلّ يهجر سيّد البشر
ورأي أبا بكر أصاب ولم ✿ يهجر وقد أوصى إلى عمر

قال الرّاوي : و بقي عند الرّسول صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب والعبّاس بن عبد المطلب وأهل بيته، فقال العباس : يا رسول الله إن يكن هذا الأمر فينا مستقرّاً فبشّرنا وإن كنت تعلم أنّا نُغلب عليه فأوص بنا ، فقال : أنتم المستضعفون من بعدي وصمت ، فنهضوا وهم يبكون وقد آيسوا من النبيّ صلى الله عليه وآله فلمّا خرجوا من عنده قال لهم : ردّوا عليّ بن أبي طالب وعمّي العبّاس فلمّا حضروا قال للعباس: ياعمّ تقبل وصيّتي ، وتنجز عدتي ، وتقضي ديني ؟ قال العبّاس : يا ابن أخي عمّك شيخ كبير ذو عيال كثيرة وأنت تباري الرّيح سخاء و كرماً وعليك وعدٌ لا ينهض به عمّك، فأقبل بوجهه على أمير المؤمنين عليه السلام وقال : يا أخي تقبل وصيّتي ، وتنجز عدتي ، وتقضي ديني ، وتقوم بأمر أهلي من بعدي ؟ قال : نعم يا رسول الله فداك أبي واُمّي فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : اُدن منّي ، فدنا منه فضمّه إلى صدره وقبّل ما بين عينيه وتعانقا وبكى كلٌّ منهما ثمّ نزع خاتمه من اصبعه ، وقال له : خذ هذا فضعه في يدك ودعا بسيفه ودرعه ولأمة حربه وفرسه وناقته وبغلته والتمس عصابته الّتي كان يشدّها على بطنه إذا لبس سلاحه وخرج إلى الحرب ، فدفع ذلك كلّه إليه ، وقال : امض به على بركة الله إلى منزلك .

قال الرّاوي : واستأذن ابن عبّاس على رسول الله صلى الله عليه وآله فأذن له فلمّا دخل عليه قال : بأبي أنت واُمّي يا رسول الله قد دنا أجلك ؟ قال : نعم ، قال : يارسول الله فما

تأمرني به ؟ قال : يا ابن عبّاس خالف من خالف عليّاً ولا تكن لهم ظهيراً ولا وليّاً ، فقال ابن عبّاس : يا رسول الله فلم لا تأمر النّاس بترك مخالفته فبكى عليه السلام حتّى اُغمي عليه فلمّا أفاق قال : يا ابن عبّاس سبق الكتاب فيهم وعلم ربّي والّذي بعثني بالحقّ نبيّاً لا يخرج أحدٌ ممّن خالفه من الدُّنيا وأنكر حقّه حتّى يغيّر الله ما به من نعمة ، يا ابن عبّاس إذا أردت أن تلقى الله وهو عنك راض فاسلك طريق عليّ بن أبي طالب ومل معه حيث ما مال وارض به إماماً وعاد من عاداه ووال من والاه ، يا ابن عبّاس احذر أن يدخلك شكٌّ فيه فإنّ الشكّ في عليّ كفر بالله .

ثمّ دخل عليه أصحابه يعودونه فلمّا اجتمعوا قام أبو بكر وقال : يا رسول الله متى الأجل ؟ قال : قد حضر ، قال أبو بكر : فإلى أين المنقلَب ؟ قال : إلى سدرة المنتهى وجنّة المأوى ، والرّفيق الأعلى ، والكأس الأوفى ، والعيش المهنّأ ، قال أبو بكر : فمن يلي غسلك منّا ؟ قال : رجلٌ من أهل بيتي الأدنى فالأدنى قال أبو بكر : ففيما نكفّنك ؟ قال : في ثيابي هذه أو في حلّة يمانيّة أو في بياض مصر ، قال أبو بكر : فكيف الصلاة عليك ؟ قال : فارتجّت الأرض بالبكاء فقال لهم النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم : مهلاً عفا الله عنكم فإذا غسّلت و كفّنت فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثمّ اخرجوا عنّي ساعة فإنّ الله تعالى أوّل من يصلّي عليّ ، ثمّ الملائكة ، ثمّ ادخلوا عليّ زمرة زمرة وليبدأ بالصّلاة عليّ الأدنى من أهل بيتي ، ثمّ النّساء ، ثمّ الصبيان زمراً زمراً ، قال : فمن يدخلك في قبرك ؟ قال : الأدنى فالأدنى من أهل بيتي مع الملائكة لا ترونهم ، فقوموا عنّي فأدّوا على من ورائكم ، فقاموا .

ثمّ استأذن عليه جماعة اُخرى فسلّموا عليه فردّ عليهم السلام ورحّب بهم فقام من بينهم عمّار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ وقال : فداك أبي واُمّي يا رسول الله من يغسّلك منّا إذا فارقتَ الدُّنيا ؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أخي وابن عمّي عليُّ بن أبي طالب ألا إنّه لا يهمّ بعضو منّي إلّا أعانته الملائكة عليه فقال له : فداك أبي واُمّي يا رسول الله فمن يصلّي عليك منّا ؟ فقال : يا عمّار ـ يرحمك الله ـ ثمّ قال : أين أخي وابن عمّي عليُّ بن أبي طالب فأجابه بالتلبية لبّيك يا رسول الله صلّى الله عليك فقال : يا ابن عمّي

أجلسني وسنّد ظهري فأجلسه وسنّد بصدره ، ثمّ قال : يا ابن العمّ إذا نزل بي الموت فضع رأسي في حجرك فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك ، ثمّ وجّهني إلى القبلة ، ثمّ غسّلني وكفّنّي في طمريّ هاتين أو في بياض مصر أو حبرة ، ولا تغال في كفني ، ثمّ صلّ عليّ أوّل الناس ، واعلم أنّ أوّل من يصلّي عليّ الجبّار جلّ جلاله ثمّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ، ثمّ الحافّون بالعرش لايحصي عددهم إلّا الله ثمّ سكّان أهل كلّ سماء فسماء ، ثمّ أهل بيتي يؤمون إيماء ما ويسلّموا تسليماً ، لاتؤذوني بصوت ناد ولا مرزبة (١) ، ثمّ قال : يا بلال عليّ بالنّاس ، فلمّا اجتمعوا قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ بن أبي طالب : اقعدني على مرتفع وسنّدني فأقامه وهو معصّب الرأس حتّى أجلسه على كرسيّ وعليّ بن أبي طالب لازم بمنكبيه فحمد الله وأثنى عليه وذكر نفسه المقدّسة ونعاها.

ثمّ قال: معاشر الناس أيّ نبيّ كنت لكم ؟ قالوا بأجمعهم : خير نبيّ ، قال : ألم اُجاهد بين أظهركم ؟ ألم تكسر رباعيتي ؟ ألم يعفر جبيني ؟ ألم تسل الدّماء على وجهي حتّى وقعت لجنبي ؟ ألم اُكابد الشدّة والجهد مع جهّال قومي ؟ ألم أربط حجر المجاعة على بطني ؟ قالوا بأجمعهم : بلي يا رسول الله لقد كنتَ على البلاء صابراً ، ولنعمائه شاكراً ، وعن المنكر ناهياً ، وبالمعروف آمراً ، فجزاك الله عنّا أفضل الجزاء ، قال : وأنتم جزاكم الله خيراً ، ثمّ قال : أيّها الناس لانبيّ بعدي ولا سنّة بعد سنّتي فمن ادّعى ذلك فهو في النّار ، أيّها الناس أحيوا القصاص ، أحيوا الحقّ لصاحب الحقّ ولا تفرّقوا و سلّموا تسليماً « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قويّ عزيز » أيّها النّاس إنّ ربّي حكم و أقسم أن لايجاوز ظلم ظالم إلّا بعفو أو قصاص فأنشدكم بالله أيّ رجل كانت له من قبل محمّد مظلمة أو قصاص إلّا قام فيقتصّ منّي فإنّ القصاص في الدّنيا أحبّ إليّ من القصاص في الآخرة على رؤوس الأشهاد ، قال: فقام إليه رجلٌ يقال له : سوادة بن قيس فقال: فداك أبي واُمّي يا رسول الله

(١) المرزبة بالباء الموحدة و هى عصية من حديد و فى بعض النسخ [مرزنة] ولعله تصحيف .

أقبلت من الطائف استقبلتك و أنت على ناقتك العضباء و بيدك القضيب الممشوق فرفعت القضيب وأنت تريد الناقة فأصاب بطني فلاأدري عمداً أوخطأً فقال : معاذ الله ياسوادة أن أكون تعمّدت ، ثمّ قال : يا بلال قم إلى ابنتي فاطمة وأتني بالقضيب الممشوق فخرج بلال ينادي في شوارع المدينة من ذا الّذي يعطي القصاص من نفسه قبل يوم القيامة ، ثمّ أتى فاطمة عليها السلام فقال : يافاطمة قومي فناوليني القضيب الممشوق فإنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يريده فصاحت فاطمة ما يصنع رسول الله بالقضيب الممشوق وليس هذا يوم القضيب ؟ فقال بلال : يافاطمة أما علمت أنّ أباك خطب الناس ونعى نفسه فقد ودّع أهل الدّين والدّنيا ، فصاحت فاطمة وقالت : واحزناه عليك يا أبتاه من للفقير والمسكين وابن السبيل يا حبيب الله وحبيب القلوب ، ثمّ إنّها ناولت بلالاً القضيب فخرج به حتّى ناوله رسول الله فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أين الشيخ فقال الشيخ : ها أنا ذا يارسول الله ، فقال له : قم فاقتصّ منّي حتّى ترضى قال الشيخ : يا رسول الله اكشف لي عن بطنك فكشف صلى الله عليه وآله وسلم عن بطنه فقال الشيخ : بأبي أنت واُمّي يارسول الله أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : قد أذنتك فوضع الشيخ فمه على بطن رسول الله فقال : أعوذ ببطن رسول الله من النار يوم القيامة فقال صلى الله عليه وآله وسلم لسوادة : أتعفو أم تقتصّ فقال الشيخ : بل أعفو يارسول الله فقال صلى الله عليه وآله وسلم : اللّهمّ اعف عن سوادة بن قيس ممّا عفا عن نبيّك .

ثمّ جعل صلى الله عليه وآله وسلم يوصي أصحابه بالتمسّك بسنّته والاقتداء بعترته ويحذّرهم مخالفة أهل بيته ، ثمّ إنّه أمر عليّ بن أبي طالب عليه السلام أن يضجعه على فراشه . وقام القوم عنه وقد آيسوا منه فلمّا كان من الغد حُجب الناس عنه وكان عليّ عليه السلام لايفارقه فخرج عليه السلام لحاجة ، فدخل عليه نساؤه فأفاق فافتقد عليّاً عليه السلام فقال لأزواجه : ادعوا لي أخي وصاحبي فقالت عائشة : ادعوا له أبابكر فدعي فلمّا نظر إليه أعرض بوجهه عنه فقام أبو بكر وقال : لو كان له حاجة لأفضى بها إليّ فلمّا خرج قال : ادعوا لي أخي وصاحبي فقالت حفصة : ادعوا له عمر فدعي فلمّا نظر إليه أعرض بوجهه عنه فانصرف ، وقال : لو كان له حاجة لأفضى بها إليّ فلمّا خرج قال :

ادعوا لي أخي وصاحبي فقالت اُمّ سلمة : اُدعوا له علياً فوالله ما يريد غيره فدعي عليّ عليه السلام فلمّا رآه أوى إليه فانكبّ عليه من تحت ثوبه فناجاه طويلاً ثمّ قام عليه السلام ناحية فقال له الناس بعد ذلك : ماالّذي أوعز إليك قال : علّمني ألف باب من العلم انفتح لي من كلّ باب ألف باب و أوصاني بما أنا عامل به إن شاء الله ، ثمّ إنّ اُمّ سلمة استأذنت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأذن لها فدخلت وسلّمت عليه ، ثمّ قالت : بأبي أنت واُمّي يا رسول الله أراك متغيّراً قال : نعيت إليّ نفسي فسلام لك منّي فلا تسمعون بعد اليوم صوت محمّد أبداً ، فقالت اُمّ سلمة : واحز ناه لاتدركه الندامة عليك يا محمّد ، فقال : يا اُمّ سلمة ادعي لي حبيبتي وقرّة عيني وثمرة فؤادي المظلومة بعدي فاطمة . فلمّا رأته قبّلت رأسه وخدّيه وقالت : نفسي لنفسك الفداء واكرباه لكربك يا أبتاه ففتح صلى الله عليه وآله وسلم عينيه وقال : يابنيّة لا كرب على أبيك بعد اليوم فقالت : يا أبتاه إنّي أراك مفارق الدُّنيا فقال لها : بنيّة إنّي مفارقك فسلام لك منّي فقالت : يا أبتاه فأين الملتقى يوم القيامة؟ قال : عند الحساب ، قالت: فان لم ألقك هناك ، قال : فعندالشفاعة لمحبّيك ، قالت : فان لم ألقك عندالشفاعة قال : عند الصراط جبرئيل عن يميني وميكائيل عن شمالي وبعلك عليّ بن أبي طالب أمامي بيده لواء الحمد والملائكة من خلفي ينادون ربّ سلّم اُمّة محمّد من النّار ويسّر عليهم الحساب قالت : فأين اُمّي خديجة قال: في قصر من لؤلؤة بيضاء لهأربعةأبواب

ثمّ اُغمي عليه ورأسه في حجر عليّ بن أبي طالب عليه السلام فانكبّت عليه تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وهي تقول :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ✿ ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يطوف بهالهلاك[1] من آل هاشم ✿ فهم عنده في نعمة وفواضل

قال : ففتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عينيه وقال لها بصوت ضعيف : يابنيّة هذا قول عمّك أبي طالب لاتقولينه ولكن قولي « وما محمّد إلّا رسول قد خلت من قبله الرُّسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم[2] » فبكت طويلاً ، ثمّ إنّه عليه السلام أومأ إليها

(١) أى الصعاليك . (٢) آل عمران : ١٤٤ .

بالدّنوّ منه ، فدنت منه حتّى أدخلها تحت ردائه فناجيها فرفعت رأسها وعينها تهملان دموعاً ثمّ قال لها : ادني منّي فدنت منه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك فتعجّب الحاضرون من ذلك ، فقالت : نعى إليّ نفسه فبكيت، ثمّ قال لي : يابنيّة لاتجزعي على أبيك من الموت فإنّي سألت ربّي أن يجعلك أوّل أهل بيتي لحوقاً بي وأخبرني ربّي أنّه استجاب لي فضحكت ، ثمّ قال : يابنيّة ادعي لي ولديّ الحسن والحسين . فدعت بهما فلمّا رآهما قبّلهما وشمّهما وجعل يترشّفهما وعيناه تهملان دموعاً ، ثمّ اُغمي عليه فصاح الحسن والحسين عليهما السلام وقالا : ياجداه أنفسنا لنفسك الفداء ووجهنا لوجهك الوقاء وجعلا يصيحان ويبكيان حتّى وقعا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فأراد عليّ عليه السلام أن ينحّيهما عنه فأفاق صلى الله عليه وآله وسلم وقال : يا عليّ تنحّى عنّي ابنيّ ؟ دعني أشمّهما ويشمّاني وأتزوّد منهما ويتزوّدان منّي فهذا وداع لاتلاق بعده أما إنّهما سيظلمان بعدي و يقتلان ظلماً فلعنة الله على قاتلهما وظالمهما ، ثمّ قال : أما أنت يا أبا محمّد فتقتل مسموماً مخذولاً مضطهداً، وأمّا أنت يا أبا عبد الله فتقتل عطشاناً غريباً فلعنة الله على اُمّة قتلوك يابنيّ .

قال : وكان جبرئيل عليه السلام ينزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه في كلّ يوم وليلة فيقول: السلام عليك يا رسول الله إنّ ربّك يقرئك السّلام ويقول : كيف تجدك وهو أعلم بك ولكنّه أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً إلى ما أعطاك وأراد أن يكونَ عيادة المريض سنّة في اُمّتك فإن كان النبيّ موجباً أي حاله خفيف قال : أجدني موجباً فيقول له جبرئيل أحمد الله تعالى على ذلك فإنّه يحبّ أن يحمد ويزيد في شكره ، وإن كان وجعاً قال : أجدني وجعاً فيقول جبرئيل : يامحمّد إنّ ربّك لم يشدّد عليك وما من أحد من خلقه أكرم عليه منك ولكن أحبّ أن تحمده وتشكره حتّى تلقاه مستوجباً للدّرجة العليا والثواب الدّائم والكرامة على جميع الخلق . قال أمير المؤمنين عليه السلام : وإنّ جبرئيل نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الوقت الّذي ينزل عليه فيه فلمّا حسست بنزوله قلت لمن كان في البيت أن يتنحّى فلمّا دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جلس عند رأسه ، ثمّ قال عليه السلام :السلام عليك يا رسول الله إنّ ربّك يقرئك

السلام ويسألك كيف تجدك وهو أعلم بك فقال له : أجدني ميّتاً ، فقال جبرئيل : يا محمّد أبشر فإنَّ الله تعالى إنّما أراد أن يبلغك بما تجد ما أعدَّ لك من الكرامة .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : ثمَّ إنَّ رجلاً استأذن على رسول الله صلى الله عليه وآله فخرجتُ إليه وقلت له : ما الّذي تريد ؟ قال : أردت الدُّخول على رسول الله صلى الله عليه وآله فقلت : لستَ تصل إليه فما حاجتك؟ فقال الرَّجل : إنّه لا بدَّ من الدُّخول عليه فدخل علي عليه السلام واستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله فأذن له فدخل الرَّجل وجلس عند رأسه ، ثمَّ قال : السلام عليك يا رسول الله فقال له : وعليك السلام فما حاجتك ؟ فقال الرَّجل : إنّي رسول الله إليك ، فقال عليه السلام : وأيُّ رسل الله أنت ؟ فقال : أنا ملك الموت أرسلني إليك ربّك وهو يقرئك السلام ويخيّرك بين لقائه وبين الرُّجوع إلى الدُّنيا فقال صلى الله عليه وآله : أمهلني حتّى ينزل جبرئيل عليه السلام فيسلّم عليَّ وأُسلّم عليه وأستشيره فخرج ملك الموت من عنده واستقبله جبرئيل في الهواء فقال : يا ملك الموت قبضت روح محمّد ؟ قال : لا يا جبرئيل سألني أن لا أقبضه حتّى تأتيه فتسلّم عليه ويسلّم عليك ويستشيرك فقال جبرئيل : يا ملك الموت أما ترى أبواب السماء مفتّحة لروح محمّد ؟ أما ترى الحور العين قد تزيّنت لمحمّد ، ثمَّ نزل جبرئيل على النبيِّ صلى الله عليه وآله فقال : السلام عليك يا أحمد ، السلام عليك يا محمّد ، السلام عليك يا أبا القاسم ، فقال : وعليك السلام يا حبيبي جبرئيل إنَّ ملك الموت استأذن عليَّ فأذنت له فأراد قبض روحي فاستنظرته مجيئك ، فقال له جبرئيل: يا محمّد إنَّ ربّك مشتاق وما استأذن ملك الموت على أحد قبلك ولا يستأذن على أحد بعدك فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله : يا جبرئيل إنَّ ملك الموت قد خيّرني عن ربّي بين لقائه وبين الرُّجوع إلى الدُّنيا فما ترى يا حبيبي جبرئيل ؟ فقال جبرئيل : يا محمّد « والآخرة خير لك من الأُولى ولسوف يعطيك ربّك فترضى » لقاء ربّك خيرٌ لك فقال النبيُّ صلى الله عليه وآله : لقاء ربّي خيرٌ لي ، لا تبرح يا حبيبي جبرئيل حتّى يجيء ملك الموت فما كان إلّا ساعة حتّى نزل ملك الموت فقال : السّلام عليك يا محمّد ، فقال : وعليك السلام يا ملك الموت ، ما تريد أن تصنع ؟ قال : قبض روحك ، فقال : إمض لما أُمرت به ، فقال جبرئيل : يا محمّد هذا آخر يوم أهبط فيه إلى الدُّنيا فقال صلى الله عليه وآله

يا حبيبي جبرئيل أدن منّي فدنا منه فكان جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله وملك الموت قابض لروحه المقدّسة فقال جبرئيل : يا ملك الموت لا تعجل حتّى أعرج إلى ربّي وأهبط ، فقال ملك الموت : قد صارت روحه في موضع لا أقدر على تأخيرها فعند ذلك قال جبرئيل : يا محمّد هذا آخر هبوطي إلى الدُّنيا إنّما كنت حاجتي فيها والآن أصعد إلى السّماء ولا أنزل إلى الأرض أبداً ، ثمَّ إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لعليّ عليه السلام : اُدن منّي يا أخي فقد جاء أمر الله فدنا منه حتّى أدخله تحت ثوبه الّذي عليه ووضع عليه السلام فاه في اُذنه فناجاه طويلاً حتّى خرجت نفسه الطيّبة صلّى الله عليه وآله وسلّم وكان عليه السلام كلّما كشف الثوب عن وجهه نظر إلى جبرئيل عليه السلام فقال : عند الشدائد لِمَ تخذلني يا حبيبي فقال جبرئيل يا محمّد « إنّك ميّت وإنّهم ميّتون » « كلّ نفس ذائقة الموت » ثمّ قال جبرئيل : يا ملك الموت احفظ وصيّة الله في روح محمّد ، فلمّا قضى نحبه ويد عليّ تحت حنكه الشريف ففاضت نفسه الشريفة فيها فمسح بها وجهه ووجّهه إلى القبلة وغمّض عينيه ثمّ انسلَّ عليه السلام من تحت الثوّب المغطّى به وهو يبكي و قال لمن حضر : أعظم الله اُجوركم في نبيّكم فقد قبضه الله إليه .

قال : فارتفعت أصوات النّاس بالبكاء والنحيب ، ثمَّ إنَّ أمير المؤمنين عليه السلام استدعى الفضل بن عبّاس وأمره أن يناوله بعد أن عصّب عينيه ثمَّ غسّله صلوات الله عليه كما أمره فلمّا فرغ من غسله حنّطه و كفّنه ، واختلف أصحابه وأهل بيته في أفضل البقاع و إنّي لدافنه في البيت الّذي قبض فيه[1] ، ثمَّ إنَّ العبّاس بن عبد المطّلب بعث إلى عبيدة بن الجرّاح وكان يحفر لأهل مكّة القبور و ضرّح وكان ذلك عادة أهل مكّة و بعث عليّ عليه السلام يزيد بن سهل يحفر له لحداً في حجرته ، ثمَّ إنَّ عليّاً عليه السلام وضع رسول الله على سريره على شفير قبره ، ثمَّ إنّه صلّى عليه وحده لم يشرك أحد في الصلاة عليه فكان المسلمون يخوضون فيمن يؤمّهم في الصّلاة عليه وأين يدفن فخرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى من كان في المسجد من بني هاشم والمهاجرين والأنصار ممّن لم يحضر السقيفة وقال : إنَّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إمامنا حيّاً

(١) كذا . وفي بعض النسخ [اني لادفنه ....] .

وميّتاً فليدخل إليه منكم فوج فوج فيصلّون عليه وإنّ الله تعالى لم يقبض نبيّاً من أنبيائه في مكان إلّا ارتضاه لرمسه فيه و إنّي لدافنه في حجرته الّتي قبض فيها فأطاعه القوم و رضوا بقوله، ثمّ إنّ أمير المؤمنين عليه السلام نزل القبر هو و العبّاس ابن عبد المطّلب والفضل بن عبّاس فنادت الأنصار من وراء البيت : يا عليّ إنّا نذكّرك الله وحقّنا اليوم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يذهب أدخل منّا رجلاً يكون لنا حظّ في مواراة رسول الله فقال عليه السلام : ليدخل اُوس بن خولي وكان بدريّاً فاضلاً من الخزرج، فلمّا دخل قال له عليّ عليه السلام : انزل القبر فنزل فوضع أمير المؤمنين عليه السلام رسول الله على يديه و دلاه في حفرته فلمّا حصل في الأرض قال له : اُخرج يا اُوس فخرج ونزل عليّ عليه السلام القبر و كشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ووضع خدّه الأيمن على الأرض موجّهاً إلى القبلة، ثمّ وضع عليه اللّبن وأهال عليه التراب.

و كان وفاته صلى الله عليه وآله وسلم يوم الأثنين لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة إحدى عشرة من الهجرة وهو ابن ثلاث وستّين سنة. وفات أكثر الناس الصّلاة عليه ولم يحضروا دفنه واشتغلوا بأمر الخلافة في سقيفة بني ساعدة واغتنم أبو بكر الفرصة لعلمه أنّه لو توانى عن طلب الخلافة حتّى يفرغ أمير المؤمنين من تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أن يحكموا أمرهم لم يستتمّ لهم ما يريدون فسبقوا إلى ولاية الأمر وذلك لاختلاف الأنصار فيما بينهم و كراهية الطلقاء والمنافقين والمؤلّفة قلوبهم لأمير المؤمنين عليه السلام وعلموا إنّ تأخّر الأمر حتّى يفرغ بنو هاشم من تجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم استقرّ الأمر مقرّه ويتولّى الأمر أمير المؤمنين عليه السلام فيخيبوا ممّا أملوه ولذلك سابقوا إلى طلب الخلافة - القصّة بطولها أخذنا منها موضع الحاجة ممّا يتعلّق بوفاته صلى الله عليه وآله وسلم دون ما يتعلّق بأمر الخلافة فإنّه ليس هنا محلّ ذكر ذلك.

✿ (الباب الخامس) ✿

✿ (في كلام المحتضرين من الصّالحين) ✿

أقول : وقد ذكر أبو حامد في هذا الباب أقاويل الصحابة والتّابعين وطائفة من الصوفيّة عند موتهم وبكاء بعضهم حينئذ وضحك بعضهم ونسب إلى بعضهم الطرب

والاستبشار والسرور عند موته مع أنّه ذكر في باب وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه اشتدّ في النزع كربه وظهر أنينه وترادف قلقه وارتفع حنينه وتغيّر لونه وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط شماله ويمينه حتّى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدّة حاله من شاهد منظره ، ولم يمهله ملك الموت ساعة وذكر في الحكايات السابقة أنّ ملك الموت أمهل رجلاً حتّى توضّأ وصلّى ركعتين وذكر في شأن الخليل والكليم في باب سكرات الموت ما سمعت وهذا من أعجب العجائب ولنطو ما ذكره في هذا الباب طيّاً فإنّ بعضه كلمات لاطائل تحتها وبعضه رعونات ودعاوي ، ينادي أكثرها بالإعجاب .

قال في آخر الباب : فهذه أقاويلهم وإنّما اختلف بحسب اختلاف أحوالهم فغلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرّجاء وعلى بعضهم الشوق والحبّ فتكلّم كلّ واحد من مقتضى حاله والكلّ صحيح بالإضافة إلى أحوالهم .

✡ (الباب السادس) ✡

✡ (في أقاويل العارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور) ✡

إعلم أنّ الجنائز عبرة للبصير ، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الفطنة فأمّا أهل الغفلة فإنّه لاتزيدهم مشاهدتها إلّا قساوة لأنّهم يظنّون أنّهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنّهم لا محالة على الجنائز يُحملون ، أو يحسبون ذلك ولكنّهم على القرب لايقدّرون ، ولا يتفكّرون أنّ المحمولين على الجنائز كلّهم هكذا كانوا يحسبون فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظرنّ عبد إلى جنازة إلّا وينبغي أن يعدّ نفسه محمولاً عليها فإنّه محمول عليها على القرب وكأن قد و لعلّه في غد أو بعد غد فروي عن بعضهم أنّه كان إذا رأى جنازة قال : امض و أنا على الأثر .

ثمّ ذكر أبو حامد مقالات قوم على الجنائز من هذا القبيل ، ثمّ قال : فهكذا كان خوفهم من الموت والآن لاننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلّا وأكثرهم يضحكون ويلهون ولا يتكلّمون إلّا في ميراثه وما خلّفه لورثته ولا يتفكّر أقرانه

وأقاربه إلّا في الحيلة الّتي بها يتناول بعض ما خلّفه ، ولا يتفكّر واحد منهم إلّاماشاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حملت عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلّا قساوة القلوب بكثرة المعاصي والذّنوب حتّى نسينا الله واليوم الآخر والأهوال الّتي بين أيدينا فصرنا نلهو و نغفل ونشتغل بما لايعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإنّ أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميّت ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميّت لأنّهم بالبكاء على أنفسهم أحرى من البكاء على الميّت .

فمن آداب حضور الجنائز التفكّر والتنبّه والاستعداد والمشي على هيئة التواضع كما ذكرنا آدابه وسننه في فنّ الفقه ومن آدابه حسن الظنّ بالميّت وإن كان فاسقاً وإساءة الظنّ بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح فإنّ الخاتمة مخطرة لايدرى حقيقتها ، ولذلك روى عمر بن ذرّ أنّه مات واحد من جيرانه وكان مسرفاً على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلّى عليه فلمّا أدلى في قبره وقف على قبره وقال : رحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفّرت وجهك بالسجود وإن قالوا : مذنب وذو خطايا فمن منّا غير مذنب وغيرذي خطايا ، وحكي أنّ رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذلم يدربه أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت حمّالين وحملوه إلى المصلّى فما صلّى عليه أحدٌ فحملوه إلى الصحراء للدّفن وكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزّهّاد الكبار فرآه كالمنتظر للجنازة فقصد أن يصلّي عليه فانتشر الخبر في البلد بأنّ الزاهد نزل ليصلّي على فلان فخرج أهل البلد فصلّى الزّاهد وصلّوا عليه وتعجّب الناس من صلاة الزّاهد عليه ، فقال لهم : قيل لي في المنام : انزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها إلّا امرأة فصلّ عليه فإنّه مغفورٌ له فزاد تعجّب الناس فاستدعى الزّاهد امرأته وسألها عن حاله وإنّه كيف كانت سيرته ، قالت : كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولاً بشرب الخمر ، فقال: انظري هل تعرفين منه شيئاً من أعمال الخير ، قالت : نعم ثلاثة أشياء كان كلّ يوم يفيق عن سكره وقت الصبح فيبدّل ثيابه ويتوضّأ ويصلّي الصبح بالجماعة

ثمَّ يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق . والثاني أنّه كان أبداً لايخلو بيته عن يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقّد لهم. والثالث أنّه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام اللّيل فيبكي ويقول : يارب أيُّ زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث ويعني به نفسه فانصرف الزّاهد وارتفع إشكاله في أمره .

✿ (بيان أحوال القبر وأقاويلهم على القبور) ✿

قال الضحاك : قال رجل يا رسول الله : « من أزهد الناس ؟ قال : من لم ينس القبر والبلى ، وترك فضل زينة الدّنيا ، وآثر مايبقى على مايفنى ، ولم يعد غداً من أيّامه ، وعدَّ نفسه من أهل القبور [(١)] » .

وقيل لعليّ عليه السلام : ماشأنك جاورت المقبرة قال : « إنّي أجدهم خير جيران إنّي لأجدهم جيران صدق يكفّون الألسنة ويذكرون الآخرة » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « مارأيت منظراً إلّا والقبر أفظع منه [(٢)] » .

وقال أبو ذرّ : ألا اُخبر كم بيوم فقري يوم اوضع في قبري [(٣)] .

و كان أبو الدّرداء يقعد إلى القبور و قيل له في ذلك ، قال : أجلس إلى قوم يذكّرونّي معادي ، وإن قمت لم يغتابوني [(٤)] » .

و قال أبان بن أبي عيّاش التيمي : حضر الحسن مع أصحابه في جنازة النوّار بنت أعين بن صبيعة امرأة الفرزدق للرّغبة في الخير أو رهبة من لسان الفرزدق فلمّا صلّوا عليها أتوا بها فجلس الحسن ناحية وأصحابه والفرزدق ناحية وأصحابه ، فقال الفرزدق للحسن : يا أبا سعيد يزعم الناس أنّه حضر في هذه الجنازة خير الناس وشرُّ النّاس ، فقال الحسن : ومن يعنون به يا أبافراس ؟ قال الفرزدق : يعنون أنّي شرُّ الناس وأنّك خير النّاس فقال الحسن : كلّا ما أنا بخير الناس ولا أنت بشرّ

(١) رواه ابن ابي الدنيا في القبور مرسلا كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص١٥٨.

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٢٦٧ من حديث عثمان بن عفان .

(٣) و(٤) تقدما في المجلد الثالث ص٤١٨ .

الناس ، ثمّ قال : يا أبا فراس ما قدّمت لهذه الحفرة ؟ قال : شهادة أن لا إله إلّا الله ثمانون سنة ، فقال الحسن : خذوها من غير فقيه ، ثمّ قال : ياأبا فراس هذا العمود فأين الأطناب ؟ يعني هذا القول فأين العمل ؟ ثمّ قال الفرزدق : يا أبا سعيد أبيات عرضت لي تسمعها فقال : هات فإنّك تحسن أن تقول فأنشأ ويقول :

أخاف وراء القبر إن لم تعافني ✫ أشدّ من القبر إلتهاباً و أضيقا
إذا جاءني يوم القيامة قائد ✫ عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد آدم من مشى ✫ إلى النّار مغلول القلادة أزرقا
يقاد إلى نار الجحيم مسربلاً ✫ سرابيل قطران لباساً محرّقا
إذا شربوا فيها الصديد رأيتهم ✫ يذوبون في حرّ الصديد يمزّقا

قال : فما رجع الناس إلّا باكين من قول الفرزدق حتّى خضبوا لحاهم وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها ✫ من منكم المغمور في ظلماتها
ومن المكرّم منكمُ في قعرها ✫ قد ذاق برد الأمن من روعاتها
أمّا السّكون لذي القبور فواحد ✫ لايستبين الفضل في درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسن ✫ تصف الحقائق بعد من حالاتها
أمّا المطيع فنازل في روضة ✫ يفضي إلى ماشاء من دوحاتها
والمجرم الطاغي بها متقلّب ✫ في حفرة يأوي إلى حيّاتها
وعقارب تسعى إليه فروحه ✫ في شدّة التعذيب من لدغاتها

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد كلمات طائفة من هذا القبيل ثمّ ذكر أبيات وجدت مكتوبة على القبور ، منها :

تناجيك أجداث وهنّ سكوت ✫ وسكّانها تحت التراب خفوت
أيا جامع الدّنيا لغير بلاغة ✫ لمن تجمع الدّنيا و أنت تموت

منها :

إنّ الحبيب من الأحباب مختلس ✫ لايمنع الموت بوّاب ولا حرس

فكيف تفرح بالدُّنيا ولذَّتها ✿ يا من يعدُّ عليه اللّحظ والنفس
أصبحت ياغافلاً في النقص منغمساً ✿ وأنت دهرك في اللّذات منغمس
لاتأمن الموت في طرف ولا نفس ✿ وإن تستّرت بالحجّاب والحرس
لايرحم الموت ذا جهل لغرَّته ✿ ولا الّذي كان منه العلم مقتبس
كم أخرس الموت في قبر وقفت به ✿ عن الجواب لساناً ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف ✿ فقبرك اليوم في الأجداث مندرس

ومنها غير ذلك :

قال أبو حامد : فهذه أبيات كتبت على القبور لتقصير سكّانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الّذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستعدُّ للّحوق بهم ويعلم أنّهم لايبرحون من مكانهم مالم يلحق بهم وليتحقّق أنّه لو عرض عليهم يوم واحد من أيّام عمره الّذي هو مضيّع له لكان ذلك أحبَّ إليهم من الدُّنيا بحذافيرها لأنّهم قد عرفوا قدر الأعمار وانكشف لهم حقائق الاُمور وإنّما حسرتهم ليوم من العمر ليتدارك المقصّر فيه تقصيره فيتخلّص عن العقاب ، و ليستزيد الموفّق به رتبته فيتضاعف له الثواب ، فإنّهم إنّما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعهم فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة و لعلّك تقدر على أمثالها ثمَّ أنت مضيّع لها ، فوطّن نفسك على التحسّر على تضييعها عند خروج الامر من الاختيار إن لم تأخذ نصيبك من ساعاتك على سبيل الاستبداد فقد قال بعض الصّالحين : « رأيت أخاً لي في الله فيما يرى النائم فقلت : يا فلان عشت حميداً الحمد لله ربِّ العالمين قال : لأن أقدر على أن أقولها يعني الحمد لله ربِّ العالمين أحبُّ إليَّ من الدُّنيا ومافيها ، ثمّ قال ، ألم تر حيث كانوا يدفنونني فإنَّ فلاناً قدقام فصلّى ركعتين لأن أكون أقدر على أن اُصلّيهما أحبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها .

✿ (بيان أقاويلهم عند موت الولد) ✿

حقٌّ على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله بعد تقدُّمه عليه في الموت منزلة ما لو كانا في سفر فسبقه ولده إلى البلد الّذي هو مستقرُّه ووطنه فإنّه

لايعظم عليه تأسّفه لعلمه بأنّه لاحق به على القرب و ليس بينهما إلّا تقدّم وتأخّر، وهكذا الموت فإنّ معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخّر ، وإذا اعتقد هذا قلّ جزعه وحزنه لاسيما و قد ورد في موت الولد من الثواب مايتعزّى به كلّ مصاب قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : «لأن اُقدّم سقطاً أحبّ إليّ من أن اُخلّف مائة فارس كلّهم يقاتل في سبيل الله [1] » وإنّما ذكر السقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وإلّا فالثواب على قدر محلّ الولد من القلب .

أقول : و عن الصّادق عليه السلام : « ولد يقدّمه الرّجل أفضل من سبعين ولداً يخلّفهم بعده كلّهم قد ركبوا الخيل وجاهدوا في سبيل الله » [2] .

وعنه عليه السلام « من قدّم من المسلمين ولدين يحتسبهما عند الله حجباه من النار بإذن الله [3] » .

وقال عليه السلام : « إنّ الله إذا أحبّ عبداً قبض أحبّ ولده إليه [4] » .

وقال عليه السلام : « ثواب المؤمن من ولده إذا مات الجنّة ، صبرأولم يصبر [5] » .

وقال عليه السلام : «إنّ الله ليعجب من الرّجل يموت ولده وهو يحمدالله فيقول : يا ملائكتي عبدي أخذت نفسه وهو يحمدني [6] » .

قال أبو حامد : و قال زيد بن أسلم : « توفّي ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزناً شديداً فقيل له : ما كان عدله عندك ؟ قال : ملء الأرض ذهباً قيل له : فإنّ لك من الأجر مثل ذلك . وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « لا يمّوت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلّا كانوا له جنّة من النار ؛ فقالت امرأة عند رسول الله صلّى الله عليه وآله : أو اثنان قال : أو اثنان [7] » وليخلّص الوالد الدّعاء لولده عند الموت فإنّه

(١) ما عثرت عليه الاعلى ما أخرجه ابن ماجه فى السنن تحت رقم ١٦٠٧ هكذا « لسقط اقدمه بين يدى أحب الى من فارس أخلفه خلفى » .

(٢) الكافى ج ٣ ص ٢١٨ تحت رقم ١ .

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) الكافى ج ٣ ص ٢١٩ و٢٢٠ تحت رقم ٦و٥ و٨و٩ .

(٧) أخرجه البخارى ج ٢ ص ٨٨ من حديث ابى سعيد الخدرى ورواه عبدالله بن احمد والطبرانى فى الكبيروابويعلى ورجاله ثقات كما فىمجمع الزوائد ج ٣ ص ٨ .

أرجى دعاء، وأقربه إلى الاستجابة .

وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال : اللّهمّ إنّي أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحقّق رجائي وآمن خوفي . ووقف أبوسنان على قبر ابنه فقال: اللّهمّ إنّي قد غفرت له ما وجب لي عليه من حقّي فاغفر له ما وجب لك عليه فإنّك أجود وأكرم . ووقف أعرابيٌّ على قبر ابنه فقال : اللّهمّ إنّي وهبت له ما قصّر فيه من برّي فهب له ما قصّر فيه من طاعتك .

ولمّا مات ذرّ بن عمر بن ذرّ قام أبوه عمر بن ذرّ بعدما وضع في لحده فقال . يا ذرّ لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شعري ماذا قلت وماذا قيل لك؟ اللّهمّ إنّ هذا ذرّ متّعتني به ما متّعتني ووفّيته أجله ورزقه ولم تظلمه ، اللّهمّ وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتي ، اللّهمّ وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبتي فقد وهبت له ذلك فهب له عذابه ولا تعذّبه، فأبكى النّاس ثمّ قال عند انصرافه :ماعلينا من بعدك خصاصة يا ذرّ ومابنا إلى إنسان مع الله حاجة فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك .

ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلّا من قلّة الحزن ، فقالت : يا عبدالله إنّي لفي حزن شديد ما يشركني فيه أحدٌ ، قال : وكيف ؟ قالت : إنّ زوجي ذبح شاة في يوم الأضحى وكان له صبيّان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر : أتريد أن اُريك كيف أبي يذبح الشاة قال : نعم فأخذه وأضجعه ثمّ ذبحه فماشعرنا به إلّا متشحّطاً في دمه[1] فلمّا ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فرهقه[2] ذئب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشاً من شدّة الحرّ قالت : فأفردني الدّهر كما ترى . فأمثال هذه المصائب ينبغي أن يتذكّر عند موت الأولاد ليتسلّى به عند شدّة الجزع فما من مصيبة إلّا ويتصوّر ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كلّ حال فهو الأكثر .

---

(١) التشحيط الاضطراب في الدم .

(٢) رهقه أي لحقه أودنا منه سواء أخذ أو لم يأخذ .

(بيان زيارة القبور والدعاء للميّت وما يتعلّق به)

إعلم أنّ زيارة القبور مستحبّة على الجملة للتذكّر والاعتبار وزيارة قبور الصّالحين مستحبّة لأجل التبرّك مع الاعتبار ، وقد كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم نهى عن زيارة القبور ثمّ أذن فيها [١] .

فقد روى عليّ عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنّ في زيارتها تذكرة للآخرة غير أن لا تقولوا هجراً » [٢].

وزار رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قبر أمّه في ألف مقنّع فلم ير باكياً أكثر من يومه [٣] »

وقال أبوذرّ - رضي الله عنه - : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « زر القبور تذكّر بها الآخرة و اغسل الموتى فإنّ في معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة ، وصلّ على الجنائز لعلّ ذلك أن يحزنك فإنّ الحزين في ظلّ الله » [٤] قال ابن أبي مليكة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «زوروا موتاكم فسلّموا عليهم فإنّ لكم فيهم عبرة [٥] ».

وعن جعفر بن محمّد ، عن أبيه عليهما السلام « إنّ فاطمة بنت النبيّ كانت تزور قبر عمّها حمزة في الأيّام فتصلّي وتبكي عنده » .

أقول وفي الفقيه « إنّها عليها السلام تأتي قبور الشهداء كلّ غداة سبت فتأتي قبر حمزة فترحّم عليه وتستغفر له [٦] » .

وروي عن محمّد بن مسلم أنّه قال : «قلت لأبي عبد الله عليه السلام : الموتى نزورهم ؟

---

(١) مسلم ج ٣ ص ٦٥ من حديث بريدة

(٢) رواه احمد وابو يعلى دون قوله : « ولاتقولوا هجراً » ورواه بتمامه الطبراني فى الكبير و الاوسط بهذه الزيادة من حديث ابن عباس كما فى مجمع الزوائد ج ٣ ص ٥٨ و ٥٩ .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ٣٧٥ وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين .

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك ج ١ ص ١٧٧ .

(٥) أخرجه ابن أبى الدنيا فى القبور مرسلا واسناده حسن . (المغنى)

(٦) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٣٦ .

فقال : نعم ، قلت : فيعلمون بنا إذا أتيناهم ؟ فقال : إي والله إنّهم ليعلمون بكم ويفرحون بكم ويستأنسون إليكم ، قال : فأيّ شيء نقول إذا أتيناهم ؟ قال : قل: « اللّهمّ جاف الأرض عن جنوبهم وصاعد إليك أرواحهم ولقّهم منك رضواناً واسكن إليهم من رحمتك ما تصل به وحدتهم و تونس به وحشتهم إنّك على كلّ شيء قدير (١) » .

وقال الرّضا عليه السلام : « ما من عبد زار قبر مؤمن فقرأ عليه إنّا أنزلناه في ليلة القدر سبع مرّات إلّا غفر الله له ولصاحب القبر (٢) » .

قال أبو حامد : و قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من زار قبر أبويه أو أحدهما في كلّ جمعة غفر له و كتب عند الله بارّاً (٣) » .

وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنّ الرّجل ليموت والداه وهو عاقّ بهما فيدعو الله لهما من بعد موتهما فيكتبه الله من البارّين (٤) » .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي (٥) » .

وقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة (٦) » .

وقال كعب : ما من فجر يطلع إلّا وينزل سبعون ألفاً من الملائكة حتّى يحفّوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلّون على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم ذلك فصنعوا مثل ذلك حتّى إذا انشقّت الأرض خرج في سبعين ألفاً من الملائكة يوقّرونه .

---

(١) و(٢) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٣٩ و ٤٠ .

(٣) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف كما في الجامع الصغير.

(٤) قال العراقي : رواه ابن ابي الدنيا في القبور وهومرسل صحيح الاسناد .

(٥) رواه البزار في مسنده من حديث عبدالله بن ابراهيم الغفاري كما في مجمع الزوائد ج ٤ ص ٢

(٦) روى نحوه الطبراني من حديث ابن عمر، وصححه ابن السكن . (المغني) .

أقول : ثمّ ذكر أبو حامد ما يتعلّق بزيارة القبور من الآداب وغيرها ممّا لا نعتمد عليه فلنعرض عنه ونذكر مكانه ما ورد من طريق الخاصّة فعن الصادق عليه السلام « أنّه سئل كيف التسليم على أهل القبور ؟ فقال : نعم تقول : « السلام على أهل الدّيار من المؤمنين والمسلمين أنتم لنا فرط ونحن إن شاء الله بكم لاحقون[1] ».

وقد ورد في زيارة الميّت أهله أخبار عن أهل البيت عليهم السلام وهذا ممّا لم يذكره أبو حامد وكأنّه لم يصل إليه منه شيء، ففي الفقيه « سأل إسحاق بن عمّار أبا الحسن الأوّل عليه السلام عن المؤمن يزور أهله ؟ فقال : نعم ، قال : في كم ؟ قال : على قدر فضائلهم منهم من يزور في كلّ يوم ، ومنهم من يزور في كلّ يومين ، ومنهم من يزور في كلّ ثلاثة أيّام قال : رأيت في مجرى كلامه أنّه يقول : أدناهم جمعة فقال له في أيّ ساعة ؟ قال : عند زوال الشّمس أو قبيل ذلك فيبعث الله معه ملكاً يريه مايسرّ به ويستر عنه ما يكرهه فيرى سروراً ويرجع إلى قرّة عين[2] ».

وروى حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام « أنّ الكافر يزور أهله فيرى ما يكرهه ويستر عنه ما يحبّ[3] ».

قال أبو حامد : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما الميّت في قبره إلّا كالغريق المتغوّث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له فإذا لحقته كانت أحبّ إليه من الدّنيا وما فيها وإنّ هدايا الأحياء للأموات الدّعاء والاستغفار[4] ».

وقال بعضهم : مات أخ لي فرأيته في المنام فقلت له : ما كان حالك حين وضعت في قبرك ؟ قال : أتاني آت بشهاب من نار فلو لا أنّ داعياً دعا لي لرأيت أنّه سيصيبني شيء منه .

أقول : في الفقيه قال عمر بن يزيد : « قلت لأبي عبدالله عليه السلام : أيصلّى عن الميّت ؟ قال : نعم حتّى أنّه ليكون في ضيق فيوسّع الله عليه ذلك الضيق ثمّ يؤتى

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٢٩ تحت رقم ٥ .

(٢) و(٣) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٤١و٤٢ .

(٤) أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس (المغني)

فيقال له : خفّف عنك هذا الضيق بصلاة فلان أخيك عنك قال : فقلت له : فأشرك بين رجلين في ركعتين؟ قال : نعم ، فقال عليه السلام : إنّ الميّت ليفرح بالترحّم عليه والاستغفار له كما يفرح الحيّ بالهديّة تهدى إليه (١) » .

وقال عليه السلام : « من عمل من المسلمين عن ميّت عملاً صالحاً أضعف له ونفع الله به الميّت (٢) » .

قال أبو حامد : وعن هذا يستحبّ تلقين الميّت بعد الدّفن والدّعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي : شهدت أباأمامة الباهليّ وهوفي النزع فقال : يا أباسعيد : إذا متّ فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : « إذا مات أحدكم فسوّيتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثمّ يقول : يافلان بن فلان - وإنّه يسمع ولا يجيب - ثمّ ليقل يا فلان بن فلانة - الثانية - فإنّه يستوي قاعداً ثمّ ليقل : يا فلان ابن فلانة - الثالثة - فإنّه يقول : أرشدنا رحمك الله - ولكن لاتسمعون - فيقول له : اذكر العهد الّذي خرجت عليه من الدّنيا شهادة أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّداً رسول الله وأنّك رضيت بالله ربّاً ، و بالاسلام ديناً ، و بمحمد نبيّاً ، وبالقرآن إماماً فإنّ منكراً ونكيراً يتأخّر كلّ واحد منهما فيقول : انطلق بنا نقعد عند هذا ولقد لقّن حجّته ويكون الله تعالى حجيجه دونهما ، فقال رجل : يا رسول الله فإن لم يعرف اسم اُمّه قال : فلينسبه إلى حوّاء » (٣) والمقصود من زيارة القبور للزّائرين الاعتبار وللمزور الانتفاع بدعائه فلا ينبغي أن يغفل الزّائر عن الدّعاء لنفسه وللميّت ولا عن الاعتبار به وإنّما يحصل له الاعتبار بأن يصوّر في قلبه الميّت كيف تفرّقت أجزاؤه و كيف يبعث من قبره وأنّه على القرب سيلحق به كما روي عن مطرف ابن أبي بكر الهذلي قال : كانت عجوز في بني عبد قيس متعبّدة فكانت إذا جاء اللّيل تحزّمت (٤) ثمّ قامت إلى المحراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنّها

---

(١) و(٢) المصدر باب التعزية والجزع تحت رقم ٥٣و٥٥ .

(٣) أخرجه الطبراني فى الكبير بسند مجهول كما فى مجمع الزوائد ج ٣ص٤٥ .

(٤) تحزم أى شد وسطه بحبل أو شبهه .

عوتبت في كثرة إتيانها المقابر فقالت : إنّ القلب إذا قسا لم يلينه إلّا رسوم البلى وإنّي لأتى القبور فكأنّي أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها و كأنّي أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة ، وإلى تلك الأجسام المتغيّرة ، وإلى تلك الأكفان الدّسمة فيالهامن نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ، ما أنكل مرارتها للأنفس ، وأشدّ تلفها للأبدان .

ويستحبّ أيضاً الثناء على الميّت وأن لايذكر إلّا بالجميل، قالت عائشة : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه [١] » وقال ﷺ : « لاتسبّوا الأموات فتؤذوا الأحياء [٢] » «لاتسبّوا الأموات فإنّهم قد أفضوا إلى ما قدّموا [٣] » .

وقال ﷺ « لاتذكروا أمواتكم إلّا بخير فإنّهم إن يكونوا من أهل الجنّة تأثموا وإن يكونوا من أهل النّار فحسبهم ما هم فيه [٤] » .

✿ (الباب السابع) ✿

✿ (في حقيقة الموت وما يلقاه الميّت في القبر إلى نفخة الصور) ✿

بيان حقيقة الموت: اعلم أنّ للناس في حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد أخطأوا فيها فظنّ بعضهم أنّ الموت هو العدم وأنّه لاحشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشرّ وأنّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأي الملحدين وكلّ من لايؤمن بالله واليوم الآخر ، وظنّ قوم أنّه ينعدم بالموت ولا يتألّم بعقاب ولا يتنعّم بثواب ما دام في القبر إلى أن يعاد في وقت الحشر ، وقال آخرون : إنّ الرّوح باقية لاتنعدم بالموت وإنّما المثاب والمعاقب هي الأرواح دون الأجساد وإنّ

(١) اخرجه ابوداود ج ٢ ص ٥٧٣ من السنن .

(٢) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ١٥١ وأحمد فى مسنده من حديث المغيرة .

(٣) أخرجه البخارى ج ٣ ص ١٢٣ من حديث عائشة. وأحمد ج ٦ ص ١٨٠ من مسنده أيضاً .

(٤) قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة و هو عندالنسائى جيد مقتصراً هكذا « لاتذكروا موتاكم الابخير » . و ذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى .

الأجساد لاتبعث ولا تحشر أصلاً ، و كلّ هذه الظنون فاسدة و مائلة عن الحقّ ، بل الّذي يشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أنّ الموت معناه تغيّر حال فقط وأنّ الرّوح باقية بعد مفارقة الجسد إمّامعذّبة وإمّا منعّمة ، ومعنى مفارقتها للجسدانقطاع تصرّفها عن الجسدبخروج الجسد عن طاعتها فان الأعضاء آلات للروح تستعملها حتّى أنّها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقةالأشياء بالقلب والقلب ههناعبارةعن الرّوح والرّوح تعلم الأشياء بنفسها من دون آلة و كذلك قدتتألّم بنفسهابأنواع الحزن والكمد ، وتتنعّم بأنواع الفرح والسّرور و كلّ ذلك لايتعلّق بالأعضاء فكلّ ما هو وصف للرّوح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطّل بموت الجسد إلى أن تعاد الرّوح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخّر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كلّ عبد من عباده ، وإنّما تعطّل الجسد بالموت يضاهي تعطّل أعضاء الزمن بفساد مزاج يقع فيه ولشدّة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الرّوح فيها فيكون الرّوح العالمة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلّها ، و كلّ الأعضاء آلات الرّوح وهي المستعملة لها وأعني بالرّوح المعنى الّذي يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغموم ولذّات الأفراح ومهما بطل تصرّفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا تبطل منها الأفراح والغموم ، ولا يبطل منها قبولها الآلام واللّذّات والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام واللّذّات وذلك لايموت أي لاينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرّفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون له آلة كما أنّ معنى الزّمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة ، فالموت زمانة مطلقة في الأعضاء كلّها ، حقيقة الإنسان نفسه وروحه هي باقية نعم تغيّر حاله من جهتين إحداهما أنّه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه ، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه خيله ودوابّه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه

الأشياء فإنّ المؤلم هو الفراق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرّجل وتارة بأن يسبى الرّجل عن المال والألم واحد في الحالتين وإنّما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لايناسب هذا العالم فإن كان له في الدّنيا شيء يأنس به ويستريح إليه ويتقيّد بوجوده فيعظم تحسّره عليه بعد الموت ويتضاعف شقاؤه في مفارقته، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتّى إلى قميص كان يلبسه مثلاً ويفرح به وإن لم يكن يفرح إلّا بذكر الله ولم يأنس إلّا به عظم نعيمه وتمّت سعادته إذ خلّي بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل، إذ جميع أسباب الدّنيا شاغلة عن ذكر الله فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة، والثاني أنّه ينكشف له بالموت مالم يكن مكشوفاً له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقّظ ما لم يكن مكشوفاً له في النوم والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وأوّل ما ينكشف له ما يضرّه وينفعه من حسناته وسيّئاته وقد كان ذلك مسطوراً في كتاب مطوي في سرّ قلبه وكان يشغله عن الاطّلاع عليه شواغل الدّنيا فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيّئة إلّا ويتحسّر عليها تحسّراً يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من ألم تلك الحسرة، وعند ذلك يقال له: «كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً» وينكشف كلّ ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدّفن، وتشتعل فيه نيران الفراق أعني فراق ما كان يطمئنّ إليه من هذه الدّنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزّاد والبلغة فإنّ من طلب الزّاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزّاد إذ لم يكن يريد الزّاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدّنيا إلّا بقدر الضرورة وكان يودّ أن تنقطع ضرورته ليستغني عنه فقد حصل له ماكان يودّه واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدّفن ثمّ بعد الدّفن قد تردّ روحه إلى الجسد بأنواع آخر من العذاب وقد يعفى عنه ويكون حال المتنعّم بالدّنيا المطمئنّ إليها كحال من تنعّم عند غيبة ملك من الملوك في داره وملكه وحريمه اعتماداً على أنّ الملك يتساهل في أمره أو على أنّ الملك ليس يدري مايتعاطاه من قبيح أفعاله فأخذه الملك بغتة وعرض عليه

جريدة قد دوّن فيها جميع فواحشه وجناياته ذرّة ذرّة وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلّط وغيور على حُرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفّع إليه في العصاة عليه فانظر إلى حال هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف و الخجلة و الحياء و التحسّر و التندّم ، فهذا حال الميّت الفاجر المغترّ بالدّنيا المطمئنّ إليها قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته ، نعوذ بالله منه فإنّ الخزي و الافتضاح و هتك الستر أعظم من كلّ عذاب يحلّ بالجسد من الضرب و القطع و غيرهما ، فهذه إشارة إلى حال الميّت عند الموت شاهدها اُولو البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين و شهد لذلك شواهد الكتاب والسنّة ، نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة و معرفة حقيقة الحياة بمعرفة حقيقة الرّوح في نفسها و إدراك ماهيّة ذاتها و لم يؤذن الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يتكلّم فيها ولا أن يزيد على أن يقول «الرّوح من أمر ربّي» فليس لأحد من علماء الدّين أن يكشف عن سرّ الرّوح و إن اطّلع عليه و إنّما المأذون فيه ذكر حال الرّوح بعد الموت ، و يدلّ على أنّ الموت ليس عبارة عن انعدام الرّوح و انعدام إدراكها آيات و أخبار كثيرة أمّا الآيات فما ورد في الشهداء قال تعالى : «ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون فرحين (١)» ولما قتل صناديد العرب يوم بدر ناداهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : «يا فلان يا فلان قد وجدتُ ما وعدني ربّي حقّاً فهل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً ؟ فقيل : يا رسول الله أتناديهم و هم أموات ؟ فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : و الّذي نفسي بيده إنّهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلّا أنّهم لا يقدرون على الجواب (٢)» فهذا نصّ في بقاء روح الشقيّ و بقاء إدراكها ومعرفتها و الآية نصّ في بقاء أرواح الشّهداء ، ولا يخلو الميّت عن سعادة أو شقاوة و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : «القبر إمّا حفرة من حفر النّيران أو روضة من رياض الجنّة (٣)» و هذا نصّ صريح في أنّ الموت معناه تغيّر حال فقط

(١) آل عمران : ١٦٩ .
(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٣٦ من حديث عمر بن الخطاب .
(٣) أخرجه الترمذي وغيره وتقدم في الخوف والرجاء .

و أنّ ما سيكون من شقاوة الميّت وسعادته يتعجّل عند الموت من غير تأخّر وإنّما يتأخّر بعض أنواع العذاب و الثواب دون أصله .

و روى أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : « الموت القيامة من مات فقد قامت قيامته (١) » وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشيّة إن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة و إن كان من أهل النّار فمن النّار يقال : هذا مقعدك حتّى يبعثك الله إليه يوم القيامة (٢) » و ليس يخفى ما في مشاهدة المقعدين من عذاب و نعيم في الحال .

و قال عليّ عليه السلام : « حرام على كلّ نفس أن تخرج من الدّنيا حتّى تعلم من أهل الجنّة هي أم من أهل النّار (٣) » و لهذا قيل : إنّما مثل المؤمن حين تخرج نفسه و روحه مثل رجل كان في سجن فأخرج منه فهو يتفسّح في الأرض و يتقلّب فيها و هذا الّذي ذكره حال من تجافى عن الدّنيا و تبرّم بها و لم يكن له اُنس إلّا بذكر الله وكانت شواغل الدّنيا تحبسه عن محبوبه و مقاساة الشهوات تؤذيه فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات و انفراده بمحبوبه الّذي كان به اُنسه من غير عائق و لا دافع ، وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللّذّات و أكمل اللّذّات للشهداء الّذين قتلوا في سبيل الله لأنّهم ما أقدموا على القتال إلّا قاطعين التفاتهم عن علائق الدّنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فإن نظر إلى الدّنيا فقد باعها طوعاً بالآخرة و البايع لايلتفت قلبه إلى المبيع و إن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها و تشوّق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه و ما أقلّ التفاته إلى ما باعه إذا فارقه ، و تجرّد القلب لحبّ الله قد يتّفق في بعض الأحوال و لكن لا يدركه الموت عليه فيتغيّر ، و القتال سبب الموت فكان سبباً لإدراك الموت

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا فى الموت باسناد ضعيف . (المغنى)

(٢) أخرجه البخارى ج ٢ ص ١١٨ .

(٣) لم أجده وتقدم ص ٢٦٠ نحوه عن النبى صلى الله عليه وآله و راجع المجلد الثالث من بحار الانوار باب مايعاين المؤمن والكافر عند الموت .

على مثل هذه الحالة فلهذا أعظم فيه النّعيم إذ معنى النّعيم أن ينال الإنسان ما يريده و قال الله تعالى : « و لهم ما يشتهون [١] » فكان هذا أجمع عبارة لمعاني لذّات الجنّة و أعظم العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال تعالى : « وحيل بينهم و بين ما يشتهون[٢] » فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنّم وهذا النّعيم يدركه الشهيد عند انقطاع نفسه من غير تأخير ، و هذا الأمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين ، و إن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدلّ عليه و كلّ حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أُخرى فقد روي أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لجابر : ألا أُبشّرك ياجابر ؟ وكان قد استشهد أبوه يوم أُحد قال : بلى يا رسول الله بشّرك الله بالخير ، قال : إنّ الله أحيا أباك فأقعده بين يديه فقال تمنّ عليّ عبدي ماشئت أُعطيكه ، قال : يا ربّ ما عبدتك حقّ عبادتك أتمنّي عليك أن تردّني إلى الدّنيا فأُقاتل مع نبيّك في سبيلك فأُقتل فيك مرّة أُخرى قال له : إنّه قد سبق منّي أنّك إليها لاترجع [٣]» .

و اعلم أنّ المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما يكون الدّنيا بالإضافة إليه كالسجن و المضيق و يكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لايبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار و الأزهار و الطيور و الثمار فلايشتهي العود الى السجن المظلم وقد ضرب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لذلك مثلاً فقال لرجل مات :«أصبح هذا مرتحلاً عن الدّنيا وتركها لأهلها فان كان قد رضي فلايسرّه أن يرجع إلى الدّنيا كما لايسرّ أحدكم أن يرجع إلى بطن أُمّه[٤] » فعرّفك بهذا أنّ نسبة سعة الآخرة إلى الدّنيا كنسبة سعة الدّنيا إلى ظلمة الرّحم .

---

(١) النحل : ١٦ . (٢) سبأ : ٥٤ .

(٣) رواه الجزرى فى اسدالغابة وابن أبى الدنيا فى الموت . ونحوه ابن ماجه فى السنن تحت رقم ٢٨٠٠ .

(٤) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت من حديث عمرو بن دينار مرسلا و رجاله ثقات كما فى المغنى .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : «إنّ مثل المؤمن في الدّنيا كمثل الجنين في بطن اُمّه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتّى إذا رأى الضوء لم يحبّ أن يرجع إلى بطن امّه فكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربّه لم يحبّ أن يرجع إلى الدّنيا كما لايحبُّ الجنين أن يرجع إلى مكانه»(۱) و قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ فلاناً قدمات فقال : مستريح أو مستراح منه(۲)» أشار بالمستريح إلى المؤمن و بالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدّنيا منه .

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تفضحوا أمواتكم بسيّئات أعمالكم فإنّها تعرض على أوليائكم من أهل القبور(۳)» .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي باسناده ، عن الصادق عليه السلام قال : «تعرض الأعمال على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعمال العباد كلّ صباح أبرارها و فجّارها فاحذروها و هو قول الله : «اعملوا فسيرى الله عملكم و رسوله(٤)» و سكت(٥)» .

و عنه عليه السلام قال : «مالكم تسوؤن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ فقال رجل : كيف نسوؤه فقال : أما تعلمون أنّ أعمالكم تعرض عليه ، فإذا رأى فيه معصية ساءه ذلك فلا تسوؤا رسول الله و سرّوه(٦)» .

و باسناده عن عبدالله بن أبان الزّيّات و كان مكيناً عند الرضا عليه السلام قال : قلت للرّضا عليه السلام : «ادع الله لي و لأهل بيتي فقال : أولست أفعل ؟ و الله إنّ أعمالكم لتعرض عليّ كلّ يوم و ليلة ؟ قال : فاستعظمت ذلك فقال لي : أما تقرأ كتاب الله «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» قال : هو والله عليّ ابن أبي طالب عليه السلام(۷)» .

---

(۱) رواه ابن أبى الدنيا فى الموت كما فى المغنى .

(۲) أخرجه مسلم ج ۳ ص ٥٤ بلفظة مر عليه بجنازة فقال ذلك .

(۳) ابن أبى الدنيا والمحاملى باسناد ضعيف كمافى المغنى .

(٤) التوبة : ۱۰٦ .

(٥) و (٦) و (۷) المصدر ج ۱ ص ۲۱۹ تحت رقم ۱ و ۳ و ٤ .

قال أبو حامد قال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : « إنّ الميّت ليعرف من يغسّله و من يحمله و من يدفنه و من يدليه في قبره [١] ».

و قال صالح المرى : بلغني أنّ الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للرُّوح الّتي تخرج إليهم : كيف كان مأواك ، في أيّ الجسدين كنت في طيّب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير : أهل القبور يتوكّفون [٢] الأخبار فإذا أتاهم الميّت قالوا : ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم يأتكم أو ما قدم عليكم ؟ فيقولون : لا فيقول : إنّا لله و إنّا إليه راجعون سُلك به غير سبيلنا .

و عن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرّجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب .

و قال مجاهد: إنّ الرّجل ليسرّ بصلاح ولده في قبره .

و روى أبو أيّوب الأنصاري عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : « إنّ نفس المؤمن إذا قبضت تلقّاها أهل الرّحمة من عند الله كما يتلقّى البشير في الدّنيا يقولون انظروا أخاكم حتّى يستريح فإنّه كان في كرب شديد و يسألونه ماذا فعل فلان ؟ و ماذا فعلت فلانة ، و هل تزوّج فلان فإذا سألوه عن رجل مات قبله و قال : مات قبلي قالوا : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ذهب به إلى اُمّه الهاوية [٣] ».

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده الصحيح عن الصادق عليه السلام أنّه قيل له : « جعلت فداك يروون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش فقال : لا المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصلة طير و لكن في أبدان كأبدانهم [٤] » وفي رواية اُخرى عنه عليه السلام « فإذا قبضه الله صيّر تلك الرُّوح في قالب كقالبه في الدّنيا فيأكلون ويشربون فإذا قدم عليهم القادم عرفوه

---

(١) رواه أحمد فى مسنده من حديث رجل عن أبى سعيد بسند ضعيف كما فى الجامع الصغير.

(٢) توكف - بتشديد الكاف - : توقع يقال : مازلت أتوكفه حتى لقيته .

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت و الطبرانى فى مسند الشاميين باسناد ضعيف و رواه ابن المبارك فى الزهد موقوفاً على أبى أيوب باسناد جيد . كما فى المغنى .

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٤٤ تحت رقم ١ .

بتلك الصّورة الّتي كانت في الدّنيا [١] » وفي لفظ آخر « إنّهم في الجنّة على صور أبدانهم لو رأيته لقلت فلان [٢] » .

و في خبر آخر « إنَّ الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنّة يتعارف و يتساءل فإذا قدمت الرُّوح على الأرواح تقول : دعوها فإنّها قد أفلتت من هول عظيم ثمَّ يسألونها مافعل فلان وما فعل فلان ؟ فإن قالت لهم : تركته حيّاً ارتجوه، و إن قالت لهم : قد هلك ؟ قالوا : قد هوى هوى [٣] » .

✲(بيان كلام القبر للميت)✲

و كلام الموتى إمّا بلسان المقال أو بلسان الحال الّتي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان المقال في تفهيم الأحياء قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : « يقول القبر للميّت حين يوضع فيه : ويحك يا ابن آدم ما غرّك بي ألم تعلم أنّي بيت الفتنة و بيت الظلمة و بيت الوحدة و بيت الدّود ما غرّك بي إذ كنت تمرُّ بي فدّاداً فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب للقبر فيقول : أرأيت إن كان يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر فيقول القبر : إنّي إذاً أتحوّل عليه خضراً و يعود جسده نوراً و تصعد روحه إلى الله ، و الفدّاد هو الّذي يقدّم رجلاً و يؤخّر اُخرى كذلك فسّره الرّاوي [٤] » .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : « إنَّ للقبر كلاماً في كلِّ يوم يقول : أنا بيت الغربة أنا بيت الوحشة أنا بيت الدُّود أنا القبر أنا روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النّيران [٥] » و فيه حديث آخر طويل .

---

(١) الكافی ج ٣ ص ٢٤٥ تحت رقم ٦ .

(٢) روى نحوه البرقی فی المحاسن ص ١٧٧ .

(٣) الكافی ج ٣ ص ٢٤٤ تحت رقم ٣ .

(٤) أخرجه أبويعلى والطبرانی فی الكبير باسناد فيه ضعف كما فی مجمع الزوائد ج٣ ص ٤٦ وأماالفدّادقال فی النهاية الاثيرية : «ان الارض تقول للميت ربما مشيت علی فدّادا » قيل أراد ذا أمل كثير وخيلاء وسعی دائم .

(٥) المصدر ج ٣ ص ٢٤٢ تحت رقم ٢ .

(بيان عذاب القبر)

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على قبره منكّساً رأسه ثمّ قال : « اللّهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثاً ثمّ قال : إنّ المؤمن إذا كان في قُبُل من الآخرة بعث الله إليه ملائكة كأنّ وجوههم الشمس معهم حنوطه و كفنه فيجلسون مدّ بصره فإذا خرجت روحه صلّى عليه كلّ ملك بين السماء و الأرض و كلّ ملك في السّماء ، و فتحت أبواب السّماء فليس منها باب إلّا يحبّ أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه قيل : اي ربّ عبدك فلان فيقول : ارجعوه فأرُوه ما أعددت له من الكرامة فإنّي وعدته « منها خلقناكم و فيها نُعيدكم - الآية » و إنّه ليسمع خَفق نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتّى يقال : يا هذا من ربّك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيّك ؟ فيقول ربّي الله و ديني الإسلام ونبيّي محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، قال: فينتهره انتهاراً شديداً[1] وهي آخر فتنة تعرض على الميّت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت ، وهو معنى قوله تعالى : «يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثابت في الحيوة الدّنيا و في الآخرة [2] » ثمّ يأتيه آت حسن الوجه طيّب الرّيح حسن الثياب فيقول : أبشر برحمة من ربّك وجنّات فيها نعيم مقيم ، فيقول : وأنت فبشّرك الله بخير ، من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصّالح و الله ما علمت ان كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فجزاك الله خيراً ، قال : ثمّ ينادي مناد أن افرشوا له من فرش الجنّة و افتحوا له باباً إلى الجنّة فيفرش له فرش من الجنّة و يفتح له بابٌ إلى الجنّة فيقول : اللّهمّ عجّل قيام الساعة حتّى أرجع إلى أهلي و مالي ، قال : و أمّا الكافر فإنّه إذا كان في قُبل من الآخرة و انقطاع من الدّنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد ومعهم ثياب من نار و سرابيل من قَطِران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كلّ ملك بين السماء والأرض و كلّ ملك في السماء و غلقت أبواب السماء فليس منها باب إلّا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نبذ و قيل : اي ربّ عبدك فلان لم يقبله سماء ولا أرض

(١) نهر الرجل : زجره كانتهره . (٢) ابراهيم : ٢٦ .

فيقول الله : ارجعوه فأرُوه ما أعددت له من الشرّ إنّي وعدته « منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية » فإنّه ليسمع خَفْقَ نعالهم إذا ولّوا مدبرين حتّى يقال له : ياهذا من ربّك ؟ و ما دينك ؟ و من نبيّك ؟ فيقول : لا أدري ، فيقال : لادريت ثمّ يأتيه آت قبيح الوجه منتن الرّيح قبيح الثّياب فيقول : أبشر بسخط من الله و بعذاب أليم مقيم ، فيقول : بشّرك الله بشرّ من أنت فيقول : أنا عملك الخبيث و الله إن كنت لسريعاً في معصية الله بطيئاً عن طاعة الله فجزاك الله شرّاً ، فيقول : فأنت فجزاك الله شرّاً ، ثمّ يقيّض له أصمّ أعمى أبكم ، معه مرزبّة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلّوها لم يستطيعوا ، لو ضرب بها جبل صار تراباً فيضربه بها ضربة فيصير تراباً ، ثمّ تعود فيه الرّوح فيضربه بها عنقه ضربة يسمعها من على الأرض غير الثّقلين ، قال : ثمّ ينادي مناد أن افرشوا له لوحين من نار ، و افتحوا له باباً إلى النار ، فيفرش له لوحان من نار و يفتح له باب إلى النّار »(١).

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : « إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من أيّام الدّنيا و أوّل يوم من أيّام الآخرة مثّل له ماله و ولده وعمله فيلتفت إلى ماله فيقول : و الله إنّي كنت عليك حريصاً شحيحاً ، فما لي عندك ؟ فيقول : خذمنّي كفنك ، قال : فيلتفت إلى ولده فيقول : والله إنّي كنت لكم محبّاً وإنّي كنت لكم محامياً فما لي عندكم ؟ فيقولون: نؤدّيك إلى حفرتك فنواريك فيها ، قال : فيلتفت إلى عمله فيقول : و الله إنّي كنت فيك لزاهداً و إن كنت عليّ لثقيلاً فماذا عندك ؟ فيقول : أنا قرينك في قبرك ويوم نشرك حتّى أُعرض أنا وأنت على ربّك قال : فإن كان لله وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً و أحسنهم منظراً و أحسنهم رياشاً (٢) فقال : أبشر بروح و ريحان و جنّة نعيم و مقدمك خير مقدم ، فيقول له : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصّالح المرتحل من الدّنيا

---

(١) أخرجه أبوداود ج ٢ ص ٥٤٠ مع اختلاف والحاكم في المستدرك وقال صحيح وراجع الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٣٦٧ أورده باختلاف كثير .

(٢) الرياش - بكسر الراء المهملة - : اللباس الفاخر .

إلى الجنّة . وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حامله أن يعجّله فإذا اُدخل قبره أتاه ملكا القبر يجرّان أشعارهما و يخدّان الأرض بأقدامهما ، أصواتهما كالرّعد القاصف و أبصارهما كالبرق الخاطف فيقولان له : من ربّك ؟ ومادينك ؟ و من نبيّك ؟ فيقول الله ربّي و ديني الاسلام ونبيّي محمّد فيقولان له : ثبّتك الله فيما تحبّ و ترضى وهو قول الله عزّ وجلّ : « يثبّت الله الّذين آمنوا بالقول الثّابت في الحيوة الدّنيا وفي الآخرة»[(١)] ثمّ يفسحان له في قبره مدّ بصره ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنّة ، ثمّ يقولان له : نم قرير العين نوم الشّاب النّاعم فإنّ الله يقول : « أصحاب الجنّة يومئذ خير مستقرّاً و أحسن مقيلاً[(٢)] » قال : و إذا كان لربّه عدوّاً فإنّه يأتيه أقبح من خلق الله زيّاً و رؤياً و أنتنه ريحاً فيقول له : أبشر بنزل من حميم وتصلية جحيم[(٣)] وإنّه ليعرف غاسله ويناشد حملته أن يحبسوه فإذا اُدخل القبر، أتاه ممتحنا القبر فألقيا عنه أكفانه ثمّ يقولان له من ربّك ؟ و ما دينك ؟ ومن نبيّك ؟ فيقول : لاأدري فيقولان: لادريت و لاهديت ، فيضربان يافوخه[(٤)] بمرزبّة ، معهما ضربة ما خلق الله من دابّة إلّا وتذعر لها ما خلا الثّقلين[(٥)] ثمّ يفتحان له باباً إلى النّار يقولان له : نم بشرّ حال ، فيه من الضيق مثل ما فيه القنا من الزّجّ[(٦)] حتّى أنّ دماغه ليخرج من بين

(١) ابراهيم : ٢٦ .

(٢) الفرقان : ٢٦ . و قوله : « مستقرّاً » أى مكانا يستقر فيه . و قوله : «مقيلاً» من القيلولة و هى عند العرب الاستراحة نصف النهار .

(٣) النزل : ما يعد للضيف النازل على الانسان من الطعام والشراب والحميم ما يسقى منه أهل النار . والتصلية : التلويح على النار ، وفى مجمع البيان وتصلية جحيم ادخال نار عظيم .

(٤) « يافوخه » ـ بالياء المثناة التحتانية وآخره خاء معجمة ـ : الموضع الذى يتحرك من رأس الطفل اذا كان قريب العهد من الولادة . والمرزبة ـ بتشديد الباء وتخفيفها ـ: عصا كبيرة من حديد تتخذ لتكسير المدر و قد تقدم .

(٥) تذعر أى تفزع . والثقلين : الجن والانس .

(٦) القنا ـ بفتح القاف ـ : جمع القناة و هى الرمح . والزج : الحديدة التى فى أسفل الرمح .

ظفره و لحمه ، ويسلّط الله عليه حيّات الأرض وعقاربها وهو امّها فتنهشه حتّى يبعثه الله من قبره [(١)] » .

قال أبو حامد : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « للمؤمن في قبره روضة خضراء ويرحّب له في قبره سبعين ذراعاً و يضيء حتّى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما ذا اُنزلت « فإنّ له معيشة ضنكاً »؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : عذاب الكافر في قبره يسلّط عليه تسعة وتسعون تنّيناً ، هل تدرون ما التنّين تسع وتسعون حيّة لكلّ حيّة سبعة رؤوس يخدشونه و يلحسونه و ينفخون في جسمه إلى يوم القيامة [(٢)] » .

و لا ينبغي أن يتعجّب من هذا العدد على الخصوص فإنّ أعداد هذه الحيّات و العقارب بقدر أعداد الأخلاق المذمومة من الكبر و الرّياء و الحسد و الغلّ و الحقد و ساير الصّفات فإنّ لها اُصولاً معدودةً ، ثمّ تنشعب منها فروع معدودة ، ثمّ تنقسم فروعها بأقسام و تلك الصّفات بأعيانها هي المهلكات و هي بأعيانها تنقلب عقارب و حيّات فالقويّ منها يلدغ لدغ التنّين والضعيف تلدغ لدغ العقرب ، و ما بينهما يؤذي إيذاء الحيّة ، و أرباب القلوب و البصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات و انشعاب فروعها إلّا أنّ مقدار عددها لا يوقف عليه إلّا بنور النبوّة فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة و أسرار خفيّة و لكنّها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها ، بل أقلّ درجات الإيمان التّصديق والتّسليم ، فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر في قبره مدّة ونراقبه ولا نشاهد شيئاً من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ، فاعلم أنّ لك ثلاثة مقامات في التصديق بأمثال هذا أحدها و هو الأظهر و الأوضح و الأسلم أن تصدّق بأنّها موجودة و أنّها تلدغ الميّت و لكنّك لا تشاهد ذلك فإنّ هذه العين لا تصلح لمشاهدة الاُمور الملكوتيّة و كلّ ما يتعلّق بالآخرة فهو من عالم الملكوت أما ترى الصّحابة كيف كانوا يؤمنون بنزول جبرئيل و ما كانوا يشاهدونه ، و يؤمنون بأنّه عليه السلام

---

(١) الكافي ج ٣ ص ٢٣١ تحت رقم ١ .

(٢) أخرجه أبو يعلى و فيه دراج وحديثه حسن كما في مجمع الزوائد ج ٣ ص ٥٥ .

يشاهده فإن كنت لاتؤمن بهذا فتصحيح أصل الايمان بالملائكة و الوحي أهمّ عليك و إن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما لاتشاهده الأمّة فكيف لاتجوّز هذا في الميّت، و كما أنّ الملك لا يشبه الآدميين و الحيوانات فالحيّات و العقارب الّتي تلدغ في القبر ليست من جنس حيّات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسّة اُخرى. المقام الثاني أن تتذكّر أمر النائم وأنّه قديرى في نومه حيّة تلدغه و هو يتألّم بذلك حتّى تراه في نومه يصيح و يعرق جبينه و قد ينزعج من مكانه كلّ ذلك يدركه من نفسه و يتأذّى به كما يتأذّى اليقظان و هو يشاهده و أنت ترى ظاهره ساكناً و لا ترى باطنه ولاترى حواليه حيّة و لاعقرباً و الحيّة موجودة في حقّه و العذاب حاصل به و لكنّه في حقّك غير مشاهد و إذا كان العذاب في ألم اللّدغ فلا فرق بين حيّة تتخيّل أو تشاهد. المقام الثالث أنّك تعلم أنّ الحيّة بنفسها لا تؤلم بل الّذي يلقاك منها هو السمّ ثمّ السمّ ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الّذي يحصل فيك من السّمّ فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سمّ لكان العذاب قد نزل و لكن لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلّا بأن يضاف إلى السّبب الّذي يفضي إليه في العادة فإنّه لوخلق في الإنسان لذّة الوقاع مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يمكن تعريفها إلّا بالاضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسّبب وتكون ثمرة السبب حاصلاً و إن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لذاته و هذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النّفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيّات من غير وجود حيّات و انقلاب الصفة مؤذية يضاهي انقلاب العشق مؤذياً عند موت المعشوق فإنّه كان لذيذاً فطرأت حالة صار اللّذيذ بنفسه مؤلماً حتّى نزل بالقلب من أنواع العذاب ما يتمنّى معه أنّه ليته لم يكن قد تنعّم بالعشق و الوصال بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميّت فإنّه قد سلّط العشق في الدّنيا على نفسه فصار يعشق ماله و عقاره و جاهه و ولده وأقاربه و معارفه، و لو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه و يشتدّ عذابه، و يتمنّى و يقول: ليته لم يكن لي

مالٌ قطٌّ ولاجاه قطٌّ فكنت لا أتأذّى بفراقه ، فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدُّنياويّة كلّها دفعة واحدة .

ما حال من كان له واحدٌ ✿ غيّب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلّا بالدُّنيا فتؤخذ منه الدُّنيا و تسلّم إلى أعدائه ، ثمّ ينضاف إلى هذا العذاب تحسّره على مافاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله فإنّ حبّ غير الله يحجب عن لقاء الله والتنعّم به فيتوالى عليه ألم الفراق لجميع محبوباته وحسرته على مافاته من نعيم الآخرة أبدالآباد و ذلّ الرّدّ والحجاب عن الله تعالى و ذلك هو الّذي يعذّب به إذ لا يتبع نار الفراق إلّا نار جهنّم كما قال تعالى: «كلّا إنّهم عن ربّهم يومئذ لمحجوبون ✿ ثمّ إنّهم لصالوا الجحيم»(١) وأمّا من لم يأنس بالدُّنيا ولم يحبّ إلّا الله وكان مشتاقاً إلى لقاء الله فقد تخلّص من سجن الدُّنيا و مقاساة الشهوات فيها ، و قدم على محبوبه و انقطعت عنه العوائق والصّوارف ، وتوفّر عليه النعيم مع الأمن من الزّوال أبدالآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون ، والمقصود أنّ الرّجل قد يحبّ فرسه بحيث لو خيّر بين أن يؤخذ منه و بين أن يلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب فإذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ عقرب و حبّه للفرس هو الّذي يلدغه إذا اُخذ منه فرسه فليستعدّ لهذه اللّدغات فإنّ الموت يأخذ منه فرسه ومركبه و داره و عقاره و أهله و ولده و أحبّاءه ومعارفه و يأخذ منه جاهه و قبوله بل يأخذ منه سمعه و بصره و أعضاءه و ييئس عن رجوع جميع ذلك إليه فإذا لم يحبّ سواه و قد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيّات و كما لو أخذ ذلك منه و هو حيٌّ فيعظم عقابه ، فكذلك إذا مات لأنّا قد بيّنّا أنّ المعنى الّذي هو المدرك للآلام و اللّذّات لم يمت بل عذابه بعد الموت أشدّ لأنّه في الحياة يتسلّى عنها بأسباب يشتغل بها حواسّه من مجالسة و محادثة و يتسلّى برجاء العود إليه و يتسلّى برجاء العوض منه ، و لا سلوة بعد الموت إذ قد انسدّ عليه طرق التسلّي و حصل اليأس ، فإذاً كلٌّ قميص له ومنديل وغيره ممّا كان قد أحبّه بحيث كان يشقّ

(١) المطففين : ١٥ و ١٦ .

عليه لو أُخذ منه فإنّه يبقى متأسّفاً عليه و معذّباً به ، فإن كان مخفّفاً في الدّنيا سلم و هو المعنى بقولهم « نجا المخفّون » و إن كان مثقّلاً عظم عذابه ، و كما أنّ حال من سرق منه دينار أخفّ من حال من سرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدّرهم أخفّ من حال صاحب الدّرهمين ، وهوالمعنى بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « صاحب الدّرهم أخفّ حساباً من صاحب الدّرهمين » [1] و ما من شيء من الدّنيا يتخلّف عنك عند الموت إلّا و هو حسرة عليك بعد الموت فإن شئت فاستكثر و إن شئت فاستقلل ، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلّا من الحسرة و إن استقللت فلست تخفّف إلّا ظهرك و إنّما تكثر الحيّات و العقارب في قبور الأغنياء الّذين استحبّوا الحياة الدّنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنّوا إليها . فهذه مقامات الإيمان في حيّات القبر و عقاربه وفي سائر أنواع عذابه ، رأى أبوسعيد الخدري ابناً له قد مات في المنام فقال له : يا بنيّ عظني قال : لا تخالف الله تعالى فيما يريد ، قال : يا بنيّ زدني قال : يا أبه لا تطيق ، قال : بلى ، قال : لاتجعل بينك وبين الله قميصاً ، قال : فما لبس قميصاً ثلاثين سنة .

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاثة ؟ فاعلم أنّ في الناس من لم يثبت إلّا الأوّل و أنكر ما بعده ، و منهم من أنكر الأوّل و أثبت الثاني ، و منهم من لم يثبت إلّا الثالث ، و إنّما الحقّ الّذي انكشف لنا بطريق الاستبصار أنّ كلّ ذلك في حيّز الإمكان و أنّ من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتّساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره فينكر من أفعال الله مالم يأنس به و لم يألفه وذلك جهل و قصور بل هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب و ربّ عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع وربّ عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب القبر قليله و كثيره هذا هو الحقّ فصدّق به تقليداً ، فيعزّ على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقاً ، والّذي أُوصيك به أن لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيف ماكان ، فإن

(١) قال العراقي : لم أجد له أصلا .

أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذه سلطان و حبسه ليقطع يده و يجدع أنفه فأخذ طول اللّيل يتفكّر في أنّه هل يقطعه بسكّين أو بسيف أو بموسى ، و أهمل طريق الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه و هذا غاية الجهل ، فقد علم على القطع أنّ العبد بعد الموت لا تخلو عن عذاب عظيم أو عن نعيم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له ، فأمّا البحث عن تفصيل العقاب و الثواب ففضول محض و تضييع زمان .

✿(بيان سؤال منكر و نكير و صورتهما و ضغطة القبر و بقيّة)✿

✿(القول فى عذاب القبر)✿

قال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر و للآخر نكير فيقولان له : ما كنت تقول في النبيّ ؟ فإن كان مؤمناً قال : هو عبد الله و رسوله أشهد أن لا إله إلّا الله ، و أشهد أنّ محمّداً رسول الله ، فيقولان : إنّا كنّا لنعلم أنّك تقول ذلك ، ثمّ يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً و ينوّر له في قبره ، ثمّ يقال له : نم فيقول : دعوني أرجع إلى أهلي فاُخبرهم ، فيقال له : نم فينام كنومة العروس الّذي لا يوقظه إلّا أحبّ أهله إليه حتّى يبعثه الله من مضجعه ذلك و إن كان منافقاً فقال : لاأدري كنت أسمع الناس يقولون شيئاً و كنت أقوله ، فيقولان : إنا كنّا لنعلم أنّك تقول ذلك ، ثمّ يقال للأرض : التئمي عليه فتلتئم عليه حتّى تختلف فيها أضلاعه فلايزال معذّباً حتّى يبعثه الله تعالى من مضجعه ذلك (١) » .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي عن أمير المؤمنين عليه السلام و قد مرّ ذكره و فيه عن الصّادق عليه السلام قال : « يجيىء الملكان منكر و نكير إلى الميّت

---

(١) أخرجه الترمذى ج ٤ ص ٢٩٣ . وقوله « تختلف أضلاعه» أى يقرب كل جانب من القبر الى الجانب الاخر فيضمه و يعصره . وقال الزبيدى فى الترغيب : العروس يطلق على الرجل وعلى المرأة ماداما فى أعراسهما .

حين يدفن أصواتهما كالرّعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يخطّان الأرض[(١)] بأنيابهما و يطئان[(٢)] في شعورهما فيسألان عن الميّت مَن ربّك ؟ و ما دينك ؟ قال : فاذا كان مؤمناً قال : الله ربّي و ديني الإسلام فيقولان له : ما تقول في هذا الرّجل الّذي خرج بين ظهرانيكم[(٣)] ؟ فيقول : أعن محمّد رسول الله تسألاني ؟ فيقولان له : تشهد أنّه رسول الله ؟ فيقول : أشهد أنّه رسول الله ، فيقولان له : نم نومة لا حلم فيها و يفسح له في قبره تسعة أذرع و يفتح له باب إلى الجنّة و يرى مقعده فيها ، و إذا كان الرّجل كافراً دخلا عليه و اُقيم الشيطان بين يديه عيناه من نحاس فيقولان له : مَن ربّك ؟ وما دينك ؟ وما تقول في هذا الرّجل الّذي قد خرج من بين ظهرانيكم فيقول : لا أدري ، فيخلّيان بينه وبين الشيطان ، ويسلّط عليه في قبره تسعة وتسعين تنّيناً لو أنّ تنّيناً[(٤)] واحداً منها نفخ على الأرض ما أنبت شجرة أبداً ، و يفتح له باب إلى النّار و يري مقعده فيها[(٥)] » .

و عنه عليه السلام « لا يسأل في القبر إلّا من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً و الآخرون يلهون عنهم[(٦)] » .

قال أبو حامد : وعن عطاء بن يسار قال: قال النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لعمر بن الخطاب

(١) في بعض نسخ المصدر [بخدّان] أى يشقان الارض .

(٢) في بعض نسخ المصدر [يطئان] من الوطئ ـ كالرعد ـ يعني يضربان أرجلهما على الارض ضرباً شديداً .

(٣) ظهران ـ بفتح المعجمة وآخره النون ـ وفي حديث الائمة « نتقلب في الارض بين أظهركم » أى في أوساطكم ومثله أقاموا بين ظهرانيهم و بين أظهرهم أى بينهم على سبيل الاستظهار والاستناد اليهم . (مجمع البحرين)

(٤) التنين ـ كسكين ـ : حية عظيمة .

(٥) المصدر ج ٣ ص ٢٣٦ تحت رقم ٧.

(٦) « محض الايمان » على صيغة الفعل أى أخلص الايمان ويحتمل أن يكون بصيغة المصدر أى لا يسأل الا من الايمان والكفر ولعل الاول أظهر ؛ و الخبر في الكافي ج ٣ ص ٢٣٥ تحت رقم ١ .

«يا عمر كيف بك إذا أنت متّ فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع في ذراع و شبر ثمّ رجعوا إليك فغسّلوك و كفّنوك وحنّطوك، ثمّ احتملوك حتّى يضعوك فيه ثمّ يهيلوا عليك التراب ويدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتّانا القبر منكر ونكير، أصواتهما كالرّعد القاصف و أبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما و يبحثان التراب بأنيابهما فتلتلاك وترتراك[١] كيف بك عندذلك يا عمر؟ فقال: ويكون معي مثل عقلي الآن؟ قال: نعم. قال: إذاً أكفيكهما[٢]» و هذا نصّ صريح في أنّ العقل لايتغيّر بالموت إنّما يتغيّر البدن و الأعضاء فيكون الميّت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام و اللّذّات كما كان في حياته لا يتغيّر من عقله شيء، و ليس العقل المدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولاعرض بل الّذي لاينقسم في نفسه هو المدرك للأشياء، و لو تناثرت أعضاء الإنسان كلّها و لم يبق إلّا الجزء المدرك الّذي لايتجزّء و لا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائماً باقياً و هو كذلك بعد الموت فإنّ ذلك الجزء لا يحلّه الموت و لايطرء عليه العدم.

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد أخباراً في ضغطة القبر وا كتناف الأعمال الصّالحة بالمؤمن في قبره و إعانتها له ونسبها إلى من لايوثق بروايته و نحن نطوي ماذكره و نرويها من طريق الخاصّة.

ففي الكافي عن الصادق عليه السلام قال: «يسئل و هو مضغوط[٣]».

و سئل عليه السلام «أيفلت[٤] من ضغطة القبر أحد؟ قال: نعوذ بالله منها ما أقلّ من يفلت من ضغطة القبر إنّ رقيّة لمّا قتلها عثمان وقف رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم على قبرها فرفع رأسه إلى السماء فدمعت عيناه و قال للنّاس: إنّي ذكرت هذه و ما لقيت فرققت لها فاستوهبتها من ضمّة القبر قال: فقال: اللّهمّ هب لي رقيّة من ضمّة

---

(١) التلتلة والترترة: التحريك.

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلا ورجاله ثقات (المغنى).

(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٣٦ تحت رقم ٥.

(٤) من الافلات أى يخلص.

القبر فوهبها الله له، قال: و إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله خرج في جنازة سعد و قدشيّعه سبعون ألف ملك فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله رأسه إلى السّماء، ثمّ قال: مثل سعديضمّ قال الرّاوي قلت: جعلت فداك إنّا نحدّث أنّه كان يستخفّ بالبول فقال معاذالله إنّما كان من زعارة [1] في خلقه على أهله [2]».

و روى عمر بن يزيدقال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: «إنّي سمعتك وأنت تقول كلّ شيعتنافي الجنّة على ما كان فيهم؟ قال: صدقتك كلّهم والله في الجنّة، قال: قلت: جعلت فداك إنّ الذّنوب كثيرة كبار؟ فقال أمّا في القيامة فكلّكم في الجنّة بشفاعة النبيّ المطاع أووصيّ النبيّ ولكنّي والله أتخوّف عليكم في البرزخ، قلت: و ما البرزخ؟ قال: القبرمنذحين موته إلى يوم القيامة [3]».

و عن الباقر عليه السلام «إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه و الزكاة عن يساره و البرّ يظلّ عليه ويتنحّى الصّبر ناحية و إذا دخل عليه الملكان اللّذان يليان مسائلته قال الصبر للصلاة و الزكاة: دونكما صاحبكما فإن عجزتماعنه فأنا دونه [4]».

✡ (الباب الثامن) ✡

(فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام)

إعلم أنّ أنوار البصائر المستفادة من كتاب الله و سنّة رسوله و من مناهج الاعتبار تعرّفنا أحوال الموتى على الجملة و انقسامهم إلى سعداء و أشقياء و لكن حال زيد و عمرو بعينه فلا ينكشف به أصلاً فإنّا إن عوّلنا على إيمان زيد و عمرو فلاندري على ماذا مات و كيف ختم له، و إن عوّلنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محلّه القلب و هو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره

---

(١) الزعارة - بتشديد الراء وتخفيفها - شراسة الخلق. و رجل شرس أي سيىء خلقه.

(٢) الكافي ج ٣ ص ٢٣٦ تحت رقم ٦.

(٣) المصدر ج ٣ ص ٢٤٢ تحت رقم ٣.

(٤) المصدر ج ٣ ص ٢٤٠ تحت رقم ١٣، رواه عن الصادق عليه السلام.

فلا حكم لظاهر الصّلاح دون التقوى الباطن ، قال الله تعالى : « إنّما يتقبّل الله من المتّقين (١) » فلا يمكن معرفة حكم زيد و عمرو إلّا بمشاهدته و مشاهدة ما يجري عليه ، و إذا مات فقد تحوّل من عالم الملك و الشهادة إلى عالم الغيب و الملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة و إنّما يرى بعين اُخرى خلقت تلك العين في قلب كلّ إنسان و لكن الإنسان جعل عليها غِشاوة كثيفة من شهواته و أشغاله الدّنياويّة فصار لا يبصر بها ولا يتصوّر أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه ولمّا كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلاجرم نظروا إلى عالم الملكوت و شاهدوا عجائبه و الموتى في عالم الملكوت فشاهدوهم و أخبروا عنهم ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ضغطة القبر في حقّ سعد بن معاذ و في حقّ زينب ابنته (٢) و كذلك حال أبي جابر لمّا استشهد إذ أخبر أنّ الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر و مثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء و الأولياء الّذين تقرب درجتهم منهم و إنّما الممكن من أمثالنا مشاهدة اُخرى ضعيفة إلّا أنّها أيضاً مشاهدة نبويّة و أعني بها المشاهدة في المنام و هو أنوار النبوّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « الرّؤيا الصالحة جزء من ستّة و أربعين جزءاً من النبوّة (٣) » و هو أيضاً انكشاف لا يحصل إلّا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلّا برؤيا الرّجل الصّالح الصادق و من كثر كذبه لم تصدق رؤياه و من كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام و لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالطهارة عند النوم لينام طاهراً و هو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل و طهارة الظاهر بمنزلة التتمّة و التكملة لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدقة القلب ما سيكون في المستقبل كما انكشف دخول مكّة لرسول الله صلى الله عليه وآله في النوم حتّى نزل قوله تعالى : « لقد صدق الله رسوله الرّؤيا بالحقّ (٤) » و قلّ ما يخلو الإنسان عن منامات دلّت على

---

(١) المائدة : ٣٠ .　　(٢) كذا .

(٣) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٥٤ وابن ماجه تحت رقم ٣٨٩٥ .

(٤) الفتح : ٢٧ .

أُمور فوجدها صحيحة ، و الرُّؤيا و معرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى و بدائع فطرة الآدمي و هو من أوضح الأدلّة على عالم الملكوت و الخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب و عجائب العالم الملكوتي و القول في حقيقة الرُّؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة و لكن القدر الّذي يمكن ذكره ههنا مثالٌ يفهمك المقصود ، و هو أن تعلم أنّ القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور و حقايق الأُمور وأنّ كلّ ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور و مثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبّر عنه تارة باللّوح و تارة بالكتاب المبين و تارة بإمام مبين كما ورد في القرآن فجميع ماجري في العالم و ما سيجري مكتوب فيه و منقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين ، و لا تظننّ أنّ ذلك اللّوح من خَشب أو حَديد أو عظم و أنّ الكتاب من كاغذ أو ورق بل ينبغي أن تفهم قطعاً أنّ لوح الله لا يشبه لوح الخلق و كتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أنّ ذاته و صفاته لا تشبه ذات الخلق و صفاتهم ، بل إن كنت تطلب له مثالاً يقرّبه إلى فهمك فاعلم أنّ ثبوت المقادير في اللّوح المحفوظ يضاهي ثبوت كلمات القرآن و حروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه فإنّه مسطور فيه حتّى كأنّه حيث يقرأ ينظر إليه و لو فتّشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخطّ حرفاً و إن كان ليس هناك خطٌّ يشاهد ولا حرف ينظر ، فمن هذا النمط ينبغي أن تفهم كون اللّوح منقوشاً بجميع ماقدّره الله تعالى و قضاه . و اللّوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصّور فلو وضع في مقابلة المرآة مرآة اُخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى في هذه إلّا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلوم و اللّوح مرآة رسوم العلوم كلّها و العلوم كلّها موجودة فيه و اشتغال القلب بشهواته و مقتضى حواسّه حجاب مرسل بينه و بين مطالعة اللّوح الّذي هو من عالم الملكوت فإن هبت ريح حرّكت هذا الحجاب و رفعته تلألأ في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، و قد يثبت و يدوم و قد لايدوم و هو الغالب و مادام متيقّظا فهو مشغول بما تورده الحواسّ عليه من عالم الملك

والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت، و معنى النوم أن تركد الحواسّ عليه فلا تورد على القلب فإذا تخلّص منه ومن الخيال و كان صافياً في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللّوح المحفوظ فوقع في قلبه شيء ممّا في اللّوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أُخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلّا أنّ النّوم مانع لسائر الحواسّ عن العمل و ليس مانعاً للخيال عن عمله و عن تحرّكه فما يقع في القلب يتبدّره الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون المتخيّلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فإذا انتبه لم يتذكّر إلّا الخيال فيحتاج المعبّر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أيّ معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني بالمناسبة الّتي بين المتخيّل و المعاني، و أمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير ويكفيك في ذلك مثال واحد وهو أنّ رجلاً قال لابن سيرين: رأيت كأنّ بيدي خاتماً أختم به أفواه الرّجال و فروج النساء؟ فقال: أنت مؤذّن تؤذّن قبل الصّبح في رمضان فقال: صدقت، فانظر أنّ روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم و إنّما ينكشف للقلب حال الشخص من اللّوح المحفوظ كما هو عليه و هو كونه مانعاً للناس من الأكل و الشرب و لكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثّله بالصّورة الخياليّة الّتي تتضمّن روح المعنى و لا يبقى في الحفظ إلّا الصورة الخياليّة. فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الّتي لا تنحصر عجائبه و كيف لا و هو أخو الموت، و إنّما الموت هو عجب من العجائب و هذا لأنّه يشبهه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب حتّى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل فماذا ترى في الموت الّذي يخرق الحجاب و يكشف الغطاء بالكلّيّة حتّى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إمّا محفوفة بالأنكال و المخازي و الفضائح - نعوذ بالله من ذلك - و إمّا محفوفة بنعيم مقيم و ملك كبير لا آخر له، و عند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء: « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (١) » و يقال: « أفسحرٌ هذا أم أنتم لا تبصرون. اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم إنّما تجزون ما كنتم تعملون (٢) »

---

(١) ق: ٢٢. (٢) الطور: ١٥ و ١٦.

و إليهم الإشارة بقوله تعالى : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون [1] » .

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قطّ بباله و لا اختلج بضميره ، فلو لم يكن للعاقل همّ ولا غمّ إلّا الفكرة في خطر تلك الحال أنّ الحجاب عمّا ذا يرتفع و ماذا الّذي ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أو سعادة دائمة لكان ذلك كافياً في استغراق جميع العمر ، و العجب من غفلتنا و هذه العظائم بين أيدينا ، وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا و بأسبابنا و ذرّيّاتنا بل بأعضائنا و سمعنا و بصرنا مع أنّا نعلم مفارقة جميع ذلك يقيناً ولكن أين من ينفث روح القدس في روعه فيقول له ما قال لسيّد النبيّين « أحبب ما أحببت فإنّك مفارقه ، و عش ما شئت فإنّك ميّت ، واعمل ما شئت فإنّك مجزيّ به [2] » .

فلا جرم لمّا كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان في الدُّنيا كعابر سبيل ، لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ولم يخلّف ديناراً و لا درهماً ، و قد قال لاُمّته : « إن كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يحببكم الله [3] » وإنّما اُمّته من اتّبعه وما اتّبعه إلّا من أعرض عن الدُّنيا وأقبل على الآخرة فإنّه ما دعا إلّا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلّا عن الدُّنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما أعرضت عن الدُّنيا وأقبلت على الآخرة فقد سلكت سبيله الّذي سلكه ، وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتّبعته ، وبقدر ما اتّبعته صرت من اُمّته ، وبقدر ما أقبلت على الدُّنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعته ، والتحقت بالّذين قال تعالى فيهم : « وأمّا من طغى وآثر الحيوة الدُّنيا فإنّ الجحيم هي المأوى [4] » فلو خرجت من مكمن الغرور وأنصفت نفسك يا رجل - و كلّنا ذلك الرَّجل - لعلمت أنّك من حين تصبح إلى حين تمسي لا تسعى إلّا في الحظوظ العاجلة و لا تتحرَّك و لا تسكن إلّا لعاجل الدُّنيا ثمَّ تطمع في أن تكون غداً من اُمّته و أتباعه ، ما أبعد ظنّك و ما أبرد طمعك « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » و لنرجع إلى ما كنّا فيه و بصدده فقد امتدَّ عنان الكلام إلى غير مقصده و لنذكر

(١) الزمر : ٤٧ . (٢) تقدم غير مرة و رواه الصدوق في الفقيه .
(٣) آل عمران : ٣١ . (٤) النازعات . ٣٧ و ٣٨ و ٣٩ .

الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى مايعظم الانتفاع به إذذهبت النبوّة وبقيت المبشّرات و ليس ذلك إلّا المنامات .

﴿ بيان منامات تكشف عن احوال الموتى و الاعمال النافعة ﴾ ﴿ فى الآخرة ﴾

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقد قال عليه السلام : «من رآني في المنام فقدرآني حقاً ، فإنّ الشيطان لايتمثّل بي [١] » .

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد جملة من منامات الناس للموتى منها ما تضمّن بيان أحوالهم في الآخرة أوبيان ما ينتفع بهمن الأعمال فيها ، ومنها ما لم يتضمّن شيئاً منهما بل هو مجرّد قصّة مناميّة أمّا الثاني فلامدخل له فيما هو بصدده أصلاً و أمّا الأوّل فلا وثوق بشيء منه لأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّما قال : « الرّؤيا الصّالحة جزء من ستّة و أربعين جزءاً من النبوّة [٢] » و ليس كلّ رؤيا صالحة فإنّ الرؤيا إنّما تكون بحسب حال الرّائي في اعتقاده و قدر معرفته بما يراه و بحسب خلقه و عمله و غذائه و بقدر صدقه و طهارته ظاهراً و باطناً ، فربما يكون المرائي معتقداً خلاف الحقّ في الله سبحانه أو في شيء من صفاته أو في رسوله أو في إمامه الّذي يجب عليه اتّباعه ، أو يكون صاحب بدعة في الدّين ، أو يكون ممّن يكثر كذبه و فساده و معاصيه و أكله للحرام و غير ذلك ممّا يوجب ظلمة قلبه ، فكان ما يراه أضغاث أحلام كما مرّ في كلام أبي حامد إنّه لاوثوق بمنام من هذا حاله أو كان اعتقاده فيمن يراه في المنام على خلاف ما هو به فيراه بحسب ما يوافق اعتقاده فيه وهذا ممّا يقع كثيراً فلا وثوق بالرّؤيا إلاّ إذا عرف براءة من رآها من جميع ذلك وقد ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم « كما تعيشون تنامون و كما تستيقظون تبعثون [٣] » ثمّ من نسب أبو حامد إليه الرّؤيا ممّا يناسب ما هو بصدده بين منافق من الصحابة و موال له و لأمثاله و رجال يعرفون بالبدع و الاعتقادات الفاسدة في الدّين و من لايعرف

---

(١) أخرجه مسلم ج ٧ ص ٥٤ . (٢) تقدم آنفاً .

(٣) قاله صلّى الله عليه وآله فى يوم الانذار . وفى اعتقادات الصدوق ص ٨٥ نحوه .

حاله و عقيدته و من كان يعتقده فيمن يراه في المنام خلاف ما هو به فلا فائدة في إيراد شيء من ذلك فلنطوها طيّاً ، ثمّ ما ذكره من حديث النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم لتمهيد ما أورده من قوله عليه السلام : «من رآني في المنام فقد رآني» فليس معناه أنّه من رأى صورة إنسان في منامه فوقع في وهمه أو قيل له : إنّه النبيّ صلّى الله عليه وآله فقد رأى النبيّ أيّ صورة كانت بل معناه أنّه من رآه بصورته الّتي كان عليها في الدّنيا بحليته المباركة فقد رآه فإنّ الشيطان لا يتمثّل بتلك الهيئة و الحلية فرؤيته صلّى الله عليه وآله في المنام إنّما تصحّ لمن رآه في حياته وعرفه بحليته الّتي كان عليها ، ثمّ رآه في المنام بتلك الحلية بعينها دون من لم يره و إنّما سمع به ، لجواز أن يتمثّل الشيطان بصورة غير صورته ثمّ أوقع في وهم هذا الرّائي أنّه هو ، و هذا واضح بحمد الله .

الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميّت من وقت نفخة الصّور إلى آخر الاستقرار في الجنّة أو النّار و تفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار و فيه بيان نفخة الصّور ، وصفة أرض المحشر وأهله ، وصفة عرق أهل المحشر ، وصفة طول يوم القيامة ، و صفة يوم القيامة ودواهيها وأساميها ، وصفة المسائلة عن الذّنوب و صفة الميزان ، و صفة الخصماء و ردّ المظالم ، و صفة الصّراط ، و صفة الشفاعة ، و صفة الحوض ، و صفة جهنّم و أهوالها و أنكالها ، و حيّاتها و عقاربها ، و صفة الجنّة ، و أصناف نعيمها ، و عدد الجنان و أبوابها و غرفها و حيطانها ، و أنهارها و أشجارها ، ولباس أهلها وفرشهم و سررهم ، و صفة طعامهم و شرابهم ، و صفة حور العين و الولدان . وباب في سعة رحمة الله به نختم الكتاب إن شاء الله .

✡(صفة نفخ الصور)✡

قد عرفت فيما سبق شدّة أحوال الميّت في سكرات الموت و خطر خوف العاقبة ثمّ مقاساته لظلمة القبر وديدانه ثمّ لمنكر ونكير و سؤالهما ثمّ لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه ، و أعظم من ذلك كلّه الأخطار الّتي بين يديه من نفخ الصور و البعث يوم النشور و العرض على الجبّار و السؤال عن القليل و الكثير و النقير و القطمير و نصب الميزان لمعرفة المقادير ، ثمّ مجاوزة الصّراط مع رقّته وحدّته ، ثمّ

انتظار النداء عند فصل القضاء إمّا بالإسعاد و إمّا بالإشقاء فهذه أحوال و أهوال لابدّ لك من معرفتها ، ثمّ الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ، ثمّ تطويل الفكر فيها لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها و أكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكّن من سويداء أفئدتهم ويدلّ على ذلك شدّة تشمّرهم واستعدادهم لحرّ الصيف وبرد الشتاء و تهاونهم بحرّ جهنّم و زمهرير هامع ما يكتنفه من المصاعب و الأهوال ، نعم إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثمّ غفلت عنه قلوبهم و من أخبر بأنّ ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الّذي أخبره : صدقت ثمّ مدّ يده إليه ليتناوله كان مصدّقاً بلسانه ومكذّباً بعمله و تكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللّسان و قد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال الله تعالى : « شتمني ابن آدم و ما ينبغي له أن يشتمني ، و كذّبني وما ينبغي له أن يكذّبني ، أمّا شتمه إيّاي فيقول : إنّ لي ولداً ، و أمّا تكذيبه فقوله لن يعيدني كما بدأني (١) » و إنّما فتور البواطن عن قوّة اليقين و التصديق بالبعث و النشور لقلّة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ، و لو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات و قيل له : إنّ صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمي المصوّر العاقل المتكلّم المتصرّف لاشتدّ نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى : « أولم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيمٌ مبين (٢) ». و قال تعالى : « أيحسب الإنسان أن يترك سُدى ۞ ألم يك نطفة من مَنيّ يُمنى (٣) » ففي خلق الآدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعاجيب تزيد على الأعاجيب في بعثه و إعادته فكيف ينكر ذلك من قدرة الله و حكمته من يشاهد ذلك في صنعه و قدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقوّ الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإنّ الثانية مثلها وأسهل منها وإن كنت قويّ الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار و أكثر فيها التفكّر والاعتبار ليتسلّب عن قلبك الرّاحة والقرار فتشتغل بالتشمّر للعرض على الجبّار ، وتفكّر أوّلاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدّة نفخ الصور

(١) أخرجه البخاري ج ٤ ص ١٢٩ من حديث أبي هريرة .

(٢) يس : ٧٧ . (٣) القيامة : ٣٦ و ٣٧ .

فإنّها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رؤوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهّم نفسك و قد وثبت متغيّراً وجهك مغبرّاً بدنك من فرقك إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتاً من شدّة الصعقة شاخص العينين نحو النداء ، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور الّتي طال فيها بلاهم و قد أعجمهم الفزع والرّعب مضافاً إلى ماكان عليهم من الغموم و الهموم و شدّة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال الله تعالى : « و نفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الأرض إلاّ من شاء الله ثمّ نفخ فيه اُخرى فإذا هم قيام ينظرون[1] » و قال : « فإذا نفخ في الصّور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون[2] » و قال تعالى : « فإذا نقر في النّاقور ✿ فذلك يومئذ يوم عسير [3] » و قال تعالى : « و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ✿ ماينظرون إلّا صيحة واحدة تأخذهم و هم يخصّمون ✿ فلا يستطيعون توصية و لا إلى أهلهم يرجعون ✿ و نفخ في الصّور فإذا هم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون ✿ قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرّحمن و صدق المرسلون [4] » فلو لم يكن بين يدي الموتى إلّا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتّقى فإنّها نفخة و صيحة يصعق بها من في السموات و الأرض يعني يموتون بها إلّا من شاء الله ، و هو بعض الملائكة ، و لذلك قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « كيف أنعَمُ ، و صاحب الصّور قدِ التقَمَ القرْنَ و حَنَى الجَبْهَة وأصغى بالاُذنِ ينتظرُ متى يؤمر فينفخ [5] » قال مقاتل : الصور هو القرن و ذلك أنّ إسرافيل ، و اضع فاهُ على القرن كهيئة البوق ، و دائرة رأس القرن كعرض السماوات والأرض وهو شاخص ببصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر أن ينفخ النفخة الاُولى فإذا نفخ «صعق من في السّموات والأرض» أي مات كلّ حيوان من شدّة الفزع إلاّ من شاء الله وهم جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و ملك الموت ، ثمّ يأمر ملك

(١) الزمر : ٦٨ . (٢) المؤمنون : ١٠٢ .
(٣) المدثر : ٨ و ٩ . (٤) يس : ٤٨ - الى- ٥٣ .
(٥) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٦١ بأدنى اختلاف ورواه أحمد والطبراني واللفظ له و رجاله وثقوا على ضعف فيهم . كمافي مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٠ .

الموت أن يقبض روح جبرئيل، ثمّ روح ميكائيل، ثمّ روح إسرافيل ثمّ يأمر ملك الموت فيموت، ثمّ يلبث الخلق بعد النفخة الاُولى في البرزخ أربعين سنة ثمّ يحيي الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله: «ثمّ نُفِخَ فيه اُخرى فإذا هم قيامٌ يَنظرون» أي قيام على أرجلهم ينظرون إلى البعث و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله – حين نعت أمر صاحب الصور –: «فأهْوَى به إلى فيه و قدّم رِجلاً و أخّر اُخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتّقوا النفخةَ [1]» فتفكّر في الخلائق و ذلّهم و انكسارهم و استكانتهم عند الانبعاث خوفاً من هذه النفخة و انتظاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسرٌ كانكسارهم، متحيّر كتحيّرهم بل إن كنت في الدّنيا من المترفين و الأغنياء المتنعّمين فملوك الأرض في ذلك اليوم هم أذلّ أهل الجمع و أصغرهم و أحقرهم يوطئون بالأقدام مثل الذرّ و عند ذلك يقبل الوحوش من البراري و الجبال منكّسة رؤوسها، مختلطة بالخلائق بعد توحّشها، ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنّست بها ولكن حيّرتهم شدّة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق و التوحّش منهم و ذلك قوله تعالى: «و إذا الوحوش حشرت [2]» ثمّ أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها و عتوّها و أذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى: «فوربّك لنحشرنّهم والشياطين ثمّ لنحضرنّهم حول جهنّم جثيّاً [3]» فتفكّر في حالك و حال قلبك هنالك.

---

(١) في أكثر نسخ الاحياء هكذا «قال صلى الله عليه وآله: حين بعثت بعث الى صاحب الصور فأهوى الخ» و قال العراقى: لم أجده هكذا بل قد ورد أن اسرافيل من حين ابتداء الخلق، وهو كذلك كما رواه البخارى فى التاريخ، و أبو الشيخ فى كتاب العظمة من حديث أبى هريرة «ان الله لما فرغ من خلق السماوات والارض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره الى العرش مذ و كل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد اليه طرفه كأن عينيه كوكبان دريان» واسناده جيد.

(٢) التكوير: ٦. كذا. ولكن الحشر ههنا بمعنى الهلاك والموت لا الخروج.

(٣) مريم: ٦٨.

✿(صفة ارض المحشر وأهله)✿

ثمّ انظر كيف يساقون بعدالبعث والنشور حفاة عراة إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع صفصف لاترى فيها عوجاً و لاأمتاً و لاترى عليها ربوة [١] يختفي الإنسان وراءها ، ولاوهدة [٢] ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لاتفاوت فيه يساقون إليه زمراً ، فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطارالأرض إذ ساقهم بالرّاجفة تتبعها الرّادفة ، والرّاجفة هي النفخة الاُولى ، و الرّادفة هي الثانية ، وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذواجفة [٣] ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص نقيّ »ليس فيها مَعلم لأحد [٤] ، قال الرّاوي : العفرة بياض ليس بالناصع ، و النقيّ هو النقيّ عن القشر و النخالة ، و لا مَعلم أي لابناء يستر و لاتفاوت يردّ البصر و لاتظنّنّ أن تلك الأرض مثل أرض الدّنيا بل لا تساويها إلاّ في الاسم ، قال الله تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض و السموات [٥] » قال ابن عباس : يزاد فيها و ينقص وتذهب أشجارها و جبالها و أوديتها و مافيها و تمدّ مدّ الأديم العكاظي [٦] » أرض بيضاء مثل الفضّة ، لم يسفك عليها دمٌ ، و لم يعمل عليها خطيئة فالسماوات تذهب بشمسها و قمرها و نجومها ، فانظر يا مسكين في هول القيامة و شدّته فانّه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء ، وطمس القمر و الشمس وأظلمت الأرض لخمود سراجها فبينا هم كذلك إذ دارت السماء من فوق

---

(١) القاع : أرض سهلة مطمئنة . والصفصف : المستوى من الارض . و « لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا » أى لاترى فيها انخفاضاً ولاارتفاعاً . والربوة : المرتفع من الارض .

(٢) الوهدة ـ كالوردة ـ : المكان المطمئن .

(٣) الواجفة : المضطربة .

(٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٢٧ . والبخارى ج ٨ ص ١٣٥ .

(٥) ابراهيم : ٤٨ .

(٦) عكاظ اسم سوق للعرب بناحية مكة كانوا يجتمعون بها فى كل سنة فيقيمون شهراً ويتبايعون ويتناشدون الاشعار و يتفاخرون ، و أديم عكاظى منسوب اليها .

رؤوسهم و انشقّت مع غلظها و شدّتها خمسمائة عام و الملائكة قيام على حافّاتها و أرجائها [١] فياهول صوت انشقاقها في سمعك ، و يا هيبة ليوم تنشقّ فيه السماء مع صلابتها وشدّتها ثمّ تنهار وتسيل كالفضّة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدّهان [٢] و صارت السّماء كالمهل وصارت الجبال كالعهن [٣] و اشتبك النّاس كالفراش المبثوث و هم عراة حفاة مشاة ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يبعث الناس حفاة عراة غرلاً [٤] قد ألجمهم العرق و بلغ شحوم الآذان قالت سودة بنت زمعة زوج رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم راوية الحديث قلت : يارسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ قال : قدشغل الناس عن ذلك ، لكلّ امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه [٥] » .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه في الكافي باسناده عن سيّد العابدين عليه السلام أنّه قال : « حدّثني أبي أنّه سمع أباه عليّ بن أبي طالب عليه السلام يحدّث الناس قال : إذا كان يوم القيامة بعث الله تعالى الناس من حفرهم عزلاً بهماً جرداً مرداً في صعيد واحد ، يسوقهم النور و تجمعهم الظلمة [٦] حتّى يقفوا على عقبة المحشر فيركب

(١) حافتا النهر : جانباه والارجاء الاطراف .

(٢) قوله «وردة» أى مثلها محمرة كالدهان أى كالاديم الاحمر على خلاف العهد بها.

(٣) العهن : الصوف المصبوغ .

(٤) في النهاية الغرل - بالغين المعجمة والراء المهملة - جمع الاغرل وهو الاغلف . و سيأتي عنقريب عن الكافي بالعين المهملة والزاى المعجمة كما ضبطه جميع شراح الكافي.

(٥) رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس وهو ثقة كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٣ .

(٦) عزلا : لا سلاح لهم - بضم العين وسكون الزاى - جمع اعزل و كذلك اخواته ، « بهما » أى ليس معهم شيء و قيل : يعنى أصحاء لا آفة بهم ولا عاهة وليس بشيء ، « جرداً » لاثياب لهم ، « مرداً » ليس لهم لحية و هذه كلها كناية عن تجردهم عمايباينهم و يغطيهم و يخفى حقائقهم مماكان معهم في الدنيا ، « يسوقهم النور » أى نور الايمان والشرع فانه سبب ترقيهم طوراً بعد طور . وفي بعض النسخ [بالنار] أى نار التكاليف فان التكليف بالنسبة الى بعض المكلفين نار وبالاضافة الى آخرين نور ، « يجمعهم الظلمة » أى مايمنعهم ←

بعضهم بعضاً و يزدحمون دونها فيمنعون من المضيّ فتشتدّ أنفاسهم و يكثر عرقهم و تضيق لهم اُمورهم و تشتدّ ضجيجهم (١) و ترتفع أصواتهم قال: و هو أوّل هول من أهوال يوم القيامة. قال: فيشرف الجبّار تعالى عليهم من فوق عرشه في ظلال من الملائكة (٢) فيأمر ملكاً من الملائكة فينادي فيهم يامعشر الخلائق أنصتوا واستمعوا منادي الجبّار قال: فيسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم قال: فتنكسر أصواتهم عند ذلك و تخشع أبصارهم و تضطرب فرائصهم (٣) و تفزع قلوبهم وترفعون رؤوسهم إلى ناحية الصوت مهطعين إلى الدّاع (٤) قال: فعندذلك يقول الكافر: «هذا يوم عسر (٥)» قال: فيشرف الجبّار تعالى ذكره الحكم العدل عليهم فيقول: أنا الله لا إله إلّا أنا الحكم العدل الّذي لايجور، اليوم أحكم بينكم بعدلي و قسطي لايظلم اليوم عندي أحد، اليوم آخذ للضعيف من القويّ بحقّه و لصاحب المظلمة بالمظلمة بالقصاص من الحسنات و السيّئات و اُثيب على الهبات (٦) و لايجوز هذه العقبة اليوم عندي ظالم و لأحد عنده مظلمة إلّا مظلمة يهبها صاحبها و اُثيبه عليها وآخذ له بها عند الحساب، و تلازموا أيّها الخلايق واطلبوا مظالمكم عند من ظلمكم بها في الدّنيا وأنا شاهد لكم عليهم و كفى بي شهيداً.

قال: فيتعارفون ويتلازمون فلايبقى أحدٌ له عند أحد مظلمة أوحقّ إلّا لزمه

← من تمام النور والايقان فانه سبب تباينهم الموجب لكثرتهم التى يتفرع عليها الجمعية و يحتمل أن يكون المراد «كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا» والمعنيان متقاربان. و هذا كلام المؤلف - رحمه الله - في الوافي.

(١) أى صياحهم و أصواتهم.

(٢) يمكن أن يكون اشراف الله تعالى كناية عن توجهه الى محاسبتهم فالاشراف فى حقه مجاز وفى الملائكة حقيقة.

(٣) أى أوداج أعناقهم، قال الفيروزآبادى: الفريص: أوداج العنق و الفريصة واحدته واللحمة بين الجنب والكتف التى لا تزال ترعد.

(٤) أى يمدون أعناقهم لسماع صوته. مهطعين أى مسرعين. واهطع: اذا مدعنقه.

(٥) القمر: ٨. (٦) أى هبات المظالم وابراء الذمم.

بها قال : فيمكثون ماشاء الله فيشتدّ حالهم و يكثر عرقهم [١] و يشتدّ غمّهم وترتفع أصواتهم بضجيج شديد فيتمنّون المخلص منه بترك مظالمهم لأهلها ، قال : ويطّلع الله على جهدهم [٢] فينادي مناد من عند الله تعالى يسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم يا معشر الخلائق أنصتوا لداعي الله تعالى و اسمعوا أنّ الله تعالى يقول : أنا الوهّاب إن أحببتم أن تواهبوا فتواهبوا وإن لم تواهبوا أخذت لكم بمظالمكم ، قال : فيفرحون بذلك لشدّة جهدهم و ضيق مسلكهم و تزاحمهم ، قال : فيهب بعضهم مظالمهم رجاء أن يتخلّصوا ممّاهم فيه ويبقى بعضهم فيقول : ياربّ مظالمنا أعظم من أن نهبها قال : فينادي مناد من تلقاء العرش أين رضوان خازن الجنان جنان الفردوس قال : فيأمره الله أن يطلع [٣] من الفردوس قصراً من فضّة بما فيه من الأبنية و الخدم ، قال : فيطلعه عليهم في حفافة القصر الوصائف والخدم [٤] قال : فينادي مناد من عند الله تعالى يامعشر الخلائق ارفعوا رؤوسكم فانظروا إلى هذا القصر ، قال : فيرفعون رؤوسهم و كلّهم يتمنّاه ، قال : فينادي مناد من عند الله تعالى يا معشر الخلائق هذا لكلّ من عفا عن مؤمن ، قال : فيعفون كلّهم إلّا القليل ، قال : فيقول الله تعالى : لا يجوز إلى جنّتي اليوم ظالم و لا يجوز إلى ناري اليوم ظالم و لأحد من المسلمين عنده مظلمة حتّى يأخذها منه عند الحساب أيّها الخلائق استعدّوا للحساب ، قال : ثمّ يخلّى سبيلهم فينطلقون إلى العقبة يكرد بعضهم بعضاً [٥] حتّى ينتهوا إلى العرصة و الجبّار تعالى

(١) لما رأوا من شغل ذممهم بالمظالم وترددهم فى ابراء خصمائهم من مظالمهم أو أخذهم بها لجهلهم

(٢) يعنى انهم يطلعون و تتنبه على اطلاع الله على مشقتهم والا فان الله سبحانه لم يزل مطلعاً على السرائر والعلن .

(٣) من باب الافعال أى يظهره لهم .

(٤) «حفافة القصر» أى جوانبه . والوصائف والخدم من باب عطف أحد المترادفين على الاخر والخدم أعم من الاثاث

(٥) الكرد : الطرد والدفع .

على العرش [(١)] قد نشرت الدّواوين و نصبت الموازين واُحضر النبيّون و الشهداء و هم الأئمّة يشهد كلٌّ إمام على أهل عالمه بأنّه قد قام فيهم بأمر الله تعالى ودعاهم إلى سبيل الله قال (الرّاوي) فقال : له رجل من قريش يا ابن رسول الله إذا كان للرّجل المؤمن عند الرّجل الكافر مظلمة أيُّ شيء يأخذ من الكافر وهو من أهل النار قال : فقال له عليُّ بن الحسين عليهما السلام : يطرح عن المسلم من سيّئاته بقدر ماله على الكافر فيعذّب الكافر بها مع عذابه بكفره عذاباً بقدر ما للمسلم قبله من مظلمة ، قال : فقال له القرشيُّ فإذا كانت المظلمة للمسلم عند مسلم كيف تؤخذ مظلمته من المسلم ؟ قال : يؤخذ للمظلوم من الظالم من حسناته بقدر حقّ المظلوم فتزاد على حسنات المظلوم ، قال : فقال له القرشيُّ : فإن لم يكن للظالم حسنات ، قال : إن لم يكن للظالم حسنات فإن كان للمظلوم سيّئات يؤخذ من سيّئات المظلوم فتزاد على سيّئات الظالم » [(٢)].

قال أبو حامد : فأعظم بيوم يكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك من النظر والالتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم و وجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم ، قال أبو هريرة : قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً و مشاة و على وجوههم ، فقال رجل : يا رسول الله كيف يمشون على وجوههم ؟ قال : الّذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم » [(٣)] وفي طبع الآدميّ إنكار كلّ مالم يأنس به فلو لم يشاهد الإنسان الحيّة و هي تمشي على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصوُّر المشي على غير رجل ، والمشي بالرِّجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك ، فإيّاك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما في الدُّنيا فإنّك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدُّنيا ثمَّ عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدُّ إنكاراً لها ، فاحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيّراً مبهوتاً منتظراً لما يجري عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاء و أعظم بهذه الحالة فإنّها عظيمة .

---

(١) أى مستولى على العرش يأتى أمره من قبل العرش .

(٢) الكافى ج ٨ ص ١٠٤ . (٣) رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ٢٠٧ .

(صفة العرق)

ثمّ تفكّر في ازدحام الخلائق و اجتماعهم حين ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجنّ وإنس و شيطان ووحش و سبع و طير وقدأشرقت عليهم الشمس وقدتضاعف حرّها[1] وتبدّلت عمّا كانت عليه من خفّة أمرها ، ثمّ أدنيت من رؤوس العالمين كقاب قوسين فلم يبق على الأرض ظلّ إلّا ظلّ عرش ربّ العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلّا المقرّبون ، فمن بين مستظلّ بالعرش وبين مضحى لحرّالشّمس قدصهرته بحرّها واشتدّ كربه وغمّه من وهجها ثمّ تدافعت الخلائق يدفع بعضها بعضاً لشدّة الزّحام واختلاف الأقدام و انضاف إليه من شدّة الخجلة من الافتضاح والاختزاء عندالعرض على جبّارالسماء فاجتمع وهج الشّمس و حرّها وحرّ الأنفاس واحتراق القلوب بنارالحياء والخوف ففاض العرق من أصل كلّ شعرة حتّى سال على صعيد القيامة ، ثمّ ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عندالله فبعضهم بلغ العرق ركبتيه و بعضهم إلى حقويه وبعضهم إلى شحمة اُذنيه و بعضهم كاديغيب فيه قال ابن عمر: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يوم يقوم الناس لربّ العالمين حتّى يغيب أحدهم في رشحه إلى أنصاف اُذنيه »[2].

و قال أبو هريرة : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يَعْرَق الناس يوم القيامة حتّى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعاً و يلجمهم و يبلغ آذانهم » كذا رواها البخاري و مسلم في الصحيح[3] وفي حديث آخر «قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السّماء

---

(١) هذا لا يلائم قوله تعالى : « اذا الشمس كورت » و قوله تعالى : « و خسف القمر و جمع الشمس والقمر » و قول أبي حامد آنفاً « وطمس القمر والشمس وأظلمت الارض لخمودسراجها .. الخ » نعم ورد في الروايات أن القيامة حرها شديد لكن أحكام القيامة وشرائطها غير شرائط الدنيا ولايقاس حرارة الآخرة ونورها بنور الدنيا وحرارتها و من قاسهما فمن قلة فهمه و عدم تدبره في آيات الله .

(٢) أخرجه البخاري ج ٨ ص ١٣٨ ومسلم ج ٨ ص ١٥٧ وأحمد ج ٢ ص ١٠٧.

(٣) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٣٨ وصحيح مسلم ج ٨ ص ١٥٨ و فيه زيادة .

فيلجمهم العرق من شدّة الكرب »[1] و قال عقبة بن عامر : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلغ خاصرته ، ومنهم من يبلغ فاه - فأشار بيده فألجمها فاه - و منهم من يغطّيه عرقه ، وضرب بيده على رأسه هكذا »[2] .

أقول: وقدمرّ من طريق الخاصّة «أنّه يكثر عرقهم » ويأتي أيضاً « أنّ العرق يلجمهم » .

قال أبوحامد : فتأمّل يا مسكين في عرق أهل المحشر و شدّة كربهم و أنّ فيهم من ينادي و يقول : ربّ أرحني من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار فكلّ ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً فإنّك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق ، و اعلم أنّ كلّ عرق لم يخرجه التعب في سبيل الله من حجّ و جهاد و صيام و قيام و تردّد في قضاء حاجة مسلم و تحمّل مشقّة في أمر بمعروف ونهي عن منكر فيستخرجه الحياء والخوف في صعيد القيامة و يطول فيه الكرب ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أنّ تعب العرق في تحمّل مصاعب الطاعات أهون أمراً و أقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار في القيامة فإنّه يوم عظيم شديد طويل مدّته .

(صفة طول يوم القيمة)

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطّرة قلوبهم ، لا يتكلّمون ولا ينظر في اُمورهم قال كعب و قتادة : « يوم يقوم الناس لربّ العالمين »[3] قالا : يقومون مقدار ثلاثمائة عام . و قال عبدالله بن عمر : تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية ، ثمّ قال : كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النّبل في الكنانة خمسين ألف سنة لاينظر

(١) أخرجه ابن عدى من حديث ابن مسعود . و نحوه ابن أبى الدنيا و الطبرانى عنه أيضاً كما فى الترغيب ج ٤ ص ٣٩١ فى حديث طويل .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٤ ص ١٥٧ من حديث عقبة .

(٣) المطففين : ٦ .

إليكم »(١).

أقول: و من طريق الخاصّة ما روّيناه عن الصّادق عليه السلام في حديث له « فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها فإنّ للقيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مقام ألف سنة » ثمّ تلا « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة »(٢).

و عنه عليه السلام « مثل الناس يوم القيامة إذا قاموا لربّ العالمين مثل السهم في القرب ليس له من الأرض إلّا موضع قدمه كالسهم في الكنانة لا يقدر أن يزول ههنا ولا ههنا »(٣).

قال أبو حامد: فتأمّل في طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه حتّى يخفّ عليك انتظار الصّبر عن المعاصي في عمرك المختصر، و اعلم أنّ من طال انتظاره في الدّنيا للموت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنّه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا سئل عن طول ذلك اليوم، فقال: « والّذي نفسي بيده إنّه ليخفّف على المؤمن حتّى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلّيها في الدّنيا »(٤)

فاجتهد أن تكون من اُولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نفس من عمرك فالأمر إليك و الاستعداد بيديك فاعمل في أيّام قصار لأيّام طوال تربح ربحاً لا منتهى لسروره و استحقر عمرك لابل عمر الدّنيا و هو سبعة آلاف سنة فإنّك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلاً لتتخلّص من يوم واحد مقداره خمسون ألف سنة لكان ربحك كثيراً و تعبك يسيراً.

(صفة يوم القيامة و دواهيه و اساميه)

فاستعدّ يامسكين لهذا اليوم العظيم شأنه، المديد زمانه، القاهر سلطانه القريب

---

(١) أخرجه الحاكم ج ٤ ص ٥٧٢ و قال: صحيح.

(٢) رواه المفيد في أماليه والشيخ في مجالسه ص ٢٢ من رواية حفص بن غياث عن الصادق عليه السلام. و روى مثله الكليني في الروضة ص ١٤٣.

(٣) رواه الكليني في الكافي ج ٨ ص ١٤٣ تحت رقم ١١٠.

(٤) رواه أحمد و أبو يعلى واسناده حسن من حديث أبي سعيد الخدري كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٣٧.

أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، و الكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزّواهر قد انكدرت ، و الشّمس قد كُوِّرت و الجبال قد سيّرت و العِشار قد عُطّلت [١] و الوحوش قد حشرت ، و البحار قد سجّرت ، و النّفوس قد زوّجت، و الجحيم قد سعّرت ، و الجنّة قد أزلفت ، و الجبال قد نسفت ، و الأرض قد مدّت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها و أخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر النّاس أشتاتاً ليُرَوا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة ، و انشقّت السّماء فهي يومئذ واهية و الملك على أرجائها ، و يحمل عرش ربّك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير فيه الجبال و ترى الأرض هامدة ، يوم ترجّ فيه الأرض رجّاً ، و تبسّ الجبال بسّاً فكانت هباءً منبثّاً ، يوم يكون النّاس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعِهن المنفوش ، يوم تذهل فيه كلّ مرضعة عمّا أرضعت ، و تضع كلّ ذات حمل حملها ، وترى النّاس سكارى وماهم بسكارى ولكنّ عذاب الله شديد ، يوم تبدّل الأرض غير الأرض و السّموات و برزوا لله الواحد القهّار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لاترى فيه عوجاً و لاأمتاً ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السّحاب ، يوم تنشقّ فيه السّماء فتكون وردة كالدّهان ، فيومئذ لايسئل عن ذنبه إنس ولاجانّ ، يوم يمنع العاصي فيه من الكلام و لا يسئل فيه أحدٌ عن الاحترام ، بل يؤخذ بالنواصي و الأقدام ، يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها و بينه أمداً بعيداً ، يوم يعلم فيه كلّ نفس ما اُحضرت ويشهد ماقدّمت وأخّرت ، يوم تخرس فيه الألسن وتنطق الجوارح يوم شيّب ذكره سيّد المرسلين إذ قيل له : أراك قدشبت يارسول الله ، فقال : « شيّبتني سورة هود و الواقعة و المرسلات و عمّ يتساءلون و إذا الشّمس كوّرت [٢] » .

---

(١) العشار النوق اللاتى أتى على حملهن عشرة أشهر ، و عطلت أى فلا يكون من يحلبها .

(٢) أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم و صحّحه و قد تقدم .

فيا أيّها القاري، الغافل إنّما حظّك من قراءتك أن تجمع القرآن وتحرّك به اللّسان و لو كنت متفكّراً فيما تقرأه لكنت جديراً بأن تنشقّ مرارتك بما شاب من هوله شعر سيّدالبشر ، و إذا قنعت بحركة اللّسان فقد حُرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه ، و قد وصف الله بعض دواهيها وأكثر من أساميها لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود تكرير الأسامي و الألقاب ، بل الغرض تنبيه اُولى الألباب ، فتحت كلّ اسم من أسماء القيامة سرّ ، و في كلّ نعت من نعوتها معنى فاحرص على معرفة معانيها و نحن الآن نجمع لك أساميها فهي يوم القيامة ، و يوم الحسرة ، و يوم الندامة ، و يوم المحاسبة ، و يوم المسائلة ، و يوم المسابقة ، و يوم المنافسة ، و يوم المناقشة ، و يوم الزّلزلة ، و يوم الدّمدمة ، و يوم الصاعقة ، و يوم الواقعة ، و يوم القارعة ، و يوم الرّاجفة ، و يوم الرّادفة ، و يوم الغاشية ، و يوم الدّاهية ، و يوم الآزفة ، و يوم الحاقّة ، ويوم الطّامّة ، ويوم الصّاخّة ، ويوم الطلاق ، و يوم الفراق ، ويوم المساق ، ويوم القصاص ، ويوم التناد ، ويوم الحساب و يوم المآب ، و يوم العذاب ، و يوم الفرار ، و يوم القَرار ، و يوم اللّقاء ، و يوم البقاء ، و يوم القضاء ، و يوم الجزاء ، و يوم البلاء ، و يوم البكاء ، و يوم الحشر ، و يوم الوعيد ، و يوم العرض ، و يوم الوزن ، و يوم الحقّ ، و يوم الحكم ، و يوم الفصل ، و يوم الجمع ، و يوم البعث ، و يوم الفتح ، و يوم الخزي ، و يوم عظيم ، ويوم عقيم ، و يوم عسير ، ويوم الدّين ، ويوم اليقين ، ويوم النشور ، ويوم المصير ، و يوم النفخة ، و يوم الصيحة ، و يوم الرّجفة ، و يوم الرّجّة ، و يوم الزجرة ، و يوم السكرة ، و يوم الفزع ، و يوم الجزع ، و يوم المنتهى ، و يوم المأوى ، ويوم الميقات ، و يوم المعاد ، ويوم المرصاد ، ويوم القلق ، ويوم العرق ، و يوم الافتقار ، و يوم الانكدار ، و يوم انتشار ، و يوم الانشقاق ، و يوم الوقوف ، و يوم الخروج ، ويوم الخلود ، و يوم الوعيد ، و يوم التغابن ، و يوم عبوس ، و يوم معلوم ، و يوم موعود ، و يوم مشهود ، و يوم لاريب فيه ، و يوم تبلى السرائر ، و يوم لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، و يوم تشخص فيه الأبصار ، ويوم لايغني مولى عن مولى شيئاً ،

و يوم لاتملك نفس لنفس شيئاً ، و يوم يدعون إلى نار جهنّم دعاً ، ويوم يسحبون في النّار على وجوههم ، و يوم تقلّب وجوههم في النّار ، و يوم لا يجزي والدٌ عن ولده شيئاً ، و يوم يفرّ المرء من أخيه ، و يوم لاينطقون ولايؤذن لهم فيعتذرون ، و يوم لامردّ له من الله ، ويوم هم بارزون ، ويوم هم على النّار يفتنون ، و يوم لاينفع مال ولابنون ، يوم لاينفع الظالمين معذرتهم و لهم اللّعنة ، و لهم سوء الدّار ، يوم تردّ فيه المعاذير ، وتبلى السرائر ، وتظهر الضمائر ، وتكشف الأستار ، ويوم تخشع فيه الأبصار ، و تسكن الأصوات ، و يقلّ فيه الالتفات ، وتبرز الخفيّات ، وتظهر الخطيئات و الخبيثات ، يوم يساق العباد و معهم الاشهاد و يشيب الصغير و يسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدّواوين و برّزت الجحيم وأغلى بالحميم و زفرت النّار و يئس الكفّار و سعّرت النيران و تغيّرت الألوان و خرس اللّسان و نطقت جوارح الإنسان ، فيا أيّها الإنسان ما غرّك بربّك الكريم حيث أغلقت الأبواب و أرخيت الستور و استترت عن الخلائق بمقارفة الفجور فماذا تفعل و قد شهدت عليك جوارحك فالويل كلّ الويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله تعالى إلينا سيّد المرسلين و ينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدّين ثمّ يعرّفنا غفلتنا ويقول : «اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربّهم محدث إلّا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم»(١) ثمّ يعرّفنا قرب القيامة و يقول : « اقتربت الساعة وانشقّ القمر »(٢) و يقول : « إنّهم يرونه بعيداً و نراه قريباً» (٣) «و ما يدريك لعلّ الساعة تكون قريباً» (٤) ثمّ يكون أحسن أحوالنا أن نتّخذ دراسة هذا القرآن عملاً فلانتدبّر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم و أساميه و لا نستعدّ للتخلّص من دواهيه فنعوذ بالله من هذه الغفلة فنحن هالكون إن لم يتدار كنا الله بواسع الرّحمة .

﴿ صفة المسائلة ﴾

ثمّ تفكّر يا مسكين بعد هذه الأهوال فيما يتوجّه عليك من السؤال شفاهاً من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير فبينا أنت في كرب القيامة

(١) الانبياء: ١ . (٢) القمر : ٢ . (٣) المعارج : ٦ . (٤) الاحزاب : ٦٣.

وعرقها و شدّة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماوات بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد اُمروا أن يأخذوا بنواصي المجرمين إلى موقف العرض على الجبّار قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ لله عزّ وجلّ ملكاً ما بين شفري عينيه مسيرة خمسمائة عام [١] » فما ظنّك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة اُرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدّة اليوم ، مستشعرين ممّا بدا من غضب الجبّار على عباده و عند نزولهم لا يبقى نبيّ و لا صديق و لا صالح إلّا و يخرّون لأذقانهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين ، فهذا حال المقرّبين فما ظنّك بالعصاة المجرمين وعند ذلك يبادر أقوام من شدّة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربّنا وذلك لعظم موكبهم و شدّة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم منزّهين لمليكهم عمّا توهّمه أهل الأرض و قالوا : سبحان ربّنا ما هو فينا ولكنّه آت من بعد و عند ذلك تقوم الملائكة صفّاً محدقين بالخلائق من الجوانب ، و على جميعهم شعار الذّل و الخشوع و هيئة الخوف و المهابة لشدّة اليوم و عند ذلك يصدق الله تعالى قوله : « فلنسئلنّ الّذين اُرسل إليهم ولنسئلنّ المرسلين ۞ فلنقصّنّ عليهم بعلم وما كنّا غائبين [٢] » « فوربّك لنسألنّهم أجمعين ۞ عمّا كانوا يعملون [٣] » فيبدأ بالأنبياء و ذلك قوله تعالى : « يوم يجمع الله الرّسل فيقول ماذا اُجبتم قالوا لا علم لنا [٤] » فيا لشدّة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدّة الهيبة إذ يقال لهم : ماذا اُجبتم ؟ و قد اُرسلتم إلى الخلائق و كانوا قد علموا ، فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدّة الهيبة : « لا علم لنا إنّك أنت علّام الغيوب » وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقوّيهم الله تعالى فيدعى نوح فيقال له : هل بلّغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال لاُمّته : هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما آتانا من نذير . ويؤتى

---

(١) قال العراقي : لم أره بهذا اللفظ .

(٢) الاعراف : ٥ و ٦ . (٣) الحجر : ٩٣ و ٩٤ .

(٤) المائدة : ١٠٩ .

بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له : « أأنت قلت للنّاس اتّخذوني و اُمّي إلهين من دون الله [١] » فيبقى متشحّطاً تحت هيبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم يقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ، ثمّ تقبل الملائكة فتنادون واحداً واحداً يا فلان بن فلانة هلمّ إلى موقف العرض و عند ذلك ترتعد الفرائص و تضطرب الجوارح و تبهت العقول ، و يتمنّى أقوام أن يذهب بهم إلى النّار و لاتعرض قبائح أعمالهم على الجبّار و لا يكشف سترهم على ملأ الخلائق ، وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش و أشرقتِ الأرض بنورربّها ووضع الكتاب ، و أيقن قلب كلّ عبد با قبال الجبّار لمساءلة العباد ، و ظنّ كلّ واحد أنّه المراد دون أحد سواه و أنّه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيقول الجبّار سبحانه عندذلك : ياجبرئيل ائتني بالنّارفجاءهاجبرئيل و قال لها : يا جهنّم أجيبي خالقك ومليكك ، فيصادفها جبرئيل على تغيّظها و غضبها ، فلم تلبث بعد ندائه أن ثارت و فارت و زفرت إلى الخلائق و شهقت و سمع الخلائق تغيّظها و زفيرها و انتهضت خزنتها متوثّبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره ، فاخطر ببالك و أحضر في قلبك حالة قلوب العباد و قد امتلأت فزعاً و رعباً فتساقطوا جثيّاً على الرُّكب و ولّوا مدبرين « يوم ترى كلّ اُمّة جاثية » و سقط بعضهم على الوجوه منكبّين و ينادي الظالمون و العصاة بالويل و الثبور ، وينادي الصدّيقون نفسي نفسي ، فبيناهم كذلك إذ زفرت النّارزفرتها الثانية فيضاعف خوفهم و تخاذلت قواهم وظنّوا أنّهم مأخوذون ثمّ زفرت الثالثة فتساقطت الخلائق لوجوههم و شخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خاشع خفيّ ، و انهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت لدى الحناجر كاظمين ، و ذهلت العقول من السعداء و الأشقياء أجمعين ، و بعد ذلك يقبل الله تعالى على الرُّسل و يقول : « ماذا أجبتم ».

أقول: و من طريق الخاصّة في هذا الباب ما رواه عليّ بن إبراهيم باسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ : «هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم [٢]»

---

(١) المائدة : ١١٩ . (٢) المائدة : ١٢٠ .

قال: « إذا كان يوم القيامة و حشر النّاس للحساب فيمرّون بأهوال يوم القيامة فينتهون إلى العرصة، و يشرف الجبّار عليهم حتّى يجهدوا جهداً شديداً قال: يقفون بفناء العرصة و يشرف الجبّار عليهم و هو على عرشه فأوّل من يدعى بنداء يسمع الخلائق أجمعين أن يهتف باسم محمّد بن عبدالله النبيّ القرشيّ العربيّ قال: فيقدم حتّى يقف على يمين العرش، قال: ثمّ يدعى بصاحبكم فيقدم حتّى يقف على يسار رسول الله صلّى الله عليه وآله، ثمّ يدعى بأُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله فيقفون عن يسار عليّ عليه السلام، ثمّ يدعى بكلّ نبيّ و أُمّته معه من أوّل النبيّين إلى آخرهم و أُممهم معهم فيقفون عن يسار العرش قال: ثمّ أوّل من يدعى للمساءلة القلم قال: فيتقدّم فيقف بين يدي الله في صورة الآدميّين فيقول الله: هل سطرت في اللّوح ما ألهمتك و أمرتك به من الوحي؟ فيقول القلم: نعم يا ربّ قد علمت أنّي قد سطرت في اللّوح ما أمرتني و ألهمتني به من وحيك فيقول الله: فمن يشهد لك بذلك؟ فيقول: يا ربّ هل اطّلع على مكنون سرّك خلق غيرك؟! قال: فيقول له: أفلجت حجّتك، قال: ثمّ يدعى باللّوح فتقدّم في صورة الآدميّين حتّى يقف مع القلم فيقول له: هل سطر فيك القلم ما ألهمته وأمرته به من وحي؟ فيقول اللّوح: نعم يا ربّ و بلّغته إسرافيل فيدعى بإسرافيل فيتقدّم مع القلم واللّوح في صورة الآدميّين فيقول الله: هل بلّغك اللّوح ما سطر فيه القلم من وحي؟ فيقول: نعم يا ربّ و بلّغته جبرئيل، فيدعى بجبرئيل فتقدّم حتّى يقف مع إسرافيل فيقول الله له: هل بلّغك إسرافيل ما بلّغ؟ فيقول: نعم يا ربّ و بلّغته جميع أنبيائك و أنفذت إليهم جميع ما انتهى إليّ من أمرك و أدّيتُ رسالتك إلى نبيّ نبيّ ورسول رسول وبلّغتهم كلّ وحيك وحكمتك وكتبك، إنّ آخر من بلّغته رسالتك و وحيك و حكمتك و علمك و كتابك و كلامك محمّد بن عبدالله العربيّ القرشيّ الحرميّ حبيبك، قال أبو جعفر عليه السلام: فأوّل من يدعى من ولد آدم للمساءلة محمّد بن عبدالله صلّى الله عليه وآله فيدنيه الله حتّى لا يكون خلق أقرب إلى الله يومئذ منه فيقول الله: يا محمّد هل بلّغك جبرئيل ما أوحيت إليه و أرسلته به إليك من كتابي و حكمتي و علمي؟ و هل أوحى ذلك إليك؟

فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نعم يا ربّ قد بلّغني جبرئيل جميع ما أوحيته إليه ، و أرسلته به من كتابك و حكمتك وعلمك و أوحاه إليّ ، فيقول الله لمحمد : هل بلّغت اُمّتك ما بلّغك جبرئيل من كتابي و حكمتي وعلمي ؟ فيقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : نعم يارب قدبلّغت اُمّتي جميع ما أوحيت إليّ من كتابك و حكمتك و علمك وجاهدت في سبيلك ، فيقول الله لمحمّد : فمن يشهد لك بذلك ؟ فيقول محمّد : يا ربّ أنت الشاهد لي بتبليغ الرّسالة و ملائكتك و الأبرار من اُمّتي و كفى بـك شهيداً ، فيدعى بالملائكة فيشهدون لمحمد بتبليغ الرّسالة ، ثمّ يُدعى باُمّة محمّد فيسئلون هل بلّغكم محمّد رسالتي و كتابي وحكمتي وعلمي وعلّمكم ذلك ؟ فيشهدون لمحمد بتبليغ الرّسالة و الحكمة و العلم ، فيقول الله لمحمد : فهل استخلفت في اُمّتك من بعدك من يقوم فيهم بحكمتي و علمي و يفسّر لهم كتابي و يبيّن لهم ما يختلفون فيه من بعدك حجّة لي و خليفة في الأرض ؟ فيقول محمّد : نعم يارب قد خلّفت فيهم عليّ بن أبي طالب أخي و وزيري و وصيّي و خيرَ اُمّتي و نصبتُه لهم عَلَماً في حياتي و دعوتهم إلى طاعته و جعلته خليفتي في اُمّتي إماماً يقتدي به الاُمّة بعدي إلى يوم القيامة ، فيدعى بعليّ بن أبي طالب عليه السلام فيقال له : هل أوصى إليك محمّد و استخلفك في اُمّته ونصبك عَلَماً لاُمّته في حياته و هل قمت فيهم مِن بَعده مقامه ؟ فيقول له عليّ عليه السلام : نعم يا ربّ قد أوصى إليّ محمّد و خلّفني في اُمّته ونصبني لهم عَلَماً في حياته ؟ فلمّا قبضت محمّداً إليك جحدتني اُمّته و مكروا بي و استضعفوني و كادوا يقتلونني و قدّموا قدّامي من أخّرت وأخّروا من قدّمت ولم يسمعوا منّي ولم يطيعوا أمري ، فقاتلتهم في سبيلك حتى قتلوني ، فيقال لعليّ عليه السلام : هل خلّفت من بعدك في اُمّة محمّد حجّة و خليفة في الأرض يدعو عبادي إلى ديني وإلى سبيلي ؟ فيقول عليّ عليه السلام : نعم يا ربّ قد خلّفت فيهم الحسن ابني و ابن بنت نبيّك ، فيدعى بالحسن بن عليّ فيُسأل عمّا سئِل عنه عليّ بن أبي طالب ، قال : ثمّ يدعى بإمام إمام و بأهل عالمه فيحتجّون بحجّتهم فقبل الله عذرهم و يجيز حجّتهم ، قال : ثمّ يقول الله : « اليوم

ينفع الصادقين صدقهم » قال : ثمّ انقطع حديث أبي جعفر عليه وعلى آبائه السلام[1] ».

قال أبو حامد : فإذا رأوا ما قدأقيم من السياسة على الأنبياء اشتدّ الفزع على العصاة ففرّ الوالد من ولده و الأخ من أخيه و الزّوج من زوجته و بقي كلّ واحد منتظراً لأمره ثمّ يؤتى بواحد واحد فيسأله الله شفاهاً عن قليل عمله و كثيره و عن سرّه و علانيته و عن جميع جوارحه و أعضائه .

فتوهّم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك و أنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاهاً فيقول لك : ألم أنعم عليك بالشّباب ففيماذا أبليته ؟ ألم أمهل لك في العمر ففيماذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته ، و فيماذا أنفقته ؟ ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت ؟ فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّد عليك إنعامه و معاصيك و أياديه و مساويك فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك ، قال أنس : كنّا يوماً مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فضحك ، ثمّ قال : «أتدرون ممّ أضحك؟ قلنا الله و رسوله أعلم قال : من مخاطبة العبد ربّه يقول : يا ربّ ألم تجزني من الظلم ؟ قال : يقول : بلى ، قال : فيقول : فإنّي لا أجيز على نفسي إلّا شاهداً منّي ، فيقول : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »[2] و بالكرام الكاتبين شهوداً ، قال : فيختم على فيه ويقال لأركانه : انطقي قال: فتنطق بأعماله ثمّ يخلّي بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بعداً لكنّ و سحقاً فعنكنّ كنت اُناضل [3] ». فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء ، إلّا أنّ الله وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطّلع عليه غيره ، و قد قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة[4] » فهذا إنّما يرجى لعبد مؤمن ستر على النّاس عيوبهم واحتمل في حقّ نفسه تقصيرهم و لم يحرّك لسانه بذكر مساوي النّاس و لم يذكرهم في غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه فهو جدير بأن يجازى بمثله في القيامة ، وهب أنّه قد ستره عن غيرك أليس

(١) تفسير على بن ابراهيم القمى ص ١٧٨ الى ١٨٠ . (٢) الاسراء : ١٤ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه وابن أبى الدنيا فى التوبة واللفظ له وابن أبى حاتم و البيهقى فى الاسماء والصفات من حديث أنس . (٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٢١ وقد تقدم .

قد قرع سمعك النّداء إلى العرض فيكفيك تلك الرّوعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطربٌ ولبّك طائر وفرائصك مرتعدة و جوارحك مضطربة ولونك متغيّر ، والعالم عليك من شدّة الهول مظلم ، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطّى الرّقاب و تخرق الصفوف و تقاد كما يقاد الفرس المجنوب ، و قد رفعت الخلائق إليك أبصارهم فتوهّم نفسك في أيدي الموكّلين بك على هذه الصفة انتهوا بك إلى عرش الرّحمن فرموك من أيديهم ويناديك الله سبحانه بعظيم كلامه : يا ابن آدم اُدن منّي فدنوت منه بقلب خافق محزون وَجِل ، وطرف خاشع ذليل ، وفؤاد منكسر، واُعطيت كتابك الّذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها فكم من فاحشة نسيتها فذكرتها و كم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها ، فكم لك من خجلة و حيرة ، و كم لك من حصر وعيّ فليت شعري بأيّ قدم تقف بين يديه و بأيّ لسان تجيب و بأيّ قلب تعقل ما تقول ؟ ثمّ تفكّر في عظيم حيائك إذا ذكّرك ذنوبك شفاهاً إذ يقول : يا عبدي أما استحييت منّي فبارزتني بالقبيح ؟ واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجميل ؟ أ كنتُ أهون عليك من سائر عبادي ؟ استخففت بنظري إليك فلم تكترث و استعظمت نظر غيري ألم اُنعم عليك ؟ فماذا غرّك بي ؟ أظننت أنّي لا أراك و أنّك لا تلقاني ؟ قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ما منكم من أحد إلّا ويسأله الله ربّ العالمين ليس بينه و بينه حجاب و لا ترجمان (١) » و قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لَيَقِفَنّ أحدكم بين يدي الله عزّ وجلّ ليس بينه و بينه حجاب فيقول له : ألم اُنعم عليك ؟ ألم اُوتك مالاً ؟ فيقول : بلى فيقول : ألم اُرسل عليك رسولاً ؟ فيقول : بلى ، ثمّ ينظر عن يمينه فلا يرى إلّا النّار ثمّ ينظر عن شماله فلا يرى إلّا النّار ، فليتّق أحدكم النّار ولو بشقّ تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيّبة (٢) ».

و قال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلّا سيخلو الله عزّ وجلّ به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثمّ يقول : يا ابن آدم ما غرّك بي ؟ يا ابن آدم ما عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينيك

(١) و(٢) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٨٦ من حديث عدي بن حاتم بلفظ « الا سيكلمه ».

و أنت تنظر بهما إلى مالايحلُّ لك ؟ ألم أكن رقيباً على اُذنيك وأنت تسمع بهما ؟ و هكذا حتّى عدَّ سائر الأعضاء . و قال مجاهد لاتزول قدما عبد يوم القيامة بين يدي الله عزَّ وجلَّ حتّى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه ، و عن عمله ماذا عمل به ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، فأعظم يامسكين بحيائك عند ذلك و بخطرك فإنّك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدُّنيا و أنا أغفرها لك اليوم فعند ذلك يعظم سرورك و فرحك و يغبطك الأوَّلون والآخرون و بين أن يقال للملائكة : خذوا هذا العبد السّوء فغلّوه ثمَّ الجحيم صلّوه ، و عند ذلك لو بكت عليك السّماوات و الأرض لكان ذلك جديراً بعظيم مصيبتك و شدَّة حسرتك على ما فرَّطت فيه من طاعة الله و على ما بعتَ آخرتك من دنيا دَنيّة لم تبق معك ؟ !.

✲(صفة الميزان)✲

ثمَّ لا تغفل عن الفكر في الميزان و تطاير الكتب إلى الأيمان و الشمائل فإنَّ النّاس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النّار عنق أسود فيلتقطهم لقط الطير الحبَّ و ينطوي عليهم ويلقيهم في النّار فتبتلعهم النّار و ينادي عليهم بشقاوة لا سعادة بعدها ، و قسم آخر لاسيّئة لهم فينادي مناد ليقم الحامدون لله على كلِّ حال فيقومون و يسرحون إلى الجنّة ، ثمَّ يفعل ذلك بأهل قيام اللّيل ، ثمَّ بمن لم يشغله تجارة ولا بيع عن ذكر الله تعالى وينادي عليهم بسعادة لاشقاوة بعدها ، و يبقى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً و آخر سيّئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله أنَّ الغالب حسناتهم أو سيّئاتهم ولكن يأبى الله إلّا أن يعرّفهم حقيقة ذلك ليبيّن فضله عند العفو و عدله عند العقاب ، فتطائر الصحف و الكتب منطوية على الحسنات والسيّئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع في اليمين أو في الشمال ، ثمَّ إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيّئات أو إلى جانب الحسنات ، وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله في يوم القيامة : « إنّه يوم ينادي الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول : قم يا آدم فابعث بعث النار ، فيقول :

و كم بعث النّار ؟ فيقول : من كلّ ألف تسعمائة وتسعة وتسعون [في النّار و واحد في الجنّة] فلمّا سمع الصحابة بذلك أبلسوا حتّى ما أوضحوا بضاحكة فلمّا رأى نبيُّ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم الّذي عند أصحابه قال : اعملوا و أبشروا فو الّذي نفس محمّد بيده إنَّ معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قطُّ إلّا كثّرتاه مع من هلك من بني آدم و بني إبليس قالوا : و ماهما يارسول الله قال : يأجوج ومأجوج ، قال : فسرِّي عن القوم، فقال : اعملوا و أبشروا فو الّذي نفس محمّد بيده ما أنتم في النّاس يوم القيامة إلّا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدّابّة » (١).

✿(صفة الخصماء وردّ المظالم)✿

فقد عرفتَ هول الميزان وخطره فإنَّ الأعين شاخصة إلى لسان الميزان «فمن ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ومن خفّت موازينه فاُمّه هاوية و ما أدريك ماهيه نارٌ حامية » و اعلم أنّه لاينجو عن خطر الميزان و الحساب إلّا من حاسب في الدّنيا نفسه و وزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما ورد « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا » وإنّما حسابه لنفسه أن يتوب عن كلِّ معصية قبل الموت توبة نصوحاً ، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله . ويردُّ المظالم حبّة بعد حبّة و يستحلُّ كلَّ من تعرَّض له بلسانه و يده و سوء ظنّه بقلبه و يطيب قلوبهم حتّى يموت ولم يبق عليه مظلمة و لافريضة فهذا يدخل الجنّة بغير حساب و إن مات قبل ردِّ المظالم أحاطت به خصماؤه فهذا يأخذ بيده ، و هذا يقبض على ناصيته ، و هذا يتعلّق بتلبيبه ، هذا يقول ظلمتني و هذا يقول شتمتني ، و هذا يقول : قداستهزأت بي ، و هذا يقول : ذكرتني في الغيبة بما يسوءني ، وهذا يقول : جاورتني فأسأت جواري ، و هذا يقول عاملتني فغششتني ، و هذا يقول : بايعتني فغبنتني وأخفيت عنّي عيب سلعتك ، وهذا يقول : كذبت في سعر متاعك ، و هذا يقول رأيتني محتاجاً و كنت غنيّاً فما أطعمتني ، و هذا يقول : وجدتني مظلوماً و كنت قادراً على دفع الظلم عنّي فداهنت الظالم وما راعيتني ، فبينا أنت كذلك و

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري ومسلم ج ١ ص ١٣٩ .

قد أنشب الخصماء فيك مخالبهم فأحكموا في تلابيبك أيديهم و أنت مبهوت متحيّر من كثرتهم حتّى لم يبق في عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته في مجلس إلاّ وقداستحقّ عليك مظلمة بغيبة أوخيانة أونظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم و مددت عنق الرّجاء إلى سيّدك و مولاك لعلّه يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبّار «اليوم تجزى كلّ نفس بما كسبت لاظلم اليوم» فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة ، و توقن نفسك بالبوار و تتذكّر ما أنذرك الله تعالى به على لسان رسوله حيث قال : « و لاتحسبنّ الله غافلاً عمّايعمل الظالمون إنّمايؤخّرهم ليوم تشخص فيه الأبصار۞ مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتدّ إليهم طرفهم و افئدتهم هواء[١] »فماأشدّ فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض النّاس و تناولك أموالهم ، و ما أشدّ حسرتك في ذلك إذا وقف بك على بساط العدل وشوفهت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقيرعاجز مهين لا تقدر على أن تردّ حقّاً أو تظاهر عذراً فعندذلك يؤخذ حسناتك الّتي تعبت فيها عمرك و تنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم فقد روي عن رسول‌الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « هل تدرون من المفلس ؟قالوا :المفلس فينا يا رسول الله من لادرهم له و لا متاع ، فقال : المفلس من اُمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة و زكاة و صيام ، و يأتي قد شتم هذا ، و قذف هذا ، و أكل مال هذا ، و سفك دم هذا وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناتهوهذا من حسناته و إن فنيت حسناته قبل أن يقضى ماعليه اُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثمّ طرح في النّار [٢] » .

أقول : وقد مرّ في صفة أهل‌المحشر حديث‌طويل من‌طريق الخاصّة في‌الخصماء و ردّ المظالم و بيان ذلك مفصّلاً .

قال أبو حامد : فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم‌إذ ليس تسلم لك حسنة من آفات الرّياء و مكائد الشيطان فإن سلمت حسنة واحدة في كلّ مدّة طويلة ابتدرك خصماؤك و أخذوها و لو أنّك حاسبت نفسك و أنت مواظب على صيام‌النهار

---

(١) ابراهيم : ٤٢ و٤٣ .
(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٨ وقد تقدم غير مرة .

وقيام اللّيل لعلمت أنّه لا ينقضي عنك يوم إلّا و يجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف ببقية السيّئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات فكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتصّ فيه للجمّاء من القرناء فقد روي عن أبي ذرّ «أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رأى شاتين تنتطحان فقال، يا أباذرّ أتدري فيما ينتطحان؟ قلت: لا قال ولكن ربّك يدري وسيقضي بينهما يوم القيامة [1]» وروي في قوله تعالى: «وما من دابّة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلّا اُمم أمثالكم [2]» أنّه يحشر الخلق يوم القيامة البهائم و الدّوابّ والطير و كلّ شيء فيبلغ من عدل الله عزّ وجلّ أن يأخذ للجمّاء من القرناء، ثمّ يقول كوني تراباً فذلك حين «يقول الكافر يا ليتني كنت تراباً» فكيف أنت يا مسكين في قوم ترى صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك فتقول: أين حسناتي؟ فيقال لك قد نقلت إلى صحيفة خصمائك و ترى صحيفتك مشحونة بسيّئات طال في الصبر عنها نصبك و اشتدّ بسبب الكفّ عنها عناؤك فتقول: يا ربّ هذه سيّئات ما قارفتها قطّ فيقال هذه سيّئات القوم الّذين اغتبتهم و شتمتهم و قصدتهم بالسّوء و ظلمتهم في المبايعة و المجاورة و المخاطبة و المناظرة والمذاكرة و المدارسة وسائر أصناف المعاملة، قال ابن مسعود: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الشيطان قد يئس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقّرات و هي الموبقات، فاتّقوا الظلم ما استطعتم فإنّ العبد ليجيء يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنّها ستنجيه، فما يزال عبد يجيء فيقول: يا ربّ إنّ فلاناً ظلمني بمظلمة فيقال: امح من حسناته، فما يزال كذلك حتّى ما يبقى له من حسناته شيء، وإنّ مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرّق القوم فاحتطبوا فلم يلبثوا أن أوقدوا نارهم وصنعوا ما أرادوا و كذلك الذّنوب [3]».

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ج ٥ ص ١٦٢.
(٢) الانعام: ٣٨.
(٣) أخرجه أبو يعلى وفيه ابراهيم بن مسلم الهجرى وهو ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ١٨٩.

و من اجتمعت عليه مظالم و قد تاب عنها و عسر عليه استحلال أرباب المظالم فليستكثر من حسناته ليوم القصاص و ليستر ببعض الحسنات بينه و بين الله بكمال الاخلاص بحيث لا يطّلع عليه إلّا الله فعساه يقرّبه ذلك إلى الله فينال بهلطفه الّذي ادّخره لأحبّائه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم.

أقول: ثمّ أورد أبو حامد حديثاً عن أنس يغني عن ذكره ما قدّمناه من طريق الخاصّة ثمّ قال: فتفكّر الآن في نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطّف بك حتّى عفى عنك و أيقنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من فصل القضاء و قد خلع عليك خلعة الرّضا و وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء و بنعيم لا يدور بحواشيه الفناء، و عند ذلك طار قلبك سروراً و فرحاً و ابيضّ وجهك و استنار و أشرق كما يشرق القمر ليلة البدر، فتوهّم نفسك يتحرّك بين الخلايق رافعاً رأسك خالياً عن الأوزار ظهرك، و نضرة النعيم تعرف في وجهك و برد الرّضا يتلألأ من جبينك و خلق الأوّلين و الآخرين ينظرون إليك و إلى حالك و يغبطونك في حسنك و جمالك و الملائكة يمشون بين يديك و من خلفك و ينادون على رؤوس الأشهاد هذا فلان بن فلان قد رضي الله عنه و أرضاه و قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً فترى أنّ هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة الّتي تنالها في قلوب الخلق في الدّنيا برياك و مداهنتك و تصنّعك و تزيّنك، فإن كنت تعلم أنّه خيرٌ منه بل لا نسبة له إليه فتوسّل إلى إدراك هذه الرّتبة بالاخلاص الصّافي و النيّة الصادقة في معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلّا به و إن تكن الأُخرى و العياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هيّنةً وهي عند الله عظيم فمقتك لأجلها وقال: عليك لعنتي يا عبد السّوء لا أتقبّل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلّا و يسودّ وجهك ثمّ تغضب عليك الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون: عليك لعنتنا و لعنة الخلائق أجمعين، وعند ذلك ينثال إليك الزّبانية و قد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفظاظتها و زعارتها (١) و صورها المنكرة فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ

(١) انثال اليه الناس من كل وجه أى انصبوا. والزعارة: الشراسة وهي سوء الخلق.

الخلائق و هم ينظرون إلى اسوداد وجهك و إلى ظهور خزيك و أنت تنادي بالويل و الثبور و هم يقولون لك : « لا تدع اليوم ثبوراً واحداً وادع ثبوراً كثيراً » و تنادي الملائكة و يقولون : هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه و مخازيه و لعنه بقبائح مساويه ، فشقي شقاوة لايسعد بعدها أبداً ، وربّمايكون ذلك بذنب أذنبته خيفة من عباد الله أو طلباً للمكانة في قلوبهم أو خوفاً من الافتضاح عندهم فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدّنيا المنقرضة ثمّ لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملأ العظيم مع التعرّض لسخط الله و عقابه الأليم والسياق بأيدي الزّبانية إلى سواء الجحيم ، فهذه أحوالك و أنت بعد لم تشعر الخطر الأعظم وهو خطر الصّراط .

✡(صفة الصراط)✡

ثمّ تفكّر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى : « يوم نحشر المتّقين إلى الرّحمن و فداً ✡ ونسوق المجرمين إلى جهنّم وِرداً(١) » و في قوله تعالى : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم ✡ وقِفوهم إنّهم مسؤلون (٢) » فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصّراط و هو جسرٌ ممدودٌ على متن جهنّم أحدٌ من السيف و أدقٌ من الشّعر فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خفّ على صراط الآخرة و نجا ، و من عدل عن الاستقامة في هذا و أثقل ظهره بالأوزار و عصى ، عثر في أوّل قدم من الصّراط و تردى ، فتفكّر الآن فيما يحلّ من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصّراط و دقّته ثمّ وقع بصرك على سواد جهنّم من تحته ثمّ قرع سمعك شهيق النّار و تغيّظها و قد كلّفت أن تمشي على الصّراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك و تزلزل قدمك و ثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدّة الصّراط فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى قدميك فأحسست بحدّته و اضطررت إلى أن ترفع القدم الثاني والخلايق بين يديك يزلّون ويتعثّرون وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف و الكلاليب و أنت تنظر إليهم كيف يتنكّسون فيتسفّل إلى جهة النّار رؤوسهم و

---

(١) مريم : ٨٥ و ٨٦ . (٢) الصافات : ٢٣ و ٢٤ .

تعلو أرجلهم ، فياله من منظر ما أفظعه و مرتقى ما أصعبه و مجاز ما أضيقه ، فانظر إلى حالك و أنت تزحف عليه [١] و تصعد إليه و أنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يميناً و شمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون في النّار والرّسول عليه السلام يقول : يا ربّ سلّم سلّم ، و الزّعقات [٢] بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنّم لكثرة من يزلّ عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلّت قدمك ولم ينفعك ندمك ، فناديت بالويل و قلت : هذا ما كنتُ أخافه فياليتني قدّمت لحياتي ، ياليتني اتّخذت مع الرّسول سبيلاً ، يا ويلتى ليتني لم أتّخذ فلاناً خليلاً ، يا ليتني كنت تراباً ، يا ليتني كنت نسياً منسيّاً ، يا ليت اُمّي لم تلدني ، وعند ذلك تختطفك النيران ، و العياذ بالله و ينادي المنادي اخسئوا فيها ولا تكلّمون فلا يبقى سبيل إلى الصياح والأنين والتنفّس و الاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك و هذه الأخطار بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفّار في دركات جهنّم ، وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً و بالاستعداد له متهاوناً ، فما أعظم جرأتك و طغيانك ، و ماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضا الله بطاعته و ترك معاصيه فلو لم يكن بين يديك إلّا هول الصراط و ارتياع [٣] قلبك من خطرك في الجواز و إن سلمت فناهيك به هولاً و فزعاً و رعباً قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ينصب الصّراط بين ظهرانَيْ جهنّم فأكون أوّل من يجيز باُمّته من الرّسل ولا يتكلّم يومئذ إلّا الرّسل و دعوى الرّسل يومئذ اللّهمّ سلّم سلّم ، وفي جهنّم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السّعدان قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : فإنّها مثل شوك السعدان غير أنّه لا يعلم قدر عظمها إلّا الله تعالى يخطف النّاس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله و منهم من يخردل [☆] ثمّ ينجو [٤] » .

و قال أبو سعيد الخدري : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يمرّ النّاس على جسر

---

(١) زحف اليه أى مشى . (٢) الزعقة : الصيحة . (٣) الارتياع : الاضطراب .
(٤) أخرجه البخارى ج ٨ ص ١٤٧ من حديث أبى هريرة فى حديث طويل .
(☆) المخردل : المرمى المصروع .

جهنّم و عليه حسك و كلاليب وخطاطيف يخطف النّاس يميناً و شمالاً و على جنبتيه ملائكة يقولون : اللّهمّ سلّم سلّم ، فمن النّاس من يمرّ عليه كالبرق ، ومنهم من يمرّ كالرّيح ، ومنهم من يمرّ كالفرس المجري ، ومنهم من يسعى سعياً ، و منهم من يمشي مشياً ، و منهم من يحبو حبواً ، و منهم من يزحف زحفاً ، فأمّا أهل النّار الّذين هم أهلها فلايموتون و لا يحيون ، و أمّا اُناس يؤخذون بذنوب و خطايا فيحترقون فيكونون فحماً ، ثمّ يؤذن في الشفاعة ـ و ذكر إلى آخر الحديث ـ »[1] .

و عن ابن مسعود أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : « يجمع الله الأوّلين و الآخرين في صعيد واحد لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السّماء ينتظرون فصل القضاء ـ وذكر الحديث إلى ذكر السجود ـ قال : ثمّ يقول : ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ، و منهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه ، و منهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتّى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوره على إبهام قدمه فيضيء مرّة ويطفأ مرّة فإذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا طفىء قام ـ ثمّ ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم ـ فمنهم من يمرّ كطرف البصر ، ومنهم من يمرّ كالبرق ، ومنهم من يمرّ كالسحاب ، ومنهم من يمرّ كانقضاض الكوكب ، و منهم من يمرّ كشدّ الفرس ، و منهم من يمرّ كشدّ الرّجل حتّى أنّ الّذي اُعطي نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه و يديه و رجليه يجرّ يداً و يعلّق يداً و يجرّ رجلاً ويعلّق رجلاً ويصيب جوانبه النّار ، قال : فلايزال كذلك حتّى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثمّ قال : الحمدلله فقد أعطاني الله مالم يعط أحداً إذ نجّاني منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنّة فيغتسل »[2] .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه الكلينيّ و الصّدوق رحمهما الله عن

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ٤ ص ٥٨٤ . و رواه مسلم باختلاف في لفظه ج ١ ص ١٢٩ .

(٢) رواه الحاكم ج ٤ ص ٥٩٠ في حديث طويل .

أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : « لمّا نزلت هذه الآية « وجيء يومئذ بجهنّم [١] » سئل عن ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أخبرني الرّوح الأمين أنّ الله لا إله غيره إذا جمع الأوّلين و الآخرين اُتي بجهنّم تقاد بألف زمام آخذ بكلّ زمام ألف ملك من الغلاظ الشداد لها هدّة وتغيّظ و زفير وأنّها لتزفر الزّفرة فلولا أنّ الله أخّرهم للحساب لأهلكت الجميع ثمّ يخرج منها عنق يحيط بالخلائق البرّ منهم و الفاجر فما خلق الله عبداً من عباده ملكاً و لا نبيّاً إلّا ينادي يا ربّ نفسي نفسي و أنت تقول : يا ربّ اُمّتي اُمّتي ثمّ يوضع عليها صراط أدقّ من حدّ السيف عليه ثلاث قناطر أمّا واحدة فعليها الأمانة و الرّحم و أمّا الاُخرى فعليها الصلاة و أمّا الثالثة ، فعليها عدل ربّ العالمين لا إله غيره فيكلّفون الممرّ عليه فيحبسهم الرّحم و الأمانة فإن نجوا منها حبستهم الصلاة و إن نجوا منها كان المنتهى إلى ربّ العالمين عزّ و جلّ و هو قوله تبارك و تعالى : « إنّ ربّك لبالمرصاد [٢] » و النّاس على الصّراط فمتعلّق و قدم تستمسك و قدمٌ تزلّ ، و الملائكة حولهم ينادون : يا حليم اغفر واصفح وعد بفضلك و سلّم سلّم ، و النّاس يتهافتون فيها كالفراش فإذا نجا ناج برحمة الله عزّ وجلّ نظر إليها فقال : الحمد لله الّذي نجّاني منك بعد إياس بمنّه و فضله إنّ ربّنا لغفور شكور [٣] » .

و روى الصدوق عن الصّادق عليه السلام قال : « النّاس يمرّون على الصّراط طبقات و الصّراط أدقّ من الشعر و أحدّ من السيف ، فمنهم من يمرّ مثل البرق ، و منهم من يمرّ مثل عدو الفرس ، ومنهم من يمرّ حبواً ، ومنهم من يمرّ مشياً ، ومنهم من يمرّ متعلّقاً قد تأخذ النّار منه شيئاً و تترك شيئاً [٤] » .

وبإسناده عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لعليّ عليه السلام : « يا عليّ إذا كان يوم القيامة أقعد أنا و أنت و جبرئيل على الصّراط فلا يجوز على الصّراط إلّا من كانت معه براءة بولايتك [٥] » .

---

(١) الفجر : ٢٣ . (٢) الفجر : ١٤ .

(٣) الصدوق في أماليه وعلي بن ابراهيم في تفسيره ص ٧٢٤ . (٤) أمالي الصدوق ص ١٠٧ . (٥) معاني الاخبار ص ٣٥ تحت رقم ٦ وفي المصدر فلم يجز .

قال أبو حامد : فهذه أهوال الصّراط وعظائمه و طوّل فيه فكرك فإنّ أسلم النّاس من أهوال القيامة من طال فكره فيها في الدّنيا فإنّ الله لا يجمع على عبد خوفين ، فمن خاف هذه الأهوال في الدّنيا أمنها في الآخرة و لست أعني بالخوف رقّة كرقّة النساء تدمع عينك و يرقّ قلبك حال السماع ، ثمّ تنساه على القرب و تعود إلى لهوك و لعبك ، فماذلك من الخوف في شيء ، بل من خاف شيئاً هرب منه و من رجاشيئاً طلبه ، فلاينجيك إلّا خوف يمنعك عن معاصي الله و يحثّك على طاعته و أبعد من رقّة النساء خوف الحمقى الّذين إذا سمعوا الأهوال سبق ألسنتهم إلى الاستعاذة فقال أحدهم : أستعيذ بالله ، نعوذبالله سلّم سلّم ، وهم مع ذلك مصرّون على المعاصي الّتي هي سبب هلاكهم ، فإنّ الشيطان يضحك من استعاذتهم كما تضحك أنت على من يقصده سبع ضار في صحراء و وراءه حصن حصين فإذا رأى أنياب السبع و صولته من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين و أستعيذ بشدّة بنيانه و إحكام أركانه ، فيقول ذلك بلسانه و هو قاعد في مكانه ، فأنّى يغني ذلك عن السبع؟! و كذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلّا قول لا إله إلّا الله صادقاً ، و معنى صدقه أن لايكون لك مقصود سوى الله و لامعبود سواه و من اتّخذ إلهه هواه فهو بعيد عن الصّدق في توحيده و أمره مخطر في نفسه ، فإن عجزت عن ذلك كلّه فكن محبّاً لرسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حريصاً على تعظيم سنّته و متشوّقاً إلى مراعاة قلوب الصّالحين من اُمّته ومتبرّكاً بأدعيتهم ، فعساك تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

☼(صفة الشفاعة)☼

إعلم أنّه إذا حقّ دخول النّار على طوائف من المؤمنين فإنّ الله تعالى بفضله يقبل منهم شفاعة الأنبياء و الصدّيقين بل شفاعة العلماء و الصّالحين و كلّ من له عند الله تعالى جاه بحسن معاملته فإنّ له شفاعة في أهله و قرابته و أصدقائه ومعارفه فكن حريصاً على أن تكسب لنفسك عند الله رتبة الشفاعة و ذلك بأن لاتحقّر آدمياً أصلاً فإنّ الله تعالى خبأ ولايته في عباده فلعلّ الّذي تزدريه عينك هو ولي الله

و لاتستصغر معصية أصلاً فإنّ الله تعالى خبأ غضبه في معاصيه فلعلّ مقت الله فيه و لاتستحقر طاعة أصلاً فإنّ الله تعالى خبأ رضاه في طاعاته فلعلّ رضا الله فيها ولو الكلمة الطيّبة أو اللّقمة أو النيّة الحسنة أو ما يجري مجراها ، و شواهد الشفاعة في القرآن و الأخبار كثيرة قال الله تعالى : « و لسوف يعطيك ربّك فترضى [١] » روى عمرو بن العاص أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم تلا قول إبراهيم عليه السلام : « ربّ إنّهنّ أضللن كثيراً من النّاس فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم [٢] » وقول عيسى ابن مريم عليه السلام : « إن تعذّبهم فإنّهم عبادك [٣] » ثمّ رفع يديه وقال : اُمّتي اُمّتي ثمّ بكى فقال الله عزّ وجلّ : يا جبرئيل إذهب إلى محمّد فسله ما يبكيك ، فأتاه فسأله ، فأخبره والله أعلم به ، فقال : ياجبرئيل اذهب إلى محمّد فقل له : إنّا سنرضيك في اُمّتك و لانسوؤك فيهم [٤] ».

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « اُعطيت خمساً لم يعطهنّ أحدٌ قبلي نصرت بالرّعب مسيرة شهر و اُحلّت لي الغنائم و لم تحلّ لأحد قبلي و جعلت لي الأرض مسجداً و ترابها طهوراً فأيّما رجل من اُمّتي أدركته الصلوة فليصلّ واُعطيت الشفاعة ، و كلّ نبيّ بعث إلى قومه خاصّة وبعثت إلى النّاس عامّة [٥] » .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النّبيّين و خطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر [٦] » .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « أنا سيّد ولد آدم و لا فخر ، و أنا أوّل من تنشقّ الأرض عنه ، و أنا أوّل شافع و أنا أوّل مشفّع بيدى لواء الحمد تحته آدم فمن دونه [٧] » .

---

(١) الضحى : ٥ . (٢) ابراهيم : ٣٦ .

(٣) المائدة : ١١٨

(٤) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٣٢ من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص و لعله سقط من النسخ ذكر عبدالله .

(٥) أخرجه البخارى ومسلم والنسائى من حديث جابر بسند صحيح كما فى الجامع الصغير .

(٦) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣١٤ من حديث ابى بن كعب عن أبيه .

(٧) أخرجه أحمد فى المسند ج ٣ ص ١٤٤ من حديث أنس .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: « لكلّ نبي دعوة مستجابة فاُريد أن أختبي دعوتي شفاعة لاُمّتي يوم القيامة (١) ».

وقال ابن عبّاس - رضي الله عنه - قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها و يبقى منبري لا أجلس عليه فإنّما أنا بين يدي ربّي منتصباً مخافة أن يبعث بي إلى الجنّة وتبقى اُمّتي بعدي فأقول: يا ربّ اُمّتي، فيقول الله تعالى: يا محمّد و ماذا تريد أن أصنع باُمّتك فأقول: يا ربّ عجّل حسابهم، فما أزال أشفع حتّى أعطى صكاكاً برجال قد بعث بهم إلى النّار، و حتّى إنّ مالكاً خازن النّار يقول: يا محمّد ما تركت للنّار لغضب ربّك في اُمّتك من بقيّة (٢) ».

و قال صلى الله عليه وآله وسلم: « إنّي لأشفع يوم القيامة لأكثر ممّا على وجه الأرض من حجر و مدر (٣) ».

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد حديث الشفاعة بطوله عن أبي هريرة بما فيه ممّا فيه و نحن نذكر بدله ما ورد من طريق الخاصّة و هو ما رواه عليّ بن إبراهيم في تفسيره بسند موثّق عن الصّادق عليه السلام: « إنّه سئل عن شفاعة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة قال: يلجم النّاس يوم القيامة العرق فيقولون: انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا عند ربّك فيقول: إنّ لي ذنباً و خطيئة فعليكم بنوح فيردّهم إلى من يليه و يردّهم كلّ نبيّ إلى من يليه حتّى ينتهون إلى عيسى فيقول: عليكم بمحمّد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيعرضون أنفسهم عليه و يسألونه فيقول: انطلقوا فينطلق بهم إلى باب الجنّة و يستقبل باب الرّحمن و يخرّ ساجداً فيمكث ما شاء الله فيقول: ارفع رأسك و اشفع تشفّع وسل تعط، ذلك قوله عزّ وجلّ: « عسى أن يبعثك

---

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٣٣ من حديث أنس.

(٢) أخرجه الطبراني في الاوسط وفي اسناده محمد بن ثابت البناني و هو ضعيف كما في المغني.

(٣) أخرجه الطبراني في الاوسط وفيه أحمد بن عمرو صاحب علي المدني ويعرف بالقلوري مجهول كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٧٩.

ربّك مقاماً محموداً[١] » .

و روى الصّدوق باسناده عن الرّضا عليه السلام قال : « قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي و من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله شفاعتي ، ثمّ قال : إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من امّتي فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل[٢] » .

قال أبوحامد : فهذه شفاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم و لآحاد امّته من العلماء و الصّالحين شفاعة أيضاً حتّى قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يدخل الجنّة بشفاعة رجل من امّتي أكثر من ربيعة و مضر[٣] » .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يقال للرّجل : قم يافلان فاشفع فيقوم الرّجل فيشفع للقبيلة و لأهل بيت و للرّجل وللرّجلين على قدر عمله[٤] » .

أقول: ثمّ ذكر أبو حامد في شفاعة المؤمنين حديثاً عن أنس و نحن نذكر من طريق الخاصّة و هو ما روّيناه عن الصّادق عليه السلام قال : « يؤتى بعبد يوم القيامة ليست له حسنة فقال له اذكر وتذكّر هل لك حسنة ؟ قال : فيتذكّر فيقول : ياربّ مالي حسنة إلّا أنّ عبدك فلاناً المؤمن مرّ بي فطلب منّي ماء يتوضّأ به فيصلّي به فأعطيته قال : فيدعى ذلك العبد المؤمن فيذكر ذلك فيقول : نعم يا ربّ مررت به فطلبت منه ماء فأعطاني و توضّأت و صلّيت قال : فيقول الله : ادخلوا عبدي الجنّة[٥] » .

☼(صفة الحوض)☼

إعلم أنّ الحوض مكرمة عظيمة خصّ الله بها نبيّنا صلّى الله عليه وآله وسلّم و قد اشتملت الأخبار

---

(١) المصدر ٣٨٧ ، والآية في سورة الاسراء : ٧٩ .

(٢) العيون ص ٧٨ والامالى ص ٥ .

(٣) أخرجه أحمد و رجاله ثقات كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٨١ و رواه الشيخ الطوسى في أماليه ص ٦٣ بنحوه .

(٤) راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٨١ .

(٥) رواه الحسين بن سعيد الاهوازى في كتابه كما في البحار كتاب العدل والمعاد .

على وصفه و نحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدُّنيا علمه و في الآخرة ذوقه فإنَّ من صفاته أنَّ من شرب منه لم يظمأ أبداً قيل : لمّـا نزلت سورة الكوثر قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا : الله و رسوله أعلم قال : إنّه نهر و عدنيه ربّي عزَّ وجلَّ في الجنّة عليه خيرٌ كثير ، عليه حوضٌ ، ترد اُمّتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم (١) » .

وقيل : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول : « مابين لابتي حوضي مثل مابين المدينة و صنعاء أو مثل ما بين المدينة و عمّان (٢) » .

و روي أنّه لمّا نزل قوله تعالى : « إنّا أعطيناك الكوثر (٣) » قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « هو نهر في الجنّة حافتّاه من ذهب شرابه أشدّ بياضاً من اللّبن و أحلى من العسل و أطيب ريحاً من المسك يجري على جنادل اللّؤلؤ و المرجان (٤) » .

و قال ثوبان مولى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إنَّ حوضي مابين عدن إلى عمّان البلقاء ماؤه أشدُّ بياضاً من اللّبن و أحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً أوَّل النّاس وروداً عليه فقراء المهاجرين »(٥) و في رواية أبي ذرّ «أنّه يسكب فيه ميزابان من الجنّة (٦)».

أقول: و من طريق الخاصّة عن أهل البيت عليهم السلام « إنَّ الوالي عليه يوم القيامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يسقي منه أولياءه و يذود عنه أعداءه » (٧). ومن طريق العامّة ممّا رووه في صحاحهم عن النبيِّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّه قال : «ليردنَّ النّاس من أصحابي عليَّ الحوض حتّى إذا عرفتهم اختلجوا دوني فأقول أصحابي أصحابي - وفي رواية اُصيحابي اُصيحابي - فيقال : إنّك لاتدري ما أحدثوا بعدك » وزاد في اُخرى

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم و أبو داود والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردوية والبيهقي في سننه من حديث أنس كما في الدر المنثور ج ٦ ص ٤٠١ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٦ ص ٧١ . (٣) الكوثر : ١ .

(٤) أخرجه الدارمي من حديث ابن عمر بنحوه .

(٥) أخرجه الترمذي ج ٩ ص ٢٧٠ و ٢٧٣ . (٦) مسلم ج ٧ ص ٦٩.

(٧) أمالي الصدوق ص ١٦٨ .

« و ارتدّوا على أدبارهم القهقرى [١] » .

« و سئل الصّادق عليه السلام عن قول الرّجل للرّجل جزاك الله خيراً ما يعني به؟ فقال عليه السلام : « إنّ خيراً نهر في الجنّة مخرجه من الكوثر و الكوثر مخرجه من ساق العرش عليه منازل الأوصياء و شيعتهم ، على حافتي النهر جواري نابتات كلّما قلعت واحدة نبتت اُخرى سمّي بذلك النهر ، و ذلك قوله عزّ وجلّ : « فيهنّ خيرات حسان [٢] » فإذا قال الرّجل لصاحبه : «جزاك الله خيراً» فإنّما يعني بذلك تلك المنازل الّتي قد أعدّها الله تعالى لصفوته و خيرته من خلقه [٣] » .

قال أبو حامد : و عن سمرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إنّ لكلّ نبي حوضاً و إنّهم ليتباهون أيّهم أكثر واردة وإنّي لأرجو أن أكون أكثرهم واردة [٤] » .

فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وآله فليرج كلّ عبد أن يكون في جملة الواردين و ليحذر بأن يكون متمنّياً و مغترّاً و هو يظنّ أنّه راج فإنّ الرّاجي للحصاد من قد بثّ البذر و نقّى الأرض و سقاها الماء ثمّ جلس يرجو فضل الله بالإنبات و دفع الصواعق إلى أوان الحصاد ، فأمّا من ترك الحراثة و الزّراعة و تنقية الأرض و سقيها و أخذ يرجو من فضل الله تعالى أن ينبت له الحبّ و الفاكهة فهذا مغترّ و متمنّ و ليس من الرّاجين في شيء و هكذا رجاء أكثر الخلق و هو غرور الحمقى نعوذ بالله من الغرور و الغفلة فإنّ الإغترار بالله أعظم من الإغترار بالدّنيا قال الله تعالى : « فلا تغرّنّكم الحيوة الدّنيا ولا يغرّنّكم بالله الغرور [٥] » .

✡(القول في صفة جهنّم و أهوالها و أنكالها)✡

أيّها الغافل عن نفسه المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدّنيا المشرفة على

(١) راجع صحيح مسلم ج ٦ ص ٦٨ و صحيح البخارى ج ٩ ص ٥٨ و ٥٩ .

(٢) الرحمن : ٧٠ .

(٣) معانى الاخبار للصدوق ص ١٨٢ .

(٤) أخرجه الترمذى ج ٩ ص ٢٧٠ و قال : غريب و قد روى الاشعث بن عبدالملك هذا الحديث عن الحسن عن النبى صلى الله عليه و آله مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح .

(٥) لقمان : ٣٣ .

الانقضاء و الزّوال دع التفكّر فيما أنت مرتحل عنه و اصرف الفكر إلى موردك فانّك أخبرت بأنّ النّار مورد للجميع إذ قيل : « و إن منكم إلّا واردها كان على ربّك حتماً مقضيّاً ۞ ثمّ ننجّي الّذين اتّقوا و نذر الظالمين فيها جثيّاً(١) » فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شكّ فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فعساك تستعدّ للنجاة منه بالتشمّر لأعمالها ، وتأمّل في حال الخلائق و قد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا فبيناهم في كربها وأهوالها واقفين ينتظرون حقيقة إنبائها و تشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات الشعب و أظلّت عليهم نار ذات لهب و سمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الرّكب حتّى أشفق البرآء من سوء المنقلب ، و خرج المنادي من الزّبانية قائلاً : أين فلان بن فلان المسوّف نفسه في الدّنيا بطول الأمل المضيّع عمره في سوء العمل ، فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد و يسوقونه إلى العذاب الشديد و ينكّسونه في قعر الجحيم و يقولون : له ذق إنّك أنت العزيز الكريم ، فاُسكنوا داراً ضيّقة الأرجاء : مظلمة المسالك ، مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ، ويؤبّد فيها السعير ، فشرابهم فيها الحميم ، و مستقرّهم الجحيم ، الزّبانية تقمعهم ، و الهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها الهلاك ، و ما لهم منها فكاك ، قد شدّت أقدامهم إلى النواصي ، و اسودّت وجوههم من ظلمة المعاصي ، ينادون من أكنافها ، و يصيحون في نواحيها و أطرافها ، يا مالك قد حقّ علينا الوعيد ، يا مالك قد أثقلنا الحديد ، يا مالك قد نضجت منّا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فانّا لا نعود ، و تقول الزّبانية : هيهات لات حين أمان ، ولا خروج لكم من دار الهوان ، فاخسئوا فيها و لا تكلّمون ، ولو اُخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه عائدون ، فعند ذلك يقنطون ، و على ما فرّطوا في جنب الله يتأسّفون ، ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبّون على وجوههم مغلولين ، النّار من فوقهم ، والنّار من تحتهم ، والنّار عن أيمانهم ، و النّار عن شمائلهم ، فهم غرقى في النّار ، طعامهم نار ، و شرابهم نار ، و

---

(١) مريم : ٧١ و ٧٢ .

لباسهم نار، و مهادهم نار، فهم بين مقطّعات النيران و سرابيل القطران، و ضرب المقامع، و ثقل السلاسل، فهم يتجلجلون في مضائقها، ويتحطّمون في دركاتها، و يضطربون بين غواشيها، تغلي بهم النّار كغلي القدور، و يهتفون بالويل و العويل و الثبور، و مهما دعوا بالثبور صبّ من فوق رؤوسهم الحميم، يصهر به مافي بطونهم و الجلود، و لهم مقامع من حديد، تهشم بها هامّهم، فيتفجّر الصديد من أفواههم، و تنقطّع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم، و يسقط من الوجنات لحومها، و يمتعط من الأطراف شعورها[١] بل جلودها و كلّما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها، قد عريت من اللّحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهي تنشّ في لفح تلك النيران[٢] وهم مع ذلك يتمنّون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد اسودّت وجوههم أشدّ سواداً من الحمم[٣] وأعميت أبصارهم، وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم، و كسرت عظامهم، وجدعت آذانهم، ومزّقت جلودهم، و غلّت أيديهم إلى أعناقهم، وجمع بين نواصيهم و أقدامهم، وهم يمشون على النّار بوجوههم ويطئون حسك الحديد بأحداقهم، فلهيب النّار سار في بواطن أجزائهم، و حيّات الهاوية و عقاربها متشبّثة بظواهر أعضائهم، هذه جملة أحوالهم فانظر الآن في تفصيل أهوالهم و تفكّر أوّلاً في أودية جهنّم و شعابها، فقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ في جهنّم سبعين ألف واد، في كلّ واد سبعون ألف شعب، في كلّ شعب سبعون ألف ثعبان، و سبعون ألف عقرب، لا ينتهي الكافر و المنافق حتّى يواقع ذلك كلّه[٤]».

و قال عليّ عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تعوّذوا بالله من جبّ الحزن أو وادي الحزن، قيل: يارسول الله: و ما وادي الحزن أوجبّ الحزن؟ قال: واد

---

(١) تمعط وامتعط شعره أى تساقط من داء ونحوه.

(٢) النشيش: صوت الماء اذا غلى ولفح النار: احراقها.

(٣) الحمم: الفحم ويقال له بالفارسية (ذغال).

(٤) قال العراقى: لم أجده هكذا بجملته.

في جهنّم تتعوّذ منه جهنّم كلّ يوم سبعون مرّة أعدّه الله تعالى للقرّاء المرائين[1] »

فهذه سعة جهنّم وانشعاب أوديتها ، وهي بحسب أودية الدّنيا وشهواتها وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة الّتي بها يعصي العبد ، بعضها فوق بعض ، الأعلى جهنّم ، ثمّ سقر ، ثمّ لظى ، ثمّ الحطمة ، ثمّ السعير ، ثمّ الجحيم ، ثمّ الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فإنّه لاحدّ لعمقها كما لاحدّ لعمق شهوات الدّنيا ، فكما لا ينتهي أرب من الدّنيا إلّا إلى أرب أعظم منه فلاتنتهي هاوية من جهنّم إلّا إلى هاوية أعمق منها .

قيل : « كنّا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فسمعنا وجبة فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : أتدرون ماهذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، فقال : هذا حجر اُرسل في جهنّم منذ سبعين عاماً الآن حين انتهى إلى قعرها[2] » ثمّ انظر إلى تفاوت الدّركات فإنّ الآخرة أكبر درجات و أكبر تفضيلاً فكما أنّ إكباب النّاس على الدّنيا متفاوت فمن منهمك مستكبر كالغريق فيها و من خائض فيها إلى حدّ محدود فكذلك تناول النّار لهم متفاوت فإنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة فلا تترادف أنواع العذاب على كلّ من في النّار كيفما كان بل لكلّ واحد منهم حدّ معلوم على قدر عصيانه و ذنبه إلّا أنّ أقلّهم عذاباً لو عرضت عليه الدّنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدّة ما هو فيه قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم « إنّ أدنى أهل النّار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلي دماغه من حرارة نعليه[3] » فانظر الآن إلى من خفّف عليه واعتبر به من شدّد عليه ، و مهما شككت في شدّة عذاب النّار فقرّب أصبعك من النّار و قس بذلك ،

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٢٥٦ وابن عدى من حديث أبى هريرة ورواه البيهقى باسناد حسن كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٦٨

(٢) روى نحوه مسلم ج ٨ ص ١٥٠ و راجع الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٧٠ .

(٣) رواه البغوى فى المصابيح ج ٢ ص ٢٢٢ من حديث أبى هريرة بأدنى اختلاف فى اللفظ و رواه أحمد والبزار ورواته رواة الصحيح كمافى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٨٧. وأخرجه الحاكم فى المستدرك ج ٤ ص ٥٨١ و قال صحيح ، ورواه مسلم ج ١ ص ١٣٥ واللفظ له .

ثمّ اعلم أنّك أخطأت في القياس فإنّ نار الدّنيا لا تناسب نار جهنّم و لكن لمّا كان أشدّ عذاب في الدّنيا عذاب هذه النّار عرف عذاب جهنّم بها، و هيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النّار لخاضوها طائعين هرباً ممّا هم فيه و عن هذا عبّر في بعض الأخبار حيث قيل: «إنّ نار الدّنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرّحمة سبعين مرّة حتّى أطاقها أهل الدّنيا»[1] بل صرّح رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم بصفة نار جهنّم فقال: «أمر الله تعالى أن اُوقد على النّار ألف عام حتّى احمرّت، ثمّ اُوقد عليها ألف عام حتّى ابيضّت، ثمّ اُوقد عليها ألف عام حتّى اسودّت فهي سوداء مظلمة[2]» و قال صلّى الله عليه و آله و سلّم: «اشتكت النّار إلى ربّها فقالت: يا ربّ أكل بعضي بعضاً فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء و نفس في الصيف فأشدّ ما تجدونه في الصّيف من حرّها و أشدّ ما تجدونه في الشتاء من زمهريرها[3]»، ثمّ انظر بعد هذا في نتن الصديد الّذي يسيل من أبدانهم حتّى يغرقوا فيه فهو الغسّاق.

قال أبو سعيد الخدريّ: قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «لو أنّ دلواً من غسّاق جهنّم اُلقي في الدّنيا لأنتن أهل الأرض[4]» فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرّعه و لا يكاد يسيغه و يأتيه الموت من كلّ مكان و ما هو بميّت «و إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب و ساءت مرتفقاً» ثمّ انظر إلى طعامهم و هو الزّقّوم كما قال الله تعالى: «ثمّ إنّكم أيّها الضّالّون المكذّبون ۞ لآكلون من شجر من زقّوم ۞ فمالئون منها البطون ۞ فشاربون عليه من الحميم ۞ فشاربون شرب الهيم[5]».

---

(١) سيأتي عنقريب من طريق الخاصة تمام الحديث.

(٢) رواه الترمذي ج١٠ ص٥٨ والبيهقي والاصفهاني وابن ماجه من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه البغوي في المصابيح ج ٢ ص ٢٢٢ من حديث أبي هريرة والترمذي ج ١٠ ص ٦٠ من حديثه أيضاً.

(٤) أخرجه الترمذي ج١٠ ص٥٣ وقال: انما نعرفه من حديث رشدين سعد وفيه مقال.

(٥) الواقعة: ٥١ الى ٥٥.

و قال تعالى : « إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم ☆ طلعها كأنّه رؤس الشياطين ☆ فإنّهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ☆ ثمّ إنّ لهم عليها لشوباً من حميم [١] » وقال تعالى : « تصلى ناراً حامية ☆ تسقى من عين آنية [٢] » و قال تعالى « إنّ لدينا أنكالاً وجحيماً ☆ و طعاماً ذا غصّة وعذاباً أليماً [٣] » و قال ابن عباس قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « لو أنّ قطرة من الزّقّوم قطرت في بحار الدّنيا لأفسدت على أهل الدّنيا معايشهم فكيف من يكون طعامه ذلك [٤] » .

قال أنس : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « ارغبوا فيما رغّبكم الله ، و احذروا ممّا حذّركم الله ، و خافوا ما خوّفكم الله به من عذابه و عقابه و من جهنّم ، فإنّه لو كانت قطرة من الجنّة معكم في دنياكم الّتي أنتم فيها لطيّبتها لكم ، و لو كانت قطرة من النّار معكم في دنياكم الّتي أنتم فيها لخبّثتها عليكم [٥] » .

و قال أبو الدّرداء : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « يلقى على أهل النّار الجوع حتّى يعدل ماهم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن و لا يغني من جوع و يستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصّة فيذكرون أنّهم كانوا يسيغون الغصص في الدّنيا فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون : ادعوا خزنة جهنّم فيدعون خزنة جهنّم [٦] أن ادعوا ربّكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب فيقولون : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات قالوا : بلى قالوا : فادعوا و ما دعاء الكافرين إلّا في ضلال قال : فيقولون : ادعوا مالكاً فيدعون فيقولون : يا مالك ليقض علينا ربّك قال فيجيبهم أنّكم ماكثون » . قال الأعمش : نبّئت أنّ بين دعائهم و بين إجابة مالك إيّاهم ألف عام ، قال : فيقول

---

(١) الصافات : ٦٤ الى ٦٨ .

(٢) الغاشية : ٤ و ٥ . (٣) المزمل : ١٢ و ١٣

(٤) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٥٤ و قال : صحيح .

(٥) رواه البيهقى كما فى الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٤٥٣ . (٦) كذا .

بعضهم لبعض: ادعوا ربّكم فلا أحدٌ خيرٌ من ربّكم فيقولون: «ربّنا غلبت علينا شقوتنا و كنّا قوماً ضالّين، ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون» قال: فيجيبهم «اخسئوا فيها ولا تكلّمون» قال: فعند ذلك يئسوا من كلّ خير و عند ذلك أخذوا في الزّفير و الحسرة و الويل[1]».

و قال أبو أمامة: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم[2]: في قوله: «ويسقى من ماء صديد ۞ يتجرّعه ولا يكاد يسيغه» قال: «يقرّب إليه فيتكرّهه؛ فإذا أدني منه شوى وجهه و وقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطّع أمعاءه حتّى يخرج من دبره، يقول الله تعالى: «و سقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم[3]» و قال تعالى: «و إن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه[4]».

فهذا طعامهم و شرابهم عند جوعهم وعطشهم فانظر الآن إلى حيّات جهنّم و عقاربها و إلى شدّة سمومها و عظم أشخاصها و فظاعة منظرها و قد سلّطت على أهلها و اغريت بهم فهي لاتفترُ عن النهش و اللّدغ ساعة واحدة.

و عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم «من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثّل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ثمّ يأخذ بلهازمه يعني أشداقه فيقول: أنا مالك أنا كنزك، ثمّ تلا قوله تعالى: «و لا يحسبنّ الّذين يبخلون بما آتيهم الله من فضله هو خيراً لهم - الآية[5]».

و قال الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم: «إنّ في النّار لحيّات مثل أعناق البخت يلسعن اللّسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً، و إنّ فيها لعقارب كالبغال المؤكفة يلسعن اللّسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً، و هذه العقارب والحيّات إنّما تسلّط على من

---

(١) رواه الترمذی ج ١٠ ص ٥٥.

(٢) أخرجه الترمذی ج ١٠ ص ٥١، والحاكم فی المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم. والاية فی سورة ابراهيم: ١٦ و ١٧.

(٣) محمد: ١٥. (٤) الكهف: ٢٩.

(٥) آل عمران: ١٨٠ والخبر رواه البخاری ج ٢ ص ١٢٦ من حديث أبی هريرة.

سلّط عليه في الدّنيا البخل و سوء الخلق و إيذاء النّاس و من وقى ذلك وقي هذه الحيّات فلم تمثّل له[١]» ثمّ تفكّر بعد هذا كلّه في تعظيم أجسام أهل النّار فإنّ الله يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتّى يتزايد عقابهم بسببه فيحسّون بلفح النّار و لدغ العقارب و الحيّات من جميع أجزائهم دفعة واحدة على التوالي ، و عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم « ضِرسُ الكافر في النّار مثل اُحُد وغِلَظ جِلده مسيرة ثلاثٍ[٢]» . و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « شفتهُ السُّفلى ساقِطة على صَدرِه والعُليا قالِصةٌ قد غطّت وَجهَهُ[٣]» . و قال عليه السلام : « إنّ الكافر لَيَجُرُّ لِسانَهُ فرسخينِ يومَ القيامةِ يَتَواطؤُهُ النّاس[٤]» و مع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النّار مرّات فيجدّد جلودهم و لحومهم ، و قيل في قوله : « كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها » قال : تأكلهم النّار في كلّ يوم سبعين ألف مرّة كلّما أكلتهم قيل لهم : عودوا فيعودون كما كانوا .

أقول: و من طريق الخاصّة ما رواه الصدوق رحمه الله بإسناده عن الباقر عليه السلام قال : « إنّ أهل النّار يتعاوون كما يتعاوى الكلاب و الذّئاب ممّا يلقون من أليم العذاب ما ظنّك بقوم لا يقضى عليهم فيموتوا و لا يخفّف عنهم من عذابها عطاش فيها ، جياع ، كليلة أبصارهم ، صمّ بكمٌ عميٌ مسودّة وجوههم خاسئين فيها نادمين مغضوب عليهم فلا يرحمون و من العذاب لا يخفّف عنهم و في النّار يسجرون ، و من الحميم يشربون ، ومن الزّقّوم يأكلون ، و بكلاليب النّار يحطمون ، و بالمقامع يضربون و الملائكة الغِلاظ الشّداد لا يرحمون ، فهم في النّار يسحبون على وجوههم ومع الشياطين يقرنون و في الأنكال و الأغلال يصفّدون ، إن دعوا لم يستجب لهم ، و إن سألوا حاجة لم تقض لهم هذه حال من دخل النّار[٥]» .

---

(١) رواه أحمد والطبرانى من طريق أبى لهيعة عن دراج عن عبدالله بن الحارث بن جزء ، ورواه ابن حبان فى صحيحه و أيضاً الحاكم . وقال : صحيح الاسناد .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٤ من حديث أبى هريرة .

(٣) روى نحوه الترمذى .

(٤) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٤٩ وفيه « ليسحب لسانه فرسخ أو فرسخين » .

(٥) الامالى ص ٣٢٢ و ٣٢٣ .

و باسناده عن الصّادق عليه السلام قال: «بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم قاعداً إذ جاء جبرئيل عليه السلام و هو كئيبٌ حزين متغيّر اللّون فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا جبرئيل مالي أراك باكياً حزيناً فقال: يا محمّد فكيف لا أكون كذلك، و إنّما وضعت منافيخ جهنّم اليوم فقال رسول الله: و ما منافيخ جهنّم يا جبرئيل فقال: إنّ الله تعالى أمر بالنّار فاوقد عليها ألف عام حتّى احمرّت ثمّ أمر بها فاوقد عليها ألف عام حتّى ابيضّت ثمّ أمر بها فاوقد عليها ألف عام حتّى اسودّت و هي سوداء مظلمة، فلو أنّ حلقة من السلسلة الّتي لها سبعون ذراعاً وضعت على الدّنيا لذابت الدّنيا من حرّها و لو أنّ قطرة من الزّقّوم و الضريع قطرت في شراب أهل الدّنيا مات أهل الدّنيا من نتنها، قال: فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و بكى جبرئيل، فبعث الله إليهما ملكاً فقال: إنّ ربّكما يقرئكما السلام و يقول: قد أمنتكما من أن تذنبا ذنباً فأعذّ بكما عليه [1]».

و عن عليّ عليه السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «إنّ ناركم هذه لجزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم ولقد اطفئت سبعين مرّة بالماء ولو لاذلك لما استطاع آدميّ أن يطفئها إذا التهبت و أنّه ليؤتى بها يوم القيامة حتّى توضع على النّار، مايبقى ملك مقرّب ولا نبيٌّ مرسلٌ إلّا جثى بركبتيه فزعاً من صرخها [2]».

و عن الصّادق عليه السلام قال: «إنّ في جهنّم لواديا للمتكبّرين يقال له سقر شكا إلى الله شدّة حرّه وساله أن يأذن له أن يتنفّس فأذن له فتنفّس فأحرق جهنّم [3]».

و عنه عليه السلام «إنّ في النّار لحيّاتٍ مثلَ أعناق البُخت ـ الحديث [4]» كما ذكره أبو حامد.

---

(١) رواه أيضاً على بن ابراهيم فى تفسيره ص ٤٣٧، ورواه الطبرانى فى الاوسط.

(٢) كتاب الحسين بن سعيد الاهوازى كما فى البحار ج ٣ ص ٣٧٦ و رواه على بن ابراهيم فى تفسيره عن الصادق بنحوه.

(٣) ثواب الاعمال ص ٢١٥.

(٤) نبوى أخرجه أحمد فى مسنده ج ٤ ص ١٩١ من حديث عبدالله بن الحارث بن جزء.

قال : ثمّ تفكّر الآن في بكاء أهل النّار وشهيقهم ودعائهم بالويل و الثبور فإنّ ذلك يسلّط عليهم في أوّل لقائهم النّار .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « يؤتى بجهنّم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك [1] » .

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله « يُرْسَلُ على أهلِ النّار البُكاء فيبكونَ حتّى تنقطعَ الدّموع ثمّ يبكونَ الدّم حتّى يُرى في وجوهم كهيئة الاُخدود ، لو ارسلت فيها السُفُنُ لَجَرَتْ [2] » و مادام يؤذن لهم في البكاء و الشهيق و الزّفير والدّعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح و لكنّهم يمنعون أيضاً من ذلك .

قال محمّد بن كعب القرظي : لأهل النّار خمس دعوات يجيبهم الله عزّ وجلّ في أربع فإذا كانت الخامسة لم يتكلّموا بعدها أبداً يقولون « ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » فيقول الله تعالى مجيباً لهم « ذلكم بأنّه إذا دعي الله وحده كفرتم و إن يُشرَكْ به تؤمنوا فالحكم لله العليّ الكبير [3] » ثمّ يقولون : « ربّنا أبصرنا و سمعنا فارجعنا نعمل صالحاً [4] » فيجيبهم الله تعالى : « أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال [5] » فيقولون : « ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الّذي كنّا نعمل [6] » فيجيبهم الله تعالى « أو لم نعمّر كم ما يتذكّر فيه من تذكّر و جاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير [7] » ثمّ يقولون : « ربّنا غَلَبَتْ علينا شِقوتُنا و كنّا قوماً ضالّين ❊ ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون [8] » فيجيبهم الله تعالى « اخسئوا فيها ولا تكلّمون [9] » فلا يتكلّمون

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٩ عن النبى صلى الله عليه و آله .

(٢) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٢٤ من حديث أنس وفى تفسير على بن ابراهيم ٣٤٤.

(٣) المؤمن : ١٢ . (٤) السجدة : ١٢ .

(٥) ابراهيم : ٤٤ . (٦) فاطر : ٣٧ .

(٧) فاطر : ٣٨ . (٨) المؤمنون : ١٠٧ و ١٠٨ .

(٩) المؤمنون : ١٠٩ .

بعدها أبداً و ذلك غاية شدّة العذاب .

قال مالك بن أنس : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص[1] » قال : صبروا مائة سنة ، ثمّ جزعوا مائة سنة أُخرى ثمّ قالوا : « سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ».

و قال صلّى الله عليه و آله و سلّم : « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنّه كبش أملح فيذبح بين الجنّة والنار فيقال : يا أهل الجنّة خلودٌ بلا موت ويا أهل النّار خلودٌ بلا موت[2] ».

فهذه أصناف عذاب جهنّم على الجملة و تفصيل غمومها و أحزانها و محنها و حسراتها لا نهاية له ، فأعظم الاُمور عليهم مع ما يلاقونه من شدّة العذاب حسرة فوت نعيم الجنّة وفوت لقاء الله و فوت رضاه مع علمهم بأنّهم باعوا كلّ ذلك بثمن بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلّا بشهوات حقيرة في الدّنيا أيّاماً قصيرة و كانت غير صافية بل كانت مكدّرة منغّصة فيقولون في أنفسهم : واحسرتا كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربّنا و كيف لم نكلّف أنفسنا بالصّبر أيّاماً قلائل و لو صبرنا لكانت قد انقضت عنّا أيّامه و بقينا الآن في جوار الرّحمن متنعّمين بالرّضا و الرّضوان ، فيالحسرة هؤلاء و قد فاتهم مافاتهم و بلوا بما بلوا به و لم يبق معهم شيء من نعيم الدّنيا ولذّاتها ثمّ إنّهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنّة لم تعظم حسرتهم و لكنّها تعرض عليهم فقد قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم : « يؤتى يوم القيامة بناس من النّار إلى الجنّة حتّى إذا دنوا منها واستنشقوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعدّ الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأوّلون و الآخرون بمثلها فيقولون : يا ربّنا لو أدخلتنا النّار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا فيقول تعالى : ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتم بارزتموني بالعظائم ، وإذا لقيتم النّاس لقيتموهم مخبتين تراؤون النّاس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هِبتُمُ النّاسَ و لم تهابوني وأجللتم النّاس ولم تجلّوني

(١) ابراهيم : ٢١ .

(٢) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٥٢ من حديث أبي سعيد .

و تركتم للنّاس و لم تتركوا لي فاليوم اُذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم (١) » .

و قال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح و وجه صبيح ولسان فصيح غداً بين أطباق النّار يصيح ، فانظر يا مسكين في هذه الأهوال و اعلم أنّ الله تعالى خلق النّار بأهوالها وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون وأنّ هذا أمر قد قضى وفرغ منه ، قال الله تعالى : « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة(٢) » ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة و لكن ما قضي الأمر يوم القيامة بل في أزل الآزال و لكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء ، فالعجب منك حيث تضحك و تلهو و تشتغل بمحقّرات الدّنيا و لستَ تدري أنّ القضاء بماذا سبق في حقّك ، فإن قلت : ليت شعري ماذا موردي و إلى ماذا مآلي و مرجعي ، و بما الّذي سبق به القضاء في حقّي ؟؟؟

فلك علامة تستأنس بها و تصدّق رجاؤك بسببها و هي أن تنظر إلى أحوالك و أعمالك فإنّ كلاًّ ميسّر لما خلق له ، فإن كان قد يسّر لك سبيل الخير فأبشر فإنّك مبعدٌ عن النّار و إن كنت لا تقصد خيراً إلاّ و تحيط بك العوائق فتدفعه و لا تقصد شرّاً إلاّ ويتيسّر لك أسبابه فاعلم أنّك مقضيٌّ عليك ، فإنّ دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات و دلالة الدّخان على النّار فقد قال الله تعالى : « إنّ الأبرار لفي نعيم ✿ و إنّ الفجّار لفي جحيم (٣) » فأعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرّك من الدّارين .

✿(القول في صفة الجنّة و أصناف نعيمها)✿

اعلم أنّ تلك الدّار الّتي عرفت غمومها وهمومها و شرورها يقابلها دارٌ اُخرى فتأمّل نعيمها و سرورها فإنّ من بعُد من احديهما استقرّ لامحالة في الاُخرى فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر في أهوال الجحيم ، و استثر الرّجاء بطول الفكر في

(١) قال العراقي : رويناه في الاربعين لابي هدبة عن أنس ، وأبو هدبة ابراهيم بن هدبة هالك .

(٢) مريم : ٣٩ .　　(٣) الانفطار . ١٣ و ١٤ .

النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، و سق نفسك بسوط الخوف و قُدها بزمام الرّجاء إلى الصّراط المستقيم ، فبذلك تنال الملك العظيم و تسلم من العذاب الأليم ، فتفكّر في أهل الجنّة و في وجوههم نضرة النّعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك ، جالسين على منابر من الياقوت الأحمر في خيام اللّؤلؤ الرّطب الأبيض ، فيها بسط من العبقريّ الأخضر ، متّكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطّردة بالخمر و العسل ، محفوفة بالغلمان و الولدان ، مزيّنة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنّهن الياقوت والمرجان لم يطمثهنّ قبلهم إنس و لا جان ، يمشين في درجات الجنان إذا اختالت إحداهنّ في مشيتها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحيّر فيه الأبصار مكلّلات بالتيجان المرصّعة باللّؤلؤ و المرجان شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم و البؤس ، مقصورات في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثمّ يطاف عليهم و عليهنّ بأكواب و أباريق و كأس من معين ، بيضاء لذّة للشاربين ، و يطوف عليهم خدّام و ولدان كأمثال اللّؤلؤ المكنون جزاءً بما كانوا يعملون ، في مقام أمين و جنّات و عيون ، في جنّات و نهر في مَقْعَدِ صِدقٍ عند مليك مقتدِر ، ينظرون فيه إلى وجه الملك الكريم ، و قد أشرقت في وجوههم نضرة النّعيم ، لا يرهقهم قتر و لا ذلّة بل عبادٌ مكرمون ، و بأنواع التحف من ربّهم يتعاهدون ، فهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ، لا يخافون فيها و لا يحزنون ، و هم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعّمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً ، في أنهار أراضيها فضّة و حصباؤها مرجان ، و على أرض ترابها مسك أذفر و نباتها زعفران ، و يمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين ، على كثبان الكافور ، و يؤتون بأكواب وأيّ أكواب من فضّة مرصّعة بالدّرّ والياقوت والمرجان ، كوبٌ فيه من الرّحيق المختوم و ممزوجٌ بماء السلسبيل العذب ، كوبٌ يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه لرقّته وصفائه لم يصنعه آدميّ فيقصر في تسوية صنعته و تحسين صياغته ، في كفّ خادم يحكي ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن

من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته و حسن أصداغه وطرّته و ملاحة أحداقه، فياعجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها و يوقن بأنّه لابدّ ذاهب إليها ولايموت أهلها و لا تحلّ الفجائع بمن نزل بفنائها و لا ينظر الأحداث بعين التعيير إلى أهلها كيف يأنس بدار قد أذن الله في خرابها و يتهنّأ بعيش دونها، والله لو لم يكن فيها إلّا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت و الجوع والعطش و سائر أصناف الحدثان لكان جديراً بأن يهجر الدّنيا بسببها و أن لا يؤثر عليها ما التصرّم و التنغيص من ضرورته و كيف و أهلها ملوك آمنون في أنواع السرور ممتّعون، لهم فيها كلّ ما يشتهون و هم في كلّ يوم بفناء العرش يحضرون، وإلى وجه الله الكريم ينظرون و ينالون بالنظر من اللّذة ما لا يلتفتون معه إلى سائر نعيم الجنان و لا ينظرون إليه و هم على الدّوام بين أصناف هذه النّعيم يتردّدون و هم من زوالها آمنون قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ينادي مناد يا أهل الجنّة إنّ لكم فيها أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً، و إنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، و إنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً، وإنّ لكم أن تنعّموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله عزّ و جلّ «و نودوا أن تلكم الجنّة اُورثتموها بما كنتم تعملون (١)» و مهما أردت أن تعرف صفة الجنّة فاقرء القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان و اقرء من قوله تعالى: «و لمن خاف مقام ربّه جنّتان (٢)» إلى آخر سورة الرّحمن. و اقرء سورة الواقعة و غيرها من السّور، و إن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمّل الآن تفصيلها بعد أن اطّلعت على جملتها و تأمّل أوّلاً عدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله: «و لمن خاف مقام ربّه جنّتان» قال: «جنّتان من فضّة آنيتهما و ما فيهما، و جنّتان من ذهب آنيتهما و ما فيهما، و ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلّا رداء الكبرياء على وجهه في جنّة عدن (٣)».

---

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٨ من حديث أبي سعيد الخدري. والاية في سورة الاعراف: ٤٢. (٢) الرحمن: ٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٦ ص ١٨١ من حديث عبدالله بن قيس عن أبيه.

ثمّ انظر إلى **أبواب الجنة** فإنّها كثيرة بحسب اُصول الطّاعات كما أنّ أبواب النّار كثيرة بحسب اُصول المعاصي ، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنّة كلّها و للجنّة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصّلاة دعي من باب الصّلاة ، ومن كان من أهل الصّيام دعي من باب الصّيام وهو الرّيان ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، و من كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد(١) » .

و عن عاصم بن ضمرة ، عن عليّ عليه السلام أنّه ذكر النّار فعظّم أمرها و ذكر شيئاً لاأحفظه ثمّ قال : « و سيق الّذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً حتّى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة تخرج من تحت ساقها عينان تجريان فعمدوا إلى إحديهما كما اُمروا به فشربوا منها فأذهبت ما في بطونهم من أذى أو بأس ، ثمّ عمدوا إلى الاُخرى فتطهّروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم يتغيّر أشعارهم بعدها أبداً ، ولا تشعث رؤوسهم كأنّما دهنوا بالدّهان ، ثمّ انتهوا إلى الجنّة فقيل لهم: سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، ثمّ يلقاهم الولدان : يطيفون بهم كما يطيف ولدان أهل الدّنيا بالحبيب ، يقدم عليهم من غيبة يقولون له : أبشر بما أعدّ الله لك من الكرامة كذا. قال : فينطلق غلام من اُولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : قد جاء فلان باسمه الّذي كان يدعى به في الدّنيا .فتقول : و أنت رأيته ؟ فيقول : أنا رأيته و هو بأثري فيستخفّها الفرح حتّى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذاً جندل اللّؤلؤ فوقه صرح أخضر و أحمر و أصفر من كلّ لون ، ثمّ يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذاً مثل البرق ، ولولا أنّ الله تعالى قدّره لألمّ أن يذهب بصره ثمّ يطأطىء رأسه فاذاً أزواجه وأكواب موضوعة و نمارق مصفوفة و زرابيّ مبثوثة ، ثمّ اتّكأ فقال : « الحمد لله الّذي هدانا لهذا و ما كنّا لنهتدي لولا أن هدينا الله » ثمّ ينادي مناد ياأهل الجنّة تحيون

---

(١) أخرجه مسلم ج ٣ ص ٩١ .

و لاتموتون أبداً و تقيمون فلاتظعنون أبداً ، وتصحّون فلاتمرضون أبداً »[١].

وقال رسول الله ﷺ: «آتي يوم القيامة باب الجنّة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمّد ، فيقول : بك اُمرت أن لا أفتح لأحد قبلك [٢] ».

ثمّ تأمّل الآن في **غرف الجنة** و اختلاف درجات العلوّ فيها ، فإنّ الآخرة أكبر درجات و أكبر تفصيلاً ، و كما أنّ بين النّاس في الطّاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر ، فإن كنت تطلب أعلى الدّرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحدٌ بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة و المسارعة والمنافسة فيها فقال : « و سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها كعرض السّماء والأرض[٣] »وقال : «سارعوا إلى مغفرة من ربّكم[٤] » وقال : «وفي ذلك فليتنافس المتنافسون[٥] » و العجب أنّه لو تقدّم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلوّ بناء ثقل ذلك عليك و ضاق به ذرعك و تنغّص بسبب الحسد عيشك ، وأحسن أحوالك أن تستقرّ في الجنّة و أنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لاتوازيها الدّنيا بحذافيرها فقد قال أبوسعيد الخدريّ : قال رسول الله ﷺ : «إنّ أهل الجنّة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الغابر في الاُفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم ، قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم ؟ قال : بلى و الّذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله و صدّقوا المرسلين [٦] » و قال أيضاً : « إنّ أهل الدّرجات العلى ليراهم من تحتهم كما ترون النّجم الطالع في أفق من آفاق السّماء [٧] » .

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد وعبدالرزاق وابن أبى شيبة وابن راهويه وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا فى صفة الجنة والبيهقى فى البعث والضياء المقدسى فى المختارة كما فى الدر المنثور ج ٥ ص ٣٤٣ . وفيه قوله : « فلم يتغير أشعارهم » « فلن تغير أبشارهم » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه ج ١ ص ١٣٠ من حديث أنس .

(٣) الحديد : ٢١ . (٤) آل عمران : ١٣٣ .

(٥) المطففين : ٢٦ . (٦) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٥ .

(٧) أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه تحت رقم ٩٦ من حديث أبى سعيد الخدرى .

و قال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: قال لنا رسول الله ﷺ: «إلاّ أحدّثكم بغرف الجنّة؟ قال: قلت: بلى يا رسول الله بأبينا أنت وأمّنا، قال: إنّ في الجنّة غرفاً من أصناف الجوهر كلّه، يُرى ظاهرها من باطنها و باطنها من ظاهرها وفيها من النّعيم واللّذات والسرور ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، قال: قلت: يا رسول الله لمن هذه الغُرَف؟ قال: لمن أفشا السلام، وأطعم الطعام، وأدام الصّيام، وصلّى باللّيل و النّاس نيام، قال: قلنا: يا رسول الله و من يطيق ذلك قال: أمّتي تطيق ذلك وسأُخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلّم عليه أوردّ عليه فقد أفشا السلام ومن أطعم أهله و عياله من الطّعام حتّى يشبعهم فقد أطعم الطعام، و من صام شهر رمضان و من كلّ شهر ثلاثة أيّام فقد أدام الصّيام، و من صلّى العشاء الآخرة و صلّى الغداة في جماعة فقد صلّى باللّيل و النّاس نيام - يعني اليهود و النصارى و المجوس -[(١)]».

وسئل رسول الله ﷺ عن قوله تعالى: «ومساكن طيّبة في جنّات عدن[(٢)]» قال: قصور من لؤلؤ في كلّ قصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء، في كلّ دار سبعون بيتاً من زمرّد أخضر، في كلّ بيت سرير، على كلّ سرير سبعون فراشاً من كلّ لون، على كلّ فراش زوجة من الحور العين، في كلّ بيت سبعون مائدة، على كلّ مائدة سبعون لوناً مع الطعام، في كلّ بيت سبعون و صيفة[(٣)]، ويعطى المؤمنُ في كلّ غداة - يعني من القوّة - ما يأتي على ذلك أجمع[(٤)]».

✿(صفة حائط الجنة وأرضها و أنهارها و أشجارها)✿

تأمّل في صورة الجنّة، و تفكّر في غبطة سكّانها بها و في حسرة من حرمها لقناعته بالدّنيا عوضاً عنها فعن رسول الله ﷺ «إنّ حائط الجنّة لَبِنَةٌ من ذهب

---

(١) رواه البيهقي كما في الترغيب ج ٤ ص ٥١١.

(٢) الصف: ١٢. (٣) الوصيفة: الخادمة.

(٤) أخرجه الطبراني ورواه البيهقي بنحوه كما في الترغيب والترهيب ج٤ ص٥١٧.

و لبنة من فضّة ترابها زعفران و طينها مسك [١] » .

و سئل صلى الله عليه وآله وسلم عن تربة الجنّة فقال : « دَرْمَكَةٌ بيضاءُ مِسكٌ خالص [٢] ». و عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « مَن سرّه أن يسقيه الله عزّ وجلّ الخمر في الآخرة فليتركها في الدّنيا ، و من سرّه أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدّنيا [٣] » « أنهار الجنّة تتفجّر من تحت تلال أو تحت جبال المسك [٤] » « و لو كان أدنى أهل الجنّة حلية عدلت بحلية أهل الدّنيا جميعاً لكان ما يحلّيه الله عزّ و جلّ به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدّنيا جميعاً [٥] » .

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « إنّ في الجنّة شجرة يسير الرّاكب في ظلّها مائة عام لايقطعها [٦] » اقرؤوا إن شئتم قوله تعالى : « وظلّ ممدود [٧] » .

و قال أبو أمامة : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقولون : « إنّ الله عزّ وجلّ ينفعنا بالأعراب في مسائلهم : أقبل أعرابيّ فقال : يارسول الله قدذكر الله في القرآن شجرة مؤذية و ما كنت أدري أنّ في الجنّة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ماهي ؟ قال : هي السدر فإنّ لها شوكاً فقال له : قال الله تعالى : « وسدر

(١) رواه البزار من حديث أبى سعيد الخدرى . وابن أبى الدنيا من حديث أبى هريرة موقوفاً كما فى المغنى والترغيب .

(٢) رواه مسلم من حديث أبى سعيد أن ابن صياد سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك فذكره . و رواه أحمد من حديث جابر بن عبدالله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله لليهود : «انى سائلهم عن تربة الجنة وهى درمكة بيضاء فسألهم فقال : خبزة ياأباالقاسم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : الخبز من الدرمك» ورجاله رجال الصحيح غير مجالد و وثقه غير واحد . والدرمك هو الدقيق الحوارى ويقال : الدر مكة .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الاوسط باسناد حسن كما فى المغنى .

(٤) رواه ابن حبان فى صحيحه كما فى الترغيب ج ٤ ص ٥١٧ من حديث أبى هريرة .

(٥) أخرجه الطبرانى فى الاوسط من حديث أبى هريرة باسناد حسن كما فى المغنى .

(٦) الى هنا أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٤ من حديث أبى هريرة .

(٧) الواقعة : ٢٨ . وتمام الخبر رواه البخارى ، والترمذى ج ١٠ ص ٣ من حديث أبى سعيد.

مخضود» ويخضدالله شوكه فجعل مكان كلّ شوكة ثمرة، ثمّ تنفتق الثمرة منها عن اثنتين و سبعين لوناً من الطعام ما منهالون يشبهالآخر[١]».

قال جرير بن عبدالله: نزلناالصفاح فإذارجل نائم تحت شجرة قدكادت الشمس أن تبلغه فقلت للغلام: انطلق بهذا النطع[٢] فأظلّه به فانطلق فأظلّه، فلمّا استيقظ إذا هو سلمان فأتيته اُسلّم عليه فقال: يا جرير تواضع لله فإنّه من تواضع لله في الدّنيا رفعه الله يوم القيامة. هل تدري ما الظلمات يوم القيامة؟ قلت: لا أدري، قال: ظلم الناس بينهم، ثمّ أخذ عويداً لاأكاد أراه من صغره، فقال: يا جرير لو طلبت في الجنّة مثل هذالم تجده، قلت: يا أبا عبدالله فأين النّخل والشّجر؟ قال: اُصولها اللّؤلؤ و الذّهب و أعلاها الثمر[٣].

✡(صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم و أرائكهم و خيامهم)✡

قال الله تعالى: «يحلّون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤاً و لباسهم فيها حرير[٤]». والآيات في تفصيل ذلك كثيرة؛ وأمّا تفصيله في الأخبار فقدروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من يدخل الجنّة ينعّم لايبأس لاتبلى ثيابه ولايفنى شبابه. في الجنّة مالا عين رأت و لااُذن سمعت و لاخطر على قلب بشر[٥]».

و قال رجل: يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنّة أخلق تخلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و ضحك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ممّ تضحكون من جاهل سأل عالماً ثمّ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «بل ينشقّ عنها ثمر الجنّة مرّتين[٦]».

و عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إنّ أوّل زمرة تلج الجنّة صورتهم على صورة القمر

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه والبيهقى فى البعث أيضاً كمافى الدرالمنثورج٦ص١٥٦.

(٢) هوالمتخذ من الاديم، أى الجلد. أى قربه له ليستظل به من الشمس فيكون كالظلة.

(٣) رواه البيهقى باسناد حسن كما فى الترغيب والترهيب ج٤ص٥٢٢.

(٤) الحج: ٢٣.

(٥) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٤٤ و ١٤٨ والبخارى فى حديثين من حديث أبى هريرة.

(٦) أخرجه أحمد ج ٢ ص ٢٠٣ من حديث عبدالله بن عمروبن العاصى.

ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون و لا يتغوّطون ، آنيتهم وأمشاطهم من الذّهب و الفضّة ، و رشحهم المسك و لكلّ واحد منهم زوجتان مخّ ساقيهما يرى من وراء اللّحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم و لا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبّحون الله بكرة و عشياً [١] » و في رواية « على كلّ زوجة سبعون حلّة [٢] » .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : في قوله تعالى : « يحلّون فيهامن أساور من ذهب [٣] » قال : إنّ عليهم التيجان إنّ أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين المشرق و المغرب [٤] » .

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الخيمة درّة مجوّفة طولها في السّماء ستّون ميلاً ، للمؤمن في كلّ زاوية منها أهل لا يراه الآخرون [٥] » رواه البخاري في الصحيح .

قال ابن عبّاس : الخيمة درّة مجوّفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب .

و قال أبوسعيد الخدريّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : « وفرش مرفوعة [٦] » قال : ما بين الفراشين كما بين السّماء و الأرض [٧] » .

✿(صفة طعام أهل الجنة)✿

بيان طعام أهل الجنّة مذكور في القرآن من الفواكه و الطيور السمان و المنّ و السلوى و العسل و اللّبن و أصناف كثيرة لا تحصى ، قال الله تعالى : « كلّما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الّذي رُزقنا من قبل و اُتوا به متشابهاً » [٨] »

---

(١) أخرجه مسلم ج٨ص١٤٧ . ورواه البخاري ج٤ ص١٤٢ والترمذى وابن ماجه .
(٢) أخرجه الترمذى ج١٠ ص ٩ من حديث أبى سعيد الخدرى .
(٣) الفاطر : ٣٣ .
(٤) رواه أحمد والطبرانى واسنادهما حسن كما فى مجمع الزوائد ج١٠ ص ٤١٩ .
(٥) الصحيح ج٤ ص١٤٢ ورواه مسلم ج٨ص١٤٨ من حديث موسى بن قيس عن أبيه .
(٦) الواقعة : ٣٤ .
(٧) أخرجه الترمذى ج ١٠ص ١١ وابن أبى الدنيا كما فى الترغيب .
(٨) البقرة : ٢٥ .

و ذكر الله تعالى شراب أهل الجنّة في مواضع كثيرة و قد قال ثوبان مولى رسول الله ﷺ : « كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاء حبر من أحبار اليهود فذكر أسولة إلى أن قال : فمن أوّل النّاس إجازة ؟ - يعني على الصّراط - فقال : فقراء المهاجرين قال اليهوديّ : فما تحفتهم حين يدخلون الجنّة ؟ فقال : زيادة كبد الحوت ، قال : فما غذاؤهم على أثرها قال : ينحر لهم ثور الجنّة الّذي كان يأكل في أطرافها ، قال : فما شرابهم عليه ؟ قال : من عين فيها تسمّى سلسبيلاً ، فقال : صدقت (١) » .

و قال زيد بن أرقم : « جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ و قال : يا أبا القاسم ألست تزعم أنّ أهل الجنّة يأكلون فيها ويشربون ؟ و قال لأصحابه : إن أقرّ لي بهذا خصمته فقال ﷺ : بلى و الّذي نفسي بيده إنّ أحدهم ليعطى قوّة مائة رجل في المطعم والمشرب و الجماع ، فقال اليهوديّ فإنّ الّذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة ، فقال رسول الله ﷺ : حاجتهم عرق يفيض من جلودهم مثلُ المسك فإذا البطنُ قد ضَمَرَ (٢) » .

و قال ابن مسعود : « قال رسول الله ﷺ : إنّك لتنظر إلى الطير في الجنّة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشويّاً (٣) » .

و قال حذيفة قال رسول الله ﷺ : « إنّ في الجنّة طيراً أمثال البُخت (٤) » .

(صفة الحور العين والولدان)

قد تكرّر في القرآن أوصافهم و وردت الأخبار بزيادة شرح فيه روى أنّ رسول الله ﷺ قال : « غدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدّنيا وما فيها ولَقابُ قوسِ أحدِكم أو موضعُ قدمِه من الجنّة خيرٌ من الدّنيا وما فيها ، ولو أنّ امرأةً من

(١) أخرجه مسلم ج ١ ص ١٧٣ من حديث ثوبان بزيادة في أوله وزيادة في آخره .

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى باسناد صحيح ورواه أحمد في مسنده ج ٤ ص ٣٦٧ .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا والبزار والبيهقي كما في الترغيب ج ٤ ص ٥٢٧ .

(٤) قال العراقي . غريب من حديث حذيفة ولاحمد من حديث أنس « ان طير الجنة كامثال البخت ترعى في شجر الجنة الحديث » المسند ج ٣ ص ٢٢١ .

نساء أهل الجنّة اطّلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت مابينهما رائحة . ولنصيفها على رأسها خيرٌ من الدّنيا بما فيها » [١] يعني الخمار .

و قال أبو سعيد الخدريّ : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : في قوله تعالى : « كأنّهنّ الياقوت و المرجان [٢] » قال : ينظر إلى وجهها في خدرها أصفى من المرآة ، و إنّ أدنى لؤلؤةٍ عليها لتضيء ما بين المشرق و المغرب ، و إنّه ليكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتّى يرى مخّ ساقها من وراء ذلك [٣] » .

و قال مجاهد في قوله تعالى : « أزواجٌ مطهّرة [٤] » قال : يعني من الحيض و الغائط و البول و البزاق و النخامة و النجاسة و المنيّ و الولد .

و قال الأوزاعيّ : « في شغل فاكهون [٥] » قال : شغلهم افتضاض الأبكار .

و قيل : يا رسول الله : « أيباضع أهل الجنّة ؟ قال : يعطى الرّجلُ منهم من القوّة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم [٦] » و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ الرّجل من أهل الجنّة ليتزوّج خمسمائة حوراء ، و أربعة آلاف بكر ، و ثمانية آلاف ثيّب ، يعانق كلّ واحدة منهنّ مقدار عمره في الدّنيا [٧] » .

و قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ في الجنّة سوقاً مافيها بيع ولاشراء إلّا الصّور من

(١) أخرجه البخاري ج ٤ ص ٢٠ من حديث أنس .

(٢) الرحمن : ٥٨ .

(٣) رواه احمد وابن حبان في صحيحه بنحوه والبيهقي باسناد ابن حبان واللفظ له كما في الترغيب ج ١٠ ص ٥٣٤ . (٤) البقرة : ٢٥ .

(٥) يس : ٥٥ .

(٦) قال العراقي : رواه الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أنس هكذا « يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا و كذا من الجماع فقيل أويطيق ذلك قال : يعطى قوة مائة » . انتهى وروى البزار من حديث أنس « قال صلى الله عليه و آله : « يزوج العبد في الجنة سبعين زوجة فقيل يا رسول الله : أيطيقها ؟ قال : يعطى قوة مائة » مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٤١٧ .

(٧) قال العراقي : رواه أبوالشيخ في طبقات المحدثين و كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى الا أنه قال : مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقه لهن واسناده ضعيف .

الرّجال والنساء، فإذا اشتهى الرّجل صورة دخل فيها [١] »

و إنّ فيها لمجتمعاً للحور العين يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد، و نحن الناعمات فلا نبأس، ونحن الرّاضيات فلا نسخط، فطوبى لمن كان لنا و كنّا له [٢] ».

و قال أبو أمامة الباهليّ: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: « ما من عبد يدخل الجنّة إلّا و يجلس عند رأسه و عند رجليه ثنتان من الحور العين تغنّيانه بأحسن صوت يسمعه الإنس و الجنّ، و ليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله و تقديسه [٣] ».

☼(بيان جمل متفرّقة من أوصاف أهل الجنّة وردت بها الاخبار)☼

روى اُسامة بن زيد أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لأصحابه: «ألا هل مشمّر للجنّة؟ إنّ الجنّة لا خطر لها، هي و ربّ الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتزّ، وقصر مشيد و نهر مطرد، وفاكهة كثيرة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة في حَبْرَةٍ، ونعمة في مقام امين أبداً، ونضرة في دار عالية بهيّة سليمة، قالوا: نحن المشمّرون لها يا رسول الله، قال: قولوا: إن شاء الله تعالى، ثمّ ذكر الجهاد وحضّ عليه [٤] ».

وجاء رجل إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: « هل في الجنّة خيل فانّها تعجبني، قال: إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فيطير بك في الجنّة حيث شئت و قال له رجل آخر: إنّ الابل يعجبني فهل في الجنّة من إبل؟ فقال: يا عبد الله إن أدخلت الجنّة فلك فيها ما اشتهت نفسُك ولَذَّت عيناك [٥] ».

و عن أبي سعيد الخدريّ قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: « إنّ الرّجل من أهل

---

(١) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ١٨.

(٢) رواه الترمذي ج ١٠ ص ٣٧ وقال: غريب. ورواه البيهقي أيضاً.

(٣) رواه الطبراني والبيهقي كما في الترغيب والترهيب ج ٤ ص ٥٣٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٣٢ بأدنى اختلاف.

(٥) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ١٣ بنحوه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف كما في المغني وقال الترمذي: و هذا أصح.

الجنّة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حمله وفصاله وشبابه في ساعة واحدة (١) ».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا استقرّ أهل الجنّة في الجنّة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان فيتحدّثان ما كان بينهما في دار الدُّنيا فيقول : ياأخي أتذكر يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عزّ وجلّ فغفر لنا (٢) ».

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أهل الجنّة جردٌ مردٌ بيضٌ جعادٌ مكحّلون أبناء ثلاث و ثلاثين . على خلق آدم طولهم ستّون ذراعاً في عرض سبعة أذرع (٣) ».

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة الّذي له ثمانون ألف خادم و ثنتان و سبعون زوجة ، وينصب له قبّة من لؤلؤ و زبرجد و ياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء » . « و إنّ عليهم التيجان و إنّ أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق و المغرب (٤) ».

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : « نظرت إلى الجنّة فإذا الرُّمّانة من رمّانها كخلف البعير المقتّب وإذاً طيرها كالبخت ، و إذاً فيها جارية فقلت : يا جارية لمن أنت ؟ فقالت : لزيد بن حارثة و إذاً في الجنّة ما لاعين رأت و لا اُذن سمعت و لاخطر على قلب بشر (٥) ». و قال كعب الأحبار : خلق الله تعالى آدم بيده ، و كتب التوراة بيده ، و غرس أشجار الجنّة بيده ، ثمّ قال لها : تكلّمي ، فقالت : قد أفلح المؤمنون .

فهذه صفات الجنّة ذكرناها جملة ، ثمّ نقلناها تفصيلاً ، وقال يحيى بن معاذ :

---

(١) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٣٨ والترمذي ج ١٠ ص ٣٥ بنحوه .

(٢) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار والربيع بن صبيح وهما ضعيفان وقد وثقا كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٤٢١ .

(٣) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ١٤ من حديث معاذ دون قوله «بيض جعاد» ودون قوله «على خلق آدم - الى آخره - » وفي صحيح مسلم ج ٨ ص ١٤١ من حديث أبي هريرة « فكل من يدخل الجنة على صورة آدم و طوله ستون ذراعاً » .

(٤) أخرجه الترمذي ج ١٠ ص ٣٥ من حديث أبي سعيد الخدري في حديثين .

(٥) رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هارون العبدي عن أبي سعيد وروى نحوه علي بن ابراهيم في تفسيره ص ٣٧٤ .

ترك الدّنيا شديد و فوت الجنّة أشدّ و ترك الدّنيا مهر الآخرة . و قال أيضاً : في طلب الدّنيا ذلّ النّفوس وفي طلب الجنّة عزّ النّفوس فياعجبا لمن يختار المذلّة في طلب مايفنى و يترك العزّ في طلب ما يبقى .

أقول : و من طريق الخاصّة ما رواه شيخنا الصّدوق - رحمه الله - بإسناده عن النبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال : « إنّ للجنّة لبنة من ذهب ولبنة من فضّة ولبنة من ياقوت و ملاطها المسك الأذفر ، و شرفها الياقوت الأحمر والأخضر و الأصفر ، و أبوابها مختلفة باب الرّحمة من ياقوتة حمراء ، و أمّا الصبر فباب صغير مصراع واحد من ياقوتة حمراء لاحلق له ، و أمّا باب الشكر فإنّه من ياقوتة بيضاء لها مصراعان مسيرة ما بينهما خمسمائة عام ، له ضجيج وحنين يقول : اللّهمّ جئني بأهلي ينطقه ذوالجلال و الإكرام ، و أمّا باب البلاء من ياقوتة صفراء مصراع واحد ما أقلّ من يدخل منه ، فأمّا الباب الأعظم فيدخل منه العباد الصّالحون ، وهم أهل الزّهد و الورع الرّاغبون إلى الله عزّ وجلّ المستأنسون به ، فإذا دخلوا الجنّة يسيرون على نهرين في ماء صاف في سفن الياقوت مجاذيفها اللّؤلؤ [1] فيها ملائكة من نور عليهم ثياب خضر شديد الخضرة يسيرون على حافتي ذلك النهر واسم ذلك النهر جنّة عدن هي وسط الجنان وسورها ياقوت أحمر حصباؤها اللّؤلؤ [2] » .

و بإسناده عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : « إنّ للجنّة ثمانية أبواب باب يدخل منه النبيّون و الصدّيقون و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون و خمسة أبواب يدخل منها شيعتنا و محبّونا فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو و أقول : ربّ سلّم شيعتي و محبّي و أنصاري و من تولّاني في دار الدّنيا فإذا النّداء من بطنان العرش قد اُجيبت دعوتك و شفّعت في شيعتك ، و يشفع كلّ رجل من شيعتي و من تولّاني

---

(١) المجذاف : مايجذف به السفينة ، وفي بعض النسخ من المصدر - بالدال المهملة - وهو خشبة طويلة مبسوطة أحد الطرفين تسير بهما القوارب .

(٢) رواه الصدوق في الفقيه باب الاذان والاقامة وفي الامالي ص ١٢٨ في حديث طويل لخصه شيخنا الفيض ههنا .

و نصرني و حارب من حاربني بفعل أو قول ، في سبعين ألفاً من جيرانه و أقربائه ، وباب يدخل منه سائر المسلمين ممّن يشهد أن لا إله إلاّ الله و لم يكن في قلبه مثقال ذرّة من بغضنا أهل البيت (١) » .

وعن مولانا الباقر عليه السلام : « أحسنوا الظنّ بالله و اعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب عرض كلّ باب منها مسيرة أربعمائة سنة (٢) » .

و روى ثقة الاسلام محمّد بن يعقوب ـ رحمه الله ـ في الكافي باسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : « إنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله سئل عن قول الله عزّ وجلّ : « يوم نحشر المتّقين إلى الرّحمن وفداً (٣) » فقال : يا عليّ إنّ الوفد لا يكونون إلاّ ركباناً أُولئك رجال اتّقوا الله فأحبّهم الله تعالى و اختصّهم ورضي أعمالهم فسمّاهم المتّقين ثمّ قال له : يا عليّ أما والّذي فلق الحبّة و برأ النسمة إنّهم ليخرجون من قبورهم و أنّ الملائكة لتستقبلهم بنوق من نوق الغرّ عليها رحال الذّهب مكلّلة بالدّرّ و الياقوت و جلالها الاستبرق و السندس ، و خطمها جدل الأُرجوان ، تطير بهم إلى المحشر مع كلّ رجل منهم ألف ملك من قدّامه و عن يمينه و عن شماله يزفّونه زفّاً حتّى ينتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم ، و على باب الجنّة شجرة إنّ الورقة منها يستظلّ تحتها ألف رجل من النّاس ، و عن يمين الشجرة عين مطهّرة مزكّية فيسقون منها شربة فيطهّر الله بها قلوبهم من الحسد و يسقط عن أبشارهم الشعر ، و ذلك قول الله تعالى : « و سقيهم ربّهم شراباً طهوراً (٤) » من تلك العين المطهّرة ، قال : ثمّ ينصرفون إلى عين أُخرى عن يسار الشجرة فيغتسلون فيها و هي عين الحيوة فلايموتون أبداً ، قال : ثمّ يوقف بهم قدّام العرش و قد سلموا من الآفات و الأسقام و الحرّ والبرد أبداً ، قال : فيقول الجبّار جلّ ذكره للملائكة الّذين معهم : احشروا أوليائي إلى الجنّة و لا توقفوهم مع الخلائق ، فقد سبق رضائي عنهم ، و وجبت رحمتي لهم ، و كيف أُريد أن أوقفهم مع أصحاب الحسنات والسيّئات

---

(١) و (٢) الخصال ج ٢ ص٣٩ .

(٣) مريم : ٨٥ .　　(٤) الانسان : ٢١.

قال : فتسوقهم الملائكة إلى الجنّة فإذا انتهوا بهم إلى باب الجنّة الأعظم ضرب الملائكة الحلقة ضربة فتصرّ صريراً يبلغ صوت صريرها كلّ حوراء أعدّها الله تعالى لأوليائه في الجنان ، فيتباشرون بهم إذا سمعوا صرير الحلقة فيقول بعضهم لبعض : قد جاءنا أولياء الله فيفتح لهم الباب فيدخلون الجنّة ، ويشرف عليهم أزواجهم من الحور العين و الآدميّين فيقلن مرحباً بكم فما كان أشدّ شوقنا إليكم و يقول لهنّ أولياء الله مثل ذلك ، فقال عليّ عليه السلام : يا رسول الله أخبرنا عن قول الله تعالى : « غرف من فوقها غرف مبنيّة[(١)] » بماذا بنيت يا رسول الله ؟ فقال : يا عليّ تلك غرف بناها الله تعالى لأوليائه بالدرّ والياقوت والزبرجد ، سقوفها الذهب محبوكة بالفضّة ، لكلّ غرفة منها ألف باب من ذهب على كلّ باب منها ملك موكّل به فيها فرش مرفوعة بعضها فوق بعض من الحرير و الديباج بألوان مختلفة ، و حشوها المسك و الكافور و العنبر ، وذلك قول الله تعالى : « وفرش مرفوعة[(٢)] » إذا اُدخل المؤمن إلى منازله في الجنّة و وضع على رأسه تاج الملك و الكرامة اُلبس حلل الذهب و الفضّة و الياقوت و الدرّ المنظوم في الإكليل تحت التاج ، قال : واُلبس سبعين حلّة حرير بألوان مختلفة و ضروب مختلفة منسوجة بالذهب و الفضّة واللّؤلؤ و الياقوت الأحمر فذلك قوله تعالى : « يحلّون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤاً و لباسهم فيها حرير[(٣)] » فإذا جلس المؤمن على سريره اهتزّ سريره فرحاً ، فإذا استقرّ لوليّ الله منازله في الجنان استأذن عليه الملك الموكّل بجنانه ليهنّئه بكرامة الله تعالى إيّاه فيقول له خدّام المؤمن من الوصفاء و الوصائف : مكانك فإنّ وليّ الله قد اتّكأ على أريكته وزوجته الحوراء تهيّئ له فاصبر لوليّ الله ، قال : فتخرج عليه زوجته الحوراء من خيمة لها تمشي مقبلة و حولها وصائفها ، و عليها سبعون حلّة منسوجة بالياقوت و اللّؤلؤ و الزبرجد و هي من مسك و عنبر و على رأسها تاج الكرامة وعليها نعلان من ذهب مكلّلتان بالياقوت واللّؤلؤ ، شراكها ياقوت أحمر ،

---

(١) الزمر : ٢٠.
(٢) الواقعة : ٣٤ .
(٣) الحج : ٢٣.

فإذا دنت من وليّ الله فهمّ أن يقوم إليها شوقاً فتقول له : يا وليّ الله ليس هذا يوم تعب و لا نصب فلاتقم أنا لك وأنت لي قال : فيعتنقان مقدار خمسمائة عام من أعوام الدّنيا لايملّها و لا تملّه ، قال : فإذا فتر بعض الفتور من غير ملاله نظر إلى عنقها فإذاً عليها قلائد من قصب من ياقوت أحمر وسطها لوح صفحته درّة مكتوب فيها أنت يا وليّ الله حبيبي و أنا الحوراء حبيبتك إليك تناهت نفسي و إليّ تناهت نفسك ثمّ يبعث الله إليه ألف ملك يهنّئونه بالجنّة و يزوّجونه بالحوراء ، قال : فينتهون إلى أوّل باب من جنانه فيقولون للملك الموكّل بأبواب جنانه : استأذن لنا على وليّ الله فإنّ الله بعثنا إليه نهنّئه فيقول لهم الملك : حتّى أقول للحاجب فيعلمه بمكانكم ، قال : فيدخل الملك إلى الحاجب وبينهم و بين الحاجب ثلاث جنان حتّى ينتهي إلى أوّل باب فيقول للحاجب : إنّ على باب العرصة ألف ملك أرسلهم ربّ العالمين ليهنّئوا وليّ الله و قد سألوني أن آذن لهم عليه فيقول الحاجب : إنّه ليعظم عليّ أن أستأذن لأحد على وليّ الله و هو مع زوجته الحوراء ، قال : و بين الحاجب و بين وليّ الله جنّتان قال : فيدخل الحاجب إلى القيّم فيقول له : إنّ على باب العرصة ألف ملك أرسلهم ربّ العزّة يهنّئون وليّ الله فاستأذن لهم فيتقدّم القيّم إلى الخدّام فيقول لهم : إنّ رسل الجبّار على باب العرصة و هم ألف ملك أرسلهم يهنّئون وليّ الله فأعلموه بمكانهم قال : فيعلمونه فيؤذن للملائكة فيدخلون على وليّ الله و هو في الغرفة و لها ألف باب و على كلّ باب من أبوابها ملك موكّل به ، فإذا أذن للملائكة بالدّخول على وليّ الله فتح كلّ ملك بابه الموكّل به قال : فيدخل القيّم كلّ ملك من باب من أبواب الغرفة قال : فيبلّغونه رسالة الجبّار جلّ وعزّ وذلك قول الله تعالى : « و الملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب ـ (من أبواب الغرفة) ـ سلام عليكم ـ إلى آخر الآية (١) » قال : و ذلك قوله تعالى : « و إذا رأيت ثمّ رأيت نعيماً و ملكاً كبيراً (٢) » يعني بذلك وليّ الله و ما هو فيه من الكرامة و النّعيم والملك العظيم الكبير ، إنّ الملائكة من رسل الله تعالى يستأذنون عليه فلا ـ

---

(١) الرعد : ٢٥ و ٢٦ . (٢) الانسان : ٢٠ .

يدخلون عليه إلّا بإذنه فذلك الملك العظيم قال : و الأنهار تجري من تحت مساكنهم وذلك قول الله تعالى : «تجري من تحتهم الأنهار[١]» و الثمار دانية منهم و هو قوله عزّ وجلّ : «ودانية عليهم ظلالها وذلّلت قطوفها تذليلاً»[٢] من قربها منهم يتناول المؤمن من النوع الّذي يشتهيه من الثمار بفيه و هو متّكىء، وإنّ الأنواع من الفاكهة ليقلن لوليّ الله : يا وليّ الله كلني قبل أن تأكل هذا قبلي قال : وليس من مؤمن في الجنّة إلّا و له جنان كثيرة معروشات و غير معروشات و أنهار من خمر و أنهار من ماء و أنهار من لبن و أنهار من عسل ، فإذا دعا وليّ الله بغذائه اُتي بما تشتهي نفسه عند طلبه الغذاء من غير أن يسمّي شهوته قال : ثمّ تتخلّى مع إخوانه و يزور بعضهم بعضاً و يتنعّمون في جنّاتهم في ظلّ ممدود في مثل ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس وأطيب من ذلك لكلّ مؤمن سبعون زوجة حوراء وأربع نسوة من الآدميّين و المؤمن ساعة مع الحوراء و ساعة مع الآدميّة و ساعة يخلو بنفسه على الأرائك متّكئاً ينظر بعضهم إلى بعض و إنّ المؤمن ليغشاه شعاع نور و هو على أريكته و يقول لخدّامه : ما هذا الشعاع اللامع لعلّ الجبّار لحظني فيقول له خدّامه : قدّوس قدّوس جلّ جلال الله ، بل هذه حوراء من نسائك ممّن لم تدخل بها بعد ، قد أشرفت عليك من خيمتها شوقاً إليك و قد تعرّضت لك و أحبّت لقاءك ، فلمّا أن رأتك متّكئاً على سريرك تبسّمت نحوك شوقاً إليك فالشعاع الّذي رأيت و النور الّذي غشيك هو من بياض ثغرها و صفائه و نقائه و رقّته ، قال : فيقول وليّ الله : ائذنوا لها فتنزل إليّ فيبتدر إليها ألف و صيف وألف وصيفة يبشّرونها بذلك فتنزل إليه من خيمتها و عليها سبعون حلّة منسوجة بالذّهب و الفضّة مكلّلة بالدّرّ و الياقوت و الزّبرجد صبغهنّ المسك والعنبر ، بألوان مختلفة يرى مخّ ساقها من وراء سبعين حلّة طولها سبعون ذراعاً ، و عرض ما بين منكبيها عشرة أذرع فإذا دنت من وليّ الله أقبلت الخدّام بصحائف الذّهب والفضّة فيها الدّرّ والياقوت و الزّبرجد فينثرونه عليها ثمّ يعانقها و تعانقه فلا يملّ و لا تملّ .

---

(١) الاعراف : ٤٣ . (٢) الانسان : ١٤ .

قال الرّاوي : ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام : « أمّا الجنان المذكورة في الكتاب فانّهنّ جنّة عدن و جنّة الفردوس و جنّة نعيم وجنّة المأوى قال : و إنّ لله تعالى جناناً محفوفةً بهذه الجنان و إنّ المؤمن ليكون له من الجنان ما أحبّ و اشتهى يتنعّم فيهنّ كيف يشاء و إذا أراد المؤمن شيئاً أو اشتهى إنّما دعواه به إذا أراد أن يقول : سبحانك اللّهمّ ، فاذا قالها : تبادرت إليه الخدّام بما اشتهى من غير أن يكون طلبه منهم ، أو أمر به و ذلك قول الله عزّ و جلّ : « دعويهم فيها سبحانك اللّهمّ و تحيّتهم فيها سلام [1] » يعني الخدّام قال : « و آخر دعويهم أن الحمد لله ربّ العالمين [2] » يعني بذلك عند ما يقضون من لذّاتهم من الجماع و الطعام و الشراب يحمدون الله تعالى عند فراغهم ، و أمّا قوله : «أولئك لهم رزق معلوم [3] » قال : يعلمه الخدّام فيأتون به أولياء الله قبل أن يسألوهم إيّاه ، وأمّا قوله تعالى : « فواكه وهم مكرمون [4] » قال : فانّهم لا يشتهون شيئاً في الجنّة إلّا اُكرموا به [5] ».

وروى الصّدوق رحمه الله عن الصّادق عليه السلام : « أنّه سئل عن قول الله عزّ وجلّ : « لهم فيها أزواج مطهّرة [6] » قال : الأزواج المطهّرة اللّاتي لا يحضن ولا يحدثن [7] » .

و باسناده عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام طوبى شجرة في الجنّة أصلها في دار رسول الله صلى الله عليه وآله فليس من مؤمن إلّا و في داره غصن من أغصانها لا ينوي في قلبه شيئاً إلّا أتاه ذلك الغصن به ، ولو أنّ راكباً مجدّاً سار في ظلّها مائة عام لم يخرج منها ، ولو أنّ غراباً طار من أصلها ما بلغ أعلاها حتّى يبياضّ هرماً [8] » .

و عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال : «تسنيم» أشرف شراب أهل الجنّة يشربه محمّد وآل محمّد صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين وسائر أهل الجنّة [9] » .

---

(١) و (٢) يونس : ١٠ . (٣) الصافات : ٤١ .
(٤) الصافات : ٤٢ . (٥) الروضة ص ٩٥ الى ١٠٠ .
(٦) النساء : ٥٧ . (٧) رواه الصدوق في الفقيه .
(٨) رواه الصدوق في الامالي ص ١٣٣ وفي الخصال ج ٢ ص ٨٢ ورواه أيضاً العياشي في تفسيره .
(٩) رواه القمي في تفسيره سورة التطفيف قوله تعالى : «عيناً يشرب بها المقربون» وقوله تعالى : « ومزاجه من تسنيم » .

✿(باب في سعة رحمة الله)✿

نختم به الكتاب على سبيل التفأل بذلك فقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحبّ الفال [١] و ليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدي برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التفأل و نرجو أن يختم عاقبتنا بالخير في الدُّنيا و الآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله فقد قال الله تعالى : « إنّ الله لايغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء [٢] » .

و قال تعالى : « قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذُّنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرَّحيم [٣] » .

و قال تعالى : « و من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثمّ يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً [٤] » و نحن نستغفر الله تعالى من كلّ ما زلّ به القدم أو طغى به القلم في كتابنا هذا و في سائر كتبنا و نستغفره من أقوالنا الّتي لاتوافقها أعمالنا ، ونستغفره ممّا ادَّعيناه و أظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه ، ونستغفره من كلّ علم و عمل قصدنا به وجهه الكريم ثمّ خالطه غيره ، و نستغفره من كلّ وعد وعدناه به من أنفسنا ، ثمّ قصرنا في الوفاء به ، و نستغفره من كلّ نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته ، ونستغفره من كلّ تصريح و تعريض بنقصان ناقص و تقصير مقصّر كنّا متّصفين به ، و نستغفره من كلّ خطرة دعتنا إلى تصنّع و تكلّف تزيّناً للنّاس في كتاب سطرناه أو كلام نظمناه، أوعلم أفدناه أواستفدناه ، و نرجع بعد الاستغفار من جميع ذلك كلّه لنا و لمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن يكرمنا الله بالمغفرة والرَّحمة و التجاوز عن جميع السيّئات ظاهراً و باطناً فإنّ الكرم عميمٌ و الرَّحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خلق الله عزّ وجلّ لاوسيلة لنا إليه إلّا فضله و كرمه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :

---

(١) رواه مسلم ج ٧ ص ٣٣ من حديث أنس .
(٢) النساء : ٤٨ . (٣) الزمر : ٥٣ .
(٤) النساء : ١١٠ .

« إنّ لله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجنّ و الأنس و الطّير و البهائم و الهوامّ فبها يتعاطفون وبها يتراحمون و آخر تسعاً و تسعين رحمة يرحم الله بها عباده يوم القيامة (١) » .

و روي : « أنّه إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتاباً من تحت العرش فيه إنّ رحمتي سبقت غضبي و أنا أرحم الرّاحمين فيخرج من النّار مثلا أهل الجنّة(٢) » .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يتجلّى الله تعالى لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول : أبشروا يا معشر المسلمين إنّه ليس منكم أحد إلّا وقد جعلت مكانه في النّار يهوديّاً أو نصرانيّاً (٣) » .

و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يشفّع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذرّيّته في مائة ألف ألف و عشرة آلاف ألف (٤) » .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم . « إنّ الله عزّوجلّ يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائي ؟ فيقولون : نعم يا ربّنا ، فيقول : لم ؟ فيقولون : رجونا عفوك و مغفرتك ، فيقول : قد أوجبت لكم مغفرتي (٥) » .

و قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «يقول الله يوم القيامة : أخرجوا من النّار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام (٦) ».

(١) أخرجه مسلم ج ٨ ص ٩٦ من حديث سلمان وأبى هريرة ، ورواه الطبرانى من حديث عبادة بن صامت .

(٢) رواه البخارى و مسلم ج ٨ ص ٩٥ دون قوله « وأنا أرحم الراحمين الخ» حديث يوم القيامة .

(٣) أخرج مسلم ج ٨ ص ١٠٥ ذيله و روى صدره الطبرانى فى حديث آخر من حديث أبى موسى .

(٤) رواه الطبرانى فى الاوسط من حديث أنس و فيه يزيد الرقاشى و هو ضعيف كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢٨١ .

(٥) أخرجه أحمد ج ٥ ص ٢٣٨ من حديث معاذ بن جبل . والطبرانى بسندين أحدهما حسن كما فى مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٥٨ .

(٦) أخرجه الترمذى ج ١٠ ص ٦١ من حديث أنس و قال حسن صحيح .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « إذا اجتمع أهل النّار في النّار و من شاء الله معهم من أهل القبلة ، قال الكفّار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى فيقولون : ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النّار ؟ فيقولون : كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عزّ وجلّ ما قالوا فيأمر بإخراج من كان في النّار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفّار قالوا : يا ليتنا كنّا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثمّ قرأ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم « ربما يودّ الّذين كفروا لو كانوا مسلمين » (١) » .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : « الله تعالى أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٢) » .

و قال جابر بن عبدالله : من زادت حسناته على سيّئاته يوم القيامة فذلك الّذي يدخل الجنّة بغير حساب ، و من استوت حسناته و سيّئاته يوم القيامة فذلك الّذي يحاسب حساباً يسيراً ، ثمّ يدخل الجنّة و إنّما شفاعة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمن أوبق نفسه و أثقل ظهره .

وروي أنّ الله عزّ وجلّ قال لموسى على نبيّنا وآله و عليه السلام : يا موسى استغاث بك قارون فلم تغثه و عزّتي و جلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه .

و قال سعد بن بلال يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النّار فيقول الله تبارك وتعالى لهما : « ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلّام للعبيد » و يأمر بصرفهما إلى النّار فيعدو أحدهما في سلاسله حتّى يقتحمها و يتلكّأ الآخر فيؤمر بردّهما و يسألهما عن فعلهما ، فيقول الّذي عدا إلى النّار : قد ذقت من وبال المعصية ما لم أكن لأتعرّض لسخطك ثانية ، و يقول الّذي تلكّأ : حسن ظنّي بك كان يشعرني أن لا تردّني إليها بعد ما أخرجتني منها ، فيأمر بهما إلى الجنّة .

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في البعث و النشور ، عن أبي موسى الاشعري كما في الدر المنثور ج ٤ص٩٢ . والآية في سورة الحجر : ٢ .

(٢) متفق عليه و رواه الطبراني من حديث عبدالله بن أبي أوفى كما في مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٢١٣ .

و قال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أُمّة محمّد أمّا ما كان لي قبلكم فقد و هبته لكم و بقيت التبعات فتواهبوها و ادخلوا الجنّة برحمتي » [1] .

و يروى أنّ أعرابيّاً سمع ابن عبّاس يقرأ « و كنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذ كم منها » فقال الأعرابي : والله ما أنقذ كم منها و هو يريد أن يوقعكم فيها فقال ابن عبّاس : خذوها من غير فقيه .

و قال الصنابحي : دخلت على عبادة بن الصامت و هو في مرض موته فبكيت ؟ فقال : مهلاً لم تبكي فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لكم فيه خير إلّا حدّثتكموه إلّا حديثاً واحداً و سوف أُحدّثكموه اليوم وقد أُحيط بنفسي سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم : « يقول : من شهد أن لا إله إلّا الله و أنّ محمّداً رسول الله حرّمه الله على النّار [2] » .

و عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم إنّ الله سيخلص رجلاً من أُمّتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة و تسعين سجلّاً لكلّ سجلّ منها مثل مدّ البصر ، ثمّ يقول له : أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك ملائكتي الحافظون ؟ فيقول : لا يا ربّ فيقول : أفلك عذرٌ ؟ فيقول : لا يا ربّ فيقول : بلي إنّ لك عندنا حسنة فإنّه لا ظلم عليكم اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلّا الله و أشهد أنّ محمّداً رسول الله ، فيقول : يا ربّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلّات ؟ فيقال : إنّك لا تظلم ، قال : فتوضع السجلّات في كفّة والبطاقة في كفّة ، وطاشت السجلّات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع الله شيء [3] » .

---

(١) قال العراقي : رويناه في سباعيات أبي الاسعد القشيري من حديث أنس و فيه الحسين بن داود البلخي قال الخطيب : ليس بثقة . أقول راجع مجمع الزوائد ج ١٠ ص ٣٥٥.

(٢) رواه مسلم ج ١ ص ٤٢ من حديث عبادة بن صامت وأيضاً برواية الصنابحي غير هذا اللفظ .

(٣) أخرجه ابن ماجه تحت رقم ٤٣٠٠ « دون قوله فلا يثقل مع الله شيء ».

و قال صلى الله عليه وآله وسلم : في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة و الصراط : « إنّ الله تعالى يقول للملائكة: من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النّار قال : فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثمّ يقولون : ياربّنا لم نذر فيها أحداً ممّن أمرتنا به . ثمّ يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثمّ يقولون : ياربّنا لم نذر فيها أحداً ممّن أمرتنا به ، ثمّ يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثمّ يقولون : ياربّنا لم نذر فيها أحداً (فكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدّقوني بهذا الحديث فاقرؤا إن شئتم «إنّ الله لا يظلم مثقال ذرّة و إن تك حسنة يضاعفها و يؤت من لدنه أجراً عظيماً») قال : فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيّون و شفع المؤمنون و لم يبق إلاّ أرحم الرّاحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قطّ قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنّة يقال له : نهر الحياة فيخرجون منه كما تخرج الحبّة في حميل السيل ألاترونها تكون ممّا يلي الحجر و الشجر ما يكون إلى الشّمس أصفر و أخضر و ما يكون منها إلى الظلّ أبيض قالوا : يا رسول الله كأنّك كنت ترعى بالبادية قال : فيخرجون كاللّؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنّة يقولون : هؤلاء عتقاء الرّحمن الّذين أدخلهم الله الجنّة بغير عمل عملوه و لاخير قدّموه ، ثمّ يقول : ادخلوا الجنّة فما رأيتم فيها فهو لكم فيقولون : ربّنا أعطيتنا مالم تعط أحداً من العالمين فيقول الله تعالى : إنّ لكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربّنا أيّ شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً . رواه البخاري و مسلم في صحيحيهما[1] .

و روى البخاريّ أيضاً عن ابن عبّاس قال : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم فقال : عرضت عليّ الاُمم يمرّ النبيّ معه الرّجل والنبيّ معه الرّجلان والنبيّ ليس معه أحدٌ و النبيّ معه الرّهط فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن يكون اُمّتي فقيل لي هذا موسى وقومه ، ثمّ قيل : انظر فرأيت سواداً كثيراً قد سدّ الاُفق فقيل

(١) مسلم ج ١ ص ١١٥ ، البخاری ج ٩ ص ١٥٩ من حديث أبی سعيد الخدری .

لي: اُنظر هكذا وهكذا فرأيت سواداً كثيراً فقيل لي: هؤلاء اُمّتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب، فتفرّق النّاس ولم يبيّن لهم رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فتذاكر ذلك أصحابه فقالوا: أمّا نحن فولدنا في الشرك ولكن قد آمنّا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال لهم: الّذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيّرون وعلى ربّهم يتوكّلون، فقام عكّاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال: أنت منهم، ثمّ قام آخر فقال: مثل قول عكّاشة، فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: سبقك بها عكّاشة »(١).

وعن عمرو بن حزم الأنصاريّ قال: تغيّب عنّا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ثلاثاً لا يخرج إلينا إلّا للصّلاة المكتوبة، ثمّ يرجع، فلمّا كان اليوم الرّابع خرج إلينا فقلنا: يا رسول الله قد احتبست عنّا حتّى ظننّا أنّه قد حدث حدث، قال: لم يحدث إلّا خير إنّ ربّي عزّ وجلّ وعدني أن يدخل من اُمّتي الجنّة سبعين ألفاً لا حساب عليهم وإنّي سألت ربّي في هذه الثلاثة الأيّام المزيد فوجدت ربّي واجداً ماجداً كريماً فأعطاني مع كلّ واحد من سبعين ألفاً سبعين ألفاً، قال: قلت: يا ربّ وتبلغ اُمّتي هذا قال: أكمل لك العدد من الأعراب(٢) ».

وقال أبوذرّ: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: « عرض لي جبرئيل في جانب الحرّة فقال: بشّر اُمّتك أنّه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنّة، فقلت: يا جبرئيل وإن سرق وإن زنى؟ قال: نعم وإن سرق وإن زنى، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال: وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر(٣) ».

قال أبو الدّرداء: قرأ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يوماً « ولمن خاف مقام ربّه جنّتان(٤) » فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: « ولمن خاف مقام ربّه جنّتان » فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: « ولمن خاف مقام ربّه جنّتان »

---

(١) صحيح البخاري ج ٨ ص ١٤٠.

(٢) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (المغني).

(٣) أخرجه مسلم ج ١ ص ٦٥، ورواه أيضا البخاري في الصحيح.

(٤) الرحمن: ٤٦.

فقلت : و إن زنى و إن سرق و إن رغم أنف أبي الدّرداء [١] » .

و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : إذا كان يوم القيامة دفع إلى كلّ مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له : هذا فداؤك من النّار » [٢]

و روى مسلم في الصحيح عن أبي بردة أنّه حدّث عمر بن عبدالعزيز عن أبيه ، عن أبي موسى ، عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : لا يموت رجل مسلم إلّا أدخل الله تعالى مكانه النّار يهوديّاً أو نصرانيّاً فاستحلفه عمر بن عبدالعزيز بالله الّذي لا إله إلّا هو ثلاث مرّات أنّ أباه حدّثه عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فحلف له [٣] » .

و روي أنّه وقف صبيّ في بعض المغازي يصاح عليه فيمن يزيد في يوم صائف شديد الحرّ و أبصرته امرأة في خبأ القوم فأقبلت تشتدّ و أقبل أصحابها خلفها حتّى أخذت الصبيّ و ألصقته إلى بطنها ، ثمّ ألقت ظهرها على حرّ البطحاء و جعلته على بطنها لتقيه الحرّ وقالت : ابني ابني ، فبكى النّاس وتركوا ماهم فيه ، فأقبل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى وقف عليهم فأخبروه الخبر فسرّ برحمتهم ، ثمّ بشّرهم فقال : أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ قالوا : نعم ، قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : فإنّ الله تعالى أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها ، فتفرّق المسلمون على أفضل السرور و أعظم البشارة [٤] » .

فهذه الأحاديث و ما أوردناه في كتاب الرّجاء تبشّرنا بسعة رحمة الله تعالى فنرجو الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقّه وأن يتفضّل علينا كما هو أهله بمنّه وسعة جوده و رحمته .

تمّ كتاب ذكر الموت و ما بعده من المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء و هو الكتاب العاشر من الرّبع الرّابع الّذي في المنجيات و بتمامه تمّ كتاب المحجّة بكتبه الأربعين جميعاً و الحمد لله ربّ العالمين .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وأحمد وابن منيع والحكيم في نوادر الاصول والنسائي والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن حاتم وابن المنذر والطبراني وابن مردويه كما في الدرالمنثور ج ٦ ص ١٤٦ . (٢) رواه مسلم ج٨ص ١٠٤ نحوه من حديث أبي موسى و قدتقدم .

(٣) الصحيح ج ٨ ص ١٠٥ .

(٤) أخرجه البخاري ج ٨ ص ٩ بنحوه ومسلم ج ٨ ص ٩٧ وقد تقدم .

فهرست ما فى هذا المجلد

الصفحة	الموضوع

كتاب المحبة و الشوق والرضا والانس

٤ شواهد الشرع في حبّ العبد لله تعالى .

٨ حقيقة المحبّة و أسبابها و تحقيق محبّة العبد لله تعالى .

١٦ بيان أنّ المستحقّ للمحبّة هو الله تعالى وحده .

٢٧ بيان أنّ أجلّ اللّذات و أعلاها معرفة الله تعالى و النظر إلى وجهه الكريم و أنّه لا يتصوّر أن يؤثر عليها لذّة اُخرى إلّا من حرم هذه اللّذة .

٣٤ السبب في زيادة لذّة النظر في الآخرة على المعرفة في الدّنيا .

٤٣ الأسباب المقوّية لحبّ الله تعالى .

٥٠ السبب في تفاوت النّاس في الحبّ .

٥١ السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله عزّ و جلّ .

٥٥ معنى الشوق إلى الله عزّ و جلّ .

٦٣ محبّة الله عزّ وجلّ للعبد و معناها .

٦٨ القول في علامات محبّة العبد لله عزّ وجلّ .

٧٩ معنى الاُنس بالله عزّ وجلّ .

٨١ معنى الانبساط و الإدلال الّذي تثمره غلبة الانس .

٨٦ القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وماورد في فضيلته .

٨٦ بيان فضيلة الرضا .

الصفحة	الموضوع

٩٠ حقيقة الرضا وتصوّره فيما يخالف الهوى .

٩٤ الدّعاء غير مناقض للرضا و لايخرج صاحبه عن مقام الرضا .

٩٩ الفرار من البلاد الّتي هي مظانّ المعاصي و مذمّتها لايقدح في الرضا .

كتاب النية و الصدق والاخلاص

١٠٣ الباب الأوّل بيان فضيلة النيّة وحقيقة النيّة .

١٠٦ بيان حقيقة النيّة .

١٠٩ سرّ قوله عليه السلام «نيّة المؤمن خير من عمله» .

١١٣ تفصيل الأعمال المتعلّقة بالنيّة .

١٢١ النيّة غير داخلة تحت الاختيار .

١٢٥ الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته و حقيقته ودرجاته .

١٢٨ بيان حقيقة الخلوص .

١٣٣ درجات الشوائب و الآفات المكدّرة للإخلاص .

١٣٦ حكم العمل المشوب و استحقاق الثواب به .

١٤٠ الباب الثالث في الصدق و فضيلته وحقيقته .

١٤١ حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه .

كتاب المراقبة و المحاسبة

١٥١ المقام الأوّل من المرابطة المشارطة .

١٥٥ المرابطة الثانية المراقبة .

١٥٦ حقيقة المراقبة و درجاتها .

١٦٢ النظر الثاني المراقبة عند الشروع في العمل .

١٦٥ المرابطة الثالثة محاسبة النفس بعد العمل .

١٦٧ حقيقة المحاسبة بعد العمل .

الصفحة	الموضوع

١٦٨ المرابطة الرابعة معاقبة النفس على تقصيرها .
١٦٩ المرابطة الخامسة المجاهدة .
١٨٠ المرابطة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها

كتاب التفكر

١٩٣ فضيلة التفكّر .
١٩٦ حقيقة الفكر و ثمرته .
٢٠٠ بيان مجاري الفكر .
٢١٢ كيفيّة التفكّر في خلق الله عزّ وجلّ .

كتاب ذكر الموت و ما بعده

٢٣٨ الباب الاوّل في فضل ذكر الموت و الترغيب فيه .
٢٣٩ بيان فضل ذكر الموت كيف ما كان .
٢٤٣ بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت .
٢٤٤ الباب الثانى في طول الأمل .
٢٤٦ بيان السبب في طول الأمل وعلاجه .
٢٤٨ بيان مراتب النّاس في طول الأمل وقصره .
٢٥٠ بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير .
٢٥٢ الباب الثالث في سكرات الموت و شدّته وما يستحبُّ من الأحوال عند الموت .
٢٦٢ بيان ما يستحبُّ من أحوال المحتضر عند الموت .
٢٦٥ بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات تعرب بلسان الحال عنها .
٢٦٨ الباب الرابع في وفاة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم .

الصفحة	الموضوع
٢٨١	الباب الخامس في كلام المحتضرين من الصّالحين .
٢٨٢	الباب السادس في أقاويل العـارفين على الجنائز و المقابر و حكـم زيارة القبور .
٢٨٤	أحوال القبر وأقاويلهم على القبور .
٢٨٦	بيان أقاويلهم عندموت الولد .
٢٩٣	الباب السابع في حقيقة الموت و ما يلقاه الميّت في القبر إلى نفخة الصور .
٣٠١	بيان كلام القبر للميّت .
٣٠٢	بيان عذاب القبر .
٣٠٩	سؤال منكر و نكير و عذاب القبر .
٣١٢	الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام .
٣١٧	منامات تكشف عن أحوال الموتى .
٣١٨	صفة نفخ الصور .
٣٢٢	صفة أرض المحشر و أهله .
٣٢٧	صفة العرق .
٣٢٨	صفة طول يوم القيامة .
٣٢٩	صفة يوم القيامة و دواهيه وأساميه .
٣٣٢	صفة المسائلة .
٣٣٩	صفة الميزان .
٣٤٠	صفة الخصماء وردّ المظالم .
٣٤٤	صفة الصراط .
٣٤٨	صفة الشفاعة .

الصفحة	الموضوع
٢٥١	صفة الحوض .
٣٥٣	القول في صفة جهنّم و أهوالها و أنكالها .
٣٦٤	القول في صفة الجنّة و أصناف نعيمها .
٣٦٧	أبواب الجنّة .
٣٦٨	غرف الجنّة .
٣٦٩	صفة حائط الجنّة و أرضها .
٣٧١	صفة لباس أهل الجنّة و فرشهم وسررهم و أرائكهم و خيامهم .
٣٧٢	صفة طعام أهل الجنّة .
٣٧٣	صفة الحور العين والولدان .
٣٧٥	بيان جمل متفرّقة من أوصاف أهل الجنّة وردت بها الأخبار .
٣٨٣	باب في سعة رحمة الله .

الفهارسُ الفنيّة

فهرس الاعلام

فهرس الاماكن

فهرس القبائل والطوائف

فهرس الكتب والمآخذ

عشرة مُقالة

بسمه تعالى، وله الحمد في الآخرة والأُولى:

لايخفى على أيّ ثقافيّ له عرفان بشأن الكتاب، و إلمام بأمر الطباعة والنشر و إحياء المتون، واطّلاع على سيرها الرّاقي في العالم، ومعرفة بأحوال الباحثين واهتمام المحقّقين من الجيل الغابر وأبناء العصر الحاضر، الكمّلين منهم والناشئين أنّ الفهرس الفنّي اليوم أمرٌ ضروريٌّ لا بدّمنه، ولايشكُّ فيه أحدٌ، وخلوّ الكتاب عنه مضرٌّ بنشره مهما كبر شأنه وكثر روّاده، وكلّما كان قدر التأليف بالنظر إلى محتواه أعلى وأغلى كان بوضع الفهرس الفنّي له أجدر وأحرى، ونحن لاننكر ذلك ولانشكّ فيه، لكن بالرّغم من هذا الاعتقاد وهذا العلم، وجهودنا الجبّارة في جودة طبع هذا الأثر القيّم وجدّنا البالغ في إبرازه ونشره بالثوب القشيب، في أبهى حلّة ترصيفاً و إخراجاً وطباعة وكونه عارياً من كلّ عيب ونقص، فاتنا مع شديد الأسف وضع الفهارس اللاّزمة له في طبعه الماضي سوى الفهرس الموضوعيّ، والمانع أمرٌ مايجدي ذكره، ولايستسيغ لنا الإصحار به، ولايروقنا إزعاج القرّاء بتفصيله، غير أنّ النوائب حاجزة، والعوائق رادعة، والقضاء مبرم، ولامحيص عن أمر خُطَّ بالقلم، وكيف كان جرى القضاء بما يرجى له حسن المثوبة.

بَيدَ أنّي مازلت أُحاول الخروج من ضيق الاعتراض والملام إلى فسحة الخلاص بالسّلام، وأترصّد الفرصة لجبر هذا الكسر وأترقب الإمكان لرفع هذا النقصان، وكنت في فجوة الانتظار والرّجاء لعلّ اللّه يحدث بعد ذلك أمراً، فمضت شهور وأيّام وسنون وأعوام وآل الأمر إلى أن قضت العناية الالهية بتجديد طبع الكتاب وتهيئة الأسباب، باهتمام هذه المؤسّسة المباركة العلميّة، وحثّنا مدير يّتها على تعجيل العمل و إنجاز الوعد، فتصفّحنا أوراق الكتاب مع جماعة من الاخوان وغير واحد من الزّملاء– شكراللّه مساعيهم– واستخرجنا أعلامه وأماكنه وغير ذلك ممّا فيه من العنوان، واستفدت من العطلة النيروزيّة فرتّبتها أجود ترتيب وبوّبتها أحسن تبويب وميّزت المشتركات بذكر آبائهم بين القوسين، والمبهمات بذكر أوصافهم بين الهلالين( ) ليكون المراجع على بصيرة من أمره، وليجد كلُّ طالب طلبته دون أيّ كلل، وكلُّ مبتغ بغيته بغير ملل. وبذلك خمدت نار اللّوعة والأسف، وعفا اللّه عمّا سلف، فنشكره على توفيقه ونحمده على تسديده، ونسأله أن يفرّج عنّا غمرات الكروب، ويرفع عنّا أيدي الظّالمين، ويدفع عنّا كيد الخائنين، وينسأ لنا في الأجل، ويرينا الطّلعة الرّشيدة والغرّة الحميدة وماذلك عليه بعزيز إنّه على كلّ شئ قدير.

١٣٦١– هـ ش

علي اكبر الغفاريّ

الاعلام

الف

آدم عليه‌السلام

ج ١ : ٣٦ـ ٥٤ـ ١٢٢ـ ١٧٣ـ ٢١٢ـ ٢٢٦
٢٤٠ـ ٢٩٢ـ ٣٢٥ـ ٣٥٠ـ ٣٧٩ـ ٣٩٦
ج ٢ : ١٥٢ـ ١٥٨ـ ١٥٩ـ ٣١٩ـ ٣٢٠
ج ٣ : ٩ـ ١٠ـ ٢٥ـ ٥٤ـ ٦١ ـ ٦٥ ـ ٦٦
٦٩ـ ٢٠١ ـ ٣١٢ ـ ٣٧١ ـ ٣٧٨ ـ ٤١٨
ج ٤ : ٩٢ـ ١٥٧ـ ١٨١ـ ١٨٥ـ ٢٠٩ـ ٣٣٩
ج ٥ : ٥٨ـ ٥٩ـ ٧١ـ ١٤٥ـ ٢٣٠
ج ٦ : ٢٩٦
ج ٧ : ٣ـ ٨ـ ٢٧ـ ٤٣ـ ٤٧ ـ ٩٤ ـ ١٣١
١٤٦ـ١٨٥ـ ٢٦٣ـ ٣٠٦ـ٣٢٦ـ٣٣٥
٣٤٣ـ ٣٦٩ـ ٣٩١ـ ٣٩٢
ج ٨ : ٢٦ـ ٨٣ـ ٨٩ـ ١٩٠ـ ١٩٤ـ ٣٣٩
٣٤٩ـ ٣٥٠ـ ٣٧٦ـ ٣٨٤

آسية (امرأة فرعون)

ج ٣ : ٩٧ ج ٦ : ١٠٣
ج ٧ : ٣٢٤

آسية بنت مزاحم

ج٤: ٢١٣

آصف بن برخيا

ج ٤ : ١٨٥

أبان بن أبی عيّاش التيمی

ج ٨ : ٢٨٤

أبان بن تغلب

ج ٢ : ٢٧٤
ج ٣ : ٣٥٦ـ ٣٥٧ـ ٣٧٩

أبان بن عثمان الأحمر

ج ٢ : ٥٨ـ ١٨٤

ابراهيم (الخليل عليه‌السلام)

ج ١ : ١٥ـ ١٨١ـ ٢١٥ـ ٢٢٦ـ ٢٢٧ـ ٢٣٠
٢٣٨ـ ٢٤٠ ـ ٢٦١ـ٣٢٤ـ٣٢٧ـ٣٥١
٣٧٣
ج ٢ : ١٤٠ـ ١٤٦ـ ١٥٩ـ ١٦٩ـ ٢٠٤ـ٢٥٧
٢٥٨ـ ٢٨٣ـ ٣٢٠ـ ٣٩٣
ج ٣ : ٣٢ـ ٣٩ـ ٤٠ ـ ٩٨ ـ ١٠٣ ـ ٣٥٣
٣٨٦ـ ٣٩٩
ج ٤ : ٨ـ ٩٢ـ ١٧٩ـ ١٨١ ـ ١٨٥ ـ ١٩٢
٢٠٩ـ ٢٦٥ـ ٣٣٨ـ ٣٧٠ـ ٣٧١
ج ٥ : ٣٠ـ ١٤٢
ج ٦ : ٢٥ـ ٤٦ـ ٢٥١ـ ٣٤٣
ج ٧ : ١٩١ـ ٢٦٧ـ ٢٩٠ـ ٣٠٩ـ ٣٧٩ـ٣٨٠
٤٠٧
ج ٨ : ٥ـ ٥٨ـ ١٤٠ ـ ٢٣١ ـ ٢٥٤ـ ٢٥٩
٣٤٩

ابراهيم بن أبی البلاد

ج ٢ : ٥٨

ابراهيم بن أبی حجر الاسلمی

ج ٢ : ١٨٣

ابراهيم بن أبی محمود

ج ٢ : ١٦

ابراهيم بن أدهم (الصوفی)

ج ١ : ١٤٧ ج ٣ : ٤٢ـ ٥٦ـ ٧٤ـ ١٤٤
ج ٤ : ١٢ ج ٥ : ٦٩ـ ١٦١ـ ١٧٤ـ٣٧٢
ج ٦ : ١٠٨ـ ١٤٨ـ ٢٠٧

ج ٧ : ٤٢١ـ ٤٢٢ ج ٨ : ٥٦

ابراهيم الاطروش
ج ٧ : ٢٦٨

ابرهيم بن اسماعيل الجرجانى
ج ٤ : ٣٣١

ابراهيم التيمى
ج ٣ : ١١٤ ج ٥ : ٢٠٥

ابراهيم الخوّاص
ج٥: ١٣١ ج٦ : ١٧٨
ج٧ : ٣٣٣

ابراهيم بن رسول‌الله (ص)
ج٧: ١٢٩

ابراهيم الزيّات
ج ٣ : ٤١٣

ابراهيم بن شعيب
ج ٣ : ٤٤١

ابراهيم بن على
ج ٤ : ٢٣٥

ابراهيم بن العبّاس
ج ٤ : ٢٨١

ابراهيم بن الفضل
ج ٤ : ٥٦

ابراهيم الكرخى
ج ٣ : ٨٦

ابراهيم بن المثنى
ج ٢ : ١٣٩

ابراهيم بن يزيد (النخعى)
ج ٢ : ٧٩ ج ٣ : ٤٦ـ ٣٣٦
ج ٤ : ٥ ج ٥ : ٢٠٦ـ ٢٣٨ـ٢٤٨ـ٢٥٧

ابراهيم بن هاشم القمى

ج ٣ : ٢١٧

ابليس (الشيطان)
ج ١ : ١٨ـ ٣١ـ ٢٩١ ج٢ : ٣٠ـ ٤٠
٨١ـ ١٠٩ـ ١١٦ـ ١١٧ـ ١٢٣ـ ١٣٢
١٦٩ـ١٧٩ـ ٢٠٤ـ٢٠٦ـ ٢٢٧ـ٢٣٣
٢٤١ـ ٢٤٩ـ ٣٣٢ـ ٣٥٧
ج ٣ : ١٢ ج ٤ : ٣٥٤
ج ٥ : ٥٢ـ ٥٤ـ ٥٨ـ ٥٩ الى ٦٢ـ ٧١ـ٨٠
الى ٨٦ـ ١٣٦ـ ١٧٧ـ ١٨٠ـ ١٩١
٢٠٤ـ٢٤٣ـ ٢٦٨ـ ٢٨٠ـ ٣٠٨ـ٣٢٨
٣٤٥ـ ٣٤٦
ج ٦ : ٢١ـ ٢٥ـ ٣٧ـ ٤٣ـ ٧٧ـ ٩٣ـ ٩٧
٢٣٥ـ ٢٤٠ـ ٢٧٠ـ٢٧٥ـ ٢٩٢ـ٢٩٤
٢٩٦ الى ٣١٩ـ ٣٣٢ ـ ٣٤٠ـ ٣٥٢
٣٥٥
ج ٧ : ٢٥ـ ١٤١ـ ١٦٩ـ ١٧٣ـ ٢٦٤ـ ٣٠٥
ج ٨ : ١٤ـ ٨٣ـ ١١٥ـ ١٢٥ الى ١٢٧ـ ١٦٥
١٧٤ـ ٢٠٢ـ ٢٠٨ـ ٢٦٣ـ ٢٦٦

ابن أبى الحديد
ج ١ : ٢٤٢

ابن أبى أوفىٰ (عبدالله)
ج ٣ : ٣٦٠

ابن أبى حازم
ج ٤ : ٢٥٤

ابن أبى سماك
ج ٣ : ٢٥٠

ابن أبى عقيل (العمّانى)
ج ٣ : ٧٠ ج٤: ٨١

ابن أبى عمير (محمّد)
ج ١ : ٣٠٣ـ ٣٤٨ ج ٢ : ٣٠٦
ج ٣ : ١٨١ـ ٢١٧ـ ٢٥٥ـ ٣٩٦
ج ٥ : ٢٥٥

ابن أبى ليلى (عبدالرحمن)

ج ١ : ٣٣٨

ابن أبى مليكة
ج ٨ : ٢٨٩

ابن أبى نجيح
ج ٧ : ١٢٩

ابن أبى يعفور
انظر: «عبدالله بن ابى يعفور»

ابن أخى شهاب بن عبدربّه
ج٥: ١٦٧

ابن ادريس
ج١: ٢٨٥

ابن اذينة
ج٣: ٢٢٨

ابن الاعرابى (أحمد بن محمّد أبوسعيد)
ج٤: ٢٤- ١٩١ ج٦: ٢١٨

ابن امّ عبد
انظر «عبدالله بن مسعود»

ابن امّ مكتوم الاعمى
ج٥: ١٨١

ابن أورمة (محمّد)
ج٤: ٣١٧

ابن بابويه (محمّد بن على)
راجع «الصدوق»

ابن البرصاء الشاعر (شبيب)
ج٤: ١٧٠

ابن بزيع العطّار
ج٤: ٣٠٥

ابن جريج (عبدالملك بن عبدالعزيز)
ج١: ١٦٤ ج٤: ٢٥٤
ج٦: ٢٣١- ٢٧٣

ابن الجنيد (أبوعلى الكاتب الاسكافى)
ج١: ٢٨٦
ج٣: ٤٠- ٧٠- ٧٣- ١٠٠
ج٣: ١٥٢

ابن الجوزى
ج٤: ٢٥٦

ابن حمدون
ج٤: ٢٥٦

ابن حمزة
ج٣: ١٠٠

ابن خالويه
ج٤: ٢٢١

ابن خفيف
ج٧: ٣٧٠

ابن رئاب
انظر «على بن رئاب»

ابن الرومى (الشاعر)
ج٤: ٢٣

ابن سالم
ج١: ٩٠ ج٥: ١٦٠

ابن سلام
ج١: ١٨٤

ابن السماك (الكوفى ابوالعبّاس محمّدبن صبيح)

ج٤: ٢٢
ج٦: ٦٥ ج٧: ٢١٩

ابن سنان
انظر «محمّد بن سنان»

ابن سيرين (محمّد)
ج٣: ١٧٨ـ ١٩٢
ج٤: ٢٥ـ ٢١٨ـ ٢٣٠
ج٥: ٢٠٧ـ ٢٥٧ـ ٢٧٤ـ ٣٢٩
ج٧: ٤٢
ج٨: ١٢٢ـ ٢٩٠ـ ٣١٥

ابن شاذان (الفضل)
ج١: ٣٠٨ ج٣: ٤٩ ج٤: ٢٠٤

ابن شهرآشوب
ج٤: ١٩٥

ابن طلحة
انظر «محمد بن طلحة الشافعى»

ابن عائشة (عبيدالله بن محمّد الهاشمى)
ج٤: ٢٣٣

ابن عامر (قدامة بن عبدالله العامرى)
ج٤: ١٥١

ابن عبّاس (عبدالله)
ج١: ٩ـ ٣٤ـ ٣٥ـ ٩٣ـ ١١٢ـ ١٦٤ـ ١٦٨ـ ١٧٢ـ ٢٤٥ـ ٢٦٢ـ ٢٦٩ـ ٣٤٤ـ ٣٥٣ـ ٣٥٨
ج٢: ١٥ـ ٤٦ـ ٢٠٢ـ ٢٢٤ـ ٢٢٦ـ ٢٤٢ـ ٢٥٠ـ ٢٥٢ـ ٢٥٣ـ ٢٥٤ـ ٢٦٢ـ ٢٦٦ـ ٢٨٨ـ ٣٦٩ـ ٤٠٥
ج٣: ٣٦ـ ٦٥ـ ٦٦ـ ٧١ـ ١١٧ـ ١١٨ـ ١١٩ـ ٢٠٤ـ ٢٠٧ـ ٣٢٢ـ ٣٢٩ـ ٣٣٠ـ ٣٥٤ـ ٣٧٨ـ ٣٩٠ـ ٣٩٨ـ ٤٢٥
ج٤: ٦ـ ١٠٠ـ ١٠٢ـ ١٩٢ـ ٢٠٦ـ ٢١١ـ ٢٢٢ـ ٣٣٧
ج٥: ٤٢ـ ٤٣ـ ٩٢ـ ٩٤ـ ١٤٦ـ ١٥٤ـ ١٧٦ـ ٢٠١ـ ٢١٣ـ ٢١٦ـ ٢٣٢ـ ٢٣٣ـ ٢٣٦ـ ٢٤٨ـ ٢٥٤ـ ٢٨٥ـ ٢٨٦ـ ٣٠٨ـ ٣١٣ـ ٣٣١ـ ٣٧٠
ج٦: ١٠ـ ١٤ـ ٥٥ـ ٦٠ـ ٦٧ـ ٧٣ـ ٧٥ـ ١٧٧ـ ٢٢١ـ ٢٢٩
ج٧: ٦١ـ ١٠٧ـ ١٢٦ـ ١٧٥ـ ٢٣٠ـ ٢٣٢ـ ٢٣٤ـ ٣٥٤ـ ٣٥٥ـ ٤١٧
ج٨: ٨٦ـ ١٩٣ـ ١٩٦ـ ٢٥٠ـ ٢٥٩ـ ٢٧٣ـ ٢٧٤ـ ٣٢٢ـ ٣٥٠ـ ٣٥٨ـ ٣٧٢ـ ٣٨٦ـ ٣٨٧

ابن عبدالحكم
ج٤: ٢٤

ابن عطاء
ج٥: ٩٤

ابن عكاشة بن محصن الاسدى
ج٤: ٢٥١ـ ٣٥٥

ابن العلاء السعدى
ج٨: ١٧٨

ابن فضّال (الحسن بن على)
ج٣: ٢٦٨ ج٤: ٤٩ـ ٧١

ابن قتيبة
ج٥: ٢١١

ابن الكوّاء
ج٢: ٢٣٣ـ ٢٣٤ ج٣: ١٢

ابن المبارك

انظر: «عبدالله بن المبارك»

ابن محبوب (الحسن)
ج۲: ۱۵۹ ج۳: ۱۳۷ـ ۱۳۹

ابن محيريز (عبدالله)
ج٦: ۱۰۹

ابن مرجانة (عبيدالله)
ج۳: ۱٤۱

ابن مسعود (عبدالله بن مسعود)
ج۱: ۱۱۱ـ ۱۳٤ـ ۱۳٥ـ ۱٤٦ـ ۱٦٦ـ ۱٦۷
۲۳۹ـ ۳۹۷
ج۲: ۲٦ـ ۱٥٥ـ ۲۱۸ـ ۲۲۳ـ ۲۳۱ـ ۲۳۲
۲۳۹ـ ۲٤٤ـ ۲٥۱ـ ۲٥۳ـ ۲٥۷ـ ۲۹٤
۳۱٤
ج۳: ۲۳ـ ٤۲ـ ٥٦ ـ ۱٤٤ ـ ۱۷۹ ـ ۲۰۳
۲٤۳ـ ۲٥۹ـ ۲۷۰ـ ۲۷٤ـ ۳۹٤
ج٤: ۲۰ـ ۳۳ـ ۱۰۱
ج٥: ٥٥ـ ٥٦ـ ٦٦ ـ ۱٤۸ ـ ۱۹٤ ـ ۱۹٥
۲۰٤ـ ۲۳۸ـ ۲۳۹ـ ۲۹۱ـ ۲۹٤ـ ۳۲۰
۳۲۲ـ ۳٦۹
ج٦: ٥۱ـ ٥۲ـ ٥٦ـ ٦۰ـ ۱۰۹ـ ۱۱۱ـ۱٦٦
۱۷۱ـ ۲۳٥ـ ۲۷۳ـ ۳۱۱ـ ۳٤٦
ج۷: ۹٥ـ ۱۱٦ـ ۱٤۳ـ ۳٤۹ـ ۳۷۹
ج۸: ۸٥ـ ۹٥ـ ۲٤٤ـ ۲٥۱ـ ۳۳۸ـ ۳٤۲
۳٤٦ـ ۳۷۳

ابن مُسكان
انظر «عبدالله بن مسكان»

ابن مطيع (عبدالله)
ج۸: ۲٤٤

ابن المعتزّ
ج۳: ۳۲۸ ج٦: ۷۷

ابن المقفّع
ج۳: ٤۲٤

ابن ملجم (عبدالرّحمن)
ج۱: ۲٤۲

ابن المنكدر (محمّد)
ج۲: ۳۹۹ ج۳: ۱٤۲ـ ٤٤٥

ابن المهاجر
ج٤: ۱۱۳

ابن ميثم البحرانى
ج۳: ۱۹۳

ابن نعيم بن محمّد الطاهرى
ج٤: ۳۱۰

ابن وضّاح
ج٥: ٥۱

ابن يامين (أخو يوسف)
ج۳: ٤۲٦
ج۷: ۳٤۸

ابو اُحَيْحَة
ج٥: ۲۱۸

أبو اسامة (زيد الشحّام)
ج۳: ۲۸۷ ج٤: ۳٥٤ ج۷: ٥۹

أبو اسحاق السبيعى
ج٤: ۲۰٦

أبو اسماعيل
ج٤: ۳٥٥

أبو اسماعيل السّندى

ج٤: ٢٩٢

ابوالأسود الدئلى
ج١: ٣٤

أبوأعور السّلمى
ج٥: ٢٢١

أبوامامة الباهلى
ج٣: ٣٢٩ ج٤: ١٠٠
ج٥: ٦٢- ٧٠- ٣٧٠
ج٦: ١٠١- ١١١- ١٤٧- ٣٢١
ج٨: ٢٩٢- ٣٥٩- ٣٧٠- ٣٧٥

أبوأيّوب
ج٣: ٢٥٣

أبوأيّوب (خالد بن زيد الأنصارى)
ج١: ٢٣٤- ٢٤٧
ج٣: ١٧- ٣٦٢
ج٦: ٥٢ ج٨: ٣٠٠

أبوأيّوب الخزّاز
ج٤: ٤٧

أبوأيّوب السَّختيانى (لايبعد اتّحاده معايوّب)
ج٣: ١١٤ ج٨: ١٢٨

أبوالبخترى
ج٤: ١٢٨- ١٥٧

أبوبردة
ج٨: ٣٨٩

أبو بردة بن ينار (والصواب «بن نيّار»)
ج٤: ١٢٢

أبوبريدة الاسلمى
ج١: ٢٣٤

أبوبصير (يحيى)
ج١: ١٥٦- ٣٢٩
ج٢: ٦- ١٦- ١٧- ٦٣- ١٥٠- ١٥٨- ١٧٤- ١٧٦- ٢٢٢- ٢٣٢- ٢٨٩- ٣١٢
ج٣: ١٠٩- ٢٢٤- ٢٥٩- ٣٩٩- ٤١٦
ج٤: ٤٦- ٦٣- ١٨٢- ٢٠٤- ٢٤٦- ٢٤٩- ٢٥١- ٢٥٢- ٢٥٩- ٢٦٠- ٢٦١- ٢٦٣- ٢٧١- ٣٤٣
ج٦: ٢٢٤ ج٧: ١٨
ج٨: ٤٢- ٢٤١

أبوبكر بن أبى قحافه
ج١: ٢٣١- ٢٣٤- ٢٣٦- ٢٣٧- ٢٤٣
ج٣: ١٥- ٩٧- ١٠١- ٢٤٣- ٤١٣- ٤٢٩
ج٥: ٢١٨- ٢٢٢- ٢٢٨- ٣١٥
ج٦: ٢٥ ج٧: ١٤٢- ٣٧٣
ج٨: ٢٧٠- ٢٧١- ٢٧٢- ٢٧٣- ٢٧٤- ٢٧٦- ٢٨١

أبوبكربن اسماعيل
ج٤: ٣٠٧

أبوبكربن عبدالله المزنى
ج٥: ١٨٧

أبوبكربن عيّاش
ج٥: ١٩٨

أبوبكرالفهفكى
ج٤: ٣٢١

أبوبكرة
ج٣: ٢٦٨ ج٨: ١٠٥

أبوبكرالحضرمى

ج٣: ٢٥٠_ ٢٧٥ ج٤: ٣٤٤
ج٨: ٢٦٣_ ٢٦٤

أبوبكر الورّاق
ج٨: ١٤٧

أبى البلاد
ج٣: ٣٧١

أبوتراب النخشبى
ج٨: ٧٨

أبوثعلبة الاسدى
ج٤: ١٠٩

أبوثعلبة الخشنى
ج٤: ٩٨ ج٦: ٢٧٢

أبوالجارود
ج١: ١٧٣

أبوجحيفة
ج٥: ١٤٩

أبوجعفر الباقر (ع)
انظر: «محمّدبن على الباقر عليهما السلام»

أبوجعفر الثانى (ع)
انظر: «محمدبن على الجواد عليهما السلام»

أبوجعفر الفزارى
ج٣: ١٦٧

أبوجعفر محمّدبن علوية
ج٤: ٣١٣

أبوجعفر المنصور
انظر «المنصور»

أبوجهم (عامر بن حذيفة بن غانم)
ج١: ٣٧٥

أبوجهل
ج١: ٩٣ ج٥: ٢٢٠ ج٨: ١٤

أبوحازم (سلمة بن دينار)
ج٣: ٢٦٧_ ٣٢٠ ج٤: ٢٣٣
ج٥: ٣٦٩_ ٣٧١ ج٦: ٥٧_ ١٧٧
ج٧: ٩٧

أبوحبيب النّباجى
ج٤: ٢٩٣

أبوالحسن الانطاكى
ج٦: ٨١

أبوالحسن الاوّل (ع)
انظر: «موسى بن جعفر عليهما السلام»

أبوالحسن الثانى (ع)
انظر: «على بن موسى عليهما السلام»

أبوالحسن الثالث (ع)
انظر: «على بن محمّد عليهما السلام»

أبوالحسن المسترقّ الضرير
ج٤: ٣٤٧

أبوالحسن المدائنى
ج٤: ٢١٦ ج٦: ٦٦

أبوالحسين النورى
ج٣: ٣١٩

أبوحفص
ج٨: ٨٢

أبوالحمراء
ج٤: ١٩٢

أبوحمزة الثمالىّ (ثابت بن دينار)
ج١: ٣٢٨- ٣٥٢- ٣٥٥- ٣٥٦
ج٢: ٥٨- ١٥٣- ١٥٧- ٢٧٢- ٣٠٤- ٣٩٤
ج٣: ٨٧- ١٤١- ٣٨٨- ٤٣٢- ٤٤٨
ج٤: ٢٣٢- ٢٦٠- ٢٦١- ٢٦٢
ج٥: ٦١- ٢٩٢- ٣٢٠- ٣٢٨- ٣٥٢
ج٦: ٢١٤

أبوحنيفة (أحد الائمة الاربعة) (النعمان بن ثابت)
ج١: ٥٧- ٩٧- ٢٠٣
ج٣: ٧٨- ١٥٦- ١٥٧
ج٤: ٢٥- ٢٥٤ ج٥: ١٢٩- ٢٣٢
ج٧: ٣٦٩

أبوحنيفة سايق الحاجّ
ج٣: ٣٧٤ ج٤: ٧٢

أبوخالد (القمّاط)
ج٣: ٣٠٢

أبوخالد الزّبالى
ج٤: ٢٧٥- ٢٧٦

أبوخديجة (سالم بن مكرم)
ج٤: ٣٣٦

أبوداود السجستانى
ج١: ٢٤

أبوالدّرداء
ج١: ٢٣- ٨٣- ١٣٤- ١٤٧- ١٧٩- ٣٩٨
ج٢: ١٠٨- ١٣٦- ٢٥١- ٢٨٨- ٣٧٧-٣٧٨
ج٣: ٦٨- ٢١٤- ٢٦٥- ٣٣٣- ٣٣٦- ٢٣٨
٣٤١- ٣٧٠- ٣٩٣- ٣٩٨- ٤١٨- ٤٤٥
ج٤: ١٦- ٢٢- ٢٣
ج٥: ٧١- ٩٠- ٢٠٦- ٢٠٨- ٢١٩- ٢٦٠- ٢٧٦- ٢٨٢- ٢٩١- ٣٢٩
٣٥٩- ٣٦٠- ٣٧٠
ج٦: ٤٢- ٥٥- ٢٣٦- ٢٤٧- ٢٥١- ٣٤٦
٣٤٩- ٣٥٠
ج٧: ٢٣١- ٢٣٣- ٤٣٤
ج٨: ٥٨- ١٢٤- ١٧٢- ٢٤٤- ٢٨٤- ٣٥٨
٣٨٨- ٣٨٩

أبوذرّ الصّحابى الغِفارىّ (رض)
ج١: ٣٥- ٦٥- ٨٧- ٢٣٤- ٢٤٢- ٢٤٧
ج٢: ٥- ٦٥- ٨٦- ٢٢١- ٢٣٧- ٣٠٥- ٣٨٣
ج٣: ١٠- ٢٢- ٢٥١- ٢٥٩- ٣١٨- ٣٣٦
٣٣٧- ٣٩٠- ٤١٨- ٤٢٥- ٤٢٦- ٤٢٨
٤٣١
ج٤: ٦١- ٧١- ٢٧٦
ج٥: ٩٢- ١٥٠- ١٦٤- ٢٠١- ٢٣٩- ٢٧٦
٣٦٧
ج٦: ٦- ٥٨- ٩٣- ٩٤- ٢٤٣
ج٧: ٣٢٦- ٣٥٣- ٣٧٣- ٣٧٤
ج٨: ١٤٥- ١٦٤- ١٦٧- ١٩٥- ٢٥٨- ٢٨٤
٢٨٩- ٣٤٢- ٣٥٢، ٣٨٨

(ابوذرّ همدانى)
انظر: «عمر بن ذرّ»

أبورافع (مولى رسول الله)
ج٣: ٣٢- ١٢٠- ٤٤٦
ج٧: ٣٢٢

أبوالرّبيع الشامى
ج٤: ٥- ٥٧ ج٦: ١١٣

أبورزين العقيلى
ج٨: ٤

أبوالزّبير
انظر «محمّد بن مسلم المكّى»

أبوساسان الانصارى
ج۱: ۲٤۲
أبوسعدالخرگوشى النيشابورى
ج٦: ۷۰
أبوسعيدالثورى
ج۳: ۳۲۸
أبوسعيد الخدرى (سعدبن مالك)
ج۱: ۱۷۱ـ ۲٤۷ ج۲: ۲۷۰
ج۳: ۳۷۵ـ ٤۳۷
ج٤: ۲۰ـ ۲۰۰ـ ۲۱۳ـ ۳٤۰ـ ۳٤۱
ج٥: ۱٤٦ـ ۱٦٦ـ ۲٥۱ـ ۳۰۸ـ ۳۱٦
ج٦: ۷۳ـ ۱۰۸ـ ۱۰۹ـ ۲٤۹ـ ۲٥۰
ج۷: ۳۱ـ ۷۰ـ ۲٦۲ـ ۳٥٤
ج۸: ۱۹٥ـ ۲٤٥ـ ۲٦۳ـ ۳۰۰ـ ۳۰۸ـ ۳٤٥
۳٥۷ـ ۳٦۸ـ ۳۷۲ـ ۳۷٤ـ ۳۷٥ـ ۳۸۷
أبوسعيدالميهنى
ج۷: ۱٥۳ ج۸: ٦٥
أبوسفيان بن حرب
ج۳: ۱۳۷ ج٥: ۲۲۱ـ ۲۷۱
أبوسلمة (الصحابى)
ج٥: ۲۳٤
أبوسلمةالمدينى
ج٦: ۲۱۹ـ ۲٤۹ـ ۲٥۰
أبوسليمان الدّارانى
(عبدالرّحمن)
ج۲: ۲۰۱ـ ۲۳۸ـ ۳۹٦ـ ۳۹۸
ج۳: ٥۷ـ ٦۹ـ ۹۰ـ ۱۳٤ـ ۱٤٤ـ ۳۱۷
۳۲۰ـ ۳۳۹ـ ۳٥٤ـ ۳۷۸
ج٤: ٥ ج٥: ۱٥۱ـ ۱٥٤ـ ۱٥٥
ج٦: ۲۲۷
ج۷: ۱۲٦ـ ۳۱۸ـ ۳٦٦
ج۸: ٦ـ ۳۲ـ ۱۲۸ـ ۱۷۸
أبوسنان (ضرارمرّة ظ ـ)
ج۸: ۲۸۸
أبوالصباح الكنانى
ج۲: ۱٤٤ـ ۱٥٦
ج٤: ۲٤۸ ج٥: ٦٥
أبوالصديق (بكربن عمرو) الناجى
ج۲: ۲۹۹
أبوالصلاح (تقى بن النّجم الحلبى)
ج۱: ۲۸٦ ج۲: ۳٥
أبوالصلت عبدالسّلام الهروى
ج٤: ٤۹ـ ۲۸۲ـ ۲۸۳
أبوطالب بن عبدالملك
(الهاشمى)
ج٤: ۱٥۳ ج۸: ۲۷۷
أبوطالب المكّى
ج۲: ۲۹٦ـ ٤۰۰ ج٥: ۱٥۳ ج۷: ۳۱
أبوطاهر بن كثير
ج٦: ٦۷
أبوطلحة (زيدبن سهل الانصارى)
ج۳: ۳۹٤ـ ٤۲۹ ج٤: ۱٦٤
ج۷: ۱۲۸ـ ۱۲۹
أبوالعالية (رفيع)
ج٦: ۱۰۹
أبوعبدالرّحمن
انظر: «حاتم الاصمّ»

أبو عبدالله عليه السّلام
انظر: «جعفر بن محمّد الصادق (ع)»

أبو عبدالله (محمّد بن اسماعيل التيمى)
ج۱: ۲٤

أبو عبدالله البرقى (محمّد)
ج۳: ۳

أبو عبدالله الخوّاص
ج۱: ۱۳۸- ۱٤۰ ج۷: ٤۱٥

أبو عبدالله الفرّاء
يروى عن الصادق عليه السّلام
ج۳: ۳۰۱

ابو عبدالله الورّاق
ج۲: ۳۱۹

أبو عبيدة الجرّاح
ج٥: ۳٥۸ ج۳: ٤۱۸
ج۸: ۲۷۰- ۲۷۱ -۲۸۰

أبو عبيدة الحذّاء
ج۱: ۱۰۷- ۳٥٦ ج۲: ۳۹٤
ج۳: ۲٤۹- ۳۸۷
ج٤: ۷۲ ج۷: ۳٥٦ ج۸: ۲٤۱

أبو عبدة الخوّاص (عبّاد بن عبّاد)
ج۸: ۸۲

أبو عثمان الحيرى
ج۳: ۳۳۰ ج٥: ۹٤

أبو عثمان المغربى
ج٤: ۷۸ ج۷: ۸۸

أبو العلاء المعرّى (احمد بن عبدالله)
ج۷: ۱۰۳

أبو على (موسى بن عمر مولى بنى نهد)
ج٤: ۳۰٥

أبو على الرّباطى
ج۳: ۳۳٥ ج٤: ٥۹

أبو على الرّوذبارى
ج۳: ٤۹

أبو على الفارمذى
ج۷: ۳۰۱

أبو على الفهرى
ج٤: ۳۱۷

أبو عمر الزّاهد (صاحب اليواقيت)
ج٤: ۱۹۱

أبو عمرة
ج۱: ۲٤۲

أبو الفتح بن شخرف
ج٦: ۲۲۷

أبو الفضل
انظر «حنان بن سدير»

أبو القاسم الصيقل
ج۳: ۲٥۰

أبو القاسم (كاتب راشد)

ج٤: ٣٣٠

أبو القاسم الكرمانى
ج٧: ٣٠١

أبو قَتادة الانصارى
ج٣: ٤٤

أبو قَتادة القمّى
ج٤: ٢٧٥

أبو كاهل
ج٥: ٢٤٥

أبو كثير الهذلى
ج٥: ٢٢٧ـ ٢٢٨

أبو كهمس
ج٤: ٣٥٦

أبو لهب
ج١: ٩٢ ج٣: ٢٦٦

أبو محمّد عليه السّلام
انظر: «الحسن بن على العسكرى عليه السلام»

أبو محمّد الطبرى
ج٤: ٣١٨

أبو مرّة (رجلٌ)
ج٣: ١٢٤

أبو مرثد (أَحَدُ الكُرَماء)
ج٦: ٦٧

أبو مريم عبدالله بن زياد الاسدى
ج٤: ١٨٩

أبو مسعود الانصارى البدْرى
(عقبة بن عمرو بن ثعلبة)
ج٣: ٤٤٦ ج٥: ٩١

أبو مسعود الثقفى
ج٦: ٢٣٣

أبو المغرا (حميد بن المثنّى)
ج٣: ٢٥١

أبو موسى الاشعرى
ج١: ٢٤٧ ج٣: ٤٢٩
ج٥: ٢٢١ـ ٣٤٥ ج٦: ١٧١
ج٨: ٨٢ـ ٣٨٩

أبو موسى عبدالرّحيم
ج٧: ٣٥٨

أبو نجيح
ج٤: ٢١٨

أبو نصر التّمار
ج٦: ٣٤٦ـ ٣٤٧

أبو نعيم (الحافظ)
ج٤: ٢٥٦

أبو نعيم (محمّد بن أحمد الانصارى)
ج٤: ٣٤٦

أبو نواس
ج٤: ٢٨٢

أبو وائل
ج٣: ٣٠

أبو واقد اللّيثى

ج٦: ٥٠

أبو ولّاد (حفص بن سالم الحنّاط)

ج٢: ٢٨٤ ج٣: ٢٥١- ٤٣٨

أبو هاشم الجعفرى (داود بن القاسم)

ج٣: ٣١٣

ج٤: ٣٠٤- ٣١٧- ٣١٩- ٣٢٠- ٣٢٥- ٣٢٩- ٣٣٣

أبو هاشم القرشىّ

ج٨: ١٧٧

أبو الهذيل (غالب الاسدى)

ج٤: ٢٤٨

أبو هريرة

ج٤: ٢١٢

ج٥: ٩١- ١٩٤- ٢١١- ٢٣٣- ٢٣٨- ٣٠٨

ج٨: ٣٢٦- ٣٢٧- ٣٥٠

أبو الهيثم (صاحب العسكرى عليه السلام)

ج٤: ٣٢٨

أبو الهيثم بن التيّهان (الصّحابى)

ج١: ٢٣٤- ٢٤٧

ج٥: ٢٣٨- ٢٣٩

أبو يحيى الرّازى

ج٣: ١٢٠

أبو يحيى بن زكريّا السّاجى

ج١: ٢٤

أبو يحيى الواسطى

ج١: ٨٧

أبو يحيى الورّاق

ج٥: ١١٦

أبو يزيد (طيفور بن عيسى) البسطامى

ج١: ٩٠ ج٣: ٣٢٨

ج٥: ٤٥- ١٥٥

ج٦: ٢٢٧ ج٧: ٣٥٨

أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم)

ج١: ٥٧

أُبيّ بن خَلَف الجُمَحى

ج٤: ١٦٨

أُبيّ بن كعب

ج١: ١٦٤- ٢٣٤

ج٤: ٣٣ ج٨: ١٠٤

أحمد

ج٤: ٣٥١

أحمد (ولد لابراهيم بن اسماعيل الجرجانى)

ج٤: ٣٣١

أحمد بن أبى الحوارى

ج٢: ٢٠١ ج٣: ١٣٤- ٣١٧- ٣٣٩

أحمد بن اسحاق بن سعد الاشعرى

ج٢: ٣٧٠- ٣٧١

ج٤: ٣٣٩

أحمد الجلاء (ابن الجلاء)

ج۳: ٤٩ ج۷: ٥٥

أحمدبن الحارث القزوينى

ج٤: ٣٢٤

أحمدبن الحسن

ج٤: ٣٥١

أحمدبن حنبل (أحدالائمة الأربعة)

ج۱: ۹۷- ١٤٠- ١٦٤- ٢٠٣- ٢٥٩- ٢٦٠- ٢٧٥- ٢٧٦
ج۳: ١٥٦ ج٤: ١٩٣

أحمدبن سعيدالعابد

ج٥: ١٨٨

أحمدبن عبدوس

ج۱: ٣٢٧

أحمدبن عبدالله‌بن طاهر

ج٤: ٣٣٢

أحمدبن عبدالله

ج٤: ٣٤٧

أحمدبن عبيدالله‌بن خاقان

ج٤: ٣٢٢

أحمدبن علىّ‌بن زيد

ج٤: ٣٣٢

أحمدبن فهد

ج۲: ٩١- ١٠٧

أحمدبن محمّد

ج٤: ٢٧٥- ٣٢٧- ٣٣٠

أحمدبن محمّدبن أبى‌نصر

ج۱: ٣١٥ ج۲: ١٨٤- ٢٦٢- ٢٦٤
ج۳: ٢٠٧- ٢٢٨ ج٤: ٤٧

أحمدبن محمّدبن أيّوب المغيرى

ج٤: ٢٢١

أحمدبن أبى‌عبدالله (محمّدبن‌خالد)

ج۱: ٣٤٨

أحمدبن محمّد (بن‌عيسى)

ج۱: ١٧٤

أحمدبن موسى‌بن جعفر (ع)

ج۲: ٢١

أحمدبن هارون

ج٤: ٣٢٨

الاحنف‌بن قيس (أبوبحر)

ج۱: ٣٢٥ ج۳: ٢٥١- ٣٤٣- ٤٤٥
ج٥: ١٩٨
ج٦: ٦٥ ج۷: ٢٣٤

ادريس النّبى (ع)

ج۱: ٧٧ ج۳: ١٥٩- ٢٥٧
ج۸: ١٤٠

اذكوتكين

ج٤: ٣٥١

اربدبن قيس

ج٤: ١٦٧

الأربلى
انظر «على بن عيسى»

اسامةبن زيد
ج١: ٢٣٣ـ ٢٣٤ ج٣: ٤٣٦
ج٤: ٥٢ ج٥: ١٤٧
ج٨: ٢٤٥ـ ٢٦٨ـ ٢٧٠ـ ٢٧١ـ ٢٧٢ـ ٣٧٥

اسامةبن شريك
ج٣: ٢٨٤ ج٥: ٩١

اسحاق بن ابراهيم (ع)
ج١: ٢٣٠ ج٤: ١٧٥

اسحاق بن ابراهيم القمّى
(اخوعلى)
ج٣: ٢٧٦

اسحاق بن جعفر
ج٤: ٢٨٩

اسحاق بن جعفرالزبيرى
ج٤: ٣٢٣

اسحاق بن راهويه
ج٣: ٢٧٤

اسحاق بن عمّار
ج١: ٣٠٩ـ ٣٤٦
ج٢: ٥٩ـ ١٥٠ـ ١٥١ـ ٢٣١
ج٣: ١٢٥ـ ١٦١ـ ٢٤٩ـ ٢٧٢ـ ٢٧٧ـ ٣٨٩ـ
٤١٥
ج٤: ٤٥ـ ٤٦ـ ٢٦٤ـ ٢٧٧
ج٧: ٢٨١ ج٨: ٢٩١

اسحاق بن غالب
ج٤: ١٨٠

اسحاق بن يزيد
ج٣: ٣٩٦

الاسدى
ج٤: ٣٥١

اسرافيل
ج٧: ٣٥٥
ج٨: ١٤٦ـ ٢٧٥ـ ٣٢٠ـ ٣٢١ـ ٣٣٥

اسماء بنت ابى بكر
ج٣: ٤٢٩ ج٤: ٢١١

أسماء بنت عميس
ج٤: ٢٠٠ـ ٢٠٢ـ ٢١٢ ج٥: ٢٤٩

أسماء ذات النطاقين
(هى بنت أبى بكر)

أسماء بن خارجة الفزارى
ج٣: ١٣٥

أسماء بنت يزيد
ج٥: ٢٤٥ـ ٢٤٦

اسماعيل بن ابراهيم (ع)
ج٢: ٣٩٣ ج٣: ٣٧٠
ج٤: ٩٢ـ ١٨١ ج٥: ٢٣٨ـ ٣٣١
ج٧: ٣٢٥

اسماعيل بن أبى الحسن
ج٤: ٢٩١

اسماعيل بن جابر

ج٤: ٦٠

اسماعيل بن جعفر عليه‌السلام
ج٣: ٢٥٠ ج٨: ١٢٢

اسماعيل بن عبّاس الهاشمى
ج٤: ٣٠٨

اسماعيل‌بن عبدالخالق (ابن أخى شهاب)
ج٥: ١٦٧

اسماعيل بن عمّار بن حيّان
ج٣: ٣٧٩ـ ٤٣٩

اسماعيل بن الفضل
ج٣: ٤٤٨

اسماعيل‌بن محمّدبن على العبّاسى
ج٤: ٣٢٦

اسماعيل بن همّام
ج٣: ٢٩١

الاسود العَنَسى الكذّاب
ج٤: ١٦٦

الاسود بن كثير
ج٤: ٢٤٤

أصبغ بن موسى
ج٤: ٢٧٨

أصبغ نباته
ج١: ١٧٣ ج٢: ١٧ـ ٢٢ـ ١٥٨
ج٣: ١٤٨ ج٤: ٢٠٣

الاصمعى
ج٣: ١٣٦ـ ١٣٧ ج٦: ٦٤ـ ٧٦

الاعمش (سليمان)
ج٣: ٣٠ـ ٨٩ـ ٤١٣ ج٤: ٢٥
ج٦: ٦٩ـ ٧٨ ج٨: ٢٦٨ـ ٣٥٨

افلح
ج٤: ٢٤٣

الاقرع بن حابس
ج٣: ٤٣٦

إلياس
ج٣: ٢٥٧ ج٣: ٨٦ ج٤: ٢٥١

أنس بن مالك
ج١: ١٤٤ ج٣: ٢٨٨
ج٣: ١١ـ ٩٨ـ ٣٧٣ـ ٣٩٠
ج٤: ١٢٢ـ ١٢٩ـ ١٤٣ـ ١٤٧ـ ١٦٤ـ ٢١٥ ٢٢٧ـ ٢٣٠ـ ٣٤٠
ج٥: ٩٢ـ ٩٣ـ ١٢٣ـ ١٤٩ ـ ١٩٣ـ ٢٠٠ ٢١٣ـ ٢١٩ـ ٢٣٣ـ ٢٥١ـ ٢٥٢ـ ٢٥٣
ج٦: ٦١ـ ١٠٨ـ ٢٤٧
ج٨: ٦ـ ٢٩٧ـ ٣٤٣ـ ٣٥١ـ ٣٥٨

امّ أيمن
ج١: ٢٣٦ ج٤: ٥٢
ج٥: ٢٣٤ ج٧: ٤٢٤

امّ حبيب (الخافضة)
ج١: ٣٣٤

أمّ حبيبة (زوجة النبىّ «ص»)
ج۳: ۱۳۷ ج٥: ۹۲

أمّ ذرّ (زوجة أبى ذرّ)
ج۸: ۱۹٥

أمّ سعد الانصارية (سعد بن الرّبيع)
ج٤: ۷۳

أمُّ سلمة (امّ المؤمنين)
ج۳: ۲۲٤ ج٤: ۲۰۰- ۲۰۷- ۲۳۰
ج٥: ۱۸۱-۲۰۸ ج۸: ۱۰٥-۲٦۹-۳۷۷

أمّ عطيّة (الخافضة)
ج۱: ۳۳٤

أمّ غانم (صاحبة الحصاة المطبوعة)
ج٤: ۳۲۹

أمّ الفضل (بنت المأمون)
ج٤: ۲۹٦- ۲۹۷- ۲۹۹- ۳۰۱

أمّ كلثوم (بنت عقبة بن ابى معيط)
ج٥: ۲٤٤

أمّ محمّد (مولاة الرّضا «ع»)
ج٤: ۳۱۲

أمّ معبد (الخزاعيّة)
ج٤: ۱٦۹

أمّ هانئ (بنت أبى طالب)
ج٤: ۲۲٥

الأوزاعى (عبدالرّحمن بن عمرو)
ج۲: ۷٤- ۲۲٤- ۲۹۹ ج۳: ۱٤٤
ج٥: ۱۹۷ ج۸: ۱۹٤- ۳۷٤

اميّة بن علىّ القيسى
ج٤: ۳۰٤- ۳۰٦

أنوشيروان
ج٦: ۷٦

أوس بن خولى
ج٦: ۲۲۳ ج۸: ۲۸۱

أويس بن عامر القرنى
ج٤: ۱۲ ج٦: ۲٤
ج۷: ۲۸٤- ۳٦٦ ج۸: ۱۷۳

أيّوب (عليه السّلام)
ج۳: ۹۷ ج٥: ۳۰۹
ج٦: ۲۰٤- ۲۸۱
ج۷: ٥۲- ۱٤۳- ۲۱۷- ۲۳٤- ۲۳۹

أيّوب بن أعْيَن
ج٤: ۷۲

أيّوب (بن كيسان) السختيانى (كانّه متّحد مع أبى أيّوب)
ج٤: ۲٥٤ ج٦: ۱۰۸- ۱۰۹

أيّوب بن يونس
ج٥: ۷۰

ب

بحر بن (كنيز) السّقاء
ج۲: ۳۹۱

البخارى (محمّد بن اسماعيل)
ج۱: ۳٤٤
ج٤: ٤٨ـ ٩١ـ ٢٩٥ـ ٣٠١ـ ٣٠٥ـ ٣١٥
ج٥: ٧٤
ج۸: ۳۲۷ـ ۳۷۲ـ ۳۸۷

البُراء بن عازب (الانصارى)
ج۱: ۱۷۲ ج۳: ۳۸۷
ج٤: ۱۹۸ ج٥: ۹۱ـ ۱۹٥ـ ۲٥۱
ج۸: ۳۰۲

البراء بن مالك
ج٦: ۱۰۹

برخ الأسود (صاحب موسى «ع»)
ج۸: ۷۱ـ ۸۱ـ ۸۲

بردون بن شبيب النهدى
انظر «جعفر بن شبيب»

البرقى (أحمد بن محمّد)
ج۱: ۳۲٦ ج۳: ۳۹۳ ج۸: ۱۲۲

بريد بن معاوية العِجلى
ج۲: ٥٥

بريحة
ج٤: ۳۲۳

بريرة (امرأة)
ج۳: ۲۳۸ـ ۳۷۸ ج۸: ۱۷۸

بسطام (الزيّات)
ج۲: ٥٧ ج۳: ۳۹۱

بِشر بن البُراء بن مَعرور
ج٦: ٧٤

بِشر (بن الحارث الحافي)
ج۳: ٤٩ـ ۲۰۸ـ ۳٤۸ ج٤: ٤٢
ج٦: ٧٦ـ ۸۱ـ ۱۰۹
ج۷: ۳۳۳ـ ۳٤۱ ج۸: ۹۲

بشر بن عبدالله بن ابى بكر
ج٥: ۲۱۱

بِشر بن عبدالله
ج٤: ٥

بشر بن غالب الأسدى
ج۲: ۲۲۱

بشير
ج٤: ۱٦٤

بشير الدّهان
ج٤: ٤٦

البطحانى
ج٤: ۳۱۱

بقيّة بن الوليد

ج٣: ٢٩٩

بكر بن صالح (الضبّى)

ج٤: ٢٩٢

بكر بن عبدالله المزنى

ج٥: ١٨٧- ٣٢٨ ج٦: ٢٤٩
ج٨: ٢٦٧

بِلال بن أبى سعيد

ج٥: ٢٠٨

بلال بن الحارث (المزنى)

ج٥: ٢٠٦

بلال بن سعد

ج٨: ٣٨٥

بلال بن رباح (المؤذّن)

ج١: ٣٧٧ ج٢: ٣١٠- ٤٠١
ج٣: ٣٩١ ج٥: ١٧٩
ج٦: ٢٣٣- ٢٨٤ ج٧: ١٤٢
ج٨: ٢٧١- ٢٧٢- ٢٧٥- ٢٧٦

بلعم بن باعورا

ج١: ١٣٠ ج٦: ٢٦١ ج٨: ٨٤

بنيامين (بن يعقوب)

انظر «ابن يامين»

البيهقى

ج٤: ١٩٢

الباقر (ع)

انظر «محمّد بن على بن الحسين (ع)»

ت

الترمذى

ج٤: ٢٣٠

تميم الدّارى

ج٣: ٢٣٨

(ث)

ثابت بن أبى صفيّة (دينار)

انظر «ابوحمزة الثمالى»

ثابت بن أسلم البنانى

ج٣: ٢٤٨- ٢٦٦

ثابت

ج٥: ٦١

ثابت بن قيس بن شمّاس

ج٦: ٢٣٥

ثعلبة بن حاطب

ج٦: ١٠١- ١٠٢

ثوبان (مولى رسول‌الله)

ج٢: ٣٦٣ ج٤: ٢٠٨

ج٨: ٣٥٢ـ ٣٧٣

ثوير بن أبي فاختة
ج٣: ٣٤٠

(ج)

جابر بن اسماعيل
ج٢: ٣٩٣

جابر بن سمرة
ج٥: ٢١٦

جابر بن عبدالله الأنصاري
ج٢: ٢٨٠ـ ٢٨٨ـ ٣٨٨ـ ٤٠٠
ج٣: ٣١ـ ٦٥ـ ٨٧ ـ ١١٨ ـ ١٢١ ـ ٣٦٥ ـ ٣٦٦ـ ٣٨٢ـ ٣٩٤ـ ٤٢٥
ج٤: ٤٢ـ ٧٦ـ ١٤٦ـ ١٦٤ ـ ٢٠٠ـ ٢٠٧ـ ٢١١ـ ٢٢٢ـ ٣٣٧ـ ٣٤٠
ج٥: ٧١ـ ٢٥١ـ ٢٥٣ـ ٢٨٨ـ ٣٢٠
ج٦: ٥٩ـ ٦٣ـ ١٠٨ـ ١٧٥
ج٧: ١٠٧ـ ١٢٩ـ ٣٥٢
ج٨: ١٤٦ـ ٢٥١ـ ٢٩٨ـ ٣٦٩ـ ٣٨٥

جابر (بن النضر بن جابر)
ج٤: ٣٣١

جابر بن يزيد الجُعفي
ج١: ٧٤ـ ١٩٧ـ ١٩٨ ج٢: ١٠ـ ١١
ج٣: ٣٤٠ـ ٣٩٦
ج٤: ٢٤٨ـ ٢٥٠ـ ٣٣٧ـ ٣٤١ـ ٣٥٥
ج٥: ٦٤ـ ٣٦٥ـ ٣٦٦

جابر المكفوف
ج٣: ٤٤١

الجاحظ
ج٦: ٧٦

الجارود بن المنذر
ج٣: ١١٩

الجاثليق
ج٤: ٣٣٣

جالوت
ج٢: ١٥٩

جالينوس
ج٤: ٢٥

جبرئيل (ع)
ج١: ٧٥ـ ١٣٩ـ ١٧٣ـ ٢٠٣ـ ٢٩٧ـ ٣١٥ـ ٣٢٠ـ ٣٢٤
ج٢: ١٥٢ـ ١٥٨ـ ١٦٨ـ ٢٤٨ـ ٢٧٣ـ ٢٧٤ـ ٣٢٦ـ ٣٢٩ـ ٣٨٩ـ ٣٩٠
ج٣: ١٤١ـ ٤٢٢
ج٤: ١٣٢ـ ١٣٣ـ ١٤٧ـ ١٨٦ـ ١٩٣ـ ٢١١ـ ٢٢٣ـ ٢٤٠ـ ٣٣٥ـ ٣٣٦ـ ٣٤٤ـ ٣٤٥
ج٥: ٧٢ـ ١٧٨ـ ٣٥٧
ج٦: ٥٩ـ ٦١ـ ٧٨ـ ٨٠ـ ٨١ـ ٢٢٠ـ ٢٢٣ـ ٣٤٦
ج٧: ٨ـ ٦٦ـ ١٢٧ ـ ١٧٣ ـ ٢٥٤ ـ ٢٥٥ ـ ٢٦٥ـ ٢٩٠ـ ٣٠٥ـ ٣٠٦ـ ٣٠٨ـ ٣٠٩ـ ٣٢١ـ ٣٥٥ـ ٣٧٩ـ ٤٠١ـ ٤١٢
ج٨: ٩٢ـ ١٤٦ـ ١٥٥ـ ٢٣٤ـ ٢٦٩ـ ٢٧٥ـ ٢٧٧ـ ٢٧٨ـ ٢٧٩ـ ٢٨٠ـ ٣٠٥ـ ٣٢٠ـ ٣٢١ ـ ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ـ ٣٣٦ـ ٣٤٧ـ ٣٤٩ ـ ٣٦١ ـ ٣٨٨

جبير بن مُطعِم
ج٦: ٧٢

جدّ بن قيس
ج٦: ٧٣ـ ٧٤

جرير بن حازم
ج٦: ١٠٣

جرير بن عبدالله البجلى
ج٣: ٣٧١ ج٥: ٩١ ج٨: ٣٧١

جرير بن عبيدة العَدوى
ج٥: ٥٠

الجريرى (سعيدبن اياس)
ج٣: ٢٩٩

جعفر
ج٤: ٣٥١

جعفر بن ابراهيم
ج٥: ٢٣٠

جعفر بن أبى طالب (الطيّار)
ج٢: ٥٧ـ٥٨
ج٣: ٤٨ـ ٣٩١ـ ٣٩٢
ج٤: ٦٦ـ ٣٤٠
ج٦: ٢٢٢

جعفر بن بشير
ج٤: ٥٦

جعفر بن حميد
ج٥: ١١٦

جعفر بن حنان (أوحيّان)
الصيرفى
ج٣: ٢٧٧

جعفر بن سعيد
ج٨: ٣٠٠

جعفر بن سليمان
ج٣: ٣٣٧

جعفر بن شبيب النهدى
ج٤: ٢٥٥

جعفر بن الشريف الجرجانى
ج٤: ٣٣٠ـ ٣٣١

جعفر بن عمر العلوى
ج٤: ٢٩٤

جعفر بن محمد بن قولويه
ج٤: ٣٤٨ـ ٣٤٩

جعفر بن محمّد بن هارون
المتوكّل
ج٤: ٣١٠

جعفر بن محمّد الصّادق
(أبوعبدالله عليهماالسلام)
ج١: ٢٧ـ ٣١ـ ٤٢ـ ٦٠ـ ٦٦ـ ٦٨ـ ٧٦
٧٧ـ ٧٨ـ ٨٩ـ ١٠٧ـ ١٢٧ـ ١٢٩
١٣٥ـ ١٣٨ـ ١٤٣ـ ١٤٤ـ ١٤٧ـ١٥٦
١٥٧ـ ١٧٤ـ ١٧٥ـ ١٨٠ـ ١٩٥ـ١٩٧
٢٠١ـ ٢٠٤ـ ٢٠٩ـ ٢١٠ـ ٢١١ـ ٢١٣
٢١٦ـ ٢١٧ـ ٢١٨ـ ٢٢٠ـ ٢٢١ـ٢٢٢
٢٢٣ـ ٢٢٦ـ ٢٣٣ـ ٢٤٤ـ ٢٤٥ـ٢٤٦
٢٤٨ـ ٢٥٠ـ ٢٥١ـ ٢٥٢ـ ٢٥٥ـ٢٥٩
٢٦١ـ ٢٧٩ـ ٢٨٠ـ ٨٨٥ـ ٢٨٦ـ٢٨٦
٢٨٧ـ ٢٨٩ـ ٢٩١ـ ٢٩٣ـ ٢٩٥ـ٢٩٧
٢٩٨ـ ٢٩٩ـ ٣٠٠ـ ٣٠١ـ ٣٠٢ـ٣٠٣
٣٠٤ـ ٣٠٧ـ ٣٠٩ـ ٣١٠ـ ٣١٢ـ ٣١٣
٣١٤ـ ٣١٥ـ ٣١٧ـ ٣١٨ـ ٣١٩ـ ٣٢٠
٣٢١ـ ٣٢٢ـ ٣٢٣ـ ٣٢٤ـ٣٢٦ـ ٣٢٧
٣٢٨ـ ٣٢٩ـ ٣٣٠ـ ٣٣٣، ٣٣٤ـ٢٤٠
٣٤١ـ ٣٤٢ـ ٣٤٣ـ ٣٤٤ـ ٣٤٥ـ٣٤٦
٣٤٧ـ ٣٤٨ـ ٣٥٠ـ ٣٥٢ـ ٣٥٣ـ٣٥٤
٣٥٦ـ ٣٥٧ـ ٣٥٩ـ ٣٦١ـ ٣٦٢ـ٣٦٣
٣٦٤ـ ٣٧٩ـ ٣٨٠ـ ٣٨٢ـ ٣٨٤ـ٣٨٥
٣٨٩ـ ٣٩٠ـ ٣٩١ـ ٣٩١ـ ٣٩٤
ج٢: ٣ـ ٥ـ ٦ـ ٧ـ ٩ـ ١١ـ ١٢ـ ١٣ـ١٥
١٧ـ ١٩ـ ٢٢ـ ٢٣ـ ٢٤ـ ٢٥ـ ٢٦

٢٧ـ ٢٩ـ ٣٤ـ ٣٨ـ ٣٩ـ ٤٤ـ ٤٦
٤٧ـ ٤٩ـ ٥٠ـ ٥١ـ ٥٤ـ ٥٥ـ ٥٧
٥٨ـ ٥٩ـ ٦٢ـ ٦٣ـ ٦٥ـ ٦٦ـ ٧١
٧٣ـ ٧٥ـ ٨٠ـ ٨٣ـ ٨٦ـ ٨٨ـ ٩١
٩٤ـ ٩٥ـ ٩٦ـ ٩٧ـ ١٠٢ـ ١٠٥ـ ١٠٦
١٠٩ـ ١١٠ـ ١١١ـ ١١٢ ـ ١١٣
١١٩ـ ١٢٠ـ ١٢٣ـ ١٢٤ـ ١٣١ـ ١٣٣
١٣٧ـ ١٣٨ـ ١٣٩ـ ١٤٠ـ ١٤١ـ ١٤٢
١٤٣ـ ١٤٤ـ ١٤٥ـ ١٤٧ـ ١٤٨ـ ١٤٩
١٥٠ـ ١٥١ـ ١٥٢ـ ١٥٣ـ ١٥٥ـ ١٥٦
١٥٧ـ ١٥٨ـ ١٥٩ـ ١٦٦ـ ١٧٤ـ ١٧٥
١٧٦ـ ١٨٣ـ ١٨٤ـ ١٩٢ـ ١٩٣ـ ١٩٥
٢٠٧ـ ٢١١ـ ٢١٥ـ ٢١٦ـ ٢١٧ـ ٢٢٠
الى ٢٢٨ـ ٢٣١ـ ٢٣٣ـ ٢٣٤ ـ ٢٤٧
٢٤٩ـ ٢٦١ـ ٢٦٣ـ ٢٦٤ـ ٢٦٨ـ ٢٦٩
٢٧١ـ ٢٧٣ـ ٢٧٤ـ ٢٧٥ـ ٢٧٩ـ ٢٨١
٢٨٣ـ ٢٨٥ـ ٢٨٦ـ ٢٨٧ـ ٢٨٩ـ ٢٩٠
٢٩٤ـ ٢٩٥ـ ٢٩٦ـ ٢٩٧ـ ٣٠١ـ ٣٠٢
٣٠٣ـ ٣٠٤ـ ٣٠٥ـ ٣٠٦ـ ٣٠٧ـ ٣٠٨
٣٠٩ـ ٣١٠ـ ٣١٢ـ ٣١٣ـ ٣١٧ـ ٣١٩
٣٤٠ـ ٣٤٨ـ ٣٥٥ـ ٣٥٦ـ ٣٥٧ـ ٣٥٩
٣٦٦ـ ٣٦٧ـ ٣٦٨ـ ٣٦٩ـ ٣٧١ـ ٣٧٤
٣٧٦ـ ٣٧٧ـ ٣٧٨ـ ٣٨٩ـ ٣٨١ـ ٣٨٣
٣٩١ـ ٣٩٢ـ ٣٩٣ـ ٣٩٤ـ ٣٩٥ـ ٤٠٢
٤٠٣ـ ٤٠٤
ج٣: ٥ـ ٦ـ ٨ـ ٩ـ ١٠ـ ١١ـ ١٢ـ ١٣
١٤ـ ١٥ـ ١٧ـ ١٨ـ ١٩ـ ٢٠ـ ٢٢
٢٣ـ ٢٤ـ ٢٦ـ ٢٨ـ ٢٩ـ ٣١ـ ٣٣
٣٥ـ ٣٦ـ ٣٩ـ ٤١ـ ٤٢ـ ٤٣ـ ٤٥
٤٦ـ ٤٧ـ ٥٤ـ ٥٦ـ ٧٧ـ ٧٨ـ ٨٠
٨٦ـ ٨٧ـ ٨٨ـ ٩١ـ ٩٥ـ ٩٦ـ ١٠٠
١٠١ـ ١٠٢ـ ١٠٣ـ ١٠٥ـ ١٠٨ـ ١٠٩
١١١ـ ١١٢ـ ١١٤ ـ ١١٩ ـ ١٢٠
١٢١ـ ١٢٢ـ ١٢٣ـ ١٢٤ـ ١٢٥ـ ١٢٧
١٣٠ـ ١٣٢ـ ١٣٣ـ ١٤٢ـ ١٤٣ـ ١٤٦
١٤٧ـ ١٥٠ـ ١٥٢ـ ١٥٣ـ ١٥٨ـ ١٦١
١٦٧ـ ١٦٨ـ ١٦٩ـ ١٧٠ـ ١٧٤ـ ١٧٥
١٧٦ـ ١٧٩ـ ١٨١ـ ١٨٤ـ ١٨٦ـ ١٨٧
١٨٨ـ ١٨٩ـ ١٩٣ـ ١٩٥ـ ١٩٧ـ ١٩٨
٢٠٦ـ ٢٠٧ـ ٢٠٩ـ ٢١٧ـ ٢١٨ـ ٢٢٢
٢٢٣ـ ٢٢٤ـ ٢٢٨ـ ٢٣٠ـ ٢٣٢ـ ٢٣٥
٢٤١ـ ٢٤٤ـ ٢٤٦ـ ٢٥٠ـ ٢٥٢ـ ٢٥٣
٢٥٤ـ ٢٥٥ـ ٢٥٦ـ ٢٥٧ـ ٢٥٩ـ ٢٧٠
٢٧٢ـ ٢٧٣ـ ٢٧٥ـ ٢٧٦ـ ٢٧٧ـ ٢٧٨
٢٧٩ـ ٢٨٠ـ ٢٨٢ـ ٢٨٩ـ ٢٩٣ـ ٣٠٧
٣١٠ ـ ٣١٣ ـ ٣١٤ ـ ٣١٥ ـ ٣١٦
٣٢١ ـ ٣٣٨ ـ ٣٤٠ ـ ٣٤٤ ـ ٣٤٦
٣٤٨ـ ٣٥٤ـ ٣٥٥ـ ٣٥٦ـ ٣٥٧ـ ٣٦٠
٣٦١ـ ٣٦٢ـ ٣٦٤ـ ٣٦٥ـ ٣٦٦ـ ٣٦٧
٣٧٠ـ ٣٧٢ـ ٣٧٤ـ ٣٧٥ـ ٣٧٧ـ ٣٧٨
٣٧٩ـ ٣٨١ـ ٣٨٤ـ ٣٨٦ـ ٣٨٨ـ ٣٨٩
٣٩١ـ ٣٩٣ـ ٣٩٥ـ ٣٩٦ـ ٣٩٧ـ ٣٩٨
٤٠٠ـ ٤٠١ـ ٤٠٣ـ ٤٠٤ ـ ٤٠٥ـ ٤٠٧
٤١٠ـ ٤١١ـ ٤١٢ـ ٤١٤ـ ٤١٦ـ ٤١٨
٤١٩ـ ٤٢٥ـ ٤٢٦ـ ٤٢٧ـ ٤٣٠ـ ٤٣١
٤٣٢ـ ٤٣٣ـ ٤٣٨ـ ٤٣٩ـ ٤٤١ـ ٤٤٢
٤٤٣ـ ٤٤٤ـ ٤٤٧ـ ٤٤٨
ج٤: ٤ـ ٤٥ـ ٤٦ـ ٤٧ـ ٥٥ـ ٥٦ـ ٥٧ـ ٥٩
٦٠ـ ٦٣ـ ٦٥ـ ٦٦ـ ٦٨ـ ٦٩ـ ٧٠
٧١ـ ٧٢ـ ٧٣ـ ٧٤ـ ٧٧ـ ٧٩ـ ٨٢
٨٣ـ ٨٤ـ ٨٩ـ ٩٢ـ ١٠٣ـ ١٠٤ـ ١٠٥
١٠٧ـ ١٠٩ـ ١٦٢ـ ١٦٣ـ ١٨٠ـ ١٨٢
٢٠٤ ـ ٢٠٨ ـ ٢١٢ ـ ٢٢٠ ـ ٢٢١
٢٢٣ ـ ٢٣٤ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ـ ٢٤٣
٢٤٦ ـ ٢٤٧ ـ ٢٥١ ـ ٢٥٢ ـ ٢٥٣
٢٥٥ـ ٢٥٦ـ ٢٥٧ـ ٢٥٨ـ ٢٦٠ـ ٢٦١
٢٦٢ـ ٢٦٣ـ ٢٦٤ـ ٢٦٥ـ ٢٦٦ـ ٢٦٧
٢٧٢ـ ٢٧٨ـ ٢٧٩ـ ٢٩٠ـ ٣٣٥ـ ٣٣٦
٣٣٧ـ ٣٣٨ـ ٣٤٣ـ ٣٤٥ـ ٣٥٣ـ ٣٥٤
٣٥٦ـ ٣٥٧ـ ٣٥٨ـ ٣٦٢ـ ٣٦٤ـ ٣٦٥
٣٦٦ـ ٣٦٨ـ ٣٦٩ـ ٣٧٠ـ ٣٧٢ـ ٣٧٣
٣٧٤ـ ٣٧٥ـ ٣٧٦

ج٥: ٦٥- ١٣٧- ١٣٨- ١٣٩- ١٤٠- ١٥٠
١٥١- ١٦٧- ١٧٥- ١٧٦- ١٩٦- ٢٢٢
٢٢٥- ٢٢٦- ٢٢٩- ٢٣١- ٢٣٨- ٢٥٤
٢٥٥- ٢٥٧- ٢٦٤- ٢٧٢- ٢٧٣- ٢٧٦
٢٩٢- ٢٩٤- ٣١٠- ٣١٣- ٣١٤- ٣٢٠
٣٢١- ٣٢٤- ٣٢٧- ٣٦٢- ٣٦٧
ج٦: ٥- ٦٤- ١١٢- ١١٣- ١٤٤- ١٤٦
١٩٤- ٢١٦- ٢١٧- ٢٢٢- ٢٢٣- ٢٢٤
٢٢٥- ٢٧٠- ٢٧٣- ٢٧٥- ٣٥٦
ج٧: ٨- ١٨- ٢٦- ٢٧- ٣٢- ٣٣- ٤١- ٥٦
٥٨- ٥٩- ٦٠- ٨٩- ٩٦- ١٠٨- ١٢٨
١٤٩- ١٥٢- ٢٥١- ٢٥٥- ٢٥٩- ٢٨٣
٣١٠- ٣٢٠- ٣٢٣- ٣٢٦- ٣٣٠- ٣٣٨
٣٤٤- ٣٥٧- ٣٦٢- ٣٦٥- ٣٧٠- ٣٧١
٣٨٠- ٤١٨- ٤١٩
ج٨: ٧- ٨- ٤٢- ٦٢- ١٠٦- ١١٠- ١٢٢
١٢٨- ١٣٨- ١٤٠- ١٤٧- ١٦٦- ١٧٠
١٩٤- ٢٤١- ٢٤٢- ٢٥٦- ٢٥٨- ٢٦٠
٢٦١- ٢٦٢- ٢٦٣- ٢٦٤- ٢٦٥- ٢٦٦
٢٨٧- ٢٨٩- ٢٩١- ٢٩٩- ٣٠٠- ٣٠١
٣٠٩- ٣١١- ٣١٢- ٣٢٩- ٣٤٧- ٣٥٠
٣٥١- ٣٥٣- ٣٦١- ٣٨٢

جعفر بن محمّد الصوفى
ج٤: ١٦٣

جعفر بن يحيى البرمكى
ج٤: ٢٩١

الجعفرى
انظر «ابوهاشم الجعفرى»

الجُعفى (صاحب الفاخر)
ج٣: ٣٥

الجلودى (عيسى بن يزيد)
ج٤: ٢٩٠

جُمَحى (رجلٌ)
ج٤: ٣٣٣

جميل بن درّاج
ج١: ٢٦١ ج٢: ٦- ٤٤- ٤٧- ١٤٤
ج٣: ٢٧٦- ٤٣٠ ج٤: ٨٤

جميل بن صالح
ج٢: ١٣٧ ج٣: ٢٤٩

الجنابذى
ج٤:٢١٦

جندب
ج٤: ٢٧٧

الجنيد (ابوالقاسم)
ج٣: ٤٥- ٦٥- ٣١٧- ٣٤٥ ج٤: ١٢
ج٥: ٩٤- ١٥٥
ج٧: ١٥٠- ٣٣٣
ج٨: ٧٨- ٨٢- ٩٣- ١٥٦

الجواد (ع)
راجع «محمد بن على (ابوجعفرعليهما السلام)

الجهم بن حميد
ج٣: ٢٥٦- ٤٣٢

الجوهرىّ (صاحب الصّحاح)
ج٥: ٢٧٢

(ح)

حاتم الأصمّ (أبوعبدالرّحمن)
ج١: ١٣٨- ١٣٩- ١٤٠- ٣٤٤- ٣٥٣
ج٣: ٢٦٥- ٤١٨ ج٤: ٦
ج٥: ١٢٢ ج٧: ٢٣٤

حاتم الطائی
ج٤: ١٧٢

الحارث بن المغيرة النصری
ج١: ٣٣٨ ج٣: ٢٩٦ـ ٣٦٣
ج٧: ٢٨٣

الحارث بن هشام
ج٦: ٢٨٤

حارثة بن مالك بن النعمان
ج٧: ٣٥١

حاطب بن أبی بلتَعة
ج٤: ١٤٧

الحاكم (أبو عبدالله، الحافظ)
ج٤: ٢٩٣ـ ٢٩٤

حامد اللّفاف
ج٧: ٣٠١

حبابة الوالبيّة
ج٤: ٢١٩ـ ٢٢٠

حبّان بن هلال
ج٦: ٨٥

حبيب بن أبی حبيب
ج٧: ١٥٣

حبيب الأحول الخثعمی
ج٢: ١٣٨ ج٣: ٣٧٤

حبيب الشاعر
ج٥: ٢٢٧

حبيبة العدوية
ج٨: ١٧٦

الحجّاج بن يوسف الثقفی
ج١: ١٦٧ ج٣: ٤٧
ج٤: ٢٤٠ـ ٣٤٩

حُجر بن عَدِی
ج٤: ٢٢٦

حديد بن حكيم الازدی
ج٣: ٢٥٤

حذيفة بن منصور
ج١: ٣٢٨ ج٣: ٣٩٧

حذيفة بن اليمان
ج١: ١٣٤ـ ١٦٢ـ ١٦٦ـ ٢٣٤ـ ٢٤٧
ج٢: ٢٤٨ـ ٢٥٢ـ ٣١٥
ج٣: ٢٥٩ـ ٣٢١
ج٤: ١٠٦ـ ٣٤٠
ج٥: ٢١٩ـ ٢٥٦ـ ٢٨١ـ ٢٨٥
ج٦: ٦٤ ج٧: ٢٩٢ـ ٢٩٣ـ ٣٥٤ـ ٣٨٧
ج٨: ٢٣٩ـ ٢٦٣ـ ٣٧٣

حذيفة العَدوی
ج٦: ٨١

حذيفة المرعشی الصوفی
ج١: ١٦٩ ج٧: ٤٢١

حرملة بن كاهل الاسدی
ج٤: ٢٤١

حريز بن عبدالله
ج١: ٣٤٨ ج٢: ٦٢ـ ٦٥ـ ١٦٨ـ ٢٢٣

حسام بن حاتم الأصمّ
ج٤: ٢٦٨

حسّان بن ابى سنان
ج۳: ۲۳۷

حسّان المعلّم
ج۳: ۱۹۳

الحسن بن ابى عقيل العمّانى
ج ۲ : ۷۰ ج٤: ۸۱

الحسن البصرى
ج۱: ۸٦- ۸۷- ۲۰۱- ۲۰۲
ج۲: ۱۳۵
ج٥: ۱٤٦- ۱٦۲- ۱۹٤- ۱۹۷- ۱۹۸- ۲۰٥
۲۳٤- ۲۳۷- ۲٥۷
ج٦: ۱۰۹
ج۷: ٤۸- ۳٦۹
ج۸: ۸۲- ۱۲۲- ۲۸٤- ۲۸٥

الحسن بن الجهم
ج۱: ۱۷۷- ۳۱۳
ج۳: ۲۳۳ ج٥: ۲۲۹

الحسن بن الحسن (المثنّى)
ج٤: ۲۳۲

الحسن بن راشد
ج۱: ۳۲۸ ج۲: ۱٤۰

الحسن بن سعيد
ج٤: ۲۱۸

الحسن بن صالح (بن حىّ)
ج۳: ۱۷۸

الحسن الصيقل
ج۱: ۳٤۲ ج۳:۳۹٤

الحسن بن ظريف
ج٤: ۳۲٦

الحسن بن عبدالله
ج٤: ۲۷۱

الحسن بن عبدالله بن حمدان
ج٤: ۳٤۷

الحسن بن على بن أبى طالب السبط (ع)
ج۱: ۳۱- ٦٥- ۱۹٤- ۱۹۷- ۲۰٤- ۲۱۳
۲٤۳- ۳٥۱
ج۲: ۱۳٥- ۱٥۰- ۱۹۳
ج۳: ٥- ۱۲- ۲۱- ۳٤- ٦۷- ۱۰٤- ۱۲۰
۱۲۲- ۱۲٥- ۱۲۷- ۱۲۹- ۱۳۰- ۱۸٦
۲٥۱- ۲٥۲- ٤۱٦- ٤۳٦
ج٤: ۳۳- ٦۱- ۹۰- ۹۲- ۹۳- ۱۱۹- ۱٥۸
۱٦۰- ۱٦٦- ۱۷۰- ۱۷٦- ۱۸۲- ۱۸۳
۱۹٦- ۱۹۷- ۲۰۸- ۲۱۲- ۲۱۳- ۲۱٥
۲۱٦- ۲۱۷- ۲۱۸- ۲۱۹- ۲۲۰- ۲۲۱
۲۲۲- ۲۲۳- ۲۲٥- ۲۲۷- ۲۲۸- ۲٦٥
۲٦٦- ۲۷۲- ۳۰۰- ۳۳۸- ۳٤۰- ۳٤٥
ج٥: ۲۲۲
ج٦: ۹- ٦۳- ٦٤- ٦٥- ٦٦- ٦۷- ۲۲٦
ج۷: ۷۸
ج۸: ۱۱۷- ۲٥٤- ۲٦۱- ۲۷۸- ۳۳٦

الحسن بن على (بن محمّد أبو محمّد العسكرى «ع»)
ج۱: ۳۲- ۱۹۷- ۱۹۸- ۱۹۹- ۲٤٤- ۲٥۰
۳۳۳
ج۲: ۹۲- ۱۱۹- ۳۷۰
ج۳: ۲۲۹
ج٤: ۹٤- ۳۲۱- ۳۲۲- ۳۲۳- ۳۲٤- ۳۲٥

٣٢٦ـ ٣٢٧ـ ٣٢٨ـ ٣٢٩ـ ٣٣٠ـ ٣٣١
٣٣٢ـ ٣٣٣ـ ٣٣٤ـ ٣٣٥ـ ٣٣٩ـ ٣٤٤
٣٤٥ـ ٣٤٦

الحسن بن على بن فضّال
ج٣: ٢٦٨ ج٤: ٤٩ـ ٧١

الحسن بن على الوشّاء
ج٣: ١٤٠ـ ١٨٣
ج٤: ٤٧ـ ٢٩٠ـ ٢٩٢ـ ٣١٢

الحسن بن محبوب
ج١: ١٥٩ ج٣: ١٣٧ـ ١٣٩

الحسن بن محمّد الاشعرى
ج٤: ٣٢٢

الحسن بن المنصور
ج٤: ٢٩١

الحسن بن موسى بن جعفر (ع)
ج٣: ٢١ ج٤: ٢٩١

الحسنى (الّذى خرج قبل
الصاحب «ع»)
ج٤: ٣٤٢

الحسين بن بشّار
ج٤: ٢٩٤

الحسين بن خالد
ج٢: ٢٢٢ ج٣: ٩١

الحسين بن ذكوان الفارسى
ج٤: ١٩٦

الحسين بن راشد
ج٤: ٢٥١

الحسين بن روح
ج١: ١٤٥

الحسين بن زيد
ج٤: ٤٨

الحسين بن سعيد (الاهوازى)
ج٣: ٤١٥

الحسين بن حمدان
ج٤: ٣٤٧ـ ٣٤٨

الحسين بن عبدالقاهر الطاهرى
ج٤: ٣٢٠

الحسين بن علىّ (السبط الشهيد
المفدّى) عليهما السلام
ج١: ٣١ـ ٦٥ـ ١٠٧ـ ١٩٤ـ ١٩٧ـ ٢٤٣
٣١٣
ج٢: ٢٤ـ ٥١ـ ١٣٥ـ ١٧٦ـ ١٨٣ـ ١٩١
٢٢١ـ ٢٧٤ـ ٣٣٥
ج٣: ٦٧ـ ١٢٢ـ ١٢٧ـ ١٨٦ـ ٢٥١ـ ٤٣٧
ج٤: ٤٥ـ ٤٦ـ ٤٧ـ ٦١ـ ٨٢ـ ٩٠ـ ٩٢
٩٣ـ ١١٩ـ ١٧٠ـ ١٧٦ـ ١٨٢ـ ١٨٣
١٩٦ـ ١٩٧ـ ١٩٨ـ ٢٠٨ـ ٢١٢ـ ٢١٣
٢١٥ ـ ٢١٦ ـ ٢١٧ ـ ٢٢٠ ـ ٢٢٢
٢٢٣ـ ٢٢٥ـ ٢٢٦ـ ٢٢٧ـ ٢٢٨ـ ٢٢٩
٢٣٠ـ ٢٣٣ـ ٢٤٠ـ ٢٤٤ـ ٢٦٥ـ ٢٦٦
٢٧٢ـ ٣٠٠ـ ٣٠٢ـ ٣٣٧ـ ٣٣٨ـ ٣٤٠
٣٤٤ـ ٣٤٥
ج٥: ٢٣٤ ج٦: ٦٤ـ ٦٦ـ ٦٧
ج٧: ١٢١ ج٨: ٣٦ـ ٢٥٥ـ ٢٦١ـ ٢٧٨

الحسين بن محمّد العقيقى
ج٤: ٣٣٣

الحسين بن محمّد القمّى
ج٤: ٤٧

الحسين بن المختار
ج٣: ٢٨٠

الحسين بن منصور (الحلاّج)
ج٨: ٢٠٦

الحسين بن موسى بن جعفر (ع)
؛: ٢٩٤

الحصرى
ج٥: ١٣٣

حفص الاعور
ج١: ٣١٤

حفص بن البخترى
ج٨: ٢٩١

حفص بن غياث
ج٢: ٢١٧ـ ٣٠٧

حفصة
ج٨: ٢٧١ـ ٢٧٢ـ ٢٧٦

حكم بن حكيم
ج١: ٣٠٤

حكم بن العاص
ج٤: ١٦٩

حكم بن عتيبة
ج١: ٣٢٧ ج٤: ٢٤٣

حكيم بن حزام
ج٣: ١٧٠ـ ١٨٩ ج٦: ٢٥٦

حكيمة بنت محمّد بن
على عليهما السلام
ج٤: ٣٤٤ـ ٣٤٥ـ ٣٤٧

الحلبى (عبيدالله بن علىّ «ظ»)
ج٢: ٩ـ ٢٧ـ ١٤٤ـ ٣٦٨ـ ٣٧٤
ج٣: ١٤٣ـ ١٧٠ـ ٢٢٤ـ ٢٢٨ـ ٢٨٠
ج٤: ٨٣

حمّاد بن سلمة
ج٣: ٢٦٤ ج٥: ٢٧٩

حمّاد بن عثمان
ج١: ٣٠٤ ج٣: ١٣٨ـ ١٦٧
ج٣: ١٨٧ ج٤: ٦٦ـ ٨٣ـ ٨٥
ج٥: ٢٣١

حمّاد بن عيسى
ج٣: ٤٦ ج٤: ٧٣ـ ٧٤ـ ٢٦٦ـ ٣٠٦

حمدان الدّيوانى
ج٤: ٤٨

حمّاد (بن واقد) اللّحّام
ج٤: ٧١

حمران بن أعين
ج٤: ٣٦٧

حمزة بن حمران
ج٤: ٤٨

حمزة بن عبدالمطّلب
ج٣: ٤١٩ ج٤: ٣٤٠

حمزة بن محمّد الطيّار
ج٤: ٢٤٧

حميدة (والدة موسى بن جعفر «ع»)
ج٤: ٢٥٢

الحميرى (صاحب الدلائل)
ج٤: ٢٧٥- ٢٨٨- ٣٠٤- ٣٢٨

حنان بن سَدير (ابو الفضل)
ج١: ٢٩٥ ج٢: ١٤٠
ج٣: ١٩٦ ج٥: ٦٥

حنظلة (صحابى)
ج٧: ٢٨١

حوّاء
ج١: ١٢٢ ج٥: ١٤٥- ٣٦٥
ج٦: ٢٥ ج٧: ٩٤- ١٤٦- ٣٠٦

حوشب (بن مسلم)
ج٦: ١٠٩

(خ)

خالد
ج٦: ٥٦

خالد بن ابى أُحَيْحة
ج٥: ٢١٨

خالد بن أسيد
ج٦: ٢٨٤

خالد بن سعيد
ج١: ٢٣٤

خالد بن عبدالله القسرى (أبو زيد)
ج٤: ٢٦١

خالد بن عقبة بن أبى معيط
ج٦: ٦٩

خالد بن ماد (القلانسى)
ج٢: ١٥٧

خالد بن معدان
ج٢: ٣١٨ ج٦: ١٠٨

خالد بن نجيح
ج٣: ٢٠٦

خالد بن الوليد
ج٧: ٦٨

خواجه نصير الدّين (الطوسى)
انظر: «محمّد بن محمّد بن الحسن الطوسى»

خباب الأرتّ
ج٦: ٢٩٨ ج٧: ٢٣١

خديجة (بنت خُوَيلد امّ المؤمنين)
ج٣: ٣٤٢ ج٤: ٩٠- ٢١٣
ج٦: ١٠٣
ج٧: ٣٢٤ ج٨: ٢٧٧

خزيمة بن ثابت (ذو الشّهادتين)
ج١: ٢٣٤- ٢٤٧

الخضر (ع)
ج١: ٣٦- ١١٣- ١١٤ ج٣: ١٥٩- ٣١٩
ج٤: ١١٧- ٣٣٨- ٣٣٩ ج٥: ٢٢٨
ج٧: ٩٤- ٩٨

خطّاب بن سلمة الجهنى
ج٣: ١٢٨ ج٨: ٢٦١

خطيب الخوارزمى (أبوالمؤيّد)
ج٤: ٢٠٦

خلف بن حمّاد
ج٥: ٢٣٠

الخليل بن أحمد (الفراهيدى)
ج٦: ١١١

خوّات بن جبير
ج٥: ٢٣٥

خوّات التيمى
ج٥: ٢٥٠

الخوّاص
ج٨: ١٧٩- ٢٠٦

خيثمة بن (أبى) عبدالرّحمن
ج٣: ١١٤
ج٥: ٦٢- ٢٩٤ ج٦: ٦٩
ج٨: ٢٦٨

خيران الأسباطى
ج٤: ٣١٠

(د)

داود الرّقى
ج٣: ١٤٤- ١٥٦

داود النّبى (ع)
ج١: ٣٦- ١٢٨- ١٣١- ١٣٥- ٣٢٦- ٣٥٣
ج٢: ١٣٨- ١٤٠- ١٥٩- ٢١٤- ٢٧٠- ٢٩٩
٣٧٣
ج٣: ٩- ١٤٣- ١٤٦- ٢٣٥- ٢٦٦- ٢٨٨
٣٦١- ٤٠٧
ج٤: ٥٥- ٣٣٦
ج٥: ١١٥- ١٥١- ١٨٠- ٢٠٣
ج٦: ٢٥- ٢٢٤- ٢٧٤
ج٧: ٧٨- ١٠٧- ١٢٧- ١٥١- ٢٥٤- ٢٨٦
٣٠٦- ٣٠٧- ٣٧٥- ٣٨٠- ٤١٧- ٤١٩
ج٨: ٢٤- ٥٨- ٥٩- ٦٠- ٦١- ٦٢- ٧٢
٨٠- ٨٨- ٩٠- ١٦٠- ٢٨٧

داود بن زربى
ج٣: ٢٧٥

داود بن سرحان
ج٣: ١٧- ٢٢٤

داود الطائى
ج٤: ٥- ١١١ ج٥: ٢١٠

داود بن علىّ بن عبدالله (العبّاسى)
ج٤: ٢٤٩- ٢٥٨- ٢٥٩

داود بن القاسم
انظر: «ابوهاشم الجعفرى»

الدّجّال
ج١: ١٢٥ ج٣: ١٥٧- ٣٣٢
ج٤: ١٣٤ ج٦: ٣١٥

دحية الكلبى
ج٥: ٧٢

دعبل بن على الخزاعى
ج٤: ٢٨٥- ٢٨٦- ٣٠٦

(ذ)

ذرّ بن عمر بن ذرّ
ج۸: ۲۸۸

ذريح المحاربى
ج۳: ۲۱۷

ذوالرّئاستين
انظر «فضل بن سهل»

ذوالقرنين
ج٤: ٤١ـ ۳۳۹ ج٦: ۱۰٤ـ ۱۰٥
ج۷: ۳۷٥ ج۸: ۲۲

ذوالنون (ع)
ج۲: ۳٦٤

ذوالنون المصرى
ج۲: ۳۹۷ ج۳: ۲۱٦ـ ۳۲۸
ج٤: ۱۳ ج٥: ۱٥۷
ج۷: ۲۸۸ـ ۳۲۷ ج۸: ۱۷۷

(ر)

رابعة (بنت اسماعيل الشامى)
ج۳: ۱۳٤

رابعة العدوية (البصرية)
ج۳: ۱۳٥ ج۷: ٥۷ـ ۸٦ـ ۸۹
ج۸: ۳۲ـ ۳۹ـ ۱۷۸

رافع بن خديج
ج۳: ۲٤٥

الرّافعى
ج٤: ۲۷۱

الرّاوندى
ج٤: ۲٦٤ـ ۲۷۸ـ ۲۹۱ـ ۳۰٦ـ ۳۱۳ـ ۳٤٤
ج٥: ٤٥

الرّبيع
ج۳: ۲٥۳

الرّبيع بن خثيم
ج۱: ۳۹۰ـ ۳۹۷ ج۲: ۳۱۸
ج۳: ۳٥۹ـ ٤۱۸ ج٤: ٤ـ ٥ـ ۱٦
ج٥: ۱۹۸ـ ۲٥۰ ج۷: ۲۲۳
ج۸: ۲٤۳

الرّحلة العابدة
ج۸: ۱۷۹

رزّام بن مسلم
ج٤: ۲٦۱

رشيق حاجب المادرانى
ج٤: ۳٤٦

رُشيد الهجرى
ج٤: ۲۷۷

الرّضا (عليه السلام)
انظر: «على بن موسى عليهما السلام»

رقيّة (بنت النبىّ «ص»)
ج۸: ۳۱۱

الرّميصاء (امّ سليم)
ج۷: ۱۲۸ـ ۱۲۹

الرّوح الامين

انظر «جبرئيل»

روح القدس
ج٥: ٢٢٩ ج٨: ٢٠٦

الرّيّان بن شبيب
ج٤: ٢٩٧- ٢٩٩

الرّيّان بن الصّلت
ج١: ٣٢٦

(ز)

الزّبير بن العوّام
ج١: ٢٣٤ ج٢: ١٤٧- ٢٢١- ٢٣٧

زراره بن أبى أوفى
ج٨: ٢٤٦

زراره بن أعين
ج١: ٢١١- ٢١٢- ٣٥٤
ج٢: ٦- ٩- ١٨- ٣٤- ١٣٩- ١٤١- ١٤٢
١٨٣- ٣٥٦- ٣٨٧
ج٣: ٧٧- ١٤٣- ٢٣٠- ٢٥١- ٢٥٤
ج٤: ٨٠- ٨٢- ٨٤- ٢٣٥- ٣٧١
ج٥: ٢٢

زرّافة (حاجب المتوكّل)
ج٤: ٣١٧

زرعة بن محمّد الحضرمى
ج٢: ١٧٤- ١٧٦

زكريّا (ع)
ج٢: ١٤١ ج٥: ٣٢٦
ج٧: ٢٣٤- ٣٠٨
ج٨: ١٢٠

زكريّا بن ابراهيم
ج٣: ٤٣٩

زكريّا بن عبدالله النقّاض
ج٢: ٣٩٤

زليخا
ج٨: ١٥٦

الزّهرى (محمّد بن مسلم بن
شهاب)
ج٢: ١٤٢- ٢١٥ ج٣: ٢٦٠- ٤٢٣
ج٤: ٢٣٣- ٢٤٢ ج٥: ٢٧٨- ٣٦٥

زياد بن أبى الحلال
ج٢: ١٨٤

زياد بن أبى سلمة
ج٣: ٢٥٨

زياد بن عبدالله
ج٣: ٩٥

زياد بن أبى مسلم (الصفّار)
ج٥: ٢٨٤

زياد بن أبيه
ج١: ٢٤١ ج٢: ١٤١- ١٥٨

زيد بن أرقم
ج١: ٢٣٤ ج٨: ٣٧٣

زيد بن أسلم
ج٣: ٤٢٨ ج٥: ٢٣٤
ج٦: ٢٧٣ ج٨: ٦٤- ٢٨٧- ٣٦٣

زيد بن ثابت

ج۱: ۱۱۲ـ ۱٦٤
ج۳: ۳۹۰ ج۸: ۲٤٥

زیدبن حارثة
ج۸: ۳۷٦

زيدالخيل (زيدالخير)
ج۷: ۲٥۲

زیدبن سهل الانصاری
انظر: «ابوطلحة»

زيدالشحّام
انظر: «ابواسامة»

زیدبن علی بن الحسین (ع)
ج۳: ٤٤۲ ج٤: ۲٤٥ـ ۲٥۱ـ ۲٦۲

زیدبن علی بن الحسین بن زید (العلویّ)
ج٤: ۳۱۲

زیدبن عمروبن نفیل
ج۲: ۲٥۸

زینب (بنت النبیّ «ص»)
ج۸: ۳۱۳

زینب بنت امّ سلمة
ج۳: ۱۳۷

زینب العطّارة (صحابیّة)
ج۳: ۱۷٦

زینب الکذّابة
ج٤: ۲۸٤ـ ۳۱۷

(س)

سالم بن أبی حفصة
ج۳: ۱۱۱ ج٤: ۲۳۰

سالم الحنّاط (الخیاط)
ج۳: ۱۷۰

سالم بن سلمة
ج۲: ۲٦۳

سالم بن مکرم (أبوخدیجة)
ج٤: ۳۳٦

سام بن نوح (ع)
ج۱: ۲۳۰

السامریّ
ج۷: ۳۹٥ـ ۳۹٦

السابح الأزدی
ج۳: ۸٦

السّجاد علیه السلام
انظر: «علی بن الحسین زین العابدین (ع)»

سدیر (بن حکیم) الصیرفی
ج۱: ۳۲۷ ج۳: ۱۸۳
ج۳: ٤٤۱ ج٤: ۳٦٦
ج۸: ۲٦۰

سراقة بن جعشم
ج٤: ۱٦٦

السریّ (بن المغلس) السّقطی

ج۳: ۱۸۵– ۲۱٦
ج۷: ۳۳۳– ۳٤۱ ج۸: ٦

سرية (امرأة يمنيّة عابدة)
ج۸: ۱۷۷

سعدبن ابى خَلَف
ج۳: ۳٤

سعدبن أبى وقّاص
ج۸: ۱۵۹

سعدبن اسماعيل (بن عيسى)
ج۲: ٤

سعدبن عبدالملك (سعدالخير)
ج۳:۲٦٤

سعدبن زرارة
ج۷: ٤۳۱

سعدبن سعدالأحوص
ج٤: ۲۹٤

سعدبن سعيدالانصارى
ج۱: ۲۳٤

سعدبن طريف‌الاسكاف
ج۳: ۲۱٤ ج٤: ۲۳۰– ۲٤٦

سعدبن عبادة الخزرجى
ج۱: ۲۳٤ ج٤: ۲۳۵ ج۵: ۲۹۸
ج۸: ۲۷۰

سعدبن معاذ
ج۳: ٤۱٦ ج۷: ٤۳۱ ج۸: ۳۱۲– ۳۱۳

سعدبن هشام
ج٤: ۱۲۰

سعدون‌المجنون
ج۲: ۲۹۹

سعيدالحاجب
ج٤: ۳۱۱– ۳۱۷– ۳۲۸

سعيدبن جبير
ج۲: ۲۳۸– ۳٦۳ ج۵: ۱۹۳

سعيدبن العاص
ج۳: ۳۲۳

سعيدبن عبدالعزيز
ج٤: ۲۱٦

سعيدبن عبدالله الأزدى
(أبوسعيد)
ج۸: ۲۹۲

سعيدبن عبدالله‌الأعرج
ج۲: ۱۵۲

سعيدبن كلثوم
ج٤: ۲۳٤

سعيدبن المسيّب
ج۱: ۱۷۹ ج۲: ۲۳۰
ج۳: ۱۹۲– ۲۵۹– ۳۱۲
ج٤: ٤۲– ۲۳۳

ج٥: ١٧٧ـ ١٨٤ـ ١٨٥ـ ٢٥٠ـ ٢٧٤
ج٧: ٣٥٣ ج٨: ١٤٧

سعيدبن هبةالله الرّاوندى قطب الدّين
ج٤: ٢٤٨

سعيدبن يسار (الضبعى الحنّاط)
ج٢: ٢٩٠ـ ٣٠٤

سفيان بن سعيدالثورى
ج١: ١٦٥ـ ٢٥٩ ج٢: ٢٩٨
ج٤: ٢٦ـ ٢٧ـ ٢٣٢ـ ٢٥٤ـ ٢٥٥
ج٥: ١٩٥ ج٧: ٣٦٩ـ ٣٧٠ـ ٣٧١

سفيان بن عُيينة (أبو محمّد)
ج١: ١٤٨ ج٢: ٢٠١
ج٣: ٥٦ـ ٣٤٤ ج٤: ١٢ـ ٢٦ـ ٢٧
ج٥: ٢٨٥ ج٦: ٢٨١

السّفيانى
ج٤: ٣٤٢

السّكونى (اسماعيل بن أبى زياد)
ج٢: ٣٠٢ـ ٣١٠ـ ٣١٧
ج٣: ١٢٢ـ ٢٣٠ـ ٢٤٢ـ ٢٧٨
ج٤: ٥٦ـ ٧٠ـ ٧١

سكينة
ج٤: ١٩٠

سلّار (بن عبدالعزيز الدّيلمى
أبويعلى)
ج١: ٢٨٦

سلمى الانصارية (صحابيّة)
ج٤: ٢٣٠

سلمى
ج٤: ٢٤٣

سلمان الفارسى (رضى الله عنه)
ج١: ٦٥ـ ١٤٧ـ ٢٣٤ـ ٢٤٢ـ ٢٤٧ـ ٢٩٦
ج٢: ٢٨٨ـ ٣٧٧ـ ٣٧٨
ج٣: ٢٢ـ ٢٩ـ ٣٠ ـ ١٤٤ ـ ١٤٥ـ ٢٥١
٤١١ـ ٤٢٦ـ ٤٤٧
ج٥: ٢٠٧
ج٦: ١٢ـ ٤٢ـ ٢١٥ـ ٢٢٨ـ ٢٥٦
ج٧: ٣٧٣ ج٨: ١٥٩ـ ٢٤٦ـ ٣٧١

سلمةبن الأكوَع
ج٢: ٢٩٦ ج٣: ٢٥٩

سليم بن جابر
ج٥: ٢٥١

سليم بن قيس الهلالى
ج١: ١٢٦ـ ٢٤١

سليمان الجعفرى
ج٤: ٢٨٩ـ ٢٩٢

سليمان بن خالد
ج٢: ٣٧٩ ج٤: ٢٥٠

سليمان بن داود (ع)
ج١: ٣٤ـ ٣٦ـ ٣٢٦ ج٢: ٢٩٩
ج٣: ١٩ـ ٤٣ـ ٩٥ـ ١٧٨ـ ٣٨٤ـ ٤٠٢
ج٤: ٤٣ـ ٥٠ـ ١٨٦ـ ٢٥٩
ج٥: ٤٤ـ ١٩٥ـ ٢٠٥ـ ٢٩١ـ ٣٥٥
ج٦: ٢٢ـ ٤٨ـ ٢١٣ـ ٢٢٧ـ ٢٨٢

ج٧: ١٢٧– ١٨٨– ٢٣٣– ٢٣٤– ٢٣٦– ٣٠٧– ٣٢٨– ٣٧٥
ج٨: ٨٤– ٢٦٨

سليمان بن داود المِنْقَرى
ج٤: ٧٣– ٧٤

سليمان الدّارانى (لعله متّحد مع أبى سليمان الدّارانى)
ج٣: ٣٣٠

سليمان بن عبد الملك
ج٣: ٢٦٦– ٢٦٧– ٢٦٨ ج٥: ٢٧٨

سليمان بن قرم
ج٤: ٢٤٤

سماعة بن مِهران
ج١: ١٧٤– ١٧٥ ج٣: ٢٥٠– ٢٧٨
ج٤: ٢٦٠ ج٥: ٢٣١

سمرة بن جُنْدَب
ج١: ٢٤٢ ج٨: ٣٥٣

سمعان
ج٦: ٢٠٧

سمنون (بن حمزة المحبّ الخواص)
ج٣: ٣٠٠ ج٧: ٢٣٦ ج٨: ٩٤

سميع المسمعى
ج٤: ٣٢٩

سوادة بن قيس
ج٨: ٢٧٥– ٢٧٦

سوادة
ج٣: ١٩٥

سودة بنت زمعة
ج٣: ١٠٧ ج٨: ٣٢٣

سويد بن غفلة
ج٤: ١٩٠

سهل بن حنيف
ج١: ٢٣٤– ٢٤٧

سهل بن سعد السّاعدى
ج٥: ١٩٢

سهل بن زياد (أبو سعيد الآدمى)
ج٤: ٣١٨– ٣١٩

سهل بن عبد الله التسترى
ج١: ١٤٩– ١٥٦– ١٦٨– ٢٦٩
ج٣: ٢٠٧– ٣١٧ ج٤: ٦
ج٥: ٨ – ١٨ – ١٣١ – ١٥٢– ١٦١– ١٦٣– ١٦٥
ج٦: ٨٠
ج٧: ٨٦– ٢٢٧– ٣٠٢– ٤٠٣– ٤٠٨– ٤١٩
ج٨: ٦٩– ١١٤

سهيل بن عمرو
ج٦: ٢٨٤

السيّارى
ج٤: ٣٤٥ – ٣٥٠

السيّد الرّضى

انظر: «محمّد بن الحسين الموسوى»

السيّدبن طاووس
«انظر على بن طاووس»

السّيورى (المتصوّف)
ج٣: ٤١

سيفبن عَميرة
ج٢: ٣٠٥- ٣٥٥

(ش)

الشافعى (أحدالائمّة الأربعة)
ج١: ٩٧- ٢٠٣- ٢٥٩- ٢٨٧
ج٣: ١٥٧ ج٦: ٧٠

الشافعى المجاور بمكّة
ج٥: ١٢٩

الشبلى
ج٥: ١٣٣- ١٥٤
ج٧: ١٤٠- ١٤٨ ج٨: ٨٣

شتير (ة) (بن شكل)
ج١: ٢٤٢

شدّادبن أوس
ج٦: ١٤١ ج٨: ١٥٥

شرحبيلبن سعيد
ج٤: ٢١٢

شريحبن هانئ (القاضى)
ج١: ٢١٤ ج٦: ١٩٤

شريف (ابن جعفر بن الشّريف الجرجانى)
ج٤: ٣٣١

شعبةبن الحجّاج
ج٤: ٢٥٤ ج٦: ٨١

الشَعبى (عامربن شراحيل)
ج١: ١١٢- ١٤٦ ج٢: ٧٩
ج٣: ٣٢٢ ج٤: ٤٢
ج٦: ٥٣ ج٨: ٢٤٨

شعوانة
ج٨: ١٧٦- ١٧٨

شعيبالنبىّ (ع)
ج١: ١٣٣ ج٤: ١٠٢

شعيبالعَقَرقوفى
ج٣: ٣٥٧ ج٤: ٢٦٠

شقيقالبلخى
ج٤: ٢٦٨- ٢٦٧ ج٥: ١٥١

شمعون
ج١: ١٩٩- ٢٣٠

شنّ
ج٧: ٨٩

شهاببن أبىعامر
ج٤: ٢١٨

شهاب بن عبدربّه
ج٤: ٦٠ـ ٦١

الشهيد الاوّل
ج٢: ٤٦ـ ٤٠٥   ج٣: ٣٩٢

الشهيد الثّانی
ج١: ٢٩٠ـ ٣٤٢ـ ٣٧٤
ج٣: ١٥١ـ ٤٣٤

شيث بن آدم (ع)
ج١: ٢٣٠ـ ٢٤٠

الشيطان
انظر: (ابليس).

(ص)

الصادق عليه السّلام
انظر: «جعفر بن محمّد بن علی عليهم السلام»

صالح النبیّ (ع)
ج١: ٢٤٠

صالح بن أبی حمّاد
ج٣: ٣٩٦

صالح بن الأسود
ج٤: ٢٥٥

صالح بن سعيد
ج٤: ٣١٢

صالح بن عقبة
ج٤: ٤٦

صالح (بن بشير) المرّی
ج٨: ٣٠٠

صالح بن وصيف
ج٤: ٣٢٧ـ ٣٣٣

صباح الحذّاء
ج٤: ٦٢

الصدوق (محمّد بن علی بن الحسين بن بابويه)
ج١: ٦٠ـ ٨٩ـ ١٠٧ـ ١٢٩ـ ١٩٧-٢١٦ ٢٤٤ـ ٢٦٠ـ ٣١٧ـ ٣١٨
ج٢: ٦ـ ١٠ـ ١٣ـ ٢١ـ ٣٤ـ ٣٧ـ ٤١ـ ٤٢ ٥٦ـ ١٣٣ـ ١٤٣ـ ٢٦٤
ج٣: ٣٩٤ـ ٤٤٨
ج٤: ٤٥ـ ٨٢ـ ٢٠٣ـ ٢٠٤ـ ٢٨٨ـ ٣٧٤
ج٥: ٢٢٩ـ٢٥٤ـ٢٨٠ ج٦: ١٧ ج٧: ٣٠٨
ج٨: ٤٢ـ٢٥٤ـ ٢٥٨ـ ٣٤٦ـ ٣٤٧ـ ٣٥١

صفوان بن سليم
ج٥: ٦٠ـ ١٩٤

صفوان بن عسّال
ج١: ٢٣

صفوان بن مِهران الجمّال
ج٣: ٦

صفوان بن يحيی
ج٣: ٤١٩

صفيّة بنت حُيَی (زوجة النبیّ ص)
ج٣: ٩٥ـ ٣٧٧ـ ٣٧٨   ج٥: ٣٣٢

صفية بنت عبدالمطّلب
ج٦: ٢٨٥

الصلت (ابن شريف بن جعفر الجرجانی)
ج٤: ٣٣١

الصنابحی (عبدالرّحمن)
ج٨: ٣٨٦

صهيب (غلام)
ج٣: ٣٩٧

صهيب (بن سِنان) الرّومی
ج٥: ٢٣٤ ج٦: ٢٣٣ ج٧: ٤٣١
ج٨: ٢٧٠- ٢٧١

(ض)

ضحّاك بن سفيان الكلابی
ج٦: ١٤- ٧٦ ج٨: ٢٨٤

ضحّاك بن مزاحم
ج١: ١٣٨

ضَرار بن ضَمْرَة
ج٤: ١٨٩

ضُرَيس بن عبدالملك
ج٣: ٢٥١

(ط)

طالوت
ج٤: ١٧٩

طاووس اليمانی
ج٣: ٣٩٧ ج٣: ٢٦٥- ٣٦٦- ٤٠٩
ج٤: ٢٣٣- ٢٣٧
ج٥: ١٩٧ ج٨: ١٣٨

الطبرسی (صاحب الاحتجاج) (احمد بن علیّ)
ج١: ٨٧- ٢٠١- ٢٤١- ٢٦٢

الطبرسی (صاحب مكارم الاخلاق) الحسن بن الفضل
ج٣: ٣٩١

الطبرسی (صاحب إعلام الوری) الفضل بن الحسن
ج٤: ٢٩٥- ٣٢١- ٣٣٧- ٣٤١

طبقة
ج٧: ٨٩

طلحة بن عبيدالله
ج٤: ١٧٠ ج٨: ١٦٨

الطنافسی
ج١: ١٣٩ ج٦: ٢٧

الطوسی
انظر: «محمّد بن الحسن شيخ الطائفة»

(ظ)

ظريف أبی نصر الحازم
ج٤: ٣٤٦

(ع)

عائشة (ام المؤمنين)
ج۱: ۳۱۱ـ ۳۵۰ـ ۳۷۲
ج۲: ۳۱٦ـ ۳٦۲ـ ۳۷۲ـ ۳۷۸ـ ٤۰۱ـ ٤۰۲
٤۰۳
ج۳: ۹۷ـ ۱۰۷ـ ۱۲۹ـ ۲۹٤ـ ۳٦۲ـ ۳۸٦
۳۹۸ـ ٤۳٦
ج٤: ۷ـ ۵۲ـ ۷۲ـ ۸۰ـ ۱۲۰ـ ۱۳۷ـ۱۵۲
۲۰۷ـ ۲۰۸ـ ۲۰۹ـ ۲۱۳ـ ۲۱۷
ج۵: ۱۷ـ ۸۹ـ ۱٤۹ـ ۱۵۷ـ ۱٦٦ـ ۱۷۳
۱۷۹ـ ۲۱۱ـ ۲۱٦ـ ۲۲۱ـ ۲۲۷ـ ۲۲۸
۲۳٦ـ ۲٤۳ـ ۲٤۹ـ ۲۵٦ـ ۲۵۷ـ۲۵۸
۲۸۲ـ ۳۰۲ـ ۳۰۷
ج٦: ۷۹ـ ۲٤۳ـ ۲۵۰
ج۷: ۵٦ـ ۱٤۲ـ ۱٤٤ـ ۱۵٦ـ ۲۷۸ـ ۲۸۰
۳۰۵ـ ۳۵۳
ج۸: ۱۹٤ـ ۲٤۰ـ ۲٦۹ـ ۲۷۰ـ ۲۷۱ـ۲۷۲
۲۷٦ـ ۲۹۳

عادة
ج۵: ۲۵۰

العاص بن وائل
ج٦: ۲۹۸

عاصم بن أبي حمزة
ج٤: ۲۵۰

عاصم بن حميد
ج۲: ۸٤

عاصم بن ضمرة
ج۸: ۳٦۷

عامر بن طفيل
ج٤: ۱٦۷

عامر بن عبدقيس
ج۸: ۱۷۳

عامر بن واثلة
ج۵: ۲٦۳

عبادة بن صامت
ج۳: ۲۵۹ـ ٤۰۲ ج٦: ۱٤۷
ج۸: ۱۰٤ـ ۱۵٤ـ ۳۸٦

عباد بن كثير البصري
ج٦: ۱٤٦ ج۸: ۱۳۸

عبّاس بن دهقان
ج٦: ۸۱

عبّاس بن عبدالمطّلب
ج۱: ۲۳٤ـ ۲۳۵ ج۳: ۲۲٦ـ ۲۷۱
ج٤: ۲٤۹ ج٦: ۲۳۷ ج۷: ۲۳۰
ج۸: ۲٦۹ـ ۲۷۳ـ ۲۷۵ـ ۲۸۰ـ ۲۸۱

العبّاس بن مرداس
ج۵: ۲۲۸

العبّاس بن هِلال
ج۱: ۳۳۸

عبدالأعلى مولى آل سام
ج۲: ۱۵۸

عبدالأعلى بن أعين
ج۲: ۳۰۲ ج۳: ۳۵۵

عبدالحميد بن أبي العلاء

ج٤: ٢٦١

عبدالرّحمن (رجل اصفهانی)
ج٤: ٣١٣

عبدالرّحمن بن أبی داود
ج٣: ٢٣

عبدالرّحمن بن أبی عبدالله
ج٣: ٤٩ ج٤: ٨٤

عبدالرّحمن بن أبی لیلی
ج١: ٣٣٨

عبدالرّحمن بن أبی نجران
ج٤: ٨٣

عبدالرّحمن بن الحارث بن هشام
ج٣: ١٢٩ـ ١٣٠

عبدالرّحمن الحجّاج
ج١: ٣٤٦
ج٣: ٢٢ـ ١٤٢ـ ٢٥٠ـ ٢٧٩ـ ٣٨٦
ج٤: ٨٤ـ ١٦٣

عبدالرّحمن بن زید
ج١: ٣٦٩

عبدالرّحمن بن عمرو
انظر: «الاوزاعی».

عبدالرّحمن بن عوف
ج٣: ٩٤ ج٦: ٩٣ـ ٩٤

عبدالرّحمن بن غنم
ج١: ١٣٤

عبدالرّحمن بن ملجم
انظر: «ابن ملجم»

عبدالرّحمن بن یعقوب
ج٣: ٣١٣

عبدالرّحیم القصیر
ج٣: ٦٠

عبدالسّلام بن نعیم
ج٣: ٣١٣

عبدالعزیز القزّاز (كأنّه الخزّاز)
ج٤: ٢٦٢

عبدالعزیز بن عمر
ج٧: ٣٠٦

عبدالعزیز بن مسلم
ج٤: ١٧٤ـ ١٧٥

عبدالعظیم بن عبدالله الحسنی
ج٣: ١٦

عبدالكریم الخثعمی
ج٤: ٣٣٧

عبدالله بن أبان الزّیّات
ج٨: ٢٩٩

عبدالله بن أبی الحمساء
ج٥: ٢٣٨

عبدالله‌بن أبی وداعة
ج٥: ١٨٤

عبدالله‌بن أبی‌الهذیل
ج٤: ١٩٠

عبدالله‌بن ابی‌یعفور
ج١: ٣٢٣ ج٣: ٢٥٥
ج٤: ٣٥٦ـ ٣٥٧ ج٨: ٢٦١

عبدالله‌بن إدریس
ج٤: ٢٧٢

عبدالله‌بن انیس‌الانصاری
ج٤: ٤٢

عبدالله‌بن بکیر
ج٢: ١٣٩ـ ٢٣٤ ج٣: ١٢٥

عبدالله‌بن جبیر
ج٣: ٣٢٧

عبدالله‌بن جعفربن أبی‌طالب
ج٤: ٦١ـ ٢١٦ ج٦: ٦٤ـ ٦٦ـ ٦٧

عبدالله‌بن جعفر الحمیری
ج١: ٣٣٣ ج٣: ٢٨٢
ج٤: ٢٣٧
ج٦: ٦٤ـ ٦٦ـ ٦٧ـ ٨٠

عبدالله (الأفطح) بن جعفر بن محمّد (ع)
ج٤: ٢٧٠ـ ٢٧١ـ ٢٧٩

عبدالله‌بن جندب
ج٢: ٣٠٦

عبدالله‌بن الحسن (عبدالله محض)
ج٣: ٣٣٠ ج٤: ٢٥٥
ج٨: ١٧٧

عبدالله‌بن حمّاد الانصاری
ج١: ٢٦١

عبدالله‌بن حنظلة
ج٥: ٦٠

عبدالله‌بن رواحة
ج١: ٨٨

عبدالله‌بن زبیر
ج٤: ٢٢٧

عبدالله‌بن زمعة
ج٥: ٢٣٦

عبدالله‌بن سفیان (الثقفی)
ج٥: ١٩٢ـ ١٩٣

عبدالله‌بن سلام
ج٥: ٢٠١ ج٦: ٥٣ـ ٢٧٠

عبدالله‌بن سلیمان
ج٥: ١٨٥

عبدالله‌بن سِنان
ج١: ١٧٤ـ ١٨٠
ج٢: ١٣٨ـ ١٧٦ـ ٣٠٦ـ ٣٩١
ج٣: ٢٨٢ـ ٣٧٧ ج٤: ٧١

عبداللّه‌بن شدّاد
ج۳: ٤٣٧

عبداللّه‌بن عامربن کریز
ج٦: ٦٨– ٦٩

عبداللّه‌بن عامرالجهنی
(والصواب عقبه‌بن عامر)
ج٤: ٩– ١٠

عبداللّه‌بن عامربن ربیعة
ج۳: ۳۹٥

عبداللّه‌بن عبیدبن عمیر
ج٤: ٢٤٤

عبداللّه‌بن عثمان
ج١: ٣٢٣

عبداللّه‌بن عُتبة
ج٥: ٢٤٨

عبداللّه‌بن عطاءالمکّی
ج٤: ٢٣٦– ٢٤٧

عبداللّه‌بن علی (بن‌الحسین‌ع)
ج۳: ١٢٥

عبداللّه‌بن عمروبن حرام–
الانصاری
ج٢: ٢٨٠ ج٨: ٣١٣

عبداللّه‌بن عمروبن العاص
ج٤: ١٩ ج٥: ٣٠٢ ج٧: ٣٠

عبداللّه‌بن عمر
ج۳: ٤٦– ٣٨٧
ج٥: ١٨٦– ١٨٧– ١٩٤– ٢٣٨– ٢٤٢– ٣١٦
ج٧: ٣٠٨
ج٨: ٢٤٤– ٢٥١– ٣٢٧– ٣٢٨

عبداللّه‌بن عمراللّیثی
ج۳: ٧٧

عبداللّه‌بن الفضل‌بن ربیع
ج٤: ٢٥٧

عبداللّه‌بن الفضل‌الهاشمی
ج٥: ٢٢٩

عبداللّه‌بن فَضالة
ج۳: ١٢٠

عبداللّه‌بن القاسم
ج٥: ٣٦٧

عبداللّه‌بن الکوّاءالیشکری
ج۳: ٤٣٢

عبداللّه‌بن المبارک
ج٢: ٩٠– ٣٠٠ ج۳: ٢٠٨– ٤٣٦
ج٤: ١٣ ج٥: ٢٨٤– ٢٩٤
ج٦: ١٤٢– ١٤٧– ١٦٣– ٢٢٦
ج٧: ٢٣٤ ج٨: ٦٩

عبداللّه‌بن محمّدبن علی‌بن–
الحسین (علیهم‌السلام)
ج٤: ٢٤٦– ٦٢

عبداللّه‌المروزی

ج٣: ٣٣٥ ج٤: ٥٨

عبدالله بن مُسْكان
ج٣: ١٣٩ ج٦: ١١٢

عبدالله بن المغيرة
ج٣: ٢١– ١٣٨ ج٤: ٢٩٠

عبدالله بن ميمون القدّاح
ج٣: ٣٠٢

عبدالله النّجاشي
ج١: ١٤٥

عبدالله بن هارون
راجع «المأمون الرشيد»

عبدالله بن يحيى الكاهلي
ج٣: ٢٧٨ ج٤: ٢٥٩– ٢٦٠

عبدالمؤمن الانصارى
ج١: ٢٠١

عبدالمطّلب بن هاشم
ج١: ٢٤٩ ج٤: ١٥١

عبدالملك بن أعين
ج١: ٧٦

عبدالملك بن عمرو الأحول
ج٣: ٧٨ ج٤: ١١٠

عبدالملك بن مروان
ج٤: ٢٤٠– ٢٤١– ٢٤٢
ج٥: ١٨٥

عبدمناف
ج٤: ٢١٩

عبدالواحد بن المختار الانصارى
ج٣: ٣٥٦ ج٤: ٣٦٨

عبدالواحد بن زيد
ج٤: ١٣ ج٥: ١٥٢ ج٦: ٥٤
ج٨: ٦– ٨٠– ١٧٢

عبيد بن زرارة
ج٣: ٣١٧

عبيد بن عمير (اللّيثى)
ج٨: ١٩٤– ٣٠٠

عبيدالله البَجلى
ج٨: ١٩٠

عبيدالله بن زياد
ج٤: ٢٣٠

عبيدالله بن عبدالله الدّهقان
ج٣: ٣١٣

عبيدة بن الجرّاح
انظر: «**أبوعبيدة الجرّاح**»

عتبة الغلام
ج٣: ٣١٩

عثمان بن أبى العاص الثقفى
ج٣: ٦ ج٥: ٥٠

عثمان بن حنيف
ج١: ٢٣٤

عثمان بن أبى شيبة
ج۱: ۳۷۵

عثمان بن مظعون
ج٥: ٧٦

عثمان بن عَفّان
ج۱: ۱٦٢- ۲۳۹- ٢٤١
ج۳: ۳۷۲ ج٥: ۲۲۱
ج٦: ٩٤ ج۸: ۲٦۳- ۳۱۱

عثم (بَرِيدُ الجنّ)
ج٤: ٢٦٢

عجرة (المكفوفة)
ج۸: ۱۷٦

عدىّ بن الحاتم
ج۳: ۲۲۱- ۳۷۲

عروة البارقى
ج۳: ١٤٩

عروة بن الورد
ج٦: ۲۲۷

العزيز (صاحب يوسف)
ج٥: ۱۱٦

عطاء بن أبى رياح
ج۲: ۷۹ ج۳: ۳۲۲ ج٥: ٢٠٤
ج۷: ٤٢- ۳۳۲ ج۸: ١٩٤

عطاء السلمى
ج۳: ۲۹۹- ۳۰۰

عطاء بن يسار
ج٥: ٢٤٥
ج۷: ۱۰۷ ج۸: ۳۱۰

عقبة بن عامر
ج٥: ۱۹۲- ۳۱۹
ج۷: ۲۳۲- ۲۸۰ ج۸: ۳۲۸

عقيل بن أبى طالب
ج٤: ٦١

عكاشة بن محصن
ج۷: ۳۷۹ ج۸: ۳۸۸

عكرمة (مولى ابن عبّاس)
ج۳: ٦٥- ۳٦۲- ۳۷۸
ج٤: ۱۰۰ ج٥: ۲۹۱ ج٦: ١٤٧
ج۸: ۲٥۹- ٢٦٤

عكرمة بن أبى جهل
ج۳: ۳۹۲

العلاء بن رزين
ج۲: ۱٥٦- ۳۹٤

العلاء بن زياد
ج٥: ٥٠- ۱۸۷ ج٦: ٤٣

العلامة بحر العلوم
ج۱: ١٤٥

العلامة الحلّىّ (ره)
ج۳: ۱٥۳- ۱٥٦

علقمة بن عمر والعطاردى
ج۳: ۳۱٤

علقمه (بن قيس) الأسود
ج٣: ٣١٤ ج٥: ٢٣٤

علقمة بن محمّد الحضرمى
ج٧: ٤١

على بن ابراهيم بن موسى
ج٤: ٣٢٤

على بن ابراهيم بن هاشم
ج١: ٦٠
ج٢: ٢٦١ـ ٢٦٢ـ ٢٦٤ـ ٣٠٦
ج٤: ٣٠٦ـ ٣١٠
ج٧: ٣٧٠ ج٨: ٣٣٤ـ ٣٥٠

على بن أبى الحسن
ج٢: ٣٩٠

على بن ابى حمزة البطائنى
ج٢: ٢٢٢
ج٣: ١٤٧ـ ٢٥٤ـ ٢٥٥
ج٤: ٦٤ـ ٢٧٤ـ ٢٧٦ـ ٢٧٨ـ ٢٧٩ـ ٢٨٠

على بن أبى طالب
أبو الحسن (عليهما السلام)
ج١: ١٩ـ ٢٥ـ ٢٩ـ ٣١ـ ٥٢ـ ٥٣ـ
٦٥ـ ٦٨ـ ٦٩ـ ٧٤ـ ٧٦ـ ٧٧ـ ٩
٨٦ـ ٨٧ـ ١٠٧ـ ١١٤ـ ١٢٣ـ ٢٤
١٢٦ـ ١٤١ـ ١٤٨ـ ١٥٦ـ ١٥٩ـ ٦٠
١٦٥ـ ١٧٣ـ ١٧٩ـ ١٩٠ـ ١٩٤ـ ٩٧
٢٠٣ـ ٢٠٤ـ ٢٠٨ـ ٢١٠ـ ٢١٣ـ ١٤
٢١٧ـ ٢١٩ـ ٢٢٦ـ ٢٣٠ـ ٢٣٣ـ ٣٤
٢٣٥ـ ٢٣٦ـ ٢٣٧ـ ٢٣٩ـ ٢٤٠ـ ٤١
٢٤٢ـ ٢٤٣ـ ٢٤٤ـ ٢٤٥ـ ٢٤٧ـ ٥٣
٢٥٥ـ ٢٦٠ـ ٢٦٧ـ ٢٦٩ـ ٢٧٧ـ ١١
٣١٤ـ ٣١٦ـ ٣١٨ـ ٣٢١ـ ٣٢٤ـ ٣٢٥
٣٢٦ـ ٣٢٨ـ ٣٣٣ـ ٣٣٤ـ
٣٣٨ـ ٣٥١
٣٥٣ـ ٣٥٦ـ ٣٥٧ـ ٣٥٨ـ ٣٧٥ـ ٣٧٨
٣٩٠ـ ٣٩١ـ ٣٩٧
ج٢: ١١ـ ١٢ـ ١٧ـ ٢٠ـ ٢١ـ ٢٢ـ ٢٣
٢٤ـ ٢٨ـ ٤٦ـ ٤٨ـ ٦٢ـ ٧٣ـ ٦
٩٢ـ ٩٣ـ ١٠٢ـ ١١٢ـ ١١٣ـ ١٣٧
١٣٨ـ ١٣٩ـ ١٤٠ـ ١٥٣ـ ١٥٥ـ ١٥٦
١٥٧ـ ١٥٨ـ ١٥٩ـ ١٦٧ـ ١٧٥ـ ١٧٤
٢١٤ـ ٢١٥ـ ٢٢٠ـ ٢٢٥ـ ٢٣٣ـ ٣٤
٢٣٧ـ ٢٣٩ـ ٢٤٠ـ ٢٤٢ـ ٢٤٨ـ ٢٥٠
٢٥١ـ ٢٥٢ـ ٢٥٤ـ ٢٦٠ـ ٢٦١ـ ٢٦٢
٢٦٣ـ ٢٦٤ـ ٢٧٤ـ ٢٧٥ـ ٢٧٦ـ ٢٨٣
٢٨٤ـ ٢٨٧ـ ٢٩٢ـ ٢٩٧ـ ٣٠١ـ ٣٠٥
٣٠٨ـ ٣١٠ـ ٣١٨ـ ٣٢٢ـ ٣٢٥ـ ٣٢٦
٣٥٢ـ ٣٥٥ـ ٣٥٦ـ ٣٨٠ـ ٣٩٢
٣٩٣ـ ٣٩٦ـ ٤٠٥
ج٣: ٥ـ ٨ـ ١٢ـ ١٣ـ ١٧ـ ٢٠ـ ٢٥ـ ٢٩
٤٧ـ ٥٥ـ ٥٦ـ ٦٧ـ ٦٨ـ ٧٧ـ ٨٦
٨٨ـ ٩٢ـ ١٠٠ـ ١٠٣ـ ١٠٤ـ ١٠٥
١٠٩ـ ١١٠ـ ١١١ـ ١١٨ـ ١٢١ـ ١٢٣
١٢٧ـ ١٣٠ـ ١٤٣ـ ١٤٧ـ ١٤٨ـ ١٦٦
١٧٣ـ ١٧٦ـ ١٨٥ـ ٢٢٣ـ ٢٣٠ـ ٢٣٣
٢٤١ـ ٢٤٢ـ ٢٥١ـ ٢٥٥ـ ٢٦٦ـ ٢٧٤
٢٧٧ـ ٢٨١ـ ٢٩١ـ ٣١٠ـ ٣١١ـ ٣١٤
٣١٥ـ ٣١٦ـ ٣٢٠ـ ٣٢٨ـ ٣٤٤ـ ٣٤٨
٣٦٥ـ ٣٦٨ـ ٣٦٩ـ ٣٧٠ـ ٣٧٢ـ ٣٨٥
٣٩٧ـ ٤٠٩ـ ٤١٢ـ ٤١٣ـ ٤١٤ـ ٤١٩
٤٢٦ـ ٤٢٩ـ ٤٣١ـ ٤٣٢ـ ٤٣٣ـ ٤٤٧
٤٤٨
ج٤: ٤٥ـ ٤٧ـ ٤٨ـ ٥١ـ ٥٩ـ ٦٠ـ ٦١
٦٦ـ ٦٧ـ ٧٠ـ ٧١ـ ٧٢ـ ٧٣ـ ٩٠
٩٢ـ ٩٣ـ ١٠٥ـ ١٠٦ـ ١٠٩ـ ١١٥
١٢١ـ ١٤٤ـ ١٤٧ـ ١٤٩ـ ١٥٠ـ ١٦٩
١٧٠ـ ١٧٢ـ ١٧٥ـ ١٨٢ـ ١٨٣ـ ١٨٦

١٨٧- ١٨٩- ١٩٠- ١٩١- ١٩٢-١٩٤
١٩٥- ١٩٦- ١٩٧- ١٩٨- ١٩٩-٢٠٠
٢٠١- ٢٠٢- ٢٠٣- ٢٠٤- ٢٠٥-٢٠٦
٢٠٨- ٢٠٩- ٢١٠- ٢١١- ٢١٢-٢١٣
٢١٤- ٢١٥- ٢٢٠- ٢٢٤- ٢٢٥- ٢٣٥
٢٥٩- ٢٦٥- ٢٧٢- ٢٨٠- ٣٠٠-٣٠٩
٣١٤- ٣٣٥- ٣٣٧- ٣٤٥- ٣٤٦ الى
٣٥٨- ٣٦٢- ٣٦٣- ٣٦٧- ٣٧٣- ٣٧٥
٣٧٦
ج٥: ١٧- ٢٧- ٢٩- ٣٠- ٣٢- ٤٣- ٦٣
٧٧- ١٠٧- ١١٧- ١٢٣- ١٤٠- ١٦٧
١٧٠- ١٩٦- ٢٢٠- ٢٢١- ٢٢٢-٢٣٠
٢٤٣- ٢٤٥- ٢٧٦- ٢٧٨- ٢٨٠-٢٨٥
٣٠٣- ٣١٣- ٣٣٢- ٣٦١- ٣٦٢-٣٦٣
ج٦: ٣- ٤- ١٢- ٢٤- ٤٣- ٦١- ٦٣-٦٥
٦٧- ٧٥- ٨٠- ٨١- ٩٠- ١٠٨-١١٢
١٤٤- ١٤٥- ١٦٣- ١٩٤- ٢٢٦-٢٢٧
٢٤٧- ٢٤٨- ٢٧٠- ٢٧٧- ٢٨١-٢٩٤
ج٧: ١٨- ٢٧- ٣٠- ٣٢- ٦٣- ٦٩- ٨٠
٩٦- ١٠٣- ١٠٤- ١٠٨- ١٢٦- ١٨٧
٢٣١- ٢٣٣- ٢٣٥- ٢٥٣- ٢٥٥-٢٥٦
٢٦٥- ٢٦٦- ٢٨٣- ٢٨٦- ٣٠٩- ٣١٠
٣٢٠- ٣٢١- ٣٢٤- ٣٢٦- ٣٢٩- ٣٣١
٣٥٠- ٣٥٢- ٣٦٢- ٤٢٠
ج٨: ٧- ٢٤- ٣٥- ٨٠- ١٠١- ١١٧- ١٢٤
١٢٥- ١٤١- ١٤٥- ١٦٢- ١٧٣-١٩٤
٢٤٢- ٢٤٤- ٢٥٤- ٢٦١- ٢٦٤-٢٦٨
٢٦٩- ٢٧٠- ٢٧١- ٢٧٢- ٢٧٣-٢٧٤
٢٧٥- ٢٧٦- ٢٧٧- ٢٧٨- ٢٧٩-٢٨٠
٢٨١- ٢٨٤- ٢٨٩- ٢٩٧- ٢٩٩-٣٠٣
٣٠٩- ٣٢٣- ٣٣٥- ٣٣٦- ٣٤٧-٣٥٢
٣٥٥ - ٣٦١ - ٣٦٧ - ٣٧٧ - ٣٧٨
٣٧٩- ٣٨٢

على بن أحمد الوشّاء الكوفى
ج٤: ٢٩٣

على بن اسماعيل
ج٤: ٢٦٤

على بن أسباط
ج٤: ٦٣

على بن الاوتامش
ج٤: ٣٢٥

على بن بكار
ج٣: ٣٩٨

على الجرجانى
ج: ١٥٨

على بن حعفر بن محمّد
(عليهما السلام)
ج٣: ١٢٢- ٢٧٩

على بن الحسن بن سابور
ج٤: ٣٣٣

على بن الحسن بن الفضل اليمانى
ج٤: ٣٢٥

على بن الحسين زين العابدين
السّجاد (سيّد العابدين) (ع)
ج١: ٢٦- ٣١- ٦٥- ١٢٧- ١٩٧ - ١٩٨
٢٣٢- ٢٤٤-٢٤٥- ٢٥٢- ٣١٣- ٣٢٧
٣٤٧- ٣٥١- ٣٥٢- ٣٧٨
ج٢: ٤٥- ٤٨- ٥٩- ٨٧- ١٠٥- ١٤٢- ١٤٨
١٥١- ١٥٣- ١٧٦- ٢٠١- ٢١٥- ٢٢١
٢٣٢- ٢٣٣- ٢٧٤- ٣٠٥- ٣٢٤- ٣٣٥
٣٧٤- ٣٧٦
ج٣: ١٩- ١١٣- ١١٥- ١٢٤- ١٤٢- ٢٠٧
٢٣٩- ٢٨٩- ٢٩٢- ٣١٥- ٣٢٠- ٣٤٠

٣٦١ــ ٣٦٣ــ ٣٦٩ــ ٣٧٠ــ ٤٣٢ــ ٤٤٨
ج٤: ٦٦ــ ٧٢ــ ٩٢ــ ٢٠٨ــ ٢٣١ــ ٢٣٢ــ ٢٣٣
٢٣٤ــ ٢٣٥ــ ٢٣٦ــ ٢٣٧ــ ٢٣٨ــ ٢٣٩
٢٤٠ــ ٢٤١ــ ٢٧٢ــ ٢٨١ــ ٣٣٨ــ ٣٤٥
٣٤٩ــ ٣٦٥
ج٥: ٢٢٦ــ ٢٣٠ــ ٢٥٣ــ ٣٠٩ــ ٣١٠ــ ٣١٣
٣١٤ــ ٣٢٠ــ ٣٦٤ــ ٣٦٥
ج٦: ٦٤ــ ٢٠٤ــ ٢٢٤
ج٧: ١٠٨ــ ٣٠٩ــ ٣١٠ــ ٣٥٧ــ ٣٦٢
ج٨: ٢٤ــ ١٠٥ــ ٢٥٥ــ ٣٢٣ــ ٣٢٦

علىّ بن الحسين بن الموسوى (السيّد المرتضى)
ج١: ١٤٥ــ ٢٨٥ــ ٢٩٠ــ ٣٠٤
ج٣: ٤ــ ٢٢ــ ٦٨ــ ١٠٠

على بن الحكم
ج٣: ١٨٤

على بن خالد (الزيدى المستبصر)
ج٤: ٣٠٢ــ ٣٠٣

على بن رئاب
ج٣: ٣٩٦ ج٧: ١٨

على بن زياد الصيمرى
ج٤: ٣٣٢ــ ٣٤٧

على بن زيد بن الجذعان
ج٤: ٢١٨

على بن زيد بن على بن الحسين بن زيد بن على (ع)
ج٤: ٣٢٧ــ ٣٣١ــ ٣٣٢

على بن السّرى
ج٧: ٢٧

على بن سليمان
ج٣: ٢٧٦

على بن السُّوَيد
ج٦: ٢٧٧

على الصائغ
ج٣: ٢٨٠

على بن طاووس
ج١: ٢٠٩ــ ٢٦١

على بن عطيّة
ج٣: ٢٥١

على بن عقبة
ج٣: ٣٠٢ ج٤: ٣٣٦

على بن عيسى الاربلى
ج١: ٢٠٢
ج٤: ٢٠٣ــ ٢٠٩ــ ٢٢٣ــ ٢٢٨ــ ٢٥٨ــ ٢٦٤
٢٨٣
ج٥: ٤٥

على بن محمّد الحجّال
ج٤: ٣١٣

على بن محمّد بن الحسن
ج٤: ٣٢٩

على بن محمّد القاسانى
ج٤: ٢٩١

على بن محمّد

ج٤: ٣٢٨ـ ٣٢٩ـ ٣٥٠ـ ٣٥١

علی بن محمّدٍ النّقی (أبوالحسن الثالث)

ج٢: ٣ـ ٢٣٢ـ ٤٠٢
ج٣: ٢٠٦ـ ٣١٣ـ ٤١٦
ج٤: ٩٤ـ ٣٠٨ـ ٣٠٩ـ ٣١٠ـ ٣١١ـ ٣١٢ ـ ٣١٣ـ ٣١٤ـ ٣١٧ـ ٣١٩ـ ٣٢٠ـ ٣٢١ ـ ٣٣٣ـ ٣٤٥
ج٨: ٤٢ـ ٢٥٧

علیّ بن محمّد النوفلی

ج٢: ٢٣٢ ج٤: ٣١٢

علی بن مزید

ج٣: ٣٨٩

علی بن معبد

ج٣: ٢١٤

علی بن المغیرة

ج٣: ٢٧٨

علی بن موسی الرّضا (ابوالحسن الثانی علیهماالسّلام)

ج١: ٢٤ـ ٣٢ـ ١٤٥ ـ ١٥٧ـ ١٧٧ ـ ١٨٤ ـ ١٩٧ـ ٢٠٩ـ ٢١٧ـ ٢١٨ـ ٢٢١ـ ٢٤٤ ـ ٢٤٨ـ ٢٦٢ـ ٢٦٤ـ ٢٩٢ـ ٣٠٣ـ ٣٠٨ ـ ٣٣٨ـ ٣٣٩ـ ٣٤٦ـ ٣٥٣
ج٢: ٤ـ ٦ـ ١٦ـ ٢١ـ ٢٣ـ ٢٧ـ ٤٩ـ ٦١ ـ ١١٠ـ ١٢٧ـ ١٤٠ـ ١٤٩ـ ١٨٣ـ ٢٢٠ ـ ٢٧٤ـ ٢٩١ـ ٣١٣ـ ٣١٧ـ ٣٢٩ـ ٣٧٧ ـ ٣٧٨
ج٣: ١٨ـ ٢٠ـ ٢٣ـ ٣٨ـ ٨٨ـ ١١١ـ ١١٩ ـ ١٦١ـ ٢٠٧ـ ٢١٧ـ ٢٣٣ـ ٣٨٠ـ ٣٨٦ ـ ٣٩٦ـ ٣٩٩ـ ٤٠١ـ ٤١٥ـ ٤١٩ـ ٤٣٠ ـ ٤٤٢
ج٤: ٤٥-٤٧ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٦٣ـ ٧٢ـ ٩١ ـ ١٠٥ـ ١٠٦ـ ١٧٠ـ ١٧٤ـ ٢٢٠ـ ٢٧٨ ـ ٢٨٠ـ ٢٨١ـ ٢٨٢ـ ٢٨٣ـ ٢٨٤ـ ٢٨٥ ـ ٢٨٦ـ ٢٨٧ـ ٢٨٨ـ ٢٨٩ـ ٢٩٠ـ ٢٩١ ـ ٢٩٢ـ ٢٩٣ـ ٢٩٤ـ ٢٩٥ـ ٣٠١ـ ٣٠٤ ـ ٣٠٦ـ ٣٠٨ـ ٣٣٧ـ ٣٤٥ـ ٣٦٦
ج٥: ١٦٧ـ ٢٢٩ـ ٢٣٠ـ ٣١٤ـ ٣٦٨
ج٦: ١١٣ـ ١٤٦ـ ٢٢٤ـ ٢٢٥
ج٧: ٣٢ـ ٦١ـ ٢٥٥
ج٨: ١٩٥ـ ٢٥٧ـ ٢٩٠ـ ٢٩٩ـ ٣٥٠

علیّ بن مهزیار

ج٢: ١٨٤ ج٤: ٤٧

علی بن میثم

ج٤: ٢٨٨

علیٌ بن النعمان

ج٣: ٣٩٦

علی بن هلال (بن بلال ظ ـ)

ج١: ١٠٨

علی بن یقطین

ج١: ١٠٧ـ ١٤٥ـ ٣١٧ـ ٣٣٤
ج٢: ٢١ـ ٩٩ ج٣: ٢٥٩ـ ٢٨١
ج٤: ٢٧٢ـ ٢٧٣ـ ٢٧٤ ج٥: ٢٣٠

عمّار بن حیّان

ج٣: ٤٣٩

عمّار بن سعید

ج٥: ٣٥٩

عمّار بن موسی الساباطی

ج۱: ۳۰٤ ج۲: ٥- ٦- ۱۱۰
ج۳: ۳۱٦ ج٤: ۲۷۱

عمّار بن ياسر
ج۱: ۲۳٤- ۲۳۹- ۲٤۲- ۲٤۷- ۳۹۸
ج۳: ۳۹۹ ج٤: ٦۱-۱٦٦- ۱۷۱- ۱۸۹
ج٥: ۲۸۰- ۳۲۱ ج٦: ۲۳۳
ج۷: ۱۰٤ ج۸: ۲۷٤

عُمارة بن عميرة
ج٤: ۲۳۰

عمرو بن ثابت (أبى المقدام)
ج۱: ۳۰۹ ج٤: ٥٥- ۲٥٥
ج٥: ۳۲٤

عمروبن الجُموح
ج٦: ۷٤

عمروبن الحارث الرافعى
ج۸: ۹۳

عمروبن حزم (بن زيد) الانصارى
ج۸: ۳۸۸

عمروبن شيبة
ج٦: ۲۲۸

عمروبن العاص
ج۱: ۲۳۳ ج٤: ۲۲۷
ج٥: ۲۲۱ ج۸: ۳٤۹

عمروبن عَبْدِوَدّ
ج٤: ۱۹۳

عمروبن عبيد
ج۷: ۳۳

عمروبن عِكرِمة
ج۳: ٤۲٥

عمروبن أُذينة
ج۲: ۱۸۳- ۲۸٦

عمربن الخطاب
ج۱: ۱٦۲- ۲۳٥- ۲۳٦- ۲۳۷- ۲٤۳
ج۲: ۱٥٥- ۲۸۸
ج۳: ۱٥- ۷٦- ۷۸- ۹۸-۳۷۳- ۳۷٦-٤۱۳ ٤۲۹
ج٤: ۱۰۹- ۱٤٦- ۱٥۰- ۱٦٥- ۳٤۱
ج٥: ۲۲۲- ۲٦۰- ۲۸۱
ج٦: ۲٤- ۲٥- ۷۲- ۷۳
ج۷: ۱۰۷- ۱٤۳- ۳٥٤
ج۸: ۲۷۰- ۲۷۱- ۲۷۲- ۲۷۳- ۲۷٦-۳۱۰ ۳۱۱

عمربن أبى مسلم
ج٤: ۳۲۹

عمربن سعد بن أبى وقّاص
ج٤: ۲۳۰

عمربن دينار
ج٤: ۲٤٤ ج٥: ۲۰٥

عمربن ذرّ (ابوذرّ همدانى)
ج۸: ۲۸۳- ۲۸۸

عمربن شمر
ج٤: ۳٤٤

عمربن عبدالعزيز
ج۱: ۲۳٦ ج۲: ۲۳۰
ج۳: ۲٦٦ـ ۲٦۷ ج٤: ۱۹۰
ج٥: ۱۹۷ـ ۲٤۸ ج٦: ۲۱۸
ج۷: ۲۳٤ ج۸: ۱۷۲ـ ۲٤٤ـ ۳۸۹

عمربن محمد بن زياد الصيمری
ج٤: ۳۳۲

عمربن مسلم
ج۳: ۱٤٦

عمربن يزيد
ج۱: ۳۱٤ ج۲: ۳ـ ۷۱ـ ۲۸٤
ج۳: ۱۲٤ـ ٤۱۹
ج۸: ۲۹۱ـ ۳۱۲

عمران
ج۱: ۲۲٦ ج۷: ۳۲٤

عمران بن محمّد الاشعری
ج٤: ۳۰٥

عمران بن الحصين
ج٤: ۱٥۱ ج٥: ۲۱۹ ج٦: ۱۰۲
ج۷: ۳۲۳ـ ۳۲٤ـ ٤۳۳

عمران بن محمّد القمّی
ج٤: ۸۲

عوف بن عبدالله
ج۳: ٤٤٥

عوف بن مالك
ج٦: ٥۲

عون بن عبدالله المسعودی
ج۳: ۲۸

عياض بن حمار
ج٥: ۲۱۷

العيزار (عَيْنٌ لِمعاوية)
ج٤: ۲۰۰

عيسى بن مريم (عليهما السلام) (المسيح)
ج۱: ۳٤ـ ۳٦ـ ٦۹ـ ۸۱ـ ۹۱ـ ۱۲۳ـ ۱۲٦
۱۲۹ـ ۱۳۰ـ ۱۳۲ـ ۱۳۳ـ ۱۳٤ـ ۱٤۱
۱٥۷ـ ۱۹۹ـ ۲۲۷ـ ۲۳۰ـ ۲٤۰ـ ۲٤٦
۳۳۹
ج۲: ۱٤۰ـ ۱۸٦ـ ۲۱٤ـ ۲٦۸ـ ۲۹۳ـ ۲۹۹
۳۰۰ـ ۳۰۱ـ ۳۰۳ـ ۳۰٥ـ ۳۰۷
ج۳: ۹ـ ٥۳ـ ۷۹ـ ۱٤۱ـ ۱۹۳ـ ۲٦٦ـ ۲۸۸
۲۹۷ـ ۲۹۸ـ ۳۱۱ـ ۳۲٦ـ ٤۰۲
ج٤: ٤ـ ۱٥ـ ۹۲ـ ۱۱۱ـ ۱۹۲ـ ۲٦۱ـ ۳۳٥
ـ۳۳۸
ج٥: ٥٤ـ ٦۱ـ ٦۲ـ ۱۰۳ ـ ۱۱٤ ـ ۱۱٥
۱۳۱ـ ۱٤۸ـ ۱٥۱ـ ۱٥۳ـ ۱٦٥ـ ۱۸۰
۱۹٥ـ ۱۹٦ـ ۲۰۸ـ ۲۱۳ـ ۲٥۰ـ ۲٥٤
۲۸۱ـ ۲۹۱ـ ۳۰٤ـ ۳۱۳ـ ۳۲۷ـ ۳۲۸
۳٥٤ـ ۳٥۷ـ ۳٥۹ـ ۳٦۱ـ ۳٦۸
ج٦: ۱۰ـ ۱۲ـ ۱۳ـ ۲۱ـ ٤۲ـ ٤۹ـ ٦۲ـ ۹۲
۱۰٤ـ ۱٤۱ـ ۱٤۸ـ ۱۹۷ـ ۱۹۹ـ ۲۲۰
۲۲۲ـ ۲۲۷ـ ۲۳۲ـ ۲٤۸ـ ۲٤۹ـ ۳۱٥
۳٤٤ـ ۳٤٥
ج۷: ۲۰ـ ۱۰۸ـ ۱۲٥ـ ۱۷۳ـ ۲۲۷ـ ۲۳٤
۲٦٦ـ ۲۹۱ـ ۳۰۹ـ ۳۲۱ـ ۳۲۲ـ ۳۲۸
۳٥٥ـ ۳٦۳ـ ۳٦٤ـ ۳٦۸ـ ۳۷۰ـ ۳۹۱
٤۱۷
ج۸: ۳٤۹ـ ۳٥۰ـ ۳٦٤

عيسى بن أعين
ج٣: ٢٧٧

عيسى بن عبدالرّحمن
ج٤: ٢٥١

عيسى بن كثير
ج٨: ١٢٢

عيسى بن مالك الخَولانى
ج٧: ٣١١

عيسى المدائنى
ج٤: ٢٧٦

عيص بن القاسم
ج٢: ١٣٩- ١٨٤- ٢٩٧- ٣٩٤

عيينة بن بدرالفزارى
ج٥: ٢٣٤

(غ)

غزوان الرّقاشى
ج٤: ١٢

غياث بن ابراهيم
ج١: ٣٣٣

(ف)

فاطمة الزّهراء (عليها السّلام)
ج١: ٣٠- ٢٣٦- ٢٣٧- ٢٣٩- ٣٥١- ٣٦٣- ٣٩٨
ج٢: ٣٢- ١٨٧- ١٨٨- ٢٧٦- ٣٣٩- ٣٤٨- ٣٥٣- ٣٥٨- ٣٧٦
ج٣: ٦٧- ٩٢- ١٠٤- ١٢٠- ١٢٢- ١٣٠- ٣٩٢- ٤١٩- ٤٢٦
ج٤: ٦٩- ٩٠- ٩٢- ١٦٩ - ١٧٤ - ١٨٢- ٢٠٢- ٢٠٧- ٢٠٨- ٢٠٩- ٢١٠- ٢١١- ٢١٢- ٢١٣- ٢١٤- ٢١٥- ٢٢٣- ٢٢٥- ٢٢٦- ٢٣٨- ٢٥١- ٢٨٤- ٢٨٥- ٢٩٩
ج٥: ١٤٩- ٢١٤- ٢٣٨- ٢٣٩
ج٦: ١٠٣- ٢٨٥
ج٧: ٣٢٣- ٣٢٤
ج٨: ٢٦١- ٢٧٦- ٢٧٧- ٢٨٩

فاطمة بنت الهيثم
ج٤: ٣١٣

فاطمة الصّغرى
ج٤: ٢٠٨

فتح بن الخاقان
ج٤: ٣١٠- ٣١٩

فتح الموصلى
ج٣: ٤٩ ج٧: ٣٣٢

فرات بن أحنف
ج١: ٣٢٥

الفرزدق
ج٤: ٢٢٨ ج٨: ٢٨٤- ٢٨٥

فرعون (عصر موسى)
ج١: ٩٢- ١٣٩- ١٤٠- ٢٤٠- ٢٦٢
ج٢: ٢٥٥ ج٣: ٩٧- ٢٥٧- ٣١٣
ج٤: ٣٣٥ ج٥: ٢٢٠- ٢٢٢
ج٦: ٧- ٢٣٢
ج٧: ١٣٤- ٣٢٤- ٣٩٥- ٣٩٦
ج٨: ٨٣

فضالة بن عبَيد
ج٢: ١٩٣

فضّة (خادمة الزَّهراء) (ع)
ج٤: ١٩٠

الفضل بن أبى قرّة
ج٣: ١٤٧

الفضل بن أحمد بن اسرائيل الكاتب
ج٤: ٣١٨

الفضل بن سهل (ذوالرّياستين)
ج٤: ٢٨٦

الفضل بن شاذان
ج١: ٣٠٨ ج٣: ٤٩ ج٤: ٢٠٤

فضل بن العباس
ج٨: ٢٧١ـ ٢٧٢ـ ٢٨٠ـ ٢٨١

فضل بن عبدالملك
ج٣: ١٩

فضل‌الله بن على الحسنى
ج٥: ٢٧٢

فضل بن يونس
ج٣: ٢٣ـ ٢٧

الفضيل بن عياض
ج٢: ٢٤٢ـ ٣١٨
ج٣: ٢٥٦ـ ٤٠٢
ج٤: ٥ـ ٦ـ ١٢
ج٥: ٩٠ـ ٩٤ـ ١٥١ـ ١٨٠ـ ٣٢٢ـ ٣٦٩
ج٦: ١١ـ ٥٧ـ ١١١ـ ١٤٧
ج٧: ٢٢٣ـ ٢٣٤ـ ٣٠٦
ج٨: ٧٠

الفضيل بن غزوان
ج٦: ١٧٨

الفضيل بن يسار
ج٢: ٣٤ـ ١٣٨ـ ١٤٣ـ ٣٠٦ـ ٣٩٢
ج٣: ٨٢ـ ١٤٢ـ ٣٦٤ـ ٣٦٨ـ ٣٩٦

فيّاض بن نُجَيح
ج٣: ٦٥

فيض بن المطر
ج٤: ٢٤٦

(ق)

قارون (صاحب الكنوز)
ج٦: ٢٤٤ ج٨: ٣٨٥

القاسم بن عبدالرَّحمن
ج٤: ٣٠٥

القاسم بن العلاء
ج٤: ٣٥٠

القاسم بن المحسن
ج٤: ٣٠٧

قَتادة
ج٢: ٣١٨ ج٣: ٦٥
ج٦: ١٤٧ـ ٢٢٧ـ ٢٣٣ـ ٢٧٧
ج٨: ٣٢٨

قتيبة
ج١: ٢٣٥

قطب الدِّين سعيد الرَّاوندى
ج٤: ٢٤٨

قنبر (مولى علىّ عليه السّلام)

ج٤: ١٩٨ ج٦: ٢٢٦

قيس بن الحجّاج
ج٥: ٥٦

قيس بن سعد بن عبادة
ج١: ٢٣٤
ج٦: ٦٣– ٦٩ ج٨: ٢٧٠

قيس بن عاصم
ج٣: ٤٤٥

(ك)

الكاظم (ع)
انظر: «موسى بن جعفر عليهما السلام»

كامل بن ابراهيم
ج٤: ٣٤٦

كثير بن قيس
ج١: ٢٣

كثير النَّوّاء
ج٤: ٢٥٠

كرز بن وَبْرَة
ج٣: ٣٨٠

كِسرى
ج٣: ١٥٨

الكشّي
ج١: ٢٤٢

كعب الاحبار
ج١: ٢٠٣ ج٣: ٢٩٨– ٣٠٢– ٣٧٢
ج٣: ٤٠٢ ج٥: ٢٠٠
ج٦: ٧٦– ٩٣

ج٨: ٥٨– ٢٩٠– ٣٢٨– ٣٧٦

كعب بن مالك
ج٣: ٣٨٧

الكلينيّ
انظر: «محمد بن يعقوب»

كمال الدّين بن طلحة
ج٤: ٢١٨

كميل بن زياد
ج١: ٢٥– ٦٤

(ل)

لبيد
ج٧: ٤٠٣

لقمان الحكيم
ج١: ٣٣– ١٥١
ج٢: ٩٠– ٣٧٢– ٣٨٣
ج٣: ٩٨– ١٠١– ١٤٤– ٣١٢– ٣١٤
ج٤: ٧٣– ٧٤
ج٥: ٩٣– ١٥١– ٢٠٢– ٢٠٣– ٢٠٨– ٢٤٣
٢٧٩– ٣٠٩– ٣١٣– ٣٦٨– ٣٦٩– ٣٧١
ج٦: ٥– ٢٠٢
ج٧: ٢٢– ٩٧– ٢٣٤– ٢٨٣
ج٨: ١٥٥– ١٩٥– ١٩٦– ٢٥٢

لوط (ع)
ج١: ٢٤٠ ج٤: ٣٧٠ ج٥: ٢٧٥

ليث بن أبي سليم
ج٣: ٢١٩ ج٦: ١٠٣

الث بن سعد

ج٥: ٢٥٠ ج٦: ٦٩

ليث بن سعيد
ج٤: ٢٥٨

(م)

مارية (أمّ ابراهيم)
ج٣: ١٨٨

مارية (خادمة الحسن بن عليّ العسكرى(ع)
ج٤: ٣٤٥

ماعز بن مالك
ج٧: ٦٧

مالك بن أنس
ج١: ٩٧ـ ١٦٤ـ ١٦٥ـ ٢٠٣ـ ٢٥٩ـ ٢٦٠ ٢٧٦ـ ٢٨٧
ج٤: ٢٥٤ ج٦: ٦٩ ج٨: ٣٦٣

مالك الجُهَنى
ج٤: ٢٤٧

مالك خازن النّار
ج٨: ٣٥٠ـ ٣٥٤ـ ٣٥٨

مالك بن دينار
ج٢: ٢٤٣ـ ٢٩٨ـ ٢٩٩ـ ٣٩٩
ج٣: ٢٦٦ـ ٤١٣ ج٤: ١٣
ج٥: ١٩٧ـ ٢٤٣ـ ٢٥٤ـ ٢٨٠
ج٦: ١٤٧

مالك بن ربيعة
ج٣: ٤٣٥

المأمون الرَّشيد (عبدالله بن هارون)
ج٣: ٣١٤ـ ٣١٨
ج٤: ٢٨٢ـ ٢٨٤ـ ٢٨٦ـ ٢٨٧ـ ٢٩٠ـ ٢٩٤ ٢٩٥ـ ٢٩٦ـ ٢٩٧ـ ٢٩٨ـ ٢٩٩ـ ٣٠٠ ٣٠١

مبارك (خادم أبى محمّد العسكرى(ع)
ج٤: ٣٣٠

المتوكّل العبّاسى
ج٤: ٣١١ـ ٣١٢ـ ٣١٣ـ ٣١٤ـ ٣١٥ـ ٣١٦ ٣١٧ـ ٣١٨ـ ٣١٩ـ ٣٢٠ـ ٣٣٣

المُتِنبّى
ج٤: ٢١

مجاهد (بن جبر أبوالحجّاج)
ج١: ١٦٤ ج٢: ٧٩ـ ٢٤٢
ج٣: ٦٥ـ ١٩٣ـ ٣٥٨ـ ٤١٨
ج٥: ٧٠ـ ٢٠١ـ ٢٠٥ـ ٢٤٩ـ ٢٥٣ـ ٢٧٣ ٢٨٤ـ ٢٩٤
ج٨: ٣٠٠ـ ٣٣٩ـ ٣٧٤

المحاسبى (الحارث بن اسد)
ج٣: ٢٤٥ ج٥: ٧٩
ج٦: ٨٦ـ ٩١ـ ٩٢ـ ١٧٨

مُحْرز
ج٤: ٢٩٠

محمّد (رسول‌الله) «ص»
من الأعلام المبثوثة فى الكتاب تراه فى جلّ الصفحات .

محمّد بن ابراهيم بن اسحاق الطّالقانی
ج٤: ١٥٨
محمّد بن ابراهيم العمری
ج٤: ٣٣٣
محمّد بن ابراهيم الكردی
ج٤: ٣٢٤
محمّد بن ابراهيم بن مهران
ج٤: ٣٤٩
محمّد بن أبی بكر
ج١: ٢٣٥
محمّد بن أبی عبدالله السيّاری
ج٤: ٣٤٥ ـ ٣٥٠
محمّد بن أحمد الأنصاری
ج٤: ٣٤٦
محمّد بن أحمد بن محمّد بن علیّ العلقمی
ج٤: ٢٥٣
محمّد بن اسحاق
ج٤: ٢٣٢
محمّد بن اسحاق بن موسی
ج٤: ٢٨٢
محمّد بن اُسامة بن زيد
ج٤: ٢٣٤
محمّد بن اسماعيل
انظر: (البخاری)
محمّد بن اسماعيل بن بزيع
ج١: ١٤٥
محمّد بن اسماعيل التميمی
ج١: ٢٤
محمّد بن اسماعيل العلوی
ج٤: ٣٢٥
محمّد بن أورمة
ج٤: ٣١٧
محمّد بن بشير
ج٢: ٢٢١
محمّد بن جعفر الاسدی
ج٢: ٣٩
محمّد بن جعفر بن محمّد (عليهما السّلام)
ج٤: ٢٨٩– ٢٩٠
محمّد بن حبيب البغدادی
ج٤: ٢٠٦
محمّدبن الحسن (الشيخ الطوسیّ)
ج١: ٢٨٥ ج٢: ٩٧– ٢٣١
ج٣: ٢٧٦
محمّد بن الحسن الصفّار
ج١: ٢٠٠ ج٣: ٢٢٩
ج٤: ١٦٣ ج٥: ٤٥
محمّد بن الحسين
ج٦: ٩
محمّد بن الحسين الاشتر العلوی

ج٤: ٣٢٠

محمّد بن الحسين الموسوىّ
(السّيدالرّضى)
ج١: ١٤١ـ ١٤٥

محمّد بن حُمران
ج١: ٣١٥

محمّد بن الحنفيّة
ج٣: ٣٩٨
ج٤: ٢١٧ـ ٢٢٥ـ ٢٣٩ـ ٢٤٠
ج٦: ٢٢٦ ج٧: ٢٦٥ ج٨: ١٥٩

محمّد بن خالد
ج١: ١٢٦

محمّد بن داود
ج٤: ٣٢٣

محمّد بن سليمان (الرّاسبى)
ج٨: ٢٨٨

محمّد بن سليمان الدّيلمى
ج١: ٣٤٧ ج٣: ١٨٣

محمّد بن سليمان (والى المدينة)
ج٣: ٢٦٤

محمّد بن سليمان الهاشمى
ج٥: ١٨٣

محمّد بن سِنان
ج١: ١٥٧ـ ٣٥٧
ج٤: ٢٧٢ـ ٢٩٢

محمّد بن سُوَيد
ج٦: ١١٠ـ ١١١

محمّد بن سهل
ج٢: ٦

محمّد بن صالح
ج٣: ٢٦٤

محمّد بن طلحة (النهدى)
ج١: ٣٢٨

محمّد بن طلحة الشافعى
ج٤: ٢٢٣ـ ٢٣١ـ ٢٤٢ـ ٢٥٣ـ ٢٥٧ـ ٢٦٦
ـ٢٦٨ـ ٢٨٠ـ ٢٨٤ـ ٢٩٥ـ ٣٠٨ـ ٣٢١
٣٣٤

محمّد بن عبّاد
ج٤: ٢٨٢

محمّد بن العبّاس
ج٤: ٣٥١

محمّد بن عبدالعزيز البلخى
ج٤: ٣٢٩

محمّد بن عبدالرّحمن
(الهمدانى)
ج١: ٣٠٤

محمّد بن عبدالرّحمن
ج٤: ٢٥٠

محمّد بن عبدالله
ج٣: ٢٢٢

محمّد بن عبدالله البغدادى
ج٨: ٩٤

محمّد بن عبدالله بن الحسين
ج٤: ٢٦١

محمّد بن عبدالملك الزيّات
ج٤: ٣٠٢ـ ٣١٠

محمّد بن عبيدالله البكرى
ج٤: ٢٦٧

محمّد بن عثمان العَمرى
ج٣: ٤٠ ج٤: ٣٤٨

محمّد بن عجلان
ج٤: ٣٣٦ـ ٣٥٤

محمّد بن عذافر
ج٣: ٢٥٣

محمّد بن عرفة
ج٦: ١٤٦

محمّد بن علوية (أبوجعفر)
ج٤: ٣١٣

محمّد بن علىّ بن بابويه
انظر: (الصدوق)

محمّدبن علىّبن ابراهيمبن موسى
ج٤: ٣٢٣

محمّد بن على بن ابراهيم الهمدانى
ج٤: ٣٣٢

محمّد بن علىّ الباقر (أبوجعفر الأوّل) عليهما السلام

ج١: ٢٦ـ ٣١ـ ٥٤ـ ٦٥ـ ٧٤ـ ١٢٧ـ ١٤٧
١٧٣ـ ١٩٤ـ ١٩٧ـ ١٩٨ـ ٢٠٠ـ ٢٠١
٢٠٤ـ ٢١١ـ ٢١٧ـ ٢١٨ـ ٢١٩ـ ٢٢١
٢٢٣ـ ٢٤٢ـ ٢٤٤ـ ٢٤٥ـ ٢٩٥ـ ٢٩٧
٣٠١ـ ٣٠٤ـ ٣١٣ـ ٣١٧ـ ٣٢٣ـ ٣٢٤
٣٢٧ـ ٣٢٨ـ ٣٢٩ـ ٣٣٧ـ ٣٣٨ـ ٣٤٠
٣٤٢ـ ٣٥٤ـ ٣٥٥ـ ٣٥٦

ج٣: ٣ـ ٨ـ ٩ـ ١٠ـ ١١ـ ١٤ـ ١٦ـ ١٨
١٩ـ ٢٦ـ ٣٤ـ ٣٥ـ ٣٧ـ ٣٨ـ ٥٤
٥٥ـ ٥٩ـ ٦٠ـ ٦٦ـ ٦٨ـ ٧٣ـ ٨٤
١٠٥ـ ١٠٦ـ ١٠٩ـ ١١٠ـ ١١٣ـ ١٢٨
١٣٧ـ ١٣٩ـ ١٤١ـ ١٤٦ـ ١٤٨ـ ١٥٢
١٥٣ـ ١٥٦ـ ١٥٧ـ ١٨٣ـ ٢١٤ـ ٢١٥
٢١٨ـ ٢٢١ـ ٢٣٢ـ ٢٣٣ـ ٢٦٤ـ ٢٦٩
٢٧١ـ ٢٧٢ـ ٢٧٤ـ ٢٧٥ـ ٢٧٧ـ ٢٨٣
٢٨٥ـ ٢٨٧ـ ٢٩٥ـ ٣٠٦ـ ٣٢٧ـ ٣٣٩
٣٤٨ـ ٣٥٥ـ ٣٥٦ـ ٣٥٨ـ ٣٦٣ـ ٣٦٥
٣٧١ـ ٣٧٣ـ ٣٧٤ـ ٣٧٧ـ ٣٨٠ـ ٣٨٣
٣٨٤ـ ٣٨٧ـ ٣٩٢ـ ٣٩٤

ج٣: ٥ـ ٩ـ ١٥ـ ١٩ـ ٣٥ـ ٣٦ـ ٣٩ـ ٤٣
٧٧ـ ٧٨ـ ٩٢ـ ١٠٠ ـ ١١١ـ ١١٢
١٢١ـ ١٢٣ـ ١٢٤ـ ١٢٧ـ ١٢٨ـ ١٣٣
١٤١ـ ١٤٢ـ ١٨١ـ ١٨٤ـ ١٩٥ـ ١٩٦
٢٠٦ـ ٢٢٢ـ ٢٢٤ـ ٢٣٠ـ ٢٣٣ـ ٢٤٩
٢٥٥ـ ٢٧٠ـ ٢٧٦ـ ٢٨٩ـ ٢٩١ـ ٢٩٢
٣١٧ـ ٣٤٠ـ ٣٥٩ـ ٣٦١ـ ٣٦٤ـ ٣٧٠
٣٨٠ـ ٣٨٤ـ ٣٨٥ـ ٣٨٨ـ ٣٩٤ـ ٣٩٦
٣٩٧ـ ٣٩٩ـ ٤٠٠ـ ٤٠٦ـ ٤٠٧ـ ٤١٠
٤١٢ـ ٤١٤ـ ٤١٥ـ ٤٢٧ـ ٤٣٠ـ ٤٤١
٤٤٢

ج٤: ٤٧ـ ٤٨ـ ٦٠ـ ٦٢ـ ٦٣ـ ٦٤ـ ٦٥
٦٦ـ ٧١ـ ٨٠ـ ٨٤ـ ٩١ـ ٩٢ـ ١٠٢
١٠٣ـ ٢١٢ـ ٢١٣ـ ٢٢٠ـ ٢٣٠ـ ٢٣٥
٢٣٨ـ ٢٣٩ـ ٢٤٠ـ ٢٤٢ـ ٢٤٣ـ ٢٤٤
٢٤٥ـ ٢٤٦ـ ٢٤٧ـ ٢٤٨ـ ٢٤٩ـ ٢٥٠
٢٥١ـ ٢٥٢ـ ٢٥٣ـ ٢٨٢ـ ٢٩٥ـ ٣٤١

٣٤٤ــ ٣٤٥ــ ٣٥٢ــ ٣٦٤ــ ٣٦٥ــ ٣٦٦
٣٦٧ــ ٣٦٨ــ ٣٧١ــ ٣٧٢ــ ٣٧٤
ج٥: ٦٤ــ ١٣٨ــ ١٥٠ــ ٢١٨ــ ٢٢٥ــ ٢٢٦
٢٢٩ــ ٢٧٦ــ ٢٨١ــ ٢٩٢ــ ٢٩٣ــ٣١٠
٣١٤ــ ٣٢١ــ ٣٢٣ــ ٣٢٧ــ ٣٦٤ــ ٣٦٥
ج٦: ١١٣ــ ١٤٥ــ ١٦٥ــ ٢١٦ــ ٢١٨ــ ٢٢٣
ج٧: ٨ــ ٩ــ ٢٥ــ ٢٧ــ ٣٠ــ ٥٨ــ١٠٨ــ١٢٦
١٢٨ــ ١٤٤ــ ٢٣٩ــ ٢٥٥ــ ٢٥٨ــ٣١٠
٣٢٦ــ ٣٣٨ــ ٣٥٦
ج٨: ١١٠ــ ١٢٨ــ ١٤٠ــ ٢٤١ــ ٢٤٢ــ٢٥٥
٢٦٤ــ ٣١٢ــ ٣٣٤ــ ٣٣٥ــ ٣٤٧ــ ٣٦٠
٣٧٨ــ ٣٨٢

محمّد بن عليّ الجواد
(ابوجعفر الثانى)
ج١: ٣٢ــ ١٩٧ــ ٢٤٤
ج٢: ٣ــ ٣٠٩ ج٣: ١٧
ج٤: ٤٨ــ ٩١ــ ١٦٣ــ ٢٩٥ــ ٢٩٦ــ ٢٩٨
٢٩٩ــ ٣٠٠ــ ٣٠١ــ ٣٠٢ــ ٣٠٣ــ٣٠٤
٣٠٥ــ ٣٠٦ــ ٣٠٧ــ ٣٠٨ــ ٣٤٥
ج٧: ٣٣ ج٨: ٢٥٧

محمّد بن عليّ الحلبيّ
ج٣: ٢٢٨ ج٣: ٤

محمّد بن عليّ الهاشمى
ج٤: ٣٠٣

محمّد بن عمير بن واقد الرّازى
ج٤: ٣٠٧

محمّد بن عيسى
ج١: ١٠٨ ج٤: ٢٩٣

محمّد بن عيسى بن عبدالله
العلوى

ج٣: ٣٧٢

محمّد بن الفرج الرُّخّجى
ج٤: ٣٠٨ــ ٣١١ــ ٣١٢ــ ٣١٨

محمّد بن الفضل
ج٤: ٢٧٣ــ ٢٩١

محمّد بن القاسم بن الفضيل
ج٣: ١٨٤

محمّد بن قيس
ج٣: ٣٣

محمّد بن كرام
ج٧: ٩٨

محمّد بن كعب القرظى
ج٣: ٢٤٣ ج٣: ٦٩
ج٥: ٢٠١ ج٨: ٣٦٢

محمّد بن محمّد بن النعمان
(المفيد)
ج١: ٢٨٦ــ ٢٩٠ ج٣: ٩٩
ج٣: ١٥٣ــ ١٥٥
ج٤: ١٩٤ــ ٢٥٩ــ ٢٦٧ــ ٢٧٠ــ٢٧٥ــ٢٨١
٢٩٤ــ ٢٩٦ــ ٣٠١ــ ٣٠٤ــ٣١٢ــ٣٢٣
٣٣٥ــ ٣٤١ــ ٣٤٢ــ ٣٥١

محمّد بن محمّد الحافظ
ج٦: ٧٠

محمّد بن محمّد الحسن الطوسى
ج١: ١٤٥ــ ٢٥٧

محمّد بن مروان
ج٣: ١٣٧ــ ٢٧٦ ج٣: ٢٨٠

محمّد بن مسلم بن رباح الثقفى
ج١: ١٧٣ ـ ٣٠٤ ـ ٣١٣ ـ ٣١٦ ـ ٣٢٤ ـ ٣٣٨ـ ٣٤٢
ج٢: ١٤ـ ١٧ـ ١١٥ـ ١٤١ـ ١٥٦ـ ٢٨٩ ـ ٢٩٧ـ ٣٥٨ـ ٣٧١ـ ٣٩٤
ج٣: ١١٤ـ ٢٣٠ـ ٢٥٥ـ ٢٧٠ـ ٢٨١ـ ٤١٥ـ ٤١٩
ج٤: ٤٧ـ ٨٠ـ ٢٤٦
ج٦: ١١٣ ج٧: ٢٥ ج٨: ٢٨٩

محمّد بن مسلم بن تدرس (أبوالزبير)
ج٤: ٢٤٤

محمّد بن مسلم بن شهاب
انظر: «الزّهرى»

محمّد بن معاذ
ج٨: ١٧٦

محمّد بن مقاتل (القاضى)
ج١: ١٣٨

محمّد بن المنكدر
ج٢: ٣٩٩ ج٣: ١٤٢ـ ٤٤٥

محمّد بن ميمون
ج٤: ٣٠٦

محمّدبن النعمان (صاحب الطاق)
ج٤: ٢٧٠

محمّد بن هارون
ج٤: ٢٩٤

محمّد بن هشام
ج٤: ٢٢٠

محمّد بن واسع
ج٣: ٣٣٧ ج٥: ١٩٧ ج٨: ١٧١ـ١٩٥

محمّد بن الورّاق
ج٣: ٢٢٤

محمد بن الوليد
ج٣: ١٧

محمّد بن يحيى (العطّار)
ج٣: ٢٨٢ ج٤: ٣٢٢

محمّدبن يحيى بن خالدبن برمك
ج٦: ٧٧

محمّد بن يحيى الفارسى
ج٤: ٢٨٢

محمّد بن يعقوب الكلينى
ج١: ١٢٦ـ١٣٥ـ١٥٩ـ ١٧٢ـ ١٩٦ـ ٣٠١
ج٣: ٣١٠ ج٥: ٢٢٢
ج٨: ٤٢ـ ٣٤٦ـ ٣٧٨

محمّد بن يوسف الاصفهانى
ج٣: ٣٤١

محمّد بن يوسف الشّاشى
ج٤: ٣٥٠

محمود الورّاق
ج٥: ٣١٥

المحمودي (محمّد بن احمد بن حمّاد)
ج٤: ٣٣٢

المختار بن أبى عبيدة
ج٤: ٢٤١

مرازم بن حكيم
ج١: ٣٣٤ـ ٣٤٨ ج٤: ٢٦٢

المرزبانى الحارثى
ج٤: ٣٥٠

مروان بن ابى حفصة
ج٦: ٧٨

مريم بنت عمران (عليها السلام)
ج٤: ٢١٢ـ ٢١٣
ج٦: ١٠٣
ج٧: ٣٢٤ـ ٤١٤

المستعين (بالله احمد بن محمّد بن المعتصم)
ج٤: ٣٢٤ـ ٣٢٥ـ ٣٣٢

مسروق (ابوعائشة الأجدع)
ج٧: ٣٥٣

مسروق (ابن عبدالرّحيم)
ج٨: ٩٢

مسعدةبن صدقة
ج٣: ١١٢ ج٧: ٣٧٠

مسعر (ابن كدام)
ج٣: ٣٣٤

مسلم (ابن الحجّاج صاحب ـ الصحيح)
ج٥: ٧٤
ج٨: ٣٢٧ـ ٣٨٧ـ ٣٨٩

مسمع بن عبدالملك
ج٣: ٣٩٧

مصعب بن سعد
ج٨: ١٢٥

مصعب بن عمير
ج٨: ٥

المطرفى
ج٤: ٣٠٣

مطرف بن عبدالله بن الشخّير
ج٥: ٢٠٤ـ ٢٨٤ـ ٣٧٠
ج٦: ٢١٩
ج٧: ٢٣٦ـ ٣٠١ـ ٤٣٣

معاذبن جبل
ج١: ١٩ـ ٥١ ج٣: ١٣
ج٤: ٨ـ ١٢٢
ج٥: ١٩٣ـ ١٩٤ـ ٢٣٦ـ ٢٤٣ـ ٢٥٦
ج٦: ١٤٢ـ ١٤٤
ج٨: ١٢٦ـ ١٥٩

معاذة العدوية
ج٨: ١٧٨

معاويةبن ابى سفيان
ج١: ٢٤١ـ ٢٤٢
ج٣: ٢٥١ـ ٢٥٢ـ ٢٦٨
ج٤: ٢٠٢ـ ٢٢٣ـ ٢٢٦ـ ٣٢٧
ج٥: ٢٢١ـ ٢٢٢ـ ٢٧١ ج٦: ٦٣

معاويةبن عمّار
ج١: ٢٨
ج٢: ١١٣ـ ١٤٢ـ ١٤٧ـ ١٥٥ـ ١٦٦ـ ١٧٥ـ ١٨٤ـ ٢٩٧ـ ٣٧٦
ج٣: ٩٦ـ ٢٧٥ـ ٣٧٥ ج٤: ٨٣ـ ٨٥

معاويةبن وهب

ج۱: ٦٠ـ ١٥٧ـ ٣٣٩
ج۲: ٩٦ـ ٢٣٣ـ ٣٦٨ـ ٣٧٤ـ ٣٩٥ـ ٤٠٤
ج۳: ٢٥٠ـ ٤٠١
ج٤: ٨٣ ج۷: ٢٧

المُعتزّ
ج٤: ٣٢٣

المُعتصم
ج٤: ٣٠٢

المُعتضد
ج٤: ٣٤٦ـ ٣٤٧

مَعروف بن خَرّبوذ
ج۲: ٦٦

معروف الكرخى
ج۳: ٣٤٧ـ ٣٤٨ـ ٤٠٥ ج٥: ١٧٣
ج۷: ٢٦٨ ج۸: ١٢٧

معمر (ابن راشدالأزدى)
ج٦: ١٠٩

المعلّى بن خُنيس
ج۲: ١٧ ج۳: ٣٥٤ ج٤: ٢٥٨

معلّى بن محمّد
ج٤: ٣٠٣

معمربن أبىزياد
ج۳: ٣٩٦

معمربن خلّاد
ج۳: ٣٩٩ـ ٤٤٢
ج٤: ٢٨٨ـ ٢٨٩ـ ٣٠٥ ج٦: ١١٣

مَعَن‌بن راشدالصنعانى
ج۱: ١٦٤

مَعَن‌بن زائدة
ج٦: ٦٧

مغيث (زوج بريرة)
ج۳: ٣٧٨

المغيرةبن عمران
ج٤: ٢٥٠

المفضّل‌بن عمر
ج۱: ٢١٠ ج۳: ١٤١ـ ٢٧٥
ج۳: ٣٥٧ـ ٣٦٠ـ ٣٧٤ـ ٣٧٨
ج٤: ٢٦٤ـ ٢٧٩ـ ٣٣٥ـ ٣٣٦ـ ٣٧٤ـ٣٧٥ـ ٣٧٦
ج٥: ٢٥٥

المفيد
انظر: «محمّدبن محمّدبن‌النعمان»

مقاتل‌بن سليمان (المروزى)
ج۱: ٣٤ ج۸: ٣٢٠

مقاتل‌بن مقاتل
ج۳: ٦١

المقدادبن الأسود
ج۱: ٢٣٤ـ ٢٤٢ـ ٢٤٧
ج۳: ٢٢ـ ٤٢٦ ج٤: ١٤٧ـ٢١٤ ج٦: ٢٣٣

المقدام‌بن شريح
ج٦: ٦٠

مكحول (ابن عبدالله الشامى)
ج١: ١٣٤ ج٣: ٤١٣ ج٤: ٥٢

المنتصر
ج٤: ٣١٩

منصور بن المعتزّ (والصواب ابن المعتمر)
ج٥: ١٩٨

المنصور (الدّوانيقى) أبو جعفر
ج٤: ١١٣– ١١٥– ١١٦– ٢٤٩– ٢٥٦–٢٥٧
٢٥٨– ٢٦١– ٢٧٠

منصور بن عمّار
ج٧: ٢٦٧– ٢٦٨ ج٨: ١٩٠

منهال بن عمرو
ج٤: ٢٤١

مورّق (بن مشمرخ) العِجلى
ج٥: ٢٠٢

موسى بن بكر
ج١: ٣٢٩ ج٣: ١٧١

موسى بن جعفر أبو الحسن
(أبو ابراهيم) (العبد الصالح)
عليهما السلام
ج١: ٢٨– ٣٢– ٥٤– ١٠٧– ١٠٨– ١٩٧
٢٤٤– ٣٠٢– ٣١٠– ٣١٢– ٣١٣–٣١٧
٣١٩– ٣٢٠– ٣٢٦– ٣٣٤– ٣٤٦–٣٤٧
ج٢: ٢٠– ٢١– ٩٩– ١٢٤– ١٣٩ – ٢١٧
٢٧٤– ٢٨٤– ٣٠٧– ٣٩١
ج٣: ١٦– ١٨– ٢٧– ٣٣– ٣٧– ٤٣– ٩١
٩٥– ٩٦– ١١١– ١٢٢– ١٢٣– ١٢٤
١٢٥– ١٢٨– ١٤٧– ١٥١– ١٥٣–١٦١
١٧١– ١٧٤– ١٧٥– ١٩٣– ٢٣٢–٢٥٠
٢٥٨– ٢٥٩– ٢٧٥– ٢٧٧– ٢٧٩–٢٨١
٣١١– ٣٨٦– ٣٨٩– ٤٠١– ٤١٠–٤١٥
٤١٩– ٤٤١– ٤٤٣
ج٤: ٤٧– ٤٨– ٥٧– ٥٩– ٦٢– ٦٤– ٧٤
٨٣– ٩١– ٩٢– ١٠٣– ٢٠٨ – ٢٢٠
٢٥٢– ٢٦٦– ٢٦٧– ٢٦٨– ٢٧٠–٢٧١
٢٧٢– ٢٧٣– ٢٧٤– ٢٧٥– ٢٧٦–٢٧٧
٢٧٨– ٢٧٩– ٢٨٠– ٢٨١– ٣٤٥–٣٥٦
٣٦٧
ج٥: ٦٥– ٢٢٢– ٢٣٠– ٢٧٢– ٣١٠–٣٢١
٣٢٤– ٣٦٧
ج٧: ٣٢– ٣٣– ٥٩– ١٥٢– ٣٢١– ٣٨١
ج٨: ١٦٦– ٢٥٦

موسى بن عبدالملك
ج٣: ٢٧٦

موسى بن عمران كليم الله
عليه السلام
ج١: ٣١– ٣٣– ٩٢– ١١٣– ١١٤ – ١٤١
١٥٣– ١٩٩– ٢٢١– ٢٢٢– ٢٢٧–٢٣٠
٢٣٢– ٢٤٠– ٢٩٢– ٣٢٥– ٣٤٦–٣٧٢
ج٢: ١١٠– ١٨٦– ٢١٤– ٢٢٦– ٢٣٤–٢٦٩
٢٧١– ٢٨٩– ٢٩٣– ٢٩٨– ٣٠٢–٣٠٣
٣٠٦
ج٣: ٢١٥– ٢٥٧– ٢٨٨– ٣١٣– ٣٤٥–٣٨٠
٤٠٠– ٤٠٢– ٤١٠– ٤٣٥
ج٤: ٩– ٣٤– ٤٣– ٤٨– ٩٢– ١٨٥– ٢٠٥
٢٠٩– ٣٣٨
ج٥: ٥٨– ٥٩– ١٤٢– ١٥٣– ١٦٩– ١٧٧
٢٣٩– ٢٤٣– ٢٥٢– ٢٧٦– ٢٨٨–٢٩٣
٣١٩– ٣٢٦– ٣٢٧– ٣٣٢– ٣٥٨–٣٦١
ج٦: ٥– ٧– ٢٥– ٥١– ٦٣– ٨٠–٢٢٠

٢٢٣- ٢٢٤- ٢٣٢- ٢٣٣- ٢٤٣-٢٧٤
٢٨٢
ج٧: ٥٢- ٩٤- ٩٨- ١٢٥- ١٣٤ - ١٥١
٢١٧- ٢٩٠- ٣٠٥- ٣٢٠- ٣٢٢-٣٢٨
٣٣٢- ٣٣٦- ٣٥٤- ٣٩٢- ٣٩٦-٤٢٦
٤٣٢
ج٨: ٦- ٢٦- ٣٥- ٥٨- ٦٢- ٧١- ٧٢-٨٠
٨١- ٨٢- ٨٣- ٨٨- ٨٩- ١٤٧-٢٥٤
٣٨٥

موسى بن عمران (أحد الرُّواة)
ج٤: ٢٩١

موسى بن مِهران
ج٤: ٢٩١

الموفق (الخادم)
ج٤: ٣٠٤- ٣٠٥

الموفّق (العبّاسى)
ج٤: ٣٢٢

مهاجر (الصواب يحيى بن ابراهيم بن مهاجر)
ج٣: ٢٥٦

المهتدى
ج٤: ٣٢٧

مهجع بن سفيان بن علم ابن امّ غانم اليمانيّة
ج٤: ٣٢٩

المَهدىّ الحجّة (عليه السّلام) القائم (صاحب الزّمان)
ج١: ٣٢- ١٩٧- ٢٤٤- ٢٤٦
ج٣: ١٧- ٥٨- ١٥٩- ٣٤٩
ج٤: ٣٢١- ٣٣٤- ٣٣٥- ٣٤٠-
٣٤٣-٣٤٤-
٣٤٥- ٣٤٦- ٣٤٧

المهدىّ (العبّاسى)
ج٤: ٢٧٥

مهزم الاسدى
ج٤: ٣٥٣

المهلب (ابن ابى صفرة)
ج٦: ٢١٩

ميسّر بن عبدالعزيز
ج٢: ٢٨٣ ج٣: ١٨٤ ج٥: ٢٩٢

ميثم التّمار
ج٣: ٣٩٩ ج٤: ١٩٧

ميسر[ة] (متحّد مع من تقدّم ظ ـ)
ج٥: ٢٩٢

ميكائيل
ج٤: ١٨٦- ١٩٣- ٢١١- ٢٤٠- ٣٤٤
ج٦: ٧٨- ٨٠- ٨١
ج٧: ٨- ٢٦٥- ٣٠٥ ٣٠٦
ج٨: ٢٧٥- ٢٧٧- ٢٨٠- ٣٢٠- ٣٢١

ميمونة (زوجة النبىّ «ص»)
ج٥: ١٨١

ميمون بن مهران (الزّاهد)
ج٣: ٣١٩- ٣٢٢- ٤٤٥
ج٥: ٢٠٨ ج٨: ١٢٢- ١٦٥

(ن)

نافع بن أبى الحمراء
ج٤: ٢١١

النجاشى (ملك الحبشة)
ج٣: ٤٤ ج٤: ٨٠
ج٦: ٢٢٢

نجدة الحرورية
ج٨: ٢٦١

النخعى
انظر: «ابراهيم بن يزيد»

نجم الدّين الحلّى
ج٣: ٧٣

نجمة (امّ على بن موسى «ع»)
ج٤: ٢٨٨

نرجس (امّ الصاحب عليه السّلام)
ج٤: ٣٤٤ـ ٣٤٧

نسيم الخادم
ج٤: ٣٤٥ـ ٣٤٧

نشيط بن صالح
ج٣: ١٤٣

نصر الخادم
ج٤: ٥٧

نصير الخادم (أبوحمزة)
ج٤: ٣٢٦

نصير الدّين الطوسى (خواجه)
ج١: ١٤٥ـ ٢٥٧

النضر بن جابر
ج٤: ٣٣١

النعمان (ابن المنذر)
ج٣: ١٥٨

النعمان بن بشير
ج٣: ٢٨٢

النعمان بن سعد
ج٤: ٤٨

نعيمان الانصارى
ج٨: ٧٠

نمرود
ج١: ١٣٩ـ ٢٤٠

النوّاء التيمى بنت أعين بن صبيعة
ج٨: ٢٨٤

نواس بن سمعان الكلابى
ج٥: ٢٤٥

نوح (نجىّ الله عليه السّلام)
ج١: ٥٠ـ ١٩٤ـ ٢٢٦ـ ٢٢٧ـ ٢٣٠ـ ٢٤٠
٢٤٥ـ ٢٦٢
ج٣: ١٥٣ـ ١٥٨ـ ١٥٩
ج٤: ٩٢ـ ١٨١ـ ١٨٥ـ ١٩٢
ج٥: ٥٨ـ ٢٧٥ـ ٣٥٧
ج٦: ٢٥ـ ٢١٤ـ ٢٢٤ـ ٢٢٥ـ ٣٠٣

ج۷: ۲۰– ۵۲– ۲۱۰– ٤۰۰
ج۸: ۳۳۳– ۳۵۰

نوح‌بن درّاج
ج۱: ۱٤۵

(و)

الواثق (خليفةالعبّاسى)
ج٤: ۳۱۰

وابصة
ج۱: ۵۸

واثلة بن أسقع
ج۳: ۱۷۵ ج۸: ۲٦۵

الواسطى (محمّد بن موسى)
ج۵: ۹٤ ج۷: ۲٦۹

واصل‌بن عطاء
ج٦: ٦۵

الوصّافى (عبيداللّه‌بن الوليد)
ج۲: ۱۱۰– ۲۷۲

الوليدبن صبيح
ج۲: ۱۱۱
ج۳: ۲۵٤
ج٤: ۷۲

الوليد (بن عبدالملك)
ج۵: ۱۸۵

وليدبن المغيرة

ج٦: ۲۳۳

وهب‌بن منبّه
ج۱: ۳۵
ج۵: ٦۹– ۹۳– ۱٦۹– ۱۹۷– ۲۹٤– ۲۹۵ ۳۷۱
ج٦: ۷–۱٦۳– ۲۳۲
ج۸: ۱٦۹– ۱۹۰– ۱۹٦– ۲۵۹– ۲٦٦–۲٦۷

وُهَيب بن‌الوَرد
ج۲: ۲٤٤ ج٤: ۵
ج۵: ۷۱– ۱۱٦

(ه)

هابيل
ج۵: ۲۳۰

هارون (ع)
ج۱: ۵۲– ۳۲۵
ج٤: ۲۰۵ ج٦: ۷

هارون‌بن خارجة
ج۲: ۳۰۵ ج٤: ٤۷

هارون‌الرّشيد
ج٤: ۲۷۲– ۲۷۳– ۲۷٤– ۲۹۱

هارون‌بن عنترة
ج٤: ۱۹۱

هارون‌بن مسلم
ج۳: ۱۲۲ ج٤: ۳۲۸ ج۷: ۳۷۰

هاشم (ابن عبدمناف)

ج٤: ١٧٩

هامان
ج٤: ٣٣٥ ج٦: ٢٣٢

هبةاللّهبن أبى منصور الموصلى
ج٤: ٣١٥

هبيرة
ج٣: ٢٥١ ج٤: ١٩٣

هذيل‌بن حنان
ج٣: ٢٧٧

هرم‌بن حبّان
ج٤: ١٢ ج٦: ٢٤ـ ٢٥ـ ٢٦
ج٧: ٢٨٤ ج٨: ٧

هرثمةبن أعين
ج٤: ٢٨٧ـ ٢٨٨

هشام‌بن أحمر
ج٤: ٢٦٣ـ ٢٦٤

هشام‌بن‌الحكم
ج٢: ١٧ـ ١٤٣
ج٣: ٢٨٠ـ ٤١٥
ج٤: ٢٦٥ـ ٢٧٧

هشام‌بن سالم
ج٢: ٢٩٧ـ ٣٦٠ـ ٣٩١
ج٣: ٣٦٠ـ ٣٧٤
ج٤: ٣٧٠

هشام‌بن العاص
ج٦: ٨١

هشام‌بن عبدالملك
ج٣: ٢٦٥ـ ٢٦٦
ج٤: ٢٤٥ـ ٢٤٨ـ ٢٦٢

هشام‌بن عروة
ج٥: ٢١٠

هشام‌بن المثنّى
ج٢: ١٨٣

همّام
ج٤: ٣٥٨ـ ٣٦٢

هند بن أبى هالَة التميمى
ج٤: ١٥٨

هود (النبىّ «ع»)
ج١: ٢٤٠ ج٧: ٢٨٩

الهلالى
ج٦: ٦١

الهياج بن بسطام
ج٤: ٢٥٥

الهيثم
ج٤: ٣١٣

(ى)

ياسر (خادم‌الرّضا عليه‌السّلام)
ج٢: ٣١٧

يحيى‌بن أبى كثير
ج٢: ٢٢٤ ج٧: ٣٠٧

يحيى بن أكثم
ج٣: ٣١٤ ج٤: ٢٩٨

يحيى بن بسطام
ج٨: ١٧٦

يحيى بن خالد البرمكى
ج٤: ٢٩١ ج٦: ٢٢٧

يحيى بن زكريّا عليهما السلام
ج١: ٣٥٣ ج٣: ٢٣٦ـ ٣٩٠
ج٣: ٥٣ـ ٢٦٦ ج٤: ١٩٢ـ ٢٣٠
ج٥: ٦٠ـ ٧١ـ ١٠٣ـ ١٨٠ـ ٢٩١ـ ٣٠٤
ج٦: ٧٧ ج٧: ٣٠٨ـ ٣٦٣ـ ٣٦٤
ج٨: ٨٤ـ ١٦٧

يحيى بن سعيد الانصارى
ج٤: ٢٥٤

يحيى بن سعيد الاهوازى
ج١: ٣١٥

يحيى بن الغسّانى
ج٣: ٢٩٩

يحيى بن كثير
ج٣: ٢١٦ ج٦: ٢٥١

يحيى بن محمّد بن حباء الكاتب
ج٤: ٢٥٣

يحيى بن المرزبان النقيب
ج٤: ٣٣٢

يحيى بن معاذ (أبو زكريّا) الرّازى
ج١: ١٣١ـ ١٥١
ج٥: ٩٣ـ ٩٤ـ ١١٦ـ ١٥١ـ ١٦٨ـ ٣٦٩
٣٧٢
ج٦: ٤٣ـ ٧٧ـ ٢٢٧
ج٧: ٢٥٢ـ ٢٦٧ـ ٢٨٤ـ ٣٢٤ـ ٣٧٠
ج٨: ٧ـ ٣٧٦

يحيى بن هرثمة
ج٤: ٣١٤ـ ٣١٥

يحيى بن يحيى
ج٣: ٢١٦ ج٦: ٢٥١

يزيد (بن أبان) الرّقاشى
ج٧: ٣٠٧ ج٨: ٢٦٧

يزيد بن أبى حازم
ج٤: ٢٤٥

يزيد بن أبى حبيب
ج٥: ٢٠٥

يزيد بن سليط
ج٤: ٢٨١

يزيد بن سهل
ج٨: ٢٨٠

يزيد بن عبد اللّه
ج٤: ٣٥١

يزيد بن معاوية
ج٥: ٢٢٣

يعقوب (النبيّ عليه السّلام)
ج۲: ۱۷ـ ۲۸٦ ج۳: ٤۲٦
ج٤: ۸ـ ۱۷٥ ج٦: ۷۸ـ ۲۱۷
ج۷: ۹٥ـ ۲٥۳

يعقوب بن أخي معروف
ج۳: ۳٤۷

يعقوب بن يزيد
ج٤ ۲۷۸ـ ۲۷۹

يعقوب بن شعيب
ج۲: ۱٤۰ ج٤: ۸۳

يعقوب المكفوف
ج۸: ۱۲۷

اليمانى
ج٤: ۳٤۲

يوسف بن أسباط
ج۱: ۱٦۹ ج۲: ۲٤٦

يوسف بن عبيدة
ج٤: ۲۳۰

يوسف بن يعقوب (ع) الصديق
ج۱: ۳٦
ج۳: ٥٥ـ ۱۰٤ـ ۳٤۲ـ ۳٦۲ـ ۳۹۹ـ٤٤۳
ج٥: ۷ـ ۱۱٦ـ ۱۱۷ـ ۱٥٦ـ ۱۸٦ـ ۲۳۹
ج٦: ۷۸ـ ۱۲٦ـ ۲۱۷
ج۷: ۹٥ـ ۲۳٤ـ ۲٥۳ـ ۳٤٥ـ ۳٤٦ـ۳٤۸
۳۷٥
ج۸: ۸٤ـ ۹۲ـ ۱٥٦ـ ۲۷۲

يوسف بن يعقوب (النصرانى المستبصر)
ج٤: ۳۱٥ـ ۳۱٦

يوشع بن نون (ع)
ج۱: ۳٦ـ ۱٥۳ـ ۱۹۹ـ ۲۳۰
ج۳: ۲۷۰

يونس (ع)
ج۳: ۲۹ـ ۷۱
ج٤: ۳۷۰ ج۸: ۸۳ـ ۹۲

يونس بن ظبيان
ج۲: ۲۷۹

يونس (بن عبد الرّحمن)
ج۳: ۲۸۰

يونس بن عبيد
ج۳: ۱۸۳ـ ۱۸٤
ج٥: ۱۹۸ ج٦: ۱۰

يونس بن عمّار
ج۳: ۲٥۷

يونس بن يعقوب
ج۳: ۲۷۰

فهرس البقاء والامكنة والبلاد

«الف»

الابطح
ج۲: ۱۵۲– ۱٦۹

أبو قبيس
ج۲: ۱٤۷ ج٤: ۲٥۸

أُحُد
ج۲: ۳۹۳ ج۳: ٤۱۳ ج٤: ۱۹۳

الأُردن
ج۷: ۳۰۸

الاصفهان
ج٤: ۳۱۳– ۳۱٤

الأندلس
ج٤: ۱٦۸

اُمّ القرى
انظر «مكّه»

الاهواز
ج٤: ۳۲۹

«ب»

باب بنى شيبة
ج٦: ۲۷

باب جبرئيل
ج۲: ۱۸٥– ۱۸۷

باب الحنّاطين
ج۲: ۱۸۳

بابل
ج٤: ۲۰۰

بئر الحديبية
ج٤: ۱٦٥

البحر الاخضر المحيط
ج۸: ۲۲٥

بحر الاندلس
ج٤: ۱٦۸

بحيرة الاردن
ج۷: ۳۰۸

بربر
ج٤: ۲٥۲

البصرة
ج۱: ۲٤– ۸٦– ۲۰۱– ۲٤۱
ج۳: ۱۳٥– ۱٦۷– ۱۸۲– ۲٦٦
ج٦: ٦۷– ۷۷

بصرى
ج۱: ۱۹٤

بطحاء مكّة

ج٤: ٣٥٥

بغداد
ج١: ١٣٩ ج٣: ١٥٩
ج٤: ٣٠٢ ج٨: ١٠٠

البغيبغة
ج٣: ١١٢

البقيع الغَرْقد
ج٣: ١٨٧ ج٤: ٢٣٥
ج٨: ١٤٦- ٢٦٩

بلاد البربر
ج٤: ١٦٨

بلاد الترك
ج٤: ١٦٨- ٣٢٠

البيت العتيق (البيت الحرام)
انظر: «الكعبة»

البيت المعمور
ج٣: ٢٠٢

بيت المقدّس
ج٣: ١٥٧ ج٣: ٢٠٤
ج٤: ٤١- ٥٠ ج٧: ٣٠٨- ٣١١
ج٨: ١٧٤

البيداء
ج٤: ٣٤٢

«ت»

تبوك
ج٤: ٦٥- ١٦٥

تهامة
ج٧: ٣٥٥

«ث»

ثَنِيَّة كُدا
ج٣: ١٦٩

«ج»

جامع الكوفة
انظر: «مسجد الكوفة»

الجبل
ج٤: ٣٣٠

جبل ثبير
ج٣: ١٧٨

الجُحفة
ج٣: ٤٤٧

جرجان
ج٤: ٣٣٠- ٣٣١

الجزيرة
ج٤: ٣٤٣

جزيرة العرب
ج٤: ١٧٢

جلولاء
ج٤: ٣٤٣

جمع
انظر: «المزدلفة»

الجمرات الثلاث
انظر: «منى»

«ح»

حائر الحسين عليه السّلام و تربته
ج۱: ۳٦۱ ج٤: ۸۲

الحبشة
ج۳: ۳۹۲ ج٤: ۹ـ٦٦

الحجاز
ج۳:۲۲٤ ج٤: ۲۰٤ـ ۳۱٥

حِجر اسماعيل
ج٤: ۲۳۳

الحديبية
ج٤: ١٦٥

الحرم (مايقابل الحِلّ)
ج۳: ۳۲۱ ج٤: ۲۹۹

حرم النّبيّ (ص)
انظر: «مسجد النبيّ»

الحطيم
ج۳:۱٥۲ـ ۱۸۲ ج٤: ۳۳٥

حلوان
ج٤: ۳۳۰

حنين
ج۲: ۸۸ ج۳: ۳۷۲ ج٤: ۱٤٦
ج٥: ۲۲۸ ج٦: ۲۷۲

حوأب
ج٤: ۱۷۱

الحيرة
ج٤: ۳٤۳

«خ»

خانقين
ج٤: ۳٤۳

خراسان
ج۳: ۲٤ ج٤: ٤۸ـ ٤۹ـ ۸۷ـ ۲۸٤
۲۹۰ـ ۲۹۳ـ ۲۹٤ـ ۳۰٤ـ ۳۰٥ـ۳۰٦
۳۰۸ـ ۳٤۲ـ ۳٤۳ ج٦: ۱٤۷
ج۸: ۱۰۰

خمّ غدير
ج۱: ٥۲ـ ۲۳٥ ج۲: ۱۸٤

الخندق
ج٤: ۱۹۳

الخُوَرنَق
ج٤: ۱۹۱

الخيبر
ج۳: ۳۹۱ ج٤: ۱۹۳ ج۷: ۳۲۲

«د»

الدّجلة

ج ١: ٢٥٨ ج ٧: ٢٦٨

دار الندوة
ج ٤: ١١٣

ديار ربيعة
ج ٤: ٣١٥

«ذ»

ذو الحُلَيفة
ج ٣: ١٨٤

ذو خَشَب
ج ٤: ٨٠

«ر»

الرّبذة
ج ١: ٢٣٩

رُحْبَة الكوفة
ج ٤: ٢٣٠

الرّضْوى
ج ٤: ٢٣٨

ركن الحَجر
ج ٣: ١٥٤ـ ١٧١ـ ١٧٨

الرُّكن اليمانى
ج ٣: ١٥٤ـ ١٧٠ـ ١٧١

الرّملة
ج ٤: ٣٤٣

روضة خاخ
ج ٤: ١٤٧

الرّى
ج ١: ١٣٨ـ ١٣٩

«ز»

زمزم
ج ٣: ١٥٣ـ ١٧٠ـ ١٧٨
ج ٣: ١٥

«س»

سامرّاء «سرّمَن رَأى»
ج ٤: ٣٠٩ـ ٣١٧ـ ٣١٩ـ ٣٢٠ـ ٣٢١ـ ٣٢٤ـ ٣٣٠ـ ٣٤٦

سقيفة بنى ساعدة
ج ٨: ٢٨٠ـ ٢٨١

السند
ج ٤: ٢٩٢

السوس
ج ٣: ١٨٢

«ش»

الشام
ج ١: ٣١٩ ج ٣: ١٣٥ ج ٤: ١٢ـ ٤٢ـ ٦٨ـ ٢٠٢ـ ٢١٧ ـ ٢٤٢ـ ٣٠٢ـ ٣٤٢

الشطّ
ج ٤: ٣٥٠

شعب ابى طالب

ج٤: ٩

«ص»

صنعاء اليمن
ج١: ١٩٤ ج٤: ١٦٦ ج٨: ٣٥٢

الصفا
ج٣: ١٤٧ـ ١٤٨ـ ١٦١ـ ١٧١ـ ١٧٢ـ ١٧٣
١٩٧ـ ٢٠٣ـ ٢٠٨ ج٤: ٨٠
ج٦: ٢٢٨ ج٧: ٣٥٥

صفين
ج٤: ١٩٨ ج٥: ٣٢١

الصين
ج١: ١٩ـ ٢١ ج٤: ١١٥

«ط»

طرطوس
ج٦: ٨٢

طورسينا
ج٣: ٢٥٦

طوس
ج٤: ٩١ـ ١٧٠

«ع»

عبّادان
ج٨: ٩٢

عدن
ج١: ٢٥٣ ج٨: ٣٥٢

العراق
ج١: ٢٤١
ج٤: ٨٧ـ ٢٢٩ـ ٢٧٦ـ ٢٨٦ـ ٣٠٢ـ ٣٤٣
٣٥١ ج٧: ٢٥٨ـ ٣١٠

عرفات «عرفة»
ج٣: ١٤٧ـ ١٤٨ـ ١٦١ـ ١٧٣ـ ١٧٦ـ ١٧٨
١٨١ـ ١٩٧ـ ٢٠٤ـ ٢٠٧

عمّان البلغاء
ج١: ٢٥٣ ج٨: ٣٥٢

«غ»

الغرى
ج٤: ٨٧

«ف»

فخّ
ج٣: ١٦٨

فدك
ج١: ١٥٣ـ ٢٣٦

الفرات
ج٣: ١٥
ج٤: ٨٩ـ ٢٠٠ـ ٣٤٣

فلسطين
ج٨: ٢٧٠

«ق»

القادسيّة

ج٤: ٧٢ـ ٣٢٥

قبا
ج١: ٢٩٤

القزوين
ج١: ١٣٩

قم
ج٤: ٣٤٧

«ك»

كربلاء
ج٤: ٨٩ـ ١٧٠ـ ١٩٨ـ ٢٢٩

الكرخ
ج٤: ٣٤٣

الكعبة (بيت الله)
ج١: ١١٧ـ ٣٥٣
ج٢: ١٤٠ـ ١٤٦ـ ١٤٨ـ ١٤٩ـ ١٥٢ـ ١٥٣
١٥٤ـ ١٥٦ـ ١٦٣ـ ١٦٨ـ ١٦٩ـ ١٧١
١٧٢ـ ١٨٢ـ ١٨٣ـ ١٩٢ـ ١٩٧ـ ٢٠٢
٢٠٣ـ ٣١٨
ج٤: ٨٦ـ ٣٤٢ ج٦: ٢٨٤

كنعان
ج٨: ١٧٧

الكوفة (كوفان)
ج١: ٢٤١ ج٢: ١٥٧ـ١٥٨ـ١٥٩ـ٢٧٤
ج٣: ٢٣ـ ١٣٠ـ ١٨٥ـ ٢٥٥ـ ٣٦٨ـ ٤٤٧
ج٤: ٨٤ـ ٨٧ـ ١٩٦ ـ ٢٠١ـ ٢٠٥ـ ٢٢٨
٢٤١ـ ٢٥٠ـ ٢٦١ـ ٢٦٣ـ ٢٩٢ـ ٢٩٣

٣٠١ـ ٣٠٢ـ ٣٤٢ـ ٣٤٣ـ ٣٤٤ـ ٣٥١
٣٥٧ ج٧: ٤٢١

«ل»

لبنان
ج٨: ٥٩

«م»

المأزمين
ج٢: ١٧٨

مدين (ماءمدين)
ج٧: ٢٨٩ـ ٣٥٤

المدينة المشرّفة
ج١: ٢٣ـ ١٤٠ـ ٣٤٦ـ ٣٥٦
ج٢: ٤٥ـ ١٠٩ـ ١٤٦ـ ١٥٤ـ ١٥٦ـ ١٥٧
١٨٣ـ ١٨٤ـ ١٨٥ـ ١٨٦ـ ١٨٨ـ ٢٠٥
٢٣٠ـ ٣٠٠
ج٣: ٣٥ ـ ٤٣ـ ٩٥ـ ١٠٢ ـ ١٢١ ـ ١٢٩
١٣٣ـ ١٤٢ـ ١٦٧ـ ١٧٠ـ ٢٢٦ـ ٢٣٧
٢٥٥ـ ٢٦٧ـ ٢٧٠ـ ٢٩٤ـ ٣٦١ـ ٣٧٦
ج٤: ٩ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٦٠ ـ ٨٠ـ ٨١ـ ٨٢
٢٠٨ـ ٢١٧ـ ٢٣٣ـ ٢٣٩ـ ٢٤٢ـ ٢٤٦
٢٤٧ـ ٢٨٠ـ ٢٩٤ـ ٢٩٧ـ ٣٠٢ـ ٣٠٨
٣١٠ـ ٣١٤ـ ٣١٥ـ ٣١٩ـ ٣٣٦
ج٥: ٢٣٦ ج٨: ٢٧٦ـ ٣٥٢

مرو
ج٤: ٢٩٠ـ ٢٩١

المروة
ج٢: ١٤٧ـ ١٤٨ـ ١٦١ـ ١٧٢ـ ١٧٣ـ ١٩٧
٢٠٣ ج٤: ٨٠ ج٦: ٢٢٨

المزدلفة (وادى جمع)
ج٢: ١٧٧- ١٧٩- ٢٠٧

مسجد الأقصى (بيت المقدس)
ج١: ٢٢٩- ٣٥٦ ج٤: ٥٠

مسجد الاحزاب
ج٢: ١٨٨

مسجد براثا
ج٢: ١٥٩

مسجد البصرة
ج١: ٨٦

مسجد الحرام (الحرم)
ج١: ٢٢٩- ٣٥٦
ج٢: ١٥٦- ١٧٠- ١٧٧- ١٧٨- ١٨٢- ١٩٠
٢٠٢- ٢٠٨ ج٦: ٢٧

مسجد الحصباء
ج٢: ١٨٢

مسجد الخيف
ج١: ١٩٣ ج٢: ١٧٣- ١٧٧

مسجد السهلة
ج٢: ١٥٩

مسجد الشجرة
ج٢: ١٦٨

مسجد الغدير
ج٢: ١٨٤

مسجد الفتح
انظر: «مسجد الاحزاب»

مسجد الفضيخ
ج٢: ١٨٨

مسجد قبا
ج١: ١٣٤ ج٢: ١٨٨ ج٦: ٢٢٣

مسجد الكوفة
ج١: ٣٥٦ ج٢: ١٥٧-١٥٨-١٥٩-٣٥٥
ج٤: ٥١- ٨٢- ٣٠٢- ٣٤٢

مسجد النبيّ (ص)
ج١: ٣٥٦
ج٢: ١٥٦- ١٥٨- ١٨٤- ١٨٧- ٢٣٠
ج٤: ٥٠- ٢٩١- ٣٠٢

مشربة امّ ابراهيم
ج٢: ١٨٨

المشعر الحرام
ج٢: ١٧٦- ١٧٧- ١٧٨- ١٧٩-٢٠٤-٣٢١

مصر
ج١: ٣١٩ ج٣: ١٦٧
ج٤: ٤٢- ٣١١- ٣٤٢- ٣٤٣ ج٦: ٧٠

المعرّس (معرّس النبيّ)
ج٢: ١٨٤

مقام ابراهيم
ج٢:١٧٠- ١٧١- ١٧٨ ج٤: ٣٤٢

مقام جبرئيل
ج٢: ١٨٦

مقام النبيّ (ص)
ج٢: ١٧٦

مكّة
ج١: ١٥٣ـ ١٦٤ـ ٣٥٦
ج٢: ٤٤ـ ١٠٩ـ ١٤٦ـ ١٤٨ـ ١٥٢ـ ١٥٣
١٥٥ـ ١٥٦ـ ١٥٧ـ ١٦٠ـ ١٦٢ـ ١٦٦
١٦٨ـ ١٦٩ـ ١٧٩ـ ١٨١ـ ١٨٢ـ ١٨٣
١٨٤ـ ١٩٠ـ ١٩٢ـ ٢٠١ـ ٣٠٨
ج٣: ٢٥٦ـ ٢٦٥ـ ٢٦٧ـ ٢٩٤ـ ٤٢٨
ج٤: ٤١ ـ ٦٠ ـ ٨٢ ـ ١١٣ـ ١٣٠ـ ١٤٧
١٦٤ـ ٢٢٣ـ ٢٢٩ـ ٢٣٩ـ ٢٤٦ـ ٢٤٧
٢٥٣ـ ٢٦٢ـ ٢٦٣ـ ٢٧٦ـ ٢٧٨ـ ٢٧٩
٢٩٠ـ ٢٩٩ـ ٣٠٢ـ ٣٠٤ـ ٣٠٦ـ ٣٠٧
٣٤٣ـ ٣٤٤ـ ٣٤٩
ج٥: ٢٣٥
ج٦: ٧٠ـ ١٤٧ـ ٢٢٨ـ ٣٣٥
ج٧: ٣٣٤ـ ٤٢١

الملترم
ج٣: ٢٠٣
ج٤: ١١٣

منى
ج٣: ١٧٣ـ ١٧٧ـ ١٧٨ـ ١٧٩ـ ١٨٠ـ ١٨١
١٩٢ـ ١٩٥ـ ٢٠٧ ج٤: ٢٩٩

«ن»

النباج
ج٤: ٢٩٣

نجران
ج٥: ٣٧١

النجف
ج٤: ٣٤٤

النمرة
ج٣: ١٧٤

النهروان
ج٤: ١٩٥

«و»

وادى جمع
انظر: «المزدلفة»

وادى مُحَسِّر
ج٣: ١٧٤ـ ١٧٧ـ ١٧٩

«ى»

اليمن
ج١: ١٦٥
ج٣: ٣٢٧ـ ٣٩٢ـ ٤٣٧ـ ٤٤٧
ج٤: ٤٢ـ ٨٦ـ ٣٤٢ ج٦: ٢٤
ج٧: ٣٧٥ ج٨: ١٧٧

ينبُع
ج٤: ٣٦٧

القبائل والمِلل والبيوتات والفِرَق

«الف»

آل الزبير
ج٤: ٢٣٧

الاشعريّون
ج٥: ١٢٩

أصحاب الكهف
ج٤: ٩

الاكراد
ج٤: ٢٨٦

«ب»

البرامكة
ج٤: ٢٩١

بنو أسد
ج٣: ٢٢١

بنو اسرائيل
ج١: ٣٢٥ ج٥: ١٨٨- ٣٠٦
ج٦: ٢٣٩- ٢٦٤
ج٨: ٨١- ٨٢- ٨٨

بنو اميّة
ج٤: ٢٠٢- ٣٢٣- ٣٤٢- ٣٤٣
ج٥: ٢٢٦

بنو حنيفة
ج١: ٢٣٤

بنو سلمة
ج٦: ٧٣

بنو سليم
ج٦: ١٠٢

بنو عامر
ج٥: ٢٠٤

بنو العبّاس
ج٣: ٢٣٣- ٢٥١- ٢٥٤
ج٤: ٢٢٨ ج٥: ٢٢٦

بنو عبد المطّلب
ج٤: ٢٤٠

بنو عمّار
ج٤: ٢٧٧

بنو كعب
ج٥: ٢٣٥

بنو مدلج
ج٣: ٤٢٨

بنو هاشم
ج٣: ٦٧
ج٤: ٢٢٤- ٢٩٤- ٣٢٣

بنو يعقوب
ج٥: ٣٢٩

«ت»

تاريس
ج٧: ٢٦٣

تاويل
ج٧: ٢٦٣

الترك
ج٤: ٣٢٦

تيم
ج٤: ٣٦٧

«ث»

ثمود
ج٣: ٢٤٠ ج٤: ١٩٧
ج٧: ١٩٠ـ ٢٨٩ ج٨: ٧٥

«ح»

الحرورية
ج٤: ٢٤٧

الحشوية
ج٤: ٣١٤

«خ»

خثعم
ج٤: ١٠٤

الخزر
ج٤: ٣١٩

الخوارج
ج٤: ١٩٧

«ر»

الرّوافض
ج٤: ٢٧٤ـ ٣١٥

الرّوم
ج٤: ٣٢٦ـ ٣٤٣

«الزاى»

الزّيدية
ج٤: ٢٤٧ـ ٢٧٠ـ ٢٧١

«ش»

الشيعة
ج١: ٧٤ـ ١٦٣ـ ١٨٠ـ ٣٣٥
ج٢: ٧٣ـ ٩٣ـ ٢٦٨
ج٤: ٤٧ـ ٣٠٩ـ ٣٣٥ـ ٣٥٥

الشراة
ج٤: ٣١٤

«ص»

الصقالبة (صقلابة)
ج٤: ٣٢٦

«ع»

عاد
ج٣: ٢٤٠ ج٧: ٢٨٩
ج٨: ٧٥ـ ٨٥

عبس

ج٤: ٢٠١

العباسيّون
ج٤: ٣٢٨

العجم
ج٣: ١٧٥ـ ١٧٨ ج٤: ٢٣٦ـ ٣٤٣

العرب
ج٣: ١٧٥ـ ١٧٨ ج٤: ٢٩٢ـ ٣٤٣

عدى
ج٤: ٣٦٧

العمالقة
ج٣: ١٥٩

«ف»

فارس
ج٤: ٢٣٦

«ق»

القاسطين
ج٤: ١٧٠

القدريّة
ج٤: ٢٤٧ـ ٢٧٠

القرامطة
ج٤: ٣٤٩

قريش
ج٣: ١٨ـ ١٤٢ـ ١٧٠ـ ٤٠١
ج٤: ١٥٢ـ ١٦٤ـ ١٦٦ـ ١٦٨ـ ١٧٨
ج٥: ٢٢٢ـ٢٢٩ـ٣٦٣ ج٦: ٢٨٤

قيس
ج٤: ١٦٦ـ ٢٢٨ـ ٣٤٣

«ك»

كندة
ج٤: ٣٤٣

«م»

مأجوج
ج٧: ٢٦٣ ج٨: ٣٤٠

المارقين
ج٤: ١٧١

المجوس
ج٣: ٢٣

المرجئة
ج٤: ٢٧٠ـ ٢٧١

المعتزلة
ج٤: ٢٧٠ـ ٢٧١ ج٥: ١٢٩

المفوّضة
ج٤: ٣٤٦

منسك
ج٧: ٢٦٣

«ن»

الناكثين
ج٤: ١٧٠

النصارى

ج٤: ١٦٧– ٢٠٥ ج٦: ٣٤٤

«هـ»

همدان
ج٣: ١٣٠

هوازن
ج٥: ٢٣٩

«ى»

يأجوج
ج٧: ٢٦٣ ج٨: ٣٤٠

اليهود
ج٣: ٢٢٦ ج٤: ١٦٥

الكتب المنقولة عنها المذكورة في تضاعيف الكتاب

«الف»

الاحتجاج للطبرسى
ج١: ٨٧– ٢٠١– ٢٤١– ٢٦٢
ج٥: ٧٧

الارشاد للمفيد
ج٤: ٢٥٦– ٢٥٨– ٢٩٣– ٣١٠– ٣٢٣–٣٤٩

الاستبصار للطوسى
ج٣: ٢٧٧

اعتقادات الصدوق
ج١: ٨٩– ٢٦٠ ج٨: ٢٥٤

إعلام الوَرىٰ للطبرسى
ج٤: ٣٠٨– ٣١٩– ٣٣٣

إقبال الأعمال (لابن طاووس)
ج٣: ٣١٩

الاقتصادفى‌الاعتقاد (لابى‌حامد)
ج١: ٢٦٥

اِلْتِهابُ نيران الاحزان
ج١: ٢٣٦

الانجيل
ج١: ٣٤– ٣٦– ١٣٤– ٢٤٤
ج٢: ٢١٤– ٣٧٦ ج٤: ١٣٠–٢٠٣–٢٠٤
ج٥: ٣٢٢ ج٧: ١٢٥– ١٣٨ ج٨: ٧٨

«ب»

بصائر الدّرجات للصفّار
ج١: ٢٠٠– ٢٠٢
ج٤: ١٦٣ ج٥: ٤٥

«ت»

التوحيد للصدوق
ج٤: ٢٠٣

تفسير الامام عليه‌السلام المنسوب إليه
ج١: ٢٩– ٢١١
ج٢: ٩٩ ج٣: ٤٠٣

تفسير الواحدى (كأنّ المراد أسباب النزول)
ج٤: ١٩١

تلبيس ابليس لابن الجوزى
ج٥: ٥٤

التوراة
ج١: ٣٣– ٣٦–: ١٩٧– ٢٢١– ٢٤٤– ٣٥٦ ٣٩٦
ج٢: ٢١٤– ٢١٩– ٢٦٤– ٢٦٩– ٢٩٩–٣٠٢ ٣٧٦
ج٣: ٣٥– ٣٢٧– ٤٠٠– ٤٠٢
ج٤: ٥– ٥٠– ١٣٠– ٢٠٣– ٢٠٤
ج٥: ١٤٨– ١٥١– ٢٨٠– ٢٩٣

ج۷: ۱۳۷ـ ۳۹۲ـ ٤۰۸
ج۸: ۳۷٦

توحيد المفضّل
ج۱: ۲۱۰

تفسير على بن ابراهيم
ج۲: ۲٦۱

التهذيب للطوسى
ج۱: ۳۰٤ـ ۳٤۱ـ ۳٥۲
ج۲: ۹ـ ۱٤ـ ۲۳ـ ۲۷ـ ۳٤ـ ۳٥ـ ۱۹۲
۲۷۹ـ ۳٤۸ـ ۳٤۹ـ ۳٦٦ـ ۳۷۳ـ٤۰۲
٤۰٤
ج۳: ۱٥٥ـ ۲۱۷ـ ۲٤۹ـ ۲۷۰ـ ۲۷٥ـ۲۷۹
۳۹۱
ج٤: ٦۷ـ ۱۰٥ـ ۱۱۰
ج٥: ۲۲۲ـ ۲۲٥ـ ۲۳۰

«ث»

ثواب الاعمال للصدوق
ج٤: ۷٤

«ج»

جامع سفيان الثورى
ج۱: ۱٦٥

«خ»

الخرايج و الجرايح للرّاوندى
ج٥: ٤٥

الخصال للصدوق
ج۱: ۱۲۹

«د»

الدّلائل للحميرى
ج٤: ۲۳۷ـ ۲٤٥ـ ۲۷٥ـ ۳۰٤ـ ۳۱۲ـ۳۲۸

«ذ»

الذّكرى للشهيد
ج۲: ۱۳

«ر»

الرّسالة القدسيّة (لابى حامد)
ج۱: ۲٦٥

«ز»

الزّبور
ج۱: ۳۳ـ ۲٤٤
ج۲: ۲۱٤ـ ۳۷٦
ج۳: ۲۳٥ ج٤: ۲۰٤ـ ۳۳٥
ج۷: ۱۳۸ـ ۳۰٦
ج٦: ۳۱۱
ج۸: ۲٤

«س»

سرّ العالمين (وكشف الدّارين)
ج۱: ۲۳٥

«ش»

شرح شهاب الأخبار
ج٥: ۲۷۲

شرح النهج لابن أبى الحديد

ج۱: ۲۴۲

شرح النهج لابن ميثم
ج۳: ۱۹۳

«ص»

صحيح البخارى
ج۳: ٦٥ ج٥: ٧٤ ج۸: ۳۲۷ـ۳۷۲ـ۳۸۷

صحيح مسلم
ج۳: ٦٧ ج٥: ٧٤
ج۸: ۳۲۷ ـ ۳۸۷ ـ ۳۸۹

الصحيحين
ج۳: ۱۱۸

الصحيفة السّجادية
ج۳: ٤٥ـ ۱۷٦ـ ۲۲۹ـ ۳۱۹ـ ۳۷۹

«ع»

عدَّة الدّاعى لابن فهد
ج۳: ۱٦ـ ۹۱ـ ۱۰۷ـ ۲۲۰ـ ۲۸٥ ـ ۲۸۹
۲۹۰ ـ ۲۹٥ـ ۲۹٦ـ ۳۰۲ـ ۳۰۹ـ۳۱۸
۳۲۸

عرض المجالس للصدوق
ج۷: ۳۰۸

علل الشرايع للصدوق
ج۳: ۱٤۳ـ ج٤: ۳۷٤

علم اليقين للمؤلف (ره)
ج۱: ۱۹۸ـ ۲۱۹ـ ۲۳٦ـ ۲٦٦

عين اليقين له (ره)
ج۱: ۱۷۱

عيون أخبار الرّضا للصدوق
ج٤: ۲۸۳ـ ۲۸۸ ج٥: ۲۲۹

«ف»

الفردوس
ج٤: ۲۱۰

«ق»

القرآن
مبثوث فى الكتاب

قواعد الشهيد
ج۳: ۳۹۲

«ك»

الكافى لابى جعفر الكلينى
ج۱: ٧٤ـ ۱٤۳ـ ۱٤٧ـ ۱٥٦ـ ۱۷۳ـ ۱۸۰
۱۹٤ـ ۲۱۲ـ ۲۱٦ـ ۲٦۲ـ ۳۰۹ـ۳۱۲
۳۱٤ـ ۳۱٥ـ ۳۱۷ـ ۳۲۱ـ ۳۲۲ـ۳۲۳
۳۲٥ـ ۳۲٦ـ ۳۲۸ـ ۳۲۹ـ ۳۳٤ـ ۲۳۷
۳٤٥ـ ۳٤٦ـ ۳٤۷ـ ۳٥٤
ج۳: ۸ـ ۲۳ـ ۲٤ـ ۲٥ـ ۲٦ـ ۲٧ـ ۳٤ـ۳۸
۳۹ـ ٥۹ـ ٦۰ـ ٦۲ـ ٦۳ـ ۷۸ـ ۸٦
۱۰۲ـ ۱۰۷ـ ۱۱٥ـ ۱۱۹ـ ۱۳۳ـ ۱۹٥
۲۱۱ـ ۲۱٥ـ ۲۱۷ـ ۲۱۹ـ ۲۲۱ـ۲۲۲
۲۲۳ ـ ۲۲٤ ـ ۲۲٦ ـ ۲۳۱ ـ ۲۳۲
۲٦۲ـ ۲٦۳ـ ۲٦۸ـ ۲۷۱ـ ۲۷۲ـ۲۷٤
۲۸۳ـ ۲۸۷ـ ۲۸۹ـ ۲۹٤ـ ۲۹٥ـ۲۹٦
۳۱۲ـ ۳۱۸ـ ۳۱۹ـ ۳٥٥ـ ۳٥٦ـ ۳٦٦
۳٦۸ـ ۳٦۹ـ ۳۷۰ـ ۳۷۱ـ ۳۷٤ـ۳۸۳

٣٨٤ـ ٣٩٤ـ ٣٩٦
ج٣: ٥ـ ٨ـ ٩ـ ١٠ـ ١١ـ ١٣ـ ١٥ـ ٢٠
٢٢ـ ٢٣ـ ٢٧ـ ٢٨ـ ٢٩ـ ٣١ـ ٣٣
٣٥ـ ٣٦ـ ٣٨ـ ٤١ـ ٤٢ـ ٤٥ـ ٤٦
٤٧ـ ٥٠ـ ٥٤ـ ٧٧ـ ٨٢ـ ٨٦ـ ٩١
٩٥ـ ١٠٠ـ ١٠٢ـ ١٠٣ـ ١٠٥ـ ١٠٨
١٠٩ـ ١١٠ـ ١١٢ـ ١١٤ـ ١١٩ـ ١٢٠
١٢١ـ ١٢٣ـ ١٢٤ـ ١٢٧ـ ١٢٨ـ ١٣٠
١٣٢ـ ١٤١ـ ١٥٥ـ ١٦٧ـ ١٦٩ـ ١٧١
١٧٣ـ ١٧٥ـ ١٧٦ـ ١٧٩ـ ١٨١ـ ١٨٩
١٩٣ـ ١٩٦ـ ١٩٨ـ ٢٠٦ـ ٢٠٩ـ ٢١٧
٢٢٢ـ ٢٢٣ـ ٢٢٨ـ ٢٣٠ـ ٢٣٥ـ ٢٤٤
٢٥٣ـ ٢٧١ـ ٢٧٣ـ ٢٧٥ـ ٢٧٧ـ ٢٨٩
٣٠٧ـ ٣١٠ـ ٣١٢ـ ٣١٣ـ ٣١٤ـ ٣١٥
٣١٧ـ ٣٤٠ـ ٣٥٤ـ ٣٥٧ـ ٣٥٩ـ ٣٦٠
٣٦١ـ ٣٦٢ـ ٣٦٤ـ ٣٦٥ـ ٣٦٧ـ ٣٦٩
٣٧٠ ـ ٣٧٤ ـ ٣٧٧ ـ ٣٧٨ ـ ٣٨٤
٣٨٧ـ ٣٩٣ـ ٣٩٥ـ ٣٩٨ـ ٤٠٥ـ ٤١٠
٤١١ـ ٤١٦ـ ٤٢٥ـ ٤٣٠ـ ٤٣٨ـ ٤٤٧
٤٤٨
ج٤: ٧٧ـ ١٠٢ـ ١٧٤ـ ١٨٧ـ ٢١٩ـ ٣٥٢
٣٥٨ـ ٣٦٦ـ ٣٦٨ـ ٣٧٠ـ ٣٧٤
ج٥: ٤٥ـ ٦٤ـ ٧٤ـ ١٥٠ـ ١٦٧ ـ ٢١٨
٢٢٢ـ ٢٢٥ـ ٢٢٦ـ ٢٩٢ـ ٣٠٩ـ ٣١٤
٣٢٠ـ ٣٢٣ـ ٣٢٧ـ ٣٦٢
ج٦: ٥ـ ١١٢ـ ١٤٤ـ ١٦٥ـ ١٩٤ـ ٢١٦
٢٢٢ـ ٢٦٩ـ ٢٧٣ـ ٢٧٧
ج٧: ٨ـ ١٨ـ ٢٥ـ ٣٠ـ ٣٢ـ ٥٦ـ ٥٨ـ ٥٩
٦١ـ ٩٦ـ ١٠٨ـ ١٢٦ـ ١٢٨ـ ١٤٣
١٤٩ـ ١٥٢ـ ٢٣٩ـ ٢٥١ـ ٢٥٥ـ ٢٨١
٣١٠ـ ٣٢٠ـ ٣٢٣ـ ٣٣٠ـ ٣٣٨ـ ٣٤٠
٣٥٦ـ ٣٦٢ـ ٣٧٠
ج٨: ١٠٥ـ ١٢٨ـ ١٣٨ـ ١٤٠ـ ١٦٦ـ ٢٤١
٢٩٩ـ ٣٠٠ـ ٣٠١ـ ٣٠٣ـ ٣٠٩ـ ٣١١
٣٢٣ـ ٣٧٨

كتاب الآل لابن خالويه
ج٤: ٢٢١ـ ٢٢٢

كتاب ابن جريج فى الآثار
ج١: ١٦٤

كتاب علىّ عليه السّلام
ج٣: ٤٢٦

كتاب علىّ بن هِلال
ج١: ١٠٨

كتاب القائم لابن شاذان
ج٤: ٢٠٤

كتاب معمر بن راشد
ج١: ١٦٤

كتاب من لايحضره الفقيه
ج١: ٧٦ـ ٢٩٤ـ ٢٩٥ـ ٣١٠ـ ٣١٢ـ ٣١٣
٣١٥ـ ٣١٩ـ ٣٢١ـ ٣٢٢ـ ٣٢٣ـ ٣٢٥
٣٢٧ـ ٣٣٣ـ ٣٣٤ـ ٣٣٥ـ ٣٧٧ـ ٣٣٩
٣٤٠ـ ٣٤١ـ ٣٤٢ـ ٣٤٤ـ ٣٤٥ـ ٣٤٦
٣٤٨ـ ٣٥٥ـ ٣٥٧ـ ٣٩٠ـ ٣٩١
ج٣: ٣ـ ٥ـ ٩ـ ١٣ـ ١٥ـ ١٦ـ ١٧ـ ٢٠
٢١ـ ٢٣ـ ٢٥ـ ٢٦ـ ٢٨ـ ٣٤ـ ٣٩
٤٥ـ ٤٨ـ ٥٥ـ ٥٦ـ ٥٨ـ ٦٥ـ ٦٨
٧٣ـ ٨٠ـ ٨٤ـ ٨٨ـ ٩١ـ ١٠٧ـ ١٠٩
١١٣ـ ١٢٢ـ ١٣٥ـ ١٣٧ـ ١٣٩ـ ١٤٢
١٤٣ـ ١٤٦ـ ١٤٨ـ ١٤٩ـ ١٥٥ـ ١٥٦
١٥٧ـ ١٧٤ـ ١٧٦ـ ١٧٨ـ ١٨٠ـ ١٨١
١٨٣ـ ١٨٤ـ ١٨٥ـ ١٨٧ـ ١٩١ـ ١٩٣
٢٣٣ـ ٢٨٧ـ ٣٥٦ـ ٣٥٨ـ ٣٦٣ـ ٣٦٥
٣٦٧ـ ٣٨٠ـ ٣٨١ـ ٣٨٣ـ ٣٩٠

ج۳: ٥- ٦- ٣٦- ١٢٠- ١٢١- ١٤٦-١٤٨
١٥٥- ٢١٧- ٣٦٥- ٤٠٣- ٤١٤- ٤١٦
٤١٨- ٤٤٧- ٤٤٨
ج٤: ٥٥- ٥٧- ٥٩- ٦١- ٦٢- ٦٤- ٦٥
٦٧- ٦٨- ٦٩- ٧٠- ٧٣- ٧٤- ٧٦
٧٩- ٨٧- ٨٩- ٩١- ٢٠٩
ج٥: ٢٢٦ ج٨: ٢٦٢- ٢٨٩- ٢٩١

كتاب ـ لم بسمّه ـ لمؤيّدالدّين
العلقمى
ج٤: ٢٥٣

كشف الغمّة للاربلى
ج١: ٢٠٢-٢٠٣ ج٣: ٤٤٨
ج٤: ١٨٩- ١٩٢- ٢٠٣- ٢٠٦- ٢٠٧-٢١٠
٢٢١- ٢٢٣- ٢٢٦- ٢٢٩- ٢٣٤-٢٣٧
٢٤٥- ٢٥٧
ج٥: ٤٥

كمال الدّين و تمام النعمة
للصدوق
ج١: ١٩٧ ج٦: ١٧

«م»

المبسوط (للشيخ الطوسى)
ج٣: ٩٢

المحاسن للبرقى
ج٣: ٢٣- ٣٩٣

المحبّر الكبير للبغدادى
ج٤: ٢٠٦

المسند للامام احمد بن حنبل
ج١: ٦٠ ج٤: ١٩٣- ١٩٤

مصباح الشريعة
ج١: ٦٨- ١٣٥- ١٤٧- ٢٢٦- ٣٧٩-٣٨٥
٣٩١
ج٢: ٢٠٧ ج٣: ٥- ٩- ١٩٨- ٢١٧
٣١٦- ٣٤٦- ٣٤٨
ج٤: ٤- ١٠٩ ج٥: ١٥١- ١٩٦- ٢٥٧
٢٦٤- ٣٢٨
ج٦: ٢٢٥- ٢٧٥- ٣٥٦
ج٧: ٢٨٣- ٣٦٣
ج٨: ٧- ٦٢- ١٤٧- ١٦٦- ١٧٠- ٢٤٢

معانى الاخبار للصدوق
ج٤: ٢٠٤

(المصابيح الثلاثة ـ:المتهجّد ،
وما للكفعمى ولابن الباقى)
ج٣: ٣١٩

معتصم الشيعة فى احكام الشريعة
ج١: ٢٨٩ ج٣: ١٨- ٣٧

مكارم الاخلاق للطبرسى
ج٤: ٦١- ٦٣- ٦٥- ٦٧- ٧٢- ٧٦- ١٥٨
١٦٢

المناقب لابن شهرآشوب
ج٤: ١٩٥

المناقب لابن طلحة
ج٤: ٢٣١- ٢٤٢

المناقب للخوارزمى
ج٤: ١٨٩- ١٩٢- ٢٠٥- ٢٠٦

منهاج النجاة
ج١: ٢٦٥

الموطّأ للامام مالك
ج١: ١٦٥

مهج الدّعوات
ج٣: ٣١٩

«ن»

نوادر الحكمة
ج٤: ٣٠٨

النهايه للطوسى
ج١: ٣٣٥

نهج البلاغة للسيّد الرّضى
ج١: ١٤١ـ ٢١٠ـ ٢٤٢
ج٢: ٢١٤ ج٣: ١٩٣
ج٤: ١٧٢
ج٥: ٣٦٢ ج٧: ٣٥٠

«ى»

اليواقيت لابى عمر الزّاهد
ج٤: ١٩١



Princeton University Library
32101 048393837